

# مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives

A surreal illustration of a human head in profile, facing left. The head is composed of a stack of books at the base, with the pages of the books forming the neck and jawline. The top of the head is covered in a complex, branching network of blue and red lines, resembling a neural or vascular system. The brain area is depicted with a textured, yellowish-brown surface, similar to a real brain. The background is dark blue with a shower of orange and red sparks or particles emanating from the head, suggesting a process of creation or destruction. The overall style is highly detailed and artistic, with a focus on the connection between knowledge (books) and thought (brain).

الإيداع القانوني	الترقيم الدولي	رقم الصحافة	البريد الإلكتروني	رقم الهاتف
2024PE0032	3009-5581	07/2024	contact@crshc.com	+212 614-024544

## مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

الإيداع القانوني: 2024PE0032

ردمدم : 3009-5581

رقم الصحافة: 07/2024

رقم الواتساب: +212 6 14 02 45 44

البريد الإلكتروني: rrshc@gmail.com

العنوان الإلكتروني: www.crshc.com

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر وللمجلة  
المغرب © 2024

## مواقع التواصل الاجتماعي للمجلة



Tiktok



Youtube



Facebook

## مسجلة ومفهرسة في قواعد بيانات عالمية



## المدير المسؤول:

محمد بوغوتة

## رئيس التحرير:

جمال الدين السراج

## مدير التحرير:

سعيد الاشعري

## أعضاء هيئة التحرير:

فريد أمعششو

محمد البوزيكي

عبد الله بوغوتة

وسام شهير

هشام كزوط

سعيد أرديف

## د. جمال الدين السراج

رئيس التحرير

أستاذ التواصل  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة - المملكة المغربية



”مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية هي منبر أكاديمي يهتم بنشر الأبحاث والدراسات في مجالات العلوم الإنسانية والعلوم المعرفية. تهدف هذه المجلة إلى تعزيز فهمنا للعقل البشري، والثقافات المختلفة، وتأثير العوامل الاجتماعية والنفسية على سلوك الإنسان وتفكيره. تتضمن مجالات الدراسة في المجلة مجموعة واسعة من التخصصات مثل علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم اللغة، والفلسفة، والأدب، وعلوم الإعلام والتواصل، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والتاريخ، وغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية والمعرفية. تعتبر هذه المجلة مصدراً هاماً للباحثين والأكاديميين لنشر أبحاثهم ومشاركة أفكارهم مع المجتمع الأكاديمي العالمي“

### ضوابط النشر في المجلة

- يشترط في البحث ألا يكون منشوراً من قبل، وأن يتسم بالراهنية والعمق، وأن تتميز مراجعته الأساسية بالجدة والتنوع؛
- تُقبل البحوث باللغات الآتية: اللغة العربية - الأمازيغية - الفرنسية - الإنجليزية - الإسبانية؛
- يجب أن يتراوح عدد كلمات البحث ما بين 4000 و6000 كلمة. وعلى كل كاتب أن يرفق دراسته، أو مقالته، بملخصين، الأول بلغة المقالة، والثاني باللغة الإنجليزية في حدود 200 كلمة لكل ملخص؛ مع نبذة من سيرته العلمية وصورة شخصية؛
- ترسل البحوث باللغة العربية ببرنامج (Word)، خط (Sakkal Majalla)، حجم 16 في المتن و12 في الهامش و1.5 في interligne؛ وباللغة الفرنسية أو الإنجليزية بخط (Calibri Light)، حجم 12 في المتن و10 في الهامش؛
- يلزم احترام الضوابط العلمية والأخلاقية في كل ما يتعلق بالتوثيق والتهميش، وإثبات الحالات متسلسلة أسفل كل صفحة دون استرسال؛
- تخضع البحوث والدراسات على محكمين من ذوي الخبرة وحسب تخصص المقال؛
- تقبل البحوث الفردية وكذا الجماعية في حدود شخصين؛
- تتولى اللجنة العلمية إبلاغ الكاتب بتسلم مادته حال ورودها، ثم إبلاغه لاحقاً بقرار الهيئة العلمية حول مدى صلاحية مادته للنشر، سواء كانت مقبولة للنشر كما هو، أو تحتاج إلى تعديلات أو تحسينات قبل النشر، أو رفضها في حال كانت غير مناسبة لمعايير المجلة.

لا تعبر الآراء الواردة في المجلة إلا عن آراء أصحابها،

وبالتالي تبقى مسؤولية الكاتب قائمة متى خالفت القوانين الجاري به العمل.

## جميع حقوق النشر محفوظة للناشر والمجلة

العنوان : مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

موقع المجلة : [www.crshc.com](http://www.crshc.com)

عنوان المراسلة : [contact@crshc.com](mailto:contact@crshc.com)

الهاتف/الواتساب : +212 614-024544

الإخراج الفني : محمد بوغوتة

الإيداع القانوني : 2024PE0032

ردمدم : 3009-5581

رقم الصحافة : 07/2024

المطبعة : مكتبة قرطبة، وجدة، المغرب

حقوق الطبع : محفوظة للناشر والمجلة © 2024



## الهيئة الاستشارية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د. عبد الله بوغوتة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق، المغرب	د. فريد أمععضشو مركز تكوين مفتشي التعليم المغرب
د. رفيق أوباشير المدرسة العليا للتربية والتكوين جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب	د. سعيد أريديف المدرسة العليا للتربية والتكوين جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب

## الهيئة العلمية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د. محمد دلال جامعة محمد الأول، المغرب	د. فريد لمريني جامعة محمد الأول، المغرب
د. حسن احساين جامعة محمد الأول، المغرب	د. يحيى عمارة جامعة محمد الأول، المغرب
د. الطيب بركان جامعة محمد الأول، المغرب	د. فؤاد أزروال المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، المغرب
د. هشام كزوط جامعة محمد الأول، المغرب	د. وسام شهير جامعة محمد الأول، المغرب
د. بثينة حساني جامعة محمد الأول، المغرب	د. عائشة عبد الواحد جامعة محمد الأول، المغرب
د. أحمد أوجاك جامعة محمد الأول، المغرب	د. خليل عبد الجليل جامعة محمد الأول، المغرب
د. فاطمة بولحوش الكلية متعددة التخصصات بالناظور	د. أسماء هلال جامعة محمد الأول، المغرب

## الهيئة العلمية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

<b>د. بلال داوود</b> المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق، المغرب	<b>د. كمال بورمضان</b> جامعة محمد الأول المغرب
<b>د. جميلة رحمانى</b> المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق، المغرب	<b>د. يوسف ماحي</b> جامعة محمد الأول المغرب
<b>د. أيوب الشاوش</b> المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق، المغرب	<b>د. محمد علي الدراوي</b> المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق، المغرب
<b>د. طارق حمدنا الله أحمد حمدنا الله</b> خبير لدى المجلس الأعلى للبيئة والترقية الحضرية والريفية، السودان	<b>د. عبد العزيز الصادقي</b> الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، المغرب
<b>د. سلام جبار منشد حسين الاعاجبي</b> جامعة المتنبى، العراق	<b>د. حاتم فهد هنو ذياب الطائي</b> جامعة الموصل، العراق
<b>د. عائشة محمد عثمان مصطفى</b> جامعة الإمام المهدي، السودان	<b>د. سماح محمد محمد حيدة</b> جامعة باشن الأمريكية، مصر
<b>أ.د. صباح علي السليمان</b> جامعة تكريت، العراق	<b>د. هناء فاضل سلمان</b> الجامعة المستنصرية، العراق
<b>د. مروان السكران</b> أكاديمية بيت اللسانيات الدولية، تركيا	<b>د. الصادق علي وداعة عثمان</b> جامعة سنار، السودان
<b>د. محمود قدوم</b> جامعة بارتين، تركيا	<b>د. عزيز صالح علي الدعيس</b> جامعة صنعاء، اليمن

## الهيئة العلمية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د.ة. ريم محمد طيب حامد الحفوظي

جامعة الموصل  
العراق

د. محمد بودشيش

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د. عبد المجيد بوفرعة

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د. عبد الصمد مجوقي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة  
طنجة تطوان الحسيمة، المغرب

د. نجيب علالي

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د. منير كلخة

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د. محمد حمداوي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د. عبد الله الحمدادي

جامعة محمد الأول - وجدة  
المغرب

عبد العظيم طلحاوي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د. بلقاسم زباني

جامعة محمد الأول - وجدة  
المغرب

د.ة. نورة سهال

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة مراكش آسفي، المغرب

د. إبراهيم عمري

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس  
المغرب

د. رشيد الاركو

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

د.ة. العساوي نادية

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين  
لجهة الشرق، المغرب

## محتويات العدد

5	..... محتويات العدد
10	..... افتتاحية العدد

### المحور الأول: دراسات تاريخية

	دراسات في الرحلة الحجية المغربية (2): مصطلحات الدراسة
12	..... د. عبد الله بوغوتة
	علاقة المجتمع الموحي بالأولياء والأضرحة خلال فترة الأزمات
33	..... د. جمال رداحي
	حفريات في بعض المعتقدات الشعبية عند المغاربة من خلال رحلة "وصف إفريقيا" للحسن الوزان
51	..... د. مجيد هلال
	التحولات الاجتماعية والإيديولوجية للوجود الإسلامي بالأندلس من خلال كتاب "Al-Andalus et les andalousiens" للباحثة Manuela Marín
62	..... د. سمير الداودي
	ومضات حول المشهد اللغوي قبيل دخول المسلمين إلى المغرب الأقصى
94	..... د. عبد الكريم العوني
	حول التأريخ الشفهي: عرض كتاب "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"، تأليف: ديفيد هيونج، ترجمة: ميلاد المقرحي
110	..... حسن المغربي

### المحور الثاني: دراسات اجتماعية وقانونية

	من الخوارزميات إلى التأثيرات الاجتماعية: دراسة سوسيولوجية لتأثير الذكاء الاصطناعي على التواصل الاجتماعي
136	..... د. محمد زباني

- الهجرة الدولية وآثارها الاجتماعية والثقافية على أسرة المهاجر بالبلد الأصلي:  
حالة أسر مهاجري إقليم طانطان
- 151 ..... د. مصطفى بوعمود - د. حم الشرقاوي
- التواصل السياسي في عصر الإعلام الرقمي: معالم نظرية تأسيسية
- 169 ..... د. محمد بورويص
- العمل الاجتماعي والإعلام: أية علاقة؟
- 205 ..... د. أحمد درويش
- أدوار المجتمع المدني في تحقيق رهانات التنمية
- 211 ..... د. بوحبة حفيظ - د. الطيب بركان
- التقويم الأمازيغي والاحتفال برأس السنة الأمازيغية
- 220 ..... د. سعيد الأشعري
- الإطار المفاهيمي لمصطلح "التحول الرقمي"
- 234 ..... مبروكة كريم محمد
- قراءة تحليلية في القانون الجديد للصحافة والنشر بالمغرب رقم 13-88
- 260 ..... د. نبيل خرشي
- حقوق غير المسلمين في القانون المغربي
- 276 ..... د. محمد بودشيش
- القانون العُرفي من منظور تدأولي
- 292 ..... د. يونس حساني
- شروط الاعتراف بالأحكام الجنائية الأجنبية وتنفيذها
- 311 ..... د. فريد أمعضشو

### المحور الثالث: دراسات أدبية ولغوية

- الحجاج الافتراضي بالسخرية في الخطاب الشعري التوثيقي الجاهلي
- 322 ..... د. عبد الكريم بنعطية
- الأدب والتكنولوجيا: بحث في خصائص الأدب الرقمي
- 341 ..... د. علي صديقي



- مفهوم "النص المترابط" في النقد الرقمي المغربي المعاصر
- 361 ..... د. محمد الطاهري - د. إبراهيم عمري
- بين الذاكرة والتاريخ: دراسة سيميائية لرواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ
- 375 ..... د. إبراهيم البوعبدلوي
- بلاغة الصورة السردية في رواية "الذاكرة المنسية" للزهرة الرميح
- 390 ..... د. محمد حمداوي - د. عبد المجيد بوفرعة
- "قهوة سادة" للسيد حافظ: من سلطة العنوان إلى حكايا شهرزاد
- 403 ..... دة. جميلة رحمانى
- التعبير بوصفه نظاما علامائيا - شعر الهاء زهير أنموذجا -
- 419 ..... دة. لبنى المفتاحى
- جدلية النحو واللسانيات في الخطاب اللساني العربي الحديث: قضايا ونماذج
- 437 ..... د. مصطفى العادل
- مركزية الشاهد الشعري في بناء القواعد
- 458 ..... دة. صارة اضوالى
- التبادل الصرفي بين صيغتي "فَعِلْ وفَاعِلْ" في القرآن الكريم وأثره في توجيه المعنى
- عند القراء السبعة
- 480 ..... د. الصادق على وداعة
- المصطلح.. بأيّ منهج ندرسه؟
- 499 ..... نجمة العيادى
- صناعة القاموس الصوفي: رسالة اصطلاحات محي الدين بن العربي (ت 638هـ) أنموذجا
- 510 ..... د. رشيد الاركو
- القواميس العربية: النظرية والمنهج
- 530 ..... كوثر الرحمانى

### المحور الرابع: دراسات تربوية

- دور المقاربات المتعددة اللغات والثقافات في ترسيخ العدالة اللغوية بالمدرسة
- المغربية
- 550 ..... دة. نورة سهال

- دور المدرسة في تنمية الوعي المائي  
 563 ..... عبد العزيز عزوزي - جواد عجوري
- المدرسة المغربية بين التقييم الذاتي والتقييم الخارجي  
 579 ..... د. محمد لطيفي - رجاء بلشقر - كريمة الفركاني - سليمة اسماعيلي
- إصلاح التعليم بالمغرب مطلب قديم  
 603 ..... د. بوعلام السباعي
- مرجعيات إدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التربوية بالمغرب  
 617 ..... د. محمد بوغوتة
- التربية الدامجة بين التجربة المغربية والتجارب الدولية  
 631 ..... د. نورالدين مورو
- تكنولوجيا التعليم وسؤال الجودة  
 656 ..... د. محمد ملحاوي
- استثمار تكنولوجيا التعليم الرقمي في تطوير الممارسة المهنية للقيادات التربوية  
 بمؤسسات التربية والتعليم العمومية بالمغرب (تقنيات الذكاء الاصطناعي  
 أنموذجا)  
 674 ..... د. نجيب مزوار
- البحث التدخلي مدخل لترسيخ الممارسة البحثية التربوية: الأجرأة وسبل التجويد  
 685 ..... د. محمد أجردى - د. عادل عيدون
- محبة درس الأدب مدخلا إلى الاندماج الاجتماعي  
 704 ..... د. عبد اللطيف الدادسي
- دور المسرح المدرسي في التدريب على المهارات الحياتية بالتعليم الثانوي التأهيلي  
 717 ..... د. حسن لمغرز
- ديدكتيك علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي: نحو مقارنة توليدية تحويلية  
 727 ..... د. هشام حوزي
- سؤال القيم في المنهجية المعتمدة في "درس المؤلفات" بالجدع المشترك: رواية  
 "المبأة" نموذجا  
 756 ..... د. الحسين بلا

**المحور الخامس: دراسات شرعية**

أثر البُعد المقاصدي للتربية العقدية في الأمن النفسي للإنسان المعاصر

775 ..... د. عبد العزيز انميرات

التفسير العقديّ عند القاضي عياض: دراسة نماذج مختارة

797 ..... د. عبد اللطيف تلوان

منهج الإمام البخاري في دراسة علم مختلف الحديث من خلال كتابه "الجامع الصحيح": نماذج تطبيقية

815 ..... د. حمزة بوعلالة

فقه التوقع في ضوء المقاصد الشرعية والدراسات المستقبلية

841 ..... د. عبد المجيد المسكيني

الإمام عبد الواحد بن عاشرو أثره في تطور المذهب الأشعري

867 ..... د. سعد أفوغال

أصول التفسير في الخطاب المُقدّماتي خلال القرن السادس الهجري: دراسة في خطبة "الكشاف" للزمخشري أنموذجا

890 ..... د. سليمان تهراس

سمات الحوار في النص القرآني الكريم

911 ..... د. عبد اللطيف ايت قازيت

**المحور السادس: دراسات فكرية**

الشيخ عبد الحميد بن باديس وفكره الإصلاح

922 ..... سومية ميعاد

الحدأة والفكر النسائي: قراءة جندرية

945 ..... عبد السلام العثماني

الجدور التاريخية والفكرية للتمثلات الغربية عن الإسلام

965 ..... د. سعيد بومزوغ

## افتتاحية العدد

يسعدنا أن نقدم لكم، قراءنا الكرام، العدد السابع من مجلة "البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية"، والذي يمثل حصيلة جهود نخبة من المهتمين والمفكرين والطلبة الباحثين من مختلف الأقطار العربية؛ ليبيا، وتونس، والسودان، ومن مختلف الجامعات المغربية. يشهد هذا العدد تنوعاً كبيراً في المواضيع المطروحة، حيث تغطي الدراسات المنشورة مختلف فروع العلوم الإنسانية والمعرفية، بدءاً من التاريخ والأدب واللغة، مروراً بعلوم التربية وعلم الاجتماع، والقانون، والشريعة، والدراسات الفكرية. هذا التنوع يعكس مدى اهتمام الباحثين العرب بقضايا مجتمعاتهم، ويساهم في إثراء الحوار الفكري وتبادل الخبرات والمعارف.

نود أن نعبر عن خالص شكرنا وتقديرنا لكافة الباحثين الذين ساهموا في إغناء هذا العدد. إن مقالاتهم القيمة تشكل إضافة نوعية للمكتبة العربية، وتساهم في تطوير المعرفة وتعميق الرؤى في مختلف المجالات. تعتبر مجلة "البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية"، منبراً حراً للتعبير عن الأفكار والآراء، وتهدف إلى تشجيع البحث العلمي والابتكار في المجال الإنساني. ونسعى من خلالها إلى بناء جسور التواصل بين الباحثين والمفكرين العرب، وتبادل الخبرات والمعارف، والمساهمة في حل المشكلات التي تواجه مجتمعاتنا.

ندعوكم، أيها القراء الأفاضل، إلى استكشاف هذا العدد الذي يزخر بتنوع المواضيع، ويحفل بدراسات قيمة تساهم في إثراء الحوار الفكري.

حرر بوجدة، في: 31 أكتوبر 2024

رئيس التحرير

الدكتور جمال الدين السراج

**المحور الأول:**

**دراسات تاريخية**



## دراسات في الرحلة الحبية المغربية (2):

## مصطلحات الدراسة

د. عبد الله بوغوتة

أستاذ باحث في التاريخ والتربية والتكوين  
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق  
المغرب



ORCID ID : 0009-0002-1586-2343

تكتسي دراسة المصطلحات والمفاهيم المهيكلية لموضوع الدراسة دوراً جوهرياً لعدة أسباب نذكر منها:

- توضيح المعاني وتقليل اللبس ورفعها؛ بحيث إن دراسة المصطلحات تساعد على فهم المحتوى بشكل أدق، وإن تحديد المفاهيم المستخدمة ضمن سياقها الخاص يقلل من احتمالية الفهم الخاطئ أو التفسير المتعدد للمصطلحات.
- تحقيق التواصل العلمي الفعال؛ بحيث يُعد الفهم المشترك للمصطلحات بين الباحثين خصوصاً وجمهور القراء عموماً، ضرورياً لضمان التواصل السلس والفعال بينهم، مما يساهم في بناء معرفة متسقة يمكن الاعتماد عليها عند المقارنة والاستفادة من الأبحاث والدراسات المختلفة التي تستعمل المصطلح أو المصطلحات ذاتها.
- التأطير النظري لموضوع الدراسة، باعتبار أن المصطلحات ركيزة أساسية في بناء الإطار النظري لأي دراسة؛ نظراً لأنها تساهم في توجيهها ضمن مجالها المحدد، وتضع الحدود التي سيتناولها البحث.
- تفسير النتائج لأن دراسة المفاهيم توفر إطاراً يساعد على تفسير النتائج وتحليلها ضمن سياق علمي واضح، مما يسهل استنباط العلاقات وتحقيق الأهداف البحثية.
- مواكبة التطورات المعرفية؛ لأن تحليل ودراسة المفاهيم يساعد على استمرارية الاطلاع على التطورات والمستجدات في مختلف مجالات وحقول المعرفة الأكاديمية؛ حيث يمكن أن تتغير دلالات المصطلحات أو تطرأ عليها إضافات جديدة تعكس تطور الفكر العلمي في المجال.

تعتبر إذن دراسة المصطلحات والمفاهيم جزءاً حيوياً في تعزيز وتوحيد الفهم المشترك، وتوجيه البحث العلمي نحو تحقيق نتائج موثوقة ومؤثرة.

انطلاقاً من هذه الأسباب وغيرها من ضوابط البحث العلمي، سنحاول دراسة أهم المصطلحات والمفاهيم المهيكلية للدراسة، والتي تتجلى أساساً في مصطلحات تتعلق بالفعل وهو الرحلة، والرحلة الحجية خاصة، ثم الزمن القار وهو موسم الحج من كل سنة، والوقت الممتد منذ دخول الإسلام إلى بلاد المغرب إلى يومنا هذا. أما بالنسبة للمكان فسنركز أساساً على مصطلح "المغرب" باعتباره منطلق هذه الرحلات.

### أولاً: الرحلة

إن الحديث عن الرحلة يقتضي التفريق بين أمرين أو معنيين: الرحلة بصفتها حركة انتقال، والرحلة بصفتها تأليفاً لمجريات وأحداث الرحلة.

فأما الرحلة بصفتها حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة؛ ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس: «رحل: الرأ والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضي في سفر. يقال: رحل يرحل رحلة [...] والرحلة: الارتحال [...] وَيُقَالُ رَاحِلٌ فَلَانٌ فَلَانًا إِذَا غَاوَنَهُ عَلَى رِحْلَتِهِ. وَرَحَلَهُ، إِذَا أَظْعَنَهُ مِنْ مَكَانِهِ»<sup>1</sup>.

وعند ابن منظور: «رحل الرجل؛ إذا سار، [...] ورجل رحول، وَقَوْمٌ رُحَلٌ أَي يَرْتَحِلُونَ كَثِيرًا. وَرَجُلٌ رَحَالٌ عَالِمٌ بِذَلِكَ مُجِدِّ لَهُ. [...] والترحل والارتحال: الانتقال. والرحلة: اسم للارتحال. وقال بعضهم: الرحلة: الارتحال، والرحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده»<sup>2</sup>.

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: «ارْتَحَلَ الْبَعِيرُ: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كَتَرَحَلُوا. والاسم: الرحلة والرحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضم: الوجه الذي تقصده، والسفرة الواحدة»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، اتحاد كتاب العرب، 1423هـ/2002م، مادة: رحل.

<sup>2</sup> - ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ/1993م، مادة: رحل.

<sup>3</sup> - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، 394/3. مادة: رحل.

وجاء في «العامي الفصيح»<sup>1</sup>: رَحَلَ: عن المكان رحيلاً. ورَحَلَه: جعله يرحل. وارتحل فلان: رحل. ترَحَّل: رحل. الرحالة والرحَّال: الكثير الرحلة. والرحلة: الارتحال. والرحيل: الارتحال. والمرحلة: المسافة تُقَدَّرُ حسب العرف.

والمرحلة: واحدة المراحل يقال بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان. والمرحلة: المنزل يُرْتَحَل منها وما بين المنزلين مرحلة.<sup>2</sup>

وتكاد المعاجم الأخرى تكرر المعاني نفسها، وبهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة: ﴿لِيَلْفَ قُرَيْشٍ (1) إِيْلَهُمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) إِلَٰذِ أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ (4) وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ (5)﴾<sup>3</sup>

وذكر القرآن الكريم مصطلحات أخرى تفيد معنى الرحلة، ومن ذلك السفر والسير في الأرض، وما يتعلق بذلك من أحكام وآداب، كأحكام الصلاة والصيام، وآداب النظر والاعتبار...

إذاً، فمعاجم اللغة تُجمع على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر. وبهذا المعنى يكون العديد المغاربة وغيرهم من البشر، قديماً وحديثاً، قد أنجزوا رحلات ورحلات قد لا تعد ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة، وطبيعة البشر، ولأن «الثواء هو الثوى»<sup>4</sup>. بيد أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات، لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته.

وهذا المعنى الأول يتأسس عليه المعنى الثاني، الذي يعتبر الرحلة ذلك النص المكتوب الذي يحكي فيه الرحالة أحداث سفره وما شاهده، وعاشه من أحداث، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم.

وانجاز الرحلة بالمعنى الثاني، يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى تعليمي وثقافي معين، يؤهله لنقل أحداث سفره إلى نص مكتوب، وإلا فهو يحتاج إلى غيره ليقوم بذلك.

ومن المعلوم أن الإنسان عرف الرحلة أو الترحال والتنقل بفطرتة، التي جبل عليها منذ أول رحلة في تاريخ البشرية، حينما هبط آدم وحواء إلى الأرض ليعبدا الله وليعمرا وذريتهما الأرض، وتنتشر ذريتهما فيها، وتسعى وراء مصادر الرزق والارتقاء المادي واللامادي.

<sup>1</sup> مجمع اللغة العربية بالقاهرة، قسم اللغة العربية والمعاجم، العامي الفصيح، المجلد 1، باب الراء، مادة: رحل. ص 67.

<sup>2</sup> لسان العرب، 11/265.

<sup>3</sup> سورة قريش، الآيات 1-5. (برواية ورش عن نافع)

<sup>4</sup> جزء من شطر بيت لابن دراج القسطلبي:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ الثَّوَى وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

وكثيرا ما كانت الطبيعة تؤرق الإنسان، وتشغل باله، فيقضى ساعات طويلة يتأمل فيها. وكثيرا ما كانت تفاجئه بريح عاتية أو برعد وبرق أو بما هو أفضع؛ حيث تجعله أحيانا يللمم أغراضه، ويرحل إلى مكان آخر يلتمس فيه بعض الأمن، وبعض العزاء عما يكون قد فقده؛ بسبب هذه الطبيعة الغامضة التي يبيت يفكر في أسرارها، لعله يأمن بعض أسرارها، ويتعايش معها، بل ويستفيد منها ومن خيراتها.

ومن هنا، نأتي إلى تذكر القولة الشهيرة التي مفادها أن في السفر عدة فوائد: منها السعي وراء الرزق، وتحصيل العلم، واكتساب الخبرة، والترفيه، ورؤية بلاد جديدة، واكتساب مزيد من العزة عند الأهل، والاستشفاء في حالة المرض.

وهذا ما عبر عنه الشافعي رحمه في قوله<sup>1</sup>:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى      وَسَافِرٌ فِي الْأُسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ  
تَقَرُّجُ هَمِّ، وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ      وَعِلْمٌ، وَأَدَابٌ، وَصُحْبَةٌ، مَا جَدِ

لم تظهر الكتابة عن الرحلة عند المسلمين إلا بعد الهجرة النبوية، وانطلاق الفتوحات الإسلامية، وازدهار الحضارة الإسلامية؛ بحيث ظهرت كتابات عن رحلات قام بها رحالة مسلمون، وظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة في ذلك الحين، ولقد وصل بعض الرحالة المسلمين في وقت مبكر إلى بلاد قريبة وأخرى بعيدة كالصين والهند وبلاد ما وراء النهر وتركيا وغيرها.

وقد أدى الرحالة المسلمون مهمة جليلة للأجيال القادمة؛ إذ أسهم تدوينهم لرحلاتهم وكتاباتهم في مجال الرحلات في نقل كثير من الصور والمشاهد المميزة للبلاد التي زاروها وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وإلقاء الضوء على تاريخ تلك البلاد، وأفكار سكانها وتقاليدهم التي قد تختلف، وقد تتفق، مع عادات أهل البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة؛ فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى، وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها.

ولقد ذكرت الرحلة لفظا في القرآن الكريم في سورة قريش<sup>2</sup>، وارتبط مفهوم الرحلة بالنسبة للأنبياء منذ بدء الخليقة، ونرى ذلك واضحا في مسألة خلق آدم مثلا، وكيف أغواه إبليس وكان سببا له للخروج من الجنة، وغضب الله تعالى عليه. وهبوطه هو وزوجه إلى الأرض، هو بداية رحلة

<sup>1</sup> - الإمام الشافعي، ديوان الشافعي، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1426هـ/2005م، ص 49.

<sup>2</sup> - سورة قريش، الآية 2، في قوله تعالى: (إِلَيْهِمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ).

البشرية على الأرض، ويبدو أن لفظة ﴿أَقْبِصُوا﴾ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَقْبِصُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ آلِهِمْ<sup>1</sup>، مرادفة لكلمة «ارحلوا» و«سافروا»، وكذلك ورد في الآية كلمة متاع إلى حين دلالة على السفر؛ إذ إن المسافر يحتاج إلى المتاع في الرحلة، وهو ما يتزود به.

من الأنبياء الذين رحلوا وذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم؛ إبراهيم عليه السلام، الذي رحل من أرض بابل إلى أرض فلسطين، ومر بمصر. ثم رحلته المشهورة إلى مكة؛ حيث ترك زوجته وولده إسماعيل وحيدين بواد غير ذي زرع، ثم عودته ورفع قواعد البيت الحرام رفقة ولده إسماعيل.

ومن الذين ارتحلوا اضطراراً وكرهاً نبي الله يوسف عليه السلام، حين كاد له إخوته، وألقوا به في بئر ليتخلصوا منه، ويخلو لهم وجه أبيهم. لكن الله عز وجل يريد أن تتم الرحلة إلى أرض مصر، وفي نهاية المطاف يؤتى النبوة والملك، فيرحل إليه أبواه وإخوته، ويستقرون معه في ظل ملكه بمصر.

ويذكر القرآن الكريم الرحلات الثلاث، ذات الدوافع المختلفة التي قام بها موسى عليه السلام:

الرحلة الأولى هي رحلة هروب من القتل، وعنها يقول رب العزة في محكم التنزيل: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّكَ لَمِنَ النَّاصِحِينَ<sup>2</sup>». وكان موسى عليه السلام قد استغاث به إسرائيلي من شيعته على عدو قبطي من قوم فرعون، فوكز موسى القبطي فقضى عليه، وهذه الفعلة من موسى عليه السلام، كانت كبيرة عند فرعون وملئه؛ إذ كيف يُقتل قبطي من أجل إسرائيلي حقير (في نظرهم)؛ لأن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل واستذلهم، وفي فعلة موسى نوع من التمرد والتجرؤ على فرعون وملئه، وفيها نوع من التحدي بنصرة أولئك الضعفاء المضطهدين؛ لذا ثارت ثائرة فرعون وملئه، وتشاوروا فيما بينهم على قتله، ولكن الله عز وجل الذي حفظ موسى منذ ولادته، لم يسلمه لأعدائه، بل قيض له ناصحاً أميناً جاء يسعى من أقصى المدينة، لينبه موسى لحماية نفسه بالإسراع بمغادرة البلدة

<sup>1</sup> - سورة الأعراف، الآية: 23.

<sup>2</sup> - سورة القصص، الآية: 19.



قبل أن يدركه الملائكة فيقتلوه، وأكد له أهمية الخروج وخطورة البقاء بتحذيره الكامن في قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَذُنُوبًا كَثِيرًا وَلَكُمْ آيَاتٍ كَثِيرًا مِنْ أَنْبَاءِ الْأَنْبِيَاءِ﴾.

وهكذا يجد موسى عليه السلام نفسه مضطراً للخروج من الديار المصرية، التي نشأ وتربى فيها، هروبا من الأذى الذي قد يلحقه به فرعون وملأه لا محالة، وطلباً للأمن في أرض مدين. والثابت أن موسى عليه السلام ليس أول الخارجين من ديارهم ولا آخرهم، بل إن كثيرين من قبله ومن بعده من الأنبياء خرجوا من ديارهم، وكثيرين هددوا بالإخراج منها.

والرحلة الثانية هي رحلة هروب جماعي؛ حيث إن الله تعالى أيد نبيه موسى عليه السلام بنصره، ونجاه وقومه من بطش فرعون وجنده، وهذا بعدما تبين لفرعون أن موسى على حق، وأنه يوشك أن يجر الناس إلى صفه، خصوصاً وأنهم يتزايدون كل يوم، يؤمنون برب موسى، ويكفرون بفرعون؛ فقرر أن يبيدهم، وبعدما فروا تبعهم، فكان مصيره وجنده أنهم كانوا من المغرقين، بعدما جعل الله لموسى - عليه السلام - وقومه، طريقاً يبساً في البحر. يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (52) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (59) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعُ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِي (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ إِضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) <sup>1</sup>

ويخلد القرآن الكريم رحلته الثالثة التي تعد من أشهر الرحلات العلمية في التاريخ، وهي رحلته عليه السلام رفقة الرجل الصالح الخضر عليه السلام، ليتعلم منه، كما يذكر القرآن الكريم، أن موسى عليه السلام وفتاه، خرجا في طلب الرجل الصالح: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (65) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (66) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ - خُبْرًا (67) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (68) <sup>2</sup>

وكما يظهر من الآيات أن موسى عليه السلام قال للرجل الصالح: هل تأذن أيها العبد الصالح، أن تفيض عليّ بعلمك على أن أتبعك وألتزم أمرك ونهيك؟ وكان الخضر عليه السلام، قد

<sup>1</sup> - سورة الشعراء، الآيات 52-68.

<sup>2</sup> - سورة الكهف، الآيات 65-68.

أُلْهِمَ أَنْ مُوسَى لَا يَصْبِرُ عَلَى السَّكُوتِ؛ إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَلَوْ أَنَّكَ صَحَبْتَنِي سَتَرَى ظَوَاهِرَ عَجِيبَةٍ وَأُمُورًا غَرِيبَةٍ. فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ حَرِصًا عَلَى الْعِلْمِ تَوَاقًا إِلَى الْمَعْرِفَةِ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾<sup>1</sup>، فَقَالَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ صَحَبْتَنِي؛ فَأَخَذَ عَلَيْكَ عَهْدًا وَشَرَطًا؛ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ، حَتَّى يَنْقُضِيَ الشَّرْطَ، وَتَنْتَهِيَ الرَّحْلَةَ، وَإِنِّي بَعْدَهَا سَأُبَيِّنُ لَكَ مَا قَدْ تَسْأَلُ عَنْهُ وَأَشْفِي مَا بِصَدْرِكَ.

وَيُشِيرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى رِحَالَاتِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخُصُوصًا الرَّحْلَةَ الْكُبْرَى، الَّتِي حَوَلَتْ مَجْرَى التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، وَهِيَ الْهَجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، الْهَجْرَةُ مِنَ الذَّلَّةِ إِلَى الْعِزَّةِ، وَمِنَ الْخَوْفِ إِلَى الْأَمْنِ، وَمِنَ مَوْطِنٍ يَصْعَبُ فِيهِ بِنَاءُ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ، إِلَى مَوْطِنٍ سَيَكُونُ مَهْدَ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ... بِالِإِضَافَةِ إِلَى رِحَالَاتِ الْحَبْشَةِ، الَّتِي كَانَتْ فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ، وَهُمَا هَجْرَتَانِ:

كَانَتْ الْهَجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الْحَبْشَةِ، مَعَ بَدَايَةِ الْإِعْتِدَاءَاتِ فِي أَوَاسِطِ أَوْ أَوَاخِرِ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ النَّبُوءَةِ<sup>2</sup>، بَدَأَتْ ضَعِيفَةً، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ تَشْتَدُّ يَوْمًا فَيَوْمًا وَشَهْرًا فَشَهْرًا، حَتَّى تَفَاقَمَتْ فِي أَوَاسِطِ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ، وَنَبَا بِهِمُ الْمَقَامُ فِي مَكَّةَ، وَأَخَذُوا يَفْكُرُونَ فِي حِيلَةٍ تَنْجِيهِمْ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَفِي هَذِهِ الظُّرُوفِ، نَزَلَتْ سُورَةُ الزَّمَرِ تُشِيرُ إِلَى اتِّخَاذِ سَبِيلِ الْهَجْرَةِ، وَتُعْلِنُ بِأَنْ أَرْضَ اللَّهِ لَيْسَتْ بِضَبِيقَةٍ: ﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفِّي الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>3</sup>

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ؛ مَلِكَ الْحَبْشَةِ مَلِكٌ عَادِلٌ، لَا يَظْلِمُ عَنْدَهُ أَحَدٌ، فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَهَاجِرُوا إِلَى الْحَبْشَةِ فَرَارًا بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتَنِ، وَاجْهَدَتْ قُرَيْشٌ فِي مَلَا حَقَّتْهُمْ، وَلَكِنْ لَمَّا بَلَغُوا إِلَى الشَّاطِئِ كَانُوا قَدْ انْطَلَقُوا آمِنِينَ، وَأَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْحَبْشَةِ فِي أَحْسَنِ جَوَاءٍ، حَتَّى بَلَغَهُمْ خَبَرُ كَاذِبٍ، أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَسْلَمَتْ، فَرَجَعُوا، لَكِنْ وَجَدُوا أَنَّ الْأَمْرَ زَادَ سَوْءًا، فَقَرَّرَ الْمُسْلِمُونَ الْهَجْرَةَ مَرَّةً أُخْرَى، وَعَلَى نِطَاقٍ أَوْسَعٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْهَجْرَةُ الثَّانِيَّةُ أَشَقَّ مِنْ سَابِقَتِهَا، فَقَدْ تَيَقَّظَتْ لَهَا قُرَيْشٌ وَقَرَّرَتْ إِحْبَاطَهَا، بَيِّدَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أَسْرَعَ، وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمُ السَّفَرَ، فَانْحَازُوا إِلَى نَجَاشِي الْحَبْشَةِ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكُوا. وَلَبِثُوا هُنَاكَ حَتَّى أَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعُودَةِ، فَعَادُوا.

1- سورة الكهف، الآية 68.

2- صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، 2007، ص 92.

3- سورة الزمر، الآية 11.

وكانت رحلات المسلمين، منذ بدايتها، متنوعة الوسائل والغايات. فمن الرحالة المسلمين من رحل فرارا بدينه من أرض الكفر أو الشرك إلى أرض الأمن، وأشهر هذه الرحلات هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة فرارا من اضطهاد وظلم طغاة قريش وجبايرتها - كما ذكرنا سابقا-، ثم هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة - كما أشرت سلفا- فرارا بالدين، وخوفا من الفتنة، ورغبة فيما وعد الله به من التوسعة في الرزق، والتمكين لدولة الإسلام.

ومن أهم الأسباب التي مهدت للرحلة والرحالة الطريق لارتياح العالم، بعد قيام دولة الإسلام، واستتباب الأمر للمسلمين، اتساع رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا<sup>1</sup>.

فمنهم من رحل لطلب العلم، وهم من كثرتهم لا يزعم أحد حصرهم، ولا إحصاء رحلاتهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الذين رحلوا لأغراض تجارية.

ومنهم من رحل لاكتشاف الأقطار المراد فتحها؛ حيث انتظمت رحلات ربطت أقطار الدولة الإسلامية بعضها ببعض، مثل البريد المعروف في الدولة الإسلامية، ومن أمثلة الرحالين الذين قاموا بذلك نجد ابن خرداذبه<sup>2</sup>، الذي تولى منصب صاحب البريد في الدولة العباسية<sup>3</sup>.

ومن هذه الرحلات نجد السفارية، كرحلة ابن فضلان<sup>4</sup>، فبأمر الخليفة العباسي المقتدر بالله، خرج ابن فضلان رفقة الوفد المرافق له من بغداد يوم الخميس 11 صفر 309هـ/ 11/06/921م<sup>5</sup>، في رحلة طويلة وشاقة إلى أصقاع من العالم كانت مجهولة ومتوحشة. حيث يصف لنا روسيا والبلغار وقبائل الفايكنغ قبل أحد عشر قرنا من الزمان، ويروي ما شاهده من

<sup>1</sup> - أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالون المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، بدون تاريخ، ص7.

<sup>2</sup> - ابن خُرداذبه (205-280هـ/820-893م)، هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. مؤرخ وجغرافي من خراسان، عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون. أشهر مؤلفاته كتاب المسالك والممالك، وصف فيه المسافات بين البلدان. (انظر الأعلام للزركلي، 355/1، ولسان الميزان 96/4).

<sup>3</sup> - إغناطيوس يوليانونوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، قام بمراجعتها: إيغور بلياييف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، 1/155.

<sup>4</sup> - أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان (ت309هـ/921م)، رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالية، (انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/486).

<sup>5</sup> - ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالية، حققها وعلق عليها وقدم لها، سامي الدهان، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1379هـ/1960م، ص 25.

عجائب وغرائب في تلك البلاد البعيدة بصورة مشوقة، جعلت رحلته تعد من أهم المصادر التي يعتمد عليها الأوربيون للتعرف إلى حياة أجدادهم في تلك الفترة المظلمة من تاريخ أوروبا.

ومنها أيضاً، رحلة الغزّال (156-250هـ/773-864م)<sup>1</sup> إلى بلاد النورمان، والتي تكفل ابن دحية<sup>2</sup> بتقديم تقرير عنها في كتابه «المطرب من أشعار أهل الأندلس والمغرب»<sup>3</sup> وغيرهما.

ومن أنواع الرحلات أيضاً؛ الرحلة العجائبية كرحلة أبي حامد الغرناطي<sup>4</sup>، الذي اشتهر برحلاته التي بدأها سنة 508 هـ/1114م، برحلته إلى الاسكندرية في مصر، ثم رجوعه إلى بلده برحلة أخرى سنة 511هـ/1117م. وزار بغداد ومكث بها أربعة أعوام، وزار إيران ووصل إلى بحر قزوين ومصب نهر الفولجا، وقام بثلاث رحلات إلى خوارزم، واشتهر بكتابه «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»، ولكن الرحلة لأداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوي، استحوذت على مصطلح «الرحلة» في تاريخ المسلمين.

وتبقى الرحلة بشكل عام أداة مهمة للتعرف على المجتمعات وأحوالها، فهي «ليست مجرد جنس أدبي، بل هي شهادة عن جزء من الزمان والفضاء الخاصين بالتاريخ البشري»<sup>5</sup>، يمكننا من خلالها أن نطلع على عدد من المؤشرات التي بتجميعها وتصنيفها يمكننا أن نرسم صورة للمجتمع الذي عاش فيه الرحالة، أو المجتمع الذي زاره.

### ثانياً: الحج

قال ابن منظور<sup>6</sup>: «الحَجُّ القَصْدُ. حَجَّ إِلَيْنَا فَلَانٌ، أَي قَدِمَ وَحَجَّه يَحْجُّهُ حَجًّا قَصْده، وَحَجَّجْتُ فَلَانًا أَي قَصَدْتَهُ... قال ابن السكيت: يُكْثَرُونَ الاختلافَ إليه هذا الأصل، ثم تُعَوِّفَ

<sup>1</sup> - هو يحيى بن الحكم البكري الجباني، المعروف بالغزال، شاعر مطبوع من أهل الأندلس، أرسله بعضهم رسولا إلى ملك الروم. (انظر الأعلام للزركلي، 143/8).

<sup>2</sup> - ابن دحية الكلبي (554-633هـ/1150-1236م)، هو عمر بن علي بن محمد، أبو الخطاب، أديب مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة، ولي قضاء دانية، ورحل إلى مراكز الشام والعراق وخراسان، واستقر بمصر. (انظر الأعلام للزركلي، 44/5).

<sup>3</sup> - تقرير عن سفارة الغزال إلى النورمان. ضمن كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب» تحقيق: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، دار العلم للجمع، بيروت 1955، ص 133.

<sup>4</sup> - أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القليسي الغرناطي الأندلسي (473-565هـ/1080-1170م). رحالة وكاتب أندلسي ولد في غرناطة. ورحل إلى المشرق، وتوفي في دمشق. (انظر ترجمته كاملة له في «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» أبو حامد الغرناطي، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1413هـ/1993م، ص7 وما بعدها).

<sup>5</sup> - صالح مغربي، رحالة الغرب الإسلامي من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر للميلاد، ترجمة عبد النبي ذاكر، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، ط1، يونيو 2005، ص 11.

<sup>6</sup> - لسان العرب، 2/266.

استعماله في القصد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة. تقول حَجَّ يَحُجُّ حَجًّا. والحجُّ قَصْدُ التَّوَجُّهِ إلى البيت الحرام بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة. تقول حَجَّجْتُ البيتَ أَحْجُهُ حَجًّا إذا قصدته وأصله من ذلك.

ورجلٌ حَاجٌّ، وقومٌ حُجَّاجٌ وحَجِيجٌ. والحَجِيجُ جماعةُ الحاجِّ... قال الأزهري: الحجُّ قضاءُ نُسُكٍ سنةٍ واحدةٍ. وبعضُ يكسر الحاء، فيقول الحجُّ والحجَّةُ. وقرئ بالفتح: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>1</sup> وهو أكثر. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾<sup>2</sup> يقرأ بفتح الحاء وكسرها والفتح الأصل والحجُّ اسم العمل<sup>3</sup>. أما أشهر الحج في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾<sup>4</sup>، فهي شَوَّال وذو القعدة وذو الحجة، قال الفراء معناه وقتُ الحج هذه الأشهر... وذو الحجة شهرُ الحجِّ سمي بذلك للحجِّ فيه». وهناك ألفاظ ذات صلة بالحج ومدلوله الشرعي، منها:

المنسك، لقول النبي ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ» كما في صحيح مسلم، وفي رواية البيهقي: «حُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» وفي رواية أبي داود: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

والشعيرة، لقول الله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الْأَصْفَ وَالْمُرْوَءَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾<sup>5</sup>

وعند الفقهاء: الحج قصد الكعبة لأداء أفعال مخصوصة، أو هو زيارة مكان مخصوص في زمن مخصوص. فالمكان المخصوص هو الكعبة وعرفة، والزمن المخصوص هو أشهر الحج. ولكل فعل زمان خاص؛ فالطواف مثلاً، عند الجمهور، من فجر النحر إلى آخر العمر، والوقوف بعرفة من زوال الشمس، يوم عرفة، إلى طلوع فجر يوم النحر، والفعل المخصوص أن يأتي محرماً بنية الحج إلى أماكن معينة.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 97.

<sup>2</sup> - سورة آل عمران، الآية 97.

<sup>3</sup> - حَجُّ الْبَيْتِ: مُصَدَّرٌ يُفْرَأُ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، وَهُمَا لُغَتَانِ. وَقِيلَ: الْكُسْرُ اسْمٌ لِلْمَصْدَرِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ «عَلَى النَّاسِ». (انظر التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت 616هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 281/1).

<sup>4</sup> - سورة البقرة، الآية 196.

<sup>5</sup> - سورة البقرة، الآية 157.

<sup>6</sup> - وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1409هـ/1989م، 9-8/3.



وهو زيارة الكعبة، في موسم معين في وقت واحد للجماعة، وفيه وقوف عرفة.<sup>1</sup> أو هو قصد مخصوص إلى موضع مخصوص، في وقت مخصوص، على شرائط مخصوصة.<sup>2</sup>

والحج من الشعائر التي تعبد الله بها عباده المسلمين، من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ومن بعده من أمته إلى يوم الدين. يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا﴾ **إِسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ لَّا نُنْعِمُ بِآلِهَتِهِمْ إِلَهَ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلُمُوهَا** وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ **﴿﴾**.<sup>3</sup> وقد حج أنبياء الله ورسله عليهم السلام، إلى بيت الله الحرام، ودعوا أتباعهم إلى أداء هذه الشعيرة.

ولقد «كانت مكة المكرمة والكعبة المشرفة مقصد الحجاج عبر التاريخ منذ آدم إلى يومنا هذا. وبمرور الزمان غير الناس في طريقة الأداء، وبقي الأصل واحداً، وهو حج بيت الله الحرام. ففي الجاهلية على سبيل المثال، كان العرب يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون ويصفقون. وقد سجل الله عليهم هذه الحالة، فقال مستنكراً: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾»<sup>4</sup>. «والمكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق»<sup>5</sup>. ولما جاء الإسلام أرجعه إلى أصوله وأكملة وأتمه، فأصبح على صورته النهائية، التي ارتضاها الله لعباده، من خلال عمله ﷺ في حجة الوداع، وقوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»<sup>6</sup>.

ولقد خص القرآن الكريم الحج بسورة هي سورة «الحج»، كما ورد اسم «الحج» في القرآن الكريم معرفاً بالألف واللام في خمسة مواضع هي:

- ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ

<sup>1</sup> - ابن العربي، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ/2003م، 1/169. والجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م، 4/142.

<sup>2</sup> - الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م، 4/21.

<sup>3</sup> - سورة الحج، الآية 32.

<sup>4</sup> - سورة الأنفال، الآية 34.

<sup>5</sup> - عبد الباري محمد الطاهر، الحج في الشرائع الإلهية وأثره في ريادة مكة المكرمة تاريخياً، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة، عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ.

<sup>6</sup> - أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، ح310، وأبو داود في المناسك، وأحمد في المسند 337/3، 378، بلفظ عن جابر قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِّنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>1</sup>.

وقوله تعالى: ﴿إِلْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ<sup>2</sup>﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ<sup>3</sup>﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ<sup>4</sup>﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ<sup>5</sup>﴾.

ووردت كلمة «حج» في القرآن الكريم غير معرفة في موضعين:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ<sup>6</sup>﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ<sup>7</sup>﴾.

<sup>1</sup> - سورة البقرة، الآية 195.

<sup>2</sup> - سورة البقرة، الآية 196.

<sup>3</sup> - سورة التوبة، الآية 3.

<sup>4</sup> - سورة الحج، الآية 27.

<sup>5</sup> - سورة البقرة، الآية 189.

<sup>6</sup> - سورة البقرة، الآية 158.

<sup>7</sup> - سورة آل عمران، الآية 97.

## ثالثا: الرحلة الحجية

نقصد بها الرحلات المكية، أو الرحلات الحجازية، تلك الرحلات التي كانت وجهتها أرض الحجاز؛ لأداء مناسك الحج وزيارة الأماكن المقدسة فيها. وهذه الرحلات كانت فردية وجماعية، برية وبحرية، رسمية وشعبية.

ولعل مصطلح «الرحلات الحجية» أكثر دقة من غيره؛ لأن الرحلات الحجازية، تطلق على الرحلات التي يكون قصدها أرض الحجاز عامة، أما الرحلات المكية؛ فقد تكون خارج أوقات الحج. وتقتضي الرحلات الحجية المغربية توافر مجموعة من العناصر، منها الزمان والرفقة والمنطلق والمسار...

أما اختيار المسار في هذه الرحلات فمشروط بعدة شروط، منها الشروط المكانية والزمانية والبشرية التي تتعلق بالقرب والبعد من الجهة المقصودة، وتتوفر وسائل الراحة والأمن والأمان في مختلف المحطات والمنازل، وكذا بطبيعة العلاقات القائمة بين الدول، وبالحالة الصحية لمجتمعات طرق الحج<sup>1</sup>، دون أن ننسى الرفقة؛ أي الركب، فقليلا ما وجدنا من سافر وحيدا خصوصا خلال المرحلة الزمنية التي نحن بصدددها.

وهي تعد من أهم أسباب الالتقاء والاتصال والتواصل بين جميع المسلمين، أينما كانوا، بمركز الإسلام ومهبط الوحي: «مكة المكرمة»؛ بحيث يجتمعون في وقت واحد، على صعيد واحد، لهم قصد واحد، وما يؤلفهم أكثر وأقوى مما يميز بعضهم عن بعض، حتى إنهم في بعض الأحيان يستغنون في التواصل بينهم عن الكلام.

## رابعا: ركب الحج

استعمل مصطلح «ركب الحج» أو «ركب الحاج»<sup>2</sup> أو «ركب الحجيج» أو «قوافل الحج» للدلالة على «الرحلة الحجية الجماعية». ومن المؤرخين من استعمل مصطلح «الركب النبوي»، وفي مقدمتهم المؤرخان محمد بن أحمد أكنسوس في «الجيش العرمرم»<sup>3</sup>، وأبو القاسم الزباني في

<sup>1</sup> - سليمان القرشي، الماء في الرحلات الحجية المغربية بين الحقيقة والمجاز، مجلة «فكر ونقد»، عدد 87.

<sup>2</sup> - محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، تطوان، 1953.

<sup>3</sup> - الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، محمد بن أحمد أكنسوس، تحقيق: أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1994.

«البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف»<sup>1</sup>. وهناك من استعمل مصطلحا ربطه بالجهة التي يمثلها، كالركب الصالحي<sup>2</sup>.

وببقى المفهوم أو المعنى واحداً، وهو الرحلة المنظمة من المغرب، أو غيره من أرض الإسلام، إلى مكة المكرمة، لأداء فريضة الحج وسنة العمرة، وزيارة الأماكن المقدسة.

وقد وردت لفظة «الركب» في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾<sup>3</sup>. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: يعني ركب أبي سفيان وغيره. كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة. وقيل: هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقاً من الله عز وجل لهم، فذكرهم نعمه عليهم. والركب جمع راكب. ولا تقول العرب: ركب إلا للجماعة راكبي الإبل. وحكى ابن السكيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال راكب وركب إلا للذي على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب. والركب والأركب والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال<sup>4</sup>.

وقال السمين الحلبي، في «الدرالمصون في علم الكتاب المكنون»<sup>5</sup>، في معنى لفظة «الركب» في الآية السابقة: «والرَّكْبُ اسمُ جمعٍ لراكب لا جمعُ تكسيرٍ له خلافاً للأخفش لقوله:

بَيَّنَّتْهُ مِنْ عَصْبَةٍ مِنْ مَالِيَا أَخْشَى رُكْبِيًّا أَوْ رُجَيْلًا غَادِيَا

#### خامساً: المغرب

يدل لفظ «المغرب» على مكان من الأمكنة بإضافته إلى المشرق، ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى المغرب، وتختلف المصادر والمراجع في تحديد حدود المغرب وخاصة من نواحيه الثلاث: الشرقية والشمالية والجنوبية، مع العلم بأنه يحد غرباً بالمحيط الأطلسي.

1- أبو القاسم الزباني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دار المعارف الجديدة، الرباط، 1992م.

2- نسبة لمؤسسه محمد بن صالح الذي كان يذهب - مدة حياته كلها - من أسفي للحجاز، (أسفي وما إليه قديما وحديثا)، محمد بن أحمد العبدري الكانوني، ص99.

3 - سورة الأنفال، الآية42.

4- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، 1423هـ/2003م، 21/8.

5- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي(ت756)، الدرالمصون في علم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 1406هـ، 612/5.

## 1. الحدود الشرقية

يجعل أغلب المؤرخين الحدود الشرقية للمغرب ما بين برقة والإسكندرية. فالإصطخري<sup>1</sup> (ت 340هـ/951م) يقول إنها: «بين الإسكندرية وبرقة، من حد بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، حتى يمضي على ظهر الواحات، إلى بركة (صحراء) تنتهي إلى أرض النوبة»<sup>2</sup>. وهذا يتماشى مع رأي المقدسي<sup>3</sup> (ت حوالي 375هـ/985م) الذي زار المنطقة، على ما يبدو، وجعل أول كُورَه، «من قبل مصر، برقة» مشيراً إلى أن اسمها يطلق كذلك على اسم القصبة<sup>4</sup> مما يدل على أنه يقصد إقليم برقة وليس مدينتها؛ ويدقق الزُّهري<sup>5</sup> أكثر، في هذا الأمر فيقول إن أول بلاد المغرب، من جهة الشرق، جبال برقة أوثنان<sup>6</sup>، وهذه الجبال على آخر مصر وأول عمل القيروان<sup>7</sup>، والقيروان هنا، كما هو واضح، يرادف بلاد المغرب، ويبين أن كورة برقة تابعة له.

غير أن ابن خلدون يدخل عنصراً آخر مهماً في تحديد المغرب، فيقول إن العرف في وقته (ق8-9هـ/14-15م)، بين سكان المغرب، أنهم لم يدخلوا إقليم برقة ضمنه منطقة المغرب، لأنه يختص بمواطنهم؛ أي إن ابن خلدون يأخذ بعين الاعتبار الناحية الديموغرافية، مما يدفعنا إلى البحث في موضوع «ديار البربر ومواطنهم»، أو ما يصطلح عليه في بعض الأدبيات بأرض «تامزغا» في القديم، وهذا الأمر سيساعدنا في الوصول إلى تحديد أدق للمغرب.

<sup>1</sup> - هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، ويقال له الكرخي: جغرافي، رحالة، من علماء إصطخر (بإيران)، قام بسياحة طاف خلالها ببلاد العرب وبعض بلاد الهند، وبلغ الأوقيانوس الأتلانتيكي، واستعان بكتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخي، ولم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره؛ ألف كتابه «صور الأقاليم» على اسم كتاب البلخي، و«مسالك الممالك». ونقل ياقوت عنهما أو عن أحدهما في معجم البلدان، وأغفل ترجمته أو الإشارة إليه في كلامه عن إصطخر، مكتفياً بتسميته في مقدمة المعجم أبا إسحاق الإصطخري. (دائرة المعارف الإسلامية، 256/2، وفيها: (لا نجد ذكراً لسيرته في أي كتاب. ويرى دي خويه أن كتابه «مسالك الممالك» لم يكن سوى نسخة جديدة لمصنف سابق كتبه أبو زيد البلخي. ودائرة البستاني، 744/3. وفيها أنه ابتدأ رحلته سنة 951م. ومعجم المطبوعات، 453 وهدية العارفين، 6/1).

<sup>2</sup> - الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، مسالك الممالك، دار صادر، بيروت، 2004، ص36.

<sup>3</sup> - محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، ويقال له البشاري، شمس الدين، أبو عبد الله: رحالة جغرافي، ولد في القدس. وتعاظم التجارة؛ فتجشم أسفاراً هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد، ثم انقطع إلى تتبع ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (انظر الأعلام للزركلي، 312/5).

<sup>4</sup> - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991، ص80.

<sup>5</sup> - محمد بن أبي بكر الزهري (حوالي 532هـ/1137م)، عالم بتقويم البلدان، من أهل غرناطة، له كتاب الجغرافيا. (معجم المؤلفين، تراجم مصنفی الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، 167/3)،

<sup>6</sup> - الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، طبعة مكتبة الثقافة الدينية، ص107.

<sup>7</sup> - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص106

ويعتبر ابن عبد الحكم<sup>1</sup> (ت257هـ/871م) أقدم من تحدث عن هجرة البربر من فلسطين، وذكر أن مسيرتهم انتهت إلى «لوبة ومراقية»، وهما كورتان من كور مصر الغربية... فتفرقوا هنالك، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال<sup>2</sup>... وهي أرض برنيق كما يشير إلى ذلك الإدريسي<sup>3</sup>، وابن خلدون<sup>4</sup>، وابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك<sup>5</sup>.

## 2. الحدود الشمالية

يتكرر الاختلاف نفسه بالنسبة للحدود الشمالية لبلاد المغرب؛ بحيث نجد اختلافا كثيرا في كتب الجغرافيا. فابن خرداذبه<sup>6</sup>، واليعقوبي<sup>7</sup> وابن الفقيه الهمداني<sup>8</sup>، أدخلوا الأندلس في ضمن بلاد المغرب عندما وصفوها.

ويطلق ابن رسته<sup>9</sup> (توفي قبل 290هـ/903م) تسمية المغرب على الاتجاه الغربي، وليس على إطار جغرافي معين. ومن خلال إطلاقه تسمية «بحر الروم وإفريقية ومصر» على جزء من البحر الأبيض المتوسط، يتبين أنه يعني ببحر الروم السواحل الشمالية التي ينتشر فيها بحر الروم، ويعني بإفريقية السواحل، من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر<sup>10</sup>.

<sup>1</sup> - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري، المالكي (ت عام 257هـ/871م)، محدث، ومؤرخ، وفقيه، من أهل مصر. (انظر معجم المؤلفين، 96/2).

<sup>2</sup> - ابن عبد الحكم، كتاب فتوح إفريقية والأندلس، حققه وقدم له: عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964م.

<sup>3</sup> - إسماعيل العربي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص212.

<sup>4</sup> - ابن خلدون، كتاب العبر، 128/2.

<sup>5</sup> - فتوح إفريقية والأندلس، ص34.

<sup>6</sup> - ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، 1881، ص3-2. وابن خرداذبه هو أبو القاسم، عبيد الله بن خرداذبه الخرساني، مؤرخ، وكاتب وراوية للأخبار والآداب، توفي في حدود سنة 300 هـ، من مصنفاته: المسالك والممالك، الندماء والجلساء، اللهو والملاهي، كتاب الطبخ، وآداب السماع... (انظر معجم المؤلفين، 349/2).

<sup>7</sup> - اليعقوبي، كتاب البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م ص 180 فما بعدها.

<sup>8</sup> - كتاب البلدان، ص30.

<sup>9</sup> - أحمد بن عمر، أبو علي ابن رسته (توفي نحو 300هـ/912م) عالم جغرافي. فارسي الأصل، من أهل أصفهان. رحل إلى بلاد العرب حاجا، سنة 290هـ، وصنف «الأعلاق النفيسة». (انظر ترجمته في الأعلام للزركلي، 185/1، دائرة المعارف البستانية، ط2، 92/3، معجم المطبوعات 107، معجم البلدان 565/3).

<sup>10</sup> - ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، بيروت، 1998م،

ويقسم الإصطخري: الغرب (وليس المغرب) إلى نصفين ممتدين على بحر الروم (الأبيض المتوسط)، يمثل النصف الشرقي الضفة الجنوبية منه، ويمثل النصف الغربي الأندلس<sup>1</sup>، ويذكر في حديثه عن بحر الروم أنه «يأخذ<sup>2</sup> من البحر المحيط (الأطلسي)، في الخليج الضيق (المضيق) الذي بين المغرب وأرض الأندلس حتى ينتهي إلى الثغور الشامية»<sup>3</sup>. ويقول في مكان آخر: «وإنما تركنا أن نذكر في طول الإسلام حد المغرب إلى الأندلس، لأنها مثل الكم في الثوب، وليس في شرقي المغرب ولا في غربيها إسلام، لأنك إذا جاوزت مصر في أرض المغرب، كأن جنوبي المغرب بلاد السودان وشمالي المغرب بحر الروم ثم أرض الروم»<sup>4</sup>.

فالإصطخري، إذًا، يدخل الأندلس في إطار النصف الغربي (الشمالي) من المغرب، عند تقسيمه نصفين، ويميز المغرب عن الأندلس، عند وصفه بحر الروم، ويجعل الفاصل بينهما مضيق جبل طارق، ويلاحظ أنه عند تجاوز مصر «في أرض المغرب»، كان شمال المغرب بحر الروم ثم أرض الروم. بمعنى آخر، فإن هذه الأراضي لا تدخل في دار الإسلام، وبالتالي فهي غير تابعة لمغربه.<sup>5</sup>

ويطلق ابن حوقل<sup>6</sup> (ت378 هـ/988م) أحيانًا مصطلح «المغرب» على البحر الأبيض المتوسط، معتبرا جانبه الغربي هو الذي يمتد عليه بعض المغرب، من برقة شرقا إلى أزيل<sup>7</sup> غربا، في حين يشمل جانبه الشرقي بلد الروم، من حدود الثغور الشامية إلى جليقية (Galicia)، ثم باقي ذلك إلى آخره ما كان في يد أصحاب الأندلس<sup>8</sup>، وهذه «جزيرة تتصل بالبر الأصغر، من جهة جليقية

<sup>1</sup> - المسالك والممالك، ص36-37.

<sup>2</sup> - أي: يبدأ.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 6.

<sup>4</sup> - نفسه، ص 11-12.

<sup>5</sup> - ابن عميرة محمد، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2008، ص:15.

<sup>6</sup> - أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصل، (توفي بعد 367هـ/977م)، رحالة، رحل من بغداد سنة 331هـ ودخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس وغيرها. ويقال: كان عينًا للفاطميين له «المسالك والممالك»، (انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي، 111/6، دائرة المعارف الإسلامية، 145/1 والرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص39-42).

<sup>7</sup> - أزيل بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة ولام وياء ساكنة أيضا، مدينة بالمغرب في بلاد البربر بعد طنجة في زاوية الخليج الماد إلى الشام عليها سور متعلقة على رأس جرف خارج في البحر وهي لطيفة وشرهم من آبار عذبة قال ابن حوقل الطريق من برقة إلى أزيل على ساحل بحر الخليج إلى البحر المحيط ثم تعطف على البحر المحيط يسارا، (انظر معجم البلدان للحموي، دار الفكر، بيروت 170/1) هي مدينة أصيلا حاليا، وهي توجد على ساحل المحيط الأطلسي، على بعد أربعين (45) كلم جنوب طنجة.

<sup>8</sup> - ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص16.

وإفريقية، وهي في جملة المغرب»<sup>1</sup>. لكنه عندما يرسم خريطة يبين فيها حدود المغرب يخرج الأندلس، في حين يعتبر المقدسي كلا من الأندلس وصقلية من جزائر إقليم المغرب.<sup>2</sup>

وقد تحدث أبو عبيد البكري (ت 487هـ/1094م) في كتابه «المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب» عن إفريقية والمغرب وبلاد السودان، فحصر حدود إفريقية الشمالية «من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا...»<sup>3</sup> ولا يشير إلى الأندلس ولا إلى صقلية.

وبعد البكري بحوالي نصف قرن، يعتبر الزهري (ت 532هـ/1137م) مضيق جبل طارق (الخليج من البحر الأعظم المسى بالزقاق) الحد الفاصل بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب.<sup>4</sup> ويضم جزر يابسة وميورقة إلى الأندلس<sup>5</sup> وجزيرة صقلية إلى بلاد الإفرنج.<sup>6</sup> غير أن الشريف الإدريسي (ت حوالي 550هـ/1160م)، الذي عاصره، تردد كثيرا في فصل المغرب عن الأندلس، فهو لم يحسم الأمر.<sup>7</sup>

أما عبد الواحد المراكشي، في كتبه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، الذي ألفه بعد قرن تقريبا (سنة 621هـ/1224م)، فيميز بين المغرب وبين الأندلس، حيث نجده يعتبر السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، بمثابة خط حدودي شمالي للمغرب بدءا بمدينة برقة وانتهاء بمدينة طنجة<sup>8</sup>، في حين نجد ابن عذارى (ت 695هـ/1295م)، يأخذ بعين الاعتبار التمييز بين العدوتين ابتداء من العنوان: «البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب»، الاقتناع نفسه نجده عند ابن خلدون في كتابه العبر<sup>9</sup>، حيث يعتبر البحر الرومي حدا شماليا للمغرب.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها هي أن أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب يعتبرون حدود بلاد المغرب، من الناحية الشمالية، هي السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ولا تتجاوزها

<sup>1</sup> - نفسه، ص 65-66.

<sup>2</sup> - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 315.

<sup>3</sup> - أبو عبيد البكري (ت 487هـ)، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب «المسالك والممالك»، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 21.

<sup>4</sup> - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافيا، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ص 113.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، ص 113 وما بعدها.

<sup>6</sup> - المصدر نفسه، ص 130-131.

<sup>7</sup> - الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج صادق، ص 172 فما بعدها.

<sup>8</sup> - عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419هـ/1998م، ص 7.

<sup>9</sup> - كتاب العبر لابن خلدون، 195/6.



إلى الأندلس ولا إلى جزر البحر المذكور، ويدعم هذه النتيجة العنصر الديموغرافي؛ بحيث إذا اعتمدنا العنصر البشري معياراً للتحديد، فإن بلاد البربر (تامزغا) هي نفسها بلاد المغرب. لكن إذا استحضرننا المفهوم التاريخي للمغرب، فإننا نرجح ما ذهب إليه العديد من الباحثين، وهو أن الحدود الشمالية للمغرب تمتد إلى أقصى نقطة في شبه القارة الإيبيرية.

### 3. الحدود الجنوبية.

وفيما يخص الحدود الجنوبية لبلاد المغرب، نجد أن أغلب المؤرخين والجغرافيين يتفقون على أن الصحراء تحد المغرب جنوباً.

فقد أشار الإصطخري إلى أن الرمال تغطي حدود بلاد المغرب من البحر المحيط (الأطلسي) إلى ما وراء سلجاسة، ثم تمتد بعدها إلى زويلة (قصة فزان)، فإلى ظهر الواحات بمصر<sup>1</sup>. ويعتبر ابن حوقل حدود المغرب الجنوبية «نواحي أرض غانة وأرض أودغست»<sup>2</sup>.

وتبعد أودغست، حسب الإدريسي، عن مدينة باريسى السودانية، الواقعة إلى الجنوب منها باثنتي عشرة مرحلة، وبمثليها عن عانة، وبإحدى وثلاثين مرحلة من وارقلان<sup>3</sup>. وتتفق أغلب المصادر على تأكيد غلبة بربر صنهاجة على سكانها<sup>4</sup>.

ويجعل اليعقوبي أهل فزان أخلاطاً من الناس، غير أن ابن حوقل، بعده يوضح أن قبائل من البربر المهملين تعيش على المياه الموجودة في نواحيها<sup>5</sup>.

وخلاصة القول: إنه عند أخذ العنصر البشري بعين الاعتبار يتبين أن البربر، من مختلف القبائل، كانوا يتجولون في الصحراء طويلاً وعرضاً، وكانت لهم بها مراكز تجمع كثيرة، والكثير منها مشرف على بلاد السودان. وما قلنا أعلاه عن الشمال نقوله عن الجنوب، أي أن المغرب يمتد إلى كل نقطة كانت تابعة للسلطة المركزية.

<sup>1</sup> - الإصطخري، مسالك الممالك، ص 37.

<sup>2</sup> - ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996م، ص: 65.

<sup>3</sup> - القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزعة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، 1903، ص 212.

<sup>4</sup> - من هؤلاء: اليعقوبي في «كتاب البلدان»، ص 360؛ ابن حوقل في «صورة الأرض»، ص 100-101؛ ويذكر البكري، في مكان آخر أن من سكانها من زناتة مع العرب، المصدر السابق، ص 168.

<sup>5</sup> - صورة الأرض، ص 84.

## 4. معايير أخرى لتحديد بلاد المغرب (التاريخي)

ثمة عنصر مهم نراه قد يؤثر، إلى حد بعيد، في مفهوم المغرب الذي نحن بصدد تحديده، وهو المتغير السياسي، خصوصا وأننا حصرنا زمن الدراسة في مرحلة الحكم المريني التي تميزت بما تميزت به غيرها من المراحل من مد وجزر، حيث إن الرقعة الجغرافية للدولة المغربية على عهد بني مرين لم تستقر بصفة نهائية، بل امتدت غربا، وشرقا، وجنوبا، وشمالا.

وفي هذا الصدد يقول محمد القبلي وهو يتحدث عن عناصر التبدل والاستمرار بمغرب العصر الوسيط إن «كل الجذور التي سوف نقف عندها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأرض، كما هو الشأن بالنسبة لسائر الجذور، وما نقصد بالأرض هنا هو الفضاء الجغرافي المعروف اليوم بالمغرب الأقصى أو المغرب، ولعلني لست في حاجة إلى التذكير بأن هذا الفضاء ينتهي لفضاء أوسع يسمى هو الآخر بالمغرب أحيانا، وإن كان يتسع لما يعرف حاليا بالمغرب أو المغرب الكبير»<sup>1</sup>.

كذلك علينا ألا ننظر إلى التحركات السكانية في العصر الوسيط، بنفس المنظور السياسي والقانوني والاجتماعي المعاصر. وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الهادي التازي: «نعطي للمغرب بعدا جغرافيا واسعا يشمل قواعد الأندلس وبلدان المغرب الكبير وبلاد السودان، لأننا نعرف أن المغرب كان في فترة واسعة من الفترات يمثل إقليما واحدا، بحيث نجد أن القاضي يمكن أن يكون أصلا من المغرب الأدنى (تونس حاليا) ويتعلم بقرطبة (الأندلس)، ويستقضى بالمغرب الأوسط (تلمسان) ليتحول إلى قضاء إشبيلية، ثم يعين قاضيا بالمغرب الأقصى (فاس) على أن يصل إشعاعه إلى مالي في قلب إفريقيا الغربية»<sup>2</sup>.

وبناء على ما سبق، سنعمد ما ذهب إليه الدكتور عبد الهادي التازي، أي أن المغرب يتكون من الدول الحالية: ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا والمغرب إضافة إلى الأندلس، وما ذهب إليه الدكتور أحمد عبد اللطيف حنفي، في قوله: «ويتسع لفظ المغرب عند كتاب المسلمين ليشمل

<sup>1</sup> - محمد القبلي، حول التبدل والاستمرارية بمغرب العصر الوسيط، سلسلة الدروس الافتتاحية، الدرس الثاني، 23 أكتوبر 2000، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.

<sup>2</sup> - عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة ورحلة، مراجعة عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، 1426هـ/2005م، 23/1.

كذلك الأندلس (إسبانيا والبرتغال حالياً) قبل انفصاله عن حكم الإسلام، وقد يتسع أيضاً ليشمل صقلية (في جنوب إيطاليا) وكل بقعة حل بها المسلمون في أوروبا الغربية، فهناك المغرب الإفريقي وهناك المغرب الأندلسي، ولهذا، فإن كلمة المغرب أو مغاربة تعني أيضاً الأندلس وأهله»<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - أحمد عبد اللطيف حنفي، المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، 5/1.

## علاقة المجتمع الموحد بالأولياء والأضرحة خلال فترة الأزمات

د. جمال رداحي

الدكتوراه في التاريخ الوسيط

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة طنجة تطوان الحسيمة  
المغرب



### ملخص:

تروج هذه الدراسة تسليط الضوء على موضوع غاية في الأهمية وهو علاقة المجتمع الموحد بالأولياء والأضرحة خاصة خلال فترة الأزمات، في محاولة الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى تقديس الأولياء بالمجتمع الموحد ورصد أهم متصوفي هذا العصر، والوقوف على الدور الذي يلعبه المتصوفة خلال الأزمات والكوارث ثم استمرارية كرامة الولي بعد الموت، خاصة أن الأولياء خلال الفترة موضوع الدراسة أصبحت لهم مكانة كبيرة داخل المجتمع نظير الأدوار التي أصبحوا يطلعون بها على مستويات متعددة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت هذه الأدوار تزداد خلال فترة الأزمات التي يعرف المجتمع، وعندما تشتد الأزمة على الناس يتجهون إلى الأولياء، في محاول الاستنجاد بهم، على اعتبار امتلاكهم لكرامات تتم مختلف مناحي الحياة، وحسب كتب المناقب فكرامة الولي لا تنقطع بموته بل تستمر وهذا ما يفسر لجوء الناس إلى زيارة ضريحه خلال فترة الأزمات والكوارث.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رداحي، جمال. (2024، أكتوبر). علاقة المجتمع الموحد بالأولياء والأضرحة خلال فترة الأزمات. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 33-50.

### Abstract:

This study promotes shedding light on a very important topic, which is the relationship of the Almohad community with saints and shrines, especially during periods of crises, in an attempt to identify the real reasons that led to the sanctification of saints in the Almohad community and to monitor the most important Sufis of this era, and to identify the role played by Sufis during crises and disasters, then the continuity of the saint's dignity after death, especially since the saints during the period of the study have become highly regarded within society in light of the roles they have come to assume on multiple levels, including political, economic and social. These roles increase during periods of crises that society knows, and when the crisis intensifies on people, they turn to the saints, in an attempt to seek their help, considering that they possess miracles that concern various aspects of life, and according to the books of virtues, the saint's dignity does not end with his death, but rather continues, and this explains why people resort to visiting his shrine during periods of crises and disasters.

## مقدمة

إن تاريخ التصوف والحركة الصوفية يعتبر جزءاً لا يتجزأ من التاريخ العام للمغرب الأقصى الذي يشمل جوانب متعددة، ولا يتعلق الأمر بالجانب السياسي والاقتصادي فقط، بل يمتد إلى التاريخ الذهني والثقافي إذ أصبح للتصوف خلال القرون الوسطى وخاصة العهد المرابطي والموحدي تأثير كبير في توجيه الناس في كل جوانب الحياة، وذلك لاعتبار التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها الدولة الموحدية، والتي جعلت الظروف في بلاد المغرب الأقصى ملائمة لظهور المتصوفة الذين أصبحوا يلعبون أدوار مهمة داخل المجتمع وعلى مستويات متعددة، جعلتهم يحضون بمكانة خاصة لدى الناس وصلت لدرجة التقديس سواء في حياتهم أو بعد الممات. من هنا سنحاول من خلال هذه الدراسة الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى تقديس الأولياء بالمجتمع الموحدي ورصد أهم متصوفي هذا العصر، والوقوف على الدور الذي يلعبه المتصوفة خلال الأزمات والكوارث ثم استمرارية كرامة الولي بعد الموت فحسب كتب المناقب فكرامته لا تنقطع بموته بل تستمر وهذا ما يفسر لجوء الناس إلى زيارة ضريحه خلال فترة الأزمات والكوارث.

فيما يمكن اعتبار قلة المادة المصدريّة من العراقيل التي واجهت هذه الدراسة، حتى وان وجدت يمكن نعتها بالبخيلة، فيما يخص علاقة الأولياء بالسلطة وبما هو اقتصادي واجتماعي وبالتالي تتحدث عنه بمعزل عن علاقته التفاعلية مع محيطه الاقتصادي والاجتماعي، ورغم كثرة ما كتب عنها في الجانب العسكري والسياسي يبقى الجانب الفكري والمذهبي قليل جداً، وبذلك وجب علينا الرجوع إلى بعض مصادر الفترة المدروسة، ومحاولة تقصي ما يهم هذا الجانب.

## أولاً: الأولياء والأضرحة: تحديد المفهوم

## الولي

يدل لفظ "الولي" على معان متعددة، فالولي من أسماء الله الحسنى، والولي هو الناصر، وقيل المتولي لأمر العالم والخلائق القائم بها، والولاية: النصرة، والولي: ولي اليتيم الذي يلي أمره ويقوم بكفالاته... فلان أولى هذا الأمر من فلان، أي أحق به. والولي: الصديق والنصير. والموالاة ضد

المعاداة، والولاء المالك والعبد، والولي: القرب والدنو، وتوالى الشيء: يتابع، وتوليت فلانا: أي أتبعته ورضيت به".<sup>1</sup>

وحدد القشيري للولي تعريفاً إذ يقول: "إن الولي له معنيان: الأول، وهو من يتولى الله أمره، والثاني وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، وكلا التعريفين واجب حتى يكون الولي ولياً<sup>2</sup>، قوله "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"<sup>3</sup>.

ويمكن اعتبار الأولياء نخبة المتصوفة، وهذا ما جعل درمنغهام يلقيهم بـ "الأولياء الجديون" الذين يشكلون موضوع كتب المناقب في مقابل الأولياء الشعبيين<sup>4</sup>، ويرى أحد الباحثين أن الولي يبدو كشخص يرفض "السياسي" ليتفرغ فقط "للمقدس" ويشمل نشاطه حتى الحاضرة<sup>5</sup>.

والأولياء هم من عامة الناس بل إن في كثير من الأحوال تنتسب الولاية لشخص عرفه الناس فاقدا للعقل، ويؤكد ابن خلدون هذا القول "ومن هؤلاء المريدين المتصوفة قوم بهاليل معتوهون هم أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين"<sup>6</sup>.

### الضريح:

هو الشق في وسط القبر واللحد في الجانب، وقال الأزهري في ترجمة اللحد والضريح ما كان في وسطه، يعني القبر، وقيل الضريح القبر كله، وقيل هو قبر بلا لحد، وضح الضريح للميت يضرحه ضرحاً، حفر له ضريحاً، وقال الأزهري سمي ضريحاً لأنه يشق في الأرض شقاً<sup>7</sup>.

ويعتبر الضريح أو المقام مشيدة معمارية تبنى على قبر أحد الأشخاص تخليداً لذكراه، وقد ظهرت هذه الفكرة في الحضارات القديمة التي استخدمت مدافن ملوكهم<sup>8</sup>، وقد أصبح الضريح داخل العديد من البلدان اليوم لا يشكل شيئاً غير عادي أو مثير للانتباه، فحيثما ولى المرء وجهه

<sup>1</sup> - ابن منظور، م س، مجلد 15، ص ص 406-407.

<sup>2</sup> - القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تحقيق، عبد الحليم محمود، دار الشعب، القاهرة، 1989، ص 463.

<sup>3</sup> - سورة يونس الآية 63.

<sup>4</sup> - Emile Dermenghem, Le Culte des Saints Dans L'islam Maghrébin, Gallimard, Paris, 1954, P.11

<sup>5</sup> - ضريف محمد، مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي، مساهمة في التركيب، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي،

العدد 1، الدار البيضاء، 1986، ص 29.

<sup>6</sup> - ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، الجزء الأول، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب،

الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005، ص 172،

<sup>7</sup> - ابن منظور، مجلد 2، م س، ص 526

<sup>8</sup> - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي والبشير بن سلامة، دط، الدار التونسية، 1969، ص 78.

إلا ويصادف قبة لضريح يضم رفات رجل أو امرأة "ولي . صالح . متصوف . مجذوب..." يزورها الزائرون للتبرك وطلب الحماية وغير ذلك<sup>1</sup>.

كما أن عدم القدرة على التفاعل الإيجابي المبني على العقل والمنطق مع الواقع المعقد، دفع الناس إلى تقديس الأضرحة التي شكلت عبر الزمن آليات لضبط السلوك الفردي وإعطاء هوية خاصة للجماعة في إطار تفاعلها السلبي أو الإيجابي مع الجماعات الأخرى التي تتقاسم معها نفس المحيط الجغرافي، والضريح كمكان مقدس يترسخ في الذاكرة الجماعية ويلعب دورا مهما في تحقيق توافقهم النفسي والاجتماعي والاقتصادي<sup>2</sup>

### ثانيا: علاقة المجتمع الموحدى بالأولياء بعد الموت

#### مفهوم الكرامة

الكرامة لغة اسم من الإكرام والتكريم، تقول أكرمت العالم وكرمته إكراما وتكريما أي فعلت معه ما يدل على احترامه وتقديره وتعظيمه<sup>3</sup>، واصطلاحا هي: كل أمر خارق للعادة وللمألوف يظهره الله على يدي عبد مؤمن صالح غير مقرون بدعوى النبوة، إذ قد حصل الإجماع على أن الكرامة لا يمكنها أن تظهر على يد فاسق<sup>4</sup>.

لا تختلف تعاريف باقي علماء الفترة عن هذا التعريف إلا قليلا في بعد جوانبه<sup>5</sup>، وجاء في التشوف أن الكرامة تتحقق لمن تعمق في الزهد والعبادة، عارضا عن ملذات الدنيا وأهوائها<sup>6</sup>، وهذا ما نجده عند الماكري في "المنهاج الواضح" الذي فصل في مدلولاتها وحدودها<sup>7</sup>، إضافة إلى غيره من الباحثين الذين أثبتوا جواز وقوعها عقلا ونقلا<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - جنوبي محمد، الأولياء في المغرب. حياة وسير بعض مشاهير أولياء المغرب.. منشورات كنال أوكردوي، 2004، ص. 8.

<sup>2</sup> - فرحات المصطفى، طقوس وعادات أهل بزو، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات والتعابير الأدبية، سلسلة دراسات وأبحاث، ط 1، 2008، ص. 18.

<sup>3</sup> - جنوبي محمد، الأولياء في المغرب: حياة وسير بعض مشاهير أولياء المغرب، منشورات كنال أوجوردوي، الرباط، الطبعة الثانية، 2004، ص 32.

<sup>4</sup> - العزفي أحمد، عامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، د ط، 1989، ص 23.

<sup>5</sup> - ابن الزيات، التشوف، م س، ص 35-6.

<sup>6</sup> - نفسه، ص 75.

<sup>7</sup> - الماكري أحمد، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007، ص 81-104.

<sup>8</sup> - جنوبي، الأولياء في المغرب، م س، ص 32.

حاول عدد من الدارسين تطبيق قراءات مختلفة للكرامات وأخضعوها للتحليل والدراسة، ليخلصوا إلى أن كثيراً من هذه الكرامات الصوفية وخوارقهم هي حكايات خيالية، نواتها من زمن سحيق ليس لها من دلالات واقعية إلا ما تؤديه من وظائف مختلفة<sup>1</sup>، ويرى بوتشيش أن الكرامة "ابنة شرعية لأزمة عمت المجتمع في أواخر العصر المرباطي لذلك جاءت بمثابة تعرية لهذا الواقع ومحاسبة المسؤولين على الأزمة، كما امتلكت رؤية خاصة لمعالجة قضايا المجتمع<sup>2</sup>، وأن خطابها في الغالب الأعم "خطاب مباشر يعتمد الرمز والتمويه والمناورة واللف والدوران، وهي في نظره أكثر الطرق التواء وتمويهاً"<sup>3</sup> ونشأت، في أغلب الأحيان في أوساط العامة<sup>4</sup>، ويجعلها غيره في مقابل الفكر العقلاني" بأنها بنية أساسية في الفكر البشري، وهي كالبنية العقلانية مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود، وهي ممارسة لمعتقد ديني، وتأكيد لهذا المعتقد<sup>5</sup>

## 2- وظيفة الكرامة بعد موت الولي

يروى الصومعي، قول أبي عاشر السلاوي (ت764هـ): "الكرامات لا تنقطع بموت الولي"<sup>6</sup>. هكذا يقرر هذا الولي قاعدة ذات أثر بالغ في ترسيخ قيمة الأولياء واستمرار أثرهم في المجتمع حتى بعد وفاتهم، ليدخلوا "فترة المدى الطويل"، لذلك فهناك من الأولياء من ظهرت كرامته في حياته ومماته على حد سواء، "كأبي يعزى". وهناك من الأولياء "من ظهرت كراماته بعد مماته أكثر من حياته، كأبي العباس السبتي"<sup>7</sup>.

ويؤكد هذا القول ابن قنفذ: "فإن قلت هل تنقطع الكرامة بموت صاحبها أم لا؟ قلنا: لا تنقطع بموته، بل تظهر، فكثير من لا يعرف في الحياة تشتهر بركاته بعد الممات، وتلوح عند قبره البركات. ولقد حضرت عند ولي الله على التحقيق وهو الشيخ أبو العباس أحمد ابن عاشر الأندلسي بمدينة سلا في عام ثلاثة وستين وسبع مائة. سأله أحد الفقهاء عن هذا الفضل، فأنكر عليه سؤاله وقال: "لا تنقطع الكرامة بالموت؛ انظر إلى السبتي!" ويشير إلى الشيخ الفقيه العالم

<sup>1</sup> - مفتاح محمد، التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8هـ/14م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1981، القسم الأول، ص 226.

<sup>2</sup> - القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، م س، ص 140.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 140-141.

<sup>4</sup> - الراوي عبد الستار عز الدين، التصوف والباراسيكولوجيا، مقدمة أولى في كرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة، دار الفارس، بيروت، ط 1، 1994، ص 11.

<sup>5</sup> - زيعور علي، الكرامة الصوفية: الأسطورة والحلم القطاع اللاوعي في الذات العربية، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1984، ص 83.

<sup>6</sup> - الصومعي، م س، ص. 112.

<sup>7</sup> - نفسه، ص. 112.



المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش وما ظهرت عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات<sup>1</sup>، ويعلق ابن قنفذ على ذلك قائلاً: "فأعجبني إشارة ابن عاشر بهذا المعنى أعني أن الكرامة لا تنقطع بالموت"، ويؤكد مرة أخرى: "فأنت ترى من هذه صفته [يقصد ابن عاشر] يصح أن الكرامة لا تنقطع بالموت، ويحيل على من هو معاين في السبتي رحمه الله".<sup>2</sup>

إن توالي بركات وكرامات الولي بعد موته، حسب كتب المناقب، هو ما يفسر خوضها في سجل حول انقطاعها من عدمه، فتخلص جميعها إلى التأكيد على عدم انقطاعها<sup>3</sup>، ويبدو أن هذا السجل الذي بدأ الحديث عنه مع وفاة أبي العباس السبتي (ت 601هـ)، واستمر إلى ما بعد القرن الثامن<sup>4</sup>. كانت الغاية من إثبات هذه الكرامات المرافقة لموت الأولياء، تهدف إلى تثبيت هيبته في موته.

لذا فالأولياء يرون أن "مادة الولي لا تنقطع إلى يوم القيامة، يعني: حتى تنقطع الولاية من الأرض". مما أدى إلى عدم انقطاع وفود الزائرين إلى ضريح الولي بعد موته بأعداد قد تكون أكبر بكثير في حياته<sup>5</sup>. ليتطور الأمر إلى تنظيم هذه الزيارات وإنتاج أدبيات في فضلها<sup>6</sup>، وتوقيتها بمواسم محددة، واستقبال "الفتوح" و"الوعود"<sup>7</sup>.

لذلك أضحت للأضرحة مكانة كبيرة بين الناس، حيث أخذت حيزاً مهماً في حياتهم، ورويت قصصاً كثيرة ومتعددة تتحدث عن أصحاب الأضرحة، هذه القصص لن يتأتى لها الوجود، إن لم

<sup>1</sup> - ابن قنفذ، م س، ص 6-7

<sup>2</sup> - نفسه، ص 10.

<sup>3</sup> - الصديقي طاهر، السر المصون في ما أكرم به المخلصون، تحقيق فرحات حليلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988، ص 48.  
ابن عاشر أحمد بن عبد الرحمان، تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر، تحقيق مصطفى أبو الشعراء، منشورات الخزنة العلمية الصبيحية، سلا، ص 50.

<sup>4</sup> - الهلالي محمد ياسر، موت الولي في كتب المناقب بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، مجلة المناهل، العدد 91. 92، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، 2012، ص 399.

<sup>5</sup> - مثال ضريح أبي العباس السبتي بمراكش. أنظر التنيكتي، أحمد بابا، نيل الإبهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة الطبعة الأولى، ج 2، 1987، ص 68-69، وانظر عن كثرة زوار ضريح أبي يعزى بعد حوالي ثلاثة قرون من وفاته: الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، ص 205.

<sup>6</sup> - عن معاني هذه الألفاظ أنظر: الشاذلي، عبد اللطيف، التصوف والمجتمع. نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، أطروحات ورسائل (4)، ص 197-206.

تجد تربة خصبة بين الناس، لذلك حيكت مجموعة من القصص والأساطير إلى أن وصلت إلى درجة التداخل والتناغم مع المعتقدات الشعبية، التي هي بمثابة ركيزة مقدسة بين الناس، لا يطالها التغيير ولا النقصان، سواء اجتماعيا أو تاريخيا.

فالإنسان منذ القدم تعامل مع المعتقدات الطبيعية والاجتماعية تعاملًا عقائديًا خرافيًا، حيث يرجع عدد من النكبات والأزمات إلى كائنات خرافية، غير موجودة لكنه يعتقد في قدرتها على تحقيق الأشياء التي عجز عنها، وأعانتها وساعدته أمام ما يعترضه من صعوبات وما يجتازه من أزمات، وهذا الدور هو ما ينطبق بالضبط على زيارة الأضرحة والأولياء في الثقافة والمخيل الشعبي عموماً، ورسوخها في أوساط العامة<sup>1</sup>، لدرجة يمكن التساؤل فعلاً عن طبيعة الفكر الذي دعم هذه الأهمية، ورسخ بالتالي عدداً من الطقوس. التي لا تزال حاضرة بقوة إلى اليوم كما أن التبرك بهذه الأماكن يختلف تبعاً لكرامات الولي. أي أننا نجد أن هذا الولي أو الضريح يتخصص في كذا، والآخر في شيء مختلف كأنه نوع من توزيع الأدوار.

إن قداسة الولي حسب كتب المناقب، وما يمثله من قوى ظاهرة للعيان، جعلت الناس ينجذبون إليه في ظل افتقارهم للقدرة التي تتوفر لديه، وكذلك ما يجسده من قوى مادية<sup>2</sup>، تدفع إلى التطلع أكثر فأكثر إلى نماذج أجبت الرغبة إليها ظروف اجتماعية وسياسية عامة، وأخرى طبيعية، بواتها مكانة مهمة، يقول في شأنها أحمد بوشارب "تعود هذه المكانة التي خص بها المجتمع أولئك الأولياء. الأضرحة. إلى عدة عوامل، جعل الجهل العامي يتقبل أكاذيب وخوارق وهمية، روجها المستفيدون من ذلك التقدير والاحترام المربحين، كما أن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التي عاشها آنذاك. المجتمع. قوت هذه الظاهرة. فقد كان الإنسان دوماً يشعر بعدم الاطمئنان إذ كان ضحية تسلط الحكام، وخصوصاً ممثليهم، أو ضحية طغيان العوامل الطبيعية، كالجفاف والمجاعات أو ضحية الأمراض والأوبئة"<sup>3</sup>. هذا العجز عن مواجهة الواقع، دفع الناس إلى اللجوء إلى زيارة الأضرحة ليحصلوا على ضمانة ولو معنوية، تفتح لهم أبواب الرجاء لاعتقادهم أن تقديس الولي يقربهم من الله.

<sup>1</sup> - المحمودي أحمد، م. س، ص. 123

<sup>2</sup> - العطري عبد الرحيم، بركة الأولياء. بحث في المقدس الضرائعي، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2014، ص. 64.

<sup>3</sup> - جنوبي، م. س، ص. 11.

## ثالثاً: المجتمع الموحي والأضرحة خلال فترة الأزمات

## دور الأولياء خلال الأزمات الاجتماعية

سبق وأن أشرنا، إلى الدور الاجتماعي الذي جسده الأولياء، في محاولة تحسين مستوى معيشة بعض فئات المجتمع، بأساليب شتى، إما عن طريق الأداء الكرامي أو الدعاء أو عن طريق تشجيع الصدقة... الخ، هذا الدور الريادي، الذي لعبه شخص الولي، جعله مرشحاً لأن يكون بمثابة الزعيم الروحي في المجتمع، حتى بعد مماته، علماً أن الاعتقاد به وبكل الطقوس الصادرة عنه، من كرامات وخوارق ومكاشفات ظلت ذهنية راسخة في نفوس أفراد هذا المجتمع حكماً ومحكوماً على السواء<sup>1</sup>.

إن العلاقة بين الأحياء والأموات لم تنقطع قط، حيث أن زيارة الأضرحة كانت من العادات الشائعة في المجتمع طيلة الفترة الوسيطية<sup>2</sup>، وهي تدخل في إطار صلة الرحم لأن الناس لا ينظرون إلى الأموات كأناس انتهوا وذهبوا، بل لا زالوا يعيشون معهم رغم أنهم لا يرونهم، ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة قد تجسدت بشكل قوي إبان العصر الموحي مقارنة بالعصر المرباطي، فعلى مستوى الأسر الحاكمة تذكر المصادر زيارة الخليفة الموحي عبد المومن بن علي لقبر المهدي ابن تومرت عدة مرات<sup>3</sup>، ذلك القبر الذي جعله المصامدة على حد تعبير الإدريسي "حجا يقصدون إليه من جميع بلادهم"<sup>4</sup>، وفي هذا السياق يشير صاحب البيان إلى زيارة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لقبر المهدي وقبر أبيه عبد المومن "مظهر الوحشة إليهما، ساكبا العبرات عليهما، أمر وفود الأندلس بالسير من مراكش إلى زيارتهما، حاضا طلبه الحضر أن يرثما ويذكروا فضائلهما ومآثرهما، فقال الناس في ذلك وأطنبوا فحياهم بالعطاء"<sup>5</sup>، وصار من بعده على هذه العادة الأمراء الموحدون، فيشير ابن عذاري إلى تحرك الأمير المرتضى سنة 649هـ/1251م "بعساكر الموحيين والأجناد العرب، والاحتشاد على ترتيب سلفه المعتاد لزيارة قبر إمامهم المهدي، تبركا بلثم تراه، متوسلا بأكرم الوسائل معظما المكان"<sup>6</sup>. وفي العهد المريني نجد أبو عنان، يزور أضرحة الأولياء

<sup>1</sup> - محمد أحمد إسماعيل، ثورات العرب والبربر واليهود في المغرب الأقصى والأندلس في عهد دولة بني مرين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008، ص 330-332.

<sup>2</sup> - حقي محمد، الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مانبال، بني ملال، 2007، د.ط.، ص 134.

<sup>3</sup> - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. قسم الموحيين، م س، ص 53.

<sup>4</sup> - الإدريسي، نزعة المشتاق...، م س، ج 1، ص 230.

<sup>5</sup> - ابن عذاري، م س، ص 147-148.

<sup>6</sup> - نفسه، ص 399.

والصلحاء على حد تعبير النميري" فهو لا ينقطع عن هذه الزيارة أينما وجد، وهو الذي يبحث عن هذه الأضرحة، فيجد لذة ومتعة في الدخول إليها (...). وببجاية انقطع عن الأشغال وانصرف قاصدا ضريح الشيخ الولي أبي زكرياء الزواوي فوفاه حق زيارته"<sup>1</sup>، ولعل الشاهد على هذا، وصية الأمير أبو يحيى المريني، بأن يدفن بجوار الولي محمد الفشتالي تبركا بجواره، على حد قول ابن أبي زرع "وفي سنة ست وخمسين وستمئة في رجب منها مرض الأمير أبو بكر بمدينة فاس فمات بها (...). ودفن بباب الجيزيين (...) بإزاء قبر الشيخ محمد الفشتالي تبركا به، فإنه رحمه الله كان أوصى بذلك في حياته"<sup>2</sup>.

وساد الاعتقاد باستمرار قدرات الأولياء الخفية على دفع الضرر، وجلب المنافع حتى بعد موتهم، فشاع التبرك بقبورهم<sup>3</sup>، والتوسل إليها عن طريق السجود لها، والتمسح بأضرحتهم وحمل التراب تبركا به، وغيرها من الطقوس سعيا وراء كسب شفاعة صاحب هذا الضريح، أملا في إيجاد حلول للأزمات، ومن الأدلة التي تثبت صحة هذا، ما اعتقده بنو عيسى من جبال غمارة أن وجود ضريح إسماعيل بن سيد الناس البطوي ببلدهم يمنع عنهم غزوات أعدائهم "عند تغلب القبائل عليهم فتحيط بهم القبائل من جهة روضة الشيخ إسماعيل، فإذا خرج بنو عيسى من حيز الروضة، نال منهم أعداؤهم ما شاء من قتل وسبي، فإذا قاموا في حوز الروضة ووصلهم أعدائهم نال منهم بنو عيسى ما أرادوا من قتل وسبي، فإذا تكاثرت الوفود، وراموا افتتاح الحصن والتغلب عليه، كان حد مبلغهم الروضة، ثم ينهزمون عند وصولهم، ربما كبروا عند ذلك، وقالوا يا بركة سيدي أبي إبراهيم"<sup>4</sup>، وقد حرص السكان في هذه الفترة على دفن أوليائهم بأبواب المدن، اعتقادا منهم أن هؤلاء قادرين على حمايتهم من هجمات الأعداء. وحسبنا في ذلك أنه في كل باب من أبواب تلمسان نجد ضريح لولي من الصلحاء<sup>5</sup>.

<sup>1</sup>- ابن أبي زرع الفاسي علي، الأتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 296.

<sup>2</sup>- أحمد بن القاضي المكتاسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973، ص.

<sup>3</sup>- جنوبي، ص. 87.

<sup>4</sup>- البادسي، م س، ص. 58.

<sup>5</sup>- ابن مريم، م س، ص. 136، 137.

## دور الأولياء خلال الأزمات الاقتصادية

يرتكز مستوى المعيشة في الغرب الإسلامي، كباقي المجتمعات الأخرى على الوضعية الاقتصادية السائدة، فيتحسن نسبيا في أوقات الرخاء ويتدنّى في فترات الأزمات<sup>1</sup>. وبالرجوع إلى تاريخ المجاعات فإننا نجد أنها لم تستثنى من أية حقبة تاريخية، وبالتالي شكلت شبحا مخيفاً يهدد المغاربة باستمرار. ومن المعلوم أن المجاعة تأتي كنتيجة حتمية عن جملة من المسببات والتي أرجعها ابن خلدون إلى "قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتفاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالبا، وليس صلاح الزرع وثمرته. بمستمّر الوجود ولا على وثيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبته (...). وكان بعض السنوات الاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع"<sup>2</sup>. لا ريب أن أزمة الجوع، قد أفرزت مظاهر سوسيو. دينية، وسلوكات شتى كانت في الحقيقة نتاجا عن إيقاع هذه الأزمة على إنسان المغرب الوسيط، ولا شك في أن هذا المجتمع قد ينحني زمن المجاعة إلى منحنى غير طبيعي، فتزداد بعض الظواهر كزيارة أضرحة الصالحاء<sup>3</sup>، في حين تتوارى مظاهر جديدة كنتيجة عن واقع هذه الأزمة.

ولهذا نلاحظ أن رد الفعل تجاه الطبيعة (كوارث، جوائح....) لا يخرج في كثير من الأحيان عن مقترب الهجرة إلى السماء، فالأفراد يبحثون عن ملاجئ مادية أو معنوية لمواجهة الواقع المأزوم، والديني بما يكتنزه من قيم التفاوض مع الواقع وإمكان تجاوزه، يصير حلا إيجابيا للكثيرين. على اعتبار أن الكوارث الطبيعية مثلها مثل باقي الأزمات الأخرى تكون نتاجا عن تجليات قوى غيبية مبادرة عن إرادة الآلهة، فإن مواجهتها في الاعتقاد الصوفي سمة تحلى بها الأولياء دون غيرهم. فهم في نظر العوام يمثلون دور الوساطة بين الله وعباده، وعليه فإن مهمتهم تكمن في تنظيم هذه العلاقة سواء في حياتهم أو حتى بعد مماتهم.

ولم تكن الكرامات تجاوز أزمة الجوع، لتنتقطع بعد موت الأولياء، بل تستمر في نظر المجتمع حتى بعد مماتهم، فقبورهم كانت بالنسبة إليهم من مقدسات العامة، والمزارات التي يلجؤون إليها

<sup>1</sup> - بوتشيش، م س، ص. 126.

<sup>2</sup> - ابن خلدون، المقدمة، ج 2، م س، ص ص. 109، 110.

<sup>147</sup> - لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت.

من كل حذب توسلا بهؤلاء الصلحاء في تفريج الكروبات، خاصة وهم يعتقدون بأن الدعاء عند قبورهم مستجاب.<sup>1</sup>

كما عرفت قبور الأولياء إقبالا كبيرا في أوقات المجاعة، وحسبنا في ذلك ما فعله ابن قنفذ الذي زار ضريح الولي أبي مدين شعيب زمن مجاعة 776هـ/1374 م<sup>2</sup>؛ فدعا عند قبره أن يخفف عنه مشقة السفر، ويؤمنه من الخوف فيقول مخاطبا قبر أبي مدين. "يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد متصل قريب غير منفصل، والغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال، اللهم إنا نتوسل إليك بأنبيائك وأوليائك، يسر لنا في ذلك يا قريب يا سميع الدعاء يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام! وكررت الدعاء مرارا وصليت على سيدنا محمد (ص) وحمدت الله وانصرفت، فيسر الله علي فيما وقع ما أملت<sup>3</sup>، فمر سفره في أحسن الأحوال، وانقلب الشر كله خيرا ببركة هذا الولي؛ يقول في ذلك، " انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله وذلك عندنا معهود من كرامات أبي مدين والدعاء عند قبره مستجاب"<sup>4</sup>. أيضا، أشار ابن قنفذ إلى وجود جماعة من المتسولة والفقراء بإزاء قبر أبي مدين زمن هذه المجاعة. هذه الظاهرة إنما كانت تنتشر أكثر في أوقات المجاعة، وهذا ما يشير إليه ابن قنفذ أثناء رحلته.

إذن فدور الأولياء في مساعدة المحتاجين لم يكن يتجلى في حياتهم فقط، بل نراه يستمر حتى بعد مماتهم كما تصوره كتب المناقب، فلا غرو أن قبور هؤلاء الأولياء ظلت مزارا وقبلة لشريحة معينة من المجتمع ممن يحملون النذور والصدقات التي تفرق على الفقراء والمساكين، فيجد هؤلاء الضعفاء ملاذهم هناك فتنقلب أضرحة الصلحاء إلى محطات بارزة يجتمع فيها المتسولون أوقات الرخاء والمجاعة على حد سواء.

من خلال البذل والإنفاق استمر الارتباط بزيارة الأضرحة، وخير من نقل إلينا استمرار هذه السلوكات قبيل نهاية العصر الوسيط ما لاحظته ابن الخطيب الذي زار ضريح أبي العباس السبتي

<sup>1</sup> - ابن قنفذ، م س، ص. 40.

<sup>2</sup> - يقول ابن قنفذ في شأن هذه المجاعة " وفي هذا العام كانت المجاعة عظيمة وعم الخراب المغرب فوردت تلمسان والحالة هذه وأقامت بها قرب شهر غير واجد للطريق، وكان وزيرها إذا استشرته في الخروج منعني وتبرأ مني (...) فكثرت علي النفقة، وبلغت المعينة منها فيما لا بد منه لعيالنا ومن تعلق بنا أربعة دنانير ذهبا في صبح كل يوم دون المزية العظمى واليد الكبرى التي يجعل علينا من يبيع لنا الطعام (...). وارتحلت بعد أيام بسيرة (...) وكان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى أن منهم من يسمع ضرب الأكف تحسر علينا. انظر، ابن قنفذ، م س، ص. 105.

<sup>3</sup> - نفسه، م س، ص. 105.

<sup>4</sup> - نفسه، ص. 106.

من كثرة الزوار المترددين على قبره فقال "رحمه الله على ذلك القبر لكثرة زائره فيقتحم ذو الحاجة باب الروضة خالعا نعله، ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ويعين بين يدي النجوى الصدقة على قبره ويدسها في أوان على القبر معدة لذلك. ومن عجز عن الصدقة بالنقدين صدق بالطعام نحوه، فإذا خف الزائر وكان آخر النهار عمد القائم على التربة إلى ما أودع في تلك الأواني وقسمه على المحاويع الحافين بالروضة وبالطرق الموصلة إليها، ويحصون كل عشية فيعمم ذلك الرزق المودع في تلك الأواني، وإن قصر عنهم استكملوه في غده"<sup>1</sup>. هذا النص له مغزى اجتماعي عميق أعطى ابن الخطيب مثالا للتضامن في أبهى صورته، لتخفيف معاناة المحرومين، وتحفيز المياسير للإسهام في تفريج كرب المعسرين.

وكان الخوف من امتداد المجاعات بسبب العوامل الطبيعية وخاصة الجفاف، وراء إلتجاء المغاربة إلى زيارة أضرحة الأولياء كذلك، مستنجدين ببركاتهم من أجل الاستسقاء، وقد جعلت كتب المناقب، من القدرة على "استنزال المطر" كرامة من كرامات الأولياء، بحيث اتفق هذا النوع من المصادر على إيراد أكبر عدد من الأولياء الذين يلتجئ إليهم الناس من أجل الاستسقاء<sup>2</sup>. فقد تزامنت وفاة الولي عبد الله بن محمد الحجري مع قحط شديد نزل بأهل سبتة سنة 591هـ/1194 م "فلما وضعت جنازته على شفير قبره توسلوا به إلى الله تعالى في إغاثتهم وتداركهم بالسقيا فسقوا من تلك الليلة مطرا وابلا، وما اختلف الناس إلى قبره مدة الأسبوع إلا في الوحل"<sup>3</sup>. فضريح الولي يغدوا بعد موته ملجأ يتم اللجوء إليه، تماما كما حدث مع أبو محمد عبدي الصنهاجي عندما ذهب الناس إلى ضريحه "فدعوا وتضرعوا والسماء صاحية لا غيم فيها، فطلبوا من الولي الغيث، فو الله ما نزل الناس عن ذلك المكان حتى مطروا مطرا غزيرا"<sup>4</sup>.

إن الكوارث الطبيعية التي ألمت بالإنسان المغربي في تلك الفترة، جعلت مختلف السلط الحاكمة على الاهتمام بالجانب التكافلي الروحي والمعنوي، وتجلى ذلك في تنظيم صلوات الاستسقاء، وفق طقوس يسعون من خلالها إلى تدعيم شرعية سلطتهم، من خلال زيارة قبور وأضرحة بعض الصالحاء قصد التبرك<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة

الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1993، الجزء 1، ص.300

<sup>2</sup> - السملالي العباس بن إبراهيم، م س، الجزء 8، ص.196.197

<sup>3</sup> - التبنكي أحمد بابا، م س، الجزء الأول، ص.176

<sup>4</sup> - التادلي، م س، ص.83

<sup>5</sup> - بياض، م س، ص.263

ولا شك في أن المجاعات كانت مقرونة أحيانا بأوبئة وأمراض فتاكة. ولم يكن اعتقاد المجتمع في الأولياء وقدرتهم على معالجة الأمراض تتوقف عند مماتهم، وإنما يؤمنون بقدرتهم حتى بعد مماتهم، وبأن سبب الأمراض إنما هو مس من الجن أو عقابا إلهيا سلطه الله عليهم، فإنهم رأوا في أضرحة الأولياء وطلب العلاج منهم الوسيلة الوحيدة والناجعة للتخلص من هذه الأمراض التي يعانون منها، ولم تكن إلا ذهنية طبعت نفوس غالبية المجتمع المغربي. لذلك كانت قبورهم مزارات للاستشفاء من كل الأسقام<sup>1</sup>، لهذا اعتبرت الأضرحة مكانا مقدسا معظما للتقرب من الموتى، كما أن تراب هذه القبور كان بالنسبة إليهم من أهم المقدسات التي يستعملونها لعلاج العديد من الأمراض.

وقد أمدتنا كتب المناقب، بنماذج عديدة حول ذلك رغبة منها أن تؤكد صحة هذا الاعتقاد. وإن كان هذا مبالغ فيه. وهذا ما ظهر بشكل جلي، عندما كان الناس يأخذون من تراب قبر المهدي ابن تومرت ليتبركون به ويجعلونه شفاء للمرضى<sup>2</sup>، كما استشفى أهل أغمات أوريفة بتراب قبر أبي عبد الله بن سعدون بن علي بن بلال القيرواني المتوفي عام 485هـ / 1049م<sup>3</sup>، كذلك كان قبر علي ابن اسماعيل ابن حرزهم المتوفي عام 559هـ / 1163 الذي اتخذه الناس مزارا يتبركون به<sup>4</sup>. فمصادر الفترة تزخر بأخبار ذوي العاهات والأمراض المزمنة بما فيهم النساء اللواتي كن يقصدن الصالحين، وقبور الأولياء لأخذ شيء من ترابها للاستشفاء به<sup>5</sup>، كذلك غرف أهل مراكش بعادة التبرك بأضرحة الصالحاء. فابن الزيات<sup>6</sup> الذي عاش في عصر الموحدين يذكر أنهم كانوا يتبركون في زمنه بقبر أبي سهل القرشي الموجود برباط تسماط.

وقد كان كل من يدخل ضريح الولي أبو سعيد الشريف الحسيني وهو مريض إلا وبرئ من مرضه ببركة هذا الأخ ير كما يعتقدون<sup>7</sup>. أما قبر الولي أبي مدين، فكان ترياقا يشفى منه المجانين

<sup>1</sup> - ابن عيشون الشراط، م س، ص. 27.

<sup>2</sup> - ابن عذاري، م س، ص. 149.

<sup>3</sup> - التادلي، م س، ص. 84.

<sup>4</sup> - ابن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهرة النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة: أطروحات رقم 35، الطبعة الأولى، 1997، ص. 66.

<sup>5</sup> - العزفي، م س، ص. 50.

<sup>6</sup> - التادلي، م س، ص. 208.

<sup>7</sup> - ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، الثعالبية، الجزائر، 1908، د.ط، ص. 72.



وذوي الأمراض المزمنة وجميع العاهات " التي عجز عنها الأطباء " فأصبح كل من جاء إلى قبره مقعدا عاد منه يمشي على رجليه !، ولا مريضاً أو صاحب عاهة إلا ليشفى بعد زيارته لهذا القبر<sup>1</sup>.

هذه الرواية تبين لنا من جهة نجاعة تراب القبر أو القبر في حد ذاته، كوسيلة إشفائية لأمراض تجاوزت حدود ما حقق الطب والشعوذة في ميدان العلاج، وإن كانت تحمل ضرباً من الخيال والمبالغة من طرف كتب المناقب. ومن جهة أخرى تبين لنا أن الأضرحة في مجتمع المغرب الوسيط كان يعد بمثابة اليمارستان يقصده الناس طلباً للعلاج والاستشفاء وليس للتبرك فقط.

ولعل ما يبين لنا أهمية مقدسات الأولياء داخل المجتمع بالنسبة لعامة الناس وخاصتهم، وأن سبب زيارتهم للأضرحة من أجل العلاج هو غياب دور الطبيب وعجزه عن مداواة الكثير من الأمراض من جهة<sup>2</sup>، ومن جهة أخرى عجز الناس عن دفع أجرة الطبيب بسبب الفقر مما دفعهم للبحث عن سبل أخرى. ولم تكن الأضرحة وحدها تشكل نقطة جذب من طرف سكان المغرب آنذاك رغبة للعلاج والاستشفاء، بل الملفت للانتباه أن الزاوية إضافة إلى كونها مؤسسة دينية وتعليمية واجتماعية واقتصادية<sup>3</sup>، فإنها أيضاً كانت بمثابة اليمارستان الذي يقصده الناس من كل حذب طلباً للعلاج من الأولياء القائمين أو الاستشفاء بالأضرحة إن وجدت.

ويذهب بعض الباحثين إلى تفسير هذه الظاهرة (زيارة الأضرحة)، إلى عوامل سيكون اجتماعية تتمثل في القهر والجهل والعجز وقلة الحيلة<sup>4</sup>، وآخرون يفسرونها بعوامل ذهنية (الخرافة، الجهل) واجتماعية (الفقر، الظلم الاجتماعي)<sup>5</sup>، "لغلبة الجهل وكثرة المصائب والملمات مع قلة الحلول، نصيب في تفشي هذه الظاهرة التي تعبر عن تشوش وحالات الارتباك النفسي التي تصيبهم في تلك الظروف"<sup>6</sup>.

## خاتمة:

إجمالاً لعب أصبح للأولياء مكانة كبيرة داخل المجتمع نظير الأدوار التي أصبحوا يطلعون بها على مستويات متعددة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت هذه الأدوار تزداد خلال

<sup>1</sup> - عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوت، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ النشر، ص. 149

<sup>2</sup> - الهلالي محمد ياسر، م س، ص. 403

<sup>3</sup> - الشاذلي، م س، ص. 190

<sup>4</sup> - حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ص. 143

<sup>5</sup> - إبراهيم بدران، سلوى الخماش، م س، ص. 797

<sup>6</sup> - استيتو محمد، الفقر والفقر في المغرب القرنين 16 و 17 م، مؤسسة النخلة للكتاب، الطبعة الأولى، وجدة، 2004، ص. 457

فترة الأزمات التي يعرف المجتمع، وعندما تشتد الأزمة على الناس يتجهون إلى الأولياء، في محاول الاستنجد بهم، على اعتبار امتلاكهم لكرامات تهم مختلف مناحي الحياة، وحسب كتب المناقب فكرامة الولي لا تنقطع بموته بل تستمر وهذا ما يفسر لجوء الناس إلى زيارة ضريحه خلال فترة الأزمات والكوارث.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- ابن منظور، لسان العرب، المجلد 15، دار الصادر (بدون طبعة)، بيروت، لبنان، (بدون سنة).
- القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تحقيق، عبد الحليم محمود، دار الشعب، القاهرة، 1989.
- ضريف محمد، مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي، مساهمة في التركيب، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، العدد 1، الدار البيضاء 1986.
- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، الجزء الأول، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005.
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي والبشير بن سلامة، د.ط، الدار التونسية، 1969.
- جنوبوي محمد، الأولياء في المغرب. حياة وسير بعض مشاهير أولياء المغرب، منشورات كنال أوكردوي، 2004.
- فرحات المصطفى، طقوس وعادات أهل بزو، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات والتعبير الأدبية، سلسلة دراسات وأبحاث، ط 1، 2008.
- العزفي أحمد، عامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، د ط، 1989.
- الماكري أحمد، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007.
- مفتاح محمد، التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8هـ/14م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، القسم الأول، 1981.

- الراوي عبد الستار عز الدين، التصوف والباراسيكولوجيا، مقدمة أولى في كرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة، دار الفارس، بيروت، ط 1، 1994
- زيعور علي، الكرامة الصوفية: الأسطورة والحلم القطاع اللاوعي في الذات العربية، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1984.
- الصديقي طاهر، السر المصون فيما أكرم به المخلصون، تحقيق فرحات حليلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988.
- الهلالي محمد ياسر، موت الولي في كتب المناقب بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، مجلة المناهل، العدد 92.91، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، 2012
- العطري عبد الرحيم، بركة الأولياء . بحث في المقدس الضرائحي، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2014.
- محمد أحمد إسماعيل، ثورات العرب والبربر واليهود في المغرب الأقصى والأندلس في عهد دولة بني مرين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008.
- حقي محمد، الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مانبال، بني ملال، 2007.
- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. قسم الموحدين
- ابن أبي زرع الفاسي علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972.
- أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973.
- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت.

- السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1993.
- ابن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهرة النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة: أطروحات رقم 35، الطبعة الأولى، 1997.
- عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوت، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ النشر.
- حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005.
- استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و 17م، مؤسسة النخلة للكتاب، الطبعة الأولى، وجدة، 2004.
- المحمودي أحمد، عامة المغرب الأقصى في العصر الموحد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2001.
- بوتشيش القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع الدهنيات الأولياء، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1993.
- ابن قنفذ أحمد، أنس الفقير وعز الحقيير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث الجامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة الرحلات (2)، بدون طبعة وتاريخ النشر.

#### المراجع الأجنبية:

- Emile Dermenghem, Le Culte des Saints Dans L'islam Maghrébin, Gallimard, Paris, 1954, P.11

## حفريات في بعض المعتقدات الشعبية عند المغاربة من خلال رحلة "وصف إفريقيا" للحسن الوزان

د. مجيد هلال

باحث في التاريخ والتراث  
المغرب



### ملخص:

إن كتاب "وصف إفريقيا" يعد من بين الوثائق والسجلات التي استطاعت أن تنقل إلينا جانباً مهماً من تاريخ المغرب؛ والأمراً هنا، يتعلق بمعتقدات وذهنيات المغاربة، ومختلف تمثيلاتهم وأفكارهم إزاء ظواهر عدة، وفي مواقف مختلفة، من هنا تنبع أهمية هذه الدراسة، التي تهدف بالأساس إلى محاولة استعراض بعض جوانب هذه المعتقدات وما يرتبط بها من أفكار وذهنيات، من خلال ما رصده ووثقه الحسن الوزان في نص رحلته حول المغرب و المغاربة خلال القرن 16 الميلادي، دراسة تستعين بمنهج وصفي تحليلي يقف عن الشواهد النصية التي توثق لهذه المعتقدات، و محاولة استنطاقها و الكشف عن خصوصياتها و أبعادها.

**كلمات مفتاحية:** ذهنيات، معتقدات، المغاربة، النص الرحلي، الحسن الوزان.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هلال، مجيد. (2024، أكتوبر). حفريات في بعض المعتقدات الشعبية عند المغاربة من خلال رحلة "وصف إفريقيا" للحسن الوزان. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 51-61.

### Abstract:

The book "Description of Africa" is among the documents and records that were able to convey to us an important aspect of the history of Morocco, and the matter here is related to the beliefs and mentalities of Moroccans, and their various representations and ideas towards several phenomena, and in different situations, hence the importance of this study, which aims mainly to try to review some aspects of these beliefs and the associated ideas and mentalities, through what Hassan Al-Wazzan monitored and documented in the text of his journey around Morocco and Moroccans during the 16th century AD. A study that uses a descriptive and analytical approach that stands for the textual evidence that documents these beliefs, and tries to interrogate them and reveal their specificities and dimensions..

**Keywords :** Mentalities, Beliefs, Moroccans, travel text, Hassan El Wazzan.

## مقدمة

لا يمكن لأي باحث في التاريخ، خصوصاً ما يرتبط بالتاريخ الاجتماعي وما يرتبط بتاريخ الذهنيات والمعتقدات والعادات، أن ينكر أو يتجاهل أهمية كتب الرحلة في استخلاص مادة علمية رصينة، تهم جوانب عدة، وفي طليعتها ما يرتبط بالحياة الثقافية للشعوب، على اختلاف الأزمنة، وتعدد الأمكنة؛ حيث تزخر هذه المؤلفات بعناصر ثقافية شكلت الرصيد والموروث الثقافي، لتكوّن صورة إثنوغرافية حفظتها تلك الكتب، ونقلها إلينا أولئك الرحالة، وجعلتنا نسلط الضوء من جديد عليها حتى يتسنى لنا فهم جزء مهم من تاريخ هذه الأمم، خاصة في جانبه الاجتماعي، وما يرتبط بذهنيات ومعتقدات تلك الشعوب، إذ نقلت عادات تلك الشعوب وأعرافها وتقاليدها، وصورت كل ما يرتبط بأنماطها الثقافية، في بُعديها المادي وغير المادي، "سواء ما كانت عليه، أو ما طرأ عليها من تغيرات أو زوال أو تجديدات أو إصلاحات. وكانت هذه الأوصاف على جانب كبير من الأهمية في علم الآثار والفنون".<sup>1</sup>

ولعل رحلة " وصف إفريقيا" للحسن الوزان<sup>2</sup>، يبقى من النصوص التي تعكس القيمة العلمية التي تحظى بها هذه المصنفات، ومدى أهميتها في كشف اللثام عن جوانب عدة من تاريخ الأمم في حياتها الاجتماعية، وصيرورتها الثقافية؛ فكتاب "وصف إفريقيا" وثيقة إثنوغرافية تاريخية، توثق لثقافات متنوعة، في حقبة زمنية بعيدة نوعاً ما؛ وبالتالي، فقد استطاع الحسن الوزان أن يقتحم غمار تلك الثقافات، خاصة ما يرتبط بجانب المعتقدات، هذه الأخيرة، لها من الخصائص التي تميزها عن سائر الأنواع الشعبية الأخرى؛ فاللغة الشعبية تنطق، وتكتب، وتتطلب وجود شريك لِيَتِمَّ معه حديث، ومجتمع يتفق على رموز هذه اللغة. كذلك الزي الشعبي أو الحلي وأدوات الزينة كلها تستمد قيمتها من إظهارها للناس وإعلانها. والعادات الشعبية لا بد من أن تمارس؛ فتظهر للملأ. أما المعتقدات الشعبية، فهي على خلاف كل هذه العناصر الشعبية إذ هي صعبة في التناول والدراسة والبحث لأنها خبيثة في صدور الناس، وهي لا تلقن من الآخرين، ولكنها تختمر وتتشكل بصعوبة، يلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعاً خاصاً، وهي مع

<sup>1</sup> - نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، عمان، ط1، 2008، ص159.

<sup>2</sup> - جغرافي ورحالة ولد في غرناطة، سنة 1483م، ينحدر من أسرة مغربية تعود لقبيلة بني زيات الزناتية بشمال المغرب، وقد نشأ ودرس بمدينة فاس، و اشتغل عدة وظائف منها بالسلك الدبلوماسي لدى الدولة الوطاسية، تعرض للأسر وهو راجع من تونس بحرا سنة 1520م، من طرف قراصنة إيطاليين، وتم تقديمه هدية للبابا جان ليون العاشر، فقرّبه منه، و كلفه بتدريس اللغة العربية لرجال الكنيسة، وسماه ب جون ليون أو يوحنا الأسد، من أشهر مؤلفاته كتاب "وصف إفريقيا".

تمكنها في أعماق النفس الإنسانية موجودة في كل مكان، سواء عند الريفين أو الحضر، عند غير المثقفين كما عند الذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة<sup>1</sup>.

لذلك؛ سنحاول في هذه الدراسة، قدر المستطاع، أن نتبع نص رحلته، ورقة ورقة، حتى نرصد داخل هذا الفضاء المعرفي مختلف جوانب المعتقدات الشعبية عند المغاربة خلال القرن السادس عشر الميلادي، وما ينشطها من ذهنيات طبعت العقلية المغربية.

إذن؛ فما بعض جوانب ومظاهر هذه المعتقدات الشعبية كما وردت في رحلة الحسن الوزان خلال القرن 16 الميلادي؟ وما أبعادها وخصائصها؟ وكيف يمكن من خلالها الكشف عن بعض خصوصيات الذهنية المغربية وما يطبعها من أنماط التفكير والاعتقاد؟

### 1 - معتقدات ذات بعد ديني مرتبطة بعناصر من الطبيعة

إن كتاب "وصف إفريقيا" يعد من بين الوثائق والسجلات التي استطاعت أن تنقل إلينا جانبا مهما من تاريخ المغرب؛ والأمر، هنا، يتعلق بمعتقدات وذهنيات المغاربة، ومختلف تمثلاتهم وأفكارهم إزاء ظواهر عدة، وفي مواقف مختلفة، مما جعلنا نغوص في بنية هذه الذهنيات، وخصائص هذه المعتقدات عبر شواهد من نص رحلتنا، الذي مكّنا من القيام بحفريات في هذا الجانب، ولعل أهم ما لفت انتباهنا بخصوص هذا الموضوع أن الذهنية المغربية كانت، متأثرة بفكر خرافي، ومعتقدات ماورائية، شكلت - مع مرور الزمن - ظواهر ثقافية طبعت هذه الذهنية، وترسخت في وجدان المجتمع المغربي؛ فالحسن الوزان، في معرض حديثه عن سكان إحدى قرى المغرب، وهي "بني زروال"<sup>2</sup>، يقول: "توجد بهذا الجبل، في بطن واد، فرجة تشبه باب كهف يخرج منها لهب عظيم باستمرار، لاحظت أن كثيرا من الغرباء يقصدون هذا الوادي لمشاهدة هذه النار، ويلقون فيها أغصانا وقطعا من الخشب فتحترق على الفور، وهذا أعجب شيء شاهدته من بين الظواهر الطبيعية، ويعتقد بعض الناس أن الفرجة هي فم جهنم"<sup>3</sup>. وفي موضع آخر، يقول: "تجبل العامة نواميس الطبيعة جهلا تاما، حتى إنها تنظر إلى جميع الظواهر الطبيعية كيفما كانت كتصرفات إلهية"<sup>4</sup>. فالحسن الوزان هنا يصف طبيعة التفكير أو الفكر الذي كان يحكم حياة

<sup>1</sup> - محمد الجوهري، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، دار الكتاب للنشر القاهرة، ط1، 1978، ص56

<sup>2</sup> - ينطق بها اليوم "بني زروال"، لكن التراجم القديمة تتحدث عن الزروالين، كما تتحدث عن الزرويلين؛ الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه الحسن الوزان من وجود جبلين لبني زرويل ولبني وزروال حسب صاحبي الترجمة.

<sup>3</sup> - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغري الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص 337.

<sup>4</sup> - نفسه، ص 87 - 88.



المغاربة؛ فكر يطغي عليه البعد الغيبي الماورائي، ويغيب فيه المنطق والتفسير العقلاني للظواهر الطبيعية. بل إن الوزن نقل إلينا مواقف أخرى تصب في نفس الإطار، وتكشف عن المعتقدات التي تؤطر حياة هذا المجتمع، ومن ضمنها بعض الأفكار التي يؤمن به المغاربة، والتي هي بعيدة كل البعد عن أي تفسير علمي مجرد، وإنما تبقى حبيسة نفسيرات غيبية في كثير من المواقف، تصنف ضمن الخرافات، ومما يزكي هذا الطرح ما جاء به الوزن في كتابه بخصوص بعض الروايات الخرافية التي وقف عليها، ولاحظها في أوساط المغاربة، وغالبا يرتبط بعناصر طبيعية، وفي مقدمتها الماء، وما شكله كعنصر رئيس نُسجت وحِكت حوله عدة أساطير وأفكار، ولدواعٍ مختلفة، فقد تحدث عن طلاسـم وضعها بعض حكام مدينة مراكش عند إنشاء القنوات الجالبة للماء إلى المدينة؛ حيث قال عنهم: "يؤكدون أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات، ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض، وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش؛ فدخل بعض الأشخاص إلى القناة من النقطة التي يصل إليها الماء، وفي أيديهم مشاعل يستضيئون بها، ولما قطعوا بعض المسافة في القنوات أحسوا بهبوب ريح شديدة أطفأت مشاعلهم، ولها من القوة ما خيل إليهم أنه لا عهد لهم بمثلها، وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع إلى الورا؛ لأنه، بالإضافة إلى ذلك، كان مجرى الماء مسدودا بكتل حجرية ضخمة ينكسر عليها الماء ليمر من هذه الجهة وتلك، وأخيرا وجدوا حُفرا عميقة جدا حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم، ولم يجزؤ أحد بعد ذلك على استئناف هذا العمل"<sup>1</sup>. وإلى حدود هذه النقطة، يقدم الوزن لنا وصفا يفيد محاولة بعض الحكام معرفة مصدر مياه المدينة، غير أن الجانب الخرافي للرواية يتضح في الجزء الموالي للحادثة؛ حيث تم تفسيرها، حسب قول المؤرخين، بـ "أن الملك الذي أسس مراكش توقع؛ بفضل معطيات بعض المنجمين، أنه سيخوض معارك كثيرة؛ فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق الطارئة في تلك القناة، حتى لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء إلى هذه المدينة، فلا يستطيع أن يقطعه عنها"<sup>2</sup>.

وهذا ما يجعلنا نستنتج أن إنشاء قنوات جلب الماء لمدينة مراكش؛ حسب الحسن الوزن، قد ارتبط ببعض الإجراءات والطقوس السحرية التي تضمّن أمن مياهها في حالة الحرب، وهو ارتباط يتعلق بخوف ساكنتها من استغلال الماء في الضغط عليهم، وإخضاع إرادتهم في حالات وقوع حروب محتملة. وبالتالي، فإن اختراع وترويج مثل هذه الروايات كان بدافع إرهاب العدو، وثنيّه عن

<sup>1</sup> - الحسن الوزن، وصف إفريقيا، ج 1، م.س، ص 136.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 136.

التعرض لمياه المدينة؛ فهو هاجس أمني حوّلتها ساكنة المدينة إلى خرافة تضمن أمن قنوات مياه المدينة التي التصقت بذهنية السكان فيما بعد، ليتضح من جديد، مدى اعتماد الفكر الخرافي والبعد الغيبي، في تفسير بعض الظواهر، بل واستعماله كسلاح من أجل التأثير في أطراف أخرى؛ كما وقع في الرواية المتعلقة بالماء المذكور آنفا.

بل إن هذه المعتقدات الخرافية ارتبطت حتى ببعض الأفكار والمقدسات الدينية. وهنا نستحضر ما نقله الحسن الوزان عن سكان مراكش، في أثناء وصفه معالم هذه المدينة، من أنه يوجد، في وسطها، "جامع في غاية البهاء، تعلوه صومعة متناهية الجمال كذلك، في أعلاها ركز عمود من حديد، فيه ثلاث تفاحات من ذهب، وزن ثلاثة عشر ألف مثقال (يعادل 60 كلغ)، أكبرها السفلى، وأصغرهما العليا. وقد أراد كثير من الملوك أن يُزيلوا هذه التفاحات، ويسكّوها نقودا عندما اشتدت حاجتهم إلى المال، ولكنهم في كل مرة تحدث لهم حادثة غريبة تلزمهم بتركها في محلها، حتى إنهم تطيّروا من مسها، ولقول العامة إن التفاحات وضعت هناك تحت تأثير أحد الكواكب؛ بحيث يستحيل أن ينزعها أحد من مكانها. كما تقول إنّ من ركز تلك التفاحات قرأ عليها عزائم سحرية ألزمت بعد الأرواح برصدها على الدوام".<sup>1</sup>

هذه رواية تؤكد مرة أخرى التشبث ببعض التفسيرات الخرافية لبعض الحوادث والظواهر، وتصديقها والإيمان بها. وفي بعض الأحيان، نجد هذه المعتقدات تكون تحت تأثير الجانب الديني، ودليلنا في ذلك ما نقله الوزان، وهو يصف أهل سوس، ذاكرًا أنه "يوجد خارج ماسة على شاطئ البحر مسجد يقدره الناس كثيرا. ويذكر عدد من المؤرخين أن المهدي المنتظر، الذي سيملا الأرض عدلا؛ حسبما أخبر به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سيخرج من هذا المسجد. ويقال أيضا إن النبي يونس، عليه السلام، لما التقمه الحوت نبذ بالعراء في ساحل ماسة، وجميع العوارض التي تحمل سقف هذا المسجد من عظام سمك (البليّن)، وكثيرا ما يحدث عندما يهيج البحر أن يقذف على شاطئ ماسة بعدد من هذه السمكات العظيمة ميتة، وهي مفزعة لضخامتها وبشاعة منظرها، وتمكين العامة أنه ما مرت سمكة من هذا النوع بقرب المسجد إلا ماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد<sup>2</sup>. ويضيف الرجل قائلا: "وكان يصعب عليّ أن أصدق ذلك لولا أنني رأيت بعيني سمكات منها يقذف بها البحر ميتة كل يوم، وقد تميزت من ذلك، غير أنني تحدثت فيما بعد مع شيخ يهودي من نفس المكان؛ فأخبرني بأنه لا عجب في ذلك؛ إذ يوجد في البحر على بعد نحو ميلين

<sup>1</sup> - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، م.س، ص 131.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 114.

من البر بعض الصخور العظيمة الحادة، فإذا هاج البحر ذهببت هذه السمكات هنا وهناك، وما اصطدم منها بتلك الصخور جرح ومات؛ ولهذا ينبذه البحر بعد ذلك على الساحل حيث نراه، فظهر لي أن هذا التأويل خير من تأويل العامة"<sup>1</sup>؛ فما رواه الوزان، هنا، يعكس مدى حضور البعد الديني لدى المغاربة، وتأثيره في الذهنية الجماعية للمغاربة لفتك بعض الظواهر وتفسيرها، والبحث عن إجابات لها؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى السمكات التي تتعرض للموت بالبركة. وهنا تستحضر مدى حضور مفهوم البركة، كمكون أساس من مكونات الذهنية المغربية، وطريقة تفكيرها ومعتقداتها، وكعنصر أساسي من عناصر تفسير بعض الظواهر، وربطها بما هو غيبي، وإعطاء الواقع تفسيرات ماورائية. إضافة إلى ما ورد في هذه الرواية، هناك الإيمان بفكرة المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض عدلا بعد أن ملأت جورا، من هنا تظل هذه معتقدات وأفكار ترسخت في فكر المغاربة، وأصبحت آلية من آليات تنظيم حياتهم وتحقيق الانسجام بالإجابة عن تلك الظواهر، ومن يقف وراءها مما أعطى نوعا من التوازن يمزج ما هو حسي بما هو غيبي، وهذه الثنائية تعد جوهر المعتقدات التي يؤمن بها المغاربة.

أيضا؛ من بين ما جاء في "وصف إفريقيا"، عند حديث الوزان عن أصناف الحيوانات، حديث عن الأسد المنتشرة بالمغرب آنذاك، وقد نقل إلينا رواية، تصب في إطار مدى حضور الحيوان في المعتقدات الشعبية لدى المغاربة، في ارتباطه بالإنسان، إذ كتب على أنه سمع "من رجال ونساء كثيرين أن المرأة إذا وجدت نفسها أمام أسد في مكان منفرد إلا أن تكشف له عن عورتها فيزأر إذ ذاك الأسد زئيرا قويا ويغض الطرف ثم ينصرف. وليعتقد كل أحد ما شاء!"<sup>2</sup>، وهذا ما يعكس دائما ما يعتقده المغاربة ويسلمون به.

## 2- معتقدات مرتبطة بظاهرة كرامات الأولياء والصلحاء

وارتباطا دائما بهذه المعتقدات، التي شكلت جزءا لا يتجزأ من البنية الثقافية للمجتمع المغربي، هناك ما يرتبط بظاهرة الكرامات والصلاح، أي الإيمان بكرامات الأولياء، و"حسن الوزان" في نصه، قد نقل إلينا في مواقع مختلفة مدى حضور هذه الظاهرة وانتشارها في أوساط المغاربة ومدى الإيمان القوي الذي يولونه لهذا الموضوع، وستتناول بعض الأمثلة التي تبرز مدى تشبث المغاربة بتقديس الأولياء، والاعتقاد الراسخ في كراماتهم وبركاتهم واللجوء إليها لأغراض عدة، كآلية من آليات تنظيم حياتهم وتحقيق أهدافهم والتوازن داخل واقعهم الاجتماعي، فأعراب "تامسنا"

<sup>1</sup> - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، م.س، ص 114.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 266.

يتروكون "أدواتهم الفلاحية بالقرب من هذه الصومعة - صومعة مسجد في الوسط - عندما ينتهون من حرثهم، ويقولون أن وليا دفن هناك، فلا يأخذ أحد أدوات غيره خوفا من نقمة هذا الولي"<sup>1</sup> فهذا ما يوضح مدى إيمان المغاربة بالأولياء وخوارقهم، إذ يخضعون لسلطتهم الروحية، وخوفهم الشديد من الأذى الذي يلحقونه بهم في حالة ارتكاب أي سلوك يعد مخالفا وغير مرغوب فيه، و هنا سكان "تامسنا" استطاعوا أن يجعلوا من هذه المعتقدات المرتبطة بهذا الولي منظما لحياتهم، وضامنا لعدم وقوع أي سرقة، فكان هذه الإيمان بهذا الولي، وقدراته، آلية عفوية، استطاعت فرض نوع من النظام والانتظام داخل هذه الجماعات.

وفي موضع آخر، ودائما فيما يتعلق بالأولياء وكراماتهم، يذكر الحسن الوزان وهو يتحدث عن "تاغية" وسكانها بين جبال الأطلس، أنه يوجد "فيها ضريح ولي عاش في عصر الخليفة عبد المؤمن، يقال إن له كرامات عديدة ضد السباع، ومكاشفات عجيبة. وقد ترجم له ترجمة حافلة عالم يدعى "التادلي"، وذكر كراماته واحدة واحدة، وأعتقد شخصا - بعدما قرأت قصة تلك الكرامات - أن الرجل كان يتصرف بفن سحري، أو باستعمال بعض الأسرار التي كانت له ضد الأسود. وشهرة هذه التصرفات، وتقديس العامة لهذا الولي الصالح، هما السببان اللذان جعلتا الناس يشدون الرحال إلى هذه المدينة بكثرة؛ فيخرج أهل فاس لزيارة هذا الضريح بعد عيد الفطر من كل سنة، في جموع كثيرة رجالا ونساء وأطفالا، وكأنهم جيش زاحف..."<sup>2</sup>. وما نقله لنا هنا صاحب الرحلة يفصح عن اعتقاد المغاربة بدور الأولياء عبر كراماتهم في توفير الحماية للسكان، وإبعاد خطر الموت عنهم؛ بسبب الأسود في هذه المناطق؛ ومن هنا، نستنتج أن الإيمان بكرامات هؤلاء الأولياء، وتقديسهم، هو وليد الحاجة إلى الأمن، والحماية من الأخطار؛ فهذا الولي هو خير ملاذ يلجأ إليه السكان من أجل توفير الحماية؛ إذ إن تقديس هذا الولي نابع من البعد الوظيفي لكراماته؛ كما يعتقد سكان تاغية وغيرهم من المغاربة على العموم.

أضف إلى ذلك الوظائف الأخرى التي كانت تحققها ظاهرة الاعتقاد بهؤلاء الأولياء وكراماتهم؛ هذه الوظائف التي امتدت حتى إلى مجال الضرائب والجبايات، وهذا ما يعكسه أن سكان جبل "بقوية"، بالشمال، "لا يؤدون كثيرا من الخراج؛ لأن وليا مدفونا في بادس أصله من بلاد بقوية"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، م.س، ص 199

<sup>2</sup> - نفسه، ص 205

<sup>3</sup> - نفسه، ص 330

وفي ضوء هذا، يتضح لنا مدى قداسة ظاهرة الأولياء وكراماتهم، التي آمن بها المغاربة إيماناً قوياً، يعكس مدى اعتقادهم في قضاء حوائجهم، وتحقيق رغباتهم، بالاستعانة بالأولياء. ولذلك، كان الوزن دقيقاً في رصد سلوكات ومواقف المغاربة في سياق هذه الظاهرة، التي تدخل ضمن المقدس، وخاصة "المقدس المجسد" (sacré figuratif)، الذي تحدث عنه "بيرك"، قاصداً به "كل المعتقدات والطقوس التي ترتبط بعبارة الأولياء وأضرحتهم"<sup>1</sup>.. هذا المكانة، التي يحظى بها الأولياء، هي ناتجة عن الأدوار والوظائف التي تؤديها داخل النسق الاجتماعي للمجتمع المغربي، في اندماجها مع البعد الديني، فهي وإن غاب معناها الحقيقي بالنسبة للأفراد الذين يمارسونها فإنها تلعب دوراً أساسياً في التحام الجماعة، وتُسهم في تشكيل هويته الثقافية<sup>2</sup>.

### 3- معتقدات مرتبطة بالسكر والشعوذة

من بين العناصر الأساسية التي تدخل ضمن منظومة المعتقدات التي طبعت الذهنية المغربية، وترسخت في فكرها، ولم يغفلها الحسن الوزان في تدوين رحلته، إذ كانت من الأمور التي لفتت انتباهه فدونها وسجلها بكل عناية، وخصص لها محاور خاصة بها، الأمر هنا يتعلق ما يرتبط بالسكر والشعوذة وما يتعلق بالعرافة والتنجيم، فنقل إلينا صورة حية من هذه المعتقدات والظواهر الثقافية التي كانت حاضرة في أوساط المجتمع المغربي، وذلك من خلال عدة شواهد فصلها لنا في نص رحلته.

فالوزان حدثنا عن العرافين، وصنفهم إلى ثلاثة أصناف؛ يتألف الصنف الأول من الذين يتعاطون خط الرمل، فيرسمون عليه أشكالاً، ويؤدي لهم عن كل رسم بحسب الموارد المتوفرة للشخص ووفقاً للعادة.

ويضم الصنف الثاني العرافين الذين يجعلون الماء في قدر لمّاع، ويرمون فيه قطرة زيت فيصير شفافاً، ويزعم العرافون أنهم يرون فيه كأنهم كتائب جيش تعسكر وتضرب الخيام، ويسلك بعض هؤلاء الشياطين طريق البحر، وبعضهم طريق البر. وعندما يرى العراف أنهم قد استراحوا، يطلب منهم ما يودّ معرفته؛ فيجيبونه بإشارات باليد أو العين (...). ويضع هؤلاء العرافون أحياناً القدر بين يدي طفل عمره ثمانية أعوام أو تسعة، ويسأله هل رأى الجنّي الفلاني أو غيره؛ فيجيبهم الطفل الساذج بـ "نعم"، لكنهم لا يدعونه يتكلم وحده.

<sup>1</sup> - عبد الغني منديب، الدين والمجتمع، إفريقيا الشرق للنشر، ط1، 2011، ص 47

<sup>2</sup> - نفسه، ص 48

ويشتمل الصنف الثالث من العرافين على نساء يوهمنَ العامة بأنهن يرتبطن بصداقة مع شياطين من أنواع مختلفة، يسمون بعضهم بـ"الشياطين الحمر"، وبعضهم بـ"الشياطين البيض" أو "السود"، وعندما يطلب منهم أن يتنبأ بشيء من الأشياء يتطبين بعطور مختلفة الروائح، فيدخل فهن الشيطان الذي دعونه حسب زعمهن، ويغيرن حينئذ أصواتهن ليوهمن أنه المتكلم بفمهن، والشخص الذي أتى لشيء يريد أن يعرفه، سواء كان رجلاً أو امرأة يطلب ذلك من الروحاني بكثير من الاعتبار والضراعة، فإذا حمل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله (...). وتطلب كثير من النساء اللواتي ينشرحن لهذه اللعبة من العرافات الدخول في طائفتهم، فيتظاهرن بالمرض ويستدعون إحداهن، وكثيراً ما يقوم الزوج الأبله لهذه المهمة، هناك يعبرن عن رغبتهم للعرافة، فتخبر الزوج بأن شيطان دخل إلى جسم امرأته، وإذا كان حريصاً على صحتها فلا بد له من أن يسمح لها بالانتساب إلى طائفة العرافات والعمل معهن بحرية، فيصدق الزوج الغبي ذلك ويقبل، ويزيد في غباوته أن يصنع وليمة فخمة لجميع العرافات، وبعد تناول الطعام تقوم كل واحدة منهن إلى الرقص، ويحتفلن على أنغام جوق من الزنوج (كناوة) ثم يترك الرجل زوجته تذهب إلى المغامرة<sup>1</sup>.

كما تحدث الوزان عن صنف آخر من العرافين، وهم "السحرة" أو "المعزمين"، "يعتبرون قادرين تماماً على إنقاذ من اعتراهم مس من الشيطان، لسبب واحد هو أنهم يوفقون أحياناً في ذلك، وإذا لم يوفقوا زعموا أن الشيطان كافر أو أن الأمر يتعلق بروح سماوية ويكون التقويم بالطريقة التالية: يكتبون بعض الحروف، ثم يرسمون دوائر فوق تنورة أو غيره، ويخطون على يد المجنون أو جبينه بعض الإشارات، ويعطرونه بمختلف العطور وبعد ذلك يشرع الساحر في الرقية، ويسأل الروحاني كيف دخل الجسم، من أين أتى، ومن هو، وما اسمه، ويأمره في الأخير بالذهاب وهناك أيضاً صنف آخر من الناس يعمل وفق قاعدة تدعى "الزايجة" أي مخاطبة الأرواح لا يربطون عملياتهم بنصوص بل يعتبرونها جزءاً من العلوم الطبيعية"<sup>2</sup>

هذا ما دونه صاحب "وصف إفريقيا" عن تعاوي سكاك المغرب، لهذه السلوكات، المرتبطة بالسحر والشعوذة وما يتصف بهما من عرافة وتنجيم، وصف هذه الظاهرة بكل تفصيل، ومنتقدا إياها في نفس الوقت واصفاً من يصدقون بهذه الظواهر بالسذاجة والحمافة، "إذ يثق الكثير من البلهاء بهؤلاء العرافين" لكن بعيداً عن موقف الوزان، من هذه المعتقدات، فهي تظل

<sup>1</sup> - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س، صص 262-263-264، بتصرف.

<sup>2</sup> - نفسه، صص، 264-265.

حاضرة في ثقافة المغاربة، وتظل جزءا أساسيا، من حياتها الاجتماعية، ناتجة عن مدى اعتقاد المغاربة في فعاليتها ومدى تحقيق بعض أهدافهم وقضاء حوائجهم، وهي ممارسات تهدف إلى الاحتماء بالقوى الغيبية في حدود معينة وعبر وساطات محددة، أو تهدف إلى الاحتماء من كل القوى والأخطار الفوق طبيعية التي تترص بالناس للإيقاع بهم في فترات معينة من حياتهم، أو يكون القصد في هذه الممارسات والمعتقدات المرتبطة بالسحر والعرافة هو استشراف المستقبل والتنبؤ بالغيب، من هنا فإن "وصف إفريقيا" هو وثيقة مكننتنا بالفعل من النبش والحفر في ذاكرة المجتمع المغربي، من حيث هذه المعتقدات التي طالما ظلت سارية المفعول، بل إلى يومنا هذا، والاعتقاد الراسخ في فعاليتها وتحقيق ما يعجز الإنسان فردا وجماعة عن تحقيقه في واقعه المادي.

### الخاتمة:

ختاما، وبعد رصد وتتبع بعض الممارسات والظواهر المرتبطة بالمعتقدات التي آمن بها المغاربة، كما نقلها إلينا "حسن الوزان"، بعين الإثنوغرافي العفوي، والوقوف عندها بالوصف والتحليل، نخرج بخلاصة، مفادها أن المجال المغربي ظل وعاء لظواهر عدة، تترجمها ممارسات ومعتقدات مغربية، والتي شكلت فضاء فسيحا أمام المغاربة؛ قصد تحقيق غايات، وقضاء حوائج، في وضعيات متعددة و مختلفة، وذلك في إطار تحقيق التوازن والطمأنينة بالواقع المادي للأفراد والجماعات، وذلك عبر الولوج عبر هذه المعتقدات إلى عالم آخر ما ورائي، تؤطره غيبيات كانت خير إجابات لعدد من الاستفسارات التي عجز الإنسان المغربي أن يجد لها تفسيراً انطلاقاً من واقعه الملموس ووفق منطق علمي، وأمام هذا الوضع، كان ملاذه تلك المعتقدات، فسلك طريقاً من الممارسات والسلوكيات التي يعتقد أنها تسهل حياته، وتمنحه كل ما يحتاجه، لتصبح هذه المعتقدات مترسخة في ذهنيات المجتمع المغربي، مازلنا نلمس معالم واستمرار هذه المعتقدات في وقتنا الراهن، مما يؤكد مدى أهميتها، كجزء لا يتجزأ من بنية الثقافة المغربية، وإعطائها مكانة تطبعها القداسة، وإن كان كثير منها يتعارض مع التعاليم الدينية، إلا أن هذه المعتقدات ظلت حاضرة ومترسخة في وجدان المجتمع المغربي، واعتبارها ركناً أساسياً من أجل الاستمرار، فكانت سلطتها أقوى من أي اعتبار آخر، وهذا هو السر في امتدادها عبر الزمن وعبر أجيال مختلفة، وهذا ما سمح لنا به كتاب وصف إفريقيا بإعطائنا فرصة لاستنطاق الماضي والحفر في الذاكرة الثقافية الشعبية للمجتمع المغربي، وتبسيط الضوء على هذا الجانب المهم من التاريخ؛ تاريخ الأفكار والمعتقدات، التي مازالت منحوتة في تفكير ووجدان المغاربة، إذ هي معتقدات ظلت من القوى المحركة و المنشطة لسلوكات وممارسات الفرد و الجماعة بالمجتمع المغربي.

## لائحة المصادر والمراجع

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغربي الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.
- محمد الجوهري، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، دار الكتاب للنشر القاهرة، ط1، 1978.
- عبد الغني منديب، الدين والمجتمع، إفريقيا الشرق للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2011.
- نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، عمان، ط1، 2008.



## التحولات الاجتماعية والإيديولوجية للوجود الإسلامي بالأندلس

من خلال كتاب "AL-Andalus et les andalousiens" للباحثة "Manuela Marín"

د. سمير الداودي

دكتوراه في التاريخ والحضارة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان  
جامعة عبد المالك السعدي - المغرب



### ملخص:

تعالج هذه الدراسة التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإيديولوجية للوجود الإسلامي بالأندلس من خلال كتاب "AL-Andalus et les andalousiens" للمستشرقة الإسبانية "Manuela Marín". وفي خضم الحديث عن هذه التحولات تبرز الحدود التاريخية والكرونولوجية لهذه الفترة التاريخية لشبه الجزيرة الأيبيرية، وما صاحب ذلك من إشكاليات متعددة تتعلق بموضوع التسمية والهوية، مع إعادة النظر في النظريات التي رافقت الوجود الإسلامي بالأندلس وعلاقتها بتاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية، هل هي قطيعة أم استمرارية؟ وهنا يبرز ما طال هذا الموضوع من تأويلات متعددة، لها بلبغ الأثر على مستقبل تاريخ المنطقة. دون إغفال الحديث عن تفاعلات المجتمع الأندلسي، وعلاقة التأثير والتأثر للأندلس بباقي الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ونخص بالذكر المشرق العربي من جهة وشمال إفريقيا من جهة ثانية.

**كلمات مفتاحية:** الأندلس - شبه الجزيرة الأيبيرية - الهوية الأندلسية - الوجود الإسلامي بالأندلس - القطيعة - الاستمرارية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الداودي، سمير. (2024، أكتوبر). التحولات الاجتماعية والإيديولوجية للوجود الإسلامي بالأندلس من خلال كتاب "AL-Andalus et les andalousiens" للباحثة "Manuela Marín". مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 62-93.

### Abstract:

This study addresses the political, social, economic and ideological transformations of the Islamic presence in Al-Andalus through the book "AL-Andalus et les andalousiens" by the Spanish orientalist "Manuela Marín". In the midst of discussing these transformations, the historical and chronological borders of this historical period of the Iberian Peninsula emerge, and the multiple problems associated with the subject of label and identity, with a reconsideration of the theories that accompanied the Islamic presence in Al-Andalus and its relationship with the history of the Iberian Peninsula, is it a rupture or a continuity? Multiple interpretations which have affected this topic emerge and have a profound impact on the future of the region history. Without neglecting to talk about the interactions of Andalusian society, and the relationship of influence and impact of Al-Andalus with the rest of the mediterranean Islamic countries, particularly the Arab Levant on the one hand and North Africa on the other hand.

**Keywords :** Al-Andalus - Iberian Peninsula - Andalusian identity - Islamic presence in Al-Andalus - Rupture - Continuity.

## مقدمة

تعد الدراسات الحديثة العربية منها والأجنبية، مرجعا لا غنى عنه لدى كل باحث في التاريخ، لما توفره من رصيد تاريخي هائل، ولما تنكب عليه هذه الدراسات من تحليل لإشكالات عديدة، ومواضيع جمة تلامس جوانب متعددة من تاريخ الأمم والشعوب. ولا يخفى على كل دارس ما تقدمه الدراسات الاستشرافية من جانبها في هذا الصدد، خاصة تلك الدراسات المتخصصة، نظرا لجدة أطروحاتها، وموضوعية تحليلها، وجدية تناولها، رغم اختلاف لغاتها وأقطارها.

وبالنظر للأهمية القصوى التي تكتسبها الإصدارات الأجنبية الحديثة في فتح آفاق رحبة للباحث في تاريخ الأندلس، عمدنا إلى دراسة كتاب لإحدى المستشرقات الإسبانيات "Manuela Marin" يعد من نفائس الكتب الأجنبية التي تناولت بالدرس والتحليل، جوانب من تاريخ الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية وهو كتاب "AL-Andalus et les andalousiens".

وهذا، وقد قسمنا هذه الدراسة المتواضعة إلى ثلاثة محاور، فالتحتم نبذة عن صاحبة الكتاب، وتعريف بكتابتها، محاولين ملامسة الأطروحة المحورية التي يروج لها الكتاب. ثانيا دراسة في محتوى الكتاب، وهو أساس هذا العمل برمته، معتمدين في ذلك على بعض المصادر والمراجع التي اهتمت بنفس الموضوع للتثبت من بعض المعطيات الواردة بالكتاب، وأخرى أحالت عليها الباحثة والتي لها ارتباط وثيق بما عالجت في دراستها القيمة هذه، وقد حافظنا في تناولنا لهذا العمل على التقسيم التي تبنته الباحثة منهجا لدراستها، حتى نحافظ على النسق العام للكتاب، وعدم المساس بتراتبية أفكاره. أما آخر المحاور فهتم بعض الملاحظات العامة حول الكتاب، مبرزين نقط القوة التي أثارها الباحثة، مع تحديد القيمة العلمية للكتاب، والتي من خلالها تتبين أهميته وتبرز قيمته المضافة.

## المحور الأول: التعريف بالباحثة وكتابتها وأطروحة الكتاب

## 1- صاحبة الكتاب في سطور

تعد "مانويلا مارين" من المؤرخين المتميزين الذين كرسوا حياتهم للبحث العلمي، فهي تنتمي للجيل الثاني من المستشرقين الإسبان. وهي أيضا باحثة في المجلس الأعلى للبحث العلمي (Consejo Superior de Investigaciones científicas)، وقد شغلت مديرة مجلة «Al-Qantara» ما بين 1987 و 1999. كما كرست أبحاثها للتاريخ الاجتماعي والثقافي للأندلس.

ونشرت مجموعة من المقالات في عدة مجلات علمية إسبانية وخارجية، كما لها عدة مصنفات من بينها:

- Individuo y sociedad en AL-Andalus (madrid,1992).
- Biografias y género biografico en AL-Andalus, Madrid, 1997 (بتعاون مع متخصصين آخرين)
- The formation al-Andalus (Londres,1998).

## 2- التعريف بالكتاب:

يعتبر كتاب "AL-Andalus et les andalousiens" من الأعمال الجيدة للمستشرقة الإسبانية "مانويلا مارين"، وهو من إصدارات: Encyclopédie de la Méditerranée (EDM)، سلسلة التاريخ، عدد 13. والنسخة التي بين أيدينا نسخة مترجمة من اللغة الإسبانية إلى اللغة الفرنسية، قام بترجمتها « Anne-Marie Lapillonne »، طبع الكتاب بمطابع: Alif les Editions de la Méditerranée بتونس في أكتوبر 2000.

يقع الكتاب في مائة وصفحتين، تدرج تحته ستة فصول، مذيلة بخمس خرائط، وقائمة ببيوغرافية، وقائمة تتضمن تصنيفاً زمنياً للوجود الإسلامي بالأندلس، بالإضافة إلى ملحق خاص في الأخير يشتمل على تسعة نصوص مترجمة من العربية، متبوعة بتعليق مفصل للباحثة.

## 3- أطروحة الكتاب:

حاولت الباحثة في كتابها "AL-Andalus et les andalousiens" معالجة مجموعة من المحاور تتعلق بالتاريخ الاجتماعي والثقافي للوجود الإسلامي بالأندلس. فمن خلال الكتاب تبرز الباحثة الحدود التاريخية والكرونولوجية خلال هذه الفترة التاريخية لشبه الجزيرة الإيبيرية، باحثة عن التحولات الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية التي طالت المجتمع الأندلسي، معالجة بذلك إشكاليات متعددة تتعلق بموضوع التسمية والهوية، مع إعادة النظر في النظريات التي صاحبت الوجود الإسلامي بالأندلس، وما طال ذلك من تأويلات متعددة، لها بليغ الأثر على مستقبل تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية.

## المحور الثاني: دراسة في محتويات الكتاب:

## 1. الأندلس، حدود تاريخية وكرونولوجية

تعالج الباحثة "مانويلا مارين" في هذا الفصل مسألة مهمة وهي إشكالية التسمية، حيث تربط اسم "الأندلس" بالحيز المكاني الذي شغله المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية من سنة 711 إلى غاية 1492م، وهو الاسم الذي نسبته الأندلسيون أنفسهم لهذا المكان، والذي ورد في أغلب النصوص العربية التي أرخت لهذه الفترة من تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية.

تميز الباحثة بين مستويين في اللغة العربية: المستوى الكتابي وهي اللغة العربية الفصحى، والمستوى الشفهي وهي اللهجات المختلفة. وقد اعتمدت في معالجتها لفصول هذا الكتاب على المستوى الأول (العربية الفصحى) باعتبارها اللغة المستعملة من طرف المؤرخين، والمعتمدة من طرف دارسي اللهجات الأندلسية. لكن استعمال مصطلح "الأندلس" ليس عالميا، بل غالبا ما تعرف هذه الفترة التاريخية بعبارة "إسبانيا المسلمة". بالإضافة إلى عبارات أخرى مثل "الإسباني الإسلامي" و"الإسباني العربي"، و"العربي الأندلسي". هذه العبارات تعود لفترة من التاريخ الإسباني يعتبر فيها تفوق العنصر الإسباني على العنصر العربي أو الإسلامي أبرز العناصر المؤسسة للكيان الأندلسي<sup>1</sup>.

وتتساءل الباحثة فيما بعد عن سبب تفضيل مصطلح "الأندلس"، لتخلص إلى أنه من بين الأسباب توافق هذا الاسم مع ما كان يتداوله سكانها للدلالة على أرضهم، بالإضافة إلى أن عبارة "إسبانيا المسلمة" غير صحيحة من وجهة نظر تاريخية وجغرافية، حيث أنه في العصر الوسيط، يعتبر الحديث عن اسم "إسبانيا" مشوب بنوع من الخطأ، فما كان متواجدا في الجهة الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية هو مجموعة من الممالك المسيحية التي تحمل أسماء مختلفة (ليون، قشتالة، نافارا، أراغون...). ومن الناحية الجغرافية هذه التسمية غير مناسبة تماما لكونها لا تأخذ بعين الاعتبار كل المناطق التي تنتمي حاليا للبرتغال، والتي تعتبر أندلسية بقدر المناطق التي تعتبر حاليا إسبانية. كما أن الأدلة المادية للماضي الأندلسي نجدها في الأندلس كما نجدها في مناطق أخرى من شبه الجزيرة الإيبيرية، ففي فترات من التاريخ كانت مدن مثل برشلونة وطليطلة ومديرد وحتى لشبونة، مدنا أندلسية مثل قرطبة وإشبيلية<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> -Marín, Manuela, AL-Andalus et les andalousiens, traduit de l'espagnole par Anne-Marie Lapillonne, Encyclopédie de la Méditerranée, Série Histoire, Imp. Alif les éditions de la Méditerranée, Tunisie, 2000, p.10.

<sup>2</sup> -Ibid, p.11.

إن أصل كلمة "الأندلس" أعطى تسميات مختلفة، لكن أقربها إلى الصواب هي التي لها علاقة بكلمة "Atlantide". فالمؤلفون العرب أندلسيون وغيرهم، لا يفرقون في كتاباتهم بين "الأندلس" و"جزيرة الأندلس" لأنه في اللغة العربية تستعمل نفس الكلمة "جزيرة" للدلالة على جزيرة أو شبه جزيرة.

انتقلت الباحثة بعد ذلك لتتحدث عن الحدود الزمنية للوجود الإسلامي بالأندلس، وحددت بين سنتي 711 و1492م. فمن تاريخ سقوط غرناطة إلى الآن، اختفى النفوذ السياسي الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية. فلم يعد ممكنا الحديث عن "الأندلس" بعد هذا العصر. لكن يجب أن نميز بين النفوذ السياسي الإسلامي وبين وجود الإسلام بالأندلس، وهما حالتان لا يمكن مطابقتها نهائيا. خاصة وأنه بعد الفتوحات المسيحية الكبرى في القرن 13م، حسب تعبير الكاتبة، والتي هيمنت على أغلب الأراضي الأندلسية، ظلت هناك مجتمعات إسلامية تعيش تحت النفوذ المسيحي عرفت هذه الفئة بـ "المدجنين"<sup>1</sup>.

فبعد استرجاع غرناطة، خير المسلمون الذين بقوا بشبه الجزيرة الإيبيرية بين التنصير الإجباري أو إخلاء بلدهم الأصلي. والذين بقوا بإسبانيا عرفوا باسم "الموريسكيين"، أغلبهم حافظوا على إيمانهم السري، إلى أن طردوا نهائيا في بداية القرن 17م<sup>2</sup>.

كما أن الحدود الزمنية للتاريخ الأندلسي هي الكفيلة بتحديد الإطار الذي يمكن أن نمعلم فيه الأحداث التاريخية لهذا العصر، ولابد لهذا الإطار أن يأخذ بعين الاعتبار التطورات الإقليمية للأندلس، وإلا سنسقط في تعميمات غير عادلة، فمثلا عند الحديث عن ثمانية قرون من الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (أي من 711م إلى 1492م)، فالأمر ينطبق على غرناطة ومملكتهما التي ظلت قائمة طيلة هذه الفترة، في حين بعض المناطق في أقصى الشمال لم تكن تابعة للأندلس إلا خلال قرنين أو ثلاثة.

بناء على هذا، تشير الباحثة إلى أن الحقيقة الأندلسية مفهوم ثابت جغرافيا، والوجود الإسلامي لم يكن منتظما ومتماثلا في جميع التراب الأندلسي، حتى في الفترات التي ساد فيها معظم

<sup>1</sup> لتفاصيل أوفى عن هذه الأقلية الأندلسية، يراجع:

Garcia-Arenal, Mercedes, La Diaspora des andalousiens, traduit de l'espagnole par Anne Marie Lapillonne, Imp. France Quercy, Cahors, 2003, pp. 47-83.

<sup>2</sup> - تطرقت الباحثة M. Garcia-Arenal إلى هذا الموضوع بنوع من التفصيل:

Ibid, pp. 85-139.

مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية. إن الظروف في المراكز الحضرية الخاضعة لرقابة حقيقية من العاصمة، لم تكن هي نفسها في المناطق الحدودية التي تتمتع في أحسن الأحوال بحكم ذاتي موسع والتي كانت تواجهها مشاكل مختلفة تماما.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الفوارق حتى لا نسقط في المفهوم الثابت والجامد لتاريخ الأندلس، فلا يمكن أن ننسى أن هذا التاريخ نفسه عرف مجموعة من المحددات:

- أولها: انتماء الأندلس للعالم الإسلامي المتوسطي، وهو مجتمع مختلف تماما عن المجتمع الإقطاعي، الذي كان قائما في نفس الوقت في أوروبا المسيحية.

- ثانيها: تاريخ الأندلس هو جزء من تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط أي شبه الجزيرة الإيبيرية وبلاد المغرب<sup>1</sup>.

هذه الروابط الجغرافية، التي لا مفر منها، تفترض بالضرورة وجود بيئة ثقافية مشتركة. فتاريخ الأندلس لا يمكن أن يفهم إذا لم يتم الأخذ بعين الاعتبار هذه العلاقات المرتبطة أساسا بالمصالح المشتركة سياسيا وثقافيا.

انتقلت الباحثة في آخر هذا الفصل إلى معالجة إشكالية تتعلق باستعمال مصطلحي "فتح" (conquête) و"إعادة فتح" (reconquête)، فتقول إنه في الدراسات التاريخية تم استعمال مصطلح إعادة الفتح "reconquête" ومازال يستعمل للدلالة على استرجاع الأراضي الإسبانية التي ضاعت بين أيدي الغزاة المسلمين، على حد تعبير هذه الدراسات. وترى الباحثة أن هذا التعبير ينتقص من الشرعية التاريخية للوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية<sup>2</sup>.

ولتجنب هذا التوظيف الإيديولوجي، تفضل "مانويلا مارين" في كتابها هذا وصف الأحداث العسكرية التي أدت إلى ظهور وإلى زوال الأندلس كفتوحات (conquêtes)، انطلاقا من تلك التي بدأت سنة 711م من طرف المسلمين، وإلى غاية تلك الأحداث التي حولت الأندلس إلى مناطق خاضعة لحكم الممالك المسيحية<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p.14.

<sup>2</sup> - تؤكد الباحثة أنه جرت العادة بوصف هذه الفترة بعصر الغزوات المتتالية، غير أن الكتابات التاريخية لا تحيل قط إلى الغزو الرمانى على سبيل المثال:

Ibid, p. 15.

<sup>3</sup> -Idem.

## 2. التحولات الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية: قطيعة أم استمرارية؟

حاولت الباحثة في هذا الفصل إثارة مواضيع متعددة ذات أبعاد سياسية وإيديولوجية واقتصادية واجتماعية. أولها الحديث عن وجهات النظر المختلفة بين الباحثين حول الوجود الإسلامي بالأندلس. استهلّت الحديث بما أثاره الباحث "إيمانويل غرسيا كوميز" عند تقديمه لمجمل تاريخ الأندلس للمستعرب الفرنسي الشهير "ليفي بروفنسال" (الذي نشر في إسبانيا تحت عنوان: إسبانيا المسلمة إلى غاية سقوط الخلافة في قرطبة، مدريد، 1950) حيث يؤكد "غرسيا كوميز" أنه لا يوجد في الواقع طوال التاريخ الهائج لإسبانيا، تغيير مفاجئ ولا منعطف خطير مثل الغزو العربي. وفي هذا الإطار تقول أن هناك مجموعة من المؤرخين اقتنعوا بهذه الفكرة مثلما اقتنع بها "غارسيا كوميز"، حيث أن وجود الأندلس شكل عندهم صدمة تاريخية غير مأمولة، ويعتبرون أن هذا الانقلاب الحاصل في شبه الجزيرة الإيبيرية أوقف السير العادي للحضارة الإسبانية الرومانية. إذ رغم كل التقلبات، فشبه الجزيرة الإيبيرية لم تكن قط منطقة خاضعة للعالم الإسلامي. فبالنسبة للمدافعين عن هذه النظرية "المحافظين"، فإن مجيء الإسلام لم يدخل، في الحقيقة، تغييرات مهمة على المجتمع الأصلي، بل هي تغييرات سطحية، فـ "كلاوديو سانشيز ألبورنوس" مثلاً يقول أن الجواهر الحيوية لا يمكن أن تتبخر، وأن العصب الحيوي الإسباني لم يتعرض للتعريب. وبالمقابل هناك جهة أخرى ربما أقل تطرفاً، تتعلق بالإستوغرافيا الحالية اقتنعت أن المجتمع الأندلسي حافظ على مسألة "الاستمرارية" مع الموروث الإسباني القوطي.

كما تشير مؤلفة الكتاب بوضوح أن فتح الأندلس سنة 711م لم يحذف بين عشية وضحاها ما كان موجوداً بشبه الجزيرة الإيبيرية، كما هو الشأن في باقي العالم الإسلامي، فمجيء الإسلام لم يمح معه الآثار الثقافية السابقة، حيث تعتبر القرون الأولى من تاريخ الإسلام مرحلة تكوين مكنات شرائح واسعة من استيعاب الوضعيات الجديدة التي نتجت عن تلاقح عدة ثقافات، وكنتيجة لذلك لا يمكن إنكار وجود عناصر الاستمرارية في المجتمع الإسلامي، والتعايش أيضاً حتى في الفترة القديمة جداً من تاريخ الأندلس. وهنا تسوق "مانويلا مارين" مثلاً على التعايش الديني الذي عرفته الأندلس، يتمثل في كنيسة بقرطبة، كان المسلمون والمسيحيون على السواء يمارسون فيها شعائهم الدينية إلى أن قام عبد الرحمن الأول بتحويلها إلى أكبر مسجد بقرطبة، غير أن وجود عناصر هذه الاستمرارية لا يمكن اعتبارها السمة الرئيسية التي تميز تاريخ الأندلس بكامله<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> -Ibid, p. 19.

وفيما يخص النقاش الدائر بين الفريقين السابقين حول مسألة اللغة، يقول الفريق الأول إن اللغة العربية لم تؤثر في اللغة اللاتينية إلا النزر اليسير، بينما يقول الفريق الثاني بازدواجية اللغة وهو ما ولد فئة سكانية جديدة تسمى بالمستعربين. في حين تؤكد المؤلفة أنه رغم النقاش الدائر حول ما إذا كان هناك تعريب للسكان أم لا، فإن المجتمع الأندلسي حافظ على استمراريته كمجتمع إسلامي حافظ على لغته التي كانت حتى قبل مجيء الإسلام<sup>1</sup>.

كما أن العناصر التي تفترض قطيعة مع الوضعية التي كانت عليها الأندلس قبل الفتح 711م، تمس من جانب آخر البنيات الأساسية للمجتمع، ولهذا السبب فهي تهيمن على مؤشرات "الاستمرارية"، ومع ذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار أن التكيف مع البنيات الجديدة لا يمكن أن يحدث بطريقة فورية ومنظمة في جميع التراب الأندلسي. فخلال القرون الأولى من تاريخ الأندلس (القرنان 8 و9)، أمكننا أن نلاحظ استيعابا متدرجا لأنماط جديدة من الإنتاج ونظام الضرائب وغيرها، والتي أثارت صراعات دائمة إلى غاية القرن 10م<sup>2</sup>.

هذا بالإضافة إلى أن هذه الأنماط الجديدة نشأت عن عالم إسلامي هو نفسه في طور التكوين، وهكذا فإن مشاكل كل منطقة -عند الفتح- تبرز بشكل مختلف عن الأخرى حسب المعطيات المحلية. وهنا تثير الباحثة مسألة التوثيق بشدة، فرغم أن المرحلة الأولى من تاريخ الأندلس تعد مرحلة حاسمة، إلا أن المعطيات التاريخية الموثوقة التي وصلتنا ضعيفة جدا. فالمدونات التاريخية، التي تعتبر المصادر الكتابية الرئيسية لمعرفة هذا العصر، كتبت متأخرة، حيث أن أقدمها يعود إلى القرن العاشر، كما أنها عانت من عملية إعادة الصياغة، ورغم أنه لا يمكن إنكار قيمة شهادتها، لكن لا بد من تناولها بالكثير من الحيطة. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المدونات، التي لا تمثل مجموع ما كتب، بقيت تعالج غالبا السلطة السياسية المتجسدة في الحاكم، فهي مدونات تهتم بإظهار مجد الأمير ومحيطه، والإشادة بالكفاح البطولي ضد أعداء الإسلام. ولهذا تدعو الباحثة إلى الاحتكام إلى سجلات أخرى من الوثائق، للمساهمة في معرفة جيدة لهذه الفترة الأولى من تاريخ الأندلس، بالإضافة إلى النصوص القانونية، وكتب التراجم. وهنا تبرز الحاجة الحثيثة لاستغلال هذه الطرق البديلة، والتي من خلالها يمكن معرفة النظم القانونية والتحوللات الاجتماعية التي حدثت لهذا المجتمع<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> -Ibid, p. 20.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 21.

<sup>3</sup> -Ibid, pp. 21-22.



الأمر الثاني الأكثر أهمية في هذا الفصل هو مسألة تجسيد الخليفة للسلطة السياسية والدينية للمجتمع الإسلامي، وقد مثلت الباحثة لذلك بعصر الدولة الأموية في الأندلس. فباختصار شديد تخلص "مانويلا مارين" إلى أن التغييرات البنوية المهمة التي حدثت بشبه الجزيرة الإيبيرية خضت الدولة والسلطة، وكيفية جمع مداخيل الدولة (نظام الجبايات)، وخصوصيات انتقال الاسم داخل العائلة (نظام التسميات)، وتنظيم الدولة. فخلال المراحل الأولى من تاريخ الأندلس، كانت السلطة السياسية تتمثل في أمير تابع للخلافة الأموية بدمشق، لكن ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي عرفت الأندلس استقلالاً مع دخول عبد الرحمن بن معاوية، الذي استطاع أن يستأثر بالحكم في الأندلس بعد فراره من العباسيين. وفي بداية القرن العاشر سعى عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة، وهذا يعني استئثاره بالسلطة السياسية والدينية للمجتمع الإسلامي بأكمله، فاضطاعه بلقب الخليفة يحمل دلالات رمزية، وذلك لمواجهة المشروع الفاطمي الذي يشكل تهديداً عسكرياً حقيقياً لاستقرار الأندلس<sup>1</sup>.

فالأندلس خلال الخلافة الأموية عرفت أوج تاريخها<sup>2</sup>، لكن انصرافها في بداية القرن 11م فتح الأبواب أمام قيادات فردية ضعيفة لإعادة توحيد الأندلس، ومواجهة تقدم الملوك المسيحيين، وهي دول ملوك الطوائف<sup>3</sup>. وهنا صنفت الباحثة هؤلاء الملوك حسب أعراقهم وأصولهم إلى:

- أصول عربية: مثل مملكة بني عباد بإشبيلية<sup>4</sup>.

- وأصول بربرية: مثل مملكة بني زيري بغرناطة.

إلا أنها تؤكد أن هذا التصنيف قد يوقع الباحث في الخلط، وذلك أن فوق أراضي كل أمير تعيش ساكنة متنوعة الأعراق، ولهذا فالتصنيف العرقي يجب تجاوزه. وفي نظر الباحثة إن بناء سلطة سياسية حقيقية - والتي لم تتحقق بصورة تامة إلا في عهد الخلافة الأموية - اصطدم

<sup>1</sup> - Ibid, p. 23.

<sup>2</sup> - للوقوف على تفاصيل الفترة الزاهرة للخلافة الأموية بالأندلس، يرجى مراجعة: الجارم بك، علي، قصة العرب في إسبانيا، مطبعة المعارف، مصر، 1944م، ص 136 وما بعدها.

<sup>3</sup> - بلغ عددها حوالي عشرين وحدة مستقلة. (لتفاصيل أوفى عن هذه الدويلات بأسمائها وأمكنها وتواريخ نشأتها وسقوطها، راجع: حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1988م، ص 96-97).

<sup>4</sup> - تعتبر مملكة بني عباد أشهر دول الطوائف وإن لم تكن أقواها، وأصل بني عباد عرب، استقروا أول الأمر في شلب غرب الأندلس. وترجع قوتهم إلى جدهم إسماعيل بن عباد لما تميز به من مهارة سياسية وقدرة على جمع المال وذكاؤه الذي جعله يسود أهل إشبيلية جميعاً. (للمزيد من التفاصيل حول إمارة بني عباد يرجى مراجعة: مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، دت، ص 426-430).

بضعف داخلي، لم يتم تجاوزه بالقدر اللازم، ويتجلى هذا الضعف في هفوات وأخطاء في التنظيم العسكري الذي تأسس بناء على تنظيمات قبلية.

وهنا تنتقل إلى مقارنة النظام العسكري للدولة الإسلامية في الأندلس، مع ملامسة الجانب الاقتصادي - ولو باقتضاب - وعلاقة ذلك بنظام الجبايات والقوانين الشرعية التي تنظم عملية انتقال الموارث. فالجيش الذي أسس على اعتبارات قبلية، عوض تدريجيا بجيش محترف مكون أساسا، ابتداء من القرن 10م، من فرق تم تجنيدها في شمال إفريقيا. إذ تم إعفاء السكان الأصليين من مهمة الدفاع عن أرضهم مقابل دفعهم لضرائب مخصصة لأداء أجور أفراد الجيش، وهذا ما أفرز شرخا في العلاقة بين المجتمع المدني عموما والسلطة العسكرية<sup>1</sup>.

وتذهب الباحثة إلى أن السلطة السياسية في تطورها التاريخي بالأندلس طبقت على مجتمع موحد بروابط دينية وهو المجتمع الإسلامي، لكن في الواقع نجد طبقات مجتمعية مختلفة ومتباينة على كافة الأصعدة، لكن هذا لا يعني ظهور طبقة نبيلة ملكت حقوقا وراثية، أو رقابة على المداخل الجبائية، أو موارد النشاط الفلاحي<sup>2</sup>.

أما عن نظام انتقال الإرث في الإسلام، فتذكر أنه لا يسمح بالتصرف بحرية إلا في ثلث الممتلكات -أي الوصية- أما الباقي يقسم حسب القوانين والضوابط الشرعية بين الورثة، وهذا ما يحول دون حفظ ممتلكات كبيرة. إلى جانب ذلك إن تحصيل المداخل استند إلى نظام جبائي، من خلاله تم تحصيل عائدات مهمة خلال مرحلة أوج الخلافة. كما أن الضرائب المؤداة اختلفت بين الملاكين المسيحيين والملاكين المسلمين الذين لم يكونوا يؤدون إلا العشر، فضلا على أن الدخول إلى الإسلام لم يكن يحرم صاحبه من ممتلكاته واستغلالياته.

وهنا تعود مؤلفة الكتاب إلى فترة ملوك الطوائف لتثير موضوع الضرائب القاسية التي فرضها هؤلاء على السكان، للتمكن من أداء الجزية<sup>3</sup> التي فرضها عليهم الملوك المسيحيون مقابل ضمان بقائهم وبقاء ملكهم. هذا وقد أشارت باقتضاب إلى بنيات القرابة في المجتمع الأندلسي التي تمحورت حول وجود تشكيلات قبلية على الأقل في المرحلة الأولى. كل هذا جعل من المجتمع الأندلسي مجتمعا متميزا ومتطورا ودائم التغيير ومتفاعلا مع التأثيرات الخارجية. وعلى العموم

<sup>1</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 25.

<sup>2</sup> -Idem.

<sup>3</sup> - للمزيد من التفاصيل في هذا الإطار، انظر: بنعبود، محمد، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، جمعية تطاون أسمير، مطابع الشويخ، الطبعة الثانية، تطاون 1999م، ص 75-84.

تؤكد الباحثة أنه لولا دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، لتكون مجتمع مختلف تماما للذي كان<sup>1</sup>.

### 3- من هم الأندلسيون؟

تعتبر "مانويلا مارين" الأصل العرقي والعامل الديني المحددات الأساسية للهوية الفردية أو الجماعية في الأندلس. وهنا تشير إلى أهمية الموضوع وتنطلق من نقطة أساسية مفادها أنه ما دام الإسلام أوحى به إلى العرب وباللغة العربية، فهذا من الطبيعي أن يمنح لهذا الشعب مكانة خاصة تجعله في مقدمة الشعوب التي دخلت الإسلام تدريجيا. ففي الأندلس، إن المجموعات ذات الأصل العربي كانت تشكل أقلية مقارنة مع مجموع الساكنة، إلا أنها ظلت تتمتع بهذا الامتياز الإضافي المتعلق بأصلها، على الأقل خلال الفترة الأولى من تاريخ الأندلس، حيث كانت هذه المجموعة تفرض رقابة مطلقة على السلطة السياسية والإدارية والعسكرية. وقد كثر النقاش حول العدد الحقيقي من العرب الذين جاءوا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفتح وخلال فترات متأخرة بعد ذلك. وقد قيل أنه ما دام العدد كان ضعيفا فإنهم لن يؤثروا في الكتلة المجتمعية الكبيرة<sup>2</sup>.

تعتبر الباحثة هذا الرأي متجاوزا، ما دام قد استند على اعتبارات عنصرية في علاقة العرب بالتاريخ الأندلسي. فالعرب القادمون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية أرفقوا معهم عائلاتهم وحافظوا بذلك على العلاقات القبلية والعائلية التي تميز تكوينهم الاجتماعي، بالإضافة إلى تقلص الزواج المختلط. ورغم صعوبة الحصول على مادة توثيقية مهمة لهذه الظاهرة، حسب الباحثة، إلا أنه تم الوقوف على بعض الحالات المتعلقة بعائلات منحدرة من الأرسطراطية القوطية، فالمصادر العربية تورّد أن ابن فاتح الأندلس (وهو الخليفة الثاني) عبد العزيز بن موسى تزوج أرملة الملك "لذريق" (Rodrigo)، رغم أن هذا الأمر محاط بنوع من الغموض، وهوية زوجته ظلت مجهولة. وتورد أيضا مثالا آخر أكثر توثيقا عن الزواج المختلط، يتعلق الأمر بـ"سارة" قريبة الملك القوطي "غيطشة" (Witiza)، التي تشير إليها المدونات العربية باسم "القوطية"، وقد تزوجت شخصين من أعيان الطبقة الحاكمة القادمة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. ومثل هذه الحالات - تقول مانويلا مارين- حدث ببلدان أخرى، خاصة في مصر، حيث أن ارتباط الساكنة غير العربية بالنخبة العربية يعتبر عاملا للرقى الاجتماعي والسياسي. ومن جانب آخر لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن انتقال النسب عند العرب يرتبط بشكل حصري بالأب، أي يكون الابن عربيا إذا كان من أب عربي،

<sup>1</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 27.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 30.

في حين يعد نسب الأم أقل اعتباراً، ولهذا فإن الانتماء لنظام القرابة هذا يبقى رغم حدوث ظاهرة التزاوج مع ساكنة غير عربية<sup>1</sup>.

كما خصصت الباحثة فقرة مهمة لنظام التسمية العربية التي عرفته الأندلس، حيث أكدت أن هذا النظام حافظ على الإشارات التي تعرف بنسب الشخص، وأن اسمه الشخصي هو آخر حلقة في الاسم الذي يضم كل أسلافه المعروفين ويضاف لقبه في آخر الاسم، هذا اللقب قد يشير إلى منشأ الشخص، مثلاً السرقسطي (من سرقسطة) أو البلنسي (من بلنسية)، وقد تكون له دلالة عرقية كنسبته إلى القبيلة التي ينتمي إليها، كالقيسي واللخي والقرشي (وهي قبائل في شبه الجزيرة العربية)، حيث تكفي قراءة بسيطة لاسم الشخص لمعرفة سلسلة من المعلومات حول أصوله العائلية، والتي من خلالها يمكن معرفة أصله العربي.

وفي ذات السياق تؤكد أن الأندلسيين الذين يحملون نسبا عربيا ليسوا بالضرورة من أصل عربي، فاعتناق الكثيرين للإسلام في الأندلس جعلهم يندمجون في البنيات العائلية والقبلية لبعض العرب، فنشأت بذلك بينهم علاقات التبعية. هؤلاء المسلمون الجدد الذين انتسبوا لقبيلة معينة حملوا هذا النسب بعد ذلك إلى خلفهم، لكن غالبا ما تنجلي تلك التبعية، أو يتم إغفالها عمدا لإخفاء مفهوم الأصل العربي الحقيقي. وفي بعض الحالات، لا يكون تبني الاسم العربي مرتبطا بعلاقات التبعية، بل يعكس التعريب الثقافي للمجتمع الأندلسي والرغبة في الاستفادة من شهرة وهيبة الأسماء العربية، وذلك بانتحال أنساب كاذبة. وتؤكد بذلك أن الانتساب بالطريقة الأخيرة لم يدم طويلا فقد تلاشى مع مرور الزمن، عكس البنيات القبلية التي تكونت في الأندلس<sup>2</sup>.

ولم تفوت الفرصة للإشارة إلى عالم الأنساب الشهير "ابن حزم"، الذي لم يكن أصله عربيا، والذي صنف كتابا بعنوان "جمهرة أنساب العرب" ذكر فيه القبائل الأصلية في شبه الجزيرة الإيبيرية، مضيفا معلومات مهمة حول العناصر المنتمية للقبائل التي استقرت بالأندلس، ومناطق استقرارها. وهنا لا تخفي الباحثة بعض الاستغراب، وتقول كيف لابن حزم الذي لم يكن من أصل عربي أن يخلف أهم نص حول تشكيل الوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية، لكن هذه الاستغراب يخف متى ما تم اعتبار التعريب كمبدأ يتجاوز الانتماء العرقي الصارم. ولذلك فالتعريب الثقافي عند الأندلسيين كان أيضا بتبني اللغة العربية كأداة للتواصل، وهنا تعود الباحثة فتعقد مقارنة بين مستويين في اللغة العربية: اللغة العربية الفصحى التي كتب بها القرآن الكريم

<sup>1</sup> -Ibid, pp. 30-31.

<sup>2</sup> -Ibid, pp. 31-32.

وكل الأدب العربي، والعربية العامية التي تستعمل في التواصل الشفوي والتي تتخللها اختلافات كثيرة حسب المناطق. فإتقان اللغة العربية الفصحى يعني بالضرورة الانتماء إلى النخبة المسيطرة والمثقفة. أما المستوى الثاني للغة العربية فقد عرف تأثراً بمفردات لاتينية، وتغيرات صرفية مهدت لميلاد لغة عربية خاصة بالأندلسيين. كما أن وجود ثقافة ذات شهرة بالأندلس، جعلت نخبا من السكان الأصليين يتبنون اللغة العربية لغة للتواصل رغم عدم دخولهم في الإسلام. حتى أن بعض النصوص الدينية المسيحية مثل "المزامير" ترجمت إلى العربية. وفي القرن التاسع قام بعض رجال الدين المسيحيون الذين أحسوا بخطر فقدان الهوية لمقاومة لظاهرة "الأسلمة"، برد فعل عن طريق إنشاء حركة "الشهداء المتطوعين"، ورغم أن هذه الحركة شكلت أقلية، إلا أنها تعكس أثر الثقافة العربية الإسلامية على الساكنة<sup>1</sup>.

وتنتقل "مانويلا مارين" بعد ذلك لتصف المظهر الديني بالأندلس، حيث شكلت المسيحية، وبشكل أقل اليهودية، وجودا بارزا خلال أبرز فترات تاريخ الأندلس، إلا أن هذا الوجود بدأ يتقلص إلى أن اختفى في المرحلة الأخيرة من هذا التاريخ، حسب تعبيرها. وهذا الوجود استند على إطار شرعي داخل الإسلام الذي يقر بوجود هاتين الديانتين (المسيحية واليهودية، أو ما يسمى بأهل الكتاب)، ورغم أنها ترى أن اليهود والنصارى ظلوا أقل اعتبارا مقارنة مع المسلمين على المستوى الاجتماعي، إلا أنها تقر بالسماح لهم بتنظيم وضعهم الداخلي وممارسة عاداتهم وشعائهم الدينية.

وتعود من جديد للحديث عن الزواج المختلط فتقول إنه كان بإمكان المسلمين أن يتزوجوا بمسيحيات أو يهوديات، عكس اليهود والنصارى الذين لم يكن بوسعهم الزواج بمسلمات. وهذا ما جعل المجتمع الأندلسي إلى غاية منتصف القرن العاشر، على الأقل المجتمع الحضري، صار ذا أغلبية مسلمة، وبالتالي بلغت عملية "الأسلمة" أوجها. وهنا تقرر أن الإسلام لم يكن أبدا دين إكراه، حيث أن الساكنة التي اندمجت في الدولة الإسلامية بالأندلس كان بإمكانها المحافظة على دينها وهذا ما فعلته مجتمعات مسيحية ويهودية. وفسرت هذا الأمر من زاويتين: الأولى تتمثل في التشابه الموجود بين هذه الديانات حيث تتفق كلها على مسألة التوحيد، والثانية لخصتها في الفوائد الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن يحققها هذا الاندماج.

<sup>1</sup> - Ibid, pp. 33-34.

بالإضافة إلى أهمية الوجود العربي في الأندلس، لامست الباحثة أهمية العنصر الأمازيغي (البربري بتعبير الكاتبة) في الأندلس وإسهاماته، فتقول إن فرقا كبيرة من الأمازيغ دخلت الأندلس بدخول الإسلام، ولم يكن دخولهم فقط كمحاربين، بل كمسلمين وعلى اسم الإسلام يقاتلون. فالذين استقروا منهم في المدن تعربوا بسهولة واندمجوا بسهولة مع نخب السلطة والعلم. كما أن بعض العائلات الأمازيغية التي كانت ذات أهمية حافظت على نسبها القبلي، لكن هناك حالات تبنت تسميات عربية، وهذا راجع، حسب رأي الباحثة، إلى أن الخطوة والهيبة التي تمتع بها العرب أكبر من هيبة الأمازيغ، وهذا الأمر هو الذي أدى إلى فقدانهم لنظام تسمياتهم. وفي نفس الموضوع لم تغفل الباحثة دور العنصر الأمازيغي في النصف الثاني من القرن العاشر عند دخولهم في الجيش<sup>1</sup>، إذ لعبوا دورا مهما في فترة الحروب الأهلية التي تلت انصراف الخلافة. وفي القرن 11م، تمكنوا من السلطة في بعض الممالك الطائفية التي انقسمت إليها الأندلس مثل غرناطة<sup>2</sup>.

وختمت الباحثة المشهد الاجتماعي للأندلس بالإشارة إلى فئة من السكان، ألا وهي فئة العبيد، ولم تغفل عن ذكر تنوع هذه الفئة حسب أعراقها وأصولها، لكن أغلبهم قدموا من أوروبا المسيحية وإفريقيا جنوب الصحراء، كما صنفهم أيضا حسب طبيعة مهمتهم إما في المجال العسكري، أو الأعمال المنزلية، مشيرة إلى دور العبيد ذوي الأصول الأوروبية في بيت الخلافة والذين يحملون اسم "الصقالبة"، بالإضافة إلى دور العبيد الأمازيغ في سقوط الخلافة، والاستئثار بزمام الحكم في بعض الممالك الطائفية.

وبناء على كل هذا تخلص الباحثة، عند جوابها على السؤال العريض الذي طرحته أول هذا الفصل (من هم الأندلسيون؟) إلى أن أغلبهم نتج عن اندماج ساكنة محلية، تعربت وتأسلمت، لتصير مجتمعا جديدا مكونا من أصول وأعراق مختلفة، فحسابيا تقول الباحثة، أن أهم مساهمة

<sup>1</sup> على سبيل المثال تمكن المنصور بن أبي عامر من تحقيق انتصارات متواصلة بفضل جيشه النظامي الذي ضم في معظمه عناصر من البربر استقدمهم من شمال إفريقيا بدلا من جيش كان يقوم على جماعات قبلية تحارب تحت ألوية زعمائها. وبعد وفاة المنصور استدعى ابنه عبد الملك المزيد من البربر من شمال إفريقيا للالتحاق بجيشه لما عرف عنهم من جرأة وكفاءة. (راجع: ابن بلقين، عبد الله، كتاب التبيان. تحقيق أمين توفيق الطيبي، سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1155هـ/1995م، مقدمة المحقق، ص 13).

<sup>2</sup> منهم القائد "زاوي بن زيري" الذي كان المنصور بن أبي عامر شديد التردد في السماح له بالجواز إلى الأندلس، في حين أذن له ابنه عبد الملك بالدخول رفقة نفر من صنهاجة. (نفسه، ص 27).

خارجية كانت من طرف الأمازيغ، لكن الأقلية العربية التي ظلت حاملة لهيبتها الاجتماعية هي التي لمعت وبرعت<sup>1</sup>.

#### الفصل الرابع: الأندلس مجتمع إسلامي

تعتبر "مانويلا مارين" في الفصل الرابع من كتابها هذا، أن التحولات التي عرفت الأندلس جعلتها تصير بالتدريج مجتمعاً إسلامياً، بلغ ذروته في القرن 10م، وهو القرن الذي تجسدت فيه السلطة السياسية في الخلافة الأموي، الذي جاء بعد سلسلة من الأمراء الأمويين الذين حكموا الأندلس انطلاقاً منذ النصف الثاني من القرن 8م<sup>2</sup>.

لقد أسس الأمراء الأمويون سلطتهم على الشرعية التاريخية للعائلة، باعتبارهم ينتمون إلى السلالة التي حكمت العالم الإسلامي من دمشق، والمنتمية إلى نفس قبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم "قريش"، وهذا ما مكّهم من خلق بنيات إدارية متينة لحكم البلاد، انطلاقاً من عهد عبد الرحمن الثاني. لكن لا يعني أن الدولة لم تعرف فترات من الأزمة. فعلى سبيل المثال تشير الباحثة إلى "ثورة الربض" بقرطبة في بداية ق 9م، خلال ولاية "الحكم الأول"، والتي انتهت بانتصار الأمير ونفي أغلب الثوار. كما أن الدولة الأموية عرفت أيضاً فترات عصيبة خلال عهد الأمير عبد الله تمثلت في فقدان قدرته على فرض الرقابة على كافة التراب الأندلسي، حيث لم يتمكن من السيطرة إلا على قرطبة وضواحيها، وهي الفترة التي تسميها المصادر العربية بالفتنة، والتي نجمت عنها سلسلة من حركات التفرقة، وظهور مقاومات عديدة، مثل ثورة عمر بن حفصون في جبال مالقة، والتي أثارت اهتمام الكثير من المؤرخين. وهذه الثورة ليست هي الوحيدة. كما أن هذه المقاومات لها أصول وأسباب عديدة، منها قبائل عربية أرادت أن تحافظ على مكانتها في السلطة، وأمازيغ شعروا بفقدان مكانتهم، وعائلات قوطية دخلت الإسلام وأرادت أن تحافظ على هامش حرياتها. وقد ظهرت نتيجة لذلك مظاهر التفكك واضحة خلال عصر الإمارة الأموية، تجلت في تشكيل ثلاث دويلات، في الثغر الأعلى (سرقسطة)، والثغر الأوسط (طليطلة)، والثغر الجنوبي (بطلوس). مع بروز قوى محلية داخل هذه الدويلات<sup>3</sup>.

وتنتقل الباحثة بعد ذلك إلى فترة مشرقة للدولة الأموية بالأندلس عندما خلف عبد الرحمن الثالث (الناصر) جده عبد الله سنة 912م، الذي تمكن من استعادة كافة المناطق وتجاوز بالتالي

<sup>1</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, pp. 35-38.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 39.

<sup>3</sup> -Ibid, p. 41.

الفترات العصبية التي مرت بها الأندلس، والذي لم يكتف بلقب الأمير فقط، بل سعى نفسه خليفة. فالسهولة الظاهرة في تمكن عبد الرحمن الثالث من المسك بزمام الأمور، لا يمكن أن تفهم إلا إذا تذكرنا عوامل الالتحام المجتمعي الذي وصل درجة مهمة في ولايته.

ولا تتوانى الباحثة في التذكير بالعظمة والأوج الذي بلغته الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث (912-961م)، وابنه الحكم الثاني (961-976م)، والشواهد على هذه العظمة متعددة وكثيرة سواء في النصوص المكتوبة أو الشواهد المادية. وأعطت الباحثة كنموذج لهذه الشواهد مدينة الزهراء، التي تدل على العظمة والإشراق الذي عرفه عهد هذين الأميرين. وفي هذا الصدد أعطت وصفا لهذه المدينة وبنيتها الحضرية التي تتمحور حول ثلاثة عناصر أساسية: القصبية أو إقامة الحاكم، والمسجد، والسوق. لتنتقل بعد ذلك إلى تحديد الأبعاد الدينية والسياسة للمسجد في المجتمع الأندلسي الإسلامي، حيث تقول إن المدن الكبرى تتوفر، بالإضافة إلى المسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة، على مساجد صغيرة في مختلف أحيائها. كما تصف تفاصيل صلاة الجمعة معتبرة أنها تقام بحضور واعظ يقرأ خطبة الجمعة باسم الأمير أو الخليفة، والتي لا يمكن إغفال حمولتها السياسية مادامت تعبر عن إخلاص المجتمع المسلم لقائدهم.

ولم تنس الأدوار المهمة للمسجد في التسيير الداخلي للمجتمع باعتباره مركزا للعلوم الإسلامية وملتقى للشيوخ والعلماء وتلامذتهم وأصحاب الخطط كالقضاة والمشاورين. كما أنها تعتبر ملجأ، عند اشتداد الأزمات، ومكانا للصلاة الجماعية كما هو الحال عند بعض الظواهر الطبيعية كالخسوف، والزلازل. هذه الأدوار جعلت من المسجد، حسب الباحثة، فضاء للتلاقح الاجتماعي.

وفي وصفها لمحيط المسجد، تذكر أنه في غالبية الأحيان يكون مركزا للتجارة، مخصصا للبيع والشراء، سواء المنتوجات المستوردة أو المنتوجات القروية. وقد أحيطت هذه العمليات الاقتصادية بصرح قانوني متين، دون نسيان دور المحتسب في ردع المخالفات والسير العادي لنظام السوق، القلب النابض لاقتصاد المدينة.

وفي معرض حديثها عن التلاقح الذي كان سائدا بين المشرق والأندلس، ذكرت بدور العلماء الآتين من المدن الشرقية كالمدينة المنورة ودمشق وبغداد. كما أنه رغم وجود عدد كبير من العلماء العرب الذين كرسوا حياتهم للتحصيل والعلم والتدريس، فإن شريحة كبيرة من العلماء الأندلسيين هم من سلالة "المولدين"، المنتمين لفئة التجار والصناع. وهؤلاء الذين احترقوا وبرعوا في العلوم الإسلامية، وهم الذين يشكلون أكبر عامل لتماسك المجتمعات الحضارية. فنظرا



لدورهم في نشر العلم، فهم يجسدون المثل الأعلى للمساواة ويرمزون إلى ارتقاء الهوية الإسلامية باعتبارها الصنف الاجتماعي الأول بالأندلس<sup>1</sup>.

### الفصل الخامس: الأندلس وعلاقتها بالإسلام المتوسطي

حاولت "مانويلا مارين" في هذا الفصل مقارنة علاقة تاريخ الأندلس، منذ بدايته، بالمغرب وباقي أقطار العالم الإسلامي. وتعتبر أن هذه العلاقة لعبت دورا رياديا في التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للأندلس. ففتح شبه الجزيرة الإيبيرية تم انطلاقا من شمال إفريقيا الذي يعتبر امتدادا طبيعيا للتوسع الإسلامي، الذي واجه مقاومة من طرف هذه المناطق. وقد تم تعيين ولاية الأندلس من طرف والي القيروان، وهم تحت إمرته. وأول الأمراء المستقلين أتوا من المشرق إلى الأندلس لتأسيس الدولة الأموية من جديد<sup>2</sup>.

رغم الاستقلال السياسي للدولة الأموية بالأندلس في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، إلا أن الروابط بين الأندلس والدولة العباسية لم تنقطع. فرغم أن الخلفاء الأمويين حافظوا في الأندلس على تقاليدهم الأصلية إلا أن تأثير تقاليد أعدائهم العباسيين كانت واضحة. وإلى حدود النصف الثاني من القرن العاشر على الأقل، كان العلماء الأندلسيون يعتبرون الرحلة إلى المشرق أمرا ضروريا، وذلك للتحصيل في كبريات المدن بمصر وشبه الجزيرة العربية والعراق. فهذا المعطى الثابت لدى الأندلسيين المرتحلون إلى المشرق مكنهم من حفظ العلاقات الاقتصادية والعلمية، كممارسة بعضهم أنشطة خاصة كالنشاط التجاري مثلا، فضلا على أن حضورهم لدروس أشياخ المشرق المشهورين مكنهم من تنمية معارفهم وتحصيلهم<sup>3</sup>.

في هذا الإطار وصفت الباحثة الطرق البحرية التي كانت تسلكها هذه الرحلات وصفا دقيقا، حيث أن أغلبها تنطلق من ألميرية، مروراً بالسواحل الجزائرية، ثم التونسية، فمصر، وصولاً إلى سوريا. وقد كانت تعترضهم عدة عراقيل ومخاطر في رحلاتهم هاته إلى المشرق ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي، أبرزها الحروب الصليبية وغزو المغول، فضلا عن بعض الأمراض الوبائية، وهي من العوامل التي أفسدت السير العادي لهذه الرحلات حسب الباحثة. لكن رغم التهديد الذي شكله تدخل الممالك المسيحية الأوروبية في فلسطين، وبعدها توسع القبائل المغولية انطلاقاً

<sup>1</sup> -Ibid, p. 47.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 51.

<sup>3</sup> -Ibid, p. 52.

من آسيا الوسطى، لم يمنع ذلك من دخول الأندلسيين إلى المشرق، لكن قلص حضورهم هناك في زمن كانت فيه الأندلس تعرف ضعفا سياسيا خلال عصر ملوك الطوائف.

ومع بداية القرن 12م، بدأت الغزوات المسيحية تقلص من مساحة الأندلس بطريقة مذهلة<sup>1</sup>، مما حدا بعدد كبير من الأندلسيين إلى البحث عن موطن آخر أكثر أمانا. وقد كان لتأسيس الدولة الأيوبية في سوريا ومصر، الأثر الكبير في انتقال عدد من علماء الأندلس إلى هذه البقاع، حيث المدارس الكبرى في القاهرة ودمشق، والمناخ الجيد الذي ساعد على التحصيل والبحث عن مستقبل أفضل<sup>2</sup>.

وفي المقابل، أثارت الباحثة مسألة الهجرة المعاكسة، أي من المشرق إلى الأندلس، بما في ذلك التجار والعلماء ومنهم من أثر الاستقرار. ومن أشهر المهاجرين خلال عصر الإمارة الأموية في القرن 9م، نجد الموسيقي الشهير "زرياب" في عهد عبد الرحمن الثاني، كما تشير أيضا إلى أن هذا الأخير اشترى من المشرق ثلاث إماء لهن معرفة واسعة بالشعر والموسيقى. وقد ذكرت مثلا آخر على هذه الهجرة العكسية، وهو "الرازي" القادم من المشرق إلى الأندلس في عهد الأمير محمد، وقد صار خلفه من أكابر مؤرخي العصر الأموي، واعتمدت نصوص مؤلفاتهم من طرف المؤرخين اللاحقين.

وفي نفس السياق أشارت إلى ولع الحكم الثاني المستنصر بالكتب والقراءة، ومدى تشجيعه للعلماء وخاصة المشاركة، والذين كان حضورهم قويا بالأندلس وموثقا في المصادر الأندلسية، والعديد منهم استفاد من كرم ورعاية الأمراء. وقد وردت إلى الأندلس من المشرق عبر الحوض المتوسطي، مؤلفات شعرية وفلسفية وعلمية، مما أثري الحركة العلمية الأندلسية، التي تحفل بالإبداعات المشرقية.

أما في ما يتعلق بالإسهامات الأخرى فتقول الباحثة إنها كانت متعددة أيضا بين كل أطراف الحوض المتوسطي، حيث شهدت المنطقة تبادلا وتلاقحا على جميع الأصعدة فعلى سبيل المثال،

<sup>1</sup> - بعد تزايد الهجمات المسيحية لعب العلماء دورا كبيرا في إثارة الوازع الديني في نفوس المسلمين للإقبال على مواجهة الزحف المسيحي، وهو الأمر الذي أشار إليه المقري في أزهار الرياض، إذ يقول أنه لما تقلص ظل الإسلام بشبه الجزيرة الإيبيرية، واستطالت الممالك المسيحية على أكثر أمصارها وقراها على وجه العنوة والصلح والاستسلام، "لم يزل العلماء والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماهم من كل الأمصار" (المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1398هـ/1978م، ج 1، ص 63).

<sup>2</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 54.

انتقلت أصناف من النباتات، وطرق الزراعة والري، وتقنيات الغزل والنسج، وتقنيات أخرى مختلفة<sup>1</sup>.

وتساءل هنا الباحثة عن الأشخاص الذين أدخلوا هذه المعارف، وهذه الثقافة المادية إلى الأندلس. حيث تذكر أن المصادر العربية نادرا ما تطرح هذا السؤال، وغالبا ما تورد إشارات خفيفة في هذا المضمار وقد تكون صدفة، مثل ما أقدم عليه عبد الرحمن الداخل، عندما أرسل مبعوثا له إلى المشرق وأمره أن يصطحب معه بعض الشتائل الشامية، أو ما قام به أحد ملوك الطوائف في طليطلة عندما أنشأ بستانا لتجريب بعض أصناف النباتات. إلا أن الباحثة ترجح أن تكون هذه الإسهامات من طرف أشخاص مجهولين، صناع أو فلاحين، نقلوا مهاراتهم، والذين غفل عن ذكرهم أغلب الدارسين<sup>2</sup>.

أما في ما يخص العدو الجنوبية (بلاد المغرب)، فالعلاقة بينها وبين الأندلس كانت حتمية بحكم العامل الجغرافي، وهنا ألحت الباحثة على الإسهامات البشرية للمغاربة في الأندلس، وخاصة العنصر الأمازيغي. إلا أنها تقول أنه من الصعب تقييم تأثيراتهم وإسهاماتهم. إن أسماء المواقع في الأندلس شاهدة إلى اليوم على استقرارهم في عدة مناطق من الأندلس، ومن ذلك الأماكن الشاهدة على استقرار قبائل مكناسة وصنهاجة.

إن تاريخ المغرب لا يمكن فصله عن تاريخ الأندلس. لقد ثبت تدخل الأمويين في الأقاليم الواقعة بالقرب من مضيق جبل طارق، كما أن الجيش الأموي ضم عددا كبيرا من العناصر المغربية. وابتداء من أواخر القرن 11م، صارت الأندلس تابعة لقوى سياسية برزت بالمغرب: المرابطيين، ثم الموحيدين بعد ذلك (من نهاية القرن 11م إلى النصف الأول من القرن 13م)، وقد

<sup>1</sup>- أبعد المؤرخون في ذكر إسهامات الأندلسيين في بلدان الاستقبال والتي همت مجالات عدة أبرزها التقنيات الفلاحية وأساليب الري والفنون والصناعات والبناء، والعمارة، والخدمات، وغيرها. (راجع: الوزان، الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي، ترجمه عن الفرنسية محمد حيي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1983، ج 1، ق 3، ص 284/ سالم، عبد العزيز، تاريخ حضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1985م، ص 247/ رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17، أفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، 1998م، ص 266/ المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صابر، بيروت، 1408هـ- 1988م، ج 3، ص 152/ كريخال، مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حيي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، مكتبة المعارف، الرباط، 1404هـ- 1984م، ج 1، ص 154).

<sup>2</sup>-Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p.58.

ضموا الأندلس لإمبراطوريتهم، وقاوموا الهجمات المسيحية التي شهدتها شبه الجزيرة الإيبيرية<sup>1</sup>. وبعد سقوط قرطبة وإشبيلية، اضطرت عائلات كبيرة لمثقفين وأثرياء للجوء إلى فاس وأماكن عدة بالمغرب. كما أن مملكة غرناطة حافظت على وجودها بالأندلس بفعل تدخل القوات المغربية في شبه الجزيرة الإيبيرية بصفة مستمرة<sup>2</sup>.

ورغم إغفالها للعلاقات الثقافية بين العدوتين ومدى تأثير العلماء المغاربة في الثقافة الأندلسية، وإسهاماتهم الكبرى في ذلك، خلصت "مانويلا مارين" في الأخير إلى أن المغرب في ذلك العصر كان يعتبر ملجأ لكل المهاجرين بعد سقوط كل بقعة من أراضي المسلمين بالأندلس<sup>3</sup>، رغم أن العديد منهم لم يهاجروا إلا بعد صدور فتاوى تحث المسلمين على هجرة الأراضي التي لم تعد خاضعة للحكم الإسلامي<sup>4</sup>. وبهذا الأمر تفسر الباحثة هجرة النخب الأندلسية من علماء وعائلات كبيرة، والتي رغم هجرتها فقد حافظت على تقاليدها وخصوصياتها<sup>5</sup>.

<sup>1</sup>- كانت عمليات الإغناء وانتقال الدعم العسكري تتم من العودة الجنوبية (المغرب) إلى الأندلس متى ما اشتدت الهجمات المسيحية على حواضرها. (للوقوف على أمثلة من ذلك يرجى الرجوع إلى: المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، القاهرة، 1368هـ/1949م، ص130-135/ ابن أبي زرع الفاسي، علي، الأتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص152/ وات، مونتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1998م، ص109).

<sup>2</sup>-Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, pp. 58-59.

<sup>3</sup>- قدم صاحب كتاب نبذة العصر صورة دقيقة عن هجرات الأندلسيين إلى المغرب بعد سقوط غرناطة بذكر حيثياتها من حيث الزمان والمكان. وقد تطرق الأستاذ محمد رزوق لنفس الموضوع بنوع من التفصيل. (راجع: مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ضبطه وعلق عليه الأستاذ الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، الطاهر، 1423هـ/2002م، ص47/ رزوق، م س، ص155).

<sup>4</sup>- تقصد الباحثة هنا فتوى الفقيه أحمد الونشريس، التي جاءت محرمة للبقاء في بلاد استولى عليها النصارى واعتبرت أن الهجرة في هذه الحالة فريضة وواجبة. (راجع: الونشريس، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجة جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط 1401هـ/1981م، ج2، ص121).

<sup>5</sup>- تتحدث المصادر والدراسات بإسهاب عن دور الأندلسيين وإسهاماتهم التي بدت واضحة للعيان ببلدان الاستقبال في مختلف المجالات، إذ أن الموريسكيين ظلوا متمسكين بهويتهم، فضلا عن الإرث الفريد الذي خلفوه في المجال الأدبي وخاصة "الألخميادو". (العربي المساري، محمد، «أندلس ما بعد الأندلس فكرة حية»، كراسات أندلسية 3، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد III، 2008م، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2008م، ص11/ بنيتو، بابلو، «لمحات من الأدب الموريسكي»، تعريب التهامي أفيال، كراسات أندلسية 2، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد II، 2006م، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2006م، ص55-56/ العربي المساري، محمد، «قراءة في أعمال ندوة ==

### الفصل السادس: "حقيقة الأندلس"

تستهل الباحثة الفصل السادس بما أثاره الوجود الإسلامي بالأندلس من النقاشات بين الباحثين، حيث ذكرت بموقف مجموعة من الباحثين الذين يعتبرون الوجود الأندلسي شكل عنصر اضطراب لسيرورة تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية، ويعتبرون هذا حادثاً عرضياً لا غير، كما ينظرون إلى الأندلسيين كمحتلين غير شرعيين، ولذلك تم طردهم من تاريخ إسبانيا باعتبارهم عنصراً دخيلاً، فليس من حقهم إذن الانتماء إلى الذاكرة التاريخية الإسبانية<sup>1</sup>.

لكن في القرن 18م كانت أول محاولة لإعادة دراسة ماضي شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث تمت فهرسة المخطوطات العربية في الإسكوريال. وقد انصب اهتمام المثقفين الإسبان على البحث في الموروث العربي، إلا أن هذه المحاولة لرد الاعتبار لتاريخ الأندلس لم تستمر بسبب حرب الاستقلال الإسبانية.

وفي القرن 19م، بدأت الدراسات الإسبانية تهتم بهذه الفترة التي تعتبرها "مانويلا مارين" فترة منسية. ولم يبلغ تطور الإستوغرافيا الأندلسية مرتبة علمية حقيقية إلا في نهاية القرن 19م، عندما ضاعف المستعربان "فارنيسكو كوديرا" (1836-1917) وتلميذه "خوليان ريبيرا" (1858-1934) جهودهما لجعل مجال بحثهما مقبولا لدى الوسط الأكاديمي لعصرهم.

لقد كان يُنظر للوجود العربي بشبه الجزيرة الإيبيرية كحادث مشوش، حال دون مواكبة إسبانيا للركب الحضاري الأوروبي. ولمواجهة هذا الطرح، فإن المستعربين الإسبان في نهاية القرن 19م، حاولوا إضفاء الشرعية التاريخية على هذا الوجود. وقاوموا أيضاً الفكرة التي مفادها أن تأثير الوجود الإسلامي بالأندلس كان ضعيفاً وسطحياً على مجتمع ورث حضارة إسبانية رومانية وقوطية. وعموماً فالحقيقة التاريخية للوجود الإسلامي بالأندلس عرفت تفاصيله مداً وجزراً وعدة تقلبات<sup>2</sup>.

ومن الأمور التي لامستها بقوة مسألة "حقيقة الأندلس" وبعض المفاهيم التي ارتبطت بها كالتسامح والتعايش وفن العيش وغيرها، وهي أمور قيل فيها الكثير. لقد أكدت أن الأندلس اعتبرت كمورث ثمين احتفظ بشارة الجودة والهيبة. وانطلاقاً من هذا الاستعمال الخادع والمحير، حسب

سيرفانتيس والإسلام»، كراسات أندلسية 3، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد III، 2008م، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 2008م، ص 105).

<sup>1</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 62.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 64.

تعبيرها، برز للوجود تصوران منفصلان عن بعضهما البعض، واللذان استمرا في التطور بقوة، أولهما: يتعلق بإعطاء الأندلس صورة مجتمع التسامح والتعايش، الذي انفتحت من خلاله الثقافات الثلاث على بعضها البعض، وازدهرت في جو يسوده التناغم والتفاهم المتبادل، والذي أفسده الغزاة المسيحيون بفظاعة. وهذا التلفيق - حسب الباحثة- يفهم منه أنه لم يكن في تاريخ إسبانيا إلا محاكم التفتيش والاستبداد. ونجاح هذا التأويل المقترح في تزايد مستمر، تعززه أنماط احتفالية مختلفة وانتشار مفاهيم مثل تعدد الأجناس والتعددية الثقافية. وحول الثقافات الثلاث وتعايشها المتناغم، تشير الباحثة أنه تم عقد مؤتمرات علمية واجتماعات لممثلي الديانات الثلاث. فاستحضار صورة الأندلس التي يسودها التسامح والتعدد الثقافي عملية سهلة وفعالة مادامت استمراريتها مضمونة طالما لم يظهر طرح تاريخي أكثر قوة<sup>1</sup>.

والتصور الثاني لهذه "الخدعة الحديثة" هو ما اصطلح عليه بـ "فن العيش" في الأندلس، والذي اعتبرته الباحثة المستوى الثاني من هذه السجالات. ويتمثل فن الحياة هذا، على سبيل المثال، في عشق الأندلسيين للعطور والبساتين، والأطعمة الجيدة، والموسيقى، والنساء الحسنات، وغيرها. ولتعزيز هذا الطرح تم إصدار كتب خاصة بالمطبخ الأندلسي، وروايات حول قرطبة الخليفة. كما ظهرت وصفات في بعض المطاعم مثل أطباق "المستعربين"، بالإضافة إلى انتشار بعض الأسماء العربية خاصة لدى الفتيات الصغيرات<sup>2</sup>.

وفي هذا الصدد تؤكد الباحثة أن "التسامح" هو مفهوم حديث نسبيا ودخيل على الأندلسيين وعلى كل المجتمعات السابقة عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. فمن المؤكد أن الأقليات اليهودية والمسيحية في الأندلس حظيت بوضع أفضل بكثير من وضع يهود أوروبا الوسيطة<sup>3</sup>، ومن المؤكد أيضا أن حالات اضطهاد هذه الأقليات نادرة جدا، لكن مع ذلك فهذا لا يستلزم القول بما يتشدد به اليوم من التسامح والتعايش.

إن الحديث عن "فن التعايش" يخفي وراءه حقيقة تاريخية حتمية مفادها أن صفاء العادات التي نالت إعجاب العديدين خصت فئات مجتمعية ضيقة، ففي حالة الأندلس، يتم تعميم ما يخص الطبقة الحاكمة على كافة الطبقات المجتمعية، فيقال إن الأندلسيين كانت دقتهم مفرطة

<sup>1</sup> -Ibid, p. 68.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 69.

<sup>3</sup> - نذكر على سبيل المثال الوضع الذي حظي به اليهودي يوسف بن النغريلة الذي تولى مناصب هامة وتدير أكثر أعمال دولة بني زيري في غرناطة. (الشنتري، أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م، ج1، ص766).

ومعارفهم استثنائية. بالمقابل يتم نسيان أن جنة العريف مثلا لم تكن مفتوحة في وجه العموم، وأن الأطباق الموصوفة في كتب الطبخ لم تكن تشمل الأغلبية الساحقة من السكان.

وتختتم الباحثة فصلها القيم هذا بكون الصعوبة التي يواجهها تفسير تاريخ الأندلس تتأصل في علاقتها بتاريخ إسبانيا. فاليوم الذي سندرك فيه أن تاريخ الأندلس ليس هو تاريخ إسبانيا المسلمة، هو اليوم الذي نفهم من خلاله أن الأندلس بتاريخها الخاص، هي مجتمع من المجتمعات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط<sup>1</sup>.

### ملحق خاص بنصوص من مصادر عربية:

ختمت الباحثة كتابها بملحق خاص بنصوص عربية مترجمة، مأخوذة من مصادر عربية، عدد هذه النصوص تسعة، وهي كالآتي:

★ النص الأول: للشقندي (ق13م)، مقتبس من كتابه "رسالة في فضل الأندلس" ترجمه إلى الإسبانية "E.Garcia Gomez". يصف فيه المؤلف مدينة مالقة وصفا جغرافيا؛ طبيعيا وعمرانيا، حيث يبرز تلك الصورة الجميلة التي تكتسبها مالقة بأراضيها الشاسعة، ومنازل قراها، ونهرها، وكرومها...<sup>2</sup>.

★ النص الثاني: مقتبس من كتاب "وصف الأندلس" لمؤلف مجهول (ق14)، ترجمه إلى الإسبانية "L.Molina"، يتحدث فيه المؤلف عن حاضرة من حواضر الأندلس التي حددها في أربعة، وهي بالإضافة إلى طليطلة - وهي موضوع هذا النص المقتبس - قرطبة وإشبيلية وماردة<sup>3</sup>. يصف المؤلف حاضرة طليطلة بأنها مدينة محصنة وصعبة المنال تكثر فيها المياه والأشجار المثمرة، أراضيها شاسعة ومناخها رائع. كما ذكر أنها تتميز بأشياء تنفرد بها في الأندلس والتي أشار إليها عدة مؤرخين، مثل تقنية تخزين القمح في أماكن تحت الأرض والذي يبقى صالحا لمدة مائة سنة، والزعفران ذي الجودة العالية الذي لا ينتج مثله في قطر من أقطار الأندلس<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, pp. 70-71.

<sup>2</sup> -Ibid, p. 81.

<sup>3</sup> - مدينة بالقرب من قرطبة، وصفها الحميري بمدينة الملوك، آثارها الكثيرة تنطق عن ملك وقدره، وتعرب عن نخوة وعز، وتفصح عن عظمة وعبرة. (الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتصحيح وتعليق لافي بروفنصال، دار الجيل، الطبعة الثانية، بيروت، 1408هـ/1988م، ص518).

<sup>4</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 82.

★ النص الثالث: مقتبس من كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل (القرن 12م)، ترجمه إلى الإسبانية "G.Wiet"، يتحدث فيه ابن حوقل عن جيوش عبد الرحمن الثالث ومن سبقه من أسلافه، حيث ينعت هذه الجيوش بجهلها لأسباب الفروسية واعتمادهم عند القتال في أكثر حروبهم على الكيد والحيلة<sup>1</sup>. كما أن جيشه - أي عبد الرحمن بن محمد - لم يصل عدد من يتقاضى فيه أجرا خمسة آلاف فارس، بل كان مكفيا بأهل الثغور من جزيرته ما ينوبه من كيد من يجاوره من المسيحيين، وقلما يكثر بهم<sup>2</sup>.

★ النص الرابع: هو نص قصير لابن غالب (القرن 12)، ترجمه إلى الإسبانية "J.Vollve"، يصف فيه سكان الأندلس بصفات الكمال والنبيل، واهتمامهم بالعلوم دراسة وتلقينا وخاصة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يقارنهم بشعوب أخرى ذات هيبة ومكانة في المخيلة العربية الإسلامية<sup>3</sup>.

★ النص الخامس: مقتبس من كتاب "رسالة في فضل الأندلس" لابن حزم (القرن 11م) ترجمه "Ch.Pellat" يذكر فيه مؤلفه الغيرة التي تطال علماء الأندلس بسبب بروزهم وحذقهم وفطنتهم. فتكون مؤلفاتهم عرضة للتحقير والخط من قيمتها، حيث يتم البحث فيها على أدنى فشل وأقل انزلاق ليذم صاحبه ويوصف بالسرقة الأدبية والاستيلاء على أعمال الآخرين، فيكون بذلك عرضة للافتراءات والنميمة والقدح في شرفه، وفريسة للألسنة اللاذعة<sup>4</sup>.

★ النص السادس: هذا النص لابن سعيد (القرن 13) ذكره المقري في نفح الطيب، وترجمته إلى الإسبانية "M.Marin"، يروي فيه ابن سعيد قصة حدثت له هو وأبوه عندما كانا مارين بإحدى قرى الأندلس في جو ممطر وبارد، وقد كانت الأندلس في وضعية صعبة آنذاك، عندما اعتنى بهما السلطان وأقاما في منزل أحد الأعيان. وعند حلول وقت النوم أمر المضيف أحد أبنائه ليعطي لباسه لابن سعيد، وعند استيقاظهم في الصباح وجد هذا الأخير ابن المضيف جنبه ماسكا بذلك

<sup>1</sup> - يقول ابن حوقل في هذا الصدد: «وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها، وإن شجعت أنفسهم ومرونا بالقتال فإن أكثر حروبهم تنصرف على الكيد والحيلة، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنسانا قط جرى على فرس فاره أو برزون هجين ورجلاه في الركابين ولا يستطيع ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم. وهم يفرسون على الأعراء من الخيل: (ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطبع والنشر، بيروت، 1992، ص 108).

<sup>2</sup> - Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 83.

<sup>3</sup> - Ibid, p. 84.

<sup>4</sup> - Ibid, p. 85.



اللباس. فتصرفه بهذه الطريقة أفسد نبلة - حسب أبيه- إذ رغم حسن ضيافتهم خشي الابن من غدر ابن سعيد وأبيه كونهما غريبين<sup>1</sup>.

★ النص السابع: هذا النص مقتبس من كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (القرن 13م)، ترجمته إلى الإسبانية "M.Marín"، وهو عبارة عن ترجمة لامرأة أندلسية اسمها "الشفاء"<sup>2</sup>، وهي جارية لعبد الرحمن بن الحكم أعتقها وتزوجها، حيث يذكر ابن الأبار أنها كانت من أجمل النساء عقلا ودينا وفضلا، وإليها ينسب المسجد الذي يوجد وسط الرض الغربي من قرطبة؛ وهي التي كفت ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن في صغره لوفاة أمه<sup>3</sup>. (ص87).

★ النص الثامن: اقتبس هذا النص من كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (القرن 13م)، ترجمته إلى الإسبانية "M.Marín"، وهو عبارة عن ترجمة لامرأة أندلسية "أم الحسن"<sup>4</sup> بنت أبي لواء سليمان بن أصبغ بن عبد الله بن وانسوس بن يربوع المكناسي"، وهي امرأة اجتهدت في طلب العلم بالأندلس والمشرق أيضا، وقد وصفها بصفات الكمال والصلاح والزهد والفضل والعقل<sup>5</sup>.

★ النص التاسع: هو نص لأحمد القشتالي (القرن 13م). ترجمته إلى الإسبانية "M.Marín" يحكي فيه الكاتب قصة أبي إسحاق بن عيشون مع سيده، حينما قرر أن يسافر إلى قادس هو وزوجته، هذه الأخيرة هي التي ترضع أبناء سيدهما وتعتني بهم. فوافق سيدهما على هذه الرحلة مع أنه غير متفائل بها، وبعد دخوله إلى المنزل وجد زوجته ترثي زوجة ابن عيشون. وبعد مدة وجد ابن عيشون عائدا يحمل متاعه فوق ظهره، بعدما أبى الفرس الذي وضع عليه أثقاله الاتجاه نحو قادس مكان وجهته<sup>6</sup>.

★ النص العاشر: هذا النص مقتبس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي (القرن 13م)، ترجمته إلى الإسبانية "M.Marín"، وهي ترجمة لعالم من

<sup>1</sup> -Ibid, p. 86.

<sup>2</sup> - انظر: ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، ج4، ص240، ترجمة رقم 667.

<sup>3</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 87.

<sup>4</sup> - انظر: ابن الأبار، التكملة، م س، ج4، ص244، ترجمة رقم 678.

<sup>5</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 88.

<sup>6</sup> -Ibid, p. 89.

علماء اشبيلية في القرن 13هـ يسمى "أبا مروان الباجي"<sup>1</sup> يذكر في ترجمته الرحلة إلى قام بها إلى الديار المقدسة قصد الحج، مر من خلالها عبر عدة أماكن وجزر في البحر الأبيض المتوسط، والتي استغرقت زمنا طويلا<sup>2</sup>.

### تعليق الباحثة على هذه النصوص:

عقب "M.marin" هذه النصوص المترجمة بتعليق ذكرت فيه سبب اختيارها لها. يمكن تلخيص هذا التعقيب في ما يلي:

- تعتبر أن النصين الأول والثاني يندرجان ضمن التقليد الجغرافي العربي في وصف المدن والأماكن، ويشمل الوصف أيضا بعض القضايا التاريخية للمدينة والإنتاج الفلاحي والصناعي التي تشتهر بها المنطقة. وأمثلة هذا النوع من النصوص الأندلسية عديدة.

- تذكر أن كاتب النص الثالث، مشرقى رحل إلى الأندلس. وكما هو معلوم فابن حوقل (صاحب النص) كان مواليا للخلافة الفاطمية بشمال إفريقيا، ويعتبر الفاطميون بمثابة أعداء للأمويين بالأندلس، وهذا ما دفعه إلى الاستطرد في وصف نقط الضعف، سواء أكانت حقيقية أم لا.

- تعتبر النصوص رقم 4 و5 و6، نصوصا موجهة لوصف سكان الأندلس لذكر خصالهم ومقارنتهم ببعض الشعوب التي لها هيبة في الذاكرة العربية والإسلامية.

- النصان 7 و8 عبارة عن ترجمتين لامرأتين أندلسيتين من صنف اجتماعي راق، وذلك بالنظر لخدماتهما ونشاطهما ونبوغهما، والدور الذي قامت به سواء في المجال الاجتماعي أو العلمي.

- النص التاسع عبارة عن حكاية رجل مقدس في الميرية رويت من طرف تلميذ له من عائلته. يفهم من خلالها أن القداسة ليست مانعة للزواج في الإسلام، عكس الرهبان المسيحيين الذين يعيشون دون زواج ومعزولين عن باقي المجتمع.

- النص العاشر دلالة واضحة على الرحلات التي كان يقوم بها العديد من الأندلسيين إما لأغراض دينية (الحج) أو لطلب العلم أو للتجارة.

<sup>1</sup> - ذكرت ترجمته أيضا في: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م، ج23، ص29.

<sup>2</sup> -Marín, AL-Andalus et les andalousiens, Op. cit, p. 90.

### المحور الثالث: ملاحظات عامة حول الكتاب وقيّمته وأهميته

لاشك أن الدراسات الإستشراقية أغنت المكتبة التاريخية الأندلسية، فكتاب "AL-Andalus et les andalousiens" لصاحبه "Manuela Marin" يطرح إشكاليات هامة تخص الوجود الإسلامي بالأندلس، وما طال هذا الميدان من مد وجزر، بدءاً بتحليل إشكالية التسمية في حدودها التاريخية والكرونولوجية، مروراً بالتحوّلات الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها الأندلس، ومقاربة إشكالية الاستمرارية والقطيعة، ثم الخلوّص إلى الحديث عن الهوية الأندلسية بأبعادها ودلالاتها، كمجتمع إسلامي، دون إغفال الحديث عن أندلس لها كيانهها وعاداتها، وتربطها علاقات تأثير وتأثر، تمس عدة مجالات، مع باقي أقطار الحوض المتوسطي. وخاتمة الكتاب الشيق حديث عن "حقيقة الأندلس"، وما عقب ذلك من مد وجزر، وما تلاها تأويلات مختلفة صاحبت الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية خلال مختلف عصوره، واستشراف أثر ذلك على مستقبل المنطقة.

تناولت الباحثة الموضوعات المشكلة للهوية الأندلسية ومسألة الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية بجرأة كبيرة، ناهجة في ذلك سبيل الاسترسال والإسهاب في التوضيح مع ذكر القرائن التي تؤكد من خلالها قناعاتها، وقد ساعدتها في ذلك سعة اطلاعها على المصادر العربية والدراسات الاستشراقية التي تناولت الموضوع. رغم إغفال الكتاب ذكر تفاصيل أوفى لمساحة هامة من تاريخ الوجود الإسلامي بالأندلس يتعلق الأمر بمسلسل تنصير المسلمين وإكراههم على ذلك والتهجير القسري بعد سقوط غرناطة وما لحق الموريسكيين من محاكم التفتيش وأساليب الاضطهاد المختلفة<sup>1</sup>.

كما حاولت أن تقف على مسافة واحدة من كل الآراء التي تناولت المواضيع التي كثر فيها الكلام والتأويل، خاصة تلك المتعلقة بالموقف من الوجود الإسلامي بالأندلس هل هو قطيعة وتشويش حال دون مواكبة إسبانيا للركب الحضاري الأوروبي وهو ديدن العديد من المؤرخين

<sup>1</sup> - لتفاصيل أوفى عن هذا الوضع راجع: مجهول، نبذة العصر، م س، ص 44-45/ قشتيلو، محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، سلسلة المعرفة الأندلسية، رقم 1، مطبعة الأمنية، الطبعة الثالثة، الرباط، 2008م، ص 41/ أنقار، محمد، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية صورة المغرب في الرواية الإسبانية، منشورات باب الحكمة، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، 2016م، ص 120-121/

Gil Benumei Grima, Rodolfo, «Al-Andalus, Conjunción de culturas», Cuadernos Andalusíes 3, Publicaciones del centro de estudios Al-Andalus y diálogo de civilizaciones, Vol. III, 2008, Imp. Najah El Jadida, Casablanca, 2008.

الإسبان، أم أن هذا الوجود هو استمرار طبيعي لتاريخ رقعة جغرافية من شبه الجزيرة الإيبيرية يشكل جزءاً أساسياً من الذاكرة التاريخية لإسبانيا.

كل هذه الحمولة العلمية التي تقدمها هذه الدراسة الشيقة، جعلت من كتاب "AL-Andalus et les andalousiens" إضافة نوعية للخزانة الأندلسية، ومرجعاً لا يمكن الاستغناء عنه لدراسة جوانب من تاريخ الوجود الإسلامي بالأندلس على المستويات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية.

## خاتمة

يعد كتاب "AL-Andalus et les andalousiens" للمستشرقة الإسبانية "مانويلا مارين" من الدراسات المهمة التي عالجت مسألة الوجود الإسلامي بالأندلس من عدة جوانب، فهو ليس كتاباً للتاريخ بالمعنى التقليدي، بل هو يحاول رسم مسارات ثقافية للأندلس منذ دخول العرب إليها، عبر تصوير مشاهد حية من تاريخ المنطقة.

حددت الباحثة، في كتابها الشيق هذا، الحدود التاريخية والكرونولوجية لهذه الفترة من تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية، محاولة شرح التحولات الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت طوال هذه المدة. وذلك بمعالجتها لإشكاليات أساسية تخص موضوع التسمية وحدودها التاريخية والكرونولوجية، ومسألة الهوية الأندلسية، وتفاعلات المجتمع، دون أن تتجاهل مسألة مهمة وهي علاقة الأندلس بباقي الدول الإسلامية بحوض البحر الأبيض المتوسط.

وبموازاة مع هذا الضبط الذي أحاطت به دراستها القيمة، فقد أعادت الباحثة النظر في التضاربات التي صاحبت الوجود الإسلامي بالأندلس خلال فتراته التاريخية المختلفة، باحثة عن معانيها وتأويلاتها، دون أن تغفل عن الإشارة إلى ما تحمله هذه التأويلات من دلالات لها تأثير مباشر على مستقبل تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية. لكل هذا فكتاب "AL-Andalus et les andalousiens" مرجع أساسي لا محيد عنه للباحث في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للأندلس.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- ابن أبي زرع الفاسي، علي، الأندلس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، ج4.
- ابن بلقين، عبد الله، كتاب التبيان، تحقيق أمين توفيق الطيبي، سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1155هـ/1995م.
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطبع والنشر، بيروت، 1992م.
- الجارم بك، علي، قصة العرب في إسبانيا، مطبعة المعارف، مصر، 1944م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتصحيح وتعليق لافي بروفنصال، دار الجيل، الطبعة الثانية، بيروت، 1408هـ/1988م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م، ج23.
- الشنتري، أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م.
- العربي المساري، محمد، «أندلس ما بعد الأندلس فكرة حياة»، كراسات أندلسية 3، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد III، 2008م، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2008م.

- العربي المساري، محمد، «قراءة في أعمال ندوة سيرفانطيس والإسلام»، كراسات أندلسية 3، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد III، 2008م، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 2008م.
- المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، القاهرة، 1368هـ/1949م.
- - المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1398هـ/1978م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صابر، بيروت، 1408هـ/1988م، ج3.
- الوزان، الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1983، ج1.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط 1401هـ/1981م، ج2.
- أنقار، محمد، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية صورة المغرب في الرواية الإسبانية، منشورات باب الحكمة، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، 2016م.
- بنعبود، امحمد، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، جمعية تطاون أسمير، مطابع الشويخ، الطبعة الثانية، تطوان 1999م.

- بنيتو، بابلو، «لمحات من الأدب الموريسكي»، تعريب التهامي أفيلال، كراسات أندلسية 2، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد II، 2006م، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2006م.
- حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1988م.
- رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17، أفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، 1998م.
- سالم، عبد العزيز، تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1985م.
- قشتيلو، محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، سلسلة المعرفة الأندلسية، رقم 1، مطبعة الأمنية، الطبعة الثالثة، الرباط، 2008م.
- كريخال، مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، مكتبة المعارف، الرباط، 1404هـ/1984م، ج1.
- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ضبطه وعلق عليه الأستاذ الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، الظاهر، 1423هـ/2002م.
- مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، د.ت.
- وات، مونتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1998م.

### المراجع الأجنبية:

- Garcia-Arenal, Mercedes, La Diaspora des andalousiens, traduit de l'espagnole par Anne Marie Lapillonne, Imp. France Quercy, Cahors, 2003.
- Gil Benumeu Grima, Rodolfo, «Al-Andalus, Conjunción de culturas», Cuadernos Andalusíes 3, Publicaciones del centro de estudios Al-Andalus y diálogo de civilizaciones, Vol. III, 2008, Imp. Najah El Jadida, Casablanca.
- Marín, Manuela, AL-Andalus et les andalousiens, traduit de l'espagnole par Anne-Marie Lapillonne, Encyclopédie de la Méditerranée, Série Histoire, Imp. Alif les éditions de la Méditerranée, Tunisie, 2000.



## ومضات حول المشهد اللغوي قبيل دخول المسلمين إلى المغرب الأقصى

د. عبد الكريم العوني

دكتورة في التراث اللغوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- وجدة  
المغرب



### ملخص:

إن الموقع الاستراتيجي الذي حظي به المغرب في شمال إفريقيا، كان بمثابة إغراء للوافدين على مجالته الواسع، لتحقيق أطماع الشعوب والأمم التي خالطت الإنسان الأمازيغي، وترتب عن ذلك مسألة التلاخ اللغوي والمتاقفة بين المكونين المحلي والوافد، لذلك فإن ما نسعى الوصول إليه من خلال هذه الدراسة البحثية التي تتناول مسألة المشهد اللغوي بمجال المغرب الأقصى قبيل دخول المسلمين، التنبس في اللغات الطارئة المحددة أساسا في اللغتين - اللاتينية والعبرية. وقد قسمنا هذه الدراسة بعد المقدمة الأولية للغات إلى فرعين اثنين، أولهما مسألة اللغة اللاتينية، وثانيها مسألة اللغة العبرية، بوصفها من اللغات الطارئة التي صاحبت تواجد الحضارات بالمغرب الأقصى. وقد خلص البحث في الختام إلى أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال نفي طابع التأثير والتأثر اللغويين على المجتمع المحلي، إذ شكلت كل من اللغتين -العبرية واللاتينية- همزة وصل وتلاخ لغوي وثقافي في مجتمعات المغرب الكبير آنذاك.

**كلمات مفتاحية:** المشهد اللغوي، اللغة اللاتينية، اللغة العبرية، المغرب الأقصى.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

العوني، عبد الكريم. (2024، أكتوبر). ومضات حول المشهد اللغوي قبيل دخول المسلمين إلى المغرب الأقصى. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 94-109.

### Abstract:

Morocco's strategic location in North Africa has attracted many peoples and nations to interact with its Amazigh population to fulfill their interests. This interaction resulted in linguistic cross-fertilization and cultural exchange between the local and incoming components. This research study seeks to explore the linguistic landscape in the Maghreb al-Aqsa before the Islamic conquest, with a focus on imported languages, especially Latin and Hebrew. We have divided this study into two sections: Latin and Hebrew, two of the emerging languages that accompanied the presence of civilizations in the Maghreb. In conclusion, the study shows that the linguistic influence and impact on the local community cannot be denied, as the two languages - Hebrew and Latin - constituted a linguistic and cultural cross-fertilization in Maghreb societies of the time.

**Keywords :** Linguistic landscape, Latin language, Hebrew language, Maghreb al-Aqsa.

كشفت الأبحاث الأركيولوجية ودراسات أبحاث علماء الألسنية أن اللغة الأمازيغية القديمة ما هي إلا وجها حقيقيا لخط الليبية القديمة<sup>1</sup> التي كانت متداولة في الشمال الإفريقي، ومكتوبة بخط يختلف عن الخطوط اللاتينية والعربية، ويشبه إلى حد كبير شكل حرف "تيفيناغ" المعتمد حاليا في الكتابة باللغة الأمازيغية المعيارية<sup>2</sup>.

من هنا، فإنّ اللغة هي وجه الكتابة وصورتها، وعن طريق الكتابة نستنبط نسبياً الوضعية التواصلية اللغوية السائدة بالمغرب، للتعرف على المشهد اللغوي عامة، بناء على الأبحاث التي تناولت تاريخ المغرب القديم والتي تعود إلى القرن العشرين، وهذا ما أكدته الدراسة المعاصرة، التي قام محمد القبلي بتدقيقها، في كتاب "تاريخ المغرب تحيين وتركيب" وعبر عن ذلك بقوله: "وقد ارتكزت هذه الدراسات أساساً على الإشارات الواردة في التأليف الأدبية التي خلفها مؤلفون أجانب من إغريق ولاتين، ولمّا كان الغرض هو رصد أخبار الإغريق والرومان وسردها، فإن ما ورد فيها من معلومات بخصوص المغرب القديم غالباً ما يكون مقتضياً وغير دقيق، بل وغير موضوعي أحياناً. ومع ذلك، وعلى الرغم من محدودية تلك المعلومات، فإنها تمكّننا اليوم، بالإضافة إلى ما تمدّنا به المعطيات المتجدّدة للأبحاث الأثرية، من مقارنة التاريخ القديم للمغرب من مختلف جوانبه بصورة أفضل"<sup>3</sup>، في ظلّ تطوّر الأبحاث الأركيولوجية، والمسح الأثري لمناطق عدّة بالمغرب، والتي أسهمت في إيجاد حلّ لمجموعة من الفرضيات التي كانت عالقة، ومن الصعب البحث عنها في مصادر التاريخ القديم، وتأتي على رأسها المسألة اللغوية، التي لولا الحفريات الأثرية والنقوش الصخرية والدراسات الإغريقية الأجنبية ما استطعنا فهم المغرب القديم في الكتابات المعاصرة<sup>4</sup>، لمقاربة موضوع المشهد اللغوي الذي يكتنفه الغموض واللّبس، فإذا كان الفنّ الصخريّ، بواسطة الكتابات التي عثر عليها، يرمز إلى وجود كيان لغوي يدلّ على وجود حضارة عمّرت بالمنطقة، وشكّلت نوعاً من التمازج مع السكان الأصليين، بدءاً بالحضارة الفينيقية ومروراً بالقرطاجية

<sup>1</sup> Mansour ghaki, début de l'écriture au maghreb, fondation du roi abdul-aziz alsaoud, casablanca 2002, coordination m'hamed hassine , ahmed siraj , p, 25

<sup>2</sup> للمزيد من التوضيحات بتفصيل يرجى الرجوع إلى ما يأتي: مفتاحه عمر وآخرون، خط وإملائية الأمازيغية، ترجمة، فؤاد ساعة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف - الرباط - ط1، 2010م.

<sup>3</sup> محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي، ط1، 2011م، ص، 81.

<sup>4</sup> للمزيد من المعلومات يرجى النظر إلى: حميد عرايشي، توظيف التاريخ القديم في الخطاب المعاصر وأثر التاريخ المعاصر في مقارنة التاريخ القديم (المغرب القديم في الكتابات المعاصرة نموذجاً) الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المجلد 2017م، العدد 13-14، ص 57.

ووصولاً إلى الحضارة الرومانية والوندالية والبيزنطية. وهنا نتساءل: ما مدى تأثير اللغات القديمة والمتأخرة واللاتينية في اللغة الأمازيغية؟

وهذه الإشكالية المرتبطة بالمسألة اللغوية القديمة بشمال إفريقيا، حاول كذلك ابن خلدون مقاربتها مقارنة نظرية، بناء على فرضيات توصل من خلالها إلى نتائج، تجعلنا لا نتفق معه في تشبيه لغة الأمازيغ بالرطانة، حيث ذكر بعبارة صريحة على وجود رطانة لغوية أعجمية اختص بها البربر، وعبر عن ذلك بقوله: "ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها"<sup>1</sup>. إلا أنه وفي حقيقة الأمر، فإن هذه الرطانة التي تحدّث عنها ابن خلدون تدلّ على احتمالين رئيسين:

- إما محاولة طمس اللغة الأمازيغية، وتذويبها، وإحلال اللغات الأخرى محلّها، لا سيما البونيقية واللاتينية والعربية بعد دخول المسلمين المغرب، أي محاولة محو كل ما له علاقة بالتراث الأمازيغي الذي عمّر طويلاً بشمال إفريقيا.

- وإما أنّ مفهوم الرطانة اللغوية كان المقصود بها اللهجات الأمازيغية المتعددة والمتنوعة من منطقة إلى أخرى، حيث إنّ شساعة المنطقة التي كانت تحت نفوذ الممالك الأمازيغية فرضت تعدّد اللهجات الأمازيغية، واحتفظت كل منطقة من مناطق شمال إفريقيا بلهجة تواصلية خاصّة بها، انكمش دورها في التواصل اليومي، وفي تدبير الحياة العملية بالمجتمع.

وفي الواقع، اللغة مهما بلغت درجة التفوّق والازدهار على حساب اللغات الأخرى المغلوبة، تبقى اللغة الشفوية صامدة ومتداولة داخل المجتمع، وتبقى حيّة بألفاظها وألغازها وحكمها ومسكوكاتها، تتناقلها الأجيال، ويورثها الأسلاف للأحفاد.

وفي هذا السياق، فقد تواجد الأمازيغ في مختلف مناطق المغرب، وعمّروا بها طويلاً، واستعملوا الأمازيغية للتواصل، ولم يستعملوها في مجال الكتابة والتدوين وفي القضايا السياسية والشؤون الإدارية الرسمية، عدا ما كشف عنه البحث الأثري خلال القرن التاسع عشر، المتّصل بالمقدّس بالدرجة الأولى، فحسب ما جاء به محمد القبلي فإن: "الليبية، وهي أصل الأمازيغية الحالية، لغة متداولة من قبل جميع الشعوب الليبية سواء في موريتانيا أو في باقي الشمال الإفريقي، لكن الحضور الفينيقي على السواحل المورية لمدة تزيد على القرنين، وانفتاح موريتانيا على التأثيرات القرطاجية فرض استعمال البونية"<sup>2</sup> الذي كان نظامها في الكتابة يتّسم بالبنية

<sup>1</sup> ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، تحقيق، خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط4، 2000م. ص 116.

<sup>2</sup> محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي، ط1، 2011م، ص 109.

الصامتة ويرتكز حسب ما جاء في تاريخ المغرب تحيين وتركيب على أبجدية من اثنين وعشرين حرفاً<sup>1</sup>.

من منطلق ذلك، فإنّ نظام الكتابة لا يمكن فصله عن -العملية التواصلية- بين النخب، وقد يصل أن يكون لسانا متداولاً بين السكان الأصليين بالمغرب وبالشمال الإفريقي عامة، خاصة وأن الفينيقيين كانوا مهتمين أكثر بالأنشطة التجارية، حيث أسسوا مراكز عديدة في شمال المغرب بمستعمرة طنجة<sup>2</sup>.

إن استقرار الفينيقيين بالمغرب يعني -وجود حركة لغوية ثانية- إلى جانب اللغة الأمازيغية، كما أن تأسيسهم -الفينيقيين- للمراكز التجارية هو كذلك تقوية للغة البونية التي سادت بلاد المغرب، واستمرت حسب ما تناوله إبراهيم حركات إلى جانب اللاتينية والبربرية عدة قرون<sup>3</sup>، ويرجع للفينيقيين اختراع الخط الذي تفرّعت عنه مختلف الخطوط العالمية من عربية ولايتينية وعبرانية وإفريقية وغيرها<sup>4</sup>.

فإذا كان هذا المعطى صحيحاً، فإنّ اللغة الأمازيغية أقدم من هذه اللغات التي زاحمت وجودها، وحاولت النيل منها، غير أن ما يُشهد به للفينيقيين في الدراسات الحديثة، رغم محاولة فرض لغتهم البونية على السكان الأصليين، أنهم قدّموا أحسن نموذج للتعايش والتعاون، وهذا ما أكده ميلود التوري في كتابه "الأمازيغية والفينيقية- وبينهما العبرية واليونانية- بقوله: "التعاون الذي حصل بين الفينيقي والأمازيغي حينما تفاعل المجتمعان فأعطى كلّ منهما وأخذ: المجتمع الأمازيغي ساهم بالأرض وما تحمله من ثروات معدنية وحيوانية ونباتية، كما ساهم بموارده البشرية في ميدان الزراعة والجنديّة، بل ساهم بلغته التي اعتمدتها قرطاج في تتبع أخبار القبائل الأمازيغية المتمردة واقتفاء أثرها. أما المجتمع الفينيقي فساهم بخبرته في استعمال الآلات ونظم التجارة ونظم الحكم، كما ساهم بالعلوم والفنون التي نقلها، وفوق كلّ هذا ساهم بأبجديته التي سهّلت كلّ المعاملات"<sup>5</sup>، حتى تأثر البربر حسب ما ذكر عبد الله العروي بالنظم المدنية الفينيقية<sup>6</sup>. إن هذا النموذج الأرقى بين الشعبين، أحدث في الميدان اللغوي والحضاري ثورة إنسانية في بلدان

<sup>1</sup> محمد القبلي، المرجع السابق، ص 109.

<sup>2</sup> إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، ط2، 1994م. ص 29.

<sup>3</sup> إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 41.

<sup>4</sup> المرجع السابق، ص 29.

<sup>5</sup> ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقية- وبينهما العبرية واليونانية - مطبعة الرباط نيت (NET)، ط1، 2009م، ص 31.

<sup>6</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م، ص 96.

الشمال الإفريقي، حتى أخذ كلّ شعب من الشعوب الآخر ما يحتاجه لبناء مجتمع حضاري يتميّز بالعلوم والفنون والأدب. ولنطرح الآن السؤال الآتي: ماذا عن الشعب القرطاجي والروماني في الميدان اللغوي تجاه الإنسان الأمازيغي؟

لم تكن الحضارة الفينيقية هي الوحيدة التي حاولت بسط نفوذها على مجال المغرب والشمال الإفريقي بلغتها، فقد كان، حسب ما ذكره إبراهيم حركات: "تأثير القرطاجيين في حياة البربر قويًا بسبب سلوك سياسة المسالمة التي انتجها القرطاجيون، والتي نتج عنها احتكاك أخوي بين عنصرين يتشابهان من حيث طباعهما الشرقيّة، وهكذا تناول هذا التأثير القرطاجي وجوه النشاط الاجتماعي والفني والاقتصادي إلى جانب الحياة الدينيّة، وقد قام القرطاجيون بأعمال عمرانية كثيرة على طول سواحل المغرب"<sup>1</sup>، وأضاف -إبراهيم حركات- الحديث عن البصمة اللغوية التي تركها القرطاجيون في المجتمع الأمازيغي آنذاك، إذ، قال: "والتأثير البونيقي واضح في الميدان اللغوي حيث الصلة قريبة بين البربر والقرطاجيين الذين ترجع لغاتهم جميعا إلى أصول ساميّة"<sup>2</sup>، وعلى كلّ، فإن تواجد القرطاجيين بحضاراتهم وعاداتهم ولغتهم لسانا للتواصل والتفاعل مع المجتمع الأمازيغي بالشمال الإفريقي، أسهم في تلاقي حضاري وتنوع ثقافي، واضح في المشهد اللغوي.

وفي العهد الروماني والوندالي والبيزنطي، عرفت بلاد المغرب منعطفًا لغويًا واضحًا، فأصبحت اللغة اللاتينية لغة عالمية ورائدة في ميدان التأليف والتدوين، وفي القضايا الإدارية، وانتشرت انتشارًا واسعًا بين البربر<sup>3</sup>، ولعلّ السمة البارزة التي جعلت اللغة اللاتينية تنتشر انتشارًا واسعًا هو ارتباطها بالديانة المسيحية التي أصبحت ديانة رسمية للدولة الرومانية منذ إقرارها بمرسوم ميلان 313م، حيث اعترف بها رسميًا الإمبراطور قسطنطين، وذلك باعتناقه للديانة المسيحية<sup>4</sup>،

<sup>1</sup> إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص، 34.

<sup>2</sup> إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 34. واللغات الساميّة تطلق على اللغات التي تنتمي إلى الفصيلة السامية الحامية، كالكنعانية والفينيقية، والعبرانية، والآرامية، والعربية، وطبقا لتقسيم علماء اللغة للفصائل اللغوية، التي تتميز بمجموعة من الخصائص المتشابهة في جذور الأفعال، وأصول التصريف، وتصريف الأفعال، وفي أصول المفردات والضمائر، والأسماء الدالة والضمائر... رجّح علماء اللغة أصلها إلى سام بن نوح، وأمنّا أخذت هذا الاسم (السامية) نسبة له. للمزيد من التوضيحات يرجى النظر في:

- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، منشورات جامعة بغداد، ط2، 1993م، ص 222.

<sup>3</sup> إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 61.

<sup>4</sup> بيار غاريمال، أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، تعريب، أنطوان الهاشم، ج1، مطبعة عويدات للنشر والطباعة - بيروت، ط1، 2012م، ص 227.

ومن هذا المنطلق، فالمشهد اللغوي إبان هذه الفترة ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين الذي هو أحد أعمدة انتشار اللغة والإقبال على تعلّمها والتأليف بها.

لذا، كان من الطبيعي أن يتأثر ملوك أمازيغ بالثقافة الرومانية، ويجعلوها لغة رسمية في ممالكهم، حيث اتخذ الملك الأمازيغي يوبا الثاني اللغة اللاتينية لغة العلم والتأليف الواسع والاهتمام بالأدب والفلسفة، والتاريخ<sup>1</sup>. ومازالت معالم الحضارة الرومانية ببلاد المغرب الأقصى ماثلة وشاهدة على تاريخها العريق، ومنها ما ذكره محمد المهدي علوش في كتابه "إسلام الأمازيغ قراءة أخرى في تاريخ أسلمة المغرب من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر"، وعبر عن ذلك بقوله: "ومن آثار الرومان الكثيرة بتامزغا مظاهر البناء والعمران التي تتجلى في المدن والمآثر التي لازالت معالم بعضها ماثلة إلى اليوم، مثل وليلي في المغرب"<sup>2</sup>، والتي وجد فيها الباحثون عن الآثار ما يقارب 300 لوحة مكتوبة بالحروف اللاتينية<sup>3</sup>.

إنّ الذي تم التأكيد عليه حول المشهد اللغوي بالمغرب القديم، هو أن اللغة الأمازيغية القديمة (الليبية القديمة)<sup>4</sup>، كانت وسيلة للتواصل الشفهي داخل المجتمع، ولم ترق إلى مستوى التأليف والتدوين إبان تلك الفترات، والدليل على ذلك عدم وجود تراث وأدب مكتوب، بل كانت في مجملها لغة محادثة، وهذا ما أقرّ به صاحب "الجزور التاريخية لسكان المغرب" بقوله: "وبالفعل لم تكن اللغة الليبية القديمة في يوم من الأيام لغة ذات تراث مكتوب، بل كانت لغة محادثة بالدرجة الأولى، والذي عثر عليه مكتوب لا يتعدّى بعض النقوش، وكان الأدباء والمفكّرون يكتبون كلّهم باللغة السائدة في زمانهم"<sup>5</sup>، وما تمّ العثور عليه من خلال التنقيب الأركيولوجي للنقوش الصخرية لا يخرج عن دائرة المقدس من شواهد للقبور، وبعض الإهداءات، كما اختلف

<sup>1</sup> عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة المغاربية القديمة، ص 63.

<sup>2</sup> محمد المهدي علوش، إسلام الأمازيغ قراءة أخرى في تاريخ أسلمة المغرب من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2017، ص 47.

<sup>3</sup> دانييل ريفيه، تاريخ المغرب، من مولاي إدريس إلى محمد السادس، ترجمة، المهندس أحمد ابن الصديق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2020م، ص 62.

<sup>4</sup> لاتزال معظم الكتابات النقوشية عvisية على القراءة والفهم على الرغم من الأبحاث الكثيرة التي تناولتها على امتداد قرن من الزمن، إلا أن المعطيات التاريخية، والمعطيات المتعلقة بأسماء الأماكن وأسماء الأعلام، والمفردات اللغوية وشهادات المؤلفين العرب تثبت مجتمعة وجود قرابة بين اللغتين البربرية والليبية. للمزيد من التوضيحات حول مسألة القرابة بين اللغتين وتفكيك شفراتها، يرجى النظر إلى:

- غابرييل غامب، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة، عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2014، ص 90.

- مفتاحه اعمر وآخرون، خط وإملائية الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2010م، ص 15.

<sup>5</sup> محمد علي عيسى، الجزور التاريخية لسكان المغرب القديم من خلال المصادر الأثرية والأنثروبولوجية واللغوية، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط، الثانية، 2012، ص 262.

الباحثون حول مسألة أصل اللغة الأمازيغية القديمة، هل هي لغة مستقلة بذاتها أم مشتقة من اللغات الأفروآسيوية، كاللغات السامية الحامية. وما ميّز المغرب القديم كذلك هو موقعه الجغرافي الذي أغرى حضارات متوسطة، بصمت في ذاكرته اللغوية التنوع والتعدد اللغوي، كاللغة البونيقية والبونية المتأخرة التي دخلت المنطقة مع التجار، واللاتينية التي شكّلت منعطفا حاسما في تاريخ المغرب القديم، حيث تم اعتمادها في ميدان التأليف والإدارة والمسكوكات النقدية...

يُستخلص مما سبق، أنّ "المشهد اللغوي لبلاد المغرب نشأ متعددا منذ صيحاته الأولى، واستمر كذلك عبر أطواره التاريخية الموالية"<sup>1</sup>. وفي ضوء هذه المعطيات، فإن مسار المشهد اللغوي لم يعرف استقرارا تاما، بل كان يتغيّر بتغيّر الدوّ والحضارات التي جاورته في المجال. فهل انعكس هذا التنوع على الحياة اللغوية الأمازيغية؟ وإلى أي حدّ تأثرت اللغة الأمازيغية بهذا التنوع والتعدد اللغوي؟

### اللغات الطارئة ومسألة التأثير والتأثر. نموذج من اللغة اللاتينية والعبرية.

يصعب من الناحيتين اللسانية التاريخية والأنثروبولوجية تحديد وجهات نظر حول تاريخ اللغات بجغرافية المغرب بشكل موضوعي، وذلك لعدة اعتبارات، يكتنفها غموض الأبحاث الأكاديمية من جهة، وقلة المعلومات الواردة في المصادر التي غالبا ما تصاحبها تخمينات فكرية وثقافية حول مواضيع عدة ومنها اللغات بشكل خاص من جهة ثانية، أضف إلى ذلك النقص الحاد في الأبحاث الأركيولوجية التي يمكن أن نعدّها، بواسطة مناهجها المعتمدة في صياغة القوانين والخلاصات، مرجعيات رئيسة في ساحات الدراسات للوصول إلى نتائج مضبوطة بعيدة عن الوصف التاريخي والنظري لتاريخ اللغات.

ومن المسلّمات التي يمكن أن ننطلق منها في هذا الصدد أن "وضعية المغرب كانت تتميز قبل مجيء الفينيقيين بظاهرتين: الأولى وحدة اللغة والحضارة والثانية ازدواجية نمط العيش"<sup>2</sup>، الشيء الذي يؤدي إلى محاولة فرض لغة واحدة على سكان شمال إفريقيا ومنهم المغرب لغرض توحيد شمال إفريقيا، وجعله منطقة خاضعة سياسيا واجتماعيا وفكريا واقتصاديا ودينيا، للحضارات

<sup>1</sup> ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقية - وبينهما العبرية واليونانية-ص 152.

<sup>2</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 1996م، ص 98. والمقصود بنمط العيش حسب ما أورده عبد الله العروي، هو كلّ من يعيش في شمال إفريقيا على شاكلة الرومان وثقافتهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم المنظمة داخل المجتمع.

القادمة، كالحضارة الفينيقية والقرطاجية والرومانية... لكن السؤال الذي يمكن طرحه: هل سيخضع المغاربة ويتنازلون بسهولة عن إرثهم الثقافي واللغوي والحضاري عامة؟

لم يرض المغاربة باحتلال أراضيهم، وسلمها، وتذويب هوياتهم وثقافتهم وعبرها لغاتهم، فدافعوا عنها، وتمردوا ضد سياسة الوافدين من الفينيقيين والقرطاجيين... وقاموا بعدة ثورات ضد السياسة الاستعمارية، منها " ثورة 396 ق. م، وثورة 379 ق. م، وما بعدها، وثورة 240 ق. م التي كادت أن تقضي نهائياً على الوجود البونيقي"<sup>1</sup>. وما نستخلصه من هذا الكلام هو الحرب ضد التيارات البونيكية على كافة الأصعدة، فالتّمرّد أو الثورة يكون كذلك على التّيارات الثقافية واللّغوية، حيث يصارع الغالب ثقافة المغلوب، ليقضي على تراثه، ويمسحه بشكل تدريجي، حتى يندثر تفاعل الألسن والتّلاقح الثقافي واللّغوي من الذاكرة الجمعيّة. يقودنا هذا إلى السؤال الآتي: ما مصير اللّغات الطارئة التي صاحبت تواجد الحضارات المتوسطة بالمغرب الكبير؟

#### أ- اللّغة اللاتينيّة

سقطت قرطاج سنة 146 ق. م، وتركت ما تركت من آثار مادية وأخرى غير مادية بالمغرب، وأثرت وتأثرت بالثقافات المحليّة آنذاك، وتعرض المغرب، بحكم موقعه المناسب في شمال إفريقيا، إلى ضغوطات وحروب خارجية من أجل فرض سطوة الرومان على المنطقة، وجعلها منطقة خاضعة لإمبراطوريتهم، الشيء الذي جعل سكّان شمال إفريقيا ينفثون على لغات كثيرة، وقد تناول عبد السلام بن ميس مسألة اللّغات المتداولة، وأكد أنّ " سكّان شمال إفريقيا القديم قد تحدّثوا، بالإضافة إلى لغتهم الأصل، اللغة البونيقيّة واللّغة اليونانية، واللّغة اللاتينيّة"<sup>2</sup>. واستيلاء الرومان على المغرب في حدّ ذاته محاولة فرض للسان اللاتيني في مجالات متعدّدة سياسيّة وثقافيّة وفكريّة ولغويّة، وانتشار اللّغة اللاتينية مقترن بظروف مرتبطة بالتوسع في المدن والاستيلاء عليها، إلا أن الباحث المغربي عبد الله العروي يشكك في حقيقة دور اللغة اللاتينية، " إذ تحدّثنا النقوش عن الحياة الرسمية فقط، لا على اللغات المحكية فعلاً"<sup>3</sup>.

إن الظفر بالحرب والاستيلاء على مجال من مجالات منطقة الصراع يصاحبه عادة فرض لغة الغالب وبخاصة في الشؤون الإدارية والدبلوماسية، وتبقى لغة المغلوب غالباً منحصرة في التداول والتخاطب اليومي في المجتمع، وتتغير بتغير فرض الثقافة الفكرية للغالب وتذوب داخله،

<sup>1</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص 75.

<sup>2</sup> عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة المغربية القديمة (دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها) ص 24.

<sup>3</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج 1، ص 77.



وتدوب معه مفردات تشكّل عنصراً أكثر أهميّة وحيويّة في المجتمع، الشيء الذي يترتّب عنه كما سمّاه محمد المدلاوي بـ"التهجئة المختلفة المرتبطة بهذه اللّغات"<sup>1</sup>. وفي هذا الشأن، تنظر اللسانيات التّاريخية بحسب ميلود التوري إلى "اللغات الطّبيعية على أنّها كيانات (تماماً) كالأمم يغزو بعضها بعضاً فتتشبّ بينها حروب تنتهي إما بغلبة تستولي على مغلوقة لتكتسح مجالات نفوذها وتجثّ جذورها من نفوس الناطقين بها"<sup>2</sup>، وعلى هذا النحو، أصبح المغرب مسرحاً لأحداث سياسية واجتماعية وحربية، نتج عنها تلاقح حضاري منذ وطأة الفينيقيين والإغريق والرومان والوندال أرض المغرب منذ القرن 10 ق.م<sup>3</sup>، فوطء الأقوام والأجناس بلاد المغرب أسهم في تنوع ثقافي انعكس على الحياة والمشهد اللغوي، فباتخاذ المسيحية ديناً للإمبراطورية بموجب مرسوم ميلان، اعتنق المغاربة المسيحية والدوناتية تعبيراً عن معارضتهم للسلطة الرومانية<sup>4</sup>. وقد يتساءل القارئ في هذا الصدد: ما علاقة المسيحية بالحركة اللغوية؟

إنّ الحديث عن المسيحية ديناً أقرته الإمبراطورية الرومانية لحفظ النظام والسلطة، هو في حدّ ذاته حديث عن لغة لاتينية في الشؤون الإدارية الرسمية للدولة، وانتشار المسيحية نعرف مدى انتشار اللغة اللاتينية في أوساط المجتمع وبخاصة في المدن، واعتناق السكان الأصليين لمنطقة المغرب المسيحية والاعتراف بها ديناً يدلّ على الاهتمام باللغة اللاتينية على الأقل في دور العبادة والتعليم والتأليف، وفي مقابل غياب الدراسات العلمية القائمة على الأبحاث الأركيولوجية والحفريات، قد لا نجزم بأن المسيحية تعني بالضرورة وجود لغة لاتينية أثرت وتأثرت باللّهجات المحلية، ولكن تبقى الإمبراطورية الرومانية أكثر الإمبراطوريات وقعا على آثار التاريخ اللغوي بالمغرب قبل بزوغ الحضارة العربية الإسلامية.

والواقع، أن وجود المسيحية بالمغرب الأقصى، لا تنفيه المعطيات التاريخية، بل أكّدت وجوده الأبحاث الأثرية الأركيولوجية، التي كشفت عن وجود قبور لجماعة نصرانية بوليلي، وهذا ما أكّده محمد القبلي بقوله: وتمدّنا وليلي بأخر النقائش المسيحية سواء على صعيد المغرب أو

<sup>1</sup> Elmadlaoui Mohamed, Diachronie berbère, toponymie, onomastique et histoire (une méthode et un exemple : le nom de Chefchaouen) coordination Mezzine, Vignet-Zunz et F. brigui, Jebala, Peuplement, Langue et ruralité, Actes des rencontres de Chefchaouen, Taounate et Larache, 2011-2012-2014-2015, avec le soutien de l'association Targa, AIDE, 2018, p 128.

<sup>2</sup> ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقية – وبينهما العبرية - ص 59.

<sup>3</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص 57.

<sup>4</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص 67.

على صعيد شمال إفريقيا، فبغض النظر عن بقايا نقشية تعود إلى القرن الرابع أو الخامس، هنالك أربعة شواهد قبور مؤرخة ما بين سنتي 560-616<sup>1</sup>، إنَّ هذه الشواهد التي عثر عليها البحث الأركيولوجي توضّح بطريقة أخرى وجود اللّغة اللاتينية بالمغرب الأقصى إبان تواجد الإمبراطورية الرومانية، التي استمر وجودها بعد الفتح الإسلامي، وحسب ما أشار إليه الحسن الوزان في " وصف إفريقيا"، فإنه يعتقد اعتقاداً جازماً أن اللّغة اللاتينية، كانت هي اللّغة الأقوى في نظام الكتابة وتدوين العلوم والمعارف، حتى وإن زاحمتها اللّغة الأمازيغية، فقد تعرّضت للإتلاف وحرقت تراثها من قبل الرّومانين. ولم يجد العرب بعد دخولهم المنطقة غير اللاتينية، حسب ما أكّده الوزان ذلك بقوله: " وجميع ما عند العرب من كتب التاريخ المتعلّقة بالأفارقة مترجمة من اللّغة اللاتينية"<sup>2</sup>.

وبهذا، فإنّ اللّاتينية كانت أكثر وقعا في التّاريخ اللّغوي بالمغرب الأقصى، شملت مختلف الأصعدة الفكرية والثقافية والدينية والرسمية في شؤون الإمبراطورية الرومانية، إذ، تعدّ من بين اللغات الطارئة على المجال المغربي وتركت بصمات قويّة على الإنسان والمجال بشمال إفريقيا عامّة.

## ب - اللّغة العبريّة

من الصعوبة تحديد تاريخ محدّد لوجود اليهود بالمغرب القديم، نظرا لكثرة الآراء المتضاربة والمختلفة من لدن المهتمين بالتاريخ اليهودي، كما اختلطت بالقصص الخيالية والأسطورة أكثر من الحقائق الثابتة، وهذا ما أكّده الدراسات الحديثة المهتمة بالتراث اليهودي، وقد ذكر كمال بشر أنّ " معظم الدراسات تتفق على أنّ الهجرات اليهودية المكثّفة إلى الشمال الإفريقي بدأت أوائل القرن الثالث ق.م"<sup>3</sup>، إلّا أن الثابت، والمتفق حوله، أنّه لا أحد من المهتمين بالتاريخ اليهودي، ينفي وجودهم بالمغرب وشمال إفريقيا عامة، سواء قبل دخول المسلمين المنطقة أو بعده، حيث يرى حايم الزعفراني أن اليهود هم أول " مجموعة غير بربرية وفدت على المغرب"<sup>4</sup>. ومن المؤكد أن وجود

<sup>1</sup> محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، ص 138.

<sup>2</sup> الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، تحقيق، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط2، 1983م، ص 69.

<sup>3</sup> عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط 1، 2001، ص 54. فاطمة بوعامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجري، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2001م، ص 13. حايم

الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة، أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، مرسى الرباط، 2000، ص 26.

<sup>4</sup> حايم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ، ثقافة، دين، ترجمة، أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط، الأولى، الدار البيضاء، 1987، ص 9.

اليهود بالمغرب هو وجود لغة خاصة بالطائفة اليهودية، باعتبار اللغة، إلى جانب وظيفتها التواصلية داخل المجتمع، أداة مهمة لتمييز المجتمعات وإعطائها صفات خاصة تنفرد بها عن المجتمعات الأخرى.<sup>1</sup>

من ثمة، فإنّ لغة اليهود كانت مختلفة عن اللغات المتداولة بالمغرب، وطائفة على المجتمع، انضافت إلى قائمة اللغات الأخرى الطائفة كالاتينية، وبفعل الاختلاط والتعايش داخل مجتمع يطبعه تعدد لغوي، لا بد من تأثير لغة الغالب في المغلوب، الشيء الذي أدى باليهود مع مرور الزمن إلى تعلّم اللغة اللاتينية<sup>2</sup>، لقضاء حوائجهم وأغراضهم المتعلقة أساسا بالتجارة التي تعلّموها من المجتمع الفينيقي خاصة، لذا، كان من الضروري، في إطار الحفاظ على اللغة العبرية ونشرها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، بناء المدارس لتعليم أبنائهم أولاً وتربيتهم على الثقافة العبرية. ويشتمل التعليم لدى اليهود حسب مسعود كورتي، على " ثلاث مراحل: مرحلة تهيئة الطفل للمشاركة في إقامة الواجبات الدينية كقراءة نصوص الكتاب المقدس، وتلاوة الأدعية الدينية، أما بقية المواد الأخرى مثل الكتابة والحساب ولغة البلد الذي يقام فيه، فهي من اختصاص فروع أخرى مهنية، أو أنها تدرس في مستويات أعلى"<sup>3</sup>.

يظهر إذن، أنّ اللغة العبرية صاحبت وجود اليهود بالمغرب، وأنهم حرصوا على تعليمها لأداء واجبات العبادة وقراءة التوراة، كما يتضح، أنّ اللغة العبرية ببلاد المغرب كانت على عكس اللغة اللاتينية، فهي لم تؤثر كثيرا في اللغة الأمازيغية، لاعتبارات متعدّدة منها أنّ اليهود شملهم، هم أيضا، اضطهاد أباطرة الروم<sup>4</sup>، ثم إنّ اللغة العبرية تعدّ من أقدم اللغات الأفروآسيوية السامية، فكانت مقتصرة على الدين والتعليم والمعرفة منذ عهد الفينيقيين، ولم تكن لغة كلام دارج إلا في حدود ضيقة جدا، انحصرت بين الأخبار ومريدتهم في سياقات التواصل. وهذا ما أكّده المیلود التوري بقوله: " أنّ استعمال اللغة العبرية ببلاد المغرب، منذ عهد الفينيقيين، كان مرتبطا بالعقيدة والدرس، ولا يستبعد- في إطار التفاعل اللغوي/ الديني- أن تكون قبائل أمازيغية قد تعرّفت على اللغة العبرية، خصوصا وأنّ منها من اختار التوحيد بدل الوثنية في عصور ما قبل

<sup>1</sup> محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال إفريقيا، التعدد والانصهار في واقع الإنسان واللغة والثقافة والتاريخ، أفريقيا الشرق، المغرب- الدار البيضاء 2014، ص، 123.

<sup>2</sup> فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرن السابع والثامن الهجري، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2001م، ص 23.

<sup>3</sup> مسعود كورتي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، رسالة لنيل شهادة الماستر، إشراف عبد الحميد حاجيات، 1990-1991م، جامعة الجزائر، ص 154.

<sup>4</sup> عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج1، ص 115

المسيحية"<sup>1</sup>، بحيث أن بعض سكّان شمال إفريقيا لم يرفضوا فكرة التوحيد، حسب عبد السلام بن ميس في كتابه "مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة المغاربية القديمة" الذي أكّد ذلك بقوله: "وهنا يجب التذكير أنّ سكّان شمال إفريقيا عرفوا فكرة وحدة الإله ( التوحيد) قبل مجيء المسيحية والإسلام"<sup>2</sup>. وما يفهم من هذا النص أن اللغة العبرية، كانت لغة مقتصرة أكثر بالمجال المقدّس، استخدمت في المدارس اليهودية وفي الصلوات والأعياد الدينية، ولم تصل حدّ التعبير في الإنتاجات الإبداعية الأدبية في البدايات الأولى من تواجد اليهود، بل كان ارتباطها في المجتمع ارتباطاً دينياً لسدّ الفراغ الروحي، الذي كان - ممّا لا شك - في ذلك يعاني منه الإنسان، وذلك لكثرة المعتقدات والطقوس الدينية المرتبطة بهوية الفرد داخل المجتمع، والذي يدعم هذا القول، ما أشار إليه أجبرون، بمفهوم التمايز الهوياتي، أي أن المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي لم يتميز بهوية خاصة ذات صفات موحّدة بل اتّسع لأكثر من توليفة هوياتية، اقتسمت النفوذ على المجال الجغرافي المغربي، ومن أبرزها إضافة إلى الهويات الأمازيغية واللاتينية، الهوية العبرية - اليهودية- التي تخلّلت المغرب الثلاث<sup>3</sup>.

عموماً، فاللغة العبرية عانت هي الأخرى من التهميش والاضطهاد، ولم تظهر لغة رائدة في المجال الأدبي إلا مع مجيء العرب الفاتحين في بداية القرن السابع الميلادي، حيث كان المغرب الأقصى مقسماً بين "ثلاث ديانات رئيسية المسيحية المحصورة في السواحل الشمالية، حيث النفوذ البيزنطي، واليهودية في أنحاء متفرقة من البلاد، والوثنية التي سادت في عدد من مناطق الوسط والجنوب"<sup>4</sup>. ومع وجود اليهود بالمغرب خلال دخول المسلمين، بدأت تتغيّر وضعيّة اللغة العبرية وأصبح اليهود بالمغرب يعرفون بأهل الذمة، وبخاصة مع قيام الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى، حيث تركت اللغة العبرية بصمة قوية في الشعر والفتاوى الفقهية، وأصبحت لغة رائدة

<sup>1</sup> ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقيّة-وبينهما العبرية واليونانية- ص 108.

<sup>2</sup> عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة المغاربية القديمة (دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها) ص 26.

<sup>3</sup> امحمد جبرون، انشقاق الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي، (مقال ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر- ط1، 2013م، ص 71. أعاد الباحث جبرون نشر هذا المقال سنة 2015 في كتاب مستقلّ بنفس العنوان، ص 26.

<sup>4</sup> امحمد جبرون، انشقاق الهوية، جدل الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى من منظور تاريخي، مطبعة طوب بريس، الرباط، 2015، ص 26.

في المجالين الأدبي والديني، بفضل كُتّاب وشعراء يهود<sup>1</sup>، أثروا في الأدب اليهودي والثقافة العبرية، وذلك عن طريق استعمال اللغة العربية الفصحى في تأليف إنتاجاتهم الفقهية والتشريعية وفي إصدارهم للفتاوى الدينية<sup>2</sup>.

وصفوة القول، إنّ اللغة العبرية شكّلت وجهاً لهوية إثبات وجود اليهود بالمغرب أكثر من تأثير في اللغات سواء كانت أمازيغية أو لاتينية أو عربية، ما يعني أن تأثيرها لم يكن بارزاً بنفس القدر الذي كانت به اللغة اللاتينية أو العربية بعد الفتح الإسلامي، إلا أنّها في الوقت نفسه كانت جزءاً من تنوّع اللّغات والثّقافات في مجال المغرب. ولعلّ هذا -الحضور الغائب- أثبت حضور ثقافة اليهود وهويّتهم الطارئة على المجتمع بالمغرب وشمال إفريقيا عامّة، وربط علاقات مع العنصرين الأمازيغي والعربي بعد الفتح الإسلامي، كما أسهمت العبرية بشكل نسبيّ في التلاقح اللّغوي، عبّر عن تفاعل الألسن، وحسب أحمد شحّان في كتابه "مدخل إلى العبريّة" خلال العصر الوسيط أدّت إلى نقل الفكر العربي الإسلامي إلى الفكر الغربي عن طريق الترجمة من العربية إلى العبريّة إلى اللاتينية<sup>3</sup>. لهذا، فإنّ العبريّة كانت لغة مساهمة في نقل التراث العربي الإسلامي إلى الأندلس وتغيير الخارطة اللّغوية والدينية، بواسطة تدريسها لأبناء -اليهود- المقيمين بمجال المغرب الأقصى والأندلس وتعزّز وجودها بظهور إنتاجات أدبية متعلّقة بالتراث اليهودي، في مختلف الفنون المعرفية.

<sup>1</sup> تناول عبد الكريم بوفرة وضعية اليهود لما تحوّلت فاس إلى مركز إشعاع ثقافي، وقد استفاد اليهود المغاربة كثيراً من هذه الوضعية الجديدة، التي برزت من خلالها الإزهاصات الأولى للنحو والشعر العبريين على يد الحاخام إسحق الفاسي، صاحب كتاب التلمود الصغير، ويعتبر التلمود الصغير واحداً من الدعامات الفقهية الأساسية في التشريع الديني اليهودي.

للمزيد من التوضيحات يرجى النظر إلى كتاب: عبد الكريم بوفرة، في الفكر اليهودي الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، مكتبة الطالب، وجدة، ج2، ط1، 2017، ص 9

<sup>2</sup> عبد الكريم بوفرة، في الفكر اليهودي الحديث، ج2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، مكتبة الطالب، وجدة، ط1، 2017، ص 9.

<sup>3</sup> أحمد شحّان، مدخل إلى اللّغة العبريّة - قواعد، نصوص، تطبيقات، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط1، 1984م، ص 3.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط2، 1994م.
- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق، خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط4، 2000م. ج6
- أحمد شحلان، مدخل إلى اللغة العبرية - قواعد، نصوص، تطبيقات، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط1، 1984م.
- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، تحقيق، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط2، 1983م.- امحمد جبرون، انشقاق الهوية، جدل الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى من منظور تاريخي، مطبعة طوب بريس، الرباط، 2015.
- بيار غاريمال، أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، تعريب، أنطوان الهاشم، ج1، مطبعة عويدات للنشر والطباعة - بيروت- ط1، 2012م،
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، منشورات جامعة بغداد، ط2، 1993م.
- حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ، ثقافة، دين، ترجمة، أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط، الأولى، الدار البيضاء، 1987، ص 9.
- حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة، أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، مرسوم الرباط، 2000م.
- حميد عرايشي، توظيف التاريخ القديم في الخطاب المعاصر وأثر التاريخ المعاصر في مقاربة التاريخ القديم (المغرب القديم في الكتابات المعاصرة نموذجاً) الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المجلد 2017، العدد 13-14،

- دانييل ريفيه، تاريخ المغرب، من مولاي إدريس إلى محمد السادس، ترجمة، المهندس أحمد ابن الصديق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2020م،
- عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2001.
- عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة المغاربية القديمة (دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها).
- عبد الكريم بوفرة، في الفكر اليهودي الحديث، ج2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، مكتبة الطالب، وجدة، ط1، 2017.
- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج1. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م.
- غابرييل غامب، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة، عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2014م.
- فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرن السابع والثامن الهجري، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2001م،
- فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجري، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2001م،
- محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب منشورات المعهد الملكي، ط1، 2011م.
- محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال إفريقيا، التعدد والانصهار في واقع الإنسان واللغة والثقافة والتاريخ، أفريقيا الشرق، المغرب-الدار البيضاء 2014م.
- محمد المهدي علوش، إسلام الأمازيغ قراءة أخرى في تاريخ أسلمة المغرب من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2017، ص 47.

- محمد علي عيسى، الجذور التاريخية لسكان المغرب القديم من خلال المصادر الأثرية والأنثروبولوجية واللغوية، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط، الثانية، 2012م.
- مسعود كورتى، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، رسالة لنيل شهادة الماستر، إشراف عبد الحميد حاجيات، 1990-1991م، جامعة الجزائر.
- مفتاحه اعمر وآخرون، خط وإملائية الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2010م.
- ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقية-وبينهما العبرية واليونانية- مطبعة الرباط نيت (NET)، ط1، 2009م.

#### المراجع الأجنبية:

- Elmadlaoui Mohamed, Diachronie berbère, toponymie, onomastique et histoire (une méthode et un exemple : le nom de Chefchaouen) coordination Mezzine, Vignet-Zunz et F.brigui, Jebala, Peuplement, Langue et ruralité, Actes des rencontres de Chefchaouen , Taounate et Larache, 2011-2012-2014-2015, avec le soutien de l'association Targa , AIDE, 2018.
- - Mansour ghaki, début de l'écriture au maghreb, fondation du roi abdul-aziz alsaoud, casablanca 2002, coordination m'hamed hassine, ahmed siraj.



## حول التأريخ الشفهي:

### عرض كتاب "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"

تأليف: ديفيد هيونج - ترجمة: ميلاد المقرحي

حسن المغربي

مدير تحرير مجلة "رؤى فكرية"

بنغازي / ليبيا



### مقدمة

"من يتصدى لكتابة التاريخ يلزمه التحري في النقل فلا يجزم إلا بما تحققه، ولا يكتفي بالنقل الشائع (...). ولا يعتمد على مجرد التشنيع في كل أحد، فإن للناس أغراضاً متفاوتة، بل ينظر في الناقل فإن كان ثقة ليس بمتهم في المنقول عنه فليعتمده (...). وإن كان الناقل له من ينسب إلى المجازفة أو كان بينه وبين المنقول عنه حظ نفس فليتجنب النقل عنه، فإن اضطر إلى ذلك فليكشف أمره ويتبرأ من عهده".

(ابن حجر العسقلاني)

"التأريخ الشفهي" Oral historiography هو عنوان كتاب، من تأليف المؤرخ الأمريكي "ديفيد هيونج"<sup>1</sup>، نُشر في أصله الإنجليزي سنة 1982م ضمن منشورات "LongMan Group Limited". وفي عام 1991م، نقله إلى اللغة العربية الدكتور ميلاد المقرحي<sup>2</sup>، تحت العنوان نفسه، وصدر ضمن منشورات مركز الجهاد الليبي. وبالنظر إلى أهمية الكتاب، وعلى وجه الخصوص لدى طلاب الجامعات بأقسام التاريخ وعلم الاجتماع، استقر الرأي (كما يقول المترجم) على إعادة نشره

<sup>1</sup> - ديفيد هيونج: مؤرخ أمريكي، وباحث ببلوغرافي، وأمين مكتبة. ولد عام 1938م في ولاية "أوهايو"، وقضى معظم حياته في دراسة تاريخ إفريقيا، وأسس مجلة "التاريخ في إفريقيا"، وعمل محرراً بها منذ عام 1974م حتى 2010م. ألف عدداً كبيراً من الكتب في مجالات: علم التاريخ، نظرية المعرفة، علم المكتبات، التاريخ الشفهي، ومنهجية نقد التاريخ.

<sup>2</sup> - ميلاد أبو سلامة المقرحي: مؤرخ ليبي، من مواليد مدينة طرابلس، له خبرة واسعة في حقل الدراسات التاريخية، تخرج في كلية الآداب (قسم التاريخ) بالجامعة الليبية (جامعة قاريونس الآن) سنة 1972م وحصل على درجة الماجستير في تاريخ آسيا من جامعة ميشيغان آن آربر بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1976م، وحصل على دكتوراه في فلسفة التاريخ من جامعة واشنطن سيائل بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1982م، وتدرج في عضوية هيئة التدريس بجامعة قاريونس محاضراً، فأستاذاً مساعداً، فأستاذاً مشاركاً إلى أن عين أستاذاً للتاريخ الحديث والمعاصر سنة 1994م. له عدة كتب في تاريخ أوروبا الحديث، وتاريخ آسيا الحديث والمعاصر، ومنهجية الكتابة التاريخية.

في طبعة منقحة من منشورات جامعة قاريونس عام 2003م. وواضح إن الطبعة العربية الجديدة جاءت جميلة وراقية من حيث الترجمة أو الإخراج الفني، والمترجم قام بتعديل عنوان الكتاب على النحو التالي: "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"<sup>1</sup>. وذلك لتوسيع دائرة الفهم لدى القارئ العادي. وفي الحق، إن العنوان الجديد يعطي صورة واضحة لمحتويات الكتاب.. ولعل ما يبدو ايجابيا منذ الوهلة الأولى أن صاحب الكتاب يعالج طرق وأساليب الكتابة التاريخية عبر الرواية الشفهية انطلاقا من تخصصه وتجربته الكبيرة في هذا الميدان.

### موضوع الكتاب

يعرض هذا الكتاب القضايا المحورية المتعلقة بالطرق السليمة التي ينبغي الالتزام بها إذا أراد المؤرخ الشفهي الجديدة في دراسة الأحداث التاريخية وتوثيقها بشكل علمي.

إن سرد أحداث الماضي من خلال المصادر الشفهية موضوع مهم للغاية، خاصة في بلادنا العربية التي تعاني من الانفلات المنهجي في دراسة التاريخ، وقد وقع بين أيدينا في السنوات القليلة الماضية عدة أعمال تناولت التاريخ الليبي الحديث - على سبيل المثال - بطابع شخصي، وفي أحيان كثيرة بدوافع اجتماعية وسياسية معينة، باعتبار أن أصحاب هذه الأعمال حصلوا على وثائق جديدة لم تكن متاحة لغيرهم من الباحثين في الماضي أو أنهم كشفوا النقاب عن أسرار وخفايا تتعلق بالكفاح الوطني، وملفات التجسس والخيانة في مرحلة النضال الشعبي ضد المحتل الأجنبي، لكن، هؤلاء الباحثين لم يتمكنوا من نقد مصادرهم بموضوعية تامة، وبالتالي، الاستفادة من المواد التي حصلوا عليها من أفواه الرواة، وتقديمها بشكل موضوعي، وتأسيسا على ذلك، رأيتُ من المناسب عرض هذا الكتاب ليكون عوناً لكل من يحاول التصدي للكتابة التاريخية بالاستناد إلى المصادر الشفهية.

### مكونات الكتاب:

يتألف الكتاب من مقدمة وسبعة فصول وخاتمة بالإضافة إلى ثبت بالمصادر والمراجع باللغة الانجليزية. ففي المقدمة، يؤكد المترجم على أن المنهجيات الشفهية استطاعت أن تحتل مكانا بارزا ومتقدما بين منهجيات المؤرخين المحترفين، وهذا يرجع بطبيعة الحال، إلى تحفظ المصادر المدونة التقليدية حول عدد من المجالات التي تشغل الآن اهتمام الباحثين. الأمر الذي جعل مؤلف الكتاب

<sup>1</sup> - الصفحات المشار إليها مأخوذة من كتاب "دراسة التاريخ من خلال الرواية الشفهية"، تأليف: ديفيد هينج، ترجمة: ميلاد المقرحي، من منشورات جامعة قاريونس، بنغازي/ ليبيا، الطبعة الأولى، 2003م.

يقدم عدة إجابات نموذجية على مجموعة من الأسئلة بشأن التأريخ الشفهي، نذكر منها: كيف يصل المؤرخون الشفهيون إلى روايتهم؟ وكيف يتم التعامل مع المادة الشفهية، وما التاريخ الشفهي؟ ومن جهة أخرى، أشار المترجم إلى أن المصادر الشفهية تقع في نوعين متميزين: "الذكريات الشفهية" المستقاة مباشرة من الناس الذين يتم استجوابهم من قبل المؤرخ، وعادة تستعمل هذه المادة لدراسة الماضي القريب.. والنوع الثاني يتمثل في التراث الشفهي الذي ينتقل من جيل لآخر عن طريق القصص والحكايات سواء أكانت شعرا أو نثرا، ومن اشتراطاته أن يكون ممارسا بشكل واسع في المجتمع. وأفضل مثال لهذا النوع ما يعرف في الثقافة العربية بـ "أيام العرب". وقصص "الساجا" بالأدب الغري.

#### مقدمة الكتاب:

في البدء ينوه المؤلف على أن عمله لا يهدف لأن يكون دراسة استقصائية وافية للاستعمال المعاصر لمصادر التاريخ الشفهي، وإنما هو محاولة من أجل جمع القليل من القضايا والفروع ذات صلة بمظاهر البحث التاريخي الشفهي. ثم تطرق إلى تبيان المصطلحات والرموز المتعلقة بعلم التاريخ الشفهي، من بينها مصطلح التاريخ نفسه الذي يشمل عدة تعريفات متباينة، ولأن أهداف المؤرخين تبدو مضطربة ومتأرجحة وغير ممكن تحقيقها بحسب قوله. ومن هنا، فقد عرف التاريخ باعتباره كل ما تبقى من آثار الماضي سواء كان ذلك كلمات مدونة أو منقوشة أو أي شيء من صنع الإنسان.

أما مصطلح التأريخ "Historiography" الذي يعني "مهمة كتابة التاريخ"؛ فهو كل نشاط يشمل أي نوع من البحث التاريخي بما في ذلك البحوث التي تعتمد على المصادر الشفهية، ونظرا، لأن هذا المصطلح أقل عرضة للخلط، فقد اختاره المؤلف عنوانا لكتابه.

ويؤكد المؤلف في نهاية المقدمة بأن كتابه لا يتطرق إلى مناقشة النظريات التاريخية المختلفة التي تتنافس من أجل ولاء المؤرخين لها، وإنما يتطرق إلى المنهجية الناجعة لجمع المعلومات التاريخية واختيارها بدقة والربط بينها وبين القرائن والأدلة التاريخية الأخرى، وقبل الشروع في عرض فصول الكتاب تحسن الإشارة إلى ثلاث قضايا مهمة توسع في شرحها المؤلف بالمقدمة وهي على النحو التالي:

الاستفادة من دراسة ماضي التأريخ الشفهي نفسه؛

التأكيد على أن دراسة التأريخ الشفهي تشبه دراسة كل ضروب البحث التاريخي الأخرى؛

إمكانية جعل مصادر المؤرخ الشفهي في متناول غيره من الباحثين إذا أراد الازدهار والخروج من دائرة "التوجس" من قبل الأجيال القادمة.

### الفصل الأول (أهمية التاريخ الشفهي)

لا شك أن الاعتناء بالتاريخ الشفهي ازداد بصورة ملفتة للنظر بعد تصفية تركة الاستعمار الأوروبي بالعالم الثالث، فظهرت دراسات في قارة إفريقيا ساعدت على تطور مجال البحث التاريخي الشفهي. مما أضفى عليه شكله المتميز الخاص. غير أن دراسة الماضي من خلال الرواية الشفهية ليست شيئاً جديداً، إذ إن المصادر المدونة والشفهية وجدت جنباً إلى جنب بدرجات متفاوتة منذ القدم. وعلى هذا الأساس، ذكر المؤلف لمحة موجزة على بعض الاستعمالات الرئيسة للمعلومات الشفهية في الماضي.

بالرغم من وجود أولئك الذين يعتبرون "هوميروس" كأول مؤرخ شفهي معروف، إلا أن المصنفات التاريخية الإغريقية التي عاشت تتمثل أساساً في مصنفات هيرودوت وتوكيديس، وكلا العاملين كل بطريقته المتميزة، كان بشيراً للبحوث الشفهية التاريخية التي ظهرت فيما بعد.. فهيرودوت استخدم التقاليد الشفهية إلى جانب المعلومات التي جمعت من الرواة أثناء رحلاته في العالم القديم، وبشكل خاص رحلته نحو مصر، حيث تأثر بشهادات مصادره بشأن ملوك مصر، وبناء الأهرامات، وكذلك تأثر بروايات الليبيين مثل "الرجال الذين لهم رؤوس كلاب" وغيرها من السخافات المتعلقة بالجغرافيا والمناخ.

أما توكيديس، فقد اختار أن يكتب عن الحرب "البيلوبونيسية" وكان أحد المشاركين بها مدة من الزمن، حيث أجرى مقابلات شفهية مع المحاربين، واستمر في ذلك طوال 27 عاماً متجولاً من مدينة إغريقية إلى أخرى. يدون الوقائع والأحداث بما فيها الخطب التي ألقيت في مناسبات كثيرة، وقد اعترف المؤرخون بالزمنه التالية، أن أعمال "توكيديس" تمتاز بالدقة والتجرد والثقة في البحث الدقيق مقارنة بأعمال هيرودوت التي تعرف باسم "التواريخ".

وقد استمر المؤرخون الإغريق والرومان فيما بعد في اعتماد المصادر الشفهية لتدوين الأحداث التاريخية الكبرى، مثل حريق روما وذكر الأباطرة والأنبياء، ولعل أهم ما جاء في سياق أهمية الرواية الشفهية هو تدوين أسفار الكتاب المقدس بفرعيه: العهد القديم والعهد الجديد، وتم اعتماد الأسفار التي جمعت بالعهد الجديد ورفضت بعض الأسفار الأخرى مثل "أبوكريفا"؛

ذلك لأن المهتمين بدراسة الكتاب المقدس طعنوا في الطرق المتباينة في نقل الروايات الشفهية المعتمدة في هذه الأسفار.

وفي العصور الوسطى، تطورت ممارسات الرواية الشفهية في كتابة التاريخ من قبل مجموعة من شعراء العالم السلي في ويلز واسكتلنده وبشكل خاص إيرلندا، كما استخدم المؤرخون الإخباريون في أوروبا الغربية التقاليد الشفهية وشهادات شهود العيان، ويعتبر كتاب "Domesday Book" الشهير أول مصدر رئيسي مدون عن تاريخ إنجلترا النورمانية كما يقول المؤلف، وكذلك أعمال الرهبان والنساك الذين كتبوا عن تاريخ عصرهم الذي عاشوا فيه أو تاريخ الأسقفية التي يتبعونها، ومن أشهر المؤرخين الإخبارين بالفترة النورمانية "وليم الملميزوري" الذي ألف كتابا مهما عن تاريخ بريطانيا أستند فيه إلى المصادر الشفهية، والمؤرخ "هنري هونتيجدون" الذي استند هو أيضا إلى المصادر الشفهية والمصادر المدونة في آن واحد، وقد نصح القراء عندما وصل إلى مرحلة وصف الأحداث التي وقعت قبل ستين سنة من عصره بقوله "والآن هذه الأشياء التي نشير إليها هنا إما أننا شاهدناها بأنفسنا أو أنها قد تناهت إلى أسماعنا من طريق أولئك الذين شهدوها" (ص40).

كما ظهر مؤرخ أخباري ثالث هو "وليم نيوبورج" الذي يختلف عن سابقيه الاثنين فيما يتعلق باستعماله للمصادر الشفهية، فقد كان يذكر القراء بين الفينة والأخرى بأنه سمع الشهادات مباشرة من أولئك الذين عاصروا الحدث الذي يكتب عنه.. ومهما يكن من شيء، فإن أغلب المؤرخين الإخبارين الذين ظهروا في بريطانيا بالعصور الوسطى اعتمدوا على المصادر الشفهية في مؤلفاتهم التاريخية، ومن الطريف حقا، بحسب تعبير المؤلف، أن كل واحد منهم كان حريصا على إشعار وتنبيه القارئ عند استعماله للرواية الشفهية.

واستمر اللجوء إلى المعلومات التاريخية بنوعها (الشفهي والمدون) طوال العصور الوسطى في أوروبا، وبشكل عام كان هناك صنفان من التقاليد في كتابة التاريخ، الأول يتمثل في كتابة ما يطلق عليه اسم التاريخ العالمي كما فعل "أوتو فريزنج" الذي ذكر في كتابه "تاريخ الحضارة الغربية" قائلا: "لم أسجل إلا ما وجدته في كتابات أناس ثقات.. أما الصنف الآخر فيتعلق بكتابة التاريخ المحلي. ومن أشهر من كتب في هذا المجال "جراما تيكوس" و "آدم بريمن".

وأثناء الحديث عن المؤرخين الإخبارين في العصور الوسطى، يشير المؤلف إلى المؤرخين المسلمين الأوائل الذين وصلت أعمالهم إلى مستوى التقليد الأوروبي بل إنها قد تتفوق عليه، فذكر اهتمام المجتمع الإسلامي بالمادة التاريخية الشفهية والمصادر المدونة، خاصة في جمع الأحاديث

النبوية بالقرن الثاني للهجرة، وكيف كان المسلمون يفضلون شاهد العيان على أي نوع من المصادر المدونة، لدرجة أنهم أحرقوا كل ما كتبوه من الأحاديث النبوية كي تنقل محتوياتها من طريق الرواية الشفهية فقط.. وفي الواقع، أن هذا الخبر لم تثبت صحته في أدبيات التراث الإسلامي، ويبدو أن المؤلف نقله عن كتاب عبد العزيز الدوري المسمى "بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب" دون أن ينتبه إلى أن المؤرخ ابن شهاب الزهري أورد في سياق الحديث عن الاخبار التي تزعم أن الرسول (ص) نهى أصحابه عن تدوين أحاديثه حتى لا تختلط بالقرآن الكريم.

ومن أبرز المؤرخين المسلمين الذين ذكرهم المؤلف البلاذري، وهو أول مؤرخ مسلم حاول أن يؤرخ للفتوحات الإسلامية بشكل كامل، من خلال الاعتماد على المصادر المدونة والشفهية معا، ثم تحدث عن الطبري صاحب كتاب "تاريخ الأمم والملوك" الذي يسرد تاريخ العالم من آدم حتى عصره، فذكر سلسلة طويلة من القصص عن الشخصيات التاريخية كالإسكندر الأكبر وأباطرة الرومان والبيزنطيين وحكام الفرس، كما ذكر شخصيات بارزة ذكرت في الكتاب المقدس، وعندما وصل إلى عصره "أخذ يعتمد على روايات شهود العيان مكررا العديد منهم دون أن يفضل أحدهم على الآخر لدرجة أن عمله تحول إلى قصص". (ص 45).

ومن عصر الطبري حتى القرن الرابع عشر الميلادي أنتج المؤرخون المسلمون أعمالا تاريخية اعتمد بعضها على المصادر الشفهية، مثل كتاب "مسكويه" عن الأسرة البويهية وتاريخ الحروب الصليبية، كما ظهر في هذه الفترة أعظم المؤرخين المسلمين "ابن خلدون" الذي أنتج عمليتين رئيسيتين: كتاب "العبر" و"المقدمة". والعمل الثاني كان الغرض منه أن يكون مقدمة لكتاب "العبر"، ولكنه في الحقيقة كان عملا عظيما واسعا حول فلسفة التاريخ. ولا شك أن الكتابة التاريخية عند ابن خلدون تطورت بشكل ملحوظ، فقد كان ينقد الأخبار الخيالية، ويتجنب تصديق كل ما أنتجه السابقون من الأعمال، ويشكك في المصادر الثانوية التي لا تعطي الحقائق الأساسية، إلا أنه عند رحيله إلى مصر سمع من مجموعة مختلفة من الرواة التقى بهم في القاهرة، من بينهم رواة ينتمون إلى الصين، فذكر معلومات مغلوبة حول تاريخ الشرق الأقصى. ورغم ذلك، فإن ظهور "ابن خلدون" يشير إلى بداية جديدة في تطور الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين، "حيث ساد الاعتقاد بأن المادة الشفهية تعتبر أقل أهمية من المصادر المدونة.. وهذا التحول حدث في تدوين التاريخ الأوروبي في وقت مبكر" (ص 47).

وفي مطلع العصور الأوروبية أصبح لكل مدينة أو مؤسسة دينية مجموعة من المؤرخين يعرفون باسم "مؤرخي البلاط" وكان هؤلاء يمدحون أسلاف الأسر الحاكمة ويدونون أفعالهم

الحقيقية والأسطورية معا، وقد ظهرت في تلك الفترة نزعة ترمي إلى ربط تاريخ كل شعب من الشعوب الأوروبية بالتاريخ المجيد لطرودة وروما. وللأسف، أصبحت أعمال هؤلاء المؤرخين بمثابة مصادر بالنسبة لهؤلاء الذين جاءوا من بعدهم، إلا أنه مع نهاية القرن السابع عشر بدأ الاهتمام الجدي باستشارة النصوص الأصلية والرسمية من المعاهدات والسجلات والعقود وسير القديسين باعتبارها مصادر أولية من الطراز الأول، واعتمد مجموعة من المؤرخين في الآن ذاته على المادة التاريخية التي كانت يوما شفوية مثل كتب الأدب الأيسلندي الزاخرة بأعمال البطولة "الساجا" التي شرع في تدوينها إبان العصور الوسطى من جيل إلى آخر من طريق الرواية الشفهية. وفي الحق، إن تاريخ تطور استعمال المادة التاريخية الشفهية يمكن اعتباره تجسيدا للتغيرات في الموقف الذي حدث تجاه أهمية وقيمة المصادر الشفهية المتعلقة بالأدب الأيسلندي والدول الاسكندنافية الأخرى، حيث تم النظر في مصنفاتهم التقليدية من قبل الباحثين في جو يتسم بتنافس القوميات.

لكن في بداية القرن العشرين أدرك أغلب الباحثين إن هذه الكتب ذات طبيعة أدبية وليست تاريخية، واشتدت حملة الانتقادات ضد المصادر الشفهية، خاصة بعد ظهور مقال عن تراث الهنود الحمر في أمريكا، حيث أعلن الأنثروبولوجي المشهور "روبرت لوي" أنه "لا يستطيع أن يعلق أية أهمية أو قيمة تاريخية على التراث الشفهي وبأي حال من الأحوال، لأننا لا نستطيع أن نقطع بصحتها" ص57. باعتباره يحتوي على أحداث غير مهمة ولم ينجح في الاحتفاظ بالأحداث الخطيرة والهامة جدا، وفي هذا الصدد يقول المؤلف: "لا شك أن عددا من الملاحظات الإضافية التي طرحها "لوي" كانت معقولة وواعية، فهو قد كشف لنا نقاط الضعف الجدية في أغلب القرائن الشفهية وهي القصص في إثباتها بشكل مستقل وبالتالي قبولها دون إثارة الشكوك حولها، ولكن بطبيعة الحال إن هذه الميزة تنطبق أيضا وإلى حد كبير على البيانات والأدلة المدونة" (ص58).

لا شك، إن النظرة السابقة تؤكد على التقسيم المنهجي لدراسة التاريخ البشري الذي قبل به دون اعتراض عدد كبير من المؤرخين، وهو أن المجتمعات البدائية لا بد وأن تكون في مقدمة اهتمام الأنثروبولوجيين، أما المؤرخون فعليهم أن يهتموا بدراسة المجتمعات الراقية التي تعرف القراءة والكتابة. وبالفعل، يقول المؤلف "هناك مقدار كبير من اللامبالاة التي اتخذها أغلب المؤرخين تجاه استعمال المصادر الشفهية أو للتأريخ الشفهي نجده في الطريقة التي عالج بها مؤلفو كتب المنهجية التاريخية هذا الموضوع، فمن بين حوالي اثني عشر أو أكثر من هذه الكتب الواسعة

الانتشار والاستعمال ظهرت أثناء السبعين سنة الأولى من هذا القرن، يوجد كتاب منهجي واحد خصص اهتماما واضحا وملحوظا للمصادر الشفهية" (ص 60).

إن ظاهرة الابهام والتحريف أمر طبيعي بالنسبة للروايات الشفهية التي يتم انتقالها من جيل إلى آخر عبر الذاكرة، ولهذا السبب، استعملها بعض المؤرخين إلى جانب المصادر المدونة على سبيل الاستثناس أو كشيء مكمل لها.

وفي بداية الخمسينات من هذا القرن (يقصد القرن المنصرم) تغيرت النظرة حول القيمة التاريخية للمعلومات الشفهية، وبدأ الكثير من الأنثروبولوجيين وعلى رأسهم "ايفانز بريشارد" يميلون إلى الرأي القائل بأن المصادر الشفهية التي كانت تروى في المجتمعات البدائية يمكن أن تكون لها قيمة تاريخية.

وتأسيسا على ما سبق، أخذ المؤرخون بشيء من الحذر يعنون بالمصادر الشفهية خاصة في مجتمعات العالم الثالث التي ما زالت إلى وقت قريب في طور الانتقال من البدائية إلى الحداثة، فظهرت مؤلفات لها قيمة تاريخية تصدى أصحابها لموضوعات متنوعة حول الهوية والتراث والفلكلور الشعبي كالموسيقى والرقص وغيرها.

كما لاحظ المؤلف في خضم تتبعه لتطور منهجية التأريخ الشفهي أن الاهتمامات النشيطة التي ظهرت متأخرة بالرواية الشفهية مصدرها التجربة الاستعمارية، فقد أستمعمل كثير من الموظفين الاستعماريين الذين اعتبروا أنفسهم مؤرخين بالرغم من أنه كان ينقصهم التدريب المنهجي والعمل، الرواية الشفهية لدراسة الثقافات البدائية في المجتمعات الأفريقية، ومن هؤلاء الباحثين "جورج جراي" و "بيرسي سمث" و "جيمس ستورات".

ويرى المؤلف أن حصيلة التطور الكمي للتأريخ الشفهي تعدّ إيجابية نظرا لأهمية الإنجازات التي ساعدت المهتمين بدراسة تاريخ وحضارة أفريقيا ومجتمعاتها وكذلك دراسة الأوقيانوس والهنود الحمر في أمريكا. وبالإضافة إلى هذا التطور، يقول المؤلف: "أنه من غير الممكن تنفيذ برنامج يتعلق بالتأريخ الشفهي أو الكتابة التاريخية على أساس الاعتماد على استخدام المصادر الشفهية"، ويحاول الإجابة عن هذه الشكوك بالتأكيد على أهمية التأريخ الشفهي، فهو على الأقل، يسمح للباحثين بدراسة موضوعات مثل تاريخ العالم الثالث بمنأى عن سيطرة الوثائق الرسمية ووجهات النظر الرسمية؛ إذ إن تاريخ دول إفريقيا بشكل عام يحتاج إلى أن يصفى من تأثير الاستعمار.. ففي بلادنا ليبيا - مثلا - ما زالت النظرة التاريخية لحضارة الليبيين من العصور



القديمة حتى عشية الاستقلال تستند إلى المرجعية الأوروبية بدءاً من أصل الليبيين وحضارتهم القديمة إلى حركة الجهاد الليبي والهوية الليبية في الوقت الراهن.

في نهاية الفصل الأول يشير المؤلف إلى أن تفسير التراث الشفهي في الوقت الحاضر في حالة تغيير متواصل، ذلك بأن دراسة وفهم المصادر الشفهية أمر صعب ويتطلب جهداً كبيراً، كونه يستند إلى الذاكرة من خلال نقل معلومات شفهية عبر الاتصال من شخص إلى آخر، وهذا الاتصال يؤثر بطبيعة الحال على المادة التي جُمعت.. وبالتالي، ستظل هذه المشكلة من أبرز التحديات التي تواجه التأريخ الشفهي في هذه الأيام.

### الفصل الثاني "كيفية التعامل مع المادة الشفهية"

إن الهدف الأساسي من هذا الفصل هو مناقشة الطرق والوسائل اللازمة لجمع المادة الشفهية، وهي مرحلة مهمة وفيها الكثير من التحديات مثل استخدام لغة أجنبية ومعدات فنية متنوعة، بالإضافة إلى أن المؤرخ الشفهي إذا أراد أن يصبح عمله ملهماً للأجيال القادمة من الباحثين، عليه أن يدرك أنه من الضروري أن يعتبر نفسه خادماً وليس سيداً لأي جزء من الأدلة والشواهد التاريخية. وأن يتحلى بالصبر انطلاقاً من بداية بحثه إلى أن يضع أهدافه موضع التطبيق.

ويرى المؤلف أن مشروع البحث الشفهي يمر بثلاث مراحل: "الاستعداد لجمع المادة، جمع المادة، وتفسير المادة". وقد ناقش في هذا الفصل الخطوات الأولية اللازمة قبل الشروع في جمع المادة الشفهية، مثل اختيار موضوع البحث، وقراءة جميع ما صدر من كتب ومجلات علمية حول الموضوع الذي اختاره، بمعنى آخر، يجب أن تكون لدى الباحث معرفة واسعة وعميقة، حتى يعرف إلى أي مدى ستكون فكرته مهمة وقابلة للتنفيذ على أرض الواقع، وبعد اعتماده للموضوع يجب أن يمهّد للبحث الميداني، وذلك بالحصول على إذن مزاولة بالمنطقة التي يعتزم دراستها، وفي هذا السياق يقول المؤلف "فعادة من المستحيل على المؤرخ أن يعرف حتى اللحظة الأخيرة ما إذا كانت حكومة معينة تسمح بإجراء مشروع البحث المقترح أم لا ووفق أية شروط، ولا شك أن هذا الأمر قد اضطر المؤرخين إلى أن يقصروا أنفسهم على أحد أمرين: دراسة مجتمعاتهم أو القبول بالقيود التي تفرض عليهم" (ص 77).

وعلى أي حال، بعد الحصول على موافقة الأمانة لإجراء البحث الميداني، من الحكمة أن يتواصل المؤرخ الشفهي مع الباحثين الذين مروا بتجربة البحث في ذلك البلد، ويناقش خطة

مشروعه مع الباحثين المحليين إذا وجدوا.. وإذا كانت لغة مجتمع الدراسة تختلف عن لغة الباحث الأصلية، من المفيد، في هذه الحال، أن يتعلم اللغة الجديدة بدرجة تمكنه من التعامل مع الرواة مباشرة دون الحاجة إلى المترجمين. لكن، وفي حال عدم وجود الوقت لتعلم اللغة، يمكن الاستعانة بخدمات المترجمين الوطنيين الذين يجيدون التكلم باللغتين.

وحالما يصل المؤرخ إلى منطقة الدراسة ينبغي الانتقال إلى الوحدات الصحية لاجتياز كل أنواع التطعيم، حتى لا يتعرض للأمراض المستوطنة، ومن ثم، أول عمل يقوم به هو زيارة دور الأرشيف وسجلات المحفوظات التاريخية، لأنه، من الصعب أن نتصور أي موضوع في مجال التاريخ الشفهي بدون مادة تاريخية ذات صلة به في سجل المحفوظات التاريخية العامة أو الخاصة مثل الوثائق الرسمية والعهود الدولية أو مجموعة الوثائق التي يملكها الأفراد كالعقود التجارية والاتفاقات الاجتماعية إذا كان نظام المجتمع عشائرياً أو نحو ذلك، وفي هذه الأثناء قد يتعرض الباحث لعدة صعوبات، منها: أن فرص الاطلاع على المحفوظات التاريخية بدور الأرشيف في بلد الدراسة الميدانية تكون بالعادة خاضعة لقيود، وفترة منغلقة تصل إلى ثلاثين سنة وأحياناً أكثر. وهنا، لا بد أن يقدم الباحث رسائل توصية تشهد على صحة الغرض الكامن وراء اهتمامه.

وبالإضافة إلى زيارات الأرشيف المحلي يحتاج المؤرخ إلى تنظيم برنامج عمل لتنفيذ مشروعه البحثي حتى يكسب الوقت، ويستغل بعض المناسبات الدينية بالمجتمع وتعاقب فصول السنة، وبرامج النشاطات المهنية في مجال الصناعة والزراعة وصيد الأسماك، إن مثل هذه النشاطات تخدم كعامل مساعد لذاكرة الرواة.

ويلاحظ المؤلف أن عناصر جمع المادة الشفهية لا تكتمل إلا بوضع استراتيجية "فن توجيه الأسئلة" تعكس رؤية المؤرخ في طرح الأسئلة، لأن "مضمون المقابلات الشخصية الشفهية طبعاً يعتمد أساساً على محتويات الأسئلة التي يطرحها المؤرخ الشفهي على الرواة، إلا أن شكل وصياغة أسلوب الأسئلة أمر مهم أيضاً، لأن الطريقة التي تصاغ بها الأسئلة قد تؤثر على صحة الإجابات المتوقعة" (ص98) وفي هذا الصدد يحذر المؤلف من استخدام ما يعرف بالأسئلة الإيحائية (The Leading Questions) وهي أسئلة تصاغ بالفاظ توحي بالجواب، وعادة، يُستعمل مثل هذا النوع من الأسئلة في الاستدلالات الجنائية وفي محاكم القانون. وكما يبين المؤلف التأثير السلبي لمثل هذه الأسئلة، وضع عدة أمثلة افتراضية لها، واختار موضوع المقاومة ضد الحكم الاستعماري لرواته، ثم قام بمناقشة كل سؤال من هذه الأسئلة، من حيث الصياغة وتركيب الألفاظ، وفي الواقع، إن كل سؤال جاء ليكشف عن بعض الأخطاء المنهجية التي يقع فيها بعض المؤرخين الذين

يريدون دفع الرواة إلى الاتجاه الذي يريدونه، ونكتفي هنا بذكر السؤال الأخير الذي جاء على النحو التالي

- أليس صحيحا أن كل واحد تقريبا في هذه المنطقة قد قاوم بشجاعة المستعمرين الأوروبيين عندما جاؤوا وحاولوا أن يقتلوكم ويستعبدوكم؟

يعلق المؤلف قائلا: "هذا السؤال غير جيد (...). فهو مغالى فيه إلى حد كبير ونحن نأمل كل الأمل أن لا يطرح مثل هذا السؤال من قبل أي باحث أو مؤرخ يحترم نفسه" (ص 101).

إن الأسئلة المفترضة التي ساقها المؤلف تؤكد في مجملها على ضرورة أن يتعد المؤرخ كليا عن وضع أسس وضوابط للإجابات، وبالتالي، يجبر الرواة على أن يقدموا له معلومات تعكس وجهة نظره.

ويختتم الفصل الثاني بالتطرق إلى ذكر بعض أدوات المهنة، مثل آلات التسجيل الصوتي والكاميرات، واختيار المعدات المناسبة، وكيفية التعامل مع الرواة أثناء المقابلات الشفهية، وإحضار آلة طباعة خفيفة الوزن ومتوفرة بشكل واسع إذا كانت لديه القدرة على استعمال آلة الطباعة، "علما بأن المهارة في الطباعة بالرغم من أنه ليس ضروريا أن تبلغ مستوى البراعة والدقة يجب أن تعتبر ضرورية لكل المؤرخين تماما كضرورة القدرة الببليوغرافية، ولكن في الوقت الذي تعتبر فيه الأخيرة من الأشياء التي يهدف المؤرخ إلى إتقانها تعتبر الأولى غير ضرورية بل تحط من قدرة المؤرخ" (ص 106).

إن كل التوصيات المشار إليها أعلاه تؤكد على ضرورة اكتساب المؤرخ الشفهي لمهارات متعددة قبل الشروع بالعمل الميداني. وفي الحق، إن كثيرا منها، تعد في الوقت الراهن غير ذات أهمية من الناحية العملية، ذلك أن تطور العلم في مجال التكنولوجيا، ساعد في استبدال - على سبيل المثال - آلات "الميكروفون" وآلة التسجيل الشريطية بالأجهزة الذكية كالحاسوب المحمول. وكذلك مراكز مكافحة الأمراض تطورت بشكل ملحوظ في "أنظمة التطعيم" بانتشار منظمات عالمية في جميع أنحاء العالم تقريبا.

### الفصل الثالث "جمع المادة الشفهية"

لن أتوقف كثيرا عند هذا الفصل، علما أن محتوياته قد تكون أكثر أهمية للباحثين الليبيين على وجه الخصوص، كونه يهتم بعمليات جمع المادة الشفهية بطريقة علمية، ومع كل ذلك، من الأفضل أن نعطي لمحة مختصرة وشاملة..

ربما من الغريب أن يتم التركيز على طرق جمع المادة الشفهية باتباع طريقة معينة في التعامل مع الرواة، فهناك من يعتقد، بأن نقل المعلومات لا يتطلب سوى طرح الأسئلة، واختيار رواة بصورة عشوائية دون النظر إلى أعمارهم وانتمائهم وإلى ما غير ذلك..

إن التجارب والدراسات الميدانية أثبتت أن الأسئلة العشوائية، تؤثر بشكل سلبي على سير العمل الميداني، وتضع المؤرخ الشفهي عند مفترق الطرق. فلا يعرف كيف يوفق بين الآراء المتضاربة مثلا. أو أنه يفشل في الوصول إلى نتيجة يمكن الاطمئنان إليها. وبناء عليه، توسع المؤلف في شرح الطرق السليمة في جمع المادة الشفهية منها كيفية اختيار "الرواة" وصياغة الأسئلة الموجهة إليهم، وكذلك الصعوبات والمشاكل التي تواجه البحث الميداني الشفهي.

ولعل أهم نقطة تم التركيز عليها هي معرفة المجتمع الذي ينتمي إليه الرواة، فلا بد "أن يعيش المؤرخ الشفهي لفترة من الزمن بين الناس الذين يقوم بدراساتهم على أن يتم ذلك بطريقة هادئة وحذرة"(ص122). حتى يتمكن من معرفة العادات والتقاليد، كما يجب أن يتعامل مع المجموعات بدلا من الأفراد، لأن المؤرخين في هذا المجال يختلفون عن الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع، بمعنى، أن على المؤرخ الشفهي أن يختار مجموعة من الرواة تمثل مختلف شرائح المجتمع وتشمل عددا من الشباب في مختلف الأعمار المتعلمين والأميين معا، والرجال والنساء على حد سواء، كل ذلك من أجل توسيع نطاق عملية الاستجواب الشفهي. وعلاوة على ذلك، ينبغي تجنب مناقشة القضايا الحساسة بالمجتمع مثل علاقات النسب، وحقوق ملكية الأرض والطقوس الاجتماعية والدينية المختلف عليها، وإذا اكتشف أن بعض الرواة لديهم معرفة واسعة، وأراد المؤرخ أن يسجل جزءا من معلوماتهم، يجب أن يشير إلى المؤلف الحقيقي، "ويبدو أن أغلب المؤرخين يفضلون أن يدمجوا شهادات مثل هؤلاء الرواة في أعمالهم كما أنهم يفعلون ذلك بطريقة تتحدى أية محاولة للتمييز بين الشهادة الأصلية والتأليف"(ص136).

كما يعتبر المؤلف أن ضبط النزعة الطبيعية للتصديق أمر في غاية الأهمية أثناء جمع المادة الشفهية خاصة فيما يتعلق بالقضايا المتعلقة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية والسلوك الرمزي، لكن، وفي أحيان كثيرة، قد يضطر المؤرخ إلى أن يسير في طريق ملتو لكي يصل إلى معلومة معينة، ولو احتاج الأمر إلى مكافأة رواة مقابل المعلومات المهمة. وعندما يقرر عند نقطة معينة أن مرحلة جمع المادة الشفهية انتهت، ينتقل إلى مرحلة أهم، وهي المرحلة التي يتم فيها تحويل المادة الخام إلى تصنيف علمي مقنع.. ومن الطبيعي، في هذه الاثناء، أن تواجه المؤرخ عدة مشاكل كالروايات الكاذبة التي اتفق عليها مجموعة من الرواة لمصلحة معينة. وفي هذا الصدد يقول

المؤلف: "ففي إحدى المناقشات حول الرواة الكاذبين أورد "سالمون" على سبيل المثال، اقتباساً من راوٍ يبدو أنه لا يشعر بالخجل إطلاقاً ليعترف أنه ورواة آخرون من المعتاد أن يكذبوا للباحثين الأجانب الذين أرادوا أن يعرفوا "أشياء شخصية" (ص150).. ولكشف مثل هذه الروايات يمكن اللجوء إلى طرح الأسئلة بشكل متكرر.. مع العلم، أن الأكاذيب الواسعة الانتشار قد تساعد المؤرخ على فهم جانب من جوانب الماضي في ثقافة مجتمع الدراسة.

ويختتم الفصل الثالث بالخطوات الأخيرة التي يجب اتباعها قبل مغادرة ميدان الدراسة، وهو أن يقوم المؤرخ بإيداع الأوراق والأشرطة المسجلة بالأرشيف المحلي ذات الصلة بدراسته الميدانية، ويشكر العاملين المحليين بالأرشيف وجميع الرواة والمترجمين الذين أنفقوا جزءاً من أوقاتهم لمساعدته في مهمته. ومن ثم يجهز نفسه للرحيل نحو الوطن للتفرغ التام لعملية إعداد البحث العلمي بطريقة فعالة ومجدية.

#### الفصل الرابع "ترجمة النص"

ينصب اهتمام هذا الفصل على متطلبات ما بعد جمع المادة الشفهية، فالمؤرخ الشفهي يحتاج قبل أن يباشر مهمة إعداد البحث العلمي إلى عدة أمور منها:

الوقفة التي تجدد النشاط وتنقي الذهن: قبل الشروع في كتابة المادة يجب أن يأخذ المؤرخ بعض الوقت لتكوين عدة وجهات نظر تساعد في عمليات اختيار ورفض المعلومات، مثل الشهادات الغريبة المتعلقة بالحيوانات الناطقة والكائنات الخرافية، ولا شك، أن هذه المرحلة جد خطيرة، وتحتاج إلى جهد كبير من حيث التنظيم والترتيب، كما يُطلب من المؤرخ التمييز بين وجهات النظر بأحسن الطرق لرؤية الماضي، ذلك لأن عمله يشبه فن الكولاج "يأخذ مجموعة من الشظايا ويحاول أن يشكلها في سيفساء يمكن تمييزها أو إدراكها" (ص167) وبشكل عام فإن مهمته الجوهرية تتمثل في فصل الحقائق التاريخية عن الوقائع الكاذبة أو الملفقة.

دمج المادة التاريخية الشفهية والمدونة: بعد جمع الوثائق المدونة يحتاج المؤرخ إلى دمج المادة الشفهية بالمصادر المدونة، وهذه العملية تحتاج إلى مهارة فائقة سواء في أسلوب الكتابة أو تنظيم المادة، ولا يغيب عن ذهنه، أن المصادر الشفهية والمدونة تتصل ببعض من خلال أربع طرق وهي: "قد تكون متطابقة تقريباً من حيث المحتويات ويمكن أن تكون مكملية لبعضها البعض أو يمكن أن تكون متناقضة أو تكون مختلفة كلية عن بعضها البعض لدرجة يمكن القول معها أنها

لا تملك مميزات مشتركة البتة حتى لو كانت تبدو تصف نفس مجموعة الظروف والأحداث" (ص175).

وعندما يكون هناك تناقض واضح بين المصادر الشفهية والمصادر المدونة، لا يعني ذلك أن الأولى (كما يقول المؤلف) تُصحح الثانية، لأنه في حالات كثيرة من المرجح أن يحدث العكس تماما. وفي نهاية الأمر، المطلوب من المؤرخ هو أن يجعل مصادره سواء المدونة أو الشفهية جزءا مكتملا ومفسرا لأي عمل علمي يقوم بنشره.

**مشكلة الحلقات المفقودة:** تتخلص هذه النقطة في قضية نقل الروايات الشفهية خلال الزمن، وقد ناقش المؤلف في هذا الصدد نموذجين الأول يعتمد على الكلمة المنطوقة والثاني على إعادة بناء المعلومات في زمن متأخر. النموذج الأول يقصد به ما حدث في المجتمع الإسلامي أثناء تدوين أحاديث النبي محمد (ص) حيث تم اختراع الإسناد من أجل البرهنة على أن الأحاديث قد ظهرت في وقت النبي، أما النموذج الثاني، فهو من غرب أفريقيا، ففي وقت من الأوقات ظهرت قوائم الأنساب المتعلقة بالدعاة المتعاقبين يرجع تاريخها إلى ألف سنة مضت لخدمة مصالح شرعية وعقائدية...

إن النظر في هذين المثالين يساعد على توضيح المشاكل المتعلقة بسلسلة انتقال المعلومات سواء أكانت حقيقة أم خيالية. وعليه، فمن المهم بل الضروري، أن يتبع المؤرخ مثل هذه السلاسل ليكشف عن نقاط الضعف فيها، فالمثل القائل بأن السلسلة ليست أقوى من أضعف حلقة فيها هو صحيح.

**الرواة: كفنانيين ومحامين:** إن الكلمة المنطوقة تلعب دورا اجتماعيا بارزا في جميع المجتمعات الفطرية، وبالتالي، فهي تحتاج إلى فن الإلقاء بحسب الإطار الثقافي المتبع في المجتمع، ربما يكون الأداء عبر رجال الدين أو شعراء أو كتاب المسرحيات، وفي جميع الأحوال يلاحظ "أن عملية تجميل السرد يمكن أن تأخذ عدة أشكال: تقديم أو إدخال حركات وإيماءات وتغيير نبرات الصوت، أو درجة النغم، أو طبقة الصوت، أو إيقاع الحديث، وإضافة حركات خيالية لعناصر القصة الموجودة أو اختراع رموز وحالات جديدة يمكن زخرفتها. وقد يكون الدافع وراء إدخال هذه التعديلات هو رغبة القائم بالأداء الشفهي في أن يبرز براعة القصاصين الآخرين وذوقهم الفني" (ص188).

باختصار، إن الرواة يتصرفون وكأنهم يقومون بأداء عمل فني أو كمحاميين يتصرفون بدون حياء فيما يتعلق بالنزاعات بشأن أهلية الأفراد في المناصب أو في حقوق الرعي والصيد. وهذا بطبيعة الحال يعطي عدة فرص لإساءة استخدام الذكريات التاريخية لصالح إقامة الدعاوي أمام القضاء، وهي حالات مألوفة وتكرر بشكل مزعج.

### الفصل الخامس "تفسير المحتوى"

يمكن أن ندرك بسهولة ويسر الارتباط القائم بين الفصل الرابع "ترجمة النص" والفصل الخامس "تفسير المحتوى" وذلك لسبب بسيط، فالنص الحاضر/ الماضي يطرح للمناقشة والفحص في كلا الفصلين، كما أن الأحكام التي "يصدرها المؤرخ حول القضايا ذات الصلة بالنص هي بالضرورة أكثر خصوصية وأهمية لأن تجارب وخبرات البحث الميداني تختلف من باحث إلى آخر، ومن حسن الحظ أنه بالنسبة للقضايا المتعلقة بالمحتوى يوجد دليل للمؤرخ الذي يرغب في أن ينظر إلى نفسه كمجرد ممثل لمشروع كبير وواسع النطاق" (ص 193-194).

ومن الطبيعي أن مثل هذا الأمر يستدعي معرفة واعية ومسؤولة تأخذ بالاعتبار الإمكانيات المتوفرة، إذ أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة ببساطة حتى لو توفر لدى المؤرخ مواد غزيرة.. بالرغم من أن تكوين الرأي اعتمادا على القياس والمقارنة أفضل بكثير من مجرد التخمين، وتأسيسا على ذلك، ضرب المؤلف عدة أمثلة بشأن مصادر الإثراء واسترجاع المعلومات، وقد بدأ بروايات الكتاب المقدس.

ففي أوروبا قبل اكتشاف العالم الجديد كان هناك اقتناع تام بالروايات التاريخية التي جاءت في الكتاب المقدس بشأن خلق البشر وتوزيعهم في العالم المأهول، وبطبيعة الحال فإن هذه الأخبار لم تأخذ في الاعتبار أنواع الحيوانات والنباتات والناس الذين تم اكتشافهم في الأمريكيتين، الأمر الذي ساعد في ظهور نظريات لاهوتية تقول بأن الهنود الحمر في أمريكا كانوا مجرد حيوانات، ولذا لا حاجة لأن يذكرهم الكتاب المقدس.

كذلك القرآن الكريم يعتبر بحسب وجهة نظر المؤلف من أهم مصادر الإثراء مثل الإنجيل وبقية الكتب الدينية الأخرى. وكتب موظفي الإدارة الاستعمارية هي أيضا من أهم مصادر الإثراء، وقد تأثر بها عدد كبير من أعضاء المجتمعات البدائية خاصة هؤلاء الذين يخدمون كرواة، لدرجة أنه لم يعد يوجد تراث شفهي سليم غير محرف في مثل هذه المجتمعات. ومن هنا، يجب على المؤرخ أن يفحص المادة التاريخية بدقة ليعرف تأثير المصادر الخارجية، وهذا لا يتم إلا إذا استطاع أن

يميز على الأقل بشكل تقريبي بين هؤلاء الرواة الذين قد اكتسبوا معرفة دخيلة وهؤلاء الذين لم يفعلوا مثلهم.

ومهما يكن من شيء، فإن تحديد مصادر الإثراء لن يكون يسيرا بالنسبة للمؤرخين الذين يبحثون عن الدقة التاريخية، وكشف العناصر المقتبسة من التراث، على الرغم من أن المادة التاريخية غير الدقيقة "يمكن أن تكون ممتعة أو مشوقة أكثر من الحقائق المجردة لأنها تساعد على فهم العقلية الجماعية لمجتمع ما" (ص 209).

وإضافة إلى موضوع الإثراء تناول المؤلف ما يعرف بـ "الأبطال الثقافيين" وبطل الثقافة "هو مصطلح يستعمل عادة لوصف شخص ما قد يكون وجد فعلا أو لم يوجد، إلا أن دوره في التراث قد أضفى عليه الكثير من التمجيد والمبالغة إلى درجة أنه قد أصبح يجسد جزءا كبيرا من التراث الثقافي وفترات طويلة من الزمن" (ص 211) ويوجد في كل مجتمع بدائي تقريبا بطل ثقافي واحد وأحيانا أكثر مثلا: "الملك آرثر" في بريطانيا، "رومولوس وريموس" في روما، "الأباطرة الخمسة" في الصين، "راما" في الهند، "أبو زيد الهلالي" في الثقافة الإسلامية. ولا توجد أدلة كافية على وجود هؤلاء الأبطال إلا بالتراث الشعبي نفسه.

إن دراسة الشخصيات الأسطورية ومؤثراتها بتراث المجتمع يمكن أن تساعد المؤرخ الشفهي في فهم العقلية الجماعية للناس الذين اخترعوا هذه الشخصيات أو نقلوها من جيل إلى آخر. إذ إن البحث في أصول بطل الثقافة يوضح، على أقل تقدير، أسباب اختراعه من جهة وربطة بالمجتمع الذي ينتمي إليه من جهة أخرى.

كما أشار المؤلف إلى ما أسماه بـ "أصول الأشياء" ويقصد به البحث عن مسألة بداية الكون والجنس البشري، وهي موضوعات سيطرت بشكل واضح على التفكير البشري منذ العصور القديمة، فالفلاسفة وعلماء اللاهوت والمؤرخون تناولوا بالدراسة والبحث عن أصولنا المفترضة، واحتدم الجدل، وظهرت آلاف النظريات التي تهتم بسلسلة النسب والهجرات، ولعل أشهر رواية في نظرية الأصول نجدها في الكتاب المقدس، "فبالإضافة إلى الوصف والتفسير الذي يقدمه سفر "التكوين" بخصوص خلق الإنسان والكون (المادة) يخصص اهتماما ملحوظا لتأهيل العالم كما عرفه مصنفو هذا السفر، وهذا التأهيل السكاني يظهر على هيئة سلسلة نسب ابتداء بنوح وابنائهم الذين انتجوا الأجناس البشرية التي انتشرت في العالم فيما بعد" (ص 218).



وإلى جانب الكتاب المقدس، قدمت الميثولوجيا الإغريقية والرومانية نظريات شارحة لأصول الشعوب المختلفة، وفي الثقافات الشرقية تتبع علماء الأنساب أصل العائلات كما حدث في روسيا وإيران وأرمينيا. وقد تناول معظمهم أصول ونشأة الشعوب البشرية من خلال الهجرات الجماعية، إلا أن نظرية الهجرات لم تصمد طويلاً.. فقد اكتشف بالعصر الحديث بأن الكثير من الأحداث التي تصفها الروايات الشفهية بأنها وقعت في زمن حديث نسبياً قد تكون في واقع الأمر قد حدثت منذ زمن بعيد. وقد اتضح كذلك، من خلال الأدلة التاريخية المتعلقة بالغزو الإسرائيلي لفلسطين، بطلان رواية سفر الخروج التي كانت مقبولة لفترة من الزمن؛ حيث إن "المواقع التي جاء وصفها بشكل ثابت في سفر الخروج وخاصة (أريحا) أنها - أي هذه المواقع - لم تكن موجودة عند وقوع الغزو كما يزعم سفر الخروج" (ص226). كما اتضح أيضاً أن مصطلحاً عبرياً كان يستخدم بشكل غير مقصود في تلك الفترة، وأن ما يسمى بالشعب الإسرائيلي هم في حقيقة الأمر مجموعة واحدة من بين مجموعات أخرى عاشت في المنطقة ومارست التجارة مع جيرانها.

وفي خضم الحديث عن الهجرات الجماعية، تناول المؤلف "تحديد تأريخ الأحداث" من منطلق أقوال المؤرخين المأثورة: "لا تأريخ بدون تعيين الوقائع التاريخية وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني". فمن المعروف، أن المجتمعات البدائية لا تهتم كثيراً بتحديد التواريخ، وإنما تؤرخ للأحداث بحسب الوقائع المشهورة، فعلى سبيل المثال، اعتاد المؤرخون المسلمون تحديد مولد النبي بعام الفيل، وإلى وقت قريب يستخدم بعض كبار السن في ليبيا (على سبيل المثال) مصطلحات مثل: عام "عجاج سي المهدي" أو "زلزال المرج" للإشارة إلى واقعة حدثت في تلك الأعوام، وهنا تواجه المؤرخ الشفهي صعوبة بالغة في تحديد التواريخ التي تقع في مجال دراسته.

وتأسيساً على ما سبق، ناقش المؤلف ثلاثة مصادر رئيسة لتحديد التواريخ الزمنية في المجتمعات البدائية وهي: "سلسلة الأنساب، علم الفلك، وعلم الآثار".

**أولاً: الأنساب:** لقد تعرضت سلسلة النسب للتشويه في عدد كبير من المجتمعات، خاصة في بلاد ما بين النهرين وفي شبه الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام، بالإضافة إلى عدة أنساب وردت في الكتاب المقدس، ويبدو أن الغرض من هذا التشويه يكمن في المبالغة في تمجيد الماضي، وقد كان "جفري مونموث" أحد هؤلاء المؤرخين الأخباريين الذين ظهروا في العصور الوسطى واخترعوا أعداداً كبيرة من الحكام الذين لم يكن لهم وجود حقيقي" (ص237). ومع هذا، لا يزال هناك من يلجأ من المؤرخين إلى استخدام شجرة النسب لتحديد الوقائع التاريخية عبر جمع أشجار النسب ثم استنباط شخصيات لكل جيل، وبالتالي يمكن تعيين تواريخ على وجه التقريب..

فعلى سبيل المثال "في التسعينات من القرن التاسع عشر قررت الجمعية البولندية أن مدة خمس وعشرين سنة رقم معقول لشخصيات في الأنساب التي جمعت في نطاق جزر المحيط الهادي، بينما في دراسة التاريخ الأفريقي المبكر استقر الرأي على استخدام مدة تتراوح من خمس وعشرين إلى ثلاثين سنة" (ص 232).

ثانيا: علم الفلك: لقد استعمل المؤرخون الظواهر الفلكية السماوية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر وما يرافقهما من أجل تحديد أوقات حدوث المواقع التاريخية بدقة (السنة، الشهر، اليوم، والساعة، وحتى الدقيقة، فعلى سبيل المثال استعمل الباحثون في تاريخ المسيحية القصص التي تشير إلى وقوف الشمس ساكنة في وسط سماء "أريحا" لكي يبرهنوا على وقائع وأحداث معينة مثل صلب المسيح، "وبطريقة مماثلة بذل المؤرخون الأفريقيون أخيرا عدة محاولات في سبيل استعمال أمثال هذه الظواهر الفلكية" (ص 244) لكن أغلبها باء بالفشل.

من الأفضل تجنب الاعتماد على الظواهر الفلكية في تحديد تواريخ الأحداث، لأن الذاكرة الجماعية للمجتمع قد تذكر كسوفاً شمسياً واحداً حدث في وقت ما وتنسى كسوفات أخرى حديثة العهد.

ثالثاً: علم الآثار والتراث الشفهي: من المعلوم أن الآثار تساعد في كتابة التاريخ، فهي التي تؤكد أو تنفي أية تواريخ، بل المخلفات الأثرية مثل العملات النقدية والأواني الفخارية يمكن أن تخبر المؤرخ أن الموقع قد وقع تحت الاحتلال الأجنبي في زمن ما. لكن، في أحيان كثيرة، البقايا الأثرية لا تقول شيئاً، خاصة فيما يتعلق بالأحداث الواردة في التراث الشفهي. وعلى العكس، يمكن تحديد مناطق أثرية مهمة من خلال التراث الشفهي، مثلما حدث في جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية. ذلك بأن الروايات الشفهية قد تربط بين المواقع وأسماء الشخصيات بعصور حديثة نسبياً، تختلف عن العصور التي حددها علماء الآثار، "وهذا يشير إلى القدرة على التذكر التي تجعل الذاكرة الجماعية الشعبية تحتفظ بعناصر موهلة في القدم حتى لو كانت هذه العناصر قد تشوهت أثناء عملية الانتقال الشفهي من جيل إلى آخر" (ص 247). ومن أجل ذلك، ينبغي للمؤرخ أن يراعي العلاقة بين القطع الأثرية وأشجار النسب في تحديد تاريخ الوقائع، لأنه غالباً، ما ينسى السكان المحليون أشياء حول مواقع محددة، مع أنهم نسجوا حولها حكايات تشير إلى وجود هذه المواقع.

## الفصل السادس "التاريخ الشفهي: شهادة حول الماضي القريب"

في الفصول السابقة تناول المؤلف بشكل واسع التاريخ الشفهي من خلال الروايات الشفهية التي تم انتقالها إلى عدة أجيال وأصبحت ملكية عامة. لكن في هذا الفصل يركز على الروايات الشفهية ذات العلاقة بالماضي القريب، ذلك أن معظم المؤرخين الشفهيين يعتقدون بأن دراسة الأحداث المتعلقة بالماضي القريب هي الأجدر بالاهتمام كونها أكثر ارتباطاً بالعصر الراهن، لذلك نجدهم يحاولون إجراء مقابلات شخصية مع من اشتركوا فعلاً في الأحداث التي يحاولون كتابة تاريخها. ويمارسون عمليات استجواب الناس حول تجاربهم الخاصة، ويسمى هذا النوع -عادة- السيرة الشخصية أو تاريخ الحياة. رغم أن هذين المصطلحين يستعملان أحدهما مكان الآخر. فمصطلح تاريخ الحياة هو مفهوم يستعمل في علم الانثروبولوجيا وفي الطب النفسي وفي التاريخ، حيث يُطلب من الراوي أن يستعرض بعض الأجزاء من حياته.

إن ما يلفت النظر بالدرجة الأولى هو درجة التركيز على تناول العلاقة الخاصة بين الراوي وشهادته وهي التي تثير أغلب القضايا المطروحة للنقاش في هذا الفصل. فمن الطبيعي أن يحتاج المؤرخ الشفهي إلى عدة نصائح أكثر مما هو بحاجة إلى معرفة الأحداث التي اشترك فيها الرواة. ومن هنا طرح المؤلف عدة تساؤلات جاءت على النحو التالي:

- كيف يكون التافه تافهاً جداً؟
- الذاكرة والقدرة على رؤية الأشياء.
- هل المشاهدة تعني التصديق؟
- هل المتقدمون في السن أفضل حقاً؟
- السرية: الثقة.
- قصص وروايات الرقيق سابقاً: حالة دراسة.

ربما من المهم إلقاء نظرة سريعة حول النقاط المذكورة أعلاه، حتى تكتمل فكرة المؤلف الذي حاول بطريقة أو بأخرى إرساء بعض المفاهيم المتعلقة بعلاقة المؤرخ ورواته، فهناك انتقادات متكررة توجه إلى التاريخ الشفهي بناء على عمل بعض المؤرخين الذين قاموا بإعادة جوانب من الماضي وقلبوا دور المؤرخ رأساً على عقب، فاهتموا بالعادات والأشياء القديمة وليس لديهم (بتعبير المؤلف) القدرة على التمييز بين العسل والبصل، كل ذلك من أجل، إبراز الماضي وصلته القوية

بالحاضر، وهنا تتحول أحداث التاريخ إلى تاريخ تافه. وللتغلب على هذه المعضلة، يستحسن للمؤرخ عدم السماح لرواياته بالاستغراق في الذكريات من خلال إنهاء المقابلة إذا اتضح أنها لا تؤدي إلى نتيجة، فمن أحد التحديات الرئيسية هو إقناع الرواة بأن يذهبوا إلى ما وراء القضايا الشخصية ذات الطبيعة الخصوصية عن طريق ربطها بالأحداث العامة، حتى يتم تزويد المؤرخ بوجهات نظر أكثر شمولية.

وبالنسبة للذاكرة، فإنها تكون في كثير من الأحيان مضللة؛ فالناس يختلفون في تذكر تجاربهم الشخصية بصورة واضحة، وفي هذا الصدد يقول المؤلف: "فالحقائق والأحداث يمكن تذكرها ولكن مواقفنا تجاه هذه الحقائق والأحداث وقت وقوعها قد تنسى أو تستبدل بوجهات نظر جديدة" (ص261).

نعم، من الصعب أن يتحكم الناس في عملية التذكر، وخير مثال على ذلك، رواية التراث الشعبي الذي يتم انتقاله من شخص لآخر ومن جيل إلى جيل، نجد فيه تناقضات وأحداثا مختلفة، وكذلك الأفراد، هناك من ينسب إلى نفسه دورا هاما في الأحداث أكثر مما تشير إليه المصادر الأخرى، وفي هذه الحال، ينبغي عقد مقارنة وتقييم المستويات المختلفة للشواهد التاريخية للتأكد من صحة الرواية.

وفيما يتعلق بتصديق شهود العيان، فمن المعروف أن المشاهدة المباشرة للوقائع، هي شهادة يمكن تصديقها والاعتماد عليها، لأن رؤية شيء ما يخلف انطباعا قويا في الذاكرة، لكن هل جميع الناس الذين شاهدوا واقعة ما، يستطيعون الحديث عنها بنفس الطريقة تماما؟

لقد ضرب المؤلف مثالا رائعا عن اختلاف المعلومات التي تأتي عن طريق المشاهدة المباشرة بقوله: "مثلا اثنان من مشاهدي لعبة كرة القدم سيتذكran فيما بعد أجزاء مختلفة من المباراة حسب اهتماماتهم الخاصة بالفرق اللاعبة أو اللاعبين، وحسب مستوى فهمهما لتعقيدات الألعاب أو ببساطة مدى قدرتهما على الملاحظة (...). فقد يتذكر أحد الأفراد صد هجوم بدلا من تسجيل هدف أو قد يعتبر أن خروج الكرة إلى موضع لا يجوز فيه رفسها أو مخالفة لقواعد اللعبة هي التي حددت نتيجة المباراة وهكذا..". (ص263).

ومن أجل مكاسب مادية ربما يدعي أحد الرواة لنفسه على نحو زائف مرتبة شاهد العيان، كما فعل "بارتولومي دي لاكساس" الذي ادعى أنه رأى أشياء غير موجودة من أجل تعزيز اتهاماته المتطرفة بخصوص الموت الجماعي للهنود الحمر إبان حكم الإسبان. وهنا يجدر بالمؤرخ الحصيف

أخذ الحيلة والحذر من هذه الادعاءات، بل يرفضها، ولو كان مقتنعا أن الراوي شهد فعلا جزءا مما حدث في واقعة ما، فإنه لا يستطيع أن يعتمد كثيرا على مثل هذه الشهادات. وكذلك شهادة المتقدمين في السن، لا يمكن الاعتماد عليها، لأن الإنسان بحسب الدراسات النفسية الحديثة كلما تقدم في العمر تضعف قدرته على التذكر تدريجيا. أضف إلى ذلك، هناك عدة متاعب تواجه المؤرخ مثل السرية، وهي قضية مهمة فيما يتعلق باستعمال التقاليد الشفهية لمجتمع ما، "ومن غير ريب أن مشكلة السرية لا تقتصر على ممارسة مهنة التاريخ الشفهي، فحتى في بعض دور الأرشيف يضى نوع من السرية على المعلومات الشخصية والمواد الأخرى التي قد تكون لها علاقة مباشرة بالأشخاص الأحياء وعائلاتهم". ومهما يكن من شيء، فمن الضروري عدم استعمال مثل هذه الشهادات والاستشهاد بها دون الإشارة إلى مصدرها بحجة السرية، فالأجدر في هذه الحال، أن يُمتنع عن استعمالها كليا، لأن معيار أساس نقد الروايات يقوم على البحث عما إذا كانت الواقعة المذكورة ممكنة، ووضعها من جديد داخل المجتمع الذي تنتهي إليه.

ويختتم الفصل السادس بالتطرق إلى قصص وروايات الرقيق سابقا: وهي حالة دراسة أراد الباحث من خلالها أن يوضح بعض القضايا المطروحة للنقاش في هذا الفصل، كون موضوع الرقيق في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية يعتبر مثالا مناسباً للدراسة، لأنه تتوفر فيه المادة الشفهية الأصلية..

ففي هذا المشروع الذي نفذ في الثلاثينات من القرن العشرين تم إجراء أكثر من 2000 مقابلة في سبع عشرة ولاية، وبالرغم من أن هذه المقابلات كشفت عن جوانب عديدة من تاريخ الرق في أمريكا إلا أن هناك عدة عيوب تنقص من قيمتها، ويمكن تلخيص هذه العيوب في النقاط التالية:

نسبة السود الذين اشتركوا في المقابلات يمثل 2% من عدد الرقيق.

نسبة عالية من هؤلاء الذين تم استجوابهم كانت تمثل خدم المنازل الذين لا يستطيعون أن يتحدثوا صراحة عن الأحوال المزرية في الحقول والمزارع.

إن نزعة المحاباة كانت كبيرة فيما يتعلق بالتوزيع الجغرافي، نصف المقابلات تقريبا قد أجرى في تكساس وأركانساس وكتاهما تدخلان ضمن الولايات التي يتواجد بها السود، بينما أجريت مقابلات قليلة في ولايات تركز فيها وجود الرقيق مثل ولاية ميسيسيبي.

صياغة عدد كبير من أسئلة تتطلب إجابة محددة مثل: هل كان سيدك شفوفا؟ هل كنت تتلقى غذاء جيدا؟ وبالنظر إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية بين السود والبيض أجب عدد من الرقيق على هذه الأسئلة بطريقة (نعم.. نعم...).

وهناك مسألة أخرى تطرح إلى جانب هذه العيوب، فقد أظهرت الدراسات المعاصرة وجود تلاعب في الروايات وشطبها وحذفها وتعديلا في الأسلوب واللغة بالرغم من ادعاءات منظمي المشروع بعدم وجود تحرير للمحتوي.

يفهم مما سبق، أن طرق وأساليب الباحثين الذين قاموا بدراسة الرقيق سابقا في أمريكا كانت ضعيفة ومنحازة للبيض، وقد ركزت بشكل مباشر على بعض جوانب الحياة العائلية كالطفولة أثناء الرق. وتتبع الأنساب، وطبيعة الذاكرة والمقابلة الشخصية من الناحية الاجتماعية والنفسية، وبالتالي، فإن هذه الروايات تعد قاصرة، ولا يمكن الاعتماد عليها كمصادر صحيحة لأحوال وظروف الرقيق، بالرغم من أن بعض شهادات الرواة كانت مفيدة بخصوص بعض المواقف.

### الفصل السابع "تيسير استعمال المصادر الأولية"

في الفصل الأخير يتناول المؤلف مسألة تيسير الوصول إلى المصادر الأولية للباحثين، وهو جانب مهم، وقد تم تجاهله بشكل عام منذ القرن السادس عشر الميلادي، الأمر الذي جعل عددا كبيرا من الباحثين يشكون في مصداقية الأحداث، وهذا الشيء يكفي لتأييد أية وجهة نظر بالمستقبل. وأفضل مثال على ذلك يكمن في نظرية "كوبرنيكوس" التي تقول بأن الشمس مصدر الكون، حيث ساد الاعتقاد قبل ظهور هذه النظرية بأن الشمس والكواكب السيارة تدور حول الأرض، وهي (حقيقة) يفترض أنها قد تأكدت بظهور المسيحية، لكن شيئا فشيئا، وبعد تطور العلم وأدوات الرصد تم اكتشاف أجسام سماوية جديدة ولم يعد ممكنا التسليم بفكرة مركزية الأرض. إن هذا المثال يوضح أن اختبار الأفكار والتحقق منها يتم من خلال الملاحظة والقياس والتدوين في سجلات دقيقة لكل مرحلة من مراحل التجربة، وبناء عليه، يستطيع العلماء الآخرون الاستفادة من هذه الملاحظات، ومن ثم يمكنهم إعادة التجربة الأصلية من أجل اختبار دقة وصحة المعلومات. وكذلك المؤرخ الشفهي يجب أن يظهر المصادر التي رجع إليها كي يتحقق من صحتها ويتم اختبارها في المستقبل، وفي هذا الصدد يشير المؤلف إلى أعمال أصبحت فيما بعد سببا في تدمير سمعة أصحابها العلمية، "ومثال ذلك العمل المنشور حول الرق في جنوب الولايات المتحدة

الأمريكية الذي أعده ونشره كل من روبرت و. فوجيل، وستانلي أنجرمان. وقدم هذان المؤلفان في عملهما المنشور (Time on The Cross) وجهة نظر حول الرق تختلف تماما عما كان مقبولا آنذاك، اعتمادا بشكل مكثف على الشواهد العددية والتقدير الاستقرائي (...). ونظرا لأن المؤلفين قد عرضا بشكل واسع وجهات نظر تعتمد على التقدير الاستقرائي الإحصائي والأدلة التي بنيت على أساس تلك الآراء. فإن النقاد استطاعوا الاستشهاد بعيوب واضحة في اختيار المؤلفين للمصادر في وسائلهما الإحصائية وفي افتراضاتهما الواسعة أيضا" (ص ص 281-282).

وفي إطار الحديث عن أهمية إتاحة الفرصة للتحقق من صحة المعلومات التاريخية، يعترف المؤلف إن المادة التاريخية الشفهية تثير مشاكل صعبة خاصة فيما يتعلق بقضية إثبات الآراء العلمية باستخدام وسوء استخدام وحفظ الأشرطة المسجلة في ميدان الدراسة العقلية. وهذا الأمر يعود بالأساس إلى تردد بعض المؤرخين الذين قاموا بجمع التراث الشفهي بخصوص وضع كل المادة التي جمعت في متناول الباحثين.

وكما هو معروف، يقسم المؤرخون مصادرهم إلى (أولية وثانوية) الأولية: تشمل النقوش والعقود والدساتير والقطع المعدنية. وقد سميت بذلك الاسم كونها أقرب إلى المصادر الأصلية الحقيقة. وتأسيسا على ذلك، فإن الرواة هم المصادر الأولية لأغلب المؤرخين المهتمين بالتاريخ الشفهي، وكذلك الأشرطة الأصلية التي سجلت بلغة المقابلة في أول لحظة، إلا أن أشرطة المقابلات المسجلة تعتبر لدى المؤلف من المصادر الثانوية لأنها غير قادرة على مساعدة الباحث في تقييم ما تحتوي عليه المادة الشفهية، وينبغي أن تبقى دائما في مرتبة أقل من مرتبة الأشرطة ذاتها. أما المصادر الثانوية فتتمثل في كل مادة تعتمد على عمل سابق في الموضوع ذاته.

ومن أجل توضيح طبيعة وأهمية إتاحة الفرصة للآخرين بالاطلاع على مصادر البحث واستعمالات المادة الشفهية، يشير المؤلف إلى تجربة المؤرخين المهتمين بدراسة التاريخ الأفريقي، فمن "خلال مراجعة اثني عشر عملا من الأعمال التي ظهرت حديثا حول دواخل شرق أفريقيا التي تعتمد بشكل مكثف على المصادر الشفهية يتضح أن ثلاثة فقط من مؤلفي هذه الأعمال التاريخية يبدو أنهم قاموا بحفظ وتسجيل المادة التاريخية الشفهية" (ص 289).

ومن هنا، يتأكد لدى المؤلف أن بنية التاريخ الأفريقي كله مشكوك فيها، وبالرغم من حجم هذه المشكلة، فقد تمت ملاحظة غياب التعليقات النقدية في عرض ومراجعات الكتابات التاريخية حول تاريخ أفريقيا، الأمر الذي يجعل استعمال المادة الشفهية لديهم لا يزال في مرحلة الطفولة.

وفي ختام الفصل الأخير يناقش المؤلف معضلة التحقق من صحة المصادر الشفهية، وينوه إلى ضرورة قبول الباحثين مسؤولية تيسير مصادرهم للباحثين الآخرين في أقرب وقت ممكن، وذلك بأن يعدوا نسخا من الأشرطة فور رجوعهم من بلد الدراسة الميدانية كي يتم حفظها في دور المحفوظات من أجل فهرسة المادة وتنظيمها ونشر ملخصات ومعلومات حولها بطريقة فورية واقتصادية.

وقد ظهرت بالفترة الأخيرة مشاريع رئيسة في حقل التاريخ الشفهي تنفذها عدة مكتبات أمريكية تهدف إلى جمع المادة الشفهية من أجل استعمالها في المستقبل، أما بالنسبة لمؤرخي الثقافات البدائية، فيتم استعمال المادة الشفهية بدون إيداعها في المؤسسات العامة للدولة. وللأسف، فإن غياب التوثيق سيساعد الذين ينزعون إلى الشك على إثارة الشكوك كونهم متأكدين أنه ليس بالإمكان الرد على شكوكهم بطريقة ملائمة.. وهذا الأمر بالذات، يرغم المؤرخين المهتمين بالتاريخ الشفهي إلى أن يكشفوا عن مصادرهم من أجل استعمالها بالمستقبل. وإذا حدث ذلك، سينظر إلى مرحلة الطفولة (كما يقول المؤلف) كمجرد حادث عرضي في سياق تطور التاريخ الشفهي.

#### على سبيل الختم:

تتجلى أهمية هذا العمل في كونه يطمح إلى تحديد تطور كتابة التاريخ من خلال الرواية الشفهية، والوقوف على المشاكل والعوائق التي تواجه المؤرخ الشفهي ليجيب عن جملة من التساؤلات والاستفسارات تتعلق بالمستوى المنهجي على وجه الخصوص، ويمكن اجمال التساؤلات التي طرحها المؤلف وناقشها بكتابه في ذلك السؤال الذي جاء بالخاتمة، ما هو التاريخ؟

يقوم المؤلف باستدعاء الجدل والنقاش الذي دار بين المؤرخين لأكثر من 150 سنة عن الأحداث التمهيدية السابقة لهزيمة "نابليون" في معركة "واترلو".. مؤكداً إن أحداث الماضي لا تتغير، لكن، يمكن تفسيرها وشرحها في عملية لن تتوقف. وبالتالي، فإن حركة التأويل المنفتح للوقائع التاريخية "تضمن أن عمل بعض المؤرخين سيعيش، إما لأنه أفضل من غيره أو أنه قد برهن على أنه أكثر فائدة فيما يتعلق بملاءمته لوجهات النظر الحديثة (...)" في حين أن عمل المؤرخين الآخرين سيسقط ولا يستعمله أحد لأسباب مختلفة. ومن المؤكد أن أجيال المستقبل ستقيم بعض أعمالنا بطريقة قاسية مماثلة لتلك التي حكمنا بها على بعض أعمال من سبقنا، فبينما نحن ننظر إلى الماضي، إذا يجب أن نتوقع ما سيحدث في المستقبل أيضاً" (ص301).



ومن هذا المنطلق، يلح المؤلف على ضرورة اختيار المادة التاريخية وجمعها بدقة متناهية، كما لو أن هناك نقادا يراقبون عملنا عن قرب، وفي هذه الحال، نشعر بأن مساهمة التأريخ الشفهي بالنسبة إلى مجموع المعرفة التاريخية ستكون مهمة وباقية في الآن ذاته. وفي الختام، فإن دراسة الماضي الشفهي لا بد وأن تتم وفقا لمنهجية دراسة أي ماض آخر.

وأخيرا، لا بد من إهداء الشكر إلى المترجم الذي قدم للمكتبة العربية كتابا مهما يناقش طرق ووسائل التأريخ الشفهي في بحوث الكتابة التاريخية. إلا أن ما ينتقص من تكامل هذا العمل هو تجنب المترجم إيضاح بعض المعلومات بالهامش، مثل عدم الاعتناء بالتعليق على أسماء الأعلام والبلدان في منطقة أفريقيا. وهذا بالطبع، لا يقلل من قيمة الكتاب أو المترجم الذي قدم للمكتبة العربية كتابا يعالج موضوع التأريخ الشفهي معالجة علمية في ظل النقص الكبير في المراجع العربية، وعدم اهتمام الباحثين العرب بقضايا ومنهجيات دراسة التأريخ الشفهي، وهذا ما يؤكد أنه أكثر من باحث.

## المحور الثاني:

# دراسات اجتماعية وقانونية

## من الخوارزميات إلى التأثيرات الاجتماعية:

### دراسة سوسيولوجية لتأثير الذكاء الاصطناعي على التواصل الاجتماعي

محمد زيانبي

باحث في علم الاجتماع

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
المغرب



#### ملخص:

تناول في هذه الورقة العلمية تأثير الذكاء الاصطناعي على وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيراته على الهوية والعلاقات الاجتماعية، ففي ظل التحولات الرقمية التي أصبحت الخوارزميات تلعب فيها دوراً محورياً في تخصيص المحتوى الخاص بكل الأفراد، مما يؤثر على تفاعلاتهم وهوياتهم الرقمية، كما نسلط الضوء على كيفية تشكيل الهوية الفردية من خلال البيانات وتحليل السلوك، والتلاعب بالرأي العام، عن طريق تعزيز المواقف القائمة من خلال تقديم محتوى يتماشى مع اهتمامات الأفراد، مما يؤدي إلى تآكل التنوع في الآراء وتشكيل فقاعات معلوماتية، الأمر الذي يتطلب وعياً أكبر وإجراءات لحماية الحقوق الفردية في هذا العصر الرقمي المتغير.

**كلمات مفتاحية:** الذكاء الاصطناعي - التواصل الاجتماعي - الهوية الرقمية - الخوارزميات.

#### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

زياني، محمد. (2024، أكتوبر). من الخوارزميات إلى التأثيرات الاجتماعية: دراسة سوسيولوجية لتأثير الذكاء الاصطناعي على التواصل الاجتماعي. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 136-150.

#### Abstract:

This paper examines the impact of artificial intelligence on social media and its effects on identity and social relationships. In the context of digital transformations, algorithms play a central role in content personalization, influencing individuals' interactions and their digital identities. We highlight how individual identity is shaped through data and behavior analysis, as well as the manipulation of public opinion by reinforcing existing positions through content that aligns with individual interests. This leads to an erosion of diversity in opinions and the creation of information bubbles, necessitating greater awareness and measures to protect individual rights in this rapidly changing digital age.

**Keywords :** Artificial Intelligence - Social Media - Digital Identity – Algorithms.

## مقدمة

في عصر التحولات الرقمية المتسارعة، أصبح الذكاء الاصطناعي أحد أبرز القوى التي تعيد تشكيل جوانب متعددة من حياتنا اليومية. من بين التطبيقات الأكثر بروزًا للذكاء الاصطناعي هو استخدامه في وسائل التواصل الاجتماعي، حيث أصبحت الخوارزميات الذكية تلعب دورًا محوريًا في كيفية تقديم المعلومات وتوجيه المحتوى. من خلال تحليل البيانات الضخمة وتخصيص التجارب الشخصية، تساهم هذه التقنيات في تشكيل كيفية تفاعل الأفراد مع المنصات الاجتماعية وكيفية تشكيل هويتهم الرقمية.

تكمُن أهمية دراسة تأثير الذكاء الاصطناعي في وسائل التواصل الاجتماعي في فهم كيفية تأثير هذه التكنولوجيا على مختلف جوانب حياة الأفراد والمجتمعات. فالتقنيات الذكية لا تقتصر فقط على تحسين تجربة المستخدم، بل تمتد آثارها لتشمل كيفية بناء العلاقات الاجتماعية، تشكيل الهوية الفردية، وتعزيز أو تقويض الخصوصية. علاوة على ذلك، تؤثر الخوارزميات التي توصي بالمحتوى على سلوكيات الأفراد وتوجهاتهم، مما يجعل من الضروري دراسة كيف يمكن أن تسهم في التلاعب بالرأي العام والتأثير على تفاعل الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية.

في هذا السياق، تسعى هذه الدراسة إلى تقديم تحليل سوسيولوجي شامل يسلط الضوء على تأثيرات الذكاء الاصطناعي على التواصل الاجتماعي، من خلال الكشف عن طرق تأثير هذه التقنيات على علاقات الأفراد وهويتهم، بالإضافة إلى بحث قضايا الخصوصية والأمان، والتلاعب بالرأي العام، وتغييرات السلوكيات الاجتماعية، وبناء الثقة والمصادقية. كما سنناقش التأثيرات الثقافية للذكاء الاصطناعي على المجتمع. التي من خلالها نهدف إلى تقديم رؤية متكاملة حول كيفية تأثير الذكاء الاصطناعي على ديناميات التواصل الاجتماعي وكيف يمكن التعامل مع هذه التأثيرات بطرق إيجابية ومستدامة. انطلاقًا من إشكالية عامة كالتالي:

كيف يؤثر الذكاء الاصطناعي على الهوية الاجتماعية والتفاعل بين الأفراد، وما المخاطر المتعلقة بتآكل التنوع في الآراء والتلاعب بالرأي العام؟

## تأثير الذكاء الاصطناعي على العلاقات الاجتماعية والهوية

في عالم اليوم الرقمي، يلعب الذكاء الاصطناعي دورًا متزايد الأهمية في تشكيل كيفية بناء هويتنا الشخصية وتفاعلاتنا الاجتماعية عبر منصات التواصل الاجتماعي، التي تدار بالعديد من الخوارزميات التي تعد كأدوات قوية في توجيه المحتوى وتخصيص التجارب، مما يؤثر بشكل مباشر

على كيفية تكوين هويتنا الرقمية وكيفية إقامة علاقاتنا الاجتماعية، حيث يعود الحديث عن الهوية الرقمية إلى ظهور الثورة الرابعة كما سُميها كالوس شواب (Schwab) Martin Klaus "التي أحدثت تغيراً جذرياً في علاقة الإنسان بالمعلومة، التواصل والمعرفة"<sup>1</sup>، حيث أصبحت المجتمعات تعيش تطوراً على مستوى التكنولوجيا الحديثة، مما أدى بسيطرة الرقمي على كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، باعتبار هذا الرقمي "يُعيد تحديد المعارف ويُغيّر أشكال ولوج المعلومة، والتصورات التقليدية للمعرفة. ويُعيد تشكيل هويتنا الشخصية بوساطة الأشكال الجديدة للحضور وللمرئية Visibilité"<sup>2</sup>.

يعد تشكيل هويتنا الشخصية والرقمية نتاجاً للخوارزميات التي تساهم في تشكيل هويتنا الرقمية من خلال تحليل وتتبع سلوكنا وتفضيلاتنا وأنشطتنا وتفاعلاتنا على الإنترنت، حيث تقوم هذه الخوارزميات بإنشاء ملفات شخصية مفصلة تساهم في تخصيص المحتوى المقدم لنا. على سبيل المثال، عندما نتفاعل مع محتوى معين بشكل متكرر، فإن الخوارزميات تعزز ظهور هذا النوع من المحتوى في خلاصتنا، مما يؤثر على كيف ننظر لأنفسنا وكيف نرى العالم من حولنا. هذا التخصيص قد يعزز شعورنا بالانتماء لمجموعات معينة، لكنه في الوقت ذاته قد يؤدي إلى إضعاف التواصل مع أفكار وتجارب أخرى قد تكون خارج دائرة اهتماماتنا المفضلة.

نجد الحديث عن هوية رقمية تخص مجموعة من الأفراد دون غيرهم، تأكيداً على وجود هويات أخرى يتمتع بها هؤلاء داخل المجتمع، حيث نجد الباحثين للموضوع الهوية الرقمية يصنفون هويتين اجتماعيتين: الهوية الحقيقية لفرد (الفئة) (والسمات التي نستطيع إثبات اتصافه بها - والهوية الافتراضية - (صفة) تتعاضد قوتها أكثر تنسب إلى الفرد بعد دوام، كمثال وصمة"<sup>3</sup>، الأمر الذي يوضح بأن الهوية الافتراضية قد تكون لها قوة تأثير أكبر، خصوصاً عندما تكون ثابتة أو مستمرة عبر الزمن، مثل وصمة عار أو صفة سلبية قد تُلصق بالشخص وتبقى تؤثر على تصوره الاجتماعي، مما يؤدي إلى تبايناً بين كيفية ظهور الفرد في الواقع وكيفية ظهوره في السياقات الافتراضية، وأن هذه الهوية الافتراضية يمكن أن تؤثر بشكل كبير على كيفية تقييم الناس له أحياناً أكثر من تأثير الهوية الحقيقية، التي تتمثل في الهوية المدنية التي تعد الأكثر قرباً من الهوية الحقيقية، التي توثق بطاقة الهوية معلومات كالجنس، تاريخ الميلاد، وإذاً عناصر الحالة

<sup>1</sup> Francis Justand & Carine Dartiguepeyrou, La métamorphose numérique vers une société de la connaissance et de la coopération (Paris : Alternatives, 2013), p. 23.

<sup>2</sup> Rémy Rieffel, Révolution numérique, révolution culturelle ? (Paris : Gallimard, 2014), p. 31

<sup>3</sup> Goffman E., Stigmate. Les usages sociaux des handicaps, Éditions de Minuit, Paris, 1975, p. 12.

التي يتم تعيينها دائماً. إلى جانب هذه السمات الأكثر وضوحاً، تضيف قاعدة لقاءات على النت مثل (Meetic)\* المهنة، الحالة الزوجية<sup>1</sup>، ومن المفارقة أن هذه الهوية التصريحية تعمل كستار للتواجد في الافتراضي لتحقيق اللقاء في الواقع<sup>2</sup>. ومع ذلك، لا تقلل التقنية الرقمية من التجانس، بسبب عملية اختيار تتم على "ثلاث خطوات خاصة بالانتقال من الهوية الافتراضية إلى الهوية الحقيقية: تقويم بيانات للمستعملين والتبادل الكتابي واللقاء وجهاً لوجه"<sup>3</sup>.

نجد هذا التحديد للهويات يثبت أن الأفراد يمتلكون نوعين من الهويات في سياقات اجتماعية مختلفة: الهوية الحقيقية والهوية الافتراضية، حيث تتمثل الهوية الحقيقية: كما أشرنا سابقاً في كل ما يعبر عن الشخص كما هو في الواقع، والتي تشمل الفئات الاجتماعية التي ينتمي إليها والسمات التي يمكن إثباتها فعلياً. على سبيل المثال، قد تكون الهوية الحقيقية لشخص ما تشمل كونه طالباً في جامعة معينة، أو موظفاً في مهنة محددة، أو عضواً في مجموعة اجتماعية معينة، أما الهوية الافتراضية: هي التي يظهرها الفرد في سياقات غير واقعية أو افتراضية، مثل الإنترنت أو وسائل التواصل الاجتماعي. هذه الهوية يمكن أن تكون مبنية على تصورات أو انطباعات قد لا تعكس تماماً الهوية الحقيقية للفرد في كثير من الأحيان، حيث يمكن أن تكون هذه الهوية الافتراضية مُضخمة أو مُبالغ فيها، مثل الأشخاص الذين يعرضون أنفسهم بشكل مثير على وسائل التواصل الاجتماعي ليبدو أنهم يعيشون حياة مثالية، الأمر الذي يقودنا إلى إشكالات أخرى تتمثل في التأثير على بناء العلاقات الاجتماعية عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

### العلاقات الاجتماعية عبر المنصات الرقمية

لم يقتصر تأثير الذكاء الاصطناعي على ما هو علمي بحثي فقط، بل امتد إلى تحديد نوعية العلاقات الاجتماعية التي تعرف على أنها نتيجة التفاعل الاجتماعي عن طريق التأثير والتأثر أو الأخذ والعطاء بين شخصين يشغلان موقعين اجتماعيين داخل الجماعة أو التنظيم أو المؤسسة

\* Meetic هو واحد من أكثر تطبيقات المواعدة شعبية وسهرة في أوروبا. تهدف هذه المنصة إلى مساعدة الأفراد العازبين في العثور على شريك وتأسيس علاقات دائمة، بغض النظر عن المسافة. وتقدم Meetic مجموعة واسعة من المزايا المصممة لتسهيل التفاعل بين المستخدمين، من إنشاء الملف الشخصي إلى اقتراحات المطابقة القائمة على التوافق، حيث بدأت نشاطها في السوق في عام 2001، كونه أحد أكثر المخضرمين في هذا المجال.

<sup>1</sup> Georges F., Représentation de soi et identité numérique. Une approche sémiotique et quantitative de l'emprise culturelle du web 2.0. Réseaux, La Découverte, Paris, 2009, pp.165-193.

<sup>2</sup> Cardon D., Le design de la visibilité, essai de cartographie du web 2.0, Réseaux, 2008, Vol.6, n° 152, p. 93- 137.

<sup>3</sup> Bergström M., "(Se) correspondre en ligne. L'homogamie à l'épreuve des sites de rencontres", Sociétés contemporaines, 2016, n°104, p.13-40.

الاجتماعية"<sup>1</sup>. فهي نتيجة التفاعل المستمر بين شخصين يشغلان أدوارًا اجتماعية مختلفة داخل جماعة أو مؤسسة، حيث يؤثر كل منهما على الآخر ويستفيد منه، وفي تعريف آخر حسب إبراهيم عثمان "يعتبرها بأنها صورة من صور التفاعل الاجتماعي بين طرفين أو أكثر، بحيث تكون لدى كل طرف صورة عن الآخر والتي تؤثر سلباً أو إيجاباً على حكم كل منهما للآخر، ومن صور هذه العلاقات الصداقة والروابط الأسرية والقربة وزمالة العمل والمعارف والأصدقاء"<sup>2</sup>. لكن نجد هذه العلاقات والصداقات أصبحت مقيدة بفعل الخوارزميات التي تقدم التوصيات التلقائية والمقترحات المتعلقة بالأصدقاء أو المجموعات التي قد نهتم بها، حيث أنها لا تخرج عن نطاق اهتماماتنا وتفكيرنا، كأن علاقاتنا لا يمكن أن تتخطى نطاق ومجال عملنا ودائرة تفكيرنا، على سبيل المثال، قد تقترح خوارزميات الشبكات الاجتماعية إضافة أشخاص ذوي اهتمامات مشابهة لنا، على سبيل المثال، في فيسبوك، تعمل الخوارزميات على تحديد ما نراه في خلاصتنا بناءً على تفاعلنا مع المحتوى السابق، مما يؤدي إلى خلق "فقاعات ترشيح" حيث نواجه معلومات تؤكد آرائنا الحالية وتفضيلاتنا. وكذا تعزيز الصور والمحتويات التي تتماشى مع هويتنا الرقمية، مما يعزز مشاعر الانتماء لمجتمعات معينة ولكنه قد يحد من تعرضنا لمجالات جديدة.

بالمجمل، يعكس تأثير الذكاء الاصطناعي القدرة على التأثير في العلاقات الاجتماعية والهوية، الأمر الذي يؤدي إلى تحولات عميقة في كيفية تفاعل الأفراد وبناء هويتهم في العصر الرقمي، حيث تمنح لهم مواقع التواصل القدرة على تغيير الهوية، مما يجعل الأفراد غير صادقين في هوياتهم ولا في علاقاتهم لأن إحساس الفرد بالقدرة على تغييب هويته التي لازمته كظله عند وجوده في العالم الفيزيائي عندما يتنقل بين مواقع شتى على الإنترنت، ستشعره بمزيد من الإحساس بالأمان، والقدرة على ممارسة أفعال لا يريد أن يعلم الغير أنه متلبس بممارستها، وتوفر هذه الخاصية تربة خصبة لحصول كثير من الانحرافات السلوكية بعيداً عن أنظار الغير"<sup>3</sup>. لكن لا يمكن حصر التأثير الخاص للعلاقات الافتراضية في ما هو سلبي فقط، بل نجد الشبكات الاجتماعية ساهمت في تبادل الثقافات والأفكار والتجارب، مما جعلها فضاء للثقافة الموازية ذات البعد الكوني، حيث نجحت التطبيقات التفاعلية للإنترنت لاسيما مواقع الشبكات الاجتماعية في تحويل العالم إلى قرية كونية، مشكلة بذلك فضاء للثقافة الموازية<sup>4</sup>، التي بفضلها وفضل الاتصال الدائم بالغير

<sup>1</sup> خليل معن، البناء الاجتماعي نسقه ونظمه، الطبعة الثالثة، الشروق الأردن، 1999، ص، 71.

<sup>2</sup> إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، 2016، ص، 156.

<sup>3</sup> حسن مظفر الروز، الفضاء المعلوماتي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 2001، ص، 294.

<sup>4</sup> عامر بوعزة زمن الفاييسوك، البوابة العربية لعلوم الإعلام والاتصال، منشور على الموقع [www.arabmediastudies.net](http://www.arabmediastudies.net).

يصبح الأشخاص مرتبطين بأبعاد ثقافية ذات دلالات متعددة وبيئات مختلفة، الامر الذي يوضح بشكل جلي دور الاتصال والتواصل في التأثير المباشر على الثقافة، فإن التكافل والتفاعل بين الثقافة والاتصال قد غدا في عصرنا الراهن أكثر وضوحاً من أي وقت مضى<sup>1</sup>، وفي هذا الإطار يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي: بيد أن جميع العلاقات السائدة بين الناس تعد علاقات ثقافية إنها خاضعة لأصول ثقافة معينة، كما أنها مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية....<sup>2</sup>

في ظل هذا التأثير والتأثر الذي يساهم فيه الذكاء الاصطناعي من خلال الشبكات الاجتماعية التي ينشئها الافراد، وتكون في بعض الأحيان بمثابة صندوق خاص بمعلوماتهم الشخصية وبرامجهم وصورهم وكل ما يتعلق بشخصيتهم، الامر الذي يجعل من قضية الخصوصية والأمان كعقبة أساسية تواجه مجالات عدة في حياة الأشخاص التي يمكن لهذه الشبكات ان تساهم في تطوير خدماتها وفعاليتها، الامر الذي يستدعي تساؤلات حول كيفية إدارة وحماية البيانات الشخصية في عصر الذكاء الاصطناعي.

### الخصوصية والأمان في عصر الذكاء الاصطناعي

مع تقدم الذكاء الاصطناعي وانتشاره في وسائل التواصل الاجتماعي، تظهر قضايا الخصوصية والأمان كأحد أبرز التحديات التي تواجه الأفراد والمجتمعات، ولعل ما يميز الذكاء الاصطناعي عن غيره من التطبيقات الذكية قدرته الهائلة على محاكاة العقل البشري والتعلم الذاتي بواسطة خوارزميات محددة تمكنه من تحسين أدائه لاتخاذ القرارات باستقلالية دون أي تدخل بشري<sup>3</sup>، بينما تسهم هذه الخوارزميات في تخصيص المحتوى وتحسين التجارب الرقمية، فإنها تستدعي أيضاً تساؤلات حول كيفية إدارة وحماية البيانات الشخصية، التي تُعتبر من القضايا المحورية التي تثيرها التقنيات الذكية، حيث تُعتبر الخصوصية من الحقوق الأساسية التي لا غنى عنها للإنسان، وقد حظيت بزيادة ملحوظة في الاهتمام خلال السنوات الأخيرة من قبل مؤسسات مثل الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس حقوق الإنسان. تاريخياً، كانت حماية هذا الحق قائمة حتى قبل ظهور الإنترنت والتقنيات الحديثة، حيث وُضعت أسسها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948، وبعدها تم تضمين الحق في الخصوصية في العهد الدولي للحقوق

<sup>1</sup> إبراهيم بعزیز، وسائل الاتصال الجديدة وأثرها على ثقافة المستعملين، مرجع سبق ذكره، ص 184.

<sup>2</sup> مالك بن نبي. ميلاد شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين الجزائر: دار الفكر، 1986. ص 22

<sup>3</sup> توجهات السياسات بشأن الذكاء الاصطناعي للأطفال، الإصدار 2 نوفمبر 2021، مقال منشور على الموقع



المدنية والسياسية عام 1966 بموجب المادة 17. ومع تقدم التكنولوجيا، أصبح مفهوم الخصوصية المعلوماتية، أو حماية البيانات الشخصية الرقمية، محورًا جديدًا للحق في الخصوصية، مما زاد من الحاجة لحمايته، حيث تؤكد العديد من الاتفاقيات الدولية والإقليمية على أن لكل فرد الحق في حماية حياته الخاصة بجوانبها المختلفة، وأنه لا يُسمح لأي جهة بالاعتداء على خصوصياته أو معلوماته الشخصية إلا في إطار القوانين المعمول بها.

في عالم يعتمد بشكل كبير على البيانات، تتيح الخوارزميات جمع كميات هائلة من المعلومات الشخصية حول الأفراد، بما في ذلك تفضيلاتهم وسلوكياتهم وتفاعلاتهم على الإنترنت. هذه البيانات تستخدم لتخصيص المحتوى وتحسين تجربة المستخدم، لكنها قد تعرض الأفراد لمخاطر تتعلق بالخصوصية، التي لا تقتصر على خاصية واحدة فقط، بل يمكن تقسمها حسب عبد الله قايد إلى عدة خصوصيات كالتالي:

خصوصية المعلومات والتي تتضمن القواعد التي تحكم جميع إدارات البيانات الخاصة كمعلومات بطاقات الهوية والمعلومات المالية.

الخصوصية الجسدية أو المادية والتي تتعلق بالحماية الجسدية للأفراد ضد أية إجراءات ماسة بالنواحي المادية كفحص المخدرات.

خصوصية الاتصالات والتي تغطي سرية وخصوصية المراسلات الهاتفية والبريد الإلكتروني وغيرها من الاتصالات.

الخصوصية الإقليمية والتي تتعلق بالقواعد المنظمة للدخول إلى المنازل وبيئة العمل أو الأماكن العامة والتي تتضمن التفتيش والرقابة الإلكترونية<sup>1</sup>.

لقد أضى الذكاء الاصطناعي وما يتوفر عليه من إشكاليات خاصة بالأمان الذي يسائل الخصوصية المتعلقة بالأشخاص محط تساؤل عام حول كيفية التعامل مع قضايا الخصوصية والأمان في ظل ما يشهده العالم من حروب سرانية بفضل التمكن من اختراق كل ما هو خاص، ولمواجهة هذه القضايا، أصبحت هناك حاجة ملحة لتطوير سياسات وإجراءات حماية قوية، تخضع الشركات إلى العمل بشفافية أكبر حول طرق وكيفية جمع البيانات واستخدامها، وكذلك تعزيز قدرات الأفراد على التحكم في معلوماتهم الشخصية. ينبغي أيضًا على الأفراد أن يكونوا على

<sup>1</sup> أسامة عبد الله قايد، الحماية الجنائية للحياة الخاصة وبنوك المعلومات "دراسة مقارنة"، الطبعة 3، دار النهضة العربية، القاهرة، 2004، ص35.

دراية بالطرق التي يمكنهم بها حماية خصوصيتهم، مثل استخدام أدوات الأمان عبر الإنترنت وفهم إعدادات الخصوصية في المنصات التي يستخدمونها، الأمر الذي يجعل يعطي المشروعات في دراسة قضايا الخصوصية والأمان في بناء العلاقات الاجتماعية والهوية من خلال الدكاء الاصطناعي.

هذا الربط بين تشكيل الهوية والخصوصية يبرز كيف يمكن أن يؤثر استخدام الذكاء الاصطناعي على تصور الأفراد لأمان معلوماتهم الشخصية وكيفية إدراكهم لخصوصيتهم في الفضاء الرقمي، الأمر الذي يجعل من تبني استراتيجيات متكاملة تعزز الشفافية وتضمن حماية البيانات الشخصية، وكذا الفهم المتعمق لكيفية تأثير هذه التقنيات على الأفراد والمجتمعات، شرطاً أساسياً لمشاركة خصوصياتنا عبر هذه المنصات الإلكترونية، التي تضمن للفرد الحق بالتحكم في تدفق بياناته ومعلوماته سواء كانت خاصة لا أحد يعلم بها، أو تلك المعلومات التي يتم مشاركتها مع مجموعة من الأفراد بشكل سري. وهي بحسب القانون الأوروبي للخصوصية وحماية البيانات (GDPR) "كل المعلومات مرتبطة بشخص طبيعي محدد أو قابل لتحديد، والتي يمكن من خلالها التعرف عليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مثل: العنوان، الصور، المعتقدات الدينية، وغيرها من البيانات المتعلقة بهوية شخص معين"<sup>1</sup>، حيث بدلت مجهودات عدة سواء على مستوى المنظمات أو الدول في سبيل وضع قوانين تساهم في الحماية، على سبيل المثال لا الحصر أقرت منظمة التعاون جملة من القواعد الإرشادية لحماية الحق في الخصوصية وذلك في شتبر عام 1980، وهي ما عرفت باسم: "القواعد الإرشادية لحماية الحق في الخصوصية والتدفق الحر للبيانات"، وتهدف لحماية حق الخصوصية وتحقيق التوازن بين خصوصية الأفراد والتدفق الحر للبيانات<sup>2</sup>، الأمر الذي كان له الدور الهام في خروج اتفاقية الاتحاد الأوروبي لحيز الوجود التي عرفت بـ "الاتفاقية رقم (108) والتي صدرت في أوروبا عام 1981، والتي ترمي لنفس أهداف المنظمة، وتعنى هذه الاتفاقية بحماية الأشخاص الطبيعيين في مواجهة مخاطر المعالجة الآلية للبيانات الشخصية، وهي أول اتفاقية تحمل الطابع الإلزامي على عكس القواعد الإرشادية لمنظمة التعاون الاقتصادي"<sup>3</sup>، حيث لم يتوقف الأمر عند هذا الأمر بل اصدرت توصيات من طرف المجلس

<sup>1</sup> عمر أبو عرقوب، "دراسة استكشافية: واقع الخصوصية وحماية البيانات الرقمية في فلسطين"، حملة المركز العربي لتطوير الإعلام الاجتماعي، غشت 2021، ص 9.

<sup>2</sup> رشيدة بوكور، "تحديات العصر الرقمي في مواجهة خطط حماية الحق في الخصوصية"، مجلة حقوق الإنسان والحريات العامة، المجلد 4، العدد، سنة 2022، ص 78.

<sup>3</sup> خدوجة الذهبي، "حق الخصوصية في مواجهة الاعتداءات الإلكترونية -دراسة مقارنة"، مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، المجلد 1، العدد، ديسمبر 2017، ص 150.

الأوروبي تشمل عدة توصيات في هذا الشأن منها: "التوصية رقم (R 80/13) لسنة 1980 بشأن تبادل المعلومات القانونية، والتوصية رقم (R 81/1) لسنة 1981 وتتضمن تنظيم البيانات الطبية المعالجة في بنوك المعلومات؛ إضافة للتوصية رقم (R 83/10) بشأن حماية البيانات الشخصية المرتبطة بالبحوث العلمية"<sup>1</sup>.

إن استخدام الافراد لمواقع الذكاء الاصطناعي لا يقتصر ولا يتقيد في مسألة الأمان والخصوصية بل نجد هذه المواقع في كثير من الأحيان تمارس الوهم وتلاعب بالرأي العام لدى الافراد، مما يجعلها كوسيلة ناجعة في تشكيل الرأي العام لدى المجتمع، ومنه نجد المشروعية لتساؤل حول الاليات التي يستخدمها في التأثير بالرأي العام لدى افراد المجتمع.

### الذكاء الاصطناعي والتلاعب بالرأي العام

مع الانتشار الواسع للذكاء الاصطناعي في وسائل التواصل الاجتماعي، يظهر دور حاسم لهذه التكنولوجيا في تشكيل الرأي العام والتأثير على المشاركة السياسية، عن طريق الخوارزميات والتقنيات الذكية التي لا تقتصر على تحسين تجربة المستخدم فحسب، بل أصبحت أيضاً أدوات فعالة في توجيه المعلومات وتشكيل المواقف السياسية، حيث يمكن للذكاء الاصطناعي أن يؤثر بشكل عميق على الرأي العام من خلال مجموعة متنوعة من الطرق. من أبرز هذه الطرق هي استخدام خوارزميات التوصية والتصفية التي تتحكم في نوعية المعلومات التي يتلقاها الأفراد. هذه الخوارزميات تقوم بتحليل البيانات الشخصية والأنشطة السابقة لتقديم محتوى يتماشى مع اهتمامات المستخدمين، مما يؤدي إلى تعزيز المواقف والآراء القائمة بدلاً من تقديم وجهات نظر متنوعة.

مثلاً، عندما تعرض الخوارزميات محتوى سياسياً موجهاً يستند إلى تفضيلات المستخدمين السابقة، فإنها قد تعزز المواقف السياسية القائمة بدلاً من عرض مجموعة متنوعة من الآراء، هذا الامر يمكن أن يؤدي إلى تعزيز الفقاعات المعلوماتية، حيث ينغمس الأفراد في معلومات تؤكد معتقداتهم السابقة فقط، مما يحد من تعريضهم لوجهات نظر أخرى، والتلاعب بأفكارهم الذهنية وتوجهاتهم، حيث يعد التلاعب الذهني بفرد أو جماعة أفراد هو محاولة أخذ التحكم والسلطة للنفس والسلوك، عن طريق تقنيات للإقناع والاقتراح الذهني، حي تقوم "بالتركز على بعض النقاط في الأنفس للتمكن من لفت وشغل انتباه النقد الذاتي للفرد، أي قدراته للحكم على

<sup>1</sup> محمد أمين الشوابكة، جرائم الحاسوب والإنترنت - الجريمة المعلوماتية، الطبعة 8، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 2007، ص، 74

المعلومات أو لرفضها بالنسبة لأخرين يختلف التلاعب عن الهيمنة فيما يخص الحصول على تصرف تلقائي للفرد أو للجماعة ولكن دون أن يكون واعيا بالأصل الخارجي للإيحاء<sup>1</sup> "Suggestion، مما يجعل من آلية التلاعب بالفكر لدى الافراد بعملية مركبة تتم عبر آليات وموضوعات محددة يمكن حصرها كلاتي:

"الانفعالات (مثال: الخوف، العاطفة، الأمل).

التكرار، الضغط الفيزيائي، نفسيا وذهنيا، فردي أو للجماعة.

استغلال الميل الإدراكي، باستعمال معلومات خاطئة، بالتبسيطات الدلالية والصوفية.

مبادئ "المكافئة" و "العقاب" من قبل السيد<sup>2</sup>.

لقد شهد مجال التكنولوجيا تطورات متسارعة بفضل الثورة الصناعية الصامتة كما أطلق عليها انجل هارت، وما أفرزته من تقنيات في مجال الذكاء الاصطناعي، وتحديدًا تلك المتعلقة بالمجال السبيرياني ومختلف منصات التواصل الاجتماعي التي باتت اليوم "تشكل جبهة للتعويض والدعاية وتوجيه الرأي العام بكل أريحية، خاصة في ظل تطور تقنيات معالجة المعلومات التي باتت تشكل تهديد صريح قد يكون له نتائج سلبية<sup>3</sup>، ومن بينها ما يعرف بـ "التزييف العميق" (deepfake) الذي يدخل ضمن تكنولوجيا معالجة مقاطع الفيديو عبر مؤثرات فنية وصوتية عالية الدقة، وتعد هذه التقنية واحدة من بين العديد من التطورات التي شهدتها مجال الذكاء الاصطناعي في توليد المحتوى الإعلامي المركب فهذه المجموعة من الأدوات والأساليب تتيح الفرصة لخلق أحداث واقعية غير حقيقية لأشخاص يقولون أو يفعلون أشياء لم يفعلوها، إضافة إلى خلق صور لأشخاص أو أشياء وهمية، أو حتى لأحداث لم تقع حقيقة<sup>4</sup>. كما تعرف تكنولوجيا التزييف العميق "بأنها مقاطع فيديو يتم إنشاؤها عبر الكمبيوتر باستخدام الذكاء الاصطناعي، ويتم هذا عبر خوارزميات تعيد تشكيل ملامح الأشخاص وتحريك وجوههم وأطراف الجسد، ويتم

<sup>1</sup> François-Bernard Huyghe, Comprendre le pouvoir stratégique des médias, Eyrolles, 1ère édition, septembre 2005, p 20

<sup>2</sup> Kernberg, O. Severe Personality Disorders : Psychotherapeutic Strategies (Edition. New). Yale University Press (1993). p 15-18

<sup>3</sup> د. ديبج يوسف. استخدام تقنية التزييف العميق وآلية غرف الصدى في التلاعب بالرأي العام الرقمي عبر الشبكات الاجتماعية. مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، العدد 07 نوفمبر 2023، ص 275

<sup>4</sup> سيلفرمان، كريغ؛ ترجمة زيدان محمد (2020). دليل التحقق من عمليات التضليل والتلاعب الإعلامي. 1. الدوحة معهد الجزيرة للإعلام

إعادة دمجها مع مقاطع مسجلة مسبقاً لأفراد آخرين حقيقيين"<sup>1</sup>، حيث أن هذا التلاعب أو التزييف أصبح يشمل كل المجالات، مثلاً يتم استخدام الذكاء الاصطناعي للتأثير على النتائج السياسية، من أبرز هذه الأمثلة نورد استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في تحليل البيانات الانتخابية وتخصيص الرسائل السياسية في الرئاسة الأمريكية لعام 2016، حيث تم استخدام الذكاء الاصطناعي لتحليل بيانات الناخبين وتصميم رسائل دعائية مخصصة تستهدف الشرائح الانتخابية المختلفة بشكل دقيق، وتحديد اهتمامات وتوجهات الناخبين من خلال تحليل بيانات وسائل التواصل الاجتماعي. بناءً على هذه التحليلات، تم تخصيص إعلانات سياسية تؤثر على مشاعر ومواقف الناخبين. كما تم استخدام خوارزميات الذكاء الاصطناعي لتحديد الأوقات الأمثل لنشر الرسائل السياسية وتعزيز التأثير على الجمهور.

يتحدد تأثير الذكاء الاصطناعي على الرأي العام بشكل وثيق بالمواضيع المتعلقة بالهوية، الخصوصية، والأمان. بينما تسهم الخوارزميات في تشكيل الهوية الرقمية وبناء علاقات اجتماعية، فإنها أيضاً تلعب دوراً حاسماً في التأثير على الآراء السياسية والمشاركة العامة. حيث يمكن وصف المعلومات التي تعرضها الخوارزميات كأداة لتعزيز المواقف السياسية الحالية وتؤثر على كيفية تشكل الرأي العام، مما يجعل هذا التأثير يشمل جميع الأبعاد السياسية والاجتماعية، هذه الأخيرة تشكل جزءاً أساسياً من كيفية تفاعل الأفراد والمجتمعات عبر منصات التواصل الاجتماعي، عن طريق تحديد هذه التقنيات لكيفية تفاعل الأفراد مع هذه المعلومات وتعديل سلوكياتهم بناءً على التوصيات التي تقدمها، مما يؤدي إلى تقديم محتوى مصمم خصيصاً لتعزيز التفاعل مع هذا المحتوى. على سبيل المثال، عندما يُعرض على المستخدم محتوى يتوافق مع اهتماماته، فإن ذلك يزيد من احتمال تفاعله مع هذا المحتوى، مما يخلق دائرة من التفاعل المستمر التي تعزز سلوكيات معينة، مثل المساهمة بمزيد من التعليقات أو نشر محتوى مشابه، مما يعزز من مشاركة الأفراد في مواضيع معينة بينما يقلل من تعرضهم لمجالات جديدة.

لقد ساهمت التوصيات التي تقدمها خوارزميات الذكاء الاصطناعي إلى تغييرات ملحوظة في كيفية تواصل الأفراد مع بعضهم البعض، وتعزز من التفاعلات بين الأفراد الذين يشتركون في اهتمامات مماثلة، مما يؤدي بخلق مجتمعات افتراضية أكثر تجانساً خاصة على مستوى المنصات الاجتماعية، نجد مثلاً في منصات مثل تويتر وفيسبوك، حيث تكون الخوارزميات مصممة لزيادة

<sup>1</sup> ويكفيلد، جاين. (2021) التزييف العميق موقع "ماي" هر يتج " يقدم تقنية مثيرة للجدل لتحريك صور الموتى. نشر بتاريخ 28/05/2021.

تم الاسترجاع بتاريخ 26/05/2021 على الرابط <https://bbc.in/3vtwTZo>

التفاعل من خلال تعزيز المحتوى الذي يحفز التفاعل العاطفي، يمكن أن تؤدي هذه التقنيات إلى انتشار محتوى مثير للجدل أو استقطابي، مما يؤثر على طبيعة النقاشات العامة وعن التغيرات الكبيرة في كيفية تفاعل الأفراد والمجتمعات عبر المنصات الرقمية، مما يبرز الحاجة لفهم أعمق لتأثيرات هذه التقنيات لضمان استخدامها بطرق تدعم التنوع والتفاعل الإيجابي داخل المجتمع الواحد.

إن الحديث عن تأثيرات الذكاء الاصطناعي لا يقتصر في طرق التفاعل الاجتماعي بين الأفراد ومسألة الخصوصية والأمان بل يتخطى ذلك إلى تشكيل الثقافة الخاصة بالمجتمعات، حيث نجد التكنولوجيا أصبحت تلعب دوراً متزايد الأهمية في تشكيل الاتجاهات الثقافية وتغيير كيفية إنتاج وتوزيع المحتوى الثقافي والمشاركة الاجتماعية، عن طريق تحليل البيانات الضخمة وتقديم توصيات مخصصة بفضل الخوارزميات التي تقوم بتحديد ما يعرض للمستخدمين بناءً على تفاعلاتهم السابقة واهتماماتهم، مما يؤدي إلى تعزيز محتوى معين وتهميش آخر. هذه الديناميات تؤثر على كيفية تكوين الاتجاهات الثقافية، حيث يمكن أن تسهم الخوارزميات في تعزيز ثقافات معينة بينما تحد من ظهور ثقافات أخرى.

على سبيل المثال، في منصات مثل تيك توك وإنستغرام، تُستخدم الخوارزميات لتحديد المحتوى الشائع وترويج ما يجذب أكبر قدر من التفاعل. هذا يمكن أن يؤدي إلى ظهور "موضات" ثقافية بسرعة، حيث يتم تسليط الضوء على محتويات تتناسب مع الأذواق السائدة أو التي تتضمن عناصر مثيرة وجاذبة. وفي الوقت نفسه، قد يتسبب هذا التركيز في تجاهل أشكال ثقافية أخرى، مما يعزز من الاتجاهات السائدة ويحد من التنوع الثقافي.

## خاتمة

في ختام هذا المقال، يتضح أن الذكاء الاصطناعي قد أحدث تحولاً عميقاً في مجال التواصل الاجتماعي، مُرسياً تأثيرات متعددة على جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية. من خلال استكشاف تأثيراته على بناء الهوية والعلاقات الاجتماعية، بالإضافة إلى تأثيراته على الخصوصية والأمان، وسلوك الأفراد، والاتجاهات الثقافية، أصبحنا على دراية بكيفية تشكيل هذه التقنية لتجاربنا الرقمية والاجتماعية، من خلال طرق التأثير التي تستعملها الخوارزميات والتقنيات الذكية التي تؤثر بها على طريقة تفاعل الأفراد مع المحتوى الرقمي، مما يساهم في بناء هويات رقمية وتعزيز أو تقليل العلاقات الاجتماعية بناءً على التوصيات والمحتوى المخصص، مما يجعل الذكاء

الاصطناعي كأداة قوية تملك القدرة على تشكيل تجربتنا الرقمية والاجتماعية بشكل عميق. الامر الذي يجعل التعامل مع هذه التقنية بطرق تدعم التنوع والمشاركة الإيجابية، مع التركيز على قضايا الشفافية والمصادقية، سيشكل الأساس لتحقيق استفادة مستدامة ومتكاملة من إمكانيات الذكاء الاصطناعي.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، 2016.
- أسامة عبد الله قايد، الحماية الجنائية للحياة الخاصة وبنوك المعلومات "دراسة مقارنة"، الطبعة 3، دار النهضة العربية، القاهرة، 2004.
- توجهات السياسات بشأن الذكاء الاصطناعي للأطفال، الإصدار 2 نوفمبر 2021، مقال منشور على الموقع [www.unicef.org/globalinsight.com](http://www.unicef.org/globalinsight.com)
- حسن مظفر الروز، الفضاء المعلوماتي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 2001.
- خدوجة الذهبي، "حق الخصوصية في مواجهة الاعتداءات الإلكترونية -دراسة مقارنة"، مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، المجلد 1، العدد، ديسمبر 2017.
- خليل معن، البناء الاجتماعي نسقه ونظمه، الطبعة الثالثة، الشروق الأردن، 1999.
- د. ديبح يوسف. استخدام تقنية التزييف العميق وآلية غرف الصدى في التلاعب بالرأي العام الرقمي عبر الشبكات الاجتماعية. مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، العدد 07 نوفمبر 2023.
- رشيدة بوكري، "تحديات العصر الرقمي في مواجهة خطط حماية الحق في الخصوصية"، مجلة حقوق الإنسان والحريات العامة، المجلد 7، العدد 4، سنة 2022.
- سيلفرمان، كريغ؛ ترجمة زيدان محمد، دليل التحقق من عمليات التضليل والتلاعب الإعلامي. 1. الدوحة معهد الجزيرة للإعلام، 2020.
- عامر بوعزة زمن الفايستوك، البوابة العربية لعلوم الإعلام والاتصال، منشور على الرابط <https://bbc.in/3vtwTZo>
- عمر أبو عرقوب، "دراسة استكشافية: واقع الخصوصية وحماية البيانات الرقمية في



- فلسطين"، حملة المركز العربي لتطوير الإعلام الاجتماعي، غشت 2021.
- مالك بن نبي. ميلاد شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين الجزائر: دار الفكر، 1986.
- محمد أمين الشوابكة، جرائم الحاسوب والإنترنت -الجريمة المعلوماتية، الطبعة 8، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 2007.
- ويكفيلد، جاين. (2021) التزييف العميق موقع "ماي" هر يتج" يقدم تقنية مثيرة للجدل لتحريك صور الموتى. نشر بتاريخ 28/05/2021.

#### المراجع الأجنبية:

- Bergström M., "(Se) correspondre en ligne. L'homogamie à l'épreuve des sites de rencontres", Sociétés contemporaines, n°104, 2016.
- Cardon D., Le design de la visibilité, essai de cartographie du web 2.0, Réseaux, 2008, Vol.6, n° 152.
- Francis Justand & Carine Dartiguepeyrou, La métamorphose numérique vers une société de la connaissance et de la coopération (Paris : Alternatives, 2013.
- François-Bernard Huyghe, Comprendre le pouvoir stratégique des médias, Eyrolles, 1ère édition, septembre 2005.
- Georges F., Représentation de soi et identité numérique. Une approche sémiotique et quantitative de l'emprise culturelle du web 2.0. Réseaux, La Découverte, Paris, 2009.
- Goffman E., Stigmate. Les usages sociaux des handicaps, Éditions de Minuit, Paris, 1975.
- Kernberg, O. Severe Personality Disorders : Psychotherapeutic Strategies (Edition. New). Yale University Press(1993).
- Rémy Rieffel, Révolution numérique, révolution culturelle ? (Paris : Gallimard, 2014.

# الهجرة الدولية وآثارها الاجتماعية والثقافية على أسرة المهاجر بالبلد الأصلي: حالة أسر مهاجري إقليم طانطان

د. حم الشرقاوي

باحث في علم الاجتماع  
المغرب



د. مصطفى بوعمود

باحث في الجغرافية البشرية  
المغرب

## ملخص:

يعالج هذا البحث إشكالية الهجرة الدولية والتغير الاجتماعي من خلال التحولات الاجتماعية والثقافية التي تشهدها أسر المهاجرين بالبلد الأصلي حالة بعض أسر مهاجري إقليم طانطان، ويهدف إلى معرفة عائدات الهجرة الدولية وإسهاماتها في تحول العلاقات والقيم بالبلد الأصلي. والعمل على فهم الميكانيزمات التي تقف وراء هذه التحولات من خلال دراسة عينة من الأسر، وكذا الوقوف على الآثار الاجتماعية والثقافية التي مست البناء الأسري، ووظائف الأفراد، والعلاقات والأدوار.

**كلمات مفتاحية:** الهجرة الدولية، التغير الاجتماعي والثقافي، إقليم طانطان.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

بوعمود، مصطفى. الشرقاوي، حم. (2024، أكتوبر). الهجرة الدولية وآثارها الاجتماعية والثقافية على أسرة المهاجر بالبلد الأصلي: حالة أسر مهاجري إقليم طانطان. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 151-168.

## Abstract:

This research addresses the problem of international migration and social change through the social and cultural transformations witnessed by immigrant families in the country of origin, the case of some families of immigrants from the Tan-Tan province, and aims to know the returns of international migration and its contributions to the transformation of relations and values on the home town. And figure out the mechanisms behind these transformations by studying a sample of families, as well as examining the social and cultural effects that affected the family structure beside the functions, and relationships and roles of individuals.

**Keywords :** International migration, social et culturel change, Tan-Tan Province.

## مقدمة

تعتبر ظاهرة الهجرة من القضايا الراهنة المتعددة الأبعاد، والتي تتجدد باستمرار تبعاً للتحويلات الكبرى للمجتمعات المعاصرة بفعل تطور التكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة المتنوعة وتعدد وسائل النقل، إضافة إلى تكاثر المشكلات والأزمات الإنسانية والبيئية التي تنتج تلك الهجرات، ولعل موضوع الهجرة الدولية أضحى من المواضيع التي تثير نقاشاً كبيراً لدى الدول والمنظمات غير الحكومية، حيث شكلت محوراً مركزياً في العلاقات الدولية والدبلوماسية؛ غير أن الأمر الذي بات أكثر بروزاً يتعلق بكيفية استثمار عائدات الهجرة سواء بالنسبة للدول المصدرة أو الدول المستقبلة، ولعل المغرب اليوم تحول من بلد مصدر وعبور إلى بلد مستقبل، حيث أصبحت هناك ملاحظة واضحة الآن، وهي أن المغرب لم يعد قادراً على اعتبار الهجرة ظاهرة عابرة. بل هي تشكل في الواقع مكوناً هيكلياً لتطور الاقتصاد والمجتمع وتنظيم التراب الوطني<sup>1</sup>

مما يجعل السياق العام للهجرة أكثر أهمية للبحث والدراسة لفهم الأبعاد والمحددات الكبرى للسياسة الهجروية، كما أن هذه الهجرة الدولية المغربية تميزت بوجهة تقليدية في مراحل تاريخية معينة بالقارة العجوز، خاصة نحو فرنسا وبلجيكا وهولندا بعد ذلك ستتغير الوجهات دائماً في أوروبا نحو إيطاليا وإسبانيا خلال فترة التسعينيات من القرن الماضي، لتتوسع دائرة الهجرة لتتوجه إلى دول عربية خاصة بالخليج العربي. ولعل التحويلات المالية لهؤلاء المهاجرين نحو مواطنهم الأصلية له أهمية كبرى على مستوى التحويلات الاجتماعية والثقافية لأسرهم. هكذا، فإن هذا البحث سيركز على المهاجرين الذين توجهوا إلى فرنسا وإسبانيا في فترات متباعدة، وعملنا سيخصص للبحث لمعرفة أثر هذه الهجرة على الأسر التي تركها المهاجر وراءه بالبلد الأصلي، بحيث يلاحظ ظهور بعض التحويلات الاجتماعية والثقافية التي مست أسر هؤلاء المهاجرين بإقليم طانطان من حيث تغير مستوى العيش والسكن والسلوك الاستهلاكي والجانب القيمي.

ولذلك، يمكن صياغة الإشكالية العامة لهذا البحث في السؤال التالي: ماهي آثار الهجرة الدولية على أسرة المهاجر بإقليم طانطان؟ وماهي تجليات التغير الاجتماعي على هذه الأسرة؟

<sup>1</sup> - CHAREF, M. e. (2012). Migrations Internationales Tissu Associatif et Développement des territoires le cas du pays de Taliouine-Maroc. Agadir: Imprimerie Extrem Art. p. 11

ومن خلال الإشكالية يمكن افتراض أن الهجرة الدولية تسهم في التغير الاجتماعي لأسر المهاجرين بالبلد الأصلي (إقليم طانطان) من خلال التحولات الاجتماعية والثقافية، وأيضاً، قد نفترض غياب تأثير هذه الهجرة على أسر المهاجرين بالبلد الأصلي.

وتقتضي مقارنة هذه الإشكالية اعتماد منهجي الكيف والكم من خلال الاستمارة والمقابلة والملاحظة المباشرة من أجل تجميع المعطيات وتحليلها ثم مناقشتها، ودراسة عينة تتكون من 60 أسرة بإقليم طانطان تستفيد من عائدات الهجرة الدولية عن طريق ابن مهاجر أو بنت مهاجرة بفرنسا أو إسبانيا، لذلك سنركز في هذا العمل في مستوى أول على السياق النظري والمنهجي وفي مستوى ثان سننتقل إلى آثار الهجرة الدولية على أسرة المهاجر بإقليم طانطان ورصد تجليات التغير الاجتماعي من خلال التحولات الاجتماعية والثقافية لهذه الأسر. ويهدف هذا البحث إلى فهم العلاقة بين التغير الاجتماعي والهجرة الدولية ومدى ارتباط هذين المتغيرين أو العكس، والوقوف على تجليات ومظاهر التحولات الاجتماعية والثقافية وإسهامها في الارتقاء الاجتماعي.

## 1- السياق النظري والمنهجي

### 1-1- الإطار النظري: تحديدات مفاهيمية

#### 1-1-1- الهجرة الدولية مفهوم متعدد الأبعاد

يعتبر مفهوم الهجرة بشكل عام مفهوما مركبا ومتشعبا، فالهجرة ظاهرة تتميز بثلاثة أبعاد: تغيير مكان الإقامة، تغيير العمل وتغيير العلاقات الاجتماعية. فالهجرة لا تتلخص في حركة الأشخاص وإقامتهم في دول غير دولهم، إلا أنها تعبر أيضا عن الاضطرابات التي تتدخل في الحياة الشخصية والعائلية والمهنية والثقافية للمهاجر. ويؤكد بن بيه رشيد أن النظر إلى مفهوم الهجرة باعتباره سيروية تغيير في الإقامة، العمل والعلاقات الاجتماعية، واستمرارية في إنتاج شروط العيش وبناء العلاقات الاجتماعية<sup>1</sup>، فالهجرة ظاهرة اجتماعية دينامية في طور التشكل الدائم، وهي كذلك نشاط اجتماعي، هذا النشاط الاجتماعي هو عبارة عن سلسلة من الأفعال الاجتماعية التي يمكن أن تتكرر في الزمان.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - بن بيه رشيد، (2021)، الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا المحددات والديناميات، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص. 66

<sup>2</sup> - بن بيه رشيد، (2021)، م. س. ص. 70

وتتعدد دلالات مفهوم الهجرة حسب العصور والباحثين، حيث يوضح الباحث حيتومي محمد، بأن هذا المفهوم يقتضي عناصر هي: الانتقال بين الدول بهدف الاستقرار وتوفير قصد الهجرة، وكذلك تحقق الإقامة فعلياً خارج مجال العيش المعتاد<sup>1</sup>. ومنه فإن الهجرة هي عبور للحدود له هدف وغاية ونية الاستقرار، فهي هجرة دولية. وكتبت Catherine Wihtole De Wenden في الموضوع<sup>2</sup> (DEWENDEN, 2013). والهجرة عامة ظاهرة انسانية والهجرة الخارجية أصبحت معولة، فقد تضاعفت أعداد المهاجرين منذ السبعينيات إلى اليوم؛ إذ تؤكد أن هذا المسلسل سيستمر نظراً لأن العوامل الفاعلة في هذه الحركية لازالت قائمة: الفوارق بين مستويات التنمية البشرية والتي تركز على مؤشر طول أمد الحياة والتعليم ومستوى العيش على طول خطوط التصدع الرئيسية في العالم. أزمات سياسية وبيئية تنتج لاجئين ونازحين، انخفاض تكلفة التنقل، غياب الأمل في بلدان تعاني الفقر وسوء تدبير حكوماتها للشأن العام ودور وسائل الاعلام في ترويج ثقافة الهجرة كإمكانية للتغيير. لذلك انشغلت الباحثة بالهجرة الجديدة من خلال الأمكنة والأشخاص والسياسات لإبراز مميزاتها وتعامل الدول مع المهاجرين والانعكاسات المختلفة لهذه الهجرات. وقد أشارت إلى التحول الذي ميز الهجرة النسائية حيث كانت المرأة تهاجر في إطار التجمع العائلي بداية ثم أصبحت تتخذ قرار الهجرة بشكل مستقل<sup>3</sup>، حيث تؤكد الدراسات على أن حصة النساء اليوم في الهجرة الخارجية بالنسبة لبعض الدول تقارب نصف العدد خاصة نحو دول الخليج.<sup>4</sup>

وتعتبر الهجرة بناء اجتماعي وليست معطى واقعياً يمكن تحديد بنيته في استقلال عن استعمالاته الاجتماعية من قبل السكان، ولا عن ديناميته الزمنية، فهي تتخذ أبعاداً متعددة من حيث تشكل ثقافة ومن حيث مداخل الهجرة ومن حيث دور العائلة في تحديد طبيعة الهجرة والمهاجر<sup>5</sup> وكما أن الهجرة عملية اجتماعية مثقلة بالمعاني الثقافية، حيث الحياة حركة دائمة بين

<sup>1</sup> - حيتومي محمد، (2023)، الهجرة الدولية والتغير الاجتماعي، فاس: مطبعة بلال، الطبعة الأولى، ص. 203

<sup>2</sup> - DE WENDEN C. Whitole, (2013). Les nouvelle Migrations: lieux, hommes, politiques. Paris: ellipses, p. 85

<sup>3</sup> - بوعمود مصطفى، الديناميات الحديثة، الهجرات والحركات السكانية، الآثار الاقتصادية والسوسيوإقليمية بالمناطق الجنوبية حالة إقليم طانطان، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر أكادير، 2023، ص. 140

<sup>4</sup> - CHAREF Mohamed et al, (2015). Migrations marocaines aux Canaries. Rabat: Editions et Impressions Bouregreg, p. 47

<sup>5</sup> - فزة جمال، احجيج حسن، (2020)، فكيف الواحة المكسورة أثنوغرافيات عالم معيش، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2020، ص. 161

الحدود الجغرافية والاجتماعية. من خلال البحث الدائم عن تحسين الوضع الاقتصادي والمكانة الاجتماعية والوضع الرمزي.<sup>1</sup>

وهذه الهجرات الدولية، تثير اليوم اهتماما يتجاوز الحدود الإدارية والسيادة لتصبح موضوع التفاوض بين الشمال والجنوب. أصبحت علامات وآثار المهاجرين في الفضاءات - المحلي، الإقليمي والوطني - مسألة مركزية وقضية هامة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية لمعظم بلدان المغادرة والمقصد،<sup>2</sup> وهو ما منح الهجرة الدولية بعدا سياسيا حيث تقول عائشة بلعربي: "أن الهجرة اليوم، موضوع سياسي بارز، يتمثل في دخول بلد آخر غير بلدك، والاستقرار فيه، والقدرة على العمل هناك وكسب لقمة العيش."<sup>3</sup>

وما يطرح لدينا تلك الأسئلة المتعلقة بالشروط النظامية لهذا الحضور ومدى احترام قوانين المجتمع المضيف والقدرة على الاندماج، كما يمكن أن تكون الهجرة الدولية بمثابة مجال رئيس يمكن من خلاله أن تعالج السياسة التحديات الديمغرافية،<sup>4</sup> وخاصة في توفير اليد العاملة للبلدان التي تعاني ديمغرافيا من نقص الفئات القادرة على الشغل في مقابل دول تتوفر على قاعدة نشيطة باحثة عن الشغل وتعاني صعوبة ظروف العيش. لذلك فالهجرة الدولية ترتبط بالتغير الاجتماعي والثقافي سواء تعلق الأمر بعلاقات التأثير والتأثر بين المهاجرين والمجتمعات المضيفة أو عائدات هذه الهجرة على المجتمعات الأصلية للمهاجرين ولأسرهم وذوهم؛ لكن، سنركز على مستوى البلدان الأصلية عبر التحويلات المالية وآثارها وكذلك ما ينقله المهاجر من مواقف وقيم جديدة، فالمهاجر هو فاعل يحمل الخبرات والتجارب إلى ذويه، مما يؤثر على أسرته ببلده الأصلي. فماذا نعني بالتغير الاجتماعي والثقافي؟ وما علاقته بالهجرة الدولية؟

### 1-1-2- التغير الاجتماعي والثقافي في سياق الهجرة الدولية

يعتبر التغير الاجتماعي ظاهرة موجودة في كل المجتمعات،<sup>5</sup> ومن خلال التعريف الذي قدمه كي روشيه Guy ROCHER حول التغير الاجتماعي باعتباره التحول الذي يطرأ على البناء

<sup>1</sup> - فزة جمال، احجيج حسن، (2020)، م. س. ص. 164.

<sup>2</sup> - CHAREF, M. e. (2012). Op. cit. p. 11

<sup>3</sup> - BELARBI Aïcha, (2016). Mère et Marâtre, les enjeux migratoires en Méditerranée. Casablanca: Editions La Croisée des Chemins, p. 17

<sup>4</sup> - فياض هاشم نعمة، (2022)، العلاقة بين الهجرة الدولية والتنمية من منظور البلدان المرسلة للمهاجرين، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص. 296

<sup>5</sup> - استيتية دلال ملجس، (2008)، التغير الاجتماعي والثقافي، عمان: دار وائل، الطبعة الثانية، ص. 23-24.

الاجتماعي ويلاحظ في الزمن لدى فئات من المجتمع وليس مؤقتا ويغير مسار حياة الأفراد.<sup>1</sup> وانطلاقا من هذا التعريف، فقد ميز روشيه التغير الاجتماعي عن تغيرات أخرى، كون التغير الاجتماعي ظاهرة عامة، توجد عند أفراد عديدين وتؤثر في أسلوب حياتهم وأفكارهم، ويصيب البناء الاجتماعي، يؤثر في هيكل النظام الاجتماعي (الكل أو الجزء)، يحدث أثرا عميقا في المجتمع، الذي يطرأ على المؤسسات الاجتماعية كالأ أسرة مثلا، ويكون محددا بالزمن. ويتصف بالديمومة والاستمرارية.<sup>2</sup>

يشمل التغير الاجتماعي القيم والنظام الاجتماعي من خلال صور التنظيم ومضمون الأدوار، وقد يكون التغير إيجابيا فهو تقدما وقد يكون سلبيا ويسمى تخلفا، فالتغير ليس له اتجاه محدد.<sup>3</sup> وحسب جورج بلاندييه George BALANDIER "يجب أن نميز بين التغير الذي يأتي من الشيء نفسه أو من النظام، والذي هو عملية التطور، وبين التغير الناتج عن عوامل خارجية، ومن العلاقة مع الخارج، ولكن رغم إجراء هذا التمييز، يظل من الصعب أيضا فصل تأثيرات الديناميات الاجتماعية الداخلية عن تأثيرات الديناميات الخارجية."<sup>4</sup>

وبالنسبة للتغير الثقافي فهو يقتصر على التغيرات التي تحدث في ثقافة مجتمع، ويعبر عن التغير الذي يطرأ على أجزاء الثقافة في بنائها أو في عناصرها أو في مضمونها، أي كل المتغيرات التي تحدث في كل عنصر من عناصر الثقافة سواء كانت مادية أو غير مادية، الفن والتكنولوجيا والفلسفة والأدب والعلم واللغة والأذواق الخاصة بالمأكل والمشرب أو وسائل المواصلات والنقل والصناعة، في أشكال وقواعد النظام الاجتماعي.<sup>5</sup> وإن كانت سرعة وحجم ومجال التغير الثقافي تختلف من مجتمع إلى آخر، فقد يحدث من خلال عملية طبيعية لنقل عناصر ثقافية من ثقافة نحو أخرى، وقد تتم العملية بفرض نمط ثقافي بالقوة مثل الاستعمار.<sup>6</sup>

وتسهم الهجرة بشكل أو بآخر في تغير الوضعيات سواء أفقيا أو عموديا، حيث يبرز الأول من خلال الهجرة والثاني يحيل إلى الارتقاء الاجتماعي وتغيير السلم الاجتماعي، فالهجرة دائما تشير

<sup>1</sup> - ROCHER, G. (1992). Introduction à La Sociologie Générale. Québec: Hurtubise, p. 394

<sup>2</sup> - خضور يوسف، (2003)، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، دمشق: جامعة دمشق، ص. 13.

<sup>3</sup> - استيتية دلال ملجس، (2008)، م. س. ص. 26.

<sup>4</sup> - BALANDIER George, (1971), Sens et puissances, Paris : PUF, p.78

<sup>5</sup> - استيتية دلال، (2008)، م. س. ص. 76.

<sup>6</sup> - نفسه، ص. 77.

إلى تحسين الظروف عامة لكن الواقع قد يكون عكس ذلك أو بشكل أكثر تعقيدا، "ولذلك تشكل الهجرة عنصرا هاما في إنتاج التغير الاجتماعي والثقافي، فهي ظاهرة متشعبة من حيث العلاقات التي يجد المهاجر نفسه ضمن تفاصيلها مع أفراد المجتمع المستقبل وأمام عناصر ثقافية مختلفة عن ثقافته الأصلية وفئات اجتماعية تختلف عن مجتمعه الأصلي، مما يطرح سؤال الاندماج والتفاعل بشكل يضمن له حياة أفضل، هاجر وغادر موطنه وأهله بحثا عنها. وكذلك من خلال ما ينقله المهاجر إلى بلده الأصلي بعد الاتصال بمجتمع البلد المضيف وهو ما يسهم في تناقل سلوكات وأفعال وقيم جديدة عبر التكنولوجيا والأثاث والملابس والتجهيزات التي تستخدم في بيت الأسرة بالبلد الأصلي، أضف إلى ذلك المساعدات المالية التي تغير نمط عيش الأسرة، وهو ما يرافقه تحولات اجتماعية وثقافية.

## 2-1- الإطار المنهجي والدراسة الميدانية للبحث

يعتمد هذا العمل، منهجيا، مقارنة كمية وكمية لجمع المعطيات حول أسر المهاجرين بإقليم طانطان وهو ما يسمح برصد آثار الهجرة الدولية على هذه الأسر وفهم ملامح التغير الاجتماعي الذي طرأ من خلال التحولات الاجتماعية والثقافية. ولتحقيق ذلك اعتمدنا أدوات جمع المعلومات الاستمارة والمقابلة غير موجهة والملاحظة المباشرة. فقد اخترنا عينة مكونة من 60 أسرة تقطن بإقليم طانطان\* بشكل عشوائي بحيث لم تكن غايتنا ذات بعد إحصائي يتعلق بحصر عدد الأسر التي لها مهاجر أو مهاجرة بقدر ما كنا نسعى إلى البحث من خلال تمثيلية معينة لهذه الأسر، عن آثار الهجرة الدولية على التغير الاجتماعي والوقوف على أهم التحولات الاجتماعية والثقافية لهذه الأسر نتيجة الهجرة الدولية.

وارتباطا بمجال البحث كان لابد من التعرف على الخصائص الاجتماعية والديمغرافية حول الهجرة الدولية، وتحديد المهاجرين المنحدرين من إقليم طانطان ومعرفة وجهاتهم ومساراتهم ومميزات هذه الهجرة، حيث لا يمكن دراسة إشكالية هذا البحث دون معرفة من هو هذا المهاجر؟ لذلك سنعرض معلومات حوله والتي استقينها من الأسر عينة البحث باعتبارها مصدر هذه

<sup>1</sup> - AIT HAMZA Mohamed, Mobilité socio-spatiale et développement local au Sud de l'Atlas marocain (Dadès-Todgha), Imprimerie El Maarif Al Jadida, Rabat, 2015, p. 52

\* - ينتهي إقليم طانطان إلى النفوذ الترابي لجهة كلميم وادنون بالجنوب المغربي، والتي تضم ثلاثة أقاليم أخرى وهي إقليم أسا الزاك، إقليم كلميم ثم إقليم سيدي إفني، يحده شمالا إقليم كلميم وجنوبا إقليم طرفاية من جهة وإقليم السمارة من جهة وغربا المحيط الأطلنطي وشرقا إقليم أسا الزاك، يضم سبع جماعات منها جماعتين بالوسط الحضري، وتعتبر طانطان عاصمة الإقليم وجماعة الوطية، المدينة الساحلية، حيث يوجد ميناء طانطان. ويبلغ عدد سكان الإقليم 86134 نسمة وتصل نسبة التمدن 96%.



المعطيات، وبعد ذلك سنركز بشكل مفصل على خصائص أسر المهاجرين بإقليم طانطان وطبيعة عائدات هذه الهجرة عليهم وآثارها الاجتماعية والثقافية.

ويتوزع المهاجرين المنحدرين من إقليم طانطان بين 75% من الذكور و25% من الإناث، حسب تصريح أسرهم، تكوينهم ومؤهلاتهم العلمية ضعيفة؛ مما سيؤثر على طبيعة الشغل لدى هذه الفئة. ويبلغ متوسط العمر 43.88 سنة، والعمر الأكثر تكرارا هو 40 سنة، الأمر الذي يوضح أن المهاجرين المنحدرين من إقليم طانطان غالبيتهم فئة شابة ونشيطة. وقد أكدت دراسة للهجرة المغربية بجزر الكناري<sup>1</sup> المنشورة في كتاب سنة 2015م، أن الفئة العمرية الأقل من 35 سنة تشكل أكثر من نصف العينة، وهي خاصة للهجرة المغربية. وأكثر من 95% من المهاجرين ولدوا بإقليم طانطان و5% المتبقية مكان ميلادهم بالأقاليم المجاورة، حلتهم العائلية تتوزع كما يلي: الزواج 57% والطلاق 25% والعزوبة 18%، وتعود دوافع الهجرة إلى البحث عن العمل وتحسين ظروف العيش.

وترجع الهجرة الدولية بإقليم طانطان إلى بداية السبعينيات واستمرت إلى الوقت الراهن، حيث اتخذت طابع الهجرة المغربية عامة، وعرفت نسبة ارتفاع ملحوظ ما بين سنتي 1973م و1974م، ثم تطورت بشكل متزايد ابتداء من سنة 1999م حتى سنة 2001م وتفسير ذلك مرده أن ارتفاع الهجرة خلال فترة السبعينيات كان في إطار اتفاقيات هجرة اليد العاملة الموقعة بين الدول الأوروبية والمغرب لتوفير اليد العاملة لمناجم الفحم ومعامل صناعة السيارات، أما نهاية التسعينيات فقد ارتفعت موجة الهجرة السرية بعد تضيق الدول الأوروبية سياستها اتجاه الهجرة. وتستقر غالبية المهاجرين المنحدرين من إقليم طانطان بإسبانيا وفي الرتبة الثانية فرنسا وبعض البلدان الأوروبية الأخرى وكذلك دول الخليج؛ إذ تؤكد الدراسات أن جهة كلميم وادنون تعتبر أهم حوض مصدر للهجرة بجزر الكناري.<sup>2</sup>

وتتميز هذه الهجرة بارتفاع نسبة (57%) الذين هاجروا بطريقة غير نظامية و35% منهم حصلوا على عقد عمل مكثهم من الهجرة و8% عن طريق التجمع العائلي. ونجد الجيل الأول كان يشتغل كعمال مناجم ومعامل والذين بلغوا الآن سن التقاعد، فيما يشتغل الآخرون في المطاعم والمقاهي والفلاحة والبناء، وتجدر الإشارة إلى أن بعض من المهاجرين حصل على عقد عمل خاصة النساء المتوجهات لجني الفراولة بإسبانيا وبعض الشباب الذين هاجروا إلى بلدان الخليج.

1- CHAREF Mohamed, (2015), op. cit. p. 47

2- Ibid, p. 62

وارتباطا بما سبق، نرى أن نوع الشغل قبل المغادرة وظروف العيش الصعبة وقله فرص الشغل والأوضاع الاجتماعية بالبلد الأصلي، هي عناصر، تشكل مجتمعة عاملا أسهم في اتخاذ قرار الهجرة سواء نحو أوروبا أو في اتجاه دول الخليج. وأما بالنسبة لأسر المهاجرين بإقليم طانطان نجد أغلب أرباب هذه الأسر من المسنين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 59 سنة و75 سنة، 80% منهم من الذكور، لا يزالون أي نشاط في الوقت الراهن ويستقرون في أحياء مختلفة من مدينة طانطان، يظهر مستوى عيش الأسرة لا بأس به باعتراف منهم مقارنة مع سنوات فارتطة، تجهيزات المنزل حديثة تبدي تحسن معيشي مناسب مرده عائدات الهجرة، منهم من أعد مشروعا عائليا كاستثمار تستفيد منه الأسرة بطانطان، يحقق دخلا يضمن تلبية الاحتياجات الضرورية. هناك ملاحظات كثيرة في هذا الصدد سنفصل فيها لاحقا، فما هي آثار الهجرة الدولية على أسرة المهاجر بإقليم طانطان؟

## 2- آثار الهجرة الدولية على أسر المهاجرين بإقليم طانطان

نعرض في هذا المحور التحولات الاجتماعية والثقافية التي طرأت على الأسرة ومن خلالها المجتمع بإقليم طانطان كامتداد للمجال الصحراوي، الذي تميز قبل الفترة الاستعمارية بنمط عيش يعتمد الترحال والانتجاع، نظام البداوة القائم على مؤسسة القبيلة كبناء اجتماعي وسياسي ينظم العلاقات ويسهر على تدبير المجال وحماية المراعي، الأمر الذي سينقلب مع دخول المستعمر وما رافقه من تحولات استمرت إلى اليوم، بدءا من الانتقال من البداوة والترحال إلى الاستقرار والتمدن في سياق التغير الاجتماعي الذي شكل موضوعا هاما للبحث بالمجتمع الصحراوي من خلال دراسات الباحثين وفي مقدمتهم الدكتور دحمان محمد، حيث أسهم الاستقرار بشكل كبير في بداية التغير الحاصل في بروز العمل المأجور السكن ومكوناته والمجال البيئي وكذلك العلاقات الاجتماعية والقيم والعادات.

## 2-1- الهجرة الدولية في سياق التحولات الاجتماعية بإقليم طانطان

يرتبط المهاجر مع بلده الأصلي من خلال العلاقات الاجتماعية التي ينسجونها في البلد المضيف والزيارات التي يقومون بها لذوهم في البلد الأصلي وكذلك التحويلات المالية، حسب البحث الميداني ترتفع نسبة المهاجرين الذين يزورون عائلاتهم بالمغرب بشكل غير منتظم وتصل نسبة 40%، والتي قد تتكرر زيارتهم خلال نفس السنة، آخرون يأتون سنويا والتي تصل نسبتهم 32%، بينما نجد نسبة 28% منهم يزورون المغرب حسب الظروف. وكما أن للهجرة تأثيرات

اجتماعية وثقافية متشعبة تخص المهاجرين ومجتمعاتهم الأصلية والمجتمعات المضيفة، ففي البلدان المرسله للمهاجرين.

ويمكن أن تكون "الهجرة عاملا مساعدا في المقام الأول نتيجة التحويلات المالية التي ترسل للأسر بالبلد الأصلي، رغم ما قد تكلفه الغربة والبعد ولا تخففه المكاسب المالية الناتجة عن التحويلات أو الفوائد الأخرى المتأتية عن الهجرة من ضغوط الانفصال الأسري.<sup>1</sup> بالإضافة إلى تناول العديد من الأبحاث موضوع تحويلات المهاجرين المغاربة بالخارج نظرا لما تكتسيه من أهمية سواء بالنسبة للاقتصاد الوطني، حيث توفر العملة الصعبة للدولة لسد عجز الميزان التجاري أو بالنسبة للاقتصاد المحلي من خلال المساهمة في التنمية المحلية. وتعتبر هذه التحويلات من جهة أخرى صلة وصل بين المهاجر وعائلته بالمغرب، حيث يبقى تحويل الأموال ممارسة اعتيادية عابرة للحدود للمهاجرين المغاربة"<sup>2</sup>

والملاحظ أن هذه التحويلات بدأت تعرف ارتفاعا ضعيفا خلال السنوات الأخيرة، وذلك بسبب ارتفاع وتيرة التجمع العائلي والاندماج التلقائي للمهاجرين وأبنائهم في نمط الاستهلاك. وحسب عينة هذا البحث نجد 70% من الأسر تستفيد من تحويلات مالية بشكل منتظم ويعتبر ذلك موردا أساسا للأسرة عن طريقه تلي الاحتياجات الضرورية والالتزامات الأخرى. و30% الأخرى تستفيد من تحويلات مالية بشكل غير منتظم، كما عبر 56% من العينة أن المبالغ المتوصل بها تتراوح ما بين 2000 درهم و5000 درهم و34% منهم يتوصلون بمبالغ قد تصل إلى 10000 درهم فيما صرح 10% منهم أنهم يتوصلون بأقل من 2000 درهم.

ولقد كانت انعكاسات عائدات الهجرة الدولية واضحة على المستويين الاجتماعي والمجالي، حيث يستثمر المهاجرون جزءا هاما من مدخراتهم للحصول على ملكية السكن وتحسين ظروف عيش أسرهم وهذا مطمح يسعى إليه الإنسان بغض النظر عن جنسيته أو مستواه الاقتصادي أو الثقافي، في حين تبقى استثماراتهم ضعيفة بشكل عام في القطاعات الإنتاجية.<sup>3</sup>

ويظهر هذا البحث أن كل المهاجرين يقومون بتحويلات مالية إلى بلدهم الأصلي، بطرق مختلفة، إما مناسباتيا أو شهريا أو سنويا، أضف إلى ذلك ارسال الهدايا لعائلاتهم بالمغرب

<sup>1</sup> - فياض هاشم نعمة، (2022)، م. س. ص. 250.

<sup>2</sup> - CHAREF Mohamed et al, (2015), op. cit, p. 207

<sup>3</sup> - بوماطة سعيد، (2019)، هجرة العودة ودورها في التنمية حالة مدينة كلميم، ضمن مؤلف جماعي: ديناميات التحول الاجتماعي بالأقاليم الجنوبية للمغرب، برلين: المركز الديمقراطي العربي، ص. 125-153

وتختلف هذه الهدايا وتنوع بين التجهيزات المنزلية والأفرشة والملابس والحواسيب والهواتف والعمود، الشيء الذي سيسهم في تغيير العادات والممارسات الاجتماعية داخل البيت وخارجه. وتشير دراسات أنجزها البنك الدولي للاستثمار أن مخصصات التحويلات المتعلقة بتلبية الاحتياجات اليومية للأسر وكذا مصاريف الدراسة والسكن حظيت بالاهتمام الأساسي للمهاجرين في حين شكلت مصاريف الاستثمار نسبة ضعيفة.<sup>1</sup>

وتخصص التحويلات المالية لدعم العائلة بنسبة تصل 85% مقابل 15% تخصص للاستثمار، ويتضح أن نسبة من المهاجرين بفرنسا وإسبانيا خاصة، هم من يتوجهون للاستثمار في شراء العقارات والبناء، مقابل ضعف الاستثمار في قطاع التجارة والخدمات.

ومن الملاحظ أن الحصة التي تخصص لدعم العائلة تبرمج لتمويل مشروع البناء أو إصلاح منزل العائلة أو شراء بقعة أرضية وبناء سكن عائلي بمواصفات حديثة. وقد أكدت دراسة أعدتها الباحثة عونة خديجة بسهل ترفية على الدور المهم للتحويلات المالية في التخفيف من الفقر والحد من الهشاشة الاجتماعية فهي تساهم في الرفع من المستوى المعيشي للسكان، وتؤثر بشكل ملحوظ على مختلف المظاهر الاجتماعية المتعلقة بأسر المهاجرين، سواء تعلق الأمر بمستوى الاستهلاك وأشكاله، وظروف السكن ونوعه، والتجهيزات المنزلية.<sup>2</sup> وهو ما أوضحه البحث الميداني، بحيث نجد عدد من أسر المهاجرين قد تحسنت ظروف عيشهم، منهم من قام بترميم منزل العائلة وغير شكله واعتنى بواجهته وتجهيزاته، فأصبح في حلة جيدة وتتوفر فيه كل وسائل الراحة والبعض الآخر غير السكن القديم بسكن جديد سواء بحي الصحراء أو حي النهضة. وقد أكدت الدراسات بمجالات أخرى ذلك، إذ تبين أن تحويل المدخرات المالية من المهاجر إلى مناطق الانطلاق ينتج عنه ترتيب اجتماعي واقتصادي جديد لمجتمع الدوار.<sup>3</sup>

بناء على ذلك، نخلص كما ذكر بوشلخة محمد "أن المهاجرين يفضلون الاستثمار في قطاعات تبرز أكثر نجاحهم الاجتماعي."<sup>4</sup> على اعتبار أن المهاجرين المنحدرين من إقليم طانطان

<sup>1</sup> - عونة خديجة، التحولات المجالية والبيوسياقتصادية بسهل ترفية في علاقتها بالهجرة الدولية، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد بن عبد الله فاس، 2014، ص. 130

<sup>2</sup> - بوماطة سعيد، (2019)، م. س.

<sup>3</sup> - STEINMANN H. Susanne, Effets of international migration on women's work in agriculture: the case of the Todgha oasis, southern Morocco, RGM, Vol. 15, N° 1 et 2, 1993, p. 124

<sup>4</sup> - بوشلخة محمد، (2007)، أرياف سوس ماسة التحولات الحديثة والديناميات السوسيوإقليمية، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ص. 122

أكثر ما يغريهم في الاستثمار بالبلد الأصل ويتنافسون بشأنه هو شراء العقار، وحسب المقابلة الشفوية المستقاة: "ليس هناك أي مشروع ناجح بالنسبة لنا غير العقار، على الأقل فلو سوفيه وزيادة ويضمن مكانة في المجتمع هنا وهناك."<sup>1</sup>

وهكذا تسهم الهجرة الدولية في إحداث تغيرات اجتماعية من خلال عائداتها المالية وما يتم نقله عبر المهاجرين من أفكار وممارسات لها آثارها على الأسر والمجتمع المحلي وتدخل في سياق عام للعلاقات الاجتماعية، وهو ما أكدته دحمان محمد حول وجود قناع في العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة بسبب الاحتكاك الثقافي وتنقيد monétarisation العلاقات الاجتماعية مما كان له أثر على دائرة العلاقات الاجتماعية فأصبحت مقتصرة على بعض الجيران أو زملاء العمل وإن امتدت أحياناً لتشمل الأقارب أولئك الذين ينتمون إلى عائلة الفرد في كثير من المناسبات."<sup>2</sup>

ويذهب الدكتور محمد دحمان إلى أن أدوار الفرد كانت محددة بالتقاليد العائلية، أما الآن فقد اتسع نطاق الأدوار التي يضطلع بها الفرد، وتعددت، ولعل مثال ذلك خروج المرأة للعمل واتساع مجال نشاطها. عواقب هذه التحولات نمو الفردانية وظهور الروح الاستقلالية لدى الأفراد بحيث لم يعد الفرد يخضع لتدخلات العائلة في اختيار المهنة. وقد خلص دحمان إلى أن التغير الذي طرأ على النسق العائلي امتد ليشمل البناء الأسري ومكوناته ووظائفه، وكذلك الخصائص والملامح التي ميزت العائلة الحالية، التي تمثلت في ضيق العلاقات والانتقال من الأدوار المحددة إلى المتعددة.

وكذلك انتشار الأسر النووية الصغيرة، وامتد هذا التغير ليشمل الزواج في مراحلها وأجراءاته والطقوس المرتبطة به وكذلك على مستوى العلاقات بين الكبار في السن والصغار وتربية الأبناء، وتغير علاقات المرأة مع الرجل والمجال البيئي والعلاقات الاجتماعية<sup>3</sup> "أمام ذلك التقدم الاجتماعي الناجم عن الهجرة ساهم في إحداث اضطراب عميق في التسلسل الهرمي الاجتماعي الذي كان سائداً في القرى."<sup>4</sup>

<sup>1</sup> مقابلة مع السيد محمد أمبارك، عمره 46 سنة، متزوج، مهاجر بفرنسا، سكن عائلته بعي الصحراء، بتاريخ 2021/03/28، على الساعة 12:25 إلى الساعة 14:30.

<sup>2</sup> دحمان محمد، (2006)، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرباط: مطبعة كوتر برانت، ص. 274.

<sup>3</sup> دحمان محمد، (2006)، م.س. ص. 276.

<sup>4</sup> CHAREF Mohamed et al, (2012), op. cit, p. 40

وفي سياق هذه التحولات الاجتماعية، التي شكلت ضمنها الهجرة النسائية موضوعا فرعيا داخل الهجرات، ولعل الهجرة الموسمية للعاملات في القطاع الفلاحي بإسبانيا ظاهرة حديثة بالمغرب، والتي تعود إلى بداية سنة 2000م مع توقيع اتفاقية ثنائية بين إسبانيا والمغرب بشأن توفير اليد العاملة هذه الهجرة المنظمة، تعني هذه الهجرة؛ النساء خاصة من أصول قروية يعشن في ظروف خاصة تتميز بالهشاشة،<sup>1</sup> وقد تحدثت الباحثة "سناء بنبلي" مؤكدة أن تأنيث الهجرة بالمغرب يعود بنا إلى فترتين، ارتبطت الأولى بالتجمع العائلي أسمتها فترة "المهاجرة السلبية" والثانية مغادرة النساء بشكل فردي لوحدهم وإرسالهم النقود لعائلاتهم وأسمتها فترة "المهاجرة الإيجابية أو النشيطة" وفي هذه الفترة الأخيرة يمكن تصنيف الهجرة الموسمية للعاملات الفلاحية،<sup>2</sup> وعرفت هذه الهجرة محليا تزايدا ملحوظا خلال العقود الأخيرة، والتي كانت لها آثارها الاجتماعية خاصة تحويل هذه الهجرة إلى هجرة سرية هناك وبداية مسار آخر من المغامرة وهناك من اختارت الالتزام والشغل قصد الاسهام في تحسين ظروف الأسرة بالمغرب.

## 2-2- الهجرة الدولية على ضوء التحولات الثقافية بإقليم طانطان

عاش المجتمع المحلي منذ فترة الاستقرار على وقع تحولات اجتماعية متعددة الأبعاد القيمية والثقافية والمتجددة، كالتحضر كونه تغير ثقافي يؤدي إلى تمايزات وظيفية بين المجموعات التي تخلق لنفسها مجالاتها الاجتماعية. هناك رواسب بين المجموعات التي تقطن الأحياء نظرا لرواسب القرابة والثقافة المشتركة.<sup>3</sup> ولاسيما في اتجاه حديث نحو التمايز بين المجالات داخل المدينة، الأمر الذي يؤكد البحث الميداني عبر انتقال بعض العائلات وتغيير حي السكن بعد بناء سكن جديد بمواصفات حديثة نتيجة عائدات الهجرة وبالتالي بروز هذا التمايز الاجتماعي والثقافي يحضر في التحولات التي شملت طرق تأنيث البيت والتجهيزات المتطورة المكلفة ماديا والتي لم تكن في مراحل سابقة بسبب العوز والخصاص. هناك اتجاه نحو العناية بالمنزل الجديد وإعداده وتجهيزه ومنحه واجهة بارزة.

ويرتبط التفكير في الهجرة في الغالب بتحسين ظروف العيش والارتقاء بمستوى حياة المهاجر نفسه، وكذلك عائلته، بحيث يصبح عضوا هاما ونشيطا في العائلة، ومسؤولا عنها. عبر

<sup>1</sup>- BENBELLISana, (2020). La Migration des ouvrières agricoles une forme de vulnérabilité ou un projet d'autonomie et d'ascension sociale? Dans F. A. Al, *Migration Féminine à casablanca*. Casablanca: Editions La Croisée des Chemins, p.

<sup>2</sup>- BENBELLISana, (2020), op. cit. p. 28

<sup>3</sup>- دحمان محمد، (2006)، م. س. ص. 316

التحويلات المالية الموجهة للعائلة بالبلد الأصلي سواء من أجل توفير متطلبات الحياة اليومية أو إصلاح، ترميم أو بناء منزل العائلة.<sup>1</sup> وتؤكد الأبحاث أن هناك تبعات اجتماعية يتحملها المهاجرون سواء في بلد الأصل أو بلد المقصد، وأن الدخل المرتفع الذي يحصل عليه المهاجر هو مقابل ثمن الإزاحة الثقافية،<sup>2</sup> ويتجلى في حنينهم القوي إلى الأهل والموطن الأصلي.

ولا يقتصر أثر المهاجر على التنمية بالبلد الأصلي فقط على تحويلاته النقدية بل تمتد لتشمل التجارب والمعارف والمهارات ونمط العيش الذي اكتسبه بالبلد المضيف. وهذه العلاقة المهاجر-التنمية المحلية هي مركبة لأنها تضم في الآن نفسه الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والقانونية وتنطوي على عدة أطراف بالبلد الأصلي أكثر من البلد المضيف أو العبور.<sup>3</sup>

والهجرة الدولية موضوع شاسع بالنظر إلى تعدد الأبعاد ذات الصلة حيث تمثل التحويلات المالية جزء ضئيل وسط الإشكالات الكبرى لهذه الظاهرة، رغم ذلك فإن التحويلات المالية تختلف طبيعتها تبعاً لموجات الهجرة والتحويلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي مست الأسر والتغير الذي لحق بالبنية الثقافية للمجتمع،<sup>4</sup> والهوية الثقافية عبر ظهور عادات وممارسات جديدة تختلف عن التقاليد والأعراف التي كانت تميز اللقاءات والمراسيم الاحتفالية الخاصة والعامة.

وتأثر النظام الغذائي للمجتمع المحلي أصبح أكثر ارتباطاً بأسواق أخرى حيث بات الاعتماد على البضائع المستوردة من الخارج، هي عوامل قادت إلى تحول المجتمع المحلي في اتجاه القيم الاستهلاكية والعناية بالمظاهر المدنية الحديثة والمتوارثة كالمصاريف والعطايا المقدمة للمغنيين واقتناء السيارات واستهلاك البضائع الكمالية المستوردة حيث شاعت مقولة «venant de France» على حد تعبير دحمان محمد والتي يمكن اعتمادها بهذه العبارة "سلعة برا" أي سلعة قادمة من الخارج يعني أوروبا، فهي موضوع تباهي ومنافسة خاصة بين النساء والشباب. وازداد

<sup>1</sup>- بوعمود مصطفى وآخرون، حاضرة طانطان: أشكال الهجرات والدينامية الاجتماعية، ضمن مؤلف جماعي: قضايا الهجرة بالمغرب وبالأجانب مقاربات ونظرات متقاطعة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، مطبعة SO-ME PRINT، أكادير، الطبعة الأولى، 2023، ص.ص. 95-112.

<sup>2</sup>- فياض هاشم، (2022)، م. س. ص. 250.

<sup>3</sup>- CHAREF Mohamed et al, (2012), op. cit. p. 12

<sup>4</sup>- فزة جمال وحسن احجيج، (2020)، فكيف الواحة المكلومة اثنوغرافيات عالم معيش، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ص. 164.

الاهتمام بالعطلة والسفر حتى بالنسبة للذين ليس لديهم عمل قار.<sup>1</sup> بحيث سار هذا الاهتمام اعتياديا رغم الإكراهات المادية لدى البعض.

## خاتمة

شكلت الهجرة الدولية والتغير الاجتماعي موضوعا بالغ الأهمية من حيث دراسة التحولات الاجتماعية والثقافية التي مست عائلات وأسر المهاجرين بالبلد الأصلي إقليم طانطان تحديدا، حيث نجد الهجرة الدولية تسهم من خلال عائلاتهم من تحويلات مالية وما يتم نقله عبر المهاجر ذاته، تؤثر بشكل أو بآخر في التغير الاجتماعي، فقد تغير السكن وكل ما يتعلق به من واجهة بارزة واعتناء بتجهيزاته فأضحى يشكل عاملا للارتقاء الاجتماعي والرمزي في المجتمع، كما تغيرت العادات والقيم والممارسات نتيجة لتحسن الأوضاع المالية للأسر عادات الغذاء والمطبخ واللباس وتكريس السلوك الاستهلاكي في ارتباط بالسوق خاصة السلع المستورة ما كان له أثر كبير على الطقوس الاحتفالية خاصة الزواج وأدوار الأفراد ووظائفهم داخل الأسرة واختياراتهم. وتبقى الهجرة الدولية وأثارها المتعددة من الإشكالات التي تستدعي البحث والدراسة بشكل أكثر تفصيلا ودقة في أفق فهم تلك الأبعاد ومستقبل العلاقات الإنسانية في مجتمع متحرك غير ثابت أصبحت فيه الهجرة طابعا أكثر بروزا.

<sup>1</sup> - دحمان محمد، (2012)، دينامية القبيلة الصحراوية في المغرب بين الترحال والإقامة دراسة سوسيو-أنثروبولوجية حول أولاد بالسباع، طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، ص. 267.



## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- استيتية دلال، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل، عمان، الطبعة الثانية، 2008
- بن بيه رشيد، الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا المحددات والديناميات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2021
- بوشلخه محمد، أرياف سوس ماسة التحولات الحديثة والديناميات السوسيوإقليمية، الجزء الثاني، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2007
- بوعمود مصطفى وآخرون، حاضرة طانطان: أشكال الهجرات والدينامية الاجتماعية، ضمن مؤلف جماعي: قضايا الهجرة بالمغرب وبالأخارج مقاربات ونظرات متقاطعة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، مطبعة SO-ME PRINT ، أكادير، الطبعة الأولى، 2023
- بوعمود مصطفى، الديناميات الحديثة، الهجرات والحركات السكانية: الآثار الاقتصادية والسوسيوإقليمية بالمناطق الجنوبية حالة إقليم طانطان، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة، ابن زهر أكادير، 2023/2022
- بوماطة سعيد، هجرة العودة ودورها في التنمية حالة مدينة كلميم، ضمن مؤلف جماعي "ديناميات التحول الاجتماعي بالأقاليم الجنوبية"، المركز الديمقراطي العربي، برلين، 2019
- خضور يوسف، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2003
- دحمان محمد، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر برانت، الرباط، 2006

- دحمان محمد، دينامية القبيلة الصحراوية في المغرب بين الترحال والإقامة دراسة سوسيو-أنثربولوجية حول أولاد بالسباع، طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، 2012
- عون خديجة، التحولات المجالية والسوسيواقتصادية بسهل تريفية في علاقتها بالهجرة الدولية، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، 2013/2014
- فزة جمال، احجيج حسن، فكيك الواحة المكومة اثنوغرافيات عالم معيش، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2020
- مقابلة مع السيد محمد أمبارك، عمره 46 سنة، متزوج، مهاجر بفرنسا، سكن عائلته بحي الصحراء، بتاريخ 2021/03/28
- هاشم نعمة فياض، العلاقة بين الهجرة الدولية والتنمية من منظور البلدان المرسلة للمهاجرين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2022
- حيتومي محمد، الهجرة الدولية والتغير الاجتماعي، مطبعة بلال، فاس، الطبعة الأولى، 2023

#### المراجع الأجنبية:

- AIT HAMZA Mohamed, Mobilité socio-spatiale et développement local au Sud de l'Atlas marocain (Dadès-Todgha), Imprimerie El Maarif Al Jadida, Rabat, 2015.
- BALANDIER George, Sens et Puissance, PUF, Paris, 1971.
- BELARBI Aicha, Mère et Marâtre, les enjeux migratoires en Méditerranée, Editions La Croisée des Chemins, Casablanca, 2016.
- BENBELL Sana, La Migration saisonnière des ouvrières agricoles une forme de vulnérabilité ou un projet d'autonomie et d'ascension sociale ? in Migratin féminine à Casablanca entre autonomie et précarité, Ed la Croisée des Chenins, Casablanca, 2020.

- Catherine Wihtole De Wenden, Les Nouvelles Migrations: lieux, hommes, politiques, Paris, 2013.
- CHAREF Mogamed et al, Migrations marocaines aux Canaries, Editions et Impressions Bouregreg, Rabat, 2015.
- CHAREF Mohamed et al, Migrations Internationales Tissu Associatif et Développement des Territoires le cas du pays de Taliouine- Maroc, Imprimerie Extrem Art, Agadir, 2012.
- ROCHER Guy, Introduction à La Sociologie Générale, Editions Hurtubise, Québec, 1992.
- STEINMANN H. Susanne, (1993), Effets of international migration on women's work in agriculture: the case of the Todgha oasis, southern Morocco, RGM, Vol. 15, N°. 1 et 2.

# التواصل السياسي في عصر الإعلام الرقمي: معالم نظرية تأسيسية

محمد بورويص

صحافي وطالب باحث في علم الاجتماع  
جامعة محمد الخامس، الرباط  
المغرب



## ملخص:

يروم هذا المقال مقارنة التغييرات الطارئة على النماذج الكلاسيكية للتواصل السياسي في سياق الطفرة التكنولوجية الراهنة. لقد أفرزت البيئة التكنولوجية الجديدة ترسيمات جديدة للتعبير والفعل في كنف الشبكات الرقمية المهيمنة، وأكبتها محاولات تأصيل نظري جادة وعميقة لفهم الواقع الافتراضي الذي أصبح يستحوذ على مظاهر حياتنا الواقعية. يعرض هذا المقال مجموعة منتقاة لأبرز النظريات المتعلقة بالتواصل السياسي في ظل وفرة العرض الإعلامي، وانخراط الأفراد في الفضاءات الرقمية، والاتصالات الافتراضية. ويشمل ذلك مصفوفة محممة من نظريات الصوت، وأدوار الفاعلين، ونظريات الامتداد بين النظامين الإعلامي التقليدي والنظام الإعلامي الجديد، ونظرية الهجانة، ومنظورات أخرى متعلقة بالجمهور. من خلال هذا العرض، يتوقف هذا المقال عند التأثيرات الجديدة المتبادلة بين الفاعلين في نسق التواصل السياسي الرقمي، سعياً إلى رسم تصور نظري شامل عن التواصل السياسي في البيئة الرقمية.

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بورويص، محمد. (2024، أكتوبر). التواصل السياسي في عصر الإعلام الرقمي: معالم نظرية تأسيسية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 169-204.

## Abstract:

This article aims to approach changes that classical models of political communication have undertaken, in the context of the current technological revolution. In fact, the new technological environment has produced new forms of expression and action within the confines of dominant digital networks. In this context, many researches have attempted to establish a relevant and deep theoretical foundation to understand the virtual reality that has dominated different aspects of our lives. This article presents a selection of the most prominent theories related to political communication in light of the abundance of digital contents, individual involvement in digital spaces and virtual communication. This includes important matrix of theories of voice, the roles of actors, theories of extension between the classical and digital media system, hybridity theory and other perspectives related to the audience. Through this presentation, we examine the political communication with its actors and influences in the digital era.

## تمهيد

نشأ البحث في مجال التواصل السياسي خلال القرن العشرين في سياق الحربين العالميتين الأولى والثانية. ففي هذه المرحلة التاريخية شكل تحديث تقنيات الطباعة وتكنولوجيا الراديو مرتكزين أساسيين للتأثير في الجماهير وتحصيل استجابات مجتمعية مؤيدة لانخراط الدولة في هذا المعسكر أو ذلك، وإسناد مجهودها الحربي. لقد فتح انتقال التواصل السياسي من نموذج الدعاية الحربية (التوجيه المباشر) إلى نماذج أكثر تعقيدا مجالا خصبا للبحث الاجتماعي. هذا الأخير، أظهر الأبعاد المركبة للتواصل السياسي باعتباره يتم في دائرة تقاطع النظام الاجتماعي والنظام السياسي، ويشمل طيفا واسعا من الفاعلين بما في ذلك المنظمات الإعلامية الكبرى والصحافيين والمجتمع المدني وجماعات التأثير الاقتصادية والعسكرية والمواطنون..

في هذا السياق، أثرت التطورات التكنولوجية المتلاحقة بشكل مباشر على بنيات التواصل السياسي وأدواته المتاحة أمام الفاعلين في النظام الاجتماعي والنظام السياسي، وجعلت وسائل الإعلام تشكل واجهة أساسية من واجهات الفضاء العام، ومعتبرا لتشكيل الأفكار والمواقف والتأثير. فهذا الواقع، يعكس الطابع المعقد للتحولات التي شهدتها السيرة السياسية وأنماط تشكيل الرأي العام بفضل دينامية المجال السياسي في الولايات المتحدة (حصول السود على حق التصويت..)، والانتشار المتزايد لوسائل الإعلام الجماهيرية. كما يعكس تطور نطاق البحث السوسيولوجي في هذا الباب؛ "فبالرغم من أن حقل التواصل السياسي بدأ بدراسة تأثيرات الصحافة الورقية والإذاعة على قرارات التوصيت لدى الأفراد، إلا أنه سرعان ما توسع ليشمل جوانب إضافية للتواصل والسلوك السياسي"<sup>1</sup>.

إذا كانت تصورات مفهوم التواصل السياسي، خلال القرن العشرين، حصرت مرتكزاته الأساسية في تبادل الخطابات<sup>2</sup> بين رجال السياسة والإعلام والرأي العام من خلال الممارسة

<sup>1</sup> Rogers, E. M. 2004. "Theoretical Diversity in Political Communication." In Handbook of Political Communication Research, edited by L. L. Kaid, 21–34. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum. P.3.

<sup>2</sup> يشير منظور السوسيولوجي الفرنسي دومينيك فولتون إلى أن التواصل التواصل السياسي "الفضاء الذي تُتداول فيه الخطابات المتناقضة للفاعلين الثلاثة، الذين لهم شرعية الحديث علنا حول السياسة، وهم: رجال السياسة والصحافيون والرأي العام من خلال استطلاعات الرأي". إنه، بحسبه، الفضاء "الذي تتواجه فيه الخطابات السياسية، والتي يكون هدفها التحكم في التأويل السياسي للوضع". أنظر:

Wolton Dominique (1989). « La communication politique : construction d'un modele », In, Hermès, La Revue 1989/1 (n° 4), p. 30.

السياسة؛ فإن ثورة تكنولوجيا الإعلام والتواصل فرضت قوالب جديدة، وسمحت لفاعلين جدد بالدخول كمكونات مستقلة أو مترابطة ضمن نسق التواصل السياسي، واندماج البنيات التقليدية للتواصل السياسي في الواقع الرقمي الجديد. وهكذا، مكنت ثورة الويب 2.0 وما تلاها من موجات متتالية وصولاً إلى الويب الذكي والذكاء الاصطناعي، من استيعاب الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية، وفرض نماذج تواصلية جديدة من خلال شبكات التواصل الاجتماعي كفيسبوك وتويتر ويوتيوب وإنستغرام.. هذه الشبكات أتاحَت في الواقع إمكانية دخول فاعلين جدد من مجتمع المواطنين ومجتمع السياسيين وبرز نموذج المواطن-الصحافي والإعلاميين للتعبير والتأثير. ففي الأنظمة السياسية القائمة على الديمقراطية التمثيلية "أصبحت وسائل الإعلام تؤدي وظيفتين: الأولى كناقلة للتواصل السياسي الذي تتلقاه من خارجها، والثانية كمرسلة للرسائل السياسية التي يبنها الصحفيون أو التي ينتجها منتجون آخرون كالمدونين"<sup>1</sup>. ومن زاوية المجتمع السياسي، تعرضت البنيات التقليدية لخلخلة البيئة العامة التي ينشأ فيها التواصل السياسي، وكذا الترسيمات التقليدية التي يسير فيها ضمن نسق المؤسسات. فقد "سمح الأنترنت بخلق إمكانات جديدة للفاعلين السياسيين غير الرسميين من أجل تشكيل وبناء المجموعات النشيطة بما يشكل تحدياً لحدود السياسة الوطنية"<sup>2</sup>.

إن التحول الأساسي الذي تركز مع الولوجية الواسعة للأنترنت وهيمنة شبكات التواصل الاجتماعي قد استتبع خلخلة مراكز السلطة التقليدية لسيرورات الفعل. وهكذا، فمنذ أن فقدت الدولة احتكارها المباشر لوسائل الإعلام "انتقل جزء معتبر من السلطة الاقتصادية والسياسية والثقافية من الدولة إلى النظام الإعلامي"<sup>3</sup> القائم؛ وهذا النظام الإعلامي يتشكل اليوم من شبكات التواصل الاجتماعي أساساً، بوصفها مركز ثقل يستوعب الإعلام الجماهيري التقليدي ويتيح لفاعلين جدد التعبير والتأثير.

بالرغم من تسارع التطورات التكنولوجية خلال العقود الثلاثة الماضية وتحول الممارسات المرتبطة بالتواصل السياسي الرقمي بشكل حثيث، إلا أن البحث السوسيولوجي لم يتخلف عن مهمة النظر بشكل ديناميكي في مسارات هذه التحولات، ورصد الأشكال الجديدة للتواصل السياسي في البيئة الرقمية، والنماذج التي بلورتها تكنولوجيا الإعلام الجديد في واقعنا الاجتماعي؛

<sup>1</sup> Mc Nair Brian (2011), An introduction to political communication, London: Routledge. (fifth edition). p. 11.

<sup>2</sup> Nick Couldry, (2012). Media, Society, World : Social Theory and Digital Media Practice. Polity Press. Cambridge. P.136.

<sup>3</sup> Philip N.Howard, (2011). Castells and the Media. Polity Press. Cambridge. P.20.

وهو اليوم يمنحنا إطارا نظريا غنيا ومتجددا يسمح بالإحاطة بأدوار الفاعلين والنماذج الموجودة للتواصل السياسي الرقمي، التي أضحت تشكل عالمنا الجديد.

سنعرض بشكل مفصل في هذا الفصل للاتجاهات النظرية البارزة في حقل التواصل السياسي الرقمي من منظور سوسيولوجي. إن هذا العرض وثيق الصلة بقصديتنا في هذا البحث، المرتبطة بفهم دينامية التواصل السياسي الرقمي وتحولاته في سياقنا المحلي. ذلك أن فهم الإطار النظري لتجليات السلوك السياسي وتعبيرات السياسي في المنصات الرقمية، وعلاقاته الجديدة مع الجمهور من شأنه أن يمدنا بالأدوات الضرورية في مسعى الإحاطة بالتواصل السياسي كما يتمظهر في محيطنا الافتراضي المحلي.

في سياق هذا الفصل سنعرض بشكل أدق للإضافات النظرية البارزة في حقل التواصل السياسي الرقمي خلال العقود الثلاثة الماضية.

### المبحث الأول: نظريات الصوت

يشكل هذا المنظور إطارا واسعا يهتم بالتأثيرات التي أحدثتها تكنولوجيا الإعلام والاتصال على نماذج التواصل السياسي. ينطلق هذا الاتجاه من محاولة فهم التغيرات المستحدثة في النماذج التقليدية للتواصل السياسي بين النخبة والجمهور، وأدوار المنصات الجديدة للتواصل في تكريس مساهمة فاعلين جدد. إن التغير الأساسي الذي حدث خلال العقدين الماضيين بالخصوص، يتمثل في فتح فضاءات جديدة للتعبير أمام أفراد وفئات كانت محرومة من إيصال صوتها إلى أصحاب القرار السياسي/النخبة؛ بالنظر إلى موقع وسائل الإعلام الجماهيري ودورها وطبيعتها في الترسيمات التقليدية للتواصل السياسي.

### المطلب الأول: نظرية مجتمع الروابط

ينطلق فهم طبيعة التحول الذي يعرفه التواصل السياسي في مجتمعاتنا من فهم طبيعة الأدوات التكنولوجية الجديدة التي غيرت إمكاناته وأساليبه عبر الأنترنت وأثرته. فهذا الشرط الرقمي الجديد، عزز دور الفرد والجماعات المهمشة وغير البارزة في سيرورات التأثير في المجال السياسي، انطلاقا من استعمال الأنترنت. لقد قام التواصل السياسي في النموذج التقليدي سابقا على ترسيمات مؤسسية وبيروقراطية مضبوطة للولوج إلى المجال العمومي. ونقصد بذلك نظام توزيع الحصص الزمنية في المجالس التمثيلية (برلمانات..) ونظام الولوج إلى الإعلام العمومي حسب

التمثيلية السياسية والمدنية، وحسب اعتبارات أخرى في الأنظمة السلطوية حيث تستخدم سلطة الإعلام للتضييق على المعارضة مثلاً.

لئن كانت هذه الإكراهات أمام الفاعلين السياسيين والمدنيين مُحَدِّدَةً في ديناميات الفعل لديهم وأثاره في فترة ما قبل الأنترنت، فإن البيئة الرقمية الجديدة غيرت بشكل جذري من توزيع السلط، من الدولة إلى النظام الإعلامي الرقمي، وفتحت الباب أمام الجميع للتعبير وخوض معركة متعادلة بشكل أفضل من أجل التأثير في الجمهور، والترافع عن القضايا، وتشكيل الرأي العام.

من هذه الزاوية، ومن منظور تقني، يؤسس توراو (Turow) وتسوي (Tsui) في مؤلفهما المشترك <sup>1</sup> The Hyperlinked Society لنظرية مجتمع الروابط، وفيه يعرضان جوانب متعددة لطفرة الأنترنت وعلاقتها بالمجتمع والأفراد وأنماط التواصل. في الواقع، شكل تبادل الروابط عبر الأنترنت عنصر تحول أساسي؛ من حيث أنه "يسهل التواصل والتشبيك الاجتماعي لدى الفئات الشابة والمنظمات المُمَثِّلة للمجموعات المهمشة. كما أنه يقدم ويفتح أمام المستعملين معلومات، ويتيح التزاماً معرفياً أكبر بشأن مواضيع وقضايا ذات اهتمام شخصي"<sup>2</sup>.

إن التواصل السياسي في مجتمع منصهر أكثر فأكثر في بوثقة رقمية، يأخذ أبعاداً جديدة من خلال تبادل المحتوى الرقمي عبر الروابط. ففي هذه البيئة تعمل "الشركات والحكومات والمستعملين الأفراد على التمكين لأفكار معينة على حساب أخرى من خلال خلق وترويج روابط معينة وليس غيرها"<sup>3</sup>. ضمن هذا التصور يؤسس جيمس جي. ويبستر James G. Webster لمفهوم "سوق جذب الانتباه"<sup>4</sup>؛ حيث تشكل بيئة الأنترنت شديدة التشبيك مجالاً للتنافس بين صناع المحتوى. إنها سوق افتراضية أو صالة عرض افتراضية يخوض فيها منتجو المحتوى منافسة شرسة من أجل الاستحواذ على اهتمام الجمهور. وتأخذ هذه المعركة ضراوتها القصوى من عدم التناسب بين الوفرة والامحدودية العرض المتدفق على الشبكة العنكبوتية وبين محدودية الجمهور والزمن الإجمالي الذي يمكن للجمهور أن يخصصه للمشاهدة والتفاعل. إن طريقة تحصيل انتباه

<sup>1</sup> Joseph Turow and Lokman Tsui, editors. (2008). The hyperlinked society: questioning connections in the digital age. Ann Arbor: University of Michigan Press: University of Michigan Library.

<sup>2</sup> Jay G. Blumler. (2015). Core Theories of Political Communication: Foundational and Freshly Minted, Communication Theory, Volume 25, Issue 4, November 2015, P.431.

<https://doi.org/10.1111/comm.12077>

<sup>3</sup> Joseph Turow and Lokman Tsui, editors. Op.Cit. P.4.

<sup>4</sup> Ibid.P.23.



الجمهور وامتلاكه والتأثير فيه تصبح بهذا المعنى حجر الزاوية وشرطا قريبا من شروط التغيير الاجتماعي.

بالرغم من إطاره، الذي يغلب عليه الطابع التقني، إلا أن هذا التصور النظري لبيئة الأنترنت وقيمة الروابط فيها يقدم مفاتيح مهمة لمقاربة التواصل السياسي الذي يجري فيها. فالسمات الأساسية لهذه البيئة تبرز "سواء أعجبك ذلك أم لا، أن الحشود (crowds) أصبحت تشكل عالمنا بشكل متزايد، فأعمال الفاعلين تتجمع وتعرض نفسها أمام الجميع"<sup>1</sup> في هذا الفضاء الرقمي؛ وهذا ما يخلخل في العمق موارد ومخرجات النظام الإعلامي القديم. إن الاستعمال الواسع للروابط وما خلقتة من فضاءات مشتركة للتشبيك يزيد وفق هذا المنظور من حجم الفضاء العام بل ويشكله. ويفسح مجالات واسعة للفعل الذي يمكن للأفراد بلورته. من هذا المنطلق، وتأسيسا على طروحات نظرية البنية<sup>2</sup> لأنثوني جيدنز (theory of structuration<sup>3</sup>) يشير جيمس ويبستر James Webster إلى أنه "بالرغم من أن فحص الاقتصاد السياسي للروابط يشير إلى أن المصالح المنظماتية تتحكم في مصفوفة روابط الأنترنت التي يصادفها الأفراد، إلا أن المتأمل يتبين أن المستعملين الأفراد يملكون سلطة أكبر على النظام أكثر مما يبدو للوهلة الأولى"<sup>4</sup>.

### المطلب الثاني: نظرية الفعل المترابط Connective Action Theory

ينطلق هذا الطرح من دراسة الديناميات التنظيمية الناشئة من الوضع الذي يصبح فيه التواصل مكونا أصيلا ورئيسيا من البنية التنظيمية. في الدراسة المؤسسة لهذه النظرية أخذ كل من لانس بينيت (Lance Bennett) وألكساندرا سيجبرغ (Alexandra Segerberg) السياق الجديد الذي تعتمل فيه ديناميات تواصلية جديدة تستعمل الأدوات الرقمية وتنشط بأشكال

<sup>1</sup> Joseph Turow and Lokman Tsui, editors. Op.Cit. P.35.

<sup>2</sup> يورد الدكتور حسن احجيج في كتابه: مدخل إلى علم الاجتماع: "... البنيات الاجتماعية، بحسب غيدنز، تمارس إكراهات خارجية على الفاعلين، بحيث إنهم لا يختارون شروط حياتهم، لكنها تزودهم في الوقت نفسه بالظروف التي تسمح لهم بالاشتغال على البنيات، ومن ثم إن البنيات وسيط ونتيجة للفاعل في الآن نفسه".

أنظر: احجيج حسن. (2020). مدخل إلى علم الاجتماع: نظرياته-مناهجه-قضايا المعاصرة. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. بيروت. ص. 256.

<sup>3</sup> يشير غيدنز إلى أن "المجال الأساسي لدراسة العلوم الاجتماعية، حسب نظرية البنية، ليس تجربة الفاعل الفرد، ولا وجود أي شكل من أشكال الشمولية الاجتماعية، ولكن مجالها هو انتظام الممارسات الاجتماعية عبر الزمن والمجال.. إن الفاعلين، في نشاطهم ومن خلالها، يعيدون إنتاج الشروط التي تجعل تلك الأنشطة ممكنة". أنظر:

Giddens, A. (1984). The constitution of Society: Outline of the Theory of structuration, University of California Press. P.2

<sup>4</sup> Joseph Turow and Lokman Tsui, editors. Op.Cit. P.7.

متباينة من خلال الوسائط الرقمية. يبرز الباحثان من خلال دراسة منطق الفعل المترابط: الإعلام الرقمي وشخصنة السياسات المثيرة للجدل<sup>1</sup> أن منطق الفعل المترابط يأخذ بعين الاعتبار "(أ) انتشار مجموعات القضية الواحدة، (ب) وميول الأفراد إلى اتخاذ قرارات المشاركة حسب هوياتهم الشخصية وظروفهم وأسلوب حياتهم، (ج) والإمكانات التي توفرها الوسائط الرقمية من أجل التعبئة السياسية"<sup>2</sup>.

ينبني منظور منطق الفعل المترابط على التغير الملاحظ (في اتجاه التآكل) في سلطة التنظيمات الرسمية الكلاسيكية على الأفراد وفي قدرتها على التأثير في سيرورات الفعل، في سياق تطغى عليه بشكل متزايد تكنولوجيا التواصل الرقمي، وتستوعب فيه شبكات التواصل الاجتماعي عالمنا الحقيقي، وتبلور فيه افتراضيا إمكانات فعل جديدة. إن هذه الشبكات "بإمكانها أن تعمل بشكل رئيسي من خلال السيرورات التنظيمية لوسائل التواصل الاجتماعي. كما أن منطقها لا يتطلب تحكما تنظيميا قويا أو بناء رمزيا لنحن موحدة"<sup>3</sup>.

يميز لانس بينيت (Lance Bennett) و ألكساندرا سيجبرغ (Alexandra Segerberg) بين نوعين من منطق الفعل ارتباطا بالبيئة والإطار التنظيمي الذي يتحدد به. ويتعلق الأمر بمنطق الفعل الجماعي ومنطق الفعل المترابط؛ حيث يتميز كل منهما بديناميته الخاصة. فمنطق الفعل الجماعي يركز على "إشكاليات دفع الأفراد إلى المساهمة في المجهود الجماعي الذي يستتبع العادة البحث عن مصلحة الجمهور، التي بدورها يمكن أن تتحقق بشكل أفضل من خلال بناء قضية مشتركة"<sup>4</sup>. من هذا المنظور، يكمن تحدي هذه الدينامية في ضمان مساهمة كل الأفراد في الجهد الجماعي، بما أن الاختيار العقلاني والبراغماتي يجعل العديد من الأفراد يعتمدون على جهد أقرانهم في تحقيق الأهداف الجماعية، أو يقتنعون بأن جهدهم قد يكون زائدا أو من دون تأثير في إطار النسق العام. إن هذا المنطق من الفعل الجماعي المرتبط بالحركات الاجتماعية يقوم في استدامته وفعاليته على مجهود تعبئة شامل، ووساطات مسترسلة لتجاوز الخلافات الناشئة. وعلى المستوى الفردي فإن منطق الفعل الجماعي "يرسخ دور منطق علاقات الشبكة الاجتماعية

<sup>1</sup>W. Lance Bennett lbennett@uw.edu & Alexandra Segerberg (2012) THE LOGIC OF CONNECTIVE ACTION, Information, Communication & Society, 15:5, 739-768, DOI: 10.1080/1369118X.2012.670661

<sup>2</sup> Jay G. Blumler. (2015). Op.Cit.P.431.

<sup>3</sup> W. Lance Bennett lbennett@uw.edu & Alexandra Segerberg (2012) . Op.Cit. P.748.

<sup>4</sup> Ibid.P.749.

والارتباطات بوصفها شروطا قبلية غير رسمية من أجل تعبئة أكثر مركزية<sup>1</sup>. بهذا الصدد، فنظرية الفعل الجماعي تشير إلى أن الأفراد يتعبؤون في إطار جماعي من أجل تحقيق أهداف مشتركة تشمل احتجاجات معارضة لشيء ما أو حملات مطالبة بشيء ما. وفي ما يتصل ببيتنا الرقمية الجديدة، فمن المعروف أن نظرية الفعل الجماعي، اعتبرت تقليديا "مستقلة عن الإعلام واستعمال الوسائط الاجتماعية، وتصف السيناريوهات غير المتصلة بالإنترنت، التي تتسم بكونها قوية التنظيم ومحكمة التأطير مع وجود روابط قوية بين الفاعلين"<sup>2</sup>.

في المقابل، فإن منطق الفعل المترابط يقوم على دينامية مختلفة لا سيما في بعدها التنظيمي. هنا يؤكد (Lance Bennett) وألكساندرا سيجبرغ (Alexandra Segerberg) أن الشرط التكنولوجي الذي يجري فيه التواصل يضطلع بدور الفاعلية التنظيمية الأساسية؛ حيث تركز دينامية منطق الفعل المترابط على مشاركة القنوات والأفكار الشخصية بوصف ذلك حافزا ذاتيا. وهذا ما يجعل شبكات التواصل الاجتماعي إطارات تنظيمية فعلية استنادا إلى إمكانات الفعل والتشبيك والترابط والمرونة التي تتيحها للأفراد. بهذا الصدد يشير كل من أسماء حسين ملكاوي ومشاري الرويح ويحيى السيد عمر في دراستهم لنموذج لتحليل الشبكات الاجتماعية إلى أن الفعل المترابط "يوضح قدرة الأفراد على بناء تأثير حقيقي، من خلال شبكات التواصل الاجتماعي، بمعزل عن منطق المنظمات الحقوقية وإدارتها، بحيث تقوم تكنولوجيا التواصل الاجتماعي بدور الفاعلية التنسيقية، بدلا من تلك المنظمات"<sup>3</sup>. إن فضاءات التواصل المفتوحة، وطبيعة الدينامية الناشئة من تبادل المحتوى ومشاركته وتداوليته وبناء المبادرات تنطوي على حالة فريدة من التنظيم التلقائي، تميز منطق الفعل المترابط.

إذا كانت شبكات الفعل الجماعي وفق ما وصفناه أنفا تستند إلى إطار تنظيمي ممرکز أو محكم التأطير، فإن الفعل المترابط يستمد ديناميته من الطابع المفتوح للوسائط الرقمية التي تشكل في حد ذاتها فواعل تنظيمية، تراجع أمامها حدود التأثير الذي تمارسه الإطارات التنظيمية

<sup>1</sup> W. Lance Bennett lbennett@uw.edu & Alexandra Segerberg (2012) . Op.Cit. P.751.

<sup>2</sup> Milad Mirbabaie, Felix Brünker, Magdalena Wischnewski, and Judith Meinert. (2020). The Development of Connective Action during Social Movements on Social Media. ACM Trans. Soc. Comput. 4, 1, Article 3 (April 2021). P.35. <https://doi.org/10.1145/3446981>

<sup>3</sup> أسماء حسين، ملكاوي، مشاري الرويح، حي السيد عمر (2021). حملة مقاطعة المنتجات الفرنسية على تويتر: دراسة في تحليل الشبكات الاجتماعية. مجلة لباب للدراسات الاستراتيجية والإعلامية. السنة الثالثة. العدد 10. ماي 2021. مركز الجزيرة للدراسات. ص.16.

التقليدية. فالأداة التكنولوجية تسمح للدينامية بالتشكل بالرغم من أن الروابط بين الأفراد الذين يشكلون هذه الشبكات الرقمية ضعيفة. فمع "هذه الشبكات البين-شخصية التي أصبحت ممكنة بفضل المنصات التكنولوجية أصبح الفعل الناتج شبيهاً بالفعل الجماعي لكن بدون أهمية التنظيم الرسمي أو تحول الهوية الاجتماعية"<sup>1</sup>، ولا حتى دور القائد أو الكاريزمة الشخصية. عوضاً عن ذلك، تبرز سمات جديدة مرتبطة بالفاعلية التي تميز الفعل المترابط، حيث يشكل التعبير الشخصي إحدى معطياته الأساسية، التي تأخذ جوهر امتدادها من خلال إمكانات التقاسم والنشر وإعادة النشر؛ مما يسمح بتوسيع نطاق الفعل جغرافياً واختصار الحيز الزمني لتحقيق الانتشار. وقد أبرزت الحركات الاجتماعية خلال العقدين الماضيين أثر هذا الشرط التكنولوجي وخصوصية الفعل المترابط في كنفه. إن موجات الربيع العربي، وحركات "احتلوا وول ستريت" ومثيلاتها عبر العالم، وغيرها تقدم أمثلة بليغة عن متانة الصلة بين نظرية الفعل المترابط وأبعاد الحركات الاجتماعية والتواصل السياسي في عصر الأنترنت.

### المبحث الثاني: النظام الإعلامي الجماهيري والنظام الإعلامي الجديد

إذا كانت تكنولوجيا الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي قد خلقت واقعاً جديداً، ومكنت الفاعلين والبنيات التقليدية من الانتقال إلى إمكانات جديدة على مستوى الأدوار والعلاقات؛ إلا أنها لم تلغ النظام الكلاسيكي. إنها لم تكتب شهادة وفاة وسائل الإعلام الجماهيرية التي سادت المشهد لعقود طويلة. لقد أضحينا إزاء نظام مختلط يجري فيه نوع من تبادل التأثيرات والاستيعاب المتبادل. إن هذا الوضع الجديد هو ما سعت العديد من البحوث والاتجاهات النظرية إلى الإحاطة بطبيعة العلاقات والديناميات الناشئة فيه؛ تلك العلاقات والديناميات القائمة بين نظام إعلامي كلاسيكي ونظام إعلامي يستمد خصوصيته من إطاره التكنولوجي الحديث.

### المطلب الأول: نظرية تأثيرات الامتداد

تعيد هذه النظرية، بصيغة محينة، طرح سؤال بناء الأجندة الإعلامية الذي رافق البحث الاجتماعي والدراسات الإعلامية لعقود من الزمن. فبالرغم من ثراء الأدبيات الاجتماعية المتوفرة بخصوص إشكاليات وضع الأجندة وبنائها في السياق الاجتماعي الذي سادت فيه وسائل الإعلام

<sup>1</sup> Milad Mirbabaie, Felix Brünker, Magdalena Wischniewski, and Judith Meinert. (2020). Op.Cit. 35.

الجماهيرية<sup>1</sup>، إلا أن فهم الكيفية التي يؤثر بها الأنترنت على أجندة وسائل الإعلام الكلاسيكية لم تحظ بالقدر نفسه من العناية والبحث. بهذا الصدد، تنكب نظرية تأثيرات الامتداد على فهم "الشروط التي يمتد فيها تأثير الأجندات المتنافسة على الأنترنت إلى أجندات وسائل الإعلام التقليدية، وحظوظ التأثير المماثلة على الرأي العام وأجندة الفاعلين السياسيين"<sup>2</sup>.

تنطلق هذه النظرية، التي اشتغل عليها كل من بارابارا فيتش ولانس بينيت وسيلك آدم، من الواقع الإعلامي الرقمي المتشكل عن الطفرة التي عرفتها تكنولوجيا الإعلام والاتصال. فالأدوات التواصلية الرقمية المستجدة أتاحت مسالك جديدة لبناء الأجندة؛ حيث تُمكن الفضاءات التواصلية الناشئة، كالمدونات والصفحات والحسابات وتقنيات البث المفتوح وغيرها، من تجسيد "مدخلات جديدة بإمكانها جذب إثارة اهتمام وسائل الإعلام التقليدية وبالتالي خلخلة سيرورات وضع الأجندة الإعلامية"<sup>3</sup> كما كان يقع في مرحلة سابقة. تكتسب هذه الفضاءات الرقمية الجديدة قوتها وتأثيرها من إتاحتها الفرصة للفاعلين المهمشين للتعبير وتوجيه الرسائل إلى المتعاطفين معهم وإلى الجمهور الواسع بمعنى أعم. إن هؤلاء الفاعلين المهمشين في النظام الإعلامي القديم (الجماهيري) يتشكلون من فئات واسعة من الذين لم تكن الأطر التنظيمية السياسية والمدنية تسمح لهم بالولوج إلى الفضاءات التمثيلية وإلى وسائل الإعلام الجماهيرية؛ هذه الفئات تشمل فاعلين سياسيين محدودي التمثيلية، أقليات، جمعيات محلية، مجموعات القضايا الفئوية.. وغيرهم. بهذا المعنى أكسبت الأداة الرقمية لهؤلاء جميعاً حقوقاً متساوية في التعبير خارج الكوطات الرسمية ونظام توزيع الحصص الزمنية لأخذ الكلمة في المؤسسات التمثيلية وفي وسائل الإعلام الرسمية حسب معايير محددة.

تحدد هذه النظرية ثلاثة أنواع من تأثير الامتداد الذي يجري من خلال دراسة التداخل بين النظام الإعلامي الرقمي والنظام الإعلامي غير الرقمي. فحين ينتقي الصحافيون في الإعلام التقليدي الرسائل انطلاقاً من مما تروجه الشبكات الرقمية للفاعلين المتنافسين نكون إزاء تأثير

<sup>1</sup> Maxwell E. McCombs, Donald L. Shaw cardinal@email.unc.edu & David H. Weaver. (2014). New Directions in Agenda-Setting Theory and Research, Mass Communication and Society, 17:6, 781-802, DOI: 10.1080/15205436.2014.964871

<sup>2</sup> Jay G. Blumler. (2015). Op.Cit.P.431.

<sup>3</sup> Barbara Pfetsch, Silke Adam & W. Lance Bennett. (2013). The Critical Linkage between Online and Offline Media, Javnost - The Public, 20:3. P.11, DOI: 10.1080/13183222.2013.11009118

امتداد مباشر من الإطار الإعلامي الرقمي إلى الإطار الإعلامي الكلاسيكي. هذا النوع من التدفق "يُعتبر استراتيجية ناجعة للفاعلين المتنافسين ويمثل في أعينهم تقدماً هائلاً في مستوى الولوج إلى الجمهور"<sup>1</sup>. من جانب آخر، يحدث أيضاً أن تتفاعل المنصات الرقمية لوسائل الإعلام التقليدية مع خطاب الشبكات الرقمية للفاعلين وتجمعاتهم من خلال معالجات إعلامية لقضاياهم التي يترافعون عليها افتراضياً؛ كما تتم إعادة نشر ذلك المضمون في النشرات الورقية أو عبر القنوات التقليدية للبحث، في هذه الوضعية نكون إزاء الحالة الثانية من تأثير الامتداد ويسمى "تأثير الامتداد المضاعف"<sup>2</sup>. يبقى أيضاً من الوارد حدوث انتقال في التأثير من الوسائط الرقمية وفضاءات التفاعل التي ينشط فيها الفاعلون المهتمون تقليدياً إلى أجندة الفاعلين السياسيين أو المؤسسات السياسية.

تأخذ نظرية تأثير الامتداد وجاهتها من الطابع المستجد لحالة التفاعل الناشئة بين التواصل الرقمي والتواصل غير الرقمي، وبين التواصل السياسي كما يجري في المنصات الرقمية وسلوك ومواقف الفاعلين ووسائل الإعلام والمواطنين في الفضاء الواقعي. فالعديد من الدراسات تشير إلى وجود ديناميات معينة بين الجانبين ومسارات تأثير متعددة الاتجاهات. بهذا الصدد، يشير يوكيونغ زهو، وباتريسيا موي، في تحليلهما لسيرورات التأطير<sup>3</sup> والتداخل بين الرأي العام في العالم الافتراضي واتجاهات التغطية الإعلامية إلى أن "الرأي العام الرقمي يلعب دوراً هاماً في تحويل حدث محلي أصيل إلى قضية بارزة على المستوى الوطني. ويخلف أيضاً أثراً ملموساً في عملية بناء الإطار الخاص بالتقارير الإعلامية المرتبطة بقضية ما، لكن فقط في المراحل المبكرة من التغطية"<sup>4</sup>. بعبارة أخرى، يمارس الرأي العام الرقمي، وفي قلبه التواصل السياسي الرقمي، تأثيراً واضحاً على وسائل

<sup>1</sup> Barbara Pfetsch, Silke Adam & W. Lance Bennett. (2013). Op Cit. P. 12.

<sup>2</sup> Ibid.

<sup>3</sup> يشير كيفن كارديجي، وويم رويفس، إلى أن التأطير "يشير إلى عملية تنظيم القصص الإخبارية والخطابات الأخرى من خلال أنماط انتقائها، وتشديدها، وتأويلها، أو إقصائها. وفي تعريف يستشهد به على نطاق واسع يؤكد إلتمان أن التأطير هو انتقاء بعض جوانب واقع متمثل وجعلها أكثر بروزاً في تواصل مكتوب، بشكمل يسمح بترويج تعريف مشكل ما، أو تأويل سبي، أو تقييم أخلاقي، و/أو توصية بمعالجة ما للقضية الموصوفة".

أنظر:

Carragee, K.M. and Roefs, W. (2004), The Neglect of Power in Recent Framing Research. Journal of Communication, 54: 214-233. <https://doi.org/10.1111/j.1460-2466.2004.tb02625.x>

<sup>4</sup> Zhou, Y. and Moy, P. (2007), Parsing Framing Processes: The Interplay Between Online Public Opinion and Media Coverage. Journal of Communication, 57. P. 79. <https://doi.org/10.1111/j.0021-9916.2007.00330.x>

الإعلام سواء التقليدية أو الرقمية أو تلك التي تمزج بين نمط العمل الرقمي وغير الرقمي، لاسيما فيما يخص بناء الأجندة والتأثير.

لقد أضحت المجال الرقمي مجال صراع أوسع بين الفاعلين جميعا، لاسيما أولئك الفاعلين الذي كانوا على هامش المشاركة في النظام الإعلامي ما قبل الرقمي. هذه الفئة أصبحت تتوفر على إمكانيات جديدة للفعل والتأثير من خلال بناء شبكات رقمية وفضاءات مستقلة للتعبير وتنسيق المبادرات وتشكيل خطاب ورسالة خاصة بها، يمكن من خلالها محاولة التأثير في بناء الأجندة الإعلامية والسياسية، ونقل تمثيلها للواقع إلى الجمهور. من هذا المنظور، يشير كل من بارابارا فيتش ولانس بينيت وسيلك آدم، إلى وجود ثلاثة عوامل ترتبط بدنامية بناء الأجندة الرقمية. وتشمل أولا: تحالف القضية ومروجي الإطار الذي يدمج الفاعلين المتصلين بشدة الذين يضعون القضية على رأس أسبقيات أجندتهم؛ ثانيا: من داخل التحالف يتولى إطار كبير (master frame) عملية التوفيق بين المجموعات المنخرطة..؛ ثالثا: المحتضنون البارزون يحتاجون لأن يكونوا جزءا من التحالف لتسريع القضية"<sup>1</sup>، وهنا يصبح جزء من الفاعلين (المهمشون القدامى) بمثابة مصادر ثابتة للصحافيين بشأن الموضوع.

بصفة عامة، يتيح النظام الإعلامي الرقمي فرصا حقيقية للفاعلين (المهمشون القدامى: مجتمع مدني، أقلية سياسية، نشطاء بيئية..) للتأثير والمشاركة في النقاش العمومي والتأثير في الأجندة الإعلامية والسياسية. فالترسيمة القديمة التي تضطلع فيها النخبة السياسية والاقتصادية والإعلامية المهيمنة بمهمة بناء ووضع الأجندة صارت متجاوزة بشكل جزئي على الأقل، وأصبح الأنترنت فضاء مفتوحا للتأثير في الواقع ولالإدماج في النقاش العمومي. مع ذلك، فإذا كان الأنترنت بهذا المعنى، يقدم ولوجية أفضل للفضاء العام، ويسمح بالالتفاف على الرقابات المرسمة والكلاسيكية، فإن زاوية النظر إلى هذا التحول لا تلغي استمرارية النظام الإعلامي الجماهيري بمؤسساته الكبرى، ونماذجه الاقتصادية، وبأنماط اشتغاله، وبقدرته على التكيف مع الشرط الرقمي. فالنظر إلى تحولات التواصل السياسي يفضي إلى الوقوف على نشوء نظام إعلامي هجين يجمع بين البنيات القديمة والبنيات الرقمية التي برزت مع انتشار الأنترنت وتطور منصات.

<sup>1</sup> Barbara Pfetsch, Silke Adam & W. Lance Bennett. (2013). P.14.

### المطلب الثاني: التواصل السياسي في نظام إعلامي هجين

يعد "النظام الإعلامي الهجين"<sup>1</sup> الذي قدمه أندرو شادويك أول مرة عام 2013 بوصفه إطاراً نظرياً واسعاً ومدمجاً إضافة جديدة في زاوية النظر إلى تجاور وتفاعل القديم والجديد في النظام الإعلامي. فعلى غرار العديد من علماء الاجتماع الذين سعوا إلى تجاوز الثنائيات المسيجة للنظر في إشكاليات الواقع، حاول شادويك تجاوز الثنائية التي أضحت أكثر بروزاً مع انتشار الأنترنت، وهي ثنائية وسائل الإعلام القديمة ووسائل الإعلام الجديدة، الإعلام الجماهيري والوسائط الاجتماعية، الرقمي وغير الرقمي.

يستند شادويك في بسطه لهذا الإطار النظري إلى مقولة في غاية الدلالة؛ حيث إن "كل وسائل الإعلام القديمة كانت يوماً ما حديثة، وكل وسائل الإعلام الحديثة تتقادم بمرور الوقت، لكن نادراً ما تم استبدال وسائل إعلام قديمة بأخرى حديثة مهما كانت التداعيات"<sup>2</sup>. فما يحصل حقيقة عبر الطفرات التكنولوجية، لا يتعلق بدفن القديم والاحتفال بالجديد، ولا بإحداث قطائع تكنولوجية، بل بتراكم التعقيد الناجم عن تجاور وتعدد وسائل الإعلام وتكيفها، وانعكاسات ذلك على ممارسات التواصل السياسي ومنطق التفكير في الحملات الانتخابية وتنفيذها.

إن ضرورة هذا التجاوز للثنائيات الكلاسيكية تستند إلى تداخل ديناميات التواصل السياسي ببعدها الرقمي وغير الرقمي. لقد أحدث الأنترنت تغييراً جوهرياً في منطق التواصل السياسي وسيروراته وعلاقات الفاعلين فيه والترابط المتباين المستويات بين مختلف وسائل الإعلام، قديمها وحديثها. فتمتد آثار هذه الهجانة لتشمل "استبدال حقبة الأخبار بحقبة الأخبار السياسية، وخلخلة علاقات السلطة بين النخب والفئات غير النخبوية، وبروز شراكة بين الأصوات الصحفية القديمة والمستجدة، واهتماماً متعدد الأشكال للجماهير بالتواصل السياسي"<sup>3</sup>. في الواقع، يصف النظام الإعلامي الهجين لشادويك "تكامل قنوات التواصل الرقمية والتقليدية، على غرار التعايش بين الفعل الذي تمارسه القاعدة المناضلة لحزب سياسي والتحكم

<sup>1</sup> Chadwick, Andrew. (2017). The Hybrid Media System: Politics and Power, 2nd edition, Oxford Studies in Digital Politics. New York.

<sup>2</sup> Ibid. P. 23.

<sup>3</sup> Jay G. Blumler. (2015). Op.Cit. P.432.



الذي تمارسه نخبه في عملية تصور وتنفيذ استراتيجياته الانتخابية"<sup>1</sup>. هذا الصدد يقول شادويك إن كتابه "النظام الإعلامي الهجين" ينطلق من منظور يقوم على إمكانية فهم أي وسيط بشكل أفضل باعتبار موقعه في نظام علاقات ترابطية مع وسائل إعلام أخرى"<sup>2</sup>. إن مسألة الهجانة من هذا المنظور ليست طارئة فقط مع هيمنة الأنترنت على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية. إنها سيرورات طويلة من الطفرات التكنولوجية التي انغرس في نمط الحياة الاجتماعية وأثرت فيها منذ اختراع الطباعة مروراً باختراعات القرن التاسع عشر، وما جرى من انتقالات متسارعة بين نمط إعلامي وآخر خلال القرن العشرين. وحتى عند طرح سؤال مركزي من أسئلة هذا الكتاب: كيف يجد الإعلام الرقمي الجديد موقعه ضمن تاريخ الهجانة الإعلامية؟ يؤكد شادويك أن الأنترنت نفسه استقى معجمه من معجم الورقي، ولا أدل على ذلك من استلهام مفاهيم: الصفحات والملفات وغيرها.. التي تشكل أيقونات من حقبة الورقي.

في الواقع، تتسم سيرورات الهجانة الإعلامية بالاستمرارية والتداخل. حيث يتيح الفضاء التكنولوجي فرصاً لا متناهية لإبداع الأشكال التواصلية والتفاعلية بخصوص مواضيع السياسة، كما أن الوسائط جميعاً تتكيف بشكل مستمر مع خصوصيات الأنترنت لتطور من مضمونها وشكلها، وتعزز من مجال تأثيرها على الجمهور. على سبيل المثال، في هذا الفضاء لم يمت التلفزيون بوصفه الوسيط الأوسع تأثيراً والأكثر استهلاكاً من طرف الجمهور. فهو لا يزال "يحتفظ بريادته في مجال الوساطة السياسية"<sup>3</sup> حسب شادويك. لكن أنماط تسويق مضمونه اختلفت. وجرى الانتقال من نمط بث واحد، إلى أنظمة بث مفتوحة وإلى إنتاج مضامين خاصة بجمهور الأنترنت، وإلى استثمار الخصائص التفاعلية للأنترنت في تكريس وجوده من خلال الاستطلاعات السياسية والأشكال الخاصة بالمشاهدة عبر الهاتف المحمول وغيرها...

إن النظام الإعلامي الهجين الذي يتحدث عنه أندرو شادويك لا يقتصر مداه فقط على الإطار التقني وما أتاحه من تجاوز الوسائط القديمة والجديدة، وإنما يشمل على الخصوص الإطار التفاعلي غير المسبوق الذي ينخرط فيه الجمهور. هذا الجمهور، أصبح بإمكانه الاستفادة من تدفق لا متناهي المصادر والتنوع للمضامين السياسية، وأضحى بإمكانه الاستفادة من

<sup>1</sup> Giasson, T., Greffet, F. & Chacon, G. (2018). Relever le défi de l'hybridité : les objectifs des stratégies de campagnes numériques lors des élections française et québécoise de 2012. Politique et Sociétés, 37(2). P.23. <https://doi.org/10.7202/1048875ar>

<sup>2</sup> Chadwick, Andrew. (2017). Op.Cit. P.24.

<sup>3</sup> Chadwick, Andrew. (2017). Op.Cit. P.59.

خصائص الانفتاح والمرونة التي يتيحها الأنترنت. وعلى نحو غير مسبوق، "أصبحت الجماهير تمارس تأثيراً، وتحاسب السياسيين ووسائل الإعلام من خلال استعمال منطلق اشتغال الإعلام الجديد"<sup>1</sup>. ففي غمرة هذا الانتقال مما يسميه شادويك "دورة الأخبار التقليدية" التي كانت تعتمد على مواعيد يومية ثابتة للبث، إلى دورة الأخبار السياسية التي تتسم بانضغاط الزمن واعتماد البث المباشر والمتواصل 24 ساعة على 24، وتموقع الفاعل السياسي والمضمون السياسي في تمفصلات هذه البيئة الإعلامية، أصبحت الطرق الهجينة التي تقدم بها الأخبار السياسية تقدم فرصاً جديدة للفاعلين غير النخبويين من أجل التموقع في سيرورات إنتاج الأخبار من خلال مداخلات محددة زمنياً، ومباشرة أحياناً، وفردية، وتفاعلات مع صحافيين مهنيين"<sup>2</sup>.

يقدم شادويك في كتابه "النظام الإعلامي الهجين" بشكل مفصل قصة الحالة الأكثر دلالة في تاريخ الحملات الانتخابية في تاريخ الولايات المتحدة. وتتعلق بالانتخابات الرئاسية للعام 2008، التي اعتمدت بشكل غير مسبوق على الجانب الإعلامي لكن بطريقة جديدة كلياً. فمنطلق هذه الحملة الانتخابية انبنى أساساً على إدماج الاشتغال على المنصات القديمة والجديدة في الآن نفسه. وهكذا "استخدم فريق الحملة الانتخابية وسائل التواصل الاجتماعي، وقواعد المعطيات حول الناخبين من أجل جمع 500 مليون دولار من التبرعات تم توجيهها لشراء حصص زمنية للإشهار التلفزيوني"<sup>3</sup>. لقد اكتسبت هذه الحملة قوتها من تكامل الأدوات التواصلية. فالتبرعات التي يتم جمعها في المنصات الرقمية تم توجيهها لشراء مساحات إعلانية في التلفزيون (الذي هو وسيلة إعلام من الجيل القديم). كما تم الاعتماد على المنصات الرقمية في تنشيط مبادرات الحملة الانتخابية التي تجري على أرض الواقع. بهذا الصدد، يوضح روبرت شادويك أن حملة الرئيس الأسبق باراك أوباما استعملت الأنترنت في اجتذاب النشطاء والمتعاونين والتأثير في المواقف والتواصل مع فئات الجمهور المختلفة. غير أن هذا الشق الرقمي لا يختزن قصة النجاح كلها؛ فدلالة هذه الحملة لا "تكمن في الترويج من خلال الأنترنت، ولكن في كيفية دمجها، بلا هوادة، وسائل التواصل الرقمية وغير الرقمية، والنشاطية الشعبية، والتحكم في النخب، ومنطلق الإعلام الكلاسيكي ومنطلق الإعلام الجديد"<sup>4</sup>. هذه العناصر تشكل بحسب شادويك استراتيجية التناغم السμφوني الذي يعتقد أنه أحدث الفارق في نتائج المنافسة الانتخابية للعام 2008 في الولايات

<sup>1</sup> Ibid.

<sup>2</sup> Ibid.P.87.

<sup>3</sup> Giasson, T., Greffet, F. & Chacon, G. (2018). Op.Cit.P.23.

<sup>4</sup> Chadwick, Andrew. (2017). Op.Cit. P.113.

المتحدة الأمريكية. وهكذا، فإن التواصل السياسي في هذه الحالة اكتسب فعاليته من عدم الانبهار بالإطار التكنولوجي الذي يفرضه السياق (الأنترنت، منصات التواصل الاجتماعي)، ولكن من خلال الوعي بإمكانيات النظام الإعلامي الهجين بمختلف أدواته، وطابع التعقيد الذي يسمه في سيرورات الاستجابة لتحديات الحفاظ على قدرة التأثير لدى المؤسسات السياسية. بمنطق شادويك كانت حملة الرئيس باراك أوباما "إجابة موزونة ومتحكما فيها للاتجاهات طويلة الأمد لتشظي الوساطة السياسية"<sup>1</sup>.

وبشكل عام، لا تكمن فرادة الفضاء الإعلامي الذي يتوسع بفضل الأنترنت في خصوصيات منصاته الجديدة، وأدواته الرقمية الأكثر جدة، بل في "منطق التفاعل، ومنطق التكيف، ومنطق التطور المشترك للإعلام القديم والجديد"<sup>2</sup>. من هذه الزاوية، فالإطار الهجين للتواصل السياسي لا يتيح فرصة التأثير فقط للنخبة السياسية، وللفاعل السياسي بوصفه مؤسسة أو منظورا إليه كفاعل مستقل، بل يوسع هوامش الفعل للمواطنين غير المنتمين إلى النخبة. بشكل محقق، ففُرض المواطن "لاستعمال الإعلام والنشاط فيه بوصفه أدوات للتأثير في شكل ومضمون الخطاب العمومي، هي في الميزان، أكبر مما كانت عليه في فترة الهيمنة ثنائية القطبية للتلفزيون والصحافة المكتوبة"<sup>3</sup>.

إن هذه المقاربة في النظر إلى النظام الإعلامي وعلاقته بالسياسة بالاعتماد على رؤية شادويك للبهجة الإعلامية لا تحجب عنا إمكانات التعبير اللامحدودة، والتي تأخذ قوتها من مجهولية الفاعل على المنصات الاجتماعية، كإمكانية من إمكانات التعبير، تعزز قدرات المواطنين على التخطيط وبناء مبادرات جماعية وتنسيق المواقف إزاء قضايا الشأن العام، وتتخطى أشكال الرقابة والتضييق. لكنها مع ذلك تشكل في عدة حالات، تحديا أساسيا لسلامة هذا الفضاء العمومي الرقمي وأصالة الأفعال المنتجة فيه، ورواج خطابات التطرف السياسي في اتجاهات متعددة، وتكريس أزمة الثقة وفجوات التشكك بين المواطنين والحكومات. ولئن كان من الصائب اليوم تدقيق النظر في حالة التواصل السياسي من زاوية التداخل بين وسائل الإعلام التقليدية والوسائط الرقمية الجديدة، إلا أن هذا التداخل يبقى غير محصن إزاء إكراهات البنية الرقمية، التي تترجح تحتها وسائل إعلام كلاسيكية تبتغي البقاء والانتشار ومواجهة المد الرقمي. ونقص ذلك

<sup>1</sup> Chadwick, Andrew. (2017). Op.Cit. p.136.

<sup>2</sup> Bruns, A., Enli, G., Skogerbo, E., Larsson, A.O., & Christensen, C. (Eds.). (2015). The Routledge Companion to Social Media and Politics (1st ed.). Routledge. P.19. <https://doi.org/10.4324/9781315716299>

<sup>3</sup> Ibid.

الإكراهات التجارية والمالية، وتحديات مسابقة قوانين الخوارزميات للوصول إلى الجمهور، وتكريس مكانة هذا الإعلام التقليدي التي لم تعد تقاس بتقييم مستقل لجودة المضمون فقط، بل بمؤشرات القياس الجديدة (نقرات الإعجاب، عدد الزيارات، مشاركة المحتوى، التفاعل..) وبتكييف مستمر للأشكال التي تصاغ فيها المضامين.

ترتبط بهذا النقاش بخصوص النظام الإعلامي الهجين أسئلة دقيقة بشأن قدرته على تدبير أفضل للنقاش العمومي. فلاتزال استطلاعات الرأي تظهر امتعاض المواطنين من عدم قدرتهم على إيصال أصواتهم إلى الحكومات على نحو فعال، ولاتزال أزمات الديمقراطية في الدول الغربية تشير على نحو دال إلى وجود خلل ما في مسارات التواصل السياسي وميكانيزمات تبليغ الرسائل. صحيح أنه "لم يكن ثمة عبر التاريخ، فرص بالكثرة التي نعيها للولوج والتعليق وتحدي السلطات الحكومية، لكن بالقدر نفسه لم يسبق، على الأقل في تاريخ الديمقراطية، أن أحس الجمهور بالإحباط حيال العجز في قدرته على خلق أي فارق في سياسات الحكومة وقراراتها"<sup>1</sup>. بهذا المعنى، تلتصق بهذا النظام الإعلامي إشكاليات عويصة. فإذا كان الأنترنت قد أعطى لمبدأ الفورية في الإخبار والتفاعل والتبادل الأسبقية، فإنه أيضا ألهم حاجة الجمهور إلى الإحساس بأن مواقفه الفورية والمتغيرة باستمرار تؤخذ بعين الاعتبار بشكل متواصل من طرف صناع القرار في كل القضايا، وهو ما يفتح النقاش العمومي في الفضاء الرقمي على تحديات جديدة ترتبط بأدوار الفاعلين في نسق التواصل السياسي.

### المبحث الثالث: زوايا النظر إلى التواصل السياسي من خلال أدوار الفاعلين

يتسم النظر إلى تحولات التواصل السياسي في العصر الرقمي بتنوع المقاربات التحليلية، التي سعت إلى رصد الديناميات، وأدوار الفاعلين من خلال زوايا متعددة. فقد أسبغت الطفرة التكنولوجية والشرط الرقمي خصوصيات إضافية على طبيعة الحملات السياسية ومكانة الأحزاب السياسية في سياق التدفقات التواصلية التي تعنى بمواضيع الشأن العام. وعلى الرغم من اختلاف الباحثين بشأن تعدد الاصطلاحات على طبيعة الحملات الانتخابية بين من يسميها حملات على النمط الأمريكي وبين يسميها حملات ما بعد الحداثة، أو الحملات الانتخابية

<sup>1</sup> Coleman, S., & Blumler, J. (2009). The Internet and Democratic Citizenship: Theory, Practice and Policy (Communication, Society and Politics). Cambridge: Cambridge University Press. P. 14. doi: 10.1017/CBO9780511818271

للمجتمعات ما بعد الصناعية<sup>1</sup>، فإن الثابت أن محدوداتها، وخصوصيات ديناميتها، وحدود أدوار السياسيين والنفوذ المتنامي لمستشاري الاتصال والعلاقات العامة، وأدوار التلفزيون والإعلام الجماهيري فيها، وإكراهات السوق الرقمية، ومنطق التسويق السياسي يخلخل في العمق مرتكزات التواصل السياسي كما تبلور في مراحل الأولى.

### المطلب الأول: الحزب أفقا نظريا للتفكير في تطور الحملة الانتخابية في العصر الرقمي

أنتجت البيئة الرقمية ممكنات جديدة للفعل في دينامية التواصل السياسي الذي يشمل المؤسسات السياسية، وخاصة الأحزاب، والمواطنين (الناخبين)، ووسائل الإعلام (الصحافيون). لقد ظهرت في كنف هذا التحول الرقمي أشكال جديدة للتفاعل بين الناخب والحزب السياسي، وجرى استثمار موارد رقمية وتكييف أدوات التواصل السياسي لتتلاءم مع وضعية جديدة كليا على الفاعل السياسي.

حاولت كل من جيبسون وروميل أن تجددوا النظر في خصوصيات الفعل التواصلية للحزب السياسي في السياق الرقمي الجديد، من خلال طرح يُعنى بجعل الحزب السياسي في صلب نظرية مُهَنِّة للحملة الانتخابية<sup>2</sup>. إن مصطلح الحملة الانتخابية المهنة professionalised campaigning يحيل في هذا السياق إلى نموذج في تصور وتنفيذ الحملة الانتخابية يستفيد من تخصصات متعددة في مجال التواصل والتسويق السياسي. وتبرز فيه خصوصا أدوار مستشاري التواصل، ووكالات التواصل، ومسؤولي التسويق السياسي الرقمي، ومديري الحملة الانتخابية. هؤلاء جميعا هم مهنيون من مجال التواصل لا تربطهم بالحزب عموما إلا علاقات مهنية تعاقدية صرفة. هذا الوضع الجديد، يبرز حسب جيبسون وروميل، صيرورة تطور الحملة الانتخابية للحزب بين ثلاث مراحل، تبدأ بمرحلة الحملة ما قبل الحديثة، ثم الحملة الحديثة، فالحملة ما بعد الحديثة<sup>3</sup>. تحيل الحملة ما قبل الحديثة إلى فترة سبقت هيمنة وسائل الإعلام الجماهيري، واعتمدت خصوصا على التنظيم المحلي للحزب وعلى التواصل الشخصي بين المناضلين والناخبين. لكن المكانة المركزية للحزب كواجهة للتواصل الانتخابي ستراجع في المرحلة الثانية، التي اضطلعت فيها وسائل الإعلام الجماهيرية بأدوار جديدة في الوساطة السياسية بين المؤسسات السياسية

<sup>1</sup> Pippa Norris. (2000). A Virtuous Circle: Political Communications in Postindustrial Societies. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

<sup>2</sup> Gibson, R., & Rommele, A. (2001). Changing campaign communications: A party-centered theory of professionalised campaigning. The International Journal of Press/Politics, 6(4), 31–43.

<sup>3</sup> Ibid. P.32-33.

وخاصة الأحزاب من جهة، وبين جمهور الناخبين من جهة ثانية. في هذا السياق، تراجعت الارتباطات المباشرة بين المؤسسة الحزبية والناخبين لفائدة الوسيط الإعلامي الذي ينقل رسائل الحزب في أشكال جديدة إلى الجمهور. من هذا المنطلق، تراجعت أيضا مكانة الفروع المحلية للأحزاب في الحملات الانتخابية لفائدة المركز الذي أصبح ينهض بمهمة تصور وتنفيذ حملة انتخابية تُصرفها وسائل الإعلام الجماهيرية. أما اعتبارا من سنة 1990، فقد بدأت معالم نمط جديد من الحملات الانتخابية تبرز لتأخذ مداها مع انتشار الأنترنت وهيمنة منصات التواصل الاجتماعي ومواقع الفيديو. لقد دخلت الأحزاب السياسية غمار منافسة شعواء على جمهور الناخبين بالاستعانة بأدوات رقمية وأساليب عمل جديدة. فقد أصبح سعي الأحزاب إلى إقناع الناخبين يتم عبر حملات تعتمد استراتيجيات عمل رقمي، وشراء مساحات إعلانية في المنصات الاجتماعية، وأساليب التسويق السياسي، والاستعانة بخبراء العلاقات العامة. هذه الصيرورة تبرز أيضا انتقال الناخب من مناضل يتحرك في الميدان منخرط ووفي، إلى مستهلك في سوق رقمية ينبغي إقناعه عن بعد؛ وكذا انتقال العرض الانتخابي من حالة تواصلية مباشرة وجها لوجه إلى نمط تفاعلي يستبطن مسارات معقدة للتأثير. تلخص جيبسون وروميل خصوصيات هذه الصيرورة وما أحدثته من تغيرات على مستوى الأدوات، والأسلوب، وطبيعة النهج تجاه الناخب، والتوزيع الداخلي للسلطة في مؤسسة الحزب، على النحو التالي<sup>1</sup>:

### الحملات الانتخابية للحزب من منظور تاريخي<sup>2</sup>

الحملات ما قبل الحديثة	الحملات الحديثة	الحملات المهنية
الأدوات	الصحافة الورقية، التجمعات، المتطوعون	القنوات الإخبارية، الإعلانات الإخبارية، سبر الآراء..
النمط / الأسلوب	عمل شاق، التواصل الشخصي، هاوي	تتطلب أموالا ضخمة، وسطاء، غير مباشر
	تتطلب أموالا ضخمة	تتطلب أموالا ضخمة، منطق السوق، الاستهداف، استمرارية

<sup>1</sup> أثرت ترجمة هذا الجدول من مقال الباحثين نظرا لفائدته التبسيطية والتلخيصية لمسار تاريخي معقد من تحولات التواصل السياسي لدى الأحزاب السياسية.

<sup>2</sup> Gibson, R., & Rommele, A. (2001). Op. Cit. P.34.

التوجه نحو الناخب	التعبئة. الناخب = مناضل وفي	الاستقطاب والتعبئة الناخبون = المناضلون وغيرهم	تفاعلي الناخبون=مستهلكون
التوزيع الداخلي للسلطة	مركز محلي	مركزية وطنية	مركزية وطنية ومحلي متشعب

ترتب على دراسة هذه الصيرورة التاريخية للحزب ودوره في الحملات الانتخابية نقاش واسع حول تأثير الطفرات التكنولوجية على الإطار التنظيمي، والممارسات التواصلية، ومنطق الاشتغال الذي يتبناه الحزب في تدبير التواصل الانتخابي ضمن معركة الانتخابات التي هي عماد الديمقراطية التمثيلية. بهذا الصدد، تنوعت الاتجاهات بين من يقول إن ثورة تكنولوجيا الإعلام والاتصال قضت تماماً على الدور المركزي الذي كان يضطلع به الحزب في الحملة الانتخابية، وبين من يرى بأن الأمر يترجم واقع التحول الذي شهدته البنية الحزبية في تكيفها مع الشرط الرقمي الجديد<sup>1</sup>. بهذا الصدد، يرصد بول ويب وديفيد ماثيو فاريل، ثلاثة تغيرات مهمة في عمل الأحزاب بوصفها منظمات للحملات الانتخابية. وتشمل هذه التطورات "أولاً: أن الأحزاب تميل إلى أن تكون أكثر مركزية ومهنية، ثانياً: أنها أضحت أكثر وعياً برأي المواطن واحتياجاته، ثالثاً: أن صورة الحزب والزعيم أضحت تلعب دوراً موضوعاتياً رئيسياً في الحملة الانتخابية"<sup>2</sup>.

يحيل مفهوم المهنة إلى نوع من الانتقال في طبيعة التواصل السياسي للحزب في الفترات الانتخابية، بما يشمل الفاعلين في عملية التواصل، والأدوات المستعملة، والاستراتيجية. إن البعد المهني يحيل هنا إلى مصفوفة طويلة من المهارات المتطورة باستمرار والممارسات التقنية، والتخصصات، والخبرات التي تشكل في حد ذاتها مدخلات جديدة في نسق التواصل السياسي الحزبي. إن نمطاً جديداً من العلاقات المهنية ينشأ بين عالم البنيات الحزبية السياسية وبين عالم وكالات الاستشارة والتواصل. بهذا الخصوص، يأخذ مفهوم الحملة الانتخابية المهنية معناه من

<sup>1</sup> Johnson-Cartee, Karen S & Copeland, Gary. (1997). Inside political campaigns: theory and practice / Karen S. Johnson-Cartee and Gary A. Copeland; introduction by Dan Nimmo. Westport, Conn.: Praeger

<sup>2</sup> Farrell, David, and Paul Webb. 2000. "Political Parties as Campaign Organizations." In Comparing Democracies: Elections and Voting in Global Perspective, ed. Russell Dalton and Martin Wattenberg. Thousand Oaks, CA: Sage. P.21.

سياق جديد يركز على "تخصص المهام، والاستعانة المتزايدة بمشورة الخبراء، وتدبير أو مَرَكَزَة الحملة"<sup>1</sup>.

في هذا الاتجاه، ترى كل من جيبسون وروميل أن "دور الأحزاب في سيرورة الحملة الانتخابية المِهِنَّة يمكن أن يكون أكثر نشاطا مما نعتقده"<sup>2</sup>. ففي مسعاها لفهم طبيعة التحول في الحملة الانتخابية للأحزاب السياسية تنطلق الباحثتان من نقد الدراسات التي أعطت الأسبقية للعوامل النسقية المرتبطة بتحويلات البيئة في دفع البنيات الحزبية إلى اعتناق منطق الحملات الانتخابية المِهِنَّة. ولهذه الغاية تركز الباحثتان على وجود متغيرات خاصة بالحزب يتعين أخذها بعين الاعتبار. ويتعلق الأمر بموارد الحزب، وبنيته الداخلية، ومنظوره الإيديولوجي"<sup>3</sup>. هذه المجموعات الكبرى من المتغيرات هي التي تحدد الدرجة التي بمقتضاها يدقق الحزب السياسي مستوى أسبقية الجانب الرقمي في الحملة الانتخابية ويبدع في استعملاته له"<sup>4</sup>. بالرغم من كون المجموعات الكبرى للمتغيرات تقترح إطارا واسعا لاستيعاب محددات التطور في دينامية الحزب إزاء التواصل السياسي، خصوصا في الحملة الانتخابية، غير أنه يبقى من الصعب القطع بحتمية العلاقة بين الانخراط في نموذج الحملات الانتخابية المِهِنَّة وتحقيق النتائج التي يتوخاها الحزب. فالعوامل ذات الطبيعة النسقية المرتبطة بالبيئة وأدوار الفاعلين الآخرين في دينامية التواصل السياسي، والثقافة السياسية الداخلية للحزب، والثقافة السياسية للمجتمع، تشكل كلها عناصر متكاملة في تقدير أثر الحملات الانتخابية ما بعد الحديثة. وقبل كل ذلك، تبقى المتغيرات المقترحة في هذه النظرية لقياس مؤشر الحملة الانتخابية المِهِنَّة غير نهائية حيث يمكن إضافة عناصر أخرى إليها<sup>5</sup>، كما أن عناصر جديدة يمكن أن تظهر على مستوى تقنيات وممارسات الحملات الانتخابية سيكون من الضروري إدماجها في القياس.

<sup>1</sup> Lilleker, D. G. and Negrine, R. (2002) 'Professionalization: Of What? Since When? By Whom?', The Harvard International Journal of Press/Politics, 7 (4). P.102.

<sup>2</sup> Gibson, R., & Rommele, A. (2001). Op. Cit.35.

<sup>3</sup> Ibid.P.37.

<sup>4</sup> Jay G. Blumler.(2015). Op.Cit. P.432.

<sup>5</sup> Strömbäck, J. (2009). Selective Professionalisation of Political Campaigning: A Test of the Party-Centred Theory of Professionalised Campaigning in the Context of the 2006 Swedish Election. Political Studies, 57(1), 95-116. <https://doi.org/10.1111/j.1467-9248.2008.00727.x>



## المطلب الثاني: أدوار وسائل الإعلام والصحافيين

اضطلعت وسائل الإعلام بمكانة متنامية التأثير في تبادلات التواصل السياسي بين الأحزاب والمجتمع. فقد استعان بها السياسيون عبر التاريخ من أجل تبليغ رسائلهم وبرامجهم الانتخابية إلى المواطنين. كما شكلت السياسة موضوعاً أساسياً من مواضيع وسائل الإعلام باعتبار دورها المجتمعي، ورهاناتها الاقتصادية، وارتباطاتها السياسية. لقد تجسد هذا الاهتمام في النشوء المبكر لتخصص الصحافة السياسية، كنشاط يبرز مكانة الخبر السياسي في الأجندة التحريرية لوسائل الإعلام، ومعه برزت أقلام وأسماء اختصت بنقل الأخبار، والسبق الصحفي، وتحليل الوضع السياسي وتأويله لفائدة المواطن. فالصحافة السياسية، بوصفها تخصصاً أفرزته حاجة المجتمع إلى المعرفة، وحاجة السياسيين إلى التبليغ "تهدف إلى إمداد الناخبين بالمعلومة من أجل تشكيل آرائهم الخاصة والمشاركة في شؤونهم الجماعية، المحلية، أو الوطنية التي تعنيهم".<sup>1</sup>

مع انتشار الأنترنت، وبرز منصات التواصل الاجتماعي، أخذت أدوار وسائل الإعلام والصحافيين تأخذ أبعاداً جديدة، وتواجه تحديات مصيرية. فصيورة الرقمنة قضت على العديد من الصحف الورقية بسبب إفلاس النموذج الاقتصادي القائم على الطباعة. وصار المحتوى الأصيل الذي ينتجه المحررون تحت رحمة عمالقة الأنترنت. لقد أضى نموذج الإعلام كما عُرف قديماً يشهد تحولات جوهرية، حيث تحول إلى مجال تنافس حاد بين القوى المجتمعية والنخبة السياسية، معاشاً تحديات مؤثرة بشكل عميق ترتبط بأدوات السوق التي يحاول التأقلم مع خصوصياتها الجديدة.<sup>2</sup> إن هذه التحولات في حالة الإعلام وثيقة الصلة بدوره ضمن نسق التواصل السياسي، ودور الوحدة الأساسية التي تشكل قوامه وهي مجتمع الصحافيين.

حاولت شوميكور وفوس بلورة نظرية فهمية جديدة لوظيفة الصحافة بوصفها حارس البوابة<sup>3</sup>، انطلاقاً من إعادة تفكيك مفهوم حارس البوابة باعتباره "صيورة إعدام وصياغة ما لا يحصى من قصاصات الأنباء في عدد محدود من الرسائل التي تصل إلى الناس كل يوم، وهو الدور المركزي للإعلام في حياتنا المعاصرة"<sup>4</sup>. هذا المفهوم، يجد جذور بداياته الأولى عند نهاية أربعينات

<sup>1</sup> Tilak, Geetali & Tilak, Maharashtra & Vidyapeeth,. (2021). "Journalism and Politics". Xi'an Dianzi Keji Daxue Xuebao/Journal of Xidian University. 14. P.451.

<sup>2</sup> Couldry, N. (2009). Does 'the Media' Have a Future? European Journal of Communication, 24(4), 437-449. <https://doi.org/10.1177/0267323109345604>

<sup>3</sup> Shoemaker, P., & Vos, T. P. (2009). Gatekeeping theory. New York, NY: Routledge.

<sup>4</sup> Ibid.P.1.

القرن الماضي عند عالم النفس الأمريكي كيرت لوين، الذي اهتم بسيرورات اختيار الأفراد للمواد الغذائية ضمن قنوات التسويق، قبل أن ينتقل المفهوم إلى حقل التواصل مع ديفيد مانينغ وايت بداية خمسينات القرن الماضي مع محاولة فهم العوامل التي يأخذها المحررون في الاعتبار لاعتماد القصص الإخبارية أو استبعادها<sup>1</sup>. باستحضار الواقع الرقمي الذي يكتسح اليوم كافة أوجه الحياة الاجتماعية، تقترح شوميكر وفوس نموذجاً نظرياً محيناً لمفهوم حراسة البوابة من خلال إعادة قراءة الأدبيات الكثيرة التي تشكل مبحثاً واسعاً في سوسيولوجيا الإعلام، وتصنيف العوامل التفسيرية لدينامية مفهوم حراس البوابة أو حراسة البوابة (gatekeeping)، وتوضيح العلاقات التي تربط بينها. يتعلق الأمر بخمس مستويات للتحليل تشمل تأثير القرارات الذاتية الفردية إزاء مضمون الرسالة، وروتين التدخلات والاختيارات التي تجري مهنياً وتحريراً ضمن المؤسسة الإعلامية، والتقيد بالمرتبطة بالجوانب المسطرية والتنظيمية الخاصة بهذه المؤسسة، ومستوى تحليل المؤسسة الاجتماعية (الثقافة، الإيديولوجية، البنية الاجتماعية)، ومستوى تحليل النظام الاجتماعي (رأس المال، المعلنون، الحكومة)<sup>2</sup>. هذه المستويات مترابطة في بينها في إطار هرمي وتتيح إطاراً للفهم.

صحيح أن مفهوم حراس البوابة نشأ في سياق هيمنة وسائل الإعلام الجماهيرية، حيث تتحرك الرسائل في اتجاه واحد من الإعلام نحو المجتمع، من النخبة نحو الجمهور؛ إلا أن هذا التصور لم يعد صالحاً، كما كان، منذ أن أصبح هذا الإعلام الجماهيري نفسه جزءاً من بيئة الأنترنت، يجاور فيها مؤسسات إعلامية رقمية كلياً، ويجاور فيها أيضاً مجتمعا عريضاً من مستعملي الأنترنت. بهذا الصدد، تشير شوميكر وفوس إلى أن مستعملي الأنترنت بإمكانهم أيضاً أن يكونوا هم الآخرين حراس بوابات في الفضاء الرقمي من خلال انتقاء الأخبار وفق اهتماماتهم ومعاييرهم الذاتية، مما يشكل تحولاً جوهرياً في منظورنا لمفهوم حارس البوابة في القرن الواحد والعشرين<sup>3</sup>. فمنصات التواصل الاجتماعية تتيح لمنحرفها إمكانية تحديد قائمة لا محدودة من اختيارات الإعجاب بالصفحات الإخبارية والترفيهية، والاشتراك فيها. في هذه الوضعية تتعزز سلطة المواطن تجاه الترسيقات التقليدية لتأثير حراس البوابات، وتصبح القصص الإخبارية والتعبيرات الاجتماعية أكثر استقلالية وقدرة على تجاوز البوابة والوصول إلى الجمهور. يتضح هذا

<sup>1</sup> Brown, R. M. (1979). The Gatekeeper Reassessed: A Return to Lewin. *Journalism Quarterly*, 56(3), 595-679. <https://doi.org/10.1177/107769907905600320>

<sup>2</sup> Shoemaker, P., & Vos, T. P. (2009). Op. Cit. P.33-97.

<sup>3</sup> Ibid. P.130.

المعنى بجرأة القول إن جمهور المواطنين الذين يستعملون الأنترنت صاروا يملكون بواباتهم الخاصة، حيث تفضي إبحاراتهم ونشاطاتهم الرقمية إلى عمليات انتقاء وإرسال وإنتاج مضامين رقمية ومشاركتها بشكل ذاتي.

يقودنا هذا الحديث إلى الإشارة أيضا إلى ثقافة وسائل الإعلام بوصفها أيضا نموذجا لفهم دور الإعلامي والصناعة الإعلامية والثقافة التي تنشأ منها. فبمرور الوقت والتطور التكنولوجي توثقت الصلة بين الإعلام والثقافة، وأضحت وسائل الإعلام تشكل الأنماط التي يتواصل بها الناس. بهذا الخصوص يقول جيمس كاري في كتابه "الاتصال كثقافة" إن "دراسة التواصل هي اختبار السيورة الاجتماعية الراهنة التي تنشأ فيها الأشكال الرمزية المعبرة، وتضبط، وتستعمل"<sup>1</sup>. هذه السيورة أصبحت مطبوعة بالتأثير القوي لدور وسائل الإعلام بوصفها قناة للتواصل، وقوالب للمضمون التواصلي، وبوصفها رسالة في حد ذاتها. تعمقيا لهذا التوجه، اقترح هانيتش نموذجا نظريا للبحث في ثقافات الإعلام<sup>2</sup>، يقترح بناء مفاهيميا لثقافة الإعلام يقوم على ثلاثة ركائز تشمل الأدوار المؤسسية، والأبعاد المعرفية (الإبستمولوجيات)، والإيديولوجيات الأخلاقية. وتدخل في هذه الأساسات المفاهيمية الكبرى عناصر أكثر تفصيلا تشمل السلطة وطبيعة السوق. فتعريف ثقافة الإعلام تعني من منظور هانيتش "مصفوفة معينة من الأفكار والممارسات التي يشرعن من خلالها الصحفيون دورهم في المجتمع ويعطون المعنى لنشاطهم"<sup>3</sup>. ففي بيئة أصبحت تهيمن عليها مركزية أدوار وسائل الإعلام يقدم تصور هانيتش مجال الصحافة بوصفه بنية "مُشكلة، وأعيد تأكيدها من خلال مجموعة من القيم المهنية المتفاوض بشأنها ثقافيا، والمواضعات التي تشغل من وراء ظهور الصحفيين الأفراد"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> James W. Carey. (1989). **Communication as Culture: Essays on Media and Society**. Boston. Unwin Hyman. P.30.

<sup>2</sup> Thomas Hanitzsch. (2007). Deconstructing Journalism Culture: Toward a Universal Theory, *Communication Theory*, Volume 17, Issue 4, November 2007, Pages 367–385, <https://doi.org/10.1111/j.1468-2885.2007.00303.x>

<sup>3</sup> Thomas Hanitzsch. (2007). Op. Cit. P.369.

<sup>4</sup> Thomas Hanitzsch hanitzsch@ifkw.lmu.de , Folker Hanusch fhanusch@usc.edu.au , Claudia Mellado claudia.mellado@usach.cl , Maria Anikina maria-anikina@yandex.ru , Rosa Berganza rosa.berganza@urjc.es , Incilay Cangoz icangoz@anadolu.edu.tr , Mihai Coman mcoman@fjsc.ro , Basyouni Hamada basyouni\_hamada@yahoo.com , María Elena Hernández marielenhr@gmail.com , Christopher D. Karadjov ckaradjo@csulb.edu , Sonia Virginia Moreira soniavm@terra.com.br , Peter G. Mwesige mwesige@acme-ug.org , Patrick Lee Plaisance Patrick.Plaisance@ColoState.EDU , Zvi Reich zreich@bgu.ac.il , Josef Seethaler josef.seet

ينضاف إلى ما ذكرنا آنفاً، سعي العديد من الباحثين إلى تدقيق الجهد النظري في واقع التسليع والطابع التجاري للأنظمة الإعلامية. حيث أصبحت نماذجها الاقتصادية مُحَدَّدةً في استمراريته، ومؤثرة بشكل حاسم في اختياراتها التحريرية. لذلك، يربط ماتشيزني بين مشاكل الأنظمة الإعلامية هذه وبين نقاط القصور في الديمقراطية نفسها كما تعيشها المجتمعات<sup>1</sup>؛ ويعيد هذا الباحث إلى الواجهة المطالب بحياة الأنترنت، وبالمزيد من التنظيم بخصوص عمالة الأنترنت، واعتبار الإعلام خدمة عمومية، بوصفها حلولاً يمكن أن تفتح آفاقاً أرحب للممارسة الديمقراطية. ومن قبله، طرح جون ماكمانوس معالم نظرية فهمية للطابع التجاري للإنتاج الإخباري<sup>2</sup>. فسيطرة عدد من المجموعات الاقتصادية الكبرى على أهم المؤسسات الإعلامية، وارتهاق المقاولات الإعلامية الخاصة بالمستثمرين في سوق ليبرالية شديدة التنافس يطرح أسئلة مقلقة على جودة الصحافة ودورها في نسق المجتمع. فالتلفزيون ومعه الكثير من وسائل الإعلام الأخرى كالصحافة المكتوبة تجد نفسها رهينة لمنطق السوق الذي يفرض عليها إكراهات ذات طبيعة أخلاقية ومهنية تزداد حدة مع ضيق السوق الإخبارية واشتداد التنافس عليها. هذه الاعتبارات أخذت طابعا هيكليا في أنماط الإنتاج والاستهلاك الإخباري في سياق الهيمنة التي يمارسها الإطار الرقمي الجديد وما يرتبط به من سلطة على أنماط التواصل السياسي وممكناته.

#### المبحث الرابع: الجمهور ضمن نسق التواصل السياسي في البيئة الرقمية

شكل دور الجمهور مرتكزا أساسيا لبحوث ودراسات التواصل السياسي على امتداد العقود الماضية. لقد برز هذا الدور بشكل أكثر وضوحا منذ انتشار الصحافة المكتوبة وبعدها الإذاعة والتلفزيون. فكثيرا ما قدمت هذه الدراسات والبحوث في علم الاجتماع الإعلامي الجمهور على أنه كتلة متفرجين ذات تأثير محدود في سيرورة الفعل. بل إن البحث الإعلامي تأطر في مسارين أساسيين للنظر في هذا الموضوع: أحدهما من منطلق كون الجمهور كتلة ينبغي التأثير فيها مباشرة من خلال رسائل ذات مفعول فوري، والآخر من منطلق كون عمليات التأثير في الجمهور تخضع

haler@oeaw.ac.at, Elizabeth A. Skewes elizabeth.skewes@colorado.edu, Dani Vardiansyah

Noor dani.vardiansyah@esaunggul.ac.id & Edgar Kee Wang Yuen yuenkw1958@yahoo.com.cn (2011) MAPPING JOURNALISM CULTURES ACROSS NATIONS, Journalism Studies, 12:3, 273-293, DOI: 10.1080/1461670X.2010.512502

<sup>1</sup> McChesney, R. W. (2014). Blowing the roof off the twenty-first century: Media, politics and the struggle for post-capitalist democracy. New York, NY: Monthly Review Press.

<sup>2</sup> McManus, J. H. (1994). Market-driven journalism: Let the citizen beware. Thousand Oaks, CA: Sage.

لعمليات أكثر تعقيدا ضمن ديناميات محددة للتواصل السياسي على مرحلتين عبر قادة الرأي، أو وفق نمط تواصل يمتد على ثلاث مراحل. ويجمع بين المنطلقين نوع من التسليم بمحدودية الأدوار التي يضطلع بها الجمهور في نسق التواصل السياسي. وعموما فقد لاحظ كاتز أن تذبذب الباحثين، خلال القرن العشرين، بين منظوري الجمهور النشط والجمهور السلبي يعكس الظروف التاريخية التي أثرت في تشكيل الجمهور، وكذا في الأبحاث الاجتماعية حول الجمهور، ويشمل ذلك طبعا المنعطفات الكبرى خلال القرن العشرين، وخاصة الحرب العالمية الثانية وفقاعة الاستهلاك وتداعيات العولمة<sup>1</sup>.

### المطلب الأول: من الجمهور إلى المستعملين

تخلص ليفينغستون إلى أن المشاركة أصبحت منصهرة في الإطار الإعلامي المعاصر (participation is now mediated<sup>2</sup>). هذا الوضع الجديد يسائل التعريفات القديمة للجمهور ومتى ينتظم الناس في إطار يصح أن نصلح عليه جمهورا؟ تجيب ليفينغستون بصحة ذلك "كلما كان البعد النصي والتكنولوجي للتواصل مهما في تحقق الفعل، وكلما كان الجانب الرمزي أو التمثيلي لوضعية ما معقدا، أو كانت السلطة التأثيرية لذلك الفعل أو استراتيجيته أو أهدافه على المحك؛ وباختصار، كلما كانت إدارة المعنى مسألة حاسمة بالنسبة للمصالح المتنافسة"<sup>3</sup>. لقد شكل هذا الإسهام، معلما أساسيا ضمن اتجاه يضع الجمهور أفقا للتنظير في الإطار الجديد للتواصل السياسي، الذي تشكل فيه البيئة السوسيو-تقنية محددات أساسية في فهم دينامية تبادل المعاني. مع ذلك، يبقى عمق الدراسات الإمبريقية من هذا المنظور ووفرته تحديا أساسيا للإحاطة بخصائص الجمهور ومفهومه، وممارساته، وسلوكاته اليومية، وأشكال تأثيره وتأثره.

### المطلب الثاني: موقع الجمهور في نسق المناظرات السياسية

ارتكزت العديد من الدراسات الاجتماعية للتواصل السياسي على مقاربات فوق/تحت، من أعلى إلى أسفل عند البحث في قضايا التواصل السياسي وأدوار الجمهور في نسقها. كما أن دراسات أخرى غفلت عن إيلاء الجمهور القدر الكافي من الدراسات الميدانية. بعبارة أخرى، إن كثافة التحولات التي عرفها مفهوم الجمهور في عصر الإعلام الرقمي وهيمنة شبكات التواصل الاجتماعي، وما أتاحتها من فرص ومخاطر لم تنجح الدراسات الاجتماعية في مجال الإعلام في الإحاطة السريعة

<sup>1</sup> Katz, E. (1980). On conceptualising media effects. Studies in Communication, 1, 119-141.

<sup>2</sup> Ibid. P.5.

<sup>3</sup> Ibid.

بها، من خلال طرح الموضوع باعتباره قضية إمبيريقية وليس بوصفه مسألة نظرية. لقد ثورت التكنولوجيا في العمق مفهوم الجمهور بعدما شهد استقرارا نسبيا لعقود طويلة. فقد انتقلنا عمليا من جمهور يتشكل من "كتلة من المتلقين إلى قوة تواصلية -أو بالأحرى مجموعة من القوى- تتوفر على عدد من القنوات للتعبير الفوري، والعملية، والتفاعلية، والممتد جغرافيا، بحيث أصبح لزاما على أولئك الذين اعتادوا على التحكم في نظم التواصل بلا منافسين أن يعاينوا اليوم عن كثب"<sup>1</sup> ما يعتمل في هذه المنصات.

يقترح كل من ستيفان كولمان وجيل موس Stephen Coleman and Gilles Moss مقارنة معكوسة لفهم انتظارات الجمهور، تنطلق من أسفل إلى أعلى<sup>2</sup>. ركز الباحثان في دراستهما الموسومة بـ "إعادة النظر في المناظرات الانتخابية: ما الذي يتطلع إليه المواطنون؟" على فهم وظيفة الحوارات الانتخابية المتلفزة وكيف يمكن تعزيز دورها الديمقراطي. لقد قامت هذه الدراسة على مقارنة بسيطة للموضوع من خلال الاعتماد على المجموعات المركزة (12 مجموعة، في كل واحدة 8 أفراد) لاستكشاف آراء المواطنين بخصوص تجربتهم في متابعة المناظرات الانتخابية في بريطانيا عام 2010، التي جمعت بين زعيم حزب العمال غوردن براون وزعيم حزب المحافظين نيك كليغ؛ ومن ثم استثمار أفكارهم المعبر عنها بشكل مفتوح (بفضل خصوصية الاختيار الممنهج) لفهم تصوراتهم عن الكيفية التي يتعين بها تصميم المناظرات الانتخابية مستقبلا، وما ينتظره المواطنون من عرض التواصل السياسي. تتحدد هذه الاستحقاقات في خمسة عناصر أساسية<sup>3</sup> هي:

- أ. الحق في الاحترام بوصف المواطن صانع قرار عقلائي ومستقل.
  - ب. تقييم الإدعاءات السياسية واتخاذ قرارات مستنيرة بناء على معلومات دقيقة.
  - ج. الحق في المشاركة في الحوارات بوصفها حدثا ديمقراطيا ثقافيا.
  - د. الحق في الاعتراف بالجمهور وحقه في التواصل مع القادة السياسيين الذين يتنافسون على تمثيله.
- هـ. امتلاك القدرة على التأثير في مجريات المجال السياسي.

<sup>1</sup> Blumler, J. G., & Coleman, S. (2013). Paradigms of civic communication. *International Journal of Communication*, 7, P. 176.

<sup>2</sup> Coleman, S. & Moss, G. (2014). Rethinking election debates: What citizens are entitled to expect (Report). School of Media and Communication, Leeds University, England.

<sup>3</sup> Ibid. PP.7- 14.

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تقدم نقدا صريحا للطريقة التي يتم بها تصميم المناظرات السياسية التلفزيونية التي تشكل مادة أساسية للترويج والتواصل السياسي في المنصات الرقمية أيضا. فهذه المناظرات هي نتيجة "تفاوض بين الأحزاب السياسية ومتعهدي الخدمة التلفزيونية"<sup>1</sup>، من أجل تقديم خدمة إخبارية تستجيب للحاجيات التي يفترض أن تكون للمواطن في سياق سياسي انتخابي معين. لكن هذا المواطن يظل غائبا عن المشاركة في صياغة ما هو مقبل على استهلاكه ليلي به انتظاراته في ما يتصل بطبيعة المعلومات الضرورية له من أجل لعب دوره الديمقراطي.

بهذه الصيغة لا تكمن فعالية المناظرات الانتخابية في إخراجها الجذاب لتلفزيونيا، وظاهرية الإنصاف في توزيع الكلمات، وانتقاء أسئلة من تعليقات المواطنين المتفاعلين على شبكات التواصل الاجتماعية، بل في أخذ انتظارات (حقوق) المواطنين من هذه الحوارات الهامة في الصياغة الأولى وفي عملية التفاوض التي لا ينبغي أن تبقى ثنائية بين النخبة السياسية والمنظمات الإعلامية.

## خاتمة

لقد انطلقنا في هذا الفصل من محاولة وضع التغييرات التي اعترت النماذج الكلاسيكية للتواصل السياسي في ضوء البنية التكنولوجية الجديدة. من هذه الزاوية أفرزت الطفرة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال سوقا جديدة للعرض السياسي تتميز بسهولة إنتاج المضامين وتبادلها، والتشبيك بين المواطنين من خلال تبادل الروابط في صيغها المختلفة. وباستقراء منظورات مجتمع الروابط هذا، تتضح معالم وضعية جديدة يأخذها الجمهور في نسق التواصل السياسي، سواء من خلال حالته بوصفه موضوعا للمنافسة الجديدة للاستحواذ على اهتماماته، أو من خلال الإمكانيات الجديدة التي أصبحت في سلطته عبر المشاركة والفعل في الفضاءات المشتركة.

أفرزت هذه التحولات دينامية أدت إلى تآكل ملموس وشامل في سلطة التنظيمات الرسمية والكلاسيكية، لاسيما عند التركيز على سيرورات التواصل السياسي. من هنا أخذت نظرية الفعل المترابط (Lance Bennett, Alexandra Sagerberg) أهميتها الدالة في فهم تحولات التواصل السياسي وصياغة واقعه الجديد. ذلكم الواقع، الذي تغذو فيه شبكات التواصل الاجتماعي إطارا تنظيمية فعلية تضطلع بدور الفاعلية التنسيقية بين المواطنين عوض التنظيمات

<sup>1</sup> Coleman, S. & Moss, G. (2014). Op.cit. P. 16.

الكلاسيكية. هذا التصور، يعكس الانتقال من نظام شبكات الفعل الجماعي بإطاراتها التنظيمية المركزية والكاريزمية إلى نظام للفعل المترابط يتشكل من الشبكات البين-شخصية التي أصبحت ممكنة في فضاء المنصات الرقمية. فخصائص المنصات القائمة على الانفتاح، وممكنات المشاركة والتعبئة اللامحدودة تسمح بتوسيع نطاق الفعل جغرافيا واختصار الحيز الزمني لتحقيق الانتشار. وهو ما عكست تجلياته مختلف الحركات الاجتماعية الاحتجاجية منذ الأزمة المالية العالمية لعام 2008 إلى اليوم.

إن تطور البحث الاجتماعي في تحولات البيئة الرقمية وصلتها بالتواصل السياسي لم يفصل النظام الإعلامي الجماهيري عن النظام الإعلامي الجديد. لقد امتد نطاق البحث ليغوص في محاولة فهم الكيفية التي يؤثر بها الأنترنت على أجندة وسائل الإعلام الجماهيرية. من هذه الزاوية تسد نظرية تأثيرات الامتداد لكل من باربارا فيتش ولانس بينيت وسيلك آدم تغرة هامة في نظريات التواصل السياسي الرقمي، من خلال رصد التغيرات الطارئة على خطاطات وضع الأجندة الإعلامية باعتبار مضافات البنية الرقمية. بعبارة أخرى، أكسبت الأداة الرقمية لكل المهتمين القدامى في النظام الإعلامي الجماهيري سلطة جديدة. نقصد بذلك، أولئك المقصيين من الكوحدات الرسمية، أو من نظام توزيع الحصص الزمنية في المؤسسات التلفزيونية المهيمنة والبرلمانات. هذه السلطة الجديدة لا تتوقف تأثيراتها في البيئة الرقمية فحسب، بل تمتد إلى النظام الإعلامي الجماهيري. وتتحدد وفق هذا التصور مسارات لتبادل التأثيرات خارج الإطار الكلاسيكي لبناء ووضع الأجندة، الذي كانت تتولاه حصرا النخبة والمنظمات الإعلامية الجماهيرية الكبرى. هذا المسعى البحثي بما يمثله من محاولة لتجاوز ثنائية وسائل الإعلام القديمة ووسائل الإعلام الجديدة سيأخذ بعدا أشمل مع أعمال أندرو شادويك، لاسيما ضمن كتابه المؤسس "النظام الإعلامي الهجين". فطابع الهجانة الذي أضفى سمة للنظام الإعلامي الجديد يتيح مقاربة جديدة لتجاوز الثنائيات التي سيجت البحث في علم الاجتماع الإعلامي لمدة طويلة. فالتفاعل وخاصة التعقيد التي تسم الترابطات الموجودة بين النظامين الإعلاميين أفرزت صيغة أخرى لدورة الأخبار الكلاسيكية، تتبلور فيها ترسيمات جديدة لدينامية التواصل السياسي. فقد أصبح متاحا للفاعلين غير النخبويين التمتع بشكل ذاتي في سيرورات إنتاج الأخبار من خلال التعبير والتعبئة التي تشهدها المنصات الرقمية، والتي تمتد تأثيراتها إلى وسائل الإعلام الجماهيرية. ألم تعد المنصات الرقمية مهدا لأغلب الحركات الاحتجاجية الواسعة؟ ألم تعد وسائل الإعلام التقليدية الموروثة من النظام الكلاسيكي تلاحق ميولات الجمهور في المنصات بحثا عن تكريس جماهيرية افتراضية؟ ألم تعد



الحملات السياسية مزيجاً معقداً بين نماذج التواصل السياسي في الميدان وبين ما يسندها من مناضلين ونشطاء وذباب إلكتروني وكتائب رقمية؟.

في الواقع وجدت المؤسسات الحزبية نفسها في مواجهة تحولات جذرية في نمط التواصل السياسي الذي تتبناه. فقد فرضت طفرات التكنولوجيا على المؤسسات الحزبية الاستعانة بما تقترحه السوق (سوق الحملات الانتخابية ما بعد الحديثة) من أدوات جديدة تشمل مستشاري التواصل وتدير المجموعات ووكالات التسويق والعلاقات العامة ومساحات الإعلان في فضاءات شبكات التواصل الاجتماعي فائقة الاستهداف. من هذه الزاوية سعت جيبسون وروميل إلى رصد هذا التحول من خلال جعل الحزب أفقاً نظرياً للتفكير في تطور الحملة الانتخابية. هذا المنظور اكتسب قيمته البحثية من جعل الحزب في صلب تصور مُمَهَّن للحملة الانتخابية. فالشرط التكنولوجي أفضى إلى صياغة حملات انتخابية قائمة على استعمال الأنترنت بشكل رئيسي، وخاضعة لمنطق السوق، وما تتطلبه من موارد مالية ضخمة لتمويل النشاطية الرقمية، وتحقيق التأثيرات المرغوبة في كتلة الناخبين التي غدت من هذه الزاوية جمهور مستهلكين.

هذا الوضع الجديد، انعكس بشكل ملموس على الإطار التنظيمي للحزب السياسي، في سياق يتشكل فيه نمط جديد للعلاقات بين عالم البنيات الحزبية السياسية وعالم وكالات الاستشارة والتواصل والمنصات الرقمية. هذا المنحى لا يقصد إعطاء الأسبقية للعوامل النسقية للبيئة الرقمية في دفع الأحزاب لاعتناق منطق الحملات الموهلة في المهنة بوصفها حتمية، بقدر ما يبرز المتغيرات المحددة للحجم الذي يناله الجانب الرقمي في حملة حزب ما وقفاً على منظوره الإيديولوجي، وموارده المالية، وبنيته الداخلية.

وكما فرضت السوق الإعلامية الرقمية نفسها على الأحزاب السياسية وطبيعة حملاتها الانتخابية، فإنها بالمثل ألقت بتأثيرات ملحوظة على أدوار الصحافيين وسلطتهم، باعتبارهم فاعلاً كلاسيكياً في نسق التواصل السياسي. فإذا كان دور الصحافيين ارتبط تاريخياً بدور حارس البوابة الذي يقوم باعتماد القصص الإخبارية واستبعادها، وتحديد ما يصلح للنشر وما يصلح للتعتيم، اعتباراً لعدة معايير ذاتية ونسقية، فإن هذا الدور بما ينطوي عليه من سلطة أصبح موضع خلخلة عميقة. فمع دخول عامة المواطنين من مستعملي الأنترنت الفضاء العام الرقمي، أصبحوا هم أنفسهم فاعلين وحراس بوابات من خلال ممارسة سلطة اختيار المضامين التي تستحق الاهتمام والتفاعل. من هذا المنطلق تراجع سلطة وأدوار الصحافيين وتتعزز سلطة المواطن تجاه الترسيمات التقليدية لتأثير حراس البوابة. فالنشاطية الرقمية هي في حد ذاتها تجاوز لقيود مرحلة

الإعلام الجماهيري، حيث أصبحت التعبيرات الاجتماعية والقصص الإخبارية المرتبطة بها قادرة على تجاوز البوابة الكلاسيكية، وفرضت نفسها في عملية بناء ووضع الأجندة.

هذا الواقع، يبرز الهشاشات التي أصبحت تطال عدة بنايات أساسية في نسق التواصل السياسي. فقد أصبحت فعالية الحملات الانتخابية التي تنفذها الأحزاب وتأثير الصحفيين وموقع الجمهور تحت رحمة الأداة الرقمية وممكناتها وإكراهاتها. بل أصبح ذلك يطال التأثيرات المباشرة على حصانة الديمقراطية نفسها، مما يفسر الدعوات إلى تكريس حياد الأنترنت، وتنظيم طريقة ممارسة عمالقة الأنترنت لنشاطهم، وإخضاعه للرقابة في قضايا ممارسة حرية التعبير السياسي. إن التركيز الاقتصادي الشديد الذي تعرفه بيئة الأنترنت لا يذكرنا فقط بمحاذير التركيز الذي عرفه الإعلام الجماهيري، مما يمكن تلمسه في كتابات بيار بورديو حول التلفزيون مثلاً، بل يطرح اليوم سؤالاً جوهرياً عن الخطر المحدق بالديمقراطية ومجتمع الناخبين/الجمهور.

إن أثر الشرط التكنولوجي لو يتوقف عند تثويره لنمط الحملة الانتخابية للحزب، ولا عند خلخلة سلطة الصحفيين في نسق التواصل السياسي؛ بل إن هذا الشرط التكنولوجي رسّم انتقالاً واضحاً من مفهوم الجمهور إلى مفهوم "المستعملين" (users). إذ أصبحت الأداة الرقمية محددة في أنماط المشاركة التي تقترحها منصاتها على المواطنين/المستعملين، بوصفها تقوم بمهام الوساطة الاجتماعية والسياسية. بمعنى آخر، وبتعبير ليفينغستون أضحت سيرورات المشاركة تشكل على نحو واسع من خلال شبكات الإعلام الرقمي المهيمنة. من هنا برزت دلالة الانتقال من براديغم للإعلام الجماهيري إلى براديغم للمشاركة. تلك المشاركة التي أصبحت منصهرة بشكل أكبر في تمفصلات الإطار التقني ومرتهنة به. ذلك أن الجمهور لم يعد مستهلكاً سلبياً لمضامين ينتجها التلفزيون، تكون نتيجة مواضع متفاوض بشأنها بين النخبة وتظامها الإعلامي؛ بل أصبح قوة تواصلية فاعلة باستمرار، من خلال التعبير والتقاسم والتشبيك، ممارساً بذلك نشاطية رقمية تعني بإذكاء اليقظة المجتمعية إزاء تدفقات التواصل السياسي، والتأثير المستمر فيها.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- احجيج حسن. (2020). مدخل إلى علم الاجتماع: نظرياته-مناهجه-قضاياها المعاصرة. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. بيروت.
- أسماء حسين، ملكاوي، مشاري الرويح، حيي السيد عمر (2021). حملة مقاطعة المنتجات الفرنسية على تويتر: دراسة في تحليل الشبكات الاجتماعية. مجلة لباب للدراسات الاستراتيجية والإعلامية. السنة الثالثة. العدد 10. ماي 2021. مركز الجزيرة للدراسات.

### المراجع الأجنبية:

- Barbara Pfetsch, Silke Adam & W. Lance Bennett. (2013). The Critical Linkage between Online and Offline Media, Javnost - The Public, 20:3. P.11, DOI: 10.1080/13183222.2013.11009118
- Blumler, J. G., & Coleman, S. (2013). Paradigms of civic communication. International Journal of Communication, 7.
- Brown, R. M. (1979). The Gatekeeper Reassessed: A Return to Lewin. Journalism Quarterly, 56(3), 595-679. <https://doi.org/10.1177/107769907905600320>
- Bruns, A., Enli, G., Skogerbo, E., Larsson, A.O., & Christensen, C. (Eds.). (2015). The Routledge Companion to Social Media and Politics (1st ed.). Routledge. P.19. <https://doi.org/10.4324/9781315716299>
- Carragee, K.M. and Roefs, W. (2004), The Neglect of Power in Recent Framing Research. Journal of Communication, 54: 214-233. <https://doi.org/10.1111/j.1460-2466.2004.tb02625.x>
- Chadwick, Andrew. (2017). The Hybrid Media System: Politics and Power, 2nd edition, Oxford Studies in Digital Politics. New York.
- Coleman, S. & Moss, G. (2014). Rethinking election debates: What citizens are entitled to expect (Report). School of Media and Communication, Leeds

University, England.

- Coleman,S.& Blumler, J. (2009). The Internet and Democratic Citizenship: Theory, Practice and Policy (Communication, Society and Politics). Cambridge: Cambridge University Press. P. 14. doi:10.1017/CBO9780511818271
- Couldry, N. (2009). Does 'the Media' Have a Future? European Journal of Communication, 24(4), 437-449. <https://doi.org/10.1177/0267323109345604>
- Farrell,David,and Paul Webb.2000."Political Parties as Campaign Organizations."In Comparing Democracies: Elections and Voting in Global Perspective, ed. Russell Dalton and Martin Wattenberg. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Giasson, T., Greffet, F. & Chacon, G. (2018). Relever le défi de l'hybridité : les objectifs des stratégies de campagnes numériques lors des élections française et québécoise de 2012. Politique et Sociétés, 37(2). <https://doi.org/10.7202/1048875ar>
- Gibson, R., & Rommele, A. (2001). Changing campaign communications: A party-centered theory of professionalised campaigning. The International Journal of Press/Politics, 6(4), 31–43.
- Giddens, A. (1984). The constitution of Society: Outline of the Theory of structuration, University of California Press.
- James W. Carey. (1989). Communication as Culture: Essays on Media and Society. Boston. Unwin Hyman.
- Jay G. Blumler.(2015). Core Theories of Political Communication: Foundational and Freshly Minted, Communication Theory, Volume 25, Issue 4, November 2015.
- Johnson-Cartee and Gary A. Copeland; introduction by Dan Nimmo. Westport, Conn.: Praeger
- Johnson-Cartee, Karen S & Copeland, Gary. (1997). Inside political campaigns: theory and practice / Karen S.
- Joseph Turow and Lokman Tsui, editors. (2008). The hyperlinked society :

questioning connections in the digital age. Ann Arbor :University of Michigan Press  
: University of Michigan Library.

- Katz, E. (1980). On conceptualising media effects. *Studies in Communication*, 1.
- Lilleker, D. G. and Negrine, R. (2002) 'Professionalization: Of What? Since When? By Whom?', *The Harvard International Journal of Press/Politics*, 7 (4).
- Livingstone, Sonia (2013) The participation paradigm in audience research. *Communication Review*, 16 (1-2). ISSN 1071-4421 DOI: 10.1080/10714421.2013.757174
- Maxwell E. McCombs, Donald L. Shaw cardinal@email.unc.edu & David H. Weaver. (2014). *New Directions in Agenda-Setting Theory and Research*, *Mass Communication and Society*, 17:6, 781-802, DOI: 10.1080/15205436.2014.964871
- Mc Nair Brian (2011), *An introduction to political communication*, London: Routledge. (fifth edition).
- McChesney, R. W. (2014). *Blowing the roof off the twenty-first century: Media, politics and the struggle for post-capitalist democracy*. New York, NY: Monthly Review Press.
- McManus, J. H. (1994). *Market-driven journalism: Let the citizen beware*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Milad Mirbabaie, Felix Brünker, Magdalena Wischnewski, and Judith Meinert. (2020). The Development of Connective Action during Social Movements on Social Media. *ACM Trans. Soc. Comput.* 4, 1, Article 3 (April 2021). <https://doi.org/10.1145/3446981>
- Milad Mirbabaie, Felix Brünker, Magdalena Wischnewski, and Judith Meinert. (2020).
- Nick Couldry, (2012). *Media, Society, World : Social Theory and Digital Media Practice*. Polity Press. Cambridge.

- Philip N.Howard, (2011). Castells and the Media. Polity Press. Cambridge.
- Pippa Norris. (2000). A Virtuous Circle: Political Communications in Postindustrial Societies. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- Rogers, E. M. 2004. "Theoretical Diversity in Political Communication." In Handbook of Political Communication Research, edited by L. L. Kaid, 21–34. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.
- Shoemaker, P., & Vos, T. P. (2009). Gatekeeping theory. New York, NY: Routledge.
- Strömbäck, J. (2009). Selective Professionalisation of Political Campaigning: A Test of the Party-Centred Theory of Professionalised Campaigning in the Context of the 2006 Swedish Election. Political Studies, 57(1), 95-116. <https://doi.org/10.1111/j.1467-9248.2008.00727.x>
- Thomas Hanitzsch. (2007). Deconstructing Journalism Culture: Toward a Universal Theory, Communication Theory, Volume 17, Issue 4, November 2007, Pages 367–385, <https://doi.org/10.1111/j.1468-2885.2007.00303.x>
- Thomas Hanitzsch [hanitzsch@ifkw.lmu.de](mailto:hanitzsch@ifkw.lmu.de) , Folker Hanusch [ghanusch@usc.edu](mailto:ghanusch@usc.edu). au , Claudia Mellado [claudia.mellado@usach.cl](mailto:claudia.mellado@usach.cl) , Maria Anikina [mariaanikina@yandex.ru](mailto:mariaanikina@yandex.ru) , Rosa Berganza [rosa.berganza@urjc.es](mailto:rosa.berganza@urjc.es) , Incilay Cangoz [icangoz@anadolu.edu.tr](mailto:icangoz@anadolu.edu.tr) , Mihai Coman [mcoman@fjsc.ro](mailto:mcoman@fjsc.ro) , Basyouni Hamada [basyouni\\_hamada@yahoo.com](mailto:basyouni_hamada@yahoo.com) , María Elena Hernández [marielenhr@gmail.com](mailto:marielenhr@gmail.com) , Christopher D. Karadjov [ckaradjo@csulb.edu](mailto:ckaradjo@csulb.edu) , Sonia Virginia Moreira [soniavm@terra.com.br](mailto:soniavm@terra.com.br) , Peter G. Mwesige [mwesige@acme-ug.org](mailto:mwesige@acme-ug.org) , Patrick Lee Plaisance [Patrick.Plaisance@ColoradoState.EDU](mailto:Patrick.Plaisance@ColoradoState.EDU) , Zvi Reich [zreich@bgu.ac.il](mailto:zreich@bgu.ac.il) , Josef Seethaler [josef.seethaler@oeaw.ac.at](mailto:josef.seethaler@oeaw.ac.at) , Elizabeth A. Skewes [elizabeth.skewes@colorado.edu](mailto:elizabeth.skewes@colorado.edu) , Dani Vardiansyah Noor [dani.vardiansyah@esaunggul.ac.id](mailto:dani.vardiansyah@esaunggul.ac.id) & Edgar Kee Wang Yuen [yuenkw1958@yahoo.com.cn](mailto:yuenkw1958@yahoo.com.cn) (2011) MAPPING JOURNALISM CULTURES

ACROSS NATIONS, Journalism Studies, 12:3, 273-293,  
DOI: 10.1080/1461670X.2010.512502

- Tilak, Geetali & Tilak, Maharashtra & Vidyapeeth,. (2021). "Journalism and Politics". Xi'an Dianzi Keji Daxue Xuebao/Journal of Xidian University. 14.
- W. Lance Bennett lbennett@uw.edu & Alexandra Segerberg (2012) THE LOGIC OF CONNECTIVE ACTION, Information, Communication & Society, 15:5, 739-768, DOI: 10.1080/1369118X.2012.670661
- Wolton Dominique (1989). « La communication politique : construction d'un modele », In, Hermès, La Revue 1989/1 (n° 4),
- Zhou, Y. and Moy, P. (2007), Parsing Framing Processes: The Interplay Between Online Public Opinion and Media Coverage. Journal of Communication, 57. P. 79. <https://doi.org/10.1111/j.0021-9916.2007.00330.x>

## العمل الاجتماعي والإعلام: أية علاقة؟

د. أحمد درويش  
باحث في الفلسفة والفكر الإسلامي  
المغرب



### ملخص:

نشأ العمل الاجتماعي استجابة مباشرة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية الهائلة التي شهدتها المجتمعات الغربية في أعقاب الثورة الصناعية والنهضة الأوروبية. هذه التغيرات، كالتوسع العمراني، والتحول في بنية الأسرة، والزيادة في معدلات الفقر، خلقت تحديات اجتماعية جديدة استدعت ظهور مهنة العمل الاجتماعي كحالة لمعالجتها وتخفيف آثارها. وبالتالي، فإن مصطلح "اجتماعي" هنا يشير إلى التفاعل المستمر بين الممارس الاجتماعي والظروف الاجتماعية المتغيرة، حيث يسعى الأول إلى فهم وتلبية احتياجات الفئات الضعيفة والمهمشة في المجتمع.

كلمات مفتاحية: العمل الاجتماعي - الإعلام - التأثير الإعلامي - اجتماعي.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

درويش، أحمد. (2024، أكتوبر). العمل الاجتماعي والإعلام: أية علاقة؟. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 210-205.

### Abstract:

Social work emerged as a direct response to the profound social and economic changes experienced by Western societies in the aftermath of the Industrial Revolution and the European Renaissance. These changes, such as urbanization, shifts in family structures, and rising poverty rates, created new social challenges that necessitated the emergence of the social work profession as an attempt to address and mitigate their impact. Therefore, the term 'social' here refers to the ongoing interaction between the social worker and the changing social conditions, as the former seeks to understand and meet the needs of vulnerable and marginalized groups in society.

**Keywords :** social work, media, media influence, societal.



## مقدمة

جاء العمل الاجتماعي - بوصفه ظاهرة اجتماعية - استجابة لظروف وسياقات فكرية، حتمها التطور الاقتصادي الغربي والنهضة الأوروبية الملحوظة، لذلك فمصطلح اجتماعي Social يشير إلى الحركة والتطور والدينامية القائمة على التغير المتفاعل داخل المجتمعات<sup>1</sup> ولعل الجذور الأولى لتطور فكرة الإحسان ورعاية الفقراء، مهدت السبل لنشأة وتطور العمل الاجتماعي باعتباره مهنة إنسانية في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية، أثمرت بناء فكريا خاصا ومنظومة اجتماعية دقيقة.

ويجد العمل الاجتماعي سنده في المنظومة الإسلامية، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَيُضْعَمُونَ الصَّعَامَ عَلَىٰ حَبْلٍ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾<sup>2</sup>، وبالإضافة إلى تأثيره الديني الفعال، يكون له الجزاء والثواب الأخروي حيث يقول جل من قائل: ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ كُلِّ يَوْمٍ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾<sup>3</sup>.

كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَنْ نَقَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ عَلَىٰ مُسْلِمٍ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"<sup>(4)</sup>.

تساهم السلطة الرابعة بفعالية في دعم المبادرات والمشاريع والمؤسسات أو التعطيم عليها، لما لها من قوة ضمن أجهزة الدولة، ونفوذ في الرأي العام، وللإعلام دور بالغ في التأثير على العمل الاجتماعي، من خلال شقيه النظري العلمي والتطبيقي العملي، ولارتباطه الوثيق بعلوم أخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس، وعلم الاقتصاد وغيرها، واستفادته من معطياتها من أجل تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية للفئات الهشة والطبقات المعوزة من فقراء ومحتاجين، ليتطور تأثيرها لدعم كل السبل والإمكانات من أجل مساعدة الأفراد على تجاوز مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية والعيش بكرامة<sup>(5)</sup>.

<sup>1</sup> أسس الخدمة الاجتماعية، محمد سيد فهبي، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، 2011، ص 3.

<sup>2</sup> سورة الانسان الآية 8.

<sup>3</sup> سورة الإنسان الآية 11.

<sup>(4)</sup> صحيح مسلم رقم الحديث 4946 ص 741.

<sup>(5)</sup> تاريخ ونظريات العمل الاجتماعي، يمينة هكو، جامعة محمد الأول، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، مكتبة الشيخ حسن وجدة، 2011، ص 38.

إن مقارنة هذا الموضوع من الناحية الإعلامية تكتسي أهمية بالغة لعدة اعتبارات، لعل أخطرها التأثير القوي للإعلام في شتى مجالات الحياة الفكرية والسياسية والثقافية والاقتصادية سواء على الأفراد، على المجتمعات أم على الأمم، ولعل إسقاط رئيس أعظم دولة في العالم ريتشارد نيكسون لا يدع أي مجال للتشكيك في دور الإعلام أو تبخيسه.

ولعل خطورة الموضوع تظهر في موقف الإعلام من العمل الاجتماعي والخيري الذي يتميز بالكثير من الصعوبة والتعقيد؛ فنظرا لأهمية الجمعيات الخيرية في العمل الاجتماعي، فإن معالجة الإعلام لمواضيعه لا تكاد تخرج عن اتجاهين رئيسين:

اتجاه يتسم بالدعم والمساندة الكاملة على جميع المستويات المادية والمعنوية، الإدارية واللوجستية، غير أن ذلك لا يتم إلا من خلال منطلقات فكرية موجبة واستقطاب إيديولوجي ضاغط.

اتجاه يعمل على إثارة التشويش على هذه الهيئات وإحداث الشغب الإعلامي الذي يستهدف التشويه والتشكيك في النوايا والمنطلقات ومحاولة التخفيف من زخمه والمجهودات المبذولة.

لذلك ينبغي التأكيد على أن رصد الصحافة للشؤون العامة والعمل الاجتماعي على وجه الخصوص، يقوم باقتناص المعلومات التي تثير القارئ أو تجذب المشاهد أو تشوق المستمع، مما يقلب المعلومة ويجعلها في غير معناها أو يتتبع السقطات أو الهنات التي يقع فيها العاملون في هذا المجال، ويبالغون في انتقاد التقصير الذي قد يصدر عنهم، مما يزعزع الثقة فيهم، ويهز العمل الاجتماعي برمته، ويتناسون ما فعله هؤلاء الصالحون - رجالا ونساء - وكيف أفنوا زهرة حياتهم في هذه المجهودات المباركة في ظل التحديات الخطيرة التي يعرفها العمل الاجتماعي، حيث عمدت القوى العالمية على إقصاء العمل الخيري الإسلامي من التأثير العالمي، واستخدمت في ذلك سلاح الحرب العالمية، وقد ذكر أحمد محمد عبد العظيم الجمل التضخيم الذي عرفته المؤسسات الخيرية الإسلامية، مع غض الطرف عن المبالغ الخيالية التي تدعم بها المنظمات اليهودية والهيئات المسيحية والتركيز على الجمعيات الإسلامية.

ويهدف التأثير في الجانب النفسي على المتتبع والسيطرة على توجهاته، نجحت للترويج لمقولة: "مؤسسات العمل التطوعي الإسلامي صناديق للإرهاب" مما شكل ضربة موجعة للعمل الاجتماعي الإسلامي على مستويين:

على مستوى الأفراد، ضربت هذا العمل الدؤوب، وشكلت حاجزا نفسيا وعقبة كأداء أمام هذا التشويش المتعمد والتعميم المجحف.

على مستوى المحسنين كان التأثير الإعلامي بالغ القوة وأدى إحجام المحسنين عن التبرع إلى حد بعيد، مخافة التشويه والمتابعة<sup>1</sup>.

وهذا ما جعل مفكرا رائدا كالدكتور عبد الوهاب المسيري يذكر معاناته مع بعض صغار الصحفيين، بالرغم مما يتميز به من السمات الهادئ والشخصية الودودة، حيث ذكر أن معظم الصحفيين الذين يأتون للحصول على تصريح أو حوار يسجلون فقط ما يعرفونه، فإذا أضيف فقرهم الثقافي والفكري الشديد، وعجزهم عن التعامل مع غير المألوف، أمكن تخيل حجم الكارثة. وما ضاعف حجم الحنق والاستفزاز الذي تعرض له الدكتور المسيري، عندما وضع أنه غالبا ما يجد ما يصح به عكس ما نشر لاحقا، والقلّة من الصحفيين من تأتي لتقابله بعد أن اطلعت على بعض كتاباته وبلورت بعض الأسئلة الأساسية<sup>2</sup>.

هذا من الناحية الموضوعية، أما من الناحية الشخصية، فالأمر أدهى وأمر، لأن التجريح لا يمس الموضوع فقط بل يتعداه إلى الذات، من خلال كيل الاتهامات والافتراءات، فقد يستغل بعض المرجفين تسلق أشخاص غير مستحقين للخدمات العينية أو المعونات المادية من رعاية وتنمية ليُحجَبَ بذلك المستحقون الفعليون لهذه الإعانات، لذلك ينبري بعض ضعاف النفوس إلى إهالة التراب على هذا المجهود الجبار للعمل الاجتماعي والمساهمات المشكورة في المجال والطعن في العاملين في هذا القطاع الاجتماعي الحساس<sup>3</sup>.

كما أن بعض شياطين الإنس يساهمون في المساعدة على إحداث المشكلات وتفاقمها، من خلال تزيين الشر وإغواء الناس، ولعل أخطرها إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، خصوصا بين الطبقتين الغنية والفقيرة بين النخب والعوام، بين الرجال والنساء، وهو ما يزيد من حدة الشعور بالحرمان والفاقة، خصوصا عندما تجد لها السند والحليف الداخلي وهو النفس التي تتماهى مع الشرور وتستجيب لدعاة الشر<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> العمل التطوعي في ميزان الإسلام، أحمد محمد عبد العظيم الجمل، دار السلام، القاهرة، 2009، ص 129.

<sup>2</sup> رحلي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ط3، دار الشروق، القاهرة، 2008، ص 580.

<sup>3</sup> العمل الاجتماعي والخيري (التنظيم - التحديات - المواجهة) علي بن إبراهيم النحلة، لسان للنشر والتوزيع، بيروت، 2014، ص 171.

<sup>4</sup> الإسلام والخدمة الاجتماعية، إبراهيم عبد الرحمن رجب، كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة حلوان، 2000، ص 43.

وفي نفس السياق نبه أحد رواد العمل الاجتماعي في المغرب الدكتور مصطفى بنحمزة إلى ظاهرة العدوانية في معرض حديثه في اللقاء التواصلي الذي جمعه بمجموعة من الصحفيين والإعلاميين في مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة، وتطرق من خلالها إلى رسالة الصحافة والإعلام باعتبارها سيفاً ذا حدين، فقد تكون إيجابية تسعى إلى الصالح العام، وتسعى إلى رقي الأمة والمجتمع، وقد تكون سلبية تنشر اليأس والعدمية في نفوس الناس لأنها لا تتعامل بالتجرد الواجب والموضوعية المطلوبة، بل تنظر فقط إلى الكأس الفارغة، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسوء النوايا<sup>1</sup>.

## الخاتمة

لقد كانت هذه محاولة لتملّس التأثير الإعلامي الخطير في العمل الاجتماعي، ولعل ما يشوبه من التعقيد والغموض يستدعي الموضوعية التامة، فالإصلاح الاجتماعي وتقويم الاعوجاج أمر مطلوب ودور الإعلام في هذا المجال أمر محمود في حدود الضوابط الثقافية والنظم الاجتماعية واللوائح القانونية بعيداً عن التجريح والمزايدات، لكن هذا الأمر يرافقه تشجيع المجهودات المبذولة من طرف المحسنين والعاملين والأطر الإدارية خصوصاً من يعرف منهم بالرغبة الحميدة في خدمة المجتمع، ولعل ما ينبغي الدفع به هو التحفيز على البذل والعطاء وتجنب عرقلة الأعمال الخيرية، وفي الأخير تجنب الاستقطابات الفكرية والاصطفافات الثقافية والإيديولوجية التي تشتت الجهود وتضرب الوحدة والتكتل وتقف ضد تنمية المجتمع ورفي الأفراد.

<sup>1</sup> لقاء تواصلي للدكتور مصطفى بنحمزة مع بعض الإعلاميين بمركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة يوم 21 دجنبر

2018.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسس الخدمة الاجتماعية، محمد سيد فهيم، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، 2011.
- تاريخ ونظريات العمل الاجتماعي، يمينه هكو، جامعة محمد الأول، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، مكتبة الشيخ حسن وجدة، 2011.
- العمل التطوعي في ميزان الإسلام، أحمد محمد عبد العظيم الجمل، دار السلام، القاهرة، 2009.
- رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ط3، دار الشروق، القاهرة، 2008.
- العمل الاجتماعي والخيري (التنظيم - التحديات - المواجهة) علي بن إبراهيم النحلة، لسان للنشر والتوزيع، بيروت، 2014.
- الإسلام والخدمة الاجتماعية، إبراهيم عبد الرحمن رجب، كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة حلوان، 2000.
- لقاء تواصل للذكور مصطفى بنحمزة مع بعض الإعلاميين بمركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة يوم 21 دجنبر 2018.

## أدوار المجتمع المدني في تحقيق رهانات التنمية

د. الطيب بركان

أستاذ مؤهل

كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بوجدة  
جامعة محمد الأول - المغرب



بوحبة حفيظ

طالب باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة  
جامعة محمد الأول - المغرب

### ملخص:

تهدف هذه الورقة إلى الوقوف عند أهمية المجتمع المدني وأدواره في تحقيق التنمية بمختلف مستوياتها الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والمستدامة. حددت الدراسة بداية المفهوم المعتمد دوليا للمجتمع المدني وعرجت على بعض الأسس النظرية التي قام عليها تأصيل المفهوم، لتنتقل بعد ذلك لتفصيل أدواره التنموية التي يعرف تحقيقها تحديات كبيرة على المستوى الوطني كما حددها بحث المنداوية السامية للتخطيط حول المؤسسات غير الهادفة للربح.

خلصت الدراسة إلى مجموعة من التوصيات تهم جل الفاعلين من أجل ضمان نجاعة تدخل المجتمع المدني بالمغرب وتحقيق الأهداف التنموية المنشودة.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بوحبة، حفيظ. بركان، الطيب. (2024، أكتوبر). أدوار المجتمع المدني في تحقيق رهانات التنمية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 211-219.

### Abstract:

This paper aims to identify the importance of civil society and its roles in achieving development at various levels of economic, social, political and sustainable development. The study first defines the internationally recognised concept of civil society and reviews some of the theoretical foundations on which the concept is based, then goes on to detail its developmental roles, the realisation of which faces significant challenges at the national level, as identified by the High Commission for Planning's research on non-profit organisations. The study concluded with a set of recommendations that concern all actors in order to ensure the effectiveness of civil society intervention in Morocco and achieve the desired development goals.

## مقدمة

يشهد العالم تحولات متسارعة جعلت العديد من الدول عاجزة عن إيجاد حلول لمشاكلها وأزماتها، كما أن بناء المواطن المدني المتحضر والفاعل، أضحي يمثل أحد الرهانات التنموية المطروحة بقوة وبالحاح على معظم المجتمعات المعاصرة. وإذا كان دور المجتمع المدني في تحقيق بعض مظاهر التنمية المستدامة من الأمور البديهية لدى أغلب المجتمعات المتقدمة وذات التقاليد الديموقراطية والإمكانات المادية، فإن هذا الدور بات بالنسبة لنا في المغرب مطلباً مستعجلاً وملحاً في ظل التحديات الكبرى التي أصبحت تفرض نفسها وفي مقدمتها مجتمع الإعلام والمعرفة بمقوماته التكنولوجية ومستلزماته التنموية. وعليه ستتوزع مضامين هذه المقالة على ثلاثة محاور نفترض فيها إمكانية التشخيص لواقع المجتمع المدني في علاقته بالتنمية تنطلق في محورها الأول من التعريف والتأصيل النظري للمجتمع المدني ثم الوقوف خلال المحور الثاني عند أدواره في تحقيق التنمية بمختلف صورها لنقف في المحور الثالث عند أبرز التحديات التي تواجهه في طريقه لتحقيق أهدافه مع بعض الحلول المقترحة انطلاقاً من قراءة في خلاصات البحث الوطني حول المؤسسات غير الربحية لسنة 2019.

## المحور الأول: مفهوم المجتمع المدني وأسس النظرية

المجتمع المدني هو عنصر أساسي في تطور المجتمعات الحديثة، حيث يسهم في تعزيز التماسك الاجتماعي والتنمية الشاملة. يضم المجتمع المدني مجموعة واسعة من المنظمات غير الحكومية، والجمعيات الأهلية، والنقابات، والمبادرات المجتمعية التي تعمل بصفة مستقلة عن الحكومة، كما أن دوره يتجاوز تقديم الخدمات إلى المشاركة في صياغة السياسات ودعم حقوق المواطنين. وبالرغم من تعدد مدلولاته فهو يتحدد حسب الكتاب الأبيض للحكومة في الاتحاد الأوروبي في: "مجموعة التنظيمات غير الحكومية والنقابية والعمالية والمنهية والخيرية والثقافية والحقوقية التي تدافع -وباستقلال عن سلطة الدولة- على مصالح الناس وصون حقوقهم ونشر ثقافة التسامح والاختلاف والتنمية المستدامة من خلال تأهيل الفرد وتحديث المجتمع والحفاظ على سلامة البيئة" (Livre Blanc, 2001).

تستند الأسس النظرية للمجتمع المدني إلى مفاهيم متعددة تم تطويرها عبر التاريخ من قبل الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة. تعكس هذه الأسس الطرق التي يُنظر بها إلى دور المجتمع

المدني، وعلاقته بالدولة وبالمجتمع، وكيفية تحقيقه للتنمية والديمقراطية. وسنحاول فيما يلي عرض بعض الأسس النظرية الرئيسية للمجتمع المدني:

**الأساس الفلسفي الكلاسيكي:** يعد مفهوم المجتمع المدني أحد المفاهيم القديمة التي ظهرت مع الفيلسوف اليوناني أرسطو. بالنسبة له، المجتمع المدني (Polis) يمثل مجتمعا منظما يسعى إلى تحقيق الخير العام ويجمع بين المواطنين في إطار قوانين ومؤسسات. أما هيغل فقد ركز على أن المجتمع المدني هو مجال مستقل عن الدولة، يتوسط بين العائلة والدولة، ويخدم كنقطة توازن بين مصالح الأفراد الخاصة واحتياجات المجتمع الأكبر.

**الأساس الليبرالي:** ركز كل من جون لوك و آدم سميث كمفكرين ليبراليين على أهمية حرية الأفراد واستقلاليتهم في المجتمع المدني. فبالنسبة لجون لوك، يهتم المجتمع المدني بحماية الحقوق الفردية من خلال مؤسسات الدولة. أما آدم سميث، فقد ركز على دور المجتمع المدني في الاقتصاد، حيث يعتبر الجمعيات والمنظمات التطوعية أدوات أساسية لتعزيز الحرية الاقتصادية. في حين تحدث توماس هوبز عن المجتمع المدني كوسيلة للخروج من حالة الفوضى الطبيعية، بحيث يشكل الأفراد عقدا اجتماعيا للحفاظ على الأمن والنظام.

**الأساس الاجتماعي والتعاوني:** ركز أليكسي دي توكفيل في كتابه "الديمقراطية في أمريكا" على أهمية المجتمع المدني في تعزيز الديمقراطية. فهو يرى أن الجمعيات والمنظمات التطوعية تساعد في بناء القيم الديمقراطية وتعزز المشاركة السياسية بين المواطنين، كما تساهم في توفير منابر للحوار والتعاون بين الأفراد. أما أنطونيو غرامشي فقد قدم مفهوم "الهيمنة الثقافية"، حيث يرى أن المجتمع المدني يتضمن المؤسسات الثقافية والاجتماعية التي تعمل على نشر الأفكار والقيم، مما يمكنه من التأثير على المجتمع والسيطرة على الأيديولوجيا السائدة.

**الأساس النقدي:** ركز يورغن هابرماس على دور المجتمع المدني كمجال عام (Espace publique) للتفاعل والحوار بين المواطنين بعيدا عن تأثيرات الدولة والاقتصاد. يعتقد هابرماس أن المجتمع المدني يلعب دورا في تشجيع النقاش المفتوح والحر، وهو ضروري لتحقيق الديمقراطية الفعلية، وفي المقابل، يرى كارل ماركس أن المجتمع المدني يعكس علاقات القوة في المجتمع الرأسمالي، ويعتبره مجالا للصراع بين الطبقات الاجتماعية. بالنسبة له، فإن المنظمات والجمعيات في المجتمع المدني يمكن أن تكون أدوات تستخدمها الطبقة الحاكمة للحفاظ على مصالحها.



**الأساس التنموي:** ظهر خلال العقود الأخيرة مفهوم التنمية المستدامة استجابة لضرورة الوعي بأهمية ضمان التوازن بين النمو الاقتصادي والاجتماعي وبين الحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية، أصبح المجتمع المدني يُنظر إليه كعنصر مهم لتحقيق التنمية المستدامة التي تلي حاجات الحاضر دون الإخلال أو المساس بقدرة الأجيال المقبلة على تحقيق رغباتها وتلبية حاجاتها (Développement durable et solidarité internationale, 2006). منظمات المجتمع المدني تلعب دورا حيويا في تنفيذ برامج التنمية المستدامة، مثل التعليم والصحة والبيئة، وتُعتبر شريكا للحكومات في تحسين جودة الحياة، اعتمادا على نهج المشاركة المجتمعية، مما يساهم في تمكين المجتمعات المحلية وزيادة قدرتها على اتخاذ القرارات التي تؤثر على حياتها، وتعزيز دور المواطنين في الرقابة على السياسات العامة.

**الأساس القانوني والسياسي:** يعتبر المجتمع المدني مجالا قائما بين الدولة والمواطنين يتميز باستقلاله وحرية عمله. من الناحية القانونية، يتطلب وجود بيئة داعمة تضمن حرية التنظيم والتعبير وإنشاء الجمعيات، ويرتبط المجتمع المدني بمفهوم العقد الاجتماعي الذي يجمع بين الدولة والمواطنين لضمان الحقوق والواجبات المتبادلة.

تلعب الأسس النظرية إذن دورا حاسما في فهم دور المجتمع المدني ووظائفه، حيث يختلف النظر إليه بين من يراه حاميا لحقوق الأفراد ومن يركز على دوره في الحفاظ على التوازن الاجتماعي وتعزيز الديمقراطية. من خلال فهم هذه الأسس، يمكن تطوير سياسات وإجراءات تساهم في دعم دور المجتمع المدني في تحقيق التنمية والتغيير الإيجابي في المجتمع.

### المحور الثاني: دور المجتمع المدني في تحقيق التنمية

مما لا شك فيه أن المجتمع المغربي عرف على مر العصور ثقافة العمل الجماعي التطوعي القائم على التعاون والتكافل بالرغم من اتجاهه نحو الاندثار بالمناطق الحضرية. في المقابل نجد القرى المغربية والزوايا ما زالت تحافظ على هذا الإرث الثقافي وتعمل على استدامته ويظهر جليا في المناسبات كموسم الحصاد وفي الأعراس وفي ملتقيات أعيان القبائل وشيوخها. إلا أن تحديات العولمة وزحف الحداثة بتداعياتها السلبية والإيجابية من جهة واحتضان المنتظم الدولي للمجتمع

المدني<sup>1</sup> والتأكيد على أدواره في خدمة التنمية المستدامة ومطالبته كافة الدول بدعومه على أرض الواقع من جهة أخرى يحتم إعادة النظر في دور المجتمع المدني في تحقيق التنمية بمختلف صورها.

**التنمية الاقتصادية:** تقوم منظمات المجتمع المدني بإنشاء برامج تدريبية وتشجيع ريادة الأعمال والمشاريع الصغيرة ودعم مالي للشباب وأصحاب المشاريع الصغيرة والمتوسطة، مما يعزز النشاط الاقتصادي المحلي ويخلق فرص عمل جديدة، كما تعمل على مكافحة الفقر وتحقيق التنمية من خلال مبادرات مثل المشاريع الخاصة بدعم المنتجات الزراعية المحلية أو إنشاء مراكز تدريب مهني (الفرصة الثانية الجيل الجديد في مجال التربية غير النظامية)، الأمر الذي يساهم في تحسين مستوى المعيشة وتقليل الفقر في المجتمع.

كما تساهم فعليا في إنشاء المشاريع التي تستجيب بطريقة فعلية لمطالب الأشخاص في وضعية إعاقة، كما تمارس دورا رقابيا ليس فقط على قانونية المشاريع أو مناسبتها ولكن حول جدواها وفعاليتها. (احترام السياق الاجتماعي لتوطين المشاريع المدرة للدخل).

**التنمية الاجتماعية:** تلعب منظمات المجتمع المدني دورا في بناء الجسور بين فئات المجتمع المختلفة، من خلال تنظيم أنشطة مجتمعية وورش عمل تعزز التعاون والتماسك الاجتماعي بين المواطنين. كما يساهم المجتمع المدني في تحسين التعليم من خلال تقديم دروس الدعم للتلاميذ وتنظيم حملات توعية حول القضايا الصحية مثل الوقاية من الأمراض، والتغذية السليمة، والاهتمام بالصحة النفسية، وتركز العديد من الجمعيات المدنية على تعزيز مشاركة المرأة والشباب في المجتمع من خلال تقديم الدعم القانوني والمشورة المهنية.

**التنمية السياسية:** يساهم المجتمع المدني في تعزيز الديمقراطية والمشاركة السياسية ودعم المشاركة الفاعلة للمواطنين في اتخاذ القرارات السياسية من خلال حملات التوعية الانتخابية والمشاركة في مراقبة الانتخابات لضمان النزاهة والشفافية، كما تقوم منظمات المجتمع المدني بدور الرقابة على السياسات العامة، مما يعزز من الشفافية والمساءلة ويحد من الفساد وبذلك يصبح المواطن شخصا من العملية التنموية وليس موضوعا لها فقط.

<sup>1</sup> - وثيقة الأهداف الإنمائية للألفية الصادرة عام 2000 والتي راھنت على تحقيق ثمانية أهداف للتنمية في حدود 2015

- التقرير العربي حول التنمية المستدامة المنعقد بالقاهرة 2001

- إعلان عقد محو الأمية في حدود 2012

- عقد التعليم من أجل التربية المستدامة (2005/2014)

- أهداف التنمية المستدامة ODD السبعة عشر 2015.

التنمية المستدامة: ظهر هذا المفهوم كما سبقت الإشارة خلال الثمانينيات من القرن العشرين استجابة لضرورة الوعي بمراعاة التوازن بين النمو الاقتصادي والاجتماعي وبين الحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية، بما يخدم حاجات الحاضر دون أن يمس بقدره الأجيال اللاحقة على تحقيق رغباتها وتلبية حاجاتها. "وقد أصبحت بعض الجمعيات العاملة في هذا الإطار تحظى برضا بعض الحكومات وتتخذ شكل مقاولات تطوعية يحركها هاجس التنمية وروح المبادرة والاستثمار في كثير من ميادين العمل الاجتماعي التي كانت بالأمس حكرا على الدولة". (أحرشاو، 2008)

**المحور الثالث: التحديات التي يواجهها المجتمع المدني من خلال قراءة في خلاصات البحث الوطني لدى المؤسسات غير الهادفة للربح**

**البحث الوطني لدى المؤسسات غير الهادفة للربح (Enquête nationale auprès des Institutions Sans But Lucratif, 2019)** هو جزء من الجهود التي تقوم بها المندوبية السامية للتخطيط (HCP) لرصد واقع هذه المؤسسات وتحليل دورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وقد استهدف عينة مكونة من 14500 وحدة ممثلة لمختلف مكونات المجتمع المدني وموزعة على مجموع التراب الوطني. هذا البحث قدم رؤية شاملة حول خصائص نشاط المؤسسات غير الربحية في المغرب ومجالات اشتغالها، مثل الجمعيات، التعاونيات، والمنظمات التي تعمل دون هدف تحقيق الأرباح. وتتجلى أهمية هذا البحث في فهم ديناميات المجتمع المدني المغربي، وكيف يمكن أن تسهم هذه المؤسسات في تحقيق التنمية المستدامة. مع توفير بيانات يمكن أن تكون أساسا لتعزيز التعاون بين هذه المؤسسات وبين الجهات الحكومية أو المانحين الدوليين. كما تعمل على توجيه السياسات العامة بحيث تعتبر مرجعا مهما لصناع القرار لتطوير سياسات تدعم نمو المؤسسات غير الربحية واستدامة عملها، وضمان أن تكون أكثر فعالية في تلبية احتياجات المجتمع ومن المهم الوقوف عند بعض المعطيات الإحصائية لتشكيل رؤية شمولية حول عمل المجتمع المدني بالمغرب.

**عدد المؤسسات:** وصل عدد المؤسسات غير الربحية النشيطة في المغرب إلى حوالي 187834 مؤسسة مقابل 44771 في سنة 2007 أي بمعدل نمو سنوي بلغ 12,7%. يشمل ذلك الجمعيات، التعاونيات، والمنظمات التي تعمل في مختلف المجالات.

**التوزيع الجغرافي:** هناك تركيز واضح لهذه المؤسسات في المناطق الحضرية، خاصة في المدن الكبرى مثل الدار البيضاء بنسبة 13,2% ومراكش آسفي ب 13,1% والرباط سلا القنيطرة ب 12,4% يتفاوت النشاط من منطقة إلى أخرى حسب الاحتياجات المحلية والموارد المتاحة.

مجالات النشاط: تشتغل هذه المؤسسات في عدة مجالات من بينها:

الثقافة والرياضة والترفيه 26,2%: تساهم هذه المؤسسات في تنظيم الفعاليات الثقافية والأنشطة الرياضية، وتوفر فضاءات لتطوير المواهب الفنية والرياضية.

التربية والبحث العلمي 11,4%: يمثل جزءا كبيرا من أنشطة المؤسسات، حيث تسعى إلى دعم التعليم الرسمي وغير الرسمي عبر دورات تدريبية ومراكز تعليمية.

الصحة 17,2%: تقدم المؤسسات غير الربحية خدمات طبية واجتماعية للشرائح المهمشة أو الفئات التي تحتاج إلى دعم خاص.

الحقوق والدفاع عن حقوق المواطنين والمستهلكين والسياسة 31,5%: هناك أيضا مؤسسات تعمل على تعزيز حقوق الإنسان، والمساواة بين الجنسين، والدفاع عن حقوق الفئات المستضعفة.

التوظيف والتمويل: تسهم هذه المؤسسات في خلق فرص عمل، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، حيث تعمل على توظيف الأفراد في المشاريع والبرامج التي تنفذها. أما من ناحية التمويل، فهي تعتمد بشكل أساسي على التبرعات، والدعم الحكومي، والشراكات مع القطاع الخاص.

التحديات: يواجه المجتمع المدني في المغرب عدة تحديات يمكن إجمالها فيما يلي:

التمويل والاستدامة: تعتمد العديد من منظمات المجتمع المدني على الدعم المالي من الجهات المانحة وعلى الهبات، ما يجعلها تواجه صعوبة في ضمان استمرارية مشاريعها ونقص الموارد البشرية المؤهلة.

التضييق القانوني: تواجه المنظمات المدنية قيودا قانونية تحد من نشاطاتها وقدرتها على التأثير في السياسات العامة بالإضافة إلى وجود صعوبات في الوصول إلى الفئات المستهدفة بسبب القيود القانونية أو البيروقراطية.

ضعف التكوين النظري والإداري والتقني والمالي مما يصعب ليس فقط تدبير الموارد والمشاريع، بل حتى البحث والتعامل مع المنظمات الأجنبية ذات الصلة والتي تستوجب قدرا من الضبط والتدبير المعقّل.

التنسيق مع الجهات الحكومية: من التحديات التي تواجه المجتمع المدني عدم وجود تنسيق كاف مع الحكومات المتعاقبة مما يحد من قدرته على تنفيذ مبادرات فعالة.

دمقرطة التنظيم الإداري والمالي لمؤسسات المجتمع المدني بإقامة جموع عامة والتداول على الرئاسة وضبط التقريرين الأدبي والمالي مع احترام مبادئ الحكامة الجيدة.

هذا البحث قدم نظرة معمقة حول أهمية المؤسسات غير الربحية ودورها في المجتمع المغربي، ويقدم خارطة طريق واضحة لمؤسسات المجتمع المدني التي ترغب في المساهمة بشكل فاعل في التنمية المحلية وفي تحسين ظروف الحياة لفئات واسعة من المواطنين.

## خاتمة

إن الدور المحوري للمجتمع المدني في التنمية بمختلف جوانبها يجعله شريكا لا غنى عنه للحكومات لتحقيق الأهداف التنموية. فهو يساهم في بناء مجتمعات أكثر عدلا واستقرارا من خلال تعزيز قيم التضامن والمشاركة. ومع ذلك، يبقى من الضروري توفير بيئة داعمة للمجتمع المدني، سواء من خلال الدعم المالي أو توفير إطار قانوني مرن يسمح له بممارسة دوره بفعالية أكبر.

إن تشجيع المجتمع المدني وانخراطه في كل الأوراش التنموية المفتوحة لا يعني استقالة الدولة وتفويض معضلات المجتمع وحل مشاكله للجمعيات المدنية؛ لأنها وبكل بساطة لا يمكنها أن تقوم مقام الدولة مهما بلغت أنشطتها من القوة والمتانة.

## توصيات

تعزيز التعاون بين الحكومات المتعاقبة ومنظمات المجتمع المدني من خلال إقامة شراكات استراتيجية.

دعم استقلالية منظمات المجتمع المدني وتوفير مصادر تمويل مستدامة لضمان استمرارها، مع تجديد وظيفة الجمعيات لتصبح مقاولات منظمة.

إيجاد آليات للتواصل والتنسيق بين المنظمات الدولية والمحلية التي تمثل المجتمع المدني وكذا الحكومات لتحقيق أكبر قدر من التعاون والحصول على المعلومات وتبادل الخبرات والتجارب.

توعية المواطنين بأهمية دور المجتمع المدني وتشجيعهم على المشاركة في أنشطته.

## لائحة المصادر والمراجع

- الغالي أحرشاو، المجتمع المدني العربي ورهانات التنمية المستدامة، مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، العدد 36، فبراير 2008، ص 29.
- Développement durable et solidarité internationale, Haut Conseil de la Coopération Internationale, document réalisé par Yveline Nicolas, juin 2006, p : 16.
- Livre blanc, Gouvernance Européenne, Commission des communautés européenne, Bruxelles, 2001, p: 18.
- Enquête nationale auprès des Institutions Sans But Lucratif, exercice 2019, HCP, novembre 2023

## التقويم الأمازيغي والاحتفال برأس السنة الأمازيغية

د. سعيد الاشعري

باحث في التراث الثقافي والتواصل  
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
المغرب



### ملخص:

تُقدم هذه الدراسة الأكاديمية رحلة غنية تتجاوز الزمان والمكان لاستكشاف تاريخ وأصول التقويم الأمازيغي في المغرب. كما تسلط الضوء على جوانب متعددة من هذا التقويم، حيث تبدأ بالجانب الأسطوري الذي يغوص في عمق الأساطير والحكايات التي تنتقل من جيل إلى آخر، وتمتد إلى الجانب التاريخي الذي يستعرض مسار التطور عبر العصور، وكيف تأثر بالتغيرات السياسية والثقافية التي عاشتها المنطقة. علاوة على ذلك، تسلط الدراسة الضوء على البعد الاجتماعي، وتنقلنا إلى الحياة اليومية والتفاعلات الاجتماعية للأمازيغ والمجتمعات التي ينتمون إليها. كما تستكشف الدراسة البعد الفلاحي الذي يكشف عن اعتماد الأمازيغ على الزراعة كصدر أساسي للعيش والازدهار. ومن خلال هذا الاستكشاف، توضح الدراسة أهمية الاحتفال بالسنة الأمازيغية كفرصة للمحافظة على هذا الإرث الثقافي الغني، ولنشر الوعي بالتاريخ والثقافة الأمازيغية التي تشكل جزءاً أساسياً من الهوية الوطنية للمغرب.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الاشعري، سعيد. (2024، أكتوبر). التقويم الأمازيغي والاحتفال برأس السنة الأمازيغية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 220-233.

### Abstract:

This academic study embarks on an enriching journey that transcends time and space to delve into the history and origins of the Amazigh calendar in Morocco. It sheds light on the multifaceted aspects of this calendar, beginning with the mythological dimension that delves into the depths of legends and tales passed down through generations. The study then extends to the historical dimension, examining the calendar's evolution through the ages and its susceptibility to the political and cultural shifts that the region has witnessed. Furthermore, the study enlightens the social dimension, transporting us to the daily lives and social interactions of the Amazigh people and the communities they belong to. It also explores the agricultural dimension, revealing the Amazigh people's reliance on agriculture as a primary source of livelihood and prosperity. Through this exploration, the study underscores the significance of celebrating Yennayer (the Amazigh New Year) as an opportunity to preserve this rich cultural heritage and disseminate awareness of Amazigh history and culture, which constitute an integral part of Morocco's national identity.

## مقدمة

يُعدّ التقويم الأمازيغي أحد أقدم التقاويم المستخدمة في العالم، حيث يعود تاريخه إلى آلاف السنين، ويُمثل التقويم الأمازيغي إرثًا حضاريًا وثقافيًا غنيًا للمغرب. يتميز هذا التقويم بالتنوع والغنى في رصد الزمن، وهو يعكس تفاعل الشعوب الأمازيغية مع الطبيعة والفصول الزمنية. في هذه الدراسة الأكاديمية، سنتناول تاريخ وأصل التقويم الأمازيغي بالمغرب، سننظر أيضًا في الأبعاد المختلفة لهذا التقويم بما في ذلك البعد الأسطوري والبعد التاريخي والبعد الاجتماعي والبعد الفلاحي، مع تسليط الضوء على جوانبه الفريدة والمميزات التي يتمتع بها. وفي النهاية، سنربط هذا الجانب الهام من التراث الأمازيغي بالاحتفال بالسنة الأمازيغية، مؤكدين أهمية الاحتفال بهذه المناسبة كجزء من الحفاظ على التراث الثقافي الأمازيغي، وتعزيز الوعي بالتاريخ والثقافة الأمازيغية.

## التاريخ والأصل

تجدر الإشارة في مستهل هذه المقالة العلمية إلى أن موضوع التقويم الأمازيغي لم يكن موضوع كتابات الباحثين فيما مضى باستثناء بعض الإشارات في بعض المصادر العربية المهتمة بالأزمنة، خاصة عندما تنطرق عما تسميه بالتقويم الفلاحي، أو بعض الكتابات المنشورة في سياق التواجد الفرنسي بشمال إفريقيا.

لقد وفرت الكتابات السالفة الذكر معلومات ثمينة للباحثين في هذا الموضوع حول كيفية تنفيذ هذه الاحتفال في القرن الماضي، بالإضافة إلى العديد من المعتقدات المتعلقة بها، التي كان من الممكن أن يطولها النسيان لولا هذه السجلات الإثنوغرافية والإثنولوجية<sup>1</sup>. يقول الحسين بويعقوبي الباحث في الثقافة الأمازيغية وصاحب كتاب (عيناي: مدخل إلى دراسة التقويم الأمازيغي) في هذا السياق: "لا يمكن أن نعرف ما نسميه اليوم ببداية السنة الأمازيغية إلا من خلال العودة للتاريخ القديم جدا، بحثا عن العناصر المشكلة للتقويم الأمازيغي المحلي، ثم تأثير الحضارات المجاورة، وخاصة أهمية القرار السياسي في توجيه التقويم. لكن، الأكيد أن هذا التقويم في الأصل مرتبط أساسا بضبط الأنشطة الفلاحية"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - نخص بالذكر هنا دراسة ل(Edmond Destaing) بعنوان "عنابر لدى بني سوس" نشرت سنة 1905، أنظر: الحسين بويعقوبي (2022)، "يضن ناي: أيام الاحتفاء بالطبيعة وبالأرض وخيراتها"، إيناير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير، ص 24.

<sup>2</sup> - الحسين بويعقوبي (2024)، "ترسيم إضيناير يعزز مكانة المغرب في شمال إفريقيا وفي طريقة تعامله مع تدبير التعدد اللغوي والتنوع الثقافي"، جريدة العلم، العدد 25689، ص 8.



وبعد استقلال بلدان شمال إفريقيا، ظهرت بعض الكتابات الجديدة المحتشمة التي اهتمت بالممارسات والمعتقدات المتعلقة بالتقويم الفلاحي. وفيما بعد، ظهرت الحركة الثقافية الأمازيغية لمواصلة مسار الكتابة من منطلق هوياتي معتبرة أن هذا التقويم مرتبط أساساً بالهوية الأمازيغية. يحتفل الأمازيغ المغاربة، كباقي إخوانهم في شمال إفريقيا (تامازغا) كما الجالية الأمازيغية المقيمة بالخارج، بحلول السنة الأمازيغية الجديدة التي تصادف هذه السنة 2974 وفقاً للتقويم الأمازيغي، حيث "يصادف الفاتح من يناير الأمازيغي 14 يناير من التقويم الغريغوري، وإن كان بعض نشطاء الحركة الأمازيغية يتخذون يوم 13 يناير كفاتح ليناير من السنة الأمازيغية (إلا أن الدراسات التاريخية المرتبطة بالتقويم تؤكد أن فاتح يناير الأمازيغي يوافق 14 من يناير حسب التقويم الغريغوري، وهو ما توردته كل سنة "يومية بوعياذ" المتخصصة في التقويم الفلاحي بالمغرب"<sup>1</sup>.

تعود جذور التقويم الأمازيغي إلى العصور القديمة، ويُعتبر من رموز الهوية الثقافية للشعوب الأمازيغية. بمعنى أنه رمز حي لهوية وثقافة شعب عريق ينحدر من شمال إفريقيا. وُجد هذا التقويم منذ آلاف السنين، ولا يزال يُستخدم من قبل العديد من الأمازيغ حتى يومنا هذا. يعتقد الحسين بويعقوبي أن هذا التقويم "تأثر على ما يبدو بقرار يوليوس قيصر (46 سنة ق.م) -حاكم مصر آنذاك- والذي عدل التقويم الروماني القديم، فأسس لما يعرف بالتقويم اليولياني، الذي يحتفل ببدايته في نفس توقيت الاحتفال بـ"يناير" إلى اليوم في بعض مناطق العالم رغم تبني الجميع للتقويم الغريغوري، الذي ظهر بعد التعديل الذي أدخله البابا غريغور الثالث عشر، على التقويم اليولياني، في القرن السادس عشر، بحثاً عن مزيد من الدقة، وهو التقويم التي يتعامل به العالم إدارياً إلى اليوم (2024)، بعد أن تبناه تدريجياً"<sup>2</sup>.

والتقويم الأمازيغي كما بعض التقاويم الأخرى مبني على النظام الشمسي، ويعتبر رأس السنة الفلاحية رأس السنة الأمازيغية. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقويم ليس مرتبط بأي حدث ديني أو تعبدي، بل هو مرتبط بحدث تاريخي. لكن، هذا لا يمنعنا القول بأن تاريخ الشعوب لا يمكن أن

<sup>1</sup> - محمد بوداري (2023)، "أسكاس إغودان 2973: دلالات الاحتفال بحلول السنة الأمازيغية الجديدة"، جريدة العالم الأمازيغي، عدد 264، ص 5.

<sup>2</sup> - الحسين بويعقوبي، "ترسيم إض يناير يعزز مكانة المغرب في شمال إفريقيا وفي طريقة تعامله مع تدبير التعدد اللغوي والتنوع الثقافي"، مرجع سابق، ص 8.

تُختزل في مجرد الأحداث التاريخية والوقائع المادية، إذ أن لكل حضارة مكونات ذات أبعاد أسطورية وتاريخية واجتماعية وكونية...

### البعد الأسطوري للتقويم الأمازيغي

يشير البعد الأسطوري إلى الجانب الخيالي أو الروحي في الحكايات والقصص والتقاليد. يمكن أن يكون البعد الأسطوري عبارة عن عناصر خيالية مثل الآلهة، أو الكائنات الخرافية، أو الأحداث غير الممكنة من منظور علمي. يعكس البعد الأسطوري في مجمله العقائد والقيم والثقافات التي تشكلت عبر الزمن، ويعزز فهمنا للعوالم الخيالية والروحية التي تميز مختلف الثقافات.

ومن أشهر الأساطير التي نسجت حول التقويم الأمازيغي ما يروى عن امرأة عجوز كانت ترعى ماشيتها فاستهزأت بشهر يناير لكونه لم يكن شديد البرد<sup>1</sup>. تقول الأسطورة أن شهر "يناير" كان قد طلب من "شهر فورار" أو "فبراير" أن يعيره يوما لمعاقبة العجوز المتكبرة التي استهانت بقوة الطبيعة، عندما خرجت هي وأغنامها دون أن تلقي باللقوة يناير وجبروته حيث أخذها الغرور بصمودها في وجه الشتاء إذ قال له: "يا عمي فورار سلفني ليلة ونهار باش نقتل العجوزة فم العار" فكان أن استجاب عمي فورار لطلب "يناير" وحلت في ذلك اليوم عاصفة شديدة اختنقت العجوز على إثرها وصارت حجرا منحوتا في قمة جبل فصار هذا اليوم يستحضر كرمز للعقاب ضد الجاحدين بقوة الطبيعة وفضلها على الإنسان، لذا فغالبا ما تعطى لاحتفالات يناير رموز طبيعية مثل استخدام البذور في الطبخ ووضع الأعشاب على أسطح البيوت.

يشير محمد أوسوس في كتابه (كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية) أن هذه الأسطورة تروى بطرق مختلفة وتدور في مجملها حول "شتم راعية عجوز لأحد الشهور (يناير)، واستعارة الشهر أياما من شهر فبراير، ثم إضراره بالعجوز وإلحاق خسائر بها أو بقطيعها أو بهما معا بواسطة الطقس الرديء"<sup>2</sup>.

لا مناص من القول، إن البعد الأسطوري يعد جزءاً مهماً من التراث الثقافي للشعوب، ويساهم في بناء الهويات الثقافية وتشكيل تفكير الناس حول العالم ومكانتهم فيه.

<sup>1</sup> - الحسين بويقوبي (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "بيض ن ناير: أيام الاحتفاء بالطبيعة وبالأرض وخيراتهما"، إينايير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير، ص 26، بتصرف.

<sup>2</sup> - محمد أوسوس (2008)، كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 92.

## البعد التاريخي للتقويم الأمازيغي

في السياق التاريخي، فإن البعد يُعتبر نوعاً من الإطارات التحليلية التي تسمح للمؤرخين والباحثين بوضع الأحداث والظواهر في سياق زمني أو تاريخي محدد. يساعد البعد التاريخي على فهم الأحداث والتطورات عبر العصور وكيفية تأثيرها على المجتمعات والثقافات والشعوب. لهذا السبب "اختار الأمازيغ سنة (1980م) لوضع تقويمهم الخاص عند ظهور الحركة الثقافية الأمازيغية"<sup>1</sup>. إذ قام عمار النكادي<sup>2</sup> أو الشاوي بإصدار أول يومية بالتقويم الأمازيغي تحمل فاتح يناير الأمازيغي كأول يوم في السنة الأمازيغية ويقابله 14 يناير من التقويم الميلادي (الغريغوري) معتمداً على حدث تاريخي بارز وقع في شمال إفريقيا.

ومرد هذا الحدث التاريخي إلى ذكرى انتصار القائد الأمازيغي (Chéchang) "شيشونغ"<sup>3</sup> في المعركة التي وقعت على ضفاف النيل (950 سنة ق.م) ضد قائد الفراعنة المصري رمسيس الثاني، قبل أن يتمكن الأمازيغ من الصعود إلى عرش الحكم بمصر الفرعونية، وتأسيس الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين فكان ذلك التاريخ بداية الحساب أو التأريخ للتقويم الأمازيغي الذي يبلغ الآن 2974 سنة. "فلم يوشك القرن الأول من الألف الأول أن ينتهي حتى استولى الزعيم الليبي شيشونغ على العرش المصري ودشن عهد الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين... واتخذ بوباستيس (Bubastis) عاصمة له، وعلى يده عادت الأوضاع في وادي النيل إلى نوع من الاستقرار"<sup>4</sup>.

مما لا شك فيه أن كل باحث في موضوع أصل التقويم الأمازيغي سيكتشف وجود عمق تاريخي وثقافي مشترك لشعوب شمال إفريقيا بصحرائها الكبرى، ويبدو أن التقويم الأمازيغي قد تأثر بالعديد من الحضارات، التي مرت بشمال إفريقيا بما في ذلك الحضارة الفينيقية والحضارة الرومانية والحضارة الإسلامية والحضارة الأمازيغية... ورغم التأثيرات المتعددة والتلاقح الثقافي بين

<sup>1</sup> - الحسين إسماعيل (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "حفلة نضال يناير لتوديع سنة واستقبال سنة جديدة"، إينايير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير، ص 15.

<sup>2</sup> - عمار نقادي أو عمار الشاوي كما يلقبه الشاوية، أمازيغ الأوراس الجزائري، من أعلام النضال الأمازيغي، ومؤسسي "الأكاديمية البربرية" رفقة أعراب بسعود وثلة من الشخصيات الأمازيغية الجزائرية. توفي في 2 دجنبر سنة 2009.

<sup>3</sup> - شيشونغ الأول هو سابع خليفة لقائد عسكري استغل ضعف السلطة الفرعونية، فبسط نفوذه على هرقلية في مصر الوسطى، وغزا الدلتا وقسم الأرض بين الأمازيغ وأسس الأسرة الثانية والعشرين، وامتد حكم الأمازيغ كفرعنة في مصر من الأسرة الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين ودام طيلة الفترة الممتدة من سنة 950 قبل الميلاد إلى سنة 715 قبل الميلاد. أنظر: الحسين آيت باحسين (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "الاحتفال بالسنة الأمازيغية حدث هوياتي مرتبط بتدبير الزمان في الثقافة الأمازيغية"، إينايير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير، ص 46-45.

<sup>4</sup> - محمد شفيق (1989)، ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين، دار السلام، الرباط، ص 28.

شعوب شمال إفريقيا، فإن التقويم الأمازيغي استمر في الاحتفاظ بخصائصه الفريدة والتي تميزه عن التقاويم الأخرى في المنطقة.

ومن تجليات هذا العمق المشترك نجد اللغة الأمازيغية في الدرجة الأولى، بتنوعاتها المختلفة، والنقوش الصخرية، والأساطير المتوارثة، والأمثال الشعبية... يسلط العربي عقون الضوء على جهود الأمازيغ في الحفاظ على لغتهم وثقافتهم قائلا: "يمكن اعتبار تاريخ أفريقيا الشمالية والصحراء تاريخ فتوحات واحتلالات أجنبية تحملها الأمازيغ بصبر كبير، ولذلك انحصر دورهم في التاريخ في المقاومة، وكان الإبقاء على استمرار اللغة والعرف والأشكال القديمة للتنظيم الاجتماعي أهم نجاح لتلك المقاومة. وما تجدر الإشارة إليه هو أنه لا ينبغي تبسيط التاريخ، خاصة في حال المبالغة في إسقاط الحاضر على الماضي"<sup>1</sup>.

وفي هذا يحضر أيضا «ينايير» باعتباره لحظة احتفال مشتركة بين الجميع، وبتسميات مختلفة كـ «حاكوزا»، «عيز ءوسكاس»، «ءاس ن فرعون»، و«تابورت نوسكاس»... وغيرها من المسميات التي تختلف من منطقة لأخرى. وبطبيعة الحال، ففهم البعد التاريخي لفترة معينة يمكن أن يساعد في تفسير السياق الذي وقعت فيه الأحداث وفهم تأثيرها على التطورات اللاحقة في التاريخ. كما يساعد البعد التاريخي أيضًا على ربط الأحداث الماضية بالحاضر وتجلي سبب الاحتفال السنوي بدخول السنة الأمازيغية الجديدة.

### البعد الاجتماعي للتقويم الأمازيغي

في سياق التقويم الأمازيغي، يتمثل البعد الاجتماعي في العديد من الجوانب التي تؤثر في الحياة اليومية والتفاعلات الاجتماعية للأمازيغ والمجتمعات التي يعيشون فيها. من قبيل الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والقيم والمعتقدات... ويبرز "ينايير" كأشهر احتفال سنوي جماعي للأمازيغ منذ آلاف السنين، حيث تجتمع القبائل والدواوير والأسر للقيام بهذا الطقس المرتبط كذلك بالموسم الفلاحي الجيد، والاطمئنان على أن السنة الفلاحية، ستكون منتجة ومزدهرة.

يبدو أن احتفال رأس السنة الأمازيغية، لدى السكان الأمازيغ الأصليين، هو حقيقة واقعية، وليس مجرد خرافة أو شعوذة. إن هذه الاحتفالات تمثل تجسيدًا صادقًا للبيئة التي نشأوا فيها،

<sup>1</sup> - العربي عقون (2010)، الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول والهوية، سلسلة فكر وحبر، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ص 18.

حيث تقوم بمحاكاة للثقافة الأمازيغية الأصيلة. كما أنها تعكس مشاعر الفرد والجماعة، والفرح الواعي بالحياة لدى السكان الأمازيغ، الذين يمارسون حياتهم بطقوس اجتماعية معينة. وهذا ما يؤكد غابرييل كامب بقوله: "ويسود بين الأمازيغ تنوع آخر كبير في العادات والتقاليد والأديان، وما استوطنوا من جهات ومناطق (وكثيرة هي البلدان التي استوطنتها الأمازيغ في قديم الزمان ثم صاروا لا يكادون يُذكرون بها كمصر والسنغال، وجزر الكناري، إلخ) والتي يخطئ من يقصرها على منطقة شمال إفريقيا، أو يختزلها في بلدين اثنين من هذه المنطقة؛ المغرب والجزائر"<sup>1</sup>.

إن هذا الاحتفال يعبر عن فلسفة ووجدان المجتمع، ويؤكد على وجودهم بفعالية واضحة وبسيطة في الوقت الحاضر. لذا، لا يجب أن يتم إغفال أي جزء من هذا الاحتفال، خاصة وأنه يمثل جزءاً أساسياً من هوية الشعب والمجتمع، ويسجل تاريخهم وحياتهم الإنسانية بشكل لا يقدر بثمن. وبطبيعة الحال فالتقويم الأمازيغي يؤثر على الحياة الاجتماعية للأمازيغ ويسهم في تشكيل الهوية الاجتماعية والتفاعلات الاجتماعية داخل المجتمعات التي يعيشون فيها.

### البعد الفلاحي للتقويم الأمازيغي

يتعلق البعد الفلاحي في التقويم الأمازيغي بتضمين الفصول الزراعية ومواسم الزراعة والحصاد في ترتيب الأشهر والأيام. يعكس هذا البعد الاعتماد القوي على الزراعة كمصدر رئيسي للعيش في حياة الأمازيغ وأهمية الموارد الطبيعية في بناء وتنظيم التقويم. يقوم التقويم الأمازيغي بتقديم تواريخ محددة لبدء مواسم الزراعة، مثل زراعة الحبوب والفواكه والخضروات، مما يساعد المزارعين في تخطيط أنشطتهم الزراعية، كما يساعد التقويم الأمازيغي في توجيه المزارعين حول أنشطتهم الزراعية بناءً على فصول السنة، مثل مواعيد الري والتسميد والحصاد. وتتضمن الاحتفالات الأمازيغية عادة تظاهرات واحتفالات تعكس مرحلة معينة من دورة الحياة الزراعية، مثل مواسم الحصاد والمواسم الزراعية الأخرى.

من المعروف أن السنة الأمازيغية، المعروفة أيضاً بالسنة الفلاحية في الشمال الإفريقي، تتميز بارتباطها الوثيق بالأرض. يتمثل هذا الارتباط في اختيار الأمازيغ لرمز الأرض كرمز للاحتفالات، معبرين عن انتمائهم وتعلقهم بالمكان الذي ينتمون إليه. إن رمزية الأرض في ثقافة الأمازيغ لها معانٍ عميقة، حيث يتمحور وجود الإنسان الأمازيغي حول المكان الذي يعيش فيه ويققات منه ويمارس

<sup>1</sup> - غابرييل كامب (2010)، البربر: ذاكرة وهوية. ترجمة: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص 11.

فيه حياته اليومية. وباختيار الأرض كرمز، يعبر الأمازيغ عن تعزيز العلاقة القوية التي تربطهم بالبيئة التي تستضيفهم وتحملهم في طياتها.

تختلف طقوس الاحتفالات التي ترافق هذا اليوم باختلاف تفاصيلها حيث يرتبط هذا التقليد بالطبيعة والموسم الفلاحي، حيث تشير الطقوس إلى مدى ارتباط الإنسان الأمازيغي القديم بأرضه ومدى اندماجه في الطبيعة، حيث يمثل "يناير" بداية الحساب الفلاحي أو الزراعي الذي يرمز إلى اختلاف نمطين شمسيين هما الانقلاب الشمسي الشتوي أو الصيفي والاعتدال الربيعي أو الخريفي، وهي الفترات التي ترافق بداية أو انطلاق جملة من الأعمال الفلاحية والزراعية. يقول الحسين إسكان في هذا السياق: إن "تاريخ هذا الاحتفال مرتبط ببداية السنة الفلاحية، وتشير كثير من الطقوس الاحتفالية إلى ارتباطه بالأرض وبالموسم الفلاحي، ويتزامن الاحتفال مع زمن خروج الليالي البيض ودخول الليالي السود، وهو زمن يفصل بين زمن البرد وزمن الاعتدال"<sup>1</sup>. وهذا ما ذهب إليه أيضا الحسن زهور بقوله: "احتفال الأمازيغ في ليلة السنة الأمازيغية هو احتفال بالأرض وبما تنتجه، وبما ترمز إليه كأم، واحتفال باكتمال دورة وبداية دورة حياتية أخرى أي احتفال بالتجديد وإعادة الخصب"<sup>2</sup>.

بشكل عام، يعتبر البعد الفلاحي في التقويم الأمازيغي جزءا لا يتجزأ من الهوية والثقافة والحياة اليومية للأمازيغ، ويعكس التكامل العميق بين الإنسان والطبيعة في هذه الثقافة. لذا استعمله الأمازيغ منذ اكتشاف الزراعة، وهكذا ظلت المناسبة احتفالا فلاحيا موسميا وحدثا تقليديا مرتبطا أساسا بالأرض ما جعلها تُعرف أيضا باسم "السنة الفلاحية".

### طقوس الاحتفال برأس السنة الأمازيغية

يعتبر الاحتفال برأس السنة الأمازيغية أحد تمظهرات الثقافة والحضارة الأمازيغيتين الموهلتين في القدم، والتي يرجع تاريخها إلى أكثر من 3000 سنة حسب الوثائق التاريخية والآثار الأركيولوجية والدلائل الأنثروبولوجية. ويحتفل الأمازيغ أيام 12 و13 و14 يناير برأس السنة الأمازيغية، وهو اليوم الذي يصادف أول أيام السنة الأمازيغية الجديدة، هذا التقويم الأمازيغي الذي يصل 2974 سنة. تختلف طقوس الاحتفال برأس السنة الأمازيغية من منطقة إلى أخرى، إلا

<sup>1</sup> - الحسين إسكان (2022)، مرجع سابق، ص 13.

<sup>2</sup> - الحسين زهور (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "نض ن يناير: طقوس وميثاق"، إيناير: الذاكرة والتمثيل، مدارات الثقافية، ج 4، أكادير، ص 31.

أنها تتضمن بشكل عام إقامة الولائم، وتبادل الهدايا، وارتداء الملابس التقليدية، وإقامة العروض الفنية والموسيقية.

يرى الحسين بويقوبي: "بأن هناك اختلاف حسب المناطق في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى حول متى تبدأ هذه السنة". ويبدو أنه رغم اختلاف تاريخ الاحتفال من بلد لبلد آخر، فإن الموسيقى والرقص وإعداد أطباق خاصة توحد الاحتفال الشعبي والثقافي لشعوب شمال إفريقيا برأس السنة "إيض يناير".

لقد ارتبط احتفال الأسر الأمازيغية بدخول السنة الأمازيغية الجديدة بممارسات بسيطة وتلقائية تتميز بإعداد أكالات وأطباق متنوعة مستوحاة من فنون الطبخ التي تتقنها. "يرتبط التقويم الأمازيغي ببداية السنة الفلاحية، لهذا فالأكلة التي تقدم للأبناء والضيوف في ليلة رأس السنة الأمازيغية تتكون كلها من المنتوجات الفلاحية والزراعية التي تجود بها الأرض...وهي مؤشر على تحسن الموسم الفلاحي الاتي"<sup>1</sup>.

احتفالات سابقة برأس السنة الأمازيغية أمام مقر البرلمان بالرباط



المصدر<sup>2</sup>: <https://snrtnews.com/article/64376>

يُعدّ رأس السنة الأمازيغية، المعروف أيضاً باسم "عينايير" أو "إيض يناير"، من أهم الأعياد والمناسبات التي يحتفل بها الأمازيغ في جميع أنحاء العالم. و"الاحتفال بالسنة الأمازيغية هو امتداد

<sup>1</sup> - محمد بادرة (2023)، "ناكلا إيض ن يناير أو الاحتفال برأس السنة الأمازيغية"، جريدة العالم الأمازيغي، عدد 264، يناير، ص 7.

<sup>2</sup> - موقع إخباري رقمي مغربي تابع للشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة المغربية، تم استرجاعه بتاريخ: (2024/02/15).



لنوعية الأعياد التي كان الأمازيغ يحتفلون بها، في مختلف مناطق شمال إفريقيا، منذ أقدم العصور. إذ كانوا يخصصون كل فصل من فصول السنة بطقوس احتفالية مرتبطة بالطبيعة"<sup>1</sup>. وتجدر الإشارة إلى أن الأمازيغ يحرصون في هذه المناسبة على تبادل أعمق التهاني والتبريكات، وعلى إعداد وجبات متميزة وفريدة، إذ يكون الالتحام الجماعي والتضامن والتعاون عنوان هذا الاحتفال. والجميل في الأمر أن هذا الاحتفال يتقاسمه المغاربة، سواء منهم الناطقون بالأمازيغية أو غير الناطقين بها؛ بل يتقاسمه المغاربة مع جميع شعوب شمال إفريقيا، وبشكل بذلك إحساساً بقواسم مشتركة بين هذه الدول.

ولعل الاحتفال برأس السنة الأمازيغية يعد بمثابة تقليد اعتاد الأمازيغ الاحتفال به، وهذا الاحتفال يحمل بين طياته عدة أبعاد أهمها الارتباط بالأرض. كما أن من المعروف أن الهوية الأمازيغية تتأسس على ثلاث مبادئ بارزة، وهي الأرض والإنسان واللغة.

### أهمية الاعتراف الرسمي بالتقويم الأمازيغي بالمغرب

يمثل الاعتراف برأس السنة الأمازيغية تقديرًا للمطالب التي نشأت من جيل الحركة الثقافية الأمازيغية الأول. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاعتراف قد ساهم في تأسيس إطار قانوني لحماية اللغة الأمازيغية، كما تم تطوير مؤسسات مختصة مثل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وخلق شعب الدراسات الأمازيغية في بعض الجامعات المغربية وتدرسيها بالمدارس العمومية. هذه الجهود ساهمت في تعزيز دور اللغة الأمازيغية كلغة رسمية في المغرب إلى جانب اللغة العربية، وذلك وفقاً لدستور 2011 والقوانين التنظيمية التي أصدرت في عام 2019.

ومن هذا المنطلق، فإن الاعتراف الرسمي بالتقويم الأمازيغي يُساهم في الحفاظ على هذا الإرث من الاندثار. كما يُساهم في تعزيز التنوع الثقافي داخل المغرب. ويُظهر احترام الدولة لثقافات جميع مكوناتها ويُعزز شعور الأمازيغ بالانتماء والاعتزاز بهويتهم فالتقويم الأمازيغي رمز من رموز الهوية الأمازيغية.

ولا ننكر أن الاعتراف بالتقويم الأمازيغي يُساهم كذلك في تعزيز الوحدة الوطنية، من خلال إشراك جميع مكونات المجتمع في بناء الدولة. كما يُمكن أن يُساهم الاعتراف بالتقويم الأمازيغي في تنمية السياحة الثقافية، من خلال جذب السياح المهتمين بالتعرف على ثقافات مختلفة خاصة في فترات الاحتفال بمثل هذه المناسبات التاريخية. ويُعزز الشعور بالعدالة الاجتماعية، من خلال

<sup>1</sup> - الحسين إسكان (2022)، مرجع سابق، ص 12.



إعطاء الأمازيغ حقوقهم الثقافية. والاعتزاز بالعمق التاريخي للمجتمع المغربي وللمجتمعات التي تتقاسمه معه.

وبما لا يدع مجالا للشك، يُمكن أن يُحفز الاعتراف بالتقويم الأمازيغي البحث العلمي في مجالات التاريخ واللغة والثقافة الأمازيغية. وأن يُساهم الاعتراف في تعزيز التواصل بين الأجيال، من خلال نقل التراث الأمازيغي للأجيال القادمة. وإثراء الحياة الثقافية من خلال إتاحة الفرصة للاحتفال بالمناسبات الأمازيغية. ويُمكن أن يُساهم الاعتراف بالتقويم الأمازيغي كذلك في تعزيز التنمية في المناطق الأمازيغية، من خلال جذب الاستثمارات وتحسين مستوى المعيشة. ويُساهم في مكافحة التمييز ضد الأمازيغ وتعزيز المساواة بين جميع مكونات المجتمع بدون استثناء. إذن، فخطوة المغرب ترسيم هذا اليوم كعيد وطني رسمي، ينسجم تمام الانسجام مع كل المقاربات التاريخية والاجتماعية والحقوقية.

يعزز هذا الاعتراف بطبيعة الحال مكانة المغرب في شمال إفريقيا في طريقة تعامله مع تدبير التعدد اللغوي والتنوع الثقافي. هذا التعدد الذي يستطيع المغرب تحويله إلى قوة ناعمة لتقوية موقعه بين الشعوب. كما يندرج في إطار التكريس الدستوري للأمازيغية كلفة رسمية للبلاد إلى جانب اللغة العربية، وهو أمر سيقوي من اللحمة الاجتماعية لجميع المغاربة. كما يعد الاحتفال برأس السنة الأمازيغية باعتباره عطلة وطنية رسمية مؤدى عنها على غرار فاتح محرم من السنة الهجرية ورأس السنة الميلادية، مصدر اعتزاز بالنسبة لجميع المواطنين الفخوريين بالهوية المغربية الغنية بتعدد روافدها.

ولا يفوتنا أن ننوه أن ترسيم «إيض إيناير» عيداً رسمياً مؤدى عنه، يعد لحظة تاريخية في مسار المغرب الحديث وفي مسلسل الديمقراطية حيث الانفتاح والتجاوب مع المطالب الديمقراطية المشروعة. كما يجسد هذا القرار العناية اللازمة التي يولها الملك محمد السادس للأمازيغية باعتبارها مكوناً رئيسياً للهوية المغربية.

ويكتسي الاحتفال برأس السنة الأمازيغية، الذي يندرج ضمن مداخل التنمية الشاملة، رمزية دالة على تجذر وتنوع النسيج الثقافي للمغاربة، ويؤشر على الرغبة في المضي قدماً على طريق التفعيل الحقيقي للطابع الرسمي للأمازيغية. كما يتعلق الأمر بإجابة عملية على تطلعات المجتمع المغربي في سياق النهوض باللغة والثقافة الأمازيغيتين، وإدماج الأمازيغية في التعليم والإدارة وفي مختلف القطاعات.

وفي هذا الإطار، يمكن القول إن ترسيم رأس السنة الأمازيغي بقرار ملكي هو انتصار للمطالب الجموعية والشعبية، وتجاوز لتماطل الحكومات المتعاقبة في تسريع وتيرة إدماج الأمازيغية في الحياة العامة، ويظهر هذا القرار بجلاء اعتزاز المؤسسة الملكية بمقومات وقيم وتاريخ الأمازيغ بصفة خاصة وتاريخ المغاربة بشكل عام.

## الخاتمة

خلاصة القول، يظهر التقويم الأمازيغي بالمغرب كجزء لا يتجزأ من تراث الشعوب الأمازيغية. رغم التأثيرات الثقافية الخارجية، استمر هذا التقويم في الاحتفاظ بسماته الفريدة ودوره الحيوي في حياة الناس في المنطقة. يُعدّ التقويم الأمازيغي إرثاً حضارياً غنياً يمتد لألاف السنين يستحق الحفاظ عليه، ذلك أنه يُمثل رابطاً ثقافياً وتاريخياً هاماً بين الأمازيغ.

يحمل الاعتراف برأس السنة الأمازيغية دلالات عميقة ومتعددة تتجاوز مجرد تحديد تاريخ معين في التقويم، باعتباره خطوة مهمة نحو التصالح والتفاهم الذاتي. كما أنه يعكس استعداد المجتمع للاعتراف بالهوية الأمازيغية وتقبلها في جميع جوانبها وتجلياتها المتنوعة. وبفضل هذا الاعتراف كذلك، يتم إرساء أسس قوية لتعزيز اللحمة الوطنية وتعزيز الانتماء للوطن من خلال التعرف على تنوعه الثقافي واللغوي والتاريخي.

بالإضافة إلى ذلك، يساهم الاعتراف برأس السنة الأمازيغية في إبراز غنى وتنوع التراث التاريخي للبلاد، ويعزز الاعتزاز بالتاريخ العريق للوطن والتأكيد على أصوله التي تمتد إلى عصور بعيدة. يتيح هذا الإقرار للأفراد الشعور بالانتماء العميق لهذا الوطن، وبالفخر بتاريخه، وتراثه الغني والمتنوع. وبالتالي، يساهم الاعتراف برأس السنة الأمازيغية في تعزيز الوحدة الوطنية وبناء مجتمع مترابط ومتحاب.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- إسكان الحسين (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "حفل نض ن يناير لتوديع سنة واستقبال سنة جديدة"، يناير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير.
- أوسوس محمد (2008)، كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- آيت باحسين الحسين (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "الاحتفال بالسنة الأمازيغية حدث هوياتي مرتبط بتدبير الزمان في الثقافة الأمازيغية"، يناير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير.
- بادرة محمد (2023)، "تاكلا عيض ن يناير أو الاحتفال برأس السنة الأمازيغية"، جريدة العالم الأمازيغي، عدد 264، يناير.
- بوداري محمد (2023)، "أسكاس إغودان 2973: دلالات الاحتفال بحلول السنة الأمازيغية الجديدة"، جريدة العالم الأمازيغي، عدد 264.
- بوعقوي الحسين (2022)، "عيض ن ناير: أيام الاحتفاء بالطبيعة وبالأرض وخيراتهما"، يناير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير.
- بوعقوي الحسين (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "عيض ن ناير: أيام الاحتفاء بالطبيعة وبالأرض وخيراتهما"، يناير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير.
- بوعقوي الحسين (2024)، "ترسيم إض يناير يعزز مكانة المغرب في شمال إفريقيا وفي طريقة تعامله مع تدبير التعدد اللغوي والتنوع الثقافي"، جريدة العلم، العدد 25689.
- زهور الحسين (2022)، إعداد: الحسن الكامح، "نض ن يناير: طقوس وميثاث"، يناير: الذاكرة والمتخيل، مدارات الثقافية، ج4، أكادير.
- شفيق محمد (1989)، ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين، دار السلام، الرباط.

- عقون العربي (2010)، الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول والهوية، سلسلة فكر وحبر، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط.
- كامب غابرييل (2010)، البربر: ذاكرة وهوية. ترجمة: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.

## الإطار المفاهيمي لمصطلح "التحول الرقمي"

مبروكة كريم محمد

عضو هيئة التدريس  
كلية القانون - جامعة الزنتونة  
ليبيا



### ملخص:

أضحت التغيرات الجوهرية في مجال تكنولوجيا المعلومات أمر في غاية الأهمية في الآونة الأخيرة خاصة بظهور التحول الرقمي الذي أصبح من بين أهم الاستراتيجيات والأهداف الواجب تحقيقها في كل مؤسسات الدولة العامة والخاصة، والذي ظهرت إلى جانبه عدد من المفاهيم المشابهة كالذكاء الاصطناعي والرقمنة إلا أنها لا تحمل ذات المعنى بالتحديد، وتزامناً مع ذلك كانت هناك محاولات لإيجاد تعريف محدد له. فالتحول الرقمي له أهمية كبيرة كونه يساهم في تطوير خدمات المؤسسات والهيئات العامة والخاصة بطريقة سهلة وسلسة توفر الوقت والجهد والتكاليف، وتحويل العمليات التقليدية إلى عمليات أكثر تكنولوجيا وتأتي بتحسينات جوهرية في الكفاءة والجودة، وهذه المزايا يقابلها مخاطر تتلزم مع هذا التحول إلا أن الأهم هو تمكين دول العالم النامي من فوائد التحول الرقمي، وألا تبقى حكراً على الدول المتقدمة لأن ذلك يزيد ويُعمق من حجم الهوة بين الشمال والجنوب، وفي حال إيجاد التعاون الرقمي بين الدول فإنه يعكس المعايير العالمية للسلام والأمن وحقوق الإنسان والتنمية المستدامة.

كلمات مفتاحية: التحول الرقمي - الذكاء الاصطناعي - الرقمنة - التكنولوجيا - حوسبة سحابية.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كريم محمد، مبروكة. (2024، أكتوبر). الإطار المفاهيمي لمصطلح "التحول الرقمي". مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 234-259.

### Abstract:

Fundamental changes in the field of information technology have become extremely important recently, especially with the emergence of digital transformation, which has become among the most important strategies and goals to be achieved in all public and private state institutions. Along with it, a number of similar concepts have emerged, such as artificial intelligence and digitization, but they do not have the same meaning. Specifically the meaning, and at the same time there were attempts to find a specific definition for it. Digital transformation is of great importance because it contributes to developing the services of public and private institutions and bodies in an easy and smooth way that saves time, effort and costs, and transforming traditional processes into more technological processes that bring fundamental improvements in efficiency and quality. These advantages are offset by risks associated with this transformation, but the most important thing is to empower countries. The developing world is one of the benefits of digital transformation, and that it should not remain limited to developed countries because this increases and deepens the size of the gap between the North and the South. If digital cooperation is established between countries, it reflects global standards for peace, security, human rights, and sustainable development.

**Keywords :** Digital transformation - artificial intelligence - digitization - technology - cloud computing.

## مقدمة

يعد التحول الرقمي هو التغير المرتبط بتطبيق التكنولوجيا الرقمية في جميع مناحي الحياة، فهو ضرورة ملحة يفرضها التطور المتسارع في استخدام وسائل تكنولوجيا المعلومات، لكي يحقق الهدف المرجو منه وهو الانتقال من الأنظمة الورقية إلى الأنظمة الرقمية.

فالتحول الرقمي ليس ميكنة العمليات التقليدية فقط، وإنما تغيير في نماذج الأعمال بفكر إبداعي وقدرات تقنية، ومن ثم فإنه أصبح ضرورة ملحة يفرضها التطور المتسارع في استخدام وسائل تكنولوجيا المعلومات لتحسين كفاءة الشركات والمؤسسات، كما أن واقع التكنولوجيا الذكية رافقه ظهور العديد من المفاهيم المتشابهة، والتي تهدف جميعها إلى تطوير بيئة الأعمال الالكترونية وتكاملها لما فيه خير هذه الأجيال، والأجيال القادمة.

فيمكن للتكنولوجيا أن تساعد في جعل العالم أكثر إنصافاً وأكثر سلاماً، ويمكن للإنجازات الرقمية أن تعجل بتحقيق كل هدف من أهداف التنمية المستدامة السبعة عشر بداية من إنهاء الفقر المدقع إلى الحد من وفيات الأمهات والرضع، وتعزيز الزراعة المستدامة والعمل اللائق، وإلزام الجميع بالقراءة والكتابة، ولكن وإن كان للتكنولوجيا بعض الآثار السلبية كالتي تهدد الخصوصية، وتؤدي إلى تقلص الأمن وتفاقم عدم المساواة مما ينعكس على حقوق الإنسان وفعالية دوره، فإن هذا الأمر يفرض على الحكومات والشركات والأفراد أن تختار الكيفية التي تستفيد بها من التكنولوجيات الجديدة وإدارتها.

## أهمية البحث:

تتجسد أهمية البحث من خلال الآتي:

حادثة الموضوع وارتباطه بالواقع، والذي لا يزال إلى يومنا هذا يشهد العديد من التطورات في كل جوانبه، لذلك أصبح من الضروري الوقوف على التحديد الدقيق لإطاره المفاهيمي.

تحديد ملامح التحول الرقمي كونه ضرورة حتمية فرضه التطور التكنولوجي الذي شهده العالم بأسره، وذلك من خلال عرضه مفهومه وتتبع استراتيجيته، والركائز التي يقوم عليها، وفي نفس السياق عرض أهميته وأنواعه.

## إشكالية البحث:

يثير البحث إشكالية رئيسية وهي: هل بالإمكان تحديد مفهوم التحول الرقمي بشكل دقيق، والاتفاق عليه؟ وهل يمكن التفرقة بين التحول الرقمي وبين المصطلحات المشابهة له كالرقمنة والذكاء الاصطناعي؟ وهل للتحول الرقمي من أهمية أو أنواع تذكر؟

## منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج القانوني الوصفي، وذلك من خلال الاستعانة بمختلف المفاهيم ذات الصلة المباشرة بموضوع البحث، والتي تُسهم في تحديد الإطار المفاهيمي لمصطلح التحول الرقمي.

## خطة البحث:

## المبحث الأول: مفهوم التحول الرقمي

المطلب الأول: تعريف التحول الرقمي

المطلب الثاني: الفرق بين التحول الرقمي والمفاهيم المشابهة

المبحث الثاني: أهمية التحول الرقمي وأنواعه

المطلب الأول: أهمية التحول الرقمي

المطلب الثاني: أنواع التحول الرقمي

## المبحث الأول: مفهوم التحول الرقمي

يمثل التحول الرقمي واحداً من أهم دوافع ومحفزات النمو داخل الدولة، مما يفرض على الدول سباقاً حاسماً لتحقيق جودة أفضل عند تقديم الخدمات، ولا شك أن التحول الرقمي سيعمل على اتساع نطاق التطوير والتغيير وحدوث تحولات غير مسبوقه في كافة المجالات، ولقد فرض تحديات كبيرة على المؤسسات والشركات فيما يتعلق بتدريب وتطوير موظفيها، إذ أن امتلاك المهارات الرقمية والتكنولوجية أصبح أمراً حتمياً للنجاح والاستمرارية، لذا سيتم معرفة مفهوم التحول الرقمي، وذلك من خلال تعريفه في المطلب الأول، بينما ينفرد المطلب الثاني بعرض مفهوم المصطلحات المشابهة له، وذلك على النحو التالي:

### المطلب الأول: تعريف التحول الرقمي

تعود بدايات التحول الرقمي إلى سنة 1703م إذ شرح غوتفريد فيلهيلم لايبنتز، وتصور المبدأ في كتابه "شرح دي لا ريميثيك بينير"، فقد تطور العد الثنائي بداية بوصفه نظاماً رقمياً يستخدم قيمتين فقط 0 و1، ثم تابع التطوير على النظام واستُكمل من خلال باحثين منهم جورج بول سنة 1845م، وكلود شانون سنة 1938م، وجورج ستبترز في فترة الأربعينيات.<sup>(1)</sup>

والتحول الرقمي (Digital transformation) هو الانتقال من الهياكل التنظيمية التقليدية المركزة على العمليات، إلى هياكل حديثة تستخدم التقنيات والأدوات الرقمية في جميع عمليات وأنشطة المنظمات والشركات، بما في ذلك ما يأتي:

- استخدام تطبيقات وبرمجيات والذكاء الاصطناعي وتحليل البيانات؛
- الاعتماد على التجارة الإلكترونية والتسويق الرقمي؛
- تبني أدوات وقنوات التواصل الرقمية مع العملاء والموظفين؛
- إجراء العمليات وتقديم الخدمات عبر الوسائل الرقمية بدلاً من الطرق التقليدية؛
- استخدام أنظمة إدارة المعلومات وقواعد البيانات الرقمية.

كما يمكن تعريف التحول الرقمي بأنه: (عملية دمج التكنولوجيا الرقمية في مجالات العمل المختلفة بهدف الإدارة الكاملة رقمياً، والتخلي عن الورقيات شيئاً فشيئاً بهدف تغيير كيفية عمل

<sup>1</sup> - نادية أحمد الشهراني، عالم التحول الرقمي، مقال منشور على الرابط الإلكتروني: <https://www.annajah.net/-article-29496> تاريخ الزيارة 2024/3/2م.



الشركة وكيفية تشغيل القيمة للعملاء وتقديمها، فهو يحسن تجربة العملاء مع الشركة، كما يوفر الراحة لكل من الشركة والعميل ويزيد الإنتاجية، ومن ثم زيادة الربح، وأيضاً بأنه الوسيلة التي تعتمد فيها المنظمات كل قواها لتطبيق التقنيات الرقمية، لتحسين الوجود في وسائل التواصل الاجتماعي، وتنفيذ أدوات مدعومة بالذكاء الاصطناعي والاستثمار في الثقافة بالاعتماد على البيانات<sup>(1)</sup>.

كما يشير المركز العالمي لتحويل الأعمال الرقمية إلى أن: (التغيير التنظيمي هو أساس تحول الأعمال الرقمية)، ذلك لأن تغيير طبيعة المنظمة يعني تغيير طريقة عمل فريق العمل وإجراءات العمل والاستراتيجيات اليومية التي يعتمدون عليها، في حين أن هذه تمثل أصعب المشكلات إلا أنها تحقق إنجازاً أكثر للعمل، مما يتيح لهيئة ما أن تصبح أكثر فاعلية وتنجز أعمالها أسرع مما سبق، مع الاستفادة من توفير المزيد من فرص العمل<sup>(2)</sup>.

أيضاً يعرف التحوّل الرقمي بتعريفات أخرى منها أنه: (عملية انتقال الشركات إلى نموذج عمل يعتمد على التقنيات الرقمية في ابتكار المنتجات والخدمات، وتوفير قنوات جديدة من العائدات وفرص تزيد من قيمة منتجها)<sup>(3)</sup>.

ويعرف أيضاً على أنه: (التحوّل في الأعمال أو الحكومات، أي إجراء تغييرات جذرية تطال نموذج العمل والإجراءات والعمليات، وقد يطال التحوّل عملية تغيير المنتج أو طريقة تقديم الخدمة كلياً، وقد يكون استراتيجياً بتدخل في وظائف المؤسسة كلها من المبيعات إلى التوريد وتقنية المعلومات وكل سلسلة القيمة)<sup>(4)</sup>.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن المقصود باستراتيجية التحوّل الرقمي هي خطة مفصلة لتنفيذ التحوّل الرقمي قصير الأجل وطويل الأجل في أي منظمة يأخذ في الاعتبار المكونات التالية:

<sup>1</sup> - جميلة سلايبي، يوسف بوشي، التحوّل الرقمي بين الضرورة والمخاطر، مجلة العلوم القانونية والسياسية، المجلد العاشر، العدد الثاني، سبتمبر سنة 2019م، ص 948.

<sup>2</sup> - حسن حامد، ما التحوّل الرقمي؟ اكتشاف الحقيقة وراء هذه الكلمة الطنانة، عالم التكنولوجيا، نشرة شهرية تصدر عن مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء المصري، السنة الأولى، العدد الأول، مارس، سنة 2020م، ص 14

<sup>3</sup> - عدنان مصطفى البار، تقنيات التحوّل الرقمي، الصفحة الثانية، مقال متاح على الرابط الإلكتروني: <http://www.kau.edu.sa/GetFile.aspx?id=287966&fn=Article-of-this-week-DrAdnan-ALBAR-Feb-2018.pdf>

تاريخ الزيارة 2024/3/3م.

<sup>4</sup> - بردان عباس، ما هو التحوّل الرقمي وكيف تعرفه الشركات الرقمية ومحركات دفع التحوّل الرقمي والتكنولوجي، الجزء الأول، منشور بتاريخ 2018/8/13م، متاح على الرابط الإلكتروني: [www.egovccepts.com](http://www.egovccepts.com)، تاريخ الزيارة 2024/2/24م.

- القادة الذين يشرعون في عملية التحول ويقودونها؛
- التخطيط الاستثماري والمالي؛
- مؤشرات الأداء الرئيسية (KPIs) التي تقيس عائد الاستثمار (ROI)؛
- الأدوات والعمليات التي تدعم التحول؛
- الموارد الخارجية وخبراء من جهات خارجية؛
- تأثير التحول على العملاء والموظفين.

وبالتالي فهناك أربع خطوات لتطوير استراتيجيات تحول رقمي ناجح، وهي:

#### مواءمة التحوّل الرقمي مع أهداف الشركة أو المؤسسة:

إن تخطيط مشروع التحول الرقمي يجب أن يتمحور حول الخطط العامة للمنظمة، وليس على تقنية بعينها بحيث تساعد مجالات التركيز الأساسية أيضاً في تحديد مؤشرات الأداء الرئيسية، والحفاظ على إمكانية قياس التحول، وتسريع وقت تحصيل القيمة.

#### تطوير إثبات المفهوم:

يمكن للمبادرات جيدة البدء أن تظهر نتائج قابلة للقياس في غضون ستة أشهر أو أقل، وسيكون من الأفضل وضع استراتيجيات أولية توضح عائد الاستثمار وتحظى بتأييد القيادة بعد ذلك يمكن تعديل هذه النماذج الأولية وتوسيع نطاقها تدريجياً في جميع أرجاء المؤسسة.

#### وضع خريطة لتنفيذ التكنولوجيا:

يضم التحوّل الرقمي العديد من الأدوات والتقنيات<sup>(1)</sup> التي يمكن استخدامها في إحداث التغيير في المؤسسة أو الشركة، والتي يمكن أن يؤدي إدخالها إلى إحداث تحول كبير في طرق عمل الموظفين وتفاعل العملاء مع المؤسسة أو الشركة، وقد تكون هناك حاجة إلى الإتيان بشركاء

<sup>1</sup> - بعض هذه التقنيات:

- تقنيات الأجهزة المحمولة، مثل التطبيقات الموجهة للعملاء والتطبيقات الداخلية التي تعمل على تحسين الإنتاجية.
- إنترنت الأشياء، مثل المستشعرات الذكية والأجهزة الذكية التي تتصل تلقائياً بالإنترنت وتجمع البيانات.
- التقنيات السحابية، وخاصة الحوسبة السحابية والتخزين السحابي.
- الذكاء الاصطناعي وتعلّم الآلة لغرض تحليلات البيانات واتخاذ القرار.
- الواقع المعزز والواقع الافتراضي لغرض مشاركة شاملة للعملاء
- تقنيات الروبوت لتحسين الكفاءة التشغيلية.

وخبراء خارجيين لتدريب فريق عمل المؤسسة أو الشركة لزيادة قدرتها، وضرورة تنظيم ذلك كجزء من استراتيجية التحول الرقمي الخاصة بتلك المؤسسة أو الشركة.

### جمع الملاحظات وتحسين استراتيجية التحول الرقمي:

يجب أن تتضمن خطط مشروعات التحول الرقمي حلقات ملاحظات قوية، وبالانتظام في جمع الملاحظات من أصحاب المصلحة يمكن التأكد من أن الجميع يتعلمون من التجربة ويتزايدون بطريقة ديناميكية، ولأن التحول الرقمي عبارة عن رحلة، فإن إدخال نقاط تحقق في المخطط الزمني يتيح الفرصة ويمنح المرونة لإجراء أي تغييرات إذا لزم الأمر.<sup>(1)</sup>

### دراسة حالة في التحول الرقمي:

بدأت جامعة سانت لويس (SLU) رحلتها الرقمية في محاولة لتحسين إنتاجية الطلاب والتفاعل داخل الحرم الجامعي، وأهدافها الأساسية في الأعمال كانت على هذا النحو: بعد مراجعة عمليات تفاعل الطلاب أدرك قادة التحول أن الطلاب يريدون ردوداً أسرع على أسئلتهم حول الدراسة في الجامعة.

فقرروا إنشاء نماذج أولية لأجهزة Amazon Echo بإدخال 2300 جهاز في قاعات الإقامة أو أماكن المعيشة بالحرم الجامعي يمكن للطلاب طرح أسئلة على الأجهزة حول جامعة سانت لويس وتلقي الردود.

تم استخدام الأجهزة استخداماً مفرطاً أثناء التجربة، وكشف تحليل لتفاعل الطلاب أنهم كانوا يستخدمون الأجهزة في تعيين تذكيرات الإشعارات وطرح أسئلة حول المعرفة العامة.

قد أبرمت جامعة سانت لويس شراكة مع خدمات AWS الاحترافية لتوسيع نطاق فكرة التحول الرقمي هذه بصورة أكبر، واستخدمت الذكاء الذي اكتسبه القادة من التجارب المبكرة في بناء منصة دردشة ذكية كاملة النطاق.<sup>(2)</sup>

<sup>1</sup> - محمد إبراهيم أبو الهيجاء، عقود التجارة الإلكترونية، منشورات دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2015م، ص 15  
<sup>2</sup> - وعلى أثر ذلك يمكن للطلاب التفاعل مع روبوت دردشة عبر الموقع الإلكتروني لجامعة سانت لويس أو الرسائل النصية أو Amazon Echo ويمكنهم الاستمرار في تلقي ردود متسقة، وقد قررت جامعة سانت لويس أن تأخذ التحول إلى أبعد من ذلك تتمثل المرحلة التالية من مشروع التحول الرقمي في تخصيص روبوت دردشة بحيث يمكن للطلاب طرح أسئلة شخصية مثل "متى يبدأ امتحاني في مادة التاريخ؟" أو يمكن للموظفين أن يسألوا، "كم عدد الإجازات المتبقية لي؟"

## المطلب الثاني: الفرق بين التحوّل الرقمي والمفاهيم المشابهة

قد يثور الخلط بين التحوّل الرقمي وبعض المفاهيم الأخرى المشابهة والمقاربة له لاشتراكها جميعاً في تغطية نفس المجال، وعملها أيضاً على نفس المحك، وهو السعي الدائم لتقديم أفضل الخدمات بأسرع وقت، وبأقل التكاليف، الأمر الذي يستوجب عرض تلك الفروق من خلال الفروع التالية:

### الفرع الأول: الفرق بين الرقمنة والتحوّل الرقمي

الرقمنة هي: (عملية تحويل الجوانب المادية في عمليات الأعمال وتدفقات العمل إلى جوانب رقمية، والمقصود من تمثيل الأشياء غير الرقمية أو المادية في تنسيق رقمي هو أن يكون بإمكان نظام الكمبيوتر استخدام هذه المعلومات، وعلى سبيل المثال تحوّل النماذج الورقية التي يملؤها العملاء إلى نماذج رقمية يكملونها عبر الإنترنت، وحينئذ يمكن استخدام هذه البيانات الرقمية في التحليلات في مجال الأعمال)،<sup>(1)</sup> وقد تتضمن مبادرات الرقمنة مشروعات مثل:

- تحديث الأنظمة القديمة؛
  - اتمام العمليات الورقية أو اليدوية الحالية؛
  - نقل النظام ليكون متاحاً عبر الإنترنت.
- إن الاكتفاء بالرقمنة وحدها لا يُعد تحوُّلاً رقمياً، إلا أنها خطوة أولى مهمة في رحلة التحوّل الرقمي، وللتحوّل الرقمي نطاق أوسع بكثير يقود إلى تحوّل ثقافي مهيم في المؤسسات أو الشركات. أيضاً فالرقمنة (Digitalization) والتحوّل الرقمي (Digital Transformation) هما مصطلحان يستخدمان في سياق التكنولوجيا والأعمال، وعلى الرغم من أنهما مرتبطان ببعضهما البعض، إلا أنهما يعبران عن مفاهيم مختلفة من عدة نواحي:

### الناحية الأولى:

- الرقمنة: هي عملية تحويل المعلومات والبيانات من صيغ تناظرية إلى صيغ رقمية، وهذا يتضمن تحويل الوثائق والملفات والصور والصوت والفيديو وغيرها من البيانات إلى تنسيق رقمي يمكن تخزينه ومعالجته باستخدام أجهزة الكمبيوتر والتقنيات الرقمية، ويتم ذلك عادةً من خلال

<sup>1</sup> - جميلة سلاوي، يوسف بوشي، مرجع سبق ذكره، ص 950

عملية المسح الضوئي (Scanning) أو تحويل الوثائق الورقية إلى ملفات إلكترونية، وكذلك عملية تحويل البيانات التناظرية إلى تنسيق رقمي.

- التحوّل الرقمي: هو أكثر من مجرد رقمنة فهو يشير إلى تغيير شامل في الأعمال والعمليات والثقافة المؤسسية باستخدام التكنولوجيا الرقمية، كما يتضمن التحوّل الرقمي تبني استخدام التكنولوجيا والتحول الشامل لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في جميع جوانب المؤسسة، ويشمل ذلك تحسين العمليات التقليدية، وتحسين تجربة العملاء، وتطوير نماذج الأعمال، وتوسيع الابتكار، وتحسين الكفاءة والإنتاجية باستخدام التكنولوجيا الرقمية.(1)

أما الناحية الثانية:

-الرقمنة: تتيح سهولة الوصول إلى المعلومات وتخزينها ومشاركتها وتحليلها مما يؤدي إلى زيادة الكفاءة والإنتاجية، كما أنها خطوة أساسية في استغلال التكنولوجيا الرقمية ووضع الأساس للتحوّل الرقمي.

- التحوّل الرقمي: يتجاوز الرقمنة ويشمل تغييرات أكثر شمولاً في المؤسسات تدفعها التكنولوجيا الرقمية، وينطوي على دمج التكنولوجيا الرقمية في جميع جوانب العمل، مما يؤدي إلى تغييرات جوهرية في عمليات الأعمال، وتجارب العملاء، وحتى نماذج الأعمال، كما يدفع التحوّل الرقمي من خلال الاعتراف بأن التكنولوجيا الرقمية يمكن أن تجلب قيمة وميزة تنافسية كبيرة.(2)

أيضاً يمكن أن يتضمن التحوّل الرقمي عناصر مثل:

- تحويل العمليات التقليدية إلى عمليات أكثر تكنولوجيا، وتأتي بتحسينات جوهرية في الكفاءة والجودة.
- تحسين تجربة العملاء من خلال تقديم خدمات رقمية متميزة وتفاعلية.
- تطوير نماذج أعمال جديدة تستغل التكنولوجيا الرقمية لتحقيق تغييرات هيكلية في الصناعات والقطاعات.(3)

<sup>1</sup> - لمياء فراز، الحكومة الإلكترونية، أطروحة دكتوراه، كلية الحقوق والعلوم السياسية/ جامعة باتنة 01 الحاج لخضر، السنة الجامعية 2017/2018م، ص 27

<sup>2</sup> - محمد إبراهيم أبو الهيجاء، مرجع سبق ذكره، ص 48

<sup>3</sup> - منصور الزين، سفيان نقماري، الإطار النظري للحكومة الإلكترونية - بين المتطلبات ومبررات التحوّل، منشورات دار الشرق للنشر والتوزيع، سنة 2013م، ص 26.

- تعزيز الابتكار من خلال استخدام التكنولوجيا الرقمية لتطوير منتجات وخدمات جديدة وإيجاد فرص جديدة للنمو.
- تحسين الكفاءة والإنتاجية من خلال استخدام تقنيات مثل الذكاء الاصطناعي والتحليلات الضخمة (Big Data Analytics)، والتعلم الآلي (Machine Learning) للحصول على رؤى قيمة واتخاذ قرارات مستنيرة.<sup>(1)</sup>

وباختصار فالرقمنة هي عملية تحويل البيانات إلى صيغ رقمية في حين أن التحوّل الرقمي يشير إلى التغيير الشامل في المؤسسات باستخدام التكنولوجيا الرقمية لتحسين الأداء وتحقيق التحول في العمليات والثقافة المؤسسية.

### الفرع الثاني: الفرق بين الذكاء الاصطناعي والتحوّل الرقمي

في الآونة الأخيرة تزايد الاعتماد على التكنولوجيا بشكل كبير، وبات العمل عن بعد ضرورة لا غنى عنها للكثيرين، وفي هذا السياق يبرز دور الذكاء الاصطناعي كعامل محوري في تطوير وتحسين مهارات الأفراد الأساسية، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاجية وتعزيز الكفاءة في بيئة العمل الرقمية، فيما يلي عرض لكيفية مساهمة الذكاء الاصطناعي في تحسين المهارات الضرورية للعمل عن بعد:

#### تحسين التواصل الفعال:

يمثل التواصل الفعال ركيزة أساسية في نجاح العمل عن بعد، ويأتي الذكاء الاصطناعي ليسهل هذه العملية من خلال تقديم حلول متقدمة مثل الترجمة الآنية للغات، وتحليل النصوص لضمان فهم أعمق للسياق والنية وراء الكلمات، مما يسهل التواصل بين فرق العمل متعددة الجنسيات.

#### تنظيم الوقت بكفاءة:

إدارة الوقت بشكل فعال تعد من أهم التحديات في العمل عن بعد، ويقدم الذكاء الاصطناعي أدوات قادرة على تحليل بيانات الأداء الشخصي وتقديم توصيات مخصصة تساعد الأفراد على تخصيص وقتهم بشكل يضمن الإنجاز والفعالية.

<sup>1</sup> - ياسر راتب، التحوّل الرقمي، مقال منشور على الرابط: <https://ae.linkedin.com/pulse/main-content>، تاريخ الزيارة: 2024/2/19م.

## التعلم المستمر والتطور الذاتي:

يساعد الذكاء الاصطناعي في توفير محتوى تعليمي مصمم خصيصاً ليلبي احتياجات كل فرد، معتمداً على أنماط التعلم الخاصة بهم، مما يجعل عملية التعلم أكثر فاعلية وشخصية.<sup>(1)</sup>

## التعاون الأكثر كفاءة:

يعتبر التعاون عنصراً حاسماً في نجاح العمل الجماعي عن بعد، ويقدم الذكاء الاصطناعي حلولاً لتحسين هذا التعاون من خلال أدوات ذكية تسهل التواصل والتنسيق بين أعضاء الفريق مما يعزز الإنتاجية الجماعية.

## دعم الرفاهية النفسية:

في بيئة العمل عن بعد قد يتعرض الأفراد لضغوط مختلفة، فيمكن للذكاء الاصطناعي تقديم توصيات مبنية على البيانات لتعزيز الرفاهية النفسية، من خلال تشجيع ممارسة التمارين البدنية، التأمل، وتقديم نصائح لتحسين التوازن بين العمل والحياة الشخصية.<sup>(2)</sup>

إذاً فالفارق الجوهرى الذكاء الاصطناعي والتحول الرقمي أن الذكاء الاصطناعي أحد أدوات التحول الرقمي وجزء لا يتجزأ منه، فهو يقدم إمكانيات هائلة لتعزيز العمل عن بعد عبر تطوير المهارات الأساسية للأفراد، وذلك من خلال الاستثمار في هذه التقنيات حيث يمكن للمؤسسات والأفراد تحقيق إنتاجية أعلى وتعزيز الكفاءة في بيئة العمل الرقمية، وبذلك يعتبر الذكاء الاصطناعي خطوة على درجة كبيرة من الأهمية في عملية التحول الرقمي.

## المبحث الثاني: أهمية التحول الرقمي وأنواعه

باعتبار عملية التحول الرقمي تؤدي دوراً بالغ الأهمية في رسم السياسات الحكومية في مختلف دول العالم، وتحدد طريقة تعاملها مع الفرص الجديدة والتحديات الطارئة الأمر الذي يشجع الحكومات على زيادة قدراتها في مجال المعلومات والاتصالات بهدف قيادة وتيرة المنافسة، والوصول إلى هدفها المنشود وهو تحقيق المكاسب المادية بكل صورها، لينفرد المطلب الأول بعرض

<sup>1</sup> - براءة العجلوني، الذكاء الاصطناعي و التحول الرقمي ، تاريخ النشر 6 فبراير، 2024م، على الرابط الالكتروني:

The Advancement Of Women: Achieving Success & Making a Name for Themselves.

تاريخ الزيارة 2024/2/2م.

<sup>2</sup> - علي محمد الخوري، الحكومة الرقمية "دائرة الاهتمام"، صادر عن المنظمة العربية للتنمية الإدارية، جامعة الدول العربية، الطبعة الثانية، مايو سنة 2020م، ص 84

أهمية التحول الرقمي، أما أنواع التحول الرقمي فستكون في المطلب الثاني، وذلك على النحو التالي:

### المطلب الأول: أهمية التحول الرقمي

تستفيد الشركات والمؤسسات من أحدث الأدوات والتقنيات الرقمية لتحسين العمل وتطوير المنتجات وإتمام العمليات وإنشاء عملية أكثر كفاءة، ومن هذه الفوائد:

يعود التحول الرقمي على الشركات بفوائد كثيرة، فمن خلال دمج التقنيات المتطورة تستطيع الشركة تحسين العمليات الداخلية وتقليل كلفة العمالة نتيجة تقليل المعدات، والاعتماد على الحوسبة السحابية ونفقات الطاقة والموارد البشرية ونفقات دعم العملاء.(1)

إن إتمام العمليات واستخدام البرامج والتطبيقات والأدوات الرقمية وجمع البيانات يسمح للأعمال التجارية باستخدام الموظفين بالشكل الأمثل، كما يسمح بإدارة أكبر عدد ممكن من المشاريع بأقصر وقت ممكن.

أبرز فوائد التحول الرقمي أنه يتيح تجربة أفضل للعملاء؛ لكونه يسمح بالحصول على مزيد من الخيارات مما يزيد من رضا العملاء، فمثلاً اعتماد تقنية الاستشعار الذكي لتتبع الطلبات سريعاً وتنفيذها، كما أن استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي للتفاعل مع العملاء يساعد في تحسين دعم العملاء وخدمتهم.

يسمح التحول الرقمي بالتفاعل بين الشركة والعملاء بواسطة الإنترنت فعلى سبيل المثال قد يفضل الأشخاص متجر ملابس فيه خيار متجر بواسطة الإنترنت على خيار يتطلب من العميل التسوق شخصياً فقط.

كما يمكن للشركة من خلال التحول الرقمي جمع البيانات عن نهج التسويق والمبيعات في المستقبل مما يسمح بمراقبة الأداء واتخاذ قرارات استراتيجية بهدف حل المشكلات أو إجراء تحسينات.(2)

<sup>1</sup> - أحمد سامي، التقدم التكنولوجي، مقال منشور على الرابط الإلكتروني: <https://www.annajah.net/-article-32345>، تاريخ الزيارة 2024/3/5م.

<sup>2</sup> - علاء عبد الرزاق محمد السامي، السليطي خالد إبراهيم، الإدارة الإلكترونية، منشورات دار وائل للنشر، عمان/الأردن، سنة 2008م،



لقد تقدمت التكنولوجيات الرقمية بسرعة تفوق أي ابتكار في التاريخ حيث وصلت إلى حوالي 50% من سكان العالم النامي<sup>(1)</sup> فيما لا يتجاوز عقدين من الزمان، وأحدثت تحولاً في المجتمعات، ومن خلال تعزيز الاتصال الإلكتروني والشمول المالي وإمكانيات الوصول إلى الخدمات التجارية والعامة، يمكن أن تمثل التكنولوجيا عاملاً كبيراً في تحقيق المساواة، ويظهر ذلك جلياً في العديد من المجالات:

### أولاً. العمل والخدمات العامة

ما برحت الثورات التكنولوجية على مر التاريخ إلى تغيير القوى العاملة فهي تستحدث أشكال وأنماط عمل جديدة، وتدفع غيرها إلى الاندثار، تشير تقديرات منظمة العمل الدولية إلى أن التحول إلى اقتصاد أكثر خضرة يمكن أن يُوجد 24 مليون وظيفة جديدة على مستوى العالم بحلول سنة 2030م من خلال اعتماد ممارسات مستدامة في قطاع الطاقة واستخدام المركبات الكهربائية وزيادة كفاءة استعمال الطاقة في المباني الحالية والمستقبلية، وفي الوقت ذاته، تشير تقارير بعض المجموعات مثل مجموعة ماكينزي إلى أن 800 مليون شخص قد يفقدون وظائفهم بسبب التشغيل الآلي بحلول سنة 2030م، فالنسبة الغالبة من جميع الموظفين يشعرون بالقلق من ألا يكون لديهم التدريب الضروري أو المهارات اللازمة للحصول على عمل جيد الأجر<sup>(2)</sup>.

وكذلك أخذت الخدمات العامة بفضل المساعدة التي يقدمها الذكاء الاصطناعي، تزداد سهولة في الحصول عليها، وتزداد خضوعاً للمساءلة من خلال النظم التي تعمل بتقنية سلاسل السجلات المغلقة، كما أخذت تبتعد عن الطابع البيروقراطي المرهق، ويمكن للبيانات الضخمة أن تدعم أيضاً سياسات وبرامج أكثر تلبية للاحتياجات وأكثر دقة<sup>(3)</sup>.

<sup>1</sup> - لكن يظل الأشخاص الذين لم تصلهم بعد وسائل الربط الإلكتروني محرومين من منافع هذا العصر الجديد وأبعد عن الركب، وكثير ممن تركوا خلف الركب هم من النساء أو كبار السن أو ذوي الإعاقة أو من الأقليات العرقية أو اللغوية وجماعات الشعوب الأصلية وسكان المناطق الفقيرة أو النائية، وقد أخذت وتيرة الاتصال الإلكتروني في التباطؤ، بل والتراجع، في بعض الأوساط. فعدد النساء اللاتي يستخدمن الإنترنت على مستوى العالم، مثلاً، يقل بنسبة 12% عن عدد الرجال، وبينما ضاقت هذه الفجوة في معظم المناطق خلال الفترة ما بين سنتي 2013م - 2017م، فإنها قد اتسعت في أقل البلدان نمواً من 30% إلى 33%، للاطلاع أكثر مقال أ. براءة عجلوني، مرجع سبق ذكره.

<sup>2</sup> - دلال القحطاني، عالم متغير جديد، مقال منشور على الرابط الإلكتروني: <https://www.annajah.net/-article-32345>، تاريخ الزيارة 2024/2/22م.

<sup>3</sup> - لمياء فراز، مرجع سبق ذكره، ص 35.

## ثانياً. التعليم

ثمة اتفاق واسع على أن إدارة هذه الاتجاهات سوف تقتضي تغييرات في النهج الذي نتبعه إزاء التعليم، من خلال مثلاً زيادة التركيز على العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات، وتعليم المهارات الشخصية والقدرة على التكيف، ومن خلال ضمان أن يمكن للناس اكتساب المهارات من جديد والارتقاء بها طوال حياتهم، كما يسّرت بيئات التعلم الافتراضي والتعلم عن بعد إمكانية الالتحاق بالبرامج التعليمية لطلاب كانوا سيتعرضون بدونها للاستبعاد، وأيضاً سوف يلزم توفير دعم أفضل للعمل غير المدفوع الأجر، كرعاية الأطفال ورعاية المسنين في المنزل على سبيل المثال، وخاصة لأن من المحتمل في ظل التحول الذي طرأ على أعمار السكان في العالم، أن يزداد الطلب على هذه المهام.<sup>(1)</sup>

## ثالثاً. مستقبل البيانات

تستخدم اليوم التكنولوجيات الرقمية، من قبيل تجميع البيانات والذكاء الاصطناعي، لتتبع المشكلات وتشخيصها في مجالات الزراعة والصحة والبيئة، أو لأداء مهام يومية مثل التعامل مع حركة المرور أو دفع الفواتير، ويمكن استخدامها للدفاع عن حقوق الإنسان وممارستها إلا أنه يمكن استخدامها أيضاً لانتهاك تلك الحقوق، من خلال مثلاً رصد التحركات والمشتريات، والمحادثات وأيضاً السلوكيات، فالحكومات والشركات تتوافر لديها بشكل متزايد الأدوات اللازمة لاستخراج البيانات واستغلالها للأغراض المالية وغيرها.<sup>(2)</sup>

أيضاً قد تصبح البيانات الشخصية مكسباً للشخص إذا أتيحت صيغة لتنظيم ملكية البيانات الشخصية بشكل أفضل، فالتكنولوجيا التي تعمل على أساس البيانات لها القدرة على تمكين الأفراد، وتحسين رفاه البشر، وتعزيز الحقوق العالمية، تبعاً لنوع الحماية المتوفرة.

## رابعاً. مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي

ترتبط وسائل التواصل الاجتماعي ما بين قرابة نصف سكان العالم بالكامل، وهي تُمكن الناس من إسماع أصواتهم والتحدث إلى الأشخاص في جميع أنحاء العالم في الوقت الحقيقي غير أنها يمكن أيضاً أن تعزز أشكال التحيز وتزرع الفُرقة، بإتاحة منبر لخطاب الكراهية والمعلومات

<sup>1</sup> - علي محمد الخوري، مرجع سبق ذكره، ص 87

<sup>1</sup> - نائل عبد الحافظ العواملة، بحث بعنوان "الحكومة الإلكترونية ومستقبل الإدارة العامة"، مجلة دراسات العلوم الإدارية الجامعة الأردنية، مجلد 29، العدد الأول، سنة 2002م، ص 76

الخاطئة، أو عن طريق تضخيم أصدائه، ومن ثم يمكن لخوارزميات وسائل التواصل الاجتماعي أن تعزز تجزئة المجتمعات على نطاق العالم، ولكن يمكنها في الوقت ذاته أن تؤدي إلى عكس ذلك.

### خامساً. مستقبل الفضاء الإلكتروني

تخضع الكيفية التي تدار بها تلك التطورات لقدر كبير من النقاش على الصعيدين الوطني والدولي، في وقت تتصاعد فيه حدة التوترات الجيوسياسية، فمن المتوقع حدوث "صدع كبير" بين القوى العالمية، فلكل منها استراتيجيتها الخاصة بالإنترنت والذكاء الاصطناعي، فضلاً عن قواعد العملة والقواعد التجارية والمالية السائدة لديها، وأراؤها الجيوسياسية والعسكرية المتناقضة، ومن شأن هذه الفجوة أن تنشئ جداراً رقمياً على غرار جدار برلين، وعلى نحو متزايد يُنظر إلى التعاون الرقمي بين الدول وإيجاد فضاء إلكتروني عالمي يعكس المعايير العالمية للسلام والأمن وحقوق الإنسان والتنمية المستدامة باعتباره أمراً بالغ الأهمية لضمان وحدة العالم، ويمثل "الالتزام العالمي بالتعاون الرقمي" إحدى التوصيات الرئيسية للفريق الرفيع المستوى المعني بالتعاون الرقمي التابع للأمين العام.(1)

والجدير بالذكر أن هناك بعض مزايا مبادرات التحول الرقمي، والتي يمكن إيجازها فيما يلي: تحسين الإنتاجية: فيمكن للتقنيات الناشئة مثل الخدمات السحابية توفير الوقت وتحسين الكفاءة في جميع أنواع إجراءات الأعمال، فمثلاً يؤدي استخدام تقنية رقمية مثل الذكاء الاصطناعي إلى توفير مساحة للموظفين للتركيز على المهام التي تتطلب الإبداع وحل المشكلات، وبالمثل فإن إجراء تحليلات البيانات باستخدام تعلم الآلة يمكن أن يمنح رؤية جديدة لتحقيق أهداف الأعمال بصورة أسرع.

تحسين تجربة العملاء: يتوقع العملاء توافراً مستمراً للخدمة عبر قنوات متعددة، وهم يرغبون أيضاً في توفير مواقع ويب وأنظمة اتصال سهلة الاستخدام<sup>(2)</sup> ومتوافقة مع الأجهزة المحمولة.

<sup>1</sup> -عصر الترابط الرقمي: تقرير الفريق الرفيع المستوى المعني بالتعاون الرقمي التابع للأمين العام للأمم المتحدة، كلمة الأمين العام في الدورة الرابعة والسبعين للجمعية العامة للأمم المتحدة، استراتيجية الأمين العام بشأن التكنولوجيا الجديدة، مقال منشور على الرابط الإلكتروني: <https://www.annajah.net/-article-34937>

<sup>2</sup> -ومن بعض التحولات الرقمية ذات التأثير المباشر على تجربة العملاء:

- تطوير تطبيقات وتدفقات عمل للأجهزة المحمولة.
- اعتماد تقنية الاستشعار الذي لأجل تتبع الطلاب وتنفيذها بطريقة أسرع.

خفض التكاليف التشغيلية: يمكن أن يقلل الاستثمار في التكنولوجيا الرقمية كثيراً من تكاليف التشغيل الجارية، ومن خلاله أيضاً يُمكن تحسين إجراءات العمل الحالية وخفض التكاليف كصيانة المعدات، والخدمات اللوجستية والتسليم، نفقات الطاقة، ونفقات الموارد البشرية، وكذلك نفقات دعم العملاء.

وعادةً يمكن تحقيق وفورات في التكاليف لأن التحوّل الرقمي يساعد في القيام بما يلي:

- إلغاء بعض مهام سير العمل المحددة كثيفة الموارد أو استبدالها.
- خفض الإنفاق على البنية التحتية والمعدات باهظة الثمن من خلال الخدمات المُدارة والحوسبة السحابية.
- إتمام المهام باستخدام مجموعة من المستشعرات الذكية، والأجهزة الذكية، وتعلّم الآلة.<sup>(1)</sup>

### المطلب الثاني: أنواع التحوّل الرقمي

إذا كان المقصود من إطار عمل التحوّل الرقمي هو مُخطط لإدارة التغيير في أي مؤسسة تمر بعملية تحوّل رقمي، وإطار العمل هو أداة ترشد جميع المستويات والإدارات الموجودة في المؤسسة خلال عملية التغيير،<sup>(2)</sup> فإن هناك أنواع رئيسية للتحوّلات الرقمية يمكن لأي مؤسسة أن تتبناها، وهذه الأنواع يمكن ذكرها بشيء من التفصيل مع ذكر بعض الأمثلة للتحوّل الرقمي على النحو التالي:

• اعتماد الذكاء الاصطناعي للتفاعل مع العملاء في الوقت الفعلي.

• تحسين الدعم والخدمة المقدمين إلى العملاء باستخدام اتمام العمليات.

<sup>1</sup> - علاء عبد الرزاق محمد السامي، السليطي خالد إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص 71

<sup>2</sup> - حيث يدعم إطار العمل التحوّل الرقمي من خلال تحديد أفضل الممارسات والإجراءات للقيام بما يلي:

• تحليل مدى تأثير التغيير في جميع مجالات العمل.

• إدارة التغيير بفعالية وكفاءة.

• تخطيط خطوات تنفيذ التحوّل.

• تحديد المقاييس لمعرفة المزايا المكتسبة من التغيير.

• توضيح أساليب تحقيق التقدم طوال رحلة التحوّل الرقمي.

### تحويل عمليات الأعمال:

أي أن الشركة تستخدم التكنولوجيا لإجراء تحديثات على عملياتها الداخلية، مما يعود عليها بالفائدة الكبيرة من خلال تقليل التكاليف، وتسريع عمليات التوريد بما يتضمن العرض والطلب، وتحسين جودة الخدمات أو المنتجات المقدمة.

كما يتطلع تحويل العمليات إلى الطرق المبتكرة لتحسين مهام سير العمل الداخلية والخارجية الحالية، وغالباً ما تتغير التقنيات الجديدة وتحسن الإجراءات بشكل جذري لتحقيق نتائج أفضل للأعمال، وكمثال على تحويل العمليات شركة معينة تستخدم اتمام العمليات الروبوتية (RPA) لإتمام مهمة روتينية أكملها الموظفون يدوياً، فهذا يساعدها على خفض تكاليف العمالة، كما سيوفر على الموظف الجهد، ومن ثم ستزداد إنتاجيته وسيكون قادراً على العمل في مهام أخرى.<sup>(1)</sup>

وأيضاً على سبيل المثال، تُعد شركة (Origin Energy Ltd Origin) إحدى شركات الطاقة المتكاملة الرائدة في أستراليا، ومن خلال الانتقال إلى خدمات AWS، منحت شركة Origin عملاءها إمكانية الخدمة الذاتية لإدارة فواتير الطاقة والمرافق الخاصة بهم، وحولت عملياتها الرقمية لمواجهة للعملاء بالكامل مع توفير المزايا التالية:

- موارد الحوسبة السحابية للتعامل مع ذروة الطلب؛
- تخفيض بنسبة 30٪ وقت معالجة الفاتورة؛
- تخزين سحابي عالي الأداء للتعامل مع تفاعلات العديد من العملاء عبر الموقع الإلكتروني والتطبيق.

ولقد أدت جهود التحوّل الرقمي هذه إلى خفض عبء عمل مركز الاتصال وتكاليف العمليات، بل وحسّنت رضا العملاء في الوقت نفسه.<sup>(2)</sup>

### تحويل نموذج الأعمال:

أي تبديل الطريقة التقليدية التي تعمل بها الصناعة، فعندما تريد شركة إجراء تحول في نموذج العمل ستستخدم التقنيات التي سوف تمكنها من تقديم خدمات أو منتجات أفضل عن

<sup>1</sup> - أحمد سامي، مرجع سبق ذكره.

<sup>2</sup> - حسين مصيلحي، التحول الرقمي الإطار المستقبلي لنظام وتكنولوجيا المعلومات، منشورات دار الكتب والوثائق القومية، مصر، الطبعة الأولى، سنة 2021م، ص 65.

منافسها في المجال نفسه، ويتطلع تحوّل النموذج أيضاً إلى إعادة ابتكار نموذج الأعمال الحالي باستخدام أحدث التقنيات، وهو يهدف إلى تقديم خدمات الأعمال الأساسية بأساليب جديدة أو من خلال قنوات مختلفة لزيادة نمو الإيرادات وإمكانية الوصول إلى العملاء.

فعلى سبيل المثال لقد غيرت Uber نظرة الناس إلى وسائل النقل اليوم، فقد عالجت مشكلة حيوية إذ كان الناس يريدون السفر من مكان إلى آخر بسياراتهم بأنفسهم، لكون وسائل النقل العام تأخذ وقتاً طويلاً هنا ربطت Uber العملاء الذين يحتاجون إلى النقل مع السائقين، وكانت الخدمة الإجمالية أقل تكلفة، والتفوق على منافسها من شركات النقل الأخرى مثل Lyft، التي بدأت تنهج نهجها وتقدم خدمات شبيهة.(1)

أيضاً تُعد شركة Tourism Union International (TUI) واحدة من أكبر شركات السفر والسياحة في العالم، حيث تمتلك شركة TUI العديد من وكالات السفر والفنادق وشركات الطيران والسفن السياحية ومحلات البيع بالتجزئة، وتديرها جميعاً، وفي أثناء الجائحة كان على شركة TUI إعادة اكتشاف نفسها للتعامل مع عمليات الإلغاء الجماعية ومع التغير في مشهد السفر، وقد ابتكرت نماذج أعمال جديدة ركزت على إعادة المسافرين الذين تقطعت بهم السبل إلى أوطانهم مع خفض تكاليف تشغيل تكنولوجيا المعلومات الداخلية بنسبة 70% أيضاً.(2)

### تحويل مجال الأعمال:

يقصد بذلك استخدام الشركة تقنية جديدة تساعد على توسيع عروضها، وغالباً ما تسعى الشركات إلى النمو والتوسع عبر الدخول في مجالات جديدة، وتقديم شبكة أوسع من الخدمات أو المنتجات التي لا تنتمي بالضرورة إلى السوق نفسه، ويحدث تحوّل المجال عندما تنجح الشركة في استقطاب قطاع أو مجال جديد في السوق، ويمكن تحقيق ذلك من خلال التركيز على مشروعات التحوّل الرقمي التي توسع من نطاق العروض بدلاً من التركيز على تحسين العروض الحالية فحسب.

وعلى سبيل المثال بدأت شركة فيسبوك بوصفها منصة سوشال ميديا فقط لكنها أطلقت فيما بعد خدمة Facebook Watch لشعبية خدمات بث الفيديو، هذا وقد وفرت الخدمة محتوى

<sup>1</sup> - نزار أحمد العالم، الطريق إلى التحوّل الرقمي، مقال منشور على الرابط الإلكتروني:

<https://aws.amazon.com/professional-services/customers/quotes/#TUI>

تاريخ الزيارة 2023/2/28م.

<sup>2</sup> - حسين مصيلحي، مرجع سبق ذكره، ص 72

أصلياً كبيراً، بما يتضمن المسلسلات التلفزيونية النصية والبرامج الحوارية والعروض الرياضية، والأفلام الوثائقية، وما إلى ذلك حتى تنافس بذلك خدمات البث الأخرى مثل Netflix و Amazon Prime Video و Disney وغير ذلك.

أيضاً شركة Amazon كانت في البداية عبارة عن منصة تجارة إلكترونية للبيع بالتجزئة، وبعد ذلك تمت إضافة منصة البث الخاصة بها، Amazon Prime، ودخلت بقوة أيضاً في مجال الخدمات السحابية، واليوم تُعد Amazon Web Services (AWS) أكبر مقدم لخدمات الحوسبة والبنية التحتية السحابية في العالم، واستخدمت تحوُّل الأعمال في ترسيخ نفسها في مجالين جديدين تماماً.<sup>(1)</sup>

### التحول الثقافي- التنظيمي:

يهتم بتحويل ثقافة الأعمال أي بمعنى نشر ثقافة التحوُّل وتدريب القوى العاملة ودعمها في المؤسسات والهيئات على التقنيات الحديثة لتحقيق التحوُّل الرقمي الشامل، فعندما تريد شركة تغيير ثقافتها عليها البدء من أعلى الموظفين الذين يتبعون مثال قادتهم، كما قد تضطر الشركة أحياناً إلى إعادة تشكيل الموظفين، فقد يلزم تعيين مواهب جديدة لتساعدتها على النجاح في اتجاهها الجديد.

فيتطلع التحوُّل المؤسسي إلى إعادة اكتشاف المؤسسة بأكملها أو ثقافتها الداخلية مع التركيز على تقديم أعلى قيمة للعملاء، هذه هي أفضل وسيلة للتفوق على المنافسين وتحقيق أهداف الأعمال بصورة أسرع.<sup>(2)</sup>

بعد عرض أنواع التحوُّل الرقمي سألقة الذكر فإنه من الضروري التنبيه أن التحول الرقمي لا يوجد مسار محدد له، ولكل مؤسسة أو هيئة أو شركة مسار مختلف خاص بها، ولكنها في المجمل تمر بست مراحل على النحو التالي:

<sup>1</sup> -رستم الفاخري، طريق الشركات العالمية في التحول الرقمي، مقال منشور على الرابط الإلكتروني: <https://aws.amazon.com>  
<sup>2</sup> - على سبيل المثال، تُعد Thomson Reuters مزوداً رائداً لخدمات معلومات الأعمال، وقد قررت الشركة فصل بياناتها المالية وأعمالها التجارية لإنشاء كيان منفصل يُسمى Refinitiv، وكجزء من هذه الخطوة، رحَّلت الشركة المئات من التطبيقات المواجهة للعملاء إلى Amazon Elastic Cloud Compute (Amazon EC2)، مما أدى إلى تجديد أنظمتها القديمة بالكامل، وحققت ذلك في إطار جدول زمني سريع من خلال تغيير طريقة عمل فرق تكنولوجيا المعلومات الداخلية لديها، للمزيد من التفاصيل الاطلاع على مقال م. جابر حسين الخالدي، بعنوان: نحو التحول الرقمي، على الرابط الإلكتروني: <https://aws.amazon.com/ec2>، تاريخ الزيارة 2024/2/6م.

### المرحلة الأولى: الوضع الراهن

في المرحلة الأولى تستمر الشركة أو المؤسسة في عملها على النحو المعتاد، وتحافظ على الوضع الراهن بدون الوعي بمتطلبات العملاء المتغيرة والتقدم التكنولوجي، ومن شأن الافتقار إلى المبادرات الرقمية أن ينتهي بأي مؤسسة إلى الزوال، ومن الأهمية بمكان الانتقال إلى المرحلة التالية في أسرع وقت ممكن.

### المرحلة الثانية: الخطوة الإيجابية

في المرحلة الثانية تصبح الشركة أو المؤسسة أكثر إدراكاً للحاجة إلى التحسين الرقمي، فهي تدرك التحديات الحالية التي تواجهها وحاجاتها إلى مبادرة للتحوّل الرقمي، وتبدأ الأقسام المختلفة في محاولة حل المشكلات ذاتها ولكن بأساليب مختلفة، وعلى الرغم من أن هذه المرحلة أفضل من سابقتها؛ لأنها تكشف عن النقص الموجود في التركيز والوحدة، وإذا أرادت أي مؤسسة النجاح في تحقيق التحوّل الرقمي، فسيكون لازماً عليها إيجاد وسيلة للخروج من الفوضى الأولية.<sup>(1)</sup>

### المرحلة الثالثة: العزم

يبدأ التحوّل الرقمي عند انتقال الشركة أو المؤسسة إلى مرحلة العزم، وهنا يظهر القادة الرقمييون الرئيسيون ووكلاء التغيير ويبدؤون في اختبار التقنيات الجديدة، ويسعون للحصول على الموافقات الرسمية من المديرين التنفيذيين للشركة لقيادة التغيير، وفي هذه المرحلة قد تصبح ثقافة العمل عقبة، ويتعين على القادة تشجيع ثقافة الابتكار بنشاط لإحداث المزيد من التحوّل.

### المرحلة الرابعة: الاستراتيجية

في المرحلة الرابعة، تحقق المؤسسة أو الشركة تغييرات ثقافية، ولذلك توافق المجموعات والأقسام الفردية على العمل بشكل تعاوني، ويضع أصحاب المصلحة الرئيسيون خارطة طريق استراتيجية مركزة لتحقيق النجاح في التحوّلات الرقمية، ويخططون للجوانب المختلفة للتغيير مثل الملكية والبحث والجهد والاستثمار.

<sup>1</sup> - رستم الفاخري، مرجع سبق ذكره



### المرحلة الخامسة: الاستهداف

في المرحلة الخامسة تبدأ الشركة أو المؤسسة في تنفيذ استراتيجية التحول الرقمي المحددة في المرحلة السابقة، وهي تمتلك فريقاً متعدد الأقسام من المبتكرين الذين يحددون ما يجب القيام به في الوقت الحالي والأشهر القادمة لتحقيق تحول رقمي ناجح، ومن هذه المرحلة تبدأ المشروعات الرقمية والبنية التحتية والمبادرات الجديدة في التبلور.<sup>(1)</sup>

### المرحلة السادسة: التكيف

يكون لدى الشركة التي تصل إلى هذه المرحلة إطار عمل للتحول الرقمي للتعامل مع جميع متطلبات العملاء المستقبلية، ويصبح ذلك جزءاً أساسياً من نهج الشركة، ومن ثم يمكنها أن تسلك المسارات التكنولوجية المبتكرة بسهولة، وخلال المرحلة السادسة تصبح مشروعات التحول الرقمي هي الوضع الطبيعي الجديد في المؤسسة.

مفاد القول أن التحول الرقمي وسرعة تدفق البيانات في العالم فتحت أبواب وأفاق جديدة لدفع عجلة النمو الاقتصادي إلى الأمام وابتكار نماذج جديدة في مجال الأعمال لتصبح الرقمنة هي الاقتصاد ذاته، فللتحول الرقمي أنواع كثيرة، وأهمية كبيرة على جميع الأصعدة، وتبعاً لهذا التنوع تتنوع المراحل التي تمر بها المؤسسات والشركات الراغبة في الدخول إلى عالم التحول الرقمي.

### الخاتمة

من خلال دراسة موضوع الإطار المفاهيمي للتحول الرقمي تمت ملاحظة أن أغلب المؤسسات والهيئات، والشركات في العالم قد شهدت تحولاً كبيراً من الهياكل التنظيمية التقليدية المركزة على العمليات إلى هياكل حديثة تركز على النتائج، معتمدة في ذلك على البيانات والمقارنات لاختيار أفضل الأساليب التي تحقق النتائج المستهدفة، وقد أتاح التحول الرقمي وتطبيقاته في مجال التدريب والتطوير إمكانية تصميم برامج تدريبية مركزة وموجهة نحو احتياجات الموظفين، بما يساهم في تطوير مهاراتهم اليومية اللازمة لتحقيق الأهداف بفاعلية، وبالمقابل فإن استراتيجية التحول الرقمي تتطلب وجود إطار مفاهيمي واضح تتضمن توضيح مفهوم التحول الرقمي،

<sup>1</sup> - ساجدة عبدالكافي، التكنولوجيا الرقمية، مقال منشور على الرابط الإلكتروني:

<https://aws.amazon.com/training/enterprise/resources/infographic-orchestrating-digital-transformation/>

تاريخ الزيارة 2024/2/20م.

والفارق بينه وبين مصطلحات عالم التكنولوجيا القريبة منه كالرقمنة والذكاء الاصطناعي، وكذلك تحديد أهمية التحول الرقمي وأنواعه.

وبعد أن تمت دراسة موضوع محل البحث بشكل دقيق، وتحليل أكثر الجوانب فيه أهمية فيه وفقاً للأسس العلمية المتبعة تم الوصول إلى جملة من الاستنتاجات والتوصيات، وذلك على النحو التالي:

#### أولاً: النتائج

التحول الرقمي لم يعد خياراً بل أصبح ضرورة، ولا يوجد تعريف موحد له، بل يختلف بحسب تخصص وانتماء الهيئة أو المؤسسة التي تتبناه، إلا أن تلك التعريفات تتفق في مضمونه وهدفه.

ترجع أهمية التحول الرقمي للعديد من الأسباب أهمها ضرورة الاستجابة والتكيف مع متطلبات البيئة المحيطة وتجنب التخلف عن مواكبة عصر المعلوماتية.

يحقق التحول الرقمي العديد من المزايا منها تقليل التكلفة والجهد، ومواكبة التقدم التكنولوجي، ومكافحة الفساد داخل الدول وخارجها.

يُعد التحول الرقمي الثقافي والتنظيمي، والذي يهتم بتحويل ثقافة الأعمال هو من أكثر أنواع التحولات شمولية؛ لأنه يركز على تغيير ثقافة مؤسسة بأكملها قبل البدء بتغيير أجندة عملها.

عملية التحول الرقمي لا تأتي فجأة بل تمر بمراحل مختلفة، والتي بدورها تختلف من مؤسسة أو هيئة أو شركة لأخرى.

#### ثانياً: التوصيات

انتهت الدراسة إلى عدة توصيات وهي:

ضرورة الإسراع في تبني التحول الرقمي في مختلف القطاعات للتغلب على المعوقات التي تحول دون التحول الرقمي، وإيجاد الحلول اللازمة له.

ضرورة زيادة الاهتمام بالعنصر البشري، وتحسين بيئة العمل، من خلال توفير برامج تدريبية على عملية التحول الرقمي، وإقرار نظام الأجور والحوافز يتماشى ومستويات التضخم ويكفل لهم حياة كريمة.

السعي إلى سد الفجوة الرقمية بين دول الشمال المتقدمة ودول الجنوب الأقل نمواً، والتي حرمت من منافع العصر الرقمي الجديد، وأصبحت أبعد عن الركب.

ضرورة التعاون الرقمي بين الدول وإيجاد فضاء إلكتروني عالمي يعكس المعايير العالمية للسلام والأمن وحقوق الإنسان والتنمية المستدامة باعتباره أمراً بالغ الأهمية لضمان وحدة العالم، وهذا ما يمثل "الالتزام العالمي بالتعاون الرقمي".

## لائحة المصادر والمراجع

### أولاً. الكتب

- حسين مصيلحي، التحوُّل الرقمي الإطار المستقبلي لنظام وتكنولوجيا المعلومات، منشورات دار الكتب والوثائق القومية/ مصر، الطبعة الأولى، سنة 2021م.
- علاء عبد الرزاق محمد السالمي، السليطي خالد إبراهيم، الإدارة الإلكترونية، منشورات دار وائل للنشر، عمان/الأردن، سنة 2008م.
- علي محمد الخوري، الحكومة الرقمية "دائرة الاهتمام"، صادر عن المنظمة العربية للتنمية الإدارية، جامعة الدول العربية، الطبعة الثانية، مايو سنة 2020م.
- محمد إبراهيم أبو الهيجاء، عقود التجارة الإلكترونية، منشورات دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2015م.
- منصوري الزين، سفيان نقماري، الإطار النظري للحكومة الإلكترونية - بين المتطلبات ومبررات التحول، منشورات دار الشرق للنشر والتوزيع، سنة 2013م.

### ثانياً. الرسائل والأطروحات العلمية

- لمياء فراز، الحكومة الإلكترونية، أطروحة دكتوراه، كلية الحقوق والعلوم السياسية/ جامعة باتنة 01 الحاج لخضر، السنة الجامعية 2017/2018م.

### ثالثاً. البحوث والمقالات المنشورة والنشرات

- جميلة سلاحي، يوسف بوشي، التحوُّل الرقمي بين الضرورة والمخاطر، مجلة العلوم القانونية والسياسية، المجلد العاشر، العدد الثاني، سبتمبر سنة 2019م.
- حسن حامد، ما التحول الرقمي؟ اكتشاف الحقيقة وراء هذه الكلمة الطنانة، عالم التكنولوجيا، نشرة شهرية تصدر عن مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء المصري، السنة الأولى، العدد الأول، مارس، سنة 2020م.

- نائل عبد الحافظ العواملة، بحث بعنوان "الحكومة الإلكترونية ومستقبل الإدارة العامة"، مجلة دراسات العلوم الإدارية الجامعة الأردنية، مجلد 29، العدد الأول، سنة 2002م.

#### رابعاً. المقالات المنشورة عبر الروابط الالكترونية على شبكة الأنترنت

- أحمد سامي، التقدم التكنولوجي، مقال منشور على الرابط الالكتروني: <https://www.annajah.net/-article-32345> ، تاريخ الزيارة 2024/3/5م.
- براءة العجلوني، الذكاء الاصطناعي و التحول الرقمي ، ، تاريخ النشر 6 فبراير، 2024م، على الرابط الالكتروني: <https://www.annajah.net/-article-29496> ، تاريخ الزيارة 2024/2/28م.
- بردان عباس، ما هو التحول الرقمي وكيف تعرفه الشركات الرقمية ومحركات دفع التحول الرقمي والتكنولوجي، الجزء الأول، منشور 13/8/2018م، مقال منشور على الرابط الالكتروني: [www.egovccepts.com](http://www.egovccepts.com) ، تاريخ الزيارة 2024/2/24م.
- جابر حسين الخالدي، بعنوان: نحو التحول الرقمي، على الرابط الالكتروني: <https://aws.amazon.com/ec2> ، تاريخ الزيارة 2024/2/6م.
- دلال القحطاني، عالم متغير جديد، مقال منشور على الرابط الالكتروني: <https://www.annajah.net/-article-32345> ، تاريخ الزيارة 2024/2/22م.
- عدنان مصطفى البار، تقنيات التحول الرقمي، الصفحة الثانية، مقال متاح على الرابط الالكتروني: <http://www.kau.edu.sa/GetFile.aspx?id=287966&fn=Article-of-this-week-DrAdnan-ALBAR-Feb-2018.pdf> ، تاريخ الزيارة 2024/3/3م.

- عصر الترابط الرقمي: تقرير الفريق الرفيع المستوى المعني بالتعاون الرقمي التابع للأمين العام للأمم المتحدة، كلمة الأمين العام في الدورة الرابعة والسبعين للجمعية العامة للأمم المتحدة، استراتيجية الأمين العام بشأن التكنولوجيا الجديدة، مقال منشور على الرابط

الالكتروني: <https://www.annajah.net/-article-34937>

- - نزار أحمد العالم، الطريق إلى التحول الرقمي، مقال منشور على الرابط الالكتروني:
- <https://aws.amazon.com/professional-services/customers/quotes/#TUI>
- تاريخ الزيارة 2023/2/28م.
- نادية أحمد الشهراني، عالم التحول الرقمي، مقال منشور على الرابط الالكتروني: <https://www.annajah.net/-article-29496> تاريخ الزيارة 2024/3/2م.
- ياسر راتب، التحول الرقمي، مقال منشور على الرابط الالكتروني: <https://ae.linkedin.com/pulse/main-content>، تاريخ الزيارة: 2024/2/19م.

## قراءة تحليلية في القانون الجديد للصحافة

## والنشر بالمغرب رقم 88-13

د. نبيل خرشي

دكتور في القانون العام والعلوم السياسية  
جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء  
المغرب

## ملخص:

تأتي هذه الدراسة في سياق وطني يتميز بالدينامية السياسية والتحول المؤسساتي بالمغرب، حيث انخرط المغرب في مسلسل مترابط من الإصلاحات السياسية والحقوقية والدستورية. وعلى خلاف حيث أن التغيير الذي شهده المغرب خلال سنة 2011 تحقق في إطار الاستمرارية، و هو نمط في التغيير يراهن على تحقيق إصلاحات سياسية و دستورية ضمن ثوابت النظام القائم ودون أي تغيير في وظيفته. تمخض عن ذلك صدور دستور جديد في نفس العام ، ليرسم ملامح مشهد اتصالي أكثر انسجاماً مع المعايير الدولية على الأقل من حيث الشكل ، وإن لم يلب طموحات بعض النقاد والناشطين في المجال الإعلامي

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خرشي، نبيل. (2024، أكتوبر). قراءة تحليلية في القانون الجديد للصحافة والنشر بالمغرب رقم 88-13، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 260-275.

## Abstract:

This study comes in a national context characterized by political dynamism and institutional transformation in Morocco, where Morocco has engaged in an interconnected series of political, legal and constitutional reforms. In contrast, the change that Morocco witnessed during the year 2011 was achieved within the framework of continuity, which is a pattern of change that relies on achieving political and constitutional reforms within the constants of the existing system and without any change in its function. This resulted in the issuance of a new constitution in the same year, to outline the features of a communication scene more in line with international standards, at least in terms of form, even if it did not meet the aspirations of some critics and activists in the media field..

## مقدمة

إن التطور الملحوظ والاهتمام المتزايد بأهمية الإعلام ودوره التنموي على كافة الأصعدة والمستويات، وما حدث من تحولات سياسية عاشها العالم بأسره، جعل المغرب يعيش حراكا مهما مع حركة 20 فبراير 2011، التي ساهمت إلى جانب كل القوى السياسية وقوى المجتمع المدني في حدوث إصلاح دستوري شامل أعطى لمجال الحريات مكانة كبيرة، حيث شكل الإعلام إحدى النقاط المحيطة في الدستور الجديد والتي نتطرق إليها بالتحليل كما يلي:

لقد مهد الدستور الجديد للدولة المغربية لسنة 2011 في بابه الثاني المتعلق بالحريات والحقوق الأساسية والذي ضم 21 فصلا ( من الفصل 19 إلى الفصل 40 ) لمجال الحريات الشخصية الفردية والجماعية في الفصل الرابع والعشرين مشيرا إلى عدم انتهاك سرية الاتصالات الشخصية، مقيدا ذلك عبر مقتضيات القانونية، ليرز في الفصل الخامس والعشرين مسألة ضمان حرية الفكر والرأي والتعبير وكفالتها بكل أشكالها. ويشير في الفصل السادس والعشرين إلى التزام السلطات العمومية بدعم وتنمية الإبداع الثقافي والفني عبر كل الوسائل الملائمة. ويضيف مؤكدا في الفصل السابع والعشرين على أهمية وصول المعلومات للمواطنين عبر إسناد حق دستوري للمواطنين والمواطنات في الحصول على كل المعلومات الصادرة عن جميع المؤسسات، هذا الحق الذي لا يمكن تقييده إلا بمقتضى القانون<sup>1</sup>. ويأتي بعد ذلك متحدثا عن المجال الصحافي صراحة في الفصل الثامن والعشرين و ينص على مايلي: «حرية الصحافة مضمونة، ولا يمكن تقييدها بأي شكل من أشكال الرقابة القبلية مضيفا أنه للجميع الحق في التعبير، ونشر الأخبار والأفكار والآراء بكل حرية، ومن غير قيد، عدا ما ينص عليه القانون صراحة، كما أشار إلى تشجيع السلطات العمومية لسبل تنظيم قطاع الصحافة بكيفية مستقلة، وعلى أسس ديمقراطية، وعلى وضع القواعد القانونية والأخلاقية المتعلقة به، مع الالتزام بما يحدده القانون من قواعد تهم تنظيم وسائل الإعلام العمومية ومراقبتها، مع ضمان الاستفادة من هذه الوسائل، مع احترام التعددية اللغوية والثقافية والسياسية للمجتمع المغربي» ويختتم في هذا الفصل ب «وتسهر الهيئة العليا للاتصال السمعي البصري على احترام التعددية وفق أحكام الفصل 165 من الدستور»<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - جمال كربي بن شقرون - دور الإعلام في الدستور المغربي - مجلة الفقه والقانون - العدد 11 - شتنبر 2013. ص-97.

<sup>2</sup> - جمال كربي بن شقرون - دور الإعلام في الدستور المغربي - مجلة الفقه والقانون - العدد 11 - شتنبر 2013 - ص: 98.



وقبل التطرق لأحكام هذا الفصل لابد من التأكيد على أنه ولأول مرة في التاريخ الدستوري للمغرب تعطى مثل هذه الأهمية الدستورية للإعلام، ويمكن استخلاص مسألة جد هامة تتعلق بمدى حصول المتغير الحقيقي لدى جميع الفاعلين في الدولة، بداية برمزية انطلاق الباب الثاني المتعلق بالحريات والحقوق الأساسية بالفصل رقم 19 وما كان يشكله هذا الفصل من جهة من قوة جعلته ينعت بدستور داخل الدستور السابق لسنة 1996، فيعطى هذا الرقم لمضمون دستوري مهم ألا وهو مجال الحريات والحقوق، التي تعد محورا أساسيا للتحول والتطور الديمقراطي الذي كان مقيدا في ما سبق، ومرورا بواقعية الفصول المفردة للإعلام في دعمه وتأطير مجالاته واستقلاليتها وحريته، وانتهاء بمدى الجدية في إيلاء العناية الفائقة لهذا المجال الحيوي من طرف اللجنة الاستشارية التي أعدت الدستور الجديد لسنة 2011، باستحضار ما قدمته لها الهيئات السياسية والنقابية والمدنية من مذكرات أعطت المكانة اللائقة للإعلام بشتى أنواعه، لتتم بعد ذلك دسترة مجال المراقبة عبر الدور المنوط بالهيئة العليا للاتصال السمعي البصري التي تمت دسترتها من خلال الباب الثاني عشر في ما يتعلق بالحكمة الجيدة التي ضمت 17 فصلا، حيث أن من أهم ما تمت الإشارة إليه هو هيئات الحكامة الجيدة والتقنين، والتي أعطى الدستور الجديد من خلالها للهاكا الأولوية في الفصل 165 منه الذي حدد مهامها في مايلي: « تتولى الهيئة العليا للاتصال السمعي البصري السهر على احترام حرية التعبير التعددي لتيارات الرأي والفكر والحق في المعلومة في الميدان السمعي البصري، وذلك في احترام القيم الحضارية الأساسية وقوانين المملكة» وهنا تتأكد مدى أهمية تطوير المجال الإعلامي وعقلنة تدبيره بما يخدم مجال التنمية بدءا بتأسيس الهيئة مند الوهلة الأولى ووصولاً إلى دسترة مجال عملها.عموما إن الفضاء الدستوري لمغرب اليوم قد حدد للإعلام مجالا أوسع وأرحب لعمله، وشكلت المقتضيات الدستورية التي تم تنزيلها من خلال القوانين التنظيمية التي جاء بها الدستور الجديد لسنة 2011 قاطرة أساسية للنهوض بهذا المجال الحيوي والرقى به .

بالارتكاز على التوجهات الكبرى التي ذكرناها في السابق، التزمت حكومة ما بعد دستور عام 2011، في تصريحاتها المتتالية بتحسين قانون الصحافة وإدماج النصوص المتعلقة بالصحافة والنشر في نص واحد، وضمان حرية الرأي والتعبير، والحق في المعلومات، وإلغاء العقوبات السالبة للحرية من قانون الصحافة، وممارسة هذه الحرية في إطار المسؤولية واحترام القوانين المعمول بها، وكذا بنود الدستور الجديد. كما التزمت بتكريس الحماية القانونية المرتبطة بهذا المجال بالنسبة للصحفيين، وتحديد منظومة حقوق وواجبات المهنيين والصحفيين، وتحديث

تقنين مفهوم الصحفي المهني، وتعزيز ثقافة المسؤولية، وتطوير منظومة أخلاقيات المهنة والارتقاء بالشروط العلمية لولوج مهنة الصحافة، وتقوية الشروط القانونية الخاصة بالحماية الاجتماعية للصحفيين، وكذا جعل السحب المؤقت للبطاقة من اختصاص القضاء في حالة إدانة الصحفي في قضايا تتعلق بممارسة الصحافة<sup>1</sup>. فهل فعلا قانون الصحافة والنشر الجديد يعكس التحول المنشود فيما يخص بسط حرية الصحافة والتعبير عموماً؟ وهل يحترم مختلف المبادئ الحقوقية التي نصت عليها بعض المواثيق الدولية وصادق عليها المغرب، وتضمنتها تنصيها أهم التقارير والتوصيات الدولية حول حرية التعبير والصحافة، وأقرها الدستور المغربي في ثنايا فصوله؟

إن مقصدنا من هذه الدراسة هو محاولة القيام بتحليل نقدي لأهم مواد هذا القانون بغرض الإسهام في تقويمه والتنبيه إلى ما يعرقل حرية التعبير والصحافة من داخل مقتضيات مواده. و مقارنة مدى تمثيلها لغاية إطلاق حرية التعبير والصحافة ببلادنا المغرب .

### المحور الأول: شروط وإجراءات تأسيس صحيفة ورقية أو إلكترونية

من أهم ما جاءت به مدونة الصحافة أنها اعترفت بشكل قانوني و فعلي بالصحف الالكترونية وأخضعها لنفس الشروط و الإجراءات المتعلقة بتأسيس الصحف الورقية ، و هي بذلك – أي الصحف الالكترونية تكون قد دخلت إلى الجسم الصحافي من بابه الواسع . فما هي المتطلبات القانونية و الإجراءات المسطرية لتأسيس صحيفة ورقية أو إلكترونية ؟

#### المطلب الأول : متطلبات التأسيس

لكي يتم الاعتراف بصفة مؤسسة صحفية لكل شخص ذاتي أو اعتباري رغب في تأسيسها فلا بد لهذا الأخير أن ينوي ممارسة الأنشطة المنصوص عليها في المادة 2 من قانون الصحافة و النشر<sup>2</sup> و التي تتعلق بمهنة الصحافة<sup>3</sup> ، كما يجب أن تمارس مهنة الصحافة بواسطة مطبوع دوري مكتوب تنشر فيه كيفما كانت لغته المستعملة و يصدر على فترات زمنية منتظمة<sup>4</sup> .

<sup>1</sup> - وزارة الاتصال المغربية - استراتيجية قطاع الاتصال 2012-2016 – منشورة في الموقع الرسمي للوزارة [www.mincom.gov.ma](http://www.mincom.gov.ma) .

<sup>2</sup> - المادة 8 من قانون الصحافة و النشر رقم 88-13 .

<sup>3</sup> - تحدد المادة 2 من هذا القانون مهنة الصحافة في الأنشطة التالية : جمع الأخبار أو المعلومات أو الوقائع أو التحري أو الاستقصاء عنها بطريقة مهنية قصد كتابة أو إنجاز مادة إعلامية مكتوبة أو مسموعة أو مرئية أو مصورة أو مرسومة أو بأية وسيلة أخرى كيفما كانت الدعامة المستعملة لنشرها أو بثها للعموم ....

<sup>4</sup> - الفقرة الثانية من المادة 2 من قانون الصحافة و النشر رقم 88-13.

ويشترط قانون الصحافة أن يكون لكل مطبوع دوري أو صحيفة إلكترونية أو أية دعامة إلكترونية أخرى مديرا للنشر<sup>1</sup>، كما أن مدير النشر يعتبر بموجب مقتضيات هذا القانون مسؤولا عن كل ما قد يصدر من الصحيفة التي يديرها. ويسهر مدير النشر على ضمان التقيد بالأحكام التشريعية والتنظيمية المتعلقة بممارسة مهنة الصحافة من لدن الصحفيين العاملين بالمؤسسة، و يتحقق كذلك، قبل النشر، من الأخبار أو التعاليق أو الصور أو كل شكل يحمل أو يدعم محتوى إعلامي، ومن هوية محرري المقالات الموقعة بأسماء مستعارة قبل نشرها<sup>2</sup>. كما يوجب قانون الصحافة على مدير النشر شرطا أساسيا وفريدا ينضاف إلى عدة شروط أخرى كي يتمتع بصفة مدير النشر، وهو شرط أن يتوفر على صفة صحفي مهني<sup>3</sup>،

وفقا للمقتضيات الواردة في التشريع المتعلق بالصحفي المهني". وهو شرط لم يكن موجودا في ظل القانون القديم<sup>4</sup>.

من جهة أخرى يمنع على كل مؤسسة صحفية الحصول على أي أموال أو منافع من حكومة أو جهة خارجية<sup>5</sup>. لكن نفس المادة تستثني من هذا التمويل كل ما له علاقة بما سمته " بدعم القدرات التديرية و جوائز الصحفيين و عوائد المبيعات و الاشهار و الاشتراك أو ما يتعلق بالتكوين و التأطير . و هنا ينبغي التنبيه إلى أن المشرع منع المؤسسات الصحفية من التمويل الخارجي و في نفس الوقت مكنها من الاستفادة منه بطريقة غير مباشرة لأن المجالات المستثناة التي حددتها المادة تعتبر تمويلا في حد ذاتها فمسألة دعم القدرات و تحفيز الموارد البشرية و المساهمة في التكوين و التأطير من طرف أي جهة خارجية لا يمكن إلا اعتباره تمويلا أو دعما قد يفضي إلى توجيه و تحكم تلك الجهة في مسار المؤسسة الصحفية .و بالتالي فإن المشرع يعطي في الحقيقة الشرعية للتمويل الخارجي لبعض المؤسسات الصحفية التي تتوفر على علاقات خارجية مهمة على عكس المادة العاشرة من قانون الصحافة القديم الذي استثنى من الدعم الخارجي فقط الأموال المعدة لأداء ثمن الاشهار . و على العموم فلتأسيس صحيفة ورقية أو إلكترونية ، يشترط قانون

<sup>1</sup>- المادة 15 من قانون الصحافة و النشر رقم 88-13.

<sup>2</sup>- المادة 17 من نفس القانون .

<sup>3</sup>-تعرف المادة الأولى من قانون رقم 13-89 المتعلق بالنظام الأساسي للصحفيين المهنيين " الصحفي المهني " هو : "كل شخص يزاول مهنة الصحافة بصورة رئيسية ومنتظمة يكون أجره الرئيسي من مزاوله مهنة الصحافة، في واحدة أو أكثر من مؤسسات الصحافة المكتوبة أو الإلكترونية أو السمعية أو السمعية البصرية أو وكالات الأنباء عمومية كانت أو خاصة التي يوجد مقرها الرئيسي بالمغرب".

<sup>4</sup>المادة 16 من قانون الصحافة و النشر رقم 88-13.

<sup>5</sup>-المادة 13 من نفس القانون .

الصحافة الجديد وجود مدير نشر، و مدير النشر يشترط فيه أن يكون صحفياً مهنيًا، و الصحفي المهني يشترط فهمًا مهنة الصحافة هي نشاطه الرئيسي والمنتظم ومصدر أجره المهني الأساسي، وأنه ليس أجيرًا لدى دولة أو منظمة أجنبية<sup>1</sup>، من هذا المنطلق يتبين أن المشرع بناء على هذه الشروط سيمنع كل الأشخاص غير المتخصصين في ميدان الإعلام سواء كانوا ذاتيين أو معنويين من تأسيس أي جريدة سواء كانت مطبوعة أو رقمية. لكن لو قمنا بعملية إسقاط هذه الشروط على خارطة الجرائد والمطبوعات الورقية والصحف الإلكترونية، فستكون مجموعة من المواقع و المجلات والجرائد مهددة بالإغلاق لعدم توفر هذه الشروط مجتمعة في مدراء النشر، مما قد يوحي بأن المشرع قد يساهم في خلق منهجي حرية الصحافة باسم تقنين حرية الصحافة. كما تنبغي الإشارة إلى أن المشرع أثقل كاهل مدير النشر الذي سيصبح، معرضاً لمطرفة الغرامات المالية إذا لم يقوم بممارسة الرقابة الذاتية الصارمة على المواد الإعلامية والمنشورات وعلى هويات محرريها<sup>2</sup>.

### المطلب الثاني: مسطرة التأسيس

لتأسيس صحيفة إلكترونية كانت أو ورقية يتوجب على مؤسسها أن يتوجه بتصريح داخل أجل ثلاثين يوما السابقة لليوم الذي يتوقع فيه إصداره. ويكون هذا التصريح في ثلاثة نظائر لدى وكيل الملك بالمحكمة الابتدائية الذي يوجد فيه المقر الرئيسي للمؤسسة الصحفية ويتضمن البيانات التالية:

- اسم المطبوع الدوري وطريقة نشره وتوزيعه أو اسم الصحيفة الإلكترونية واسم نطاقها.
- الحالة المدنية لمدير النشر ومدير النشر المساعد عند الاقتضاء والمحررين إن وجدوا وكذا جنسيتهم عند الاقتضاء ومحل سكنهم ومستواهم الدراسي الموثق بشواهد ووثائق رسمية وأرقام بطائهم الوطنية أو بطاقة الإقامة بالنسبة للأجانب وسجلهم العدلي.

<sup>1</sup>- حسب مقتضيات المادة 7 من قانون 13-89 بمثابة النظام الأساسي للصحفي المهني و سنتطرق إلى مضامينه في المطلب القادم.

<sup>2</sup>- وهذا الصدد ظهرت عدة أصوات من داخل الجسم الصحفي تنادي بتغيير و تمميم هذا القانون، و ذلك لوجود صعوبات هم بالأساس ملاءمة الوضعيات القانونية و الإدارية للمقاولات الصحفية و لمهنيي الصحافة مع مقتضيات هذا القانون الجديد داخل الأجل المحدد وهو سنة كحد أقصى بعد نشره في الجريدة الرسمية. و في هذا الإطار تقدمت فرق الأغلبية بمقترح قانون "يهدف إلى السماح لمهنيي الصحافة الورقية و الإلكترونية بالقيام بإجراءات الملاءمة في ظروف مناسبة حتى يتم تنزيل مقتضيات هذا القانون على أسس متينة" و اقترحت أن يتم تمديد مدة الملاءمة إلى سنتين. كما تعكف حكومة سعد الدين العثماني على دراسة مشروع قانون بهذا الصدد تمت مناقشته في دواليب مجلس النواب بكن الحكومة لازلت مترددة في عرضه على المناقشة العامة، و للأسف لم يتسنى لنا الحصول عليه - من أجل الاطلاع على مقترح فرق الأغلبية انظر الملحق.

- اسم وعنوان المطبعة المعهود إليها بالطباعة أو اسم وعنوان مضيف مقدمي الخدمات بالنسبة للصحيفة الإلكترونية، واسم وعنوان مالك النطاق، واسم وعنوان المؤسسة الصحفية المالكة أو المستأجرة أو المسيرة للمطبوع الدوري أو للصحيفة الإلكترونية. -رقم تسجيل المؤسسة الصحفية في السجل التجاري ، و بيان اللغة الأساسية التي ستستعمل في النشر. -مبلغ رأس المال الموظف في المؤسسة الصحفية مع بيان أصل الأموال المستثمرة وجنسية مالكي السندات والأسهم الممثلة لرأسمال المؤسسة<sup>1</sup>.

وتضاف البيانات التالية فيما يخص المؤسسات الصحفية المكونة على شكل شركات:

- تاريخ عقد تأسيس الشركة، والمكان الذي وقع فيه الإشهار القانوني.  
- الحالة المدنية لأعضاء مجلس الإدارة والمساهمين، وبصفة عامة مسيري وأعضاء الشركة ومهنتهم وجنسياتهم ومحل سكنهم وكذا اسم الشركات التجارية أو الصناعية أو المالية التي يعتبرون متصرفين أو مديرين أو مسيرين فيها.

وكل تغيير يطرأ على البيانات المنصوص عليها في هذه المادة يجب التصريح به داخل أجل 60 يوما الموالية له لدى وكيل الملك بالمحكمة التي تلقت التصريح الأول. كما يجوز لمن يعنيه الأمر الاطلاع على التصريح لدى النيابة العامة<sup>2</sup>. وهنا يتضح أن المشرع قام بتمديد أجل التصريح بالبيانات في حالة تغيرها إلى 60 يوما عوض 15 يوما كما كان معمولا به في القانون القديم، كما تم تضمين مسألة التصريح بالبيانات المتعلقة بالمحررين في حالة وجودهم.

وطبعا بما أن الصحيفة الإلكترونية في الغالب يختار أصحابها بث مواد إذاعية أو تلفزيونية، فإنها ملزمة حسب قانون الصحافة أن تأخذ رخصة للتصوير الذاتي صالحة لمدة سنة قابلة للتجديد مسلمة من طرف المركز السينمائي المغربي، حيث تستفيد الصحيفة الإلكترونية التي استوفت شروط المادة 21، من هذه الرخصة لإنتاج مواد سمعية بصرية، وفي مقابل ذلك يتعرض كل تصوير بدون تصريح للعقوبات المنصوص عليها في التشريع الجاري به العمل<sup>3</sup>.

في الأخير يمكن القول أن الملاحظة الأساسية المتعلقة بجانب التأسيس تتمثل في أن المادة 23 من قانون الصحافة والنشر الجديد ، جعلت حق إصدار الصحف يتحول من مبدأ التصريح

<sup>1</sup> - المادة 21 من قانون الصحافة والنشر رقم 88-13.

<sup>2</sup> - نفي المادة.

<sup>3</sup> - المادة 35 من نفس القانون.

بإصدار الجريدة إلى مبدأ ضرورة الحصول على إذن بإصدارها لكن بطريقة مغلقة<sup>1</sup>، فأحكام هذه المادة<sup>2</sup> تعني أن اعتراض وكيل الملك يمكنه أن يشمل إصدار الصحيفة و أن صاحب الصحيفة يمنع من نشر جريدته في حال رفع دعوى الطعن ضد قرار الاعتراض لدى المحكمة الإدارية المختصة. وهذا عكس ما كان مقررا في قانون الصحافة القديم. فالقانون القديم أسس لمبدأ الاكتفاء بالتصريح بإصدار الجريدة يقدم إلى النيابة العامة، و بعد مرور اجل 30 يوما يمكن اصدار تلك الجريدة. ولم يعط للنيابة العامة اي حق في منع اصدارها او الاعتراض على منعها، فالأصل هو أن إصدار الجريدة مبني على التصريح بها، و هو عكس ما جاء به القانون الجديد . هكذا فإن البحث عن ولادة منبر اعلامي صحفي، بالشروط والاجراءات التي تم التطرق إليها ، يتطلب رحلة مضنية تلتمس تصريحاً بالتأسيس من جهة وترخيصاً لمزاولة أنشطة من صميم العمل الصحفي، مما سيكون له الأثر الوخيم على حرية التأسيس لأي عمل صحفي في حد ذاتها، والتي من المفترض أن تتطلب بسطا للحرية لا تقييدها وتعقيدها وتقنين عرقلتها .

### المحور الثاني: الإجراءات العقابية المقيدة لحرية العمل الصحفي

أخذ موضوع العقوبات والغرامات بقانون الصحافة الجديد حيزا كبيرا ضمن مواده، لكن الجديد في هذا الاطار وهو خلو القانون الجديد من العقوبات السالبة للحرية، بيد أن ما سوى ذلك لم يتغير كثيرا، لاسيما فيما يخص الحجز والتغريم والمصادرة و بعض المقتضيات التي تحد من حرية العمل الصحفي.

#### المطلب الأول: الغرامات والعقوبات

نص قانون الصحافة و النشر على غرامات تتعلق بالإخلال بشروط التأسيس كأن "يعاقب بغرامة مالية تتراوح بين 2.000 و 10.000 درهم مالك المطبوع الدوري أو المستأجر المسير لهما، وعند عدم وجودهما مدير النشر، وعند عدم وجوده فإن الطابع هو الذي يعاقب ، وعند عدمه موزع المطبوع الدوري أو المضيف بالنسبة للصحيفة الالكترونية اللذان لم يكونا موضوع تصريح

<sup>1</sup>- تنص المادة 23 على ما يلي : يمكن إصدار المطبوع الدوري أو الصحيفة الالكترونية بعد اجل شهر من تاريخ تسليم شهادة الإيداع إن لم يتلق مدير النشر اعتراضا كتابيا معللا من طرف وكيل الملك المختص- يحق للمعني بالأمر في حالة الاعتراض أن يرفع دعوى أمام المحكمة الإدارية المختصة من أجل البث في مبررات الرفض المتضمنة في الاعتراض ولا يجوز إصدار المطبوع الدوري أو الصحيفة الالكترونية في حالة الطعن أمام المحكمة الإدارية.

<sup>2</sup>- ينص الفصل 6 من قانون الصحافة و النشر القديم على ما يلي : يحجر التصريح كتابة و يمضيه مدير النشر ويسلم عنه فورا وصل مؤقت مختوم ومؤرخ في الحال ويسلم الوصل النهائي وجوبا داخل أجل 30 يوما وإلا جاز إصدار الجريدة.

طبقا لمقتضيات المادتين 21 و 22 ، أو استند في إصداره على تصريح أصبح عديم الأثر طبقا لمقتضيات المادة 23 ولا يمكن استمرار نشر المطبوع الدوري أو الصحيفة الإلكترونية إلا بعد القيام بالإجراءات المنصوص عليها في المادة 21.

وفي حالة الامتناع عن القيام بالإجراءات المذكورة، يعاقب المذكورين على وجه التضامن بغرامة قدرها 20.000 درهم يؤدونها عند كل نشر جديد غير قانوني، وتحسب عن كل عدد ينشر ابتداء من يوم النطق بالحكم إذا صدر حضوريا أو ابتداء من اليوم الثالث الموالي لتبليغ الحكم إذا صدر غيابيا ولو كان هناك طعن. وتتعرض الصحيفة الإلكترونية في حالة عدم التصريح بإحداثها لنفس العقوبة ، كما يمكن أن تتعرض للحجب إلى حين القيام بالإجراءات المنصوص عليها في المادة 21<sup>1</sup>.

من جهة أخرى نص المشرع على غرامات تتعلق بطبيعة الخبر المنشور حيث "يعاقب" بغرامة من 20.000 إلى 200.000 درهم كل من قام بسوء نية بنشر أو إذاعة أو نقل نبأ زائف أو ادعاءات أو وقائع غير صحيحة أو مستندات مختلقة أو مدلس فيها منسوبة للغير إذا أخلت بالنظام العام أو أثارت الفزع بين الناس، بأية وسيلة من الوسائل ولا سيما بواسطة الخطب أو الصباح أو التهديدات المفوه بها في الأماكن أو الاجتماعات العمومية و إما بواسطة المكتوبات والمطبوعات المبيعة أو الموزعة أو المعروضة للبيع أو المعروضة في الأماكن أو الاجتماعات العمومية وإما بواسطة الملتصقات المعروضة على أنظار العموم أو بواسطة مختلف وسائل الإعلام السمعية البصرية أو الإلكترونية وأية وسيلة أخرى تستعمل لهذا الغرض دعامة إلكترونية<sup>2</sup>.

كما نص القانون على غرامات تتعلق بأخلاقيات المهنة كأن "يعاقب بغرامة من 100.000 إلى 300.000 درهم على المس بشخص وكرامة رؤساء الدول ورؤساء الحكومات ووزراء الشؤون الخارجية للدول الأجنبية، بواسطة إحدى الوسائل المنصوص عليها في المادة 372<sup>3</sup>.

و في نفس الاطار يعاقب القانون بغرامة من 50.000 درهم إلى 200.000 درهم على المس بشخص وكرامة الممثلين الدبلوماسيين أو القنصلين الأجانب المعتمدين أو المندوبين لدى الملك، بواسطة إحدى الوسائل المنصوص عليها في المادة 427<sup>4</sup>، كما يعاقب بغرامة من 100.000 إلى

<sup>1</sup> - المادة 24 من قانون الصحافة و النشر رقم 88-13.

<sup>2</sup> - المادة 72 من نفس القانون .

<sup>3</sup> - المادة 81 من قانون الصحافة والنشر 88-13.

<sup>4</sup> - المادة 82 من نفس القانون.

200.000 درهم، عن كل قذف يرتكب بإحدى الوسائل المبينة في المادة 72 ، في حق المجالس أو الهيئات القضائية أو المحاكم أو الجيوش البرية أو البحرية أو الجوية أو الهيئات المؤسسة أو المنظمة أو الإدارات العمومية بالمغرب، أو في حق وزير أو عدة وزراء، من أجل مهامهم أو صفاتهم أو في حق موظف أو أحد رجال أو أعوان السلطة العمومية أو كل شخص مكلف بمصلحة أو مهمة عمومية مؤقتة كانت أم مستمرة أو مساعد قضائي أو شاهد من جراء تأدية شهادته<sup>1</sup>. لكن الشيء الإيجابي اذي يمكن تسجيله في هذا الإطار، هو تمكين الصحفي من تقديم أدلة الإثبات طيلة مراحل الدعوى عن طريق الأخذ بإمكانية تقديم ما يثبت صحة الواقعة التي من أجلها وجه القذف، طيلة مراحل الدعوى. وذلك انسجاما مع حقوق الدفاع المخولة للجميع وفقا للمبادئ العامة على عكس القانون القديم للصحافة و النشر الذي يجعل أمر تمكين المتهم بالقذف، بالإدلاء بما يثبت صحة الواقعة محصورا فقط خلال 15 يوما الموالية لاستدعائه بالحضور إلى المحكمة. كما تم التنصيص على الأخذ بحسن النية في تقدير التعويض على الضرر حيث تم اعتماد المعايير الدولية في قضايا القذف، من خلال التنصيص على مساطر تعطي ضمانات للصحفي، ولا تقيده بتقديم أدلة لصحة واقعة القذف بأجل زمني، مع التنصيص على أن المحكمة تأخذ بحسن النية عند تقدير التعويض على الضرر، واعتماد معايير لتقدير التعويض المترتب في حالة المس بالحياء الخاصة للأفراد في واقعة القذف.

ويعاقب على نفس الأفعال بغرامة من 100 ألف إلى 500 ألف درهم، "إذا كان للنشر أو الإذاعة أو النقل تأثير على انضباط أو معنويات الجيوش"<sup>2</sup>. فمفهوم "النظام العام" هنا أيضًا يطرح إشكالا من ناحية المضمون والمقصد؛ "فالنظام العام" مفهوم مثالي، غالبا ما تُؤوَّلُه الدولة بالصيغة التي ترتضيها ووفق حساباتها هي؛ لذلك فإن عدم رسم حدوده بدقة يمنح الإدارة والقضاء أيضًا سلطة تقديرية قد لا تسير بالضرورة باتجاه احترام حرية الإعلام.

التساؤل نفسه يطرح فيما يخص انضباط ومعنوية الجيوش؛ لأن مسائل الانضباط أو معنويات الجيوش هي مسائل حساسة وغير محددة و غير معرفة قانونا ، بحيث كيف سيمكن للقاضي مثلا أن يحدد ما إذا كان خبر ما أو معلومة ما لها تأثير سلبي على معنويات الجيش أو على انضباطه و كيف سيتم تحديد العلاقة السببية بين ذلك الخبر أو تلك المعلومة و بين الأثر المترتب عنها وهو التأثير على انضباط الجيش ومعنوياته ؟

<sup>1</sup> - المادة 84 من نفس القانون.

<sup>2</sup> - المادة 72 من قانون الصحافة والنشر 88-13.



نفس الأمر يمكن استنتاجه حينما ينص قانون الصحافة والنشر على غرامة قد تصل إلى 300 ألف درهم، في حال المس بشخص وكرامة رؤساء الدول، ورؤساء الحكومات، ووزراء الشؤون الخارجية للدول الأجنبية<sup>1</sup>. فالسلطة التقديرية هنا أيضاً هي المحتملة، إذ هل القول مثلاً بأن هذا الرئيس أو ذاك قد وصل للسلطة بشكل غير ديمقراطي، أو أنه يقوم بإرسال أمواله إلى الخارج، هل يعتبر ذلك مساً بشخصه وكرامته يستوجب المتابعة بالغرامة؟ إذن تطرح هنا عدة علامات استفهام حول ضبابية وشمولية بعض المفاهيم والمصطلحات التي يمكن تأويلها تأويلاً خاطئاً أو مقصوداً يكون من شأنه الدفع في اتجاه تقييد حرية العمل الصحفي.

ويمكن القول، أن هذا القانون الجديد للصحافة والنشر وإن استجاب لمطلب إلغاء العقوبات السالبة للحرية، فقد عمد إلى تعويضها بغرامات من شأنها، إن تم إعمالها بانتظام وصرامة، أن تكون أداة ناجعة لتقليص ليس فقط فضاء حرية الإعلام، بل -أيضاً- لتضييق مجال الفعل الإعلامي بشكل عام. فحتى لو سلمنا بأن الإعلام قد بات في مأمن من العقوبات الحبسية، فإن سيف الغرامة سيلاحقه أو يلاحق المؤسسة التي يعمل بها، فيصبح الحذر والحيطه والخوف من احتمالية التغريم دائماً وارداً، مما يخلق مناخاً يضيع فيه التحقيق وتراجع من بين ظهرانيه القابلية للبحث عن المعلومة.

وإذا علمنا أن الصحافة غالباً ما "تقتات" على السبق الصحفي، وأخبار الفاعلين بالمجال العام، فإن أية هفوة أو "تجاوز" سيكون ثمنه عشرات الآلاف من الدراهم، وإن تكررت النازلة، فستسقط المؤسسة بجريرة ذلك في منظومة إفلاس تلقائي لا تستطيع النهوض بعدها إلا على حساب تشديد الرقابة على إعلاميها، وثمنهم عن البحث فيما قد يكون مثار غضب هذه الجهة أو تلك.

### المطلب الثاني: المقتضيات المقيدة لحرية الصحافة من خلال القانون المنظم

إن من بين أهم الأحكام التي تقيد حرية الصحافة بمقتضى القانون الجديد، تلك التي تتعلق بعقوبة توقيف أو حجز الصحيفة الورقية أو الالكترونية حيث نصت المادة 71 على تطبيق أحكام المادتين 104 و 106 من قانون الصحافة والنشر<sup>2</sup> إذا تضمنت إحدى المطبوعات أو المطبوعات الدورية أو إحدى الصحف الالكترونية، إساءة للدين الإسلامي، أو النظام الملكي أو

<sup>1</sup> - المادة 81 من نفس القانون.

<sup>2</sup> - المادة 104: التي تقضي بتوقيف المطبوع الدوري أو حجب الصحيفة الالكترونية أو الدعاية الالكترونية و المادة 106 التي تقضي بحجز كل عدد من مطبوع دوري أو سحب المادة الصحفية و تعطيل الولوج إليها بالنسبة للصحيفة الالكترونية.

تحريضاً ضد الوحدة الترابية للمملكة أو سبا أو قذفاً أو مسا بالحياة الخاصة لشخص الملك أو لشخص ولي العهد أو لأعضاء الأسرة المالكة أو إخلالاً بواجب التوقير والاحترام لشخص الملك .

و لن يختلف اثنان حول بديهية ضرورة احترام الدين الإسلامي، وشخص الملك والعائلة الملكية والوحدة الترابية وما سواها ، لكن مسألة السلطة التقديرية للقاضي في تحديد أين تبدأ الإساءة للإسلام وأين تنتهي؟ هي التي تثير إشكالا كبيرا ، و هل انتقاد قرار اعتمده الملك، يدخل في باب عدم الاحترام لشخصه هل إبداء رأي أو انتقاد بخصوص طريقة تدبير ملف الصحراء يعتبر مساً بالوحدة الترابية؟ حيث أن مسألة تحديد طبيعة هذه الأفعال تبقى مسألة صعبة ، لأنها خاضعة لتقدير و تكييف سلطة أو جهة قد تكون صائبة او خاطئة في تأويل تلك الأفعال ، و بالتالي فمصير مطبوع دوري أو صحيفة إلكترونية قد يكون مهددا بالحجز أو التوقيف بناء على سلطة تقديرية رجحت فرضية مس ذلك المطبوع أو تلك الصحيفة بالخطوط الحمراء المذكورة في المادة 71 .

و بالرجوع إلى قانون الصحافة و النشر نجده ينص كذلك على ما يلي : سرية مصادر الخبر مضمونة ولا يمكن الكشف عنها إلا بمقرر قضائي وفي الحالات التالية:القضايا المتعلقة بالدفاع الوطني وأمن الدولة الداخلي والخارجي و الحياة الخاصة للأفراد ما لم يكن لها علاقة مباشرة بالحياة العامة<sup>1</sup> . فالمشرع هنا ينص على آلية سيكون من خلالها الصحفي مجبرا على الإخبار بالشخص أو الجهة التي زودته بالخبر الذي نشره ، مع العلم أن حماية مصادر الخبر بالنسبة للصحفي هي قضية حياة أو موت بالنسبة له كمهني ، لأنه إذا كشف عن مصادره فسيفقدها كلها و لن يعود بإمكانه إنتاج أي خبر . فسرية مصادر الخبر بالنسبة للصحفي ليست امتيازاً له وإنما امتياز للمجتمع و هي ضرورة لكشف الحقائق التي تحمي الدولة و المجتمع. فكلما « أمر قضائي » تعني أن القاضي سيجبر الصحفي المتابع أمامه على الاعلان عن الشخص او الجهة التي زودته الخبر المتابع من أجله. وهذا انتقل الصحفي من حقه المطلق في عدم إفشاء مصادر خبره ، إلى إلزامه بالإفشاء عن ذلك الشخص أو الجهة أينما أمر القاضي بذلك . كما يشير هذا القانون أيضا أن الصحفيين و هيئات و مؤسسات الصحافة يحق لهم الولوج إلى مصادر الخبر والحصول على المعلومات من مختلف المصادر، باستثناء المعلومات السرية وتلك التي تقيّد الحق في الحصول عليها طبقا للفقرة الثانية من الفصل 27 من الدستور . فصياغة المادة الخامسة توحى بكون الصحفي سيصبح حرا في الحصول على المعلومات التي تساعد في عمله ، لكن نفس المادة وضعت

1- المادة 5 منقانون الصحافة و النشر 88-13 .

قاعدة أخرى معاكسة ، تمنع على الصحفيين الحصول على المعلومة عندما استثنت تلك الفقرة ، ما سمته ، المعلومات التي تكتسي طابع السرية ، كما ان هذه المعلومات ليست فقط تلك المتعلقة بالدفاع و الأمن ، لكون أن المعلومات المتعلقة بالأمن والدفاع الوطني وغيرها ، منصوص عليها في الفصل 27 من الدستور الذي تحيل عليه المادة 5 ، ذلك أن الصحفي لم يبق ممنوعا فقط من المعلومات المنصوص اليها في الفصل 27 من الدستور وإنما أضاف له القانون نوع آخر من المعلومات وهي المعلومات التي سمتها الفقرة الأولى من المادة 5 المعلومات التي تكتسي طابع السرية دون أن تذكر تلك المادة هذه المعلومات ولا الجهة التي ستحدد طابع السرية من عدمه .و كذلك عدم تحديد القانون لتلك الجهة يعني أن اي إدارة من غير إدارة الأمن والدفاع ، ستواجه الصحفي بالطابع السري للمعلومة حسب تقديرها، وهو ما يمنع من الاطلاع عليها.

من جهة أخرى نص القانون المنظم للصحافة والنشر على مجموعة من الأحكام تهم مجالات متعددة ترتبط بالعمل الصحفي حيث أشار إلما يلي:- تلتزم الدولة بضمان حرية الصحافة وترسيخ الديمقراطية وتعددية الإعلام و تعمل على الالتزام بها.- تستفيد قطاعات الصحافة والنشر والطباعة والتوزيع من الدعم العمومي بناء على مبادئ الشفافية و تكافؤ الفرض والحياد، وذلك لما لهذه القطاعات من دور في تنمية القراءة وتعزيز التعددية.-تحدد شروط و كيفيات الاستفادة من الدعم المذكور أعلاه بنص تنظيمي وفق معايير موضوعية مع الاحترام المطلق لاستقلالية المقاولات الصحفية المستفيدة من الدعم.

- تلتزم السلطات العمومية بتوفير الضمانات المؤسسية لحماية الصحفيين من الاعتداء أثناء مزولتهم مهنتهم<sup>1</sup>.-تحتزم قرينة البراءة وكافة ضمانات المحاكمة العادلة في قضايا الصحافة والنشر وفقا لأحكام الدستور والقوانين الجاري بها العمل.

يبدو من الوهلة الأولى أن هذه المادة تقدم إطارا قانونيا جديدا سيحمي ويحصن العمل الصحفي، لكن بالقراءة المتأنية توضح أنه تم الخلط في تلك المادة بين القواعد المتعلقة بالجانب المبدئي والحقوقي. وبين القواعد المتعلقة بالتنظيم المقاولاتي وبين القواعد المتعلقة بكيفية الحصول على الدعم وبين مبادئ قانون المسطرة الجنائية، و الكل في مادة واحدة، مع ان كل واحد من القضايا المشار اليها اعلاه لا علاقة لها فيما بينها لا من حيث الموضوع و لا حيث مجال التطبيق، مما يدفعنا للتساؤل عن مبرر حشر كل تلك القضايا في مادة واحدة .

<sup>1</sup> - المادة السابعة من قانون الصحافة والنشر رقم 88-13.

كما تشير نفس المادة إلى مسألة الدعم العمومي حيث ربطته بصدر نص تنظيمي وهو ما يجعل العمل الصحفي رهينة السلطة التنفيذية التي تتحكم في الدعم الذي تتوصل به المقاولات الصحفية. ومما يؤكد ذلك هو أن الاستفادة من الدعم العمومي لن ينظمه قانون يصدر من قبل السلطة التشريعية، وإنما بمقتضى مراسيم تصدرها السلطة التنفيذية ممثلة في شخص وزارة الاتصال، نظرا لكون النصوص التنظيمية هي من اختصاص السلطة التنفيذية التي يرأسها رئيس الحكومة.

#### خاتمة:

في الأخير يمكن القول أن القانون الجديد للصحافة و النشر و إن تضمن بعض النقائص والثغرات التي يجب التفكير مليا في تجاوزها، إلى أنه أتى بمجموعة من المقتضيات الإيجابية التي نجملها في النقاط التالية:

- تم إلغاء العقوبات السالبة للحرية وتم تعويضها بغرامات مالية على عكس قانون الصحافة و النشر القديم الذي وردت فيه عبارتي "السجن" أو "الحبس" 24 مرة وفي 21 فصلا، في حالات مؤثرة على حرية الصحافة.

- تم إقرار ضمان الحق في الحصول على المعلومة وإقرار الجزاء في حالة الرفض غير الموضوعي تماشيا مع الدستور الجديد و انسجاما مع كافة المعايير الدولية المعترف بها في هذا المجال، والتأكيد على الجزاء في حالة الرفض عبر التأكيد على حق الصحفيين والمؤسسات الصحفية الولوج إلى مصادر الخبر و الحصول على المعلومات وفقا للقانون ولأحكام الدستور، مع النص على جزاءات في حالة رفض تسليم المعلومات. كما تم إعداد مشروع قانون خاص بحرية الولوج للمعلومة من أجل تنظيم هذا الحق المكفول دستوريا .

- جعل القضاء الجهة الوحيدة المختصة بتلقي تصريحات إصدار الصحف و الإيقاف والحجب والحجز حصريا بيد القضاء حيث أن إيقاف مطبوع دوري أو حجب موقع صحيفة إلكترونية يتم بمقرر من القضاء، كما أن حجز مطبوع دوري يصدر بقرار قضائي استعجالي. وإقرار الحماية القضائية لسرية المصادر حيث تم التنصيص على سرية مصادر الصحفيين في إطار احترام مقتضيات الدستور وقانون الحصول على المعلومات، كما تم التنصيص على أن الكشف عنها لا يتم إلا بمقرر قضائي نهائي.

- الاعتراف القانوني بالصحافة الإلكترونية وتمكينها من شروطا لممارسة الصحافة الحرة.

- النص على أن حرية خدمات الصحافة الإلكترونية مكفولة للجميع وتمكين الصحف الإلكترونية من رخص التصوير. وإرساء ضمانات حرية المبادرة وتشجيع الاستثمار في قطاع الإعلام والصحافة.

- تطوير مقتضيات الشفافية في تدبير المقاولات الصحفية وإقرار إلزامية الدعم العمومي للصحف وفق مبادئ تكافؤ الفرص والحياد ودعم التعددية وتشجيع القراءة وعدم الاحتكار في علاقات الإشهار.

- التنصيص على توفير ضمانات قانونية ومؤسسية لضمان عدم تعرض الصحفيين للاعتداء.

- إقرار الحماية القانونية والقضائية للصحفي المهني في مواجهة التعسف الذي يمكن أن يلحقه من قبل الجهة المشغلة. وجعل سحب بطاقة الصحافة من اختصاص القضاء في حالة إدانة الصحفي في قضايا تتعلق بممارسة الصحافة. وإقرار شهادة الإجازة للحصول على بطاقة الصحافة المهنية أو الحصول على شهادة متخصصة في مجال الصحافة مسلمة من طرف مؤسسات التعليم العالي العام أو الخاص أو دبلوم معترف بمعادلته للإجازة، بالنسبة لطالبي البطاقة لأول مرة.

ختاماً يمكن القول أن المغرب من خلال هذه "النهضة" على المستوى التشريعي، عبّر على التأكيد على أنه لم ينشغل بإصلاح المجال الإعلامي على صعيد التنظيم القانوني فقط، ولكنه أيضاً أحدث بعض الإصلاحات في جوانب الممارسة، بما يتسق مع الاستحقاقات الدستورية. ويبدو أن هناك اتفاقاً على أن الجهود الإصلاحية أثمرت عدداً من الإيجابيات، التي يمكن أن تصب في تعزيز حالة الحريات وتطوير الممارسة المهنية. لكن الكثير من الانتقادات تطال هذه العملية الإصلاحية، وتعتبرها ناقصة ولا تعكس إرادة سياسية حقيقية للتغيير. كما أن هناك مخاوف تنطلق من تكرار حوادث استهداف حرية الصحافة والصحفيين، عبر ممارسة العنف البدني واللفظي والاكراه البدني، والإحالة إلى القضاء خاصة بعد انطفاء شرارة ما سمي بالربيع العربي أو المغربي على وجه التحديد. وفي هذا الإطار يستند النقاد إلى استمرار احتلال المغرب مرتبة متأخرة في قوائم حرية الصحافة الدولية والإقليمية؛ إذ يؤكدون على وجود سلبيات في المنظومة القانونية الجديدة. في حين يرى القائمون على هذا القطاع أن تلك الانتقادات لا تعدو أن تكون حلقة من حلقات التشويش على المسار التنموي الاصلاحى الذي ينهجه المغرب خاصة بعد المصادقة على الدستور الجديد.

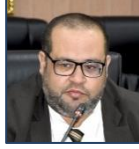
## لائحة المصادر والمراجع

- محمد ضريف - الحركة الاسلامية المغربية بعد 2011: تحولات في طور المخاض-دراسة نشرت في الموقع الرسمي لحزب الديمقراطيين الجدد - أبريل 2017 -.
- جمال كريمي بن شقرون - دور الإعلام في الدستور المغربي - مجلة الفقه والقانون - العدد 11 - شتنبر 2013.
- استراتيجية قطاع الاتصال 2012-2016 - منشورة في الموقع الرسمي للوزارة . [www.mincom.gov.ma](http://www.mincom.gov.ma)
- ظهير شريف رقم 122.16.1 صادر في 10 غشت 2016 بتنفيذ القانون رقم 88-13 المتعلق بالصحافة والنشر.
- ظهير شريف رقم 1.16.51 صادر في 19 رجب 1437 الموافق ل 27 أبريل 2016 بتنفيذ القانون رقم 89-13 المتعلق بالنظام الأساسي للصحافيين المهنيين. الجريدة الرسمية عدد 6466 بتاريخ 12 شعبان 1437 الموافق ل 19 ماي 2016.

## حقوق غير المسلمين في القانون المغربي

د. محمد بودشيش

باحث في علوم التربية والفكر الإسلامي  
المغرب



### مقدمة

إن الشريعة الإسلامية نظمت علاقة المسلمين فيما بينهم، وبينهم وبين غيرهم ممن يشتركون معهم في الوطن، ووضعت حدوداً رسمت بها حدوداً تقف عندها الحقوق والواجبات في علاقة تفاعلية إنسانية بين المسلمين وغيرهم، وحدد الفقهاء أصناف الناس من غير المسلمين، وحددوا لكل صنف حقوقاً وواجبات، الكل ملزم بالوقوف عندها، لا ينتهكها إلا معتد آثم.

يشكل غير المسلمين أقلية بالنسبة لساكنة المغرب، فقد أشار الدكتور محمد عمارة في كتابه الاسلام والأقليات إلى أن نسبة النصارى من ساكنة المغرب لا يتجاوزون 02%<sup>1</sup>، أما اليهود فلا يتجاوز عددهم 7.800<sup>2</sup>، ورغم هذه النسب الضعيفة إلا أن المشرع المغربي كان ولا يزال دائماً يأخذ بعين الاعتبار هذه الفئة في صياغة النصوص التشريعية، أخذاً بعين الاعتبار المنهج الإسلامي في التعامل مع غير المسلمين مستحضراً الموروث والشواهد الثابتة عبر التاريخ وتحويل ذلك إلى ممارسة فعلية على أرض الواقع تترجم التوجهات الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين.

استقت هذه الدراسة مادتها العلمية من عدد من المراجع المتنوعة، فكانت المادة متنوعة بين ما هو تاريخي وما هو قانوني وضعي، وكان الهدف هو إبراز الأنموذج المغربي في التعامل مع غير المسلمين من الناحية القانونية التشريعية من خلال نصوص من القانون الوضعي المغربي لها علاقة بحقوق غير المسلمين وبعض تلك التي تتحدث عن المواطنين بشكل عام دون تفريق بين مسلم وغير مسلم، كما بحثت عن بعض الشواهد التاريخية التي توضح الاهتمام بغير المسلمين من يهود أو نصارى في المجتمع المغربي.

1 الإسلام والأقليات الماضي... والحاضر... والمستقبل، محمد عمارة، دار السلام، الطبعة الأولى، الصفحة: 47

2 نفسه، الصفحة: 50

## المطلب الأول: غير المسلمين في الدستور المغربي

جاء في الخطاب الملكي السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس للأمة مساء يوم الجمعة 17 يونيو 2011، في شأن مشروع الدستور الجديد: "كما يكرس المشروع كافة حقوق الإنسان، بما فيها قرينة البراءة، وضمان شروط المحاكمة العادلة، وتجريم التعذيب، والاختفاء القسري، والاعتقال التعسفي، وكل أشكال التمييز والممارسات المهيينة للكرامة الإنسانية؛ وكذا ضمان حرية التعبير والرأي، والحق في الولوج إلى المعلومات، وحق تقديم العرائض، وفق ضوابط يحددها قانون تنظيمي"<sup>1</sup>.

لقد كان حاضرا في ذهن اللجنة الاستشارية برئاسة السيد عبد اللطيف المنوني<sup>2</sup>، والتي كلفت بمراجعة الدستور المغربي، أن المغرب قد خطى خطوات متقدمة في مجال حقوق الإنسان واحترام الآخر وأخذ على عاتقه احترام حقوق الإنسان، فجاء في تصدير الدستور:

"... - حماية منظومتي حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني والنهوض بهما، والإسهام في تطويرهما؛ مع مراعاة الطابع الكوني لتلك الحقوق، وعدم قابليتها للتجزئة؛

- حظر ومكافحة كل أشكال التمييز، بسبب الجنس أو اللون أو المعتقد أو الثقافة أو الانتماء الاجتماعي أو الجهوي أو اللغة أو الإعاقة أو أي وضع شخصي، مهما كان؛..."<sup>3</sup>

وجاء في الفصل 1 من الدستور: "... تستند الأمة في حياتها العامة على ثوابت جامعة، تتمثل في الدين الإسلامي السمح، والوحدة الوطنية متعددة الروافد، والملكية الدستورية، والاختيار الديمقراطي..."<sup>4</sup>، وفي مجال التسامح الديني ينص الفصل الثالث من الدستور على أن: "الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية" إذ أن الإسلام هو دين الدولة بالمغرب، لكن البلد يضم أيضا مجتمعا يهوديا مع الوجود المسيحي، ويضمن الدستور المغربي للجميع حرية ممارسة الشعائر الدينية، كما نص الفصل 6 من الدستور على أنه: "... تعمل السلطات العمومية على توفير الظروف التي تمكن من تعميم الطابع الفعلي لحرية المواطنين

1 مقتطف من الخطاب الملكي السامي الذي وجهه جلالته الملك محمد السادس نصره إلى الأمة مساء يوم الجمعة 17 يونيو 2011

2 من مواليد مدينة مكناس سنة 1944 أستاذ القانون الدستوري بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس، ورئيس الجمعية المغربية للقانون الدستوري.

3 دستور المملكة المغربية، إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية بمديرية الشؤون الجنائية والعفو - وزارة العدل والحريات، سلسلة نصوص قانونية - شتنبر 2011 العدد 19، الصفحة: 15.

4 نفسه، الصفحة: 16.



والمواطنين، والمساواة بينهم، ومن مشاركتهم في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. ...<sup>1</sup> كما أن الفصل 7 من الدستور ينص على أنه: "...لا يجوز أن تؤسس الأحزاب السياسية على أساس ديني أو لغوي أو عرقي أو جهوي، وبصفة عامة، على أي أساس من التمييز أو المخالفة لحقوق الإنسان..."<sup>2</sup>، ونص الفصل 19 من الدستور على أنه: "يتمتع الرجل والمرأة، على قدم المساواة، بالحقوق والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية، الواردة في هذا الباب من الدستور، وفي مقتضياته الأخرى، وكذا في الاتفاقيات والمواثيق الدولية، كما صادق عليها المغرب، وكل ذلك في نطاق أحكام الدستور وثوابت المملكة وقوانينها.

تسعى الدولة إلى تحقيق مبدأ المناصفة بين الرجال والنساء.

وتُحدث لهذه الغاية، هيئة للمناصفة ومكافحة كل أشكال التمييز."<sup>3</sup>

كما أن الفصل 20 من الدستور نص على: "الحق في الحياة هو أول الحقوق لكل إنسان. ويحيي القانون هذا الحق"<sup>4</sup> وزيادة في التأكيد على ذلك نص الفصل 21 من الدستور على أن كل السكان هم تحت حماية الدولة دون تمييز في العرق أو الدين أو اللون، فكل جامعة للجميع: "لكل فرد الحق في سلامة شخصه وأقربائه، وحماية ممتلكاته. تضمن السلطات العمومية سلامة السكان، وسلامة التراب الوطني، في إطار احترام الحريات والحقوق الأساسية المكفولة للجميع."<sup>5</sup> وزيادة في ضمان الحماية ينص الفصل 21 من الدستور على أنه: "... لا يجوز لأحد أن يعامل الغير، تحت أي ذريعة، معاملة قاسية أو لا إنسانية أو مهينة أو حاطة بالكرامة الإنسانية..."<sup>6</sup> وينص الفصل 23 من الدستور على أنه: "... يُحظر كل تحريض على العنصرية أو الكراهية أو العنف. يُعاقب القانون على جريمة الإبادة وغيرها من الجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب، وكافة الانتهاكات الجسيمة والممنهجة لحقوق الإنسان ..."<sup>7</sup>، وضمانا للحقوق السياسية ينص الفصل 30 من الدستور على أنه: "لكل مواطن ومواطن، الحق في التصويت، وفي الترشح

1 دستور المملكة المغربية، إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية بمديرية الشؤون الجنائية والعفو - وزارة العدل والحريات، م.س، الصفحة: 17.

2 نفسه، نفس الصفحة.

3 نفسه، الصفحتان: 21 و 22.

4 نفسه، الصفحة: 22.

5 نفسه، نفس الصفحة.

6 نفسه، نفس الصفحة.

7 نفسه، الصفحتان 22 و 23.

للانتخابات، شرط بلوغ سن الرشد القانونية، والتمتع بالحقوق المدنية والسياسية. وينص القانون على مقتضيات من شأنها تشجيع تكافؤ الفرص بين النساء والرجال في ولوج الوظائف الانتخابية.

التصويت حق شخصي وواجب وطني.

يتمتع الأجانب بالحريات الأساسية المعترف بها للمواطنين والمواطنات المغاربة، وفق القانون. ويمكن للأجانب المقيمين بالمغرب المشاركة في الانتخابات المحلية، بمقتضى القانون أو تطبيقا لاتفاقيات دولية أو ممارسات المعاملة بالمثل.

يحدد القانون شروط تسليم الأشخاص المتابعين أو المدانين لدول أجنبية، وكذا شروط منح حق اللجوء.<sup>1</sup>

وينص الفصل 31 من الدستور على: "تعمل الدولة والمؤسسات العمومية والجماعات الترابية، على تعبئة كل الوسائل المتاحة، لتيسير أسباب استفادة المواطنين والمواطنات، على قدم المساواة، من الحق في:

- العلاج والعناية الصحية؛
- الحماية الاجتماعية والتغطية الصحية، والتضامن التعاضدي أو المنظم من لدن الدولة؛
- الحصول على تعليم عصري ميسر الولوج وذو جودة؛
- التنشئة على التشبث بالهوية المغربية، والثوابت الوطنية الراسخة؛
- التكوين المهني والاستفادة من التربية البدنية والفنية؛
- السكن اللائق؛
- الشغل والدعم من طرف السلطات العمومية في البحث عن منصب شغل، أو في التشغيل الذاتي؛
- ولوج الوظائف العمومية حسب الاستحقاق؛
- الحصول على الماء والعيش في بيئة سليمة؛

1 دستور المملكة المغربية، إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية بمديرية الشؤون الجنائية والعفو - وزارة العدل والحريات، م.س، الصفحتان 24 و25.

-التنمية المستدامة.<sup>1</sup>

## المطلب الثاني: غير المسلمين في القوانين المغربية.

### دخول المغرب والإقامة على ترابه

لم يميز القانون 02.03 المتعلق بدخول وإقامة الأجانب بالمملكة المغربية وبالهجرة غير المشروعة، بين مسلم وغير مسلم بل تعامل مع الأجانب على قدم من المساواة، وقد نصت المادة 3 من هذا القانون على أنه "يجب على كل أجنبي نزل بالتراب المغربي أو وصل إليه، أن يتقدم إلى السلطات المختصة المكلفة بالمراقبة في المراكز الحدودية حاملاً لجواز السفر المسلم له من قبل الدولة التي يعتبر من رعاياها، أو لأية وثيقة سفر أخرى سارية الصالحية ومعترف بها من لدن الدولة المغربية كوثيقة سفر لازالت صلاحيتها قائمة وتكون مصحوبة عند الاقتضاء بالتأشيرة المطلوب الإدلاء بها والمسلمة من طرف الإدارة."<sup>2</sup>، وقد أشار نفس القانون إلى أن الإقامة القانونية للأجنبي بالمغرب متوقفة على حصوله على سندات الإقامة، وقسم هذه السندات إلى نوعين: بطاقة التسجيل وبطاقة الإقامة، وقال في مادته الخامسة: "سندات الإقامة بالتراب المغربي هي: - بطاقة التسجيل؛ - بطاقة الإقامة."<sup>3</sup>، وجعلهما وسيلة للإقامة القانونية بالمغرب، والذي يتضح أن المغرب لم يعتبر أو يشترط على الأجانب الذين يريدون الإقامة في المغرب شرط الانتماء للدين الإسلامي، فهو - أي القانون المغربي - يجيز لغير المسلمين الإقامة على التراب المغربي شرط اتباع النصوص القانونية والتنظيمية لكي تكون إقامته شرعية، ويستفيد من الخدمات التي توفرها الدولة المغربية لرعاياها، فالدولة لا تفرق في الاستفادة منها بين المغاربة، مسلمين وغير مسلمين، وبين الأجانب المقيمين على التراب المغربي مسلمين وغير مسلمين كذلك، وهذا يبرز وجهاً من وجوه الأنموذج المغربي في التعامل مع الأجانب غير المسلمين حيث أنه لا يسمح بالتمييز بين الأجانب المسلمين والأجانب غير المسلمين بل جعلهم سواسية أما القانون الخاص بالإقامة على التراب المغربي بصفة قانونية.

### الجنسية

ينص الفصل: 9 من القانون 92.06، في شأن اكتساب الجنسية المغربية عن طريق الولادة في المغرب والإقامة به، على أنه: "يكتسب الجنسية المغربية كل ولد مولود في المغرب من أبوين

1 نفسه الصفحة: 26.

2 المادة 03 من القانون 03.02 / الجريدة الرسمية 5160 بتاريخ: 13 نونبر 2003

3 نفسه المادة: 05

أجانبين مولودين هما أيضا فيه بعد إجراء العمل بظهيرنا الشريف هذا بشرط أن تكون له إقامة اعتيادية ومنتظمة بالمغرب وأن يصرح داخل السنتين السابقتين لبلوغه سن الرشد برغبته في اكتساب هذه الجنسية ما لم يعارض في ذلك وزير العدل طبقا للفصلين 26 و 27 من ظهيرنا الشريف هذا.

إن كل شخص مولود في المغرب من أبوين أجنيين وله إقامة اعتيادية ومنتظمة في المغرب، وكان الأب قد ولد هو أيضا فيه يكتسب الجنسية المغربية بتصريح يعبر فيه عن اختياره لها فيما إذا كان هذا الأب ينتسب إلى بلد تتألف أكثرية سكانه من جماعة لغتها العربية أو دينها الإسلام وكان ينتهي إلى تلك الجماعة، وذلك مع مراعاة حق وزير العدل في المعارضة طبقا لمقتضيات الفصلين 26 و 27....".

وينص الفصل 10 من القانون 92.06، في شأن اكتساب الجنسية المغربية عن طريق الزواج، على أنه: "يمكن للمرأة الأجنبية المتزوجة من مغربي بعد مرور خمس سنوات على الأقل على إقامتهما معا في المغرب بكيفية اعتيادية ومنتظمة أن تتقدم أثناء قيام العلاقة الزوجية إلى وزير العدل بتصريح لاكتساب الجنسية المغربية.

لا يؤثر انتهاء العلاقة الزوجية على التصريح المقدم من طرفها قبل انتهاء تلك العلاقة. يبتث وزير العدل في التصريح المقدم إليه داخل أجل سنة من تاريخ إيداعه، ويعتبر عدم البث داخل هذا الأجل بمثابة معارضة.

يسري مفعول اكتساب الجنسية ابتداء من تاريخ إيداع التصريح، غير أن التصرفات القانونية التي سبق للمعنية بالأمر أن أبرمتها طبقا لقانونها الوطني قبل موافقة وزير العدل تبقى صحيحة.

إن المرأة الأجنبية التي تزوجت من مغربي قبل تاريخ إجراء العمل بهذا القانون يسوغ لها أن تكتسب الجنسية المغربية بنفس الشروط المنصوص عليها في الفقرة الأولى أعلاه إذا كان زواجها بالمغربي لم يفسخ ولم ينحل قبل إمضاء التصريح."

وينص الفصل 10 من القانون 92.06، في شأن شروط التجنس، على أنه: "يجب على الأجنبي الذي يطلب اكتساب الجنسية المغربية عن طريق التجنس أن يثبت توفره على الشروط المحددة فيما بعد مع مراعاة الأحوال الاستثنائية المنصوص عليها في الفصل الثاني عشر:

أولا - الإقامة الاعتيادية والمنظمة في المغرب خلال السنوات الخمس السابقة على تقديم طلب التجنيس، مع الإقامة في المغرب إلى حين البث في الطلب؛

ثانيا - بلوغ سن الرشد القانوني حين تقديم الطلب؛

ثالثا - سلامة الجسم والعقل؛

رابعا - الاتصاف بسيرة حسنة وسلوك محمود وغير محكوم عليه بعقوبة من أجل ارتكاب:

- جنائية؛

- أو جنحة مشينة؛

- أو أفعال تكون جريمة إرهابية؛

- أو أفعال مخالفة لقوانين الإقامة المشروعة بالمملكة المغربية؛

- أو أفعال موجبة لسقوط الأهلية التجارية.

- ما لم يقع في جميع الحالات محو العقوبة عن طريق رد اعتباره؛

خامسا - معرفة كافية باللغة العربية؛

سادسا - التوفر على وسائل كافية للعيش.

تحدث لجنة للبث في طلبات التجنيس، تحدد الإدارة تكوينها وكيفية عملها

وينص الفصل 16 من القانون 92.06، في شأن الآثار الفردية لاكتساب الجنسية، على أنه:

"إن الشخص الذي يكتسب الجنسية المغربية يتمتع ابتداء من تاريخ اكتسابها بجميع الحقوق المتعلقة بالصفة المغربية مع الاحتفاظ بالقيود في الأهلية المنصوص عليها في الفصل 17 من هذا القانون أو في قوانين خصوصية."

وينص الفصل 17 من القانون 92.06، في شأن القيود في الأهلية المفروضة على المتجنس،

على أنه: "يخضع الأجنبي المتجنس طيلة خمس سنوات للقيود في الأهلية الآتية:

أولا - لا يجوز أن تسند إليه وظيفة عمومية أو نيابة انتخابية يشترط فيمن يقوم بهما التمتع

بالجنسية المغربية؛

ثانيا - لا يجوز أن يكون ناخبا إذا كانت الصفة المغربية شرطا للتسجيل في اللوائح

الانتخابية.

على أنه يجوز أن يعفى من هذه القيود كلها أو بعضها بمقتضى ظهير فيما إذا خولت الجنسية بمقتضى ظهير أو بموجب مرسوم يتخذه المجلس الوزاري فيما إذا خولت الجنسية بموجب مرسوم.

وينص الفصل 18 من القانون 92.06، في شأن الآثار الجماعية لاكتساب الجنسية، على أنه: "إن الأولاد القاصرين المولودين من الأشخاص الذين يكتسبون الجنسية المغربية بمقتضى الفصل التاسع من هذا القانون يصبحون وإياهم مغاربة في آن واحد.

وإن الأولاد القاصرين الغير المتزوجين المنحدرين من الشخص الذي يسترجع الجنسية المغربية يسترجعون أيضا أو يكتسبون هذه الجنسية بحكم القانون إذا كانوا مقيمين فعلا مع الشخص المذكور.

ويسوغ أن تمنح وثيقة التجنيس الجنسية المغربية لأبناء الأجنبي المتجنس القاصرين غير المتزوجين، غير أن الأولاد القاصرين الذين منحت لهم الجنسية المغربية وكانوا يبلغون 16 سنة على الأقل في تاريخ تجنيسهم يجوز لهم أن يتخلوا عن الجنسية المغربية ما بين السنة الثامنة عشرة والعشرين من عمرهم.

إن المشرع المغربي أعطى الحق في اكتساب الجنسية المغربية لكل ولد مولود في المغرب من أبوين أجنبيين مولودين هما أيضا فيه، بشرط أن تكون له إقامة اعتيادية ومنتظمة بالمغرب، وأن يصرح داخل السنتين السابقتين لبلوغه سن الرشد برغبته في اكتساب هذه الجنسية، دون تمييز بناء على الانتماء الديني، ولم يضع أي شرط في هذا الباب بل ذهب أكثر من ذلك حين أقر للمغربي الجنسية الذي يتولى كفالة مولود ولد خارج المغرب من أبوين مجهولين مدة تزيد عن خمس سنوات، أن يقدم تصريحاً لمنح المكفول الجنسية المغربية. ومعلوم أن الشخص الذي يكتسب الجنسية المغربية يتمتع ابتداء من تاريخ اكتسابها بجميع الحقوق المتعلقة بالصفة المغربية، مع الاحتفاظ بالقيود الأهلية. وهي ضمانات للمجتمع وصيانة له، وحتى يتمكن هذا الأجنبي من الاندماج في المجتمع ومعرفة تقاليده، وقد نص المشرع على أن هذه القيود في الأهلية تتمثل في أن الأجنبي المتجنس يخضع طيلة خمس سنوات للقيود في الأهلية التالية:

1. لا يجوز أن تسند إليه وظيفة عمومية أو نيابة انتخابية يشترط فيمن يقوم بهما التمتع بالجنسية المغربية؛

2. لا يجوز أن يكون ناخبا إذا كانت الصفة المغربية شرطا للتسجيل في اللوائح الانتخابية.

على أنه يجوز أن يعفى من هذه القيود كلها أو بعضها بمقتضى ظهير فيما إذا خولت الجنسية بمقتضى ظهير، أو بموجب مرسوم يتخذه المجلس الوزاري فيما إذا خولت الجنسية بموجب مرسوم.

### الهجرة

اعتمد المغرب سياسة خاصة في الهجرة واللجوء، استطاع من خلالها أن يتبوأ الصدارة في هذا المجال لا على مستوى القارة الإفريقية فحسب بل يمكن القول بأنها الأولى على صعيد دول البحر الأبيض المتوسط إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الاقتصادية والامكانيات المادية والاقتصادية. وقد قال جلالة الملك محمد السادس نصره الله، في الخطاب الذي وجهه للأمم بمناسبة الذكرى الثامنة والثلاثين للمسيرة الخضراء: "إن العلاقات المتميزة التي تجمع المغرب بدول إفريقيا جنوب الصحراء، ليست سياسية واقتصادية فقط، وإنما هي في العمق روابط إنسانية وروحية عريقة.

واعتباراً للأوضاع التي تعرفها بعض هذه الدول، فإن عددا من مواطنيها يهاجرون إلى المغرب، بصفة قانونية، أو بطريقة غير شرعية، حيث كان يشكل محطة عبور إلى أوروبا، قبل أن يتحول إلى وجهة للإقامة.

وأمام التزايد الملحوظ لعدد المهاجرين، سواء من إفريقيا أو من أوروبا، فقد دعونا الحكومة لبلورة سياسة شاملة جديدة، لقضايا الهجرة واللجوء، وفق مقاربة إنسانية، تحترم الالتزامات الدولية لبلادنا وتراعي حقوق المهاجرين.

وتجسيدا للاهتمام الخاص الذي نوليه لهذا المجال، فقد حرصنا على تكليف قطاع وزاري بقضايا الهجرة.

ومما يكرس مصداقية المغرب في مجال حقوق الإنسان، التجاوب الواسع الذي لقيته هذه المبادرة من الأطراف المعنية مباشرة بهذه الإشكالية، وخاصة الدول الشقيقة جنوب الصحراء، ودول الاتحاد الأوروبي، ومختلف الفعاليات والمنظمات الأممية والجهوية والدولية، المعنية بظاهرة الهجرة وحقوق الإنسان.

وتعزيزاً لهذا التوجه، فقد قدم المغرب، على هامش الجمعية العامة للأمم المتحدة لهذه السنة، مبادرة "التحالف الإفريقي للهجرة والتنمية". وهي مبادرة تقوم على منظور إفريقي مشترك،

وعلى مبادئ إنسانية لقضايا الهجرة، وعلى المسؤولية المشتركة، بين دول المصدر والعبور والاستقبال، وكذا على الترابط الوثيق بين الهجرة والتنمية.

ولأن إشكالية الهجرة تهم كل الدول والشعوب، فإننا نناشد المنتظم الدولي للانخراط القوي في معالجة هذه الظاهرة، لتفادي ما تسببه من كوارث إنسانية، كالمأساة التي شهدتها، مؤخرا، سواحل جزيرة لامبيدوزا الإيطالية، والتي كان لها الوقع الأليم في نفوسنا جميعا<sup>1</sup>، إن المهاجرين الوافدين على المغرب غالبيتهم من غير المسلمين مع قلة من المسلمين من الدول العربية الإسلامية التي عرفت أحداثا كبرى خلال الربيع العربي وبالخصوص من سوريا، ومع ذلك فقد اجتمع المغرب في إيجاد حلول لهؤلاء المهاجرين دون تمييز بناء على الطائفية أو الدين، تعامل مع الجميع في إطار سياسة وطنية للهجرة وأعلن يوم 11 نونبر 2013 رسميا عن تسوية الوضعية الإدارية للأجانب المقيمين بشكل غير قانوني بالمغرب، وقد انبنت السياسة المغربية للهجرة واللجوء على أربع رهانات أساسية تمثلت في:

"الرهان الإنساني: احترام حقوق الإنسان، محاربة الميز، تدبير تدفقات المهاجرين، محاربة الاتجار في البشر

رهان الاندماج: تسهيل الولوج إلى النظام الصحي، تسهيل الولوج إلى التربية والتكوين، تسهيل الولوج إلى السكن، تسهيل الولوج إلى مناصب الشغل، التواصل والتحسيس

رهان السياسة الخارجية والحكامة: المسؤولية المشتركة، الحكامة الجهوية والدولية، تعزيز التعاون الجهوي والدولي

الرهانات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية: الهجرة كفرص للتنمية وليس عائق للتطور الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي.<sup>2</sup>

وقد عدل المرسوم 2.13.731 الصادر في 23 من ذي القعدة 1434 (30 سبتمبر 2013) بإحداث اللجنة الوزارية لشؤون المغاربة المقيمين بالخارج، بالمرسوم 2.14.963 الصادر في 4 جمادى الأولى 1436 (23 فبراير 2016)، وبناء على هذا التعديل أضيفت شؤون الهجرة لهذه اللجنة الوزارية وأصبحت تعنى بأوضاع المغاربة المقيمين بالخارج وبحقوق اللاجئين والمهاجرين

1 مقتطف من الخطاب الملكي السامي الذي وجهه جلالة الملك إلى الأمة يوم 06 نونبر، 2013 بمناسبة الذكرى 38 للمسيرة الخضراء

2 الاستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء، منشورات الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين بالخارج وشؤون الهجرة، الصفحة: 05



المقيمين بالمغرب بصفة قانونية كما تنص على ذلك المادة الثانية من المرسوم السالف الذكر، وقد نصت هذه المادة على أن من مهام هذه اللجنة:

" - السهر على تحقيق الالتقاء بين السياسات العمومية التي تضعها وتنفذها القطاعات الحكومية والمؤسسات العمومية في المجالات المتعلقة بشؤون المغاربة المقيمين في الخارج، وتلك المتعلقة بحقوق وواجبات المهاجرين واللاجئين وأفراد أسرهم المقيمين بالمغرب بصفة قانونية.

- التداول في تنفيذ وتبعية وتطوير السياسات الحكومية المتعلقة بشؤون المغاربة المقيمين في الخارج، وتيسير الاندماج الاجتماعي والتربوي والثقافي للمهاجرين واللاجئين وأفراد أسرهم المقيمين بالمغرب بصفة قانونية، واقتراح التدابير الكفيلة بتحسين أداء المرافق العمومية في هذا المجال.

- إعداد تقارير شاملة أو موضوعاتية متعلقة بشؤون المغاربة المقيمين في الخارج، وباللاجئين والمهاجرين الأجانب المقيمين بالمغرب بصفة قانونية، مع اقتراح التدابير الضرورية لتحسين الأداء العمومي في هذا المجال.

- اقتراح التدابير المتعلقة بالحماية الاجتماعية والمساعدة الطبية للمهاجرين واللاجئين وأفراد أسرهم<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث: التقاضي أمام محاكمهم الخاصة.

لقد حفظ التاريخ وثائق محققة تشير إلى اعتناء السلاطين المغاربة بغير المسلمين والدعوة إلى الحفاظ لهم على حقوقهم التي ضمنها لهم الشريعة الإسلامية، ومن هذه الوثائق التي وردت في كتب التاريخ كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله والذي جاء فيه:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ نَأْمُرُ مَنْ يَقِفُ عَلَى كِتَابِنَا هَذَا أَسْمَاءَ اللَّهِ وَأَعَزَّ أَمْرَهُ وَأَطْلَعَ فِي سَمَاءِ الْمَعَالِي شَمْسَهُ الْمَنِيرَةَ وَبَدَرَهُ مِنْ سَائِرِ خِدَامِنَا وَعَمَالِنَا وَالْقَائِمِينَ بِوُظَائِفِ أَعْمَالِنَا أَنْ يَعَامِلُوا الْيَهُودَ الَّذِينَ بِسَائِرِ إِيَالَتِنَا بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نَصَبِ مِيزَانِ الْحَقِّ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ فِي الْأَحْكَامِ حَتَّى لَا يُلْحَقَ أَحَدًا مِنْهُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الظُّلْمِ وَلَا يَضَامَ وَلَا يَنَالَهُمْ مَكْرُوهٌ وَلَا اهْتِضَامٌ وَأَنْ لَا يَتَعَدَوْا هُمْ وَلَا غَيْرُهُمْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ لَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَا فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْ لَا يَسْتَعْلَمُوا أَهْلَ الْحَرْفِ مِنْهُمْ إِلَّا عَنْ طِيبِ أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى شَرْطِ تَوْفِيقِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَى عَمَلِهِمْ لِأَنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ لَا نُوَافِقُ عَلَيْهِ لَا فِي حَقِّهِمْ وَلَا فِي حَقِّ

1 المادة الثانية من المرسوم عدد: 2.14.963 - الجريدة الرسمية عدد: 6347 بتاريخ: 30 مارس 2015

غَيْرِهِمْ وَلَا نَرْضَاهُ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ سَوَاءٌ وَمَنْ ظَلَمَ أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ تَعَدَّى عَلَيْهِ فَإِنَّا نَعَاقِبُهُ بِحَوْلِ اللَّهِ وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ وَأَوْضَحْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ كَانَ مَقْرَرًا وَمَعْرُوفًا مُحَرَّرًا لَكِنْ زِدْنَا هَذَا الْمَسْطُورَ تَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا وَوَعِيدًا فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ ظَلْمَهُمْ وَتَشْدِيدًا لِيُزِيدَ الْيَهُودَ أَمْنًا إِلَى أَمْنِهِمْ وَمَنْ يُرِيدُ التَّعَدِّيَ عَلَيْهِمْ خَوْفًا إِلَى خَوْفِهِمْ"<sup>1</sup>

ومن بين الحقوق التي ضمنها السلاطين لغير المسلمين، حق التقاضي أمام محاكمهم الخاصة بالمغرب وسأتناول في هذا المطلب القضاء العبري بالمغرب كمثال على ذلك.

لقد عرف المغرب منذ زمن طويل الدعوة إلى احترام معتقدات غير المسلمين مستلهمين الوصايا التي أوصى بها الشرع في التعامل مع أهل الكتاب، واستفاد من ذلك أهل الكتاب من اليهود لأنهم كانوا الأكثر عددا في المغرب منذ القدم، ومع التسامح الديني الذي امتاز به الإسلام وعرفه المغاربة ومن أجل خلق جو متميز للتعايش في سلام ووثام، فقد تركت للجماعات اليهودية التي تعيش في المغرب الحرية في فض النزاعات التي تعرض لأفراد هذه الجماعة من دعاوى تتعلق بالأحوال الشخصية والإرث، وقد مكنتهم السلطة المغربية من التقاضي على يد حاخاماتهم في كل ما له صلة بالنزاعات ذات الطابع الديني المرتبطة بنظام أحوالهم الشخصية والميراث.

لقد اهتم القضاء العبري بالأحوال الشخصية لليهود المغاربة وقد عرف تطورا ملحوظا منذ ما قبل الاستقلال إلى اليوم، ومن أول النصوص القانونية المتعلقة بالقضاء العبري:

- ظهيران مؤرخان في 11 شعبان 1336 الموافق 12 ماي 1918 ينصان على إعادة تنظيم المحاكم العبرية والتوثيق الاسرائيلي في المنطقة الجنوبية من المملكة المغربية.
- ظهير مؤرخ 21 رجب 1342 (15 فبراير 1925) بشأن تنظيم المحكمة العبرية والتوثيق العصري في طنجة.
- 20 ظهير خليف في مؤرخ في 27 رمضان 1346 (20 مارس 1928) بشأن تنظيم المحاكم العبرية والتوثيق الإسرائيلي في المنطقة الشمالية.
- الظهيران المؤرخان في 22 مايو 1918، نصا على إنشاء المحاكم العبرية في المدن والموانئ المغربية التي تعين بمقتضى قرار وزيري، ويشمل اختصاص هذه المحاكم

1 الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - الدولة العلوية، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر الناصري محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، الصفحتان: 113 و114.

النظر في جميع المسائل التي تدور حول قانون الأحوال الشخصية والإرث للإسرائيليين المغاربة.

- الظهير الصادر سنة 1925 الذي أنشأ محكمة عبرية في منطقة طنجة.
  - الظهير الصادر في 25 ذي الحجة 1345 الموافق 25 يونيو 1927 بإحداث محكمة للاستئناف بطنجة أنيط بها النظر في الأحكام الصادرة في الدرجة الأولى عن المحكمة العبرية في طنجة.
  - ظهير خليفي مؤرخ في 27 رمضان 1346 الموافق 20 مارس 1928 لتنظيم المحاكم العبرية في المنطقة الشمالية أيام الحماية الإسبانية.
- وقد استمر الاعتناء بالقضاء العبري في مرحلة الاستقلال وأصدرت مجموعة من النصوص القانونية في ذلك، وكان من أهمها:
- ظهيران شريفان بتاريخ 15 مارس 1957 يرميان إلى تحديد عدد المحاكم العبرية بالمغرب<sup>1</sup>.

وتنظمت المحاكم العبرية في هذه المرحلة "على درجتين: المحاكم الأولية والمحكمة العليا. كما أنشئت مجالس للأخبار المفوضين في المدن التي لم يكن فيها محكمة ابتدائية"<sup>2</sup>

بعد ذلك عمل المغرب على توحيد المحاكم شمل إعادة التنظيم جميع النظام القضائي المغربي، وأصبح القضاء العبري مكونا من "محاكم عبرية: تنظر هذه المحاكم في الأحوال الشخصية والإرث للمغاربة الإسرائيليين وتتألف من الهيئات التالية: أ - محاكم الحاخامات المفوضين، ب - المحاكم العبرية الإقليمية، ج - المحكمة العبرية العليا بالرباط"<sup>3</sup>.

وفي 26 يناير 1965 صدر قانون رقم 3.64 بتاريخ 22 رمضان 1384 يتعلق بتوحيد المحاكم المغربية ألغيت بموجبه ضمينا المحاكم العصرية والمحاكم الشرعية والمحاكم العبرية ليصبح التنظيم القضائي المغربي مكونا من محاكم السدد والمحاكم الإقليمية ومحاكم الاستئناف والمجلس الأعلى، ونص الفصل الثالث من هذا القانون على أن: "القضايا الشرعية والعبرية تصبح

1 مطوية: القضاء العبري بالمغرب - ورقة تعريفية، وزارة العدل - محكمة الاستئناف بفاس.

2 مجلة: دعوة الحق، وزارة الأوقاف - الرباط، العدد الخامس، رجب 1379 يبرابر 1960، الصفحة: 27.

3 نفسه، الصفحتان: 30 و31.

في الدرجة الأولى من اختصاص محاكم السدد وفي الدرجة الثانية من اختصاص المحاكم الإقليمية.<sup>1</sup>

إلى يومنا هذا تضم المحكمة الابتدائية بالدار البيضاء الغرفة العبرية الخاصة بتقاضي المغاربة اليهود بها، و"مجلد القضايا المعروضة على هذه الغرفة، قضايا متعلقة بالأحوال الشخصية، قضايا الطلاق والإرث والوصايا. والملفات التي ينظر فيها هي فقط تلك التي يكون أطرافها يهودا من أصول مغربية. أحيانا قد يكون أطراف القضية مقيمين بالخارج، لكنهم يأتون إلى المغرب لأن أملاكهم موجودة بالمغرب، مثل قضايا الإرث. لذلك فإن أغلب القضايا المعروضة على هذه الغرفة هي قضايا متعلقة بالإرث، أما ملفات الطلاق فهي نادرة، لأن الزواج اليهودي بالمغرب يقل يوما بعد يوم. أما النزاعات المدنية فليست من اختصاص هذه الغرفة، وهناك غرفة في مراكش وأخرى في طنجة، ومجموع القضايا اليهود في المغرب سبعة قضاة، وهذا أقل ما يجب، حيث يجب خلال الحكم الابتدائي أن يكون هناك ثلاثة قضاة، وإذا ما كان هناك استئناف يجب أن يقوم بالبت فيه ثلاثة قضاة آخرين غير الذين بتوا في الحكم الابتدائي".<sup>2</sup>

إن المغرب تفتن مبكرا إلى التأسيس للتعايش السلمي بين المسلمين وغير المسلمين، ويمكن غير المسلمين من حقهم في التقاضي أمام محاكمهم الخاصة، في الأمور المرتبطة بالزواج والطلاق والميراث وعموم أحوالهم الشخصية، والتي لا تؤثر بأي شكل من الأشكال على المسلمين أو غير المسلمين من الطوائف الأخرى.

## الخاتمة

يمكن إجمال أهم نتائج هذا الدراسة في:

■ الدستور المغربي كرس مبادئ حقوق الانسان وفي تعامله مع المواطنين لم يفرق بين مسلم وغير مسلم، كما أنه حظر كل أشكال التمييز، بسبب الجنس أو اللون أو المعتقد أو الثقافة أو الانتماء الاجتماعي أو الجهوي أو اللغة أو الإعاقة أو أي وضع شخصي، مهما كان، وجعل من الثوابت الجامعة تعدد الروافد، كما منع تأسيس الأحزاب على أساس ديني، وأكد على أن كل السكان - أي سكان المغرب - هم تحت حماية الدولة دون تمييز في العرق أو الدين، كما نص الدستور على أنه لا يجوز لأحد أن يعامل الغير تحت أي ذريعة معاملة قاسية ولا إنسانية، كما أنه

1 قانون رقم 3.64 بتاريخ 22 رمضان 1384 26 يناير 1965، الفصل: 03.

2 <http://eljadida.over-blog.com/article-96197238.html> بتصرف

- أي الدستور - يحظر كل تحريض على العنصرية أو الكراهية أو العنف، وزيادة في انفتاح الدستور فقد نص على تمتع الأجانب بالحريات الأساسية المعترف بها للمواطنين والمواطنات المغاربة، وفق القانون. ويمكن للأجانب المقيمين بالمغرب المشاركة في الانتخابات المحلية، بمقتضى القانون.

■ لم يميز القانون المغربي المتعلق بالهجرة وإقامة الأجانب بالمملكة المغربية وبالهجرة غير الشرعية بين مسلم وغير مسلم.

■ لم يميز القانون المغربي المتعلق بالجنسية والتجنس بين مسلم وغير مسلم

■ اعتمد المغرب سياسة خاصة في الهجرة واللجوء، استطاع من خلالها أن يتبوأ الصدارة في هذا المجال لا على مستوى القارة الإفريقية فحسب بل يمكن القول بأنها الأولى على صعيد دول البحر الأبيض المتوسط إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الاقتصادية والامكانات المادية والاقتصادية، وقد بنيت هذه السياسة على أربع رهانات: الرهان الإنساني، رهان الاندماج، رهان السياسة الخارجية والحكامة، الرهانات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

■ المغرب تفتن مبكرا إلى التأسيس للتعايش السلمي بين المسلمين وغير المسلمين، ويمكن غير المسلمين من حقهم في التقاضي أمام محاكمهم الخاصة، في الأمور المرتبطة بالزواج والطلاق والميراث وعموم أحوالهم الشخصية، والتي لا تؤثر بأي شكل من الأشكال على المسلمين أو غير المسلمين من الطوائف الأخرى. والظواهر الشريفة الصادرة في هذا الشأن شاهدة على ذلك.

وصل اللهم وسلم على سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

والحمد لله رب العالمين

## لائحة المصادر والمراجع

- دستور المملكة المغربية، إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية بمديرية الشؤون الجنائية والعفو - وزارة العدل والحريات، سلسلة نصوص قانونية - شتنبر 2011 العدد 19.
- الخطاب الملكي السامي الذي وجهه جلالة الملك محمد السادس نصره إلى الأمة مساء يوم الجمعة 17 يونيو 2011.
- الخطاب الملكي السامي الذي وجهه جلالة الملك إلى الأمة يوم 06 نونبر، 2013 بمناسبة الذكرى 38 للمسيرة الخضراء.
- الجريدة الرسمية عدد: 5160 بتاريخ: 13 نونبر 2003
- الجريدة الرسمية عدد: 6347 بتاريخ: 30 مارس 2015
- القانون رقم 3.64 بتاريخ 22 رمضان 1384 26 يناير 1965.
- الاستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء، منشورات الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين بالخارج وشؤون الهجرة.
- الإسلام والأقليات الماضي.. والحاضر.. والمستقبل، محمد عمارة، دار السلام، الطبعة الأولى
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - الدولة العلوية، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر الناصري محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء.
- مجلة: دعوة الحق، وزارة الأوقاف - الرباط، العدد الخامس، رجب 1379 فبراير 1960.
- مطوية: القضاء العبري بالمغرب - ورقة تعريفية، وزارة العدل - محكمة الاستئناف بفاس.
- بتصرف <http://eljadida.over-blog.com/article-96197238.html>

## القانون العرفي من منظور تداولي

د. يونس حسايني

باحث في التداوليات القانونية وتحليل الخطاب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان

المغرب



### ملخص:

نسعى في هذا البحث إلى التعريف بالخطاب / القانون العرفي (Discours coutumier) - بوصفه خطابا تداوليا بامتياز، الذي يُعد بمنزلة مصدر تشريعي رئيس لمختلف الأنماط اللغوية القانونية، ونقصد، تحديدا، الخطاب التشريعي والخطاب القضائي؛ إذ نجد الخطاب العرفي حاضرا بقوة في الخطابين معا، على الرغم من تباين بعض خصائصه؛ من قبيل: "الشفاهية" (L'oralité)، والتسبب الزمني أو "الأقدمية" (L'ancienneté)؛ فهذا النمط الخطابي غير محدد من جانب الزمن، بالإضافة إلى اعتماده خصيصا "الخيال" (L'imagination) بشكل كبير، عكس بقية الخطابات القانونية... بيد أنه، على الرغم من التباين المذكور، إلا أنه خطاب يشترك مع غيره من الخطابات اللغوية القانونية الأخرى؛ من حيث كونه "ملفوظا لغويا" (Énoncé linguistique)، و"خطابا توجيهيا" (Discours directif) بالدرجة الأولى، وخطابا يتبنى "الإيجاز اللغوي" (La concision linguistique)، و"خطابا انتقائيا" (Discours sélectif)؛ أي إنه خطاب ينحو، في تشكيل خطابه وقواعده، منحنى انتقائيا؛ من خلال انتقاء مفرداته وعباراته... تجنبا للمصطلح الغامض والفضفاض والغريب، وعملية الانتقاء هذه كما هو معلوم - ليست بالأمر السهل؛ فهي تنزل منزلة "الفن"؛ ومن ثم، فكل من يستطيع انتقاء مفرداته، وإبداع مصطلحاته، وإنتاج خطابه (ولاسيا إذا كان هادفا)، فهو - بالضرورة - فنان. **كلمات مفتاحية:** الخطاب العرفي - القانون العرفي - تداوليات الخطاب - الملفوظ اللغوي - القول المأثور.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسايني، يونس. (2024، أكتوبر). القانون العرفي من منظور تداولي. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 292-310.

### Abstract:

In this research, we seek to familiarize ourselves with customary discourse/law - as pragmatic discourse with distinction - which is a statutory source of key to various legal linguistic patterns, namely, legislative and judicial discourse; While customary discourse is strongly present in both discourses, although some of its characteristics, such as "oral", chronological or "seniority", vary, this rhetorical pattern is not time-bound, in addition to adopting a "fantasy" speciality in a large way unlike the rest of the legal discourse... Notwithstanding the divergence mentioned, however, it is a speech that shares with other legal language speeches, in that it is "linguistic", "orientation", "linguistic briefness" and "selective discourse", in the sense that it tends to build and shape its rhetoric and rules selectively through the selection of its vocabulary and phrases... In order to avoid the ambiguous, loose and bizarre term, this selection process - as is known - is not easy, it relegates the position of "art", and thus, everyone who can select its vocabulary, create its terminology and produce its speech (especially if it is meaningful) is - necessarily - an artist.

**Keywords :** Customary Discourse-Customary Law-Discourse Pragmatics-Linguistic Memorized-Adage.

## تمهيد

يعد "الخطاب العرفي" ثالث الأنماط الخطابية القانونية -في إطار ما اصطلاحنا عليه بـ"التعددية الخطابية في القانون" (La pluralisme discursive en droit) إلى جانب الخطاب التشريعي والخطاب القضائي-؛ الذي نادرا ما نسمع عنه في الساحة العلمية القانونية<sup>1</sup>، ولعل مرد ذلك -على الأقل في تصورنا- إلى أنه خطاب تنقصه الدقة العلمية، ويغلب عليه طابع البداهة، ناهيك عن خاصية الشفاهية، التي تميزه عن باقي الأنواع الخطابية القانونية الأخرى...

وعلى الرغم من مجموع هذه النقائص، التي تُلصَق عادة بالأقوال المأثورة، إلا أنه لا يمكن التغاضي عن أهميتها التاريخية والتأسيسية كمصدر رئيس لجميع الخطابات. فعامل السبق الزمني حاضِر وبِقوة، بل محسوم لصالح القانون/ الخطاب العرفي، وكذا التأثير الكبير الذي مارسه على مختلف الخطابات اللاحقة عليه. وقد أشار "جيرار كورني" (Gérard Cornu) إلى أهمية الأقوال المأثورة (Les adages (= الأعراف والعادات)؛ لكونها تمثل كنز القانون (Le trésor du droit)؛ وكونها "تأتي من القدماء، ومن أجدادنا وآبائنا، فهي تأتي من أعماق العصور الماضية. وتمثل الأقدمية (L'ancienneté) العلامة الجوهرية لهذا الكنز.. إنه بمثابة مستودع

<sup>1</sup> - تعرف الساحة العلمية القانونية عادة ثلاثة أنواع من الخطابات، وهي السائدة إلى حدود وقتنا هذا؛ وإلى لحظة اطلاعنا على مصنف "جيرار كورني" (Gérard Cornu) الموسوم بـ"اللسانيات القانونية" (Linguistique juridique)، وهي كما يأتي:

1. الخطاب التشريعي (نسبة إلى اللغة التشريعية التي يصوغ بها المشرع نصوصه)؛
2. الخطاب القضائي (نسبة إلى اللغة القضائية المستخدمة في المحاكم)؛
3. الخطاب العلمي (ويراد به الخطاب الذي يمارسه رجال القانون، سواء في الجامعات عن طريق المحاضرات، أو في الكتب والمجلات العلمية وغيرها). وهذا الأخير -نقصد الخطاب العلمي- هو الغائب عن مصنف "جيرار كورني"، ولعل مرد ذلك إلى أن "كورني" لا يرى أن اللغة العلمية ترقى إلى مستوى الخطاب، أو لربما يرى في الخطاب العلمي خطابا حديث العهد، عكس الخطاب العرفي، أو لربما أيضا -وهو الراجح لدينا- أنه يرى أن الخطاب القانوني الفرنسي يغلب عليه الخطاب العرفي أكثر من غيره؛ لكونه متأثرا بالقانون اللاتيني (اللغة اللاتينية)؛ حيث معظم المصطلحات القانونية مأخوذة من هذه اللغة، التي هي، في مجملها، أعراف وأقوال مأثورة، بل يرى أن العمق اللاتيني أغنى من العمق الفرنسي.. (Gérard Cornu, Éditions Montchrestien, (3<sup>ème</sup> édition), Paris, 2005, p. 409). كما تُرجع تشيبت "كورني" بهذا النوع الخطابي إلى نظرتيه التاريخية الثاقبة، التي سادت -وما زالت- المجتمع الأوروبي؛ إذ في هذا الأخير كانت المؤسسة العرفية هي القائمة على تنظيم سلوك أفرادها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا... فإلى يومنا هذا، هناك الكثير من الدول التي تتبنى دساتير عرفية؛ أي غير مدونة (أي ليست من وضع سلطة مختصة)، ومن بين هذه الدول: إنجلترا (باعتبارها المثال التقليدي للدول ذات الدساتير العرفية)، والهند. وهذا لا يعني -كما يرى الكثيرون- أن الدساتير العرفية هي دساتير غير مكتوبة أو غير مدونة في شكل قواعد قانونية، وإنما المقصود بذلك التعبير أن جل قواعد مصدرها أعراف. وقد تساءل "كورني" عن مصدر هذه الأعراف، التي هي -في أصلها- أقوال مأثورة Les adages، وعن وضعها الآن اليوم، وهل تشهد هذه الأعراف بدورها تغييرات وتبدلات ترافق التغييرات التي تعرفها المعايير والقيم الأخلاقية التي تنظم السلوك الإنساني.



القوليات (Dépôt de maximes)، وإرث من التقاليد. فهي أقوال مدفونة في الذاكرة الجماعية، التي تسمح لنفسها بأن تتم إعادة اكتشافها، وهي ما زالت تعيش بيننا بتكتم وسرية، ولكن بسرور<sup>1</sup>.

كما أكد الرجل نفسه على مسألة أساسية، تكمن في أن المأثورات اللاتينية (Les adages latins) مارست تأثيرها بشكل شبه كوني، بحيث عمدت بعض الدول الجرمانية مثلا، إلى تلقي القانون الروماني كقانون. وهو الأمر نفسه الذي عرفتة إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول، بل إن هذا التأثير ظل حاضرا وساري المفعول إلى اليوم. فاعتماد هذه الدول -وكذا مستعمراتها- على القانون الروماني، قد حفز الإبداع العرفي، بدلا من العمل على تهميشه، بل وتعجيزه في هذه البلدان المضيفة<sup>2</sup>.

ولتأكيد مدى حقيقة تأثير المدونات والقواعد القانونية بالمأثورات اللاتينية، ومن بينها "المدونة التونسية للالتزامات والعقود"، ذات الأصل اللاتيني في الحقيقة، قدم "جيرار كورني" مجموعة من الأقوال المأثورة في شكل قواعد قانونية<sup>3</sup>. وكمثال على ذلك، نذكر ما نصت عليه المادة 554 من المدونة التونسية من أن: "الشخص الذي لديه فوائد لديه أعباء ومخاطر"<sup>4</sup>، والمادة 552 منها، التي تنص على أنه "لا أحد يستطيع أن يعطي مجانا إذا كان معسرا"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - «Nous le tenons des Anciens, de nos aïeux, de nos pères. Le fond des adages vient du fond des âges. L'ancienneté est une marque essentielle de ce trésor. C'est un "dépôt de maximes", un héritage, un legs de la tradition... Enfouie dans la mémoire collective, elle se laisse volontiers redécouvrir. Aujourd'hui, elle vit encore parmi nous, discrètement, mais allègrement». (G. Cornu, Linguistique juridique, p. 361).

<sup>2</sup> - Gérard Cornu, Éditions Montchrestien, (3<sup>ème</sup> édition), Paris, 2005, p. 361.

<sup>3</sup> - عدنا إلى المدونة التونسية، التي تم سنّها عن طريق مرسوم في 15 ديسمبر 1906، وتجميعها في كتاب واحد في شكل مدونة، يضم كتابين اثنين: يتكون الأول من المواد من 1 إلى 717، وهي مواد تتعلق بالالتزامات، والثاني فيه المواد 718 إلى المادة 1632، وهي مواد تتعلق بالعقود وأشباه العقود. وقد تناول "جيرار كورني" المواد القانونية التي هي -في الأصل- مأثورات لاتينية، معظمها أقوال تفيد الالتزامات (الكتاب الأول)؛ وتحديدا في الفقرة الثانية، تحت عنوان "بعض القواعد العامة للقانون" (من المادة 532 إلى المادة 563 من "المدونة التونسية للالتزامات والعقود).

- Code tunisien des obligations et des contrats, paragraphe 2 de quelques règles générales de droit (version française), art: de 532 à 563. Publications de l'imprimerie officielle de la république Tunisienne, 2010. P. 139-143.

<sup>4</sup> - «Celui qui a les avantages a les charges et les risques» = «Ubi emolumentum, ibi onus». (G. Cornu, Linguistique juridique, p. 361).

<sup>5</sup> - «Nul ne peut donner gratuitement s'il est insolvable» = «Nemo liberalis nisi liberatus». (Ibidem).

وقد عالج "جيرار كورني" الخطاب العرفي<sup>1</sup> -في مصنفه المشار إليه سابقا- من خلال زاويتين، وذلك في قسمين؛ ينظر الأول، منظورا إلى القول المأثور بوصفه خطابا قانونيا، والثاني ينظر إليه بوصفه ملفوظا لغويا.

### أولا- القانون العرفي بوصفه خطابا قانونيا

يتمتع القول المأثور بجملة خصائص، عدّها "جيرار كورني" خصائص أساسية؛ لأنها هي التي تجعل منه خطابا قانونيا، أو تجعل منه -على الأقل- نوعا معينا من الخطاب. وأولى هذه الخواص أنه ذو طبيعة شفاهية، وأن وظيفته تعليمية. ولذلك، يمكن القول -بإيجاز شديد- إن "كل قول مأثور هو درس شفاهي"<sup>2</sup>. وثانيها أنه لا يلزم مكانا واحدا في القانون ككل، وإنما عادة ما يجعل الخطاب نفسه مسموعا؛ إذ "القول المأثور حاضر في القانون ككلام حكمة"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - إن ما دفعنا إلى إدراج الخطاب/القانون العرفي ضمن البنية الخطابية القانونية، يرجع -في الأساس- إلى أهميته الكبيرة التي يكتسبها، إلى جانب بقية الأنماط الأخرى. وتتجلى أهميته، بشكل عميق، في جعل العرف (Coutume) مصدرا رئيسا في المنظومة القانونية ككل، وتظهر صدارته جليا -في بعض المسائل- حتى في الشريعة الإسلامية، إذا ما استثنينا هنا فقه الأسرة "مدونة الأحوال الشخصية"، ومستوى المعاملات المالية و العقود، أو ما يعرف اليوم بـ"قانون الالتزامات والعقود"، بل هناك دول -كما أشرنا إلى ذلك سابقا- تجعل من العرف المصدر الأساس في كل جوانب تنظيماتها القانونية؛ لما للعرف من قدرة على ضبط السلوك الاجتماعي للفرد والمجتمع بأسره؛ إذ العرف يعد قوة إلزامية ضابطة، تفرض الالتزام بتلك القواعد العرفية المتعارف عليها في المجتمع، وبشكل طوعي؛ لكون أفراد المجتمع هم من يُضفون على العرف هذه القيمة/ القوة الإلزامية الطوعية؛ ولذلك، ذهب بعض رجال القانون إلى القول إن "القاعدة العرفية أقوى من القاعدة القانونية". ينظر: سمير شريف استيتية، اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، إربد - جدارا للكتاب العالمي، إربد/عمان، ط 2، 2008، ص 494. وهو ما ألمح إليه "كورني" في مناسبات كثيرة: الأمر الذي لا يتعارض مع الفقه الإسلامي، بل يؤيده؛ بحيث يعتبر "العادة أو "العرف" دليلا من الأدلة المعتبرة، إذا ما توافرت شروطها وضوابطها، وأهم ضابط، يتم التحقق منه، ألا يكون هناك حكم شرعي ينص على خلاف ما تنص عليه العادة أو العرف، وهو ما تلخصه القاعدة الفقهية الآتية: "العادة محكمة"، التي من شروطها أن تكون سابقة؛ فلا عبء بالعرف الطارئ. ينظر: أحمد بن محمد الزرقا، شرح القواعد الفقهية، تحرير: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط 2، 1989، ص 219. وقد نَظَمَ الشيخ عبد الرحمان بن ناصر النجدي الحنبلي هذه القاعدة قائلا:

وَالْعُرْفُ مَعْمُولٌ بِهِ إِذَا وَرَدَ \*\*\* حُكْمٌ مِنَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ لَمْ يُحْدَ

- ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي النجدي الحنبلي، القواعد الفقهية (المنظومة وشرحها)، تقديم: محمد بن ناصر العجي، إصدار: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطاع المساجد، إدارة مساجد محافظة الجبراء، الكويت، ط 1، 2007، ص 138. وكذا القاعدة الفقهية القائلة: "المعروف عرفا كالمشروط شرطا". (شرح القواعد الفقهية، ص 237). وبالإضافة إلى القاعدتين السالفتين، هناك قاعدة فقهية ثالثة، تنص على ترجيح العادة أو العرف كقاعدة فقهية تفيد الإلزام طوعا، وهي: "استعمال الناس حجة يجب العمل بها"؛ فالمراد بعبارة "استعمال الناس" هو نفس المراد بالعادة. (المرجع نفسه، ص 223). ونضيف أيضا قاعدتين فقهيتين، تدلان كذلك على العمل بالعرف أو العادة، كتأكيد على التوافق الحاصل بين القواعد القانونية العرفية والقواعد الفقهية، وهما: "العبرة للغالب الشائع لا للنادر"، و"المعروف بين التجار كالمشروط بينهم". (المرجع نفسه، ص 235-239).

<sup>2</sup> - «Tout adage est une leçon orale». (G. Cornu, Linguistique juridique, p. 385).

<sup>3</sup> - «L'adage est présent dans le droit comme une parole de sagesse». (Ibidem).

إن القول بشكل عام، والقول المأثور بشكل خاص، بطبيعته، قول غير مكتوب؛ مما يعني أنه قيل في زمن ما قديم، ثم تكرر وتواتر. وبتعبير آخر، فإن الأقوال المأثورة هي عبارات أو كلمات منطوقة أولاً، انتقلت من جيل إلى آخر شفاهياً؛ فهي، بذلك، تنتهي إلى التعبير الشفاهي والإرث الشفاهي<sup>1</sup>. وإن "المأثورات القانونية تعبر عن قواعد عرفية. والقواعد التي يعلنونها هي -في الأصل- قواعد عرفية المصدر"<sup>2</sup>. وهذا لا ينطبق على الأقوال المأثورة للقانون فقط -التي غالباً ما تكون جملاً (Phrases)، من أصل لاتيني في مجملها-، بل، على القول الأكثر شعبية أيضاً، الذي يأتي من الممارسة. ومن ثم، يكون "المأثور القانوني هو خطاب عرفي"<sup>3</sup>.

ويرى "كريستيان مولر" (Ch. Muller)، في دراسة له بعنوان "الأعراف والقانون العرفي في الفقه المالكي"، أن مصطلح "العرف" يشير إلى تلك الممارسات الاجتماعية المتكررة، التي تنسب إليها الجودة المعيارية<sup>4</sup>. وفي إطار تمييزه بين القانون العرفي وباقي القوانين أو الخطابات القانونية، يؤكد أن القانون العرفي قانون ناتج عن ممارسة طويلة ودائمة، يطبق في مجتمع قانون، عكس الخطابات القانونية التي تتضمن حقوقاً، لكنها ناتجة عن سلطة مشروعة بشكل خاص (هذه السلطة قد تتمثل في الدولة أو في غيرها). ووفقاً للقول السائد "الفعل أو السلوك مرة واحدة ليس بعادة"، فإن القانون العرفي يختلف بذلك عن "العادة الخالصة والبسيطة" (L'habitude pure et simple)، لكن كليهما يقوم على الممارسات الاجتماعية<sup>5</sup>.

يشير كلا المصطلحين التجريديين "العرف" و"العادة" إلى ممارسات اجتماعية، ننسبها إلى الحياة الطبيعية، دون استيعابها بالكامل من قبل "النظام المعياري للقانون المقدس" (Le système normatif du droit sacré). وعلى هذا الأساس، اكتسب استخدام العرف -حسب مولر- أهمية رسمية في الخطاب القانوني، بموجب الشروط الفنية للعرف والعادة، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بتفسير القضايا القانونية في مجموعات فتاوى، وكذا في التعليقات القانونية<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - G. Cornu, Linguistique juridique, p. 385.

<sup>2</sup> - «Les adages juridiques expriment des règles coutumières. Les règles qu'ils énoncent ont pour source la coutume». (Ibidem).

<sup>3</sup> - «L'adage juridique est un discours coutumier». (Ibidem).

<sup>4</sup> - Ch. Muller, Us, Coutumes et droit coutumier dans le Fiqh Maliki, trd: Rania Abdellatif. Cet article a été publié une première fois sous le titre "Sitte, Brauch und Gewohnheitsrechte im malikitischen fiqh", 2012, p. 35-54. <https://cutt.us/EsCJQ>

<sup>5</sup> - Ch. Muller, Us, Coutumes et droit coutumier dans le Fiqh Maliki, p. 35-54.

<sup>6</sup> - Ibidem.

وبالعودة إلى الخاصية الجوهرية التي يتميز بها القول المأثور، ونقصد "الشفاهية" (l'oralité)، نجد أنه يعارض بحكم الأصل والطبيعة، القانون المكتوب؛ مما لا يجعل منه نصاً قانونياً، ولا نسيجاً تشريعياً. فالقانون عندما يستعبر ملفوظ القول المأثور من العرف، فإن القاعدة العرفية تحوز المفعول والتأثير القانوني ((الصيغة القانونية))، ولكن مع الاحتفاظ بالأصل الكامن في تجميع أجزاء النص القانوني<sup>1</sup>.

إن خاصية الشفاهية بمثابة علامة مشتركة بين جميع المأثورات، التي هي أقوال تنطلق من الفم لتستقر في الأذن. كما عدّ جيرار كورني "القول المأثور درساً [كما رأينا سابقاً]، والغرض من أي قول مأثور هو الإرشاد"<sup>2</sup>. وتعد علامة الإرشاد هذه، بدورها، علامة مشتركة بين جميع المأثورات، وهذه الوظيفة الأصلية في القول هي التي تشكل محتوى الخطاب، بل تحدد كذلك نوع الرسالة التي يقدمها القول المأثور؛ أي رسالة التعليم (Message d'enseignement). وعليه، يصبح القول المأثور، عن طريق هذه الوظيفة المسندة إليه، نوعاً أدبياً، يتم تلقيه من داخل الملفوظات القانونية؛ لتعليم المحامين، ومنحهم ذلك الحس السليم، الذي يكون أساسه الأخلاق، أو تلقيهم مفاهيم جوهرية تساعد على أداء مهامهم في المجال القانوني تحديداً؛ كالعدل والإنصاف والحكمة والعقلانية...؛ مما يجعل القول المأثور، إضافة إلى كونه درساً ملقناً، يمنح لنفسه ثمرة الحكمة، فهو، في نهاية المطاف، ينتمي إلى حقل الأدب. ولذلك، فالقول المأثور هو كلام (Parole) حكمة، يتم تمريرها بقوة العرف<sup>3</sup>.

علاوة على ما تم ذكره من خصائص، نقف أيضاً على خاصية أخرى، تتمثل في نوعية المخاطب بالقول المأثور، بوصفه مخاطباً عاماً، يشمل الحاضر والمستقبل. وهو، بهذا، يشبه القانون تماماً في خاصية التعميم والتجريد التي تقدم بيانها في البحث، من حيث كونه رسالة موجهة إلى أي مستمع أو مُتَلَقٍ<sup>4</sup>، ويروم تحقيق استمرارية لانهائية، أي إن مدته غير محددة (Indéfinie)، وهي جزء من رسالته الطبيعية. وعموماً، يلعب الزمن دوراً أساسياً في تكوين الأقوال المأثورة، بيد أن زمنها ليس مثل زمن القانون؛ فإذا كانت رسالة القول المأثور تنطلق من الماضي نحو الحاضر، فإن رسالة القانون تبدأ من حيث انتبى القول المأثور؛ أي من الحاضر في اتجاه المستقبل. ويشير صاحب المصنف؛ "جيرار كورني"، بشأن زمن القول المأثور، إلى أنه يتم استدعاؤه

<sup>1</sup>- G. Cornu, Linguistique juridique, p. 385.

<sup>2</sup>- «L'adage est une leçon. La vocation de tout adage est d'instruire». Ibid., P. 387.

<sup>3</sup>- G. Cornu, Linguistique juridique, p. 387.

<sup>4</sup>- «L'adage s'adresse à tous et à venir...», la loi aussi est un message à tout entendeur». (Ibidem).

(القول المأثور) كتقليد (Une tradition)؛ فهو كلام عالق بالذاكرة، لا يمكن تجاوزه أو نسيانه. وفي الوقت الذي يتم استدعاؤه، فإن الإشارة إليه -وتأخذ صفة "التبجيل"- هي بمثابة عودة إلى الجذور الأولى؛ فهو درس يتم طلبه من الماضي، وقد شبّه هذه العملية بالعودة إلى القوانين القديمة المبجلة (المقدسة)؛ الأمر الذي يجعل منه درسا خالدا (Leçon intemporel)<sup>1</sup>. ويعزز "كورني" طرحه هذا بقوله إن "القول المأثور اليوم يأتي في الخطاب على شكل اقتباس؛ فهو خطاب داخل خطاب؛ خطاب الغير الذي يثري المتحدّث نفسه؛ إذ إن قوة القول المأثور يكتسبها تجديد، وذلك من خلال احترام التقليد، وأصبحت قيمته تُستمد من لدن من يستحضره، بعدما كان يستمدّها من قائله"<sup>2</sup> مباشرة.

ولأن القول المأثور درس خالد ولازمي (Intemporel)، فهو، أيضا، درس أساسي وتوجيهي، وتبرز محوريتته من كونه يضحي بكل التفاصيل الثانوية، بكل الملحقات؛ ف القانون خطابه يتغيّر الوصول مباشرة إلى الأساسيات. أما من ناحية كونه درسا توجيهيا -وترتبط هذه الخاصية ارتباطا شديدا بالخاصيتين السابقتين-، فلأن القول إذا ما استمر، فإنه يكون، من بين أسباب أخرى، مباشرا وتقريريا، وإذا كان كذلك، فلأنه يتمسك بالأساسيات والضروريات فقط. وهو توجيهي، لأنه يتوخى شد انتباه عقل المتلقي، وتثبيته في اتجاه واحد؛ لكي يكون نفاذ خطابه يسيرا. ولا يتم فعل التوجيه هذا إلا بالنظر إلى القول المأثور بوصفه ذا وظيفة خيالية، وذا نيات ومقاصد أساسية، أهمها ضمان الاستدامة La durabilité... فهذه الوظيفة، هي التي تجعلنا نفهم الطابع التقريبي، الذي كثيرا ما يلاحظ في المأثورات<sup>3</sup>.

كما يرى صاحب المصنف أن القول المأثور، عندما لا يعكس القانون بشكل كامل، فإنه يسعى آنذاك إلى فتح أفق التفكير، بدل السعي إلى إغلاقه. فالمفترض في القول المأثور -حسب "كورني"- أنه ذو وظيفة مساعدة فقط، تظهر بشكل جلي عند المناقشة، وأنه يحتج به كحجة داعمة؛ أي كحجة إضافية فقط، كما لو أنه لا يستطيع بمفرده التموّج في الخطاب على نحو

<sup>1</sup>- G. Cornu, Linguistique juridique, p. 387.

<sup>2</sup>- «Aujourd'hui, l'adage vient dans le discours comme une citation. C'est un discours dans un discours. Un discours d'autrui dont le locuteur enrichit le sien propre. La force de l'adage lui vient et lui revient du respect renouvelé de la tradition. L'adage tire sa valeur de celui qui l'invoque, après l'avoir tenu de celui qui l'avait dit». (Ibid., P. 388).

<sup>3</sup>- Ibid., Pp. 388-389.

يسمح له بتبؤء الصدارة. فهو يؤكد يُخفي أكثر مما يُظهر، وبتعبير آخر، فإنه يعبر عن حقيقة جزئية، لا مطلقة<sup>1</sup>.

إن هذه الخصائص، وغيرها، تؤكد أن القول المأثور -الذي يشكل جوهر الخطاب العرفي- يعد خطابا قانونيا مكتمل الأركان.

وبعد هذا التحليل المستفيض، نأتي إلى القسم الثاني، الذي ينظر إلى القول المأثور بوصفه ملفوظا لغويا (L'adage comme énoncé linguistique)، فما أبرز خصائصه هو الآخر؟

### ثانيا- القانون العرفي بوصفه ملفوظا لغويا

عدّ "جيرار كورني" القسم الأول، بمثابة الدراسة الأساسية، التي يجب الأخذ بها، والاعتماد عليها؛ قصد الوقوف عند مجموع القواسم المشتركة بين القانون والقول المأثور؛ الأمر الذي يكسب هذا الأخير قيمة قانونية بشكل من الأشكال، ولا يتم ذلك -حسب ما استخلصناه من كلام "جيرار كورني"- إلا من خلال منظورين: أحدهما شكلي، والآخر موضوعي.

#### من منظور شكلي:

يتجلى المنظور الشكلي في معالجة القول المأثور من زاوية كونه ملفوظا لغويا، منظورا إليه كنظام (Système) أو كنسق، لا باعتباره مفهوما تداوليا (= سياقيا)، وذلك خلال إحصائه خصائصه الشكلية، التي كثيرا ما تشبه الملفوظ القانوني من حيث الشكل<sup>2</sup> على الأقل.

إن الخصائص، التي تمّ الاعتراف بها بوصفها أساسية في الخطاب القانوني، تتوافق والخصائص التي تندرج بدورها في نطاق التحليل اللغوي. فشفافية القول المأثور؛ مثلا، هي التي تمنحه إمكانية توصيفه وفق خطاطة التواصل، والتعبير اللغوي الشفاهي -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- هو الوضع الأصلي والطبيعي للقول المأثور؛ لكونه يروم أن يكون درسا خالدا وأساسيا وتوجيهيا لا يتحقق إلا في تشكيله<sup>3</sup>. ولذلك، لا يراودنا شك في القول بأنه "يتم تعريف القول المأثور أساسا كنمط من الملفوظ. القول المأثور هو طريقة في التحدث. القول المأثور هو صيغة [نموذج]. وهو أسلوب، وأسلوب معين"<sup>4</sup>. هذا، وتضاف، إلى بقية خصائص القول المأثور، خاصيتان بارزتان،

<sup>1</sup>- G. Cornu, Linguistique juridique, p. 389.

<sup>2</sup>- G. Cornu, Linguistique juridique, p. 390.

<sup>3</sup>- Ibidem.

<sup>4</sup>- «L'adage se définit essentiellement comme un type d'énoncé. L'adage est une façon de parler. L'adage est une forme. L'adage est un style, un certain style». (Ibidem).

هما: الإيجاز (الاقتصاد)، والفن؛ فالإيجاز هو -في حد ذاته- تأثير ممارسة الفن، ويشير "جيرار كورني" إلى ذلك بقوله: إن "في القول المأثور هناك دائما الإيجاز والفن، الاقتصاد وعبقورية اللغة"<sup>1</sup>. فالقول المأثور من أهم خصائصه الشكلية أنه كلام قصير ووجيز<sup>2</sup>، فالإيجاز خَصِيصَة يمتاز بها القول المأثور، وهو يشترك، من خلال معيار الإيجاز أو الاقتصاد، مع النص القانوني؛ بحيث إنه عادة ما يتطلب، في تركيبه، بضع كلمات فقط، وتحديد البنية الثلاثية، التي تمثل -حسب "كورني"- فاتورة متكررة؛ فالأقوال، التي تتألف من ثلاث كلمات، تعد سلسلات لغوية لامعة ومذهلة، وقد مثل لذلك بمجموعة من الأمثلة (لاتينية وفرنسية). ولكي تتضح الرؤية أكثر، نورد هنا بعض النماذج؛ كما يأتي<sup>3</sup>:

في اللاتينية:

Locus regit actum. = قانون القواعد المحلية.

Actori incumbit probatio. = عبء إثبات الفاعل.

Fraus omnia corrumpit. = كل تزوير يفسد.

Pacta sunt servanda. = يجب الحفاظ على الاتفاقات = (العقد شريعة المتعاقدين).

في الفرنسية:

Estimation vaut vente. = التقدير يستحق البيع.

Coutume passe droit. = العرف يصبح قانونا.

Nécessité fait loi. = الحاجة تصنع القانون.

Ancienneté a autorité. = الأقدمية لها سلطة.

فعلى الرغم من قلة الكلمات في القول المأثور أو الأقوال العرفية، إلا إنها تحمل في طياتها دلالات ومعاني كثيرة. ويتخذ التعبير في القول المأثور شكلين اثنين؛ فهو إما تعبير تقريرى مباشر، وإما تعبير مجازي غير مباشر. ففي التعبير التقريرى، يتقاطع كل من الملفوظ القانوني والملفوظ القديم (العرفي)، ويكون المعنى حرفيا، لا يتعدى إلى ما هو غير حرفي. في حين أننا، في التعبير

<sup>1</sup> - «Dans l'adage, il y a toujours de la concision et de l'art, de l'économie et du génie de langage». (Ibidem).

<sup>2</sup> - «L'adage est un énoncé concis». (Ibidem).

<sup>3</sup> - G. Cornu, Linguistique juridique, pp. 391-392.

المجازي، نتحدث عن تعدد المعنى في الكلمة الواحدة، لكن، ومع وجود ضابط السياق، يتبدى غموض الكلمة أو المفردة، ويتجلى مكانه وضوح القصد من الكلمة. فالكلام القليل، كما هو معلوم، يكون بليغ العبارة، شديد الأثر. والأمر نفسه يسري على باقي الأقوال، التي تزيد كلماتها على ثلاث؛ أي القول الذي يتألف من أربع مفردات أو خمس أو ست، وهي غالبا ما تكون جملة؛ هذا على مستوى الشكل.

### من منظور موضوعي:

أما فيما يتعلق بالجانب الموضوعي، فالأمر، يرتبط بالجانب الأدائي للقول المأثور، وهو مستوى شديد الارتباط بالمنظور الشكلي السابق؛ فمثلا، في عبارة "القاضي يعرف القانون" (Le (Juria novit curia) = juge connait le droit)، ليس المقصود بلفظة «curia» هو الكوري (الروماني)، وليس المقصود بها مجلس الشيوخ (الروماني)، ولا حتى المحكمة (الجهاز الجماعي الأعلى للقضاة)، وإنما المقصود بها كل قاض عيّن لممارسة الوظيفة القضائية. فالمصطلح المرموق والبارز والرفيع له قيمته، وكلما تجنبنا المصطلح الغامض والفضفاض والمجهول، تجلت للمرء قيمة العمل المنوط بشخص القاضي، ومن معه، وهي في تقاطع مع المهمة الكبيرة التي يتوقعها القانون من القاضي عينه<sup>1</sup>.

إن لفظة «Juria»، التي تعني القانون، تغطي جميع أفرع القانون، بل جميع قواعده، أيًا كان مصدرها؛ وإن القاضي مقيد بمهمتين؛ مهمة قول القانون، ومهمة تطبيق القانون -أي تطبيق القانون على القضية المعروضة عليه-؛ من أجل البت في الدعوى. فجميع هذه الأمور تعد بمثابة مهام للقاضي ملزم بمعرفتها.

وأما لفظة «Novit»، فهي تفيد أن القاضي يعرف القانون، فالتأكيد، الذي تحيل عليه لفظة «يعرف»، له قيمة حتمية، إذ يتمتع فعل «يعرف» بالثراء في جميع جوانب معناه؛ فأن «تعرف» يعني، أولا وآخر، «يجب أن تعرف»؛ فالقاضي من الواجب عليه أن يعرف القاعدة التي يجب أن يطبقها على موضوع النزاع، لكن ليس قبل معرفته وإطلاعه على حيثيات الواقعة أيضا...، هذا كله كي يكون إعلانه عن النتيجة أو الحكم، في نطاق ممارسته القضائية، حكما عادلا، لا حكما جائرا؛ وبالتالي تصبح معرفته حقيقة الواقعة وحيثياتها، أمرا واجبا عليه، كوجوب معرفته

<sup>1</sup> - G. Cornu, Linguistique juridique, p. 393.



بالقانون تماما. كما أن لفظة «يعرف»، تدل، وبدقة، على أنه «يُفترض في القاضي أنه يَعْرِف»، بل يفترض، بشكل لا يمكن دحضه، أن القاضي يَعْرِف القانون<sup>1</sup>.

وعليه، فإن اختبار الكلمات وانتقاءها ليس بالأمر السهل، وإنما هو عمل صعب وشاق. ولذلك، تعد عملية انتقاء وفرز الكلمات بمثابة "فن" (Art)، ولا يتحقق التواصل العميق والمفيد، إلا عن طريق هذا الفن (فن اختيار الكلمات والعبارات). وعلى هذا الأساس، اعتبر "جيرار كورني" القول المأثور فنا، يتفاعل مع الذي ينطق به أولا، ومع الذي يسمعه أو يتلقاه ثانيا. كما يمكن القول، عن القول المأثور، إنه ضرب من المسكوكات الثمينة، بيد أن الأمر الذي لا ينبغي نكرانه هو أن القول المذكور فعل أدبي، ولاسيما إذا أردنا تسيجه أدبيا؛ فإننا نقول إنه ينتهي إلى التعبير الشعري، وهو بذلك فعل شعري بويطقي. يقول كورني إن "القول المأثور ليس، في حد ذاته، قصيدة، ولكنه فعل شعري؛ أي قطعة من الشعر"<sup>2</sup>.

ومن هنا، تبرز العلاقة المتينة بين القانون والشعر؛ فالمشترك بين المجالين، الذي يمكن التحدث عنه هنا، هو القول. ولذلك، نجد لإشارة "كورني" مُسَوِّغا، عندما أشار إلى الفعل الشعري [فعل قول الشعر]، وليس إلى القصيدة عينها. فالشعر فعل قول يخاطب الوجدان والذاكرة أيضا، كما يخاطب العقل والروح.

وإذا كان القانوني واللساني الفرنسي "جيرار كورني" قد تناول "الخطاب العرفي" من زوايا لسانية عامة، وبنوية خاصة، ولم يتطرق إلى مسألة العرف وعلاقته بالقانون إلا لماما، فإن للباحثين الروس<sup>3</sup> باعا طويلا في هذا الباب؛ بحيث أبلوا بلاء حسنا بخصوص المصطلحين السالفين تاريخيا وأنطولوجيا واجتماعيا وقانونيا.

<sup>1</sup>- G. Cornu, Linguistique juridique, p. 393.

<sup>2</sup>- «L'adage n'est pas, à lui seul, un poème, mais c'est un acte poétique, un fragment de poésie». (G. Cornu, Linguistique juridique, p. 397).

<sup>3</sup>- نقصد، تحديدا الأستاذ "إيليا أكسيونوف" (I. ch. Axionov) والأستاذة "لاريسا سفيتشنيكوف" (L. Svetchnikova) في مقالهما، الذي تناول فيه مفهومي "العرف" و"القانون العرفي" إثنولوجيا وتاريخيا، موازاة مع نظرية القانون:

- I. ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», traduit par: Chantal Kourilsky-Augeven, Droit et cultures ((En ligne)), 50 /2005-2, mis en ligne le 28 mai 2009, consulté le 14 novembre 2023. URL : <http://journals.openedition.org/droitcultures/1060>

إن المثير في تناول الروسي<sup>1</sup> هو تأكيد معظم أولئك الباحثين على أن العادات والأعراف تكتسب طابعاً قانونياً<sup>2</sup> - فقط - إذا حصلت على حماية من الدولة<sup>3</sup> وعادة ما يرتبط العرف أو العادة بالقانون الدولي، وبالتجارة في القانون المدني؛ فالتجارة، مثلاً، كانت، في بداياتها، تركز إلى الأعراف السائدة في العشيرة، وبذلك لا يمكن التطرق إلى العرف والقانون العرفي مبدئياً إلا في حال غياب الدولة. وبتعبير آخر، فنطاق عمل القانون العرفي يجب أن يقتصر على فترة الانتقال من هيكل العشيرة إلى المجتمع البدائي/ الدولة البدائية. وعلى العكس من ذلك، فمصطلح "قانون"، أو "حق"، يرتبط - بشكل رئيس - بمفهوم "الدولة"، وتحديد الدولة الحديثة.

وعلى الرغم من التباعد الذي يظهر بين المصطلحين "العرف" و"القانون" إلا أنهما يكملان بعضهما بعضاً، بل يعد العرف أساس القانون ولَبَنَتَهُ، ولولاه لما وُجد القانون أصلاً؛ بدءاً من القانون الروماني الكلاسيكي، الذي تطور على مدى عدة قرون؛ حيث كان يستخدم العادات والأعراف قبل ظهور مفهوم الدولة. لكن، مع نشأة الدولة، أعيدت صياغة الأعراف، وعُمِلَ على دمجها خلال عملية إنشاء التشريعات، التي دخلت جزئياً في المجموعات المركزية... دون إحداث أي تعديلات جوهرية في هذه الأعراف. وهو الأمر نفسه الذي نجده في اليونان القديمة؛ فعلى سبيل المثال، كانت قوانين "دراكون"<sup>4</sup> «Drakon» (حوالي القرن السابع قبل الميلاد) تستند على قواعد

<sup>1</sup> - بدأ الاهتمام بالعرف، والانكباب على دراسته في روسيا، في القرن التاسع عشر، موازاة مع انبثاق توجه علمي، يدعى "الإنثوغرافيا القانونية"، كانت الغاية منه، هي دراسة العادات والأعراف "القانونية" للشعوب التي تأسست على يد الإمبراطورية الروسية، لاسيما وأن الأطماع الروسية، الداعمة للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي...، كانت بارزة في تلك الحقبة. هذا، وللتحكم في مصير تلك الشعوب، كان لزاماً دراسة المعايير العرفية التي تهض عليها في إدارة شؤونها. وكان التركيز منصباً، بشكل كبير، على فئة الفلاحين؛ لأنهم كانوا يحتكمون، في علاقاتهم ومعاملاتهم المدنية، إلى قواعد عرفية، وهي قواعد لا تتوافق والتشريع المعمول به آنذاك؛ الأمر الذي وُلِدَ معه تجاذب، يروم التوافق تارة، ويقضي تارة أخرى بالتعارض - بين القانون العرفي ومعايير الدولة التي بدأت تلوح في الأفق -، وتحديدًا في منتصف القرن التاسع عشر (انظر المقال السابق).

<sup>2</sup> - وهو ما يعني أن الحديث عن العرف، قبل قيام مفهوم "الدولة"، كان بمثابة قانون يحتكم إليه - أخلاقياً - جميع أفراد المجتمع. فالعرف، كما هو معروف، ذو طبيعة اجتماعية، وهو لا يختلف في ذلك عن القانون من حيث الطبيعة، لكن، مع ظهور مفهوم "الدولة الحديثة"، حافظ على طبيعته الاجتماعية نفسها، لكن هذه المرة مرتدياً زيَّ قانونياً (الإلزام).

<sup>3</sup> - نشر إلى أن "جيرار كورني" لم يعتمد هذا الطرح في مصنفه، ومرد ذلك، في نظرنا، راجع بالأساس إلى أن الرجل تناول العرف، أو القول المأثور، من جوانب لسانية شكلية، وهو ما يعني أن مقارنته للخطاب القانوني، بشكل عام، لم تأخذ عنده بعداً أنطولوجياً ولا بعداً تاريخياً... وهذا أمر يحسب له، إضافة إلى بقية ملاحظاته القيمة التي وردت في مصنفه.

<sup>4</sup> - "دراكون" «Drakon» [600- 650 ق.م]: هو أول مشرع في أثينا في اليونان القديمة، قام باستبدال نظام القانون العرفي والخصومات الدموية، التي كانت سائدة آنذاك، بتشريع مكتوب، تتولى المؤسسة القضائية مهمة تنفيذه. ونظراً لتلك الصرامة التي كان يمارسها، ارتبط اسم "دراكون" بالقواعد والقوانين الصارمة.

القانون العرفي، التي أُخذَ العديد منها بعين الاعتبار لدى وضع القوانين اللاحقة<sup>1</sup>. والأمر الذي يلفت الانتباه، هنا، والذي لا أحد من الباحثين يُنكره، هو أن العادات أو الأعراف شكلت مرجعية جميع القوانين والمدونات القديمة؛ نظرا للدور المركزي الذي لعبته في تنظيم العلاقات الاجتماعية، بل واصلت هيمنتها فيما بعد، "كأساس تقوم عليه العلاقات القانونية، والنظام المعيارى في المجتمعات البدائية"<sup>2</sup>.

ويُشدّد بعض الباحثين -عند تعرضهم لتعريف مفهوم "العرف" - على جملة من الخصائص التي يختص بها، وهي تتوافق وخصائص القانون؛ إذ يتميز العرف بطابعه الإلزامي والديني والعرفي والمحافظة<sup>3</sup>. ونظرا لدوره في إنشاء معايير قانونية جديدة، تم تقليص دور المشرع لينحصر فقط في العمل على إزالة التناقضات الحتمية التي يواجهها القانون العرفي. وهذا التقزيم، الذي تعرض له المشرع، يحرم الدولة عمليا من إمكانية التقدم، ويتجلى ذلك في تقليص دورها إلى وظائف شرطة. ويرى الفيلسوف والمفكر الروسي الكبير "إيفجيني نيكولايفيتش تروبتسكوي" (Evgueni Nikolaievitch Troubetskoï) [1863-1920] أن الأمر الذي يتعلق بدور القانون العرفي، المتمثل في تنظيم العلاقات الاجتماعية، قد تم دحضه تماما من قبل الفقيه القانوني الألماني "رودولف جرينك" (Rudolf Von Jhering) [1818-1892] -المشهور بكتابه "الكفاح من أجل القانون"<sup>4</sup> «Der Kampf ums Recht»، الذي نشر سنة 1872، ومؤسس مدرسة القانون الاجتماعية والتاريخية الحديثة-، الذي أثبت أن "استبدال العرف بالقانون المكتوب هو واحد من الفتوحات العظيمة للحضارة... صحيح أن السمات المميزة للعرف [أو العادة] هي المرونة، والقدرة على التكيف بسهولة مع ظروف الحياة الحقيقية، ولكن من الصحيح، أيضا، أن السمات التي تميز القانون - من ثبات وتحديد ودقة واستقرار- لها أهمية أكبر لا تضاهي"<sup>5</sup> بالنسبة إلى القانون. إن الحقيقة

<sup>1</sup> - I. Ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», op. Cit., P. 29-49.

<sup>2</sup> - «Comme la base sur laquelle se construisaient les relations juridiques et le système normative des sociétés primitives». (Ibidem).

<sup>3</sup> - Ibidem.

<sup>4</sup> - V. R. Jhering, «Der Kampf ums Recht» 1872, trad. fr. Octave de Meulenaere, Paris, Marescq Aîné, 1890, et réédition «La lutte pour le droit», Dalloz, Paris, 2006.

<sup>5</sup> - I. Ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», op. Cit.

الوحيدة، التي يلتفت حولها معظم المهتمين بهذا الشأن، تقوم على فكرة مفادها أن عهد العرف ممكن -فقط- في المراحل البدائية من مراحل تطور المجتمع البشري.

وبالعودة إلى العرف والقانون، يرى الفقيه القانوني الروسي "ديميتري إيفانوفيتش ماير" (Dmitry Ivanovich Meyer) [1819-1856] -وهو من أوائل المهتمين بالقانون العرفي- أن القانون العرفي هو عبارة عن "نص قانوني يتم الكشف عنه من خلال تطبيقه المتكرر والموحد"<sup>1</sup>. كما أشار إلى أن "العرف يجب ألا يكون معارضا للأخلاق؛ بحيث لا يمكن للمجتمع الاعتراف بالحقوق التي تتعارض مع الأخلاق الحميدة... مع أن الشرط الذي يتألف بالفعل من ذلك العرف يجب أن يتضمن رؤية قانونية، ليس سوى إظهار القانون الأخلاقي في تطبيقه على الحياة المجتمعية"<sup>2</sup>. وهو ما يدل على أن العرف والقانون كانا، مذ فترة طويلة، مترادفين، وكانت جميع العلاقات الاجتماعية خاضعة لمسطرة العرف فقط؛ فقد "كانت الحقوق الخاصة وحقوق الدولة خاضعة لعمله (عمل العرف)؛ من حقوق الأمراء والشعب، وحق الخلافة، والانتقام، والفداء، وحقوق الملكية... كل هذا، كان يتأسس على العرف"<sup>3</sup>.

بل أكثر من ذلك، ذهب "ميخائيل فلاديميرسكي بودانوف" (Mikhail Vladimirovsky - Budanov) [1838-1916] إلى تأكيد أن التشريع يسعى -فقط- إلى إضفاء الشرعية على العرف،

---

- «Le remplacement de la coutume par la loi écrite est l'une des grandes conquêtes de la civilisation... il est vrai que les traits distinctifs de la coutume sont la flexibilité, et la capacité de s'adapter facilement aux conditions de la vie réelle; mais il est également vrai que les traits caractérisant la loi - la fixité, la détermination, l'exactitude et la stabilité -ont pour le droit une importance incomparablement plus grande». Voir aussi, M'begniga Abdoulaye, «African Customary Law and Modern Law from Western : An Over view on Their Roles and Impacts in Afrocan Societies», International Journal of Social Science and Humanities Research, Vol. 5, Issue 1, p. 190, Article: January - 2017. URL: <https://www.researchgate.net/publication/316076616>

<sup>1</sup>- I. Ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», op. Cit.

- «Le droit coutumier comme "une disposition juridique se dévoilant à travers son application répétée et uniforme"».

<sup>2</sup>- Ibidem.

- «La coutume ne doit pas être contraire aux mœurs: la société ne peut reconnaître des droits incompatibles avec les bonnes mœurs... Condition qui consiste déjà en ce que la coutume doit inclure une vision juridique qui n'est rien d'autre que la manifestation de la loi morale dans son application à la vie en communauté».

<sup>3</sup>- Ibidem.

- «Les droits privés et les droits étatiques étaient soumis à son action: les droits des princes et du peuple, le droit de succession, de la vengeance, du rachat, le droit de propriété etc. Tout cela était fondé sur la coutume».

ولا عجب في ذلك إذا ما عرفنا أن الرجل كان بالأحرى مؤرخ قانون؛ الأمر الذي يثبت المكانة القوية التي يحتلها العرف في الثقافة الروسية القانونية منذ زمن بعيد.

إن الثراء المعرفي، الذي يسم البحث الروسي بشأن العرف أو العادة تأريخاً وتنظيراً، قد يثبت فينا ارتياباً واستغراباً، لكن سرعان ما يتبدى هذا الاستغراب، ويختفي ذاك الارتياب، لحظة معرفتنا بالمكانة المرموقة التي يتبوأها العرف في المنظومة القانونية الروسية؛ إذ يعتبر المصدر الأول في التشريع الروسي، وذلك بعدما تم الاعتراف<sup>1</sup> به كمصدر<sup>2</sup> أول في روسيا خلال نهاية القرن 19 وبداية القرن 20م.

وإذا كان للعرف مجال يطبّق فيه، فنحن عندئذ نكون أمام آثار قانونية، لكن ذات طبيعة عرفية، يجب التعامل معها وفقاً لما تنص عليه تقاليد ذلك المجتمع وأعرافه؛ بحيث إن قواعد الأعراف أو العادات قواعد سلوكية، تحتفظ بآثارها اجتماعياً؛ ولذلك يجب إعطاؤها وضعاً قانونياً. ولا يتحقق ذلك إلا إذا تم دعمه من لدن الدولة؛ بمعنى أنه ينبغي أن يكون تحت حماية هذه الأخيرة. فمحتوى العرف، الذي تم وضعه من قبل قوى المجتمع نفسه، ذو طابع قانوني؛ نظراً لأن ذلك المحتوى يُمنح بناء على موافقة الدولة. وبتعبير آخر، "إن أساس القوة الملزمة للعادات القانونية يكمن في سلطة الدولة"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - للاعتراف بـ"القانون العرفي"، بوصفه مصدراً من مصادر القانون الروسي، يتعين ذكر مجموعة من الشروط، وهي عموماً لا تتعدى ثلاثة شروط:

1. الوعي بضرورة العرف، أو القانون العرفي، أو ما يصطلح عليه "القانون البدائي": "ف"العرف يعيش في ضمير الناس كقانون".
2. الطبيعة المتكررة لتطبيقه؛ بحيث تم تحديد نطاق تطبيق العرف المسموح به، بموجب القانون الروسي، بناء على معيارين: أحدهما مادي، والآخر رسمي. فبالنسبة إلى المعيار المادي، فهو يهتم بمجال الأعمال التجارية، في حالة التركات، وفي حالة الوصاية والقيمين في بينات الفلاحين. أما فيما يخص المعيار الرسمي، فإنه يبرز من خلال اختصاص المحاكم المحلية بالنظر في حالات الضرر الناتج عن المنازعات بين الفلاحين.
3. يجب ألا يتعارض محتوى القانون العرفي مع الأخلاق.

- A. M'begniga, «African customary law and modern law from western : An over view on their roles and impacts in Afrocan societies», op. Cit.

<sup>2</sup> - ترد مصادر القانون الروسي على النحو الآتي:

أ. القانون العرفي في المرتبة الأولى.

ب. المعايير أو القواعد القانونية التي تضعها السلطة العليا أو ما يعرف بـ"الدستور" في المرتبة الثانية.

<sup>3</sup> - I. Ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», op. Cit.

- «Le fondement de la force obligatoire des coutumes juridiques réside dans l'autorité du pouvoir d'État».

واللافت للانتباه، أكثر، هو أن هذه السلطة لا تتكون -فقط- من حقيقة أن الدولة في وضع يمكنها، في أي وقت شاءت، من إلغاء قاعدة القانون العرفي، ولكن الدولة في حقيقة الأمر، تمنح قاعدة القانون العرفي قوة قانونية، ويتم ذلك من خلال تزويدها بوسائل دفاع قانونية، ترفع العرف إلى مرتبة القانون<sup>1</sup>. ف"العرف إذا لا يصبح قانونيا، إلا بعد أن تضمن المحكمة، بموجب قرارها، الحماية القانونية لمعيار [أو قاعدة] قائم بالفعل"<sup>2</sup>. ومرد ذلك، حسب ما أوردّه الباحثان الروسيان الأستاذ "إيليا أكسيونوف" والأستاذة "لاريسا سفيتشنيكوفا" (Ilia ch. Axionov & Larissa Svetchnikova)، إلى أنه، في أي مجتمع وجدت الأعراف أو التقاليد القوية، كان وضع السلطة مرتفعا، يمكن تنفيذ العرف دون قيود.

هذا، كما يمكن التأكيد على أن الخطاب العرفي "القانوني" يعد بمثابة مادة دسمة، ذات أهمية أساسية في منظور القانون، وأهميته هذه لا تقل قيمة عن باقي أنماط الخطاب القانوني التي أشرنا إليها سابقا، بل إن الخطاب العرفي يعد جوهرها وقلبها النابض، ولولاه لما تحدثنا عن القانون بشكل عام؛ فميزة السبق التاريخي حاضرة، وبقوة، في ثنايا الخطاب العرفي، بيد أن المشكل الإيبستيمي، الذي بات مطروحا منذ بداية القرن العشرين، يتجلى في أن الخطاب العرفي يُطرح بشأنه جدال، يهم طابعين: طابعا نظريا، وهو الذي يتعلق بجوهر القانون العرفي كمجموعة معقدة من القواعد أو المعايير غير المكتوبة<sup>3</sup> (الشفاهية) -وهي السمة التي تشترك فيها جميع الأعراف والعادات والأقوال الماثورة (كمترادفات دلالية)، مثلما أشار إلى ذلك كورني؛ كما رأينا في مصنفه-، وإمكانات دراسته في مراحل مختلفة من صيرورة تشكيل قانون الدولة؛ وطابعا عمليا، وذلك عندما يتعلق الأمر بتنفيذ أو إنجاز قواعد القانون العرفي، سواء في الممارسة القضائية أو الإدارية أو غيرهما.

<sup>1</sup>- Ibidem.

<sup>2</sup>- Ibidem.

- «La coutume ne devient juridique qu'à la suite du fait que le tribunal, par sa décision, assure une protection juridique à une norme déjà établie».

<sup>3</sup>- يعتبر "كاردانوف" (V. K. Gardanov) القانون العرفي شكلا من القانون، وهو الشكل الأقدم تاريخيا من العلاقات القانونية «La forme historiquement la plus précoce de relations juridiques». وضعت معاييرها في العادات التي تنتقل عن طريق التقليد الشفاهي من جيل إلى جيل، والتي سبقت تاريخيا القانون المكتوب. كما أشار إلى تطابق قواعد القانون العرفي والعلاقات التي تتشكل داخل المجتمع. كما أكد أنه، في ظل وجود القوانين، قد يتم تضمين القانون العرفي، إلى حد ما، في نصوص هذه القوانين، أو قد يكون موجودا فيها بشكل سابق، لكن كعنصر مستقل، جنباً إلى جنب مع القانون. وهو الطرح نفسه الذي تبناه "جيرار كورني".

- I. Ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», op. Cit.

إن الخطاب العرفي، وإن كانت طبيعته وظيفية؛ كبقية الأنماط القانونية الأخرى كتحقيق الحياة العامة، وتنظيم سلوك الفرد داخل المجتمع...، إلا أنه يرتبط، في عموميته، بالمجتمع البدائي، الذي كان فيه مسألة التطبيقية غائبة، والعشيرة بدل الدولة (المؤسسة)... لكن، ومع مُضي الزمن، اكتسب القانون العرفي خصوصيته، وأصبح مكوّنًا مؤثرًا ورئيسًا في الحياة القانونية، بل يعد أحد أشكال الإرادة الاجتماعية، إلى جانب الأخلاق والقانون، وتتجلى الغاية منه، تحديدًا، في القضاء على العداء؛ أي تحقيق المصالحة بين الأطراف المتنازعة؛ هذه المصالحة التي لا تتم إلا لحظة استعادة مبدأ العدالة، الذي تم انتهاكه في أكثر من مناسبة. ويتم استرجاع مبدأ العدالة في الخطاب العرفي من خلال إحدى الطرق الآتية<sup>1</sup>:

الأولى: «التسبب في نفس الضرر للطرف المذنب»، وهو ما يطلق عليه، في ديننا الحنيف، اصطلاح "القصاص".

الثانية: «التعويض عن الضرر»، وهو نوع من الجزاء في المسؤولية المدنية في وقتنا الحالي.

## خاتمة:

عطفًا على ما تقدم، إن ما دفعنا إلى عرض هذا النمط القانوني (الخطاب العرفي) ضمن ما اصطلاحنا عليه بـ"التعددية الخطابية في القانون"، عائد بالأساس إلى سببين اثنين: الأول، لاعتبار القانون ظاهرة اجتماعية كباقي الظواهر الأخرى؛ فهو يتأثر بمختلف الظواهر المحيطة به؛ من دين وأخلاق وعادات وأعراف وتقاليده وسياسة وأدب (وخاصة الشعر في الخطاب العرفي) وفلسفة... فالقانون، بهذا المعنى، تركيب متجانس يمتاح من هذا التنوع الثري والمثير للانتباه. الثاني، يتعلق بإكباب العديد من الباحثين (الغربيين تحديدًا) على دراسة هذا المجال، نظرًا لغِنَاه وخصوبته، بعد أن أصبح ميدانًا للمتخصصين وغير المتخصصين. ولن نستغرب إذا علمنا أن القانون، أو علم القانون، قد انبثقت منه علوم ونظريات، تندرج جميعها في قسم العلوم الإنسانية؛ من قبيل: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التاريخ... كما انبثقت منه، مباحث فرعية، اهتمت بالقانون والظواهر القانونية؛ فصرنا أمام فلسفة القانون، وسوسيولوجيا القانون، وإثنوغرافيا القانون، وابستيمولوجيا القانون...

<sup>1</sup>- I. Ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», op. Cit.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- أحمد بن محمد الزرقا، شرح القواعد الفقهية، تحرير: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط2، 1989.
- سمير شريف استيتية، اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، إربد - جدارا للكتاب العالمي، إربد/ عمان، ط 2، 2008.
- عبد الرحمن بن ناصر السعدي النجدي الحنبلي، القواعد الفقهية (المنظومة وشرحها)، تقديم: محمد بن ناصر العجمي، إصدار: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطاع المساجد، إدارة مساجد محافظة الجبراء، الكويت، ط1، 2007.

### المراجع الأجنبية:

- Ch. Muller, Us, Coutumes et droit coutumier dans le Fiqh Maliki, trd: Rania Abdellatif. Cet article à été publié une première fois sous le titre "Sitte, Brauch und Gewohnheitsrechte im mālikitischen fiqh", 2012. <https://cutt.us/EsCJQ>
- G. Cornu, Linguistique juridique, Éditions Montchrestien, (3ème édition), Paris, 2005.
- I. ch. Axionov & L. Svetchnikova, «La théorie du droit coutumier dans la recherche: ethnologie, théorie du droit et histoire du droit», traduit par: Chantal Kourilsky-Augeven, Droit et cultures ((En ligne)), 50 /2005-2, mis en ligne le 28 mai 2009, consulté le 14 novembre 2023. URL : <http://journals.openedition.org/droitcultures/1060>
- M'begniga Abdoulaye, «African Customary Law and Modern Law from Western : An Over view on Their Roles and Impacts in Afrocan Societies», International Journal of Social Science and Humanities Research, Vol. 5, Issue 1, Article: January - 2017. URL:<https://www.researchgate.net/publication/316076616>



- V. R. Jhering, «Der Kampf ums Recht» 1872 ,trad. fr. Octave de Meulenaere, Paris, Marescq Aîné, 1890, et réédition «La lutte pour le droit», Dalloz, Paris, 2006.
- Code tunisien des obligations et des contrats, (version française), Publications de l'imprimerie officielle de la république Tunisienne, 2010.

## شروط الاعتراف بالأحكام الجنائية الأجنبية وتنفيذها

د. فريد أمعششو

باحث من المغرب



### مقدمة

إذا كانت الأحكام القضائية، في المادة الجنائية، لا تثير إشكالات كثيرة، في نطاق تطبيق القانون الداخلي، فيما يخص الاختصاص والتنفيذ والمفعول وغيرها من المسائل؛ ذلك بأنها تكون لها قوة القضية المبرمة، أو حُجية الأمر المقضي به، وقوة النفاذ في شتى أنحاء إقليم الدولة، علاوة على عدم اقتصار آثارها على العقوبات الأصلية المحكوم بها<sup>1</sup>... إلا أنها تطرح مشاكل عدة حينما يتعلق الأمر بامتداد مفعول تلك الأحكام دُوليًا، ولاسيما في ظل تمسك أغلب الأقطار بمبادئ الإقليمية والسيادة والاستقلالية، التي بمُوجها لا تسمح بتطبيق الأحكام الجزائية، الصادرة عن سلطة قضائية أجنبية، فوق أراضيها، ولا تعترف بها أمام محاكمها الوطنية بصفة مطلقة، بل إنها - لاعتبارات وإكراهات - تقيّد تلك الأحكام بضوابط، وتشتط في شروطها لا مناص من توافرها في تلك الأحكام لتكون قابلة للتطبيق بعد الإقرار بها، ولاسيما في الفترة الراهنة التي تعاظمت فيها الإجرام الدولي، وتطورت الجرائم على نحو مَهُول، إلى درجة أنها لم تعد تقف عند حدود دولة أو بضع دول، بل امتدت الجريمة عالميا، وأصبحت منظّمة وعبر وطنية، وأُمسّت تهدد دول المعمورة قاطبة، دونما تفريق في ذلك بين الدول القوية والضعيفة، الكبيرة والصغيرة؛ لذا يلزم تكثيف التعاون الدولي، وتضافر الجهود وتنسيقها؛ من أجل وضع حد لتلك الجريمة، أو التقليل من حدّتها على الأقل، وتحقيق العدالة الجنائية الدولية، والحرص على عدم إفلات المجرمين من العقاب،

<sup>1</sup> - محمد الفاضل: التعاون الدولي في مكافحة الإجرام، من منشورات كلية الحقوق التابعة لجامعة حلب، سوريا، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، موسم 1991/1992، ص 231.

ولاسيما ممّن يرتبكون أفعالا جُرميّة خطيرة<sup>1</sup>. وثمة جملة آليات ناجعة، يمكن المراهنة عليها لبلوغ تلك الأهداف، منها تسليم المجرمين، والاختراق، والإنابة القضائية، والاعتراف بالأحكام الجنائية الأجنبية.

ولا بد من التذكير بأنّ الحكم المقصود، هنا، يُشترط فيه أمران؛ أولهما أن يكون جنائيا، من حيث الموضوع والطبيعة، تترتب عنه عقوبة أو تدبير وقائي، وثانيهما أن يكون أجنبيا؛ أي صادرا عن جهة قضائية قانونية مختصة، تابعة لسيادة أجنبية<sup>2</sup>. يقول أحدُ الباحثين المعاصرين معرّفا الحكم الجنائي الأجنبي بأنه "القرار الصادر في موضوع الدعوى الجزائية، من سلطة لها ولاية الفصل في هذا الموضوع باسم سيادة أجنبية"<sup>3</sup>. ويضع بعض الدارسين معايير لتحديد هذا الحكم: مكاني وسيادي؛ فأما المعيار الأول، الذي أخذت به الدول الأنجلو أمريكية، فيعتدّ بمكان صدور ذلك الحكم، والذي يلزم أن يكون بلدا آخر أجنبيا. وأما الثاني، الذي تأخذ به الدول اللاتينية، فيشترط صدور الحكم الجزائي باسم سيادة دولة أجنبية، بصرف النظر عن مكانه أو جنسية القضاة الذي يفصلون في النزاع، مع ضرورة أن تعترف الدولة المراد تنفيذ الحكم الأجنبي فيها بالدولة التي صدر الحكم من محاكمها، اعترافا فعليا أو واقعيًا، حتى وإن لم تعترف بها قانونيًا<sup>4</sup>. لقد كان جهد الفقه الجنائي واضحا في تحديد ذلك الحكم، وضبط شروطه ومسائله، بخلاف التشريعات التي لم يلتفتْ أكثرها إلى هذا الأمر، ومن القوانين التي عرّفت ذلك الحكم الجزائي الأجنبي قانون تنفيذ الأحكام الأجنبية بالأردن، رقم 8، الصادر سنة 1952، وإن كان متأثرا في ذلك بالمدرسة التي تحتكم إلى المعيار المكاني في تحديده؛ فقد ورد في مادته الثانية أن مُرادَه بذلك الحكم هو "كل حُكم صدر من محكمة خارج المملكة الأردنية الهاشمية، بما في ذلك المحاكم الدينية...".

<sup>1</sup> بدر الحلامي: تنفيذ الحكم الأجنبي بالمغرب بين النص التشريعي والاجتهاد القضائي، مجلة الإسماعيلية للدراسات القانونية والقضائية، ع1، 1، فبراير 2019، ص 55-76.

<sup>2</sup> - Yvon Lousoarn, Droit international privé, Dalloz, Paris, Tome 2, 1990, P226.

<sup>3</sup> صفوان محمد شديفات: طبيعة الحكم الجزائي الأجنبي المرتبط بجريمة الإرهاب وآليات تنفيذه، مجلة "دراسات، علوم الشريعة والقانون"، مج. 43، 2016، ص ص 449-450.

<sup>4</sup> - أزهار حميد مهدي: القيمة القانونية للحكم الأجنبي قبل الأمر بالتنفيذ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الحقوق، جامعة كربلاء، كلية القانون، العراق، الموسم الجامعي 2012/ 2013، ص 67.

وجديرٌ بالإشارة، كذلك، أن إشكالات تنفيذ الحكم الأجنبي لا تعمّ كل الأحكام الصادرة عن سيادات أجنبية، بل تبرز، في الأساس، في المجال الجنائي، بخلاف الأحكام المدنية مثلاً، التي لا تطرح إشكالا هنا، بل نجد أن الاعتراف بها، والعمل بمقتضياتها في البلدان الأخرى، متيسّر وسلس، وتلقى قبولا على نطاق أوسع دوليا؛ لما بين الحكمين الجنائي والمدني من اختلافات وتباينات، لاسيما وأن الأول يمسّ بحقوق الأشخاص وحرياتهم، ثم إن "القاضي المدني الذي يفصل في دعوى التعويض أو الردّ، أو يقضي بفسخ العقد، إنما يقرّر وضعاً قانونياً سابقاً؛ فيستثبته ويكشف عنه ويُدوّنهُ، وهو بهذا ينطق بالحقّ، ولحكمه قيمة إظهارية أو إعلانية Déclarative. وبالمقابل، فإن القاضي الجزائي الذي ينطق بالإدانة، ويقضي بالعقوبة، يعدّل المركز القانوني للمحكوم عليه؛ فهو يخلق وضعاً قانونياً جديداً، ولحكمه قيمة إنشائية Constitutive. وإذا أردنا أن نستعير الاصطلاح المألوف لدى فقهاء القانون الإداري، قلنا: إن الأحكام الجزائية هي أفعال سيادة Actes de commandement، أما الأحكام المدنية فهي أحكام إدارة Actes de gestion".<sup>1</sup>

بالرجوع إلى تاريخ التشريعات والأنظمة القانونية المقارنة، نجد أنها، في مجملها، لم تكن، إلى عهد قريب، تعترف للأحكام القضائية الأجنبية، في المادة الجنائية، بأي حجية داخل أقاليم البلدان الأخرى تشبهاً بمبدأ السيادة، وعدم جواز إنفاذ الأحكام الصادرة عن محاكم دولة ما خارج حدودها، بل إن مفعولها لم يكن يتجاوز نطاق تلك الدولة<sup>2</sup>. فقد "دأبت الدول، منذ عهدٍ طويل، على النظر إلى الأحكام الجنائية من زاوية سيادتها الوطنية؛ وبالتالي، ظلّت ترفض الاعتراف بالأحكام الجنائية الأجنبية. وهو موقف متناقض؛ وذلك -مثلاً- لأنّ الدول تُوافق على تسليم المطلوبين لأغراض تنفيذ العقوبة بالاستناد إلى حكم أجنبي، وتنفيذ العقوبات الأجنبية، وتصادر عائدات الجريمة. ويمكن تفسير ذلك من خلال التمييز بين الاعتراف بنتائج الحكم، وبين الاعتراف بالحكم نفسه. وحتى يومنا الحاضر، لا يوجد سوى صكّ إقليمي واحد في هذا الشأن، وهو الاتفاقية الأوروبية المتعلقة بالصلاحيات الدولية للأحكام الجنائية"<sup>3</sup>، التي تم توقيعها في 28 ماي 1970.

ولكن طرأت تحولات، أشرّنا إلى بعضها من ذي قبل، دَعَتِ الدول إلى الاعتراف بالأحكام الجزائية الأجنبية، وتنفيذها داخل أقاليم أقطارها؛ باعتبار ذلك ممّا تقتضيه مواجهة الجريمة العابرة للحدود، وممّا يتوقف عليه الأمن الدولي في جانبٍ منه، وممّا من شأنه أن يُعين على تحقيق

<sup>1</sup> - محمد الفاضل: التعاون الدولي في مكافحة الإجرام، ص 235.

<sup>2</sup> - Dicey & Morris, The conflict of laws, 10<sup>th</sup> edition, London, Volum 2, 1999, P 45.

<sup>3</sup> - مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة في فيينا UNODC: التعاون الدولي في المسائل الجنائية المتعلقة بمكافحة الإرهاب، برنامج التدريب القانوني على مكافحة الإرهاب، النميطة 3، 2012، ص 114.

العدالة الجنائية الدولية. على أن بعض الدول تعترف بتلك الأحكام إطلاقاً، من غير تقييدها بأي ضوابط أو قيود، وتُقرّ لها دوماً بحجية الأمر المقضي به؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى التشريعين الهولندي والبرتغالي، ومنها ما قيّد ذلك الاعتراف بها بجملة من الشروط اللازم توافرها في الحكم حتى يجري تقريره وتنفيذه في البلدان الأخرى؛ كما فعل المشرّع في فرنسا<sup>1</sup> مثلاً، على أن منها ما توسّع في تلك الشروط، وأطال فيها (كالمشرّع البحريني)، ومنها ما ضيّق دائرتها، وقلل منها (كما فعل المشرّع المغربي)<sup>2</sup>؛ فقد اشترط القانون الإجمالي في البحرين (المادة 10)، للاعتراف بالحكم الأجنبي على أراضها، أن تتوافر فيه شروط عدة، أهمّها "أن يتمتع القرار الأجنبي بصفة الحكم القضائي، وأن يصدر عن قضاء جنائي مختصّ، وأن يكون متوافقاً مع الإجراءات الشكلية، ومراعياً لحقوق الدفاع، وأن يكون الحكم نهائياً". ونقرأ في الباب الثالث من القسم الثالث من الكتاب السابع من قانون المسطرة الجنائية المغربي مادتين عن "الاعتراف ببعض الأحكام الجزية الأجنبية"، نصّت أولاهما (المادة 716) على أنه "إذا تبين لمحكمة جزية من محاكم المملكة المغربية، أثناء إجراء متابعة من أجل جنائية أو جُنحة عادية، بعد اطلاعها على السّجل العدلي لمرتكب الجريمة، أنه سبق الحكم عليه من طرف محكمة أجنبية من أجل جنائية أو جُنحة عادية يعاقب عليها كذلك القانون المغربي، أمكن لها أن تضمّن في حكمها مقتضيات خاصة معلّلة تفيد تحققها من صحة الحكم الجزري الأجنبي، وأن تأخذ بهذا الحكم كعنصر من عناصر العود إلى الجريمة". وورد في الأخرى (المادة 717) أنه "لا يمكن أن تنفّذ بالمغرب المقتضيات المدنية الواردة في مقرر صادر عن محكمة جزية أجنبية، ما لم تُعط لها الصيغة التنفيذية بمقتضى مقرر تُصدّره محكمة مدنيّة مغربية تطبيقاً لمقتضيات قانون المسطرة المدنية". وتقرّ بعض الدول بذلك الحكم الأجنبي، وتعترف به، في إطار اتحادات إقليمية؛ كما هو الحال بالنسبة إلى أقطار الاتحاد الأوروبي.

إن الواقع والمنطق يفرضان عدم قبول الحكم الجنائي الأجنبي كيفما كان، والعَمْد إلى تنفيذه بحذافيره، بل الواجب إخضاع ذلك الحكم لما يشبه "المساءلة"، وممارسة الرقابة عليه، والنظر فيه للتأكد من مدى استيفائه شروطاً ضرورية، حتى لا يصطدم بالقانون الداخلي لدولة التنفيذ، وحتى لا يشكل العمل به خارج البلد، الذي أصدره قضاؤه الجزري، مساساً بالنظام العام فيه؛ وبالتالي قد يثير ردود فعل منوطة رافضة لمقتضياته. يقول د. محمد الفاضل في هذا الإطار:

<sup>1</sup> - Procédure pénale, Bernard Bouloc, Dalloz, Paris, 25<sup>ème</sup> édition, 2015.

<sup>2</sup> - لمياء المغوار: السياسة الجنائية الأمنية في مجال التعاون الجنائي الدولي، رسالة لنيل الماستر في القانون الخاص، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية ظهر المهرز فاس، بإشراف: د. محمد بوزلافة، الموسم الجامعي 2017/2018، ص 220 - ص 226.

"إن الدولة حينما تعترف بقوة النفاذ لمثل هذا الحكم، الذي هو من صُنع القضاء الأجنبي، ليس في وُسْعها أن تتبناه على علاقته، وأن تتحمل مسؤولية تنفيذ منطوقه، وإنما هي يجب أن تُخضع هذا الحكم الأجنبي لرقابتها، وأن تُمعن فيه دراسةً وفحصاً وتدقيقاً"<sup>1</sup>. ويمكن إجمال شروط الاعتراف بالحكم الجزائي الأجنبي، والإقرار بحُجتيه خارج الدولة التي أصدرته محاكمها، في الآتي:

- أن يصُدّر عن محكمة أجنبية مختصة بالنظر في النزاع المعروض أمامها، على أن تكون، في الغالب، محكمة عادية زجرية، يترتب عن أحكامها عقوبات في حق المُدان، أو فُرض تدابير احترازية عليه. كما أنه ينبغي أن تصدر تلك الأحكام باسم سيادة أجنبية؛ كما أسلفنا القيل. وإذا كانت الأحكام الجنائية تواجه صعوبات وإشكالات لدى إرادة تنفيذها في دول أخرى، إلا أن الأحكام القضائية، في المادة المدنية والمسائل التجارية والأحوال الشخصية، لا تعترضها مثل تلك الصعوبات، بل تُواجه بالقبول على نطاق واسع، ولا يثير الاعتراف بها في الخارج مشاكل. واشترط التشريع الجنائي الإجرائي المغربي (المادة 716) في الجريمة، التي تكون محلّ نظر المحكمة المشار إليها، أن تكون "جناية أو جُنحة عادية"، مستبعداً صنفاً آخر من الجُنح، علاوة على المخالفات.

- أن يصُدّر بكيفية صحيحة سليمة، مُراعياً كافة الشروط والشكليات المطلوبة، وغير مخالف قانون الدولة التي تحتضن المحكمة مُصدّرتها؛ بحيث يتعيّن أن تلتزم السلطة القضائية لدى تكوين قناعتها، والنطق بالحكم في المنازعة المعروضة أمامها، عدداً من المبادئ والضمانات؛ من ذلك احترام حقوق الدفاع، وعلمية الجلسة، والاستناد إلى وسائل إثبات قوية، وتحرير الحكم وتوثيقه والتوقيع عليه، وتضمنين نصّ الحكم العناصر الأساسية؛ من ديباجة، وحيثيات، ومنطوق الحكم...

- أن يكون باتاً، تنقضي به الدعوى العمومية؛ بحيث لا يجوز إذّاك إعادة النظر فيه، والتعقيب عليه أو مراجعته من جديد بأي طريق من طرق الطعن، سواء أكان عادياً (كالتعرض) أم غير عادي (كالنقض)؛ إذ الحكم الباتّ هو الذي استنفد كل تلك الطرق المنصوص عليها قانوناً؛ فصار نهائياً تاماً، وحائزاً لقوة الشيء المقضي به. وقد يكون كذلك بسبب عدم قابليته أصلاً للطعن فيه، أو بفعل فوات أجل تقديم ذلك الطعن المحدّد في القوانين الشكلية/ الإجرائية<sup>2</sup>. وقد اشترط المشرّع المغربي أن يُرفّق طلب تنفيذ الحكم الزجري الأجنبي داخل إقليم المملكة بشهادة،

<sup>1</sup> - محمد الفاضل: التعاون الدولي في مكافحة الإجرام، م. س، ص 237.

<sup>2</sup> - فريدة بن يونس: تنفيذ الأحكام الجنائية، أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون الخاص، جامعة محمد خيضر، كلية الحقوق والعلوم السياسية، بسكرة، الجزائر، بإشراف: د. الزين عزري، الموسم الجامعي 2012/2013، ص 15.

مسلمة من كتابة الضبط المختصة، تفيد عدم وجود طعن قائم في ذلك القرار القضائي (المادة 431 من ق. م. م.). ولعل الذي جعل المشرعين يُلحّون على هذا الشرط هو خوفهم من حدوث مفاجآت فيما لو بادروا بالاعتراف بحكم أجنبي، وإعطائه صيغة تنفيذية (Exequatur) في بلدانهم، ثم يتعرض ذلك الحكم للإبطال أو للمراجعة والتعديل.

- ألا يخالف القانون الوطني كذلك، وألا يمسّ بالنظام العام في الدولة المطلوب منها الاعتراف بالحكم الجزائي الأجنبي وتنفيذه، وهذا - لعمرك - أمرٌ في غاية البُداهة؛ لأنه لا سبيل إلى تصور بلد يقبل بحكم أجنبي، في أي مجال، وهو يحمل، ضمن مقتضياته، ما يخالف أو يصطدم بقانونه الداخلي، أو بنظامه العام الذي ترتبط به المصالح العليا للبلد (سياسية - اقتصادية - اجتماعية...)، التي لا يجوز الاتفاق على مخالفتها. بل لا بد من التأكد مسبقاً من خلوّه تماماً من ذلك، وإلا غدّ حكماً مرفوضاً.

- أن يكون محلّ الحكم الجزائي الأجنبي، أو موضوعه، مجزماً في قانون البلد الذي أصدر قضاؤه بشأنه ذلك الحكم، وفي تشريع البلد المطلوب منه الاعتراف بهذا الأخير، والاحتجاج به أمام قضاائه الوطني، وإنفاذه على مجموع أراضي إقليمه. وقد نصّت على ازدواجية التجريم هذه عدة مواثيق؛ كالاتفاقية الأوروبية المتعلقة بالصلاحيات الدولية للأحكام الجنائية الأجنبية، التي ربطت، في مادتها (1/4)، تنفيذ الحكم الجزائي الصادر من إحدى الدول الأطراف في إقليم دولة متعاقدة أخرى بأن يكون الفعل، أو الامتناع، الذي صدر بشأنه الحكم خاضعاً للتجريم وفقاً لقانوني الدولتين معاً.

- يلزم احترام جملة من الإجراءات الشكلية الضرورية لدى تقديم طلب الاعتراف والتنفيذ؛ بحيث يُشترط أن يتضمّن هذا الطلب معلومات كافية عن الحكم المطلوب من دولة أخرى الاعتراف بحجيته وتطبيقه، وعن الجريمة محلّ الإجراء الجزائي فيه، وعن المتهم المُدان... ولا تقبل أكثر الدول الاستجابة إلا بعد تقديم طلب واضح، كتابي، من قبل دولة الإدانة الطالبة للتنفيذ، بمراعاة القواعد المعمول بها، والمنصوص عليها في نصوص الاتفاقيات، كما تشترط أن يمر ذلك الطلب عبر القنوات المعتمدة؛ كوزارة العدل في الدولتين معاً (الطالبة والمطلوب منها الاعتراف والتنفيذ)...

- أن تعترف الدولة الطالبة، أيضاً، بالأحكام الجزائية الصادرة عن الدولة المطلوب منها قبول أحكام الأولى في المادة الجنائية وتنفيذها داخل إقليمها. ويُطلق على هذا الشرط؛ شرط التبادل، اصطلاحاً "المعاملة بالمثل". وعليه، فإذا كانت الدولة مُصدرة الحكم الأجنبي لا تقبل أحكام قضاء

الدولة المطلوب منها تنفيذ هذا الحكم فيها إلا بعد إخضاعها للمراقبة والمراجعة، فإن دولة التنفيذ تعامل، هي الأخرى، الدولة الطالبة بالتعامل بنفسه؛ فتُسأل ما يرد عليها من أحكامها الجزائية، وتراجعها وتمارس شتى ألوان الرقابة عليها، ولا تقبلها قبولاً مباشراً وكأنها قرارات منزّهة، لا يأتيها النقص من بين يديها ولا من خلفها. ويتخذ التبادل، ها هنا، أشكالاً عدة؛ فقد يكون تبادلاً دبلوماسياً؛ وذلك في حالة وجود معاهدة دولية تلزم كلاً من الدول المتعاقدة بتوفير المعاملة نفسها للأحكام التي تصدر عن محاكم الدول الأخرى الأطراف في المعاهدة (الاتفاقية). وقد يكون تبادلاً تشريعياً؛ وذلك بأن يتضمّن تشريع الدولة التي صدر الحكم الأجنبي فيها ما يفيد السماح بتنفيذ الأحكام التي تصدر عن محاكم الدول المطلوب تنفيذ الحكم الأجنبي فيها. وقد يكون تبادلاً واقعياً؛ وذلك بأن يجري العمل في الدولة التي صدر فيها الحكم الأجنبي على تنفيذ الأحكام الأجنبية، ولو لم يكن ذلك مقرراً دبلوماسياً أو تشريعياً<sup>1</sup>. وذهب جانب من الفقه إلى انتقاد هذا الشرط، معتبراً إياه ذا طابع سياسي لا قانوني<sup>2</sup>.

- في التشريع الجنائي المغربي أنه يمكن، بعد الاطلاع على السّجل العدلي لمُرتكب الجريمة، الأخذ بالحكم الزجري الأجنبي الصادر في حقه سلفاً، في حال تعلق الأمر، تحديداً، بجناية أو جنحة عادية، وذلك بعد التأكد أولاً من صحة ذلك الحكم وسلامته من العيوب والثغرات مضمونها وشكلاً، وعدّ ذلك عنصراً من عناصر العود إلى الجريمة (المادة 716)، الذي يشكل ظرفاً مشدداً للعقاب عادة. وهنا يلزم أن يكون فعله الجُرْمي الأول مقيداً بذلك السجل. ويمكن لدولة ما الاطلاع على هذا الأخير المحفوظ لدى دولة أخرى، هي التي أصدر قضاؤها حكماً على أحد مواطني الدولة الطالبة القاطنين في الدولة مُصدرة الحكم، وموثقته في سجل إحدى محاكمها، بناءً على اتفاقيات ثنائية بينهما، تهمّ، في جانب منها، تبادل المعلومات، بما فيها تلك المقيدة بذلك السجل الخاص بجانيّ ما من مواطنيها بالخارج؛ من مثل اتفاقية التعاون القضائي المغربي-الإسباني، التي وقّعت بين الطرفين في مدريد بتاريخ 30 ماي 1997م.

- وفي هذا التشريع أيضاً (المادة 717) أنه لا يمكن تنفيذ الشق المدني (المطالبة بالتعويض) من مقرر صادر عن محكمة جنائية أجنبية داخل المغرب ما لم يُذيل بالصيغة التنفيذية بمُوجب مقرر تُصدّره إحدى محاكمنا المدنية تطبيقاً لمقتضيات قانون المسطرة المدنية المغربي، الذي

<sup>1</sup> - هشام علي صادق: تنازع الاختصاص القضائي الدولي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1972، ص 204.

<sup>2</sup> - رؤى عبد الستار صالح وباسم ذهاب خلف: الشروط الاتفاقية لتنفيذ الأحكام الأجنبية وأثارها غير المقترنة بقرار، مجلة جامعة تكريت للحقوق، العراق، ع. 2، مج. 3، س. 3، ج. 2، كانون الأول 2018، ص 307.



نصت مادته 430 على أنه "لا تُنفَّذ بالمغرب الأحكام الصادرة من المحاكم الأجنبية إلا بعد تذييلها بالصيغة التنفيذية، من طرف المحكمة الابتدائية لمُوطِن أو محل إقامة المدعى عليه، أو لمكان التنفيذ عند عدم وجودها".

تلکم، إذًا، هي أهمُّ الشروط اللازم توافرها في الحكم الزجري الأجنبي ليعترف بحجّيته أمام القضاء الوطني لدول أخرى، وليُعتدّ به؛ فيكتسي قوة تخوّل له النفاذ أمام المحاكم العادية في شتى الأقطار، أو جُلّها على الأقل، وتكون له مفاعيل وآثار ذات امتداد خارجي، إيجابية كانت أو سلبية. وإن العلم بهذه الشروط، وغيرها ممّا لم نأت على ذكره، أمرٌ في غاية الأهمية على الصعيد العملي؛ بحيث يلزم المشتغلين بمجال القضاء إدراكها، كما يتحتم على المشرّعين أن يكونوا على بينة منها، لدى مواجهتهم هذا النوع من الأحكام الجزائية التي يكون مصدرها محاكم تابعة لدولة أجنبية مستقلة أخرى. ولذلك العلم فوائدٌ من الكثرة بمكان؛ إذ ليس من العدل في شيء، في نظر أكثر الفقهاء والمنظرين، تجاهل حُكم صدر في حق جانٍ خارج بلده، فاستوفاه وأمضى عقوبته، أو نال البراءة على نحو قانوني بأي طريق من الطرق المشروعة... وبعد ذلك تُعاد ملاحقته ومتابعته ومعاقبته مرّةً أخرى في بلده على الجُرم نفسه، الذي سبق أن عوقِبَ من أجله خارجه! فالشخص، بقضائه العقوبة المقررة لفعله الإجرامي خارج وطنه، أو بالحكم عليه بالبراءة، يكون قد اكتسب حقًا لا يجوز الاعتداء عليه، أو المساس به بالمتابعة والملاحقة والعقاب مرّةً أخرى، ولو بوصفٍ تكييفيٍّ جديد. بل الواجب، في المقابل، أخذُ القرار القضائي الصادر في حقه من قبْل في الاعتبار الكامل، وتقدير عدم متابعته ولا معاقبته في دولته، بعد التأكد، طبعًا، من صحة الحكم الصادر في حقه مسبقًا. ولا يمكن تحريك المتابعة في حقه مجددًا إلا إذا رُصدت ثغرات ونقائص تعيبُ الحكم الجنائي الأول، أو ثبت أنه لم يستكمل العقوبة المحكوم بها عليه؛ فهنا ذهب أغلبُ الفقه إلى إعادة متابعته ومعاقبته، مع إنقاص المدة التي قضّاها من العقوبة في الخارج<sup>1</sup>.

ويجد هذا الكلام مستندَه في قاعدة راسخة في ميداني القانون والأخلاق، مضمّمها أنه لا يعاقب الشخص مرتين على فعل جُرّمي بعينه؛ إذ ينطوي فعلٌ خلاف ذلك على ظُلْمٍ لذلك الشخص، تنتفي معه شروط المحاكمة العادلة، وتغيب عنه بعض أهم ضماناتها المكرّسة في المواثيق والصكوك الدولية، فضلًا عن التشريعات الوطنية. فعلى سبيل التمثيل، حملت المادة 7/14 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية تنصيصًا بيّنًا على "عدم جواز

<sup>1</sup> من التشريعات التي تبنت هذا الرأي التشريع اللبناني؛ كما يتضح من المادة 28 من قانونه العقابي.

محاكمة أحد، أو معاقبته، مرة ثانية عن جريمة سبق أن صدر بشأنها حكم نهائي". ونصت المادة 2/710 من ق. م. ج. المغربي على أنه "لا يمكن أن يُتابع المتهم أو يُحاكم إذا أثبت أنه حكم عليه بالخارج من أجل هذا الفعل بحكم مكتسب قوة الشيء المقضي به. وفي حالة الحكم بإدانته، يتعين عليه أن يُثبت أنه قضى العقوبة المحكوم بها، أو تقادمت". وقد ارتقت هذه القاعدة لتصير مبدأ ذا بُعد دولي. يقول أحد الباحثين السُوريين إن "بعض المبادئ التي تقتضيها العدالة، ويقتضيها الإنصاف، لها قيمة عالمية، ولا يجوز أن تقف في وجه تطبيقها الحدود. ومن جملة هذه المبادئ أنه "لا يجوز أن يُعاقب المرء مرتين من أجل الفعل ذاته" Non Bis In Idem. وإذا كان ممّا ينافي العدل أن يُحاكم أحد الناس، أو أن يُعاقب، مرتين من أجل الجريمة الواحدة عينها في البلد الواحد، فإن الشعور العام لا يمكن أن يتلقى بالرضا والاطمئنان أن يحاكم هذا الشخص ذاته، أو أن يعاقب، مرتين متعاقبتين من أجل الجريمة عينها: مرة في بلد معين، وأخرى في بلد آخر".<sup>1</sup>

واعتباراً لكل ما تقدم، تتجه أكثر التشريعات المقارنة اليوم إلى الاعتراف بحُجبة الأحكام الجنائية الأجنبية أمام محاكمها الوطنية، متى استجمعت الشروط الأساسية التي أشرنا إلى عدد منها آنفاً، وإلى العمل بها واقعياً؛ لكون ذلك يحمي حقوقاً مكتسبة، ويحقق العدالة الجنائية، ويوطد العلاقات بين الدول في المجال القضائي، ويحول دون إفلات المجرمين من العقاب. كما أنه يشكل إحدى الآليات الناجعة في ميدان التعاون القضائي الدولي، التي يراهن عليها، أكثر من أي وقت مضى، للحد من الإجرام العابر للحدود، ولاسيما في اللحظة الراهنة، التي تطورت فيها الجريمة على نحو غير مسبوق، واتخذت لها مسارات جديدة، مستغلة كل الثغرات في التشريعات والعلاقات الدولية، وما تتيحه تكنولوجيا المعلومات والتواصل الجديدة (NTIC) من إمكانات هائلة؛ فأضحت أكثر تنظيمًا وخطورة وامتداداً في كل الجغرافيات والبيئات، بما فيها تلك التي ظلت، ألداحاً متطاولة من الزمن، مُحافِظةً ومُقاومة؛ الأمر الذي يدعو إلى تكثيف التعاون، وتضافر الجهود، واستثمار كل ما يمكن، تشريعياً وقضائياً وتقنياً...، والاعتراف بوجاهة الأحكام الجزائية الأجنبية وقوتها؛ لتحقيق هدف عام مشترك لدى كل أمم المعمورة، وهو مكافحة الجريمة، ولاسيما ذات الميَسَم الدُولي. ثم إنه لا يجب النظر إلى الاعتراف بحُجبة تلك الأحكام بوصفه نقيصة أو تنازلاً عن سيادة دول التنفيذ واستقلاليتها؛ كما يزعم أنصار النظرة الشوفينية الضيقة إلى الموضوع، بل يلزم فهم ذلك على أنه إجراء فعال يقتضيه، في كثير من الأحيان، تطويق الجريمة عبر الوطنية، وتحقيق العدالة الجنائية الدولية، وتوثيق أوأصر التعاون القضائي بين

<sup>1</sup> - محمد الفاضل: التعاون الدولي في مكافحة الإجرام، م. س، ص 233.

البلدان، التي صارت تؤمن بأن الإجرام العابر للحدود (الاتجار الدولي في المواد المخدرة - الاتجار غير المشروع في السلاح - الإرهاب - الاتجار في البشر - تبييض الأموال - تهريب المهاجرين...) يشكل خطرا حقيقيا على الدول كلّها، سواء القوية منها أو الضعيفة، الكبرى أو الصغرى، وبأنه لا يكاد يَسلم منه أي كيان اليوم.

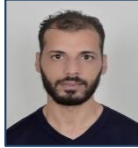
## المحور الثالث:

# دراسات أدبية ولغوية

## الحجاج الافتراضي بالسخرية في الخطاب الشعري التوثيبي الجاهلي

د. عبد الكريم بنعطية

باحث في البلاغة والخطاب  
المغرب



### مقدمة

نروم من خلال هذه الدراسة الوقوف على قدرة كل من الحجاج الافتراضي والسخرية على منح الخطاب قوة حجاجية، يستطيع من خلالها الخطيب/الشاعر إقناع المستمع بفحوى خطابه، وبالتالي دفعه إلى الفعل، أو إلى تغيير سلوك سائد. فمن المعروف أن السخرية من آليات بناء الخطاب، وربما غلبت على الناس تمثيلات خاطئة حول السخرية، فيعتقد الكثيرون أنها آلية للإمتاع، وذلك بسبب ما تبعته في النفس من انبساط، لأنها ترتبط عندهم بالطرفة أو النكتة، ولكن الاهتمام بقدرتها على الإقناع هائلة، لاسيما عندما ترتبط بمقصدية حجاجية إقناعية، أو من أجل التقريع والتبكي. ومن هذا المنطلق فإننا نطمح من خلال هذه الدراسة الوقوف عند بعض الأدوار الحجاجية للسخرية والتهكم، بوصفها "أحد أشكال البنية الكبرى في الخطاب، فهي تعتمد على تمييز مكثف للعبارة؛ فكما يعلم الجميع، فإننا نقول عكس ما نرغب في التعبير عنه، ويجب أن ندرك جيدا الطابع البنائي المهم للسخرية، إذ ينبنى الخطاب الساخر في بعض الأحيان على مجموعة من العبارات، ويعسر في بعض الأحيان التعيين الصريح للكلمات التي تحمل سخرية - من الناحية الشكلية- وبالرغم من ذلك، فإنه يمكن أن يحصل ذلك في حالة المجاز".<sup>(1)</sup> أما عن الخطاب موضوع الدراسة، فإننا اخترنا مجموعة من النماذج التحليلية من شعر الموثبات<sup>(2)</sup> الجاهلية، التي وجدنا فيها -من خلال قراءتنا لها- طابعا ساخرا غايته الإقناع والدفع إلى الفعل أو تغيير السلوك، وحيث يضطلع التهكم فيها بوظيفة الحجة، وينتقل من مجرد وسيلة لنقل الأحداث

(2) - Molinié, Georges. 1992. *Dictionnaire de rhétorique* (Paris : Librairie Générale Française), P180.

(1) - الموثبات: واحدتها موثبة، اسم فاعل من الفعل "وُثِبَ"، وهي قصائد قيلت لإيغار الصدور، وتحريض الناس على الأخذ بالثأر، والقتال في الحروب.

بشكل ساخر، إلى حجة تصنع الحدث. وقد اخترنا شاعرين هما: عمرو بن جبله، والمعني الطائي، ومن الشواعر؛ الشاعر الجاهلية عفيرة. كما أن مدار مقالنا سيكون الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف استطاع الشعراء بناء خطابهم الحجاجي من خلال استثمار الحجاج الافتراضي بالسخرية؟

ما مدى قوة هاتين الحجتين في شحن المستمع وإيغار صدره، وإقناعه للقيام برد الفعل؟ إلى أي حدّ تضافرت هاتان الحجتان بحجج أخرى فرضها السياق لتقوية البعد الإقناعي في هذا الخطاب التوثيبي؟

حجاجية الإيقاع، وتشابكه مع الحجاج بالسخرية في موثبة عمرو بن جبله:

الشاعر وسياق الموثبة:

شاعرنا هو أحد من شهدوا يوم ذي قار، وهو "عمرو بن جبله بن باعث بن صريم الغُبَرِيُّ اليَشْكُرِيُّ. جاهلي...وله في يوم ذي قار يُحَضِّضُ قومه على القتال."<sup>(1)</sup> وسبب توثيبه أن المقاتلين العرب اضطربوا قليلاً لرؤيتهم كثرة الفُرس، واختلفت آراؤهم، فكان كل واحد منهم يدلي بقوله، فقام الشاعر بينهم خطيباً<sup>(2)</sup> وقال: [من الرجز]

يَا قَوْمَ لَا تَغُرُّكُمْ هَذِي الْخَرْقُ

وَلَا وَبِصُ الْبَيْضِ فِي الشَّمْسِ بَرَقُ

مَنْ لَمْ يُقَاتِلْ مِنْكُمْ هَذِي الْعُنُقُ

فَجَبَّبُوهُ الرَّاحَ وَأَسْقُوهُ الْمَرَقُ

(2) - أبو عبد الله محمد المرباني، معجم الشعراء. تحقيق فاروق أسليم، بيروت-لبنان، دار صادر، 2005. ص65.

(1) - رافقت القصيدة مجموعة من الخطب المنثورة قبل أن يلقي الشاعر قصيدته وقد وردت في كتاب: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن البقاعي، خرج آياته عبد الرزاق غالب المهدي، د ط، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، الجزء الخامس، د ت، ص598.

## حجاجية الإيقاع:

نظم الشاعر موثبته على مشطور الرجز؛ وهو "ما أُسْقِطَ منه شطره. والعروض هي الضرب"<sup>(1)</sup>، أي إنه جعل البيت كله شطرا واحدا، بثلاث تفعيلات (مستفععلن مستفععلن). واختيار الشاعر لهذا الوزن يتناسب مع غرض الموثبة وسياقها، فالموقف موقف حرب و قتال، ويستدعي ذلك خفة الحركة والإيجاز، لذلك نجده قد عمد إلى هذا الوزن المشتق من بحر الرجز، الذي أسقط فيه الشطر الثاني بأكمله. ويؤكد المعري في كتاب الصاهل والشاحج، أن عرب الجاهلية وصدر الإسلام لم يعرفوا غير الرجز المشطور دون البحور الأخرى؛ فهو "أولها بارتجال الأوزان، واقتضاب الرجز والقصيد، ما كان منها في ملك الشعراء؛ لأنها تأذن لشدهم بالأشعار وهم جلوس فوق الصهوات"<sup>(2)</sup>. وبحر الرجز معروف بخفته الناتجة عن متوالية من الأسباب الخفيفة (ا 0)، مما يسمح بسهولة حفظ الشعر الذي يُنظَّمُ عليه، وكلما سهَّلَ حفظه، كان أكثر رسوخا لدى المتلقي، فيحفز به نفسه أثناء لقائه للعدو. ويعضد الشاعر الوزن، بقافية مقيدة رويها (القاف)، وهو صوت شديد من حروف الاستعلاء<sup>(3)</sup>؛ فالحرب كما هو معلوم تكون شديدة على الناس، والشاعر على دراية بذلك، وهو ما جعله يستخدم هذا الصوت لنقل صورة سمعية عن الحرب؛ "فالحالة الشعورية للخطيب وطبيعة المعاني المراد تبليغها تنعكس في الحروف الموظفة، فإذا كان الخطيب في حالة الفعل الشديد أو الغضب أو يحاول أن ينقل إلى مخاطبيه معاني قوية، فإنه يلجأ إلى التوظيف المهيمن للحروف ذات الصفات القوية؛ كالجهر والشدة والاستعلاء وغيرها"<sup>(4)</sup>. ولا يكتمل رسم هذه الصورة السمعية الحماسية إلا بآلية أخرى ناتجة عن النبر الذي يحدثه جمع الشاعر بين روي القاف والسكون؛ مما يعطي بيت الرجز المشطور قوة. ولعل أهم عنصر يمكن الإشارة إليه، أن هذا الشاعر قام خطيبا في الناس في ساحة الوغى، ولا شك أنه رفع صوته لتأجيج الحماس، وهنا يشكل التنغيم أحد الأسس التي يتقوى بها الإقناع

(1) الخطيب التبريزي، *الوافي في العروض والقوافي*، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة الرابعة، دمشق-سوريا، دار الفكر، 1988، ص104.

(2) أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري، *رسالة الصاهل والشاحج*، تج: عائشة بنت الشاطئ، الطبعة الثانية، القاهرة-مصر، دار المعارف، 1984، ص:66.

(3) -يراجع بهذا الصدد كتاب: *في البحث الصوتي عند العرب*، خليل إبراهيم العطية. بغداد-العراق، 1983، دار الجاحظ للنشر، ص57.

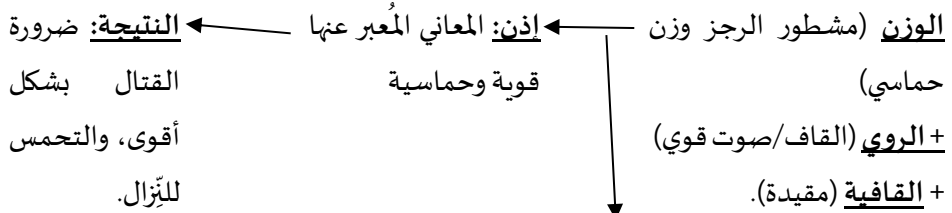
(4) - كمال الزماني، *حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي*، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2016، ص 121.

بالإيقاع؛ "فالتنغيم هو الطريقة التي يتم بها إلقاء الشعر، وهذا الإلقاء يرتبط بدلالة البيت الشعري، وتركيبه النحوي، ومستواه البلاغي"<sup>(1)</sup>. فإذا أخذنا على سبيل المثال مطلع موثبه:

يا قَوْم لا تَغْرُكُم هَذِي الْخَرْقُ<sup>(2)</sup>

نلاحظ أن الشاعر استهل الشطر بأسلوب نداء، باستعمال الأداة (يا)، ثم أتبع هذا التركيب بنفي (لا تغرركم)، مما نتج عنه وجود امتداد للصوت في البداية، لكنه توقف في القافية بشكل مفاجئ، وكأن هذا التوقف يحاكي صوت الطَّرْق أو الصوت الناتج عن قِراع السيوف؛ "ففي الشعر المقيد تقل مدة الوقف على القافية، لأن السكون لا يسمح بامتداد الصوت"<sup>(3)</sup>. ويتكرر الأمر عينه في تركيب آخر، فإذا نظرنا إلى البيتين الثالث والرابع، سنجد أن الشاعر قد جعل البيت الثالث جملة شرط، أما الجواب فكان البيت الرابع؛ مما ضمن استقلالية تامة للوزن، وسمح "بوصل إيقاعي" داخل كل بيت، وهو أمر نتج عنه احتفاظ كل جزء من أجزاء التركيب النحوي بقوته التنغيمية، التي ضمنها استعمال قافية مقيدة. ومن هنا تتحول الصورة السمعية إلى حجة لأنَّ "الصوت في معظم الحالات هو مفتاح التأثيرات الأخرى في الشعر"<sup>(4)</sup>

إن غرض الشاعر من استعمال هذا الحجاج الإيقاعي، تحميس المستمع، وإثارة عاطفته، من خلال ربط قوة المعاني بقوة الإيقاع على النحو الآتي:



نظرا إلى أن: الأصوات الأقوى، والأوزان الحماسية، والقوافي المقيدة تُوظَّفُ للدلالة على المعاني القوية.

(1) - نعيمة الواجيدي، الإيقاع الإبداعي في شعر أبي تمام: دراسة أسلوبية في مستويات الصوت، المعجم، البديع، التركيب، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2020، ص236.

(2) - لسان العرب مادة (خرق): والخرقة القِطْعة من الجراد كالخرقة. قال: قد نزلت، بساحة ابن واصل، خرقة رجلي من جراد نازل وجمعها خرق.

(3) - الإيقاع الإبداعي في شعر أبي تمام، مرجع مذكور، ص242.

(4) - أي ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة وتقديم: مصطفى بدوي، مراجعة: لويس عوض، القاهرة-مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، 1963، ص192.



## الحجاج الافتراضي بالكناية الساخرة:

ينطلق الشاعر في موثبته من توجيه الخطاب إلى قومه باستعمال النداء (يا قوم)، وذلك بغرض إثارة انتباه المستمع. وبعدها يُورد ما أراد أن يُنَبِّه إليه في عبارتين هما:

لا تغرركم هذي الخرق

ولا وبيص<sup>(1)</sup> البيض في الشمس برق.

فالخطاب، هنا، ذو بعدين، أولهما البعد الظاهر الذي تدل عليه الاستعارة التصريحية (خرق) إذ شبه كثرة الفرس بأسراب الجراد؛ فالشاعر يدعو إلى عدم الانخداع بهذا العدد الكبير من الجنود الذين جاؤوا لمحاربتهم. وكذلك الأمر في الشطر الثاني، فهو يستدعي الكناية في قوله "وبيص السيوف"، كناية عن استعدادهم من خلال صقلهم لسيوفهم وحدّها بشكل جيد، إلى درجة أصبحت معها لامعة. إن الاستعارة والكناية السابقتين، تعدان شكلا من أشكال فعل الاقتضاء Acte présumé؛ لأن الشاعر يسعى من خلالهما إلى "خلق الإلزامات ويؤسس الحقوق والواجبات والأدوار"<sup>(2)</sup>. فالشاعر يُلزم المستمع بعدم الانخداع بما يشاهده. وفي مستوى آخر أكثر عمقا، نلاحظ بروز فعل القول المضمّر Acte sous-entendu، الذي "يُسْتَنْجَجُ من المعنى الجانبي ومن المقام بواسطة الأسلوب الخطابي، أي من الاستدلال بالاستعانة بقوانين الخطاب، أهمها قانون الإخبار، وقانون الشمولية"<sup>(3)</sup>. وبالرجوع إلى السياق والأساليب الموظفة في هذا المقطع؛ سنجد أن الفعل الذي يدعو إليه الشاعر في الحقيقة هو القتال (قاتلوا).

تبين لنا أن الشاعر يدعو إلى قتال الفُرس، وهو إذ يدافع عن هذه الدعوى، يسوق لنا حجته الأقوى في البيتين الأخيرين من موثبته، على شكل حجاج افتراضي، يعتمد على البنية الشرطية (من لم...ف)؛ فهو يضع المستمع أمام اختيار صعب، فإما الاستجابة لنداء القتال والثبات في ساحة المعركة ضد هذه العُنُق<sup>(4)</sup>، وإما أن تكون النتيجة الحرمان من كل الامتيازات التي يتمتع بها الرجل الحر. وقد جعل الكناية حجته، وقدمها في صورة ساخرة، فقلوه: "جَنَّبوه الراح"، كناية عن منعه من الملذات التي يتمتع بها الرجل الحر كالنساء، واللهو، أي مما يجعل منه رجلا، أو لنوسع الكناية

(1) - وبيص: وميض ولمعان، البيض: السيوف.

(2) - عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني: دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر

والتوزيع، 2016، ص 165.

(3) - نفسه، ص 168.

(4) - العنق: الجماعة الكثيرة من الناس.

فنقول إنها كناية عن نبذه نبذا كُلياً. وفي المقابل يقترح الشاعر أن تُستبدل هذه "الخمرة" بـ "المرق"، وهي كناية ساخرة لاذعة، فقد كُتِيَ بالمرق عن العجز، لأن العرب كانت تسقي المرضى والعجزة المرق، لعدم قدرتهم على تناول الطعام الصلب. وفي هذه الكناية تحقير للمتراجعين عن القتال. ونلاحظ أن الشاعر عندما ساق كنياته، وجه الحديث إلى مخاطَب جمع (جنبوه-اسقوه)، ولم يستعمل ضمير المتكلم (سأجنبه -سأسقيه)، أو الجمع (سنجنبه \_ سنسقيه)، وذلك لأنه يريد أن يوسع دائرة الذين سيشكلون جمهوراً متفرجاً على هذا الذي سيتراجع عن القتال، من باب التشهير به، كما أن "للخطيب قصيدة التهكم بوصفه وسيلة للوصول إلى أهدافه، وفي الوقت نفسه فإنه لا يتحمل مسؤولية ما قاله، ويعبر عن نفسه بعكس ما يريد توصيله حقاً".<sup>(1)</sup> وهنا تبرز أهمية هذه الحجة الساخرة، في إقناع المستمع بضرورة القتال، فلا أحد يرغب في أن يكون مصيره الإذلال والعيش في الهوان.

### الحجاج بالسخرية في مُؤَيَّة (2) المَعْنِي الطَّائِي:

#### الخطيب/ الشاعر ومناسبة الموثبة:

لم تقدم كتب التراجم والمصنفات التي تحدثت عن القصيدة الشيء الكثير باستثناء أن الشاعر هو "عدي بن عمرو بن سويد بن ريان الأعرج الطائي المَعْنِي". وقيل اسمه سويد بن عدي. وهو شاعر مخضرم.<sup>(3)</sup> أما سياق القصيدة فلم نجده، ولكن البيت الأول منها يكشف أنها قيلت بعد انهزام قبيلة طيء وأحد بطونها (الغوثن) أمام إحدى القبائل الأخرى، وفرار مقاتلي طيء من المواجهة.

(2) -L'usage de l'ironie dans l'argumentation – Une étude pragmatique de quelques chroniques du Monde, Heidi Kilpiä, Mémoire de master de philologie française, Département des langues modernes, Université de Helsinki , Octobre 2011, p22 .

(3) - القصيدة في: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1998، الجزء الأول، ص 247.

وفي كتاب: شعري وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة: وفاء فهد السنديوني. ديوان القبيلة، الرياض-المملكة العربية السعودية، دار العلوم، الجزء الثاني، 1983، ص 523.

وفي كتاب: حماسة البحري، أبو عبادة بن الوليد البحري (248 هـ)، تحقيق محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، أبو ظبي-الإمارات العربية المتحدة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2007، ص 106.

(1) - أبو عبد الله محمد المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق فاروق أسليم، بيروت-لبنان، دار صادر، 2005، ص 65، 115.

## الخطاب:

نشير إلى أن الموثبة مكونة من خمسة أبيات، وتشكل وحدة موضوعية، لذلك لن نقسمها كما فعلنا مع الموثبات الأطول منها. [من الطويل]

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنْ قَدْ فَارَرْتُمْ	وَلَمْ تَبْنُدُوها لِلْمَعَاشِرِ أَوْلا
فَكُونُوا كَدَاعٍ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ	أَلَا رُبَّ مَرَةٍ قَرَّ ثُمَّتْ أَقْبَلَا
فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوا فَتَبَدَّلُوا	بِكُلِّ سِنَانٍ مَعَشَرَ الْعَوَثِ مَغْزَلَا
وَبِالْدِرْعِ ذَاتِ السَّرْدِ دَرَجًا	وَبِالسَّيْفِ مِرَاءً وَبِالْقَوْسِ مِكْخَلَا
وَأَعْطَوْهُمْ حُكْمَ الصَّبِيِّ بِأَهْلِهِ	وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَقُولُوا بِأَنَّ لَا

يستهل الشاعر خطابه بخبرٍ غرضه لازمُ الفائدة، ذلك أن المستمع عارف بالمعلومة المقدمة، التي تفيد بأن مقاتلي قبيلة طيء قد فروا من القتال، لأنهم موضوع الخبر أصلاً، وأعرف الناس به. كما أن الشاعر لم يُلقِ الخبر غُفلاً، بل أنزل المُسْتَمَعَ منزلة المنكر للخبر وغير المصدق له، لذلك عمد إلى استعمال مؤكدين هما لام التوكيد، وأداة التحقيق (قد)، وتكمن بلاغة هذين الأمرين في رغبة الشاعر في التشهير بهؤلاء الفارين من ميدان الحرب وتقريعهم. وللمبالغة في ذلك، أدرج لفظ "الأقوام" ليزيد من وقع الهزيمة في أنفسهم. وفي مقابل هذا التأكيد على خبر الفرار، يُدرج الشاعر في المقابل نفيًا في الشطر الثاني، يبتغي من خلاله تعرية مقاتلي قبيلته من قيمة أخلاقية، طالما تغنى بها الشعراء الجاهليون وهي "الشجاعة"، التي تعتبر المبادأة فيها أهم سمة مميزة. وغاية الشاعر من هذا التقريع استصغار هؤلاء ووصمهم بالجبن، وبالتالي دفعهم إلى الانتفاض، رغم أنه لم يكشف بعد عن طويته.

يُفَصِّحُ الشاعر في البيت الموالي عن غايته بشكل واضح، باعتماد التوجيه الساخر (L'orientation ironique) المتَّضَمَّنُ في فعل الأمر "كونوا"، الذي يبتغي منه إقناع مستمعه بالتحول من حالة "الفرِّ" إلى حالة "الكرِّ"، ودليله على ذلك تنبيهه (أَلَا رُبَّ) إلى حالات سابقة لأناس آخرين قد فروا من ميدان المعركة، لكنهم بعد ذلك أقبلوا على الموت والحرب. وتتمثل الطاقة الحجاجية في هذا الأمر الساخر، في أنه يتجاوز الأمر الحقيقي الذي يكون موجهًا من أمر أعلى مرتبة إلى مأمور أدنى مرتبة، فالشاعر والمستمع في مرتبة واحدة بحكم انتمائهما إلى القبيلة نفسها، وعليه يكون هذا الأمر مجرد استلزام حوار، يترتب عنه إمكانية عدم عمل المستمع به، لافتقاده شرط الاستعلاء كما بينا، لكن هذا الشرط (الاستعلاء) يكتسبه الشاعر من سياق الخطاب؛ ففرازُ المستمع من الحرب يُكْسِبُ الأمرَ صفة العلو في المرتبة ويحقق للأمر طابعه التوجيهي (القوة

الإنجازية الحرفية) ويخرجه من دائرة الاستلزام الحواري. ومع كل ذلك مازال الشاعر حريصاً على أن ما فعلوه ليس قاعدة عامة، لذلك تحرّز من استعمال لفظ "كم" الدال على الكثرة، واستخدم عوضاً عنه لفظ "ربّ" الدال على القلّة. كشف الشاعر عن هذا التحول، باعتماد نوعاً من الفصل الحجاجي بواسطة الطباق، فنسج صورة لما يجب أن يكونوا عليه. والحجاج بالطباق يُمكنُ المستمع من تجاوز عقدة الفرار، لأن الجمع بين المتضادين في البيت (الفُرّ/الكُرّ)، (فَرّ/أقبلا) خلق صورة متحركة تبين وضع الفرسان في المعارك، وكيف يمكن أن يكون الفرار مجرد استراتيجية لخداع العدو، وإعادة تنظيم الصفوف، للانقضاض عليه مرة أخرى وهزمه، وبهذا يقدم الشاعر لمستمعه الحل الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ شرفه، ويعيد إليه مكانته بين "الأقوام".

يتضمن البيت الثاني دعوى الشاعر، ففيه توثيب على العدو، ودعوة إلى القتال لاسترجاع الشرف، لكن الشاعر يضع أمامه احتمالية عدم إقدام أفراد قبيلته على ما نصّحهم به، ويتضح ذلك بتوظيف البنية الشرطية الدالة على الحجاج الافتراضي والمقتربة في الوقت نفسه بنفي: (فإن أنتم لم تفعلوا). إنّ الشرط هنا يَصْطَلَعُ بوظيفة بناء واقع جديد، لذلك يعتمد الشاعر إلى تبني استراتيجية جديدة تتمثل في الحجاج بالسخرية. فتأتي جملة جواب الشرط (فَتَبَدَّلُوا) بوضعية قاسية ومستفزة، تشي بالسخرية من هؤلاء المنهزمين، وتزيد من شدة التقريع. إنه يدعوهم إلى استبدال أدوات الحروب التي تدل على الرجولة والقوة والشجاعة، بأغراض نسائية تدل على الضعف والليونة؛ وذلك لتحسيسهم بالدونية التي سَيَسْمُهُمُ بها الأقوام الآخرون. وللتشهير بهم، يستعمل أسلوب النداء محذوف الأداة (مَعْشَرَ الْغَوْثِ)<sup>(1)</sup> حتى يضعهم أمام الأمر الواقع، بخلاف ما فعل في المطلع، حين اكتفى بالإشارة إليهم بضمير المخاطب الجمع (فررتم/ لم تبتدوها). كما يُقَدِّمُ هذا النداء الحجاجي باعتباره "استجابة لرغبة الشاعر في التفاف الجمهور من حوله، ثم من قبيل التأكيد على ما هو بصده من مواقف يبئها لقومه، أو ينفيها عن قومه من ناحية أخرى"<sup>(2)</sup>. ويُبرِّز الجدول الآتي التبادلات التي سخرها الشاعر لبناء حجاجه السّاخِرِ، وما يقابلها من الصفات المسلوقة والصفات المضافة:

(1) - بنو الغوث بن أدد: إخوة طيء بن أدد.

(2) - عبد الله التطاوي، أشكال الصراع في القصيدة العربية، مصر، مطبعة الأنجلو المصرية، 2004، الجزء الثالث: عصر بني أمية، ص126.

الأصل	الصفات المرتبطة به	البديل المقترح	الصفات المرتبطة به
السِّنَانُ: حديدة الرمح لصقاتها وملاسها. (مجاز مرسل علاقته الجزئية دال على الرمح)	كناية عن الاستعداد للحرب.	المَغْزَلُ: آلة خشبية تستعملها المرأة لقتل الصوف.	كناية عن لزوم البيت والقيام بأعمال منزلية.
الدرع ذات السُرْد: نَسْجُهَا الْمُدَاخِلُ لِبَعْضٍ حَلَقِهَا لِبَعْضٍ.	كناية عن جودتها، وقدرتها على حماية لابسها في المعارك.	دُرْجٌ وَعَيْبَةٌ: من أوعية الجلد، تجمع فيهما النساء الطيب والملابس.	كناية عن الدلال
السَّيْفُ: آلة من حديد يستعمل للقتال (معروف)	كناية عن الشجاعة، فحامله يواجه خصمه عن قرب.	المرأة: سَطْحٌ مَصْفُول تُرى فيه صورُ الأشياء.	كناية عن الدلال والانشغال بأمور الزينة.
القَوْسُ: عودٌ مُنْخَنٍ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيْهِ وَتَرٌ يُسْتَخْدَمُ لِرَمْيِ السَّيْهَامِ. <sup>(1)</sup>	كناية عن القدرة على الوصول إلى العدو وإن ابتعد.	مَكْحَلٌ: أداة من خشب غالبا، يُوضَعُ بها الكُحْلُ في العين. (المزود)	كناية عن الاهتمام بالزينة
الرُّشْدُ	الرجولة وتمام العقل والبلوغ	حُكْمُ الصبي بأهله	تعريض بعدم استحقاقه لمعاشره النساء وممارسة ما يقوم به البالغون.

نلاحظ أن الشاعر يستغل الجوانب النفسية للمستمع؛ فالهزيمة والفرار قد ألحقا أذى نفسيا به، لذلك فالشاعر، بحشده لكل تلك الكنايات الساخرة "يسعى إلى الانتقاد والإقناع بواسطة الاستهزاء، ليكون التأثير المطلوب على سلوك المتلقي هو إعادة التفكير في قيمه."<sup>(2)</sup> ينتقد الشاعر سلوكا غير مرغوب، ولم يكن انتقاده إجراء انتقاميا صرفاً، بل يهدف من خلاله إلى استخدام استراتيجية التشكيك في رجولة المُخَاطَب. إن إسناد تلك المُتعلقات الخاصة بالمرأة إلى الرجل، يُعدُّ بمثابة "خَصِي بلاغي"، غايته تقبيح الإدبار، في مقابل تحسين صورة القتال وتجميلها،

<sup>(1)</sup> - للتوسع أكثر في صورة القوس في الشعر القديم يراجع المقال الآتي: *القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي*، سلامة عبد الله السويدي، جامعة قطر، مجلة كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية، العدد 21، السنة 1998، ص 239-270.

<sup>(2)</sup> - *L'usage de l'ironie dans l'argumentation – Une étude pragmatique de quelques chroniques du Monde*, Heidi Kilpiä, Mémoire de master de philologie française, Département des langues modernes, Université de Helsinki, Octobre 2011, p18.

وبالتالي تكون السخرية قد أدت وظيفتها في توريث المستمع (المسُخَّر منه) ودفعه إلى رفض البديل المقترح من لدن السَّاحِر. لا شك في أن الشاعر يروم دفع المستمع إلى الاقتناع الذاتي، بأن ما يناسبه هي تلك الأدوات القتالية، التي تمثل الأنفة، والشجاعة، والقوة، والبطش، والبطولة. في مقابل الإحجام، والخوف، والتراجع، وعدم المواجهة. ومن هنا تمتزج السخرية بالقيم، لتتقوى وتكون أكثر فاعلية.

لا شك في أن هذه الاستراتيجية الحجاجية التي تنهل مادتها من عالم المرأة تجد لها أصولاً في الثقافة الاجتماعية والأبعاد الأنثروبولوجية، التي كانت تسود المجتمع العربي في الجاهلية<sup>(1)</sup>، الذي كان يسوده التفكير الذكوري، ويتأكد لنا ذلك من خلال مراجعة المعاجم العربية التي عرفت الأدوات التي أدرجناها في الجدول السابق، ونخص الذكر تلك التي اقترحتها الشاعر بديلاً، فعلى سبيل المثال حين عرفت المعاجم "المغزل" ربطته مباشرة بالمرأة: "غَزَلَت المرأة القطن والكتان وغيرهما تَغْزله غَزْلاً، وكذلك اغْتَزَلَتْه وهي تَغْزِل بالمِغْزَل، ونسوة غَزَلْنَ غَوَازِلَ"<sup>(2)</sup>. والأمر نفسه مع باقي الكلمات. إن هذا التمثيل السلبي للمرأة في المجتمع البدوي، يقدمها في صورة الكائن الضعيف، غير القادر على الدفاع عن نفسه، وهو في حاجة إلى من يدافع عنه، وهنا يحرك الشاعر الوتر العاطفي. كما أن مفهوم الرجولة تمثل في العرض، والشرف، والمروءة، والشهامة، والنخوة. وهي أمور كانت تجعل الرجل، من منظور عربي، أعلى مرتبة من المرأة. فمفهوم الشرف على سبيل المثال، ارتبط عندهم بالرجل أكثر من ارتباطه بالمرأة؛ فالمرأة لا شرف لها في ذاتها، فإن قامت بفعل مشين، فالذي يُصابُ ف عرضه هو أبوها، أو أخوها... وهذا ما يكرس الهيمنة الذكورية، فيتأَنَّفُ الرجل أن يُشَبَّه بالمرأة.

وكأي خطاب حجاجي، يضع الشاعر خاتمة يؤكد فيها رجاءه، الذي يختزل فيه أطروحته ويركزها، وهي ألا يكون ردهم على مقترحه بالإيجاب (وإني أرجو أن يَقُولُوا بَأْن لا)؛ أي لا يوافقون على ما اقترح عليهم، من ترك القتال، والقعود عنه كالنساء؛ "ففي الخطاب الحجاجي، يهدف الخطيب الساحر من شخص أو شيء إلى قول عكس ما قاله حقاً. إذن فالعكس هو نتيجة الحاجة

<sup>(1)</sup> - يراجع في هذا الصدد كتاب: *المرأة في التاريخ العربي: في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ليلي صباغ، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1975.

<sup>(2)</sup> - لسان العرب، ابن منظور، مصدر مذكور، مادة (غزل).

للسخرية. إن العكس قد يكون حاضرا في الخطاب الساخر على المستوى السطحي، لكنه يكون حاضرا كذلك على مستوى الأفكار<sup>(1)</sup>.

### حجاجية الباتوس والسخرية في موثبة عفيرة بنت عفان الجديسية:

يقال إن لقبها الشموس<sup>(2)</sup>، كان عميلق ملك جديس وطسم، "وهو من طسم"، ظلماً قد تمادى في غوايته حتى قيل إنه جاءه بعضهم فاحتكموا إليه في أمر فحكم حكماً غير عادل فقالت امرأة من جديس:

أَتَيْنَا أَخَا طَسْمَ لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا      فَأَنْقَذَ حَكْماً فِي هَزِيلَةِ ظَالِمَا  
لَعَمْرِي لَقَدْ حَكَمْتَ لَا مُتَوَرَعاً      وَلَا كُنْتَ فِيمَا يُبْرَمُ الْحُكْمُ عَالِماً  
نَدِمْتُ وَلَمْ أُنْدَمْ وَإِنِّي لَعَتْرَتِي      وَأُصْبِحُ بَعْلِي فِي الْحُكُومَةِ نَادِماً

فلما سمع عمليق قولها أمر ألا تهدي امرأة من جديس إلى زوجها قبل أن تقدم إليه. وزوجت "عفيرة" فانطلقوا بها إلى عمليق، فافترعها وخلي سبيلها، فخرجت إلى قومها في أقبح منظر وهي تقول: <sup>(3)</sup> [من الرجز]

لَا أَحَدَ أَذِلُّ مِنْ جَدِيسٍ  
أَهْكَذَا يَفْعَلُ بِالْعُرُوسِ

تعتمد الشاعرة على الحجاج القائم على الربط بين الحجاج غير اللغوي واللغوي في الوقت نفسه. فالسياق يبين أن الشاعرة خرجت في منظر قبيح، وقد جاء في بعض المصادر، أنها خرجت إلى قومها في دمائها رافعة ثوبها عن عورتها.<sup>(4)</sup> فالسؤال الذي طرحته الشاعرة: "أهكذا يفعل بالعروس؟" إنكار للفعل التي قام بها هذا الملك، وغايته تشنيع الفعل، وإظهار القبح الذي قام به، وبالتالي فهي تثير غضب المستمع، لأنه فعل لا ينتهي إلى القيم التي يؤمنون بها. ونتوقع أن المتلقين سيجيبون حماسة: لا نرضى بهذا.

يَرْضَى بِهَذَا يَا لِقَوْمِي حُرُّ

<sup>(1)</sup> - L'usage de l'ironie dans l'argumentation – Une étude pragmatique de quelques chroniques du Monde, Heidi Kilpiä, Mémoire de master de philologie française, Département des langues modernes, Université de Helsinki, Octobre 2011, p13.

<sup>(2)</sup> - خير الدين الزركلي الدمشقي، الأعلام، ط15، بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، 2002، ج5، ص:624.

<sup>(3)</sup> - بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1934، ص:29.

<sup>(4)</sup> - أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق: عمر فاروق الطباع، د ط، بيروت لبنان، دار الأرقم، د ت، ص:6.

أُهدى وَقَدْ أعطى وَسِيق المهرُ

تعتمد الشاعرة على الصورة التي خرجت بها، وتجمع بين هاته الحجة البصرية، والاستفهام مرة أخرى، فهي تورطهم، قائلة أترضون بهذا، وتعتمد على أسلوب الندبة في قولها "يا لقومي حر؟ وتستغيث تحريكا للعواطف، وكأننا بالمتلقي نسمع قولها ويجب: لا نرضى بهذا.

لأخذة الموت كذا لنفسه

خير من أن يفعل ذا بعرضه

تعتمد الشاعرة إلى موضع الأفضل وكذا منظومة القيم، في البيت الثالث في قولها "لأخذت الموت خير من أن يفعل ذا بعرضه"، لتبين أن الموت أفضل من الحياة إذا ترافقت الحياة بالمذلة، خاصة إن كانت من هذا النوع من الذل.

وقالت تحرض قومها بهذه الأبيات<sup>(1)</sup>: [من الطويل]

أُجْمَلُ ما يُوْتى إلى فتياكم	وَأَنْتُمْ رِجالٌ فيكم عدد النملِ
وَتَصْبَحُ تَمْشِي في الرغام عفيرةً	عفيرةً زَقَتْ في النساءِ إلى بعِلِ
وَلَوْ أَنَّنا كُنّا رِجالاً وكنتم	نِساءً لَكُنّا لا نَقَرّ بذا الفعلِ
فَموتوا كِراماً أو أَميتوا عدوكم	وَدَبّوا لِنارِ الحربِ بالحطبِ
وَأِلّا فَخَلّوا بَطَنَها وتحمّلوا	إلى بِلَدٍ قَفِرٍ وَموتوا من الهزلِ
فللبين خيرٌ من ثَمادٍ على أذَى	وللموت خيرٌ من مقامٍ على
وَأِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَغْضَبوا بعدَ هذهِ	فَكُونوا نِساءً لا تَعَبُ من
وَدونكم طيب العروسِ فإنّما	خُلِقْتُمْ لِأَثوابِ العروسِ
فَبُعداً وَسُخْفاً لِلذّي ليس	وَيَخْتالِ يَمْشِي بيننا مشية

تعتمد الشاعرة على الاستفهام في مطلع قصيدتها، واضعة بقولها المستمع أمام الأمر الواقع، ومواجهة إياه بالسكوت الذي لاحظته عن الأفعال التي قام بها الملك، ولعل بشاعة الفعل ما جعلها تكفي عنه ولا تصرح به استحياء، وهي تعتمد إلى حجة السخرية في قولها "وأنتم رجال فيكم عدد النمل"، فإخضاع الحجة السابقة للنفي يعطينا "لستم رجالا مع كثرتمكم". فالشاعرة لا تريد أن

(1) - شاعرات العرب، مرجع مذكور، ص 29-30.



تنتقص من رجولتهم، وإنما هي تحاول دفعهم إلى الغضب، لأن الفعل شنيع، وبالتالي فلا يجب السكوت عليه.

تلجأ الشاعرة في مستوى آخر إلى استعادة المشهد عن طريق التجريد، وتذكيرها بأن عفيفة وهي الشاعرة نفسها قد زُوِّجت إلى رجل، والبلع عند العرب تعني السيد والمالك، لكنها عاشت المذلة رغم ذلك، كأن هذا السيد غير قادر على حماية زوجته، وما زوجها إلا واحدا من القبيلة.

تستغل الشاعرة ثنائية الرجال/ النساء لبناء حجتها الافتراضية في البيت الثالث، فتبادل كونها امرأة بكونها رجلا، فإنها لن ترضى هي والنساء معها، الذين حولهن إلى رجال، بما فعله الملك بها، ومن هنا فإن الشاعرة تُغضب المستمع وتثير فيه عاطفة النعمة. ولأن الشاعرة تعرف قوة هذا الحجاج الافتراضي في النيل من رجولة المستمع، تسارع في البيت الرابع إلى توجيه المستمع إلى ما تريد من خلال حجاجها، وهو أحد الأمرين: إما الموت وقد حافظوا على كرامتهم، أو أن يقتلوا عدوهم، ونلاحظ أن الشاعرة خيرتهم بين أمرين باستعمال صيغتين صرفيتين مختلفتين "موتوا/ أميتوا"، فهي تجعل الموت أمرا حسنا مستحسنا، وهو الوحيد الكفيل بإعادة كرامتهم. كما أن الشاعرة تستعين بالاستعارة التصويرية، النابعة من تمثيل العرب للحرب، وهي الحربُ نازٌ. لإذكاء نار الغضب لدى المتلقي، لاسيما، أن فاعلية هاته الصورة الاستعارية تنبع من بقائها "حية على مدار التاريخ، لنا تحمله من كثافة رمزية وحيوية، ويلجأ إليها الشعراء بوصفها قوة إيجابية تضخم الواقع وتفتح أبوابه أمام القارئ، أو قوة سلبية تحجب الواقع عن المتلقي وتغلق أمامه الباب."<sup>(1)</sup>

تلعب الشاعرة مع المتلقي لعبة شد الحبل، فهي تقدم له حلولاً تضمن كرامته، وتعتمد نالياً إلى زيادة جرعة الغضب، فتعود إلى تفريغهم، فهي تقدم لهم حلاً آخر، لكنه قاس نوعاً ما، فإن هم لم يقاتلوا، فمن الأفضل لهم حسب الشاعرة أن: "يخلوا بطنها"، و"يتحملوا إلى بلد قفر"، و"يموتوا من الهزل"، والمتأمل في هذه المقترحات سيجد أنها جاءت في صيغ أمر مباشرة، واحتشدت كلها في بيت واحد، وهو دلالة على تأكيد الشاعرة على ضرورة القيام بهذه الأفعال بشكل سريع ومستعجل. كما أن اختيار بعض الصفات لا يخرج عن إطار إهانة هذا المتلقي المتقاعس عن رد كرامة الشاعرة، فالقفر والهزل مصادر مشتقة من أفعال، والمصدر كما هو معلوم، اسم يدل على الحدث الخالي من الزمن، وهذا الخلو من الزمن يعطي لهذه الصفات استمرارية في الزمن، تقدم صورة عن الغضب الذي ينتاب الشاعرة تجاه هؤلاء المتقاعسين.

(1) - عبد الفتاح أحمد يوسف، الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، بيروت، دار الكتاب الجديد

تستند الشاعرة إلى موضع الأفضل مرة أخرى، من أجل البرهنة على ما اقترحت في البيت السابق، وتجعل الدليل مبنياً على اسم التفضيل "خير" في كلا الشطرين، وتزيد من تقوية الحجة عن طريق تصدير الكلام في كل مصراع بلام التوكيد، مما شكل توازياً دلالياً وتركيبياً يتناسب والمعنى الذي تريده الشاعرة، ويؤكد النتيجة التي تريد الوصول إليها، وهي ضرورة الأخذ بالثأر من الملك، وتسوغ بذلك غضبها من هؤلاء المتقاعسين. ويمكن أن نبير هذا التقسم للحجج على النحو الآتي:

فَلْ	لِمَبِينُ	خَيْرُ	مَنْ	تَمَادٍ	على الأذى
وَلْ	لُمُوتُ	خَيْرُ	مَنْ	مَقَامٍ	على الدُّلِ

تعبّر الشاعرة عن لفظ الغضب بشكل صريح، وتبرز عاطفتها جهاراً، وهذا دليل على وصول الشاعرة نقطة اللاعودة، فهي تقرر أن تجعل الخطاب عنيفاً، والاستفزاز بالتصريح في هذا المقام يعطي للكلام الشاعرة شحنة عاطفية، ويقوي هدفها التحريضي، خاصة أنها جات فيه بنية شرطية، يكون جوابها مسترسلاً في الشطر الثاني من البيت السابع والبيت الثامن بأكمله. فقولها: "إن أنتم لم تغضبوا"، يشير إلى حجاج افتراضي، ويشكل مقدمة لتبكيك وشتيم، من شأنهما إثارة غضب مُحَرِّق. فيأتي جواب الشرط على النحو الآتي:

كونوا نساءً + لا تُعَابُ من الكحل = انتقاص من الرجولة؛

دونكم طيبَ العروس = انتقاص من الرجولة؛

إنما خُلِقْتُمْ لأثواب العروس، وللنسل = حجة الاستحقاق، فكل من لا يدافع عن نسائه ويحفظ كرامتهم، فهو يستحق هذا الوضع الذي يُنْقِصُ من رجولته. وقد عبرت عن حجة الاستحقاق بأداة الحصر "أنما".

تنفجر الشاعرة في الأخير غاضبة، وهو ما يؤكد توالي المصادر الدالة على الذم "بُعداً/ سُحْقاً"، وتصب جام غضبها على الذين لا يدافع عن شرفه. وتعتمد الشاعرة إلى التشبيه المصدري، لبيان سخرتها من هيئة هؤلاء الرجال قائلة: "... يختال يمشي مشية الفحل"؛ فهذا التشبيه حجتها في نفي الرجولة عن الرجال الذين شتمتهم.

وقد أكدت المصادر<sup>(1)</sup> أن قومها لما سمعوا هذا الشعر، قاموا على عمليق، وقتلوه مع جماعته كلهم؛ فتخلصوا من ظلمه<sup>(2)</sup>.

## خاتمة:

توصلنا من خلال تحليل النماذج الشعرية المدروسة إلى قوة السخرية في بناء الحجاج داخل الخطاب الشعري. ويمكن إجمال الخلاصات المتعلقة بالجانب التحليلي في الآتي:

**الحجاج بالسخرية:** حضرت السخرية باعتبارها حجة في المواقف التي استدعتها، وقد اضطلعت هذه الحجة بدور كبير في تبكيت المتوانين الذين لم يثأروا من أعدائهم، أو قبلوا بالدية، أو تناسوا ثأرهم، وقد لاحظنا أن السخرية، حضرت في الموثبات حضوراً متفاوتاً، بالنظر إلى جنس المتكلم، والموقف، وقد عمدت الشواعر إليها كثيراً، وكان مدار هذه الحجة الانتقاص من الرجولة، وكانت تترافق كثيراً ببنية "فإن لم تفعلوا.... فكونوا..."، وتتضافر هذه الحجة في أغلب الموثبات بالأساليب البيانية التي تتطلب ملء المحل الشاغر، لاسيما الكناية والاستعارة، والتشبيه البليغ، والتعريض. وقد تمتاز السخرية بالهجاء، في إطار عكس النموذج، وكذا الصور المقلوقة، التي تطلب فيها المرأة أن تكون بديلاً عن الرجل، وأن يكون الرجل بديلاً عنها؛

تشابكت السخرية مع آليات حجاجية، أهمها الإيقاع، الذي أعطاها قوة أثناء إنشادها، لاسيما في السياق الذي أنتجت فيه؛

**سلطة المرأة:** اعتمدت الشاعرة المحرضة سلطتها المتمثلة في وضع الاعتباري داخل المجتمع، ونظراً لما تقدمه هذه المرأة إلى لمجتمع العربي عموماً، والرجل خصوصاً؛ فهي تشاركه الآلام والمسرّات، وهي معه في فترات السلم والحرب، وهي رمز لاستمرار الحياة، كما أنها رمز العفة والكرامة، وهذه الإسقاطات تحضر في القصيدة، فالمسُّ بكرامتها، أو تعرضها للإذلال يكون سبباً مباشراً يدفع الأفراد والجماعات إلى التوحد للأخذ بالثأر من أجل استرجاع الكرامة؛

**موضع المرأة:** تأسست السخرية على موضع الأفضل، المتمثل أساساً في التمثيل الذي يسيطر على العقلية العربية، والذي يتلخص في الرجل أفضل من المرأة، وقد استغل هذا الموضوع في مناسبات عدة كما لاحظنا، والمثير للدهشة أن الشواعر اعتمدت عليه، رغم ما فيه من انتقاص

(1) - يراجع كتاب: خلاصة السير الجامعة لعجائب الملوك التابعة، نشوان الحميري. تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي، د ط، دار العودة، د ت، ص: 49.

(2) - شاعرات العرب، ص 30.

لهن، لكن الغايات الحجاجية ومقصدياتهن، هي التي جعلتهن يمعنّ في استخدام هاته الحجة القوية، التي تنبني على التصورات والتمثلات السائدة في المجتمع العربي.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- أبو عبد الله محمد المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق فاروق أسليم، بيروت-لبنان، دار صادر، 2005.
- أحمد يوسف، عبد الفتاح، الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، بيروت-لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2014.
- أي ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة وتقديم: مصطفى بدوي، مراجعة: لويس عوض، القاهرة-مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، 1963.
- البحري، أبو عبادة بن الوليد (248 هـ)، حماسة البحري، تحقيق محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، أبو ظبي-الإمارات العربية المتحدة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2007.
- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته عبد الرزاق غالب المهدي، دط، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، الجزء الخامس، دت.
- بن منظور، محمد أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت-لبنان، 1994.
- التبريزي، الخطيب، الوافي في العروض والقوافي، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة الرابعة، دمشق-سوريا، دار الفكر، 1988.
- التطاوي، عبد الله، أشكال الصراع في القصيدة العربية، مصر، مطبعة الأنجلو المصرية، 2004، الجزء الثالث: عصر بني أمية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1998.

- الحميري، نشوان، خلاصة السير الجامعة لعجائب الملوك التبابعة، تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي، د ط، دار العودة، د ت.
- الدينوري، أبو حنيفة، الأخبار الطوال، تحقيق: عمر فاروق الطباع، د ط، بيروت لبنان، دار الأرقم، د ت.
- الزركلي، خير الدين الدمشقي، الأعلام، ط15، بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، 2002، ج5.
- الزماني، كمال، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2016.
- السنديوني، وفاء فهمي، شعر طيء وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة: السنديوني. ديوان القبيلة، الرياض-المملكة العربية السعودية، دار العلوم، الجزء الثاني، 1983.
- السويدي، سلامة عبد الله، القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي، جامعة قطر، مجلة كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية، العدد 21، السنة 1998.
- صباغ، ليلى، المرأة في التاريخ العربي: في تاريخ العرب قبل الإسلام، دمشق-سوريا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1975.
- العشراوي، عبد الجليل، آليات الحجاج القرآني: دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2016.
- العطية، خليل إبراهيم، في البحث الصوتي عند العرب، بغداد-العراق، 1983، دار الجاحظ للنشر.
- المرزباني، أبو عبد الله محمد، معجم الشعراء، تحقيق فاروق أسليم، بيروت-لبنان، دار صادر، 2005.
- المعري، أحمد بن عبد الله أبو العلاء، رسالة الصاهل والشاحج، تح: عائشة بنت الشاطئ،

الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، 1984.

- الواجيدي، نعيمة، الإيقاع الإبداعي في شعر أبي تمام: دراسة أسلوبية في مستويات الصوت، المعجم، البديع، التركيب، إريد-الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2020،
- يموت، بشير، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1934.

#### المراجع الأجنبية:

- Heidi Kilpiä, L'usage de l'ironie dans l'argumentation – Une étude pragmatique de quelques chroniques du Monde, Mémoire de master de philologie française, Département des langues modernes, Université de Helsinki, Octobre 2011.
- Molinié, Georges. 1992. Dictionnaire de rhétorique (Paris : Librairie Générale Française.

## الأدب والتكنولوجيا: بحث في خصائص الأدب الرقمي

د. علي صديقي

جامعة محمد الأول، وجدة  
المغرب



### مقدمة

شاعت في الأدبيات العربية المعاصرة مصطلحات "النص الأدبي الرقمي"، و"الكتابة الرقمية"، و"الإبداع الرقمي"، و"الكتاب الإلكتروني"، و"الترقيم"، وغيرها من المصطلحات التي تحيل إلى نمط جديد من الكتابة، ومن النصوص الأدبية التي تولدت نتيجة التطور الهائل الذي حدث في مجال تكنولوجيا الإعلام والتواصل. غير أن هذه المصطلحات ما تزال، رغم شيوعها، تعاني الكثير من الخلط والاضطراب، بسبب عدم اهتمام عدد من المنظرين العرب للكتابة الرقمية، الأدبية وغير الأدبية، والمهتمين بها، بتحديد دلالة هذه المصطلحات، وضبط حدودها. ونستثني من هذا الحكم عددا قليلا من الباحثين العرب ممن اطلعنا على أعمالهم. من هنا، يأتي هذا البحث لتحقيق هذا الهدف، ومحاولة ضبط مفهوم الأدب الرقمي، وذلك عبر الإسهام في التعريف بالنص الأدبي الرقمي، وبيان أهم خصائصه الجوهرية التي تميزه عن النص الأدبي الورقي. كما يروم الوقوف على واقع الأدب الرقمي في الأدب العربي المعاصر، واستشراف مستقبله، على أمل تجاوز حالة الانحسار والركود التي يعاني منها، وذلك من خلال تقديم جملة من المقترحات والتوصيات التي من شأنها، في اعتقادنا، أن تدفع قدما بهذا النمط من الإبداع، وأن تنشر الوعي به في أوساط النقاد والباحثين العرب، وتجعلهم يُقبلون على "قراءة" هذا النوع من الإبداع، بعد أن يُقبلوه بوصفه جزءا من حركة النص الأدبي المعاصر.

وقد اقتضت طبيعة البحث، اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، بغرض تحديد خصائص النص الأدبي الرقمي، موضوع الدراسة، ووصف طبيعته، وإدراك حقيقته، في أفق تقديم تحليل علمي له. من هنا، قسمنا بحثنا إلى محورين، عُني أولهما بضبط مفهوم النص الأدبي الرقمي، واختص الثاني ببيان أهم خصائص هذا النص، إلى جانب خاتمة تضمنت جملة من المقترحات والتوصيات.



## أولاً: مفهوم النص الأدبي الرقمي

## 1. مفهوم الترقيم Numérisation

## أ. الترقيم لغة:

تدل مادة رقم في المعاجم اللغوية العربية على جملة من المعاني، أهمها: التَّعْجِيم والتَّبْيِين والكتابة والقلم والخط. يقول ابن منظور (توفي 711هـ): "الرَّقْمُ والتَّرْقِيمُ: تَعْجِيمُ الْكِتَابِ. وَرَقْمُ الْكِتَابِ يَرْقُمُهُ رَقْمًا: أُعْجِمَهُ وَبَيَّنَّهُ. وَكِتَابٌ مَرْقُومٌ، أَي قَدْ بَيَّنَّتْ حُرُوفُهُ بَعْلَامَاتِهَا مِنَ التَّنْقِيطِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «كِتَابٌ مَرْقُومٌ» كِتَابٌ مَكْتُوبٌ... وَالْمَرْقُومُ: الْقَلَمُ... وَالرَّقْمُ: الْكِتَابَةُ وَالْخَتْمُ... وَالرَّقْمُ: ضَرْبٌ مُخَطَّطٌ مِنَ الْوُثْئِيِّ... وَرَقْمَ الثَّوبَ يَرْقُمُهُ رَقْمًا وَرَقْمَهُ: خَطَّطَهُ".<sup>1</sup>

## ب. الترقيم اصطلاحاً:

يعرف سعيد يقطين الترقيم بأنه "عملية نقل أي صنف من الوثائق من النمط التناظري إلى النمط الرقمي، وبذلك يصبح النص والصورة الثابتة أو المتحركة والصوت أو الملف...، مشفراً إلى أرقام، لأن هذا التحويل هو الذي يسمح للوثيقة أياً كان نوعها بأن تصبح قابلة للاستقبال والاستعمال بواسطة الأجهزة المعلوماتية".<sup>2</sup>

وهكذا، يمكن القول، انطلاقاً من هذا التعريف العام للترقيم، بأن ترقيم النص جملة، والنص الأدبي خاصة، ما دمنا بصدد الحديث عن مفهوم النص الأدبي الرقمي، هو عملية تحويل النصوص التي هي من النمط التناظري Analogique، أي الورقي، سواء كانت هذه النصوص مخطوطة أم مطبوعة، إلى النمط الرقمي الإلكتروني، وذلك بغرض الحصول على نص رقمي قابل للاستقبال والمعاينة بواسطة الأجهزة المعلوماتية، وفي مقدمتها جهاز الحاسوب.

وحتى يتضح هذا التعريف أكثر، لابد من التمييز بين نوعين من النصوص، هما: النصوص المقروءة، والنصوص المعاينة؛ إذ من المعلوم أن النص ينقسم، باعتبار الوسيط المستعمل في إنتاجه وتلقيه، إلى قسمين، هما: "النص المقروء"، الذي يتحقق من خلال الكتابة الورقية، والذي يعد الكتاب المطبوع، في وقتنا الحاضر، فضاء لقراءته. و"النص المعاین"، الذي يتحقق بالكتابة الرقمية، والذي يعد الحاسوب فضاء لمعاينته ومشاهدته.

<sup>1</sup> ابن منظور: لسان العرب. دار صادر (بيروت، د.ت). مادة رقم.

<sup>2</sup> سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2005)، ص259.

وإذا كانت خصائص النص المقروء تتمثل بشكل خاص، في قيامه على الخطئية والتتابع، لأنه نص لا يُقرأ إلا على النحو الذي كتب به؛ أي أنه لا يمكن استخلاص المعنى منه إلا بمراعاة تسلسل أفكاره وفقراته. من هنا، فهو نص «تناظري»، يشبه الصيغة التي ألف بها من لدن مبدعه. كما أنه سكوني وثابت لا تتغير هيأته، وأحادي العلامة؛ لأنه نص لغوي فقط، ويقرأ قراءة خطية عمودية، ولا يفرض علينا، قصد إنتاجه وتلقيه، سوى امتلاك آليات الكتابة الإملائية وتقنياتها.

فإن خصائص النص المعايين Observable مختلفة تماما، ولعل أهم ما يميزه عن النص المقروء هو أنه نص رقمي، لا يتحقق إلا من خلال شاشة الحاسوب، كما أنه عبارة عن شذرات تتلاءم مع حجم هذه الشاشة، إضافة إلى أنه قد يكون مترابطا، يوظف أنواعا متعددة من الروابط للربط بين مكوناته وعناصره، ويُقرأ قراءة أفقية، وذلك باستعمال الروابط للتحرك في فضاء النص، كما أنه قد يكون متعدد العلامات، فهو يستوعب إلى جانب اللغة، الصورة والصوت والحركة، ويفرض علينا، إلى جانب امتلاك آليات الكتابة الإملائية العادية، تحصيل المعرفة المعلوماتية، وكيفية تنظيم الشذرات والربط بينها، ومعرفة كيفية استثمار العلامات الصوتية والصورية والحركية بطريقة إبداعية فعالة.<sup>1</sup>

وإذا كان كل نص يبدو من خلال شاشة الحاسوب هو نص معاين، فإنه يجب التمييز بين نوعين من النص المعايين، هما: النص المرقم أو الإلكتروني، الذي يتحقق من خلال الكتابة المرقمة، والنص الرقمي الذي يتحقق من خلال الكتابة الرقمية.

إن النص المرقم/ الإلكتروني هو النص الذي يعد الحاسوب مجرد وسيط لإنتاجه، أي أنه مجرد آلة إلكترونية لإنتاجه قصد تحويله فيما بعد إلى عمل مطبوع، أي إلى نص ورقي، وهو بذلك يشبه الآلات التي كانت تستعمل قديما في عملية الطبع (الآلة الكاتبة مثلا).

أما الحاسوب في النص الرقمي فليس مجرد وسيط لإنتاجه، وإنما هو وسيط لإنتاجه، وفضاء لتلقيه ومعاينته أيضا؛ لأن هذا النص ليس قابلا للتحويل إلى عمل مطبوع/ ورقي. ولذلك، لا يمكن معاينته إلا من خلال شاشة الحاسوب. أما إذا حولناه إلى عمل مطبوع، فإنه سيفقد أهم خاصية تميزه، وهي خاصية الترابط.

<sup>1</sup> . سعيد يقطين: النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية (نحو كتابة عربية رقمية)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2008)، ص129 وما بعدها.

وكما يميز يقطين بين النص المرقّم والنص الرقمي، يميز كذلك بين التقييم والكتابة الرقمية، فالترقيم عنده هو عملية تحويل النص المقروء (المطبوع والمخطوط) أو المسموع (الشفوي) ليصبح قابلاً للمعاينة والسماع من خلال شاشة الحاسوب. أما الكتابة الرقمية فهي تتحقق عندما ننتج نصاً ليُتلَق على شاشة الحاسوب، موظفين كل الإمكانيات التي يوفرها لنا هذا الحاسوب.<sup>1</sup>

ويميز يقطين بين نوعين من النص الرقمي، هما:

\* **النص الرقمي البسيط:** ويعد هذا النمط بسيطاً لأنه أقرب إلى الكتاب المطبوع، فهو يخضع لبنية شبه خطية، ولمسارات مضبوطة ومحدودة، كما أن الروابط فيه محدودة. أضف إلى ذلك أنه أحادي العلامة، فهو لغوي فقط.

\* **النص الرقمي المركب:** يختلف هذا النمط اختلافاً جوهرياً عن النص المطبوع؛ حيث إن عدد روابطه لا حد له، وهو منفتح على كل مكوناته، ويسمح للقارئ بأن يتفاعل معه بصورة لا نجدها في أي نص آخر. وهذا النمط المركب هو المقصود (ضمناً أو مباشرة) بالنص المترابط في مختلف الدراسات أو الأبحاث التي تنظر له.<sup>2</sup>

## 2. مفهوم النص الأدبي الرقمي:

تتعدد المصطلحات التي يستعملها الباحثون والنقاد العرب المعاصرون للدلالة على هذا النوع من النصوص الأدبية، منها: الإبداع التفاعلي،<sup>3</sup> والأدب التفاعلي،<sup>4</sup> والنص المترابط،<sup>5</sup> والأدب الرقمي،<sup>6</sup> والنص المتفرع،<sup>7</sup> والنص المتشعب،<sup>8</sup> وأدب الواقعية الرقمية،<sup>9</sup> والأدب الافتراضي،

<sup>1</sup>. المرجع نفسه، ص 134.

<sup>2</sup>. سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 142.

<sup>3</sup>. سعيد يقطين، خاصة في الكتاب الذي سبق ذكره.

<sup>4</sup>. فاطمة البريكي، في كتابها: مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط 1، 2006).

<sup>5</sup>. سعيد يقطين، في: النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية.

<sup>6</sup>. زهور كرام، في: الأدب الرقمي، أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، دار رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة، ط 1، 2009). وسعيد يقطين، في: النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية.

<sup>7</sup>. حسام الخطيب، في: الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المتفرع، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، (دمشق، ط 1، 1996). وعبد الله الغدامي، في مقدمته لكتاب البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 10.

<sup>8</sup>. عبير سلامة، في: النص المتشعب ومستقبل الرواية. على الرابط الآتي:

<http://www.alimizher.com/n/3y/studies3/Studies3/hyper.htm>

<sup>9</sup>. محمد سناجلة، في كتابه: رواية الواقعية الرقمية، على الرابط:

<http://6ollap.ps/article/16024>

كما استعمل هذا التعبير في وصف روايته صقيع، حيث وصفها بأنها "تجربة جديدة في أدب الواقعية الرقمية".

والأدب الإلكتروني، والأدب المعلوماتي.<sup>1</sup>

ويعرف سعيد يقطين الإبداع الرقمي أو التفاعلي بأنه "مجموع الإبداعات (والأدب من أبرزها) التي تولدت مع توظيف الحاسوب، ولم تكن موجودة قبل ذلك، أو تطورت من أشكال قديمة، ولكنها اتخذت مع الحاسوب صوراً جديدة في الإنتاج والتلقي... غير أن "الحاسوب" ليس فقط "أداة"، فهو في آن واحد: أداة، وشكل، ولغة، وفضاء، وعالم. فهو بمعنى آخر أشمل: منتج وأداة إنتاج وفضاء للإنتاج وعلاقات إنتاجية. وكل هذه الأبعاد والدلالات التي تحملها مادة "ن. ت. ج" تتحقق في "الإبداع التفاعلي"، من خلال "النص المترابط"، باعتباره هو أيضاً وفي آن واحد: أداة للإنتاج (برنامج) وإنتاجاً يتحقق من خلال النص (أيما كانت علامته: اللغة، الصورة، الصوت، الحركة)...

في هذا "الإبداع" التفاعلي يتحقق "التفاعل" في أقصى درجاته ومستوياته:

- بين المستعمل للحاسوب والحاسوب جهة...
- وبين العلامات بعضها ببعض (لكونها مترابطة) من جهة ثانية،
- وبين المرسل والمتلقي، حيث يغدو المتلقي للنص المترابط بدوره منتجا، بالمعنى التام للكلمة، من جهة ثالثة.<sup>2</sup>

وتعرفه فاطمة البريكي بقولها: "إنه الأدب الذي يوظف معطيات التكنولوجيا الحديثة في تقديم جنس أدبي جديد، يجمع بين الأدبية والإلكترونية، ولا يمكن أن يتأتى لمتلقيه إلا عبر الوسيط الإلكتروني، أي من خلال الشاشة الزرقاء. ولا يكون هذا الأدب تفاعلياً إلا إذا أعطى المتلقي مساحة تعادل، أو تزيد عن، مساحة المبدع الأصلي للنص".<sup>3</sup>

أما زهور كرام فتقول عن الأدب الرقمي بأنه "مجال خصب لتطوير مفهوم النص... إنه يتشكل انطلاقاً من المواد التي تؤلف هيئته (اللغة، الصوت، الصورة، الاشتغال على الوثائق والملفات، ملتيميديا، البرامج المعلوماتية)، في الحدود المفتوحة مع القارئ (خيارات خاصة، قرارات فردية، وضعيات نفسية وذهنية، سلوك اجتماعي وثقافي...). لهذا فالنص يصبح نسيجاً من

<sup>1</sup> . يُنظر كتاب سعيد يقطين: النص المترابط، ص 183 وما بعدها.

<sup>2</sup> . سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 9-10.

<sup>3</sup> . فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 49.

العلامات التي لا تجعله يخضع لوضع قائم وثابت. وإنما نصيبته تتحقق من حيويته ولا اكتماله. القراءة هي أفق تحقيق نصية النص الرقمي".<sup>1</sup>

ويعرفه السيد نجم بالقول بـ"أنه ذلك "المنتج" الإلكتروني لمبدع ما، في سعيه لإنتاج "نص رقمي" على الشاشة الزرقاء، "مستعينا" بمفهوم جنس أدبي ما (شعر- رواية- قصة- مسرحية)، "متوسلا" بالتقنية الرقمية ومنجزاتها (التي أحالت الكاتب إلى ضرورة تعلم فنون تركيب وتحريك الصورة، والصوت، وفن الجرافيك والأنيميشن.. أحالته إلى التعرف على قدرات الإخراج الفني الدرامي)".<sup>2</sup>

ونخلص من التعريفات السابقة إلى أن النص الأدبي الرقمي يتميز بجملة من الخصائص التي تجعله ذا هوية خاصة متميزة من النص الأدبي الورقي. وهذه الخصائص ستكون موضوع حديثنا في المحور الثاني من هذه الورقة.

ويتأسس النص الأدبي الرقمي على جملة من العناصر، أهمها:

- المبدع الرقمي: يميز المهتمون بالأدب الرقمي بين نوعين من المبدعين، هما: المبدع الورقي، والمبدع الرقمي. إن المبدع الرقمي يشترط فيه امتلاك المعرفة المعلوماتية الكافية التي تمكنه من إنتاج النص الرقمي، إلى جانب امتلاكه آليات الكتابة العادية الإملائية التي يمتلكها المبدع الورقي، لأن هذا المبدع لم يعد يكفي باستخدام اللغة الأدبية فحسب، بل صار لزاما عليه أن يوظف علامات متعددة (لغوية وصورية وصوتية)، وأن يربط بين هذه المكونات والعناصر. وهذا ما جعل يقطين يقول عنه إنه كاتب وزيادة.<sup>3</sup>

إن المبدع الرقمي مبدع متميز؛ فهو يبدع العمل الأدبي حين يكتبه، وهذا عمل يشترك فيه مع المبدع الورقي، ويبدعه حين ينفذ فكرته ويؤلف بين العناصر اللغوية وغير اللغوية التي يستعملها في عمله، ويبدعه حين يقوم بإخراجها، سواء بمفرده أو بمساعدة أحد المتخصصين، خاصة إذا كان الكاتب لا يتقن استعمال تكنولوجيا المعلومات، ولا يحسن استخدام البرامج

<sup>1</sup> . زهور كرام: الأدب الرقمي، ص50.

<sup>2</sup> . السيد نجم: النص الرقمي وأجناسه، مجلة العربي الحر، على الرابط الآتي:

<http://www.freearabi.com/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%82%D9%85%D9%8A=%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84=%D8%B3%D9%8A%D8%AF-%D9%86%D8%AC%D9%85.htm>

<sup>3</sup> . سعيد يقطين: النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية، ص199.

الخاصة بإنتاج النص الرقمي، ويبدعه حين يقوم بإنتاجه. لذا، من الأفضل أن نتحدث عن المبدع المخرج والمنتج بدل الحديث عن المبدع فقط. وهذه الصفات تحققت في محمد سناجلة الذي حُق له أن يصف نفسه في بداية نصه "صقيع"، بالكاتب والمؤلف والمنفذ والمخرج.<sup>1</sup> يقول سناجلة متحدثاً عن الروائي الرقمي: "إن على الروائي نفسه أن يتغير، فلم يعد كافياً أن يمكسك الروائي بقلمه ليخط الكلمات على الورق، فالكلمة لم تعد أدواته الوحيدة، على الروائي أن يكون شمولياً بكل معنى الكلمة، عليه أن يكون مبرمجاً أولاً، وعلى إلمام واسع بالكمبيوتر ولغة البرمجة، عليه أن يتقن لغة الـ HTML على أقل تقدير، كما عليه أن يعرف فن الإخراج السينمائي، وفن كتابة السيناريو والمسرح..."<sup>2</sup>.

**المتلقي الرقمي:** المتلقي الورقي خياراته من النصوص الورقية محدودة (الكتب المطبوعة والمخطوطة، والمجلات، والروايات، والقصص...)، وأحياناً تفرض عليه بحسب رغبة دور النشر، والتوجهات السياسية والثقافية والدينية السائدة. أما المتلقي الرقمي فيتمتع بقدر كبير من الحرية، ولا يفرض عليه شيء، فهو سيد نفسه، وخياراته غير محدودة، يختار عندما يدخل إلى الشبكة النصوص التي يشاء، ويقرأها بالطريقة التي يشاء. وإذا كان المتلقي الورقي يقرأ النص المطبوع قراءة عمودية خطية، فإن المتلقي الرقمي يقرأ النص الرقمي قراءة أفقية، لأنه يمتلك الحرية في اختيار المسار الذي يشاء.

أضف إلى ذلك أن المتلقي الرقمي لا يكتفي بالقراءة، وإنما يقرأ العلامات اللغوية (الكلمات)، ويشاهد أو يعاين العلامات غير اللغوية، من صور ومشاهد وحركات وألوان. ولذلك، من الأفضل تسميته بالمتلقي المعاين أو المشاهد.

**- النص الرقمي:** ويتميز عن النص الورقي بجملة من الخصائص التي ستكون موضوع حديثنا في المحور الثاني من هذه الدراسة. وما يمكن تأكده هنا، هو أننا صرنا نشهد في الوقت الحاضر، وبفضل الثورة المعلوماتية، تغيرات جذرية في طبيعة النص الأدبي الذي لم يعد أحادي العلامة، فقد اتسع مفهومه، وصار يشمل علامات أخرى غير العلامة اللفظية، وصار متصلاً بالحاسوب

<sup>1</sup> . انظر نصه الروائي الرقمي صقيع، وقد ساعده على إخراجه وتحريكه عمر الشاويش. وللإشارة، فإن نصاً بهذه المواصفات التي تجعله قريباً جداً من فيلم سينمائي، يحتاج إلى مؤسسة للإنتاج وليس إلى مطبعة عادية. لذا نجد أن هذا النص قد أنتجته مؤسسة محمد سناجلة للتصميم والنشر الإلكتروني.

<sup>2</sup> . محمد سناجلة، رواية الواقعية، ص 96.

ويتعذر معانيته خارجه. ولذلك، ربما وجب البحث عن اسم آخر لهذا النص، اسم ينسجم مع طبيعته الجديدة ويستوعب هذه العلامات.

ويميز الباحثون بين نوعين من النصوص الأدبية الرقمية، هما:

\* النص الأدبي الرقمي ذو النسق السلبي، أو ما يسميه سعيد يقطين الأدب الإلكتروني، أو الأدب الرقمي البسيط: وهو نص مغلق، يتحقق بنقل النص الورقي المطبوع أو المخطوط إلى الحاسوب من أجل معانيته على شاشته، وهو يحافظ على جميع سمات النص الورقي حتى وإن أصبح خاضعا لمتطلبات الحاسوب، مثل استعمال الفأرة للانتقال من صفحة إلى أخرى. وهذا النوع من الأدب لا يعد أدبا رقميا بالمعنى الحقيقي للكلمة حتى وإن كان منشورا على الشبكة العنكبوتية.

\* النص الأدبي الرقمي ذو النسق الإيجابي، أو الأدب الرقمي الحقيقي: وهو الأدب الذي يستخدم الحاسوب بوصفه أداة لإنتاجه وتلقيه معا، ويوظف ما يقدمه له من إمكانيات تقنية، وهو بذلك، يعتمد، إلى جانب اللغة، علامات أخرى غير لغوية: صورية وحركية وصوتية، كما أنه يعتمد الترابط عنصرا جوهريا للربط بين مختلف هذه العلامات.<sup>1</sup>

وتتطلب قراءة النص الأدبي الرقمي توفر شرطين أساسيين، هما:

\* امتلاك ولو حد أدنى من المعرفة المعلوماتية، خاصة العمليات الضرورية لتشغيل الحاسوب واستخدامه، كتحريك الفأرة، واستعمال لوحة المفاتيح، وتشغيل البرامج، وعمليات النسخ والتحفيظ والتحريك داخل مساحة الصفحة.

\* معرفة كيفية إنتاج النص المترابط: إن معرفة كيفية إنتاج النص المترابط وإنجازه ضرورية في عملية القراءة، إذ يجب على القارئ أن يدرك أن النص الذي يعاينه نص مترابط يختلف عن النص الورقي، وهو بذلك مليء بالروابط والمعينات التي تسمح له بالانتقال من شذرات نصية إلى أخرى، بمجرد تنشيطها بالنقر عليها بواسطة الفأرة. وعليه أن يدرك أيضا أنه كلما واصل تنشيط هذه الروابط، وتقدم في فتحها، ابتعد عن نقطة البداية، الأمر الذي سيدخله في "مناهة" قد يصعب عليه الخروج منها، أو التحكم في مسار عملية القراءة، أو الاستفادة من النص المترابط الذي يعاينه.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> . سعيد يقطين: النص المترابط، ص 190. وفاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 22.

<sup>2</sup> . سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 133.

## 3. أجناس الأدب الرقمي:

تتعدد أجناس الأدب الرقمي تعدد أجناس الأدب الورقي، فهناك من جهة، أجناس أدبية تقليدية، مثل: الرواية والقصيدة والقصة والمسرحية، ومن جهة أخرى ظهرت أجناس جديدة لم تكن موجودة من قبل، وإنما تولدت مع ظهور الحاسوب واستعماله على نطاق واسع، وذلك مثل "الروايات المشتركة والكتابات التفاعلية الجماعية التي يشارك العديد من القراء والكتاب في كتابتها". بل إن يقطين يدرج ضمن هذه الأجناس "ألعاب الفيديو"، و"المدونات ذات الطبيعة الإبداعية"<sup>1</sup>، وذلك، ربما، لتحقيق صفة التفاعلية فيها. والجامع بين هذه الأجناس جميعها، التقليدية والجديدة، هو بطبيعة الحال، الطابع الرقمي، وما يستتبعه ذلك من خصائص ومكونات.

## 1.3. الرواية الرقمية/ التفاعلية:

الرواية الرقمية "نمط من الفن الروائي يقوم فيه المؤلف بتوظيف الخصائص التي تتيحها تقنية (النص المتفرع)، والتي تسمح بالربط بين النصوص سواء أكانت نصا كتابيا، أم صورا ثابتة أم متحركة، أم أصواتا حية أو موسيقية، أم أشكالا جرافيكية متحركة، أم خرائط، أم رسوما توضيحية، أم جداول، أم غير ذلك، باستخدام وصلات تكون دائما باللون الأزرق، وتقود إلى ما يمكن اعتباره هوامش على متن، أو إلى ما يرتبط بالموضوع نفسه، أو ما يمكن أن يقدم إضافة لفهم النص بالاعتماد على تلك الوصلات"<sup>2</sup>.

ويعرفها رائد الرواية الرقمية العربية محمد سناجلة بأنها "تلك الرواية التي تستخدم الأشكال الجديدة التي أنتجها العصر الرقمي، وبالذات تقنية النص المترابط (هايبركست) ومؤثرات المالتيميديا المختلفة من صورة وصوت وحركة وفن الجرافيك والأنيميشن المختلفة، وتدخلها ضمن البنية السردية نفسها، لتعبر عن العصر الرقمي والمجتمع الذي أنتجه هذا العصر، وإنسان هذا العصر، الإنسان الرقمي الافتراضي الذي يعيش ضمن المجتمع الرقمي الافتراضي"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> . سعيد يقطين: النص المترابط، ص 195.

<sup>2</sup> . فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 112.

<sup>3</sup> . أورد هذا التعريف السيد نجم في مقاله: النص الرقمي وأجناسه.



ويرى سناجلة أن هذه الرواية إنما جاءت لتعبر عن التحولات العميقة التي رافقت انتقال الإنسان وتحوله من كينونته الأولى، بصفته إنسانا واقعيا، إلى كينونته الجديدة بوصفه إنسانا رقميا افتراضيا.

وتتميز الرواية الرقمية بما يتميز به الأدب الرقمي عامة من خصائص، كالترابط، وتعدد العلامات، وتكسير الخطية التي تتميز بها الرواية الورقية سواء على مستوى الكتابة أو القراءة، وتحقيقها عبر الوسيط الإلكتروني.

ويعد الكاتب الأمريكي مايكل جويس رائد الرواية الرقمية التفاعلية في الأدب الغربي، فقد أنتج عام 1986 أول رواية تفاعلية، وهي رواية (story afternoon)، وذلك باستخدام برنامج المسرد Storyspace.<sup>1</sup> ثم توالى بعدها الإنتاجات والتجارب الروائية الرقمية وتطورت.

أما في الأدب العربي، فلا أحد يجادل في أن المخرج والمبدع والمنتج الأردني محمد سناجلة يعد رائد الرواية الرقمية العربية، فقد أصدر سناجلة روايته الرقمية الأولى عام 2001 بعنوان "ظلال الواحد"، ونشرها على موقعه الخاص. وقد استخدم في هذه الرواية التقنيات التي تتيحها الثورة الرقمية، حيث استفاد من تقنيات لقطات الفيديو، ومن تقنية الربط بين النصوص والعلامات المختلفة، عن طريق استخدام عدد من الروابط.<sup>2</sup> وتؤكد البريكي ريادة سناجلة بقولها: "يعد (سناجلة) بحق، ودون تطرف أو مبالغة، أول روائي عربي يستخدم تقنية (النص المتفرع) وخاصة (الروابط) التي يتيحها لكتابة (رواية تفاعلية) تعتمد عدم الخطية في سيرورة أحداثها، وبناءها القصصي".<sup>3</sup>

وتواصلت جهود سناجلة في إغناء المكتبة الأدبية العربية الرقمية بإنتاج نصين روائيين، هما "شات" (2005)، و"صقيع" (2006).

### 2.3. القصيدة الرقمية/ التفاعلية:

تعرفها فاطمة البريكي بأنها "ذلك النمط من الكتابة الشعرية الذي لا يتجلى إلا في الوسيط الإلكتروني، معتمدا على التقنيات التي تتيحها التكنولوجيا الحديثة، ومستفيدا من الوسائط الإلكترونية المتعددة في ابتكار أنواع مختلفة من النصوص الشعرية، تتنوع في أسلوب عرضها،

<sup>1</sup>. انظر: يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 255. والبريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 115.

<sup>2</sup>. أحمد فضل شبلول: رواية الواقعية الرقمية: محمد سناجلة وميلاد أدب عربي جديد. وذلك على الرابط:

<http://www.nashiri.net/critiques-and-reviews/critiques-and-analyses/1273----i-v15-1273.html>

<sup>3</sup>. فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 122.

وطريقة تقديمها للمتلقي/ المستخدم، الذي لا يستطيع أن يجدها إلا من خلال الشاشة الزرقاء، وأن يتعامل معها إلكترونياً، وأن يتفاعل معها، ويضيف إليها، ويكون عنصراً مشاركاً فيها".<sup>1</sup>

ويمكن توفير هذه القصائد الرقمية على شبكة الإنترنت، أو على أقراص مدمجة (CD-Rom)، كما يمكن تبادلها عبر البريد الإلكتروني. وقد ظهر هذا النوع من القصائد الشعرية عام 1990 على يد الشاعر الأمريكي روبرت كاندال Robert Kendall الذي يعد رائد هذا النوع من الشعر.

أما في العالم العربي فلعل أول مجموعة شعرية رقمية ظهرت هي "تباريح رقمية لسيرة بعضها أزرق"، للشاعر العراقي مشتاق عباس معن.<sup>2</sup>

وتربط البريكي القصيدة التفاعلية بنوع من الشعر معروف في الأدب العربي، وإن لم يحظ بالانتشار والاهتمام من قبل الدارسين، هذا النوع هو "الشعر الهندسي" أو الشعر البصري،<sup>3</sup> وهو نمط من الشعر يكتب على شكل من الأشكال الهندسية المعروفة (الدائرة، المربع، المثلث، المستطيل...)، وتنظم فيه الكلمات على نحو يتناسب مع الشكل الهندسي المختار. ويتميز هذا النمط من الشعر بكونه يمنح المتلقي حق اختيار البداية التي يشاء، كما أنه لا يكون خطياً وثابتاً، فقد يكون دائرياً، أو قد يتخذ شكل مربع، أو شكل مثلث، أو شكل شجرة، وهذا ما يجعله يُقرأ قراءة أفقية لا عمودية. من هنا، فإن المتلقي لهذا النوع من الشعر يكون له دور مهم في إنتاج معنى النص، نظراً للحرية التي يتمتع بها في اختيار نقطة البداية، واختيار مسار القراءة، وهي حرية لا يتمتع بها قارئ القصيدة المطبوعة العمودية. وهذه السمات كلها تجعل القصيدة الهندسية تشكل، في نظر الكاتبة، نواة لقصيدة تفاعلية عربية.<sup>4</sup>

### 3.3. المسرح الرقمي/ التفاعلي:

تعرفه فاطمة البريكي بأنه "نمط جديد من الكتابة الأدبية، يتجاوز الفهم التقليدي لفعل الإبداع الأدبي الذي يتمحور حول المبدع الواحد، إذ يشترك في تقديمه عدة كتاب، كما قد يُدعى

<sup>1</sup> . فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 77.

<sup>2</sup> . انظر قراءة في المجموعة أنجزتها فاطمة البريكي، في كتابها: الكتابة والتكنولوجيا، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط 1، 2008)، ص 127 وما بعدها.

<sup>3</sup> . لمعرفة المزيد عن هذا النوع من الشعر، ينظر كتاب محمد نجيب التلاوي: القصيدة التشكيلية في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1998).

<sup>4</sup> . فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص 91-97.

المتلقي/ المستخدم أيضا للمشاركة فيه، وهو مثال للعمل الجماعي المنتج، الذي يتخطى حدود الفردية، وينفتح على آفاق الجماعة الرحبة".<sup>1</sup>

أما المخرج والمبدع العراقي محمد حسين حبيب، الذي يعد أحد أبرز رواد المسرح العربي الرقمي، وصاحب أول تجربة مسرحية رقمية عربية، فيعرف المسرح الرقمي بأنه "المسرح الذي يوظف معطيات التقانة العصرية الجديدة المتمثلة في استخدامه الوسائط الرقمية المتعددة في إنتاج أو تشكيل خطابه المسرحي، شريطة اكتسابه صفة التفاعلية".<sup>2</sup>

ويؤكد أن من أهم خصائص هذا النمط من المسرح، "اعتماده على توظيف ذات الخصائص الرقمية لإنتاج مسرحية نصاً أو عرضاً".<sup>3</sup>

ويرى السيد نجم أن تجربة محمد حبيب الرائدة عربياً، قد اتسمت بجملة من الخصائص، أهمها:

- توفير مناخ المشهدية الواقعية في العمل، وذلك بفعل مشاهد الرقص والغناء التي تضمنتها المسرحية.

- توظيف "الإضاءة" لتحقيق ما يريجه المخرج (رؤيته).

- محاولة إتاحة الفرصة لتوظيف "مكان" التلقي في تجسيد فكرة المسرحية (أو الديكور).

- المزج بين الآلية (جهاز/أجهزة الحاسوب)، والعنصر البشري (الممثل/الممثلون).<sup>4</sup>

### ثانياً: خصائص النص الأدبي الرقمي

يتميز النص الأدبي الرقمي، حسب سعيد يقطين، بثلاث خصائص، هي:<sup>5</sup>

<sup>1</sup> . فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، ص99. ويعد هذا التعريف من أهم تعريفات المسرح الرقمي، وهذا ما يؤكد أحد رواد المسرح الرقمي العربي محمد حسين حبيب حين ذكر في إحدى حواراته، أنه انطلق من هذا التعريف ليقترح نظريته في المسرح الرقمي. انظر الحوار، وهو بعنوان: المسرح الرقمي.. مفهومه وآفاقه المستقبلية، على الرابط الآتي:

<http://www.startimes.com/?t=16849256>

<sup>2</sup> . انظر حواراً بعنوان: محمد حسين حبيب يؤكد أن المسرح الرقمي نظرية عراقية، وذلك على الرابط الآتي:

<http://www.middle-east-online.com/?id=109103>

<sup>3</sup> . المرجع نفسه.

<sup>4</sup> . السيد نجم: النص الرقمي وأجناسه.

<sup>5</sup> . سعيد يقطين: النص المترابط، ص190.

1. **العنصر اللغوي:** إذ إن النص الإبداعي، سواء كان رقمياً أو ورقياً، هو نص لغوي أولاً وأخيراً. وهذا العنصر في الحقيقة يصعب عده من مميزات الإبداع الرقمي، لأنه مشترك بين النصين الأدبيين الورقي والرقمي، بل يمكن القول إنه من خصائص الأدب الورقي لا الرقمي.

2. **تعدد العلامات:** لم يعد النص الأدبي أحادي العلامة، إذا لم يعد يقتصر على توظيف العلامة اللغوية فحسب، وإنما صار يستثمر جميع الإمكانيات التي يتيحها الحاسوب للمبدع لتقديم نص متعدد العلامات. ذلك بأن النص الرقمي يضم إلى جانب العلامة اللغوية علامات أخرى غير لغوية، كالصوت، والموسيقى، والصورة الثابتة والمتحركة، والألوان المختلفة، وغيرها من العلامات التي يفتقر إلى بعضها النص الورقي.

إن تعدد العلامات من سمات الأدب الرقمي الجوهرية التي نجدها في بعض النصوص الإبداعية الرقمية العربية، كروايتي شات وصقيع، ففي هاتين الروايتين نجد سناجلة قد نجح في استثمار جميع الإمكانيات التقنية التي أتاحها له الحاسوب، لتوظيف علامات متعددة تخدم غرضه، مثل الكلمات/ العلامة اللغوية، والأصوات المختلفة، والموسيقى، والألوان المتباينة، والصور الثابتة والمتحركة... وتعد خاصية تعدد العلامات، إلى جانب خاصية الترابط، أهم الخصائص التي تجعل هذين النصين عمليين أدبيين رقميين مركّبين حقيقيين.

3. **الترابط النصي:** الرابط هو تلك العلاقة التي تربط بين معلومتين أو بين شذرتين نصيتين، وهذه العلاقة غير مرئية، وإنما يُؤشر عليها بوصلات (كلمات أو جمل)، تكتب بلون يختلف عن لون النص/ المتن، وغالباً ما يكون هذا اللون هو الأزرق، أو يوضع تحتها خط لتمييزها من باقي كلمات النص وجمله.

ويعد الترابط أهم خاصية تميز النص الرقمي عامة، والأدبي خاصة، فهو بُعدٌ جوهري في إبداع النص الرقمي وتلقيه، وبدونه لا يمكن الحديث عن نص رقمي، وهو الذي يميز النص الرقمي من النص الإلكتروني (المرقّم)، كما أن الترابط هو الذي يكسر خطية النص المكتوب، ويجعله متعدد الأبعاد، ويسمح للمتلقي بأن يتحرك في فضاء النص وفق المسارات المتعددة التي يفرضها، دون أن يلتزم بالخطية التي يتميز بها النص الورقي.

وتؤكد زهور كرام أهمية الرابط بقولها: "يشكل الرابط Lieu/ تقنية أساسية في تنشيط النص المترابط والدفع به نحو التحقق. والرابط هو الذي يربط بين معلومتين، وهذا الارتباط هو الذي ينتج المعنى. وعليه فإن تدخل القارئ في اختيار الرابط يفعل في إنتاج نوعية العلاقات

المترابطة، ومن ثمة في نوعية المعنى المنتوج من هذه العلاقة بين معلومتين... يعطي الرابط خصوصية للنص المترابط التخيلي<sup>1</sup>.

غير أن هذه الأهمية القصوى الممنوحة للرابط، ترتبط، بحسب كرام، بضرورة الوعي، من جانب المتلقي، بوظيفة الرابط، وبوضعه المحوري في عملية الربط بين المعلومات والعناصر التي يشتمل عليها النص، لأنه بدون هذا الوعي، لا يمكن إدراك منطق اشتغال النص المترابط، ولا يمكن تنشيط النص والدفع به إلى التحقق<sup>2</sup>.

ويميز سعيد يقطين بين "الترباط النصي"، و"النص المترابط". يقول: "نميز بين «الترباط النصي» و«النص المترابط». ونعني بالأول السمة التفاعلية المميزة للنص كيفما كان نوعه مطبوعاً أو إلكترونياً. وهذا المعنى يتصل بوثوق بأنواع التفاعل النصي... أما "النص المترابط" Hypertexte فنقصره على النص الإلكتروني الذي يقوم على الروابط التي تصل بين مختلف أجزائه ومكوناته. وبذلك نرى أن:

- الترباط النصي مظهر من مظاهر «التفاعل النصي»، وهو عام إذ نجده يتحقق في أي نص كيفما كان جنسه أو نوعه.

- النص المترابط: خاص بالنص الإلكتروني الذي تتحقق فيه الروابط، وذلك على اعتبار أن ليس كل نص إلكتروني نصاً مترابطاً بالضرورة...

- إن النص المترابط هو الذي تتجسد فيه الروابط، وذلك بناءً على أنه يتشكل من مجموعة من البنيات غير المترتبة، والتي يتصل بعضها ببعض بواسطة روابط يقوم القارئ بتنشيطها، والتي تسمح له بالانتقال السريع بين كل منها<sup>3</sup>.

من هنا، يميز يقطين بين صنفين من الترباط: الترباط العام، والترباط الخاص؛ فالترباط الأول "سمة إنسانية لأنه يجسد لنا أحد أهم مقومات النص، والتي تتجلى في كون أي نص هو ملقئ «علامات» نصية متعددة (التفاعل النصي)<sup>4</sup>. وهذا النوع من الترباط حاضر في النصوص

<sup>1</sup>. زهور كرام: الأدب الرقمي، ص 47.

<sup>2</sup>. المرجع نفسه، ص 47.

<sup>3</sup>. سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 128. وانظر أيضاً المرجع نفسه، ص 100.

<sup>4</sup>. المرجع نفسه، ص 163.

ما قبل الإلكترونية، وهو عفوي ومشترك بين جميع النصوص، وحاضر حتى في النصوص الأحادية العلامة.<sup>1</sup>

أما الترابط الخاص، فهو "مقصود لذاته" وليس عفويا، وخاص بالنصوص التي تنتهي إلى الحقة الإلكترونية، ولذلك فهو "متصل بطبيعة الجهاز الموظف في إنتاجه وتلقيه"،<sup>2</sup> وهو جهاز الحاسوب.

وهكذا، يكون النص المترابط، بحسب يقطين، عبارة عن "وثيقة رقمية تتشكل من «عقد» من المعلومات قابلة لأن يتصل بعضها ببعض بواسطة روابط".<sup>3</sup>

وتتميز زهور كرام، في سياق تحليلها رواية شات لمحمد سناجلة، بين نوعين من الروابط، هما: الروابط التفاعلية الداخلية، والروابط غير التفاعلية الخارجية.

الأولى تحقق للنص تفاعليته عبر "تحقيق الترابط الوظيفي المعلوماتي بين النص المتضمن والنص المتضمن رقميا، مع توظيف نصي داخلي".<sup>4</sup> وتنقسم هذه الروابط إلى نوعين، هما: الروابط المباشرة، والمقصود بها "تلك الروابط التي تتفرع عن نص/ مقطع وتعود إليه (ذهاب/ رجوع)"، كالروابط التي تربط بين النصوص الشعرية المتضمنة في الرواية، وبين الرسائل المتبادلة بين السارد ومنال، وبين الكلام المتبادل بين المتواصلين من خلال دردشة غرفة الشات. والروابط غير المباشرة، وهي متفرعة عن المباشرة، وتحدث "جوا من الحركة بفعل تنشيط الروابط، والانتقال دفعة واحدة بين مجالات سردية عديدة. كما تحدث تعددية مفتوحة على العلاقات التناسية بين نصوص الروابط. مما يخلق حالة سردية يمكن التعبير عنها بالترابط التناسي Hyper interxtualité".<sup>5</sup>

أما الثانية: أي الروابط غير التفاعلية الخارجية، فهي تلك التي تحضر في النص الروائي "من أجل تقديم خدمة معلوماتية للقارئ، مثل توثيق اسم كاتب أو شاعر ورد اسمه في النص. وتعد

<sup>1</sup>. المرجع نفسه، ص 163-165.

<sup>2</sup>. المرجع نفسه، ص 163.

<sup>3</sup>. المرجع نفسه، ص 130.

<sup>4</sup>. زهور كرام: الأدب الرقمي، ص 81.

<sup>5</sup>. المرجع نفسه، ص 82-83.

هذه الروابط "خارج نصية": لأنها "لا تنتج المعنى المحتمل من خلال الربط بين معلومتين/ نصين/ ملفوظين، ولكنها ذات اتجاه واحد، ننطلق من العلامة إلى المعلومة"<sup>1</sup>.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الخصائص التي ذكرها يقطين، خصائص أخرى تستفاد من تعريف يقطين نفسه للإبداع التفاعلي، ومن تعريفات غيره من النقاد والباحثين للأدب الرقمي. وهذه الخصائص هي:

1. التفاعل: أشرنا سابقا إلى أن التفاعل أعم وأشمل من الترابط، وهذا يعني أن التفاعل حاضر في جميع النصوص الأدبية، قديمها وحديثها، ورقمها ورقمها. وما نقصده بهذه السمة هنا هو أن ظهور الأدب الرقمي والإبداع التفاعلي قد أدى إلى توسيع دائرة التفاعل لتبلغ أقصى مستوياتها، تبعا لتوسيع أطراف العملية الإبداعية؛ حيث أصبح التفاعل يتحقق بين جميع هذه الأطراف: بين المبدع والوسيط الذي هو الحاسوب، وبين المبدع والمتلقي، وبين الوسيط والمتلقي، وبين المبدع والمتلقي، وبين العلامات المتعددة المترابطة المكونة للنص الأدبي الرقمي.

2. الانفتاح: النص الأدبي الرقمي نص حيوي مفتوح، لا حدود له، متحرك ديناميكي، غير ثابت وغير مكتمل، يمكن أن يشترك في إنتاجه وإخراجه مبدعون متعددون، كما يمكن للمبدع أن ينشئه، فيضعه في إحدى المواقع، ثم يأتي القارئ/ مبدع آخر، ليكمّله.

3. التمرکز حول المتلقي: إن الأدب الرقمي متمركز حول المتلقي لا حول المبدع ولا حول النص، فهو يمنح القارئ مساحة تساوي أو تزيد عن مساحة المبدع الأصلي للنص، إذ إن القارئ في الأدب الرقمي هو الذي يعطي المعنى للنص، وهو المالك له، لأنه يملك الحق في الإضافة والتعديل في النص الأصلي، والأدب الرقمي لا يعترف بالمبدع الوحيد للنص، بل إنه يكسر الحواجز التي أقامها النقد بين المبدع والمتلقي، حيث يتحول المتلقي إلى مبدع، والمبدع إلى متلق. إن النص الأدبي الرقمي لا يتحقق نصيته إلا بالمعاينة والمشاهدة (القراءة).

4. القراءة الأفقية: النص الأدبي الرقمي لا يقرأ قراءة خطية عمودية، وإنما يقرأ قراءة أفقية لا تخضع لمسار معين، نظرا لتعدد مساراته، وتعدد بداياته ونهاياته؛ إذ يمكن للقارئ أن يختار البداية التي يشاء، وهذا الاختيار ينتج عنه، في النص السردية مثلا، اختلاف في سيرورة الأحداث من قارئ إلى آخر، حيث إن كل قارئ يسير في اتجاه يختلف عن الاتجاه الذي يسير فيه القارئ الآخر، الأمر الذي يفضي إلى اختلاف النهايات كذلك. ففي المجموعة القصصية "محطات" لمحمد

<sup>1</sup> . المرجع نفسه، ص 83.

اشويكة مثلا، يمكن للقارئ أن يختار البداية التي يشاء لمباشرة المعاينة، إذ بمجرد النقر على الغلاف الخارجي للمجموعة القصصية، تنفتح المجموعة على مجموعة من الكلمات التي يمكن بمجرد النقر عليها الشروع في القراءة، وباختيار القارئ الكلمة التي ستشكل نقطة البدء بالنسبة إليه، يلج إلى فضاء الحكاية، ويسلك مسارا معيناً يختلف تماما عن المسار الذي سيسلكه قارئ آخر يختار نقطة بداية مغايرة. وهذا ما سيفضي إلى تباين في مسارات القراءة من قارئ إلى آخر، والسبب هو حرية القارئ في اختيار البداية.

## خاتمة

هذا هو مفهوم النص الأدبي الرقمي، وتلكم هي أهم خصائصه، ولا نريد في هذه الخاتمة أن نكرر ما ذكرناه أثناء التحليل، وحسبنا هنا أن نشير إلى ما يلاحظه المتتبع للإبداع الرقمي في العالم العربي من انحسار لهذا الإبداع، وعدم انتشاره بالشكل الذي يرجوه له دعاة وأنصاره؛ إذ إن عدد النصوص الإبداعية الرقمية الحقيقية المنشورة لحد الآن قليل جدا. وتتعدد أسباب هذا الانحسار، ولعل أهمها ما يأتي:

\* جِدّة تجربة الأدب الرقمي وضعفها: ذلك بأن تجربة الإبداع الرقمي في الأدب العربي جديدة وحديثة العهد، ولا تزال في بداياتها، ولم تحقق بعد التراكم المطلوب الذي يسمح بتطويرها وإثارة الاهتمام بها.

\* التباس مفاهيم الأدب الرقمي: وهذا راجع إلى جِدّة التجربة، من جهة، وإلى ما تطرحه الترجمة عن اللغات الأجنبية من مشاكل وصعوبات، من جهة أخرى. كما أنه راجع في بعض الحالات إلى سوء فهم بعض المهتمين بالأدب الرقمي، ومن تجليات سوء الفهم هذا، ذلك الخلط الذي نجده لدى البعض بين ما هو إلكتروني بسيط، وما هو رقمي مركب.

\* عدم امتلاك أغلب المبدعين تقنيات الكمبيوتر اللازمة لإنتاج النص الأدبي الرقمي المركب الحقيقي.

ولتجاوز هذا الوضع، يدعو سعيد يقطين إلى ما يأتي:

\* ضرورة الوعي بأهمية الحاسوب بوصفه وسيطا رقميا لا يُستغنى عنه في العصر الحديث.

\* ضرورة تطوير معرفتنا بالمعلومات في مختلف مجالات حياتنا اليومية والعلمية عن طريق إدراج مادة المعلومات في مقرراتنا التعليمية ومختلف ممارساتنا الثقافية.



- \* تكوين ورشات للعمل بين الكتاب، والمشتغلين بالأدب والفن، لتطوير ممارستنا الأدبية عبر الحوار والنقاش، وذلك لتأكيد مقولة أن الإبداع الرقمي عمل جماعي.
- \* إصدار دوريات ومجلات علمية متخصصة، تعنى بما يتحقق في مجال المعرفة المعلوماتية ومتابعة الإبداعات الرقمية العربية والعربية التي تصدر على شبكة الإنترنت.
- كما يمكن أن نضيف إلى ذلك توصيات أخرى، من قبيل:
- \* تنظيم ندوات وملتقيات علمية وطنية ودولية يشارك فيها متخصصون ومهتمون يثرون النقاش، ويغنون التجارب القليلة المنتجة.
- \* توجيه باحثينا وطلبتنا بالجامعات العربية إلى اختيار موضوعات الأدب الرقمي لرسائلهم وأطروحاتهم الجامعية.
- \* تخصيص جوائز تشجيعية لتشجيع الباحثين على ارتياد آفاق الأدب الرقمي.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

### المراجع الورقية:

- ابن منظور: لسان العرب. دار صادر (بيروت، د. ت).
- سعيد يقطين:
- - من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2005).
- - النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية (نحو كتابة عربية رقمية)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2008).
- فاطمة البريكي:
- - مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2006).
- - الكتابة والتكنولوجيا، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2008).
- زهور كرام: الأدب الرقمي، أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، دار رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة، ط1، 2009).
- حسام الخطيب: الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المتفرع، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، (دمشق، ط1، 1996).
- محمد نجيب التلاوي: القصيدة التشكيلية في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1998).

### المراجع الورقية:

- محمد سناجلة:
- - شات، وصقيع، منشورات اتحاد كتاب الإنترنت العرب، (2007).

- رواية الواقعية الرقمية 16024 <http://6ollap.ps/article/16024>

- عبير سلامة: النص المتشعب ومستقبل الرواية.

<http://www.alimizher.com/n/3y/studies3/Studies3/hyper.htm>

- السيد نجم: النص الرقمي وأجناسه، مجلة العربي الحر.

[http://www.freearabi.com/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5-](http://www.freearabi.com/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%82%D9%85%D9%8A=%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84=%D8%B3%D9%8A%D8%AF-%D9%86%D8%AC%D9%85.htm)

<http://www.freearabi.com/%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%82%D9%85%D9%8A=%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84=%D8%B3%D9%8A%D8%AF-%D9%86%D8%AC%D9%85.htm>

- أحمد فضل شبلول: رواية الواقعية الرقمية: محمد سناجلة وميلاد أدب عربي جديد.

<http://www.nashiri.net/critiques-and-reviews/critiques-and-analyses/1273----i--v15-1273.html>

محمد حسين حبيب:

- المسرح الرقمي.. مفهومه وأفاقه المستقبلية (حوار).

<http://www.startimes.com/?t=16849256>

- محمد حسين حبيب يؤكد أن المسرح الرقمي نظرية عراقية (حوار).

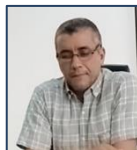
<http://www.middle-east-online.com/?id=109103>

## مفهوم "النص المترابط" في النقد الرقمي المغربي المعاصر

الدكتور إبراهيم عمري

أستاذ التعليم العالي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس  
المغرب



محمد الطاهري

طالب باحث بـسلك الدكتوراه

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس  
المغرب

### ملخص:

في هذا المقالة، سنحاول تسليط الضوء على مفهوم "النص المترابط" دون الخوض في مسألة التعريفات والأسماء، والكشف عن تجربة النقد الأدبي الرقمي وافتتاح النقاد المغاربة على البيئة الرقمية وظهور النصوص التي يجمع مؤلفوها بين الأدبي والتقني. وسنركز أيضًا على الناقدة المغربية زهور غرام، حيث لاحظنا في تجربتها تدرجًا في مستويات النقد بالتوازي مع الإبداع الرقمي الذي يزخر به المجال الأدبي. تُعتبر زهور غرام من بين أول الباحثين الذين اقتربوا من إبداعات المرأة ومواضيعها الجديدة ذات الاهتمام الفكري والمعرفي المتعلق بالكتابة الإبداعية. بالإضافة إلى كل ذلك، فهي من أهم النقاد الذين دخلوا مجال الكتابة عن الأدب الرقمي وتأسيس مبادئ النقد في هذا المجال رغم الصعوبات التي واجهتها، سواء في الجامعات المغربية أو بين الباحثين، مع بعض الاستثناءات.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهري، محمد. عمري، إبراهيم. (2024، أكتوبر). مفهوم النص المترابط في النقد الرقمي المغربي المعاصر. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 361-374.

### Abstract:

In this paper, we will try to shed light on the concept of the hypertext without delving into the issue of definitions and names, but rather revealing what Moroccan digital criticism has become with the openness of Moroccan critics to the digital environment and the emergence of the texts whose creators combine the literary and the technical. We will also focus on the Moroccan critic Zhor goram, as we have noticed in her experience a gradation in the levels of criticism in parallel with the digital creativity that the literary area is full of.

Zhor Gorram is considered to be one of the first researchers to approach women's contributions, creativity, and renewed intellectual and cognitive concerns related to creative writing. In addition to all of this, she is one of the most important critics who entered the area of writing about digital literature and establishing the foundations of criticism in this field despite the difficulties she faced, whether in the Moroccan universities or among researchers, with some exceptions.

## مقدمة

كثير الحديث في السنوات الأخيرة عن رحلة الأدب إلى عوالم الأجهزة الرقمية، وتناسلت الآراء بين مؤيد ومعارض وأقيمت الندوات والورشات، واختلف النقاد حول المولود الجديد الذي وسمه البعض بالأدب الرقمي أو السيبراني أو الإلكتروني وغيرها من التسميات التي لا تكاد تكفّ عن التناسل آخذة في الحسبان اختلاف الأجهزة الرقمية. وللوهلة الأولى بدت تكنولوجيا المعلومات غير قادرة على احتواء الإرث الثقافي والفني الذي وُلد مع ظهور الطباعة، وتزايد القلق حيال عدم القدرة على التعامل الأمثل مع الزخم الهائل من النصوص التي ما فتئ يطالعنا بها العالم الرقمي. بيد إن أي مرحلة انتقالية تتطلب عشرات السنين كي يتكيف المرء مع الظواهر التي ترافقها؛ إذ احتاج الناس إلى سنوات طويلة لينتقلوا من الشفهي إلى الكتابي، وهذا ما وقع مع النص المطبوع، ولن يختلف الأمر مع اندماج النص بالتقنية.

وإذا كان الأدب الرقمي إبداعاً قد نشأ وترعرع على الضفة الأخرى من الأطلسي، فإن النقد والتنظير تختص به ضفة المتوسط المجسدة في رواد النظرية النقدية الرقمية الفرنسية، نذكر من بينهم: (فيليب بوتز) (Philippe Bootz) و(إيمانويل سوشي) (Emmanuel Souhier) و(سيرج بوشاردون) (Serge Bouchardon) و(ألكسندرا سايمر) (Alexandra Saemmer) وغيرهم ممن أخذوا على عاتقهم مهمة تقريب خصائص هذا الأدب من المتلقي الأوروبي انطلاقاً من أوجه التقارب التي كثيراً ما نظّر لها أسلافهم البنيويون: (رولان بارث) (Roland Barthes) و(جاك دريدا) (Jacques Derrida) و(جوليا كريستيفا) (Julia Kristeva). فهل سيبقى المبدع والناقد المغربي مستكيناً إلى ما وجد عليه آباءه، أم لا سبيل له غير الانخراط في هذه التجربة الجديدة دون مبالاة بحجم الفوارق التكنولوجية والعدة المفهومية التي من شأنها أن تقوّض مسعاه؟ وهل ما تشهده الساحة النقدية المغربية من تجارب رقمية سواء على مستوى الإبداع أو النقد كفيل بالحديث عن وجود نقد رقمي مغربي يوازي نظيره الإبداعي، أم أن الأمر لا يتجاوز حالة انهيار بالتقنية وانقياد وراء كل جديد من شأنه جعل المهرولين إليه في دائرة الأضواء؟

## زهور كرام رحلة بين الإبداع والنقد

إننا لا نروم من خلال هذه الدراسة سرد المنجز الرقمي الأدبي المغربي بقدر ما سنركّز على الجانب النقدي، وغايتنا في ذلك هي الوقوف عند تجربة علم من أعلام النقد الأدبي الرقمي، ألا وهي زهور كرام، الروائية والقاصة والناقدة التي تتجاوز شهرتها المغرب والعالم العربي بفضل

انفتاحها على مختلف التظاهرات الأدبية والعلمية التي تعنى بالظاهرة الرقمية وإسهاماتها في التحسيس بضرورة اقتحام مجالاتها. وعلى الرغم مما قد يعتري بحثنا هذا من قصور جراء اقتصرنا على تجربة الروائية المغربية، إلا أن الضرورة تحتم علينا الاكتفاء بمساهمة واحدة دون تبخيس لأية كتابات أخرى لها قيمتها ولا يمكن أن تكتمل أية قراءة لاحقة لهذا النقد بدونها.

تعتبر زهور كرام من أولى الباحثات اللواتي قاربن إسهامات المرأة وإبداعاتها وانشغالاتها الفكرية والمعرفية المتجددة ذات الصلة بالكتابة الإبداعية. وهي بالإضافة إلى كل ذلك واحدة من أهم الناقداً اللواتي خضن معترك الكتابة حول الأدب الرقمي وإرساء دعائم النقد في هذا المجال بالرغم مما كان يواجهه من ممانعة سواء في الجامعة المغربية أو في أوساط الباحثين والمبدعين مع بعض الاستثناءات. ولعل نجاحها المتميز في إصدار مجلة محكمة<sup>(1)</sup> تعنى بالكتابات الرقمية، فضلاً عن إشرافها على عشرات الأطاريح التي تتناول مواضيع الأدب الرقمي نقداً وتنظيراً وترجمة، سواء في سلك الماستر أو الدكتوراه علاوة على مشاركتها المتعددة في الندوات والمؤتمرات ذات الصلة، ليتوج مساراً حافلاً بالعطاء والتميز، خاصة وأن الناقدة اختارت الخوض في هذا المجال الأدبي متسلحة بما تشرّبه من خبرة عقدين من الكتابة تنظيراً وإبداعاً ونقداً.

لقد شكّلت زهور كرام إلى جانب نقاد آخرين، من بينهم سعيد يقطين ومحمد أسليم، وغيرهما مدرسة مغربية حملت على عاتقها مهمة تقريب أسس الأدب الرقمي إلى جمهور الأكاديميين والمختصين، بما يسمح بالخوض في تجارب الإبداع والتنظير والنقد. فبدأ "بالنص المترابط ومستقبل الثقافة العربية" لسعيد يقطين، ومروراً بترجمات محمد أسليم التي جمعها في كتابه "الأدب الرقمي" وانتهاءً "بالأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" لزهور كرام، يتضح وعي هؤلاء الباحثين بأهمية هذا النوع من الأدب الذي لا يمكن إلا أن يجسد اهتمام الناقد المغربي بالتحولات التي أصبح يشهدها في ظل انصهاره بالمقوم التقني بعيداً عن مظاهر الانهيار والتعصب لكل ما هو جديد.

وينبع اختيارنا لتجربة الباحثة الأكاديمية (زهور كرام) انطلاقاً من الإرث المعرفي والزخم الثقافي الذي رافق انشغالاتها، الأمر الذي أردنا من ورائه إبراز أهم المرجعيات النظرية التي انطلقت منها لإقامة مشروع نقدي أدبي رقمي يعكس خبرة بلغت أوج نضجها في خضم مناخ تلقّي رقمي لم يبارح بعد مراحل التجريبية. وتظهر جلياً ترجمة الإرث النظري للناقدة انطلاقاً من إصداراتها؛ وهي

<sup>(1)</sup> "روابط رقمية"، وهي سلسلة انطلقت مع مطلع سنة 2018، وتعنى بالثقافة الرقمية ونشر الوعي بالاستعمال التكنولوجي.

مؤلفات تعزز منطق الرؤية التساؤلية للقضايا والإشكالات التي يطرحها الأدب عامة والرقمي خاصة. ونذكر من بين إصداراتها كتاب "السرد النسائي العربي مقارنة في المفهوم والخطاب" (2004)، و"الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" (2009)، و"نحو الوعي بتحويلات السرد الروائي العربي" (2017) وهي الدراسة التي نالت بها جائزة مهرجان "كتارا" للروايات العربية في دورته الثانية في مجال الدراسات التي تعنى بالبحث والنقد الروائي، وكتاب "الإنسانيات والرقميات في عصر ما بعد كورونا" (2020)، وآخرها كتاب السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي (2021)، بالإضافة إلى كتب أخرى فردية وجماعية وروايات تعكس مساراً نقدياً وإبداعياً يتجاوز كل الحدود.

إن المتأمل في تجربة زهور كرام بما هي مشروع نقدي متكامل الأركان تغذيه سنوات الإبداع والتنظير والبحث الأكاديمي، سيخلص إلى أن الباحثة تؤمن بأن الممارسة النقدية يجب أن تعتمد جهازاً مفهوماً وعدة نظرية مستوحاة من التجربة الشخصية سواء الإبداعية أو التحليلية، ولن يكون انتقالها لحقل الأدب الرقمي إلا بعد تشرّبها لمعرفة عميقة بواقع الظاهرة الأدبية الرقمية. وقد جسّدت هذه التجربة في كتابها "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية"<sup>(1)</sup> و"السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي"<sup>(2)</sup>؛ وهما كتابان اختزلت فيهما الناقدة رؤيتها لهذا الأدب الجديد وحقيقته باعتباره نظاماً رمزياً مختلفاً تتجلى فيه تمثلات الإنسان في العصر التكنولوجي. ويبدو جلياً أن (كرام) تعتمد منطق ربط اللاحق بالسابق، فكتابها "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي" يشكل في واقع الأمر امتداداً للأفكار التي تضمّنها الكتاب الأول "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية"، وتطويراً لقراءاتها المستمرة للعلاقة بين الأدب والوسائط التكنولوجية<sup>(3)</sup>.

### نحووعي باشتغال الثقافة الرقمية

تشدد الباحثة في أكثر من مناسبة على ضرورة التفكير بجديّة في مختلف التحولات التي رافقت الأدب في خضم الثورة المعلوماتية وتطور الوسائط التكنولوجية وتنوعها، ذلك أن مواصلة الخوض في الصراع بين مؤيدي هذا الأدب ومعارضيه بات متجاوزاً وبدون جدوى؛ إن نظرة واحدة

<sup>(1)</sup> كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2009.

<sup>(2)</sup> كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، دائرة الثقافة، الشارقة. 2021.

<sup>(3)</sup> ينظر مقدمة كتاب السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي. ويتجلى منطق ارتباط اللاحق بالسابق في أعمال زهور كرام من حيث أنها تنصّدر كتابها السالفي الذكر إما بالإشارة إلى التجارب النقدية الأدبية المغربية السابقة أو إلى تجربتها الشخصية نفسها. وفي هذا دليل على أن الناقدة لا تنطلق من فراغ وإنما تجسّد أعمالها مشروعاً نقدياً مغربياً يروم إنتاج وعي نقدي أدبي بالنص الرقمي.

للحقل الأكاديمي وعشرات الأطاريح التي تناقش في هذا المجال، علاوة على حضوره في العديد من الملتقيات والندوات والمعارض والمجلات بالمغرب والعالم العربي كفيل بالخروج بخلاصة مفادها أن الأدب الرقمي ماضٍ في كسب أراضٍ جديدة، وهو لا محالة أدب المستقبل<sup>(1)</sup>. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور تغلغل هذا الأدب الجديد في الثقافة العربية على حساب الأدب الورقي كأنه انتصار لشكل أدبي ضد شكل آخر، أو الدفاع عن الجديد، ومعارضة ما أصبح قديماً، أو السعي إلى إقصاء تجارب الممارسة الأدبية بمجرد ظهور ممارسة مختلفة، وإلا فإن ذلك يعني قطيعة مع أهم ثوابت الأدب ألا وهي القدرة على التحول والتطور<sup>(2)</sup>.

ويبدو وعي الناقدة بتأثير المتغيرات الثقافية والعلمية من خلال تأطيرها لكتابتها السالفي الذكر، ولو أننا نعتبر كتابها "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" بمثابة لبنة أرست بها الناقدة أسس دراستها النظرية لسيرورة أدبية عبرت محطات عديدة لترسو بميناء الرقمي، معيدة بذلك النظر في مفاهيم من قبيل المؤلف والقارئ والنص. إنها حالة انتقال وتحول تقتضي تريباً واعياً. فالأدب شرع في مغادرة لغته التي تحصن بها زمناً طويلاً، وانفتح بالتكنولوجيا الحديثة على احتمالات لا يمكن التنبؤ بنتائجها سوى بمساءلة ما تحقق منها. وهو الأمر الذي نجحت الباحثة في ترجمته إلى رؤية تساؤلية تنسجم مع تصور فلسفي للوضعية الجديدة التي ما فتئ يشغلها هذا الأدب. وستتجلى هذه الرؤية التساؤلية في أرقى مظاهرها فيما يأتي بعد ذلك من تساؤلات تأسيسية مسّت جوهره ومدى مشروعيتها وإشكالية تجنيسه وخصوصية وسيطه الإلكتروني<sup>(3)</sup>. وهي في أثناء ذلك كله لا تروم تقديم أجوبة قاطعة ما دامت مفاهيم الأدب الرقمي ذاتها وتصورات منظرية عندنا في طور التشكل. إنها تطمح، قبل ذلك وبعده، إلى توسيع دائرة النقاش حول هذا الأدب الذي فيما نحن نفكر في وضعه الإبستيمي، نطور علاقة تفكيرنا بنظرية الأدب<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> قد يعتقد البعض أن في هذه الفكرة منطق القطيعة، وكأن الرقمي سيقبلص دائرة الاهتمام بالأدب المطبوع. والحقيقة أن منطق الاستمرارية مهيمن في كتاب "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي"، ينظر الصفحات: 12، 17، 31، 125، حيث وسمت الناقدة محوراً من كتابها بـ "الترابطي استمرار وتطور".

<sup>(2)</sup> السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص: 20.

<sup>(3)</sup> عمري (إبراهيم)، الإبداع الأدبي الرقمي بين رحابة التقنية ورعونة النص، ضمن مؤلف جماعي: أبحاث في العلوم الإنسانية والآداب، تنسيق بنعيسى زغبوش، ومصطفى بوعناني، وإبراهيم عمري، منشورات قطب البحث: اللغات، والتواصل، والفنون، فاس 2017.

<sup>(4)</sup> كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص: 46.



يجسد كتاب "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي" تكريساً للسيروية الحتمية للأدب من خلال إبراز تجليات الرقمنة وانعكاسات ذلك على عملية التلقي، حيث تنتقل الناقدة بعد اكتمال أركان شقها النظري إلى ركوب مغامرة المقاربة النقدية بنوع من التسلسل في عرض النصوص السردية؛ بأن انطلقت من أعمال ورقية بمنطق ترابطي قبل أن تصل إلى النص الأدبي الترابطي والمتمثل في "محطات" لمحمد اشويكة. وإذ تعضد (كرام) دراساتها النظرية بأخرى تحليلية، فهي تعمل بذلك على تطوير منطلقات مشروعها وتعزيز نظرية استمرارية الأدب، لكن هذه المرة، من منطق الترابط الذي يؤسس نظام كثير من النصوص الأدبية الورقية، ويشكل جوهر نظام النص الرقمي. والواقع أن رؤية الناقدة للتقارب بين ترابطية النص الرقمي والتناص يعيد إلى الأذهان عدة تصورات سادت نهاية القرن الماضي وانكبت على محاولة إيجاد علاقة بين نظريات ما بعد البنيوية ومنطلقات النص المترابط، أو ما اصطلح عليه بنظرية التقارب (la théorie de la convergence) لصاحبها (جورج لاندو) (Georges Loundow).

يصرّح (لاندو) في مستهل كتابه "Hypertext 3.0":

«إن الأمر الذي نحتاج معه إلى التفكير في طرق جديدة للاشتغال حول هذه النصوص ليس بالمناهج نفسها التي استنفذت مع النص الورقي، وإنما وجب التفكير بمنطق العصر في ظل هيمنة الوسيط التكنولوجي على حياة الأفراد والشعوب، بدرجات متفاوتة، وهو ما انعكس تدريجياً على أشكال التعبير الأدبي، وبالتالي أوجب ضرورة التفكير في طرق مختلفة عن السابق، للاقترب من الأدب في شكله الجديد، ذلك لأن استمرار التفكير في الأدب وقراءته بالطريقة والمنهج نفسهما، يعني استمرار التفكير بالتصور نفسه».

### الرواية الترابطية بين هاجس التخيل ورهان القراءة التفاعلية

لقد أثرت الرواية منذ نشأتها أن ترتقي في أحضان المحتمل، وأن تتجاوز المنجز منها لتعانق المتوقع والممكن. وظلّت تستشرف دوماً أفقاً أرحب للبوح، محتفظة لنفسها بهامش من المناورة والحرية الإبداعية، مشككة بإصرار في نقائها الجنسي وصفائها النوعي. ومن هذا المنظور جرى النظر إلى تحقيقاتها النصية باعتبارها سلسلة من عمليات البناء والهدم، وفضاء رحباً للكتابة والمحو. وقد سبق لباختين أن تنبأ بذلك عندما اعتبرها أكثر الأشكال التعبيرية انفتاحاً على المحتمل والممكن، وعلى اللغات والأصوات وأشكال الوعي. وإذا كانت اللغة مادة الأدب الأولى وأسمى أدوات التعبير والتصوير، وتجسيد العوالم التخيلية وتشخيصها لغوياً في النص، فإن انفتاح

الإبداع التخيلي على كل الأشكال التعبيرية بما فيها غير اللفظي يجعلنا نتساءل عن تداعيات تداول ما هو سيميائي بما هو لغوي على تفاعلية القارئ وتمثلاته الذهنية ومشاركته الانفعالية؟ فهل يشكّل انتقال النص من سنده الورقي الذي استوطنه مئات السنين إلى السند الرقمي عاملاً من عوامل العبث بالنص وتمكينه من بهرجة لا طائل منها؟ كيف يمكن مسيرة تطور النص بفكر لا زال يتوجس من استبداله بعناصر سيميائية تحدّ من الطاقة التخيلية لكل من القارئ والمؤلف نفسه؟ ألا يسمح تزامن اللفظي والسيميائي للقارئ بامتلاك مهارات جديدة تجعل منه قارئاً متعدد الوظائف والمهام؟

كل هذه الأسئلة وأخرى صاغتها (كرام) بفطنة الناقدة التي تغوص في عمق الظاهرة لبسط معالمها واستشراف آفاقها، وهي إذ تنحو هذا التوجه فإنها لا تروم اتخاذ موقف مسبق من هذا التجلّي الرقمي للأدب بقدر ما تدرجه في إطار البناء المعرفي الفلسفي والجمالي لهذه التجربة، ونقل التفكير فيه إلى مستوى مساءلة نظرية الأدب في أبعادها المعرفية والبنائية والنقدية والفلسفية<sup>(1)</sup>. ذلك أن مساءلة نظرية الأدب هي سؤال عن ماهية الأدب نفسه، خاصة وأنّ تغير الوسيط قد عصف بكل الأفكار والانطباعات المسبقة التي رافقت نظام الأدب<sup>(2)</sup>. وهو منطق لا يجعل قطيعة، كما أسلفنا الذكر، بين أدب ما قبل المعلومات وما بعدها، إنما هو استمرارية للإبداع الأدبي بكسء تقني يجعل من نص عهدناه قارئاً وجامداً، نصّاً طيعاً ومرناً وقابلاً للمناورة ويتداخل فيه ما هو سيميائي بما هو لغوي.

إن حضور الصورة أو المقاطع المرئية والمسموعة في البنية السردية يثير حتماً تساؤلاً عن جدوى هذا الحضور إذا كان النص لوحده يستوفي حدود المعنى، فيعدو إدراج ما دون النص حشو لا طائل منه. والحقيقة أن هذا الأمر يجد صداه لدى شريحة مهمة من القراء الذين ينطلقون من تشبّع واضح بثقافة الورقي، فيعملون على مقاربة النصوص الرقمية بانطباعات مسبقة لا تأخذ بعين الاعتبار تغير الوسيط وانعكاسات ذلك على عملية التلقّي. إن حضور الصورة بوصفها مقابلاً بصرياً للمقطع النصي، أو نسخة مرئية جاهزة لشخصية من الشخصيات، أو فضاء من فضاءات المحكي، أو مرادفاً يعين عنصراً من موضوعاته التخيلية، على نحو يتم به تقليص سيرورة التداعيات الذهنية للنص، وتعويضها بما يعادلها بصرياً، هو ما يهدد بالفعل تخيلية الإبداع الروائي. بالمقابل فإن ما يضيف قيمة جمالية على النص يخاطب بها حواس القارئ ومخيلته هو

<sup>(1)</sup> كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص 31.

<sup>(2)</sup> كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص 48.

توظيف المقوم اللغوي إلى جانب المؤثرات الصوتية بطريقة متجانسة لا يعوض فيها أحدهما الآخر وإنما يمنحه أبعاداً جديدة يتوارى فيها المعنى ليترك مساحات شاسعة لتكهّنات قارئه، فتنوع هذه المؤثرات وغناها الدلالي سيفتحان اختيارات المبدعين الاستبدالية والتركيبية على احتمالات لا حصر لها، ويضعان صيغ مجاورتها أفقيّاً وعمودياً أمام إمكانات لانهائية. وهو إجراء سينفتح بفضل أفق التخيل في وجه هؤلاء بالقدر نفسه الذي سيستنفر به طاقة القراء الخيالية، دون تقزيم لدور اللغة في الكتابة الرقمية الذي يبقى محورياً ضمن عناصر لغوية جديدة تلج النص بمنطقها وآلياتها وطريقة تعبيرها<sup>(1)</sup>.

### من التجريبي إلى الترابطي

عمدت زهور كرام إلى أجرأة فعل التفكير عبر العمل على نصوص تجسد منطق الترابطية في الكتابة، فانتمت لهذه الغاية متناً يعبر عن ثقافة موسوعية وغنى مفهومي، عملت فيه الباحثة على ربط فعل القراءة بفعل الكتابة، أي بين التفكير والتحليل عبر الاشتغال على نصوص من قبيل: "اعتقال الغابة في زجاجة" لأنيس الرافعي، و"بعيداً عن الضوضاء قريباً من الصمت" للمغربي محمد برادة، و"مجاز العشق" للسوري نجيب سليمان، و"فهرس" للعراقي سنان أنطوان. كل هذه النصوص تتقاطع في كونها تجريبية قصصية وروائية ورقية برؤية ترابطية، انتقتها الناقدة بهدف تشخيص مبدأ الاستمرارية في الأدب الذي نادت به في أكثر من موضع من كتابها، من خلال رصد مظاهر الالتقاء والتطور بين الشكلين التجريبي والترابطي. وهي إذ توضح أن التجريبي يشكل ذاكرة الترابطي، فإنها تلجّ على أن المرور النقدي إلى النص الترابطي مرهون أساساً بمعرفة مسبقة بطريقة عمل النص الأدبي التجريبي، وبعنصره، ومنطق اشتغاله وطبيعة رؤيته للعالم.

وإذا كانت النصوص التجريبية قد شكلت تجربة فريدة من نوعها أربكت الثقافة السردية المعتادة بنمط كتابتها وشكل قراءتها، فإن ظهورها شكل تحدياً كبيراً أمام النقد السائد ومناهجه وأدواته. لذلك تعتبر (كرام) أن الانكباب على دراسة القصة والرواية التجريبيتين يجب أن يأخذ بعين الاعتبار السيرة الأدبية وحتمية الاستمرارية، وما يواكبها من تحولات على مستوى المفاهيم وأدوات العمل. فظاهرة التجريب في القصة القصيرة المغربية التي أثارت نقاشات كثيرة كادت أن تعصف بجوهر هذه التجربة حين تم التعامل معها بالأدوات النقدية المألوفة، وتم وصفها بالتجريبية والانقلابية، واختزالها في لعبة خلخلة نظام السرد القصصي. على هذا الأساس فإن كل

<sup>(1)</sup> كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص 28 و 50.

مقرب من النصوص التي تعتمد المنطق الترابطي في الكتابة الروائية، معتمداً على المفاهيم السابقة في تناول الأدب وقراءته، وغير مستحضر لمبدأ التطور الذي تعرفه تجربة الأدب، وبدون سند من التجربة السابقة/الحالية للتجريبي، فلا شك أنه سيعتبر التجربة غامضة، وغير مفهومة، وليست لها علاقة بالأدب، وقد يؤدي به الأمر إلى رفضها، والتخلي عن تجربة وصفها وتحليلها. وإجمالاً يمكن اعتبار المنطق الترابطي استمراراً للتجريبي في إعادة ترتيب نظام النص الأدبي<sup>(1)</sup>.

### القصة والرواية التجريبيتان والمنطق الترابطي

تعزي كرام أسباب انتشار القصة القصيرة في شقها التجريبي إلى عوامل مختلفة، أبرزها: فضاءات الكتابة، وطابع الاقتصاد والتكثيف اللذان تتميز بهما؛ إذ أتاحت وسائط التواصل الاجتماعي والمواقع والتطبيقات التكنولوجية في العصر الراهن للقراء الإسهام بأرائهم بالتوازي مع زمن الكتابة. بيد أنه بالرغم مما يميز الكتابة في القصة القصيرة من إيجاز وتلخيص وما يلحق هاتين الصفتين من الاستسهال والإغراء من لدن البعض دون اهتمام بمعايير أدبيتها، فإن دور القارئ فيها مركزي؛ فقد رته على التفاعل وتفجير التكثيف وصياغة منطق تسلسلي في فهم النص، هو ما يشكل أدبية هذا الشكل الموجز. وعلى هذا الأساس تكون وظيفة القارئ هي ما يحدد جاهزية النصوص سواء الروائية أو القصصية، ويحقق وضعية التكون المستمر الذي يطبع سيرورتها. وكأن القارئ ينتقل من موقع المتلقي لنظام جاهز إلى متلقٍ لنظام نص محتمل، لا ينطلق من ذاكرة نصية سابقة، وإنما يبحث عن ذاكرة من رحم الكتابة. فتشترك الشخصيات والقارئ في تشكيل هذه الذاكرة وإغنائها عبر عقد الصلة بينها على مستوى القراءة، وهو إحساس جديد ينقل القارئ من ثقافة التلقّي إلى ثقافة إنجاز النص.

إن اعتماد النصوص التجريبية على القارئ المحتمل الوجود في قلب بناء النص، باعتباره كائناً نصيّاً، راجع بالخصوص إلى طبيعتها الشبكية الترابطية. فهي نصوص تغادر منطق التركيب السردي المتعارف عليه في الوسيط الورقي وتأتي مختلفة، في تركيبها وبنائها، في شخصياتها ولغاتها، لتشبه الزمن الرقمي، حيث لا تخضع لمنطق التحقق إلا مع وجود قارئ يقتحمها ويعبث بها كما يشاء. فيعمل على تذويتها ونقلها من الواقعي إلى المتخيل. إنها حالة يتوارى فيها المؤلف تاركاً مساحة واسعة للقراء ليستنفذوا طاقاتهم التخيلية وقيموا في زمن الخيال، دون دعم مباشر منه، فهو يكتفي بالتركيز على القصة أكثر من بنائها<sup>(2)</sup>، ليُنتج نصّاً شبيهاً بشبكة متداخلة ومتعاقلة من

<sup>(1)</sup> كرام (زهور)، نحو التفكير في منهج أدبي ترابطي، جريدة القدس العربي، 24 أغسطس 2015.

<sup>(2)</sup> كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص 81.

المحكيات والقصص، تختلف كلياً عن طبيعة السرد الأفقية، وفق منطق ترابطي، وتراهن على تفاعلية القارئ من أجل تحقيقها، وقدرته على تفجير الاقتضاب، وتوسيع مساحة التكتيف، وتحرير اللغة من اقتصادها وتمديد زمن الحكاية.

### السرد الترابطي وفعل القراءة

إذا كانت القراءة في العالم الورقي تُنعت بأنها تفاعل دينامي بين النص والقارئ، فإن هذه الدينامية لا تظهر إلا بمعناها المجازي فقط. أما على الوسائط الجديدة فإن التفاعل يكون بطريقة حرفية، بجعله معادلاً للتفاعل المادي المحض بين مستخدم وحاسوب بغض النظر عن أي تفاعل نفسي<sup>(1)</sup>؛ إذ يتوارى المتلقي ويحضر فعله التفاعلي، الأمر الذي ينتج عنه قارئ لا تنحصر مهمته فقط في القدرة على تفعيل النص بقراءته قراءة منتجة، وإنما تأليف هذا النص وتحقيقه. ويمكن هنا التفريق بين نوعين من التفاعل بحسب المهمة المنوطة بالقارئ وطبيعة حضوره في عملية التلقي، فنجد التفاعل الذي يتجسد في درجة مناورة القارئ في النص والمسار الذي يسلكه خلال عملية تنشيط الروابط، كما هو الشأن في نموذج القصة الترابطية "محطات" للكاتب المغربي محمد اشويكة، ثم التفاعل الذي يرد بصيغة التأليف، كما هو الحال مع رواية "على بعد ميلتر واحد" للكاتب المغربي عبد الواحد استستو.

صحيح أن القراءات كانت تتعدد بتعدد القراء، إلا أن هذا التعدد كان يصدر دوماً عن بنية خطابية جاهزة وتامة ومنتهية بين دفتي كتاب. ولا يمكن بلوغ نهايتها سوى بعبور متوالياتها منذ البداية. والواقع أن هذه البنية لا تشكّل في النص المترابط سوى وجه العملة الأول؛ بحيث نجد الباحثة تميز بين نص المؤلف الذي يضع المبدع عناصره ومواده ضمن ترتيب معين، والنص المقروء الذي ينتجه القارئ بناء على عينة من القرارات<sup>(2)</sup>. وقد جسّدت الباحثة عملياً، عبر هذا التمييز، رغبتها في وضع تجربة القراءة والتأويل في سياقها النسبي بعيداً عن أي حكم مسبق. واثبتت فعاليتها لحظة تصديها لأعمال كل من (سناجلة) في كتابها "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" (ومحمد اشويكة) (وعبد الواحد استيتو) في كتابها "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي". فمن خلال استنتاجات زهور كرام، يتضح دور المقوم التقني الترابطي الذي لا يتلف دلالة النص في

<sup>(1)</sup> Archibald, (Samuel). Le texte et la technique, la lecture à l'heure des médias numériques, le Quartanier, collection Erres Essais, 2009 p 29.

<sup>(2)</sup> كرام (زهور)، الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص 53.

سراب اللامتناهي بقدر ما يوسع هذه الدلالة، فضلاً عن أنه لا يلقي بالتجربة في اللامعنى بقدر ما يزكي المعنى ويغنيه بمنح قسط من سلطة المؤلف إلى القارئ.

### الروابط جوهر النص الترابطي

يعتبر الوعي باشتغال النص الترابطي ووعي باشتغال أهم مكوناته ألا وهي الروابط، فهي مفاتيح القراءة والنقط التي يأخذ فيها القارئ قسطاً من الراحة قبل تجميع الأفكار والخوض في تجربة قرائية مختلفة، والقفز بين العديد من الأفكار الملممة دون التقيد بخطة المؤلف التي عادة ما ينسجها لجعل القارئ يتنقل وفقها مثلما هو الشأن في النص الخطي. على هذا الأساس قد يعتبر البعض أن وجود الروابط يعرقل مهمة القارئ في بناء المعنى بفعل ما قد يترتب عن نقط التوقف من صعوبات على مستوى تجميع الأفكار وترتيبها وبنائها، بل قد تشكل هذه التوقيفات تهديداً لانغمارية القارئ، على اعتبار أن الروابط هي أدوات تباعد بين المقاطع أو النصوص، وتعرقل الانكباب المتواصل على القراءة. والحال إن الأمر مختلف تماماً؛ فبالعودة إلى فلسفة النص المترابط نجده يقوم على فكرة هي على النقيض من أهم خاصية تميز النصوص الوردية، أي الخطية<sup>(1)</sup>. وما قد يعزز حيرة القارئ هو ما قد يحقق لديه الجمالية المبتغاة؛ فعكس قلب الصفحة، يحتم الرابط على القارئ اتخاذ القرار لمعرفة ما يخبئه، مما يجعل من الرابط وعداً بالمعنى. فهو عنصر توتر؛ إذ لا يمكن اكتشاف النص اللاحق إلا عبر حركة القارئ (أي فعل التنشيط)<sup>(2)</sup>.

وتعتبر (ألكسندرا سايمر) (Alexandra Saemmer)، وهي واحدة من بين أبرز الناقداً الغربيات المهتمات بالنص الرقمي، «أن الرابط أثر التأويل الذي صاغه المؤلف، ذلك أن هذا الأثر يوجد بشكل صريح في النص المولّد الذي يضم الرابط»<sup>3</sup>. الأمر الذي جعل (كرام) تخصص حيزاً مهماً في كتابها السالفي الذكر للحديث عن دور الروابط في إضفاء صبغة جمالية على النصوص الترابطية، والذهاب بالإبداع الأدبي إلى أبعد الحدود. فقد شكّل فضاء الروابط في رواية الكاتب الأردني (محمد سناجلة)، عنصراً حيويّاً نجح في تشخيص حوارية النص لغويّاً وتقنيّاً، وأضحّت

<sup>(1)</sup> يعتبر تيد نيلسون (Ted Holm Neson) أن النص المترابط إطار فلسفي جديد وقوي يعمل على هيكلة المعرفة وتقديمها، لأن الأفكار، حسب رأيه، لا تتطور بشكل متسلسل وإنما على شكل "دوامات". وهو بهذا طرح يدحض فكرة أن المعرفة يجب أن تُقدّم على شكل هرم من الحقيقة، في إشارة إلى الطابع الخطي للنصوص.

<sup>(2)</sup> Saemmer (Alexandra). Rhétorique du texte numérique : Figures de la lecture anticipations des pratiques, Villeurbanne : Presses de L'enssib, cop 2015, vol 1, p 22.

<sup>(3)</sup> Ibid, p16.

هذه الحوارية ميزة الرواية بدعم من تنوع الروابط المنفتحة على الإيقاع الشعري وعلى دق البوح وحميمية الاعتراف المنفلتين من رقيب الذات والمؤسسات، فضلاً عن أنها عملت على تشخيص لغة العوالم الافتراضية أدبياً ومحاكاة تمثلاتها باللون والحركة تجسيداً لحالات نفسية وأوضاع إنسانية وجدت في هذه العوالم ما افتقدته في الواقع. أما في نص (اشويكة) "محطات" فقد جاءت الروابط عبارة عن موسوعة من العناوين يبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة يمكن نسجها بينها، في محاولة من المؤلف مضاعفة حيرة القارئ وقلقه وشحن روح المغامرة لديه، والدفع به إلى خوض تجربة قلما صادفها في تجاربه القرائية السابقة.

إن الطريقة التي اصطلفت بها العناوين في نص "محطات" تثير حيرة أي قارئ كيفما كانت مرجعيته وخبرته بدواليب النصوص، ذلك أن ما سيضاعف من هذه الحيرة هو أن أي رابط ينشطه القارئ قد يحتوي بدوره على روابط أخرى تؤدي به إلى متاهة قد لا يخرج منها إلا مع آخر رابط ينشطه. فيكتسي النص صبغة جديدة ويثير لدى قارئه روح المغامرة وحب الاكتشاف<sup>(1)</sup>. ليحصل القارئ في نهاية تجربة القراءة على نص غير تام في جل الحالات، لكون هذه التجربة قد يصادفها من جهة، التعب من كثرة تنشيط الروابط، أو حالة الضياع التي قد يحس بها وسط المسارات المتشعبة التي تفرضها هندسة الروابط، بحيث يغدو «القارئ» بدوره، موضوعاً جوهرياً، كما أن الكتابة تتحول، في هذا المستوى، إلى ذات تحول القارئ إلى موضوع لها، تعيد اكتشاف حدوده ومفهومه»<sup>(2)</sup>.

## خلاصة

هكذا حرصت زهور كرام من خلال اقتحامها مجال النقد الأدبي بشقيه التجريبي والترابطي، على مد مشروعها الإبداعي والنقدي بمقومات التجديد المتواصل بغية الانخراط في مسلسل التحولات التي يشهدها العالم من حولنا. وهي في خضم ذلك تشدد على وجوب التخلص من الأحكام المسبقة التي رافقت ولادة النص الترابطي الرقمي، والانكباب على البحث في زواج النص الأدبي بالوسائط التكنولوجية من خلال نظرية الأدب، باستحضار المقوم التقني باعتباره عنصراً مؤسساً لعلاقة جديدة بين القارئ والمؤلف والنص. وإذا كان التجريب، حسب رأيها، يحمل في ذاته تاريخ تجارب الكتابة الأدبية ويرتوي من خصوصياتها ومقوماتها، فإن تأثيره ممتد في ثقافة الترابطي

<sup>(1)</sup> كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص: 135-136-137 و140.

<sup>(2)</sup> كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص 144.

الرقعي، على أساس أنه يشكّل ذاكرته، فضلاً عن اشتراكهما في منطق خلخلة مفاهيم الأدب التقليدية، وتمكين المدعين من استثمار الإمكانيات التقنية للذهاب بالإبداع إلى أبعد الحدود.

إن غرض الباحثة من الخوض في تجارب الأدب التجريبي والترابطي، من خلال الاشتغال على نصوص عربية جسّدت واقع الإنسان العربي بانشغالاته وآلامه ومآسيه، إنما كان لتوضيح فكرة استمرارية الأدب وتطوره وفق التحولات التاريخية والاجتماعية والسياسية. ذلك أن الانتقال من الكتابة الخطية في النص الورقي إلى طريقة جديدة للسرد الترابطي، أتاحت للمؤلفين التعبير عن هذا التداخل التفاعلي الوظيفي بين الواقعي بالتباسه السياسي، والاجتماعي بأفقه الغامض، وبين الخيالي بمساحته التي بدأت تتقلص أمام انفجار الواقع وتشعبه.



## لائحة المصادر والمراجع

- كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2009.
- كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، دائرة الثقافة، الشارقة. 2021.
- عمري (إبراهيم)، الإبداع الأدبي الرقمي بين رحابة التقنية ورعونة النص، ضمن مؤلف جماعي: أبحاث في العلوم الإنسانية والآداب، تنسيق بنعيسى زغبوش، ومصطفى بوعناني، وإبراهيم عمري، منشورات قطب البحث: اللغات، والتواصل، والفنون، فاس 2017.
- كرام (زهور)، نحو التفكير في منهج أدبي ترابطي، جريدة القدس العربي، 24 أغسطس 2015.
- Archibald, (Samuel). Le texte et la technique, la lecture à l'heure des médias numériques, le Quartanier, collection Erres Essais, 2009.
- Landow (G. PAUL). Hypertexte 3.0, critical theory and new media in an era of globalization, The Johns Hopkins University Press, 2006.
- Saemmer (Alexandra). Rhétorique du texte numérique : Figures de la lecture anticipations des pratiques, Villeurbanne : Presses de L'enssib, cop 2015, vol 1.

## بين الذاكرة والتاريخ:

## دراسة سيميائية لرواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ

د. إبراهيم البوعبدلوي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة درعة - تافيلالت  
المغرب

## ملخص:

تثير رواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ تساؤلات عديدة، تجيب عن بعضها، وتترك الكثير منها مفتوحاً. لذا، فإننا سنعمد، في هذه الدراسة، إلى إبراز أهم التساؤلات التي طرحت هنا؛ من قبيل سؤال الذاكرة وعلاقتها بالوهم، وسؤال التاريخ والحقائق المتعددة.

إن الخلفية التي انطلقنا منها تتمثل في الجمع بين التصور الذاكراتي في جانبه السيميائي، الذي يشير إلى عَدِّ الذاكرة بمثابة حوار بين الماضي والحاضر، والنظر إليها في شقها الفردي والجماعي، وكذا النظر إلى مختلف النصوص التي تحتفي بها الجماعة بوصفها وثائق تاريخية.

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

البوعبدلوي، إبراهيم. (2024، أكتوبر). بين الذاكرة والتاريخ: دراسة سيميائية لرواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 375-389.

## Abstract:

Abdul Latif Mahfouz's novel, "Wadi al-Laban," provokes numerous questions, answering some and leaving many open-ended. This study aims to highlight the most significant inquiries raised within the text; such as the question of memory and its relationship to illusion, and the question of history and its multiple truths.

Our starting point is a combination of the semiotic conception of memory, which views memory as a dialogue between the past and the present, and a consideration of memory on both individual and collective levels. Additionally, we examine the various texts celebrated by the community as historical documents.

## ما الداعي إلى الكتابة عن الهامش؟

لقد شكّل المركز مجالا خصبا لدراسات عديدة؛ إذ كتب عنه المؤرخون والرحالة ورجال السياسة وغيرهم، وتحدثوا عن الكثير من جوانبه، حتى إننا لنجد فائضا في الدراسات حوله؛ فالمتحدث، مثلا، عن مدينة فاس أو مراكش، سيجد حتما دراسات عن مختلف الجوانب، التي يريد أن يخوض فيها ها هنا؛ فقد شكل البحث في العمارة، مثلا، مجالا ثانويا في اهتمامات المؤرخين، ومع ذلك نجد أنفسنا أمام كمّ هائل من الأوصاف لمدن بعينها، شكلت مجال اهتمام السلطة. لكن، ما حظ الهامش من البحث؟ ولماذا لا نكتب عنه إلا نادرا؟ وألا يمكننا أن نكتب تاريخا آخر انطلاقا منه؟

إن الدافع إلى كتابة التاريخ، انطلاقا من المركز، يتمثل في أنه كان "يبدو أن الأدوار التي تقوم بها السلطة والثروة أو الثقافة هي وحدها التي كانت تُحتسب"<sup>1</sup>. وعليه، فإن كتابة تاريخ للمغرب، مثلا، لا يتأتى لنا إلا بالحديث عن مراكش أو فاس، كما لا يتم إلا عبر المرور من تاريخ السلالات الحاكمة، وأهم إنجازاتها.

إن ما تحتفي به هذه السلالات هو ما يستحق الاحتفاء؛ ولذلك، فحتى الذين يريدون كتابة تاريخ للفنون يعودون غالبًا إلى ما احتفت به السلطة، وبوّأته مكانة مميزة. إن الحديث عن العمارة، مثلا، لا يتأتى للكثير من الدارسين إلا من خلال الحديث عن منجزات السلطة في مختلف المدن المركزية؛ فدراسة حقبة المرينيين، لا تستقيم - في نظرهم - إلا من خلال الحديث عن مدارسهم والأدوار الثقافية والدينية التي كانت تساهم بها في تلك الفترة، وفي فترات أخرى لاحقة. وقد جعل هذا الاهتمام المبالغ فيه بتاريخ المركز، وتاريخ السلطة، الهامش دائما ضبابيًا، غير معروف، وغير مدرك لقيّمته ودوره في حياة المركز والتاريخ العام إجمالاً.

وقد عمد التاريخ الجديد إلى قلب التساؤلات التي كانت مركزية بتساؤلات أخرى، وفي هذا السياق يتساءل جاك لوغوف: "أليس لتاريخ الفرد العادي دلالاته ودراميته، مثله مثل تاريخ العظماء؟... أليس لتاريخ اللباس وهيئة اللباس وطريقة الأكل جاذبية أكثر من تاريخ المعارك والاجتماعات الدولية؟..."<sup>2</sup>. إننا، على هذا المنوال، نصوغ تساؤلين: أليس لتاريخ تيسة أهمية تعادل تاريخ فاس؟ ألم تجرّ في هذه المنطقة أحداث، في فترات تاريخية مختلفة، تعادل أو تفوق الأحداث

<sup>1</sup> - جون كلود شميت، تاريخ الهامشيين، ضمن كتاب "التاريخ الجديد"، تر: محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص: 437.

<sup>2</sup> - جاك لوغوف، التاريخ الجديد، م. س، ص: 59.

التي جرت في مراكش أو فاس من حيث الأهمية، ومن حيث تغييرها لواقع المغرب عامة؟ إن هذا ما تحاول رواية "وادي اللب" لعبد اللطيف محفوظ الإجابة عنه، وسد الفراغات التي تعترى تاريخ هذه المنطقة؛ ومن خلالها تاريخ المغرب. وهذه الرواية تسير في مسار عدد من الدراسات التاريخية، التي جعلت هامش فاس مجال دراستها؛ من قبيل كتاب "فاس وباديتها" لمحمد مزين<sup>1</sup>، ودراسة عبد الرحمن المودن المعنونة بـ "البوادي المغربية قبل الاستعمار"<sup>2</sup>.

إنّ ما يُحاوله هذان الكتابان التاريخيان، ورواية "وادي اللب"، هو العمل على كتابة تاريخ جديد للمغرب، في لحظات زمنية معينة، انطلاقاً من منطقة عُدت هامشية بالمقارنة مع فاس، ثم التأكيد على أهمية مختلف الأحداث التي كانت تجري في بادية هذه المدينة، بوصفها أحداثاً لها وزنها في رسم مسار التاريخ المغربي؛ ذلك أننا نجد المؤرخين، مثلاً، تناولوا، بإسهاب كبير، معركة وادي المخازن، وتركوا لنا إرثاً مهماً من الوثائق، غير أننا لا نعثر إلا على شذرات بسيطة تذكر معركة وادي اللب، مع أنها معركة مركزية في تاريخ المغرب؛ إذ بفضلها توقف العثمانيون عن مدّ أرجلهم في المغرب، ولم يستطيعوا بسط نفوذهم عليه! فالباحث محمد مزين، حين يتحدث عن هذه المعركة، ويحاول فهم سبب عدم ذكر المؤرخين في عهد السعديين أعداد الجيوش في المعارك، يقول: "لن نتعجب من ذلك؛ لأن ضبط الأعداد لم يكن أحسن اختصاص علماء هذه الفترة المضطربة. ولو كان القادة يعرفون عدد جيوشهم، فهم لا يذكرونها لأحد؛ فيبقى المؤرخون يؤوّلون ما شاؤوا، وربما تركوا هذا الغموض عن قصد... ومثال ذلك جيوش المعركة التي وقعت بين عبد الله (الذي سيلقب بـ "الغالب بأمر الله")، وبين الأتراك بمقربة وادي اللب من ناحية فاس، وقد انهزم فيها حسن بن خير الدين"<sup>3</sup>.

إن هذه البادية كانت وسطاً مهماً في حياة المركز؛ إذ أثرت فيها تأثيراً بالغاً، إلى درجة أن المتحكم فيها كان بمُستطاعه التحكم في المركز الفاسي؛ ففي عهد السعديين، الذين وقعت معركة وادي اللب زمنهم، نجد هؤلاء الحكام قد نُصروا من لدن المتصوفة وأرباب الزوايا الذين كانوا يتموقعون في أطراف فاس. ولذلك، نجد السعديين قد اتجهوا إلى البادية أولاً، قبل دخول المدينة. يقول عبد الرحمن المودن، بعد ذكر أشكال مواجهة السعديين للوجود الوطاسي: "إن هذه الأخبار، مهما سبحت في مناخ رمزي، لتشير، مع ذلك، بكامل الوضوح، إلى غزارة الوسائل التي استعملها

<sup>1</sup> - محمد مزين، فاس وباديتها، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط.1، 1986.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط.1، 1995.

<sup>3</sup> - محمد مزين، فاس وباديتها، ص: 150.

الفريق السعدي لمواجهة خصومه الوطاسيين؛ بدءا من الجهاد والإقامة بين أوساط سكان البادية، ومقاسمتها أزماتها، إلى الشراء بالمال<sup>1</sup>.

ولم تكن هذه البوادي مهمة في بداية الدعوة السعدية فقط، وإنما امتدت إلى عهد أحمد المنصور، الذي كان أعظم سلاطين هذه الفترة؛ إذ يورد المودن رسالة بعثها هذا السلطان إلى خليفته بفاس، فيها أن النائب عنه في هذه الأماكن يجب أن يكون مؤتمنا بشكل كبير: "تأزى ثم بلاد الفحص... لا تعطى كلاهما إلا لأقرب الخدام، الموثوق بمحبتهم وقُرْبهم وخدمتهم"<sup>2</sup>.

ولعلّ ما تحاول رواية "وادي اللبن"، لعبد اللطيف محفوظ، القيام به هو النبش في ذاكرة مكان جغرافي عُدّ هامشيا، وإبراز الدور الريادي الذي قام به هذا الوسط في حياة السلطة المركزية، والمغاربة بشكل عام. ولهذا، فمَنْد العنوان، نرى تبيّنا وتركيزا على معركة دارت رحاها في أطراف فاس، ولم تتحدث عنها المصادر التاريخية إلا حديثا عابرا! وذلك ما نجده عند محمد الصغير الإفرائي في "نزهة الحادي"، وأيضا لدى صاحب "الاستقصا"، الذي يكتفي بإيراد ما ذكره السابق فقط. أما المراجع التالية على ذلك، فأغلبها لا تتحدث عنها مطلقا، وكأنها لم تكن مفصلة في تاريخ المغرب؛ إذ لو دخل الأتراك فاس، لصار المغرب حينها عثمانيا، وهذا ما لم يتم بفضل عزيمة الجيش المغربي وشجاعته، بزعامة عبد الله الغالب، ومساندة القبائل الواقعة على الأطراف.

إن الدارس، وهو يهْمُ بقراءة كثير من الروايات، يجد نفسه أمام إرغامين، لا يمكنه تجاوزهما، دون الوقوع في مزالق منهجية وتحليلية. ولعل أول هذه الإرغامات إرغام منهجي: ذلك أن كثيرا من النصوص تفرض على قرائها شكل أو طريقة التعامل معها.. إنها لا تسمح لهم بأن ينتقوا ما شاؤوا من المناهج حتى يفكّوا مغالقتها، وإنما تقترح، أو تفرض عليهم، النموذج النقدي المناسب للتعامل معها. وهذا ما تفعله رواية "وادي اللبن" بشكل جلي؛ إذ تفرض على قارئها مناهج محددة، لعل أهمها المنهج السيميائي؛ لانفتاحه على الموسوعة والتاريخ، ومنحه القارئ حرية كبيرة نابعة من النص، الذي يشكل بؤرة كل تأويل ومُنْتَهاه.

وتأتي، بعد ذلك، التساؤلات التي يطرحها القارئ، وكذا المؤلّف.. إنها تساؤلات لا تتأني إلا من إكراهات واقعية، هي التي تشغل بالهما وتُفْلِقهما، بل هي التي تجعلهما يشيّدان عوالمهما. إن القراءة كانت دوما إعادة كتابة للنص من جديد، لكن هذه الإعادة تستمد مشروعيتها من النص الأصلي. ولذلك، فإنّ قراءتنا، هنا، تحاول مساءلة الذاكرة، التي ساءلها الكاتب بدءًا؛ ذلك أن سؤال

<sup>1</sup> - عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، ص: 82.

<sup>2</sup> - نفسه، ص: 84.

الذاكرة يعدّ من الأسئلة المركزية التي شغلت بال السارد، وجعلته يبدأ رحلة البحث، وجعلتنا - بدورنا - نتتبّع ماجريات أحداثها انطلاقاً من وعي السارد.

### الذاكرة وتعدّد أوجهها:

حين عالج أفلاطون مشكلة الذاكرة في كتابيه "ثياتيتوس" و"السفسطائي"، فإنه عالجه انطلاقاً من مفهوم "الصورة"؛ ذلك أن الذاكرة عنده، كما هي عند أرسطو، عبارة عن صُور. إن أفلاطون، في كتاب "السفسطائي"، مثلاً، وضع الصورة، التي هي مرادفٌ من مرادفات الذاكرة، تحت عنوان: "فنون الإيهام والإيماء"<sup>1</sup>. ونعلم أن وضعاً كهذا يُظهر النظرة السلبية والحدّية التي كان ينظر بها نحوها. لقد وُضعت الصورة (الذاكرة) إلى جانب الخيال، وهذا الصنيع يُظهر كيف يمكن للذاكرة أن تتماهى معه، دون أن يُعرف الحد الفاصل بينهما. وهذا ما سنجده أثناء بحث السارد عن قصة التاج السلطاني عند أغراب، وقصة الوسام الملكي عند الفراط.

بدأت الحكاية بمأتم، حين يُتوفى خال السارد بتيسة؛ فيذهب لتقديم واجب العزاء. وبعد الدفن، وبينما هو إلى جانب الحاضرين، إذ بأحدهم، وقد كان من عائلة السارد من جهة الأم، يتحدث حديثاً غامضاً، وذلك لأنه أصيب بالخرف، وفقد ذاكرته. لكن، رغم ذلك، بقي السارد يُنصت إليه بوعي بين الفينة والأخرى، وعلقت في ذهنه جملة: "سرق رجال التحرير تاج جدنا، الذي أهده إياه السلطان"<sup>2</sup>.

لقد كانت هذه الجملة مفتاحاً سرّياً، جعل السارد يبدأ رحلة فكّ لغز التاج، ولغز السلطان.. هو يدرك أن قانون الذاكرة خادع، ومع ذلك قرّر خوض مغامرته البحثية، لعلها تُوصّله إلى ترميم الجزء المفقود من هذه الذاكرة المشوّشة. إن الموت، وما تبعه من أحداث في الفصل الأول، وأهمها جلوس السارد إلى جانب أغراب، واستماعه إلى حديثه الهذيان المتسلسل، الذي لا رابط بين أجزائه، كان بمثابة تمهيد للحكاية؛ تمهيدٍ للملّة الذكرى من كل جوانبها؛ ذلك أن من قوانين الذاكرة حاجتها دائماً إلى محفّز كي تسترجع، وكي تنتقي أحداثها المستعادة.

<sup>1</sup> - أفلاطون، السفسطائي، تج: أوغست ديبس، تر: الأب فؤاد جرجي بربارة، من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط.2، 2014، ص: 100.

<sup>2</sup> - عبد اللطيف محفوظ، وادي اللين، دار الفاصلة للنشر، طنجة، ط.1، 2021، ص: 23.

## الذاكرة والألفة:

نحن أمام رحلة، والرحلة لا بد لها من محطات، وقد كانت لكل محطة شخصيات أساسية؛ فكان في فاس أخو السارد، اللذان يمثلان جزءاً مهماً من ذاكرته، سواء الطفولية أو الآنية. ففي الفصل الثاني، المعنون بـ "كلام الليل الذي يمحوه النهار"، نُلفي السارد يجلس مع أخيه عبد الدايم، بمقهى من المقاهي الشعبية، يتناولان الفطور، ويخوضان حديثاً مقطوعاً. وبينما هما كذلك، جعل السارد يتأمل الرسومات الموجودة في صحفته، وتلك التي تؤثت فضاء زلفة أخيه. لقد عقد مقارنة، كان من نتائجها إعجابه بما في صحفته. لكن - يا تُرى - لماذا؟ إن ما هو مرسوم حزك في ذاكرته الكثير من المياه الراكدة، بل وحققه على تأويل الرسومات، ومحاولة ربطها بعدة سياقات. في حين أن زلفة الأخ الصينية، رغم تناسق رسوماتها، لم تحرك فيه أي شيء، وبدت خافتة وباهتة بالنسبة إليه. يقول السارد: "ذهلت عن العالم من حولي، حتى لم يبقَ منه إلا هذه الصحيفة. كنت أديرها، وأدقق النظر في رسوماتها المتشابهة والمتباعدة القدر... بدت لي على غير ما كنت أراها.. رسومات تُضمّر جمالية خفية، لا تدركها إلا عين ترى الأشياء بروح فنان.. كانت الرسومات مشابهة لوردة شجرة الدفلى، لونها أرجواني، وعددها خمسة..."<sup>1</sup>

أما زلفة الأخ، فقد قال في حقها: "كنت بين الفينة والأخرى أرمق زلفة أخي العصرية المزينة برسومات متناسقة وجميلة، وأقارن انفعالي بصورتها بانفعالي بصحفتي، فأحس الفرق شاسعاً. وأستغرب كيف لا تحرك في الزلفة شيئاً. وأتساءل هل لأنني اعتدت منذ سنين، أم لأنها لا تفتح مسرباً في الذاكرة نحو دروب الصبا المحبوبة..."<sup>2</sup>

يطرح السارد، هنا، إشكالية علاقة الذاكرة بالألفة، وبالماضي المعاش. إن ما تثمنه الذاكرة هو ما تألفه، وما كان لها معرفة قبلية به.. إنها تستشعر أنه ملك لها، وأنه يمثلها.. إننا أمام تماهٍ بين ثلاثة عوالم: الذاكرة والهوية والثقافة. لقد مثلت الصحيفة أحد مكونات الهوية الطفولية للسارد، بما تحيل إليه من عوالم، لا يستقيم الحديث عن الطفولة إلا من خلالها. كما مثلت جزءاً من ثقافته الجزئية والشاملة. ولهذا، فهو حين يسترجع الماضي لا يسترجع الذكريات فقط، وإنما يستعيد هويته وثقافته. وهو ما لا تمنحه إياه زلفة الأخ، حتى وإن كانت جميلة ومتناسقة الرسومات.

<sup>1</sup> - المصدر نفسه، ص: 28.

<sup>2</sup> - نفسه.

يستحضر السارد، هنا، مفهوم "الألفة"؛ كما هو عند برتراند راسل، الذي يرى، انطلاقاً من مفهوم "الصورة"، أن هناك أنماطاً منها، نحس عند مشاهدتها بأنها قريبة منا.. نعرفها، ولنا ألفة معها. في حين نجد أن هناك أخرى، لا نستشعر ذلك معها؛ بحيث تكون غريبة عنا، وليس لنا أدنى علم بها. يقول: "بعض الصور، شأنها شأن بعض الأحاسيس، تبدو مألوفاً جداً، فيما تبدو صور أخرى غريبة. الألفة، إذن، هي شعور قابل للتدرج. ففي صورة لوجهٍ معروف جيداً، مثلاً، يمكن أن تبدو بعض الأجزاء أكثر ألفة من بعضها الآخر. وحين يحدث هذا، يكون لدينا اعتقاد بدقة الأجزاء المألوفة أشد مما هو بالأجزاء الأقل ألفة"<sup>1</sup>.

### الذاكرة والسياق:

إن ساردنا، وهو يسترجع ذكرياته مع الصحيفة، التي يتملأها جيداً، لا يستعيد ذكرى بعينها، وإنما يستعيد الماضي مجرداً من كل الشوائب.. إنه ماضٍ لا يستحضر السياقات. وهذا ما يجعل هذه الذكريات بعيدة المنال وضبابية، رغم أنها تستعيد الطفولة؛ إذ إنها لا تنتقي لحظةً بعينها؛ كما هو قانون الذاكرة الانتقائي. إن مفهوم السياق هو الذي يحدد المسافة الزمنية الفاصلة بين وقوع الحادثة ولحظة استرجاع الذكرى؛ فإذا كان بإمكاننا أن نسترجع الذكرى وفق أجزائها، وبترتيب متناسق، فإن هذه الذكرى، من الناحية الزمنية، قريبة الحدوث. لكن، شيئاً فشيئاً، يبدأ هذا الأمر بالأفول؛ فتصبح الذكرى صافية من كل شوائب السياقات. إن الإحساس بأن الترتيب الزمني قد تلاشى في الذكرى هو الذي تكتسب من خلاله الواقعة "علامة الماضوية الصحيحة"<sup>2</sup>. وعليه، فإنّ الذكريات التي يستعيد السارد مع الصحيفة، ومع الرسومات المؤتثة لفضائها، اكتسبت صبغة ماضوية.

يحدث مثل هذا الاسترجاع كثيراً ضمن مختلف أطوار الرحلة، ولاسيما مع السارد الذي كلما رأى أو سمع شيئاً تذكر أشياء تربطه بطفولته، وبمواطن الصبا، وخاصة تيسة وفاس؛ إذ إنه يتذكر اللحظات التي كانت تخرج فيها والدته للتنزه، وأثناء ذلك تلتقي نوسة؛ فيبدأ بسرد همومهم، وكل ما يتعلق بهم، دون أن تكون ثمة أي علاقة سابقة بينهم، غير أنه لا يذكر واقعة بعينها، تجسد هذا المعطى. يقول السارد: "قادتني التداعيات إلى تذكر العُرف القاضي بالأ تخرج النساء للاستجمام إلا مرفوقات بأطفالهن؛ فعبثت سماء ذهني ذكريات جولات أُمي مساءات الجمع. استعدت بنشوة لحظات استمتاعي برفقتها، وخصوصاً معرفة الآخر بلا مقدمات،

<sup>1</sup> - برتراند راسل، تحليل العقل، تر: عبد الكريم ناصيف، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، ط. 1، 2016، ص: 161.

<sup>2</sup> - نفسه، ص: 162.



ونسيانه، أيضا، بلا مقدمات<sup>1</sup>. ينطبق الأمر، هنا، على تذكره، وهو يتجول في شوارع فاس، الكبار الذين يجلسون بالمقهى، ويتملّون وجوه المازين؛ فكان يتمنى أن يصير كبيرا، حتى يجلس حيث يجلسون، ويعيش كيف يعيشون.

### الذكرى.. صور وحنين:

يستعيد الإنسان الذكريات، سواء أكانت سلبية أم جميلة.. إنه لا ينتقي بنفسه طبيعة الذكرى، وإنما يستعيد ذلك وفق محفزات. ولعل ساردنا، حين يسترجع صورا من الماضي، لا يستعيد إلا تلك الذكريات الجميلة، وحتى تلك السلبية كان يصورها بمظهر حسن، أو بالأحرى كانت تتبدى له جميلة. إن هذا ما يدعى "حنينا"، يعود إلى ماضيه بلذة واستمتاع. ولهذا، نلقي الكثير من العبارات الدالة على ذلك في الرواية؛ منها: "استعدت بنشوة لحظات استمتاعي برفقتها" (ص: 31)؛ "لست أدري لِمَ بدت لي نهارات تلك الأيام، برونقها وبساطتها، أعز وأبهى من سهرات ليالينا الآن" (ص: 32)؛ "أحب استعادة تلك الأيام، ربما لأنني كنت خُرا فيها من أي التزام" (ص: 33)... بحيث نجد، هنا، اقترانا بين الذاكرة والمتعة، وهذا ما يعطينا انطبعا بأن هذه الذاكرة لم يستقر بداخلها إلا ما هو ممتع وإيجابي، أو ما كان غير ذلك؛ فصيرته حسنا مع مرور الزمن.

وترتبط مختلف الذكريات التي تتحقّق فيها المتعة بالسارد، الذي يستعيد من خلالها جزءا من ماضيه، وماضي أسرته وأغلب مجايليه. وهو حين يستعيده، لا يحاول لجم ذاكرته، وإنما يترك لها المجال كي تنساب، دون أن يعترضها عارض. وعليه، فحتى حينما يقتطع من الزمن الماضي جزءا، كان مفترضا أنه سلبي أو ذو وضعية دونية، يسترجعه بكلّ لذة وحنين. وذلك ما أشرنا إليه، حين كان يرى من هُـم في المقهى؛ فيتمنى لو كان مثلهم.. هذه اللحظة ذات تامين سلبي، ومع ذلك فهو يحنّ إليها؛ لأن كل الدروب والأشخاص والأزمنة، التي ألفها ماضيا، غدت تُثَمِّن إيجابيا.

### الذاكرة والوهم:

يعتقد الإنسان أن الكثير من الأحداث وقعت على الشكل الذي بقي مخزّنا بها في الذهن؛ ينسى أو يتناسى أن الزمن يفعل فعله، وأننا لا نستعيد إلا صورة عن الماضي. يمكن لهذه الصورة أن تكون قريبة من الحدث، قادرة على منحه بُعدا محيّا بكيفية تقريبية، ويمكن أن تكون هشة وغائمة جدا. ومع ذلك، فنحن أمام صورة؛ أي أمام وضعية مموّهة وموهمة.

<sup>1</sup> - برتراند راسل، تحليل العقل، تر: عبد الكريم ناصيف، مرجع سابق، ص: 31.

ويمتاز ساردنا بوعي قادر على تفكيك الأحداث التي تجري أمامه، وإعادة التركيب بينها، بل والتقريب بين كثير من الأشياء، التي تبدو للوهلة الأولى متباعدة. وقد كان لا يكتفي بسرد الأحداث، وإنما يعلّق عليها، ويقدم بشأنها وجهة نظره، ووجهات نظر أخرى؛ إذ يشير، في أحد المقاطع، إلى الخلل الذي يمكن أن يصيب الذاكرة؛ أي النسيان الذي يصير عائقاً وحاجزاً أمام الذكرى، وذلك من خلال استحضار الوسام السلطاني عند الفراط، والتاج السلطاني عند أغراب، وكلاهما يذكر الحكاية الخاصة به يوم أصيب بالخرف لا غير. يلتقي السارد بمصطفى؛ فيتحدثان عن الحكايتين معاً، وعن شخصيتي الفراط وأغراب. بيد أن المعجم الموظف لدى الحديث عن الشخصيتين يمتاز بثمين سلبي، لكن ليس من قبل السارد، وإنما من قبل الجماعة التي ينتميان إليها، بعدّهما شخصين يصوّغان ذاكرة مغايرة للذاكرة الموروثة عند الجماعة. يقول السارد: "كان لقائي بمصطفى وجبياً؛ لذلك تلافينا المقدمات، وذهبنا رأساً إلى الموضوع. أخبرني أنه، لأول مرة، يسمع حكاية أغراب كاملة. أما حكاية الصندوق، فسمع بها قبلاً، وتعرّف على ظروفها كاملةً من المهدي يوم استضافنا، بيد أن أحداً لم يسبق له أن أخذ حديث الفراط مأخذ الجد؛ فقد عدّوه هلوسة من همس الجنون، الذي ينتابه بين الفينة والأخرى. لكن حكاية أغراب، التي ظهرت في لحظة أصيب فيها هو الآخر بالخرف، تبعث على التملّي والتأمل، وربط علاقات شتى، حتى إذ لا يمكن أن تصدر نفس المعلومة تقريباً، عن شخصين بينهما تاريخ مشترك، ونسب مشترك"<sup>1</sup>.

يظهر من هذا المقطع، الذي هو في الأصل عبارة عن حوار، أمران متناقضان:

من جهة أولى، هناك شخصيتان تحكيان عن حادثتين قديمتين، لكن زمن الحكي يمتاز بكونه صادراً زمن فقد مصدر الحكي؛ أي التاج والوسام. ثم هناك فقد آخر، يتمثل في فقدان الذاكرة، وما يترتب عنه من تشويه للوقائع والأحداث، أو يمكن حتى أن تضاف وتحذف أشياء كثيرة.

من جهة ثانية، فكِلتا الشخصيتين تحكي الحدث، وإن بطرق مختلفة؛ مما يجعل المستمع يشكّ، وي طرح على نفسه تساؤلات حول حقيقة ما يتفوّه به شخصان، يظنّ أنهما لم يعودا يُدركان ما يتفوّهان به.

ويمضي السارد في تحليلاته، وفي تشبيك دواليب السرد، مُقلِّباً الموضوع على وجوهه المتعددة والمتنوعة، وذلك بحثاً عن الحقيقة الضائعة؛ تلك الحقيقة التي لا نعرف هل هي متضمّنة في كلام

<sup>1</sup> - برتراند راسل، تحليل العقل، تر: عبد الكريم ناصيف، مرجع سابق، ص: 105.

الفراط، أم في هذيانات أغراب، أم هي متحقة فيما صارت تؤمن به الجماعة بعد أن حصل لهذين الشخصين ما حصل.

إنّ ما يجعل الحقيقة غائبة وغائمة هو وجهات النظر المتعدد هذه، وضبابية آلة التذكر عند كل من الفراط وأغراب، وهذا ما يحيلنا إلى أفلاطون من جديد، الذي كان متيقنا من أن كل تذكر إنما هو صورة ممسوخة ومشوّهة عن الواقع، ومن أنه - لا بدّ - محاط بالنسيان والخطأ. ولذلك، شبه الذاكرة بطبقة الشمع. ولنقرأ رأيّه في المسألة، حين يقول على لسان سقراط: "لنقل إنها هبة من الذاكرة أم ربّات الفن، وكل ما ينبغي الاحتفاظ به في ذاكرتنا، مما قد رأيناه أو سمعناه أو تصوّرناه، يأتي إلى هذا الشمع، الذي نفترض وجوده؛ فيتقبله بما فيه من الإحساسات والتصورات ليحفر عليه ببروز كعلامات ننقشها عليه، وما ينطبع فيه يكون لنا عنه ذاكرة وعلم طالما ظلّت صورته موجودة، وما ينمحي ولم ينجح في الانطباع ننساه، ولا نعرفه على الإطلاق"<sup>1</sup>.

إننا أمام طبقة من الشمع، ترسم الأشياء عليها وتُحفظ، لكنّ الشمع يتسم بكونه قابلاً للاشتعال والاحتراق، كما أنه يمكن أن يضيء الطريق والمكان. غير أن هذه الإضاءة محدّدة بزمان؛ إذ لا يمكن للطبقة أن تستمر وتدوم. ومع ذلك، فإن أفلاطون، في محاورته ثياتيتوس، يجعل تفاوتات بين البشر في تملكهم لهذه الملكة؛ إذ هناك من يملك منها حظاً وافراً؛ فترسم في ذهنه آماداً أبعد، وهناك من ترسم الأحداث عنده مدة متوسطة، وهذا النوع يملك جزءاً أقل من السابق، لكنه أكبر من الصنف الثالث، الذي له حظ قليل فقط منها. ولذلك، فهذه الطبقة يمكن أن تكون على هيئات مختلفة بحسب الأفراد الممتلكين لها.<sup>2</sup>

نرى ما الذي يمكننا قوله عن ذاكرة كلّ من أغراب والفراط؟ تلزم الجماعة، التي ينتمي إليها، بمنع مختلف الأفعال والممارسات، التي تصدر عن هذين الشخصين، تميمنا سلبياً؛ نظراً لمخالفتها الأعراف والمواضعات التي سنّتها الثقافة؛ إذ حتى لو سبق لسلطان أن أهدى وساماً، أو منح تاجاً لأحدهم داخل القبيلة، تناست الثقافة هذا الأمر، وعدّته ثانوياً. وهذا ما يحصل لكل الأحداث التي تعدّ هامشية، وليست ذات بال؛ إذ إن من بين أهم قواعد الذاكرة الجمعية، والثقافة بشكل عام، إهمالها لأنساق، وإعلاءها من شأن أخرى. كما أنها قائمة على الحوار بين الماضي والحاضر، وهذا الحوار يتخذ أشكالاً عديدة، من بينها النقد الذاتي؛ إذ إن ما يلائمها من النصوص تسعى إلى الحفاظ عليه، وما لا ينسجم معها تحاول تهيمشه ومحاربته. يقول يوري لوتمان

<sup>1</sup> - أفلاطون: محاورته ثياتيتوس لأفلاطون أو عن العلم، تر: أميرة حلي مطر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص: 103.

<sup>2</sup> - نفسه، ص ص: 102-103.

(Y. Lotman): "إن الذاكرة هي أشبه ما يكون بموَلّد، يعيد إنتاج الماضي من جديد؛ أي إنها قادرة على تحويل كل السيرورات التي نقلها إلينا الفكر من الماضي... إن العلاقة المتبادلة بين الذاكرة الثقافية والتأمل الذاتي هي علاقة تشبه الحوار المستمر والدائم؛ فالنصوص المنحدرة، أو المعبرة عن فترات زمنية سالفة، يمكن ضمُّها إلى الثقافة؛ فتتفاعل مع الآليات المعاصرة، وتولّد صورة للماضي التاريخي، الذي نقلته الثقافة، وتصبح شريكا مساويا في الحوار، لها القدرة على التأثير في الحاضر"<sup>1</sup>.

وعليه، فإن الجماعة، حين ترفض ذاكرة الفراط وأغراب، حتى وإن كانت ذاكرةً تحاول الرفع من قيمة الفرد والجماعة، فهي تمارس الوصاية على شكل التفكير، وتنتقد كل ما يخالف القواعد الموروثة منذ أزمنة مديدة؛ ذلك أن من بين القواعد أن السلاطين لا يتخلّون عن تيجانهم إلا مُرغمين، وذلك يكون لصالح سلاطين أقوى منهم، وليس لأفراد هامشين، لا وزن لهم.

يعد نسيج الكلام، في حكايتي الرجلين، نسيجا عائليا.. إننا هنا أمام ذاكرة عائلية؛ إذ تنوع الذاكرات، وتتفرع؛ فنرى ذاكرة للجماعة الكبرى، وذاكرة للشباب، وذاكرة للمثقفين في حقل معرفي ما، وما إلى ذلك. وعليه، فذاكرتهما فردية، غير أنهما يحاولان تسويقها بوصفها جماعية ومسّمة ثقافية. يقول مصطفى في حديثه مع السارد: "إنه من المهم أن نتأمل القرابة أولا؛ فكلهما ينتميان إلى أسرة ممتدة، تعيش في نفس البيت الكبير مع الجد، الذي يخلفه الابن البكر، حتى إذا ما امتدت أكثر من اللازم. ويحدث هذا حين يصبح البكر جَدًا، ويشارف إخوته على أن يصيروا أجدادا؛ فينتقلون إلى بيوت أخرى، وهكذا... أوضح أن هذا التقليد يقصر إرث الأشياء الثمينة - التي لا تقبل القسمة - على الكبار وحدهم؛ لذلك يتم التستر عليها، وتمريرها خلسةً من الأب إلى الابن البكر، كما لو كانت ولاية، أو قوة روحانية؛ كتلك التي تجعل المرء قادرا على علاج مرض ما"<sup>2</sup>.

إن قبول ما يتفوّه به الرجلان هو قبول بالثقافة والهوية، اللتين يحاولان بثهما في الجماعة، وهي جماعة لم تعد تؤمن بالماضي في جانبه الذي يوشك أن يصير خرافة. ولأن ساردنا ليس شخصا بسيطا، وإنما هو فرد مثقف واع، مهتم بتاريخ منطقته، فإنه يحلل القصص، ولا يترك لقارئه مهمة التكفل بذلك، بل يفرض عليه سيناريوهات ومسارات تأويلية؛ من ذلك تأويله حكاية التاج، مُستحضرا المقارنة بين الفراط وأغراب. يقول السارد: "كان الأمر، الذي ألح عليّ؛ كي أوصل

<sup>1</sup> - نقلا عن: عبد الله بريعي، البناء السيميائي للذاكرة، مجلة "أبوليوس"، الجزائر، ع. 2، مج. 8، جويلية 2021، ص: 90.

<sup>2</sup> - وادي اللين، ص ص: 105-106.

استحضار الحكاية، هو تشابه مصير الفراط وأغراب. فكلاهما أصابه الخرف والاضطراب النفسي، وكلاهما يزعم ضياع هدية سلطانية".<sup>1</sup>

ليس هذا فحسب، بل نجد هذا السارد يمنح الوضعيات تسميات علمية، لا يدركها إلا المختصون في الميدان الذي يتحدث فيه، وهذا الميدان يتمثل، هنا، في التاريخ والتأويل. وهذا ما يجعل الحكايتين (حكاية التاج، وحكاية الوسام) خارج منطق الواقع، وخارج ما تؤمن به الجماعة؛ فهما، إذًا، لا تنتميان إلى دائرة الحقيقة. يعلق السارد، بعد بحث طويل ومُضْنٍ عن حقيقة قصة أغراب: "تبيّن لي أن خبر أغراب جرى، على أكبر تقدير، تحريفه وتضخيمه، وقد خضع لمنطق الليجان (الحكاية التاريخية المعدلة)، التي تسعى إلى تخليد مَجْد عشائري من طريق تصعيد الفعل، وأسطرة الأحداث التاريخية؛ فلم أجد ما يمكن أن يكون أصلاً لحكايته إلا حرب وادي اللبن الثالثة، التي وردت في كتاب "تاريخ التيجان في معارك الوديان"؛ تلك التي دارت بين المتوكل وعمه عبد المالك السعدي".<sup>2</sup>

### الذاكرة والتاريخ.. تعدّد الحقائق:

تتنوع الحقائق وتعدّد، وذلك بتنوع وجهات النظر والمقاصد.. إننا لا نجد حقائق ثابتة طوال التاريخ؛ فما كان، بالنسبة إلى حقبة ما، حقيقة، قد يصير عكس ذلك في لحظة زمنية ما، وهذا ما يقع في العلوم الحقة وغيرها؛ ذلك أن تاريخ العلوم هو تاريخ تجاوز لأخطاء وحقائق ماضية. وإذا كانت اللقاءات المعروفة، التي سميت بـ"وادي اللبن"، قد حدثت في عهد السعديين، وشهدت أحداثاً فارقة في تاريخ المغرب، فإننا نجد تصوّرين حول هؤلاء الحكام، الذين حكموا المغرب في لحظة زمنية، شهدت تصاعداً قوتين عظيمتين في الخارطة الدولية؛ يتمثل الخطر الأول في النفوذ العثماني، الذي أحكم سيطرته على المشرق العربي، ووصل إلى الجزائر، ويتمثل الخطر الثاني في النفوذ المتعاضم للبرتغاليين والإسبانيين، الذين ملكوا العديد من المدن الساحلية المغربية؛ من مثل الجديدة وأسفي وغيرهما.

إن هؤلاء الأشراف قد وجدوا مَنْ عَظَّم أمرهم وبَجَّلهم، ومن ذلك عبد العزيز الفشتالي، الذي ألف كتاب "مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا"، وابن القاضي صاحب "المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور"؛ فهذان المؤلفان يُشيدان بمختلف المآثر والخصال التي كان يتمتع بها الشرفاء الزيدانيون، وفي مقدمتهم أحمد المنصور الذهبي. وهناك مَنْ تحامَل عليهم، ووصفهم

<sup>1</sup> - وادي اللبن، ص: 97.

<sup>2</sup> - نفسه، ص: 152.

بأفدع الأوصاف. ومنهم المؤلف المجهول؛ صاحب الدولة السعدية التكمدارية. وفي ذلك إثبات لنسبية الحقائق التاريخية، وفُسح المجال لإعادة النظر في مختلف الأشياء، التي وصلت إلينا من الماضي.

وتمتاز ذاكرة كلٍّ من الفراط وأغراب بالتشوش، وغلبة الوهم. ومع ذلك، فإمكانية أن يكون قد وقع جزء مما يدّعيانه أمر وارد. وهذا ما نلمس صدئاً له عند السارد؛ فبعد أن رأيناه غير مقتنع بما كانا يهذيان به، نراه قد بدأ يطرح تساؤلات حول قصة الفراط، حين يقول: "في ظل هذا الالتباس، تعددت الاحتمالات؛ هل السلطان، الذي حمله جدّ ما من أسلاف أغراب، هو السلطان محمد الشيخ، أم عبد الله الغالب، أم المتوكل السعدي، أم القاسم، أم زيدان، أم عبد المالك؟ هل هو قرقوش، أم الهبري، أم العياشي، أم بوحمارة؟"<sup>1</sup>

نلاحظ، هنا، السارد وقد بدأ يُدْخله الشك مما قاله الفراط، وهذا الشك هو المصدر الأول، الذي جعله يتابع خيوط الحكاية منذ أن سمع جزءاً منها في المأتم عند أغراب. وعلى الرغم من اقتناعه بأن أيّاً من الرجلين لم يعد له مع الماضي إلا رابط بسيط، فإنّ هذا الأخير يمكن أن يقود المرء إلى شيء ما. إن ساردنا؛ لكي يكشف جزءاً من الحقيقة، بدأ رحلة بحث مُضنية بين رفوف المكتبات، وفي الشبكة العنكبوتية، وعند أهل تيسة وغيرهم. وقد أدّى هذا التعدد في مصادر البحث إلى تضارب في الأحداث والوقائع، وكذا الحقائق التاريخية. ولهذا، تمّت عَنُونَةُ الفصل السابع بمسمى "لعنة الروايات". ومن بين ما جاء في هذا الفصل، أثناء بحث السارد عن نقطة ضوء، تنير عتمة طريقه؛ من خلال التنقيب في كتب مختلفة، تنتهي إلى حقب تاريخية متنوعة، ما يأتي: "تحولت المتعة، شيئاً فشيئاً، إلى حيرة، والسعادة بالمعرفة إلى تعاسة الخيبة؛ فقد كانت المعلومات مختلفة من مؤرخ إلى آخر، وكانت الأحداث متداخلة غير مرتبة، والأخبار مقتَضبة، والقبائل بأسماء مختلفة ومواطن ملتبسة، ناهيك عن صورة باهتة للعقل"<sup>2</sup>.

يجد القارئ نفسه، وهو يتابع خيوط الحكاية، ضمن نسق سردي محكوم بتصور صارم، يحاول السارد نقله إليه، حتى إنه ليقتنع بأن الحكاية، هنا، ليست إلّا وجْهاً مرئياً لحقيقة خفية، تتمثل في أن التاريخ والذاكرة معا هما إلا روايات تتنوع بتنوع السُرَاد، وتعدد الغايات التي يهدفون إليها. ولذلك، نرى، طَوَالَ التاريخ، تهويلات وتضخيمات لأحداث، كما نلفي - بالمقابل - استصغارا لعدد من الشخصيات، وتنقيصاً لدورها التاريخي.

<sup>1</sup> - وادي اللبن، ص: 151.

<sup>2</sup> - نفسه، ص: 142.

وعليه، فالسيناريو الأبرز للقراءة، والمحدّد من قبل المؤول الأول للحكي، الذي هو السارد، يتمثل في غياب المرجع، الذي يمكن الاحتكام إليه عند الضرورة. وهنا، يعبر السارد عن هذه الوضعية المقلقة، التي أرقتة، وحولت متعته البحثية إلى شيء نقيض؛ بحيث لم يعد يجد في التاريخ ذلك البُعد السردى فقط، وإنما صار يراه مجالا للصراع الحقائقى والمقاصدى، بل وصار ميدانا غير بريء، وذلك خلاف ما يتصور المرء العادى، الذي يقرأ الوقائع والأحداث -فقط- من أجل استخلاص المتعة لا غير؛ وذلك بالقول: "حين عُدت إلى كتب المؤرخين المعاصرين، الذين اهتموا بالمنطقة، تيقنت من صعوبة البحث في التاريخ، وضبط حقيقة الأحداث وصحتها، وخرجت بانطباع مخيبٍ للأمال جميعها. لا شيء يعتدّ به، وليس ما نقرؤه في كتبنا إلا تأويلات منسجمة ومقتضبة، تجعلنا نتوهم أن التاريخ واضح ومتسلسل وبريء. والحق أنه ليس سوى سرود مفككة بلا دليل، أشبه ما تكون، في أغلب أوصافها وتوثيقها، بمسرحية شاهد ما شافش حاجة".<sup>1</sup>

إن كثرة المعارك، التي دارت رحاها ببادية فاس، تظهر مكانتها في تحديد شكل السلطة، وفي تحديد الكثير من خصائصها. ثم إن مزاج أهل تيسة جعلهم يصدّقون الكثير من الأشياء، ويمنحونها تميّنا إيجابيا. وهذا ما يمكن أن يجعل كلّا من الفراط وأغراب يتوهّمان مثل هذه الحكايات. غير أنه يمكن التخمين بأنّ ما يتحدث به الرجلان حقيقة، لكن هل، فعلاً، كان الأمر مع سلطان، أم مع شخص اختلطت صفاته بالسلطين؟ إن ذلك ما يجعل ساردنا يتساءل كثيرا عن المسألة، حين يقول: "قلبت الحكاية من جديد، مستحضرا التاريخ الأسود المترج بجراحات الحروب والحركات والمحلات؛ فاستشعرت صعوبتين أرقتاني، تعود الأولى إلى التوصيف الإيديولوجى، الذي مورس على القبيلة، وخلط بين الثوار والسلطين؛ فتعدّ الجميع سلاطين؛ الشيء الذي جعل عددهم كبيرا. وتعود الثانية إلى اسم المدينة، الذي - إلى الآن - لا يعني "حوض وادي اللبن" إلا مدينة واحدة، هي فاس. فهل المعنى، الذي ورثه أغراب، يشدّ عن القاعدة؛ فيشير إلى تازة أو باديس؟".<sup>2</sup>

إن الإنسان، رغم تعدّد الحقائق التي يصادفها في طريقه، لا بد من أن يتحيز لواحدة منها، قد يعتنقها اعتناقا كلياً، وقد يجد فيها مهرباً من وحشة عدم الإيمان بأيّ حقيقة. ولذلك، فإنّ الرواية تذهب إلى الاعتقاد بأنّ ما يحكيه كلّ من الفراط وأغراب حقيقة، وإن كانت ملتبسة. وهذا ما نستشفّه من حديث السارد عن احميدة؛ جد أغراب، الذي كان أثناء حرب المتوكل مع عمه عبد

<sup>1</sup> - وادي اللبن، ص: 144.

<sup>2</sup> - نفسه، ص: 151.

المالك في معركة وادي اللبـن الثالثة. ولكافأة هذا الرجل على وفائه، وإنقاذ حياة المتوكل، فقد منحه تاجه. يقول السارد، مستنداً إلى كتاب "تاريخ التيجان في معارك الوديان"، إنه "حين اعتلى (المتوكل) صهوة الفرس، انحنى على أذن حميدة، وهمس له: «خذ هذا الكيس، واحتفظ به حتى يستقر الأمر، واحمله إليّ لتنال كل ما ترتضي؛ وإذا قدّر، ولم نلتق، فاحفظه بركةً لك، ولخلفك إلى يوم الدين.. إن به تاجي الذهبي»".<sup>1</sup>

### خاتمة:

لقد سعت رواية "وادي اللبـن" إلى إعادة كتابة تاريخ جديد انطلاقاً من الهامش، وذاك ما يخالف التاريخ التقليدي، الذي كان دائماً ينطلق من المركز. وقد طرحت عدّة تساؤلات على القارئ، الذي كان يتابع ماجريات البحث عن الحقيقة من قبل السارد. وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج، منها:

كتابة التاريخ انطلاقاً من الهامش ليست مسألة بسيطة؛ ذلك أن الكتابات عن المركز تتوافر بكثرة، أما الهامش فظل مقصّى من اهتمام المؤرخين.

يمكن أن تشكّل الأحداث التي جرت في الهامش محطات مهمة من تاريخ الدول بشكل عام. ولذلك، فإنّ قراءة هذا التاريخ قراءة سليمة لا يمكن الاكتفاء فيها بدراسة ما كان يقع في المركز وحده.

الذاكرة التي تسعى الرواية إلى إيقاظها ذاكرة ذات أوجه عديدة؛ منها الوجه المرتبط بالمتعة، والوجه المفترن بالألفة، والوجه المحيل على الوهم...

هناك فكرة أساسية، حاولت الرواية الدفاع عنها، انطلاقاً من وعي السارد، تتمثل في تنوع الحقائق؛ وذلك لتنوع المصادر والمصالح، وتعدّد وجهات النظر.

<sup>1</sup> - وادي اللبـن، ص: 157.



## بلاغة الصورة السردية في رواية "الذاكرة المنسية" للزهرة الرميح

د. عبد المجيد بوفرعة

باحث في اللغة العربية وآدابها  
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
وجدة، المغرب.



د. محمد حمداوي

دكتوراه في الآداب  
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
الناظور، المغرب



### مقدمة



تشكل الكتابة الإبداعية النسائية هاجسا فكريا وانشغالا نقديا، وكشفا جديدا في مجال الإبداع الأدبي الإنساني. فإذا كانت ثمة دراسات قديمة حول الإبداع النسائي فإنها لا تعدو أن تكون مجرد جمع وترتيب وتصنيف ليس إلا كما في "بلاغات النساء" لأحمد بن طاهر طيفور و"أشعار النساء" للمرزياني، و"نزهة الجلساء في أشعار النساء" للسيوطي، و"الدر المنثور في طبقات ربات الخدور" لزينب بنت فواز العاملي.

فالجديد في طرح المسألة الإبداعية عند المرأة يكمن في دراسة هذا الجمع، وبحث خصوصياته، وإضافاته للدرس الأدبي، وعلاقتها بتطوير أدبية الأدب سواء على مستوى المضامين والقضايا التي طرحتها المرأة للنقاش، أو على مستوى الأشكال.

فلم يعد الاهتمام بالحديث بالكتابة النسائية في المغرب مقصورا على مقارنة صورة المرأة في الكتابة باعتبارها موضوعا منظورا إليه، بل انصب على إبداع المرأة ذاتها بوصفها كاتبة منتجة

للشكل والمعنى لما تمتلكه من إمكانيات للإضافة، ولتجديد الرؤى والنظرات، وإغناء المشهد الإبداعي المعاصر.

وتعد الزهرة الرميح من المبدعات اللائي حرصن على الحضور النوعي في الساحة الإبداعية من خلال إصداراتها في الإبداع القصصي، والروائي، والشعري. ولاتزال حريصة على تطوير تجربتها بشكل متلاحق لتكرس اسمها في مجال الإبداع النسائي وعيا منها بضرورة الانخراط في قضايا تمس المرأة، والوجود، والوجدان، والوطن، والإنسانية. وقد صدر للكاتبة رواية موسومة بالذاكرة المنسية. وهي عبارة عن سيرة ذاتية تعكس مراحل عدة من التجربة الحياتية للمبدعة: الطفولة والتدريس، والعلاقات الثقافية والإنسانية، وذاكرة مسقط رأسها. وهي رواية طافحة بالصدق تأتي بعد مراكمة الكاتبة لإصدارات عدة منها مجموعات قصصية "أنين الماء" و"نجمة الصباح" و"عندما يومض البرق" و"أريج الليل" وروايات "أخايد الأسوار" و"عزوزة" و"الناجون" و"الغول الذي يلتهم نفسه".

وما يهمنا في هذا البحث هو الكشف عن أهم تجليات بلاغة الصورة السردية في السيرة الذاتية "الذاكرة المنسية" للزهرة الرميح.

#### أولاً: الوقائع الحديثة: قراءة في موضوعات المتن الروائي وقضاياها

أصدرت الكاتبة الزهرة الرميح سيرتها الذاتية "الذاكرة المنسية" 2016. بعد سلسلة من الإصدارات القصصية والروائية والشعرية بالإضافة إلى ترجمة أعمال كتاب آخرين إلى اللغة العربية.

ينطوي عنوان السيرة الذاتية على مؤشر استرجاعي (الذاكرة) يشكل أبرز المكونات النصية والفنية في جنس "السيرة الذاتية" إذ يؤشر على العودة إلى الماضي من أجل استحضار وقائع حديثة وأشخاص، وفضاءات، وأزمنة تركت أثرها العميق في وعي المبدعة وحياتها. ويعزز التقديم الذي صدرت به الكاتبة سيرتها رغبتها في إخراج هذه العناصر من دائرة النسيان إلى دائرة الحضور كأنها تستجيب لرغبة ذاتية في بناء هويتها من خلال السرد، وإعادة الاعتبار لهذه الذاكرة التي تستحق أن تروى.

ويقدم النص إلى القارئ على أساس أنه سيرة ذاتية كتبها الكاتبة وفق طلب أحد أصدقائها للمشاركة في فيلم يحكي عن بعض ذكريات طفولتها ما ولد رغبتها في الكتابة عن مراحل طفولتها. تقول الكاتبة: "ولأنني مدينة بكتابة هذه السيرة لرشيد بي فلا يسعني في نهاية هذه التوطئة إلا أن

أتقدم له بجزيل شكري وامتناني للمجهود الكبير الذي بذله والذي لم يثمر الفيلم الذي كان يحلم بإنجازه فقد أثمر هذا العمل الذي اهتدى بخطاه<sup>1</sup>.

فهل حققت الكاتبة على مستوى الكتابة السردية تطابقاً بين شخصية الساردة والمؤلفة والبطلة والتزمت بالتعاقد المبرم بين الكاتب والقارئ كما يرى فيليب لوجون؟

انطلقت الكاتبة في سيرتها الذاتية من الأمكنة استحضرت من خلالها ذكرياتها التي خلدها فيها. وتتحول هذه الفضاءات إلى وسيلة لاحتضان الذاكرة وحمايتها من الزمن والنسيان. تقول الساردة: "المكان الذي يوجد فيه البيت الذي ترعرعت فيه. والمدرسة التي قضيت فيها سنواتي..."

تؤسس هذه الفضاءات لهوية الكاتبة وانتمائها القبلي "بني يخلف" تعبر من خلالها عن موقفها من التعصب الأمازيغي الذي يرجع كل شيء إلى الأصل الأمازيغي.

ولعل التقابل المكاني بين بيت الماضي الذي سكن ذاكرتها وبيت الحاضر الذي زارته بعد خمسين سنة يعبر عن دور الذاكرة في العبور إلى الفردوس المفقود. وبذلك يتحول المكان عندها - حسب تعبير غاستون باشلار- في كتابه "شعرية المكان" من إطاره الجغرافي الذي تتحرك فيه الذات إلى رمز مكاني يضطلع بوظيفة التأثير في أحاسيسها باعتبار الفضاء الذي انطلقت منه فضاء حميماً ومركزاً للألفة والأمن، والحماية، وتكييف الخيال. فكلماً ابتعدت عنه ظلت دائماً تستعيد ذكره.

وإذا كان فضاء "لبيرات" هو المكان الذي تفتح وعي الساردة عليه، فإن فضاء "البراج" هو مسقط رأسها الفعلي يثير خيالها أيام الطفولة. وتحضر إلى جانب هذين الفضاءين فضاءات عمومية تربوية أخرى نسجت من خلالها الساردة علاقات اجتماعية حميمة مع ثلة من أساتذتها وزملائها وزميلاتها الطلبة بدءاً من المرحلة الابتدائية ومروراً بالمرحلتين الإعدادية، والثانوية وصولاً إلى المرحلة الجامعية.

حركت هذه الفضاءات التربوية شعوراً بالزهو لدى الساردة من خلال إظهار تفوقها الدراسي على أقرانها، وإغناء تجربتها الجامعية النضالية التحررية. لكنها في المقابل حركت لديها شعوراً بالظلم الاجتماعي، والإقصاء، والدونية. نتلمس أثر هذه المفارقة المكانية من خلال شعورها بانتهاك كرامتها من قبل التلاميذ الذين انهالوا عليها بالضرب أمام مرأى أستاذ اللغة العربية: "ما

<sup>1</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 14.

إن اجتزت عتبة باب القسم ذلك الصباح حتى فوجئت بمجموعة من التلاميذ يهجمون عليّ بجروني من شعري ويوسعوني ضرباً وركلاً... عندما تمكنت أخيراً من استرجاع أنفاسي والهبوط بصعوبة، فوجئت بمعلمي يقف جامداً بالقرب مني كأن يتفرج على ذلك المشهد دون أن يحرك ساكناً بدا لي وكأنه كان يتلذذ بتعذيبي".<sup>1</sup>

نلاحظ في مستوى هذه السيرة أن الكاتبة / الساردة وإن كانت هي الحاكية لنص الذاكرة المنسية لأنها المعنية تحكي سيرة ذاتها، فإن ضميرها / ذاتها يهيمن في مجال النص منفرداً. وقلمنا ينخرط في نون الجماعة. تقول: "كنا قد وصلنا باكراً إلى لبيران، وتوقفنا قبالة المدرسة ... بقينا ننتظر ظهور أول طيف يلوح عن بعد محتمين بالسيارة يلفنا الصمت المخيم، والضباب المنتشر ذلك الصباح".<sup>2</sup>

ولم تقف الساردة عند مستوى تسليم دور السرد إلى ضمائر أخرى كما هو مألوف عند باقي الساردات في سيرهن الذاتية من قبيل سيرة "رجوع إلى الطفولة" لليلى أبي زيد، فتصبح وظيفتها هي التوزيع، والترتيب، والتنظيم، بل ظلت محتكرة لحكي سيرتها معتمدة ضمير المتكلم جعل القارئ يشعر برتابة السرد بعيداً عن أي تنويع خطابي.

تقوم الساردة إذن بوظائف عدة: الساردة الرئيسة، والشخصية المحورية، والذات الفاعلة بامتياز في مجرى أحداث هذه السيرة. لا شك أن الساردة الكاتبة بمحاولة استعادتها لطفولتها أرادت استحضار ذاتها التي صنعت هذه الطفولة وتركت بصماتها في زمنها وتاريخها، وأعدت إنتاج حكاية الطفولة كما عاشتها من خلال توظيفها عنصر التذكر. بالإضافة إلى توظيف التحديد الدقيق والمفصل للمكان والمدينة "لبيرات". فهي تكتب السيرة الذاتية لتقرأ حدود هذه الذات انطلاقاً من البسيط، والجزئي، واليومي، والواقعي بعيداً عن أي تكلف وتصنع على اعتبار أنها لا تملك اقتناعات مسبقة. إنها ذات تتشكل في لحظة الوعي بتاريخها.

### ثانياً: تجليات بلاغة الصورة السردية

يختص هذا المبحث بمقاربة الصورة السردية في السيرة الذاتية "الذاكرة المنسية" للزهرة الريميج، بالتركيز على بلاغة الصورة الرحبة، أو الموسعة مراعيًا الشكل التعبيري للسيرة الذاتية

<sup>1</sup>. الزهرة الريميج، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 1، 2017، ص، 55، 56.

<sup>2</sup>. الزهرة الريميج، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 1، 2017، ص، 37.

بوصفها جنسا روائيا، مع احترام خصائصها السردية. ومن ثم سنقارب هذه الصورة من حيث البنية، والدلالة، والمقصدية.

وظفت الكاتبة مجموعة من الصور السردية، والبلاغية يمكن حصرها فيما يلي:

### • صورة التوازي

نعني بصورة التوازي تلك الصورة البلاغية القائمة على التعادل، والتوازن، والسميتية الإيقاعية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية. وهدفها خلق هارمونيا سردية جاذبة للمتلقي، والتعبير عن توتر درامي، كما يبدو ذلك جليا في قول الساردة:

"القمر في كامل بهائه وسخائه، والسماء في كامل صفائها واتساعها"<sup>1</sup>.

تنطوي هذه التوازيات على تشاكالات تركيبية وصوتية متنوعة (القمر في كامل بهائه وسخائه/ السماء في كامل صفائها واتساعها) = (مقولة الاسم والعطف) (صوت السين وصوت الهاء..). تقوم هذه التوازيات التركيبية، والإيقاعية بوظائف جمالية تأثيرية إلى جانب وظائفها المعنوية، إذ تضيف على الملفوظ السردى عذوبة موسيقية مؤثرة. ومن ثم يتخذ هذا التوازي طابعا شاعريا قوامه الحنين، والانجذاب إلى تلك الأصوات الطفولية التي تخترق سكون الليل المهيّب في مسقط رأسها "لبيرات".

### • صورة السخرية

تمتاز السيرة الذاتية بمكون السخرية الاجتماعية الناتج عن نقد الواقع الاجتماعي السلبي، وتعرية تناقضاته التي تجسد معاناة المجتمع القروي من الفقر، والتفكك الأسري بسبب تفشي ظاهرة الزواج المبكر، وظاهرة تعدد الزوجات غير المقننة. تقول الساردة على لسان أخيها يمازحها: "ستزوجين، وستنجبين إثني عشر طفلا، وسيتضخم جسدك، فتصيرين سمينة مثل هذه الدجاجة"<sup>2</sup>.

ويصل مكون السخرية حدته في مقطع سردي آخر تسخر فيه الساردة بظاهرة التعدد المتفشية في الوسط القروي بسبب الجهل، والفقر يكون ضحيتها الأطفال الذين يحرمون من اهتمام الكبار. تقول الساردة في معرض مقارنتها بين النصارى والقرويين بخصوص أسلوب تربية

<sup>1</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 74.

<sup>2</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 40.

أبنائهم:" كما كنت انهمر بطريقة معاملة أولئك "النصارى" لأبنائهم، إذ يشاركونهم اللعب بالكرة، ويساعدونهم على ركوب الدراجة، ويغمرونهم بالقبل... كان اهتمامهم بالأطفال أكثر من اهتمامهم بالكبار، وذلك خلافا لما كان سائدا عند القرويين. فقد كان الأطفال آخرون يفكرون فيهم... وتحضرني هنا صورة أحد معارفنا. كان متزوجا من أربع نساء، وكان عدد أبنائه يفوق العشرين. لم يكن يعرف أحدا منهم، ولا يتذكر أسمائهم، ولا يعرف من من نسائه أمهاتهم. عندما يقترب منه أحدهم يبادره بالسؤال: "ما اسمك؟" "زمن هي أمك؟"<sup>1</sup>

وعليه، فقد دأبت الكاتبة على توظيف عنصر السخرية بشكل لافت للنظر في كثير من أعمالها السردية والقصصية باعتباره وسيلة جمالية لنقد بعض الظواهر الاجتماعية والسياسية تكون فيها درجة التأثير أكثر قوة. ذلك " أن الشعوب عندما تتفاهم مشاكلها تتخذ السخرية وسيلة للتنفيس عن آلامها. .... لاشك أن مبعث السخرية في الأعمال الإبداعية هو مرارة الواقع والرغبة في لفت الأنظار وودق نو اقيس الخطر بخصوص ما ينتقد."<sup>2</sup>

#### • صورة المقابلة

تستند صورة المقابلة إلى الجمع بين المتضادات على مستوى اللفظ، والعبارة، والمعنى، والتقابل بينها إيجابا وسلبا. ويتضح هذا من خلال المقطع السردى التالى: "كنت أستمع بحكايات "ألف ليلة وليلة"، وما إن أضع الكتاب جانبا، حتى أجدني أسبح في عوالمها المدهشة، وأتأمل ذلك الانتقال العجيب يتم في رمشة عين، من عالم إلى آخر، ومن حال إلى حال... من البر إلى البحر... من الأرض إلى السماء... من الغنى إلى الفقر... من الإنسان إلى الحيوان."<sup>3</sup>

تعتبر هذه المقابلات (البر/البحر)، (الأرض/السماء)، (الغنى/الفقر)، (الإنسان/الحيوان) عن جدلية التنافر والتنوع، وتتخذ طابعا مثاليا غرائبيا؛ مما يفسر رغبة الساردة في تمثيل وتحقيق أحلامها الوجودية في قريتها البئيسة من خلال قراءتها كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي تنطوي صفحاته على كثير من العوالم المدهشة الغريبة كل الغرابة عن واقعها ومحيطها. بل تجد بعض هذه العوالم روااسب راسخة في العقل الجمعي في واقعها "فقد كانت حكايات الجن متداولة بشكل

<sup>1</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص 41.

<sup>2</sup>. الزهرة الرميح، عيون تحديق في العتمة: حوارات حول الكتابة والحياة، مطبعة سليكي أخوين، ط1، 2015، ص 67.

<sup>3</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص 85.

كبير، بل كانت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. كانت أمي تخيفنا منه باستمرار. ذلك أن الجن كان يسكن معنا حسب المعتقد الشعبي".<sup>1</sup>

### • صورة النقيضة

تستند الصورة النقيضة إلى مجموعة من الدوال المتناقضة التي تعبر عن اختلاف الرؤى والتصورات بين الأصوات المتجاذبة داخل النص السردى كما يظهر ذلك واضحاً في وصف الساردة لطباع أمها وسلوكاتها: "ورغم ذلك الحب العظيم الذي أودعه الله في قلب أمي، والذي كان يجعلها هشة وسريعة التأثر، إلا أنها كانت تتحول إلى نمرة شرسة، كلما تعرضت للإهانة من طرف جدتي، أو للظلم بسببها. كانت بنفس قوة جدتي كما تصفها اليوم، عمتي، وتقصد بذلك القوة النفسية والقدرة على المقاومة، وليس القوة الجسمانية، لأن أمي لم تكن بنفس البنية الجسدية الصلبة، ولا بنفس الطول الفارع لجدتي".<sup>2</sup>

يطفح هذا المقطع السردى بمجموعة من المتناقضات المتنافرة التي تتشكل منها صورة الأم النقيضة تعبر عن جدلية الصراع النفسي والعاطفي. فعلى الرغم مما تتمتع به شخصية الأم من طيبة القلب، وحب كبير أودعه الله في قلبها إلا أنها كانت تتمتع بقوة نفسية عالية وقدرة على المقاومة ضد ظلم ورعونة الجدة التي حكمت البيت من حديد. مما سبب في تعميق إحساس الساردة برغبتها في التحرر والانعقاد من سلطة وجبروت الجدة "التي لا تقف عند التعنيف اللفظي، بل تتجاوزه إلى الضرب".<sup>3</sup>

### • صورة الامتداد

تستند صورة الامتداد إلى تشابك الأحداث، وتعقدها، وامتدادها في الزمان والمكان، وتوسعها على مستوى التحريك، والتمطيط السردى والخطابي، كما يبدو ذلك واضحاً من خلال وصفها لبيتها القديم: "خرجت من بيتنا القديم منكسرة النفس، شديدة الحزن. أين هذا البيت من ذلك البيت الذي يسكنني؟ أين فضائه الكئيبة هذه من تلك الفضاءات الأسرة؟... أين تلك الخلوة التي كنا تحتها بها من طائرات المستعمر...؟.. بل أين هي البادية التي كنت أحن إليها؟

<sup>1</sup> . الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 86

<sup>2</sup> . الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 61، 62.

<sup>3</sup> . نفسه، ص، 62.

كأني أمام بيت في أحد الأحياء الشعبية بالمدن الكبيرة لا نبات أخضر لا مياه متدفقة لا حيوانات أليفة لا طيور مغردة... أحسست وكأن قرونا تفصلني عن زمن طفولتي البهي".<sup>1</sup>

تمتد هذا الصورة السردية الموسعة في الزمان (الماضي / الحاضر) والمكان (البادية / المدينة) (الفضاءات الكثيبة/ الفضاءات الأسرة). وتتشابك أحداث قصة الساردة مع المكان على مستوى التحريك السردى الدرامي بدايتها الحلم بالفردوس البهي الذي يسكنها ويرادو خيالها ونهايتها ضياع الفردوس المفقود.

### • صورة التدرج

يقصد بصورة التدرج التعداد الزائد أو الناقص. وقد يدل على الترتيب في مختلف توجهاته ومناحيه. ومن ثم تحمل الصورة طابعا كميا أو معنويا. كما ورد في قول الساردة: "أحسست وكأن طائرا ينقر أمعائي. لعنت في داخلي أولئك الزميلات الكاذبات... دعيتي إحدى الزميلات إلى تناول الطعام معها، لكنني رفضت بقوة... غير أن نقرات الطائر ازدادت حدة... أحسستها تمزق بطني... انتابني حزن شديد... صعدت الدموع إلى عيني. كرهت نفسي كيف أضيع صوم هذا اليوم".<sup>2</sup>

تعتمد هذه الصورة السردية على التدرج الكمي المعنوي الدلالي (ينقر أمعائي، لعنت، نقرات الطائر ازدادت حدة، تمزق قلبي، صعدت الدموع، كرهت نفسي) مما يجسد بؤس مآل الساردة وعاقبتها الأليمة بعدما أضاعت صيامها بسبب قطعة برتقال صغيرة. على الرغم من مدح أبيها وثنائه على عزميتها وقوة إرادتها.

### • الصورة الإحالية

نعني بالصورة الإحالية تلك الصورة القائمة على التضمين، والاقتباس، والتناص، واستثمار المعرفة الخلفية. ويبدو ذلك واضحا من خلال توظيف خطابات متعددة المستويات من الموروث الغنائي الشعبي "أهاهاه، واهاه، راكب، يا الزين، الكمرة هلالية شافتني ضوات...."<sup>3</sup>، والشعر "هذا الخوف من الموت ومن جبروت الزمن كان بدون شك وراء تأثري العميق بقصيدة "البحيرة" للشاعر الفرنسي لامارتين"<sup>4</sup> والسياسة "واصلت النضال بأشكاله السرية والعلنية"<sup>5</sup> والدين

<sup>1</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 28، 27.

<sup>2</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 128، 127.

<sup>3</sup>. نفسه، ص، 73، 74.

<sup>4</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 105.

<sup>5</sup>. نفسه، ص، 139.



الإسلامي " تعلمت من أبي قبل الكتب أن الإسلام دين تسامح واعتدال"<sup>1</sup> ، والتاريخ " اختلف المؤرخون في نسبة بين من يذهب إلى أنه ابن جابر الهلالي المنتسب إلى عرب الجزيرة العربية، ومن يقول إن وردغ من أصول أمازيغية"<sup>2</sup>.

تفصح هذه الاقتباسات، والإحالات التناسية عن عمق تجربة الزهرة الرميح الثقافية والإبداعية وغنى معرفتها الخلفية. ما مكنها من تنويع خطابها السردي، بهدف اقناع القارئ بما حققته من تراكم ثقافي وتحصيل دراسي ذي جودة عالية خاصة في المرحلة الدراسية الجامعية.

### • الصورة المدمجة

يقصد بالصورة المدمجة إدماج أعمال إبداعية مختلفة في نص دامج واحد. كما ورد في المقطع السردى الآتي: "... لا شك أن هذه الشمس هي التي زودت جسدي منذ ذلك الحين بطاقة حرارية لاتنضب... لكنها أبدا لا تضعف من حيي الشديد للشمس التي يصيبني غيابها عادة، بالكآبة لدرجة أنها تعكس حتى على كتاباتي كما حدث مع رواية أخاديد الأسوار التي فرضت فيها الشمس نفسها ليس فقط كموضوع، ولكن أيضا كعنصر فاعل ومؤثر".<sup>3</sup>

أدمج هذا المقطع السردى عملا روائيا موسوما " أخاديد الأسوار" في نص واحد تأليفيا وتركيبيا، وتناسا، وحوارا بغية خلق صورة سردية شاعرية مركبة ومهجنة تعبر عن تعلق الساردة وحماها الشديد للشمس التي تنعم بدفئها في مرابع بلدة "لبيرات". وإذا كان غيابها يستشعرها عادة بالكآبة فإن إشراقها يرسم ابتسامة السعادة على وجهها.

كما أدمجت المبدعة مقطعا من الأغنية الشعبية في نص سردي واحد مركب " قد يكون ذلك التمرد على الشعر الطويل أيضا، انعكاسا لتمرد لاشعوري على وضعية المرأة آنذاك. فالشعر في ثقافة البادية يعتبر من أبرز مقومات جمال المرأة، وأهم ما يثير الرجل. وجمال المرأة كما تقول الاغنية الشعبية يظهر من ضفيرتها الطويلة.. " هيا، هيا، غاديه تصفار وتخضار أيا سيدي هيا، هيا، لايحة السالف عليزار".<sup>4</sup>

<sup>1</sup> الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 128.

<sup>2</sup> نفسه، ص، 17.

<sup>3</sup> نفسه، ص، 32.

<sup>4</sup> نفسه، ص، 46.

تفصح هذه الصورة السردية المركبة عن مواضع وعادات اجتماعية ترسخت في الوعي الجمعي عند الأمهات اللاتي يعتنين بعناية كبيرة بشعر بناهن منذ الصغر ضمانا لزواجهن الناجح والمريح. ولم تكن الأغاني الشعبية وحدها التي تتحدث عن الشعر، وإنما أيضا الحكايات الشعبية التي تصور العاشق الزوج يتوسد ذراع حبيبته، ويتغطى بشعرها.

### • الصورة الوصفية

تعتمد الصورة الوصفية على التصوير اللغوي من خلال ذكر النعوت والصفات والأحوال. ويتسم الوصف في السيرة الذاتية بالإسهاب، والتفصيل، والإطناب على غرار الروائيين الكلاسيكيين أمثال بلزاك وفلوبير ونجيب محفوظ كما يبدو ذلك جليا في وصف الساردة لحيواناتها الأليفة "...الدجاجات الحنونات وكتاكيها الصفراء الجميلة، والديكة المعتزة بذكورتها وبناراتها الحمراء وهي تراود تلك "العتوكات" المتباهيات بالأنوثة الصارخة والألوان الزاهية، والديكة الرومية النافشة لريشها زهوا، والنافخة لأوداجها الحمراء القانية غضبا، وفرسنا الرشيق الأنيق، وجحشنا الماكر، وبقرتنا الوديدة التي غامرت ذات يوم برضاعة ثديها أسوة بعجلها الصغير".<sup>1</sup>

تتضمن هذه الصورة الوصفية مجموعة من النعوت، والأوصاف التي أسبغت على الحيوانات الأليفة تمتاز بنصاعة التعبير الفني بعيدا عن أي تعقيد لفظي أو غموض فني. غير أن هذه المقاطع الوصفية وغيرها في السيرة الذاتية كلها تعد ضربا من الزخرفة والتزيين ليس إلا. تتغنى من خلالها تزيين فضاءات بلديتها بمختلف مكوناتها التي تركت أثرها العميق في وعيها وحياتها.

### • صورة المشابهة

تستند صورة المشابهة إلى التشبيه والتشخيص والاستعارة بنوعها التصريحية والمكنية. كما تقوم على الانزياح البلاغي من خلال خرقها لكل لغة مألوفة. غير أن الصورة الفنية في هذا المنجز الإبداعي تتجسد عبر مستواها الحسي المباشر من خلال تصوير الأشياء كما هي في الواقع بعيدا عن الغموض والزخرفة والصنعة التقليدية المبتذلة أو التعبير بمنطق يتخطى كل حدود الحس والعقل في إدراك الأشياء والوعي بها على المستوى الرمزي أو الأسطوري.

<sup>1</sup>. الزهرة الريمج، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 23.

فقد جاء الخطاب السردي متماهيا بشكل لافت للنظر مع رؤية الكاتبة في استحضار ذاكرتها المنسية ، ومعالجتها فنيا من خلال حرص الكاتبة على تسخير أدواتها الفنية لخدمة الموضوع وتقديمه بمستوى رؤيتها الواقعية التي يطبعها الصدق، وهو ما يتجلى في اشتغالها على لغة أدبية بسيطة ودقيقة، وصور فنية بلاغية بسيطة تحكمها علاقة المشابهة بين المشبه والمشبه به، وبين المستعار له والمستعار منه، وهذا ما يتضح من خلال الصورتين الآتيتين: "ظل بيت البادية يزورني في أحلامي من حين إلى حين"<sup>1</sup> "وجدت هذه الأشعة تنطلق كالأسهم من الأرض المترية"<sup>2</sup> ، وتضطلع صور المشابهة بوظائف جمالية ليس إلا . تتغنى تزيين كل ما يرتبط بالبادية من وقائع حديثة، وفضاءات، وأزمنة كان لها أثر عميق في نفسية الساردة التي تسعى إلى إخراجها من دائرة النسيان إلى دائرة الحضور سعيا منها إلى إعادة الاعتبار لذاكرتها المنسية.

وعليه، فقد صرحت المبدعة في إحدى حواراتها بأنها لا تحبذ فكرة الاشتغال على اللغة كهدف رئيس، لأنها تعتبر ذلك ترفا فكريا يستنقذ طاقة الأديب في الوقت الذي يجب عليه أن يستغل إمكاناته لمواجهة إشكالات الواقع حتى يحفظ للأدب قيمته وبريقه. كما ترفض الغموض واستعمال غريب اللفظ، ومعقد التركيب، لأن ذلك يتناقض ونظرتها لمفهوم الكتابة ودورها في تحقيق لذة القراءة. من هذا المنطلق تفل الكاتبة استعمال اللغة البسيطة والدقيقة في آن واحد. وتعتقد أن البساطة الأنيقة الراقية أهم ميزة تميز الإنسان كما الكتابة.<sup>3</sup>

## خاتمة

وهكذا، نخلص إلى أن الكاتبة الزهرة الرميح استطاعت من خلال سيرتها الذاتية "الذاكرة المنسية" أن تكشف عن رؤيتها التسجيلية الواقعية، ووعمها الفكري إزاء واقعها وتحيط بقضاياها الاجتماعية (الفقر، الزواج المبكر، التعدد غير المنظم، تفشي الطقوس الشعبية الصارمة...) ومادامت المبدعة إنسانا تعيش ضمن مجموعة من البشر تتبادل معهم التأثير والتأثير. كان لزاما عليها أن تفجر طاقتها الإبداعية السردية لتعبر بصدق عن الحياة الإنسانية، وتكون شاهدا على زمن عاشته، وتستعيد ذكريات طفولتها من خلال استنطاق كل الشخوص، والأزمنة، والأمكنة والأحداث التي ساهمت في تكوين شخصيتها نتيجة تفاعلها مع محيطها.

<sup>1</sup>. الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص، 23.

<sup>2</sup>. نفسه، ص، 23.

<sup>3</sup>. الزهرة الرميح، عيون تحديق في العتمة، ص، 13، 14.

وعلى صعيد الخطاب السردي فقد حرصت الكاتبة على تسخير أدواتها الفنية لخدمة قضايا الرواية وموضوعاتها باشتغالها على لغة إبداعية بسيطة ودقيقة. كما تحضر اللغة العامية في سياقاتها المناسبة تغترف من السجل الفكري التقليدي المتمثل في الثقافة الشعبية وتمظهراتها سلوكا وأحداثا. وقد حرصنا على رصد تجليات الصورة السردية الموسعة قدر الإمكان مع تقديم نماذج تطبيقية حصرتها في صورة التوازي، وصورة السخرية، وصورة المقابلة، وصورة النقيضة، وصورة الامتداد، وصورة التدرج، وصورة الإحالة، وصورة المدمجة، وصورة الوصفية، وصورة المشابهة.

---

## لائحة المصادر والمراجع

---

### أولاً: المصادر الإبداعية:

- الزهرة الرميح، الذاكرة المنسية، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017.

### ثانياً: المراجع:

- الزهرة الرميح، عيون تحرق في العتمة: حوارات حول الكتابة والحياة، مطبعة سليكي أخوين، ط1، 2015.

## "قهوة سادة"<sup>1</sup> للسيد حافظ من سلطة العنوان إلى حكايا شهرزاد

الدكتورة جميلة رحمانى

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق  
المغرب



أولاً: في البدء كانت الحكاية

ظل حبر الروائي السيد حافظ – الذي تنوع قطافه الإبداعي بين الرواية والمسرح- يخفق شغبا بانبا لجوهر الجمال الناطق والحقيقي، سخيا في طرح القضايا الساخنة؛ يطرق باب التمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، مشعلا فتيل ضياء السرد. كاتب مشهود له بجراته وشجاعته المعرفية والثقافية، يعلن موقفه دون موارد أو خفاء وهو يحدثنا عن كوة ضوء، عبر احترام هتك الحجب واستنطاق المساحات المسكوت عنها، وكشف المعاني الإنسانية الثاوية في أعماقها. يصيخ السمع لنبضات نصوصه بغية الوصول إلى عمق بوح إنساني قائم على تنوع كوني وشمولي، ممتد إلى تطلعات الإنسانية الرحبة التواقة إلى باحة سلم وقت انبلاج فجر الحرية.

ثانيا: يسألك عن "قهوة سادة" قل هي:

رواية مصنوعة بذكاء تحمل بين طياتها حبكة مثيرة ومشوقة، أصر السيد حافظ بإصدارها ضخ دماء جديدة في صلب الكتابة السردية، محاولا تشييد جسور إبداع رجل في جعبته ما يبشر بمستقبل سردي به عمق، وروح، وحياة. فعندما تكون الحروف تائهة على الشفاه، فيعقد معها الكلام؛ ينبثق السرد ويتغلغل الدفء إلى الأعماق؛ ليتسرب من ثقوب الأيام مزيج من عطر الحكايا. رواية وأنت تقرأها تطالعك باقات نرجسية فواحة من خلجات النفس والروح والذاكرة؛ ونبض الوجدان، يعطر أريجها دنيا الحب الصوفي. حاملة في ثناياها الشعور الوطني المدثر برداء المعاناة، والمزمل بوشاح الاغتراب، المستعر بلظى نار الألم. حتى أضحت صرخة في وجه الظلم والفقد، حيث حاول الروائي السيد حافظ رسم بدقة معاناة الشعب المصري والإنسان العربي ليكتسب حيويته، فيساعد نهر السرد على شق مجراه. مخترقا التراث اختراقا معرفيا، ومستنطقا

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، 2012، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

إياه استنطاقاً فنياً. متكننا في ذلك على التراث والتاريخ والأسطورة. وهو ما أشار إليه في روايته بقوله: "أحبت سهر الجغرافيا والتاريخ ... ذاكرة التاريخ تغذيها بالوهج والخيال"<sup>1</sup>. استلهم التاريخ ليشيد فوقه معماراً من خياله الوثاب، فتمتد معها مخيلته لصوغ التاريخ صياغة جديدة لتمنحه قراءة جديدة بل حياة جديدة. ومنح هذا التضافر بينهما - أي بين الخيال والتاريخ - الرواية حيوية ونبضا وحرارة. كما كان بارعا في توظيفه أسطورة شهرزاد اقتباسا وتضمينا؛ دون أن يُخل ذلك بإيقاع سرده ولا بنبض كلماته أو بصمات تعبيره، وهي ميزة المتمرسين بالكتابة الراسخين في الإبداع. وعنوان ثراء مخزون الأدبي الكاتب وغناه، الذي تمثلته واستوعبه، ثم أجراه متدفقا منسابا عصيا على التقليد.

### ثالثا: هل أتاك حديث السيد حافظ المسرحي والروائي

ظل الروائي السيد حافظ لعقود طويلة يبحث عن دائرة ضوء يخرج به من ظلمة العتمة الذي دثرته لفترة طويلة. ليتحوّل السرد على لسانه، وتحت قلمه، إلى أداة بوح يللم جراحاته فيصوغها في قالب حكائي يروي عبره عن المتناقضات داخل مجتمعه؛ فأضحى والسرد متلازمان كالظل منذ بدء الحكاية إلى سدة منتهائها. كمت ورد في الرواية: "اكتشفت أن حب الوطن والكتابة عناء ألقيت أشواقي على أحرف اسمك يا وطني.. فتحولت على الورق إلى ثلاث زهرات ذابلة"<sup>2</sup>. فاقتراف فعل الكتابة هو فعل إثبات الذات والوجود، وتفجير منابع الإبداع ليجري نهرا من الأحاسيس والانفعالات حتى تروي ظلماً وجودها، وتعبير لصيق بالحياة، ورفض معلن للتبدد والإقصاء. ما يعززه قول السارد: "وأبعث في الكلمات ورد الحياة"<sup>3</sup>.

فلا مناص من أن الكتابة لم تعد عنده سردا للتسلية بل هي اختراق لعقل الإنسان، وسحبه من غيابات جب الواقع، ودفعه للاندماج بالنص، لأن: "الروائي كالشاعر يعذبه وعي حاد بالواقع، وإدراك مبرر لتناقضاته المخيفة، لذلك ليست الكتابة بالنسبة له مجرد اشتراك مع اللغة أو مغامرة بريئة مع شطحاتها الصافية، بل كانت صورة لوعيه المعذب، وتجسيد لمواقفه الفاعلة في الحياة، مراجعة ضغوطها"<sup>4</sup>. إنها صرخة موجعة ومدوية نكاد نسمعها على جدار الرواية؛ للكشف عما يمور في النفس الانسانية من معاناة، وألم، وقلق، وخوف. ما يؤكد قول

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 26.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 35.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 46.

<sup>4</sup> - الشعر والتلقي، علي جعفر العلاق، دار الشروق، الأردن، الطبعة الأولى، 1997، ص: 132.

السارد: "أحب البحث عن المجانين في الكتابة لأشبع عطشي للمستحيل"<sup>1</sup>. فعلى طاولة الزمن الجريح ثمة حكايات تستنشق عبق الأمل؛ وهي تبحث عن فسحة من التفاؤل عبر نافذة الحلم المؤجل، يقول السارد: "كلما حاصرني حب الوطن بنير انه.. وأسهم حقه.. وحاول قتلي.. هربت منه تحت جلد النساء حتى أضمد جروحي قررت أن أكتب مذكرات شاب في العشرين روية.. ولم لا"<sup>2</sup>. يخرج الروائي كلماته لبيعها فوق بياض صفحات حياته، وهو يداعب حرف السرد الذي جمع الكل حوله كأم رؤوم توزع حنانها على كل من سؤل له قلمه أن يدخل غمارها، لتأخذه في حضنها الدافئ كأنها تريد أن تعيده طفولته الأولى وهو متأبط أحلامه وآماله. وما إن صار على بعد حضن دفعته إلى تقمص شخصيات مختلفة، ومعايشة أحداث متعددة في لحظة واحدة. فيلقى ما يمينه ليعبر عن درامية اللحظة وقساوتها؛ فلا "بديل للكتابة إلا الكتابة"<sup>3</sup>. ففي حضرتها يصمت اللسان؛ ويطلق للقلم العنان ليعبر عن خفايا النفس ومكنوناتها، فتهب نسمات الكتابة محملة برائحة حروف رقيقة اقتلعت من أرض الواقع. يقول: "وجدتني بلا حيلة أمام نور الكلمة وأمام ورقة بيضاء"<sup>4</sup>.

فعندما يختلط حبر السيد حافظ السردى بمشاعره وإحساساته، تنهمر شلالات من البوح والرغبات المتصاعدة في ترسيخ الحضور. ووسيلة لتحرير أحاسيسه؛ والتعبير عن أحزانه وأفراحه، وعن عاطفته المتأججة وعنفوانه المعطر بمعاني الحب. يقول السارد: "لمن أكتب؟ لمن؟ أكتب لك أنت.. يا من تراني بقلب الأولياء والشعراء والزاهدين والمترفين بنور العشق وللعشق يقين"<sup>5</sup>. فالكتابة عنده بمثابة الرئة التي يتنفس بها، والهواء الذي يتنسم منه. فهي التي ستعوضه بعض ما ضاع منه قهراً؛ ولم يستطع حينها إداركه، يقول: "يا ناهد الكتابة تعوض لي بعض أيام من عمري الذي سرقه الوطن مني"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 91.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 46.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 383.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 109.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص 211.

<sup>6</sup> - المرجع نفسه، ص 236.



## رابعاً: جمالية العتبات وشعرية العنوان

شكلت العتبات النصية حقلاً معرفياً قائماً بذاته باعتباره مكنوناً جوهرياً؛ فهي: "ذات سياقات توظيفية، تاريخية ونصية، ووظائف تأليفية تختزل قسماً من منطق الكتابة"<sup>1</sup>. بفضلها يصبح من السهل على القارئ الولوج إلى عوالم النصوص وفهم معانيها، وأهم هذه العتبات "العنوان" فبواسطته تنكشف المعاني؛ وتتوضح الأفكار؛ ويتلاشى كل غموض. بوصفه المفتاح الإجرائي المساعد على اقتحام أغوار النص؛ وفتح مغاليقه ومجاهيله؛ واستقراء جل أفكاره الخفية، ومدى "ارتباط بنيته ومحدداته الذاتية بشروط السياق الثقافي والاجتماعي الذي أنتجه"<sup>2</sup>.

"قهوة سادة" عنوان وسم به الروائي السيد حافظ روايته، وهو عبارة عن بنية مختزلة، شديدة الاقتصاد لغوياً، حيث يلعب هذا الإيجاز في بنية العنوان اللغوية دوره في اختزاله للنص مبنى ومعنى، فإن ما تم تكثيفه وتركيزه سيتم توسيعه وتفصيله في النص الأكبر. وبذلك سيفتح العنوان أفقا توقعياً لدى المتلقي فتتكون لديه فرضيات، إذ لن يدخل فضاء القراءة صفحة بيضاء، وإنما لديه خبرة قبلاً. فيصير ثريا ذات إشراق دائم في مساحات المتن. لأن اختيار السيد حافظ لعنوان روايته لم يكن اعتباطياً، بل اعتمده على رؤية فكرية ومرجعية.

"قهوة سادة" عنوان عبارة عن جملة اسمية دالة على ثبات الانتعاش الذي يصاحب شرب القهوة وديمومته. جملة اسمية ذات طابع وصفي إنشائي؛ يغيب عنها الفعل كبنية دالة على شرط الزمان. ومن ثم الإمساك بجوهر المدلول؛ دون العرّض الذي يشي به الفعل. عنوان يلبس دثار القوة، لأن الروائي بحار يجيد اقتناص المعاني وامتلاك الخطاب. بحيث ستصبح "قهوة سادة" محور الكلام السردي؛ وقطب الرّحى في عملية الإبداع اللفظي. وأمانة قوية وعلامة ثابتة على نهل السيد حافظ من نكهتها؛ لينسج رواية حلوة المذاق عصية على النسيان.

فلا ريب من أن القهوة قد احتلت مكانة بارزة في وجدان البشرية كلها؛ ومكانة روحية مهمة في الحياة الاجتماعية والثقافية للإنسان العربي، باعتبارها شراباً شعبياً لكل فئات المجتمع؛ وشراب أولياء الله الصالحين حيث اقترنت بجلساتهم وحلقات الذكر، وأول ما يستفتح الإنسان به تبشير يوم جديد من الشراب. يقول السارد: "الصباح بدون القهوة خطر"<sup>3</sup>. كما كانت جلسات

<sup>1</sup> - أرض الأبدية قراءات في تجربة الشاعر سيف الرحبي، مفيد نجم، الطبعة الأولى، 2007، منشورات الجمل، ص 15

<sup>2</sup> - عتبات النص بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، الطبعة الأولى، 2008، الناشر مقاربات، ص 32.

<sup>3</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 266.

الحكي لا تحلى إلا في حضرة القهوة، "قالت شهرزاد وهي تشرب آخر رشفة من فنجان القهوة وتطفئ ركة النار: الآن اذهبي إلى بيتك يا سهر تأخر الوقت اذهبي قبل الغروب.

قالت سهر: ونفر. قالت شهرزاد: غدا سنكمل الحكاية يا سهر.<sup>1</sup> فالقهوة والحكي متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما؛ لأن الانتشاء بمذاق القهوة يجعل الحكايا تنساب ماء زلالاً، فلا يمل سامعها بل يقول هل من مزيد. وقد ينتشي شاربها حدّ السكر ولعا بمذاقها المميز يقول: "القهوة قبلات للروح كي تهض"<sup>2</sup>. مشروب ينبه العقل ويوقظ الروح، إنها ثنائية العلاقة بين القهوة والوجدان، بمثابة الحبل السري الذي يربط القهوة بالعشق، حتى أضحي الحديث عن أحدهما هو استدعاء للآخر. يقول "اشتاق لشرب قهوة سادة معك وارتشاف قبلة مع كل رشفة"<sup>3</sup>. فثمة علاقة ذاتية ذات ارتباط خاص ينبع من حنين نوستالجي للعودة لسحر جنة العشق ودهشتها؛ حاضرة في وعي شاربها وفي وجدانه، وتواز بين اللهفة لشرب قهوة وبين الارتواء في حضن أنثى يقول السارد: "آه في البرد أحتاج إلى قهوة سادة .. وإلى حضن أنثى وإلى سيجارة وإلى وردة وإلى لحم طري يغطيني يدفئني يندسيني أنثى ليس لها مكان إلا في جنة عشقي ولا يعرف قدرها إلا ملك على قلوب النساء مثلي أحتاج أنثاي في البرد والقهوة السادة قبل وبعد المضاجعة"<sup>4</sup>. تأكيد كثافة الحالة الشعورية الطاغية؛ والنزوع لاختراق حدود المسافة بين شرب القهوة واللذة بحثاً عما يبقى هذه العلاقة على قيد الاستمرارية.

"قهوة سادة" عنوان مفتوح غير مقيد؛ كما السرد لولي، وأبوابه مشرعة، يبرز عناد السيد حافظ لاجترار مغامرة حكايا أخرى. يقول في نهاية الرواية على لسان شهرزاد: "هي بنت جميلة عاشت في عهد النبي موسى؟ ما اسمها وحكايتها؟ قالت: اسمها نورغدا نبدأ الحكاية"<sup>5</sup>.

#### خامساً: ثلاثية الفقد والجرح والاعتراب

يُعَدُّ الروائي السيد حافظ من هؤلاء المبدعين الذين فجروا منابع الإبداع ليجري نهراً من الأحاسيس والانفعالات حتى تروي ظمأ وجودها، روائي لا حول له سوى سحر حرفه ولا قوة له سوى عبق كلماتها. طَوَّع حرفه ليخرق جدار الصمت كمبدع يحس بالواجب المفروض عليه. يلامس

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، 256.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 266.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 99.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 106.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص 393.

هموم الواقع قصد تغيير كل ما من شأنه أن يسيء إلى إنسانيته، وكأنسان يحترم إنسانية غيره لم يتوان في تعرية وضع لا يتماشى وحقوق الإنسان<sup>1</sup>، وفضح القبح وإحداث هزات داخلية ترج الذوات المتلقية. فيسجل رؤيته حيال مجتمعه عبر بوابة السرد؛ لترصد عبرها علاقة جدلية بين الإبداع وبين المجتمع، تلك العلاقة التي يبدو للوهلة الأولى أن المجتمع مفعول به موصوف؛ لكن الحقيقة أنه هو الفاعل لأنه هو الذي كون الكاتب وجعله يقاتل منه<sup>2</sup>.

"قهوة سادة" عمل سردي صادر عن وعي حقيقي؛ ونفَس جديد غير معهود في الكتابة يتغلغل في أعماق الشعب مسجلا نبض الحياة اليومية، راسِما بكل أمانة معاناة المواطن المصري في حقبة تاريخية كانت فيه كل الدول العربية على صفيح من نار "أوقفوا ذبح الإنسان وتشريد الأطفال والنساء .. أعلنوا بقوتكم بأنفسكم: إننا لا نرغب في إنفاق الأموال على السلاح .. كفانا سلاح .. أنفقوا الأموال على الفقراء .. على العلم .. على النهوض بالإنسان في أحراش أفريقيا .. في صحراء آسيا .. أنفقوا الأموال على الأراضي غير القابلة للزراعة .. إن العالم يحتاج إلى الكثير"<sup>3</sup>. يحاول أن يلامس حالة البؤس التي يعيشها المواطن في حقبة تاريخية، ولا سيما في فترة الحرب الكبرى التي طحنت الشعب المصري ما يعززه قول السارد: "وجدتني حلما يمسح مؤخرة الوطن الذي يضاجعه الأثرياء من عسكريوليوالذين سرقوا مجوهرات الملك فاروق وباشوات مصر وأصبحوا باشوات هذا الزمان .. وجدتني بسمة على شفاه أطفال لا تعرف الرياء .. وجدتني أعشق كل الأنبياء وأنه من الغباء ألا نشعر أن الإنسان خليفة الله على أرضه وتحت سمائه .. إذا مر قلبي على بابكم أخبروني فقد ذهب يبحث عن وطن ليتدفأ به في هذا الشتاء"<sup>4</sup>. فنجدده يسخر قلمه لفضح حالة الاغتراب الحادة؛ ومدى قساوة وقعها حين يعانها المرء وهو في وطنه، وبين ذويه، إنها حالة نفسية يشعر فيها الإنسان بألم أشد وأصعب. ونجد مثل هذا الاحتدام في قول صاحب للسارد وهو يصف الحكومات العربية بأنها: "نجحت في جعل المواطن العربي يكره وطنه وأرضه ويبحث عن وطن آخر .. في أوروبا أو أمريكا"<sup>5</sup>. رسم بريشة دقيقة معاناة الشعب المصري، كما رسم تيه ذات تلوك قسوة الخذلان، وصور البيئة المصرية تصويرا دقيقا، حيث التقط أدق جزئياتها ترتيبا عضويا لتصبح الشخصية حية في الرواية. "نحن التلاميذ لم نكن

<sup>1</sup> - جرت أحداث رواية "قهوة سادة" على عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

<sup>2</sup> - سوسيولوجيا الأدب، روبرت إسكارييت، ترجمة آمال عرموني، دار عويدات، بيروت، 1999، ص 21.

<sup>3</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 63.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 35.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص 25.

نحمل فقط الكتب في حقائبنا التي كنا نحملها على أكتافنا .. بل نحمل معها هموم عائلاتنا وأحلامنا ومشاكل بيوتنا"<sup>1</sup>. وهذا لم يمنعه محاولة العثور على بعضه المتلاشي ليرمم كلا روحيا، والاستئناس بحلم يضيح بالحياة، منسوج بدفء واستقرار.

جاء سرده طافحا بمرارة الغربة معبرا عنها بأصدق الأحاسيس، إنها غربة دائمة تهيم بظلالها على هذا النص السردى، يقول: "منذ نشأة القاهرة في العهد الفاطمي وهي متسخة كما قال الجبرتي وحتى الآن .. إحنا شعب غلبان.. كيف نحارب ونحن لا نستطيع تنظيف شوارعنا من الزبالة.. ولا حتى صناعة كبريت صالح للتصدير"<sup>2</sup>. شفاف في فضح القبيح والديني، "العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء"<sup>3</sup>. صارم في التنقيب عن عيون المرارة والمعاناة الإنسانية. يقول السارد: "قتل وحرقت هتلر آلاف اليهود في المحرقة.. قتل الأمريكان آلاف الآلاف في هيروشيما باليابان بقبيلة ذرية.. قتل الفدائيون الفلسطينيون مئات اليهود.. قتل اليهود مئات وآلاف الفلسطينيين"<sup>4</sup>.

على امتداد الأحداث تتلمظ سفرا نُسج في غيابات الوجدان، ونقتفي أثر لواعج الكيان المكتوية. فنتعثر خلف تهديدات تعج انكسارا وحسرة، وشوقا دفيناً مغلفا بنوبات العتاب، تذرف الروح هسيسا صاخبا يلف ندوبا لا تقبل الانمحاء. يقول: "العالم والبشر حقراء يشربون دم بعضهم صباحا ومساء"<sup>5</sup>. فبالرغم من أن القهر قد نال، وبالرغم من أن النغمة الرئيسة هي الحزن والفقد، فإن الشعور بالاغتراب والضيق يمثل بعدا آخر قد يمتد إلى الصراع القائم بين الذات والوجود. لأن: "محور الشعور بالغربة والضيق هو في الحقيقة: تفرع عن المحور الأساسي العام؛ محور الذات والوجود؛ أو هما يتوازيان على مستويين مختلفين"<sup>6</sup>. فحينما تصطدم الذات بالوجود فإنها تعجز عن تحقيق تطلعاتها وأحلامها لأنها عندئذ تتحرك وتسير وحدها، وتظل محبوسة في إطارها الضيق مادامت تؤمن بمنطقها ونظرتها الخاصة في تقييم الوجود، وهذا ما نلمسه في كلامه: "الفقراء ليسوا أبناء الله على الأرض.. بل أبناء الشيطان.. الفقر الذي وأد أحلامهم فصاروا أعداء بعضهم بلا سبب.. يكرهون بعضهم بلا سبب.. الفقراء أبناء الشيطان في كثير من الأحيان لأن الرجال الفقراء من كثرة التعب والهزال والمرض.. لا يضاجعون النساء..

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 71.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 45.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 45.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 46.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص 46.

<sup>6</sup> - الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ص 357/356.

فيضاجعهم الشيطان نيابة عنهم.. فيخرج أولاد الفقراء مجرمين عشوائيين.. سفهاء.. لا يعرفون الله إلا كلمة لا فعل.. أولاد الفقراء أبناء الشيطان إلا من رحم ربي واصطفى.. أما أولاد الأغنياء معظمهم أغنياء بسبب أكل اللحوم بكثرة.. إلا من وهب ربي وأعطى.. الفقير هو الذي قال للرب لا"<sup>1</sup>.

جعل الكاتب من إبداعه مرآة للنفس الضائعة والممزقة في متاهات الاغتراب؛ التي تلقي بظلاله الكثيبة على ذات السارد، وتشده إلى قاع الرتابة والإحساس بالضيق مثقلة بالآلام، مضمخة بالحزن على ما مضى؛ والتحسر على ما بات سائدا يقول: "أصبحت الحياة مظاهر.. الملابس والأناقة هما عنوان الإنسان أناقة لا ثقافة.. لا شيء مهم بعد ذلك"<sup>2</sup>. حس الضياع والفقد والاعتراب دفعه أن يشعر بفقد الإنسان لقيمة إنسانيته؛ وعدم جدارته؛ أو قدرته على التكيف حتى صرخ بضياع اليقين.

والناظر في سرده يلفت اهتمامه إحساس مريب بوقع الفقر على نفس المواطن، وشكوى صارخة من هوان منزلته الاجتماعية؛ وعدم تقدير المجتمع له، وعجزه عن الأخذ بنصيبه من الحياة. جاء على لسان السارد: "أنا ممن يصنعون ضوضاء أثناء صعودهم وهبوطهم.. دائما أريد أن أشعر أنني من الأحياء بضوضاء الحذاء. أو أثبت لنفسي أنني شيء على الأرض"<sup>3</sup>. فبين رفات من آمنيات سحيقة تنقب الذات عن خلاص، عن فجوة صبح تسكب تباشير شمس وفيه تداري اختناقاً وثقلاً قاسيين. فأخذ من الحياة فوضى ليخرجها نظاماً، والاضطراب ليصوغه ترتيباً، والانطماس ليجلوه نورا.

وكمثقف واع بما يجري حوله، وواع بما يحاك ضد الإنسانية سواء عاش في ظل الاستعمار أو في ظل الأنظمة القمعية المصادرة لحرية الإنسان؛ يعاني كل أنواع الضياع، إذ أصبح رقماً من أرقام المدينة فقد فيها إنسانيته وشل فيها تفكيره، وأصبح عاجزاً عن التواصل مع المجتمع ومع ذاته المعطلة. فحين يفقد الإنسان الرضا بما يريد؛ تجف الحياة تماماً وتغشاه مسحة من الكآبة، لأن الرضا يجلب السرور وفقد الرضا يفجر البكاء من العيون يقول متذمراً: "أنا أتلاشي.. أشعر بأنني غير موجود.. ربما أكون ذبت في الأشعة ورحت إلى السماء لكي أركع تحت أقدام الإله..

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 49.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 52.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 47.

أخبره عن رغبتني في أن أكون شيئاً. بدلاً من كوني لا شيء"<sup>1</sup>. تحول كل شيء إلى مرارة مخزنة حطمت الإحساس بالرضا والقبول؛ وغدت الأيام سجناً أبدياً للإنسان، والأرض وجوداً ملعوناً، القادم إليها مفقود والذي يغادرها مفقود. فهي سجن مفتوح كل شيء فيها غامض، وسديمي يمشي فيها الإنسان كالأعمى لا يفرق بين الليل والنهار، ولا بين القبح والجمال. يقول: "الطغيان لا يعرف جنسية أو هوية.. الطغيان لا يعرف عنواناً أنا أكره الظلم والطغيان"<sup>2</sup>.

لازال ذاك الإنسان الطامع في وقت انبلاج فجر الأمل؛ ينام في الحصباء ويلتحف الألم، يعيش في معمعة الواقع باختياريه. وهو إحساس تام بالضيق تتساوى فيه الإرادة الدافعة؛ والإرادة المعطلة. فلا شيء يتغير؛ ولا أمل في التغيير. واغتراب الإنسان الذي ضاق من قسر الواقع بعد انقلاب حاله لدرجة أصبح من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - معها بوجود شيء يطلق عليه "إنسان". يقول في هذا الصدد: "يا أيها الإنسان.. ما أجمل هذه الكلمة عندما يصبح الإنسان إنساناً أو يوجد إنسان بالفعل في الوجود"<sup>3</sup>. صارت الأيام للإنسان سجناً أحكم إغلاق أبوابه في ظل الهزيمة والضيق، حتى عندما يفيق على صباح يوم جديد فإنه يعيش غربة عن نفسه مادام قد فقد القدرة على امتلاك ذاته وتحقيق إنسانيته فيها، يقول: "هبطت إلى أمريكا إلى الدمعة الحزينة في عيناها إلى تمثال الحرية الذي يشكولي مهزلة التقدم المادي"<sup>4</sup>. حتى أضحت المدنية بصراعاتها المختلفة وضوضائها، بوتقة تذوب فيها إنسانية الإنسان، ويصبح قطعة من مكوناتها لا يملك القدرة على فرض وجوده وتحقيق ذاته؛ فيمضي في الأرض منقسماً على نفس، وحيداً غربياً متلفعاً بأحزانه.

وبمكر سردي تشويقي مقصود، من شأنه أن يجذب المتلقي المفترض نحو مشاركة السارد في حلمه، الذي يرجوه أن يتحقق، يقول: "نحن صعاليك الشوارع نملك الحلم والأحلام في بلدنا تداس بالأقدام"<sup>5</sup>. ساعياً إلى التخلص من الاغتراب الذي يستبطنه، والتمرد على العصف النفسي الحاد الذي ينتابه، ويمزج مشاعره وأحاسيسه، لأنه لا يستطيع أن يعزل نفسه عما يجري في عالمه فهو يتفاعل مع هذا العالم، ويتأثر به، ومن الممكن أن يؤثر فيه. يقول بإصرار الغيور على حال أمته: "اسمع يا راجل إنت انت ليه ما بتبطلش تتكلم عن مصر والعرب والتغيير.. إزاي بس أغير

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 60.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 77.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 60.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 61.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص 108.

نفسي قوليلي .. نفسي أكون حمارا وغبيا زي كثير من الناس مش عارف.. يبدو أن نعمة الفهم والثقافة نعمة وعذاب<sup>1</sup>. فتجده يعتصر من السحاب رذاذا يروي ظمأ أفئدة مفعمة بعشق الجمال، هذا الفيض من العطاء ودفء المشاعر لا يمكن أن ينبع إلا من روائي مرهف الإحساس؛ إنسان عشق قلما يموت في الكلمات ويذوب فيها. فكتب روايته "قهوة سادة" بحرقة وقلق، دون اغتصاب لحظة الكتابة بردة فعل رقيب وحسيب، فجاء عطاؤه متحررا، أبيض ناصعا لا يخنقه سواد الأغلال. فهو مبدع بتركيبية معجونة بماء الجرأة في تعرية الخلل في المجتمع، وفي القيم، وفي الذات، وفي الإنسان.

### سادسا: الحكي فعل تحرري وانعتاق الذات من سجن الألم

استرشد السيد حافظ من الإرث الأسطوري؛ عبر استغلال الأصوات المندثرة في تعرجات شفهية عريقة في القدم؛ عاملا على تشكيل الواقع الأسطوري وفق رؤية جمالية، تكشف عن تناقضات الحياة. لا تروي أحداثا جرت في الماضي وانتهت، وإنما تصور صراعا أبديا تعرفه الحياة الإنسانية، صراع موجود على الدوام ومظهر من المظاهر الحياتية التي قد تصيب الإنسان في أي وقت وحين.

إنها "شهرزاد" المرأة التي دخلت معبد الحكاية، لتدفع القتل عنها وعن بنات جنسها. المرأة الإنسان التي زرعت وردا لاقتلاع شوك الحقد من حديقة الإنسانية، شهرزاد التي كانت وما تزال قائمة، حكيمها مستمر. لأنها لم تقل كل شيء، فحالة الصراع بين الخير والشر؛ الصراع الدائر بين السلطة والشعب في الماضي والحاضر لازال قائما لأجل البقاء والحياة.

"شهرزاد" الأسطورة التي نالت منذ القديم حيزا كبيرا من اهتمام كل من سؤلت له نفسه اختراق قلاع ليالها، فكانت تفكيره الذي يفكر به، ويده التي يبطش بها، وعينه التي يرى بها العالم، وسراجها المنير الذي يقتفي أثره. فكما شغلت ابتسامة الموناليزا الغامضة الكتاب والأدباء والرّسامين والفلاسفة، وأسالت حبر العديد، ظلّت شهرزاد دون ابتسامة، لكن بدهائها وذكاها سلبت العقول، فكانت وستظل اللّغز الذي حير وسيحير الأدباء. فهي العنقاء التي تبعث مع مداد كل مبدع فنان.

فلا مناص وشهرزاد بهذه القوة أن يستلهم الروائي السيد حافظ هذه الأسطورة الشهرزادية، فيعيشها كإنسان وناقد لأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية عاشتها وتعيشها مصر، وكل

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 79.

البلدان العربية بله الإنسانية جمعاء. فشهرزاد الأسطورة مثال للمرأة الذكية والفدائية التي ضحت بنفسها لأجل الحفاظ على بنات جنسها، ومن ثم الحفاظ على الحياة والاستمرارية، هو بعث من جديد يقول: "آه يا سهرلو تعلمين كم أحبك"<sup>1</sup>. فعبر سلاح الحكيم تراوغ ملكاً مدفوعاً بهوس الانتقام وتغويه بسلطة المعرفة. وبالحكاية المروية بسحر تقهر الموت؛ وتبعد أطيافه. إذ لم تكن تحكي وتتكلم، وتؤلف فحسب، لكنها كانت أيضاً تواجه الرجل، ومعه تواجه الموت من جهة، يقول الدكتور عبد الله الغدّامي: "تدافع عن قيمتها الأخلاقية والمعنوية من جهة أخرى، كانت تتكلم والرجل ينصت، فإذا سكنت تعلق شهريار بصمتها يوماً كاملاً إلى أن تتكلم مرة أخرى لتمارس عليه سلطة اللغة وسلطان النص"<sup>2</sup>. لتمثل هذا الانتصار العجيب للبريء والضعيف؛ الذي ينجح في تغيير مصيره بمداينة جلاّده؛ محولاً الحقد إلى حب.

نافلة القول لم يحاول استدعاء شخصية شهرزاد التي حظيت بامتداد عبر الزمن للإمتاع، إنما بغرض تشكيل خيوط متينة في النسيج العام للبناء الروائي، وبلورة طرائق مستحدثة تضم خواص الأسطورة العجائبية لتؤلف نسيجاً سردياً تلتقي في رحمة أساليب وبنيات تعكس علامات التجريب بمختلف أنساقها، ومن ثم خلق نص سردي جديد. باعتبارها رؤية "مغايرة للأشياء.. ولذلك تكون الكتابة المتشعبة بروح الفانتاستيك مغامرةً واستجلاءً للبقايا والهوامش والمقصي من كينونتنا المحاصرة بضغوط القوانين والمحرمات وشتى أنواع الرقابة"<sup>3</sup>. ولإماطة ستر طالما حجب شمس الحقيقة عن الأبصار، فهي ببناءها السردي ومضمونها الخرافي تعتبر هروباً من الأوضاع الواقعية المتردية، حدّ يمكننا القول إن الكاتب يصنع أسطوره الخاصة.

### سابعاً: هذه صورتها وذاك شأن الحكيم

في النهار تولد الحكاية، وفي أول الليل نحكيها، وفي آخره ننام على وقعها. من أجل ذلك كان شهريار يسهر كل ليلة مستوحشاً حتى صار سجين حكايا شهرزاد. هذه المرأة التي أوتيت "علم" الحكايا فتسللت لتروي للعالم دور امرأة ليست ككل النساء، أسطورة خلقتها الأزمات والمحن وتواتر الألم. "شهرزاد" أنموذج صقلته الصعاب فكانت أسوة في التحدي، والصبر، والذكاء، يقول السارد: "تلك المرأة الشامخة، أسطورة كل العصور. قالوا عنها عرافة الجن يمدّها عشيقها

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 168.

<sup>2</sup> - المرأة واللغة، عبد الله الغدّامي، الطبعة الثالثة، 2006، المركز الثقافي العربي، ص 57.

<sup>3</sup> - مدخل إلى الأدب العجائبي، تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، الطبعة الأولى، 1993، ص: 4/5.



الجني بالسر.. وأسرار كل البشر.. شهرزاد تحب سهر لأنها تذكرها بشبابها تذكرها بالجمال الذي فتن العقول في شجن.. وألهب خيال الرجال"<sup>1</sup>. لم تترك إلى سيل الدموع، وتخفي وجهها وراء غلالة الحزن وتتوقف عن الحياة. بل ملمت شمل حزنها، وابتدأت غدها بفكر مسؤول يعي حجم ما بانتظارها، وما يحمله من تحديات. متأهبة لتكون في عون كل من لجأ إليها وطلب مشورتها؛ فلا تبخل عليه؛ ولو بالقليل. يقول: "ذهبت أمها بها إلى "شهرزاد" وقالت لها: البنات صارت أنثى. زغردت "شهرزاد" العجوز.. نثرت عليها بخورا به حبهان وعين الشيطان حرقها في النار"<sup>2</sup>. فراهنت شهرزاد/الحكيمة على أن إشاعة الفرع يأتي دوماً بالغد الماضي؛ الذي يرتب الأحزان هنا وهناك، حتى لا يدع المستقبل يتوقف عبر زمن مظلم حاصر الرأس، مكلوم الفؤاد. يقول السارد: "تؤمن بكلام شهرزاد العرافة التي تسكن في كوخ بعيد.. شهرزاد لم تتزوج ولكن سميت باسم شهرزاد لأنها أسعدت أناسا كثيرين بقراءة كفه"<sup>3</sup>.

حققت شخصية "شهرزاد" طموح اعتناق الذات الأنثوية فاستطاعت بالذكاء؛ والقدرة على الإبحار في دهاليز الحكي؛ أن تتغلغل في أعماق الذات الجماعية، وتعبّر عن فضاءات الكائن والممكن. وهي في ذلك مسكونة بفكرة اعتناق الذات، وفي محاولة دؤوبة لمعانقة جماليات الكلمة في أقصى درجات اشتغالها وبوحها ومعاناتها. تقول الدكتورة فاطمة المرينسي في كتابها "شهرزاد ليست مغربية": "السرد فن ننجح أو نخفق فيه لكننا نحتاجه لنحيا ونجعل الآخرين يحبوننا، يجب معرفة الآخر جيدا لإغوائه بشكل أفضل"<sup>4</sup>. فليس خافيا أن شهرزاد جعلت من إنتاج الكلمة/الخطاب الذي يحررها/ المرأة من بطش الآخر، حيث اعتمدت بدكائها لولبية السرد لإبقاء البطلة سهر على قيد التفاؤل بغد مشرق؛ ينقذها من قبضة كل رجل سولت له نفسه الارتباط بها؛ والاستمتاع بعطرها الساحر، يقول السارد: "لكن العرافة شهرزاد قالت لأبيها: لا .. ابنتك ستسافر إلى بلاد النفط .. بلاد الذهب تتزوج من رجل ثري وتفتح لها المدن ألف نافذة نور.. وستتمرغ في الذهب .. الأب ينتظر أن يأتي هذا الفارس القادم الرحالة .. لترحل معه سهر على سفينته .. ويكون علمها شمس وقمر .. كما قالت العرافة العجوز"<sup>5</sup>. فتبدأ شهرزاد حكيتها مع بداية الليالي متخذة من فكرة قطع الحكي/ السرد أداة إغراء تنال من البطلة سهر؛ فتجعل قلبها

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 18.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 15.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 18.

<sup>4</sup> - شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرينسي، المترجمة ماري طوق، الطبعة العربية الثانية، 2003، ص 23.

<sup>5</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 17.

معلقا بحكاياها، لتنال منها حتى تصل حدَّ الإدمان فلا تستطيع أن تعيش دون حكي. "قالت شهرزاد: إلى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكاية يا سهر.. من باع باع.. ومن اشترى اشترى.. لقد باع أخته.. واشترى الكاهن نفر بثمان بخس.. لقد حول كي إلى غاسل للموتى.. غدا نكمل الحكاية أو بعد غد"<sup>1</sup>. من أجل ذلك جعلت شهرزاد/الساردة حكيمها مفتوحا، حيث تنهي كل ليلة قصتها بموقف شائق مفتوح ومردوف بعبارة "غدا أو بعد غد نكمل الحكاية"، ما يلزم إبقاء البطلة سهر لسماع نهاية الحكاية، "مرت شهرزاد على بيت سهر.. وبعد تناول القهوة والضيافة همست سهر ومن هي الروح الثانية يا خالتي شهرزاد؟ ضحكت شهرزاد وقالت: هي بنت جميلة عاشت في عهد النبي موسى؟ ما اسمها وحكايتها؟ قالت: اسمها نور غدا نبدأ الحكاية"<sup>2</sup>. فوجد نسيج حكاياها كنسيج عنكبوتي متداخل ومتشابك الخيوط، معلوم المركز. لأن مركز الليالي ومحور دورانها القصة الإطار التي لخصت دوافع السرد؛ وتتبع حيوات الروح الأولى التي تنحدر منها سهر البطلة، ومن ثم معرفة سر عطرها الساحر الذي سلب لب كل من استنشقه ولم يعرف سره، هذا السر الذي بات لغزا لا يفقه كنهه سوى شهرزاد التي أوتيت من العلم دون سواها. إذ الحكاية الأم لها قدرة على توليد حكايات مرتبطة ببعضها البعض، بسمات مشتركة، "قالت شهرزاد وهي تشرب آخر شفة من فنجان القهوة وتطفئ ركوة النار: الآن اذهبي إلى بيتك يا سهر تأخر الوقت اذهبي قبل الغروب. قالت سهر: ونفر. قالت شهرزاد: غدا سنكمل الحكاية يا سهر."<sup>3</sup>. فبين عبارتي "بلغني يا أجمل بنات الجبل" و"إلى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكاية يا سهر" ترسم شهرزاد عالمها بفضاء معماري وهيكلي يركز إلى رؤية شمولية. إذ تكمن وظيفة الليالي في كونها تجسد تقطيعاً يبعث على إغراء المتابعة والترقب، ويحث على التتبع والاستمرار. وبدون هذا الفصل السردى ستبدو حكايات شهرزاد تراكمًا لا حضور له، حتى تمر البطلة "سهر" بمحطتي توقف لا غنى له عنهما: نهاية الحكاية ونهاية الليلة، وبين هاتين المحطتين تتزايد متعة السرد وبهيجته.

لا ريب أن شهرزاد التي أنقذت حياتها وبنات جنسها من الموت بـ"القصة المحكية" عندما قبلت التحدي لتحطم الجبروت والظلم، كانت لها "خزانة مفترضة" وإلا فمن أين لها هذه الذخيرة النصية، يقول السارد: "شهرزاد قد ورثت من أبيها مكتبة بها كتب الشيخ الإمام جلال الدين السيوطي وكتاب ابن حزم طوق الحمامة في فن النكاح.. لم تقل سر علمها بالعشق والغرام"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - قهوة سادة، السيد حافظ، ص 231.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 393.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 256.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 17.

فشهرزاد كانت على قدر كبير من العلم والمعرفة وهذا ما أكده كل من اخترق حصنها. تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي: "أعود إلى ذي بدء: علم المرأة وثقافتها. إن ماثرة شهرزاد ما كانت لتتم لو لم تختزن كمًا هائلًا من الأخبار التي استخدمتها لتبني قصصها حيث التفاصيل الواقعية المدهشة تنم عن معرفة استثنائية وإلمام عميق بالعالم والكائنات"<sup>1</sup>. الأمر الذي سيمكن شهرزاد من تصريف المعرفة لممارسة سلطتها على كل من دق باب حكاياها، إذ ستشكل مصدر قوتها لإحداث التغيير المرغوب، ونقل معرفة ما بالعالم، إلى معرفة أوسع وأشمل لتحقيق التجاوز وفرض البديل الممكن لإعادة الحياة لمجراها الطبيعي والإنساني. جاء على لسان السارد قوله: "تجلس النساء تحت ركبتهما يشكين من ضعف الرجال الجنسي وجهلهم بالتعامل معهن. فقط هي شهرزاد التي تعرف.. وتنصح بعض النساء بعمل فنجان قهوة على الريحه قبل الجماع بنصف ساعة حتى ينجبن ذكرا.. وتعرف للنكاح مائة اسما فتجلس النساء أمامها في ذهول.. تقول إن النكاح له أسماء كثيرة"<sup>2</sup>. إذا شهرزاد السيد حافظ تشبه شهرزاد ألف ليلة وليلة؛ في سعة علمها وتنوع ثقافتها فأضحت لغزا حير عقول المفكرين وسلبه، فهي وحدها قادرة على تفسير نفسها. يقول السارد: "والنساء يجلسن في ذهول أمام علمها قالوا إنها قديسة وقلن عنها لعوبا قلن تزوجت من ألف رجل.. قلن وقلن والناس دوما تقول"<sup>3</sup>. حيث حملت شهرزاد العاملة على جلب انتباه الآخرين؛ وحملهم على الشهادة لها بقدرتها على الإمتاع في السرد؛ والمعرفة التي هي في الأصل حصيلة ذهنية لتراكم التجارب الإنسانية في بعدها الكوني، وقيمتها في تكسير النظم القاهرة المؤطرة لوجودها. فأضحت قبلة العارفين السالكين طريق البحث عن كينونتهم يقول: "خرجت سهر من المدرسة مبكرا.. ذهبت إلى بيت شهرزاد.. لم تجدها جلست سهر أمام بيت شهرزاد.. الروح تعطش لحكايا المعرفة كأنها طفل يعطش لثدي الأم"<sup>4</sup>. وقفت سلطة اللغة لتجعل من المستمع/البطلة سهر بعد كل ليلة من الحكى والسرد طفلا متعلقا بالصمت. ولتثبيت ذلك حرص الروائي السيد حافظ على استلهم ذلك التلقي الإيجابي الذي حظي به كتاب "ألف ليلة"، وحضوره الفاعل لنص الليالي في الذاكرة. خصوصا شخصية شهرزاد المعجزة التي قاومت سلطة الرجل بسلطة الكلمة تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي: "شهرزاد تتكلم والمعجزة تحدث"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، ص 27.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 17.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 18.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 264.

<sup>5</sup> - شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، ص 23.

## سابعاً: على سبيل الختم

هنا تنتهي رحلتنا مع روائي رسم بسرده وثقافته لوحة جمالية، طرزها بأدبه الأصيل، وزينها بذخيرته المعرفية. ولأن الزمن الإبداعي لا يقاس بالعمر البيولوجي، فسيظل هذا المبدع المتمرد القلق الحالم خالداً، سيتجلى مشرقاً كلما أظلم ليل في وجه الإنسان. فما زال له حلم الكتابة والإنتاج طالما قلمه متوهج ينبئ بالإبداع والإمتاع.

هنيئاً للروائي السيد حافظ المبدع الذي تيمم بتراب الوطن وتوضأ بنور الحرف وصلّى في محراب الكلمة.

## لائحة المصادر والمراجع

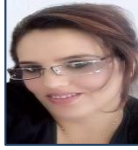
- الرواية: قهوة سادة، السيد حافظ، 2012، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أرض الأبدية قراءات في تجربة الشاعر سيف الرحبي، مفيد نجم، الطبعة الأولى، 2007، منشورات الجمل.
- سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكارييت، ترجمة آمال عرموني، 1999، دار عويدات، بيروت.
- الشعر والتلقي، علي جعفر العلاق، الطبعة الأولى، 1997، دار الشروق، الأردن.
- الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي.
- شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرينسي، المترجمة ماري طوق، الطبعة العربية الثانية، 2003.
- عتبات النص بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، الطبعة الأولى، 2008، الناشر مقاربات.
- مدخل إلى الأدب العجائبي، تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، الطبعة الأولى، 1993.
- المرأة واللغة، عبد الله الغدامي، الطبعة الثالثة، 2006، المركز الثقافي العربي.

## التعبير بوصفه نظاماً علامائياً

### - شعر البهاء زهير أنموذجاً -

#### لبنى المفتاحي

أستاذة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية  
جامعة القيروان  
تونس



#### مقدمة

بين اللغة والشعر علاقة أصيلة، تظهر قيمتها في مدى إسهام الشعر في تطوير اللغة؛ من خلال إخضاعها لحركته المتنامية، إلى جانب قدرته الخارقة على تحريك نظامها، وخلخلة بنياتها وأسسها الإنشائية؛ عبر آلية الصياغة المغايرة لصياغة اللغة المعيارية، التي تعمد إلى تفجير هذا النظام، وتجاوز التركيب اللغوي المؤلف؛ لإبداع طرائق تعبيرية جديدة، تقوم على خلق حالة من الحركة داخل السكون؛ فالشاعر يمتلك براعة الخلق اللغوي، ويستطيع أن يزيل عن اللغة رتابتها، وينزع عنها برودتها، وليس ذلك بانتقاء لغة خاصة غير مألوفة، وإنما بصياغة تلك اللغة بطريقة مخصوصة، تعيد لها بريقها. ولذلك، يتفق أغلب النقاد والدارسون على أن ميزة الشعر تكمن في الطريقة التي يقال بها، وليس في المَقُول نفسه. يقول جون كوهين، مشيراً إلى هذه الحقيقة: "الشاعر بقوله، لا بتفكيره وإحساسه.. إنه خالقُ كلمات، وليس خالقُ أفكار. وترجع عبقريته كُلُّها إلى الإبداع اللغوي"<sup>1</sup>. وينقل عن الشاعر الفرنسي مالارمي قوله: "إننا لا نصنع الأبيات الشعرية بالأفكار، بل نصنعها بالكلمات"<sup>2</sup>.

ويُعد البهاء زهير من الشعراء المتميزين نظماً ونثراً؛ فقد تفرد بصفاء لغته ورونق أسلوبه، وهو بذلك يمثل حالة شعرية متميزة في اللغة والتعبير؛ لذا، وجدنا أن المنهج الأسلوبى هو المنهج المناسب لدراسة شعره؛ فهو يهتم بدراسة النص الأدبي، ووصف طريقة صياغته؛ بهدف استخراج الخصائص والسمات التي تميزه، كما يكشف عن مواطن الإبداع ومظاهر التميز التي يتفرد بها

<sup>1</sup> جون كوهين: بناء اللغة الشعرية، تر: أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط3، ص 40.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 41.

النص الأدبي وقائله. وتهدف هذه المقالة إلى تقديم دراسة نقدية من منظور نظام تعبيرى للتنقيب عن جماليات النص الشعري، واستجلاء ما فيه من أسرار لغوية، وأبعاد نفسية ودلالية...

### مفهوم "التعبير" في علاقته باللغة:

#### في مفهوم "التعبير":

تعد اللغة من أهم الوسائل تعبيراً في النص الشعري؛ فهي "البوابة الأولى للولوج إلى فضاء القصيدة؛ لأنه من طريقها يمكن التعرف على الدلالات والأبعاد، التي ترمي إليها"<sup>1</sup>؛ دلالات تعبر عن روح التمرد والاندفاع المتعالي في صناعة خيوط النسيج النصي، الذي عن طريقه تتحول إلى لغة ثانية؛ لغة تناهض، وتتحدى وتشاكس، وتبتعد كثيراً عن حدود اللغة الأولى ومألوفيتها، مُزاحمةً عنها، ومنفتحة على فعاليات أخرى، تتخطى نمذجة المرجع المعجمي؛ فتتفوق عليه، وتخترق حدوده"<sup>2</sup>؛ ممّا يصعد فعالية المعنى وقوته. وبذلك، اخترق الشعراء ذلك العالم الغامض؛ بتفجير طاقات اللغة تفجيراً نقل اللغة من مجرد خزان معجمي محدود، إلى نظام علاماتي، يتجاوز القاموس المعجمي ليخلق معجماً شعرياً خاصاً، يحتوي الكون بعلاقاته المتضادة، ويحول عالم الأشياء والمحسوسات إلى رموز وإشارات وصور، حتى أصبحت عنده "لغة تقول الموجودات كلها"<sup>3</sup>. ويتعين علينا؛ لتوضيح حقيقة التعبير في علاقته باللغة، التعريف به بدءاً؛ فهو من المادة اللغوية "ع ب ر"، التي هي أصل واحد صحيح، يدل على الماضي في الشيء، والنفوذ فيه. ومن الباب عبرت عن فلان تعبيراً، إذا لم يستطع التعبير عن نفسه، وعي بحجته؛ فعبرت عنه؛ أي تكلمت نيابةً عنه؛ لأنه لم يقدر على النفوذ في أمره، أو كلامه؛ فنفذت بها عنه<sup>4</sup>. ويقول ابن منظور: "عبر الرؤيا يعبرها عبراً وعبارة، وعبرها: فسرّها وأخبر بما يؤول أمرها... وعبر عن فلان: تكلم عنه. واللسان يعبر عمّا في الضمير..."<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> حسين خمري، الظاهرة الشعرية العربية: الحضور والغياب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 57.

<sup>2</sup> عبيد محمد صابر، عضوية الأداة الشعرية: فنية الوسائل ودلالة الوظائف في القصيدة الجديدة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان، ط.1، 2007، ص 87.

<sup>3</sup> أنطوان مقدسي، مقاربات من الحداثة، مجلة "مواقف"، بيروت، ع.35، ربيع 1979، ص 29.

<sup>4</sup> ابن فارس، مقاييس اللغة، 207/3 وما بعدها.

<sup>5</sup> ابن منظور، لسان العرب، 15-14/9.

ويقصد بالتعبير بيان ما يجول في خاطر الكاتب، من أفكار ومشاعر ومواضيع التعبير، في شكل أحداث واقعية أو خيالية، بواسطة أدوات؛ كالكتابة والرسم والخطوط والتّصوير والحوار والإيحاء، بدءاً من صراخ الطفل الصغير إلى الكلمة المنطوقة المكتوبة.

ويرتبط مفهوم "التعبير"، عند اللسانيين، بالشكل المادي، بوصفه المظهر اللغوي للكلام كمنطوق دالّ، يقابله المضمون أو المحتوى كمدلول لغوي للكلام. والمادة الصوتية المحكية أو المكتوبة يتمفصل بها سطح التعبير مع سطح المضمون<sup>1</sup>.

وعادةً ما تحملُ التعبيرات اللغوية بصمات صاحبها، وترتبط به ارتباطاً وثيقاً، ولاسيما إذا أدركنا أن القيم الشعورية الكامنة في أعماق ذات المبدع تسبق دائماً وأبداً القيم التعبيرية في الخطاب الأدبي. ومن هذا المنطلق، انبثق مفهوم "التعبيرية" L'expressivité، بوصفه من المفاهيم التي ركزت عليها الأسلوبية، ولاسيما الاتجاه التعبيري في دراسة الأسلوب<sup>2</sup>.

### التعبير بين الإشارة والعبارة:

إنّ "التعبير الإشاري" مصطلح استعمله بار هيليل، وهو يقابل "الوحدة الإشاريّة" عند ش. س. بيرس<sup>3</sup>. ويطلق على الصبغ اللغوية التي تستعمل للقيام بالإشارة بواسطة اللغة، وتسمى "الإشارات"<sup>4</sup>، وتشمل الضمائر بأنواعها، وأسماء الإشارة، وظروف الزمان والمكان، والصبغ الانفعالية (النداء والتعجب)، وأسماء القرابة؛ وهي علامات لغوية لا يتحدّد مرجعها إلّا في سياق الخطاب التداولي<sup>5</sup>. ولهذا، كان النحويون يُطلقون عليها اسم "المهمات"<sup>6</sup> أيضاً؛ لأنّها خالية من أي معنى في ذاتها. والإشارات جميعها "تلتقي في مفهوم التعيين، وتوجيه الانتباه إلى موضوعها بالإشارة إليه"<sup>7</sup>؛ ولذلك، سُميت بـ "المُعَيّنات"<sup>8</sup>، وهي جمع لكلمة "المعَيّن".

<sup>1</sup> عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، مكتبة نور، 2009، ص 84.

<sup>2</sup> محمد الأمين شيخة، إشكالية دراسة الأسلوب وطائفة الشكل والمعنى، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، ص 66.

<sup>3</sup> جميل حمداوي، من أجل مقارنة قرآنية لديوان "غنّج المجاز" لجمال أزراغيد، مقال منشور في موقع "مغرس" الإلكتروني، بتاريخ: 2011/6/19، ص 98.

<sup>4</sup> جورج بول، التداولية، تر: د قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص 27.

<sup>5</sup> نفسه.

<sup>6</sup> إبراهيم بركات، الإبهام والمهمات في النحو العربي، دار الوفاء للنشر، مصر، 1987، ص 33.

<sup>7</sup> الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط1، 1993، ص 116.

<sup>8</sup> محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، ط4، 2005، ص 151.



ومن هنا، فإن الإشارة المجردة عن سياقها غامضة، لا تحمل دلالة معينة. ولا تتحدد دلالتها إلا في المقام الذي قيلت فيه؛ لأنّ الإشارات - حسب ليفنسون - "تذكير دائم... بأنّ اللغات الطبيعية وُضعت - في الأساس - من أجل التّواصل المباشر بين الناس وجهاً لوجه. وتبرز أهميتها حين يغيب عنّا ما تشير إليه؛ فيسود الغموض، ويضُعب الفهم"<sup>1</sup>. وتظلّ الإشارات مهمة؛ و"لذلك، ينبغي تنميتها وتبنيها - انطلاقاً من ياكبسون - عن طريق بيان صلات المؤشرات الدّالة على الشخص بالمؤشرات الدّالة على الزّمان والمكان"<sup>2</sup>. ف"التّعبير الإشاري" مفهوم تداولي، يجمع كل العناصر اللّغوية التي تحيل مباشرة على المقام؛ من حيث وجود ذات متكلمة، وزمان التّكلم ومكانه. قال إرنست فيشر إنّ الشاعر يستخدم "وسائل اللّغة المتاحة، لكنّه يستخدمها بطريقة تجعل كل كلمة تكتسب معنى جديداً. وتنشأ هذه الجِدّة من جدلية اللّغة؛ أي من التفاعل بين الكلمات داخل القصيدة. ومن أنّ كل كلمة لا تنقل محتوى فحسب، بل يمكن أن يقال إنّها محتوى في ذاتها.. إنّها حقيقة قائمة بذاتها"<sup>3</sup>. ودعا لويس هيلمسليف إلى خلق لغة عليا (شارحة) Meta-language، وهو يرى بذلك أهمية القيام بمعالجة للّغة، يمكن أن تكون في أقصى درجات العلمية والوضوح، بوسائل لغوية، يتحقّق بفضلها الاتّصال والتّواصل. ومن الأفكار الرئيسة التي جاء بها هيلمسليف، في موضوع الخطاب، تمييزه بين التّعبير والمحتوى Expression/ Contenu، وبين المادة والشكل Substance/ Forme، وتحديد مفهومه للمشارك اللفظي Homonyme وتعدد المعنى Polysémie<sup>4</sup>.

### النظام العلاماتي في شعر البهاء زهير، وعلاقته بسميائية الوصف الشعري:

يكنى بهاء الدين زهير بـ "أبي الفضل"<sup>5</sup>، وبـ "أبي العلاء"<sup>6</sup>. ولقب بـ "بهاء الدولة"، وكان يلقب أيضاً بـ "بهاء الدين"، وفي كلا اللقبين دلالة إيجاب، وهي من الصفاء والنقاء والضيء واللمعان؛ وبذلك اكتسبت معنى دينياً يتّفق ويتناسب مع أخلاق الشاعر. ومثل هذه الألقاب "كانت تُمنح لكبار الدولة بإذن من السلطان"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> Prognostics, Levinson, Cambridge University, 1983, P54.

<sup>2</sup> هومان باري، الخطاب، تر: محمد أسيداه، مجلة "نوافذ"، جدّة، السعودية، ع.34، 2005، ص 38.

<sup>3</sup> إرنست فيشر، ضرورة الفن، مكتبة الكتب، 2008، ص 222.

<sup>4</sup> وفاء محمد كامل: البنيوية في اللسانيات، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع.2، مج.26، أكتوبر - ديسمبر 1997، ص 256.

<sup>5</sup> ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تج: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، باب حرف الزاي، 332/2.

<sup>6</sup> صلاح الدين خليل بن أبيك الصفيدي، الوافي بالوفيات، تج: أحمد الأنزاووط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 156/4.

<sup>7</sup> عبد الفتاح شليبي، البهاء زهير، سلسلة "نوايف الفكر العربي"، رقم 28، دار المعارف بمصر، ط2، د.ت، ص ص 19-20.

وتظهر ثقافة البهاء زهير من خلال تأثره بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وتوظيفهما في شعره، الذي ينطوي، كذلك، على إشارات إلى حوادث تاريخية وأعلام وشخصيات من الشعراء والأنبياء، وهذا يدل على ثقافته الواسعة، وإطلاع الغزير على التاريخ والأدب.<sup>1</sup> كما أن "في ديوان البهاء زهير ما يدل على تأثره بالشعر العربي القديم وبعض الأخبار التاريخية العربية، وتضمنه ما قال القدماء، وذلك دليل على أنه كان يحفظ كثيرا من أشعارهم... وهذه مقدرة لا يستطيعها إلا من رسخت قدمه في الفن؛ فلا غرو أن البهاء كان من شعراء مصر المتميزين، ولا غرابة في أن يعجب به كل من عاصره، وكل من جاء بعده"<sup>2</sup>. ولهذا، فقد قيلت أبيات عديدة، تمدح شعره؛ مثلما فعل سعيد الدين محمد بن عربي، الذي قال<sup>3</sup>:

لشعر زهير في النفوس مكانةً      فقد حاز من ألبابها أوفر الحظّ  
لقد رَقَّ حتَّى قُلْتُ فيه لعلّه      يحاول إبراز المعاني بلا لفظ

وتميز شعر البهاء زهير ببساطته، وابتعاده عن التكلف، واقترب لغته من لغة الحياة الجارية؛ وهي سمة إيجابية، لا تعني ركافة شعره وابتداله. قال عنه ابن خلكان: "شعره كله لطيف، وهو كما يقال: من السهل الممتنع. وقد أجازني رواية ديوانه، وهو كثير الوجود بين الناس؛ فلا حاجة إلى الإكثار من ذكر مقاطيعه"<sup>4</sup>.

إن لغة الشعر ليست لغة غريبة، يستمدّها الشعراء من عالم آخر غير عالم الناس، بل هي لغة يستوحها الشاعر من المنبع نفسه الذي يستقي منه الآخرون كلامهم، إلا أن الشاعر يتعامل مع اللغة تعاملًا خاصًا، يجعلها تتجاوز إطارها المؤلف، وتتمرد على نظامها المعياري، وتتحوّل من كلمات محدودة الدلالة إلى كلمات نابضة بالحياة، فياضة بالدلالة؛ لأنّه يضفي عليها من روحه، وعمق تجربته، ما يجعلها كذلك؛ فهو يرتبط بها وفق علاقة خاصة، تتجاوز المؤلف كما ذكرنا. وفي هذا السياق، يقول أدونيس متحدثًا عن اللغة الشعرية، وكيفية إبداعها: "أول ما أعمله أن أفرغ هذه اللغة من محتواها، وأحاول أن أشحنها بدلالات جديدة، تُخرجها عن معناها الأصلي؛ ثانيا

<sup>1</sup> أحمد حلي حلو، البهاء: حياته وشعره، دار الثقافة العربية، مصر، 2004، ص 10.

<sup>2</sup> محمد كامل حسين، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957، ص ص 200-201.

<sup>3</sup> الصفدي، الوافي بالوفيات، 156/4.

<sup>4</sup> ابن خلكان، وفيات الأعيان، 336/2.

أبدل علاقاتها بجاراتها؛ ثالثاً غير جذرياً النسق الموضوعية فيه كقصيدة. وبهذه الأفعال الثلاثة يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ يمكن أن أبتكر لغة جديدة"<sup>1</sup>.

### التعبير بتوظيف الأدلة القرآنية والحديثية:

إنَّ وعي الكاتب بصفة عامة، ووعي الشاعر بصفة خاصة، بقيمة الماضي المتمثل بالتراث العربي، بمختلف أشكاله، وبأهمية استثمار الخطاب الديني، قرآناً وسُنَّةً، أصبح كبيراً جداً، ينمُّ عن نضج النظرة إليهما؛ مما جعل الأدباء يلتفتون إلى ذلك، ويوظفونها في إبداعاتهم وكتاباتهم على نحو لا يخلو من تميُّز وجَدَّة. وشعر البهاء يكشف عن مظاهر من تناصّه مع الثقافة العربية، بألوانها المختلفة، سواء أكانت شرعية أم لغوية أم أدبية. فمن نصوصه الكاشفة عن ثقافته الشرعية، واقتباسه من القرآن الكريم، قوله<sup>2</sup>:

هذه قصّتي، وهذا حديثي      ولك الأمر؛ فاقض ما أنت قاضي  
ومن تعبيراته ذات الإحياءات الفقهية والأصولية قوله:

يا من ولائي فيه نصّ بيّن      والنصّ عند القوم لن يتأولا  
ومن تجليات توظيفه بعضَ ألفاظ مصطلح الحديث قوله:

مولي له في النَّاس ذكر مرسل      قد أوردته السحب عنه مسندا  
ومن استعماله بعض مصطلحات علوم القرآن قوله:

أبدا حديثي ليست بال      منسوخ إلّا في الدفاتر  
ومن تعبيراته، التي تقتبس من مجال النحو، قوله:

عسى عطفه للوصل يا واو صدعه      عليّ، فإنّي أعرف الواو تعطف  
وقوله كذلك:

جعلتكم خبري في الحب مبتدئاً      وكلّ معرفة لي في الهوى نكره  
فقد وظف البهاء زهير، في قصائده، بأشكال مختلفة، العديد من التّعابير والدلالات المقتبسة من نصوص متنوعة، منها القرآنية والأدبية والنحوية... وهذا يعكس ثقافة الشاعر الواسعة، التي ساعد على بلورتها تشجيع السلاطين واحتفاؤهم بالعلماء، وإنشاء المدارس ودُور

<sup>1</sup> هاني الخير، أدونيس.. شاعر الدهشة وكثافة الكلمة، موسوعة "أعلام الشعر العربي الحديث"، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2006، ص23.

<sup>2</sup> - هذه النصوص/ الأبيات جميعها مأخوذة من ديوان البهاء، الذي ستأتي بياناته الببليوغرافية في هامشٍ لاحقاً.

العلم، فضلاً عن تربية البهاء في قوص، التي كانت أحد مراكز الثقافة في عصره؛ مما جعله يُقبل على القراءة ومصادر الثقيف، والنهل من ينابيع المعرفة، وهو الذي كانت له آمال عريضة في الوصول إلى أعلى المراتب والمناصب. وقد كان لذلك أثره الواضح في تعابيره؛ على النحو الذي رأيت<sup>1</sup>.

من الآليات التي استند إليها البهاء زهير للتعبير، وبناء صورته الشعرية، ظاهرة التناس، ومن ذلك استدعاؤه قصة مريم وزكريا في قوله<sup>2</sup>:

لك في الأرض دعاءً	سدّ آفاق السماء
لم يكن ينسى لك الل	هُ إِبْتهال الفقراء
يسر الله بلُقياً	لَكَ سُروَر الأولياء
وتلقّى بقبول	حَسَنٍ فيكَ دُعائي

ففي هذا المقطع الشعري تناصّ مع قوله تعالى: "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"<sup>3</sup>، أورده في سياق مدحه الأمير مجد الدين اللمطي، والدعاء له بأن تُسدّد خطاه. وقد توسل الشاعر، في هذه الأبيات المادحة، بأساليب تعبيرية، جعلت الممدوح منشداً إلى قول الشاعر، متمنياً من الله سبحانه وتعالى قبول دعاء هذا الأخير (الشاعر). ولعلّ في الإشارة إلى هذه القصة دلالة على رغبة الشاعر في استحضار بعض القصص الديني؛ لإضفاء الصبغة الدينية على الموقف الذي كان فيه غيب إنشاد القصيدة أو نظمها.

ويستحضر الشاعر، في قصيدة أخرى، قصة سيدنا موسى مع الخضر؛ فيقول<sup>4</sup>:

تميس به الأيام في حل	وترفل منه في مطارفه
أياديهِ بيض في الوري	ولكنّها تسعى على قدم

بحيث وظف الشاعر تلك القصة؛ ليعزز للأمير ممدوحه المكانة السامية التي وضعه فيها، وليعبّر عن صفاته وأعماله التي يستمدّ العون على إنجازها من الله تعالى؛ هذه الأعمال التي تُخرج الممدوح من إنسانيته العادية إلى مقام أسمى (تميس به الأيام في حل)؛ إذ جعل الشاعر، من خلال

<sup>1</sup> عبد الفتاح شليبي، البهاء زهير، م. س، ص 26-29.

<sup>2</sup> بهاء الدين زهير، ديوانه، دار صادر، بيروت، 1383هـ/1964م، ص 18.

<sup>3</sup> سورة آل عمران، الآية 37.

<sup>4</sup> ديوان البهاء زهير، ص 100.

عبارته هذه، الأيام تفتخر وتحتفل، وجعل للأيام نظاماً سيميائياً خاصاً بها؛ بحيث شخّص الأيام، وعدّها كالتّاس، الذين يحتفلون، ويلبسون من الحلل والزينة ما يعبرون به عن سُروهم.

وفي صورة أخرى، شبّه الشاعر أفعال الممدوح بأفعال موسى عليه السلام وأياديه البيضاء، وهذا تعبير عن العلاقة التي حاول أن يُقيمها الشاعر بين ممدوحه وموسى عليه السلام، الذي له من المعجزات ما تهر له العقول. ولعلّ استيحاء قصة موسى والخضر يدلّ على أنّه إذا كان الخضر قد أبهر موسى بتصرفاته، في مواقف ثلاثة تعرّض لها، ولم يصبر موسى على تفسيرها لاحقاً، ففي ذلك إشارة إلى مسألة الإتيان بأعمال يصعب تصديقها في الحال، وإنّما تحتاج إلى تأويلات لتوضيحها وتفسيرها.

ومن القصص التي استحضرها الهاء زهير، في قصائده، قصة يوسف ومسؤوليته على خزائن مصر، وهو يمدح ملك مصر، ويفيض عليه بالإطراء؛ لأنّه حقّق لبلده الأمن والاستقرار، والرخاء، وإقامة شرع الله في الأرض. يقول<sup>1</sup>:

وها هي في بشر بقربك شامل	قد انتظمت دميّاط منه وأسوان
وقد فرشت أقطارها لك سُندُسا	له من فنون الزّهر والتّور ألوان
فحسبك قد وافاك يا مصر	وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان
ويشرق وجه الأرض حين تحلها	كأنك توحيد حوته وإيمان
لأنك قد برئت من كلّ مآثم	وأنتك في الدّين الحنيفي غيران

فقد ضمّن الشاعر هذه الأبيات بعض قوله في ممدوحه، مستحضراً صورة سيدنا يوسف عليه السلام، الذي استأمنه ملك مصر على خزائنها؛ فغدّت تلك البلاد بفضلِهِ أرضاً للحياة الكريمة، ومن مظاهرها فيضان نهر النيل، الذي يسقي الزرع بخيراته، وأن الكثيرين صاروا يؤمّونها ليُصيبوا من ذلك النعيم. ويتجلّى المُتناسُ معه، ها هنا، في قوله تعالى: "قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين"<sup>2</sup>. وثمة إشارة، في الأبيات، إلى أمر، ذي بُعد واضح، يظهر خصيصاً في قول الشاعر عن الأمير إنّهُ مبرأ من الآثام، وهو بمثابة خليفة الله في الأرض.

<sup>1</sup> ديوان الهاء زهير، ص 254.

<sup>2</sup> سورة يوسف، الأيتان 55-56.

ووظف البهاء زهير مفردات وتراكيب قرآنية في مختلف أغراضه الشعرية؛ وذلك لما لها من تأثير في المتلقي، ومن دور في فهم الصورة (والكلام عموماً) ودلالاتها. وقد أشار أحدهم إلى دور النص القرآني في استجلاء الأفكار بالقول: "إنَّ الجودة الفنية في الشعر لا تكفي، وإنما لا بد من أن يكون معها مضمونٌ منسجم مع الرؤية الدينية العامة للحياة والوجود والكون والمصير؛ فهو أفقٌ للتفكير، لا يتأتى بعده، ولا يمكن الاستغناء عنه، ومرآةٌ للوجدان، ينصقل بانصقالها"<sup>1</sup>.

ومن هنا، يعمد البهاء زهير إلى خلق نظام علاماتي في قصائده، يعبر به عن مدحه للأمير المعظم مجد الدين بن إسماعيل اللمطي بصور ودلالات دينية منتقاة بعناية؛ بحيث قدّم، في النص الآتي، التهئة لممدوحه بحلول شهر رمضان المبارك، الذي فيه ليلة القدر، وفي هذا إشارة إلى المكانة السنيّة التي هيّاها الشاعر للأمير. يقول<sup>2</sup>:

وافاك شهر الصّوم يا من قدره      فينا كليلة قدره لن يُجحدّا  
وبقيت تدرك ألف عام مثله      متضاعفا لك أجره متعددا  
والدّهر عندك كلّهُ رمضان يا      مَنْ ليسَ يَرْجُ صائماً متججداً

وكان البهاء زهير يدرك جيداً ما يحتويه الحديث النبوي من أوامر ونواهي وقيم ومبادئ جليّة؛ ولذا، وجدناه يأخذ من هذه المرجعية الدينية العديد من الأحاديث الشريفة، ويجعلها منبعاً ثراً، يروي به أحاسيس متلقي أشعاره. ومن قصائده التي وردت فيها مفردات وتراكيب من هذه الأحاديث ومعانيها قصيدته الموسومة بـ "لا رضىت بغيركم"، التي خاطب فيها حبيبته وعاتها، بعد أن هجرته طويلاً<sup>3</sup>:

إلى عدلكم أنهي حديث وأنتهي      فجدودوا بإقبال عليّ وإصغاء  
عتبتكم عتبُ المُحبِّ حبيبته      وقلت بإذلال، فقولوا بإصغاء

حُرمتُ رضاكم إن رضىتُ بغيركم      أو اعتضت عنكم في الجنان بحوراء

وفي الحديث، الذي رواه ابن عباس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال حين عرج به إلى السماء: "في الجنة حوراء، يقال لها العينا، لو بزقت في البحر لعدّب ماؤه"<sup>4</sup>. والشاعر أخبر حبيبته

<sup>1</sup> عبد الفتاح كليطو، أبو العلاء المعري أو متاهات القول، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 24.

<sup>2</sup> ديوان البهاء زهير، ص 98.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص 17، بتصرف.

<sup>4</sup> شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1416هـ، ص 362.

بأنه لن يرضى حتى بحوراء الجنان بديلة عنها، وبهذا يثبت لها صدق مشاعره تجاهها. واستخدام الشاعر لهذا التناص اللغوي راجع إلى رغبته في التأثير في المحبوبة، من منطلق أن الحديث النبوي أقوى وأكثر إقناعاً من قول أي بشر.

وفي قصيدته "جاهل ثقيل"، استحضّر الشاعر ألفاظاً أخرى من الحديث النبوي الشريف، وذلك لدى تعبيره عما عكّر صفوه ومزاجه. يقول<sup>1</sup>:

وجاهل طال به عنائي      لأزمني وذاك من شقائي  
كأنه الأشهر في أسمائي      أخرق ذو بصيرة عمياء

أبغض للعين من الأقداء      أثقل من شماتة الأعداء

فقد عدّ الشاعر ذلك الجاهل الثقيل أثقل من "شماتة الأعداء" به، وهذه العبارة من ألفاظ الحديث النبوي؛ إذ وردت في قول أبي هريرة، رضي الله عنه، من أنه "كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتعوّذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء"<sup>2</sup>. فقد وظف الهاء زهير، هنا، لفظ "شماتة الأعداء" بطريقة ذكية، أراد من ورائها التعبير عما يشعر به تجاه ذلك الجاهل الثقيل؛ فأمسّت شماتة الأعداء أهون عليه من وجود ذاك الثقيل بجانبه. وهذا الأسلوب، الذي يعتمد الهاء زهير في كثير من قصائده، ليس سوى علامة من علامات الإيحاء، والكلام القابل للتأويل، في لغته، التي تبدو للقارئ - من الوهلة الأولى - لغة واضحة سهلة، ولكنها - في حقيقة الأمر - لغة مشفرة، حُبلى بمعانٍ ومشاعر لا يستطيع الشاعر البوح بها إلا رمزاً وإيماءً، ومما كان يُعينه على ذلك توظيفه الأحاديث النبوية، أو غيرها من الاقتباسات، التي توجي للمتلقي بالمرجعية الدينية، التي كان ينهل منها شاعرنا.

وفي شعره نماذج أخرى من الكثرة بمكان، لا يتسع المجال للإتيان عليها كلها. ويمكن أن نضيف، إلى ما تقدم، تناصُّ الشاعر، في قصيدته "شكوى إلى الله"، مع حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي نصّه: "من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همّ فرجاً، وورقه من حيث لا يحتسب"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ديوان الهاء زهير، ص 18، بتصرف.

<sup>2</sup> مساعد بن حامد بن زيد الزهراني، الدعاء المستجاب - اختصار من كتاب الدعوات من "صحيح البخاري"، دار ثروة السلطان، السعودية، 2016، ص 32.

<sup>3</sup> خالد بن سلمان، من عجائب الاستغفار، دار القلم للنشر والتوزيع، الرياض، 2007، ص 16.

كما يمكن أن نشير إلى قصيدة أخرى له في مدح الأمير مجد الدين، وتهنئته بقدوم شهر الصوم، بالاتكاء على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَرَّه أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"<sup>1</sup>.

لقد أبدع شاعرنا أيما إبداع، بهذه القصائد والأشعار الموشحة بكلمات وأقوال خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم. ولا شك في أن حفظه أو درايته بالأحاديث النبوية، أعطته قوة كبيرة في نظم شعره بروح جديدة، تتلاءم وما أراد التعبير عنه، ومنحته لسانا ينطق بكلماتٍ، تخترق قلب الإنسان من دون استئذان.

والواقع أن الدلالات والتعابير، التي استند إليها الهاء زهير في أشعاره، متنوعة، وذلك راجع إلى تنوع مرجعياته ومشاربه الثقافية، وقد ظهر ذلك من خلال اقتباساته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ينضاف إلى ذلك، طبعاً، تناصُّه مع الشعر العربي القديم، وإشارته إلى حوادث تاريخية، وأعلام، وشخصيات من الشعراء والأنبياء.

#### التعبير بالأمثال والأقوال المأثورة، وبتوظيف الشخصيات التراثية:

إن هذه الأمثال، التي هي وليدة تجارب الإنسان العربي، والتي مسّت جوانب كثيرة من حياته، جعل منها الهاء زهير معياراً ومنهاجاً، سار على هديهما؛ لذا، وظفها في شعره، معبراً من خلالها عن تجارب معيشة، ومواقف صادقة. ومن بين هذه الأمثال نذكر:

أنجز حرماً وعد:

يقول الهاء زهير<sup>2</sup>:

قد طال في الوعد الأمد والحر ينجز ما وعد  
ووعدي يوم الخمي س فلا الخميس ولا الأحد  
فهذان البيتان قالهما الهاء في سياق التعبير عن انزعاجه من صديقه، الذي أخلف الوعد، ولم ينجزه في وقته. ولإيصال هذا الإحساس إلى متلقيه، استقى الشاعر من التراث العربي مثلاً

<sup>1</sup> علي القاري محمد الخطيب التبريزي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المكتب الإسلامي للنشر والتوزيع، بيروت، 1979، ص 47-

50.

<sup>2</sup> ديوان الهاء زهير، ص 70.



يتناسب وموقفه؛ ليوظفه في قصيدته، وهو "أنجز حر ما وعد"، الذي يقال في الذي يعطي عهداً، فيُخْلِفُه<sup>1</sup>، وذلك نصيحةً للصديق ليتعلم الوفاء بالعهد الذي يقطع على نفسه.

لا عطر بعد عروس:

يقول الشاعر<sup>2</sup>:

على مثلها يبكي المحب صباية      فيا مقلتي، لا عطر بعد عروس  
إذ وظف البهاء زهير، في البيت الشعري، مثلاً من أشهر أمثال العرب، وهو "لا عطر بعد عروس"<sup>3</sup>، وذلك للتعبير عن الإخلاص والوفاء، والحب العميق الذي يُكِنُّه لزوجته. وجدير بالذكر أن هذا المثل قالته أسماء بنت عبد الله، بعد وفاة زوجها "عروس"، الذي كانت تحبه كثيراً؛ فحرمت على نفسها بعده كل زينة وعطر.

العود أحمد:

يقول الشاعر<sup>4</sup>:

تعالوا نخل العتب عنا ونصطلح      وعودوا بنا للوصل والعود أحمد  
فالبيت يحمل دعوة صريحة - من الشاعر - لنبد الخلف، والعودة إلى ما كانوا عليه من الوصل سابقاً؛ فهذا أحمد وأجمل.

وعد الحردين:

للتعبير عن ملاحظة المحبوب، وتأخير المواعيد، أورد الشاعر تناصاً مع المثل القائل "وعد الحر دين عليه" ليزكّر بأن الحر إذا وعد وفى؛ فقال فيه بيته هذا<sup>5</sup>:

قد طال في الوعد الأمد      والحر ينجز ما وعد

<sup>1</sup> سليمان بن صالح الحنشي، المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، ص 159.

<sup>2</sup> ديوان البهاء زهير، ص 144.

<sup>3</sup> أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال، تج: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، 161/2.

<sup>4</sup> ديوان البهاء زهير، ص 85.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 85.

مرعى ولا كالسعدان:

يقول البهاء زهير<sup>1</sup>:

وما فتنت قلبي البلاد، وإنّما ندى الملك المسعود للنّاس فتّان  
فتيّ مثلما يختاره المُلْكُ ماجد ومرعى كما يختاره الفال سعدان  
بحيث وظّف الشاعر، في البيت الثاني، المثل العربي "مرعى ولا كالسعدان"، وذلك في معرض حديثه عن جود الملك المسعود، الذي فتن الشاعر، وجعله يتغنّى بكرمه هذا، وليس الافتتان بالبلاد في ذاتها، التي لا قيمة لها مجردةً عمّن يسكنونها؛ فساكنوها هم من يُفتن بهم. ولعلّ طيبه وكرمه يشبه تفرّد مراعي السعدان في طيبها وقيمتها لقطعان الإبل.

ومن التّعابير والأساليب التي أضفت طابعا خاصّا على شعر البهاء زهير الشخصيات التراثيّة، ومنها:

شخصيتا شق وسطيح:

حار الشاعر؛ أيبوح بأسراره لحبيبته أم لا؟ وذلك قبل أن يقرر الفعل، ولكن من غير تصريح بما يؤرقه ويُقلقه، كأَيّ عربيّ إذا دارت في خلدّه أسئلة كثيرة، بل من خلال الاتكاء على أسلوب التلميح، الذي ساعده على التعبير عن أوجاعه، التي سكنت قلبه، لحبيبته، ليُدرك - في نهاية المطاف - أنّه إنّ لم يفعلْ ذلك، فسوف تُعاتبه عتابا شديدا؛ لذا، ارتأى بهاء، في قصيدة "فراصة لا كهانة"، أن يستلهم من واقع هذين الشخصين رقصتهما، التي يمكنها أن تكون رسالة مقنعة، بفعالية، لعقل يميل إلى الشك. وتجدر الإشارة إلى أن تلك الشخصيتين، اللتين وظّفهما الشاعر هنا، على سبيل التناصّ، عُرفتَا، في الجاهلية، بـ "التنجيم وقراءة المستقبل والكهانة"<sup>2</sup>. يقول البهاء زهير<sup>3</sup>:

لئن بحت بالشكوى إليك محبة  
تكهنت في الأمر الذي قد لقيتَه  
فما حرفت من ذلك حرف كهانتي  
فاه ظني إنّه لصحيح  
فلمست لمخلوق سواك أبوح  
ومن هو شق عندها وسطيح

<sup>1</sup> ديوان البهاء زهير، ص 256.

<sup>2</sup> بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل، بيروت، 1953، ص 26.

<sup>3</sup> ديوان البهاء زهير، ص 66.

وهذا التوظيف يؤكد الشاعر أنه على حظ كبير من الذكاء والفطنة، يمكّنه من أن يخمن ما سيحدث بينه وبين من يحب، كما يثبت أنه ليس كاهنا ولا منجّما، وإنما عبدٌ مؤمن بالله تعالى، يعلم يقيناً أن لا أحدَ غيره سبحانه علّامُ الغيوب.

### حاتم الطائي والأحنف بن قيس:

قال البهاء زهير مادحا الأمير المشار إليه من قبل<sup>1</sup>:

إلى سيد أخلاقه وضمّانه      تؤدّب من يثني عليها وتطرف  
أرق من الماء الزلال شماتلا      وأصفى من الخمر السلاف والطف  
غدا من نداها حاتم، وهو حاتم      وأصبح منها أحنف، وهو أحنف  
أتتك القوافي، وهي تحسب      روضة لما صمته، وهو قول مزخرف  
فالأمير جمع بين خصال حاتم الطائي، الذي اشتهر في الجاهلية بالجود والسخاء والعطاء، والأحنف بن قيس، الذي اشتهر في الجاهلية بالعفو والجلم والتسامح. ولعل الشاعر أحسنَ بأنّ كلمات المدح والثناء عاجزة عن ذكر محاسن الأمير بالصورة المأمولة؛ فكان حاتم والأحنف - بالنسبة إليه - أبلغ وأصدق تعبيرا عن شيمه وخصاله الكريمة.

### التعبير عن الحب والصدق والوفاء:

يُقرّ البهاء زهير بأنّ موضوع الحبّ هو سرُّ شهرته ومجده؛ إذ يقول:

جزى الله عني الحبّ فإنّه      به ازداد مجدي في الأنام وعلّياي  
وهو بذلك يتخذ موقفا مغايرا لمفهوم الفحولة في الشعر العربي، الذي يتطلب تنوع الأغراض، وكثرة الأشعار، وإجادة الشاعر فيها. واللافت في شعر البهاء زهير، وخاصة الغزليّ منه، هو تلك الحلبة التي يصارع فيها المُحبّ حبيبته، والمصارعة -هنا- مُبْتَطَنَة بعِشْق، يسمو إلى مرتبة الصدق وطلب العفو والاعتراف بالذنب. يقول الشاعر مُقِرّاً بذنوبه، طالبا - ضمنيا - الصفح والعفو<sup>2</sup>:

فيا من يحبّ العفو، إنّي مذنب      ولا عفو إلّا أن تكون ذنوب  
بحيث تشكلت عبارته هنا من ظواهر أسلوبية، استند إليه البهاء زهير لطلب العفو من الحبيبة، بعد أن اعترف لها بذنبه. وتتمثل هذه الأساليب في الكناية عن موصوف (فيا من يحب

<sup>1</sup> ديوان البهاء زهير، ص 165.

<sup>2</sup> ديوان البهاء زهير، ص 58.

العفو)، والطباق بين "العفو" و"مذنب"، والترديد الذي أسهم في نمو المعنى؛ من خلال تكرار كلمة "العفو"، والجناس الاشتقائي، والتوكيد، وأسلوب النداء في أول البيت...

إن شعر الهاء زهير ينطوي على نظام علاماتي محبوب، يسمح بإخفاء ما يجب إخفاؤه، وبإظهار ما يجب إظهاره، متخذاً من الإيحاءات والإشارات أسلوباً ناجعاً للتعبير عما يراد إيصاله إلى المعنى بخطابه؛ وبذلك، تظهر لغة الهاء للعيان، في قصائده، لغة سلسلة واضحة، إلا أن في باطنها لغة مشفرة سيميائية تأويلية، تعبر عن متطلبات الشاعر ومعانيه بنظام مخصوص. يقول، وهو يطلب العفو والجلم من محبوبته كذلك<sup>1</sup>:

فإن تتفضل، يا رسولي، فقل له: مُجَبِّكَ في ضيق، وجلمك واسع  
إنّ توظيف ظواهر هنا؛ كالطباق (ضيق/ واسع) وغيره، ليس من قبيل الزخارف والمحسنات، بقدر ما هو توظيف دلالي لخدمة المعنى في النصّ؛ فبصورة بلاغية إيحائية، يضع الشاعر حبيبته في مرتبة أعلى، مغايرة لمراتب البشر! فيتودّد إليها، ويطلب منها الصفع والعفو، وهي ذات حلم واسع، يُؤمّل منها ذلك.

ويعبر الهاء زهير، في موضع آخر، عن تفوقه في الحب، مؤكّداً أنّه إمام فيه؛ فيقول<sup>2</sup>:  
لا تسل في الحبّ غيري أنا في الحبّ إمام  
فقد عبر الهاء زهير عن ميزته في الحبّ، وهو الذي يعدّ نفسه مدرسة فيه، لا مثيل لها؛ فهو نسيج وحده في الحبّ، لا القدماء يُشبهونه، ولا المُحدّثون. ويؤيّد زعمه هذا قوله في تائيّة له<sup>3</sup>:

أنا في الحبّ صاحب المعجزات جئت للعاشقين بالآيات  
ختم الحبّ من حديثي بمسك ربّ خير يجيء في الخاتمات  
إذ عمد الشاعر إلى توظيف ظواهر أسلوبية مختلفة لتأكيد مفارقتها وتميزه في الحبّ؛ ففي بيتيه حضر التصدير، والجناس الاشتقائي بين "ختم" و"الخاتمات"، فضلاً عن كون الشطر الأخير جيء به؛ لتأكيد المعنى الذي تقدّم...

<sup>1</sup> ديوان الهاء زهير، ص 102.

<sup>2</sup> نفسه، ص 97.

<sup>3</sup> نفسه، ص 68.

وتحدى الهاء زهير الأعراف الأدبية المألوفة، وسلك طريقا غير طريق السابقين في النظم الشعري؛ فهو يرى أنه ليس شاعرا مقلداً، بل هو إمام ومبتكر لكثير من معاني الحب.<sup>1</sup>

سرتُ في الحبِّ سيرةً لم يسِرْها عاشقٌ في الورى على الإطلاق

ضربت سكةُ المحبة باسعي ودعت لي منابرُ العشاق

ومما يلفت الانتباه، ها هنا، أنَّ الهاء زهير يُماهي بين الشاعر والعاشق، بل إنه يجعل الغلبة للشاعر، وكأنَّ الصدق الفني هو الأساس في تقويم الجودة، لا الصدق الموضوعي/ الحقيقي، حتَّى صار إماما في الغزل. ولا يكتفي بجعل الغلبة للشاعر لا العاشق، وإنَّما يضيف إلى ذلك اعتراف العشاق وولاءهم.

وللتعبير عن شوقه ولوعته، قال الهاء زهير<sup>2</sup>:

فديتُ مَنْ أرسلَ تفاحةً إرسالها دَلَّ على فِطْنَتِهِ

وقصدهُ أَنِي إِذَا دُقَّتْهَا تشدُّ أشواقي إِلى رُؤْيَتِهِ

فقد لمَّح الهاء الزهير بلوعته، دون تصريح بها؛ من خلال توظيفه التفاحة، بما لها من دلالة على الحب الحسي، الذي يُكنِّه الشاعر لحبيبته؛ بحيث استعمل الشاعر التفاح استعمالاً رمزياً، عوضاً عن اسم المعشوقة؛ فهو يقوم مقامها إذا غابت عن الأنظار.

وللتعبير عن الصدق والوفاء، الذي يتحلَّى به الهاء زهير، يقول<sup>3</sup>:

إِذَا قلتَ قولاً، كنتَ للقول فاعلاً وكان حيائي كافلي وضميني

تبشّر عني بالوفاء بشاشتي وينطق نور الصدق فوق جبيني

ففي هذا الشاهد حضور واضح للمعجم الديني، المستوحى من خُلق الإسلام وروحه. ومن الشواهد الأخرى، في هذا الإطار، التي يظهر فيها تأثر الشاعر بالنص القرآني، تناصُّه مع قوله تعالى: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم"

<sup>1</sup> ديوان الهاء زهير، ص 53، بتصرف.

<sup>2</sup> نفسه، ص 47.

<sup>3</sup> نفسه، ص 277.

بعضاً أ يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم"<sup>1</sup>، وذلك في قول البهاء زهير، مُقْسِماً بأنّ الآخر قد أساء الظنّ به<sup>2</sup>:

لا وحقّ الله ما ظنّ لا في حقي حللاً  
إنّ بعض الظنّ إثم صدق الله تعالى

فقد استهلّ الشاعر هذا المقطع بالقَسَم؛ دلالةً على قول الصدق والحق للتعبير عن حُسن ظنّه، وعدم إثمِهِ. وفيه تبرز، كذلك، ملامح اللّغة النازمة التي وظفها البهاء زهير في شعره، وهي لغة سلسة، يفهمها المتلقي دون صعوبات. وقد استند الشاعر على إحدى الآيات القرآنية ليدعم كلامه بحجة قوية مقنعة، تبعد الشك عن كل متلقٍ، وليؤكد مصداقية قوله. وإن مثل هذه التراكيب والألفاظ تحمل دلالة على إيمان البهاء زهير، وحبّه لدينه الإسلامي؛ بحيث يصدر الشاعر، في تعامله، عن الزوج الإسلامية والقيم الرفيعة؛ لأنّها "الأجمل في المجتمع العقائدي، بل هي أجمل وأندر ما في الحياة كلّها، والوجود كلّهُ"<sup>3</sup>.

وأخراً ما نختم بها مقالتنا قولُ البهاء زهير<sup>4</sup>:

ما قلت أنت، ولا سمعت أنا هذا حديث لا يليق بنا  
إنّ الكرام إذا صحبتهم ستروا القبيح، وأظهروا الحسن  
لتكون الحكمة مسك الختام، لا الغزل الذي صَبَغَ شعره وطَبَعَهُ؛ فذلك آخر ما ختم به شعره وحياته كلها.

## خاتمة:

يمكننا عدّ الشعر وثيقة مهمّة، تحفظ ذاكرة الشعوب بمختلف تحولاتها الاجتماعية والثقافية وغيرها، ولاسيما في الجانب حيث يكون الشاعر جزءاً أو طرفاً في ما يرويه أو يعبر عنه؛ فالشاعر يدرك بمخياله ما لا يدركه غيره، وينقل ما قد لا يستطيعه سواه.

والنصّ الشعري عند البهاء زهير عالم يبعد عن سطحية عالم الأشياء، تنغرس فيه الذات المبدعة وتندمج؛ لتنقطع عن واقعها المادي، حاملة بقايا روحها، وروح عصرها الذي ينزف دماً وألماً

<sup>1</sup> سورة الحجرات، الآية 12.

<sup>2</sup> ديوان البهاء زهير، ص 220.

<sup>3</sup> جميل بني عطا، الأدب الإسلامي: الواقع والطموح، بحوث المؤتمر الثاني لكليات الآداب، جامعة الزرقاء الأهلية، الزرقاء/ الأردن، 1999/ 2000م، ص 625.

<sup>4</sup> ديوان البهاء زهير، ص 200.

ومعاناةً. ولذا، تظهر لغة البهاء لغةً تنزاح، إلى حدٍّ ما، عن اللّغة المباشرة، وتميل إلى عوالم المدلولات البعيدة. فشعرية الكتابة تأتي من الشكل غير المتوقع، أو من صَدْمِ أفق الانتظار؛ فالمرسل يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير؛ نظرا لما ينتج عن إبداعه من أثر في المتلقي، لا يكون إلّا بشعرية الألفاظ والتراكيب المتزاحة، وسِحْر معانها.

وهذا، فإنّ التعبير اللّغوي، عند البهاء زهير، يستحيل سبيلا ثورياً، ينتهجه لتفجير اللّغة من الداخل في كثير من الأحيان، وهو ما يؤوّل بأفق دلالي جديد، على وفق خطى الإبدال والتغيير، من دون توقفه في زمن ما، بل إنه يسير على أدراج اللاّزمان.

## جدلية النحو واللسانيات في الخطاب اللساني العربي الحديث: قضايا ونماذج

د. مصطفى العادل

دكتوراه في اللسانيات العربية  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة  
جامعة محمد الأول - المغرب



### مقدمة

أسهمت مجموعة من العوامل الحضارية والسياسية والثقافية في انفتاح الحضارة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن الماضي على الحضارة الغربية. وقد كان للترجمة، وتطور وسائل التواصل، والبعثات التعليمية وغيرها، الدور الأهم في ذلك الانفتاح.

ففي مجال اللغة واللسانيات، عادت البعثات التعليمية التي تلقت تكوينها في الغرب، وفي أوروبا بالخصوص، فحملت معها الكثير من الأفكار والمناهج الجديدة لدراسة اللغات الطبيعية، وقد تعددت المشارب التي استقى منها الطلاب الباحثون، لتعدد المدارس اللغوية التي تكونوا فيها، مما أسهم في إثراء الدرس اللغوي الحديث، وطبعه بخصيتين على الأقل، هما التعدد والتنوع.

كان (علي عبد الواحد وافي) من أوائل اللغويين العرب الذين نقلوا المناهج الغربية في دراسة اللغات، من خلال كتابه (في علم اللغة 1941)<sup>1</sup>، وغلبت على دراستهم مناهج البنيويين الوصفيين، فقادوا ثورة على المناهج القديمة، وتنوعت مشاربهم، وتباينت اتجاهات التجديد عندهم.

وفي الربع الأخير من القرن الماضي، عاد الطلاب المغاربة من الجامعات الأوروبية، الفرنسية بالخصوص، حاملين معهم لواء التجديد في الدرس اللساني؛ إذ انفتح معظم المغاربة على المدارس اللسانية الحديثة، وخاصة اللسانيات التوليدية والوظيفية والتداولية.

اضطرّ الباحثون الشباب إلى التصريح بمواقفهم من التراث اللغوي والنحو العربي في ضوء ما جاؤوا به من أفكار ومناهج جديدة، فتباينت مواقفهم من التراث، واختلفت نظرتهم إلى النحو

<sup>1</sup> دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1945 م.



العربي، بل كانت جدلية الصراع بين القديم والحديث من أهم الأعمدة التي قام عليها النقاش اللساني في الثقافة العربية منذ بداية عصر النهضة والتجديد.

كانت الجامعة الموطنَ الأساس لبداية اللسانيات الحديثة. وقد وجد فيها أولئك اللسانيون الشباب بعض الأستاذة، ممن لهم باع كبير من علوم العربية من قبل النحو، وفقه اللغة، والبلاغة، فاشتدّ الصراع بينهم. وإن كانت لهذا الصراع بعض الآثار السلبية الجانبية، فإنه أسهم في تحريك البحث اللغوي. ففي الوقت الذي سعى فيه الباحثون الشباب إلى توسيع أفكارهم وأطروحاتهم ليُقنعوا أهل اللغة بنجاعة نماذجهم المستوردة، اجتهد التراثيون في إثبات نجاعة الأنموذج التراثي، وأهميته، ومقدرته المنهجية والإجرائية في معالجة إشكالات اللغة العربية المعاصرة.

يسعى هذا البحث إلى إبراز محورية التراث والحديث، ومنه النحو العربي واللسانيات في النقاش اللساني الحديث، وبيان مركزية هذه الجدلية في تطور المعارف في الثقافة العربية الحديثة، وبخاصة في مجال اللسانيات. ويتأسس البحث على مجموعة من الأسئلة المنهجية منها: ما دور ثنائية الحديث والقديم، ومنها النحو العربي واللسانيات في تحريك البحث اللساني الحديث في الثقافة العربية؟ كيف تعامل اللسانيون العرب مع هذه الجدلية؟ وما حظها من مباحث النقد اللساني وقضاياها؟ ثم ما هي أهم الدراسات اللسانية التي اشتغلت بهذه القضية؟

وفي السعي لتحقيق الأهداف السابقة، والإجابة على أسئلة البحث، اخترنا تقسيم هذه الورقة إلى مقدمة وثلاثة مباحث، ثم خاتمة نجل فيها أهم الخلاصات التي توصلنا إليها.

### المبحث الأول: نقاش النحو واللسانيات في الخطاب اللساني العربي الحديث

توقّف عبده الراجحي منذ عام 1981 على دراسة علاقة النحو العربي باللسانيات في ندوة (البحث اللساني والسيميائي) بجامعة محمد الخامس<sup>1</sup>، إذ أشار إلى ريادة الباحثين المغاربة في الاطلاع على النظريات الجديدة والمناهج اللغوية الحديثة، وأهمية ذلك في تطور الدرس اللغوي العربي. ويجد القارئ آراء الراجحي حول النحو العربي واللسانيات مفصلة في كتابه (النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج)<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> عبده الراجحي، النحو العربي واللسانيات المعاصرة، ص 153-164.

<sup>2</sup> عبده الراجحي، 1979م، النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج).

حدّر عبده الراجعي من الاتجاه الذي يرفض اللسانيات مقابل التعصب للنحو العربي، ومن الاتجاه الذي يُقصي القديم ويُغليه لصالح المناهج الحديثة كذلك، يقول الراجعي: "من الخطأ أن نتصور أن عندنا نحوا عربيا نكتفي به، ونقول إن كل ما يحدث في العالم شيء غريب وليس منا ولا نقبله، لأن فيه خطرا شديدا على لغتنا أو على قرآننا أو على إسلامنا. خطر الجمود على الشيء الموروث خطر كبير، وهو خطر علمي وإنساني، لكن خطرا آخر أيضا لا يقل عنه، وهو ما يمكن أن يسمى "خطر المسخ". فمن الصعوبة جدا أن نتصور أو أن نقول إن هناك شيئا جديدا في العالم، وأنه هو الصالح لنا، وأن هذا القديم غير صالح على الإطلاق، ولذلك لا ننظر إليه، وإنما نحن نأخذ كل هذا الجديد، ويؤدي هذا إلى نوع من المسخ البشري الذي أتصوره في غاية الخطورة أيضا".<sup>1</sup> ودافع الراجعي عن الاتجاه التوفيقي الذي لا يُبخس من قيمة النحو العربي، ولا يرفض الدرس اللساني الحديث.

يعبر عبده الراجعي أهمية كبيرة للسياقات التي نضج فيها النحو العربي؛ إذ لا يُفهم النحو إلا في ضوءها، ولا يُدرس بمعزل عن الفكر أو الجو العقلي العام الذي كان موجودا في هذه الفترة -فترة نشوء العلوم الإسلامية- هذه القضية يمكن أن توصلنا -إلى حد ما- إلى طبيعة النحو العربي<sup>2</sup>؛ إذ ظل النحو العربي طيلة مراحل تطوره مرتبطا بالعلوم الإسلامية والإنسانية، التي سعت جميعها إلى هدف واحد هو فهم النص القرآني.

واعتبارا لمسألة التداخل بين العلوم والمعارف في الحضارة العربية الإسلامية ومحورية التأثير والتأثر بينها، يدعو عبده الراجعي إلى ضرورة إدراك أسس هذه المنظومة المتكاملة، وفهم منطلقاتها ومرجعياتها، وإدراك إبستمولوجي المعرفة الإسلامية<sup>3</sup>، يقول: "إن النحو العربي لا يمكن إدراكه وفهمه أو مجرد التعامل معه من مجرد الأقوال العادية أو حتى يمكن أن نستعمل كلمة السطح التي جاءت عند النحاة-ولكن لا بد أن نبحث عن الأسس الخلفية سواء كانت إبستمولوجية أو أنطولوجية وراء النحو العربي. النحو العربي إذن تكون في هذا الجو العام، في هذا الفكر الإسلامي الشامل الكامل، وتطور من داخله"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> عبده الراجعي، النحو العربي واللسانيات المعاصرة، ص 154

<sup>2</sup> نفسه، ص 155

<sup>3</sup> نفسه، ص 158

<sup>4</sup> نفسه، ص 159

يحاول الاتجاه التوفيقي في البحث اللساني الحديث الجمع بين التراث اللغوي العربي والنظريات اللسانية الحديثة، ويؤمن في المقابل بضرورة الاستفادة مما في التراث، واعتماده في التعامل مع الدرس اللساني. وقد أنبنى مشروع (المتوكل) الوظيفي على قراءة التراث اللغوي العربي مع الانفتاح والاعتماد على أحدث ما توصلت إليه النظريات اللسانية، خاصة النحو الوظيفي مع (سيمون ديك)، فاستطاع بذلك أن يقدم وصفا وتفسيرا لجملة من قضايا اللغة العربية في مستوياتها المختلفة من تركيب وتداول ومعجم.

يرى (المتوكل) بأن عقد الحوار بين الفكر اللغوي العربي القديم والنحو الوظيفي سيمكننا من تحقيق هدفين اثنين هما:

أ- إغناء النحو الوظيفي بتحليلات ومفاهيم جديدة.

ب- تقديم مجموعة من الأوصاف المقترحة في النحو العربي أو البلاغة العربية.

يتجاوز هدف المتوكل الوقوف على إشكالية تغييب التراث والسعي إلى قراءة اللغة العربية قراءة لسانية، إلى تطعيم النحو الوظيفي وإغنائه بمعطيات وقضايا من خلال الغوص في قضايا اللغويات العربية. ومن ثم فإن (المتوكل) يستمد آراءه من التراث اللغوي العربي باعتباره الأصل لنظرية النحو الوظيفي الحديث، دون حدوث أية قطيعة معرفية بينهما.

ولم يسلك (المتوكل) نهج كثير من اللسانيين العرب المحدثين في تعاملهم مع التراث اللغوي العربي، بل إن البحث اللساني في تصوره لا ينبغي أن يُحدث قطيعة مع التراث اللغوي العربي في تناول القضايا اللسانية الحديثة. وعلى هذا الأساس فإنه ينبغي أن ينظر إلى التراث على أنه حقبة تاريخية لفكر وظيفي يشكل امتدادا للدراسة اللسانية الحديثة، وإما أن يكون مرجعا للدرس اللساني الوظيفي الحديث يحتج به عند الحاجة، فاستطاع بذلك أن يقدم "مثالا ملموسا لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين النحو العربي - والفكر اللغوي العربي بوجه عام - والنظريات اللسانية الحديثة، وشاهدا على إمكان مد الجسور بينه وبين نظرية لسانية بعينها، نظرية النحو الوظيفي في أحدث نماذجها، مما يتيح المقارنة الممنهجة بين تناول النحاة لعدد من الظواهر، مقارنة يمكن الخروج منها بمقاربة موحدة واحدة تكفل وصف وتفسير لا تلك الظواهر فحسب، بل غيرها كذلك في لغات أخرى قد تنامطها، وقد تنتهي إلى نمط غير نمطها<sup>1</sup>.

1 المتوكل أحمد، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، ص 5.

لقد اقترح (المتوكل) لقراءة التراث "أن ننزع المفاهيم المعتمدة في علوم اللغة العربية إلى التوحد وإن تعددت هذه العلوم، وإلى تشكيل إطار نظري يخلف الدراسات النحوية والبلاغية والأصولية والتفسيرية على حد سواء، وتطمح هذه المنهجية إلى تمكين قارئ التراث من تلافي مزلقين: "منزلق القطيعة" و"منزلق الإسقاط"<sup>1</sup>. والحق أن البحث اللساني في الثقافة العربية يعاني إلى حد كبير، هاذين المنزلقين. ففي الوقت الذي يشكك فيه التراثيون في كل ما هو جديد عملا بمقولة: (لم يترك الأول للآخر شيئاً). يحدث الحداثيون قطيعة كاملة مع الدرس اللغوي العربي بالانسياق وراء النظريات اللسانية الحديثة، دون أن يعوا بحقيقة التراكم المعرفي واستفادة اللاحق من السابق.

وعلى غرار الاتجاه الذي يرى بأن الدرس اللغوي العربي لا يمكن الاستغناء عنه في خلق ثقافة لسانية بالوطن العربي، يرى الفاسي الفهري أن التراث اللغوي العربي لم يعد صالحاً اليوم في الدراسة اللسانية، مما يدعو إلى ضرورة نقد الأسس المنهجية التي يقوم عليها. وقد تعرضت مواقف الفاسي الفهري لانتقادات كثيرة بسبب نظريته السلبية لموقع الدرس اللغوي العربي القديم في اللسانيات الحديثة. والحق أن الأساس الذي ينطلق منه (الفاسي الفهري) هو ضرورة التمييز بين التراث والدرس اللساني الحديث، تمييزاً منهجياً حتى لا نقع في إشكالية الخلط بينهما، وأن العربية لم تحظ بالتجديد الذي حظيت به اللغات الأخرى، بل ما يزال القاموس هو قاموس القرن الثاني والرابع الهجري، والشيء نفسه كذلك بالنسبة للنحو وقواعد اللغة<sup>2</sup>، وهو ما يجعلنا في أمس الحاجة إلى إعادة قراءة اللغة العربية والنحو العربي وفق ما وصلت إليه اللسانيات الحديثة. وهذا الأساس ترتب عليه أحكام في حق التراث لا يمكن تجاهلها.

ولعل من أبرز هذه الأحكام، اعتقاد (الفاسي الفهري) أن الاشتغال باللغة العربية الفصحى في إطار البحث اللساني هو العائق الأكبر أمام تقدم اللسانيات بالأوطان العربية، إضافة إلى عدم الاهتمام باللهجات؛ وذلك راجع -في نظره- إلى الاكتفاء بما جاء به القدماء وعدم التجديد في المجال اللساني ومراعاة ما تتعرض له اللغة من تغير وتحول مستمرين.

إن الإشكال في تصور (الفاسي الفهري) يكمن في المادة الموصوفة؛ أي اللغة العربية الفصيحة التي لم تعد في نظره لغة اليوم، وما أدى به ذلك إلى تغير المناهج والوسائل المعتمدة في دراسة اللغة. قال (الفاسي الفهري): "أظن أن البحث في اللغة العربية الفصيحة يطرح إشكالا عميقا هو إشكال

1 المتوكل أحمد، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ص 40.

2 الفاسي الفهري عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، مقدمة الطبعة.

المادة اللغوية أو المعطيات التي يقوم بها اللغوي، ومع كامل الاستغراب، لا نجد أحدا يطرح هذا المشكل في عمقه (...)، ومشكل المعطيات جر عليهم مشكل المنهج، فاستعمالهم لمعطيات القدماء، نظرا لما هناك من علاقة بين الأصول التي وضعوها وبين المواد التي وصفتها هذه الأصول، مع أنه لا ضرورة منهجية ولا منطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادة معينة<sup>1</sup>. وواصل (الفاسي الفهري) دراسته النقدية إلى القول بأن اللغة العربية التي نتكلمها اليوم ليست هي اللغة التي وصفها (سيبويه)، ومن ثم فإننا في حاجة إلى قواعد أخرى ونحو جديد للغة العربية الجديدة.

وبالرغم من أهمية الدراسة الابدستيمولوجية التي قدمها (الفاسي الفهري)، إلا أنه يصعب التسليم بمجموعة من القضايا التي صرح بها، خاصة في إشكالية العلاقة بين اللسانيات والتراث اللغوي العربي، إذ "لا مناص لمن يريد أن يقف من القواعد موقف المدرك لما تستند إليه من مبادئ ومصادرات لا موقف المطبق تطبيقا آليا، من التوسع في المعارف النحوية ومعاشرة كتب التراث والبحث فيها عن مؤشرات التناسق بين المعطيات والأحكام"<sup>2</sup>.

توقف مصطفى غلفان في دراساته النقدية للخطاب اللساني العربي على هذه الجدلية بالكثير من التفصيل، وذهب إلى أنه تقابل في الكثير من الأحيان لا يقوم على سند علمي، يقول: "بسبب علاقة ملتبسة أقيمت بينها وبين النحو العربي، وأصبح العديد من الدارسين والمهتمين ينظرون إلى اللسانيات من خلال النحو العربي، وينظرون إلى النحو العربي من خلال اللسانيات، لقد ظهر في الثقافة العربية تقابل بين النحو واللسانيات، تقابل لا يقوم على أي سند منهجي أو نظري محدد وواضح"<sup>3</sup>. ورأى غلفان أن مواقف الباحثين بشأنها "تتوزع على المواقف التالية"<sup>4</sup>:

- الاكتفاء بالدعوة إلى الاطلاع على اللسانيات من حيث إنها مبادئ عامة وأصول نظرية ومنهجية جديدة تسهم في معالجة قضايا اللغة العربية.
- الاستعانة باللسانيات إما لفهم التراث اللغوي العربي عامة واللغوي منه على وجه الخصوص أو لتجديد التعامل مع قضايا نحو اللغة العربية.
- التطبيق الحر في اللسانيات بالسعي إلى وضع أنحاء بديلة للمنظومة النحوية القديمة".

1 الفاسي الفهري عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، ص 52.

2 المهيري عبد القادر، نظرات في التراث اللغوي العربي، ص 6.

3 مصطفى غلفان، اللسانيات العربية - أسئلة المنهج، ص 132.

4 نفسه، ص 137.

وانتقد غلفان وضع اللسانيات والنحو العربي، والعلاقة بينهما في التدريس الجامعي، يقول: "لم يُغيّر تدريس اللسانيات في جامعاتنا شيئاً من واقع تدريس النحو العربي وقضايا اللغة العربية جملة وتفصيلاً (...) الفكر النظري في واد، والعمل التطبيقي في واد آخر، والحديث عن اللسانيات شيء والحديث عن قواعد النحو العربي شيء آخر واستعمال اللغة العربية شيء ثالث"<sup>1</sup>. مرجعاً أسباب تلك الإشكالات إلى المهتمين والمتخصصين أنفسهم؛ إذ "إن العديد من المهتمين بشأن اللسانيات في الثقافة العربية وتدريسها في رحاب الجامعات والمعاهد العليا يتحملون مسؤولية هذا الوضع الملتبس، بل والمتوتر أحياناً بين النحو العربي واللسانيات، بسبب غياب التوضيحات المنهجية التي كان يتعين تقديمها للقارئ العربي بتدرج مدروس، عوض الخوض منذ البداية في قضايا لسانية نظرية مجردة دون إعداد أولي للخلفيات الفكرية المناسبة لهذه القضايا، على الرغم مما لهذه القضايا من أهمية عامة في الثقافة العربية"<sup>2</sup>.

تبقى النهضة اللسانية المنشودة -في نظر غلفان- مرهونة بالتفاعل الإيجابي بين النحو العربي واللسانيات الحديثة في خدمة اللسان العربي؛ إذ يظل النحو العربي أحوج إلى اللسانيات حتى ينتعش ويتجدد، وتبقى اللسانيات في أمس الحاجة للنحو العربي حتى تستحضر الواقع اللغوي العربي وتعاينه ليلعباً مع دورهما في تطور واقع الإنسان العربي بعيداً عن اللغظ في قضايا مفتعلة مثل: المواجهة بين القديم والجديد، واجترار التحاليل"<sup>3</sup>.

واستطاع عبد السلام المسدي أن يقدم نموذجاً لسانياً راقياً في قراءة التراث اللغوي العربي، مؤمناً بأن قراءته من الضرورات العلمية لإدراك أسرار العلم اللساني الحديث من جهة، وتقييم التفكير التاريخي في الظاهرة اللغوية بمنظور حديث من جهة أخرى، ويؤكد المسدي أن الفكر اللساني الغربي الحديث استطاع قراءة تراثه اللاتيني نافذاً من خلاله إلى التراث اليوناني أحياناً<sup>4</sup>. وينطلق المسدي من حقيقة مفادها أن نظر الغرب وتفكيرهم في اللغة ونظامها وقديسيها ومراتب إعجازها أفضى بهم إلى درس شمولي كوني للغة، وقادهم إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخراً بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> نفسه، ص 173.

<sup>2</sup> نفسه، ص 131.

<sup>3</sup> نفسه، ص 181.

<sup>4</sup> عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 14

<sup>5</sup> مصطفى غلفان، اللسانيات العربية -أسئلة المنهج، ص 26

وألف عبد الله الجهاد كتابه (النحو العربي واللسانيات: تقاطع أم توازن)، محاولاً إبراز مميزات كل منهما. بدأ في الباب الأول بالمبادئ الأساس التي يقوم عليها النحو العربي، كالسماع، والقياس، والعلة، والاستصحاب، ونظرية العامل؛ ذلك أن نقد المحدثين -في نظر الكاتب- انصبَّ على هذه المبادئ الأصول. واهتمَّ في الباب الثاني على علاقة النحو العربي ببعض الاتجاهات اللسانية الحديثة منها الاتجاه التقليدي، والاتجاه الوصفي، والاتجاه التوليدي.

وتعدّ دراسة عبد الله الجهاد من أهم الدراسات التي تصدّت لجذلية النحو العربي واللسانيات الحديثة، وتميزت بطابعها النقدي؛ إذ لم يقتصر الجهاد على عرض خصوصيات النحو العربي واللسانيات، وإنما سعى إلى تتبع أهم انتقادات اللسانيين الوصفيين والتوليديين للنحو العربي، مشيراً إلى عدد من المزالق التي وقعوا فيها. ومما خلص إليه الجهاد، ضرورة مراعاة الخلفيات والمرجعيات الخاصة بالنحو العربي في عملية نقده، يقول: "بيّنا في أماكن كثيرة أن نقد النحو العربي يجب أن ينطلق من المبادئ والمعتقدات الفكرية التي يتبناها النحاة العرب، فالحكم عليه بمعتقدات خارجة عنه يعدّ تجنّباً عليه، فالنحوي عربي، مسلم، حافظ للقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والشعر العربي القديم، وفقهه في البلاغة، والعروض، والتفسير، مسائر للاتجاهات العقدية والفقهية في عهده، ملم بتوجهات السلطة العقدية والثقافية... فكل باحث في التراث العربي الإسلامي يجب ألا تغيب عن ذهنه هذه المعطيات"<sup>1</sup>.

وصدر عن مركز تكوين نفسه كتاب جماعي، شارك فيه أحمد بن جار الله الزهراني ببحث موسوم بـ(التجديد النحوي عند المحدثين: قراءة في المنطلق والمنهج). وقد تتبع فيه الباحث أهم اتجاهات تجديد النحو العربي، وتوقف على أهم مزالقها وأهم منطلقات المحدثين وعوامل التجديد ومقاصده.

وتوقف الكاتب على دور التغريب في التجديد النحوي عند الوصفيين واللسانيين المحدثين الرافضين لمعطيات النحو العربي. ومما خلص إليه قوله: "حركات التجديد هدمت وعجزت عن تقديم البديل، وحاسبت الموروث بمعطيات المناهج الحديثة، واكتفت بالتشكيك في العلوم العربية، وتبنّت المنهج التوفيقي لتساهم في مشروع نهاية التاريخ بالتوجه إلى نقض البناء من الداخل وتكوين جيل بلا هوية مشكك في مسلماته ليسهل تراجعه وتنأزله عنها في مجال حوار الثقافات"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> عبد الله الجهاد، النحو العربي واللسانيات: تقاطع أم توازن، ص 391

<sup>2</sup> أحمد بن جار الله الزهراني، التجديد النحوي عند المحدثين: قراءة في المنطلقات والمنهج، ص 54.

وصدر لمؤيد آل صوينت كتابه (لسانيون ومجسّسات التلقي)<sup>1</sup>، ليسهم بدوره في تيار المراجعة اللسانية والنقد اللساني للعديد من الأعمال التي مثّلت حركة البحث اللساني في الثقافة العربية الحديثة، وسعى الكاتب إلى تسجيل الطروحات وفحص الأفكار اللسانية التي بثها بعض اللسانيين في الثقافة العربية الحديثة، ممن لهم باع كبير في البحث اللساني، سواء من حيث تقديمهم، أو تبنيهم، أو من حيث رفضهم، أو قبولهم للطروحات اللسانية.

ونشر حسين السوداني بحثاً موسوماً بـ(النحو واللسانيات في وعي الباحث العربي)، منطلقاً من جدلية النحو العربي واللسانيات الحديثة، يقول: "يجد الباحث العربي نفسه اليوم بين مكنزين معرفيين؛ أحدهما التراث اللغوي العربي، وهو تراث يرتبط فيه اللغوي بالديني ارتباطاً وثيقاً، والثاني هو المنجز اللساني الحديث بكل تفرعاته وخلفياته. وازاء هذه الثنائية يتخذ الباحث موضعاً قلقاً بين تراث لغوي أثري ما استقر من التراث الإنساني، وبين العلم اللساني الذي يتمثله الباحث العربي قريناً للحدثانية"<sup>2</sup>. وتوقف السوداني على اتجاهات اللغويين العرب وموقفهم من التراث اللغوي العربي، وكذا الأوهام التي تسير وعيهم بكل ما هو لساني حديث.

وبالرغم من أن هذه المقالة لا تتجاوز ثلاث صفحات في المجلة، إلا أن السوداني قدم فيها خلاصات الاتجاهات اللغوية الحديثة في محاور النحو العربي باللسانيات الحديثة، وكذا أوهام اللغويين في النظر إلى هذه القراءة، وإلى أهم الشروط الاستمولوجية الضرورية لدراسة جدلية النحو العربي واللسانيات.

يقول السوداني: "من المهم أن يعلم الباحث العربي اليوم أن اللسانيات التي يُقبل عليها بدرجة عالية من الوثوقية يحتويها سياق استمولوجي دقيق، من أبرز مكوناته أن النظرية لا تكون علمية إلا إذا كانت قابلة للدحض. أما تمثل الباحث العربي فإنه في كثير من الأحيان ينصاع لحماسه تجعله يعالج المسائل بوثوقية تُعبّر عن واقع نفسي، ولا تصدر عن تبصّر علمي عميق، لكأن الحدثانية رفض لكل قديم، أو كأنه لا علم إلا ما كان جديداً"<sup>3</sup>.

### المبحث الثاني: شروط محاور النحو العربي لللسانيات عند طه عبد الرحمن

نشر حوار مع الدكتور طه عبد الرحمن في العدد الثاني لعام 1988 من مجلة دراسات سيميائية أدبية لغوية، أجراه عدد من الباحثين هم محمد ألوزاد وحمو النقاري ومحمد الباهي

<sup>1</sup> دار كنوز المعرفة، الأردن، 2022.

<sup>2</sup> حسين السوداني، النحو واللسانيات في وعي الباحث العربي، ص 138.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 140



ومحمد العمري. نُشر الحوار في باب تكامل المعارف بعنوان اللسانيات والمنطق والفلسفة: حوار مع الدكتور طه عبد الرحمن.

تهتم إجابتنا في هذا المقام بأجوبة الدكتور طه عبد الرحمن على الأسئلة اللسانية لحمو النقاري، إذ أثار العديد من القضايا الإستمولوجية المهمة في علاقة اللسانيات الحديثة بالنحو العربي.

يرى طه عبد الرحمن أن نقاش اللسانيات والنحو العربي في الدراسات الحديثة واتخاذ مواقف معينة من أحدهما في ضوء الآخر جاء نتيجة ظهور اللسانيات الحديثة وتطور مناهجها من جهة، وتميز اللسانيات الحديثة بالجدة والتنوع من جهة أخرى. ساهمت هذه الميزات في لفت انتباه الباحثين العرب والمغاربة بشكل خاص، "فكان من الطبيعي أن يحاول بعضهم عرض جوانب من النحو العربي على محك هذه المناهج المستحدثة، وأن يسعى إلى تقويم آلياتها الإجرائية بحسبها"<sup>1</sup>. وقد تطور هذا النقاش بشكل كبير في المغرب بسبب تميز الباحثين المغاربة في مجال الدراسات اللسانية وتنوع اهتماماتهم.

يشترط طه عبد الرحمن مجموعة من الشروط في كل مشروع يهدف إلى قياس النحو العربي باللسانيات الحديثة ومناقشة العلاقة بينهما حتى يرتقي إلى مستوى المشاريع العلمية المفيدة علمياً، وهذه الشروط هي<sup>2</sup>:

- أن يحيط الباحث اللغوي اطلاعاً كافياً بالنماذج النظرية اللسانية تركيباً وتصنيفاً.
- أن يحيط بالأصول النظرية المنطقية منها والرياضيات التي قامت عليها هذه المناهج، والتي تتطلب تكويناً نظرياً في غاية المتانة والعمق.
- ألا يكتفي بالمحاكاة الآلية للنماذج اللسانية الموجودة، بل يجب أن يكون قادراً على اصطناع نماذج منه عنده مستوفية للشروط النظرية ومناهضة للنماذج المنقولة عن الغرب.

<sup>1</sup> حوار مع طه عبد الرحمن، اللسانيات، المنطق، الفلسفة (تكامل المعارف)، حاوره حمو النقاري وآخرون، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 2، شتاء 87/ربيع 1988، ص 124.

<sup>2</sup> نفسه.

- أن يكون عالماً بالنحو العربي متمرساً بأدق آلياته الوصفية والتحليلية، ومتحققاً من أسبابه التاريخية وشرائطه النظرية.

هذه الشروط الأربعة في نظر طه عبد الرحمن هي الكفيلة بإسناد العلمية لمشروع الباحث، وهي الدليل على ثقته وافادته. يقول طه: "[وإذا] لم يستجب الباحث للغوي لهذه المعايير الأربعة: الإحاطة بالمناهج اللسانية الحديثة والإحاطة بالمناهج النحوية العربية والتكوين النظري الكافي والقدرة على اصطناع النماذج منه عنده، فلا ثقة بقوله ولا بأحكامه، لا بصدد ما ينقله عن لسان الغرب، ولا بصدد ما يثبته عن لغوي العرب"<sup>1</sup>.

في نظر طه، فإن اعتماد هذه المعايير في تقويم جهود الباحثين العرب آنذاك في محاوره النحو العربي باللسانيات الحديثة وبناء المواقف من النحو والتراث العربيين أدى إلى خلاصة مفادها أن أصحاب هذه المواقف لم يكتمل عندهم تحصيل هذه الشروط، إما كلياً أو جزئياً، لا سيما أن غالبية هؤلاء من الباحثين الشباب الذين ما زالوا يتلمسون طريقهم.

لقد قدم طه عبد الرحمن موقفه من علاقة النحو العربي باللسانيات الحديثة وطبيعة التعامل التي يجب أن ينظر إليها الباحثون إلى هذه العلاقة، مدعوماً الاتجاه التوفيقي الذي لا يتعصب للنحو العربي وحده ولا يلغي أهمية الاطلاع على منجز اللسانيات الحديثة واستثماره في خدمة اللسان العربي.

وفي المقابل، رفض طه عبد الرحمن الاتجاه الذي قلل من قيمة النحو العربي ودعا إلى هدمه والاستغناء عنه لصالح اللسانيات الحديثة، وكأنه يشير بشكل ضمني إلى مواقف الباحث اللساني عبد القادر الفاسي الفهري في بداية كتابه "اللسانيات واللغة العربية". يقول طه: "وعلى هذا فالادعاء بأن النحو العربي قد نفذت طاقته التجديدية، وأنه يجب الاستغناء عنه باللسانيات الحديثة قول لا مسوغ له، فضلاً عن أن صاحب هذه الدعوى يغفل حقيقة أساسية: وهي أن المقدار النظري والمنهجي الذي كان للنحاة العرب القدامى يفوق بكثير مقدار اللغويين العرب المحدثين، على الرغم من طول المدة بيننا وبينهم، وعلى الرغم من استحداث آليات وتقنيات متعددة في الدرس اللغوي خلال هذه الأمد الطويل"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> حوار مع طه عبد الرحمن، اللسانيات، المنطق، الفلسفة (تكامل المعارف)، حاوره حمو النقاري وآخرون، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 2، شتاء 87/ربيع 1988، ص 124.

<sup>2</sup> نفسه.

ثم يقلل طه عبد الرحمن من أهمية الادعاء المقابل الذي يرفض اللسانيات ويدعو إلى الاكتفاء بالنحو العربي وحده. يوافق على هذا الاتجاه إذا كان هدفه "ضرورة اجتنب تسليط أساليب اللسانيات الغربية على النحو العربي والتطبيق الأعمال المنهج المستحدثة عليه والخروج منها بأحكام عامة وجازمة على التراث النحوي اللغوي"<sup>1</sup>. ومع ذلك، يفقد هذا الادعاء أهميته إذا تحول من هذا الهدف إلى الدعوة إلى الوقوف عند "حدود ما وضعه النحويون القدامى مع استبعاد كل تكوين في اللسانيات الحديثة والتطلع إلى معرفة مناهجها.

يرى طه أن هذا الادعاء يترتب عنه آثار سلبية تضر بالنحو العربي ولا تخدمه. هذه الآثار هي<sup>2</sup>:

- أن النحو العربي لا يُنصَر بإنكار اللسانيات الحديثة. قد لا يحصل من هذا الإنكار إلا ازدياد سوء التقدير للنحو العربي وموقف وجوده وقيمته على مثل هذا الإنكار.
- إن الإبعاد الكلي للمناهج اللغوية الحديثة قد يفوت على الباحث العربي فرصة اكتساب تكوين منهجي ونظري يؤهله لتجديد اعتبار للنحو العربي ببيان وجود كفاية هذا النحو الوصفية والتعليلية والتعلمية أكثر مما لو بقي يقلب وجوها من هذا النحو من غير هذا التكوين النظري.
- إن عدم إحاطة الباحث المناصر للتراث النحوي بإمكانات اللسانيات وحدودها يجعله غير قادر على رد التحامل على النحو العربي من لدن الخصم وعاجز عن تحصيل التصديق والثقة في كلامه لدى جمهور الباحثين والمهتمين، ولا سيما أن للخصم امتياز الجديد عليه؛ حيث إن الجديد: لسانيات أو غيرها، أقوى إغراء وأفتن للنفس من القديم وإن كان النحو العربي.

استناداً إلى ما سبق، يشترط طه عبد الرحمن جملةً من الشروط الضرورية من أجل أن يشرع الباحث في خوض غمار البحث في العلاقة القائمة بين اللسانيات الحديثة واللغويات العربية القديمة، وبخاصة النحو العربي. هذه الشروط تقتضي اطلاع الباحث على اللسانيات الحديثة من حيث تاريخها ومرجعياتها وتطور نماذجها اطلاعاً دقيقاً، مع الدراية الكبيرة بالنحو العربي كذلك من حيث نشأته والمعرفة العميقة بسياقات تطوره ونضجه في سياق تطور المعرفة عامة في

<sup>1</sup> نفسه، ص 124-125.

<sup>2</sup> نفسه، ص 125.

الحضارة العربية الإسلامية. وهو ما يستدعي بالضرورة النظر إلى النحو العربي باعتباره جزءاً من منظومة متكاملة تتداخل فيها مختلف العلوم والمعارف من جهة، والنظر إلى تلك العلوم باعتبارها مصادر مهمة من مصادر النحو العربي من جهة أخرى. إذ يتجاوز النحو العربي كتب اللغويين والنحاة ليعانق فضاءات أرحب في مباحث الفقه والأصول والتفسير والقراءات، والفلسفة والمنطق، وغيرها.

لقد دافع طه عبد الرحمن على الاتجاه التوفيقي في قراءة التراث ومنه محاورة النحو العربي للسانيات الحديثة. إذ لا تلغي اللسانيات النحو العربي، ولا يغني الفكر النحوي العربي عن الاطلاع على اللسانيات الحديثة والاستفادة من نماذجها ونظرياتها في خدمة اللسان العربي والحضارة الإسلامية. لكن هذا التوفيق في نظر طه له معايير دقيقة وشروط صارمة لا تتوافق مع أي باحث لغوي.

#### المبحث الثالث: خصوصيات كل من النحو العربي واللسانيات عند عبد الرحمن بودرع

يعد الدكتور عبد الرحمن بودرع من اللسانيين المغاربة الكبار الذين استطاعوا الجمع بين الفكر اللغوي العربي واللسانيات الحديثة؛ وذلك من خلال الاستيعاب الدقيق للمنطقات الفكرية والأسس المعرفية للفكرين معاً، مما أهله إلى وضع أسس معرفية متينة لقراءة اللغويات القديمة عربية وغربية، واللسانيات الحديثة، دون الوقوع في الإشكالات المنهجية والنظرية والتصورية التي لازمت عدداً كبيراً من الدراسات اللسانية في الثقافة العربية.

يستعرض بودرع تاريخ علوم العربية، مناقشاً أفكار اللغويين، وهو تاريخ تجلّى بشكل واضح في مرحلتين: مرحلة الجمع والرواية عن العرب، ومرحلة استخراج القواعد والضوابط، وعلاقة ذلك بعلوم الحضارة الإسلامية؛ حيث اعتبرت علوم العربية من علوم الآلة التي يتوسل بها إلى علوم الشريعة.

وقد اعتمد بودرع منهجاً إبستمولوجياً نقدياً في قراءة العلوم اللغوية العربية وقراءة تاريخ نشأتها وسياقها وعلاقاتها بباقي العلوم والمعارف في الحضارة الإسلامية، ولا يكتفي بعرض الآراء المختلفة والمتعددة في مسألة النشأة والرواد والقضايا والمصادر المؤسسة، بل يناقشها ويدعم ما يراه صائباً منها.

بدأ بودرع في محاضراته<sup>1</sup> بعلم النحو، فعلم الصرف، فعلم الأصوات، فالمعاجم فالبلاغة، ثم فقه اللغة، ودرس بعض القضايا في كل علم، كما أشار إلى أبرز التعريفات التي قدمت في شأن هذه العلوم وتاريخ نشأتها وأبرز أعلامها وتأليفهم.

ميّز بودرع بين العلوم اللغوية العربية واللسانيات الحديثة، ورأى أن علوم العربية محصورة في دراسة اللغة العربية وحدها، واستخراج قواعدها وبيان أنساقها، مقراً بأهمية تلك الدراسات وقيمتها العلمية ودقتها المنهجية، إذ تبين له أنها "بلغت من الدقة في المنهج والعمق في النظر والتفصيل في البحث ما جعلها قابلة لأن تقف في مصاف اللغويات العالمية اليوم، وأن تقارن بكثير من النظريات اللسانية الحديثة"<sup>2</sup>، وقال: "العلماء العرب القدماء قدموا مادة علمية ضخمة في ميدان علم اللغة، ولكن هذه المادة تحتاج إلى إعادة الصياغة وفق مبادئ اللسانيات الحديثة، وشروطها في التنظير والنمذجة، ويبدو أن كثيراً من الباحثين اللسانيين العرب يبذلون جهوداً منهجية لقراءة التراث اللغوي وإعادة تركيبه وفق التصورات اللسانية"<sup>3</sup>.

يركز بودرع في قراءته للدراسات اللغوية العربية على مبدأ التكامل المعرفي والتداخل بين العلوم والمعارف، ويرى أن نشأة العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، ومنها علوم اللغة، لم تكن منفصلة عن بعضها، وهو ما يستدعي بالضرورة التماس المنهج التكاملي في قراءتها ودراسة قضاياها، وأن أخذ المعارف المتعددة شرط في تكوين العارف وتأهيله (...) وهذه قاعدة أساس ينبغي أن ينطلق منها في الحديث عن منهج قراءة التراث اللغوي العربي<sup>4</sup>.

ولمناقشة مسألة الاتصال والانفصال بين اللسانيات والنحو العربي في تصور عبد الرحمن بودرع، نشير إلى هذه العلاقة من جوانب عدة، منها: خلفيات ومنطلقات وموضوع ومنهج كل من النحو واللسانيات الحديثة.

**أولاً- النحو واللسانيات الحديثة: الخلفيات والمنطلقات:** هناك اختلاف في المنطلقات والأسس والخلفيات التي أسهمت في ظهور النحو القديم واللسانيات الحديثة. فإذا "كانت للأبناء القديمة منطلقات دينية وأهداف إصلاحية، فإن منطلقات اللسانيات الحديثة-بالنظر إلى

1 ينظر: محاضرات عبد الرحمن بودرع، مدخل إلى اللسانيات، ضمن دبلوم اللغة والتواصل والترجمة، أكاديمية نماء للعلوم الإسلامية والإنسانية.

2 عبد الرحمن بودرع، في اللسانيات واللغة العربية: قضايا ونماذج، ص 17.

3 نفسه، ص ص 27-28.

4 عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، ص 389.

جذورها المعرفية التي كانت تستقي منها-منطلقات مخالفة لذلك، فإذا تعمقنا في النظر في أصولها وجدناها قد قطعت أشواطاً لا تماثل الأشواط التي قطعها الأنحاء القديمة، فقد كانت دراسة اللسانيات الحديثة في أساسها دراسة للغات الدول أو الأمم أو الشعوب التي سينظم ضدها الغزو أو الاحتلال أو الاستعمار بشتى أشكاله بحيث يتم التخطيط لذلك مسبقاً بإرسال البعثات التبشيرية والاستشراقية<sup>1</sup>، ثم إن الدافع الذي أدى بالنحوي العربي إلى إنتاج رسالته هو دافع ديني أساساً، يتمثل في الحفاظ على لغة القرآن من أن يتسرب إلى القرآن والحديث والدين شيء من اللحن أو التصحيف، إضافة إلى الهدف التعليمي والتربوي، عكس الدافع الذي أدى إلى إنتاج اللسانيات حيث كان مادياً استعماريًا في البداية وتطور ليصبح في النهاية مادياً مرة أخرى بالنظر إلى المصالح التي يخدمها اليوم<sup>2</sup>.

ثم إن النحو العربي نشأ في أحضان العلوم الإسلامية، ضمن منظومة متكاملة. فتداخل مع العلوم الإسلامية، مستفيداً منها وخادماً لها، بينما نشأت اللسانيات الحديثة في الثقافة الغربية مستفيدة من الفكر اللغوي اللاتيني واليوناني، ولا شك أن هذا الاختلاف له دور في صياغة كل منها، اعتباراً للحمولة الحضارية والمعرفية والفكرية التي تجرّها المفاهيم والمصطلحات.

ثانياً- النحو واللسانيات الحديثة: الموضوع والمنهج: أما من ناحية الموضوع فقد تميز علم اللسانيات عن الدراسات اللغوية القديمة والنحو القديم من جانبين، هما<sup>3</sup>:

- انتقاله من دراسة اللغة وظواهرها والتفصيل لها، إلى دراسة الآليات التي تولّد البنّيات اللغوية والقواعد التي تنتجها.

- انتقاله من الاهتمام بلغة خاصة من اللغات البشرية المعروفة إلى الاهتمام بنظرية اللغة الإنسانية عامة بغض النظر عن الأنماط والأنواع.

ينضاف إلى ذلك أن اللسانيات تهتم ب<sup>4</sup>:

- دراسة جميع اللغات سواء كانت مكتوبة أو منطوقة فقط.

<sup>1</sup> نور الدين رايص، الأنحاء القديمة واللسانيات الحديثة، ص 41-42.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 44.

<sup>3</sup> بودرع عبد الرحمن، في اللسانيات واللغة العربية: قضايا ونماذج، ص 16.

<sup>4</sup> شنوقة السعيد، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث-القاهرة 2008، ص 9.

- دراسة اللغات المتداولة الحية واللغات الميتة التي لم تعد مستعملة أو التي هي في طريق الاندثار.

- عدم تمييزها بين لغة وأخرى أو لهجة وأخرى، "إذ لا فضل للغة على لغة إلا بما يسندها ويدعمها من خارجها، وتفاضل اللغات أمر راجع إلى أسباب خارجية عن اللغة، كتقدم المجتمع، وإسناد اللغة إلى خلفية حضارية وثقافية واسعة، يتسع لها معجم اللغة وبنياتها"<sup>1</sup>.

إن اللسانيات - حسب (ماييه) Meillet - تحمل "تجديدا كاملا للمناهج والأفكار: فهي تضيف إلى الوقائع التاريخية الخاصة منظومة شاملة، أي نسقا"<sup>2</sup>؛ بمعنى آخر أنها "استفادت من السياق المعرفي المستفيض ومن المعارف الإنسانية والعلوم الدقيقة من قبيل علم الحاسوب والإعلاميات، وهو ما لم يكن متاحا للدرس اللغوي العربي القديم"<sup>3</sup>؛ مما ساعد علم اللسانيات في الانطلاق من دراسة اللغة دراسة منهجية علمية شاملة، متجاوزة الدراسات اللغوية القديمة التي ركزت إما على جوانب جزئية في اللغة، وإما بدراستها في علاقتها مع باقي العلوم والتخصصات الأخرى. وفي معظم الأحيان لأغراض دينية وفلسفية بعيدة عن العلمية.

لقد ميز (غلغان) بدوره بين اللسانيات والدراسات اللغوية القديمة في ثلاث نقاط، هي:<sup>4</sup>

- الفكر اللساني المعاصر فكر أكثر شمولية من نظيره القديم.
- الفكر اللساني المعاصر مراجعة دائمة ومستمرة للمفاهيم والأدوات القديمة.
- الفكر اللساني المعاصر أكثر تفتحا على معارف أخرى وعلوم دقيقة، مما مكنه من فرض نفسه في إطار العلوم الإنسانية، نظرية ومنهج لا يستهان بهما.

وفي المقابل فإن اللسانيات "تشترك مع الأنحاء قديمها وحديثها في وصف اللغات، وتختلف بعد ذلك في كفاءات هذا الوصف وحدوده ومجاله والهدف منه، والأنحاء في هذا المستوى-هي إجابات ممكنة عن سؤال جوهري يتعلق بتحديد القواعد والمبادئ التي تتكلم المجموعات طبقا لها، وتستعملها في فهم كلامها... وإذا اختلف اللسانيون المحدثون عن النحاة القدماء في تفسير أو

1 بودرع عبد الرحمن، في اللسانيات واللغة العربية: قضايا ونماذج، ص ص 26-27.

2 Meillet. A. linguistique historique et linguistique général, Genève : Slakine Paris, 1982. P: 15

نقلا عن ماري أن بافو وجورج إلبا سرباتي، النظريات اللسانية الكبرى، ص 96.

<sup>3</sup> بودرع عبد الرحمن، في اللسانيات واللغة العربية: قضايا ونماذج، ص 17.

<sup>4</sup> غلغان مصطفى، في اللسانيات العامة، ص 184.

تعليل مثل هذه الظواهر، فإنهم-في هذا المستوى-يتقاسمون نفس الاهتمام، ويشترون في بلوغ نفس الهدف"<sup>1</sup>.

وتتفق اللسانيات الحديثة مع النحو العربي، في نظر الحاج صالح<sup>2</sup>، في أن العِلْمين معا لهما موضوع واحد، هو اللغة في ذاتها، وينطلقان معا من اللغة بوصفها ظاهرة، ويذهبان معا إلى دور اللغة التخاطبي وقضاياها وظواهرها. في حين يرى أن النحو يختلف عن البنيوية في قضايا، منها المعيارية والوصفية؛ حيث تعتمد اللسانيات البنيوية منهجا وصفيا، في حين تعتمد الدراسات النحوية القديمة على المنهج المعياري.

ومهما يكن الاختلاف والاتفاق بين اللسانيات الحديثة والتراث النحوي العربي، فإن اللسانيات باعتبارها علما يختص بدراسة الألسن الطبيعية نظريا وتطبيقيا، والعربية كبقية الألسن البشرية الأخرى، من حقها أن تستفيد من جهود البحث اللغوي الحديث، بل هي مدعوة لذلك بكل إلحاح، رغبة في تطويرها وتنميتها وتيسير الصعب المعقد من قواعدها والتغلب على مشاكل معجمها<sup>3</sup>.

## خاتمة:

تعتبر قضية الأصالة والمعاصرة من أبرز القضايا التي شغلت العلماء والباحثين في الثقافة العربية الحديثة باختلاف منطلقاتهم الفكرية والمعرفية، وتعدد الحقول والمرجعيات التي ينطلق كل واحد منها، فجذلية الأصالة والمعاصرة أو القديم والحديث ليست قضية لغوية ولسانية أساسا، وإنما عبرت إلى الحقل اللساني من حقول أخرى منها الفكر الإسلامي والأدب والشعر.

والحديث عن جدلية القديم والحديث هو انعكاس لنوعين مختلفين من الباحثين، نوع محافظ يرى فيما تركه الأقدمون المثل الذي يقتدى به ويقاس عليه، ونوع منفتح يرى أن الأمم الأخرى تقدمت انطلاقا مما تملكه من فكر حديث ومناهج جديدة، وربما يذهب أبعد من ذلك فيقول إن سبب تقدمها جاء مما أحدثته من قطيعة معرفية وابستمولوجية مع ماضها ومنتجات أجدادها وأسلافها. وبين السلفية التي لا ترى الخير إلا في التراث والقديم والحداثية التي تنظر إلى

<sup>1</sup> عز الدين البوشيخي، أعمال ندوة: المنحى الوظيفي في اللسانيات العربية وآفاقه، ص ص 19-20.

<sup>2</sup> الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات، ص ص 23-43.

<sup>3</sup> عبد العلي الودغيري، من حق العربية أن تستفيد من جهود البحث اللساني الحديث، ص 173.



التراث باعتباره عاملاً للتخلف والجمود، ينشأ خطاب القديم والحديث في الحقول المعرفية المختلفة، فيبدأ الصراع بين التصورين، ويسعى كلا الفريقين إلى إثبات صواب موقفه وتوجيهه.

وبما أن البلاد العربية استفاقت من الناحية اللغوية في القرن الماضي بعد قرون من الجمود بالانفتاح على الدرس اللساني الحديث بالدول الأوروبية والأمريكية، فقد ظهر هذا الصراع بين الحديث والقديم في اللسانيات العربية الحديثة متجلياً في ثنائية النحو واللسانيات. فإذا كان للنحو العربي أنصاره ورواده الذين أكدوا على ضرورة العودة إلى كتب النحو القديمة في تناول مختلف الظواهر اللسانية، فللسانيات أنصارها ممن يرون في العودة إلى التراث النحوي والتقيد به في الممارسة اللسانية دون الاستعانة بالمناهج والنظريات الحديثة عملاً لا طائل منه، وبين هذا وذاك كفر البعض منهم باللسانيات كما كفر بدين الغرب لا لشيء إلا أنها ظهرت في بلادهم، ونادى البعض بالجمع بين التراث والحديث ومحاولة التوفيق بينهما في الدرس اللساني.

ترجع إشكالات العلاقة بين اللسانيات والنحو العربي في الخطاب اللساني العربي الحديث إلى العديد من المزالق المنهجية والتصورية التي وقع فيها اللسانيون العرب، وقد أدرك العديد منهم دور التوفيق بين القديم والحديث في تجاوز الإشكالات اللغوية الراهنة والبناء للمستقبل المنشود؛ مستقبل ازدهار اللسان العربي ومعه الثقافة العربية. ويحتاج الباحثون في الثقافة العربية الحديثة إلى التوقف عند جهود اللسانيين في تشخيص الأزمة، والتمعن في مقترحاتهم وتوصياتهم لتجاوز إشكالات التراث والحداثة في خطابنا اللساني المعاصر؛ أمثال: طه عبد الرحمن، وعبد المجيد، وعبد الله الجهاد، وعبد القادر الفاسي الفهري، وأحمد المتوكل، ومحمد الأوراني، وأحمد العلوي، ومصطفى غلفان، وعبد السلام المسدي، وحسين السوداني، وغيرهم كثير.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- الأوراعي محمد، لسان حضارة القرآن، دار الأمان، الرباط، ط1-2010.
- الأوراعي محمد، حاوره حافيظ إسماعيلي علوي-وليد أحمد العناتي، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات: حصيلة نصف قرن من اللسانيات في الثقافية العربية، إعداد وتقديم، دار الأمان الرباط، ط1-2009.
- الأوراعي محمد، ملف وضعية اللغة العربية في اللسانيات المغربية، ص 7، موقع نظرية اللسانيات النسبية على الرابط الآتي: <https://lissanyatnisbyah.ma/لسانيات-تطبيقية.html>
- بودرع عبد الرحمن، في اللسانيات واللغة العربية: قضايا ونماذج، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2016م،
- بودرع عبد الرحمن، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، 16/02/2013م، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الملك سعود، كرسي القرآن الكريم وعلومه.
- بودرع عبد الرحمن، محاضرات مدخل إلى اللسانيات، ضمن دبلوم اللغة والتواصل والترجمة، أكاديمية نماء للعلوم الإسلامية والإنسانية.
- البوشيخي، عز الدين أعمال ندوة: المنحى الوظيفي في اللسانيات العربية وآفاقه، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-مكناس، سلسلة الندوات 20/2009، يومي الجمعة 23 والسبت 24 نونبر 2007، شركة الطباعة مكناس برانث شوب،
- الجهاد عبد الله، النحو العربي واللسانيات: تقاطع أم تواز، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، السعودية، 2016.

- الحاج صالح عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موقف للنشر- الجزائر، 2012.
- الراجحي عبده، النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج)، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.
- الراجحي عبده، النحو العربي واللسانيات المعاصرة، ضمن كتاب البحث اللساني والسيميائي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 6 (6-7-8/1981).
- الزهراني أحمد بن جار الله، التجديد النحوي عند المحدثين: قراءة في المنطلقات والمنهج، ضمن كتاب صناعة البحث اللغوي، تحرير مقبل بن علي الدعدي، مركز تكوين للدراسات والأبحاث-السعودية
- السوداني حسين، النحو واللسانيات في وعي الباحث العربي، مجلة الدوحة، قطر، السنة الحادية عشرة-العدد 126، أبريل 2018.
- شنوقة السعيد، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث-القاهرة 2008.
- طه عبد الرحمن، اللسانيات، المنطق، الفلسفة (تكامل المعارف)، حاوره حمو النقاري وآخرون، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 2، شتاء 87/ربيع 1988.
- عبد القادر المهيري، نظرات في قراءة التراث اللغوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، بيروت لبنان.
- العلوي أحمد وآخرون، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1-1986.
- العلوي أحمد، حاوره حافيظ إسماعيلي علوي ووليد أحمد العناتي، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات: حصيلة نصف قرن من اللسانيات في الثقافية العربية، إعداد وتقديم، دار الأمان الرباط، ط1-2009.

- غلفان مصطفى، اللسانيات العربية: أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1- 2013، الأردن.
- غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة: تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى 2010م.
- الفاسي الفهري عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال للنشر، ط2، 1988، الدار البيضاء، المغرب.
- مآري أن بافو وجورج إليا سرباتي، النظريات اللسانية الكبرى، ترجمة: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة-بيروت، الطبعة الأولى 2012.
- المتوكل أحمد، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009.
- وافي علي عبد الواحد، علم اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1945م.
- الودغيري عبد العلي، من حق العربية أن تستفيد من جهود البحث اللساني الحديث، حاوره عبد القادر الإدريسي، مجلة الموقف، العدد 4، دجنبر 1987م.

## مركزية الشاهد الشعري في بناء القواعد النحوية

د. صارة اضوالي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، جهة الشرق  
المغرب



### ملخص:

تقترح هذه الورقة الاشتغال على جزئية تندرج في مبحث من مباحث علم أصول النحو، وهو مبحث أصل الشاع في ضوء قضية يُحددها العنوان الآتي: مركزية الشاهد الشعري في بناء القواعد النحوية. وفي هذا السياق، لا يخفى ما كان للشعر العربي من حضور وازن داخل المنظومة النحوية، وما حظي به من أهمية قصوى في تأسيس قواعد الفكر النحوي القديم، إلى جانب مصادر أخرى لا تقل منزلة في التأصيل للمعرفة اللغوية عموماً. ومن هنا، تقوم أهمية البحث في هذه القضية؛ لأنها تفتح الباب على مناقشة قضايا فرعية ذات علاقة بقضية الدراسة الأساس، نستلها بالوقوف عند بعض المصطلحات كالشاهد والقاعدة، ثم الحديث عن أهمية حضور الشاهد الشعري في بناء قواعد النحو، وما يستتبعه من حديث عن مسألة الضرورة الشعرية التي وجدها النحاة منفذاً في عدد من المواقف التي لا يرضخ فيها الشاهد الشعري للقاعدة النحوية، إضافة إلى موقف بعض المحدثين من اختيار القدماء الشاهد الشعري مسلكاً في بناء القاعدة النحوية، هذا مع إدراج بعض نماذج الاستشهاد بالشعر على التأصيل لقاعدة نحوية، وما واجه هذا الاستشهاد من عقبات وإشكالات. ونختم هذا المقال باتفاق البحث في هذه القضية في الدراسات اللغوية الحديثة، وما تستثيره من سبالات بحثية أخرى.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

اضوالي، صارة. (2024، أكتوبر). مركزية الشاهد الشعري في بناء القواعد النحوية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 458-479.

### Abstract:

This paper proposes to work on a section that falls within one of the topics of grammar principles, which is the study of the origins of hearing in light of an issue defined by the following title: The centrality of the poetic witness in constructing grammatical rules. In this context, it is no secret that Arabic poetry had a significant presence within the grammatical system, and the paramount importance it enjoyed in establishing the rules of ancient grammatical thought, along with other sources of no less importance in establishing linguistic knowledge in general. Hence, the importance of research into this issue. Because it opens the door to discussing sub-issues related to the main issue of the study, we begin by examining some terms such as witness and rule, then talking about the importance of the presence of poetic witness in building grammar rules. And the discussion that ensues about the issue of poetic necessity, which grammarians found to be effective in a number of situations in which the poetic evidence does not submit to the grammatical rule, in addition to the position of some modern scholars regarding the ancients choosing the poetic evidence as a path in constructing the grammatical rule, this is with the inclusion of some examples of citing poetry based on rooting. For a grammatical rule, and the obstacles and problems this citation faced. We conclude this article with the prospects for research into this issue in modern linguistic studies, and the other research debates it raises.

**Keywords :** Variation. Quranic readings. linguistic aspects. meanings.

## مقدمة

تعددت بواعث وضع علم النحو العربي وتنوّعت، غير أن الباعث الذي فرض نفسه بقوة، وحضّ علماء اللغة على ضرورة دراسة اللغة وسنّ قواعد العربية والإلمام بأحوالها وخصائصها، هو الباعث الديني؛ إذ إن خوف العرب على نص القرآن الكريم من التحريف واللحن الذي كان قد أخذ ينتشر بين العامة والخاصة في فترة مبكرة، ورغبتهم في أدائه أداءً صحيحاً بعيداً عن أي خطأ يقتحمه سواء في النطق أم في الفهم، دفعهم إلى البحث عمّا يحفظُ اللسان العربي وقرآنه من كل شائبة.

وبغية بناء المعرفة النحوية بناءً صحيحاً يقوم على أسس وضوابط لا تدع مجالاً للشك فيها، استأنس النحاة بعدد من الأصول التي تعدّ أعمدة للاحتجاج اللغوي عامة، والاحتجاج النحوي خاصة، هذه الأصول هي: السماع والقياس والإجماع واستصحاب الحال.

وتقترح هذه الورقة الاشتغال على جزئية تندرج في أصل من هذه الأصول، وهو أصل السماع في ضوء قضية يُحددها العنوان الآتي: مركزية الشاهد الشعري في بناء القواعد النحوية. وفي هذا السياق، لا يخفى ما كان للشعر العربي من حضور وازن داخل المنظومة النحوية، وما حظي به من أهمية قصوى في تأسيس قواعد الفكر النحوي القديم، إلى جانب مصادر أخرى لا تقل منزلة في التأصيل للمعرفة اللغوية عموماً. ومن هنا، تقوم أهمية البحث في هذه القضية؛ لأنها تفتح الباب على مناقشة قضايا فرعية ذات علاقة بقضية الدراسة الأساس، نستلهاً بالوقوف عند بعض المصطلحات كالشاهد والقاعدة، ثم الحديث عن أهمية حضور الشاهد الشعري في بناء قواعد النحو، وما يستتبعه من حديث عن مسألة الضرورة الشعرية التي وجدها النحاة منفذاً في عدد من المواقف التي لا يرضخ فيها الشاهد الشعري للقاعدة النحوية، إضافة إلى موقف بعض المحدثين من اختيار القدماء الشاهد الشعري مسلوكاً في بناء القاعدة النحوية، هذا مع إدراج بعض نماذج الاستشهاد بالشعر على التأصيل لقاعدة نحوية، وما واجه هذا الاستشهاد من عقبات وإشكالات. ونختم هذا المقال بأفاق البحث في هذه القضية في الدراسات اللغوية الحديثة، وما تستثيره من سجلات بحثية أخرى.

## تمهيد:

احتفى العرب قديماً بالشعر، كيف لا؟ وهو الذي وُصف بأنه ديوانها، ومجمع أفكارها، وذاكرة عاداتها، وخزان ذكرياتها. ومعلوم، بالضرورة، أن الإعلاء من قيمة الشعر هو إعلاء، في

الوقت ذاته، لمنزلة الشاعر وتعظيم لشأنه. ونص ابن رشيق (456هـ)، في هذا المقام، يغنيننا عن كل قول، فقد قال في (عمدته): "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج"<sup>1</sup>.

هذا حال الشعر في الوسط الجاهلي ولم يتغير، في الحقيقة، خلال صدر الإسلام<sup>2</sup>، فقد وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يشجّع على قول الشعر وعلى سماعه، وتشهد على ذلك روايات كثيرة، يكفي أن نذكر عددا من الشعراء الذين عاشوا في عهده صلى الله عليه وسلم، ولم يتوانوا عن الذود عن الإسلام والمسلمين بالكلمة كما بالسيف، ولا يخفى ما عرفته الكلمة من سطوة آنذاك، فهي إما أن تكون لك أو عليك. قال الجرجاني: "أما أمره به، [يقصد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بقول الشعر]، فمن المعلوم ضرورة، وكذلك سماعه إياه، فقد كان حسنًا وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه، ويُسمع منهم، ويُصغي إليهم، ويأمرهم بالردّ على المشركين، فيقولون في ذلك ويعرضون عليه"<sup>3</sup>.

وبالنظر إلى أهمية الشعر في بيئة الثقافة العربية الإسلامية آنذاك، لا غرابة أن نلّف هذا الحضورَ القويّ للخطاب الشعري في منظومة التقعيد النحوي، وأن أكثر ما استشهد به النحاة وهم يقعدون للغة ويحيطون بقوالها يعود إلى حقل الشعر. ولا أظن أن السبب الذي دفعهم إلى ذلك غائب عن الأذهان، فقد عُرف العرب بالشعر، وتفوّقوا في الكتابة الشعرية، وتراث العصر الجاهلي<sup>4</sup> الذي وصلنا لأبلغ شاهد على هذا الكلام؛ ذلك أن جزءا مهما منه يدخل في حيز هذا النوع من الخطاب؛ وإن كان هذا الخطاب قد تعرّض، في وقته، لجملة من الأسباب التي جعلته متعدّد الرواية من جهة، أشار ابن سلام الجمعي (231هـ) إلى هذا في (طبقاته) قائلا: "فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا

<sup>1</sup> - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، 1981، دار الجيل، سوريا، ط5، 65/1.

<sup>2</sup> - عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، 2006، دار توبقال، الدار البيضاء، ط3، ص: 55.

<sup>3</sup> - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، (د. ت)، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، (د. ط)، ص: 17.

<sup>4</sup> - ما وصلنا من هذا التراث قليل إذا أخذنا بقول أبي عمرو بن العلاء إذ قال: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير". ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: أبو فهر محمود محمد شاكر، (د. ت)، دار المدني، جدة، (د. ط)، 25/1.

كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه كثير"<sup>1</sup>، وصرفته عن الدقة وعدم التثبت في النقل من جهة ثانية، وقد نص ابن سلام على ذلك أيضا بوضوح، فقال: "فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على السنة شعرائهم. ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت"<sup>2</sup>. وليس يفهم من كلام الرجل إلا أن الشعر لقي من التصحيف والتحريف مثلما لقيت أوساط معرفية أخرى كالمعجم وغيره، كما يذكرنا كلامه بقضية نقدية معروفة من قضايا النقد العربي القديم، وهي قضية الانتحال.

وقبل الاسترسال في معالجة قضايا هذه الورقة، نتوقف عند تعريف الشاهد وذكر بعض ما يدور في فلكه من مصطلحات.

### 1. مدخل مصطلحي: الشاهد والقاعدة

تتعدد أنواع الشواهد بالنظر إلى طبيعة المستشهد به أولا، فمما هو معلوم بالضرورة أن مصادر التقعيد للغة العربية لم تقتصر على الشعر العربي الذي ينتهي إلى ما سمي بكلام العرب، وإنما استقت مادتها أيضا من القرآن الكريم في صدر الإسلام، والحديث النبوي الشريف رغم ما عرفه من خلاف حول صحة الاستشهاد به. وبالنظر إلى المستشهد عليه الذي يمكن أن نصنف في ضوئه الشواهد إلى شواهد معجمية وأخرى نحوية وأخرى لها علاقة بالنقد والبلاغة والعروض، ويهمننا منها الصنف الثاني، ويقصد به "ما جاء به من كلام العرب شاهداً لعامل نحوي أو لأثر إعرابي أو علامة بناء أو إعراب أصلية كانت أم فرعية، ونحو ذلك مما يقوم عليه النحو العربي وأصوله، وأوجه الخلاف في مسائله وقضاياها بين المدارس المختلفة، يستوي في ذلك الشاذ النادر والقياس المطرد"<sup>3</sup>. ويعرف محمد عبدو فلفل الشاهد النحوي أيضا بقوله: "دليل نصي جزئي يعود إلى ما عرف لدى النحاة بعصور الاحتجاج وأتي به لبناء قاعدة، ولا يمكن تأويله على وجه غيرها، وإلا عد مثالا وإن كان من نصوص عصور الاحتجاج"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، (م.س)، 25/1.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، 46/1.

<sup>3</sup> - يحيى عبد الرؤوف جبر، الشاهد اللغوي، 1992، مجلة النجاح للأبحاث، المجلد الثاني، العدد السادس، فلسطين، ص: 266.

<sup>4</sup> - محمد عبدو فلفل، اللغة الشعرية عند النحاة - دراسة للشاهد الشعري والضرورة الشعرية في النحو العربي، 2007، دار جبر، عمان، ط 1، ص ص: 14-13.



ومما يدور في فلك مصطلح الشاهد، الاستشهاد والاحتجاج والتمثيل، وقد توقّف محمد عبيد عند التفريق بين هذه المصطلحات في كتابه (الاستشهاد والاحتجاج باللغة) محتكماً إلى طبيعة النصّ ومنتجته في علاقته بعصر الاحتجاج؛ فهو الفيصل في التمييز بينها، فإذا كان النصّ مما قيل في هذه الفترة أدرجناه في الضرب الأول، أما إذا جاوز مرحلة عصر الاحتجاج عدّ تمثيلاً؛ لأنه يعتبر من قبيل المصنوع غير المؤثوق، لذلك فهو غير ملزم، هدفه الإيضاح والبيان فقط<sup>1</sup>.

أما مصطلح القاعدة النحوية، فلا نجد له أثراً في مصنّفات النحاة المتقدّمين، وشأنه في ذلك شأن كثير من المصطلحات التي لم يظهر استعمالها إلا في وقت متأخر، وغياب المصطلح لا يعني البتة غياب المفهوم، فقد تجد له استعمالاً أخرى مشابهة تدل على ما يدلّ عليه مصطلح القاعدة، كمصطلح (الأصل) على سبيل المثال، الذي يذكّرنا بعنوان كتاب أبي بكر ابن السراج (316هـ) (الأصول في النحو)، والذي نتصوّر أن المقصود به هو مجمل القواعد الرئيسية التي تقوم عليها الصناعة النحوية. وينصّ الكفوي (ت 1094هـ) في كليّاته على أن مصطلح الأصل يرد بمعنى القاعدة قائلاً: "يطلق على القانون والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات"<sup>2</sup>. ويورد في هذا الصدد، شواهد كثيرة من النحو والصرف التي يستعمل فيها النحويون كلمة الأصل في دلالتها على القاعدة، من ذلك، مثلاً، قولهم إن النكرة أصل؛ لأنها أشدّ تمكناً<sup>3</sup>، وقس على ذلك أقوالاً أخرى من هذا القبيل.

وللشاهد، عموماً، وظيفتان اثنتان:

- الأولى: إثبات واقع اللغة في مستوياتها: الأصوات، والصرف أو الصيغ، والنحو أو التراكيب، والمتن والدلالة.
- الثانية: أنها مأخذ ضوابط اللغة وحدودها، وسنن أهل السليقة فيها<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - محمد عبيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة رواية اللغة والاحتجاج بها في ضوء علم اللغة الحديث، 1988، عالم الكتب، القاهرة، ط3، ص: 85.

<sup>2</sup> - أبو البقاء الكفوي، الكليات الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، قابله على نسخة خطية وأعدّه للطبع ووضع فهارسه: عدنان درويش ومحمد المصري، 1998، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، ص: 122.

<sup>3</sup> - سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، 1988، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 22/1.

<sup>4</sup> - محمد حسن جيل، الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته، 1986، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: 46.

إن قارئ أمارت الكتب النحوية والمصادر الأولى في تاريخ الدرس النحوي العربي، لا يعدم ملاحظة أن المدونة الشعرية تحظى بحصة الأسد، وتستأثر باهتمام النحاة إلى حد بعيد، ولم يكن محمد عبيد غافلاً عن هذه الفكرة، فنصّ على ذلك بقوله: "الذين كانوا مصدر دراسة النحاة هم الشعراء والأعراب، أو بعبارة أخرى: هم الذين تجيء اللغة على ألسنتهم في مظهرين كلاهما يعجب النحاة هما: الشعر والغريب (...). الشعر والغريب هما أهم ما بحث عنه النحاة إذن واهتموا به"<sup>1</sup>. ومن ذلك أيضاً ما ذكره أحد الباحثين الذي قدّم مسوّغات إكثار الاحتجاج بالشعر قائلاً: "ولكن الملاحظ أن الاحتجاج بالشعر أفشى وأشيع كثيراً من الاحتجاج بكلام العرب النثري، ولعل هذا سببه شيوع حفظ الشعر، لأن إيقاعاته تساعد على ذلك، وحضوره الدائم بذلك في ذاكرة الأمة، (...) كما أن رواية الشعر أحرى أن تكون أضبط؛ لأن الضبط يمثل عنصراً من عناصر إيقاعه"<sup>2</sup>.

وعلى هذا الأساس، لا غرابة أن يكون الشعرُ واحدًا من أهم سبل الاحتجاج لتسويغ القاعدة النحوية، فهو "ديوان العرب، وبه حُفِظَت الأنساب، وعُرفت المآثر، ومنه تُعلِّمَت اللغة. وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله جلّ ثناؤه وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحديث صحابته والتابعين"<sup>3</sup>.

ولا ننسى بأن القرآن الكريم هو دعامة مباشرة من الدعائم التي تركز عليها بقية مصادر الاستشهاد الأخرى، وبفضله تم حفظ كثير من الشعر؛ رغم أن "الشعر العربي الجاهلي أو الإسلامي كان في نظر النحاة منبعاً يمدّ النحو بالحياة والنمو والحركة، وعلى أساسه مُلئت صفحات كتب النحو بالقواعد التي يصعب حصرها، ويصعبُ استيعابها، ومع ذلك فإن هذا الشعر أثر من آثار القرآن الكريم، وفضل من أفضاله على النحو واللغة، ولولا القرآن الكريم ما جُمع هذا الشعر وما عُني به الرواة"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - محمد عبيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، (م. س.)، ص: 26.

<sup>2</sup> - محمد حسن جبل، الاحتجاج بالشعر في اللغة: الواقع ودلالته، (م. س.)، ص: 52.

<sup>3</sup> - أحمد بن فارس، في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، 1997، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ص: 212.

<sup>4</sup> - محمد عبد الله عطوات، منزلة الاستشهاد بالقرآن الكريم بين مصادر الاستشهاد الأخرى، 2005، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد: 100/99، ص: 299.

وقد نصّ النحاة، في غير موضع، على أن القرآن الكريم أقوى حجّة من الشعر، وأن الشعر هو دون القرآن أثناء الاستشهاد، لذلك نجد الفراء في معرض إعرابه قوله تعالى: "وَحُورٌ عِينٌ"<sup>1</sup>: "والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر"<sup>2</sup>.

وتذكر المصادر أن ابن عباس -رضي الله عنه- كان يجلس "يوماً فلا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب"، كما تروي أن الرجل لا يفسّر آية قرآنية إلا وأورد عليها شاهداً من الشعر<sup>3</sup>.

وتكثر المرويات من هذا القبيل في كتب التراث العربي، والتي تدلّ على حجم الاهتمام الذي عرفه الشعر العربي من حيث الرواية والحفظ، ومن حيث الاستشهاد به على عدد من الظواهر النحوية والتركيبية.

## 2. الضرورة الشعرية عند النحاة

من الجزئيات التي ترتبط بقضية الشاهد الشعري الضرورة الشعرية، وقد تنبّه القدماء، في ضوءها، إلى خصائص الجملة في الكلام المنظوم، وعرفوا أن للشعر لغة لا يمكن موازنتها بلغة النثر، ومن أقدم المحاولات في هذا الباب ما يعود إلى سيبويه (180هـ)؛ فقد عقد في الجزء الأول من (الكتاب) فصلاً سمّاه "باب ما يحتمل الشعر"، قال فيه: "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، يشبهونه بما ينصرف من الأسماء، لأنها أسماء كما أنها أسماء. وحذف ما لا يحذف، يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفاً"<sup>4</sup>. وفي هذا الكلام ما يفهم ضمنياً بأن نظام النحو في الشعر قد يتغيّر على خلاف ذلك في النثر. ووجوه هذا التغيّر كثيرة لذلك أضاف سيبويه قائلاً: "وما يجوز في الشعر أكثر من أذكره لك ههنا، لأن هذا موضعُ جمل"<sup>5</sup>. وقد فسّر أبو سعيد السيرافي (368هـ) كلام سيبويه وأدرجه في باب الضرورة الشعرية فقال: "اعلم أن سيبويه ذكر في هذا الباب جملة من ضرورة الشعر؛ ليريّ بها الفرق بين الشعر والكلام، ولم يتقصّه؛ لأنه لم يكن غرضه في ذكر ضرورة الشاعر قصداً إلهما نفسها، وإنما أراد أن يصل هذا الباب، بالأبواب

<sup>1</sup> - سورة الواقعة، الآية: 22.

<sup>2</sup> - أبو زكريا يحيى الفراء، معاني القرآن، 1983، عالم الكتب، بيروت، ط3، 14/1.

<sup>3</sup> - محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، 1983، الأطلسي، الرباط، ص: 21.

<sup>4</sup> - سيبويه، الكتاب، (م. س)، 26/1.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، 32/1.

التي تقدّمت فيما يعرض في كلام العرب ومذهبهم في الكلام المنظوم والمنثور"<sup>1</sup>. والذي يقرأ هذا الكلام، لا يفهم إلا أمرين اثنين من كلام السيرافي، الأول ما سمّاه الضرورة الشعرية التي تُلجئ الشاعر إلى الخروج عن بعض القواعد النحوية، والثاني، أن سيبويه لم يكن يقصد إلى الحديث عن الجملة في الشعر قصداً يفصلها به عن نظام الجملة بشكل عام، وهو الذي ترتّب عنه بعد ذلك أفراد مؤلفات خاصة وُسمت بـ(ضرائر الشعر) أو (الضرورة الشعرية)؛ وكأن الجملة في العربية لها قالب محدد لا محيد عنه، وعندما تخرج عن هذا القالب أو تكسر قاعدة نحوية تصير ضرورة تفرضها قيود خاصة بنظام الشعر، ولهذا يشير محمد حماسة عبد اللطيف: "وقد تلقّف النحويون بعد إشارته إلى هذا المبدأ اللغوي، وتعاملوا معه على أن للشعر ضرورات بدلا من أن يكون له نظامه المخصوص في تأليف جملة، وبناء تراكيبه، ثم ما لبثوا أن ألفوا في ذلك كتباً عرفت بكتب ضرورة الشعر، أو الضرائر، أو ما يجوز للشاعر في الضرورة، وغير ذلك، فمالوا بذلك عن طريق سيبويه، وانصرفوا إلى استخراج الضرورات، وتركوا وصف الجملة في الشعر وصفا مقصوداً لذاته"<sup>2</sup>.

وقد مال إبراهيم أنيس إلى القول بالرأي ذاته، لكن في سياق مختلف، وهو أن النحاة لم يكونوا موفقين حين قعدوا للغة اعتماداً على المدونة الشعرية، وكان من باب الأولى بحث الشعر معزولاً عن النثر؛ الأمر الذي كان سيُخلصهم من حكاية الضرورة الشعرية، يقول الباحث: "ومع أن القدماء من اللغويين قد لاحظوا تلك الخاصية في نظام الشعر [يقصد مخالفة نظام الترتيب المألوف في الكلمات]، لم يحاولوا مطلقاً الفصل بين الشعر والنثر في تعييدهم القواعد بل خلطوا بينهما، فأدى مثل هذا الخلط إلى اضطراب في بعض أحكامهم"<sup>3</sup>، إلى أن قال: "وقد كثر حديثهم عن تلك الضرورة الشعرية التي أعدها وصمة وصموا بها الشعر العربي عن حسن نية منهم. ولست أعرف أمة من الأمم تصف شعرها بمثل هذا الوصف، أو تصمه بمثل هذه الوصمة وما كان أغناهم عن مثل هذا لو أنهم بحثوا الشعر وحده، وخصوه ببعض الأحكام التي يجب أن تترك للشعراء وحدهم، يتخذون منها ما يشاءون، ويهملون منها ما يشاءون، فإذا شاعت في شعرهم

<sup>1</sup> - أبو سعيد السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، 2008، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 188/1-189.

<sup>2</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، 1990، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، ص: 22.

<sup>3</sup> - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 1978، مطبعة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط6، ص: 342.

ظاهرة من الظواهر، ونسج على منوالها الكثرة الغالبة منهم، عدت حينئذ من خصائص الأسلوب الشعري<sup>1</sup>.

ويزعم إبراهيم أنيس أن مقالته ليست الأولى في هذا الشأن، فقد سبقه من الأقدمين من أطلق صرخته منها إلى وجوب الفصل بين النثر والشعر في استنباط أحكام اللغة وهو بهاء الدين السبكي (ت 773هـ)<sup>2</sup>.

وما سعى عند بعضهم ضرورة شعرية يراه آخرون غير ذلك، فالشاعر "ليس مضطراً إلى ما يسميه النحاة ضرورة إلا من وجهة نظر فنية خاصة بسياق قصيدته، وليس مضطراً اضطراباً لغوياً أو نحوياً"<sup>3</sup>. ومقالة أبي الفتح (392هـ) واضحة في هذا الشأن؛ إذ يقول: "إن العرب قد تلزم الضرورة في الشعر في حال السعة؛ أنساباً واعتياداً لها، وإعداداً لها لذلك عند وقت الحاجة إليها؛ ألا ترى إلى قوله (الرجز):

قَدْ أَصَبَحْتُ أُمَّ الْخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْبًا كُلَّهُ لَمْ أَصْنَعْ<sup>4</sup>

فرفع للضرورة، ولو نصب لما كسر الوزن"<sup>5</sup>. فابن جني يعرض، في هذا النص، الأسباب التي تحذو بالشاعر إلى ارتكاب المخالفة النحوية، وهي ثلاثة كما ذكرها؛ أولها الأُنس بها؛ لأن الشاعر يرغب فيها تحقيقاً لمراذه وغاياته، وثانيها الاعتياد لها؛ فهي مما استقر في عرف البيئة اللغوية للشعراء واعتيد على استعماله، وثالثها الإعداد لها وقت الحاجة، والسماح بها لمن أراد من الخالفين<sup>6</sup>.

ولا يكتفي ابن جني بهذا القول، بل يذهب إلى الاعتراف بأن الشاعر؛ مرتكب هذه الضرورة، يتعمد المخالفة، ويوردها في شعره دلالة على قوّة طبعه وفيض منته، وفرق كبير بين أن يكون الشاعر مضطراً إلى أن يكسر بناء اللغة، وبين أن يتعمد هذا الكسر مخيراً لا مجبراً. يقول ابن جني في نص طويل من خصائصه: "فمتى رأيت الشعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها،

<sup>1</sup> - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص: 343.

<sup>2</sup> - الخطيب القزويني وابن يعقوب المغربي وبهاء الدين السبكي، شروح التلخيص، (د.ت)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 1/99.

<sup>3</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر (دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور)، ط 2001، دار غريب، القاهرة، ص: 26.

<sup>4</sup> - قائله هو الشاعر أبو النجم.

<sup>5</sup> - أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، 1952، المكتبة العلمية عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 1، 303-304.

<sup>6</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر، (م.س)، ص: 27.

وانخراق الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جشمه منه وإن دلّ من وجه على جوره وتعبّسه، فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمّطه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته. بل مثله في ذلك عندي مثل مُجري الجَموح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام. فهو وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مُنته؛ ألا تراه لا يجهل أن لو تكفر في سلاحه، أو أعصم بلجام جواده، لكان أقرب إلى النجاة، وأبعد عن الملّاحة؛ لكنه جشم ما جشمه على علمه بما يعقب اقتحم مثله، إدلالاً بقوة طبعه، ودلالة على شهامة نفسه"<sup>1</sup>.

ومع ذلك يعود ابن جني ليؤكد أن الشاعر رغم وعيه بهذا الأمر، ف"كأنه لأنسه بعلم غرضه وسُفور مراده لم يرتكب صعباً، ولا جشم إلا أمماً، وافق بذلك قابلاً له، أو صادف غير أنس به، إلا أنه هو قد استرسل واثقاً، وبني الأمر على أن ليس ملتبساً"<sup>2</sup>. فابن جني في النصين معاً، على حد تعبير محمد حماسة عبد اللطيف، "يقدم تفسيرين لارتكاب ما يسمى بالضرورة. أولهما يجعل الشاعر فيه واعياً بما يفعل، فضلاً عن أنه مدل بقوة طبعه وشهامة نفسه. والآخر، يجعل الشاعر فيه غير واع بما يفعل، إذ تستغرقه التجربة، وتتضح في ذهنه، فيصوغها في شكل يثق بوضوحه مقتنعاً بأن ليس فيه لبس"<sup>3</sup>.

### 3. الإشكالات المطروحة أمام قضية الاحتجاج بالشاهد الشعري

كانت أول خطوة في طريق الحفاظ على العربية، هي جمع المادة اللغوية من القبائل الفصحى البعيدة عن مناطق اللغات الأجنبية، ليقف النحاة بعدها على استقراء ما وصلهم من كلام العرب ومراعاة الحكم السائد في الأعم الأغلب منه، وتدقيق علله وتصنيفها، ثم وضع القوانين المطردة<sup>4</sup>. ولا شك في أن القيد المكاني والزمني الذي فرضه النحاة على هذا الجمع مقياساً لجواز الاحتجاج من عدمه، كان محطّ خلاف بين النحاة، ومنهم من لم يحترم هذا المعيار، فتجاوز الحيز المكاني الذي استشهد فيه بالقبائل التي يقطنها العرب الخلّص والتي تبعد عن مواطن الاحتكاك بالعجم، وقد عدّت قبيلة قريش أفصح العرب قاطبة<sup>5</sup>، "ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة

<sup>1</sup> - ابن جني، الخصائص، (م.س)، 392/2.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، 393/2.

<sup>3</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، لغة الشعر: دراسة في الضرورة الشعرية، 1996، دار الشروق، بيروت، ط1، ص: 102.

<sup>4</sup> - سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ط1987، المكتب الإسلامي، بيروت، ص: 79.

<sup>5</sup> - أحمد بن فارس، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها، (م.س)، ص: 28.

تميم، ولا عَجْرَفِيَّة قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل: تعلمون، ونعلم...<sup>1</sup>. ولم يفت أحد المحدثين أن يسجل ملاحظته حول هذا القيد الذي يرى فيه كثيرا من "الضوابط الجافية التي تحكمت في جمع اللغة وأدت إلى إغفال الكثير من مفرداتها واستعمالاتها، إذ أن ترك الأخذ عن قبيلة بأسرها أو عن أهل منطقة بأسرها فيه ما لا يخفى من الجزافية وإهدار ما يمكن أن يكون هؤلاء وهؤلاء استعملوه من التراكيب والصيغ والأساليب الصحيحة الفصيحة"<sup>2</sup>. علاوة على قبائل أخرى. كما تجاوز الحيز الزمني الذي تم الاقتصار فيه على بعض طبقات الشعراء الأولى؛ فقد أجمع البصريون مثلا على الاستشهاد بشعر طبقتي الجاهليين والمخضرمين واختلفوا في طبقة الإسلاميين أو المتقدمين<sup>3</sup>، ورغم الاختلاف في تقسيم الشعراء إلى طبقات، فإن هذا الأمر لا يغير كثيرا "من موقف اللغويين إزاء شعر هذه المرحلة، فهو عندهم شعر ناتج عن مرحلة تتسم بطابع واحد، وتأخذ لذلك حكما واحدا"<sup>4</sup>.

من الإشكالات التي تصادف رواية الشعر أيضا والاحتجاج به هو ما تعرض له من تصحيف وقع فيه كثير من أعلام اللغة والنحو، كعيسى بن عمر (ت 149هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ)، والخليل بن أحمد (ت 170هـ)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 209هـ)، وأبي الحسن الأخفش (ت 215هـ)، والأصمعي (ت 216هـ)، وغيرهم، و"قد أثر شيوع هذه الظاهرة ثم وقوع كثير من النحاة واللغويين فيها إلى الخطأ في تحليل بعض النصوص اللغوية نتيجة لما تصوّروه من وجود بعض الظواهر في النصوص المروية التي دخلها التصحيف"<sup>5</sup>.

ومن أهم القضايا التي تواجه قضية الاحتجاج بالشاهد الشعري أيضا، ما عرفه النحو من تجاذبات وصراعات بين مدارس نحوية عدة، وفي مقدمتها المدرستان البصرية والكوفية؛ ذلك أن محاولة الانتصار لتوجه معين، ترتب عنه الاختلاف في رواية الشاهد الشعري ومن ذلك ما ذكره ابن الأنباري من ردّ على الكوفيين الذين لا يتحرّجون من إعمال (أنّ) مع الحذف النصب في الفعل المضارع وجوبا أو جوازًا استشهادًا بقول الشاعر طرفة بن العبد:

أَلَا أَيُّهَذَا الرَّاجِرِي أَحْضَرُ الْوَعَى      وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي

<sup>1</sup> - المصدر نفسه، ص: 29.

<sup>2</sup> - محمد حسن جبل، الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته، (م. س)، ص: 77.

<sup>3</sup> - محمود أحمد نحلة، أصول النحو العربي، 1987، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، ص: 67.

<sup>4</sup> - علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، (م. س)، ص: 52.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص: 43.

على نصب (أحضر) بتقدير (أن) المحذوفة، ودليل ذلك هو ما جاء بعده في الشطر الثاني قوله: (أن أشهد)<sup>1</sup>.

وقد ردّ الأنباري هذه المقالة بقوله: "فالرواية عندنا على الرفع، وهي الرواية الصحيحة، وأما من رواه بالنصب؛ فلعله رواه على ما يقتضيه القياس عنده من إعمال (أن) مع الحذف، فلا يكون فيه حجة، ولئن صحّت الرواية بالنصب؛ فهو محمول على أنه توهم أنه أتى بأن، فنصب على طريق الغلط"<sup>2</sup>.

وقد جرى الخلاف فيما يحتجّ به من الشعر؛ "لأنه موطن للضرورات الكثيرة التي طال فيها اختلاف العلماء، فنجد علماء النحو وعلماء البلاغة جميعاً مهتمين بضرورات الشعر بحثوها وقسموها إلى مستحسنة وأخرى مستقبحة أو قبيحة ونحو ذلك، واختلفوا فيما جاز للشعراء ارتكابها منها وما امتنع"<sup>3</sup>. إضافة إلى إشكالات أخرى ذكرها محمد عبد الله عطوات في دراسته المذكورة آنفاً.

#### 4. نماذج من استعمال الشاهد الشعري في تأصيل القاعدة النحوية

هذه بعض النماذج التي وردت في كتب النحاة تأصيلاً لقاعدة نحوية بالرجوع إلى الشعر، من ذلك مثلاً، حديثهم عن تساوي المبتدأ والخبر من حيث التعرف. فمن الصور التي قد يأتي عليها كل من المبتدأ والخبر من جهة تعريفهما أو تنكيرهما، وقوعهما معرفتين معاً، "فتكون الفائدة في اجتماعهما وذلك هو الذي استفاده المخاطب، فمتى كان الخبر عن المعرفة معرفة فإنما الفائدة في مجموعهما"<sup>4</sup>، وقد أقر الزمخشري (538هـ) بعدم جواز تقديم الخبر على المبتدأ في هذه الحالة: "وقد يقع المبتدأ والخبر معرفتين معاً كقولك: زيد المنطلق، والله إلهنا، ومحمد نبينا، ومنه قولهم: أنت أنت، وقول أبي النجم (130هـ):

أنا أبو النجم وشعري شعري .....

<sup>1</sup> - أبو البركات بن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف، تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ت)، دار الفكر، القاهرة، ط1، 560/2.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، 565/2.

<sup>3</sup> - خديجة الحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، 1974، مطبوعات جامعة الكويت، ص: 101.

<sup>4</sup> - أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، (د.ت)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 66/1.



ولا يجوز تقديم الخبر هنا، بل أيهما قدمت فهو المبتدأ<sup>1</sup>. والشاهد في قول الشاعر أبي النجم هو الاحتفاظ برتبة كل من المبتدأ والخبر دون تقديم أحدهما على الآخر.

ومما يستشهد به النحاة شعراً، قولهم إنه لا يجوز الفصل بين حرف قد وفعله إلا للضرورة؛ لأنها مما يختص به الفعل، ويلزمه، فتقوم منه مقام الجزء، كما في قول أحدهم<sup>2</sup> من (الوافر):

فَقَدْ وَاللَّهِ بَيَّنَّ لِي عَنَائِي      بِوَشْكِ فَرَاقِهِمْ صُرْدٌ يَصِيحُ<sup>3</sup>

وفي باب الحروف التي يُحذف بعدها الفعل وغيره، يحتج الفارسي لحذف الفعل بعد (لولا) بقول الشاعر:

تَعْدُونَ عَقَرَ النَّيْبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ      بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلَا الْكَيْيَ الْمُقَنَّعَا

يعلق أبو علي الفارسي (377هـ) قائلاً: "فالناسب ل(الكَيِّ) الفعل المراد بعد (لولا)، وتقديره: لولا تَلَقُّونَ أو تُبَارِزُونَ، أو نحو ذلك، إلا أن الفعل حُذف بعدها لدلالاتها عليه، كما حُذف بعد (إن) كذلك في نحو قولهم: "الناس مجزئون بأعمالهم، إن خيراً فخير"<sup>4</sup>.

## 5. آفاق بحثية أخرى

تنفتح قضية الاحتجاج بالشاهد الشعري على القواعد النحوية على قضايا ذات صلة؛ ونحسب أن العلاقة بين الشعر والنحو إحدى هذه القضايا التي استأثرت باهتمام النحويين قديماً وحديثاً، مع ما تثير هذه العلاقة من حديث عن خصائص التركيب الشعري إذا ما قارناه بنظيره في حقل النثر.

### أ- الشعر والنحو: أي علاقة؟

لا يختلف اثنان في أن اللغة، وهي تستعمل داخل النصوص الإبداعية، تجري مجرى آخر يجعلها تكتسي خصائص وسمات لا تسري في الاستعمال العادي للغة. والنص الشعري واحد من تلك النصوص التي تتمتع فيه اللغة بقدر وافر من الحرية، وقد صدق صاحب قول - بول فاليري

<sup>1</sup> - أبو القاسم الزمخشري، المفصل في علم العربية، دراسة وتحقيق: فخر صالح قدارة، 2004، دار عمار، عمان، ط1، ص: 51.

<sup>2</sup> - لم يُعرف قائل البيت.

<sup>3</sup> - أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني في حروف المعاني، تحقيق: أحمد محمد الخراط، (د.ت)، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (د.ط)، ص: 393.

<sup>4</sup> - أبو علي الفارسي، شرح الأبيات المشككة الإعراب المسمى إيضاح الشعر، حققه: حسن هنداي، 1987، دار القلم، دمشق، دار العلوم والثقافة، بيروت، ط1، ص: 70-71.

Paul Valéry- إن "الشعر لغة داخل الشعر"<sup>1</sup>. كما أن المبدع في مجال الشعر يسمُحُ له بما لا يسمح لغيره من التجاوزات اللغوية. فلماذا إذًا، هذا التسامح اللغوي في الشعر خصوصاً على خلاف بقية النصوص الأخرى؟ يظهر أن الجواب بسيط عند إبراهيم أنيس الذي يقول: "الشعر فن من الفنون الجميلة مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت. وهو في أغلب أحواله يخاطب العاطفة ويستثير المشاعر والوجدان. وهو جميل في تخير ألفاظه، جميل في تركيب كلماته، جميل في توالي مقاطعه، وانسجامها بحيث تتردد ويتكرر بعضها فتسمعه الأذان موسيقى ونغماً منتظماً. فالشعر صورة جميلة من صور الكلام"<sup>2</sup>.

ومن هنا، نفهم أن صناعة الشعر ليست هي صناعة النثر، فللشعر خصوصية تقوم على استثارة العاطفة الإنسانية، والتأثير في الوجدان، وهي أمور لا تتطلب استعمال اللغة استعمالاً دقيقاً يُغيب عناصرَ التجميل اللغوي ويتحاشى وسائل التفنن والزخرف اللفظي، ولهذا أشار ابن طباطبا (ت 322هـ) حين قال: "واجبٌ على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة، لطيفة مقبولة، مستحسنة، مجتلبة لمحبة السامع له، والناظر بعقله إليه... فيحسنه جسماً، ويحققه روحاً، أي يتقنه لفظاً، ويبدعه معنى"<sup>3</sup>.

وما دامت العاطفة وقودَ الشعر، فإن اللغة مضطرةٌ إلى استيعاب هذا التدفق العاطفي، مجبرة على احتواء انفعالات الشاعر وأحاسيسه، ولم يكن الباحثون في غفلة عن هذا الأمر، فقد حاولوا كلُّما ناسبهم المقام، التأكيد على ضرورة مراعاة إملاءات النظام النحوي حين يتعلّق الأمر بالإبداع الشعري؛ منهم مصطفى ناصف الذي يرى أن الشعراء هم أوفق الكتاب تعاملًا مع قواعد النحو، وأقدرهم على الإبداع في هذا المجال، ونص كلامه هو: "النحو ليس موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثُل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون للصواب رأياً واحداً. النحو مشغلة الفنّانين والشعراء أو الفنانون هم الذين يفهمون النحو، أو هم الذين يبدعون النحو؛ فالنحو إبداع"<sup>4</sup>، كما حذّر من التغافل عن هذا الأمر حين قال: "والواقع أن فاعلية النظام النحوي في خلق المعنى المتعدد غير ماثلة في أذهاننا، وهذه الفاعلية جزء من أساسي من حيوية اللغة وقدرتها على أداء كثير من وظائفها. وقد بذل المتقدمون ما وسعهم من أجل توضيح

<sup>1</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، (م. س)، ص: 5.

<sup>2</sup> - إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، 1978، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط5، ص: 7.

<sup>3</sup> - ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المناع، ط1985، دار العلوم، الرياض، ص: 203.

<sup>4</sup> - مصطفى ناصف، النحو والشعر قراءة في دلائل الإعجاز، أبريل 1981، مجلة فصول للنقد الأدبي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، الجزء الثاني، المجلد الأول، العدد الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 36.

هذه الملاحظة؛ فنظام الكلمات، ونوع الترابط والانفصال بين العبارات، والتفاوت الملحوظ بين صيغ الكلمات في العبارة، كل أولئك كان مجالا واسعا لكشف إمكانيات غير قليلة. ولكن يظهر أننا حتى الآن لا نقدر خطر الفهم النحوي الناضج، أو نظن أن مراجعة المعاني النحوية أمر لا يهم المشتغلين بالشعر وفلسفة الفن<sup>1</sup>.

إن طاقة النحو مبدعة وخلق شريطة أن تجد سبيلها إلى من يستطيع أن يستوعب هذه الطاقة عبر اللغة، ويبدو أن الشاعر يمتلك ناصية الموهبة التي يمكن أن تحقق له هذا الاستيعاب، يقول محمد حماسة عبد اللطيف: "لعل ما يستلفت النظر أن المشتغلين بالنصوص في القديم والحديث ممن لا يعدون نحاة بطبيعة الحال هم الذين يقدرّون النحو حق قدره، وذلك لأنهم هم الذين يعرفون بالتجريب طاقة النحو المبدعة في إضاءة النص وتفسيره"<sup>2</sup>. وفي موضع آخر، يقول: "غير أن الذي أود أن أهتم به هنا هو ملاحظة أن بناء الجملة في الشعر أكثر استغلالا للإمكانات النحوية التي يتيحها النظام اللغوي وتتعاون معها الإمكانات الشعرية فتتجلى بذلك البيت إلى أن يستقيم وزنه وقافيته وبناء جملته في آن واحد"<sup>3</sup>. فالنصوص الأدبية، والشعرية منها على وجه الخصوص، هي مجال حي وخصب لاستعمال القواعد النحوية، وهي التي تثبت أن النظام النحوي في العربية غير قارّ، بل يتسم بحيوية منقطعة النظير. ووفق هذا الاعتبار، يمكن القول إن النحو "جزء أساسي من ذكاء الشاعر وفطنته وروعته، وليس جانبا خارجيا، ولا طلاء يطلّى به المعنى. النحو جزء أساسي مما نسمّيه نشاط الكلمات في الشعر"<sup>4</sup>.

وقد نادى محمد حماسة عبد اللطيف، في غير موضع، إلى ضرورة الاهتمام بدراسة الجملة في الشعر العربي لا سيما القديم، فهو أمر قد يساعد على تفسيره وتحليله وكشف خباياه، والأهم من ذلك هو أن "الاعتماد على بناء الجملة في دراسة النص وتفسيره لا محيد عنه ولا بديل له لمن يريد أن يقدم دراسة نصية مقنعة"<sup>5</sup>. فهو إذًا، صاحب دعوة عريضة إلى الاهتمام بأوجه العلاقات التي تجمع النحو بالنصوص الأدبية، حتى حين يرتبط الأمر بالنحو التعليمي، فلا بد من الاحتكاك بالنص الأدبي؛ لأنه هو الذي يحفظ للنحو فاعليته من جهة أولى، يقول في كتابه (الجملة في الشعر العربي): "وقد أثبتت لي هذه التجربة كذلك كما أثبت لي غيرها من قبل أن طاقة النحو تتجلى أظهر

<sup>1</sup> - مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، (د.ت)، الدار القومية، القاهرة، (د.ط)، ص: 214.

<sup>2</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، 2000، دار الشروق، القاهرة، ط1، ص: 28.

<sup>3</sup> - بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، (م.س)، ص: 308.

<sup>4</sup> - النحو والشعر قراءة في دلائل الإعجاز، مصطفى ناصف، (م.س)، ص: 36.

<sup>5</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ط2003، دار غريب، القاهرة، ص: 307.

ما تكون في النصوص الأدبية، ومن هنا كانت الدعوة، التي أرجو لها أن تتحقق، إلى توجه الدرس النحوي حتى على مستوى النحو التعليمي إلى النصوص الأدبية الجيدة، ولا غرو أن اتجه النحويون القدماء - رضي الله عنهم - إلى النص القرآني والنصوص الشعرية العالية فجعلوها مناط التطبيق الموسع أحياناً كما جعلوا منها شواهدهم<sup>1</sup>. وهو مما قد يعود بنتائج جيدة على المدرسين الأدبي والنحوي معاً من جهة ثانية، يواصل كلامه فيقول: "إن التوجه إلى النصوص الأدبية ومحاولة تفسيرها من مدخل الأبنية النحوية وكشف طاقة النحو في بناء دلالتها سوف يعود بأعظم النتائج أيضاً على متعلمي العربية والراغبين فيها"<sup>2</sup>.

لقد كان محمد حماسة عبد اللطيف موفقاً حين وصف الشعر بأنه "نسيج متلاحم متشابك، وإذا سللت منه خيطاً لتفحصه وتختبره وجدت الخيوط الأخرى تنجذب في يدك"<sup>3</sup>، فذاك التشابك أو التلاحم القائم في الشعر مصدره جملة من المقومات التي اختص بها هذا الفن عن غيره من الفنون.

#### ب- خصائص الجملة في الشعر:

قسّم محمد حماسة عبد اللطيف خصائص لغة الشعر إلى قسمين: خصائص فنية وأخرى تركيبية؛ فالأولى خصائص شكلية تتمثل في "الوزن والقافية، وهما يمثلان الإطار الخارجي لقصيدة ما، والمضمون الداخلي وهو ما يسميه النقاد بالتجربة الشعرية، والربط بين الشكل والمضمون في إطار لغوي تظهر فيه قدرة الشاعر على الإبداع وموهبته في الخلق الفني"<sup>4</sup>. وما دامت التجربة تلعب دوراً هاماً في كتابات الشاعر، فإن طبيعة اللغة التي تصلح له هي ذات طابع انفعالي، فالشعر، كما يقول أوتو جيسبرسن Otto Jespersen، "تعبير عن الانفعال الدقيق والإحساس الغامض"<sup>5</sup>. أما الخصائص الموالية، فهي خصائص صرفية نحوية، وهل هذا يعني أن النص الشعري يختلف في نظام ترتيبه عن النص النثري؟ طبعاً لا، ولكولريدج S.T.Coleridge جواب مناسب في سيرته الذاتية (النظرية الرومانتيكية في الشعر)؛ إذ يقول إنّ "المسألة على وجهها الصحيح يجب أن تكون ما إذا كان هناك أو لم يكن أنماط للتعبير، وتركيب نظام للجمال تكون في مكانها المناسب، والطبيعي

<sup>1</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، (م.س)، ص: 220.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص: 220.

<sup>3</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، (م.س)، ص: 307.

<sup>4</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية، (م.س)، ص: 372.

<sup>5</sup> - أوتو جيسبرسن، اللغة بين الفرد والمجتمع، ترجمه بتصرف وعلق عليه: عبد الرحمن محمد أيوب، (د.ت)، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، (د.ط)، ص: 215.

في التأليف النثري الجاد ولكنها تكون غير متناسبة وغير متجانسة في الشعر المنظوم والعكس الصحيح<sup>1</sup>.

إن تضافر هذين القسمين، في نظر محمد حماسة عبد اللطيف، هو الذي يسهم في إنتاج الدلالة، بسبب ما يحدث من توافقات تسعف على فهم أجزاء النص، وهذا نص كلامه: "ويثبت التحليل أيضا أن هذه القواعد بنوعها النحوي والعروضي لا تكون بمنأى عن إنتاج الدلالة الخاصة بالقصيدة لأن كل جانب من الجوانب على مستوى الأصوات والصيغ والمفردات والتراكيب والوزن الشعري الخاص واختيار القافية المعينة يتعاون مع الآخر ومن هنا يكون إنتاج الدلالة حاصلًا لعدد كبير من التوافقات التي تتأزر وتصنع سياقًا معينًا يساعد بدوره على توجيه فهم الجزئيات في إطار النص كله"<sup>2</sup>.

وفي خاتمة هذا العنصر، أحب أن أشير إلى أن بحث اللغة والشعر من القضايا الشائكة في البحث الأسلوبى، وما يجعلها كذلك هو ذلك التداخل الكائن بينهما، ومدى إمكانية رصد حدود هذا التداخل؛ لأن "السؤال عن الشعر بصفة خاصة دون غيره من الأنواع الأدبية إنما يرتد إلى النظر إلى الشعر بوصفه أكثر الأنواع الأدبية تعبيرًا عن خصائص "الأدب"، تلك الخصائص الفارقة له عن غيره من أنماط "الكلام"<sup>3</sup>، وإن كان النص الشعري بهذه الخصائص -كما يقول محمد حماسة- "يصبح مقصودًا، ويصبح ذا دلالة خاصة، وعلينا أن نفسره من خلال هذا الشكل الذي اختاره وارتضاه، لأن إعادة ترتيبه على ما تقتضيه قواعد صياغة الجمل أو على ما يوجبه النظام المنطقي يعد خروجًا بالنص عن أن يكون شعرا، فإن للشعر انتقاءه الخاص، ونظام ترابطه الخاص"<sup>4</sup>.

## خاتمة:

ملاك الأمر أنه ظلت للموروث الشعري قيمة معرفية كبرى، تمثلت في العناية بالمرويات الشعرية والنظر إليها، بوصفها دعامة مهمة من دعائم قيام أركان الدرس النحوي العربي؛ فشكّلت بذلك أصلا من أصول المعرفة النحوية، التي ينبغي أن تقوم على ما سمّاه علي أبو المكارم "الأصالة

<sup>1</sup> - كولريديج، النظرية الرومانتيكية في الشعر سيرة أدبية لكولريديج، ترجمة: عبد الحكيم حسان، ط1، 1971، دار المعارف بمصر، ص: 294.

<sup>2</sup> - محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، (م.س)، ص: 219.

<sup>3</sup> - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، 2014، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، ص: 154.

<sup>4</sup> - الجملة في الشعر العربي، محمد حماسة عبد اللطيف، (م.س)، ص: 155.

اللغوية": معنى ذلك أن هذه المرويات تمثل اللغة العربية تمثيلاً دقيقاً في مرحلتها دون تأثر بمؤثرات خارجية تضعف هذا التمثيل، أو تشوّه معالمه<sup>1</sup>.

والنص الشعري واحد من النصوص التي تحظى بقسم خاص في الأدب إلى جانب قسم النثر، له سماته الخاصة ومقوماته البارزة التي تجعل منه فناً متفرداً عن بقية الأجناس الأخرى، ولا يعني هذا التفرد إلا شيئاً واحداً، وهو أن مناهج التفاعل مع هذا النوع الأدبي لا بد أن تراعي هذه الخصوصية، وتحترم شروط قراءته. وقد أدرك النحاة هذا الأمر، فكانت عنايتهم بالشعر عناية لافتة؛ وليس أدل من ذلك من حفاوتهم بالشاهد الشعري أثناء التعميد، هذا على الرغم مما يترتب عن ذلك من إشكالات تهم "مدى صلاحية شعر محكوم بالوزن والقافية ليكون حكماً فاصلاً في وضع قاعدة تتبع في جميع الميادين ولا سيما النثر العادي"<sup>2</sup>، فلا يمكن المساواة بينهما لما يوجد من فروق، ولهذا تجد من القدماء من كان واعياً بالأمر، ولا يجد حرجاً في التنبيه عليه، هذا الذي يستشف مما قاله ابن السراج (ت 316هـ): "ربما وجدت الشاعر من القدماء الفصحاء يحوجه الوزن إلى قلب البناء، أو يحتاج إلى المعنى فيشتق له لفظاً يلتئم به شعره"<sup>3</sup>. وقد أولى القدماء أهمية كبرى لعنصر الضرورة الشعرية، وتنهوا من خلاله إلى ما للجمل من خصوصية في استعمالها داخل الشعر، لذلك تظهر شذرات متفرقة في أحاديثهم عن هذا المعطى يمكن أن تكون مدخلاً صالحاً لدراسة مستقلة في قضية (خصائص الجملة الشعرية في النحو العربي).

<sup>1</sup> - علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، (م. س)، ص: 52.

<sup>2</sup> - محمد عبدو فلفل، في التشكيل اللغوي للشعر مقاربات في النظرية والتطبيق، 2013، من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ط1، ص: 5.

<sup>3</sup> - أبو بكر محمد بن السراج، رسالة الاشتقاق، تحقيق: محمد علي الدرويش ومصطفى الحديري، 1972، مكتبة جامعة اليرموك، سوريا، ط1، ص: 28.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

### المصادر:

- أحمد بن فارس، في فقه اللغة العربية ومساثلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، 1997، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني في حروف المعاني، تحقيق: أحمد محمد الخراط، (د.ت)، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (د.ط).
- أبو البقاء الكفوي، الكلّيات الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، قابله على نسخة خطية وأعدّه للطبع ووضع فهرسه: عدنان درويش ومحمد المصري، 1998، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2.
- أبو البركات بن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، ومعه كتاب: الانتصاف من الإنصاف، تأليف: محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ت)، دار الفكر، القاهرة، ط1.
- أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، (د.ت)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3.
- أبو بكر محمد بن السراج، رسالة الاشتقاق، تحقيق: محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري، 1972، مكتبة جامعة اليرموك، سوريا.
- الخطيب القزويني وابن يعقوب المغربي وبهاء الدين السبكي، شروح التلخيص، (د.ت)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط).
- أبو زكريا يحيى الفراء، معاني القرآن، 1983، عالم الكتب، بيروت، ط3.
- ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: أبو فهر محمود محمد شاکر، (د.ت)، دار المدني، جدة، (د.ط).

- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، 1988، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3.
- أبو سعيد السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، 2008، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، 1981، دار الجيل، سوريا، ط5.
- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، 1985، دار العلوم، الرياض.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاکر، (د. ت)، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، (د. ط).
- أبو علي الفارسي، شرح الأبيات المشككة الإعراب المسمى إيضاح الشعر، حققه: حسن هنداي، 1987، دار القلم، دمشق، دار العلوم والثقافة، بيروت، ط1.
- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، 1952، المكتبة العلمية عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1.
- أبو القاسم الزمخشري، المفصل في علم العربية، دراسة وتحقيق: فخر صالح قدارة، 2004، دار عمار، عمان، ط1.

#### المراجع:

- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 1978، مطبعة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط6.
- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، 1978، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط5.
- أوتو جيسبرسن، اللغة بين الفرد والمجتمع، ترجمه بتصرف وعلق عليه: عبد الرحمن محمد أيوب، (د. ت)، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، (د. ط).



- خديجة الحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، 1974، مطبوعات جامعة الكويت. سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ط1987، المكتب الإسلامي، بيروت.
- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، 2006، دار توبقال، الدار البيضاء، ط3.
- محمد عبدو فلغل، اللغة الشعرية عند النُحاة- دراسة للشاهد الشعري والضرورة الشعرية في النحو العربي، 2007، دار جرير، عمان، ط1.
- محمد حسن جبل، الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته، 1986، دار الفكر العربي، القاهرة.
- محمد عبد الله عطوات، منزلة الاستشهاد بالقرآن الكريم بين مصادر الاستشهاد الأخرى، 2005، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد: 100/99.
- محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، 1983، الأطلسي، الرباط.
- محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، 1990، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.
- محمد حماسة عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر (دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور)، ط2001، دار غريب، القاهرة.
- مصطفى ناصف، النحو والشعر قراءة في دلائل الإعجاز، أبريل 1981، مجلة فصول للنقد الأدبي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، الجزء الثاني، المجلد الأول، العدد الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، (د.ت)، الدار القومية، القاهرة، (د.ط).
- محمد حماسة عبد اللطيف، لغة الشعر: دراسة في الضرورة الشعرية، 1996، دار الشروق، بيروت، ط1.
- محمود أحمد نحلة، أصول النحو العربي، 1987، دار العلوم العربية، بيروت، ط1.

- محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، 2000، دار الشروق، القاهرة، ط1.
- محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ط2003، دار غريب، القاهرة.
- محمد عبدو فلفل، في التشكيل اللغوي للشعر مقاربات في النظرية والتطبيق، 2013، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ط1.
- كولريدج، النظرية الرومانتيكية في الشعر: سيرة أدبية لكولريدج، ترجمة: عبد الحكيم حسّان، ط1971، دار المعارف، مصر.
- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، 2014، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1.
- يحيى عبد الرؤوف جبر، الشاهد اللغوي، 1992، مجلة النجاح للأبحاث، المجلد الثاني، العدد السادس، فلسطين.

# التبادل الصرفي بين صيغتي "فَعِلٍ وفَاعِلٍ" في القرآن الكريم وأثره في توجيه المعنى عند القراء السبعة

د. الصادق على وداعة

أستاذ مشارك  
جامعة سنار  
السودان



## ملخص:

يهدف هذا البحث الى معرفة التبادل الصرفي بين صيغتي (فَعِلٍ) و(فَاعِلٍ) في القرآن الكريم وأثره في توجيه المعنى عند القراء السبع ، وكذلك تعريف الصيغ الصرفية وبيان مفهومها ودلالاتها في القرآن الكريم ، تأتي أهمية هذا البحث من حيث ارتباطه بالقرآن الكريم وقراءاته وبيان شيء من معانيه وعلومه المختلفة ، اتبع الباحث المنهج الوصفي والتحليلي والاستقرائي ، وذلك من أجل استقراء الصيغ الصرفية التي تعترض التبادلات وما ذكره العلماء في معانيها ودلالاتها ، ختاماً توصل الباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات أهمها : أن الخلاف بين العلماء قديم في دلالة الصيغتين ، ويعود الخلاف إلى أن (فَعِلٍ) و(فَاعِلٍ) تتشابهان في عدة جوانب من حيث اللغة والمعنى ، الصيغتان -فَعِلٍ وفَاعِلٍ- بينهما تداخل بين يظهر في اختيارات القراء وتوجيهات ، وأخيراً يوصي بدراسة دلالة التبادل الصرفي بين الصيغ الصرفية المختلفة في القرآن الكريم ودلالاتها ومعانيها عند المفسرين واللغويين.

كلمات مفتاحية: القراءات القرآنية - التبادل - الصرفي - القراء السبعة - الصيغ الصرفية.

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

وداعة، الصادق علي- (2024، أكتوبر). التبادل الصرفي بين صيغتي "فَعِلٍ وفَاعِلٍ" في القرآن الكريم وأثره في توجيه المعنى عند القراء السبعة. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 480-498.

## Abstract:

This research exchanged the exchange between the two forms of (fa'il) and (fa'il) in the Holy Qur'an and its effect in directing meaning among the seven reciters. The readings of the Holy Qur'an represent a rich field of knowledge for interpretive and analytical study, because it contains a full momentum of different interpretive formations. This research aimed to Defining morphological forms and explaining their concept and connotations in the Holy Qur'an. Using this research in the relationship with the Holy Qur'an and its readings and explaining some of its different meanings and sciences. He followed the descriptive and inductive, in order to extrapolate the morphological forms that are considered interchanges and what the scholars said about their meanings. Finally, the researcher reached a number Among the findings and recommendations, the most important are: The Qur'anic readings are a group of issues related to the differences in operators of the Book of God in deletion, agitation, movement, separation, connection, etc. in the form of pronunciation and substitution in terms of listening. The reason between the forms (verb) and (subject) is that the two forms are similar in several linguistic aspects.

**Keywords :** Qur'anic readings - exchange - the seven reciters - morphological formulas.

## مقدمة

تعدّ القراءات القرآنية حقلاً معرفياً خصباً للدراسة والبحث في شتى العلوم وخاصة اللغوية منها، حيث تتجلى فيها مظاهر الإعجاز واضحة، بما احتوته من ظواهر لغوية ونحوية وصرفية، وتتميز اللغة العربية عموماً بوفرة الصيغ الصرفية لاسيما في ميدان أبنية الأفعال والأسماء وتمثل قراءات القرآن الكريم مجال معرفياً ثرياً للدراسة والبحث والتحليل، لما تحويه من زخم هائل من التشكيلات اللغوية المختلفة، تتجلى فيها مظاهر الإعجاز بشكل واضح، ودراسة هذه التشكيلات المختلفة وما يتبعها تعطي الدراسة نفساً متجدداً للتعامل مع القرآن الكريم في مختلف جوانبها.

أسباب اختيار البحث:

وتتمثل في الآتي:

1. الوقوف على حجج ودوافع العلماء في مسألة تبادل الصيغ الصرفية في القراءات القرآنية؛
2. معرفة المواضع التي ورد فيها التبادل الصرفي بين صيغتي (فعل) و(فاعِل) عند القراء السبعة.

أهمية البحث:

وتكمن أهمية البحث في الآتي:

1. أنه يرتبط بالقرآن الكريم وبيان شيء من معانيه وعلومه؛
2. فيه إظهاراً لفائدة الخلاف بين القراءات وأثره في المعنى مما يرفع من تلك المسائل المختلف فيها ويبين أهميتها ودراستها وحججها؛
3. كونه يرتبط بين علمي الصرف والقراءات القرآنية.

ويكشف عن التصور والتطبيق العلمي لدلالات الصيغ الصرفية في الدرس العربي ودلالاتها عند القراء السبع .

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الآتي:

1. تتبع أراء القراء واللغويين في ظاهرة التبادل الصرفي بين الصيغ والمفردات الواردة في بعض الآيات، ومعرفة الحجج التي استند عليها كل من الفريقين؛
2. دراسة ظاهرة التبادل الصرفي لهذه الصيغ من خلال تطبيقاتها على نصوص القرآن الكريم بقراءاته السبع المتواترة؛
3. بيان مدى الفروق الدلالية المبنية على اختلاف الصيغ الصرفية في المادة المعجمية  
الواحدة .

#### مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الكشف عن تأثير دلالات الصيغ الصرفية في تشكيل أكثر من معنى واحد وتحديد اتجاهه ومعناه عند القراء السبعة .

#### منهج البحث:

اتبع الباحث المنهج الوصفي والاستقرائي، وذلك من أجل استقراء الصيغ الصرفية التي يعتريها التبادلات وجميع ما قاله العلماء في معانيها.

#### الدراسات السابقة:

تعددت البحوث التي تناولت الصيغ الصرفية ومعانيها الدلالية واللغوية والصوتية، إلا أن هذا البحث ينحى منحى جديداً في عرض القضية متخذاً من التبادل والتناوب بين هذه الصيغ الفكرة الرئيسة له ومطبقاً ذلك على القرآن الكريم بقراءاته السبع المتواترة.

#### هيكل البحث:

- ملخص.
- مقدمة.
- المحور الأول: مفهوم القراءات - نشأتها ، وأقسامها ، وعددها ، ومن هم القراء السبع.
- المحور الثاني: الدراسة التطبيقية : التبادل الصرفي بين صيغتي (فَاعِل) و(فَعِل) عند القراء السبعة.
- خاتمة.
- أهم المصادر والمراجع.

المحور الأول: مفهوم القراءات: نشأتها، وأقسامها، وعددها، ومن هم القراء السبع

أولاً. تعريف القراءات لغةً:

القراءات جمع مفردتها "قراءة" مأخوذة من مادة: (ق ر أ) وتدور في لسان العرب حول معنى الجمع والاجتماع<sup>1</sup>، والقراءة مصدر: "قرأ - يقرأ - قراءة" فهو قارئ، وهم قراء وقارئون<sup>2</sup>.

فالقراءة مصدر من قول القائل: قرأت الشيء، إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض، ومعنى قرأت القرآن بناء على هذا المعنى: أي لفظت به مجموعاً<sup>3</sup>.

وفرق ابن قيم الجوزية بين قرئ - يقرئ، وبين قرأ - يقرأ: فالأول من باب الياء من المعتل ومعناها: الجمع والاجتماع، والثانية من باب الهمز ومعناها الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد ومنه قراءة القرآن، لأن قارئه يظهره ويخرجه مقداراً محدداً لا يزيد ولا ينقص، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17] ففرق بين الجمع والقرآن ولو كان واحداً لكان تكريراً محضاً<sup>4</sup>.

ثانياً. تعريف القراءات اصطلاحاً:

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تعريفهم مصطلح القراءات القرآنية إلى عدة تعريفات:

- تعريف أبي حيان الأندلسي: علم القراءات: هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الفردية والتركيبية ومعانيها، التي تجمل علمها حال التركيب وتتمت ذلك<sup>5</sup>.

فعلم القراءات عند أبي حيان رحمه الله هو العلم الذي يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن.

<sup>1</sup> ابن فارس احمد، معجم مقاييس اللغة، ج 5، ص 79.

<sup>2</sup> الزبيدي، محمد بن مرتضي، تاج العروس، ص 101.

<sup>3</sup> ابن منظور الافرقي، لسان العرب، ج 1، ص 128.

<sup>4</sup> ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، تحقيق / عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة. بيروت، الطبعة السادسة 1405هـ، ج 5، ص 635.

<sup>5</sup> أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 1، ص 14.

- تعريف بدر الدين الزركشي: عرّف القراءات قائلاً: هو الوحي المنزل على نبينا محمد صل الله عليه وسلم للبيان والإعجاز والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبه الحروف أو كيفياتها من تخفيف أو تثقيل وغيرهما<sup>1</sup>.

- تعريف شمس الدين ابن الجوزي: القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو النقل<sup>2</sup>.

- تعريف جلال الدين السيوطي: عرّف الإمام السيوطي القراءات أثناء حديثه عن العالي والنازل من أسانيد القرآن حيث قال: "ومما يشبه هذا التقسيم الذي لأهل الحديث ، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه ، فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الطرق والروايات فهو قراءة..."<sup>3</sup>.

- تعريف الزرقاني: عرّفها قائلاً: مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء كانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها<sup>4</sup>.

- تعريف عبد الفتاح القاضي: عرّف الإمام القاضي القراءات في قوله: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية وطريق أدائها اتفاقاً واختلافاً مع عزو كل وجه لناقله<sup>5</sup>.

- تعريف محمد سالم محيسن: عرّفها قائلاً: علم بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها من تخفيف وتثديد واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف بعزو النقلة<sup>6</sup>.

ومن خلال هذه التعريفات المختلفة نستنتج ما يلي:

إن تعريف أبي حيان هو أقرب إلى موضوع التجويد منه إلى تعريف القراءات، حيث ركز تعريفه على كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها..

<sup>1</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مطبعة عيسى بابي الحلبي، الطبعة الأولى 1956-1376هـ، ج1، ص 318.

<sup>2</sup> ابن الجزري، محمد بن يوسف، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ص5.

<sup>3</sup> السيوطي، جلال الدين بن بكر، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق / محمد أبو الفضل، دار التراث - القاهرة، 1405هـ، ج1، ص 209.

<sup>4</sup> الزرقاني، مناهل العرفان، ج6، ص120

<sup>5</sup> النشار، سراج الدين بن عمرو، البدور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة، ص7.

<sup>6</sup> محيسن، محمد سالم، القراءات وأثرها في العربية، ص66.

والإمام الزركشي قصر تعريفه على نوع معين من الاختلاف تمثل في كتبة الحروف أو كيفياتها من تخفيف وتثقيل، ولم يشير بوضوح إلى الاختلاف في اللغة، والإعراب، والحذف، والإثبات.

وخلاصة القول أن القراءات: علم مجموع المسائل المتعلقة باختلاف الناقلين لكتاب الله تعالى في الحذف والإثبات والتحريك والإسكان والفصل والوصل وغير ذلك من هيئة النطق الإبدال من حيث السماع، أو نقول: مجموعة المسائل المتعلقة باختلاف الناقلين لكتاب الله تبارك وتعالى من جهة اللغة والإعراب والحذف والإثبات والفصل من حيث النقل.

### ثالثاً. عدد القراءات:

القراءات السبعة المشهورة، وهي التي جمعها ابن مجاهد (ت324هـ) وهي كالآتي:

1. قراءة عبد الله بن عامر اليحصبي (ت118هـ).
2. قراءة عبد الله بن كثير الداري (ت120هـ).
3. قراءة عاصم بن بهدلة أبي النجود (ت127هـ).
4. قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت154هـ).
5. قراءة حمزة بن حبيب الزيات (ت156هـ).
6. قراءة أبي عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (ت169هـ).
7. قراءة علي بن حمزة الكسائي (ت189هـ).

### رابعاً. أقسام القراءات:

تم تقسيم القراءات من جانبين:

- من جهة النقل؛
- من جهة القبول.

### أ: أقسام القراءات من جهة النقل:

وتنقسم إلى قسمين:

- 1- قراءة متواترة؛
- 2- قراءة أحادية؛ وهي قسمان: أ- قراءة مشهورة؛ ب- قراءة غير مشهورة.



القراءة المتواتر: هي القراءة التي رواها جماعة عن جماعة (من غير تعيين عدد على الصحيح) كذا إلى منتهاها يتمتع عادة تواطؤهم على الكذب<sup>1</sup>.

القراءة الأحادية: هي القراءة التي صح سندها ولم تبلغ درجة التواتر، ووافقت رسم المصحف ولو احتمالاً، ووافقت وجهها من العربية، واشتهرت عند القراء بالقبول<sup>2</sup>.

قال القسطلاني: القراءات بالنسبة للتواتر وعدمه ثلاثة أقسام: قسم اتفق على تواتره، وهم السبعة المشهورة، وقسم اختلف فيه، وهم الثلاثة بعدها، وقسم اتفق على شذوذه، وهم الأربعة الباقية<sup>3</sup>.

وقال ابن الجزري: والذي وصل إلينا اليوم متواتراً وصحيحاً مقطوعاً به، قراءات الأئمة العشرة ورواتهم المشهورين، هذا الذي تحرر من أقوال العلماء، وعليه الناس اليوم بالعراق والشام ومصر والحجاز<sup>4</sup>.

#### ب: أقسام القراءات من جهة القبول :

تنقسم القراءات من جهة قبولها إلى ثلاثة أقسام:

- قسم القراءات المقبولة.

- قسم القراءات المردودة.

- قسم القراءات المتوقف فيها.

القراءات المقبولة، وهي نوعان: أ- القراءة المتواترة ب- القراءة الصحيحة مشهورة.

القراءات المردودة، وهي ثلاثة أنواع: أ- القراءة التي صح سندها ووافقت الرسم وخالفت

العربية ب- القراءة التي لم يصح سندها ج- القراءة التي لا سند لها.

القراءات المتوقف فيها، وهي كل قراءة صح سندها ووافقت العربية وخالفت رسم

المصحف.

<sup>1</sup> ابن الجزري، ص ٢٣.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 15.

<sup>3</sup> القسطلاني، شهاب الدين، لطائف الإشارات لفنون القراءات، ج 1، ص 139.

<sup>4</sup> ابن الجزري، ص 23.

## المحور الثاني: الدراسة التطبيقية

## التبادل الصرفي بين صيغتي (فَعِل) و(فَاعِل) عند القراء السبع:

إن التبادل بين (فَعِل) و(فَاعِل) كثير في اللغة، والخلاف بين العلماء قديم في دلالة الصيغتين، ويعود الخلاف إلى أن (فَعِل) و(فَاعِل) تتشابهان في عدة جوانب، فصيغة (فَعِل) تكون اسماً كقولك: كَيْدٌ وَكَتِفٌ، وتكون صفة كقولك: حَذِرٌ وَوَجِعٌ، وصيغة (فَاعِل) أيضاً تكون اسماً كقولك: كَاهِلٌ وَغَارِبٌ، وتكون صفة، ضاربٌ وَقَاتِلٌ، واسم الفاعل من (فَعِل) يكون على (فَاعِل) مثل لَعِبَ فهو لَاعِبٌ.

ولكن هذا التشابه يدفع بالاختلاف الواقع بينهما في:

1. إفادة (فَعِل) دون (فَاعِل) للمبالغة في الغالب، قال سيبويه: وسألته أي "الخليل" عن قولهم: مَوْتُ مَائِتٌ، وَشَغْلٌ شَاغِلٌ، وَشَعْرٌ شَاعِرٌ، فقال: إنما يريدون المبالغة والإجادة، وهو بمنزلة همٍّ ناصِبٌ وعيشةً راضيةً<sup>1</sup>.

2. تدل (فَاعِل) على الصفة الحادثة غير الملازمة لصاحبها غالباً، وتدل (فَعِل) عن الصفة الملازمة التي لا تنفك عن صاحبها<sup>2</sup>، كما قيل: "رجلٌ حاذِرٌ الآن، و"رجلٌ حَذِرٌ" فلا تلقاه إلا وهو حَذِرٌ.

3. تكون (فَاعِل) اسم فاعل، وتكون (فَعِل) صفة مشبه باسم الفاعل، وقد قيل ذلك في توجيه بعض القراءات، كما هو في قوله تعالى: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: 23] اسم فاعل، أي لَبِثِينَ في المستقبل، فهاتان الصيغتان -فَعِلٌ وفَاعِلٌ- بينهما تداخل بيّن يظهر في اختيارات القراء وتوجيهات العلماء، وسيتناول الباحث أقوالهم واختلافاتهم في عدد من المواضع في القرآن الكريم.

## أولاً: التبادل بين قراءة: ﴿مَالِكٌ﴾ و﴿مَلِكٌ﴾:

الكسائي وعاصم يقرآن: ﴿مَالِكٌ﴾ على وزن فاعل، وبقية السبعة وهم نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة يقرؤون: ﴿مَلِكٌ﴾ على وزن فَعِلٍ<sup>3</sup>، وانقسم العلماء في توجيه هذا الخلاف إلى قسمين:

<sup>1</sup> سيبويه، أبو عمرو عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق / عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى (د.ت)، ج3، 385.

<sup>2</sup> السيوطي، جلال الدين بن أبي بكر هـم الهوامع شرح جمع الجوامع، تحقيق / عبد العال مكرم، الطبعة الأولى 1421هـ، ج6، 57.

<sup>3</sup> الدمشقي، أبي شامة، إبراز المعاني من حرز الأمان، تحقيق / إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى الحلبي - مصر، ص70.

الأول: يذهب إلى أنهما لغتان والمعنى واحد، وإن كسر الميم في مصدر (مَالِك) وهو "مَلِك" وضمها في مصدر (مَلِك) وهو "مُلْك"، لا يعدو كونهما لغتين، وأن المعنى لا يتغير<sup>1</sup>.

الثاني: يرى أنهما مختلفين، وقد فصلوا في اختلاف المعنى بين الصيغتين، إلا أنهم جميعاً ينطلقون من فكرة العموم والخصوص، ويظهر ذلك من خلال حجج استعراض المؤيدين لكل قراءة.

### حجج من قرأ: ﴿مَالِك﴾:

أن المَلِك داخل تحت المالك<sup>2</sup>، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ آل عمران: 26.

وقد ردَّ العلماء على حجتهم هذه بقولهم: "فهم يستدلون بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ حيث دخل المَلِك في المَلِك، لتكون قراءة ﴿مَالِك﴾ أعمَّ من ﴿مَلِك﴾ ولكن المَلِك في آية آل عمران مطلق، وليس محددًا بنسبة معينة، وأما في ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ فإنه محدد، فالمَلِك (مصدر ملك) والمَلِك (مصدر مالك) مضافتان ليوم الدين، ومن كان ملك ليوم الدين فهو مالك له<sup>3</sup>.

1. إن أول من قرأ: ﴿مَلِك﴾ هو مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي، وقد اختلف في نسبته للصحابة أو التابعين، والحق أنه من الصحابة، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مات وعمر مروان ثمان سنوات<sup>4</sup>، فكيف له في هذه السن أن ينفرد بقراءة يخالف بها الجمهور

2. أن من قرأ: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أراد أنه يملك الدين والحساب لا يليه سواه<sup>5</sup>، فالقراءة هنا تثبت المَلِك دون المَلِك.

3. أن في ﴿مَالِك﴾ زيادة في المبنى، وهذا يقتضي زيادة في المعنى، فكانت أولى من ﴿مَلِك﴾<sup>6</sup>، كما أن فيها زيادة في الأجر القارئ لزيادة حرف الألف في ﴿مَالِك﴾.

<sup>1</sup> أبو حيان الأندلسي البحر المحيط، تحقيق/ الشيخ أحمد عاطف، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت 1422هـ، ج 1، ص 136.

<sup>2</sup> ابن خالويه، الحسين بن احمد، الحجة في القراءات السبع، تحقيق / أحمد الزبيدي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ ص 20.

<sup>3</sup> الأندلسي ابن عطية، المحرر الوجيز، ج 1، ص 22.

<sup>4</sup> الدمشقي، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق / عبد الرحمن اللاذقي، دار المعرفة - لبنان، الطبعة الرابعة 1419هـ ج 8، ص 675.

<sup>5</sup> الفارسي، ابو علي، الحجة، ج 1، ص 34، وأنظر: البحر المحيط ج 1، ص 138.

<sup>6</sup> المرجع السابق، ج 1، ص 35.

4. ورد عليهم: ولا يسلم لهم بزيادة المعنى لزيادة المبنى لانتقاض هذا القول في مواطن كثيرة، وأما زيادة أجر القارئ، فلو كان طول القراءة وقصرها مسوغاً للاختيار بين القراءات لما عجز عنه قارئ ولا راو، ولكن المعول عليه في الأمر صحة الرواية والسند.

حجج من قرأ: ﴿مَلِكٌ﴾: وقد احتجوا بحجج كثيرة أهمها:

1. أن الملك أخص من المالك، لأن المالك قد يكون غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكاً، وهذه حجة مستقيمة لو لم تكن مرتبطة بمضاف إليه واحد، كما هو في القراءتين: ﴿مَالِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ و ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، فإن اتحد المملوك فإن للمالك الملك في مملوكه، بل هو الذي يختار الملك أو يعزله.

2. أن من قرأها: ﴿مَالِكٍ﴾ بألف يلزمه أن يقرأ: (قل أعوذ برب الناس مالك الناس) بألف أيضاً، وذكر هارون أن أبا عمرو أيد هذه الحجة، ونقل عنه قوله: أفلا يقرؤون: (فتعالى الله المالك الحق). طه (114)<sup>2</sup>

3. أن الله قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2] فلا فائدة في تكريره ذكر ما قد مضى ذكره من غير فصل بينهما بذكر معنى غيره، وهو قول ابن السراج<sup>3</sup>.

4. أن الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقراءته: ﴿مَلِكٍ﴾ أصح اسناداً من الخبر بقراءته: ﴿مَالِكٍ﴾.

5. أن ﴿مَلِكٍ﴾ أمدح من قراءة: ﴿مَالِكٍ﴾ ولكن ﴿مَالِكٍ﴾ أعم من ﴿مَلِكٍ﴾ إذا ارتبطت بيوم الدين الذي تجتمع فيه الخلائق، مما يعقل ومما لا يعقل.

ثانياً: التبادل بين قراءة: ﴿حَازِرُونَ﴾ و ﴿حَازِرُونَ﴾:

قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿حَازِرُونَ﴾ بالمد على وزن فاعلون، وقرأ الباقيون وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وهشام: ﴿حَازِرُونَ﴾ بالقصر على وزن فَعِلُونَ، من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾ [الشعراء: 56].

<sup>1</sup> الزمخشري، الكشاف، تحقيق / محمد شاهين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة 1434هـ، ج1، ص21.

<sup>2</sup> الفارسي، أبو علي، الحجة، ج1/ص32.

<sup>3</sup> الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج1، ص138، وانظر: الدر المنصور، ج1، ص49.

لم يتفق العلماء على توجيه القراءتين هنا أيضا، فمنهم من عدها بمعنى واحد، والخلاف من قبيل تعدد اللغات ومنهم: أبو عبيدة، وسيبويه<sup>1</sup>، ومنهم من فرق بين القراءتين، وأورد لكل منهما معنى مغايراً، ومن ذلك قولهم: الحاذر: هو الخائف مما يري فقط، وأما الحذر: فهو المتيقظ الذي لا تلاقاه إلا حذراً.<sup>2</sup>

واحتج من اختار ﴿حَذِرُونَ﴾ بأن اسم الفاعل قد جاء على وزن فعل كقولك: نَجِرْ وَعَجِلْ، وأنه على سبيل المبالغة، وهو الأنسب في مقام استعراض القوة، لأن فرعون يخبر عن جنده ليدفعهم لملاحقة المؤمنين.<sup>3</sup>

واحتج من اختار قراءة: ﴿حَاذِرُونَ﴾ بأنه أتى على أصل ما أوجبه القياس في اسم الفاعل، كقولك: عَلِمَ فهو عَالِمٌ، فهذه القراءة ه اختيار ابن مسعود رضي الله عنه.<sup>4</sup> وقال الكسائي: أصلهما واحد من الحذر، لأن المتسلح إنما يتسلح مخافة القتل، والعرب تقول: هو حَاذِرٌ وحَذِرٌ، أي قد أخذ حذره<sup>5</sup>. فهو هنا يوافق بين القراءتين.

### ثالثاً: التبادل بين قراءة ﴿فَارِهِينَ﴾ و﴿فَرِهِينَ﴾:

قرأ عامر، وعاصم، حمزة، و الكسائي: ﴿فَارِهِينَ﴾ بالألف، وأما الباقون وهم: نافع، ابن كثير، وأبو عمرو فيقرؤون ﴿فَرِهِينَ﴾ بحذف الألف، وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَتَنْجُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: 149]

والخلاف في هذا الموضع ينحصر في رد القراءتين إلى معنيين مختلفين، أو إلى معنى واحد، فمن فرق بين القراءتين قال إن: ﴿فَارِهِينَ﴾ بالمد بمعنى حاذقين، و﴿فَرِهِينَ﴾ بالقصر بمعنى أشرين وبطرين من خير<sup>6</sup>. وكلاهما يستقيم مع المعنى العام للآية، واحتجوا بأن ﴿فَارِهِينَ﴾ بالمد مشتقة من فره بضم الراء وهو الحذق، قال الفراء: معنى فارهين أي حاذقين<sup>7</sup>، وأن ﴿فَرِهِينَ﴾ بالقصر

<sup>1</sup> الفراء، أبو زكريا يحيى، إعراب القرآن، ج 3، ص 180، أنظر: البحر المحيط، ج 7، ص 16، الدر المنصور، ج 8، ص 522.

<sup>2</sup> الأزهري، أبو منصور، علل القراءات، ج 2، ص 473.

<sup>3</sup> النحاس، أبو جعفر أحمد، إعراب القرآن، ج 3، ص 180.

<sup>4</sup> ابن خالويه، محمد بن يوسف، الحجة، ص 166.

<sup>5</sup> أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد، حجة القراءات، ص 517.

<sup>6</sup> الأزهري، أبو منصور، علل القراءات، ج 2، ص 34.

<sup>7</sup> الفراء، أبو زكريا، معاني القرآن، ج 2، ص 282، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثالثة 1403 هـ.

من الفرح، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76] أي الأشقرين البطرين، وقيل إن فرحين وفرهين بمعنى واحد، وإنما حصل الإبدال من الحاء إلى الهاء<sup>1</sup>.

والذين قالوا: إنهما بمعنى واحد منهم: أبو عبيدة وقطرب، واللفظة عندهم مشتقة من الفراهة وهي جودة منظر الشيء وخبرته وقوته وكماله في نوع<sup>2</sup>. واحتج من جعلهما بمعنى واحد بأن الحذف، والنشاط في العمل والصناعة يبعثان على الأشهر والبطر.

ويفرق أبو علي بين الخلاف في ﴿فَارِهَيْنِ﴾ والخلاف في ﴿حَاذِرُونَ﴾ بأن ﴿فَارِهَيْنِ﴾ بالمد لا تفيد الحال فقط كما سبق في ﴿حَاذِرُونَ﴾ بالمد و﴿قَرِهَيْنِ﴾ بالقصر تفيد الماضي والحال والاستقبال، وليس هذا من باب: "بَعِيرُكَ صَائِدًا غَدًا"<sup>3</sup>.

#### رابعا: التبادل بين قراءة: ﴿ءَاسِنٍ﴾ و﴿أَسِنَّ﴾:

قرأ ابن كثير: ﴿أَسِنَّ﴾ بالقصر، وقرأ الباقر وهم: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿ءَاسِنٍ﴾ بالمد في قوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: 15] وأكثر العلماء يعد القراءتين لغتين معنى واحد، فقالوا: إن ﴿ءَاسِنٍ﴾ بالمد على وزن فاعل من أسن يأسن فهو آسِن، وبالقصر على وزن فَعِلَ من آسِن يأسِن فهو آسِن، فما كان على فَعِلَ يفعل يكون اسم الفاعل منه على فَعِلَ، وأما المعنى فهو واحد وهو: التغير في الريح والطعم<sup>4</sup>.

وفرق أبو الحسن الأخفش بينهما في المعنى، فبين أن ﴿أَسِنَّ﴾ على وزن فَعِلَ تكون لحالته التي هو عليها، فهو ليس بمتغير الآن، وأما ﴿ءَاسِنٍ﴾ على وزن فاعل فإنما يريد أن ذلك لا يصير إليه فيما يستقبل، فهو من باب: "بَعِيرُكَ صَائِدًا غَدًا".

وقيل: إن ﴿أَسِنَّ﴾ بالقصر للرجل الذي ينزل البئر التي طال عهد المستقيين بها فدير برأسه، فلا يقال فيه إلا بالقصر: ﴿أَسِنَّ﴾<sup>5</sup>.

#### خامساً: التبادل في قراءة: ﴿ءَانِفًا﴾ و﴿أَنِفًا﴾:

نقل الشاطبي في لاميته الخلف عن البزّي عن ابن كثير في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ أَنِفًا﴾ [محمد: 16] فأورد للبزّي القصر ﴿أَنِفًا﴾، والمد ﴿ءَانِفًا﴾ والذي عليه المحققون في علم القراءات،

<sup>1</sup> النحاس، إعراب القرآن، ج3، ص187.

<sup>2</sup> الاندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز، ج4، ص240.

<sup>3</sup> الفارسي، أبو علي، الحجة، ج3، ص225.

<sup>4</sup> البصري، أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ج2، ص415.

<sup>5</sup> الأزهرى أبو منصور، علل القراءات، ج2، ص631.

أن البزّي يقرأ بإثبات الألف، ويمدها مدّاً بدل من قولاً واحداً كباقي القراء<sup>1</sup>، وقد ورد القصر في التيسير - وهو أصل الشاطبية - في ﴿ءَانِفًا﴾ ولكنه ضعيف.<sup>2</sup>

سادساً: التبادل في قراءة: ﴿لَابِثِينَ﴾ و﴿لَبِثِينَ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي: ﴿لَابِثِينَ﴾ بالمد بعد اللام، وقرأ حمزة: ﴿لَبِثِينَ﴾ بالقصر، وذلك من قوله تعالى: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: 23] فمن أثبت الألف جاء به على القياس في اسم الفاعل، ومن قصر جاء به على فَرِحَ وحذِرَ، وكلتاهما من اللبث وهو: طول الإقامة.<sup>3</sup>

ولكل من القراءتين مؤيد ومعارض، فالذين أيدوا قراءة ﴿لَابِثِينَ﴾ وجعلوها أقوى من قراءة ﴿لَبِثِينَ﴾ احتجوا بحجج أبرزها:

1. أن قراءة ﴿لَابِثِينَ﴾ بالمد على فاعل تدل على الاستقبال، والتعبير بما يدل على الاستقبال أقوى من التعبير بما يفيد الحال.<sup>4</sup>
2. لأن إعمال ما كان على وزن (فاعل) أكثر من إعمال ما كان على وزن (فَعِل)، ولما كانت كلمة (أَحْقَابًا) منصوبة، فإن القراءة بالمد على فاعل، أقوى من القراءة بالقصر على فَعِل.<sup>5</sup>
3. مجي مصدره ساكن العين (لُبِثَ) فقياس اسم الفاعل فيه على فاعل، ومثله شَرِبَ فهو شارب، لِقِمَ فهو لا قِم.
4. أن قراءة القصر منقطعة السند، ومن قرأها كذلك فلعله وجدها مرسومة دون ألف، فتوهم أنها بالقصر.<sup>6</sup>
5. بين أصحاب قراءة: ﴿لَابِثِينَ﴾ أنها قراءة صحيحة عن حمزة، وعلقمة بن وثّاب، وعمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل، وابن جبير عن ابن مسعود.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> أبو شامة، شهاب الدين، إبراز المعاني، ص 687، الوافي في شرح الشاطبية، ص 236.

<sup>2</sup> الداني، أبو عمرو، التيسير، ص 163.

<sup>3</sup> ابن خالويه، محمد بن يوسف، الحجة، ص 27.

<sup>4</sup> المرجع السابق، ص 29.

<sup>5</sup> أبو شامة، شهاب، إبراز المعاني، ص 718.

<sup>6</sup> النحاس، أبو جعفر أحمد إعراب القرآن ج 5، ص 129.

<sup>7</sup> الاندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز: ج 5، ص 426.

## سابعاً: التبادل بين قراءة: ﴿نَخْرَةً﴾ و﴿نَخْرَةً﴾:

قرأ حمزة، والكسائي، وشعبة بن عاصم: ﴿نَخْرَةً﴾ بالقصر، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿نَخْرَةً﴾ بالمد، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً﴾ [النازعات: 11] وهذا الموضع كغيره من المواضع السابقة، فمن العلماء من ذهب إلى أنهما لغتان بمعنى: عظم بال، ومنهم أبو عبيدة، وأبو علي، وأبو حاتم، وأبو عمرو، والفراء<sup>1</sup>، وفي اللسان: النخرة والناخرة، سواء في المعنى بمنزلة الطامع والطمع<sup>2</sup>.

ومنهم من رأى بينهما فرقاً في المعنى، وكان التفريق عنده من جهتين:

1. أن (نَخْرَةً) بمعنى: رُمَّ وَبَلَى، و(نَاخِرَةً) بمعنى الفارغة المجوفة التي تمر فيها الريح فتصدر صوتاً كالنخير.

2. وذكروا أن ما كان من وصف لمنتظر لم يكن فهو ﴿نَخْرَةً﴾ بالألف، وما كان وقع فهو بغير ألف: ﴿نَخْرَةً﴾ قال اليزيدي: يقال عظم نخر، وناخر غدا<sup>3</sup>.

3. واحتج من قرأ: ﴿نَخْرَةً﴾ بالقصر، بأنها ابلغ في التعبير عن البلى والتعفن، وبأنها قراءة أربعة من القراء السبعة، وحفص عن عاصم، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين - والأعرج، وأبي رجاء، وجعفر، وشيبة، وأبي عبد الرحمن، وابن جبیر<sup>4</sup>.

4. واحتج من قرأ: ﴿نَخْرَةً﴾ بالمد أنها أقرب إلى فواصل الآيات التي قبلها والتي بعدها: (الْحَافِرَةِ) و(خَاسِرَةٍ)، وبأنها قراءة حمزة، وعاصم من رواية شعبة، والكسائي، وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، ومجاهد، وجمع من التابعين<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد، حجة القراءات، ص748.

<sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب، مادة "نخر".

<sup>3</sup> أبو زرعة، حجة القراءات، ص748.

<sup>4</sup> أبو شامة الدمشقي، ابراز المعاني، ص718.

<sup>5</sup> الأندلسي، ابن عطية، الوجيز، ج5، ص432. وعمل القراءات، ج2، ص745.



## الخاتمة:

وفي ختام هذا الدراسة توصل الباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات أهمها:

## أولاً: النتائج:

1. ان الخلاف بين العلماء قديم في دلالة الصيغتين، ويعود الخلاف إلى أن (فَعِلَ) و(فَاعِلَ) تتشابهان في عدة جوانب، فصيغة (فَعِلَ) تكون اسماً كقولك: (كَيْدٌ وَكَتِفٌ)، وتكون صفة كقولك: (حَذِرٌ وَوَجِعٌ)، وصيغة (فَاعِلَ) أيضاً وتكون اسماً كقولك: (كاهِلٌ وَغَارِبٌ)، وتكون صفة، (ضاربٌ وقاتلٌ) واسم الفاعل من (فَعِلَ) يكون على (فَاعِلَ) مثل لَعِبَ فهو لَاعِبٌ.
2. يعود الخلاف إلى أن (فَعِلَ) و(فَاعِلَ) تتشابهان في عدة جوانب من حيث اللغة والمعنى، الصيغتان -فَعِلَ وفَاعِلَ- بينهما تداخل بَيَّن يظهر في اختيارات القراءة وتوجيهات.
3. في قراءة: ﴿مَالِكٍ﴾ و﴿مَلِكٍ﴾ انقسم العلماء في توجيه هاتين القراءتين إلى قسمين: الأول: يذهب إلى أنهما لغتان والمعنى واحد، الثاني: يرى أنهما مختلفين، وقد فصلوا في اختلاف المعنى بين الصيغتين، إلا أنهم جميعاً ينطلقون من فكرة العموم والخصوص، ويظهر ذلك من خلال حجج استعراض المؤيدين لكل قراءة.
4. لم يتفق العلماء على توجيه قراءتي: ﴿حَذِرُونَ﴾ بالقصر، و﴿حَذِرُونَ﴾ بالمد، فمنهم من عدّها بمعنى واحد، والخلاف بينهم كان من قبيل تعدد اللغات، ومنهم: أبو عبيدة، وسيبويه، ومنهم من فرق بين القراءتين، وأورد لكل منهما معنى مغايراً، ومن ذلك قولهم: الحاذر: هو الخائف مما يري فقط، وأما الحذر: فهو المتيقظ الذي لا تلقاه إلا حذراً.
5. إن الخلاف في موضع ﴿فَرِهَيْنَ﴾ و﴿فَارِهَيْنَ﴾ ينحصر في رد القراءتين إلى معنيين مختلفين، أو إلى معنى واحد، فمن فرق بين القراءتين قال إن: ﴿فَارِهَيْنَ﴾ بالمد بمعنى: حاذقين، و﴿فَرِهَيْنَ﴾ بالقصر بمعنى: أشيرين و بطرين من خير، وكلاهما يستقيم مع المعنى العام للآية.
6. اختلف العلماء في صيغتي: ﴿نَخِرَةً﴾ بالقصر و﴿نَخِرَةً﴾ بالمد، فمنهم من ذهب إلى أنهما لغتان بمعنى: عظمٌ بالٍ، ومنهم أبو عبيدة، وأبو علي، وأبو حاتم، وأبو عمرو، والفراء، ومنهم من رأى بينهما فرقاً في المعنى ف(نَخِرَةً) بمعنى: رُمٌّ وَبَلَى، و(نَاخِرَةً) بمعنى الفارغة المجوفة التي تمر فيها الريح فتصدر صوتاً كالنخير.

ثانيا: التوصيات:

- 1- العناية بالبحث في مجال الدلالة الصرفية في القراءات القرآنية لأنها تمثل مجالا معرفيا ثريا للدراسة والبحث والتحليل، لما تحويه من زخم هائل من التشكيلات اللغوية المختلفة.
- 2- دراسة دلالة التبادل الصرفي بين الصيغ الصرفية المختلفة في القرآن الكريم ودلالاتها ومعانيها عند المفسرين واللغويين .

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراز المعاني من حرز الأماني، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بابي شامة الدمشقي، تحقيق / إبراهيم عطوة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- إعراب القراءات السبع وعللها، الحسين بن أحمد أبو عبد الله، ابن خالويه، تحقيق / د. عبد الرحمن العثيمين، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى 1413 هـ.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل، تحقيق / زهير غاندي زاهد، الناشر: عالم الكتب العلمية، الطبعة الثالثة 1409 هـ.
- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال السيوطي، تحقيق / محمد إبراهيم أبو الفضل، الناشر: دار التراث - القاهرة الطبعة الثالثة 1405 هـ.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بابي حيان الأندلسي، تحقيق / عادل أحمد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1422 هـ.
- البدور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة، أبو حفص سراج الدين عمر بن زين الدين الأنصاري النشار، تحقيق / أحمد عيسى المعصراوي، الناشر: دار النوادر للطباعة والنشر، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين بن محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٥٧ م - ١٣٧٦ هـ.
- التيسير في القراءات السبع، عثمان بن سعيد بن عثمان بن أبي عمرو الداني، تحقيق / أوتو تريزل، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 1421 هـ.
- الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد ابن خالويه أبو عبد الله، تحقيق / د. عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1420 هـ.

- الحجة للقراء السبعة ، الحسن بن عبد الغفار بن أحمد أبو على الفارسي ، تحقيق / كامل مصطفى الهنداوي ، الناشر : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى 1421هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق / جماعة من المختصين، من إصدارات وزارة الإرشاد والانباء ، دولة الكويت ، ١٣٨٥م-١٤٢٢هـ.
- حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد ابو زرعة بن زنجلة، تحقيق / سعيد الأفغاني، الناشر : دار الرسالة ١٤١٧هـ.
- حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع (متن الشاطبية) ، القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي ، تحقيق / محمد تميم الزعبي ، الناشر : دار الهدى -المدينة الطبعة الثالثة 1417هـ.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الشهير بالسمين الحلبي، تحقيق / د. أحمد الخراط، الناشر: دار القلم -دمشق، الطبعة الأولى 1406هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق / شهاب الدين أبو عمرو، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأول 1418هـ.
- النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري محمد بن يوسف ، تحقيق / د.محمد محيسن، القاهرة 1978م
- علل القراءات ، أبو منصور الأزهرى ، تحقيق / نوال إبراهيم الحلوة ، الطبعة الأولى 1412هـ.
- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق / عبد السلام هارون، الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة الأولى (د.ت).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي ، تحقيق / عبد السلام عبد الشافي ، الناشر : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى 1422هـ.

- المغني في توجيه القراءات العشر ، د. محمد سالم محيسن ، الناشر: دار الجيل - بيروت ، الطبعة الثانية 1408 هـ .
- لسان العرب ، ابن منظور ، تصحيح / أمين عبد الوهاب ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الثالثة 1419 هـ .
- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي الفراء ، الناشر : عالم الكتب ، الطبعة الثالثة 1423 هـ .
- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ، الناشر : دار الجيل - بيروت ، الطبعة الأولى (د.ت)
- منجد المقرئين ومرشد الطالبين ، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري محمد بن يوسف ، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت) .
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة (ت.د)
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، تحقيق / د.عبدالعال مكرم ، الناشر : عالم الكتب - بيروت 1421 هـ .

## المصطلح.. بأيّ منهج ندرّسه؟

### نجمة العيادي

باحثة في سلك الدكتوراه

مختبر: المجتمع والخطاب وتكامل المعارف، الكلية متعددة  
التخصصات بالناظور  
المغرب



### مقدمة

تُعالج هذه المقالة قضية المصطلح (Le terme) في علاقته بالإجراءات المنهجية التي على الباحث التقيّد بها إذا ما أراد الخروج بنتائج مثمرة من الأبحاث التي يحاول الاشتغال بها. ولذلك، جاءت لتبرّر العلاقة التفاعلية والتكاملية بين المنهج والمصطلح، باعتبار أنهما "صنوان، ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر"<sup>1</sup>. ومن هنا، يمكن القول إن المعرفة تُبنى من خلال تلك الإجراءات العامة والتفصيلية، التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ إذ بها يستعين الباحث في أعماله البحثية، وهي الأساس والعيّار<sup>2</sup> لقيام صرح الدّراسات والأبحاث في مختلف التخصصات العلمية، والحقول المعرفية.

وتستهدف مقالتنا، على وجه التحديد، بيان معالم منهجية الدراسة المصطلحية عند د. الشاهد البوشيخي؛ أحد أعمدة الدرس المصطلحي في العالم العربي الإسلامي عامة، وفي المغرب على الخصوص؛ وذلك من خلال الإجابة عن مجموعة من التساؤلات، من بينها: ما العلاقة بين المصطلح والمنهج؟ وكيف يمكن تتبع المصطلحات، النقدية وغير النقدية، في مختلف العلوم والتخصصات؟ وما هي الإجراءات المنهجية التي يمكنها أن تُسعفَ الباحث في دراسة المصطلحات، وقياس تطورها الدّلالي؟ وما أثر د. البوشيخي في تطور الأبحاث المصطلحية؟

<sup>1</sup> يوسف وغيلبي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 1429هـ/2008م، ص: 56.

<sup>2</sup> أبو عبد السلام الإدريسي، التأويل وعلوم العربية: الأعمال والاستعمال (علم النحو أنموذجا)، مقال نُشر ضمن كتاب بعنوان "اللسانيات والأدب: نحو رؤية تفاعلية وتكاملية لتحليل الخطاب"، تنسيق: كريم لخلاقة ومحمد الغريسي ومحمد أموحو، من منشورات مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف (ختم)، ط.1، 1444هـ/2022م، ص: 20.

## أولاً- المصطلح والمنهج: أي علاقة؟

للمنهج (La méthode) أهمية أكيدة في ضبط المصطلحات وتحديدتها ودراستها في مختلف العلوم والمجالات؛ ذلك أن "بين المنهج والمصطلح علاقة قرابة وثيقة، يجدر على الناقد وصلُّها.. إنهما صنوان، ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي. ودون ذلك يهتز الخطاب النقدي، وتذهب ربحه، ويفشل في القيام بوظيفته"<sup>1</sup>.

وعليه، يكون تحديد المنهج، وضبط النصوص وتتبعها في المصادر، السبيل الأقوم والأسلم لدراسة المصطلحات، وكشف دلالاتها، إذا ما تيسرت السُّبل لتحقيق ذلك؛ لأن العمل الدؤوب، والدراسة المتأنية والفاحصة للنصوص التراثية وغيرها، هو المنهج السليم لإنجاز دراسة جادة رصينة، قائمة على نظر ثاقب وتبصر عميق بمحتويات النصوص ودلالاتها وأبعادها. وجدير بالذكر أن الباحثين المتخصصين، في هذا الميدان، وضعوا مجموعة من الخطوات والإجراءات المنهجية الخاصة بضبط المصطلحات، وتحديد معانيها في المتون المدروسة...

يحدد الدكتورُ الشاهد البوشيخي معنيين للمنهج، الذي به تيسر عملية البحث والاشتغال في مجال المصطلح؛ فالمنهج بالمعنى العام عنده هو "طريقة البحث المهيمنة المؤطرة للمجهود البحثي المصطلحي كله، القائمة على رؤية معينة في التحليل والتعليل والهدف. وهذا الذي يوصف بالوصفي والتاريخي، أو ما أشبه ذلك، تميزا له عن غيره"<sup>2</sup>.

أما المنهج بالمعنى الخاص، فهو مجموع الإجراءات المتكاملة، والخطوات الجزئية المترتبة، التي يتبناها الباحث في شتى مفاصل دراسته المصطلحات كلَّ منها على حدة.. إنه "طريقة البحث المفصلة، المطبقة على كل مصطلح من المصطلحات المدروسة، في إطار منهج من مناهج الدراسة المصطلحية بالمفهوم العام. وهذا الذي يمكن تلخيص معالمه الكبرى، بإيجاز شديد، منذ الشروع فيه حتى الفراغ منه، في خمسة أركان، هي: الإحصاء، والدراسة المعجمية، والدراسة النصية، والدراسة المفهومية، والعرض المصطلحي"<sup>3</sup>. وهذا ما سيأتي تفصيله فيما بعد.

1 يوسف وغيلسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص: 56.

2 الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، سلسلة "دراسات مصطلحية"، رقم 2، مطبعة أنفو برينت، فاس، ط.3، يونيو 2004م، ص: 22.

3 المصدر نفسه، ص: 22-31، بتصرف.

## ثانيا- الأسس المنهجية للدراسة المصطلحية:

عمل الشاهد البوشيخي على تطبيق منهج الدراسة المصطلحية المذكور لتتبع معاني المصطلحات في عدد من النصوص التراثية والدينية، وأنجز في ذلك أعمالاً من الرصانة والنفاسة بمكان، يعرفها جيداً المهتمون بالدرس المصطلحي العربي بصفة عامة. وقد حظي مشروع الرجل بتتبع أو احتفالٍ قل نظيره؛ لأنه يطمح إلى تتبع المصطلحات في أي علم من العلوم، وفي أي مجال من المجالات، وذلك في أفق إنجاز مشروع "المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية العربية".

ومن هنا، فقد أُعدَّت دراسات جزئية عدة، تُعنى بهذا الأمر، في المغرب وفي غيره. وقد جاء على لسان أمجد الطرابلسي، في تقديمه كتاب "مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ"، الذي حظي صاحبه بشرف الإشراف عليه من قبل الطرابلسي رحمه الله، أن مثل تلك الدراسات هي الأصل في تطبيق منهج الدراسة المصطلحية، والمداخل إلى إنجاز المعجم المشار إليه آنفاً؛ إذ قال: "إنه من العبث، في مجال دراسة مصطلحاتنا النقدية والبلاغية، وتحديد مدلولاتها، التناول - منذ البداية - نحو معجم شامل، يتناول المؤلفين السابقين كلهم، والعصور جميعها"<sup>1</sup>. وقد أثنى د. أمجد على بحث الشاهد البوشيخي قائلاً: "(...) لهذا، كان من مزايا هذه التجربة التحديد الدقيق لإطارها في نطاق كتاب واحد من كتب أحد أعلام الدراسات البيانية وأقدمهم: أبي عثمان الجاحظ"<sup>2</sup>. ويعد هذا الكتاب من اللبنة والمحاولات الأولى التي أُرست صرح الدراسات المصطلحية الجزئية عندنا، وفيه تتبّع المصطلحات النقدية والبلاغية ومعانيها في كتاب الجاحظ (ت 255هـ)، في ما يُشكل إحدى الدراسات الجزئية في المجال المصطلحي، تلته مشاريع أخرى موسّعة ومعتمّقة، الهدف منها ضبط معاني المصطلحات في المتون النقدية، وغيرها، التي عمّدت إلى دراستها.

وقد اعتمد الشاهد البوشيخي، ومن سار على نهجه، على مجموعة من الخطوات المنهجية الإجرائية، القائمة على تصور واضح، ونظر ثاقب، واستحضار واعٍ لما يطرحه المنهج من إشكالات، لا مناص من تدقيقها والبحث عن مخارج لها، إذا ما أردنا أن نظفر بدراسة مصطلحية موفقة، وذات نتائج علمية يمكن الاطمئنان إليها، واعتمادها.

1 الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، دار الافاق الجديدة، بيروت، ط.1، 1402هـ/

1982 م، ص: 11، من التقديم.

2 نفسه.



ولعل من أهم تلك الخطوات ما أسماه "الدراسة المعجمية"، وبعدها "الدراسة النصية"؛ إذ إن الأساس الذي تقوم عليه دلالة المصطلحات، التي ينطلق منها د. الشاهد، يتجلى في بيان الدلالة المعجمية الأصلية، ثم كشف الدلالات الاصطلاحية، التي صبغت معاني الألفاظ، وتتبعها عند النقاد أو غيرهم من أرباب الحقول المعرفية الأخرى. وبذلك، لم يخرج البوشيخي عن الأصل الذي ظل يُراعى، منذ القديم، في مجال النقد والتقويم؛ ذلك أن من "المستويات، التي كان يتم تقويم الشعر العربي على أساسها، هناك مستوى المعجم اللغوي، أو - على وجه أخص - الدلالة المعجمية"<sup>1</sup>.

ويؤكد د. مصطفى اليعقوبي أهمية الدراسة المعجمية وضرورتها في ضبط دلالة المصطلحات، وتتبع معانيها في المعاجم اللغوية خاصة؛ لما تمتاز به هذه المصادر من ثراء علمي ومعرفي في مفردات اللغة العربية لدى القدامى تحديداً. ومن الضرورات، التي أتى الباحث على ذكرها، والتي يلزم مراعاتها في أثناء الدراسة المصطلحية، ما يأتي<sup>2</sup>:

- ما بين المصطلح وأصله اللغوي من مناسبة ومشابهة، لا تنقطع باكتساب اللفظة مدلولها الاصطلاحي، ودخولها حلبة الاصطلاح. وهذه الدلالة يمكن أن تكون خفية، كما يمكن أن تأتي جلية.

- حاجة الدارس إلى ما يُعينه على الدخول إلى عالم المصطلح المدروس، والاستئناس به، وذلك مدخل إلى تفهمه وفقهه، وتصحيح ما وقع من الخطأ عند إحصائه.

- استصحاب جهود السابقين من ذوي التخصص في العلم المدروس مصطلحاً. وهنا، تمس الحاجة إلى الاطلاع على الشروح والتعريفات السابقة للمصطلح المدروس، والمعاصرة كذلك. ولا شك في أن التحديد الدلالي للمصطلحات، في مختلف العلوم، هو الأساس الذي من شأنه أن يرتقي بالعلم، وبمجهودات العلماء؛ فتظفر نتائجهم بتحقيق الأهداف المرجوة. كما أنه لا يمكن لأي فرضية علمية، في أي تخصص معرفي، أن تستقيم، ويكتب لها القبول والتحقيق الفعلي، إلا إذا تم ضبط مصطلحات ذلك التخصص العلمي.

<sup>1</sup> أحمد طاهر حسين، حول رؤى النقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأصيل، مجلة "فصول"، القاهرة، ع.1، 1985، ص: 12.

<sup>2</sup> مصطفى اليعقوبي، الدراسة المعجمية للمصطلح، مجلة "دراسات مصطلحية"، فاس، ع.5، ملف العدد "كيف ندرس المصطلح؟"، 1427هـ/2006م، ص: 33.

وقد "كانت دراسة المصطلحات من أوجب الواجبات، وأسبقها، وأكدها على كل باحث، في أي فن من فنون التراث، ولا يقدّم - ولا ينبغي أن يقدم - عليها تاريخ ولا مقارنة، ولا حكم ولا موازنة؛ لأنها الخطوة الأولى للفهم السليم، الذي عليه ينبنى التقويم السليم، والتاريخ السليم"<sup>1</sup>. ومن هنا، يدعو الباحثُ توفيق الزبيدي إلى ضرورة الاهتمام بدراسة المصطلحات؛ لما تكتسبه هذه القضية من أهمية قصوى في الارتقاء بالبحث العلمي العربي عموماً، ولأن أي تقدم لا يمكنه أن يتيسر إلا في خضمّ هذه الالتفاتة العلمية. يقول: "إننا بحاجة إلى دراسة المصطلحات النقدية دراسة علمية، تنتهي بنا - بعد ذلك - إلى رصد حاجات الطالب المصطلحية، وحاجات المدرس، وحاجات الناقد<sup>2</sup>. فمن خلال هذه الفكرة تتضح، كذلك، قيمة الدرس المصطلحي لكلٍ من الطالب والمدرس والناقد على حد سواء؛ لأن الإلمام به يشكل الخطوة الأولى، التي على جميع أطراف العملية التعليمية، وكذا النقدية، التمكن منها، والالتزام بمقتضياتها، التي تدخل في إطار الدراسة المصطلحية، التي من شأن استيعابها تسهيل جميع خطوات البحث الأخرى.

ومما تقدم، نتبين أهمية الاهتمام بالمنهج، والوعي بدوره في الارتقاء بالبحث في مختلف العلوم؛ إذ بدون المنهج الناجع، يصبح الباحث كمن يسير بدون بوصلة، تهديه إلى سواء السبيل، وتسهّل عليه الطريق الوعر في البحث العلمي؛ فالمنهج هو سبيله إلى تحقيق غايات البحث العلمي، والتأكد من النتائج المتحصل عليها. يقول البوشيخي في ما معناه إن سبب التخبط، الذي نرى عليه بحثنا العلمي حالياً، مرده إلى غياب أو فساد المنهج<sup>3</sup>. ويمكننا رصد جملة من مظاهر ذلك التخبط والضعف في الجدول أسفله:

جدول يوضح أسباب التخبط في البحث العلمي، مع محاولة اقتراح حلول لذلك الوضع غير السوي	
التكديس	البناء
الاستهلاك	التصدير
الجمع	البحث
الارتجال	التخطيط
التسرع	التأني
الفرد	الجماعة

1 الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، ص: 13.

2 توفيق الزبيدي، تأسيس الاصطلاحية النقدية العربية، مجلة "علامات في النقد الأدبي"، من إصدارات النادي الثقافي بجدّة/ المملكة العربية السعودية، ع. 8، 1414هـ/ 1993م، ص: 180.

3 الشاهد البوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليّين والإسلاميّين: قضايا ونماذج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1993، ص: 21.

جدول يوضح أسباب التخييط في البحث العلمي، مع محاولة اقتراح حلول لذلك الوضع غير السوي	
التعميم	التدقيق
الفوضى	الضبط

فمن خلال ما ذكر، تظهر أهمية الخطوات التي بنى عليها البوشيخي تصوره المنهجي، علما بأنه بدون منهج لا يمكن أن تتحقق نتائج محمودة، أو ثمار مهمة من البحث العلمي المنجز. ولذلك، كان من الضروري أن يتم البحث في الخطوات العامة، والإجراءات الجزئية، التي تمكن الباحث من ضبط حدود منهجه لدى التعامل مع قضايا البحث العلمي وموضوعاته، على اختلاف التخصصات وتعدد المعارف.

إن الدراسة المصطلحية، بالصورة الموضحة إلى حد ما، تشكل ملحقا علميا مهما في مشروع د. الشاهد البوشيخي، وهي لا تُعنى بتعريف المصطلح، والبحث في قضاياها وعلاقاتها فحسب، وإنما المسألة المصطلحية - في نظر البوشيخي - أكبر من ذلك؛ فهي تعبر عن جانب من وعي الأمة الإسلامية بضرورة تحقيق التطور الشامل في مختلف مناحي الحياة، وذلك بهدف الارتقاء بالأمة، وضمان مكانة فاعلة لها في عالم اليوم؛ فهي "المسألة المصطلحية الحضارية بالمفهوم الشامل، لا بالمفهوم العلمي الخاص أو الأخص.. إنها المسألة التي تبحث مصطلح الماضي؛ بهدف الفهم الصحيح، فالتقويم الصحيح، فالتوظيف الصحيح. وتدرس مصطلح الحاضر؛ بهدف الاستيعاب العميق، فالتواصل الدقيق، فالتوحد على أقوم طريق. وتستشرف آفاق مصطلح المستقبل؛ بهدف الإبداع العلمي الرصين، والاستقلال المكين، والتفوق الحضاري المبين"<sup>1</sup>.

وعلى هذا الأساس، تظهر القيمة المنهجية للدراسة المصطلحية، بوصفها "تهتم بأنسقة التسمية داخل المجالات المختصة؛ فهي علم يحدد لنا تسميات الأشياء والمفاهيم والتصورات داخل حقل معرفي معين. وإذا كان مجالها - كما هو شائع - هو اللغة العلمية المختصة، فلا يعني هذا أنها بعيدة عما أنتجته الحضارة الإنسانية من أشياء، لا تدخل في الجانب العلمي أو التقني، من مهن وحرف. ويدخل في مجال المصطلحية كل الألفاظ العلمية والحضارية التي تسمي مفاهيم وتصورات محددة، ومعرفة تعريفا دقيقا"<sup>2</sup>.

1 الشاهد البوشيخي، نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، سلسلة "دراسات مصطلحية"، رقم 3، مطبعة أنفو برينت، فاس، 2002، ص: 8.

<sup>2</sup> عبد الرزاق التورابي، جديد الاصطلاح وجديد منهج مقارنة المصطلح، مقال نشر ضمن كتاب "المصطلح العربي وسؤال المنهج"، إعداد وتنسيق: محمد الراضي، من منشورات "معهد الدراسات والبحوث للتعريب"، التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط، د. ت، ص: 12.

إنّ الشاهد البوشيخي يدعو إلى الاهتمام بالمنهج، وإعطاء الأولوية لهذه المسألة؛ لأنها تمثل الأساس في بناء المعرفة، وفي الإقلاع الحضاري للأمة الإسلامية، ولأنّ المعضلة التي تواجه الأمة - في نظره - هي معضلة المنهج، الذي باستقامته تستقيم أحوال الأمة، والعكس بالعكس. يقول في هذا الصدد: "لن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بالاهتداء في المنهج للتي هي أقوم. وبمقدار تفقّهنا في المنهج، ورُشدنا فيه، يكون مستوى إقلاعنا الحضاري"<sup>1</sup>؛ فبالمنهج السليم والقويم، إذاً، تتيسر سُبُل الارتقاء الحضاري. ولا يُقاس العلم بالكم، بل - بالأحرى - بالكيف؛ فهو بذلك يُنظر إليه من خلال الطرائق والمناهج التي يسير على أساسها الباحث، ليُشَقَّ طريقه في مضمار العلم بثبات وتأنّ. يقول د. الشاهد إن "العلم ليس القناطر المُنْتَطَرّة من المعلومات، يتم تكديسها وخزنها في أدمغة بني آدم؛ إنما هو صفة تقوم بالشخص نتيجة منهج معين في التعلم، وتجعله قادراً على علم ما لم يعلم. والعالم ليس الذي يحمل في رأسه خزائن ومكتبات، ولكنه الذي يعرف كيف يوظف ما في رأسه، وما في الخزائن والمكتبات؛ من أجل إضافة بعض الإضافات. حقا، إنه ولا بد من الاستيعاب أولاً - وهو جزء من المنهج -، ولكن المهم هو ما بعد ذلك من تحليل وتعليل وتركيب"<sup>2</sup>.

يُستفاد، من هذا القول الوجيه، مجموعة من الأفكار المهمة، التي أتى البوشيخي على ذكرها، والتي تعبر عن وعي كامل بأهمية الخطوات البحثية الإجرائية، والتفكير المنهجي في ضبط المعلومات وتتبعها وتحليلها، وفي كيفية استخدامها واستثمارها وتأليفها في خيطٍ، ينظّم ما تفرق منها، من أبرزها أنّ:

- العلم لا يُقاس بكثرة المعلومات، وإنما بكيفية استخدامها؛ أي بالتمكن من آليات توظيف تلك المعلومات في الحياة؛

- العمدة على كفايات التحليل والتعليل والتركيب، وهذه مجموعة من الإجراءات التفصيلية التي تشكل البحث في كليتها؛ إذ بها يقوم البحث، وتكتمل أركانه<sup>3</sup>.

يمكن القول، في أعقاب ما تم التطرق إليه من ذي قبل، إن دراسة المصطلحات تعد إحدى أهم الخطوات القاعدية، التي على الباحث - في أي تخصص علمي - أن يبدأ بها بحثه؛ من منطلق

<sup>1</sup> الشاهد البوشيخي، مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرار بفاس، عدد خاص بنشر أعمال ندوة "المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم"، التي أقيمت في الكلية سنة 1409هـ/1988م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 1993، ص: 20.

<sup>2</sup> نفسه.

<sup>3</sup> نفسه، يتصرف.

أنّ التمكن من المصطلحات، وضبط مفاهيمها، وإدراك مدى ثبات أو تطور معانيها، في انتقالها بين العلوم، لهو السبيل الممّيد للقيام بغيرها من الخطوات اللاحقة؛ لأنّ ما سيأتي بعدها، سيكون مؤسساً عليها، وتابعا لها بصورة أجلى.

وسنحاول، الآن، تبين مختلف الخطوات المنهجية التي تسعف الباحث في دراسة المصطلحات بالطريقة المشار إليها سابقا، على أن نعرّف بكل خطوة على حدة، ونبرز قيمتها ووظيفتها داخل نسقها العام، وذلك كالآتي:

- الإحصاء: ويعد من بين أهم الخطوات في هذا السياق، ويكون الغرض منه "إحصاء كل النصوص التي ورد بها مصطلح ما، من المصطلحات المنتقاة للدراسة، إحصاء لا يهمل مستعملا من مستعملات المادة الاصطلاحية، اسما كان أم فعلا، ومفردا كان أم مركبا..."<sup>1</sup>.

- الدراسة المعجمية: ويُقصد بها، حسب البوشيخي، "دراسة معنى المصطلح في المعاجم اللغوية، فالاصطلاحية دراسةً تبتدئ من أقدمها مسجّلة أهم ما فيه، وتنتهي بأحدثها مسجّلة أهم ما أضاف.. دراسة تضع نُصْبَ عينها علامَ مدار المادة اللغوية للمصطلح، ومن أيّ المعاني اللغوية أخذ المصطلح، وبأي الشروح شُرح المصطلح؛ وذلك لتمهيد الطريق إلى فقه المصطلح وتدوقه، وليسهُل تصحيح الأخطاء التي قد يكون جَلَّها الإحصاء"<sup>2</sup>.

- الدراسة النصية: يقول البوشيخي إن هذه الدراسة هي عمود الدراسة المصطلحية برمتها، ويقصد بها "دراسة المصطلح، وما يتصل به، في جميع النصوص التي أحصيت قبْلُ؛ بهدف تعريفه، واستخلاص كل ما يُسهم في تجلية مفهومه؛ من صفات، وعلاقات، وضمائم، وغير ذلك"<sup>3</sup>.

- الدراسة المفهومية: ويريد بها "دراسة النتائج التي فُهمت واستُخلصت من نصوص المصطلح، وما يتصل به، وتصنيفها تصنيفا مفهومياً، يجلّي خلاصة التصور المستفاد لمفهوم المصطلح المدروس في المتن المدروس؛ من تعريف، وصفات، وعلاقات، وضمائم، ومشتقات، وقضايا"<sup>4</sup>.

1 الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، م. س، ص: 17.

2 الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، م. س، ص ص: 23-24.

3 نفسه، ص: 24.

4 نفسه، ص ص: 25-26، بتصرف.

- العرض المصطلحي: والمقصود به "الكيفية التي ينبغي أن تُعرض وتحرّر عليها خلاصة الدراسة المصطلحية للمصطلح ونتائجه"<sup>1</sup>. ويضيف د. البوشيخي أنه يعد "الركن الوحيد الذي يُرى بعينه، لا بأثره"<sup>2</sup>.

### خاتمة:

- نخلص، من كل ما تقدم ذكره، إلى مجموعة من النتائج، نللم شتات أهمها على النحو الآتي:
- أهمية العلاقة بين المنهج والمصطلح؛ إذ بالمنهج السليم والقويم، يمكن أن يظفر الباحث المصطلحي بنتائج دقيقة ومثمرة؛
  - أثر د. الشاهد البوشيخي، وطلابه كذلك، فيما بعد، في تطور الأبحاث المصطلحية بالمغرب، ووضع مجموعة من الضوابط والإجراءات العامة والتفصيلية، التي تُسعفُ الباحثين الناشئين في القيام بأبحاثهم المصطلحية؛
  - إن المنهجية المصطلحية، الموضحة سلفاً، تعد من أهم المناهج التي تساعد الباحث في دراسة المصطلحات، على اختلاف مجالاتها، وفي تتبع معانيها في تطورها الدلالي، وفي انتقالها بين العلوم والتخصصات المختلفة؛
  - تأكيد قول د. الشاهد بخصوص أهمية وضرورة التنسيق بين مراكز البحث والمؤسسات الأكاديمية، وتضافر جهود الجميع؛ من أجل القيام بالبحث المصطلحي كما يجب؛ لأن هذا الأخير يحتاج، في كثير من الأحيان، إلى فرق بحثية، تُكثّفُ الجهود وتنسّقها لخدمة التراث ومصطلحاته؛ لأنه عمل لا بد من أن يتأسس على رؤية موحدة، تخدم الهدف الأساس، الذي هو إحياء التراث المصطلحي واللغوي، وبعثه من مرقدته! وهذا لا يتأتى للأفراد، وإنما للفرق البحثية، ولتضافر جهود المؤسسات والفرق العلمية والأكاديمية...

1 الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، م. س، ص: 26.

2 نفسه.

## لائحة المصادر والمراجع

### قائمة الكتب:

- أبو عبد السلام الإدريسي، التأويل وعلوم العربية: الإعمال والاستعمال (علم النحو أنموذجاً)، مقال نُشرَ ضمن كتاب بعنوان "اللسانيات والأدب: نحو رؤية تفاعلية وتكاملية لتحليل الخطاب"، (دراسات الكتاب مهداة لروح الدكتور عبد الكريم أبازي)، تنسيق: كريم خلافة ومحمد الغريسي ومحمد أموحو، من منشورات مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف (ختم)، ط.1، 1444هـ/2022م.
- الشاهد البوشيخي، مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز بفاس، عدد خاص بنشر أعمال "ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم"، التي أقيمت بالكلية سنة 1409هـ/1988م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1993.
- الشاهد البوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين: قضايا ونماذج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 1993.
- الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.1، 1402هـ/1982م.
- الشاهد البوشيخي، نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، سلسلة "دراسات مصطلحية"، رقم 3، مطبعة أنفو برينت، الليدو/فاس، 2002.
- الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، سلسلة "دراسات مصطلحية"، رقم 2، مطبعة أنفو برينت، ط.3، يونيو 2004م.
- عبد الرزاق التورابي، جديد الاصطلاح وجديد منهج مقارنة المصطلح، مقال نُشرَ ضمن كتاب "المصطلح العربي وسؤال المنهج"، إعداد وتنسيق: محمد الراضي، من منشورات "معهد الدراسات والأبحاث للتعريب"، جامعة محمد الخامس بالرباط/المغرب.

- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 1429هـ/2008م.

#### قائمة المقالات:

- أحمد طاهر حسنين، حول روافد النقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأصيل، مجلة "فصول"، القاهرة، ع.1، 1985.
- توفيق الزيدي، تأسيس الاصطلاحية النقدية العربية، مجلة "علامات في النقد الأدبي"، من إصدارات النادي الأدبي الثقافي بجدة/السعودية، ع.8، 1414هـ/1993م.
- مصطفى اليعقوبي، الدراسة المعجمية للمصطلح، مجلة "دراسات مصطلحية"، ع.5، ملف العدد: "كيف ندرس المصطلح؟"، 1427هـ/2006م.

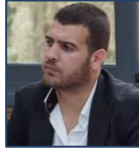


## صناعة القاموس الصوفي:

## رسالة اصطلاحات محيي الدين بن العربي (ت 638هـ) أنموذجاً

د. رشيد الاركو

باحث في اللغة والفكر

الأكاديمية الجبوية للدراسات والتكوين لجهة الشرق  
المغرب

## ملخص:

إن القصد العام من بحثنا الموسوم بصناعة القاموس الصوفي: رسالة "اصطلاحات" محيي الدين بن العربي أنموذجاً، هو بيان أن "اصطلاحات" قاموساً متخصصاً في المصطلح الصوفي، وقد توسلنا لبلوغ هذا القصد بمطالعة ستة فصولاً عن المقدمة والتركيب؛ فأما المقدمة فقد شددت على أهمية العناية بالمصطلح عامة والمصطلح الصوفي خاصة. وأما المطلب الأول فوضح مصطلحات أساس في البحث وهي: "المصطلح"، و"أهل التصوف"، ورسالة "اصطلاحات". وأما المطلبان الثاني والثالث فقدما ملاحظات على مقدمة "اصطلاحات" مع التوقف عند دواعي تأليفها. وأما المطلب الثالث فكشف عن منهج ابن العربي في "اصطلاحات" من خلال التوقف عند الركائز التي تقوم عليها الصناعة القاموسية وهي بالتبع: مادة القاموس، وترتيب المداخل، والتعريف. وأما التركيب فقد استجمع استنتاجات البحث.

**كلمات مفتاحية:** رسالة اصطلاحات، محيي الدين بن العربي، القاموس الصوفي، المصطلح، مادة القاموس، ترتيب المداخل، التعريف.

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

انفريات، الاركو. (2024، أكتوبر). صناعة القاموس الصوفي: رسالة اصطلاحات محيي الدين بن العربي (ت 638هـ) أنموذجاً. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 510-529.

## Abstract:

The general intent of our research, entitled The Making of a Sufi Dictionary: Muhyi al-Din Ibn al-'Arabi's Risālat «Iṣṭilāḥāt» as an example, is to show that «Iṣṭilāḥāt» is a dictionary specialized in Sufi terminology. To achieve this goal, we used six demands in addition to the introduction and synthesis; the introduction emphasized the need to pay attention to terminology in general and Sufi terminology in particular; the first demand explains the terms that are essential to the research, namely: "terminology", "people of Sufism", and the "Risālat Iṣṭilāḥāt". The second and third demands provide remarks on the introduction to "Iṣṭilāḥāt" and the reasons for writing it. and the last three demands revealed Ibn al-'Arabi's approach in the "Iṣṭilāḥāt", by stopping at the pillars on which the Lexicography is based, namely: Lexicon material, Arrangement of entries, and Definition. The synthesis summarized the results of the research.

**Keywords :** Risālat Iṣṭilāḥt, Muhyi al-Din Ibn al-'Arabi, Sufi Dictionary, Terminology, Lexicon material, Arrangement of entries, Definition.

## مقدمة

إنَّ دراسة المصطلح بشكل عام مغامرة، تقتضي من الباحث التسلح برؤية منهجية واضحة، وأما دراسة المصطلح الصوفي فمغامرة مزدوجة، تُلزم الباحث توسيع رؤيته وتكثيف مقاربات اشتغاله، لأنَّه مقبل على حقل ملغوم بالتناقضات، فكلَّما اتسعت رؤية أهل التصوف ضاقت عبارتهم<sup>1</sup>، ولعلَّ هذا ما قصده أبو العباس بن عطاء (ت 309هـ) حين أنشد:

إِذَا أَهْلُ الْعِـبَادَةِ سَاءَ لُونَا	أَجَبْنَاَهُمْ بِأَعْلَامِ الْإِشَارَةِ
نُشِيرُ بِهَا فَتَنْجِعَ لَهَا غُمُوضًا	تُقَصِّرُ عَنْهُ تَرْجَمَةُ الْعِـبَادَةِ
وَنَشْهَدُهَا وَتَشْهَدُنَا سُورًا	لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ إِثَارَةٌ
تَرَى الْأَقْوَالَ فِي الْأَفْعَالِ أَسْرَى	كَأَسْرِ الْعَارِفِينَ ذَوِي الْخَسَارَةِ <sup>2</sup>

وليس من قبيل النافلة العناية بالمصطلحات؛ لأنَّ دراستها في نظرنا من أوجب الواجبات وأسبقها وأكدها على كل باحث في أي فن من فنون التراث<sup>3</sup>. ولأنَّ تحديد المفاهيم والمصطلحات مسألة ضرورية لضبط وتنظيم العملية الفكرية والتحليلية التفسيرية، وتأطير ممارسات الفكر الاجتماعي في سياق منهجي بعيدا عن الفوضى والشتات الذهني<sup>4</sup>.

ولعلَّ الدارسة المنهجية للمصطلحات كما أصَّل لها الشاهد البوشيخي، لا ترضى بغير دراسة مصطلحات المؤلف قبل المؤلف، والمؤلَّف قبل العصر، والعصر قبل التاريخ<sup>5</sup>. وهذا ما نبتغيه في هذا البحث، إدراكا بأنَّ دراسة مصطلحات محيي الدين بن العربي (ت 638هـ) تتطلب مجهودا مضاعفا وعملا جماعيًا، لهذا اقتصرنا على دراسة مصطلحات رسالته من رسائله، بغية المساهمة بقسط متواضع في مشروع "المصطلحات الصوفية".

<sup>1</sup> عبد الجبار النفري، المواقف والمخاطبات: نصوص فلسفية، تحقيق: آرتر أبري، تقديم وتعليق: عبد القادر محمود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985، ص6.

<sup>2</sup> أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص103.

<sup>3</sup> الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1995، ص13.

<sup>4</sup> عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهبيوني: دراسة نظرية وتطبيقية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003، ص23.

<sup>5</sup> الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ص14.

## (1) مدخل مفهومي

إن لفظة "مصطلح" مشتقة من الفعل "اصطاح" الذي من دلالاته: زوال الخلاف بين القوم، والتصالح، والتعارف على شيء ما والاتفاق عليه، والتواطؤ عليه والمواضعة<sup>1</sup>. وتشير هذه الدلالات إلى خصيصة مرتبطة بالمصطلح ولصيقة به، وهي خصيصة الاتفاق، غير أنَّ بعض الباحثين قللوا من شأن الاتفاق ولم يعدوه شرطاً في تكوين المصطلح واستندوا في ذلك إلى الواقع الفعلي للمصطلحات؛ إذ لا يشترط أن يكون المصطلح ناشئاً عن اجتماع طائفة من العلماء واتفاقهم على دلالة لفظة على معنى معين، بل من الراجح أنَّ المصطلح ينشأ على يد عالم من العلماء، ثم يأخذ طريقه إلى الشيوع، فإمّا أن يستقر ويثبت ويشيع، وإمّا أن يترك ويستعاض عن غيره<sup>2</sup>.

ومسألة الاتفاق في تكوين المصطلح مسألة ملحة وضرورية لفهم نشأة المصطلح الصوفي، خاصة أنَّ المتصوفة يعبرون عن معانٍ ومشاهد وإحساسات نفسية، وهذه المعاني والمشاهد والإحساسات تتغير في كل تجربة وجدانية ذوقية للمتصوف نفسه بله عند المتصوفين الآخرين. لهذا فتجدد أحوال الصوفي ومقاماته ومشاهدته يجعل من لغته متجددة تابعة لما يتذوقه. ومن ثمة فالمصطلح الصوفي مصطلح زبقيّ تتغير دلالاته حسب التجربة العرفانية.

ومن دلالات اصطلاح -كما أشرنا- التّصالح، فما العمل إن كان من يسك المصطلح لم يشأ التّصالح معنا؟ أو كان يسك المصطلح لتغييبنا أو تقية منا، أو يسك مصطلحاً تكمن وراءه مفاهيم وقيما تتنافى مع مفاهيمنا وقيمنا ويتبنى نموذجاً تحليلياً معرفياً مخالفاً لنماذجنا التحليلية؟ فالمصطلح أيُّ مصطلح يحتوي على وجهة نظر من سكّه وزاوية رؤيته واجتهاداته<sup>3</sup>، ولعلّ الأبيات السابقة تجيب قليلاً ما عن بعض هذه الأسئلة، وكذلك ما دبجه القشيري (ت 465هـ) في رسالته يجيب عن بعضها الآخر، إذ يقول: من المعلوم أنَّ كلّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها، انفردوا بها عمن سواهم، وتواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيها بإطلاقها. وهذه الطائفة مستعملون ألفاظاً فيما بينهم يتم بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والستر على من يباينهم في طريقتهم، لتكون معاني الألفاظ مستهمة على الأجانب. غير أنهم على أسرارهم أن تشيع

<sup>1</sup> سعاد كوريم، الدراسة المفهومية: مقارنة تصوورية منهجية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 60، ربيع 2010، ص 46.

<sup>2</sup> مصطفى طاهر الحيادة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، عالم الكتب الحديثة، عمان، ط 1، 2003، ص 14.

<sup>3</sup> عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهبيوني: دراسة نظرية وتطبيقية، صص 23-25.

في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معانٍ أودعها الله تعالى قلوب القوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم<sup>1</sup>.

والقصد بأهل التصوف أو أهل الله كما يسميهم ابن العربي<sup>2</sup> (ت 638هـ)، تلك الجماعة التي تعاطت التصوف بالشروط التي حددها المحققون منهم للتصوف، وهذه الجماعة لها لغة خاصة بها تواطأت عليها فيما بينها.

وأما القصد باصطلاحات، فرسالة ألّفها ابن العربي بناءً على طلب أحد تلامذته أثناء إقامته بمدينة (ملطية) بالأناضول، وقد أتمّها في اليوم العاشر من شهر صفر سنة 615 من الهجرة، ولهذه الرسالة نسخ عدة بعناوين عدة، ولكننا اعتمدنا في بحثنا على النسخة المرفقة بتعريفات الجرجاني (ت 816هـ)، والمعنونة بـ: "اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي"، وقد جاءت في سبع عشرة صفحة.

ويتضح من خلال هذا المدخل أنّ غرض البحث هو دراسة المعجم اللغوي عند جماعة لغوية متميزة هم المتصوفة، انطلاقاً من أنموذج نرى أنّه حقيق وممثل لهذه الجماعة، هو ابن العربي في رسالته المعنونة باصطلاحات.

## (2) ملاحظات على مقدمة الرسالة

تعدُّ مقدمة الكتاب أو الرسالة من العتبات التي تقرب المؤلف من القارئ والقارئ من المؤلف. فهي آخر ما يكتبه المؤلف ومن أول ما يطالعه القارئ، لهذا اعتنى المؤلفون بمقدمات كتبهم وأولوها العناية التي تستحق. وقد حصر بعض الباحثين مكونات المقدمة في العناصر الآتي<sup>3</sup>:

■ البسملة، والحمدلة، والتصلية، والتسليم.

■ دواعي التأليف وجنسه.

<sup>1</sup> أبو قاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص31.  
<sup>2</sup> قال الباحث المغربي عبد الإله بن عرفة: "من الأخطاء الشائعة التي يصرُّ عليها بعض أصحاب المطابع ممَّن ينشرون كتب الشيخ الأكبر، كتابة اسمه ابن عربي مع أنّه بالألف واللام (أنظر صور مخطوطات كتبه، وما جاء فيها من تنصيص على اسمه بالتعريف) ولا معنى أن يُقال إنّ هذا اصطلاح مشرقٍ للتمييز بينه وبين ابن العربي المعافري (ت 543هـ)، فلا أحد يخلط بينهما، ومن الأدب والأمانة العلمية أن يُدعى المُرء باسمه، لا أن يُحرف وينكر، كما في هذه الحال مع اسم الشيخ، فإثبات التعريف له من باب الواجب المتعين". وعليه وجب التعامل مع ابن العربي بالاسم الذي سمي به وأثبتته في كتبه وفي ترجماته لنفسه ولمن له صلة به. وبناء على هذا كله فقد اعتمدنا في هذا البحث اسم (ابن العربي) لا غير. انظر، ابن العربي، الديوان الكبير، تحقيق: عبد الإله بن عرفة، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018، ج4، ص17.

<sup>3</sup> مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم والموقع والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ط1، 2003، ص29.

- المصادر أو مكتبة التأليف.
- تقريظ التأليف.
- نقد المصادر السابقة.
- زمان التأليف ومكانه.
- الحمد والشكر.

وانطلاقاً من هذه المكونات يمكن استخراج نوعين من المقدمات: فأما أولاهما فهي مقدمات موسعة يحيط فيها المؤلف بمكونات المقدمة جميعها أو على الأقل أغلبها، وأما ثانيها فمقدمات مضيقة يقتصر المؤلف فيها على المكونات الأولى (البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم، ودواعي التأليف وجنسه)<sup>1</sup>، وقد يضيف مكوناً آخر أو ينقص. وهذه المقدمات بنوعها تشترك فيها أغلب مقدمات الكتب وخصوصاً التراثية منها.

وقد جاءت مقدمة "اصطلاحات الشيخ محيي الدين" مختصرة جداً، إذ لا تتجاوز أسطرها أربعة عشر سطراً، فصلّها ابن العربي كالاتي: الأسطر الأربعة الأولى جعلها للبسملة والتصلية والحمدلة والتسليم، ثم تحدث بعد ذلك عن سبب تأليفه الرسالة في ستة أسطر تقريباً، ثم أشار إلى بعض الملاحظات الخاصة بمتنه في أربعة أسطر، وختم بذكر تأييد الله ونفعه له.

ويظهر من خلال هذا التوصيف الشكلي للمقدمة، أن ابن العربي كتب مقدمته على طريقة السابقين؛ وبالتالي يمكن إدراج هذه المقدمة ضمن النوع الثاني من المقدمات التي ذكرناها آنفاً تحت اسم "مقدمات مضيقة" لعدم إدراجه باقي مكونات المقدمة.

وإذا أمعنا النظر في المقدمة نجد أنه أشار إلى جنس مؤلفه وحدد موضوعه بدقة حين قال: "أشرت إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية"<sup>2</sup>. فهو يبين من خلال هذا القول ميدان اشتغاله وهو التصوف، وعلى الخصوص مجال المصطلح الصوفي، وبالتدقيق أكثر شرح المصطلحات الصوفية المتداولة بين المتصوفين وغير المعروفة عند أهل الرسوم، وبناء على هذا، فرسالة ابن العربي هي قاموس متخصص مختصر في المصطلح الصوفي.

<sup>1</sup> مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم و الموقعية والوظائف، صص 24-25.

<sup>2</sup> الشريف الجرجاني، التعريفات ويليها اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985، ص 283.

## (3) دواعي تأليف الرسالة

ترتبط دواعي التأليف ارتباطاً وثيقاً بالسؤال: لماذا؟ وهذا السؤال يتطلب جواباً أو بمعنى آخر تبريراً لإقدام المؤلف على كتابته الكتاب، ونحن نعلم من خلال اطلاعنا على عدد مهم من مقدمات الكتب سواء القديمة أو الحديثة أنَّ جلَّها يتضمن سبب التأليف، وكأننا بهذا نفهم أنَّ فعل الكتابة شيء غير عادي لكي يبرره متعاطيه؛ وبالتالي يمكن الاستنتاج أنَّ فعل الكتابة يتطلب في أغلب الأحيان تبريراً، وهذا التبرير هو فعلٌ موازٌ للكتابة. وعليه فالتبرير أيضاً يتطلب حضور شخص مغاير للمؤلف لكي يبرر له المؤلف هذا الفعل، وهو المتلقي، إذن فالتبرير هو محاولة إقناع المؤلف المتلقي بشرعيته في الكتابة في موضوع ما، ومن ثمة فالغرض من التبرير هو إضفاء الشرعية على فعل الكتابة<sup>1</sup>، لهذا نجد كثيراً من المؤلفات ألفتها أصحابها بسبب إلحاح الناس أو طلبهم أو سؤالهم، وهذه المحفزات (الإلحاح، والطلب، والسؤال) هي بمثابة منح الشرعية للمؤلف فيما سيكتبه، وإذا كانت هناك الشرعية سهَّلَ على الكتاب أن يمارس فعل الكتابة دون خوف لأنَّه يملك التبرير وبالتالي يملك الشرعية<sup>2</sup>، وهذا ما نجده في رسالة "اصطلاحات الشيخ محيي الدين" فهو لم يكتب من تلقاء نفسه بل كتب تلبية لطلب من صفيه الكريم<sup>3</sup>، وقد أكد ابن العربي هذا الأمر بقوله: "وعليك أيُّها الولي الحميم، والصفى الكريم... فإنَّك أشرتَ إلينا بشرح الألفاظ... فأجبتك إلى ذلك"<sup>4</sup>. ويمكن تقسيم دواعي التأليف إلى قسمين: دواعٍ ذاتية ودواعٍ موضوعية، فأما الدواعي الذاتية فتتعلق بشخص المؤلف أو من كانت له علاقة بالمؤلف وهي نوعان حقيقة أو متخيلة<sup>5</sup>، وأما الدواعي الموضوعية فهي كل ما تعلق بموضوع التأليف أو جنسه أو فكرته<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> لم يؤلف بديا الفيلسوف كتاب كليله ودمنة من تلقاء نفسه، ولم يؤلفه محبة في التأليف، وإنما استجابة لرغبة عبر عنها دبشليم. لابد إذن، أثناء التحليل، من الانتباه إلى مشاركة المتلقي في إنجاز الكتاب؛ فلولا المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف. انظر، عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص35.

<sup>2</sup> من بواعث التأليف عند ابن العربي: الاستجابة لفتح أو إلهام رباني، فهو يعتقد أنَّ الحق تعالى يملئ له على لسان ملك الإلهام جميع ما يسطره.

<sup>3</sup> "عبد الله بن بدر الحبشي" أقرب الناس إلى ابن العربي وأحبهم إلى قلبه، فهو التلميذ النجيب والصاحب المخلص والرفيق الملازم له منذ لقيه بفاس، وقد خصه بالخطاب في كثير من كتبه ورسائله؛ حيث إنَّه عند قراءتنا لعبارات "أيُّها الولي أو يا بني" في تصانيف ابن العربي ففي الغالب يكون المقصود هو بدر الحبشي. انظر، ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2010، صص 25-26.

<sup>4</sup> الجرجاني، التعريفات ولبه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص283.

<sup>5</sup> مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم والموقفية والوظائف، ص38.

<sup>6</sup> نفسه، ص38.

وقد جمعت مقدمة ابن العربي الداعيين الذاتي والموضوعي، تجلى الذاتي في طلب (صفيه)، وظهر الموضوعي في قول ابن العربي: "فإنك أشرت إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحققون من أهل الله بينهم، لمّا رأيت كثيرا من علماء الرسوم، وقد ساءلونا في مطالعة مصنفاتنا، ومصنفات أهل طريقنا مع عدم معرفتهم، بما توطأنا عليه من الألفاظ التي بها يفهم بعضا عن بعض كما جرت عادة أهل كل فن من العلوم"<sup>1</sup>.

#### (4) مادة الرسالة/القاموس

أشار ابن العربي في مقدمة رسالته إلى أمور مهمة تتعلق بالمادة التي سيشرحها إذ قال: "فإنك أشرت إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحققون... ولم أستوعب الألفاظ كلها، ولكن اقتصر على الأهم فالأهم، وأخرمت عن ذكر ما هو مفهوم من ذلك عند كل من ينظر فيه بأقل نظرة، لما فيها من الاستعارة والتشبيه، وقد أوردنا ذلك لفظة لفظة"<sup>2</sup>.

يتبين بناءً على هذا المقطع أن ابن العربي يعني أنّ رسالته لا تشمل كل المصطلحات الصوفية، بحيث اقتصر على شرح أهم المصطلحات الصوفية؛ مميزا في رسالته بين المصطلح الصوفي الأهم والمهم؛ بمعنى آخر المصطلح المشكل أو غير المفهوم، والمصطلح الصوفي المفهوم، ويعني كذلك أن بعض المصطلحات الصوفية مشوبة بالاستعارة والتشبيه، وأن المصطلحات التي يشرحها متداولة بكثرة عند الصوفية المحققين وليست مهجورة أو قليلة التداول؛ بمعنى أنه يميز بين مصطلحات الصوفية المحققين ومصطلحات الصوفية غير المحققين بالتنصيص على مصطلحات الصوفية المحققين وإفرادها بالتأليف والبيان والشرح.

وبين ابن العربي كذلك في خاتمة رسالته أمرين مهمين متعلقين بالمادة إذ قال: "وجملة هذه الأسماء مائتين واثنين"<sup>3</sup>. وبناءً على هذا التنصيص يتبين أن عدد الأسماء التي شرحها ابن العربي في رسالته هي مائتان واثنان، وأن كل هذه الكلمات المشروحة أسماء. ومن ثمة فرسالة ابن العربي هي قاموس مختصر في المصطلح الصوفي؛ لأنّ جلّ المصطلحات الواردة فيه مصطلحات متداولة عند أئمة التصوف قبل ابن العربي وخاصة عند سهل التستري (ت 283هـ)، وأبي طالب المكي (ت 386هـ)، وأبي حامد الغزالي (ت 505هـ).

<sup>1</sup> الجرجاني، التعريفات ويليها اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 283.

<sup>2</sup> نفسه، صص 283-284.

<sup>3</sup> الجرجاني، التعريفات ويليها اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 298.

وإذا تأملنا مصطلحات ابن العربي في رسالته سنجد أنها جاءت وفق البُنى الآتية: مصطلحات مفردة مثل الهاجس، والإرادة، والمريد، والمراد، والسالك، والمسافر، والسفر، والطريق. ومصطلحات ذات تركيب إضافي مثل عين التحكم، وجمع الجمع، وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. ومصطلحات ذات تركيب وصفي مثل الدرة البيضاء. ومصطلحات معطوفة بالواو مثل العارف والمعرفة، والعالم والعلم. ومصطلحات ذات تركيب معقد<sup>1</sup> مثل العدل والحق المخلوق به<sup>2</sup>، والقطب وهو الغوث<sup>3</sup>.

وهناك تصنيف آخر يمكن الاستعانة به لفهم أكثر بنية المصطلح الصوفي في رسالة ابن العربي، وهو التصنيف الذي اعتمده محمد بن بركة (ت 2019) في كتابه "التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان"، والذي يتمحور حول ألوان ثلاثة من المصطلح: البسيط، والمتقابل، والعرفاني الخاص<sup>4</sup>. فأما المصطلحات البسيطة فمثل الأبدال، والإرادة، والأوتاد، والبوادر، وكل المصطلحات التي يمكن أن تشرح باختصار بسيط لا يخل بمعانيها. وأما المصطلحات المتقابلة فمثل الإشارة/العبارة، التجريد/التفريد، التحلي/التخلي، التلوين/التمكين، الجمع/الفرق، الخلوة/الجلوة، الفناء/البقاء، وكل المصطلحات التي لا تعرف معانيها إلا بمقارنتها بما يباينها ويقابلها. وأما المصطلحات العرفانية الخاصة<sup>5</sup> فمثل الشجرة أو الإنسان الكامل، والاتحاد، وهي مصطلحات قليلة صعبة الترصّد، وهي تركيب جديد لا عهد للمسلمين به، وقد زاده السياق والتحليل العرفانيان تعقيدا وإغراقا. ويمثل هذا اللون من المصطلحات بحسب محمد بن بركة نظريات عرفانية قائمة بذاتها ولفهمها لا بد من بحوث متخصصة ومتعمقة.

<sup>1</sup> مفهوم واحد يطلق عليه باحثون مصطلحا، وباحثون مصطلحا آخر، ويجمع باحثون المصطلحين في مصطلح واحد بينهما الواو.  
<sup>2</sup> العدل أو يقال الحق المخلوق به، فبعضهم يقول بالمصطلح الأول وبعضهم يقول بالمصطلح الثاني، وقد مزج ابن العربي بين القولين بحرف العطف.

<sup>3</sup> يفصل ابن العربي المصطلح الأول في كلا المصطلحين ويجعل ما بعدهما في حكم الاعتراض، بناء على الجملة التي جاءت في آخر رسالته "جملة هذه الأسماء مائتين واثنين"، بمعنى أن رسالته ليست فيها مائتان واثنان من المصطلحات وإنما مائتان واثنان من الأسماء، فالمصطلح الإضافي مثل (كلمة الحضرة) يعد مصطلحا واحدا لكن فيه اسمان وهكذا. وعليه فالمصطلحات المفردة عددها (174) بالإضافة إلى عشرة مصطلحات مركبة من اسمين أي عددها عشرين اسما، إضافة إلى مصطلح وصفي واحد متكون من موصوف وصفة أي يعطينا اسمين، زد عليهما المصطلحين المعطوفين بالواو (والواو ليس اسما)، إذن عددها أربعة أسماء، وزد أخيرا مصطلحين (العدل والقطب) فيكون العدد الإجمالي للأسماء هو: 20+2+4+20=202، أما عدد المصطلحات فهو: 174+1+10+2=187 مصطلحا.

<sup>4</sup> محمد بن بركة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006، صص 219-247.

<sup>5</sup> مثل: العماء وختم الولاية ووحدة الوجود.



وفي المحصلة يمكن إجمال الخلاصات الخاصة ببنية المصطلح في رسالة ابن العربي في العوارض الآتية:

- كل مصطلحات الرسالة أسماء.
- جاءت جل مصطلحات الرسالة معرفة، إما بآل أو بالإضافة أو بالعلمية.
- ورد مصطلح واحد نكرة في الرسالة هو مصطلح "أرين".
- نوّع ابن العربي بين مصطلحات مذكرة (المريد) وأخرى مؤنثة (المنصة).
- نوّع في مصطلحاته بين الأفراد (الهاجس) والتثنية (الإمامان) والجمع (البدلاء).
- نوّع في صيغ مصطلحاته بين اسم الفاعل (السالك، والشاهد) والمصادر الصناعية (الألية، والأنانية، والإلهية، والفهوانية) والمصادر المطلقة (الفناء، والبقاء، والحزن، والخوف).
- اعتمد على مصطلحات متقابلة مثل: الجمع والفرق، والتخلي والتخلي.
- اعتمد على مصطلحات متقاربة في الدلالة مثل: الخوف والرجاء، والعرش والكرسي، والصفة والنعمة. وأخرى من الجذر الاشتقاقي نفسه مثل: المريد والمراد، والمسافر والسفر.
- اعتمد على آلية الإضافة لتوليد المصطلحات، خاصة إضافة المصطلح إلى نفسه مثل: جمع الجمع، وملك الملك، وسر السر.
- اعتمد على ما يعرف حديثاً بنظرية الحقل المعجمي مثل: الحقل الدال على الإلهام (الهاجس، والحال، والقبض، والبسط)، والحقل الدال على الطريق (المريد، والسالك، والمسافر، والسفر، والطريق).

#### (5) الترتيب في الرسالة/القاموس

القصد بالترتيب هو "المنهج الذي يتبعه القاموسي في تنظيم مادته (سواء كانت ألفاظاً عامة أو مصطلحات خاصة بعلم أو فن أو حرفة ما) وعرضها في قاموسه بغية تمكن مستعمل القاموس العثور على مراده بسرعة<sup>1</sup>.

ويعدُّ الترتيب عنصراً ضرورياً عند القاموسيين، ولهذا رتبوا مادتهم باتباع منهج معين. وقد أشار عدد من الباحثين إلى أن طرق الترتيب التي اعتمدها القدماء متنوعة، فبعض القاموسيين

<sup>1</sup> علي القاسمي، مداخل المعجم، مجلة اللسان العربي، ع19، ج1، 1982، ص14.

اعتمدوا الترتيب الصوتي مثل الخليل بن أحمد (ت 170هـ) في قاموسه "العين"، واعتمد البعض الآخر الترتيب على حسب الأبنية مثل الفارابي (ت 350هـ) في قاموسه "ديوان الأدب"، واعتمد آخرون الترتيب الألفبائي حسب أوائل الكلمة بعد التجريد مثل الزمخشري (ت 538هـ) في "أساس البلاغة"، وهناك من اعتمد الترتيب الألفبائي حسب أواخر الكلمة بعد التجريد مثل الجوهري (ت 393هـ) في "الصحاح"، وهناك من أخذ المعاني منهجا في الترتيب كما فعل أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ) في "الغريب المصنف"<sup>1</sup>.

وأما بخصوص قاموس اصطلاحات ابن العربي فله ترتيب خاص به، وقبل أن نحسم في المنهج الذي اعتمده ابن العربي في تنظيم مادته، حري بنا أن نشير إلى أنه في الرسالة لم يصح بنوع المنهج الذي اتبعه في تنظيم ألفاظها، فكل ما قاله بخصوص تنظيم المادة جملة جاءت في آخر مقدمته نصها الآتي: "وقد أوردنا ذلك لفظة لفظة"<sup>2</sup>. لهذا سلكنا طريقين لمعرفة منهج ابن العربي، فأما الطريق الأول فهو البحث عن نص لابن العربي في مؤلف آخر يتحدث فيه عن المنهج الذي اتبعه في الرسالة، وأما الطريق الثاني فهو تأمل ألفاظ ابن العربي في الرسالة ومحاولة معرفة المنهج المتبع.

وقد توسلنا بالطريقين معا، فوصلنا إلى أن ابن العربي أفرد صفحات كثيرة في كتابه "الفتوحات المكية" في مسألة شرح اصطلاحات الصوفية، وقد وضع لها عنوانا كبيرا هو "مساق المسلسل في لغة العرب: شرح ألفاظ اصطلاح القوم"، وعندما قارنا بين الرسالة (موضوع الدراسة) وصفحات الفتوحات وجدنا التعالقات الآتية:

أن جل المصطلحات المذكورة في الرسالة مذكورة في كتاب الفتوحات.

أن مصطلحات الرسالة مشروحة بطريقة مختصرة، أما مصطلحات الفتوحات فمشروحة بإسهاب.

أن ابن العربي في الفتوحات يسأل سؤالا بضمير المخاطب (أنت) ويردُّ عليه بضمير التكلم (نحن) مثلا قوله: "فإن قلتَ: وما الهاجس؟ قلنا: الهاجس هو الخاطر الأول"<sup>3</sup>. أما في الرسالة

<sup>1</sup> أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2009، ص37.

<sup>2</sup> الجرجاني، التعريفات ولبه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، صص283-284.

<sup>3</sup> ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1998، ج2، ص131.

فيذكر اللفظة ويشرحها مباشرة مثلاً قوله: "فمن ذلك الهاجس يعبرون به عن الخاطر الأول"<sup>1</sup>.  
 أنه في الرسالة/القاموس بدأ بمصطلح الهاجس وختم بمصطلح سر السر، أما في الفتوحات فقد بدأ بسر السر وختم بالهاجس؛ بمعنى أن الترتيب في الرسالة هو عكس الترتيب في الفتوحات.  
 أنه في الفتوحات أشار إلى المنهج الذي اعتمده في ترتيب مادته والفوائد منه، وهذا نص ذلك في الفتوحات: "فهذا قد بينا لك ارتباط المقامات والمراتب بضرب من التناسب وتعلق بعضها ببعض، وقليل من سلك في إيضاحها هذا المسلك، وهذا مساق المسلسل في لغات العرب. وهي طريقة غريبة أشار إليها إبراهيم بن أدهم وغيره رضي الله عنهم وبأن منها شرح ألفاظ اصطلاح القوم فحصل من ذلك منها فائدتان: الواحدة معرفة ما اصطلاحوا عليه، والثانية معرفة المناسبات التي بينهما"<sup>2</sup>. نفهم بهذا القول أن ابن العربي رتب هذه المصطلحات بنوع من الترتيب سماه بالمسلسل أخذه عن إبراهيم بن أدهم، وقصده بالمسلسل تسلسل التعريفات بالمصطلحات، فحينما يعرف مصطلحاً ما يجعل المصطلح الذي يليه في آخر التعريف أو فيه على الأقل، بالإضافة إلى أن بين المصطلح المشروح والمصطلح الذي قبله وبعده مناسبة وارتباط، أي لن تفهم المصطلح إلا في ارتباطه بالمصطلح الذي قبله وبعده، وبالمثال يتضح الأمر أكثر، قال ابن العربي: "فإن قلت: وما المسافر؟ قلنا: هو الذي سافر بفكره في المعقولات، وهو الاعتبار في الشرع فعبر من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى، وهو العامل السالك. فإن قلت: وما السالك؟ قلنا هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه، وهو العمل فكان له عيناً...وقد يحصل هذا للمراد والمريد. فإن قلت: وما المراد والمريد؟ قلنا: المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته"<sup>3</sup>، وهكذا في باقي مصطلحاته وتعريفاتها.  
 إذن فرسالة اصطلاحات ابن العربي (جاءت في سبع عشرة صفحة) من حيث الكم مختصرة لما في صفحات الفتوحات (جاءت في ثمانٍ وسبعين صفحة)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الجرجاني، التعريفات ولبه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 284.

<sup>2</sup> ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج 2، ص 131.

<sup>3</sup> ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج 2، ص 130.

<sup>4</sup> تُواجهُ المقارن بين رسالة ابن العربي "اصطلاحات" والصفحات التي جاءت في الفتوحات المكية بعنوان "مساق المسلسل في لغة العرب: شرح ألفاظ اصطلاح القوم" مشكلة تتجلى في: أي الكتابين سبق الآخر؟ فرغم تصريح ابن العربي بأن للفتوحات المكية نسختين، الأولى بدأها سنة (599هـ) وأتمها سنة (629هـ)، والثانية بدأها سنة (632هـ) وأتمها سنة (636هـ)، ورغم معرفتنا بأن رسالة اصطلاحات ابن العربي كتبها سنة (615هـ) فما زلنا أمام احتمالين: إما أن تكون الرسالة مختصرة لما في صفحات الفتوحات، فيكون الجزء الذي جاءت فيه هذه الصفحات قد كتبه ابن العربي قبل الرسالة. وإما أن تكون الصفحات التي في الفتوحات تفصيلاً وشرحاً وتطويلاً لما في الرسالة، على أساس أن الرسالة كتبها ابن العربي أولاً.

وبينت هذه المقارنة أيضاً أن ابن العربي اعتمد في رسالته نوعين من الترتيب: فأما النوع الأول فهو الترتيب المسلسل مع حذفه لجل العبارات الدالة على هذا الترتيب من الرسالة اختصاراً، لكن رغم ذلك بقيت إشارات تدل عليه، وأما النوع الثاني فهو الترتيب المجالي؛ أي ترتيب المصطلحات التي "تنتمي إلى مجال مفهومي واحد أو مجالات مفهومية متجاورة في منظومة مفاهيم التصوف، وتحديد موقع المفهوم في المجال المفهومي، ومعرفة المفهوم الذي قبله وبعده يساعدنا على التعرف عليه بطريقة أسرع<sup>1</sup>، لهذا فترتيب المصطلحات التي تنتمي إلى مجال مفهومي واحد قرب بعضها، تساعد القارئ على فهم القاسم المشترك بينها، وكذلك الفروق الجوهرية الموجودة بينها<sup>2</sup>، فنجد مثلاً كل مجموعة من المجموعات الموجودة في رسالة ابن العربي تدخل ضمن مجال مفهومي من مجالات التصوف، وهذا النوع من الترتيب المعتمد يوحي بأن منظومة المصطلح في التصوف هي منظومة متماسكة أشد التماسك، وأن فهمها يتطلب فهم العلاقات الكائنة بين المصطلحات. ومن ثمة نخال أن ابن العربي قد عمد في رسالته إلى ترتيب مصطلحاته وفق مجموعات تنتمي لمجال مفهومي خاص، وكل مجموعة مرتبطة بالمجموعة التي تسبقها وتليها.

وتجدر الإشارة في آخر هذا المطلب إلى مسألة مهمة تتعلق بالترتيب في علاقته بدواعي التأليف حيث أشرنا سابقاً إلى أن من بين دواعي التأليف عند ابن العربي الإلهام والفتح الرباني، لهذا لا نستبعد أن يكون الترتيب الذي اعتمده ابن العربي في رسالته ممّا يلقيه الله تعالى في قلبه؛ بمعنى ما قصد لهذا الترتيب عن اختيار، لكن هكذا جاءه فقيده كما جاء، وكما هو معلوم فكتاب "الفتوحات المكية" بحسب ابن العربي هو ممّا فتح الله به عليه أثناء زيارته وطوافه بمكة، وقد أكد هذا في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة من "الفتوحات المكية" بقوله: "فوالله ما كتبت منه حرفاً إلا عن إملاء إلهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني"<sup>3</sup>.

## 6) التعريف في الرسالة/القاموس

يعدُّ الكشف عن معنى الألفاظ أو مفهوم المصطلحات من أهم الركائز التي تقوم عليها الصناعة القاموسية كما سماها الودغيري، وهي جمع المادة اللغوية التي تتألف منها مدونة المعجم، ثم تحويلها إلى مداخل مرتبة بطريقة معينة، وأخيراً تعريف هذه المداخل<sup>4</sup>، ومن ثم فركائز

<sup>1</sup> علي القاسمي، عبد الرزاق الكاشاني وإسهامه في تطوير المعجمية العربية، مجلة المجمع العربي، دمشق، مج 77، ج 4، أكتوبر 2002، ص 731.

<sup>2</sup> نفسه، ص 730.

<sup>3</sup> ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج 3، ص 442.

<sup>4</sup> انظر، عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، الرباط، ط 1، 1989.

القاموس ثلاثة هي بالتبع: مادة القاموس وترتيب المداخل والتعريف. ويحتل التعريف بؤرة اهتمام صانع القاموس ومستعمله ودارسه؛ لأنَّ التعريف هو الغاية والهدف.

وقد أشار ابن العربي إلى أنه ألَّف هذه الرسالة تلبية لطلب (صفيه) بشرح ألفاظ الصوفية؛ بمعنى أنَّه ألَّف الرسالة لشرح أهم مصطلحات الصوفية، وبما أن القارئ غايته فهم هذه المصطلحات الصوفية في كليتها، فقد اقتصر ابن العربي في رسالته على ما عدَّه الأهم فالأهم من المصطلحات، ونظمها وفق ذلك الترتيب بنوعيه المتسلسل والمجالي.

ومن المعلوم عند المهتمين بالصناعة القاموسية أنَّ طرق الكشف عن المعنى متنوعة<sup>1</sup> منها الشرح بالتعريف، والشرح بذكر الداليتين اللغوية والاصطلاحية، والشرح بتحديد المكونات الدلالية، والشرح بذكر سياقات الكلمة، والشرح بالمرادف، والشرح بذكر المضاد، والشرح بالمثل، والشرح بالصورة إلخ. ومن هذه الطرق هناك طرق أساس وطرق ثانوية أو مساعدة، وكلما أمكن الجمع بينها أو بين أكثرها في المدخل كان أفضل، وإنَّ كان الغالب الاكتفاء ببعضها ودمج بعضها الآخر<sup>2</sup>.

وإذ عدنا إلى رسالة "اصطلاحات" سنجد أنَّ ابن العربي عرَّف مصطلحاته بالطرق التالية: الأولى الشرح بالتعريف والثانية الشرح بالمرادف والثالثة الشرح بالشواهد والأمثلة التوضيحية، فأما الشرح بالتعريف فالحق به شرح الكلمة بواسطة كلمات أخرى؛ بمعنى أنه يعيد التعبير عن المعنى بألفاظ أخرى، ومن المصطلحات التي شرحها ابن العربي وفق هذه الطريقة: المريد، والمراد، والسالك، والمسافر، والسفر. وأما الشرح بالمرادف فيتم ذلك بوضع كلمة واحدة مقابل كلمة أخرى<sup>3</sup>، وقد استعمل ابن العربي هذا اللون من التعريف في قاموسه في المصطلحات الآتية: القطب، والغراب، والحرف، والشجرة. وأما الشرح بالشواهد أو الأمثلة التوضيحية<sup>4</sup> فالحق به استعمال عبارات، أو جمل، أو أبيات، أو أمثلة سائرة لتوضيح المصطلح أو اللفظ المعرف في القاموس. وقد استخدم ابن العربي الشواهد القرآنية لتوضيح بعض المصطلحات، واستعمل كذلك الأعداد لدعم المعلومات الواردة في التعريف وتعزيزها.

<sup>1</sup> أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص 120.

<sup>2</sup> أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص 121.

<sup>3</sup> عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشريقي، ص 311.

<sup>4</sup> لا يوجد سوى ثلاثة شواهد قرآنية في رسالة ابن العربي بأكملها، وليس ثمة شواهد من الحديث النبوي، أو شواهد شعرية. وقد استعمل الشواهد القرآنية الثلاثة شاهدا للمعنى دون اللفظ.

يتبين من خلال تتبعنا للطرق التي اعتمدها ابن العربي في شرح مصطلحات رسالته أنه نوع في طرق شرحها بين شرح بالتعريف -وهو الغالب- وشرح بالمرادف، وشرح بالشاهد. وأن تعريفاته متفاوتة من حيث الطول، ولكن أغلبها مختصرة. إضافة إلى اشتغال عدد من تعريفاته على الكلمة المعرفة أو مشتقاتها، مثل قوله: "الوجود: وجدان الحق في الوجود"<sup>1</sup>. إضافة إلى عدم مراعاته النوع الكلامي للكلمة المعرفة، حيث يبدأ تارة تعريف الأسماء بالفعل، وتارة بالحرف، وتارة باللفظة المعرفة نفسها مثل قوله: الغيبة: غيبة القلب. أو قوله: الحضور: حضور القلب<sup>2</sup>. ويعتمد في تعريفاته كثيرة إلى تكرار بعض الكلمات في أول التعريف، من قبيل تكرار لفظة رؤية مثل قوله: "البقاء: رؤية العبد قيام الله على كل شيء. والفناء: رؤية العبد لفعله لقيام الله على ذلك"<sup>3</sup>. وتشتمل تعريفاته على تقسيمات وفروع للمصطلح المعروف، وفي مرات نجد أكثر من تعريف للمصطلح الواحد كما فعل في تعريفه للمهاجس فهو الخاطر الأول والخطر الرباني والسبب الأول ونقر الخاطر<sup>4</sup>. وشمل تعريف مصطلح الأدب على أربعة مصطلحات هي بالتبع: أدب الشريعة وأدب الخدمة وأدب الحق والأديب<sup>5</sup>. ولا تخلو بعض تعريفاته من تعليقات مثل قوله: "أما الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين"<sup>6</sup>.

وجاءت أغلب تعريفات ابن العربي غامضة وهذا راجع للاختصار الشديد. لذا وجب الرجوع إلى كتاب الفتوحات لتبين مواضع الاختصار والحذف، وقد زاد تعريفاته غموضاً نهجه التسلسلي حيث يفسر مرات اللفظة بلفظة أشد غموضاً، نكتفي بالتمثيل على ما قلنا بالإحالة على شرحه لمصطلح الشجرة بالإنسان الكامل. وهذا الاختصار الشديد جعل تعريفات ابن العربي للمصطلحات الصوفية تعريفات غير ناجزة وغير كاملة بسبب الإضمار والحذف والإيجاز والتكثيف الدلالي، ولمزيد بيان هاكم مقارنة بين تعريف مصطلح النوال في "الفتوحات المكية" وفي رسالة "اصطلاحات"، قال ابن العربي في الفتوحات: "فإن قلت: وما النوال؟ قلنا: النوال هي التي تخص الأفراد من الرجال وقد تكون الخلع مطلقاً ومع هذا فهم في الحجاب"<sup>7</sup>. وقال في الرسالة:

<sup>1</sup> الجرجاني، التعريفات ولبه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 287.

<sup>2</sup> نفسه، ص 288.

<sup>3</sup> الجرجاني، التعريفات ولبه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 288.

<sup>4</sup> نفسه، ص 284.

<sup>5</sup> نفسه، ص 285.

<sup>6</sup> الجرجاني، التعريفات ولبه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 285.

<sup>7</sup> ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج 3، ص 127.

"النوالة: الخلع التي تخص الأفراد وقد يكون الخلع المطلقة"<sup>1</sup>. فبناء على هذه المقارنة نجد تعريفات ابن العربي في رسالته غامضة مقارنة بما كتبه في "الفتوحات المكية"، لهذا نؤكد مرة أخرى على ضرورة العودة إلى صفحات الفتوحات لفهم ما جاء في الرسالة.

### تركيب

إنَّ الخوض في المصطلح الصوفي يجعل الباحث دائم الشك في ما وصل إليه من استنتاجات، ويجعله مدمنا على قراءة النصوص الصوفية ومصطلحاتها، وإعادة قراءتها كلما سنحت الفرصة واستجد جديد.

لذا فأول ما يلفت انتباه المتتبع للمصطلح الصوفي أنَّه مصطلح زنبقيّ تتغير دلالاته حسب التجربة العرفانية، وأنَّ لغة المتصوفة لغة متجددة لتجدد الأحوال والمقامات والمشاهدات. وهذه الطبيعة التي يتميز بها المصطلح الصوفي هي ما تجذب الدارسين إلى بذل الجهد لاكتناهِ دلالاته وتوضيح رموزه وتقريب إشاراته. وقد عمد أئمة التصوف منذ القديم إلى تأليف قواميس ورسائل لشرح مصطلحاتهم وتقريبها لمريديهم، دفعا للبس والتأويل الخاطئ من جهة، وإضفاء للشرعية على علمهم من جهة أخرى.

وقد تبين من خلال تفاصيل البحث أنَّ ابن العربي كتب هذه الرسالة/القاموس المتخصص والمختصر لتلبية لطلب تلميذه وصفيه الكريم عبد الله بن بدر الحبشي. وتبين أيضا من خلال دراسة بنية المصطلح الصوفي في رسالة "اصطلاحات" لابن العربي إلى ورودها على أشكال عدة:

- مائة وأربعة وسبعون مصطلحا مفردا.

- عشرة مصطلحات ذات تركيب إضافي.

- مصطلح واحد ذو تركيب وصفي.

- مصطلح واحد معقد.

- مصطلحان جاءا بالعطف.

وهذه النتائج التي وصلنا إليها من خلال تتبع مصطلحات ابن العربي بوصفها مداخل قاموسية تبين أن المصطلح المفرد هو الغالب في مصطلحات ابن العربي في رسالته، لكن هذا لا يعني البتة أنَّ هذا النوع من المصطلحات هو الغالب في كل مؤلفات ابن العربي، بل خلصت سعاد

<sup>1</sup> الجرجاني، التعريفات ويليهِ اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص 294.

الحكيم في كتابها "ابن العربي ومولد لغة جديدة" إلى أنه أوجد لغة جديدة سمّتها الأساس هي الإضافة، وأنّ كلّ الكتابات بعده أصبحت تنهل منه، إذ أصبحت الإضافة لغة الصوفية دون منازع<sup>1</sup>. فحسب سعاد الحكيم قد حقق ابن العربي نقلة على المستوى اللغوي بتحويله اللغة الصوفية من الاصطلاحات المبنية على اللفظ الواحد المفرد، إلى مصطلح أخذ شكل العبارة، وقد حصرت أشكال العبارة في ثلاثة: فأما الشكل الأول فهو الإضافة مثل نهر القرآن وبحر الأرواح، وأما الشكل الثاني فهو النسبة مثل ولي عيسوي وتجلى ذاتي، وأما الشكل الثالث فهو الوصف مثل الأرض الواسعة. وهكذا صوّرت لغة ابن العربي بحسب سعاد الحكيم شهوده بالكلمات، شهود يرى الوجود حقائق مفردة، وتوجد مفردة في عالم ثابت معقول، ولكنها في عالم الوجود الحسي لا توجد مفردة أبداً، وإنما توجد مركبة، عالم الموجودات الذي هو عالم تركيب؛ عالم إضافات ونسب وصفات<sup>2</sup>. وقد أفردت سعاد الحكيم حيزاً كبيراً من كتابها (تقريباً 104 صفحة) لتعداد المصطلحات المضافة.

ووصلنا أيضاً إلى أن ابن العربي قد أفرد صفحات كثيرة في كتابه "الفتوحات المكية" في مسألة شرح اصطلاحات الصوفية، وقد وضع لها عنواناً بارزاً هو "مسايق المسلسل في لغة العرب: شرح ألفاظ اصطلاح القوم"، وعندما قارنا بين الرسالة (موضوع الدراسة) وصفحات "الفتوحات" تبين أن جلّ مصطلحات الرسالة مذكورة في "الفتوحات"، وأن مصطلحات الرسالة مشروحة بطريقة مختصرة، وفي المقابل مصطلحات "الفتوحات" مشروحة بإسهاب؛ وبناء على هذا اعتبرنا رسالة اصطلاحات ابن العربي من حيث الكم مختصرة لما في صفحات "الفتوحات"، لهذا أكدنا ضرورة العودة إلى ما كتبه ابن العربي في الفتوحات لفهم ما جاء في الرسالة.

ومن النتائج المهمة كذلك أن تعريفات ابن العربي لمصطلحاته ملأى بالمصطلحات؛ بمعنى أنّ رسالته مليء بالمصطلحات غير المشروحة وهي في الغالب مصطلحات ذات تركيب إضافي، لورودها أثناء التعريفات، فنجد مثلاً تحت مصطلح الأدب المصطلحات الآتية: أدب الشريعة، وأدب الخدمة وأدب الحق والأديب. ونجد تحت مصطلح الهاجس: الخاطر الأول والباطن الرباني والسبب الأول ونقر الخاطر والإرادة والهمة، والعزم، والقصد، والنية. ونجد تحت مصطلح المطلع: العماء والحيرة وحجاب العزة وعالم الكون. ونجد تحت مصطلح العقاب: القلم والعقل الأول، إلخ.

<sup>1</sup> سعاد الحكيم، ابن العربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ص90.

<sup>2</sup> نفسه، صص 79-80.



ومن النتائج التي وصلنا إليها عند مقارنة مصطلحات ابن العربي مع دلالاتها اللغوية، أنه جعل المصطلح رمزاً لتعريفه، فالشجرة عنده هي رمز للإنسان الكامل<sup>1</sup>، وبناء على هذا يمكن اعتبار اختصار التعريفات وغموضها مقصوداً لذاته، خاصة إذا علمنا أن تأليف الرسالة كان إجابة لطلب عبد الله بن بدر الحبشي المعروف بقربه لشيخه، فكأن هذه الرسالة/القاموس عبارة عن إشارات لطيفة ودقيقة ورسالة مشفرة<sup>2</sup> بين ابن العربي وتلميذه؛ بمعنى أنه لجأ إلى الرمز والاختصار والإغراب قصداً، فهو لم يكن يكتب للعامة بل للخاصة العارفين. وإلى جانب هذا فقد جعل كثيراً من المصطلحات من قبيل الغيم والنجم والطير والشجر كنايةات، ولكن هذه الكنايةات لم يتخذها اعتباطاً ولا اصطلاحاً محضاً، بل في الواقع جرد هذه الأشياء من كينونتها وجعلها صفات. فالغراب مثلاً لم يعد طائراً بل إشارة إلى السواد والغربة<sup>3</sup>.

وهذا ما جعل المصطلح الصوفي يختلف عن باقي مصطلحات العلوم والفنون إذ إنه ليس ناتجاً عن العقل أو الفكر، وإنما ناتج عن ما يتذوقه الصوفي ويشاهده، فهو إذن من ثمار التجربة الروحية القلبية النفسية<sup>4</sup> التي عاشها الصوفي ويعيشها؛ بمعنى آخر فالمصطلح الصوفي يختلف عن باقي المصطلحات في أداة المعرفة ووسيلة الإدراك وليس في وسيلة التعبير، فقد يحتاج الصوفي إلى العقل وأساليبه ليعبر عما يجد في ذاته أو عما كوشف به ولكنه قطعاً لم يدرك ذلك الوجد أو الكشف بالعقل، وهذا يختلف عن جميع العلوم والمعارف الإنسانية التي تعتمد العقل والفكر والنظر وسيلة للإدراك والمعرفة، وهذا ما يؤكد البون الشاسع بين المصطلح الصوفي وباقي المصطلحات المبنية على أسس عقلية تفترض أوليات بديهية وتسلسلاً منطقياً يتم على أساسه

<sup>1</sup> استفاد ابن العربي من صفة التشاجر والارتفاع في الشجرة ليكني بها عن الإنسان الكامل. ونذهب أبعد من ذلك فنقول إن الشجرة بما تتمتع من كونها وحدة ذاتية لاحظها ابن العربي، دفعته إلى تشبيه الإنسان الكامل بها. فالشجرة هي وحدة متكاملة في نوعها؛ فيها الجذر والساق والأغصان والأوراق والزهر والثمر. بل أكثر من ذلك فيها بذر الشجر يتولد منها. إذن هي كاملة في نوعها النباتي، وهذا على الأرجح ما دفع ابن العربي إلى تشبيه الإنسان الكامل بها. انظر، سعاد الحكيم، "المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة"، دندرة للطباعة والنشر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1981، مصطلح الشجرة.

<sup>2</sup> لعل الأسباب الحقيقية وراء ستر المعرفة الصوفية على عامة الناس تكمن أولاً في الخوف من علماء الظاهر الذين أفتوا بخروج الصوفية من الدين ومن ثم لاحقهم السلطة السياسية، ثانياً إغلاق الباب على المتلقين من عامة الناس الذين لم تبلغ أفهامهم درك هذه الأسرار، ثالثاً الخوف من أن يدعي علومهم من ليس منهم، كما هو شأن الأدعياء في كل نحلة، أخيراً قصور اللغة التواصلية التي تند عن الكشف عما هو من جنس المدفوعات. انظر، ميلود عزوز، أثر الذوق الصوفي في الثراء اللغوي والأدبي، رسالة دكتوراة بإشراف محمد عباس، جامعة أبي بكر بلقايد/تلمسان، كلية الآداب واللغات، الجزائر، السنة الجامعية 2012/2013، ص118.

<sup>3</sup> سعاد الحكيم، "المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة"، مصطلح الغراب.

<sup>4</sup> إن علاقة التصوف بالنفس وأحوالها واضحة جالية، ومن هنا كانت أكثر اصطلاحاتهم مستمدة من معجم النفس، وأكثر ذلك من القرآن الكريم؛ كتاب النفس ودليلها الذي وضعه صانعها عز وجل، وهو أدري بها. انظر، يحيى عبد الرؤوف جبر، اصطلاحات الصوفية: أبعاد جديدة في التطور الدلالي، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج 41، ج 1، مايو 1997، ص188.

تحديد الشيء المراد تعريفه ثم اختيار المصطلح المناسب لذلك التعريف، وبين اصطلاحات العلوم الصوفية القائمة على أساس ما يفيضه الحق تعالى على قلب الصوفي من مذاقات ومعاني وفتوحات، ونتيجة هذا التباين في وسيلة الإدراك نجد المعنى الاصطلاحي في العلوم القائمة على أساس العقل تتحدد وتصبح كأنها قاعدة ثابتة بين أفراد المجموعة التي تعارفت على تلك المصطلحات بينما نجد أن المعنى الاصطلاحي متغيراً ومتجدداً عند الصوفية بين جيل وآخر، بل في أحيان كثيرة نجد أنَّ التغير والتجدد يحصل عند الصوفي نفسه<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> عبد الكريم الكسزان الحسيني، موسوعة الكسزان فما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دار آية، بيروت، ط1، 2005، ج1، صص37-38.

## لائحة المصادر والمراجع

- ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1998.
- ابن العربي، الديوان الكبير، تحقيق: عبد الإله بن عرفة، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018.
- أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.
- أبو قاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
- أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2009.
- ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1981.
- سعاد الحكيم، ابن العربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991.
- سعاد كوريم، الدراسة المفهومية: مقارنة تصورية منهجية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 60، ربيع 2010.
- الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1995.
- الشريف الجرجاني، التعريفات ويليها اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985.

- عبد الجبار النفري، المواقف والمخاطبات: نصوص فلسفية، تحقيق: آرثر أربري، تقديم وتعليق: عبد القادر محمود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985.
- عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1989.
- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988.
- عبد الكريم الكسنزان الحسيني، موسوعة الكسنزان فما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دار آية، بيروت، ط1، 2005.
- عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني: دراسة نظرية وتطبيقية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003.
- علي القاسمي، عبد الرزاق الكاشاني وإسهامه في تطوير المعجمية العربية، مجلة المجمع العربي، دمشق، مج 77، ج 4، أكتوبر 2002.
- محمد بن بركة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006.
- مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم و الموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ط1 2003.
- مصطفى طاهر الحبادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، عالم الكتب الحديثة، عمان، ط1، 2003.
- ميلود عزوز، أثر الذوق الصوفي في الثراء اللغوي والأدبي، رسالة دكتوراة بإشراف محمد عباس، جامعة أبي بكر بلقايد/تلمسان، كلية الآداب واللغات، الجزائر، السنة الجامعية 2012/2013.
- يحيى عبد الرؤوف جبر، اصطلاحات الصوفية: أبعاد جديدة في التطور الدلالي، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج 41، ج 1، مايو 1997.

## القواميس العربية (النظرية والمنهج)

كوثر الرحمانى

طالبة باحثة بسلك الدكتوراة  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة  
جامعة محمد الأول - المغرب



### ملخص:

سعى القاموسيون من خلال مؤلفاتهم العديدة إلى حفظ لغة العرب من اللحن والخطأ إضافة إلى شرح الكلمات العربية وتفسير المعاني الدالة عليها...تثني الصناعة القاموسية على ثلاثة عناصر الترتيب والمادة والتعريف، إذا اختفى عنصر واحد أصبح القاموس كتابا عاديا، وشأنها شأن العلوم الأخرى تقوم الصناعة القاموسية على منهج علمي رصين ومتين. ويسعى هذا البحث إلى تحديد المصطلحات القاموسية بدقة مثل التمييز بين القاموس والمعجم وكذا التمييز بين علم المعجم وصناعة القواميس، أضاف إلى ذلك إبراز الاعتبارات التي على أسسها صنف الباحثون القواميس العربية.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الرحمانى، كوثر. (2024، أكتوبر). القواميس العربية (النظرية والمنهج). مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 530-548.

### Abstract:

Through their many works, dictionaries sought to preserve the Arabic language from grammaticality and errors, in addition to explaining Arabic words and interpreting the meanings that indicate them.. The dictionary industry is built on three elements: arrangement, matter, and definition. If one element disappears, the dictionary becomes an ordinary book, and it is the same as the other. Other Sciences The dictionary industry is based on a solid and solid scientific approach. The research seeks to precisely define dictionary terms, such as the distinction between a dictionary and a lexicon, as well as the distinction between lexicography and dictionary making, in addition to highlighting the consideration on the basis of which researchers have classified Arabic dictionaries.

## مقدمة

يعد فن تأليف القواميس علما قديما توارثه العرب منذ مئات السنين، وبعد نزول القرآن الكريم باعتباره كلاما معجزا لفظا ومعنى، اندهش العرب شعراء وخطباء من هذا الكلام المعجز، فاتجه علماء التفسير إلى شرح وفهم ألفاظه، ولا سيما بعد انتشار الإسلام في الأمصار واعتناق العديد من الأعاجم الدين الجديد، فأصبح لابد من شرح هذا الخطاب السماوي... فكانت هذه أول الطلائع لظهور فروع عديده تهتم بالقرآن الكريم.

ولا شك أن القواميس العربية القديمة التي ظهرت بعد نزول القرآن الكريم جاءت هي الأخرى لخدمة كتاب الله تعالى بشكل من الأشكال، ففي رفوف المكتبات العربية تستلقي كتب عديدة من القواميس مختلفة الأشكال والأنواع، وهي محط اهتمام الدارسين قديما وحديثا، وسأحاول في هذا البحث التطرق إلى نظرية علماء القاموس في تأليفاتهم وكذا المنهج الذي اتبعه أهم القاموسيون في قواميسهم.

- فما الفرق بين القاموس والمعجم؟
- وما الفرق بين علم المعجم وصناعة القواميس؟
- وما النظرية التي سعى القاموسيون إلى تأسيسها انطلاقا من مجموعة من القواميس؟
- وما المنهج المتبع في تأليف هذه القواميس؟

## تعريف القاموس لغة واصطلاحا:

أصبح تعريف المصطلحات جسرا منهجيا لا يمكن للباحث الاستغناء عنه، ولا سيما في ظل الفوضى المصطلحية التي أضحت مجموعة من العلوم تشهداها، ولأن المصطلح لا يفقد كل وشائجه اللغوية لابد من البدء بالتعريف اللغوي، إذ لو كان المصطلح مستغن عن اللفظة العامة وعن المعنى الذي تدل لارتجل لنفسه مصطلحا جديدا يعبر عن مفهوم جديد...

عرف الخليل بن أحمد الفراهيدي (173هـ) في قاموس العين، جذر (ق. م. س): "كل شيء يَنْغَطُّ في الماء ثم يرتفع فقد قَمَسَ والقيزان وهي آكام القفاف، إذا اضطرب السراب حوالها، قيل قَمَسْتُ... وفي المثل بلغ قوله قاموس البحر أي قعره الأقصى.<sup>1</sup>

أما ابن فارس في قاموس مقاييس اللغة يرى أن مدار مادة (ق. م. س): "القاف والميم والسين أصل صحيح يدل غمس الشيء في الماء، والماء بنفسه يسمى بذلك، من ذلك قمست الشيء في الماء، غمسته ويقال: إن قاموس البحر معظمه، وقالوا في ذكر المد والجزر، إن ملك قد وكل بقاموس البحر، كلما وضع رجله فاض فإذا رفعها غاص... ويقولون قمس الولد في بطن أمه: اضطرب، والقماس الغواص، انقمس النجم: انحط في المغرب، وتقول العرب للإنسان إذا خاصم من هو أجراً منه: إنه يقامس حوتا.<sup>2</sup>

تجدر الإشارة إلى أن التعريفين اتفقا في تعريفهم لهذه الجذر (ق. م. س) إذ تدل كلمة قاموس على البحر في عمقه وبلوغ أقصاه، ولذلك اختار الفيروزآبادي هذه الكلمة عنواناً لقاموسه (القاموس المحيط) لما للكلمة من دلالات توجي بالإحالة والشمولية علاوة على العمق.

تعتبر المصطلحات مفاتيح العلوم كما عبر عن ذلك الخوارزمي، والتعريف الاصطلاحي للمصطلح في غاية الأهمية ولا سيما في الوقت الراهن، لأن رسم حدود المفهوم الذي يوجي إليه المصطلح يساعد المتلقي على فهم المقصود... ولأن القاموس مصطلح حديث، فإن الباحث لن يجد ضالته في قواميس المصطلحات بل في الكتب التي تهتم اهتماماً بالقاموسية والمعجمية، ويدل القاموس على الكتاب الذي يضم مجموعة من الوحدات المعجمية (المفردات) مرتبة ومشروحة بطريقة معينة، يقول د. عبد العلي الودغيري: "كل كتاب تأليف له هدف تربوي وثقافي، ويجمع بين دفتيه قائمة تطول أو تقصر من الوحدات المعجمية التي تحقق وجودها بالفعل، في لسان من الألسنة، ويخضعها لترتيب وشرح معينين، وهذا المفهوم هو الذي يناسب أن نطلق عليه مصطلح "قاموس" في مقابل اللفظ الفرنسي Dictionnaire.<sup>3</sup>

1. الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين. تج. د. مهدي المخزومي. د. عبد السلام هارون، ط 1 (منشورات اسوة)، د. ت. أ. الجزء 3. مادة (ق. م. س). ص: 144.

2. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. مقاييس اللغة. تج. عبد السلام هارون. ط 1 (بيروت، دارالجيل، 1991م). الجزء 5. مادة (ق. م. س). ص: 26.

3. عبد العلي الودغيري. دراسات معجمية. نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى. ط 1. 2001. ص: 19. 20.

### الفرق بين المعجم والقاموس:

من خلال التعريف السابق يظهر لنا الفرق بين المعجم والقاموس، فإذا كان القاموس كل كتاب يضم مجموعة من الكلمات مرتبة ومشروحة بطريقة معينة، فإن المعجم هو مجموع الكلمات التي تكون لغة ما، وهو ما عبر عنه د. عبد العلي الودغيري: "بأنه مجموع مفترض (موجود بالقوة لا بالفعل) وللأحد من الوحدات المعجمية التي تمتلكها جماعة لغوية معينة بكامل أفرادها، أو يمكن أن تمتلكها احتمالاً، بفعل القدرة التوليدية الهائلة للغة".<sup>1</sup>

نجد د. عبد العلي الودغيري يميز بين القاموس والمعجم بشكل دقيق، في حين اختار د. إبراهيم بن مراد أن يجعل مصطلح "المعجم" دال على معنيين الأول عام وهو مجموع الوحدات اللغوية المكونة للغة ما، أما المعنى الثاني فهو معنى خاص يدل على مدونة جمعت فيه مفردات مرتبة ومشروحة بطريقة معينة، إذ يقول: "لمصطلح المعجم مفهومان في اللسانيات الحديثة، الأول عام: وهو مجموع الوحدات المعجمية التي تكون لغة جماعة معينة ما تتكلم لغة طبيعية واحدة أي أنه مجموع المفردات المكونة للغة من اللغات والقابلة للاستعمال بين الأفراد والجماعة اللغوية ليعبروا عن أغراضهم... وهو بهذا المفهوم معبر عنها يسمى (مقدرة) Competence الجماعة اللغوية وهو ما يقابل المصطلح الفرنسي Lexique والمصطلح الإنجليزي Lexicon.

ومفهوم المصطلح الثاني خاص وهو أنه مدونة Corpus المفردات المعجمية في كتاب مرتبة ومعرفة بنوع ما من الترتيب والتعريف، وقد تكون المفردات المدونة مفردات مؤلف من المؤلفين (مثل معجم الجاحظ، معجم ابن خلدون)، أو مفردات اللغة في فترة من فترات حياتها (مثل معجم عربية القرن الثالث الهجري)، أو مصطلحات علم من العلوم (مثل معجم الطب) أو فن من الفنون (مثل معجم البناء). وقد يكون الكاتب ذا منحنى استيعابي يراد به جمع ما استطاع المؤلف جمعه من مفردات اللغة التي عرفت في الاستعمال (مثل لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي)، ويطلق البعض على المعجم بهذا المفهوم مصطلح "القاموس" ويقابل في الفرنسي Dictionnaire وفي الإنجليزي Dictionary.<sup>2</sup>

يتضح من خلال التعريف الذي عرف إبراهيم بن مراد المعجم في دلالاته الخاصة أن المقصود منه ليس القاموس العام فقط الذي يشرح ألفاظ اللغة العامة. وإنما يدخل في هذا الصنف كل

4. الودغيري. دراسات معجمية. نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى. ص: 20.

5. إبراهيم بن مراد. مقدمة لنظرية المعجم. ط 1. (دار الغرب الإسلامي. 1997). ص: 87.



كتاب يعرف مصطلحات الفنون والعلوم والأشخاص وغيرها وهذا ما يعرف بالقواميس الخاصة والقواميس المخصصة وهذا سنعرض له في حديثنا عن مادة القواميس بتفصيل أكثر.

### الفرق بين علم المعجم وصناعة القواميس:

إن التمييز بين المعجم والقاموس يقتضي بالضرورة التمييز بين علم المعجم وصناعة القواميس فالعلم الذي يهتم بدراسة المفردات داخل لغة من اللغات بالنظر إلى العلاقات التي تجمعها مثل التوليد والاشتقاق والاشتراك اللفظي والتطور الدلالي يسمى المعجمي، أما الذي يهتم بدراسة المفردات المذكورة في متن كتاب من الكتب بتناول طبيعة المادة وطريقة ترتيبها وتعريفها فهذا يعتبر قاموسي. يقول إبراهيم بن مراد بهذا الصدد: "... المعجمية النظرية Lexicologie، وموضوعها البحث في الوحدات المعجمية من حيث مكوناتها وأصولها وتوليدها ودلالاتها، ويرتبط المفهوم الثاني بالمعجمية التطبيقية Lexicographie وموضوع البحث في الوحدات المعجمية من حيث هي مدخل معجمية Entrées lexicales تجمع من مصادر ومن مستويات لغوية ما، من حيث هي مادة كتاب قد ألف بحسب منهج في الترتيب والتعريف معين، والمفهوم وثيقا الصلة ببعضها، لأن المدونة التي تجمع في كتاب لسيت إلا جزءا . مهما يكن كبيرا أو صغيرا . من الرصيد العام الذي يكون اللغة".<sup>1</sup>

من خلال التمييز الذي قدمه إبراهيم بن مراد بين علم المعجم وصناعة القواميس يمكن القول إن اعتبار القاموس جزء لا يتجزأ من المعجم أمر حتي لا يختلف حولها اثنان ذلك أن مفردات الكتاب المرتبة والمعرفة بطريقة معينة هي جزء من المفردات المكونة لمعجم لغة من اللغة ومن ثم إن بينهما عموم وخصوص، فالمعجم أعم من القاموس والقاموس جزء من المعجم.

ويذهب د. عبد العلي الودغيري إلى الاتجاه نفسه إذ يرى أن: "البحث في القاموس بحث يغلب عليه الطابع التطبيقي والعلمي لأنه يندرج عادة تحت علم "صناعة القواميس La lexicographie، بينما يغلب الطابع النظري على البحث في "المعجم" وهو فرع "علم المفردات" أو "المعجمية" La lexicologie، وقد أصبح اليوم من صلب اهتمام الفرضية المعجمانية. L'hypothèse lexicalist".<sup>2</sup>

<sup>1</sup>. إبراهيم بن مراد. مقدمة لنظرية / المعجم. ص: 8.

<sup>2</sup>. الودغيري. دراسات معجمية. نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى. ص: 20.

## 4. العوامل التي أدت إلى تأليف القواميس العربية:

يعد فن صناعة القواميس شأنه شأن أصناف العلوم الأخرى لم يولد كاملاً متكاملًا وإنما ظهرت إرغاصات عديدة أدت إلى ولادته، وسأحاول عرض أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الفن...

تعددت عوامل ظهور فن تأليف القواميس، إذ يبقى السبب الرئيس هو رغبة العلماء في خدمة القرآن الكريم، بل إن كل العلوم التي ظهرت في هذه الفترة كانت لخدمة كتاب الله في زاوية من الزوايا مثل البلاغة والنحو والصرف وغيرها، بل إن العلماء سواء أكانوا عرباً أو أعاجم اعتبروا التفقه في اللغة العربية والبحث عن أسرارها، ما هو إلا اهتماماً بالقرآن الكريم لأنها اللغة التي نزل بها، يقول أبو منصور الثعالبي في مقدمة كتابه "فقه اللغة وسر العربية" معبراً عن أهمية حبنا للغة العربية والذود عنها لأنها لغة القرآن الكريم ونبية الكريم: "من أحب الله تعالى أحب رسوله محمد صلى عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية غني بها وثابر عليها وصرف همته إليها، ومن هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره للإيمان، وأتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والعربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي مفتاح التفقه في الدين، وسبب صلاح المعاش والمعاد".<sup>8</sup>

تضافرت جهود علماء سابقين استفاد منها القاموسيون واهتدوا إلى فكرة إبداع تأليف القواميس عدة ومرتبة ومشروحة بطرق متعددة، ولعل التأليف في غريب القرآن من بين الكتب التي ساهمت في ذلك، ويعد ابن عباس رضي الله عنه، أول من اهتم بشرح ألفاظ القرآن الكريم وتوضيح دلالاتها ومعانيها، وذلك بالاستعانة ببعض أبيات الشعر... "وكانت هذه الحركة التي ترمي إلى توضيح آيات القرآن هي الحركة العلمية الأولى عند المسلمين، بدأت متضائلة خجلة مقصورة على محاولة فهم القرآن، ثم أخذت تفقد الخجل، ويقوى ساعدها، ويتسع ميدانها حتى شملت في مدة وجيزة جميع العلوم التي عرفها العالم القديم. فما اتصل بالقرآن من علوم كان أولها ظهوراً، وما ابتعد عنه كان من آخرها... وليس من شيء أكثر صلة به من محاولة فهمه، بإدراك غريبه ومشكله. فتفسير غريب القرآن ومشكله أولى الحركات العلمية التي رآها العرب... وكان للحديث

<sup>8</sup>. أبو منصور الثعالبي. فقه اللغة وسر العربية. تج: مصطفى السقا. إبراهيم الأثباري. عبد الحفيظ شلي. ط أخيرة 1972 ص: 21.

الشريف نصيبه في إظهار الدراسات اللغوية. فقد اتجهت الدراسات إلى العناية بغريب الحديث، كما عنيت بغريب القرآن...<sup>1</sup>

وتبقى الرسائل اللغوية بما تضمنته من قوائم طويلة من الكلمات وشروحاتها بمثابة الإرهاصات الأولى لبدایات التفكير في تأليف القواميس، وقد فصل د. رمضان عبد التواب في كتابه فصول في فقه العرب ذكر العديد من هذه الرسائل يقول بهذا الصدد: "وقبل أن نتحدث عن المعاجم العربية الكبيرة، نود لو نلقى هنا نظرة على تلك الرسائل اللغوية الصغيرة، التي استقى اللغويين العرب، ولا سيما الأقدمون منهم، مادتها من أفواه البدو، وبعض أسماء هؤلاء البدو، معروف لنا من مؤلفات هؤلاء اللغويين... ولننظر فيما يلي بعض هذه الرسائل اللغوية، التي وصلت إلينا من مؤلفات هؤلاء اللغويين، فمن بين ما ألفه اللغوي الكبير "عبد الملك بن قريب الأصمعي" المتوفى سنة 216 هـ، بقيت لنا المؤلفات التالية: "الإبل - الخيل - الشاء - الوحوش - الفرق - خلق الإنسان - النبات والشجر..."<sup>2</sup>

#### 5. الغرض من تأليف القواميس العربية:

لعل أهم شيء سعى العلماء إلى تحقيقه من خلال تأليفهم للقواميس هو فهم ألفاظ القرآن الكريم، وتوضيح المعاني التي تدل عليها من خلال التمثيل بالشواهد الشعرية، يقول د. إبراهيم أنيس: "وعلى هذا قيل لنا أن القرآن الكريم قد تحدى الفصحاء من العرب، فليس يعني هذا أنه تحدى جميع العرب، وإنما تحدى أولئك الذين كرسوا حياتهم على نواحي القول، فأجادوها خطابة وشعرا".<sup>3</sup> أضف إلى ذلك شرح ألفاظ الحديث النبوي الشريف الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والتابعين، كما كان لألفاظ كلام العرب بشقيه شعرا ونثرا نصيبه من التعريف والشرح ... ومن خلال القواميس العربية استطاع المؤلفون إرشاد المتكلم العربي إلى النطق الصحيح للكلمات بعيدا عن كل خطأ أو لحن، كما أن الباحث في العلاقات التي تجمع بين الكلمات يجد ضالته في هذه القواميس، القاموسيون عند شرحهم للفظ من الألفاظ يذكرون الأصل الذي ينتمي إليه وجموعه واشتقاقاته ومصادرها والتطور ولاسيما التطور الدلالي إذ أن الكلمة قد يتغير معناها من فترة زمنية لأخرى ويبقى السياق هو الفصيل في تحديد المعنى المراد.

<sup>1</sup> حسين نصار. المعجم العربي نشأته وتطوره. ط 4. (دار مصر للطباعة. 1988 م). ج 1. ص: 46. 45.

<sup>2</sup> رمضان عبد التواب. فصول في فقه العربية. ط 6. (الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة. 1999) ص: 231. 230.

<sup>3</sup> إبراهيم أنيس. في اللهجات العربية. ط 6. (مكتبة الأنجلو المصرية. 1984 م). ص: 40.

ويرى علي القاسمي أن "تحديد وظائف المعجم يرتبط بقضية خارجية، وهي حاجة مستخدم المعجم، أو "الزبون" بلغة السوق ونوع المعلومات التي يريدها من، وقد حصر المعجميون أهم وظائف المعجم فيما يلي: "ذكر المعنى، بيان النطق (ويدخل في ذلك التقسيم المقطعي وموضع النبر)، تحديد الرسم الإملائي، التأصيل الاشتقاقي، المعلومات الصرفية والنحوية، معلومات الاستعمال، المعلومات الموسوعية، كما تتفاوت المعاجم واختياراتها من بين هذه الوظائف تختلف كذلك في ترتيبها من حيث الأولوية".<sup>1</sup>

#### 6. منهج القاموسيين في تأليف القواميس:

تبنى الصناعة القاموسية على ثلاثة أركان أساسية إن فُقد واحد منها أصبح المؤلف كتابا وليس قاموسا وهي المادة والترتيب والتعريف، ولا غرو أن القواميس العربية اتبعت منهجا واضح الحدود والمعالم في كتابتهم لهذه القواميس، ولعل الحركة النقدية التي عرفت الدراسات اللغوية بعد ظهور القواميس العربية الأولى تقف شاهدا على المنهج الدقيق المتبع في هذه الكتب... ولكن قبل الشروع في التفصيل في هذا المنهج الذي ارتأيت أن يكون مصنفا على أساس ثلاثة اعتبارات سأفصلها فيما بعد، لابد من الحديث عن مبدأ الجمع، فماذا نقصد بجمع المادة؟

إذا كان القاموسيون المحدثين استفادوا من قواميس القدماء، فإن القاموسيين القدماء اعتمدوا في جمع مادتهم على المشافهة، فبالإضافة إلى الكلام المكتوب المتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب شعرا ونثرا، اتجه العديد من القاموسيين إلى مشافهة العرب وليس كل العرب بل الذين اشتهروا بالفصاحة، يقول مختار عمر في هذا الصدد: "اتبع المعجميون العرب القدماء ثلاثة طرق لجمع مادة معاجمهم وهي:

طريق الإحصاء العقلي الذي قام به الخليل بن أحمد في معجمه "العين" واستطاع من خلاله جمع مادة اللغة من خلال الإحصاء الرياضي، والقيام بعمليات من التوافق والتبادل.  
طريق المشافهة الذي قام به الأزهرى في معجمه "تهذيب اللغة" واستطاع من خلاله القيام بجمع ميداني لمادة كثيرة سجلها في معجمه.

طريق جمع مادة المعجم من معاجم السابقين، وهو الطريق الذي ظل سائدا حتى العصر الحديث، دون محاولة أخذ مادة المعجم من مادة حية تم جمعها من خلال النصوص".<sup>2</sup>

<sup>1</sup>. أحمد مختار عمر. صناعة المعجم الحديث. ط 1. (عالم الكتب. القاهرة. 2009م). ص: 115.

<sup>2</sup>. أحمد مختار عمر. صناعة المعجم الحديث. ص: 76، 75.

إن القول بأن العرب جمعوا مادتهم اللغوية بين المنطوق والمكتوب يتجه بنا إلى القول بأنهم زواجوا بين المنهجين الوصفي والمعياري، ويفصل علي القاسمي القول في هذا الأمر إذ يقول: "... إن رواد المعجمية العربية جمعوا مدونتهم المعجمية (مادتهم المعجمية) من المنطوق والمكتوب معا، لهذا فإن معاجمهم كانت وصفية بأمانة اللغة العربية مع كما كانت مستعملة فعلا في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر وكلام العرب الأصل في البادية، وقولنا أن معاجمهم كانت وصفية لا يمنع من القول أنها كانت معيارية في الوقت نفسه، بمعنى أنها كانت تشير إلى الاستعمالات غير الفصيحة في اللغة، ولا تعد معيارية تلك المعاجم عيبا فيها، وإنما ضرورة أملت لها الازدواجية اللغوية القائمة في اللغة العربية، حيث يوجد مستويان من مستويات الاستعمال أحدهما فصيح والآخر دراج أو عامي.<sup>1</sup>

ويستحسن في التأليف القاموسي ألا يكتفي القاموسي بأخذ مادته من القواميس السابقة فحسب، بل أن ينطلق من العصر الذي يعيش فيه، ليكون قاموسا مواكبا لعصره، يرى إبراهيم بن مراد "أن اللغة العربية لم تصبح لغة حية بحق تعبر عن مستحدثات العلم والفن والحضارة إلا في نهاية عصر الاحتجاج، أي في القرن الرابع للهجرة، وليست جزيرة العرب هي التي مدت العربية بطاقتها الجديدة، بل الأنصار، ولذلك وجب تدوين المولد والمستحدث من الألفاظ والعبارات والدلالات الجديدة التي طرأت على الألفاظ القديمة في مختلف الأمصار الإسلامية وفي مختلف العصور".<sup>2</sup>

يؤكد الكاتب ضرورة تدوين كل ما هو مولد ومستحدث حتى يناسب التطور الذي تشمله اللغة العربية فلا يبقى القاموسي مقيد بما سبقه، وإلا أصبحت القواميس تكرر لما سبق، فإضافة الجديد يغني القاموس ويكسبه صبغة الملائمة للعصر ومواكبة ما يشهده من تطور وتقدم في مختلف مناحي الحياة.

بعدما جمع القاموسيون المادة سينتقلون إلى وضع هذه المادة، والوضع لا يكون اعتباطيا وإنما وفق مناهج متكاملة ومتعددة ومن خلال هذا الوضع ظهرت تصنيفات القواميس العربية وفق الترتيب أساسا وقبل الشروع في ذلك هذه التصنيفات لابد من الإشارة إلى تعريف المادة أو الجذر ثم المدخل المعجمي.

<sup>1</sup>. علي القاسمي. "إشكالية الدلالة في المعجمية العربية". المعجمية العربية قضايا وآفاق. العدد 3. ط 1. (دار كنوز المعرفة. 2016م). ص: 18.

<sup>2</sup>. إبراهيم بن مراد. دراسات في المعجم العربي. ط 1. (لبنان. دار الغرب الإسلامي. 1987م). ص: 202.

"إن المعاييش للصناعة المعجمية يكاد يلاحظ أن كلمتي (المادة) و(الجزر) يترادفان في الدلالة من حيث الإشارة إلى الأصل الاشتقاقي للمداخل الفرعية، فمثلا المداخل الفرعية (مدّ. أمدّ. مدّد. امتدّ. تمدّد. المادّة. المداد. المديد...) أصلها الاشتقاقي هو (م د د) وهذا الأصل في اصطلاح أهل الصناعة المعجمية يطلق عليها المادة أو الجزر... وقد عرف بعض الباحثين الجزر بأنه "أصل المادة اللغوية الثلاثي أو الرباعي أو الخماسي" في حين عرّف المادة بأنها "الجزر اللغوي المجرد مثل (ر ف ع) ومشتقاته، وهذا ما درج عليه الباحثون عند الرجوع إلى أحد الجذور اللغوية في معجم ما، حيث يشيرون إلى ذلك بعبارة مادة (ع ج م) مثلا".<sup>1</sup>

وخلاصة القول إن المادة والجزر تعني حروف المداخل المعجمية دون زوائد كيفما كان نوعها مثل (ف. ع. ل) وللتدقيق أفضل أن أضع بين الحروف نقطا فاصلة حتى لا يقرأها القارئ (فعل) ونجد تحت هذا الجزر اشتقاقا عدة منها (فعل. يفعل. فاعل. مفعول. فعالة. استفعل. مفعول. تفاعل. انفعل...)، وأرى أنه التعريف الأنسب لأن القول بأصل المادة هو من الثلاثي أو الرباعي أو الخماسي، يجعلنا نختار أي المذهبيين النحويين نختار هل المذهب البصري القائل بأن أصل الاشتقاق هو المصدر، أم المذهب الكوفي القائل بأن أصل الاشتقاق هو الفعل؟

"اختلف الباحثون في تعريف المدخل المعجمي ويعود هذا الاختلاف بين اللغات وأنواعها فإذا كانت اللغة العربية لغة اشتقاقية فإن اللغة الإنجليزية لغة إصاقية تعتمد على زيادة السوابق واللواحق،" ويدل مصطلح (مدخل) وجمعه (مداخل) يستخدمان للدلالة على قائمة الكلمات التي يعرضها المعجم على صفحاته، ويقوم بشرح معناها وتفسيرها بأية طريقة من طرق الشرح... ومن المعروف أن هذه الكلمات أو المداخل تُكتب عادة بخط بارز، أو ببنط أسود أو شبه أسود (بنط أكبر من بنط كلمات الشرح) أو تُكتب بين قوسين، وغير ذلك من طرق تسجيل المداخل".<sup>2</sup>

نستنتج من خلال ما سبق أن المادة والجزر والمدخل كلها مصطلحات تعني المفهوم نفسه وهو الكلمات المراد شرحها والتي تُكتب بشكل مخالف لشرح وقد تأتي بعد نقطتان تفسيريتان، إلا أنني أرى أن الترادف في العلوم شيء مذكوم فحبذا لو توحد المصطلحات لتدل على مفهوم دقيق، حتى لا نسقط في وحل الفوضى المصطلحية، ونبعد المتلقي على اللبس والخلط بين المصطلحات... عندما نتحدث عن القاموسيين العرب نحن نقصد القواميس التي كتبت بالعربية بغض النظر عن صاحبها، ففي الإسلام لا تمييز بين العربي ولا الأعجمي إلا بالتقوى، وفي المكتبات العربية

<sup>1</sup>. مصطفى يوسف. المواد والمداخل في المعجم التاريخي. ط 1 (القاهرة. عالم الكتب. 2014م). ص: 64.

<sup>2</sup>. مصطفى يوسف. المواد والمداخل في المعجم التاريخي. (بتصرف) ص: 67.

تستلقي سير رجال عظماء خدموا الدين الإسلامي واللغة العربية ولم يكونوا عرباً، مثل ابن جني الذي أبدع البحث في أسرار اللغة العربية، ولا تزال مؤلفاتهم معينا لا ينضب للباحثين إلى يومنا هذا.

اخترت تصنيف أهم القواميس العربية القديمة على أساس ثلاثة اعتبارات بدء بالترتيب ومرورا بنوع المادة وصولاً عند التعريف.

#### • التصنيف على أساس الترتيب:

لاحظ العلماء أن القواميس العربية رغم اشتراكها في الهدف وهو عموماً شرح الكلمات وتوضيحها للمتلقى، إلا أنها تختلف من حيث حجمها ونوعية ترتيبها للمداخل المعجمية، وقد ذهب بعضهم إلى جعلها على شكل مدراس ولكل مدرسة رائدها... وإجمالاً يمكن التمييز بين القواميس العربية على اعتبار الترتيب بالشكل التالي:

#### أ. الترتيب الصوتي مع تقليبات الجذر:

يُنسب أول قاموس عربي ظهر بشكل متكامل إلى العالم اللغوي "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (174هـ) وكان العالم ذا عقل رياضي إذ إليه يرجع الفضل في اكتشاف علم العروض القائم على بحور شعرية وأوزان نظم وفقها الشعراء أشعارهم... لقد وجد الفراهيدي الرسائل اللغوية بقوائمها طويلة كانت أو قصيرة، لا تف بالغرض المقصود وراء تأليف القاموس، ولا تحفظ اللسان العربي من الزلل واللحن... فاتجه إلى تأليف قاموسه العين بطريقة مبدعة إذ حاز قصب السبق في الترتيب الصوتي، لأنه نظر في مخارج الأصوات العربية فوجد أن هناك أصوات تخرج من الحلق وهي (ء.ه.ح.خ.ع) فاختر حرف العين لأنها أوضح في السمع ذاك أن الأصوات في الصوارة تنطق ساكنة (غ)، أما الأصوات الأخرى رغم عمقها في المخرج إلا أنها غير واضحة في السمع أو أنها مهموسة، فرتب قاموسه بدءاً بحرف العين، فجاء ترتيب القاموس على النحو التالي: "ع.ح.ه.ح.غ.ق.ك.ج.ش.ص.ض.س.ز.ط.د.ت.ظ.ث.ذ.ر.ل.ن.ف.ب.م.و.ا.ي.ء."

"اطمأن الخليل إلى هذا النظام واتخذ أساساً له في ترتيب كتابه الجديد، وسعى كل حرف من هذه الحروف كتاباً. فبدأ المعجم بكتاب العين، فكتاب الحاء، فكتاب الهاء... الخ، واتسع عنوان الكتاب الأول من "كتاب العين" فشمّل المعجم كله بكتبته المختلفة، واشتهر هذا المعجم باسم"

كتاب العين "لاستهلاله بها على عادة العرب في كثير من أسمائهم، كما يتضح جليا في كثير من أسماء سور القرآن".<sup>1</sup>

ثم نظر في بيئة كلام العرب فوجد أن الكلمة العربية لا تخرج عن أربعة أقسام إما الثنائي أو الثلاثي أو الرباعي أو الخماسي، ليختار انطلاقا من هذا التقسيم ترتيبا داخليا للقاموس فبدأ بالثنائي ثم الثلاثي ثم الرباعي ليصل الخماسي، يقول حسين نصار: "الخطوة الثانية لديه استقصاء الأبنية فيما بين الثنائي والخماسي. ولم يجشمه ذلك مشقة إذ كان الصرفيون قد فرغوا منه. فالكلمات العربية إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية ولا شيء غير ذلك. وإذن فليراع في كل كتاب هذه الأبنية فيسهل عليه الحصر. ولقد فعل، فجعل هذه الأبنية أساس تقسيم الكتب إلى أبواب".<sup>2</sup>

حاول الخليل حصر اللغة فاهتدى إلى فكرة التقاليب إذا أخذ يقلب الأبنية السابقة الذكر ليحصل على كلمات جديدة وكلما حصل على كلمة جديدة شرحها وحكم عليها بالاستعمال أو الإهمال، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحكم مرتبط بتلك الفترة فكثير من الكلمات تغير حكمها وربما إلى النقيض، بل إن بعض الكلمات يتغير معناها لأن اللغة كائن حي، وهو ما يعرف بالتطور الدلالي. يقول رمضان عبد التواب: "ومن الطبيعي أن هذه التقاليب، ليست كلها مستعملة عند العرب، ولذلك نرى الخليل يهمل المستعمل فحسب، ومن تقاليب المادة الواحد فينبه عليها، مثل قوله "باب العين والهاء والذال: ع هـ د - ع د هـ - د هـ ع مستعملات" ومعنى هذا أن هناك ثلاثة تقاليب أخرى، غير مستعملة من هذه المادة، تركها الخليل بن أحمد".<sup>3</sup>

ظل قاموس "العين" محط اهتمام العلماء قديما وحديثا وتناولوه بالدراسة والتحليل، وألفت حوله كتب تستدرك ما فات الخليل وتصوب ما أخطأ فيه، كما ألفت قواميس اختصرت "العين" من أشهرها "مختصر الزبيدي" لأبي بكر الزبيدي.

لقد تذوق الخليل الأصوات وأحس بها، فالصوت عنده يؤدي دورا مهما في القاموس، ومع أنه اعتمد هذا الترتيب، الذي يبدو صعبا في ظاهره إلا أنه جعل منه ومن منهجه موضوعا للدراسة في مختلف العصور، بل إن كثير من القاموسيين استفادوا من قاموسه ومن منهجه حتى وأن لم يعتمدوه أساسا في قواميسهم، فاهو ابن دريد ينحو المنحى نفسه في قاموسه "جمهرة اللغة" في

<sup>1</sup>. حسين نصار. المعجم العربي، نشأته وتطوره. ج 1. ص: 167.

<sup>2</sup>. حسين نصار. المعجم العربي، نشأته وتطوره. ج 1. ص: 167.

<sup>3</sup>. رمضان عبد التواب. فصول في فقه العربية. ص: 229.



فكرة تقلب الأزمنة مع تفسير واحد وهو ترتيبه للجذور حسب الترتيب الألفبائي، وعلى سبب اختياره لهذا الاسم بأنه انتقى من كلام العرب المشهور فقط، وابتعد عن الغريب الوحشي، "(الجمهرة في اللغة) فإنه معجم لألفاظ اللغة العربية، تب فيه المادة اللغوية، على الترتيب الهجائي المعروف لنا جميعاً. ويعلل ابن دريد لتسمية كتابه بالجمهرة، بقوله: "وإنما أعرناه هذا الاسم، لأننا اخترنا الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر" ولم يذكر ابن دريد في مقدمته، مصدراً لكتابه سوى كتاب "العين" للخليل بن أحمد، غير أنه يطالعنا في نص الجمهرة نفسها، أسماء: الأصمعي، أبي عبيدة، وأبي حاتم، وأبي زيد، وغيرهم".<sup>1</sup>

اختار أبو علي القالي في قاموسه "البارع في اللغة" الرجوع إلى منهج الخليل في الترتيب الصوتي مع بعض التغيرات. "غض القالي نظره عن التقدم الذي أدخله ابن دريد في منهج المعاجم، ورجع إلى ترتيب الحروف حسب المخارج كما فعل الخليل. ولكنه لم يتبعه تماماً بل أدخل عليه كثيراً من التغيرات. فلم يقم كتابه على ترتيب الخليل لمخارج الحروف بل ترتيب سيبويه، مع بعض خلاف طفيف. فقد رتب القالي الحروف على النحو التالي، كما يستنتج من المواد: ه غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ا ي ء. وتقديمي للهاء، ووضع العين بعدها لا أريد به أنهما متعاقبان، بل أريد أن الهاء مقدمة على العين فقط. وليس هناك ما يدل على أنهما متصلان في الترتيب أو منفصلان بحرف أو أكثر. ووضعت الهمزة مع حروف العلة لأنه جعل المهموز مع المعتل..."<sup>2</sup>

أما صاحب "تهذيب اللغة" الأزهري اختار تطبيق المنهج الخليلي بحذافيره وسعى قاموسه بالتهذيب لأنه سعى إلى تنقية كلام العرب من الشوائب التي تسربت إليه على يد معاصريه، ويقول في مقدمة كتابه: "وقد سميت كتابي هذا (تهذيب اللغة) لأنني قصدت بما جمعت فيه، نفى ما أدخل في لغات العرب، من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيّرها الغُثم عن سَنَتِها، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ، بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب، بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يسنده الثقات إلى العرب".<sup>3</sup>

<sup>1</sup>. رمضان عبد التواب. فصول في فقه العربية. ص: 273.

<sup>2</sup>. حسين نصار. المعجم العربي، نشأته وتطوره. ج 1. ص: 246.

<sup>3</sup>. حسين نصار. المعجم العربي، نشأته وتطوره. ج 1. ص: 305.

والمنهج نفسه وظفه صاحب بن عباد في قاموسه المحيط في اللغة مع تغييره للترتيب الصوتي فبدأ بصوت الفاء وهو ترتيب لم يسبق إليه، ولكنه طبق منهج الخليل والأزهري في فكرة التقاليد...

### ب. الترتيب ألفبائيا حسب الحرف الأخير:

يعتبر أبو نصر إسماعيل بن حماد النيسابوري المعروف بالجوهري رائد هذه المدرسة، اهتدى إلى ترتيب متميز في قاموسه "تاج اللغة وصحاح العربية"، وذلك وفق الحرف الأخير للكلمة إذ رتب المادة اللغوية من أولها إلى آخرها بهذه الطريقة. وقد قدم ألفاظ السجع للشعراء والخطباء على طبق من ذهب الباحثين عن ألفاظ مسكوكة... إضافة إلى الترتيب الداخلي المعتمد على المعتمد على نظام الأبواب والفصول، وعدد الأبواب ثمانية وعشرين بابا حسب حروف الهجاء (باب الألف .باب الباء ...) تضم كل الكلمات المستعملة بالحرف الأخير... أما الفصول فعددها لا يتجاوز ثمانية وعشرين فصلا تطول وتقصّر حسب ما يتوفر عليه المعجم العربي... يقول علي القاسمي: "حدث تطور جوهري في ترتيب مداخل المعجم العربي على يد لغوي شهير هو أبو نصر الجوهري (الذي توفي في نيسابور حوالي 100م. في محاولة فاشلة للطيران بمساعدة جناحين اصطناعيين). ففي معجمه "الصحاح"، رتب الجذور طبقا لآخر حرف صامت فيها. ويرى بعض الباحثين أن الجوهري قد تأثر بخاله الفارابي الذي استعمل ترتيب القافية في مسرده (ديوان الأدب)، ليس في الترتيب العام للمسرد، وإنما داخل الفصول الفرعية... وقد صرح الجوهري في مقدمته الوجيزة للمعجم أن ترتيب القافية "لم أسبق إليه" في صناعة المعجم العربي".<sup>1</sup>

وعلى نهج الجوهري سار ابن منظور في قاموسه المشهور "لسان العرب"، وقد استفاد منه منهجا ومادة إذ يذكر في مقدمة القاموس أن "الصحاح" من مصادر مادته اللغوية، ولهذا القاموس مميزات عديدة تناولها د. علي الودغيري في كتابه (المعجم في المغرب العربي): "كونه أضخم قاموس في تاريخ العربية من حيث مدونته وعدد مداخله قبل ظهور تاج العروس...، وكونه أكبر موسوعة لغوية، من حيث طريقة تعريفاته، وحشده لمختلف الأقوال والروايات، والإكثار من الشواهد الشعرية والنثرية... كما أنه أول قاموس لغوي شامل في اللغة العربية يفسح مجالا واسعا للاستشهاد بالأحاديث النبوية واعتبارها جزءا من مدونته اللغوية".<sup>2</sup>

<sup>1</sup> علي القاسمي. المعجمية العربية، بين النظرية والتطبيق. ط1. (لبنان. مكتبة ناشرون. 2003م) ص:33.

<sup>2</sup> عبد العلي الودغيري. المعجم في المغرب العربي إلى بداية القرن الرابع عشر هجري. ط1. (المغرب. مطبعة الجيل الجديد 2008م). ص:

واكتسب "القاموس المحيط" لصاحبه الفيروزآبادي شهرة واسعة، حتى أصبح يطلق على المعجم قاموساً، وهو مرتب بالمنهج نفسه الذي اتبعه كل من الجوهري وابن منظور في قاموسهما.

### ج. الترتيب الألفبائي العادي:

قبل ذكر أهم القواميس التي اختارت أن ترتب بهذا الشكل، يجدر التنبيه إلى أن الترتيب الألفبائي هو الترتيب وفق حروف الهجاء المعروفة، وليس الترتيب الأبجدي فهو مختلف تماماً عنه (أبعد هوز حظي كلمن سعنص قرشت ثخذ ضطع)، فقد لاحظت أن بعض الباحثين يطلقون على الترتيب الألفبائي ترتيباً أبجدياً،<sup>1</sup> ومن أبرز القاموسيين الذين اعتمدوا هذه الطريقة في ترتيب مادتهم اللغوية، ابن فارس في قاموسيه "مجل اللغة" و"مقاييس اللغة" وقد أجاد ابن فارس في قاموسه "المقاييس" عندما حاول إرجاع كل مادة لغوية لأصل واحد أو أصلين إذا وجد..

قام ترتيب المادة اللغوية لقاموس "أساس البلاغة" للزمخشري على الترتيب الألفبائي أيضاً، واستطاع أن يضيف الزمخشري أمراً آخر في شرح المداخل المعجمية وهو المجاز.

### د. الترتيب الألفبائي للكلمات دون الجذور:

وهو تصنيف للكلمات دون إرجاعها للجذر الذي تنتهي إليه، وهو ترتيب صالح في القواميس الخاصة أو قواميس المصطلحات، أما القواميس العامة فهو ترتيب غير مناسب لكثرة الكلمات المنتمية للجذر الواحد، ومن أبرز من استعمل هذا الترتيب الجرجاني في قاموسه التعريفات الخاص بالمصطلحات، يمتاز هذا النوع بالتسهيل على الباحث عن المصطلح المراد شرحه.

### هـ. الترتيب وفق الموضوعات:

يختلف هذا النوع من الترتيب عن الأنواع السابقة. فهو يترتب انطلاقاً من المعاني أو الموضوعات وهو أمر يشبه قليلاً ما يعرف الآن بالحقول الدلالية أو المعجمية، ومن أبرز العلماء الذين رتبوا قواميسهم بهذا الشكل أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن سيدة الأندلسي (المخصص في اللغة) "... وهو يعتمد اعتماداً كبيراً "الغريب المصنف لابي عبيدة" إذ نقله كله تقريباً في كتابه، وفيه ميزة حسنة، وهي أنه إذا نقل نصاً من كتاب، نسبه إلى صاحبه، ويعد كتاب المخصص من أكمل الكتب التي ألفت على حساب المعاني".<sup>2</sup>

<sup>1</sup>. على سبيل المثال لا الحصر رمضان عبد التواب في كتابه فصول في فقه العربية بصطلاح الترتيب الأبجدي على الترتيب الألفبائي.

<sup>2</sup>. رمضان عبد التواب. فصول في فقه العربية. ص: 282، 283.

### • التصنيف وفق نوع المادة :

إن الباحث في الكتب التي اهتمت بالصناعة القاموسية، وبعض كتب فقه اللغة يجد أن الحديث عن معيار الترتيب يأخذ حصة الأسد، ولا نجد حديثاً عن معياري نوع المادة ونوع التعريف، لذا ارتأيت أن أصنف بعض القواميس اجتهاداً ونرجو السداد في ذلك.

أ. القواميس العامة: وهي القواميس التي تهتم بشرح ألفاظ اللغة العامة، مثل ما نجد في القواميس التي سبق ذكرها، العين للفراهيدي . الصحاح للجوهري . لسان العرب لابن منظور ... وفي الغالب ترجع الكلمة إلى الجذر الذي تنتهي إليه ويتم التفصيل بشرح دلالتها مع ذكر جمعها وأصلها واشتقاقاتها المختلفة وغيرها...

ب. القواميس الخاصة: وهي القواميس التي تهتم بشرح الألفاظ الخاصة أي المصطلحات، فلكل علم أو فن أو صناعة مصطلحات خاصة بها، ومن الممكن أن نجد قواميس تشرح مصطلحات عدة مثل كتاب التعريفات للجرجاني، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، والكليات لأبي البقاء الكفوي، فهذه القواميس تعرف مصطلحات متنوعة، وقد نجد قواميس خاصة بعلم معين أو صناعة محدد، وتعرف أيضاً بالقواميس المختصة مثل معجم المصطلحات النحوية والصرفية للكاتب محمد سمير نجيب اللبدي فهو قاموس يشرح المصطلحات المتعلقة بعلمي النحو والصرف.

ج. قواميس الأعلام: وهي قواميس تهتم بشرح الأعلام والشخص، ولا سيما العلماء فتتحدث عن تاريخ ولادة العالم ونشأته وحياته وإنتاجاته العلمية وتاريخ وفاته، وغيرها من المعلومات... ومن أبرزها نذكر: معجم الأدباء لياقوت الحموي.

د. قواميس البلدان: وهي قواميس تهتم بتعريف بعض الأماكن وتهتم بالتعريف ببعض الأماكن وتحديد موقعها الجغرافي وأهم مميزاتا وبعض التفاصيل المتعلقة بالمكان المراد التعريف به. مثل كتاب معجم الأماكن الواردة في صحيح البخاري لسعد بن جنيديل.

### • التصنيف على أساس التعريف:

يمكن تصنيف القواميس من حيث طريقة التعريف عموماً إلى صنفين أساسيين:

أ. القواميس العامة: التي تعرف اللفظ العام في اللغة، وهذه الأنواع من التعريفات توجد في القواميس العامة مثل العين ومقاييس اللغة ولسان العرب وغيرها، ويتميز التعريف فيها بشرح كل ما يتعلق بالمادة باشتقاقاتها المختلفة وقد يعتمد إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأبيات الشعرية...

ب. القواميس الخاصة: التي تعرف اللفظ الخاص أو المصطلح وتتميز بشرح المصطلح بدقة وتخصيص، وهذا النوع نجده في قواميس المصطلحات مثل التعريفات للجرجاني وكشاف اصطلاحات الفنون لتهانوي.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن القاموسيين بذلوا قصار جهدهم في محاولة التعريف والشرح للألفاظ للمتلقى فاستعموا طرقاً عديدة منها الشرح بالمرادف والضد واستخدام الأمثلة والشواهد القرآنية والنبوية والشعرية وغيرها.

ويحدث أحمد مختار عمر عن طرق الشرح والتعريف أثناء تأكيده الأهمية البالغة للدور الذي يؤديه شرح المعنى في القاموس، بل إن المتلقي يقصد القاموس لغرض البحث عن شرح الكلمات التي لم يفهمها، "تنوع طرق شرح المعنى واتخاذ كافة الوسائل لتوضيحه بما يخدم المهارتين اللغويتين الأساسيتين... يقتضي ذلك أخذ الملائم أو الضروري في كل مدخل من طرق الشرح الممكنة التي يمكن تقسيمها إلى مجموعتين أو مستويين على النحو التالي:

أولاً مجموعة الطرق الأساسية، وتتضمن الشرح بالتعريف، الشرح بتحديد المكونات الدلالية، الشرح بذكر سياقات الكلمة، الشرح بذكر المرادف أو الضد. ثانياً مجموعة الطرق المساعدة وتتضمن، استخدام الأمثلة التوضيحية. استخدام التعريف الاشتمالي، اللجوء إلى الشرح التمثيلي واستخدام الصور والرسوم".<sup>1</sup>

<sup>1</sup> أحمد مختار عمر. صناعة المعجم الحديث. ص: 113.

## خاتمة:

انطلاقاً من التصنيفات السابقة يمكن القول إن صناعة القواميس العربية تنبي على ثلاثة أركان أساسية إن غاب ركن واحد لم يبق القاموس قاموساً، وإنما كتاباً عادياً مثل الفهارس التي تفرس بعض الألفاظ، مثل فهرس ألفاظ القرآن الكريم وفهرس ألفاظ الحديث النبوي والشريف، فهي تفتقد لعنصر التعريف ومن ثم لا يمكن اعتبارها قواميس.

يزخر تراثنا العربي بكم هائل ومتنوع من القواميس المختلفة الأنواع والأحجام، ولأزال صنّاع القواميس يبدعون في هذه الصناعة إلى يومنا هذا، فللغة العربية كائن حي تتجدد ألفاظه ومدلولات هذه الألفاظ...

## لائحة المصادر والمراجع

### الكتب:

- الفراهيدي . الخليل بن أحمد . كتاب العين . تح: مهدي المخزومي . عبد السلام هارون . ط 1 . منشورات أسوة . د ت .
- ابن فارس . أبو الحسين أحمد بن زكريا . مقاييس اللغة . تح: عبد السلام هارون . ط 1 . بيروت . دار الجيل . 1991م .
- الثعالبي . أبو منصور . فقه اللغة وسر العربية . تح: مصطفى السقا . إبراهيم الأنباري . عبد الحفيظ شلي . ط أخيرة . 1972م .
- الودغيري . عبد العلي . دراسات معجمية ، نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى . ط 1 . 2001م .
- الودغيري . عبد العلي . المعجم العربي إلى بداية القرن الرابع عشر هجري . ط 1 . المغرب ، مطبعة الجيل الجديد . 2008م .
- نصار . حسين . المعجم العربي ، نشأته وتطوره . ط 4 . دار مصر للطباعة 1988م . 7
- عبد التواب . رمضان . فصول في فقه العربية . ط 6 . القاهرة . مكتبة الخانجي . 1999م .
- أنيس . إبراهيم . في اللهجات العربية . ط 6 . مكتبة أنجلو مصرية . 1984م .
- عمر . أحمد مختار . صناعة المعجم الحديث . ط 1 . القاهرة . عالم الكتب . 2009م .
- يوسف . مصطفى . المواد والمداخل في المعجم التاريخي . ط 1 . القاهرة . عالم الكتب . 2014م .
- القاسمي . علي . المعجمية العربية ، بين النظرية والتطبيق . ط 1 . لبنان . مكتبة ناشرون . 2003م .
- ابن مراد . إبراهيم . مقدمة لنظرية المعجم . د . ط . دار الغرب الإسلامي . 1987م .
- ابن مراد . إبراهيم . دراسات في المعجم العربي . ط 1 . دار الغرب الإسلامي . 1987م .

### المقالات:

- القاسمي . علي . "إشكالية الدلالة في المعجمية العربية" . المعجمية العربية قضايا وآفاق . العدد 3 . ط 1 . دار كنوز المعرفة . 2016م .

**المحور الرابع:**

## **دراسات تربوية**



## دور المقاربات المتعددة اللغات والثقافات في ترسيخ العدالة اللغوية بالمدرسة المغربية

### د. نورة سهال

باحثة في علوم التربية  
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة مراكش أسفي  
المغرب



### ملخص:

يشكل هذا المقال دعوة صريحة إلى إقرار وترسيخ العدالة اللغوية بالمغرب، من خلال المدرسة باعتبارها المعبر الأساسي لخلق التغيير، وبلوغ الإصلاح، وتحقيق العدالة، والإنصاف. نطلق في هذا المقال من تصور مفاده أن المحيط اللغوي بالمغرب عامة، وفي السياق التعليمي خاصة، يفتقر إلى العدالة اللغوية، وتسوده حرب بين اللغات. ونقترح في هذا السياق، في سبيل ترسيخ العدالة اللغوية بالمدرسة المغربية، استئجار المقاربات المتعددة اللغات والثقافات، التي صاغها الإطار المرجعي للمقاربات المتعددة اللغات والثقافات (CARAP)، وحددها في أربع مقاربات: مقارنة البقطة، مقارنة الفهم المتبادل بين اللغات ذات القرابة، المقاربة بين ثقافية، مقارنة الديداكتيك المدججة للغات؛ إذ تكتسي هذه المقاربات أهمية بالغة في تعزيز التعددية اللغوية، وخلق جسور بين مختلف اللغات المكتسبة والمتعلمة، وتمكين المتعلمين من كفايات متعددة اللغات والثقافات، وترسيخ قيم الانفتاح والتعايش وتقبل الاختلاف.

**كلمات مفتاحية:** العدالة اللغوية، المقاربات المتعددة اللغات والثقافات، المدرسة المغربية.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سهال، نورة. (2024، أكتوبر). دور المقاربات المتعددة اللغات والثقافات في ترسيخ العدالة اللغوية بالمدرسة المغربية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 550-562.

### Abstract:

In this paper, we aim to advocate for the establishment of linguistic justice in Morocco, through the education system as a key factor for change, reform, and ensuring justice and equity. This article is based on the premise that the linguistic environment in Morocco, particularly in the educational context, lacks linguistic justice and is characterized by a conflict among languages. In this regard, we propose the implementation of plurilingual and intercultural approaches, as outlined by the Framework of Reference for Pluralistic Approaches (FREPA), which identifies four approaches: awakening to languages, intercomprehension between related languages, intercultural approach, and integrated didactic approach to languages. These approaches play a significant role in promoting linguistic diversity, establishing connections between various acquired and learned languages, equipping learners with multilingual and multicultural competencies, and fostering values of openness, coexistence, and acceptance of differences.

**Keywords :** linguistic justice, pluralistic approaches to languages and cultures, Moroccan school.

## تقديم

يتسم المحيط اللغوي بالتعدد والاختلاف والتنوع والتعايش بين أنساق لغوية متباينة تحديداً العربية والأمازيغية والدارجة المغربية والفرنسية، بالإضافة إلى الانجليزية بحكم ريادتها عالمياً، وكذلك الإسبانية، إلى جانب أنساق لغوية أخرى، بشكل يمنح المغرب غنى ثقافياً؛ لكن عادة ما تطرح هذه التعددية اللغوية عدة قضايا وإشكالات وصراعات، نظراً لارتباطها بعدة أبعاد سياسية إيديولوجية واجتماعية واقتصادية، واقتراؤها بقضية الهوية الثقافية للأفراد والجماعات. ولطالما أفرزت التعددية اللغوية عدة صراعات، أو ما يُسمى بحرب اللغات، كما أطلق عليها السوسيولساني جان لويس كالفي<sup>1</sup>؛ إذ تبرز أطراف نزاع متعددة حول اللغة الأنسب في أن تحظى بالسيادة والهيمنة. فلقد اشتد الجدل في الآونة الأخيرة بالمغرب بخصوص الشأن اللغوي، خاصة في الميدان التعليمي التربوي، فقد اختلفت الآراء وتضاربت المواقف حول لغات التدريس، بين الفرانكوفونيين، ودعاة التعريب، والحركة الأمازيغية، والمدافعين عن الدارجة المغربية وإدراج النسق العامي في التعليم، فضلاً عن المنادين بتبني اللغة الإنجليزية بحكم ريادتها عالمياً.

وفي هذا السياق، نطرح من خلال هذا المقال تصوراً يصبو إلى تجاوز "الحرب اللغوية"، وتعزيز التعددية اللغوية، وترسيخ قيم التعايش وتقبل الاختلاف الذي يعد مصدر غنى وتنوع ثقافي بالمغرب. وندعو في هذا الصدد إلى إقرار وترسيخ "العدالة اللغوية" بالمغرب عامة، وفي السياق المدرسي خاصة، ونقترح، في سبيل تحقيق هذا المبتغى، استثمار المقاربات المتعددة اللغات والثقافات بالمدرسة المغربية.

## 1. مفهوم العدالة اللغوية: الأسس والمرتكزات

تُعد "العدالة اللغوية" (linguistic justice) من أبرز المفاهيم السوسيولسانية الحديثة، ومن أكثرها إثارة للجدل لتعدد أبعادها التي تتسع لتشمل شتى الجوانب السياسية والاجتماعية والتعليمية التربوية. يستقي هذا المفهوم أهميته كذلك من انطوائه على بعد أخلاقي قيمي يحيل إليه مفهوم "العدالة"، الذي يقترن بمعاني الإنصاف والاعتراف، وضمان الحقوق، ونبد الحيف والإقصاء والاستبداد، وشتى ضروب الظلم والاضطهاد.

<sup>1</sup> كالفي، جان لويس (2008): حرب اللغات والسياسات اللغوية. ترجمة حسن حمزة. المنظمة العربية للترجمة. بيروت - لبنان. ط 1

يعد الباحث فيليب فان باريس (Parijs, P. van) من الأوائل الذين وظفوا هذا المصطلح وأشاعوه، من خلال مؤلفه "العدالة اللغوية لأوروبا والعالم" (Linguistic justice for Europe and for the World). وتقوم العدالة اللغوية، حسب باريس، على عدة دعائم<sup>1</sup>:

الإعتراف بالتنوع اللغوي داخل حدود الدولة، وتحقيق المساواة بين اللغات؛

تبني لغة مشتركة تحقق التواصل بين جميع مواطني الدولة "اللغة الوسيطة"؛

إمتلاك مواطني الدولة المقيمين في أقاليم الأقليات الشجاعة والتواضع لتعلم اللغات المحلية المرسمة وفق مبدأ الجهوية في تلك الأقاليم؛

تبني مبدأ الجهوية اللسانية القائم على الاعتراف بحق كل جماعة لغوية في توظيف لغتها داخل إقليمها.

تطرق باريس إلى مشكلة عدم المساواة أو الحيف التي يتعرض لها الأشخاص الناطقون بلغات مهمشة سياسياً، إذ تكون فرصهم أقل على المستوى السوسيو-اقتصادي، مقارنة مع الناطقين باللغات المهيمنة والمسيطرة في الدولة. فبلوغ العدالة الاجتماعية رهين بتحقيق العدالة اللغوية بين المواطنين.

لقد أضحت العدالة اللغوية الثقافية مطلباً ملحاً في ظل التحولات والصراعات التي يشهدها العالم، ويعد ويل كيمليكا (Kymlicka, W) من أبرز المدافعين عن التعددية الثقافية<sup>2</sup>. كما يدافع غرين (Grin, François) عن تعددية لغوية مفتوحة على كل اللغات، حتى ولو كانت لغة أقلية ضيقة الانتشار<sup>3</sup>.

تقترن قضية ال/لاعدالة اللغوية (linguistic in/justice) بمفهوم "ال/لاأمن اللغوي" (linguistic in/security) الذي صاغه السوسيولساني وليام لابوف<sup>4</sup> (Labov, W)، 'اللاأمن اللغوي' (linguistic insecurity) لوصف الحالة التي يفتقر فيها المتحدث إلى الثقة ويضطر

<sup>1</sup> Parijs, P, Van (2011) : justice for Europe and for the world. Oxford university press.

<sup>2</sup> Kymlicka, W. (1995). Multicultural Citizenship: A Liberal Theory of Minority Right. Oxford: Oxford University Press.

<sup>3</sup> Grin, F (2010) : why multilingualism is affordable. Santiago de compostela, Seminario Sobre Lingua, Sociedade i politica en Galicia.

<sup>4</sup> Labov, W. (1966). The social stratification of English in New York City. Washington DC: Center for Applied Linguistics.

للتصنع في لكتته وطريقة كلامه ونطقه لتناسب مع طريقة حديث طبقة اجتماعية أخرى يعتبرها أسعى.

## 2. مظاهر الاعدالة اللغوية بالمغرب

تشهد المسألة اللغوية في المغرب تعقيداً مركباً يتجسد في التناقض الصارخ بين الموثائق الرسمية والتفعيل الواقعي، فبمقتضى الدستور، تعد العربية (المعيارية) والأمازيغية لغتين رسميتين للبلاد، أما فيما يخص الواقع الملموس المعاش للمشهد اللغوي في المغرب فيتجسد في هيمنة الدارجة المغربية باعتبارها النسق اللغوي المعتمد في التواصل، رغم عدم إدراجها في الموثائق المؤطرة. وبالنسبة للعربية المعيارية، فطابعها الرسمي لم يُمكن من توسيع مجالات توظيفها التي ظلت محصورة في بعض السياقات الرسمية (السياسية - الدينية - التعليمية - الإعلامية - ...)، خلافاً للفرنسية التي رغم كونها لغة أجنبية، وليست باللغة الرسمية أو الوطنية للبلاد، إلا أنها تحظى بحضور وسيادة، حتى أن كثيراً من القوانين والإصدارات الرسمية تُدون باللغة الفرنسية، وتعد من الشروط الأساسية لولوج سوق الشغل أكثر من العربية والأمازيغية -الرسميتين والوطنيتين-.

يعد إزاحة الأمازيغية أبرز مظاهر الاعدالة اللغوية بالمغرب لقد نتج عن سياسة التعريب - غداة الاستقلال - إعطاء عناية وأولوية للغة العربية قادت إلى إقصاء وتهميش واضح للغة الأمازيغية التي أزيحت من المشهد السياسي ومن المنهاج التعليمي بالمغرب، رغم كونها المعبر الأصيل عن الهوية التاريخية للمغرب. فقد كانت هناك مساعي لإبادتها، كما هو الشأن بالنسبة لمشروع إبادة اللهجات المحلية للمفكر عابد الجابري حيث يصرح معلنًا: (إن عملية التعريب الشاملة، يجب أن تستهدف ليس فقط تصفية اللغة الفرنسية كلغة حضارة وثقافة وتخطب وتعامل، بل أيضاً - وهذا بالأهمية بما كان- العمل على إماتة اللهجات المحلية البربرية منها أو "العربية" الدارجة. ولن يتأتى ذلك إلا بتركيز التعليم وتعميمه إلى أقصى حد في المناطق الجبلية والقروية، وتحريم استعمال أية لغة أو لهجة في المدرسة والإذاعة والتلفزة غير اللغة العربية الفصحى<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> الجابري، محمد عابد (1985): أضواء على مشكل التعليم بالمغرب. دار النشر المغربية. الدار البيضاء. ص 146

### 3. تدبير التعدد اللغوي بالمدرسة المغربية في الأطر المرجعية الرسمية

لا مجال لتشخيص واقع التدريس المتعدد للغات بالمدرسة المغربية دون الرجوع إلى مختلف الأطر القانونية المرجعية التي توجه هذا التدريس ابتداء بالميثاق الوطني للتربية والتكوين، ثم البرامج والتوجيهات التربوية.

#### 1.3. في الميثاق الوطني للتربية والتكوين

يحظى "الميثاق الوطني للتربية والتكوين" بأهمية بالغة في المنظومة التعليمية التربوية بالمغرب منذ إصداره سنة 1999، ويتضمن تسع عشرة دعامة، حُصصت فيها الداعمة التاسعة للتطرق إلى مسألة اللغات بالمدرسة المغربية، تحت عنوان: "تحسين تدريس اللغة العربية واستعمالها وإتقان اللغات الأجنبية والتفتح على الأمازيغية"، وتشمل ما يلي<sup>1</sup>:

تعزيز تعليم اللغة العربية وتحسينه؛

التفتح على الأمازيغية (يمكن للسلطات التربوية الجهوية اختيار استعمال الأمازيغية أو أية لهجة محلية للاستئناس وتسهيل الشروع في تعلم اللغة الرسمية في التعليم الأولي وفي السلك الأول من التعليم الابتدائي..)؛

التحكم في اللغات الأجنبية.

يبدو واضحاً من خلال هذه الدعامة أنها قد اختزلت التعدد اللغوي في المغرب في العربية المعيارية واللغات الأجنبية فقط، دون اهتمام باللغة الأمازيغية التي لم تذكر إلا باعتبارها محض عنصر هامشي يمكن فقط للمدرّس الاستئناس به في السنوات الأولى لتعليم اللغة الرسمية المتمثلة في العربية.

#### 2.3. في الرؤية الاستراتيجية (2015-2030)

حُصصت الرافعة الثالثة عشرة من الرؤية الاستراتيجية للشأن اللغوي، (من الفصل الثاني: من أجل مدرسة الجودة للجميع)، تحت عنوان "التمكن من اللغات المدرسة وتنوع لغات التدريس"، من خلالها تم تحديد وضع كل لغة على حدة داخل المدرسة بوضوح، يعد عاملاً حاسماً في إطار تدريس اللغات والتدريس بها، ومن ثم تحقيق التكامل فيما بينها. بمراعاة ما يلي<sup>2</sup>:

<sup>1</sup> الميثاق الوطني للتربية والتكوين (1999). اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين. المملكة المغربية. ص 38-39

<sup>2</sup> الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030. المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي. المملكة المغربية. ص 36

اللغة العربية: اللغة الرسمية للدولة؛

اللغة الأمازيغية هي أيضاً لغة رسمية للدولة، ورصيد مشترك للمغاربة دون استثناء؛

اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً في العالم؛

تتوخى الهندسة المقترحة تحقيق الأهداف التالية<sup>1</sup>:

تحقيق الإنصاف وتكافؤ الفرص في التمكن من اللغات: فهما وشفهياً وقراءةً وكتابةً وتعبيراً؛

جعل المتعلم عند نهاية التعليم الثانوي (الباكلوريا) متمكناً من اللغة العربية، قادراً على التواصل باللغة الأمازيغية، متقناً للغتين أجنبيتين على الأقل، وذلك ضمن مقارنة متدرجة تنتقل من الازدواجية (العربية + لغة أجنبية) إلى التعدد اللغوي (العربية + لغتين أجنبيتين أو أكثر)؛

اللغة العربية لغة التدريس الأساس. ويتم تفعيل مبدأ التناوب اللغوي بالتدرج من خلال تدريس بعض المضامين أو المجزوءات بالفرنسية بالثانوي التأهيلي على المدى القريب، وبالإعدادي على المدى المتوسط، وبالإنجليزية في الثانوي التأهيلي على المدى المتوسط؛

مراجعة مناهج وبرامج تدريس اللغة العربية واللغات الأجنبية؛

مواصلة المجهودات الرامية إلى تهيئة اللغة الأمازيغية لسنيا وبيداغوجيا.

تتوخى هذه الهندسة اللغوية المقترحة تحقيق مايلي - على المدى القريب والمتوسط والبعيد - عبر مختلف الأسلاك التعليمية:

**التعليم الأولي:** استثمار المكتسبات اللغوية الثقافية للطفل، وإدراج اللغة العربية والفرنسية، مع التركيز على التواصل الشفهي.

**التعليم الابتدائي:** إلزامية اللغة العربية والأمازيغية والفرنسية، في أفق إدراج الإنجليزية في السنة الرابعة.

**التعليم الإعدادي:** إلزامية العربية والفرنسية، وكذلك إلزامية الإنجليزية، مع التدرج في تعميم تدريس الأمازيغية بالإعدادي، في أفق تعميمها على باقي الأسلاك.

<sup>1</sup> الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030. المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي. المملكة المغربية. ص 37..41.

**التعليم الثانوي التأهيلي:** إلزامية العربية والفرنسية وأيضاً الإنجليزية مع إدراجها في تدريس بعض المضامين أو المجزوءات على المدى المتوسط. مع التدرج في تعميم تدريس الأمازيغية. مع إدراج لغة أجنبية ثالثة خاصة الإسبانية.

**التعليم العالي:** تنوع الخيارات اللغوية، فتح مسارات متابعة الدراسة باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية، مع تشجيع البحث العلمي بالإنجليزية، إحداث مسالك متخصصة في اللغتين العربية والأمازيغية وفي اللغات الأجنبية - إدراج التكوين في الكفاية التواصلية باللغتين العربية والأمازيغية في مؤسسات تكوين الأطر.

#### ملاحظات وتعليقات حول مضامين الرؤية الاستراتيجية بخصوص لغات التدريس

رغم استناد هذه الرافعة إلى المرتكزات الثلاثة (تحقيق الإنصاف وتكافؤ الفرص - حضور اللغتين الوطنيتين الرسميتين في مستوى مكانتهما الدستورية الاجتماعية - إرساء تعددية لغوية تدريبية متوازنة) إلا أن هناك غياباً واضحاً - غير مبرر - لمبدأ الإنصاف خاصة فيما يتعلق بالأمازيغية التي من المفترض أن كونها لغة وطنية رسمية سيكسبها مكانة وأولوية على اللغات الأجنبية، لكن الملاحظ أن هناك تأكيداً وتركيزاً في مختلف محاور هذه الرافعة على إلزامية اللغة العربية والفرنسية والإنجليزية، وضرورة التمكن منها وإتقانها أثناء الحصول على البكالوريا، بينما الحديث عن الأمازيغية لازالت تلفه نوع من الضبابية وغياب الحسم، فعلى المدى القريب والمتوسط وحتى البعيد لم يخرج النقاش من دائرة "مواصلة الجهود" ومحاولة السعي إلى تعميمها، دون حسم في إلزاميتها في بقية الأسلاك التعليمية، كما أن هناك غياباً عن الحديث عن التمكن أو الإتقان بل فقط "القدرة على التواصل".

نلاحظ كذلك تراجعاً واضحاً لهيمنة اللغة العربية السائدة قبلاً على حساب اللغات الأجنبية التي تحل محلها تدريجياً في تدريس بعض المضامين والمجزوءات. رغم أن مبدأ الإنصاف يقتضي منح الأولوية والمركزية للغات الرسمية الوطنية. وهذا ما يتضح جلياً من خلال تعويض العربية بالفرنسية في تدريس المواد العلمية في السلك الثانوي، فضلاً عن اتخاذها اللغة الأساسية في التعليم العالي.

#### 4. المقاربات المتعددة اللغات والثقافات وأهميتها في تحقيق العدالة اللغوية

لقد وُجّه اهتمام البحث في مجال ديداكتيك اللغات نحو تدبير التعددية اللغوية، ما قاد إلى تبني المقاربات المتعددة اللغات كما هو مبين في الإطار المرجعي للمقاربات المتعددة اللغات

والثقافات (CARAP) الذي حددها في أربع مقاربات ألا وهي<sup>1</sup>:

اليقظة اللغوية (éveil aux langues)

مقاربة الفهم المتبادل بين اللغات ذات القرابة (L'intercompréhension entre les langues parentes)

المقاربة بين-ثقافية (L'approche interculturelle)

مقاربة الديداكتيك المدمجة للغات (La didactique intégrée des langues)

تختص مقاربة اليقظة في اللغة (Eveil aux langues) بكونها موجهة بالأساس إلى التلاميذ في مراحل التعليم الأولى، من خلال دفعهم منذ الوهلة الأولى إلى الانفتاح على مختلف الأنساق اللغوية، بما في ذلك اللغات التي غير المقررة في التدريس باعتبارها مقاربة متعددة "قصوى"، تتسع لتشمل على كل لغات العالم دون أي إقصاء.

تُوظَّف مقاربة الفهم المتبادل (l'intercompréhension) في تدريس عدة لغات تنتمي إلى نفس الأسرة اللغوية، كما هو الشأن مثلاً بالنسبة للغات الرومانية المنحدرة من اللغة الأم اللاتينية: الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية...الخ، سواء تعلق الأمر بالأسرة اللغوية التي تنتهي إليها لغة المتعلم أو " لغة المدرسة"، أو بالأسرة اللغوية للغة تعلمها التلاميذ من قبل؛ فقد أكدت مجموعة من الدراسات أن اللغات الأم تسهل تعلم لغة المدرسة إذا كانت بينهما قرابة.

تركز المقاربة بين-ثقافية (approche interculturelle) على أهمية البُعد الثقافي في تعلم اللغات، إذ لا تقتصر المقاربة بين-ثقافية على تمكين المتعلمين من مهارات لغوية في اللغات الأجنبية، بل تُراعي الدور المحوري الحساس الذي يلعبه البُعد الثقافي في ديداكتيك اللغات من خلال السعي إلى جعل المتعلم يستوعب الحمولات الثقافية للغة المتعلمة، وذلك باعتماد أسس ديداكتيكية للتعريف بالظواهر الثقافية، وتعزيز التواصل بين الأفراد من خلفيات ثقافية مختلفة؛ ولهذا تعتبر هذه المقاربة هي أولى المقاربات المتعددة وأكثرها تأثيراً على ديداكتيك اللغات.

تُتيح مقاربة الديداكتيك المدمجة للغات (la didactique intégrée des langues) للمتعلمين إنشاء روابط بين جميع اللغات التي درسوها طيلة مسارهم الدراسي، فهي تتيح أجرة المبدأ العام لجميع التعلّيمات، من أجل الاقتراب مما هو أقل معرفة. وبمعنى آخر، تهدف هذه

<sup>1</sup> Candelier, M et al. (2013). P 6-7.



المقاربة إلى الارتكاز على لغة سبق اكتسابها (في البيت) أو تعلمها (في المدرسة) لتسهيل الولوج إلى لغة أجنبية أولى، ثم على هاتين اللغتين لتسهيل الولوج للغة أجنبية ثانية.

##### 5. سبل استثمار المقاربات المتعددة اللغات والثقافات في المدرسة المغربية

ينبغي التفكير في السبل الفعالة والملائمة لاستثمار المقاربات المتعددة اللغات في المدرسة اللغوية، التي تضم عدة أنساق لغوية مختلفة، عوض حرب اللغات التي يشهدها المغرب، والمدفوعة بتعصبات إيديولوجية. تتوخى هذه المقاربات المتعددة اللغات والثقافات ترسيخ التعددية اللغوية، وتعزيز قيم الانفتاح والتعايش، وتقبل الاختلاف، في إطار عدالة لغوية تحل محل حرب اللغات القائمة على الانغلاق على أحادية لغوية، وإقصاء اللغات الأخرى المختلفة.

نقصد باستثمار المقاربات المتعددة اللغات والثقافات بالمدرسة المغربية، سواء بشكل صريح أو ضمني، الاستفادة من الروابط ومواطن التشابه القائمة بين مختلف الأنساق اللغوية (سواء المعيارية أو غير المعيارية) المكتسبة والمتعلمة في ظل التعدد اللغوي بالمغرب، وتدير مظاهر الاختلاف القائمة بينها، في سياق تربوي تعليمي يحتكم إلى التعددية اللغوية الثقافية.

تفتح مقارنة اليقظة في اللغة أمام المتعلم، في مراحل الأولى من التمدرس، آفاقاً لغوية متعددة واسعة تتجاوز اللغات المقررة في المنهاج، لتشمل أقصى عدد ممكن من اللغات بمختلف تلوّناتها، وتُعرفُ على خطوط مختلفة من لغات العالم، وتوقظ إدراكه حول التعددية اللغوية.

تقوم مقارنة الفهم المتبادل على استثمار التشابه القائم بين اللغات من نفس الأسرة اللغوية، كما هو الحال بالنسبة للفرنسية والإنجليزية والإسبانية، ذات الأصل اللاتيني المشترك، التي تُعد اللغات الأجنبية الأساسية التي ينبغي إتقانها والتمكن منها. وبناءً على هذا الأساس، فالفرنسية، باعتبارها لغة أجنبية أولى للتلاميذ، يمكن أن تُتخذ مدخلاً لتعلم اللغة الأجنبية الثانية (الإنجليزية أو الإسبانية) نظراً للتماثلات القائمة بين هذه اللغات.

تُمكّن المقاربة المدمجة للغات من استثمار أوجه التشابه القائمة بين مختلف الأنساق اللغوية، المكتسبة والمتعلمة، المعيارية منها وغير المعيارية، في التعلم؛ إذ تطرح سبلاً فعالة للاستفادة من اللغة 1 (اللغة الأم) لتعلم اللغة 2، واستثمار اللغتين 1 و2 في تعلم لغة أخرى أجنبية ثالثة... وفق سيرورة تراعي الروابط والوشائج القائمة بين مختلف هذه اللغات، وتنطلق من مبدأ خضوعها لنظام موحد. وبناءً على هذا الأساس، ينبغي مراعاة الأواصر القائمة بين الأنساق اللغوية الثلاثة: الأمازيغية، والدارجة المغربية والعربية، في السياق التعليمي الديدانكي، مادامت الدارجة

المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية<sup>1</sup>؛ إذ يجب الحرص على استثمار التماثلات المشتركة بين الدارجة المغربية (المكتسبة فطريا) وبين العربية المعيارية، تحديداً السنوات الأولى من التمدرس، واتخاذها معبراً لتيسير تعلم الأحرفية العربية، كما ينبغي الاستفادة من الترابطات القائمة بين كل من الأمازيغية والدارجة المغربية (التي سبقت الإشارة إليها) في تدريس الأمازيغية للناطقين بالدارجة.

### مزايا اعتماد المقاربات المتعددة اللغات والثقافات في المدرسة المغربية

من شأن توظيف المقاربات المتعددة اللغات والثقافات في المدرسة المغربية، ولو بشكل ضمني، تحقيق عدة أهداف أساسية أهمها:<sup>2</sup>

تمكين المتعلمين من كفاية متعددة اللغات والثقافات (compétence plurilingue & pluriculturelle) لأن الكفاية اللغوية لم تعد وحدها كافية في ظل التعدد اللغوي-الثقافي الذي يسود العالم.

تنمية الوعي الميتالغوي لدى التلميذ في فترة مبكرة.

جعل التلميذ يكتشف أن الهوية المغربية قائمة على التعدد والتنوع بين ما هو أمازيغي وعربي وفرنسي وإنجليزي وإسباني...الخ.

معرفة أن بناء الهوية رهين بانفتاحها وتفاعلها لا بالانغلاق والأحادية.

إمتلاك معارف عن التنوع اللساني الاجتماعي بالمغرب.

معرفة أن تطابق كلمتين في لغات مختلفة لا يعني أن لهما نفس المعنى.

ترسيخ مبدأ المساواة بين اللغات، ونبد إيديولوجية تحقير ثقافة/لغة مقابل تقديس ثقافة/لغة أخرى.

تقبل لغة/ثقافة الآخر المختلف، ونبد شتى أشكال الانغلاق والتعصب والإقصاء.

إطلاع التلميذ على علاقات التأثير والتأثر بين اللغات، من خلال رصد أوجه التشابه بينها.

<sup>1</sup> شفيق، محمد (1999). ص8.

<sup>2</sup> Candelier, M et al. (2013). P 25..57.

## خاتمة

نخلص في الأخير إلى تعدد مظاهر وتجليات غياب العدالة اللغوية بالمغرب، وما يترتب عنها من حرب بين اللغات، وتفاوتات في الفرص على مستوى الاندماج الاجتماعي والاقتصادي، وإقصاء وحيث على المستوى الثقافي الهوياتي. وتبرز ملامح هذه "اللاعادلة اللغوية" أكثر في المجال التعليمي التربوي لتخلق هوة بين فرص المتعلمين على كافة المستويات والأصعدة.

في ظل هذا الوضع، تُعد العدالة اللغوية مطلباً أساسياً وجب السعي إلى بلوغه وترسيخه عبر مختلف المجالات، خاصة الميدان التعليمي التربوي الذي شكل محور اهتمامنا في هذا المقال. إذ يُفترض أن تُسهم المدرسة بشكل فعال في تعزيز التعددية اللغوية والثقافية. ونقترح، في سبيل تحقيق هذا المبتغى، استثمار المقاربات المتعددة اللغات والثقافات، ولو بشكل ضمني، في المدرسة المغربية.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- الجابري، محمد عابد (1985): أضواء على مشكل التعليم بالمغرب. دار النشر المغربية. الدار البيضاء
- الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030. المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي. المملكة المغربية
- شفيق، محمد (1999): الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية. أكاديمية المملكة المغربية. الرباط.
- العمري، نادية & فطيش، عبد الإله (2018): العدالة اللغوية في المجتمع المغربي: مقارنة مفاهيمية وتحديد الإكراهات وسبل التطوير. المجلة الدولية المتخصصة. المجلد 7. العدد 12. ص 162-166.
- الفاسي الفهري، عبد القادر (2019): العدالة اللغوية والنظامية والتخطيط. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع. عمان، الأردن. ط1.
- كافي، جان لويس (2008): حرب اللغات والسياسات اللغوية. ترجمة حسن حمزة. المنظمة العربية للترجمة. بيروت - لبنان. ط1
- كوندولي، ميشيل وآخرون (2013): إطار مرجعي للمقاربات المتعددة للغات والثقافات. المركز الأوروبي للغات الحية. طبع في النامسا. ترجمة فاطمة الخلوفا - نادية العمري- علال بن العزيمة. فريق علم نفس التعلم: التربية، التقييم. كلية علوم التربية- جامعة محمد الخامس بالرباط.
- المدلاوي، محمد (2019): العربية الدارجة. إملائية ونحو: الأصوات، الصرف، التركيب، المعجم (كتاب محرر بعربية مغربية وسطى). مركز تنمية الدارجة، زاكورة. الدار البيضاء. المغرب.

- الميثاق الوطني للتربية والتكوين (1999). اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين. المملكة المغربية.

### المراجع الأجنبية:

- Candelier, M et al. (2013) : CARAP (Carte Européenne Référence des Approches Plurielles des Langues et des Cultures). Graz : Conseil de l'Europe.
- Grin, F (2010) : why multilingualism is affordable. Santiago de compostela, Seminario Sobre Lingua, Sociedade i politica en Galicia.
- Kymlicka, W. (1995). Multicultural Citizenship: A Liberal Theory of Minority Right. Oxford: Oxford University Press.
- Labov, W. (1966). The social stratification of English in New York City. Washington DC: Center for Applied Linguistics.
- Lyvé, S (1990) : Parlers arabes des juifs au Maroc : particularités et emprunts. Thèse de Doctorat d'Etat. Paris.
- Parijs, P, Van (2011) : justice for Europe and for the world. Oxford university press.

## دور المدرسة في تنمية الوعي المائي

عجوري جواد

دكتوراه في الفقه والأصول والمالية التشاركية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة

جامعة محمد الأول - المغرب



عزوزي عبد العزيز

دكتوراه في الجغرافيا الطبيعية والبيئة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل - المغرب

### ملخص:

تهدف الدراسة إلى تعريف مفهوم التربية المائية وأهدافها وأهميتها في المحافظة على الموارد المائية، وسعت الدراسة إلى تبين دور المدرسة في أكساب المتعلمين معارف ومهارات وقيم تنمي وعيهم المائي وتساعدهم على تبني سلوكيات إيجابية تجاه قضايا المياه. خلصت الدراسة أن دور المدرسة أساسي ولا محيد عنه في تربية النشء على حماية الموارد المائية سواء عن طريق المدخل الاندماجي الذي يتم من خلال الأنشطة الصفية او المدخل المستقل خارج الفصول الدراسية من خلال الأنشطة التي توفرها المدارس والمؤسسات التعليمية وشركائها. لذلك، أوصت الدراسة بضرورة إثراء المناهج التعليمية بقضايا الماء في جميع المراحل التعليمية وتحفيز المؤسسات التعليمية على الانخراط الفعال في المشاريع المائية التربوية.

كلمات مفتاحية: المدرسة - التربية المائية - الوعي المائي - السلوكيات الإيجابية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عزوزي، عبد العزيز. عجوري، جواد (2024، أكتوبر). دور المدرسة في تنمية الوعي المائي. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 563-578.

### Abstract:

The study aims to define the concept of water education, its objectives and its importance in preserving water resources. The study sought to clarify the role of the school in providing learners with knowledge, skills and values that develop their water awareness and help them adopt positive behaviors towards water issues.

The study concluded that the role of the school is essential and indispensable in educating young people to protect water resources, whether through the integrated approach that takes place through classroom activities or the independent approach outside the classroom through activities provided by schools, educational institutions and their partners. Therefore, the study recommended the necessity of enriching educational curricula with water issues at all educational levels and motivating educational institutions to actively engage in educational water projects.

**Keywords :** school - water education - water awareness - positive behaviours.

## مقدمة

تستأثر اليوم قضية المياه باهتمام دولي متزايد، بل تسلفت سلم اهتمامات بعض الدول لتصبح ضمن أولويات سياساتها الوطنية، وخاصة تلك التي تتواجد في المناطق الجافة وشبه الجافة والتي تعاني من ندرة مائية طبيعية، كما هو الشأن بالنسبة للمغرب الذي سارع إلى تحديث ترسانته القانونية المائية ورصد استثمارات ضخمة لتوفير الماء من خلال تشييد السدود وتحلية مياه البحر، إلى جانب إطلاق حملات تحسيسية بخطورة الوضع وخاصة بعدما تشكلت لدى دوائر اتخاذ القرار قناعة راسخة أن مشكلة المياه لا ترتبط فقط بالندرة الطبيعية بل كذلك بطريقة تعامل الإنسان مع الموارد المائية، سواء في استعمالاته المرتبطة بالحياة اليومية (الاستعمالات المنزلية) أو الاستعمالات الاقتصادية وخاصة في القطاع الزراعي، فكثيرا ما يتم التعامل مع الماء على أنه مورد طبيعي مجاني لا ينفذ.

لذلك ينبغي أن تكون مسألة المحافظة على الموارد المائية مشروعا مجتمعيا أساسه اكساب الأفراد والجماعات سلوكيات إيجابية تجاه البيئة بشكل عام وتجاه الماء بشكل خاص، فالحملات التحسيسية التي تتم حاليا بشكل مؤقت وأني (وصلات إخبارية، خطب المساجد) متى ما اشتدت حدة الظاهرة -أي تفاقم وضعية الندرة- غير كافية وأثرها لحظي فقط، إذ من الضروري تعزيز الوعي المائي لدى الناشئة من خلال تعريف أفراد المجتمع بهذه الظاهرة والمخاطر البيئية والاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تنتج عنها وتدريبهم على طرق التكيف مع الوضع المناخي والمحافظة على الموارد المائية،

## مشكلة الدراسة:

إلى جانب عامل الندرة الطبيعية الناتجة عن الجفاف، ترتبط مشكلة المياه كذلك بضعف التربية المائية وخاصة تلك التي تقوم بها المدرسة وفق أسس وقواعد علمية محكمة، وهذا ما جعلنا نطرح السؤال المركزي الآتي: كيف يمكن للمدرسة أن تساهم في التربية المائية وفي تعزيز الوعي المائي لدى الناشئة؟

- وللجواب عن هذا السؤال المركزي نطرح التساؤلات الفرعية التالية:

- ما مفهوم التربية المائية والوعي المائي؟

- ما دور المدرسة في التربية المائية؟

- كيف يمكن للمدرسة أن تساهم في تعزيز الوعي المائي؟

#### أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة بالأساس إلى:

- توضيح دور المدرسة في التربية المائية من خلال ما توفره من أنشطة صفية ولا صفية.
- تقديم توصيات قد تفيد واضعي المناهج التعليمية في إثراء المناهج والمقررات الدراسية بما يفيد تعزيز الوعي البيئي.
- تأثير الدراسات مجموعة من الإشكالات الأخرى التي ستدفع الباحثين كل حسب تخصصه إلى تعميق البحث بخصوص دور المدرسة في تعزيز الوعي المائي من خلال تحليل المقررات الدراسية وقياس درجة وكيفية حضور قضايا الماء في جميع المراحل التعليمية.
- تقديم مقترحات تفيد في تطوير التربية المائية بالمؤسسات التعليمية.

#### منهج الدراسة وهيكلتها:

لتحقيق هدفها اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي القائم على تتبع واقع التربية المائية والبحث في مستلزمات تعزيز الوعي المائي عبر المدرسة.

انتظم هذا البحث في ثلاثة مباحث رئيسية، خصص الأول للتعريف بالتربية والوعي المائين وأهدافهما وعالج المبحث الثاني تطور إدماج قضايا البيئة والمياه في المناهج التعليمية، أما المبحث الثالث والأخير فخصص لتحديد طرق إدماج التربية المائية في المناهج التعليمية بالمدرسة المغربية.

#### المبحث الأول: مفاهيم الدراسة وأهداف التربية المائية

##### الفرع الأول: مفاهيم الدراسة

##### التربية المائية:

يعرف وحش التربية المائية على أنها "ذلك الجهد التربوي المنظم المبذول لتنمية المفاهيم والمهارات والسلوكيات والاتجاهات والقيم المرتبطة بالمياه وأهم القضايا المائية من حيث وضعها الحالي والمستقبلي وأسباب مشكلاتها وعلاقتها بما يعانيه المجتمع من مشكلات"<sup>1</sup>. ويعرفها فرج الله على أنها "جهد تربوي منظم يسعى إلى اكتساب التلاميذ المفاهيم المائية والوعي المائي والقيم

<sup>1</sup> وحش إبراهيم (2000) دور منهج الدراسات الاجتماعية في إنماء الوعي المائي، مجلة كلية التربية دمياط مضر العدد 34، ص6



والمهارات التي تنظم سلوكهم، وتمكنهم من التفاعل مع البيئة المائية، بما يساهم في حمايتها وحل مشكلاتها واستغلال مواردها بأفضل شكل ممكن<sup>1</sup>، وهناك من يعرفها وفقاً لمحورية عنصر الماء في الكون وفي هذا الصدد يرى "طه" أن التربية المائية هي "مجموعة من المعارف والمفاهيم والمهارات والاتجاهات والقيم التي تساعد الطلاب على فهم العلاقة بين المياه وأشكال الحياة كافة على سطح الأرض، وتنظم سلوكهم وتمكنهم من التعامل مع المياه وقضاياها...بما يساهم في حمايتها وحل مشكلاتها واستغلال مواردها بأفضل شكل ممكن"<sup>2</sup> أما Andrews فيعرفها على أنها مجموعة من الخبرات المتنوعة والمتكاملة المستمدة من المعرفة العلمية التي لها علاقة بالموارد المائية، تلقن للطلاب لإكسابهم سلوكيات إيجابية تعينهم على حماية البيئة<sup>3</sup>.

تتفق هذه التعاريف على أن للتربية المائية ثلاثة أهداف رئيسية، معرفية ومهارية ووجدانية، يساهم تحقيقها في تطوير السلوكيات الإيجابية للمتعلم تجاه قضايا الماء وتجعله قادراً على إدراك أهمية الماء ومشكلاته وتدفعه إلى تحمل مسؤولياته.

### الوعي المائي:

هو "توافر قدر مناسب من الحقائق والمفاهيم العلمية والمهارات المرتبطة بقضايا المياه وخصائصها ومواردها، والمشكلات الناجمة عن نقصها وتلوثها، وحسن التصرف في مواقف الحياة المرتبطة بالتعامل الحكيم والاستغلال الأمثل والراشد للموارد المائية، وذلك بناء على اتجاهات الطلاب الإيجابية نحو المياه وقضاياها"<sup>4</sup>. ويعرفه معروف بأنه "إدراك المتعلمين لكافة المعارف المتعلقة بقضايا المياه والتحديات التي تواجهها، والشعور العميق بالمسؤولية تجاه مواجهة مشكلاتها، مما يساعدهم على التعامل الحكيم والاستغلال الرشيد للموارد المائية"<sup>5</sup>.

ويمكن أن نقول إن الوعي المائي هو قمة التفكير والتطبيق في نفس الوقت، تمكن الفرد من أن يدرك حقيقة الوضع المائي المتميز بالندرة، وأن هذا الوضع سيؤثر عليه مباشرة سواء في

<sup>1</sup> فرج الله وليد (2006) التربية المائية: واجب ومسؤولية، مجلة المياه، كلية التربية، جامعة سوهاج، مصر، ص 22.

<sup>2</sup> طه محمود (2011)، تطويراً لمنهج المساحة والري في ضوء أبعاد التربية المائية وأثره في تنمية الوعي المائي لدى طلاب الصف الأول الثانوي الزراعي، مجلة التربية العلمية، 14(1)، 143-196 ص 156

<sup>3</sup> Andrews, Elaine (1992). Educating Young People about Water. A Guide to Goals and Resources with an Emphasis on Nonformal and School Enrichment Settings. Wisconsin Univ, Madison. Univ. Extension. Environmental Resources Center.

<sup>4</sup> طه محمود (2001)، المرجع السابق، ص 170.

<sup>5</sup> معروف موفق عرفة (2010)، مستوى الوعي المائي لدى الطلبة معلمي العلوم بكلية التربية في الجامعات الفلسطينية بغزة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ص 28.

متطلباته الأساسية اليومية كفرد أو بشكل غير مباشر من خلال التأثير في متطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تلحقه كفرد ضمن الجماعة، مما سيدفعه إلى تحمل المسؤولية والمساهمة في حماية الموارد المائية وضمان استدامتها.

يتبين من عرض التعاريف السابقة أن هناك ارتباط وثيق بين الوعي المائي والتربية المائية، فبدون تربية مائية لن يتشكل الوعي المائي الذي يمكن أن نعتبره مرحلة متقدمة وصل إليها الطالب أو المتعلم بعدما أكسبته المدرسة مجموعة من المعارف والمهارات والقيم بشكل علمي وأكاديمي منظم ومخطط، وتتصل وتطور هذه المهارات والقيم خارج المدرسة على اعتبار أن قضية المياه قضية مجتمعية، وهنا يأتي دور الأسرة ووسائل الإعلام وجمعيات المجتمع المدني والأحزاب السياسية وغيرها من المنظمات الحكومية وغير الحكومية.

### الفرع الثاني: أهمية التربية المائية وأهدافها

تكتسي التربية المائية أهميتها من أهمية الماء نفسه "فالمياه هي الحياة وتمكين الإنسان من الوصول إلى القدر الكافي والأمن منها يعني تمكينه من الحياة التي تعتبر حقا من حقوقه الأساسية والطبيعية، والتي أوصى الشرع بحفظها والذود عنها... كما أكد الحق سبحانه وتعالى على أهمية الماء الاقتصادية عندما ربط في آيات كثيرة بداية خلق الإنسان ومظاهر الحياة على سطح الأرض بعنصر الماء (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ<sup>1</sup>) (30) الأنبياء 30، فهو مصدر خلق الإنسان وعنصر ضروري لإحياء الأرض، ومورد طبيعي يستحيل الإنتاج الزراعي بدونه<sup>2</sup>. كما أن أهمية تعزيز الوعي المائي أصبحت مسألة ملحة أكثر من أي وقت مضى نظرا للوضع المائي الحرج الناتج عن شح التساقطات المطرية وتمدد الفصل الجاف. لذلك، ينبغي تجنب كل مظاهر التبذير ولو في العبادات، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: "ما هذا السرف؟ فقال أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار"<sup>3</sup>، وروي أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثا ثلاثا، ثم قال "هذا الوضوء،

<sup>1</sup> عزوزي عبد العزيز، عجوري جواد (2024). أهمية الماء وتدابير المحافظة عليه في القرآن والسنة. مجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية 4(3) ص 83.

<sup>2</sup> ابن ماجة في السنن كتاب أبواب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدد (147/1)، رقم (425). قال في الزوائد إسناده ضعيف.

فمن زاد على هذا، فقد أساء أو تعدى أو ظلم"<sup>1</sup>. وما هذا إلا غيظ من فيض من مساهمة المدرسة النبوية في الرفع من الوعي المائي والمحافظة على المياه.

إن أهمية التربية المائية تتمثل في:

- اكتساب معارف وحقائق علمية جديدة حول أنواع المياه المتواجدة على سطح الأرض وتوزيعها وحصة بلد الانتماء من المياه وموقعه من خريطة المياه العالمية، إلى جانب التعرف على التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن ندرة المياه.

- التعرف على العوامل الطبيعية والبشرية المتحكمة في حجم ونوعية الموارد المائية.

- التعرف على مشكلات المياه المختلفة: الندرة، تباين التوزيع، التلوث، الصراعات الناتجة

عن المياه...

- اكتشاف أساليب إدارة وتديرير الموارد المائية.

- تطوير السلوكيات الإيجابية تجاه الموارد المائية ودفع الفرد إلى تحمل المسؤولية واتخاذ

القرار السليم والمتوازن أي كان موقعه في المستقبل.

وتصنف أهداف التربية المائية إلى:

أهداف معرفية: اكساب المتعلمين لمفاهيم ومعارف حول أنواع المياه وأحجامها وتوزيعها على المستوى الوطني والدولي، والتمييز والمقارنة بين أنظمة الاستغلال في الدول المتقدمة والدول النامية والمشاكل الناتجة عن هذه الأنظمة...

أهداف مهارية: تدريب المتعلمين على مهارة ملاحظة مختلف الظواهر المائية وتصنيفها وتقييم درجة تأثير الوضع المائي على مظاهر الحياة اليومية وعلى الأنظمة الاقتصادية والبيئية والثقافية، بالإضافة إلى مهارة تحديد المشكلات المائية وتصنيفها، ومهارة تفسير مختلف الظواهر المائية وابتكار طرق للاستغلال الأمثل...

أهداف وجدانية: تكوين سلوكيات إيجابية تجاه الموارد المائية تمكن المتعلمين من تنمية شعورهم بالمسؤولية وإدراكهم لحجم الأضرار الناتجة عن مشكلات الماء المختلفة (التلوث، الافراط في الاستغلال، الندرة الطبيعية....) والسعي إلى المشاركة بشكل فعال في هذه المشكلات وفي

<sup>1</sup> ابن ماجة في السنن كتاب أبواب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي ح (422).

الحفاظ على الثروة المائية، بل ومساهماتهم في نشر الوعي المائي في أوساطهم الاجتماعية (على مستوى المنازل، على مستوى الأحياء...).

**المبحث الثاني: تطور الاهتمام بالتربية المائية كعنصر من عناصر التربية البيئية**

**الفرع الأول: تطور الاهتمام بالتربية البيئية على المستوى الدولي**

نشأ وتطور مفهوم التربية البيئية بعد تحرك أممي لاحتواء المشكلات البيئية الناتجة عن فرط استغلال الموارد الطبيعية، ولهذا الغرض انعقدت مجموعة من المؤتمرات الدولية حول البيئة (الماء، التصحر، الغابات، التلوث الجوي...) والتي أوصت بتفعيل التربية البيئية وإدماج قضايا البيئة في المناهج التعليمية، ومن أهم هذه المؤتمرات:

**مؤتمر رومشليكون 1971 بسويسرا:** أول مؤتمر أوروبي حول التربية البيئية، عقد بدعوة من الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة والموارد الطبيعية، وخلص المؤتمر إلى أن المشكلة البيئية مسؤولية عالمية تحتاج إلى تضافر الجهود، وأوصى بإدراج المفاهيم البيئية وقضايا البيئة ومنافعها الاقتصادية والاجتماعية في المناهج التعليمية.

**مؤتمر البيئة البشرية في ستوكهولم 1972:** أول مؤتمر رسمي للأمم المتحدة حول البيئة، انعقد تحت شعار "عالم واحد وأرض واحدة"، نتج عنه الإعلان عن ميلاد برنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNUE) وهي وكالة متخصصة في شؤون البيئة وخاصة ما يتعلق بالتربية البيئية، وأوصى المؤتمر "بتبادل الأفكار والمعلومات والخبرات المتصلة بالتربية البيئية بين دول العالم وأقاليمه المختلفة، وتطوير نشاطات البحوث المؤدية إلى فهم أفضل لأهداف التربية البيئية ومادتها وأساليبها، وتنسيق هذه النشاطات، والعمل على تطوير مناهج تعليمية وبرامج في حقل التربية البيئية وتقويمها، وتدريب وإعادة تدريب القادة المسؤولين عن التربية البيئية، مثل المخططيين والباحثين والإداريين التربويين، وتوفير المعونة الفنية للدولة الأعضاء، لتطوير برامج في التربية البيئية"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> طویل، فتیحة (2013). التربية البيئية ودورها في التنمية المستدامة: دراسة ميدانية بمؤسسات التعليم المتوسط بمدينة بسكرة - أطروحة دكتوراه، شعبة علم الاجتماع، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص 47.

مؤتمر بلغراد (يوغسلافيا سابقا) 1975: تمت المصادقة فيه على البرنامج الدولي للتربية البيئية الذي وضعته منظمة اليونسكو والذي حدد 8 مبادئ للتربية البيئية وهي<sup>1</sup>:

ينبغي أن يأخذ التعليم في الاعتبار مختلف الجوانب البيئية: الطبيعية والاصطناعية والايكولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية والتشريعية والثقافية؛

ينبغي أن تكون التربية البيئية عملية مستمرة مدى الحياة، سواء من خلال التكوين الأكاديمي أو غيره؛

ينبغي للتعليم البيئي أن يتخذ نهجا متعدد التخصصات.

ينبغي أن تؤكد التربية البيئية على المشاركة الفعالة في منع حدوث المشاكل البيئية والانخراط في حلها.

ينبغي أن تتناول التربية البيئية القضايا البيئية من منظور عالمي مع مراعاة الاختلافات والخصائص المحلية.

ينبغي أن تركز التربية البيئية على الأوضاع البيئية الحالية والمستقبلية.

ينبغي على التربية البيئية معالجة قضايا التنمية والنمو من زاوية بيئية.

يجب أن يؤكد التعليم البيئي على قيمة التعاون المحلي والوطني والدولي من أجل معالجة المشاكل البيئية.

مؤتمر تبليسي بجورجيا 1977: نظمت اليونسكو بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة، وضع المؤتمر إطارا عاما للتربية البيئية وحدد مجموعة من الأهداف تتوخى التربية البيئية تحقيقها<sup>2</sup>:

التوعية: اكتساب الوعي اتجاه البيئة بمفهومها الشامل ومعرفة المشاكل المرتبطة بها.

المعرفة: اكتساب الأفراد والمجموعات البشرية مجموعة من الخبرات والمعارف المرتبطة بقضايا البيئة ومشاكلها.

<sup>1</sup> UNESCO-PNUE, (1975). La Charte de Belgrade. Un cadre mondial pour l'éducation relative à l'environnement. [En ligne]. [https://institut-eco-pedagogie.be/spip/IMG/pdf\\_CharteBelgrade.pdf](https://institut-eco-pedagogie.be/spip/IMG/pdf_CharteBelgrade.pdf).

<sup>2</sup> UNESCO (1977). Intergovernmental Conference on Environmental Education organised by UNESCO in cooperation with UNEP Tbilisi (USSR) 74 – 26 October 1977. (<https://unesdoc.unesco.org/ark/>).

المواقف والاتجاهات: مساعدة الأفراد والفئات الاجتماعية المختلفة على اكتساب مجموعة من القيم التي تساعد على المشاركة بشكل فعال في تحسين البيئة وحمايتها.

المهارات: إكساب أفراد المجتمع مجموعة من المهارات الفنية والمعرفية التي تمكنه من تحديد المشكلات البيئية والتعامل معها.

المشاركة: تمكين الأفراد والمجموعة البشرية من الانخراط بشكل فعال في معالجة وحل المشكلات البيئية.

مؤتمر قمة الأرض ريو دوجانيرو 1992: دعا المؤتمر الذي انعقد في البرازيل بدعوة من الأمم المتحدة إلى تعزيز التربية البيئية وترسيخها وتكييفها لغاية تحقيق التنمية المستدامة، وأكد أيضا أهمية زيادة الوعي العام وتمكين الثقافة البيئية من أجل المحافظة على أمن الحياة واستدامة مواردها. وألح المؤتمر على إعادة تكييف التربية البيئية بروح جديدة، وتوجيه التعليم نحو التنمية المستدامة، وتطوير البرامج التدريسية وتنشيطها، وزيادة الوعي العام في مختلف الفئات الاجتماعية<sup>1</sup>.

المؤتمر العالمي للتعليم من أجل التنمية المستدامة 2021: نظمت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) 16 ماي 2021 وسلط هذا المؤتمر الضوء على التحديات الكبيرة التي يواجهها العالم كتسارع وتيرة تغير المناخ ومحدودية الموارد وارتفاع درجات الحرارة والتلوث. كما أبرز دور التعليم من أجل التنمية المستدامة في مواجهة هذه التحديات وفي تحقيق الأهداف الأخرى للتنمية المستدامة، وجاء في تقرير هذا المؤتمر "وينبغي للمناهج الدراسية أن تركز على التعلم الإيكولوجي المتعدد الثقافات والتخصصات، الذي يساعد الطالب على الوصول إلى المعارف وعلى إنتاجها فضلا عن تطوير قدراتهم على نقدتها وتطبيقها. يجب أن تضم المناهج فهما بيئيا يعيد التوازن إلى الطريقة التي يتم التعامل بها مع الأرض ككوكب حي وموطن واحد"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> علي أسعد وطفة (2021) التربية البيئية في مواجهة التحديات الإيكولوجية المعاصرة من منظور أممي <https://watfa.net/archives/11583>.

<sup>2</sup> UNESCO (2021) Reimagining our futures together: A new social contract for education. Executive summary, p9.

### الفرع الثاني: تطور إدماج التربية المائية على المستوى الوطني.

في ظل الاهتمام الأممي المتزايد بقضايا البيئة وبعد إدراك أهل الفكر والسياسة أن التربية البيئية ضرورة لا محيد عنها في تدبير الموارد الطبيعية واستغلالها بشكل مستدام، عملت الدولة المغربية على إدماج مفاهيم وقضايا البيئة في مناهجها التعليمية الرسمية، وظهرت الإشارات الأولى في هذا الصدد في الميثاق الوطني للتربية والتعليم 1999 الذي أكد على ضرورة افتتاح المدرسة على محيطها الخارجي ونسجها علاقات جديدة مع محيطها البيئي والمجتمعي والثقافي والاقتصادي. وسعياً لتحقيق هذا المبتغى عملت السلطة الحكومية المكلفة بالتربية والتعليم على تعزيز التربية البيئية من خلال مجموعة من المقاربات:

توقيع اتفاقيات شراكة مع المؤسسات الوطنية المهتمة بالبيئة، كتلك التي وقعتها وزارة التربية الوطنية والمندوبية السامية للمياه والغابات ومحاربة التصحر (2005/02/23)

إثراء المقررات الدراسية بالبعد البيئي، حيث تم إدراج مفاهيم وقضايا البيئة عامة والماء خاصة في مواد مختلفة منها مادة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتربية الإسلامية؛ فمثلاً خصصت المجزوءة الثانية بأكملها (9 وحدات بالإضافة إلى 3 ملفات) من برنامج مادة الجغرافيا بالجذع المشترك آداب للبعد البيئي تحت عنوان "البيئة بين التوازن والاختلال"، وتعرف هذه المجزوءة بأهم عناصر المنظومة البيئية وما يهددها من أخطار ناتجة عن الاختلالات الطبيعية وتدخلات الإنسان غير المستدامة، إلى جانب التعريف بأهم التدابير والإجراءات التي يقوم بها الإنسان للمحافظة على البيئة. كما تم إدخال مفاهيم تتعلق بالبيئة في مختلف المواد التعليمية الأخرى باعتماد الأسلوب الدمجي. كما تم الاهتمام بإدماج المفاهيم البيئية وتوعية الناشئة بأهمية مكونات البيئة وخطورة الإضرار بها، وذلك من خلال إدراج درس في مدخل القسط خاص بحق البيئة في جميع مقررات مادة التربية الإسلامية، ابتداءً من مستوى الأولى إعدادي إلى مستوى الثانية باكالوريا في التعليم الثانوي التأهيلي.

الأنشطة التربوية المتنوعة: كالاحتفال بالأيام العالمية التي لها صلة بالبيئة (اليوم العالمي للماء 22 مارس من كل سنة واليوم العالمي للبيئة 5 يونيو)، بالإضافة إلى تأسيس أندية بيئية بالمؤسسة التعليمية...

إصدار مجموعة من المذكرات الوزارية كالمذكرة رقم 2010/16 في موضوع الميثاق الوطني للبيئة والتنمية المستدامة تماشيا مع التوجيهات الملكية التي عبر عنها خطب العرش 30 يوليوز 2009.

- انخراط المغرب منذ 2006 في مشروع المدارس الايكولوجية الذي وضعته مؤسسة التربية البيئية (FEE) والذي شمل أزيد من 5000 مدرسة في 76 بلدا، ويقوم على اكتساب التلاميذ المتراوحة أعمارهم بين 4 و12 سنة سلوكيات إيجابية تجاه البيئة، ويركز المشروع على سبعة محاور هي: الماء، الطاقة، النفايات، التنوع البيولوجي، التغذية السليمة، التضامن والتغيرات المناخية ومن أهداف هذا المشروع:

- تعليم الممارسة البسيطة التي تحمي البيئة؛

- إدراج البيئة في المناهج والمقررات الدراسية؛

- تحسيس محيط الأطفال بأهمية البيئة؛

- إنشاء مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة لمنصة بيئية رقمية سنة 2014 تتضمن موارد رقمية متنوعة حول قضايا البيئة (الطاقات المتجددة، المناخ، الماء، حماية السواحل، التنمية المستدامة، جودة الهواء...) تمكن التلاميذ من اكتساب مجموعة من المعارف والمهارات والسلوكيات الإيجابية تجاه البيئة. لكن يطرح السؤال حول قدرة جميع الفئات الاجتماعية من الوصول إلى هذا النوع من المنصات وهل الجميع يتوفر على الوسائل الضرورية، مما ينبغي التفكير في جعل مثل هذه المنصات ذات ولوج مفتوح.

لكن ما نراه من تعامل المتعلمين مع بيئتهم بشكل عام ومع الموارد المائية بشكل خاص، يبين أن هذه المجهودات محدودة التأثير في الجانب الوجداني للمتعلم فكثيرا ما نصادف سلوكيات سلبية تجاه الماء في المدارس، كترك صنوبر المياه مفتوحا بعد استعماله في دورات المياه، وعدم الإبلاغ عن تسربات المياه(...)

### المبحث الثالث: طرق إدماج التربية المائية وتعزيز الوعي المائي في التعليم المدرسي

تحدد درجة تفاعل الأفراد مع قضايا الماء حسب درجة معرفتهم ووعيهم بها، ويتم التعامل المباشر مع مشكلاتها وفقا لمهارتهم وخبراتهم، لذا لا يمكن لمخططات تطوير وتنمية الموارد المائية ولا لتحديث القوانين أن يغير من سلوكيات الفرد تجاه المنظومة المائية بأكملها ما لم يواكب هذا التطوير الاهتمام أكثر بقضايا الماء في المجال التربوي.



### الفرع الأول: التربية المائية من خلال الأنشطة الصفية

تلعب الأنشطة الصفية دورا كبيرا في البناء المعرفي للمتعلمين، لذلك ينبغي إثراء المناهج الدراسية في مختلف المراحل التعليمية بقضايا الماء وعدم الاكتفاء بالتطرق لها فقط عند دراسة المواضيع المتعلقة بالبيئة، فكما تم إدراج مفاهيم وقضايا البيئة بشكل عام في الوحدات الدراسية لبعض المواد (العلوم الطبيعية والجغرافيا والتربية الإسلامية) أو بطريقة الدمج في باقي المواد، ينبغي إدراج التربية المائية في المناهج الدراسية عبر ثلاثة مداخل:

**مدخل الوحدات الدراسية:** تخصيص وحدات دراسية لموضوع الماء بحيث تعالج كل وحدة من هذه الوحدات بعدا من أبعاد الماء البيئية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية والقيمية، وهذه المهمة يمكن أن تقوم بها مواد مثل التاريخ والجغرافيا والتربية الإسلامية والعلوم الطبيعية أو ما يسمى حاليا بعلوم الحياة والأرض، فمثلا توجه المواد العلمية لدراسة وتوضيح الخصائص الفيزيائية والكيميائية للماء، التفاعلات، كثافة الماء(...) وفي مقررات الجغرافيا ينبغي التطرق لأهمية الماء وأنواعه ومصادره في الطبيعة، ودورة الماء وتوزيع الماء على سطح الأرض بالإضافة إلى مشكلات الماء وأساليب تدبيرها، وفي مادة التربية الإسلامية ينبغي تخصيص دروس في جميع المستويات الدراسية من الأولى ابتدائي إلى الثانية باكوريا من التعليم الثانوي التأهيلي تعالج مشكلات اجتماعية تتعلق بالماء؛ مثل الإسراف، والتلوث، وغيرها من مظاهر الإفساد.

كما يمكن أن نعزز من خلال مقررات التاريخ الخلفية الثقافية لاستعمال الماء في المجتمع المغربي وكيف كانت تتحكم مصادر المياه في توزيع السكان، بل وحتى في بروز صراعات قبلية حول الماء. نفس الأمر بالنسبة لمادة الاقتصاد التي ينبغي أن تتضمن وحدات تبين توزيع الماء حسب القطاعات الاقتصادية وقيمة الماء كرأس مال طبيعي ترتفع نسبة النمو الاقتصادي زمن وفرته وتنخفض زمن ندرته وخاصة بالنسبة للدول التي يتركز اقتصادها على الفلاحة كالمغرب.

**المدخل الدمجي:** إدراج بعض المفاهيم المرتبطة بموضوع الماء في باقي المواد الدراسية، كأن نشغل في مادة اللغة العربية على نصوص تناقش قضية من قضايا الماء، كما يمكن أن نربط موضوع الماء في مادة التربية الإسلامية بمختلف القيم المستفادة من دروس المادة؛ وذلك بهدف خلق توازن بين ما هو مادي وروحي وتعزيز دور الرقابة التي تلعبها تعاليم الدين الإسلامي (القرآن الكريم والسنة النبوية) التي تزخر بكم هائل من النصوص التي تبين ماهية الماء وأهميته ووسائل تدبيره والحفاظ عليه.

**المدخل المستقل:** ونقصد هنا تخصيص مقرر دراسي (مادة دراسية) مستقل بذاته مثله مثل باقي المقررات الدراسية، يعالج جميع القضايا المتعلقة بالماء، ولو أن هذا الهدف يبدو صعبا إلا أنه ضروري بالنظر إلى الوضعية الراهنة للموارد المائية، فهذا النوع من المدخل غير متوفر في المدارس المغربية، أما في المؤسسات الجامعية فيمكن أن نجد هذه النماذج في الدراسات العليا بعد الاجازة، حيث تخصص بعض مسالك الماستر والدكتوراه لموضوع الماء.

### الفرع الثاني: التربية المائية من خلال الأنشطة اللاصفية

تعتبر الأنشطة اللاصفية عنصرا من عناصر المنهاج بمفهومه الواسع، فإذا كانت الأنشطة الصفية ضرورية لبناء المكون المعرفي والمفاهيمي فإن الأنشطة اللاصفية لا محيد عنها في بناء شخصية المتعلم المهارية والوجدانية، فهي تعمل على تطوير مهارات المتعلمين وتوجيه سلوكياتهم عن طريق الممارسة المباشرة. ولتحقيق هذا الهدف ينبغي الانتقال من وضعية المدرسة المغلقة على نفسها إلى وضعية المدرسة المنفتحة على محيطها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والبيئي من خلال مجموعة من الأنشطة اللاصفية التي نذكر منها:

- **الأنشطة الإعلامية:** توجيه الأنشطة الإعلامية المدرسية (الصحافة المدرسية، الإذاعة المدرسية...) لنشر الوعي المائي في الوسط المدرسي، تحت إشراف متخصصين تربويين ومتخصصين في الاعلام المدرسي وتنسيق مع مدرسي المواد الاجتماعية والطبيعية، والعمل على إدراج قضايا الماء في الإذاعة المدرسية بشكل منظم ومخطط زمنيا.

- **تفعيل الأندية البيئية** داخل المؤسسات المدرسية ومدها بوسائل الاشتغال المادية والتقنية؛ إذ يمكن لهذه الأندية أن تعمل على مجموعة من المشاريع ذات الاهتمام بموضوع الماء، كاقترح وتنفيذ مشاريع تجارب حول الدورة الهيدرولوجية وتلوث المياه، والقيام بورشات تطبيقية داخل المؤسسات التعليمية كتخزين المياه من خلال تجميع مياه الأمطار وتوجيهه للاستعمال في دورات المياه وسقي الحدائق بأنظمة آمنة(...).

- **إنجاز أعمال مسرحية** حول الصراع القائم حول المياه سواء بين القطاعات الاقتصادية أو بين السكان أو بين الدول حول مصادر المياه المشتركة.

- **الرحلات العلمية الاستكشافية:** القيام برحلات مدرسية منظمة ومخططة للمحيط الخارجي بغية الوقوف بشكل مباشر على التهديدات التي تتعرض لها الموارد المائية، ومن بين المواقع التي ينبغي زيارتها، مقاطع الأودية الملوثة بالماء، الضيعات الفلاحية للملاحظة وتصنيف أنظمة السقي

والمقارنة بين أكثر من نظام عن طريق تجارب علمية مضبوطة، مناطق تجميع مياه التساقطات المطرية للوقوف على دور هذه الأنظمة في تخزين المياه...

- عرض أفلام وثائقية حول قضايا الماء وفتح النقاش بين المتعلمين حول محتوى هذه الأفلام، ومساعدة المتعلمين على إنتاج أفلام في هذا الصدد.

- تنظيم أيام دراسية وندوات علمية يحضرها المتخصصون من مختلف القطاعات التي لها علاقة بالماء، وتوسيع هامش حركة المتعلمين في مثل هذه اللقاءات العلمية سواء من خلال التنظيم أو المشاركة.

### خاتمة وتوصيات:

إن مشكلة المياه حاليا ليست مشكلة تقليدية ترتبط بشح التساقطات المطرية فقط ويمكن أن تعالج في إطار تعبئة موارد مائية جديدة، بل هي مشكلة إنسان تعوزه القدرة على التفكير والتعامل السليم والمسؤول، ومن ثم فمعالجة مشكلات المياه تتطلب تقويم السلوك البشري وتنمية الوعي المائي وهذا لن يتأتى إلا بالتربية المائية التي تضطلع بها المدرسة، لذلك نوصي بـ:

الإثراء الشامل للمقررات التعليمية بقضايا الماء مع مراعاة المستوى الإدراكي للمتعلمين في كل مرحلة من المراحل التعليمية.

انفتاح المؤسسات التعليمية على محيطها الخارجي من مختلف القطاعات المهمة بالشأن البيئي عامة والمائي خاصة، وعقد اتفاقيات شراكة تساعد المتعلمين على ترسيخ معارفهم وتطوير مهاراتهم.

تحفيز المؤسسات التعليمية على الانخراط في مشاريع المدارس البيئية.

السماح بالدخول الحر والمجاني - أي بدون الحاجة إلى الأنترنت- المنصات الالكترونية المهمة بالبيئة على المستوى الوطني كالمنصة التي أطلقتها مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة. استغلال الثورة الرقمية والتطور التكنولوجي في توفير الكتب الالكترونية ومقاطع فيديو تطرق لموضوع من موضوعات الماء.

تشجيع وتحفيز المؤسسات التعليمية المنخرطة في مشاريع حماية وحفظ الموارد المائية عن طريق منح هذه المؤسسات علامات المدرسة البيئية ومكافئتها بمنح مادية.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش.

### المراجع العربية:

- عبد الباقي محمد فؤاد (د ت)، سنن أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، ج1، مطبعة إحياء الكتب العربية د ط.
- طه محمود (2011)، تطويلا منهج المساحة والري في ضوء أبعاد التربية المائية وأثره في تنمية الوعي المائي لدى طلاب الصف الأول الثانوي الزراعي، مجلة التربية العلمية، 14(1)، 143-196.
- طويل، فتيحة (2013)، التربية البيئية ودورها في التنمية المستدامة: دراسة ميدانية بمؤسسات التعليم المتوسط بمدينة بسكرة – أطروحة دكتوراه، شعبة علم الاجتماع، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
- عزوزي عبد العزيز، عجوري جواد (2024)، أهمية الماء وتدابير المحافظة عليه في القرآن والسنة. مجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية 4(3).
- علي أسعد وطفة (2021)، التربية البيئية في مواجهة التحديات التكنولوجية المعاصرة من منظور أممي. <https://watfa.net/archives/11583>
- فرج الله وليد (2006) التربية المائية: واجب ومسؤولية، مجلة المياه، كلية التربية، جامعة سوهاج، مصر.
- معروف موفق عرفة (2010): مستوى الوعي المائي لدى الطلبة معلمي العلوم بكلية التربية في الجامعات الفلسطينية بغزة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة.
- وحش ابراهيم (2000) دور منهج الدراسات الاجتماعية في إنماء الوعي المائي، مجلة كلية التربية دمياط، مصر، ع 34.

## المراجع الأجنبية:

- Andrews, Elaine (1992). Educating Young People about Water. A Guide to Goals and Resources with an Emphasis on Nonformal and School Enrichment Settings. Wisconsin Univ, Madison. Univ. Extension. Environmental Resources Center.
- UNESCO (1977). Intergovernmental Conference on Environmental Education organised by UNESCO in cooperation with UNEP Tbilisi (USSR) 74 – 26 October 1977.
- UNESCO (2021) Reimagining our futures together: A new social contract for education. Executive summary.
- UNESCO-PNUE, (1975). La Charte de Belgrade. Un cadre mondial pour l'éducation relative à l'environnement.

## المدرسة المغربية

## بين التقييم الذاتي والتقييم الخارجي

رجاء بلشقر

مفتشة تربوية  
المغرب

د. محمد لطيفي

أستاذ التعليم العالي  
مركز تكوين مفتشي التعليم،  
الرباط، المغرب

سلمية اسماعيلي

مفتشة تربوية  
المغرب

كريمة الفركاني

مفتشة تربوية  
المغرب

## ملخص:

لا يمكن تصور نجاح أي مشروع، اقتصاديا كان أو علميا أو تربويا، إن لم يسترشد بمبادئ الحكمة الجيدة، التي تستوجب إخضاعه لدراسة صادقة وموضوعية لمساره وسيورته، في أفق كشف مكانه قوته وضعفه، وهو العمل الذي تقوم به المؤسسات والدول لسائر مشاريعها وعملياتها. ويهدف بحثنا هذا إلى إبراز دور تقييم المؤسسة التعليمية، بأوجهه المختلفة، ومدى فعاليته الإجرائية، في الرفع من مردوديتها ونجاح مشروعها التربوي. يقدم هذا البحث مرجعا يمكن الانطلاق منه لبناء إطار مرجعي للمعايير والمؤشرات لتقييم أداء المؤسسة التعليمية، توفّر لإصدار الأحكام، بدقة وموضوعية، ووضع مخطط يستهدف إرساء شبكة معلوماتية لاستجاء ما انتهت إليه عمليات التقييم. توصل بحثنا لتحديد نوعين من التقييم تخضع له المؤسسة التعليمية المغربية، التقييم الذاتي وهو تقييم داخلي وتقييم خارجي، وكلا التقييمين يعد نوعا من التغذية الراجعة، التي تساعد على صنع القرارات المناسبة، وتطوير الأداء، والإسهام في تخطيط البرامج ومراقبتها والتحقق من فعاليتها؛ للستير بالموسسة التعليمية نحو الأهداف المرجوة منها، وتحقيق فلسفة التربية، التي تُصَرّف الدولة في سبيلها ميزانية ضخمة. لذا، فإن الحرص على تطبيق آليات التقييم بخدم المؤسسات التعليمية، ويؤدي بها إلى التميز في تقديم خدماتها التعليمية، وفي خدمة المجتمع ككل؛ فتكون مخرجاتها - تبعا لذلك - متميزة، ومتلائمة مع متطلبات السوق محليا ودوليا.

**كلمات مفتاحية:** التقييم الذاتي، التقييم الخارجي، الافتتاح، المدخلات، المخرجات، المعايير، المؤشرات.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

لطيفي، محمد. بلشقر، رجاء. الفركاني، كريمة. اسماعيلي، سلمية. (2024، أكتوبر). المدرسة المغربية بين التقييم الذاتي والتقييم الخارجي.

مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 579-602.

**Abstract:**

The success of any project, whether economic, scientific, educational, or otherwise, cannot be envisioned without being guided by the principles of good governance. This necessitates subjecting it to a sincere and objective study of its trajectory, strengths, and weaknesses. This is the work that institutions and states undertake for all their operations and projects. Our research aims to highlight the role of educational institution evaluation, in its various aspects, and the extent of its procedural effectiveness, in increasing its productivity and the success of its educational project. This research provides a reference from which to build a reference framework for standards and indicators to evaluate the performance of the educational institution, which qualifies it to issue judgments accurately and objectively, and to develop a plan aimed at establishing an information network to collect the results of the evaluation processes. Our research has identified two types of evaluation that educational institutions are subject to: self-evaluation, which is an internal evaluation, and external evaluation. Both evaluations are a type of feedback that helps in making appropriate decisions, developing performance, and contributing to planning, monitoring, and verifying the effectiveness of programs; to move the educational institution towards its desired goals and achieve the philosophy of education, for which the state spends a huge budget. Therefore, keenness to implement evaluation mechanisms serves educational institutions and leads them to excel in providing their educational services and in serving society as a whole; their outputs are therefore distinguished and compatible with the requirements of the local and international market.

**Keywords :** Self-evaluation, External- Evaluation, Audit, Inputs, Outputs, Criteria, Indicators.

## مقدمة

شهد العالم، في الآونة الأخيرة، تطورات متلاحقة، شملت كل المجالات: الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية... كما شكّلت تحدياً للنظم التعليمية في المجتمعات المختلفة؛ فكان من الضروري أن تواكب المؤسسات التعليمية تلك التطورات باعتماد آليات ومناهج، تستدمج التغيرات المشار إليها، وتتبنى أساليب الحكامة الجيدة؛ من خلال معايير ومؤشرات دالة، تعدّ - في الواقع - أداة ضرورية لقياس نتائج التنفيذ الفعلي، ومقارنتها بالمستوى المستهدف، وتحديد الانحرافات وأسبابها، والبحث عن سبل علاجها. ومن المعلوم أنّ المعايير توضع عقب تحديد المجالات، ويمكن من خلالها الحكم على أداء المؤسسة التعليمية، ويجب أن تتمتع بالموضوعية والشمولية، ويتجلى الغرض من هذا التقييم في قياس مردودية تلك المؤسسة؛ لمعرفة مدى تحقيقها الأهداف المسطرة سلفاً، وللتعرف إلى مكامن الضعف والقوة في أدائها.

ويتطلب وضع معايير تقييم الأداء المؤسّساتي إطاراً مرجعياً واضحاً، يحدد الملامح والمبادئ التي تصف هذا الأداء، وترصد جوانبه المختلفة، غير أن ذلك يختلف باختلاف الجهة المقيّمة وأولوياتها ومجال اشتغالها؛ حيث يمكن إجراء التقييمات من قبل المدرسة نفسها (التقييم الذاتي للمدرسة)، أو من قبل هيئة تقييم خارجية (التقييم الخارجي للمدرسة). ويوفر هذا التقييم معلومات تساعد المدارس على فهم كيف يؤثر نمط التدريس، وأسلوب التسيير الإداري، في تعلم التلاميذ، وما يمكنهم تطويره وتحسينه. كما تُعيّن المعلومات المستمدّة من التقييمات السلطات الإقليمية والمركزية على وضع سياسات تعليمية أفضل؛ لدعم تحسين أداء المدارس (منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي، 2013)<sup>1</sup>.

ولتناول قضية تقييم المؤسسة التعليمية، لا بد من تفكيكه إلى عناصر ثلاثة، مكوّنة له، وهي: المدخلات والعمليات والمخرجات. فأما المدخلات التربوية، فهي كل ما يدخل بداية في العملية التربوية من موارد بشرية ومادية وغيرها. في حين أن العمليات يُقصد بها أداء الأنشطة، التي تروم تحويل المدخلات إلى مخرجات، ومنها الأنشطة التدريسية التي يمارسها المدرسون مع تلاميذهم.

<sup>1</sup> OCDE (2013), Synergies for Better Learning: An International Perspective on Evaluation and Assessment, OECD Publishing, Paris.



وتتمثل المخرجات في مجموع المعارف والمهارات والاتجاهات التي اكتسبها المتعلم بعد تعرّضه للعملية التعليمية- التعلمية.

ويراد بتقييم المؤسسة التعليمية، أو النظام التعليمي بصفة عامة، تلك العملية المنهجية التي تستهدف إصدار الأحكام، بدقة وموضوعية، على مدخلات أي نظام تعليمي وعملياته ومخرجاته؛ ومن ثمّ تحديد جوانب القوة والقصور في أداء كل منها على حدة؛ تمهيدا لاتخاذ قرارات مناسبة، تتعلق بثمين النقط الإيجابية وإصلاح نقاط الضعف، وهنا تبدو الحاجة ماسة إلى تطوير أطر وأدوات تقييم المحتويات التعليمية، وطرق التدريس واستراتيجياته، وساعات التدريس، والجوّ العام السائد في مختلف مؤسسات النظام التعليمي، وطبيعة الإدارة المدرسية، إلخ.

وقد بدأ الاهتمام بالمغرب، مؤخراً، بتقييم أداء المؤسسات التعليمية، التي أضحت تخضع لعملية افتتاح منتظمة، تغطي جوانب معينة من التقييم الخارجي. كما شجع المغرب المؤسسات التعليمية على القيام بتقييمات ذاتية كجزء من مشاريعها الخاصة، لكنّ محدودية قدرات التقييم، سواء على مستوى المؤسسة التعليمية أو على المستويين الجهوي والمركزي، إضافة إلى غياب معايير ومؤشرات الجودة الواضحة، وكذا ضعف ثقافة الإدارة والتخطيط المدرسي، عوامل تحوّل اليوم دون تطوير ممارسات التقييم المؤسساتي في قطاع التعليم عندنا. وتجدر الإشارة إلى أنّ القدرات والأدوات المتاحة، على مستوى المفتشية العامة للشؤون التربوية والتفتيش التربوي، يمكن أن تسهم في تطوير التقييم الخارجي للمؤسسات التعليمية، الذي ينبغي - في نظرنا - أن يعتمد مؤشرات تركز كذلك على تقييم التدريس والتعلم في الفصول الدراسية، بدل الاختصار على الجانب الإداري. وتحقيقاً لهذه الغاية، يجب إشراك المفتشين التربويين في العملية؛ نظراً لخبرتهم وتكوينهم في تقييم الممارسات التربوية، وفي تقييم المؤسسات أيضاً، ولاسيما فيما يتعلق بتقييم جودة التدريس والتعلم داخل الأقسام.

ومن جهة أخرى، يعد التقييم الذاتي عاملاً فعالاً في تحسين جودة أداء المؤسسات التعليمية. ومن المهم، في هذا الإطار، أن تواكب الوزارة الوصية، وتساعد هذه المؤسسات؛ عبر مدها بقائمة من المؤشرات والموارد والخبرات لتنفيذ التقييم الذاتي لأدائها بصفة دورية ومنظمة. ومن المهم، كذلك، أن تقوم الوزارة والأكاديميات الجهوية بتقديم الدعم التقني والمالي للمؤسسات التعليمية؛ لتمكينها من تطبيق توصيات التقييمات الخارجية والداخلية بنجاحة.

## مشكلة البحث وتساؤلاتها:

خلّصت مجموعة من الدراسات إلى وجود قصور وتعثر لدى المؤسسات التعليمية المغربية في بلوغ الأهداف المسطرة، وباعتبار المؤسسة التعليمية نظاما متكامل وتتفاعل عناصره، من مدخلات وعمليات ومخرجات؛ لتحقيق التوقعات والغايات المأمولة، فإن تجويد أداء المؤسسات التعليمية يظل رهيناً بإرساء نظام تقييم آخر فعال، ذي بُعدين: ذاتي وخارجي. هذا، مع العلم بأنّ نظام تقييم أداء المؤسسات التعليمية في المغرب يُعاني، على محدوديته، من مشكلات عدة، تتعلق أساساً بضعف الخبرات والكفاءات المتخصصة، وقلة التمويل، وعدم وضوح رؤية التقييم، فضلاً عن عدم استثمار نتائج التقييمات المنجزة وتقديم تغذية راجعة للمؤسسات التعليمية؛ من أجل تحسين الأداء المدرسي وتطويره... وفي ضوء ما سبق، تتبلور مشكلة بحثنا من خلال السؤال الرئيس الآتي: "كيف يمكن استخدام معايير ومؤشرات التقييمين الذاتي والخارجي، بفعالية، في تقييم أداء المؤسسات التعليمية بالمغرب؟".

وتتفرع عن هذا السؤال الإشكالي التساؤلات الآتية:

- ما مفهوم "المؤشرات" في هذا المجال؟
- ما واقع تقييم المؤسسات التعليمية في المغرب؟
- ما هي المعايير والمؤشرات المستخدمة في التقييمين الذاتي والخارجي عندنا؟
- كيف يمكن تطوير هذه المعايير لتكون أكثر فعالية؟

## منهج البحث:

تبعاً لطبيعة هذا البحث، والأهداف المتوخاة منه، فقد تم تبني منهج وصفي لعرض معايير ومؤشرات تقييم أداء المؤسسة التعليمية، ومناقشة اختلاف هذه المؤشرات باختلاف الجهة القائمة بهذا التقييم، بوصفه أنسب وأنجع في حالتنا هذه.

## أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية هذه الدراسة من مرماتها الأساس، الذي يتمثل في بحث سُبل تحقيق جودة أداء المؤسسة التعليمية عندنا؛ هذه الجودة التي لا سبيل إلى تحقيقها، عملياً، إلا باعتماد معايير ومؤشرات علمية واضحة.

وبخصوص أهدافها، فإن منها ما يأتي:

- تحديد مفهومي "المؤشرات" في المجال التعليمي؛
- تفكيك/ تصنيف المعايير والمؤشرات التعليمية بالنظر إلى المدخلات والعمليات والمخرجات؛
- عرض المستخدم من هذه الآليات في سياق تقويم أداء النظام التعليمي، وبيان مدى فعاليتها...

#### بنية البحث:

ينتظم هذا البحث في ثلاثة محاور مترابطة، وإن لم يتكافأ كمياً، علاوة على مقدمة وخاتمة مركبتين. فأما المحور الأول فمخصص لتوضيح المراد بـ "المؤشرات التعليمية"، في حين أن الثاني معقود لتقييم أداء المؤسسة التعليمية، وتبيان أنواعه، وكذا الجهات التي تُبأشره أو تتولّى القيام به، والمحور الثالث يبسط واقع تقييم المؤسسات التعليمية المغربية.

#### أولاً- المؤشرات التعليمية:

المدرسة نظام يُحدّد بمُدخلاته وعملياته ومُخرجاته، وتتفاعل عناصره كلّها لتحقيق التوقعات والمرامي المأمولة منه. ولتقييم أداء المؤسسة التعليمية، نعتد عادةً المؤشرات التعليمية، الواقعة تحت المعايير؛ كما هو معروف في أدبياتنا التربوية. واختصاراً للكلام، لعل الأنسب الاقتصار على الأولى؛ لكونها أشد ارتباطاً بموضوع دراستنا هذه. تُرى ما المقصود بـ «المؤشرات التعليمية»؟ وما هي خصائصها وأنواعها؟ وما المؤشرات التعليمية المستخدمة لتقويم الأداء التعليمي للمدرسة؟

إنّ المدرسة مؤسسة اجتماعية وتربوية، لها فلسفتها وسياستها وأهدافها؛ بحيث تتكون من مجموعة من الأفراد، يضطلع كلّ منهم بوظيفة محددة، تتم في إطارٍ من التفاعلات والعلاقات. وتتحدد غايتها النهائية في تكوين مواطن اجتماعي، صالح، قادر على التفكير والعمل والإنتاج. كما أنّ هذه المؤسسة تتفاعل مع مؤسسات المجتمع الأخرى؛ كالأُسرة، ووسائل الإعلام، إلخ. وبالنظر إلى أهمية الدور الذي تلعبه المؤسسة التعليمية في تنمية الفرد والمجتمع، كان من الضروري تتبّع أدائها؛ من خلال مؤشرات دالة عليه.

والمؤشر لغةً من الفعل "أشّر": بمعنى دل على شيء ما. جاء في لسان ابن منظور (ت 711هـ) أنه "ما يدلّ أو يُظهر شيئاً أو حالة معينة"<sup>1</sup>. وعُرف المؤشرُ، في "معجم علوم التربية"، بأنه "كل ظاهرة تشكل شاهداً على وجود ظاهرة أخرى، وتساعد على إيجاد حلّ معين"<sup>2</sup>.

ويقدم هاموند<sup>3</sup> تعريفاً للمؤشرات بقوله: "يمكن تعريف المؤشرات، بطريقة بسيطة، بأنها بيانات إحصائية، متجانسة أو مركبة، تعكس الخصائص المهمة لنظام ما؛ من مثل: التعليم والصحة والاقتصاد". ويقترح دو لاندشير<sup>4</sup>، من جانبه، تعريفاً للمؤشر، المرتبط مباشرة بإدارة النظم التعليمية، بأنه "القياس الذي يوفر معلومات خاصة عن صحة وجودة أداء النظام التعليمي، وعمّا يعرفه التلاميذ وما يمكنهم القيام به، وعن التطور الإيجابي أو السلبي لظروف تدرّسهم، وعن الاختلافات الكبيرة التي قد توجد بين المناطق الجغرافية أو المؤسسات في أوقات معينة".

انطلاقاً من هذين التعريفين، يمكننا القول إن المؤشرات التعليمية هي إحصاءات تفيد في تشخيص وضعية النظام التعليمي؛ من خلال رصد مكوناته، وبيان أوجه ترابط هذه الأخيرة، وإبراز مدى تغيرها عبر الزمن... للحكم على مدى التقدم نحو تحقيق الأهداف، أو المقارنة بين الأنظمة التعليمية المختلفة.

وللمؤشرات التعليمية خصائص يجب أن تتصف بها؛ فمن جهةٍ، يجب أن تكون مفيدة، وظيفية، صادقة، وثابتة. ومن جهة أخرى، يجب أن تقيس الملامح الكلية للتمدرس، والملاحح الداخلية للنظام، كما يجب أن يتم استيعابها من قبل جميع المهتمين بالعملية التعليمية-التعلمية. ويمكن أن تُستخدم المؤشرات التعليمية في سياقات مختلفة؛ فهي تعمل كنظام تتبع لوضع النظام التعليمي، وتتابع تطور الأداء عبر الزمن، وكذا تقييم تأثير السياسات الإصلاحية للنظام التعليمي.

<sup>1</sup> ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 110/1.

<sup>2</sup> مجموعة من المؤلفين، معجم علوم التربية، من منشورات "عالم التربية"، ع: 10/9، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 1998. ص 164.

<sup>3</sup> Darling-Hammond, L. (1994). L'usage politique des indicateurs. In CERI (éd.) Évaluer l'enseignement. De l'utilité des indicateurs internationaux. Paris, OCDE, Centre pour la Recherche et l'Innovation dans l'Enseignement. P 387

<sup>4</sup> De Landsheere, V. (1992). L'éducation et la formation. Paris : Presses universitaires de France, coll. « Premier cycle ». P 478

وتنقسم المؤشرات التعليمية إلى أنواع متعددة؛ منها هذه الأربعة:

- مؤشرات السياق: إنّ السياق هو الموقف الذي يحدث فيه التعلم. وثمة أربعة مستويات في هذا الإطار، وهي: أولاً- المتعلم من حيث إمكانياته على اختلافها؛ ثانياً- الفصل الدراسي من حيث أوجه التفاعل بين المدرس والمتعلم ووقت التدريس ومستوى التكنولوجيا في الفصل... ثالثاً- المدرسة من حيث تسييرها الإداري والتربوي؛ رابعاً- المجتمع من حيث وضعه الاقتصادي والاجتماعي وغير ذلك.

- مؤشرات المدخلات: وهي التي تتعلق بالموارد البشرية والمادية والمالية الداخلية لنظام التعليم.

- مؤشرات العمليات: وهي كل التفاعلات المادية والبشرية داخل النظام التعليمي.

- مؤشرات المخرجات: وهي المؤشرات المرتبطة بالنتائج النهائي للنظام التعليمي؛ مثل تحصيل التلاميذ.

وميز ديبوفيس<sup>1</sup> بين "مؤشرات الوضعية" ("معدلات التمدد" على سبيل المثال)، و"مؤشرات النمو" (مثل: تزايد أعداد المتدربين)، و"مؤشرات الوسائل" (كحصة الإنفاق على التعليم من ميزانية الدولة)، وتلك الخاصة بـ"العمليات" (من قبيل "مؤشرات الحياة المدرسية": معدل الرسوب، والتسرب المدرسي، والانتقال من سلك دراسي إلى آخر)، وكذا بـ"النتائج" (نذكر، على سبيل المثال، مؤشرات تقييم كفايات التلاميذ البالغين من العمر 15 عاماً في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية).

وقدم المركز الوطني للإحصاء التربوي<sup>2</sup>، ومكتب التربية الأمريكي، قائمة بالمؤشرات التعليمية، التي قد تسهم في تقويم أداء المؤسسات التعليمية، وهذه القائمة تحتوي على: معدل غياب التلاميذ، عدم التزام المعلم بالجدول المدرسي؛ تحصيل التلاميذ؛ حجم الفصل؛ النسب المئوية لتمكّن التلاميذ من المقررات الدراسية؛ مستوى تعليم الأم؛ مستوى تعليم الأستاذ؛ مستوى خبرة الأستاذ؛ معدل إكمال المقررات الدراسية؛ معدل التخرج؛ معدل الرسوب؛ معدل استبقاء الأستاذ؛ النسبة المئوية لإمكانيات المدرسة؛ النسب المئوية لاستقبال التلاميذ لخدمات متنوعة.

<sup>1</sup> Debeauvais, M. (2002). Indicateur. In D. Groux, S. Perez, L. Porcher, V.D. Rust & N. Tasaki, Dictionnaire d'éducation comparée. Paris : Le Harmattan. P 312

<sup>2</sup> National Center for Education Statistics (NCES), U.S. Department of Education (2010). The Condition of Education. U.S. Government Printing Office. P 20

من المؤشرات التعليمية التي استخدمتها ولاية فلوريدا<sup>1</sup>؛ لتقويم الأداء التعليمي لمدارسها، معدل تسجيل التلاميذ، معدل حضور التلاميذ، معدل التخرج، حجم الفصل، معدل الالتحاق بالمدارس العليا في تخصصات الرياضيات والعلوم الاجتماعية واللغة الإنجليزية، الغلاف الزمني اليومي المخصص لتدريس المواد المذكورة، عدد التلاميذ بالنسبة إلى كل مدرّس، النفقات الإجمالية المرصودة للتعليم، ومتوسط مرتّبات الأساتذة والإداريين.

واستخدمت المدارس الثانوية بفرنسا<sup>2</sup>، من جهتها، نظاما للمؤشرات التعليمية لتقويم الأداء الداخلي للمدرسة؛ كما يأتي: أولا- مؤشرات العمليات، وتتمحور حول المناخ الدراسي، والخدمات المقدمة بالمدرسة، وأوضاع التلاميذ؛ ثانيا- مؤشر السياق المحلي، وينقسم إلى مؤشر أول حول البنية الاجتماعية والاقتصادية، وإلى ثانٍ يقيس مدى اندماج المدرسة في محيطها، من خلال الشراكات مع الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين؛ ثالثا- مؤشرات النتائج المرتبطة بتحصيل التلاميذ، والعوامل المؤثرة فيه.

### ثانيا- تقييم المؤسسة التعليمية بالمغرب: أنواعه والجهات القائمة به

لنستطع الحديث عن عملية تقييم المؤسسات التعليمية وأنواعها، والجهات القائمة به، لا بد أولاً من التأكيد على أن التقييم، بشكل عام، عملية يسبقها افتحاص عام لأداء هذه المؤسسة. وهكذا، فإن تحليل عناصر هذا المحور يفرض علينا الوقوف على هذين المفهومين بيانا وتقسيما وتفسيرا، وهو ما سنعمد إليه من خلال العناوين الفرعية الآتية:

#### 1- مفهوم "الافتحاص"، وعلاقته بالتقييم:

يعرّف الباحث حسن موهوب الافتحاص، في مفهومه العام والواسع، بوصفه "من الآليات الرقابية الحديثة، التي أنتت أكلها في مجموعة من الدول في عدة إدارات، خاصة وعامة؛ حيث انعكس على أنماط التصور التقليدي للدولة ولأدوارها، وكان لها الوقع الكبير في إصلاح أسس وقواعد مشروعاتها، وطبيعة علاقتها مع مختلف مكونات المجتمع"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> Florida Department of Education (2024). 2023-24 Guide to Calculating School Grades, District Grades, and the Federal Percent of Points Index. P 5

<sup>2</sup> Ministère de l'Éducation Nationale (2023). Les indicateurs de performance des lycées: Bilan et perspectives. Paris : Direction de l'Évaluation, de la Prospective et de la Performance (DEPP).

<sup>3</sup> موهوب، حسن. 2022. الافتحاص الداخلي ومطلب الارتقاء بالتدبير العمومي الجديد. مجلة القانون والأعمال الدولية، مج. 2022، ع. 42، ص. 287.

وبهذا، يكون الافتتاح، بالإضافة إلى ما سبق، "منهجاً مميزاً للتحليل، يهدف إلى الكشف عن الاختلالات داخل الإدارة، دون أن يكتسب صفة زجرية، باعتباره محركاً تقويمياً لمختلف مكونات التنظيم البنوي للإدارة؛ حيث يساعد المسؤولين على اتخاذ القرار الملائم، من خلال اقتراحاته وتوصياته. فالافتتاح الداخلي، أو التدقيق، عملٌ يهدف إلى تقويم بنيات الرقابة الداخلية، وفتح مرجعيات علمية ومهنية؛ من أجل الوقوف على الخلل الذي تعاني منه المنظمة أو المؤسسة، في كافة المجالات؛ وذلك لأجل السيطرة عليها، والتنبؤ بمخاطرها وتطورها".

وأما الافتتاح في المجال التربوي، فلا يكاد يخرج عن أهدافه العامة؛ إذ ترى الباحثة فاطمة حسيني أنه يُلجأ إليه للرفع من مستوى أداء المؤسسة، والارتقاء بالشأن التربوي والبيداغوجي داخلها، وتحقيق الجودة فيها؛ مما يتطلب نظاماً شاملاً للافتتاح<sup>1</sup>، وإن كان مضمون كلامها غير دقيق، ولا واضح، في تحديد مفهوم "الافتتاح التربوي"؛ لكونه يستند - في الأساس - إلى توصيات تدعو إلى ضرورة إحداث نظام شامل للافتتاح، واعتماد مرجعيات قانونية، وتفعيل عملية التخطيط الاستراتيجي، وتحديد إطار مرجعي للمهام والاختصاصات التي يقوم بها المفتاحون، بما يفيد قصور الدراسات التي تُعنى بالشأن التربوي ببلادنا في مجال إعداد تصور منهجي وعملي دقيق لعمليات الافتتاح في هذا الصدد. إلا أن العمليات والتوصيات، المُشار إليها من قبل الباحثة، يمكنها أن تسهم، بشكل فعال، في سدّ الخصاص القائم في هذا الشأن.

إن الافتتاح الداخلي آلية فعالة في المجال التربوي، من شأنها أن تعمل في اتجاهين متوازيين، أولهما التنبيه على بعض ما يمكنه أن يسير بالمؤسسة نحو الفشل في هدفها العام، أو في مجموعة من الأهداف، كما يمكنه أن يثمن الجهود الناجحة، ويخرج بتوصيات واقتراحات عملية لتطوير العمل وتجويده. وكلا الاتجاهين يرسم خارطة طريق المؤسسة التربوية نحو الريادة.

## 2- التقييم الذاتي/ الداخلي:

### أ- مفهوم التقييم الذاتي:

ورد لدى الدكتور مايكل ويرد أنّ التقييم الذاتي يقتضي "مشاركة المتعلمين في إصدار أحكام حول إنجازاتهم، ونتائج تعلمهم". ثم يعقب على التعريف بقوله: "وهو نهج قيّم لدعم تعلم الطلاب، ولا سيما عند استخدامه بشكل منسّق. ويدعم التقييم الذاتي تعلم الطلاب، ويعد من أهم المهارات

<sup>1</sup> فاطمة حسيني، الافتتاح ودينامية الفعل التربوي، مجلة "علوم التربية"، الرباط، ع. 51، مارس 2012، ص. 95-96.

التي تساعد الطلاب من أجل التطوير المهني في المستقبل والتعلم مدى الحياة؛ لأنه يطور قدرتهم على أن يكونوا خبراء في التعلم"<sup>1</sup>.

ومن خلال مجموعة من المراجع، التي تعنى بعملية التقييم، فإننا نجد، ها هنا، استعمال مصطلحين، هما: "التقييم الذاتي" و"التقييم الداخلي"، غير أن كثيرا من الدراسات لا تميز بينهما، بل تستعملهما بمفهوم واحد؛ مثلما فعل كلٌّ من رؤوف الجزيري وعادل بوزيان، اللذين درسا التقييم الداخلي لأداء الجامعات بتونس؛ فخلّصا إلى أن "التقييم يمكن أن يكون تقييما داخليا أو ذاتيا، وهو تحليل دقيق لأداء مؤسسة تعليمية معنية"<sup>2</sup>. إلا أننا حين ندقق أكثر في المفهوم الخاص بكل مصطلح، نجد أن المقصود بالتقييم الذاتي هو تقييم الفرد لذاته وأدائه، بينما التدقيق الداخلي يقوم به فريق عمل متكامل، أو لجنة تقوم بدراسة جودة أداء مؤسسة معينة. وهو ما يؤكدانه، كذلك، في قولهما: "(...) علاوة على ضرورة إشراك جميع الجهات المعنية"<sup>3</sup>.

مما سبق، يمكن أن نتفق على استعمال المصطلحين بكثير من التداخل والتقارب؛ ذلك أن التقييم الذاتي جزء لا يتجزأ من التقييم الداخلي، باعتبار الأول إجراءً مصاحبا دائما لكل العمليات والأنشطة والمشاريع التعليمية، في حين أنّ الثاني يمكن أن يكون موسميا، أو عملا بأمر إداري، بما تفرضه مراقبة الأداء والجودة وتقييمهما للنظر في مدى تحقق الأهداف للمؤسسة المراد تقييمها.

لقد تم تطوير مفهوم آخر للتقييم من قبل Glenda Jordan، سنة 1995، وهو الذي ترى فيه أن التقييم الذاتي للرقابة يراد به "المؤسسات التي تقوم باستخدام التقييم الذاتي من خلال استخدام نماذج تقييم موثقة؛ بحيث تمكن الإدارة أو فرق العمل أو كليهما من الدخول مباشرة في العمليات التشغيلية؛ بهدف الحكم على مدى فاعلية العمليات، والتأكد مما إذا تم تقديم تأكيد معقول بأنّ الأهداف التشغيلية قد تم تحقيقها بشكل كامل أو جزئي"<sup>4</sup>. ويمكننا، من خلال هذا التعريف، القياس على مفهوم يناسب التقييم الذاتي لأداء التعلّمات، فنقول إنه عملية يجب أن

<sup>1</sup> هدى العليوي، ترجمة "دليل التقييم الذاتي للمتعلم والمعلم" لمايكل ويرد، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1440هـ، ص: 4.

<sup>2</sup> رؤوف الجزيري وعادل بوزيان، التقييم الداخلي لمؤسسات التعليم العالي: التجارب المقارنة ودراسة بعض الحالات (وثيقة عمل)، من منشورات جامعة سوسة/ تونس، ماي 2016، ص: 3.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 6.

<sup>4</sup> - زاهي الرماحي، مفهوم التقييم الذاتي للرقابة CSA، ضمن كتاب "الاتجاهات الحديثة في التدقيق الداخلي وفقاً للمعايير الدولية"، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، ص: 358 - 360.



يشترك فيها المتعلم والمدرس والإدارة والمفتش وجميع الإدارات المسؤولة، بشكل مباشر، عن قطاع التعليم؛ من أجل تطوير العمل، وإنجاحه، وتحقيق أهدافه.

### ب- الجهات القائمة بالتقييم الذاتي:

بناء على التعريفات السابقة، وغيرها مما لم نذكره، ها هنا، بغية الاختصار، فإن الجهات المسؤولة عن القيام بالتقييم الذاتي في المنظومة التربوية تبدأ من المتعلم لتصل إلى أعلى سلطة مسؤولة عن القطاع، وهي الوزارة بجميع هيكلها، كل في دائرة اختصاصه، مروراً بالمدرس والإدارة وباقي البنيات الإدارية الإقليمية والجهوية. وما لم يتم إشراك الجميع في عملية التقييم، فإن نتائجه لن تعكس الحقيقة، مهما توسلت بسبل الإنصاف والشفافية والموضوعية. وأما الاختصار على جهة دون أخرى في عملية التقييم، فإنه لن يسهم في أي تطوير للعملية التربوية. وبما أن قضية التربية والتعليم قضية الجميع، فلا بد من أخذ مشاركة وتقييم الجميع بعين الاعتبار والتقدير.

### ج- التقييم الذاتي: مزاياه وعيوبه

بما أن عملية التقييم، بشكل عام، عمل بشري، فإن له مزايا، كما قد تعثره عيوب. وسنحاول ذكر بعض ذلك في الجدول الآتي:

عيوب التقييم الذاتي	مزايا التقييم الذاتي
الذين يقومون بالتقييم الذاتي أقل خبرة من غيرهم من المتخصصين في هذا المجال.	من حيث التكلفة، هو أقل تكلفة من التقييم الخارجي.
قلة أو انعدام الاستقلالية والموضوعية في التقييم.	إنه أوضح وأدق.
الوقوع تحت تأثير الخوف من جلد الذات، والمبالغة في النقد.	تتسم مخرجاته بالجديّة والصرامة.
صعوبة الوصول إلى بعض المعلومات وتحليلها؛ خوفاً من الرؤساء المباشرين ممن هم أعلى سلطة.	يؤثر في أفراد المؤسسة التي يتم تقييمها؛ بحيث إنه يكون أقوى وقعاً على النفوس.

### 3- التقييم الخارجي:

#### أ- مفهوم التقييم الخارجي:

يرى بعض الباحثين أن التقييم الخارجي "جزء غير منفصل من عملية التقييم في مجملها. وينطوي على عمل فريق مهني خارج المؤسسة؛ لمراجعة تقرير التقييم الذاتي، وجميع المعلومات

والبيانات والتحليلات التي اعتمد عليها هذا التقرير، ومقاربة ما تم إنجازه من المعايير المتبعة دولياً، وإسداء النصائح والتوصيات للتحسين والتطوير".<sup>1</sup>

فمن خلال هذا التعريف، نستنتج أن التقييم الخارجي لا ينفصل عن الداخلي أو الذاتي، إلا من حيث الفريق الساهر عليه؛ إذ يقوم به، هنا، فريق عمل من خارج المؤسسة؛ أي ليس من الجسم المؤسساتي نفسه، كما يميزه من نظيره الذاتي كونه رقيباً ومراجعاً للتقرير الذاتي؛ فهو، إذًا، يحمل سلطة نوعية أعلى من سلطة القائمين بالتقييم الداخلي.

#### ب- الجهات القائمة بالتقييم الخارجي:

تقوم جهات عدة بهذا التقييم، منها ما أنشئ خصيصاً لهذا الغرض، ومنها مراكز ومؤسسات تتمتع بخبرة كبيرة في مجال تقييم الأداء والجودة. كما أن منها ما هو تابع للدولة، ومنها مكاتب دراسات خاصة.

وبالنسبة إلى بلادنا، فإن "المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي" هو الذي يقوم بهذه العملية، بوصفه "فضاء ديمقراطياً، يزواج بين التمثيلية والتخصص، ويؤدي رأيه في السياسات العمومية والقضايا الوطنية، التي تهم التعليم والتكوين والبحث العلمي. وليُسهم في تقويم السياسات والبرامج العمومية في هذه الميادين، فإن الحكومة تلتزم بالتفعيل الأمثل والسريع لهذه المؤسسة الدستورية؛ قصد تمكينها من مباشرة مهامها في أقرب الآجال الممكنة، بتنسيق وتعاون مع القطاعات الحكومية المكلفة بالتربية والتكوين والبحث العلمي".<sup>2</sup> كما أن بلادنا تستعين بمجموعة من الخبرات الوطنية والدولية في هذا المجال، إلا أننا لا نجد هيئة تابعة للوزارة الوصية على حقل التعليم المدرسي! على غرار ما تم إحداثه على مستوى التعليم العالي؛ حيث صدر في "الجريدة الرسمية" بالمغرب، العدد 6283، الصادر بتاريخ 21 شوال 1435هـ الموافق لـ 18 غشت 2014م، ظهير شريف، رقم 1.14.130، صادر في 3 شوال 1435هـ/ 31 يوليوز 2014 بتنفيذ القانون رقم 80.1، المتعلق بالوكالة الوطنية لتقييم وضمان جودة التعليم العالي والبحث العلمي، التي عُهد إليها بـ "مهمة القيام، لحساب الدولة، بعمليات تقييم التعليم العالي والبحث العلمي من أجل ضمان الجودة".

<sup>1</sup> دليل إرشادي لتقييم البرامج التعليمية الفاعلة في مؤسسات التعليم العالي الفلسطينية وإعداد التقارير الخاصة بها، الهيئة الوطنية للاعتماد والجودة والنوعية لمؤسسات التعليم العالي، من منشورات وزارة التربية والتعليم العالي بفلسطين، 2010، ص: 9.

<sup>2</sup> البرنامج الحكومي، المغرب، يناير 2012، ص: 64.

ولهذه الغاية، تضطلع الوكالة بما يلي:

- تقييم مؤسسات التعليم العالي العام والتعليم العالي الخاص، ومؤسسات البحث العلمي، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصية كل مؤسسة، ولأسيما مشاريعها البيداغوجية والعلمية؛

- دراسة وتقييم مسالك التكوين قصد الحصول على الاعتماد أو تجديده؛

- تقييم أنشطة مراكز الدراسات في الدكتوراه، وإعداد حصيلة تكوينات وأعمال البحث المنجزة بها؛

- تقييم البحث العلمي، وفعالية بنياته؛

- تقييم برامج ومشاريع التعاون الجامعي في ميدان التكوين والبحث العلمي<sup>1</sup>.

وهذا ما نجده، أيضا، في تونس؛ بحيث ينظم المشرع التونسي كيفية تقييم مؤسسات التعليم العالي، ويحدد مفهومه بالقانون عدد 91 لسنة 5002، المؤرخ بـ 52 فيفري 2005، الذي أكد، في فصله الـ 29، أن التقييم يمثل آلية أساسية لتحقيق الأهداف المرسومة لقطاع التعليم العالي<sup>2</sup>.

### ج- التقييم الخارجي: مزاياه وعيوبه

وأما مزايا التقييم الخارجي وعيوبه، قياسا على ما تم التطرق إليه في التقييم الذاتي، فإننا نضمّمها الجدول الآتي:

مزايا التقييم الخارجي	عيوب التقييم الخارجي
يتمتع التقييم الخارجي باستقلالية أكبر. يتمتع بالحرية الكاملة في إبداء ملاحظاته؛ لكون فريقه غير مرفوس من قبل الجهة أو المؤسسة المراد تقييمها.	1. صعوبة فهم كيفية عمل المؤسسة تأتي بنتائج تقييم غير سليمة أحيانا. 2. عدم الإلمام بالبرامج والمناهج، التي تعمل بها المؤسسة، يُصعّب عملية التقييم الموضوعية.

<sup>1</sup> ظهير شريف رقم 1.14.130 صادر في شوال 1435 (31 يوليو 2014) بتنفيذ القانون رقم 80.12 المتعلق بالوكالة الوطنية لتقييم وضمان جودة التعليم العالي والبحث العلمي، منشور في "الجريدة الرسمية"، عدد 6283، الصادر بتاريخ 21 شوال 1435 هـ الموافق لـ 18 غشت 2014م، المادة 3.

<sup>2</sup> رؤوف الجزيري وعادل بوزيان، التقييم الداخلي لمؤسسات التعليم العالي: التجارب المقارنة ودراسة بعض الحالات: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، م. س، ص: 7.

مزايا التقييم الخارجي	عيوب التقييم الخارجي
أعضاء فريق التقييم الخارجي غالبا ما يتمتعون بخبرة أكبر، وأكثر دقة وتخصصا.	3. صعوبة إشراك المعنيين المباشرين في عملية التقييم.
لا تقيد عمل أعضاء فريق التقييم الخارجي أي قيود أو ضغوط.	4. غياب رؤية مشتركة بين جميع الأطراف.
	5. احتمال وقوع أعضاء فريق التقييم الخارجي تحت ضغوطات سياسية أو ظرفية...

### ثالثا- واقع تقييم المؤسسات التعليمية بالمغرب:

#### 1- واقع التقييم الذاتي/ الداخلي:

تقييم المؤسسات التعليمية يُعتبر جزءاً أساسياً من الرؤية الاستراتيجية لإصلاح التعليم 2015-2030 في المغرب، التي أطلقها المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي. تهدف هذه الرؤية إلى تحسين جودة التعليم والارتقاء بمستوى المؤسسات التعليمية في مختلف المستويات. دعت الرؤية الاستراتيجية إلى تطوير إطار التقييم؛ مما يدل على الوعي السياسي بأهميته لنجاح الإصلاحات والأوراش المفتوحة الآن، وذلك من خلال إنجاز تقييم شامل لصيرورة الإصلاح ونتائجه؛ حيث خصص القانون الإطار 17/51 باباً لـ "تقييم منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، والإجراءات المواكبة لضمان الجودة". وتهم عملية التقييم، كما نصت عليها المادة 55 من الباب التاسع: "قياس مستوى أداء أجهزة إدارة مؤسسات التربية والتعليم والتكوين والبحث العلمي، ومنظومة التدبير المطبقة بهذه المؤسسات، ومدى نجاعة الأجهزة المذكورة وقدرتها على تحقيق الأهداف والمهام الموكولة إليها".

وفي هذا السياق، تتولى المفتشية العامة المكلفة بالشؤون التربوية تقييم الجوانب التربوية، واقتراح التدابير اللازمة من أجل التحسين والتطوير؛ وذلك من خلال إعداد تقارير دورية منتظمة لتقييم الهندسة البيداغوجية، ورصد واقع تدريس مختلف المواد الدراسية حسب الأقطاب (قطب اللغات، قطب الرياضيات، قطب التنشئة الاجتماعية والتفتح)؛ بالتركيز على ما يقع فعليا داخل الفصول الدراسية، وذلك باعتماد نموذج للتقييم<sup>1</sup>. ولهذا الغرض، تم إعداد دليل إجرائي كأداة لمصاحبة الفاعلين الممارسين في الميدان في توحيد منهجية إعداد التقارير الدورية لتقييم عناصر الهندسة البيداغوجية والمواد الدراسية، والوقوف على مستوى التحصيل الدراسي بالمستويات الإشهادية، انسجاما مع مستلزمات رؤية 2030، وتفعيلا لمقتضيات القانون الإطار

<sup>1</sup> المفتشية العامة للتربية والتكوين - الشؤون التربوية - دليل تقييم عناصر الهندسة البيداغوجية، صيغة دجنبر 2020.

17/51، وذلك بتنسيق مع المكلفين بالتنسيق الجهوي التخصصي، ورؤساء أقسام الشؤون التربوية بالأكاديميات الجهوية.

وتشرف المفتشية العامة للشؤون الإدارية على عمليات افتتاح المصالح الإدارية والمالية، والمصالح المكلفة بتدبير الموارد البشرية للوزارة، والمصالح الخاضعة لوصايتها، ومن بينها طبعاً المؤسسات التعليمية. كما يمكن للمفتشتين التربوية والإدارية القيام بدراسات وأنشطة مشتركة، في إطار برنامج عمل موحد متكامل، يتفاعل فيه الإداري والمالي والمادي خدمةً للتربوي.

وعلى مدى السنوات العشر الماضية، أنشأ المغرب هياكل أخرى مخصصة للتقييم، ولاسيما تعزيز دور الافتتاح؛ من خلال إحداث الوحدات الجهوية للافتتاح، على مستوى كل أكاديمية<sup>1</sup>، التي تتولى القيام بتدقيق وتقييم تدبير مصالح الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين ومصالحها الإقليمية؛ من أجل الوقوف على الواقع الفعلي لسير التربوي والإداري لمختلف البنيات والمؤسسات التربوية، بناءً على استمارات تهم جوانب أساسية: التربوية والمالية والإدارية؛ من أجل قياس مؤشرات الأداء، أو مؤشرات الإنجاز، ومؤشرات الفعالية.

إن استحضار الدور المحوري للمؤسسات التعليمية، كمنطلق لكل إصلاح، من أولويات عملية الافتتاح؛ من أجل تقديم المشورة والبدائل الكفيلة بتطوير القدرات التديرية، والمواكبة الواعية للمشاريع التربوية للمؤسسات. وقد أولى المرسوم الجديد رقم 24-140-2 الصادر في 13 من شعبان 1445 (23 فبراير 2024) في شأن النظام الأساسي الخاص بموظفي الوزارة المكلفة بالتربية الوطنية، أهمية واضحة لعملية الافتتاح؛ فلم يقتصر على تنسيق التفتيش، بل تم التنصيص عليه ضمن مهام هيئة التفتيش والتأطير والمراقبة والتقييم<sup>2</sup>. وتجدر الإشارة، هنا، إلى الدراسة المتعلقة بـ"تحليل نظام التقويم التربوي بالمغرب"، التي أشرف المركز الوطني للتقويم والامتحانات والتوجيه على إنجازها، وقد تمحورت حول أربعة أبعاد، متعلقة بنظام التقويم، هي: تقويم المتعلمين، وتقويم المدرسين، وتقويم المؤسسات التعليمية، ثم تقويم المنظومة التربوية. وقدّمت تقييماً بنوياً وتفاعلياً بين هذه الأبعاد الأربعة، وبلّورت مجموعة من التوصيات الرامية إلى تطوير الإطار الوطني للتقويم، وذلك حسب الأبعاد والمكونات سالف الذكر<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> [https://www.men.gov.ma/Ar/Documents/Arrete\\_01.16\\_AREFTTH.pdf](https://www.men.gov.ma/Ar/Documents/Arrete_01.16_AREFTTH.pdf)

<sup>2</sup> المرسوم رقم 24-140-2 صادر في 13 من شعبان 1445 (23 فبراير 2024) في شأن النظام الأساسي الخاص بموظفي الوزارة المكلفة بالتربية الوطنية.

<sup>3</sup> <https://www.men.gov.ma/Ar/Documents/Communiqu%C3%A9AnalyseEvaluation.pdf>

## 2- واقع التقييم الخارجي:

من بين الهياكل التي تعنى بالتقييم التربوي، أيضا، نجد الهيئة الوطنية للتقييم (INE)؛ حيث يمكن اعتبارها مؤسسة للتقييم الخارجي للنظام التعليمي<sup>1</sup>، وهي تضم الأقسام والوحدات الدائمة الآتية:

1. شعبة النمذجة والأبحاث والتحليل الإحصائي؛
  2. شعبة تقييم البرامج ومكتسبات التلاميذ؛
  3. شعبة تقييم الخدمات المقدمة للمتعلمين، ومحيط منظومة التربية والتكوين؛
  4. شعبة تقييم السياسات العمومية، ومؤسسات التربية والتكوين؛
  5. شعبة تقييم البحث العلمي.
- وتنظم كل شعبة من شعب الهيئة على شكل وحدات ومشاريع. ولضمان سير مهامها على نحو جيد، تعتمد الهيئة على خبراء ومقيمين، وعلى مكلفين بالدراسات في بعض الحالات.

## 3- آليات أخرى للتقييم :

وبالإضافة إلى هذه القاعدة المؤسساتية، التي يجري تطويرها حاليًا، قدم المغرب أدوات واعدة لدعم التقييم؛ فمثلا، يوفر البرنامج الوطني لتقييم مكتسبات التلاميذ (PNEA)، الذي تم الشروع فيه منذ سنة 2008، بيانات وطنية مقارنة عن تعلم التلاميذ. وهناك، أيضا، برنامج تقويم مستلزمات التلاميذ (PEP)، الذي يُجرى بداية كل سنة دراسية، وهو اختبار تشخيصي تُبنى على إثره أنشطة الدعم والتقويم. وساعد إنشاء قاعدة البيانات التعليمية "مسار"، في عام 2013، على تعزيز نظام المعلومات والإدارة المدرسية.

## 4- التقييم الذاتي للمؤسسة التعليمية في إطار استراتيجية "مشروع المؤسسة":

إن آلية مشروع المؤسسة، الذي يستجيب لحاجاتها ذات الأولوية، والذي يتم اقتراحه بناء على تقييم أداؤها، وينجز خلال ثلاث سنوات (على المدى المتوسط)، يعد كذلك خطوة إيجابية نحو تعزيز قدرات التقييم الذاتي للمدارس. وفي هذا الإطار، تبنت وزارة التربية الوطنية آلية مشروع المؤسسة لتأطير التدبيرين الإداري والتربوي للمؤسسات التعليمية، ومن أجل "إرساء استقلالية مؤسسات التربية والتكوين والبحث العلمي، باعتماد مشروع المؤسسة أساسا لتنميتها المستمرة،

<sup>1</sup> المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، مهام الهيئة الوطنية للتقييم، النص التنظيمي رقم 12.105.

وتدبيرها الناجع"<sup>1</sup>، وذلك في إطار توجيهها إلى اللامركزية واللامركز، بوصفهما خيارا يجعل من المؤسسة نقطة ارتكاز للمنظومة التربوية. وقد نضج هذا التصور عبر سنوات ومراحل، قبل أن يصل إلى مفهومه الحالي:

**مرحلة التجريب:** امتدت من 1994 إلى حدود نهاية 2007، وعرفت إصدار المذكرة 73 بتاريخ 12 أبريل 1994، والمذكرة 27 بتاريخ 24 فبراير 1995، في شأن دعم التجديد التربوي في المؤسسات التربوية، حيث تم الاشتغال على موضوعات معينة مثل تمدرس الفتاة، شبكة الجودة، ملائمة البرامج، والتعبئة الاجتماعية، الدعم التربوي... وشملت التجربة بعضا من الأكاديميات، وبعض النيابات داخل تلك الأكاديميات، وبعض المؤسسات التعليمية داخل تلك النيابات.

**مرحلة الإغناء والتطوير:** من 2008 إلى 2012، وخلال هذه المرحلة، تم توحيد الرؤى، وتطوير وإرساء العمل بمشروع المؤسسة. ونسجل، هنا، صدور العديد من المذكرات، منها المذكرة 121 بتاريخ: 31 غشت 2009 في موضوع مشروع المؤسسة، ثم المذكرة 125 الصادرة في فاتح شتنبر 2011 في موضوع الاستراتيجية الوطنية لتعميم مشروع المؤسسة.

**مرحلة التعميم:** من 2013 إلى 2018؛ حيث تم تعميم منهجية العمل بالمشروع من خلال PAGESM2 وPEEQ3. كما صدرت المذكرة 159/14 في شأن أجراً الاستراتيجية الوطنية لمشروع المؤسسة، بتاريخ 25 نونبر 2014، باعتماد منهجية EPAR4؛ أي التشخيص، فتحديد الأولويات، ثم الأجرأة، مع ضرورة التقويم والتتبع في نهاية كل سنة دراسية.

**مرحلة توسيع المفهوم والتثبيت:** منذ 2019، وقد عرفت إصدار المذكرة 087/21 في شأن تعميم العمل بالمشروع المؤسسة المندمج وفق منهجية DEPART5، بتاريخ 6 أكتوبر 2021، والمذكرة 15/22 في شأن تأطير دمج مكون التوجيه المدرسي والمهني ضمن مشروع المؤسسة، بتاريخ 9 مارس 2022.

<sup>1</sup> القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، المادة 40، ص 23.

<sup>2</sup> Projet d'appui à la gestion des établissements scolaires au Maroc

<sup>3</sup> Promouvoir l'éducation avec équité

<sup>4</sup> Etat des lieux, Priorisation, Action, Régulation

<sup>5</sup> Départ, Etat des lieux, Priorisation, Actions, Réajustement, Transition

وأخر تطعيم عرفه مشروع المؤسسة هو تعديل الأهداف بشكل يتماشى مع خريطة الطريق<sup>1</sup> 2022-2026؛ حيث صدرت المذكرة الوزارية 14/24 بتاريخ 6 فبراير 2024 وتم تبني تحسين جودة التعليمات، وتعزيز فرص التفتح وتحقيق الذات، والرفع من درجة الاحتفاظ بالمتعلمين والمتعلمين، كأهداف أساسية كبرى لمشروع المؤسسة.

إن مشروع المؤسسة يعد آلية أساسية في التقويم الذاتي للمؤسسة التعليمية؛ لأنه ينبني على أولويات، تضعها المؤسسة حسب خصوصياتها؛ من حيث الموارد المادية والبشرية، أو من حيث بيئتها السوسيو ثقافية.. هذه الأولويات تسطر على شكل أهداف إجرائية قابلة للتنزيل من جهة، وللقياس من جهة أخرى؛ إذ إن فريق قيادة المشروع، الذي يتكون من أعضاء من المؤسسة، يتخذ المعايير والمؤشرات الواردة ضمنها في الأهداف المسطرة مرجعا لعمليات التقييم والتعديل، التي يخضع لها المشروع بشكل دوري طوال الثلاث سنوات أو في نهايتها؛ بحيث إن صيرورة مشروع المؤسسة، بصيغته الحالية، تستثمر تقويما يشخص واقع حال المؤسسة، وتخضع لحلقة محورية مستمرة، هي التقويم والتعديل والتصويب.

وتتم عملية التقييم الذاتي للمؤسسات التعليمية، بالاعتماد على مشروع المؤسسة، بناء على معايير ومؤشرات تم تدقيقها وتحيينها تماشيا مع خارطة الطريق؛ حيث تم تحديد عشرة معايير لمؤسسات التعليم الابتدائي (المذكرة 14/24 بتاريخ 6 فبراير 2024، في شأن مشروع المؤسسة المندمج بمؤسسات التربية والتعليم)، في حين أضيف واحد لمؤسسات التعليم الثانوي بسلوكيه، هو "معيار التوجيه المدرسي والمهني"، ليصل العدد إلى أحد عشر معيارا، تتوزع على ثلاثة محاور؛ كالآتي:

المحور الأول: المؤسسة التعليمية	المحور الثاني: الأستاذ
المعيار الأول: البنية التحتية؛ المعيار الثاني: الأمن والنظافة؛ المعيار الثالث: القيادة وتدبير المؤسسة.	المعيار الرابع: الوسائل التعليمية؛ المعيار الخامس: التكوين المستمر.

<sup>1</sup> خارطة الطريق 2022-2026 من أجل مدرسة عمومية ذات جودة



المحور الثالث: التلميذ	
المعيار التاسع: الدعم الاجتماعي والنفسي والصحي؛ المعيار العاشر: العلاقة مع أمهات وآباء وأولياء التلاميذ.	المعيار السادس: الزمن المدرسي؛ المعيار السابع: الدعم التربوي ومعالجة التعثرات؛ المعيار الثامن: الأنشطة الموازية؛

وجديرٌ بالذكر أنه، بعد سنوات من اعتماد هذه الآلية عمليا، يواجه مشروع المؤسسة اليوم العديد من الإكراهات على مستوى التنزيل؛ الشيء الذي يدعو إلى التساؤل عن أسباب تعثر هذا الخيار التدييري للمؤسسات؛ هل السبب راجع إلى مقاومة التغيير، وتشبُّث الممارسات المهنية بنمط التسيير المركزي، المعتمد على التنفيذ والتقويم الخارجي، أم إنه خلل في التكوين من حيث الكم والكيف، أم إن مردّه إلى وجود نقص في الموارد المادية والبشرية، وغموض في المهام والاختصاصات، أم إن السبب يعود إلى عدم مأسسة هذا النوع من التدبير والتقويم بالشكل المناسب، والاعتماد - بالمقابل - على مبدأ التطوع، دون اقتطاع زمن قيادة المشروع من ساعات عمل الفاعلين فيه؟

إنّ هذه التساؤلات تكتسب مشروعيتها من واقع التقييم في منظومتنا؛ إذ إنه، على الرغم من كل هذه الجهود المبذولة، تبقى الحاجة ماسّة إلى التركيز على تعلمات التلاميذ، وتوضيح مسؤوليات كل من المدرسين والمدارس والسلطات التعليمية في شؤون التعليم والتعلم. وفي الوقت نفسه، فإن وضع أهداف قابلة للقياس، وإطار للتخطيط الاستراتيجي على المستوى الوطني، من شأنه أن يسعف على تماسك السياسات، ويدعم استدامة الإصلاحات، مع تعزيز قدرة الحكومة على توجيهها.

ومن الضروري، أيضا، تعزيز القدرة على التقييم؛ ففي الوقت الحالي، لا يملك غالبية المدرسين والمديرين والمفتشين الوسائل اللازمة لتقييم عمليات التعلم ونتائجه بشكل فعال، علما بأنّ ذلك يتطلب استثمارًا أكبر في أدوات ملموسة لتوجيه الممارسة في المجالات الرئيسية؛ مثل كيفية تقييم مهارات التلاميذ، أو تقييم جودة التدريس وبيئة التعلم في الفصول الدراسية، كما يتطلب استثمارًا، على مدى طويل، لتطوير التكوين المستمر وفرص التكوين الأساس بشكل أفضل. وعلى وجه الخصوص، يحتاج المدرسون إلى الدعم لاستخدام التقييم للأغراض التكوينية، ويحتاج مديرو المدارس إلى المزيد من التدريب والتوجيه المهني، إن أرادوا تجاوز دورهم الإداري،

ليصبحوا مستشارين تربويين، قادرين على تقديم تصويبات منتظمة للمدرسين، حول ممارساتهم المهنية، وإجراء التقييمات الذاتية للمدارس. وأخيراً، يحتاج المفتشون التربويون، وكذا المسؤولون عن افتتاح المدارس، إلى التدريب والدعم لإعادة تركيز أنشطتهم لفحص ممارسات التدريس والتعلم، مع مدّ المدرسين بملاحظات هادفة ودقيقة حتى يتحسن أدائهم.

وتكشف نتائج التقييم عن نقاط القوة، والتحديات التي يواجهها نظام التعليم، بالإضافة إلى التوزيع المثالي للموارد؛ بحيث تسهم في تحسينه. ويمكن للمغرب أن يستفيد، بشكل أفضل، من استثماراته الأخيرة في نظام التقييم الخاص به؛ لتشكيل السياسات على المستويين الجهوي والوطني. وهذا مهم، بشكل خاص، في السياق الحالي، التي يعرف ضغوطاً قوية لإظهار نتائج أفضل؛ نظراً لارتفاع معدل الإنفاق العام على التعليم، ولتسريع تفعيل عملية اللامركزية في القطاع، وتحسين استجابة السياسات للاحتياجات المحلية.

## خاتمة:

تخضع المؤسسات التعليمية المغربية لتقويم ثنائي الأبعاد: خارجي تختص به بنيات وهيئات معينة، وذاتي منوط بالمؤسسة نفسها، يعكس سياسة اللامركزية واللامركز المتبناة في تدبير الشأن العام، بما فيه الشأن التعليمي. وكأي براديفم جديد في البنيات الفكرية والتدبيرية، يحتاج التأسيس لثقافة التقويم نفساً طويلاً، ووقتاً كافياً؛ لخلخلة التمثلات السابقة، وبناء أخرى جديدة. ورغم ما قد يشوب تقويم مؤسساتنا التعليمية من خلل أو تعثر، فإن العملية برمتها تستحق التثمين؛ حيث إن معدلات الإنفاق العام على المنظومة التربوية، وعلى المؤسسات التعليمية التي تعتبر قلبها النابض، والرهانات القائمة عليها، تُلبس عملية تقويمها أهمية كبرى، وتُكسبها مشروعيتها التامة.

إنّ هذا التثمين لا يمتنعنا من تقديم بعض التوصيات، التي تروم توفير بعض المقومات الأساسية لنجاح عملية تقويم المؤسسات التعليمية خاصة، والمنظومة التربوية عندنا عامة؛ كضرورة العمل على وضع دلائل مرجعية، مُبلّورة بشكل علمي، تفصّل المعايير والمؤشرات التي يتوجب اعتمادها في التقويمين الذاتي والخارجي لمدخلات المؤسسات التعليمية وعملياتها ومخرجاتها. تنضاف إلى ذلك الحاجة إلى تحديد المهام والوظائف المنوطة بكل بنية ومدجّل، والتدقيق فيها، دون إغفال أهمية وضع أسس قوية لترسيخ ثقافة التقويم؛ من خلال التكوين الأساس والتكوين المستمر لكل فاعل حسب موقعه، ومستوى تدخله، سواء كان مُقَوِّماً أو مُقَوِّماً، وعبر توفير تغذية راجعة للمجتمع وللرأي العام، بوصف التعليم شأنًا عامًا يُمُّ الجميع؛ وذلك بنشر خلاصات وتقارير جميع عمليات التقويم المنجزة، ولاسيما الذاتية منها؛ لفتح باب المُشاوَرات حولها...

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي.
- المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية 2015-2030.
- خارطة الطريق 2022-2026 من أجل مدرسة عمومية ذات جودة.
- المرسوم رقم 2-24-140 صادر في 13 من شعبان 1445 (23 فبراير 2024) في شأن النظام الأساسي الخاص بموظفي الوزارة المكلفة بالتربية الوطنية.
- المذكرة الوزارية 73 بتاريخ 12 أبريل 1994 في موضوع مشروع المؤسسة.
- المذكرة 27 بتاريخ 24 فبراير 1995، في شأن دعم التجديد التربوي في المؤسسات التربوية.
- المذكرة الوزارية 73 بتاريخ 20 ماي 2009 في موضوع إحداث جمعية دعم مدرسة النجاح بمؤسسات التربية والتعليم العمومي.
- المذكرة 121 بتاريخ 31 غشت 2009 في موضوع مشروع المؤسسة.
- المذكرة 125 بتاريخ فاتح شتنبر 2011 في موضوع الاستراتيجية الوطنية لتعميم مشروع المؤسسة.
- المذكرة 14/159 بتاريخ 25 نونبر 2014 في موضوع أجراء الاستراتيجية الوطنية لمشروع المؤسسة.
- المذكرة 087/21 بتاريخ 6 أكتوبر 2021 بشأن تعميم العمل بمشروع المؤسسة المندمج.
- المذكرة 15/22 بتاريخ 9 مارس 2022 في شأن تأطير دمج مكون التوجيه المدرسي والمهني ضمن مشروع المؤسسة.
- المذكرة 14/24 بتاريخ 6 فبراير 2024 في شأن مشروع المؤسسة المندمج بمؤسسات التربية والتعليم.

- البرنامج الحكومي، المغرب، يناير 2012.
- حسن موهوب، الافتتاح والداخلي ومطلب الارتقاء بالتدبير العمومي الجديد، مجلة "القانون والأعمال الدولية"، يُصدرها مختبر البحث "قانون الأعمال"، جامعة الحسن الأول، سطات/ المغرب، الإصدار رقم: 42، أكتوبر - نونبر، 2022.
- رؤوف الجزيري وعادل بوزيان، التقييم الداخلي لمؤسسات التعليم العالي: التجارب المقارنة ودراسة بعض الحالات (وثيقة عمل): من منشورات جامعة سوسة/ تونس، ماي 2016.
- فاطمة حسيني، الافتتاح والداخلي ودينامية الفعل التربوي، مجلة "علوم التربية"، الرباط، ع. 51، مارس 2012.
- هدى العليوي، ترجمة دليل التقييم الذاتي للمتعليم والمعلم لمايكل ويرد، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1440هـ.
- دليل إرشادي لتقييم البرامج التعليمية الفاعلة في مؤسسات التعليم العالي الفلسطينية وإعداد التقارير الخاصة بها، الهيئة الوطنية للاعتماد والجودة والنوعية لمؤسسات التعليم العالي، من منشورات وزارة التربية والتعليم العالي بفلسطين، 2010.
- ظهير شريف رقم 1.14.130، صادر في شوال 1435 (31 يوليو 2014) بتنفيذ القانون رقم 80.12، المتعلق بالوكالة الوطنية لتقييم وضمان جودة التعليم العالي والبحث العلمي، منشور في "الجريدة الرسمية"، عدد 6283، الصادر بتاريخ: 21 شوال 1435هـ الموافق لـ 18 غشت 2014م.
- المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، مهام الهيئة الوطنية للتقييم، النص التنظيمي رقم 12.105.
- المفتشية العامة للتربية والتكوين - الشؤون التربوية، دليل تقييم عناصر الهندسة البيداغوجية، صيغة دجنبر 2020.

## المراجع الأجنبية:

- Darling-Hammond, L. (1994). L'usage politique des indicateurs. In CERI (éd.) Evaluer l'enseignement. De l'utilité des indicateurs internationaux. Paris, OCDE, Centre pour la Recherche et l'Innovation dans l'Enseignement.
- Debeauvais, M. (2002). Indicateur. In D. Groux, S. Perez, L. Porcher, V.D. Rust & N. Tasaki, Dictionnaire d'éducation comparée. Paris : Le Harmattan.
- De Landsheere, V. (1992). L'éducation et la formation. Paris : Presses universitaires de France, coll. « Premier cycle ».
- Florida Department of Education (2024). 2023-24 Guide to Calculating School Grades, District Grades, and the Federal Percent of Points Index.
- Ministère de l'Éducation Nationale (2023). Les indicateurs de performance des lycées : Bilan et perspectives. Paris : Direction de l'Évaluation, de la Prospective et de la Performance (DEPP).
- National Center for Education Statistics (NCES), U.S. Department of Education (2010). The Condition of Education. U.S. Government Printing Office.
- OCDE (2013), Synergies for Better Learning: An International Perspective on Evaluation and Assessment, OECD Publishing, Paris.
- [https://www.men.gov.ma/Ar/Documents/Arrete\\_01.16\\_AREFTTH.pdf](https://www.men.gov.ma/Ar/Documents/Arrete_01.16_AREFTTH.pdf)
- <https://www.men.gov.ma/Ar/Documents/Communiqu%C3%A9AnalyseEvaluation.pdf>
- <http://dx.doi.org/10.1787/9789264190658-en>

## إصلاح التعليم بالمغرب

## مطلب قديم

د. بوعلام السباعي

باحث في التاريخ المعاصر  
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
المغرب



## مدخل

لا يخفى ما للدراسات التاريخية من أهمية لفهم الواقع واستشراف المستقبل، فلا يمكن تجاوز التحديات الأنية دون الحفر في الذاكرة التاريخية لاستنباط العبر واستنهاض الهمم. وتاريخ المغرب مليء بالمحطات التي يمكن الرجوع إليها لتحقيق تلك الغاية، فهذا البلد منذ الفتح الإسلامي كان ثغرا من ثغور الإسلام التي حفظت للأمة عزتها وللوطن هيبته، وما قيادة المغاربة للفتح الإسلامي بالأندلس، ونجدتهم لإخوانهم الأندلسيين على عهد المرابطين، ومعارك الموحدين، وتوسيع النفوذ ببلاد السودان أيام السعديين، وتوحيد المغرب من جديد على يد السلطان إسماعيل إلا دليل على امتلاك مقومات النصر التي يشكل العلم أحدها إن لم يكن أهمها.

## اهتمام الدول بالمغرب بالتعليم

شكل التعليم ركنا أساسيا لبناء الدول واستمراريتها بالمغرب، فقد تمكن الأدارسة من إقامة دولتهم شمال المغرب، لكنهم لم يستطيعوا مراقبة طرق التجارة الصحراوية، مما أضعف مواردهم المالية، وبذلك لم يتمكن حكام هذه الدولة من تشجيع ودعم الأوساط العلمية، ورغم ذلك وجد بعض العلماء والأدباء، كما برز بعض الفقهاء بإمارة بورغواطة التي عاصرت دولة الأدارسة، ومنهم من تلقى دراسته بالشرق<sup>1</sup>.

بعد الأدارسة عمل الزناتيون على تشجيع الحركة الفكرية، فازدهرت العلوم لاسيما الشرعية، غير أن الاضطرابات السياسية التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة، دفعت بكثير من الفقهاء والمثقفين إلى الهجرة إلى إفريقيا والأندلس، مما أثر سلبا على الانتعاش الذي عرفه ميدان التعليم. لكن بعد توحيد المغرب تحت راية المرابطين ستعرف الحركة الفكرية طفرة نوعية، ذلك

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، طبعة 2020م، ج 1 ص 129.

أن العلم شكل ركيزة أساسية في قيام هذه الدولة، فمن رباط عبد الله بن ياسين الذي كان رباط علم وتزكية، خرجت الدعوة المرابطية التي تحولت إلى دولة قوية، لاسيما مع يوسف بن تاشفين، وقد ساعدها انطلاقها من الجنوب في الاستفادة من عائدات التجارة بالصحراء، مما مكنها من تشجيع العلماء والإغداق عليهم.

شكل ميدان الفقه تربة خصبة للتعليم خلال هذه المرحلة، فقد كان مؤسسو الدولة تلاميذ لأبي عمران الفاسي أبرز فقهاء المالكية بالقيروان، ولعبد الله بن ياسين الذي درس على فقهاء المالكية بغرناطة، وعلى وجاج بن زلو الذي أسس أول مدرسة بالمغرب خلال مرحلة الدعوة المرابطية<sup>1</sup>.

وإذا كان الفقه قد حظي باهتمام وتشجيع الدولة المرابطية، فإن هذا لا يعني تغيب علوم أخرى كالحدِيث الذي شهد ظهور بعض المؤلفات في شرح صحيح مسلم، وكتاب "الشفاء" للقاضي عياض، وبرز في مجال التفسير والقراءات علماء من أمثال أحمد التميمي الفاسي وأبو بكر بن الجوزي، وفي ميدان الجغرافيا ألف الرحالة الإدريسي الذي عاصر المرابطين كتابه الشهير "نزهة المشتاق"

أفسح الموحدون المجال للعقل حتى يخوض في مختلف القضايا، وبذلك عرف النشاط الفكري ذروته خلال هذا العصر الذي شهد وفود عدد كبير من العلماء والأدباء إلى أرض المغرب بسبب التوترات السياسية التي شهدتها الأندلس والقيروان. كما ساهمت الموارد المالية الضخمة في الإنفاق على طلاب العلم، وتقريب العلماء، وبناء المكتبات، والمعاهد. ومما يؤكد ازدهار الحركة العلمية وقت الموحدين، مشاركة ملوك الدولة في مجالس العلم التي لم تقتصر على الفقه، حيث كانت مجالس علم وأدب وسياسة في آن واحد<sup>2</sup>.

إذا كان الفقهاء أحد ركائز الدولة المرابطية، فإن الموحدين الذين اعتبروا الحديث مصدرا مباشرا للتشريع سيقربون المحدثين الذين برز منهم علماء كبار كأبي علي بن محمد الكتاني. وبما أن القرآن أهم مصدر للتشريع، فقد اتسعت العناية بتفسير القرآن خلال هذا العصر الذي شجع الكتابة التاريخية التي شهدت ظهور بعض المؤلفات "كأخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة

<sup>1</sup> - حركات، م ص ص 158

<sup>2</sup> - حركات م ص ص 350

الموحدين" لأبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق، و"تاريخ الموحدين أولاد عبد المومن بن علي الكومي" ليوسف الإشبيلي، و"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي.

في مجال العلوم العقلية عرفت الرياضيات انتعاشا ملحوظا للحاجة إليها في مهام التوقيت وهندسة البناء، ومن أشهر من اشتغلوا بالعلوم الرياضية أبو محمد عبد الله الفاسي الذي خدم المنصور والناصر، كما قدم فلكيون ومهندسون من الأندلس لخدمة الموحدين. وشهد الطب الذي ارتبط بالفلسفة خلال هذه المرحلة اهتماما واضحا، وكان المنصور نفسه ممن يهتمون بالطب، وقد أسس مستشفى بمراكش، ومن العلماء الذين اهتموا بالطب سعيد الغماري ويوسف الفاسي الذي جمع بين الطب والعلوم الرياضية.

بعد الموحدين آل حكم المغرب لبني مرين القبيلة التي كانت تنقصها النحلة لتثبيت أركان حكمها، ولذلك عمل المرينيون على تقريب العلماء، كما اهتموا ببناء المدارس التي ميزت عصرهم، وألحقت المكتبات والخزائن العلمية بالجوامع والمدارس، وأنفقوا على الأساتذة وتكفلوا بإيواء الطلاب والنفقة عليهم، مما انعكس على الحركة الفكرية تقدما وانتشارا.

حظي الفقه باهتمام كبير من قبل المرينيين الذين أعادوا السيادة للمذهب المالكي الذي كان منتشرا خلال العهد المرابطي، وشجعوا التأليف في الفروع التي تراجع مع الموحدين الذين اقتصرنا على الأصوليين الرئيسيين في التشريع، الكتاب والسنة. ومن الأدلة على انتشار الفقه المالكي خلال هذا العصر تزويد المغرب للمشرق، ولا سيما بلاد الشام بعدد كبير من القضاة والفقهاء المالكية، من بينهم إبراهيم الصنهاجي وبدر الدين الغماري، وأحمد بن يعقوب الغماري قاضي حماة، كما كثر التأليف في الفرائض، وتعددت الشروح الفقهية "كشرح الموطأ" للزناتي، و"شرح مختصر خليل" للقوري.

ورغم التركيز على الفقه، فقد شهدت علوم أخرى طفرة واضحة، كعلوم اللغة التي اهتم بها الطلاب دراسة والأساتذة تدريسا، وقد صنفت مؤلفات في هذا الباب، اعتمد عليها المغاربة بغد أقول نجم الدولة المرينية "كشرح كتاب سيبويه" لابن رشد، و"شرح مقصورة أبي حازم الغرناطي" لمحمد الحسني و"الأجرومية" لأبي عبد الله بن أجروم.

وحرصا منهم على تدوين أمجاد دولتهم وتخليد مآثرهم، شجع المرينيون على كتابة التاريخ، ولذلك انتشرت التأليف التاريخية، وعلى رأسها "الأنيس المطرب بروض القرطاس" لابن أبي زرع، و"الحلل الموشية"، و"الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" الذي نسب لمؤلف الأنيس المطرب،



ولا يمكن أن نغفل "المقدمة" وكتاب "العبر" للمؤرخ الكبير عبد الرحمان بن خلدون، كما عرف هذا العصر انتشارا لكتب الرحلة "كرحلة ابن بطوطة" و"رحلة ابن رشيد السبتي" و"رحلة العبدري". وخصصت للطب كراسي بالقرويين، وبرز خلال هذه المرحلة أطباء من بينهم أبو الحسن علي المراكشي، وأبو العباس أحمد الفاسي طبيب أبي سعيد وكاتبه، كما استدعى علم الفرائض إلزامية تعلم الحساب الذي جذب الطلاب لدراسة الهندسة.

زمن الوطاسيين تراجعت الحياة العلمية، وحتى وإن استمرت العناية بالمدارس، فإن بناءها تراجع عما كان عليه في الفترة المرينية. وفي مجال العلوم شهد الفقه وفق مذهب مالك اهتماما لم تحظ به علوم أخرى، حيث تراجع الأدب وغاب الابتكار في علوم اللغة. وعموما لا يمكن مقارنة التعليم خلال فترة حكم الوطاسيين بالتعليم أيام المرينيين والموحدين أو حتى المرابطين، حيث ظل يقتات على ما خلفته هذه الدول، فقد غاب الاجتهاد وساد التقليد، كما عرف علم التاريخ تراجعا كبيرا، وبذلك كانت الدولة الوطاسية أقل ذكرا في كتب التاريخ.

ارتكز السعديون في تأسيس دولتهم على الزوايا، ومع وصولهم للحكم اتسع نفوذها وازداد نشاطها ليشمل عدة مجالات، فعلاوة على التأطير الديني والتربوي، ساهمت في مختلف أعمال البر، كما كانت مقصد طلاب العلم، ومن أهم الزوايا التي ذاع صيتها خلال هذه المرحلة، الزاوية الجزولية التي صار لها أتباع حتى من خارج المغرب.

كما عمل ملوك السعديين على تشجيع العلم وأهله، لاسيما أحمد المنصور الذي كان يخصص مواسم للعلم والثقافة والفكر، ومحطات للتباري بين العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، كما اتخذ من ليالي رمضان فرصة للتناظر بين العلماء، واشتهر هذا السلطان بجمع الكتب وتحبيسها. أما زيدان فقد قام بتكليف أحد الإيرلنديين بترجمة بعض الكتب من اللاتينية إلى الإسبانية التي كان يتقنها معظم ملوك السعديين، ثم تترجم بعد ذلك إلى العربية<sup>1</sup>. وكان المأمون علاوة على ثقافته الأدبية واهتمامه بالفقه ذا معرفة بالطب.

ولتشجيع الطلاب والأساتذة وحثهم على البحث عملت الدولة السعدية على بناء المكتبات التي ألحقت بالجوامع الرئيسية، كما عملت بعض الأسر المغربية، خاصة بمنطقة سوس على تنشيط المعرفة بمدارس المنطقة وبناء المكتبات، أما عن العلوم المدرسة فقد غلبت عليها العلوم الشرعية، حيث أقبل الطلاب على علم القراءات والفقه الذي تعزز بانتشار كتب النوازل.

<sup>1</sup> - حركات، م س ج 2 ص 400.

وللحفاظ على العقيدة التي تأثرت بمخالطة النصارى لاسيما بالمدن الكبرى، دفعت الأسر أبناءها للتشبع بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، كما شهدت اللغة إقبالا واسعا، لا سيما في الأوساط الأمازيغية<sup>1</sup>. وإذا كانت الدولة الوطاسية قد عانت من قلة ذكرها في كتب التاريخ، فإن الدولة السعيدية كلفت مجموعة من المؤرخين بوضع تاريخ يخلد أمجادها، ولعل أشهرهم الفشتالي صاحب "مناهل الصفا".

حرصت الدولة العلوية على توحيد المغرب تحت راية واحدة بعد أفول نجم السعديين، ولتحقيق هذه الغاية خاض السلاطين المؤسسين، لا سيما السلطان إسماعيل حروبا ومعارك من أجل نبذ الفرقة ورص الصفوف، وإلى جانب اعتمادها على القوة العسكرية كسبيل لبسط نفوذها على مختلف مناطق المغرب، اتخذت الدولة العلوية من الوحدة المذهبية مرتكزا لنبذ الخلافات داخل المجتمع المغربي، ولذلك جعلت من التعليم أداة لوحدة المذهب الفقهي الذي يجسده مذهب الإمام مالك، وعقيدة أهل السنة والجماعة عنوانا للوحدة العقائدية، وفي مجال القراءات أجمع المغاربة على قراءة ورش عن نافع<sup>2</sup>.

بعد فترة الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة السلطان إسماعيل، شهد المغرب صراعا على الحكم أدى إلى غياب الأمن والاستقرار الذي يعتبر شرطا أساسيا لطلب العلم. وبعد أن آل حكم المغرب إلى السلطان محمد بن عبد الله، عاد الاستقرار وتمكنت الدولة من استعادة هيبتها، مما أدى إلى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية التي وفرت موارد مالية يمكن استثمارها في تنشيط الحياة العلمية، فقد أنشأ هذا السلطان مدارس في عدة جهات، مما شجع الطلاب على الإقبال على العلم. وبموازاة مجهودات الدولة في نشر العلم والمعرفة، احتضنت الأوساط الشعبية الطلاب، وأنفقت على المدارس والمدرسين، لا سيما ببعض الجهات التي قصرت يد الدولة عن الاهتمام بها كسوس ودكالة<sup>3</sup>.

وفي عهد السلطان سليمان ألحقت المكتبات بالمدارس والمعاهد، وتم دعم التبادل الثقافي بين علماء المغرب وعلماء العالم الإسلامي. كما شجع هذا السلطان على الإقبال على العلم، فازدهرت في عهده علوم عدة، وقد كان هو نفسه متضلعا في الفقه، وعلوم القرآن، وألف في الأدب

<sup>1</sup> - م ن ج 2 ص 409.

<sup>2</sup> - اسية الهاشمي، النهضة العلمية على عهد المولى سليمان، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، طبعة 2006 م، ص 26.

<sup>3</sup> - حركات، م س ج 3 ص 534.

وأمر بالتأليف فيه، وفي عهده ظهرت الأعمال التاريخية الوازنة على يد مؤرخين كبار من أمثال أبي القاسم الزباني، ومحمد بن أحمد أكنسوس والضعيف الرباطي.

ورغم أهمية النهضة العلمية التي قادها السلطان سليمان، بقي التعليم بالمغرب بعيدا عما كان عليه بديار أوروبا التي صدمت المغرب في معركتي إيسلي وتطوان، مما فرض على المغرب الانخراط في الإصلاح للحفاظ على استقلاله، ومنع الدول الإمبريالية الطامعة في احتلاله من تحقيق مآربها، وهكذا أصبح الإصلاح ضرورة ملحة للوقوف في وجه تلك الأطماع.

كانت هزيمة إيسلي عسكرية لكنها كشفت عن ضعف المغرب في مجالات شتى، فهذه القوة العسكرية الفرنسية التي أربكت المغرب، وليدة تحولات شهدتها أوروبا منذ عصر النهضة مروراً بعصر الأنوار الذي ازدهرت فيه العلوم وتآلق فيه الفلاسفة، وبذلك شكل التعليم رافداً أساسياً في صناعة تلك القوة.

لقد شكل إصلاح الجيش أولوية لدى سلاطين المغرب خلال الفترة التي أعقبت حربي إيسلي وتطوان، ورغم أهمية الإصلاحات العسكرية، إلا أنها لا يمكن أن تؤدي أكلها دون إصلاح شامل تشكل قضية التعليم فيه أم القضايا، وإدراكاً لهذه الحقيقة تعالت الدعوات المطالبة بإصلاح التعليم.

### دعوات إصلاح التعليم قبيل فترة الحماية

من بين العلماء الذين نادوا بالإصلاح المشرفي<sup>1</sup> الذي بث دعوته تلك في سياق انتقاده لمشاورة الأعداء الطامعين في احتلال المغرب، وعلى رأسهم الإنجليز الذين أشاروا بإنشاء سكة الحديد خدمة لمصالحهم، حيث أن المغرب لم يكن خلال هذه المرحلة في حاجة إلى إنشاءها، وحتى إن أراد إنشاءها، فعليه أن يعتمد على الذات في ذلك، بدل الاستعانة بالإنجليز ودفع الأموال لهم في مرحلة كان المغرب في حاجة ماسة إلى المال، وهو الذي أفرغت خزينته بسبب الغرامة المالية التي فرضتها إسبانيا عقب انتصارها في حرب تطوان.

<sup>1</sup> \_ أبو عبدالله محمد بن محمد بن مصطفى الأحمر المشرفي ولد في غريس بأحواز مدينة معسكر غرب الجزائر حوالي 1255هـ/1839م، ثم هاجر إلى فاس صحيحة أبيه حوالي 1260هـ/1844م، وبها تكون تكويناً علمياً على طريقة عصره، فكانت الحصيلة برونزه كشخصية مثقفة تجمع عدة تخصصات إلا أنه اشتهر كمؤرخ وبرز كمصلح عبر عن آرائه الإصلاحية بكل صراحة وجرأة. محمد المشرفي، الحلل المهمة في ملوك الدولة العلوية، تحقيق إدريس بوهليلية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، الطبعة الأولى 2005م ج 1 ص 65-71.

وفي هذا الشأن يذكر المشرفي أن "ما سلكه الإنجليز من تقديم سكة الحديد على ما عداه من السياسة لغش وخديعة ومكر، ليتوصل بذلك لغرضه من الاختصاص والامتزاج، الذي هو سبب التمكن من الاستيلاء على المغرب لنفوذ اوامره ونواهيه"<sup>1</sup>.

إن هذا الموقف من المشرفي لا يعني اتخاذ موقف من الاختراعات الأوروبية، وإنما أراد هذا الرجل أن تنبثق عملية الإصلاح من الداخل المغربي، لا أن تفرض من قبل قوى أجنبية طامعة في احتلال المغرب، ثم لا بد أن يتعلم المغاربة أنفسهم تقنية إنشاء المشاريع، ولا يكون هذا الأمر إلا بالاهتمام بالتعليم وتطويره، خاصة العلوم الحقة التي كانت لأوروبا اليد الطولى فيها خلال هذه المرحلة في تاريخ المغرب، ولذلك يعتبر إدخال العلوم الرياضية والاهتمام بها أهم من إنشاء تلك السكة. وفي هذا الإطار ذكر أنه "ولو أرادت انجلترا النصيحة الحقيقية دون دسيسة لأشارت عليها (الدولة المغربية) بإدخال العلوم الرياضية لوطنها وبناء المدارس لقراءتها وتدريسها، والاجتهاد في تحصيلها وبثها في المدن والقرى والقبائل، حتى يتأدب الجاهل، ويستأنس المتوحش فنكسب الدولة حينئذ رجالا يدافعون عنها بما علموا من العلوم الرياضية"<sup>2</sup>.

كما دعا ابن سعيد<sup>3</sup> من خلال مشروعه الإصلاحي إلى "إحداث مدارس لتعليم مهمات جديدة يتوقف نفوذ النجاح عليها وعلى معرفتها"<sup>4</sup>، وهذه المهمات الجديدة عنوانها الأبرز العلوم المشتركة بين بني البشر، من رياضيات وفيزياء وغيرها، أي العلوم العصرية المرتبطة بمختلف مناحي الحياة من صناعة وتجارة وغيرها، وإذا كان موطنها خلال المرحلة موضوع الدراسة أوروبا، إلا أن أصولها تعود لديار المسلمين يوم قاد المسلمون العالم، ولذلك يرى ابن سعيد ضرورة استعادة هذه العلوم وعودتها إلى ديارها الأصلية ومن بينها المغرب.

ولوضع حد للتدخلات الأوروبية وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، حاول مشروع العهد العيزري استلهم التجربة اليابانية للنهوض بالمغرب حتى يتمكن من الوقوف في وجه الأطماع الأوروبية، وقد ارتكز هذا المشروع على التعليم لتحقيق تلك الغاية، واقترح أن تتم إعادة وضع التعليم تحت إشراف مؤسسة الأوقاف، كما حاول هذا المشروع إشراك المجتمع في عمليتي تسيير وتمويل التعليم، خاصة أن ميزانية الدولة كانت عاجزة عن تحقيق هذا الغرض.

<sup>1</sup> - المشرفي م س ج 2 ص 250.

<sup>2</sup> - م ن ص 251.

<sup>3</sup> - كان عدلا بمرسى الرباط، ثم عاملا بسلا أيام السلطان الحسن الأول، ثم أمين ديوانة طنجة، ثم عضوا بدار النيابة، توفي عام 1923 م.

<sup>4</sup> - حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1994 م ص 134.

وبالفعل، فقد ارتبط التعليم في العالم الإسلامي بمؤسسة الأوقاف، مما أكسبه استقلالية منحت العلماء حرية البحث والتفكير والتعبير، لكن كما هو معلوم فإنه مع مجيء المرينيين بالمغرب أصبح التعليم تحت الرقابة والوصاية المباشرة من قبل السلطة السياسية، ولذلك قال الابلبي أستاذ ابن خلدون في العلوم العقلية معلقاً على ظاهرة انتشار المدارس في العهد المريني "إنما أفسد العلم بناء المدارس وكثرة التاليف"، لأن هذه المدارس ستكون تابعة للجهة التي بنتها، مما سيحد من حرية العلماء والمتعلمين، والحرية شرط أساسي لنجاح أي مشروع إصلاح، كما أن أوروبا لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد تحرر العقل الأوروبي من قيد الفكر الكنيسي.

أما مشروع دستور 1908<sup>1</sup> م فيعتبر رائدا مقارنة بمشروع 1906م، حيث نص على إلزامية التعليم الابتدائي، ودعا إلى إنشاء وزارة للمعارف، وإلى إشراك المجتمع من أجل إنجاح عملية إصلاح التعليم المتضمنة في هذا المشروع، كما قسم مراحل التعليم إلى ثلاث: ابتدائية، ثانوية وعليا.<sup>2</sup>

أما السليمان<sup>3</sup> صاحب اللسان المعرب فقد ارتكزت دعوته لإصلاح التعليم على الجانب القيعي الذي يعتبر الدين وعاء له قائلا: "ليعلم أولا أن الدين والعلم توأمين متلاصقين، فصلهما يؤدي إلى هلاكهما معا. وقالوا العلم ينمو متى كان دينيا، والدين يثبت متى كان علميا، وشرط في المدارس أن يكون الأدب الديني والأدب الوطني أول ما يتربى عليه التلميذ".<sup>4</sup>

كما حدد هذا العالم سن التحاق الطفل بالكتاب في الخامسة، وقد ارتكز التعليم بهذا المحضن على القرآن وتعلم الكتابة وآداب العبادة، لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين والوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به.

بعد بلوغ الطفل سبع سنين يلتحق التلميذ بالمدرسة الابتدائية التي اقترح السليمان أن تكون مرحلة لتعلم علوم اللسان العربي ومبادئ النحو والصرف، إضافة إلى العقيدة والفقه

<sup>1</sup> أشار محمد المنوني إلى هذه المشاريع في المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الثانية 2014 م ج 2 ص 148.

<sup>2</sup> حركات، التيارات السياسية، ص 135.

<sup>3</sup> أبو عبد الله محمد بن الشريف السليمان المولود بفاس سنة 1285هـ، ساهم في التصدي للضغوط الاستعمارية داعيا إلى الإصلاح كما ساهم في تأسيس أول مدرسة حرة بفاس سنة 1340هـ. أبو عبد الله السليمان، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمانة الرباط الطبعة الأولى 1971م، ص 1.

<sup>4</sup> م ن، ص 162.

ومبادئ الحساب والجغرافيا، والتعريف بتاريخ الوطن وأعلامه وعلمائه السابقين. كما دعا إلى الانفتاح على العلوم التجريبية، حيث حث على أن يتم تعليم التلاميذ خلال هذه المرحلة علم طبقات الأرض والمعادن، والنباتات والحيوانات، ومبادئ حفظ الصحة ومفردات الأدوية، ثم ما به يحفظ الرزق من أصول الزراعة والصناعة.<sup>1</sup>

وعن منهج التربية خلال هذه المرحلة يقول السليماني: "وصفة الدرس أن يملي الأستاذ على التلاميذ الدرس المعين، وهم يكتبون ما يملي عليهم في كتب صغار معدة للدرس، كي تسهل مراجعتها، وبعد تمام الدرس يملي عليهم أسئلة وأجوبة فيما كتبوه".<sup>2</sup>

### المدرسة الثانوية :

بعد إكمال التلميذ أربع سنوات المرحلة الابتدائية يكون مؤهلاً للالتحاق بالمدرسة الثانوية التي يقرأ فيها التلميذ ما أجمله في المدرسة السابقة قراءة تحقيق، كما يضيف إلى ما سبق علم التجويد وعلم البيان، والمنطق وأصول الفقه، والحديث والتفسير، والتاريخ وعلم الكلام، إضافة إلى الجبر والهندسة، وعلم الهيئة والتقويم، وكسابقتها يستمر الطالب بالمدرسة أربع سنوات.<sup>3</sup>

### المدرسة العليا للجامعة:

خلال هذه المرحلة يتخصص التلميذ أو الطالب في دراسة علم محدد يكون من اختياره، وعن بعض فوائد التخصص يذكر السليماني أن "الانشغال بالفن الواحد يبلغ بصاحبه المبلغ الذي يريد، لأن العلم يعطيك من نفسه ما تعطيه من نفسك. كما ينتقل الطالب خلال هذه المرحلة من التلقي إلى البحث، حيث لا يقتصر التلميذ الحاذق على دروس المدرسة، بل نفسه تؤديه إلى زيادة العلم خارجها".<sup>4</sup>

<sup>1</sup> م ن .

<sup>2</sup> السليماني

، م س ص 163

<sup>3</sup> السليماني، م س، ص 164

<sup>4</sup> م ن .

## دعوات إصلاح التعليم خلال فترة الحماية

يعتبر الفقيه الحجوي<sup>1</sup> من أهم دعاة إصلاح التعليم خلال فترة الحماية، وتميز عن باقي دعاة إصلاح التعليم قبيل فترة الحماية أنه تمكن من تحقيق بعض رؤاه الإصلاحية، فقد ساعدته في ذلك وظيفته كمندوب للمعارف لمدة عشرين سنة. وقد اعتبر هذا المصلح أن العلم مدخل أساسي لأي مشروع إصلاحي يروم تحقيق سيادة الوطن ورفعته، فبالعلم ارتقت الفلاحة والصناعة والتجارة، وبه وصلت الدول أوج المعالي، بالعلم ينقلب البر بحرا والتراب تبرا، والبدوي الحافي يتدفق أدبا ونبلا حتى يصير قاضيا وموثقا... ومهندسا وطبيباً<sup>2</sup>.

تمكن الحجوي خلال رحلته إلى الديار الأوروبية من الوقوف على بعض أسباب انتشار العلم في تلك الديار، ومنها بناء المدارس والنوادي، وتضافر جهود المجتمع والدولة، فكل مدينة أو قرية أوروبية ترى فيها المدارس مشيدة، ونوادي العلم عامرة، نظمت لذلك جمعيات، زيادة على الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات<sup>3</sup>.

وللمحافظة على الشخصية المغربية أمام موجة التغريب التي قادتها سلطات الحماية الفرنسية، دعا هذا الفقيه المصلح تأسيس المدارس ونشر المعارف، غير أن المغاربة المتوجين من أي مشروع تشرف عليها فرنسا الاستعمارية، أحجموا عن الالتحاق بهذه المدارس إلا بعد أن اقنع الحجوي هذه السلطات بضرورة إدخال تعليم القرآن والعربية ومبادئ الدين الإسلامي، وبذلك ازدهر التعليم وامتألت المدارس<sup>4</sup>.

إن اقناع الحجوي لسلطات الحماية بضرورة تعليم القرآن والعربية دليل على محاولة طمس فرنسا هوية المغاربة المنبثقة عن هذين المصدرين، كما أن إحجام المغاربة عن الالتحاق بتلك المدارس الجديدة دليل على تشبثهم بقيم التي يشكل الإسلام أهمها، وكذلك وعيهم بخطورة المخططات الفرنسية التي كانت تهدف إلى إبعاد المغاربة عن تلك القيم.

<sup>1</sup> محمد بن الحسن الحجوي من أسرة عالمة متفتحة عاش ما بين 1874 و1956 م، فقيه وعالم و موظف مغربي عاصر مرحلة التدخل الأجنبي وفترة الحماية

<sup>1</sup> محمد الحجوي، خطبة ألقاها على تلاميذ أولاد الأعيان بالرباط، م خ ع، ح 118.

<sup>2</sup> الحجوي، الرحلة الأوروبية، م خ ع، ح 115.

<sup>3</sup> آسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2003 م ص 247.

وإذا كانت المدن المحضن الأول لتلك المدارس، فقد كان للبوادي نصيب منها وهذا ما تؤكدته أسية بنعدادة بقولها: "وبعد ما تغلغلت فكرة التعليم في أذهان المغاربة، عمل الحجوي بمساعدة سلطات الحماية على تأسيس المدارس في البوادي"<sup>1</sup>.

وحتى لا تزيع النهضة العلمية عن جادة الصواب، ولكي يكتب لها النجاح، جعل لها الحجوي شروطا أربعة<sup>2</sup>:

1- المعلمون: الذين اشترط فيهم الصدق في تأدية مهمتهم والقدرة على تبليغ ما لديهم وإيصاله إلى عقول التلاميذ.

2 - المتعلمون: واشترط فيهم الرغبة والصدق في طلب العلم دون الالتفات إلى كل ما يشغلهم عن سلوك طريقه.

3- الآباء: الذين عليهم أن يحثوا أبنائهم على طلب العلم، مع توفير شروطه ولوازمه وعدم تكليف أبنائهم بأي شيء يصرف عن ذلك الطلب.

4- الحكومة: التي عليها أن تبني المدارس وتصرف الأموال للإنفاق عليه وعلى المنتسبين إليها.

وحتى يستفيد المجتمع من التعليم داخل هذه المدارس، لا يجب أن يبق اختياريا متروكا لرغبة الأفراد و ميولا تهم، بل على الدولة إلزام الرجال والنساء للإقبال على العلم، لا سيما في المراحل الأولى من العمر على شاكلة دول أوروبا التي دفعت أبنائها للالتحاق بالمدارس طلبا للعلم، حيث أن "التعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء، فكل صبي يبلغ سن التعلم لا بد له أن يدخل المدرسة و يتعلم التعليم الابتدائي، ثم من كان غنيا وأراد التعليم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا وليس له داعية العلم، فلا بد أن يعرف صناعة من الصناعات، وهكذا نرى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى، الغني والفقير، بذلك القدرات ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم غير المتميزة كالمغرب الأقصى مثلا"<sup>3</sup>.

كالمغرب، لتركيزها على الحفظ دون إدراك لمعاني ما نحفظ، ودون محاولة الفهم، إذن "ليس المراد حفظ العلم بل يجب أن نربي فيهم (الطلبة) ملكة التفكير، فمهما كان فكر الصبي إلا وصار

<sup>4</sup> م ن ص 248.

<sup>5</sup> بنعدادة، م ن ص 249.250.

<sup>1</sup> الحجوي، الرحلة الأوروبية م خ ع، ح 115



يعشق العلم"<sup>1</sup>. وفي إطار حثه على إصلاح مناهج التعليم، دعا إلى ضبط عدد السنوات التي يقضيها المتعلم في كل مرحلة من مراحل الطلب، حتى لا يقضي سنوات طويلة دون تحقيق نتائج مهمة أو الإلمام بعلوم مختلفة، مشيراً إلى أن التلميذ ببلدان أخرى يحصل العلم الابتدائي في سن العاشرة لينتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثانوية التي يقضي بها من خمس إلى ست سنوات، ثم ينتقل إلى المرحلة الجامعية التي يتخرج منها عالماً وهو لا يتجاوز سن السادسة والعشرون.

وإذا كانت العلوم الشرعية أساس العلمية التعليمية بالمغرب منذ نشأة الدولة بالمغرب، فإنه بعد الصدام مع الآخر وهجوم الاستعمار على ديار المسلمين، وفرض الحماية على المغرب، وجب الانفتاح على العلوم الحديثة التي شكلت سر قوة أوروبا وتوقعها، وفي هذا الإطار يوجد الحجوي دعوة إلى المغاربة للأخذ بتلك العلوم قائلاً: "استيقظوا من نومكم واعلموا أنكم في زمن ظهرت فيه من آثار العلم مخترعات... وأن علماء الطبيعة بالعجب العجائب... في السماء وحلقوا في الهواء... وداروا حول الأرض في بضعة عشر يوماً... وهذا كلي إن أردتم أن تدركوه، فما عليكم إلا أن تأتوه من بابه وهو تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية"<sup>2</sup>.

وللولوج إلى هذه العلوم الحديثة، لا بد من التمكن من لغة الأجانب وتعلمها، لاسيما الفرنسية التي كان أهلها يفرضون حمايتهم على المغرب، كما اعتبر الحجوي أن الفرنسية شرط أساسي لتعلم الصناعة أو التجارة<sup>3</sup>.

ورغم دعوته للإقبال على تعلم اللغات الأجنبية، بقي الحجوي متشبثاً بلغته العربية التي اعتبرها حاملة لأمجاد الإسلام والعروبة. ذلك أن "الأمة التي تريد الرقي، عليها أن تبدأ برقي لغتها، لأن إغفالها هو إقبال للمجد والتاريخ العربي والإسلام"<sup>4</sup>.

لا يكتمل تعليم أبناء المغاربة دون تعليم المرأة التي هي جزء من المجتمع، والتي تقع على كاهلها مسؤوليات جسام لا تقل عن مسؤوليات الرجال، وأبرزهن إعداد وتربية الأطفال ليصروا رجالاً. ولذلك دعا الحجوي إلى تعليم الفتيات، وعندما اصطدم بالعقلية التقليدية المتوجسة من تعليمهن، حاول الاستعانة بنصوص الشرع لإثبات حق المرأة في التعليم، موجهاً إلى أنه لم يقف

<sup>2</sup> بنعدادة، م س ص 253

<sup>1</sup> بنعدادة، م س ص 257.

<sup>2</sup> م ن.

<sup>3</sup> الحجوي، أصول التربية الإسلامية، م خ ع، ح 225 ص 2.

من خلال الدراسة لهذه النصوص على دليل يمنع المرأة من التعلم، بل من حقها أن تندرج في مراتب العلم حتى تكون كمالك والشافعي<sup>1</sup>.

وليطمئن أولئك المترددين أو المعارض لتعليم المرأة، تخوفا من إفساد أخلاقها وذهاب حيائها يقول هذا الفقيه: "إن التعليم الذي يجلب المفساد هو الذي لا يدخل في دائرة الشرع، وهو التعليم الأوروبي أو ما عبر عنه بالإفرنجي، والفساد الذي وقعت فيه بعض الأمم الإسلامية ناتج عن تعليمها تعليما أوروبيا، وعن منحها الحرية التي لا تتقيد بأداب ودين"<sup>2</sup>.

وإذا كان هذا الفقيه لا يرى مانعا في تعليم المرأة، فإنه يجعل العلوم الشرعية من فقه وآداب الدين وما تيسر من القرآن على رأس قائمة مواد الطلب، مضيفا إلى ذلك مواد أخرى يجملها قوله "ومما يتأكد في حقهن، تعليمهن إدارة شؤون البيت و تديره، وتربية الأطفال و الاقتصاد و الحساب، وقواعد الصحة كالنظافة و شيء من الصنائع اليدوية و شيء من الأدبيات العربية و الأخلاق، بقدر ماتكون به البنت مهذبة قادرة على بث روح الأدب و اللطف في منزلها، لأنها هي المدرسة الأولى"<sup>3</sup>.

## خاتمة

تعالّت دعوات الإصلاح بالمغرب خلال النصف الثاني من القرن 19 م بعد صدمة اللقاء بالآخر المنتصر في إيسلي وبعدها تطوان، وفي هذا الإطار كذلك تمكن إدراج دعوات إصلاح التعليم، لأن القطاع كان هو سر قوة أوروبا المنتصرة.

ركز دعاة الإصلاح على جوانب متعددة أبرزها أن ينبع الإصلاح من الداخل، لا أن يتم استنساخه أو فرضه من الخارج، كما أوصى هؤلاء الدعاة بإدخال العلوم العصرية التي هي سر التفوق الأوروبي وعلى رأسها العلوم الرياضية كما صرح المشرفي، لكن دون إهمال للعلوم الشرعية وعلوم اللغة التي تمثل أساس ثقافة المجتمع وقيمه، ولا ضير في الجمع بين الأمرين، لأن الدين والعلوم توأمان كما أشار السليمان، الذي ركز في دعوته الإصلاحية على مسألة القيم، إذ أوصى بأن يكون القرآن وحفظه وتعلم الكتابة والقراءة ضمن مرحلة الكتاب التي اعتبرها المرحلة الأولى في مسيرة التعلم.

<sup>4</sup> بنعدادة، م س ص 281.

<sup>2</sup> الحجوي، م ع، ح 114 ص 468.

<sup>3</sup> الحجوي، المحاضرة الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية، مطبعة النهضة تونس ص 42

كما حث صاحب اللسان المعرب على تعلم ما ينفع التلميذ في علاقته بربه من صلاة ووضوء، وعندما يتشرب التلميذ هاته المعاني ينفتح على باقي العلوم في باقي مراحل الطلب، ومن بينها الجبر والحساب والكيمياء وغيرها من العلوم المشتركة بين بني البشر

أما الحجوي الذي عايش فترة الحماية، ومكنته مسؤولياته بوزارة المعارف من الوقوف على الاختلالات بقطاع التعليم، فقد اتسم مشروعه الإصلاحي بالدقة ووسع النظر، ولذلك ركز على ضرورة الانفتاح على العلوم الحديثة و الاقتباس من الأوروبيين، مما أدخله في مواجهة مع الفكر التقليدي الرافض لكل جديد، لا سيما إذا كان مصدره أوروبا الكافرة، واضطر للبحث عن الأدلة الشرعية لإقناع أولئك الرافضين.

وعندما دعا إلى تعليم المرأة اصطدم مع فئات عريضة من المجتمع المغربي، فاحتاج إلى التأكيد والإيضاح أن تعليم النساء لا يتعارض مع الشرع، شريطة التزامهن بالحياء والآداب المنصوص عليها. وبحكم تواصله مع سلطات الحماية أقنعها بضرورة تعليم القرآن واللغة العربية إذا ارادت ضمان إقبال المغاربة على المدارس الجديدة التي أنشأتها، مما يدل على تشبث المغاربة بقيمهم التي يشكها الإسلام والعربية أهم روافدها.

وإذا كانت هذه الدعوات الإصلاحية تعود إلى القرن 19 م، فإنها لا تزال صالحة للأخذ بها في محاولات إصلاح التعليم التي انخرط فيها المغرب بعد الاستقلال و من أبرز عناوينها ميثاق التربية والتكوين و البرنامج الاستعجالي.

## مرجعيات إدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التربوية بالمغرب

د. محمد بوغوتة

باحث في اللغة الأمازيغية وديداكتيكها  
الأكاديمية الجبوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
المغرب



### ملخص:

يعتبر موضوع تعميم تدريس اللغة الأمازيغية، وتحسين جودة تعليمها وتعلمها في سلك التعليم الابتدائي، إحدى التحديات التي راهنت عليها وزارة التربية الوطنية بشراكة مع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وعملت على كسبها منذ الانطلاقة الفعلية لتدريس اللغة الأمازيغية سنة 2003. وفي هذا الإطار، تم الاشتغال على إعداد البرامج، والكتب المدرسية، والحوامل الديداكتيكية الخاصة باللغة الأمازيغية، وفق تصور نظري، يستحضر الوضع الاعتباري للغة الأمازيغية من ناحية، ويستجيب للمنطلقات والمبادئ العامة لمناهج اللغة الأمازيغية من ناحية أخرى، إضافة إلى تكوين الأطر التربوية المعنية بتأطير وتدريس اللغة الأمازيغية وفقافتها. وقد شكلت هذه المنجزات مجمعة إحدى المداخل الأساسية لإرساء وتعميم وتحسين جودة التعلّات في اللغة الأمازيغية. شكلت عملية إدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التعليمية المغربية، ابتداء من الموسم الدراسي 2003-2004، مبادرة ذات أهمية بالغة. وخلال السنوات الخمسين الماضية، برزت مطالب الاهتمام باللغة والثقافة الأمازيغيتين من طرف العديد من جمعيات المجتمع المدني في مختلف مناطق المغرب، وذلك في سيرة تصاعدية ارتبطت بالعديد من المبادرات الرامية إلى إعادة الاعتبار لهذا المكون اللغوي والثقافي، سواء على المستوى الوطني أو الدولي. وعلى العموم، فقد استندت عملية الإدماج هذه إلى إطار مرجعي ينطلق من النص الدستوري، والخطابات الملكية، والظهير المحدث للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، والميثاق الوطني للتربية والتكوين، والكتاب الأبيض، واتفاقية الشراكة بين المعهد ووزارة التربية الوطنية، والقانون الإطار 51.17، مروراً إلى خارطة الطريق 2022-2026، ثم إطار التنزيل الإجمالي 2023-2026، فضلاً عن المذكرات الوزارية المنظمة. وعلى هذا الأساس سنتناول في هذه المداخلة أهم المرجعيات التشريعية والقانونية وكذا المرجعيات التربوية والتنظيمية التي تم الاستناد عليها في عملية إدماج اللغة الأمازيغية في المناهج والمنظومة التربوية.

كلمات مفتاحية: الإدماج - اللغة الأمازيغية - التشريعات القانونية - المرجعيات التربوية - المنظومة التربوية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بوغوتة، محمد. (2024، أكتوبر). مرجعيات إدماج اللغة الأمازيغية في المناهج والمنظومة التربوية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 617-630.

**Abstract:**

The integration of the Amazigh language into the primary education curriculum and the enhancement of its teaching and learning quality represent a significant challenge that the Ministry of National Education, in partnership with the Royal Institute of the Amazigh Culture, has committed itself to addressing. Since the inception of Amazigh language teaching in 2003, concerted efforts have been made to achieve this goal. In this context, programs, textbooks, and didactic materials specific to the Amazigh language have been developed based on a theoretical framework that considers the status of Tamazight, aligns with the general principles of the Tamazight language curriculum, and involves the training of educators responsible for teaching Tamazight language and culture. Collectively, these achievements have constituted a fundamental step towards establishing, generalizing, and improving the quality of Tamazight language learning. The integration of Tamazight into the Moroccan education system, starting from the 2003-2004 academic year, marked a crucial initiative. Over the past fifty years, demands for greater attention to the Amazigh language and culture have emerged from numerous civil society associations in various regions of Morocco, culminating in a growing movement linked to various initiatives aimed at rehabilitating this linguistic and cultural component at both the national and international levels. Generally speaking, this integration process has been grounded in a reference framework that draws on the Constitution, royal speeches, the decree establishing the Royal Institute of the Amazigh Culture, the National Charter for Education and Training, the White Paper, the partnership agreement between the Institute and the Ministry of National Education, and the framework law 51.17. This framework has been further developed through the 2022-2026 roadmap and the 2023-2026 operational implementation framework, as well as ministerial circulars. Based on this foundation, this presentation will examine the key legislative, legal, educational, and organizational references that have underpinned the integration of the Amazigh language into curricula and the education system.

**Keywords :** Integration, Amazigh language, legal frameworks, educational references, education system.

## مقدمة

شكلت عملية إدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التعليمية المغربية، ابتداء من الموسم الدراسي 2003-2004، مبادرة ذات أهمية بالغة. وذلك بعد قرابة خمسة عقود من استقلال المغرب، وهي فترة تميزت بالإقصاء التام لكل ما يتعلق باللغة والثقافة الأمازيغيتين من المدرسة والتعليم المغربيين. وخلال السنوات الخمسين الماضية، برزت مطالب الاهتمام باللغة والثقافة الأمازيغيتين من طرف العديد من جمعيات المجتمع المدني في مختلف مناطق المغرب، وذلك في سيرة تصاعدية ارتبطت بالعديد من المبادرات الرامية إلى إعادة الاعتبار لهذا المكون اللغوي والثقافي، سواء على المستوى الوطني أو الدولي.

وعلى العموم، فقد استندت عملية الإدماج هذه إلى إطار مرجعي ينطلق من النص الدستوري، والخطابات الملكية، والظهير المحدث للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، والميثاق الوطني للتربية والتكوين، والكتاب الأبيض، واتفاقية الشراكة بين المعهد ووزارة التربية الوطنية، والقانون الإطار 51.17، مروراً إلى خارطة الطريق 2022-2026، فضلاً عن المذكرات الوزارية المنظمة.

وسعيًا منا لتبسيط الضوء على أهم هذه المرجعيات، وتوضيح الإشكالات المعترضة لعمليات الإدماج، سنتطرق إلى مرجعيات تشريعية وقانونية، وأخرى تربوية وتنظيمية تهم تدريس اللغة الأمازيغية.

## أولاً. المرجعيات التشريعية والقانونية:

## ■ الوثيقة الدستورية:

تمثل هذه الوثيقة خطوة هامة وتاريخية نحو تعزيز التنوع اللغوي والثقافي في البلاد. فقد أُعلن في دستور 2011 أن اللغة الأمازيغية لغة رسمية في المملكة المغربية، إلى جانب العربية، وهو الأمر الذي يعكس التنوع الثقافي الغني في المغرب. فقد جاء في الفصل الخامس منه: "تعد الأمازيغية أيضاً لغة رسمية للدولة باعتبارها رصيداً مشتركاً لجميع المغاربة بدون استثناء"<sup>(1)</sup>.

<sup>(1)</sup> المملكة المغربية، دستور 2011، الصادر في الجريدة الرسمية، عدد 5964، (30 يوليوز 2011)، الفصل الخامس، الفقرة الثالثة.

### ■ الخطب الملكية السامية:

لعل المطلع للخطب الملكية، يكتشف تلك الأهمية الكبرى التي أولاها جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله، وجلالة الملك محمد السادس للثقافة واللغة الأمازيغيتين باعتبارهما ملكا وإرثا لكل المغاربة على حد سواء، وبالتالي كان لزاما إدراج اللغة الأمازيغية ضمن الورش الإصلاحي الذي أعلنه جلالة الملك خصوصا في إصلاح منظومة التربية والتكوين، كون أن المغرب يتميز طبع التعددية على المستوى اللغوي والثقافي، هذا الإدماج الذي يهدف تنمية الشخصية المغربية وتوطيد العلاقة بين المواطن بلغته وثقافته وحضارته، مرتكزا على بناء الهوية المغربية بناء صحيحا ومتينا.

ففي 20 غشت من سنة 1994 أعلن الملك الراحل الحسن الثاني رحمه الله، في خطابه بمناسبة ثورة الملك والشعب، عن ضرورة تدريس اللغة الأمازيغية، حيث قال: "أعتبر تلك اللهجات التي كثر الكلام عنها، إما عن صدق أو عن تملق أو عن ديماغوجية، تعد من مقومات أصالتنا (...)، إن اللهجات، شعبي العزيز، أصبحت اليوم ضرورية (...) أريد هنا أن أضع النقط على الحروف، فأنا، خديمك المخلص، لست أبدا ضد اللهجات (...) لا بد أن يكون في التعليم الابتدائي على الأقل حصص لدراسة لهجاتنا (...) لذلك يجب ونحن نفكر في التعليم، وبرامج التعليم، ندخل تعليم اللهجات..."<sup>(1)</sup>.

وفي خطاب العرش لـ 30 يوليوز 2001، تم تسليط الضوء على أهمية اللغة الأمازيغية والحاجة إلى تعزيز دورها في منظومة التربية والتكوين في المغرب. حيث يُعتبر هذا الخطاب من الخطب الملكية الرئيسية التي أعطت دفعة مهمة للجهود التي تهدف إلى الإدراج الفعلي للغة الأمازيغية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية في المملكة "إدراج الأمازيغية لأول مرة بالنسبة لتاريخ بلادنا في المنظومة التربوية الوطنية (...) وحرصا منا على تقوية دعائم هويتنا العريقة؛ واعتبارا منا لضرورة إعطاء دفعة جديدة لثقافتنا الأمازيغية، التي تشكل ثروة وطنية، لتمكينها من وسائل المحافظة عليها والنهوض بها وتنميتها؛ فقد قررنا أن نحدث، بجانب جلالتنا الشريفة وفي ظل رعايتنا السامية، معهدا ملكيا للثقافة الأمازيغية، نضع على عاتقه، علاوة على النهوض بالثقافة الأمازيغية، الاضطلاع بجانب القطاعات الوزارية المعنية بمهام صياغة وإعداد ومتابعة عملية إدماج الأمازيغية في نظام التعليم"<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> مقتطف من خطاب الملك الراحل الحسن الثاني، بتاريخ 20 غشت 1994.

<sup>(2)</sup> مقتطف من خطاب 30 يوليوز 2001.

بعدها خطاب أجدير لـ 17 أكتوبر 2001، ليتم تعزيز الرؤية الوطنية بخصوص اللغة الأمازيغية والتأكيد على أهميتها ودورها كمكون أساسي في التراث الثقافي المغربي. تم خلال هذا الخطاب وضع الطابع الشريف المحدث والمنظم للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وهو تدبير يهدف إلى تعزيز وتطوير اللغة والثقافة الأمازيغية في المغرب. وكذلك تم التأكيد في الخطاب على أن الأمازيغية ليست مجرد لغة، بل هي مكون أساسي للهوية المغربية، وتمتلك تراثاً ثقافياً زاخراً يجب الحفاظ عليه وتعزيزه.

وفي خطاب 09 مارس 2011، تبوأَت اللغة الأمازيغية مركز الصدارة ضمن المرتكزات السبع المُمهّدة للتعديل الدستوري. منها جعل اللغة الأمازيغية لغة رسمية للدولة إلى جانب اللغة العربية، حيث جاء فيه ما يلي:

"(...) ومن هذا المنطلق المرجعي الثابت، قررنا إجراء تعديل دستوري شامل، يستند على سبع مرتكزات أساسية:

أولاً. التكريس للطابع التعددي للهوية المغربية الموحدة، الغنية بتنوع روافدها، وفي صلبها الأمازيغية، كرسيد لجميع المغاربة"<sup>(1)</sup>.

#### ■ الظهير المحدث والمنظم للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية:

انطلاقاً من الخطاب الملكي بأجدير تم إحداث معهد يعنى باللغة والثقافة الأمازيغيتين. وقد ورد في النقطة السابعة من الأسباب الموجبة في ظهير أجدير ما يلي: "واقترنا من جلالتنا الشريفة، بأن تدوين كتابة الأمازيغية سوف يسهل تدريسها وتعلمها وانتشارها ويضمن تكافؤ الفرص أمام جميع أطفال بلادنا في اكتساب العلم والمعرفة ويساعد على تقوية الوحدة". وورد في المادة الثانية من الظهير نفسه أنه: "يشارك المعهد بتعاون مع السلطات الحكومية والمؤسسات المعنية في تنفيذ السياسات التي تعتمدها جلالتنا الشريفة وتساعد على إدراج الأمازيغية". كما ورد في المادة الثالثة:

"4- دراسة التعابير الخطية الكفيلة بتسهيل تعليم الأمازيغية عن طريق إنتاج الأدوات الديداكتيكية اللازمة لتحقيق هذه الغاية وإعداد معاجم عامة وقواميس متخصصة وإعداد خطط عمل بيداغوجية في التعليم العام وفي جزء البرامج المتعلقة بالشأن المحلي والحياة الجهوية، وكل ذلك بانسجام مع السياسة العامة التي تنهجها الدولة في ميدان التربية الوطنية؛

(1) مقتطف من خطاب 09 مارس 2011.



5-الإسهام في إعداد برامج للتكوين الأساسي والمستمر لفائدة الأطر التربوية المكلفة بتدريس الأمازيغية والموظفين والمستخدمين الذين تقتضي مهنتهم استعمالها وبوجه عام كل من يرغب في تعلمها؛

6- مساعدة الجامعات إن اقتضى الحال على تنظيم المراكز التي تعنى بالبحث والتطوير اللغوي والثقافي الأمازيغي وعلى تكوين المكونين".

#### ■ القانون الإطار 51.17

جاء القانون الإطار 51.17 مستندا إلى مقتضيات دستور المملكة وإلى الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان كما صادقت عليها المملكة المغربية أو انضمت إليها، وتفعيلا لتوصية الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030 التي أقرها جلالة الملك محمد السادس نصره الله والداعية إلى تحويل اختياراتها الكبرى إلى قانون إطار، يجسد تعاقدا وطنيا يلزم الجميع، ويلتزم الجميع بتفعيل مقتضياته.

وقد حَدَّدَت الهندسة اللغوية المعتمدة فيه عناصر السياسة اللغوية المتبعة في مختلف مكونات منظومة التربية، والتكوين، والبحث العلمي، ومستوياتها. وبناء على ذلك، تضمنت المادة 31 منه على المبادئ التالية:

- "إعطاء الأولوية للدور الوظيفي للغات المعتمدة في المدرسة الهادف إلى ترسيخ الهوية الوطنية، وتمكين المتعلم من اكتساب المعارف والكفايات، وتحقيق انفتاحه على محيطه المحلي والكوني، وضمان اندماجه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والقيمي؛

- تمكين المتعلم من إتقان اللغتين الرسميتين (...):

- (...) تطوير وضع اللغة الأمازيغية في المدرسة ضمن إطار عمل وطني واضح ومتناغم مع أحكام الدستور، باعتبارها لغة رسمية للدولة، ورصيда مشتركا لجميع المغاربة بدون استثناء"<sup>(1)</sup>.

كما دعا أيضا إلى: "مواصلة الجهود الرامية إلى تهيئة اللغة الأمازيغية لسنيا وببداغوجيا في أفق تعميمها تدريجيا على مستوى التعليم المدرسي"<sup>(2)</sup>.

(1) انظر القانون الإطار رقم 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، المادة 31.

(2) انظر القانون الإطار رقم 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، المادة 32.

### ■ خارطة طريق الإصلاح 2022-2026

حددت وزارة التربية الوطنية ملامح ما اعتبرته خارطة طريق استشرافية للتنزيل الأنجع لمشاريع الرؤية الإستراتيجية لإصلاح التعليم بالمغرب، معتمدة على منهجية العمل وآليات تنفيذها وتتبعها والأهداف والنتائج المنتظرة، عبر تأطير عملي ومالي يحدد كلفتها ومؤثراتها...

وقد وضعت الوزارة أربع مستلزمات أساسية للتنزيل تتجلى في تقوية القدرات التدبيرية للموارد البشرية عبر التكوين وتطوير آليات ومساطر التدبير، وترسيخ الواجب المهني، والارتقاء بالتواصل المؤسساتي الداخلي والخارجي، فضلا عن التعبئة المجتمعية الضامنة لتملك مضامين ومتطلبات الإصلاح.

يعتبر مشروع خارطة طريق إصلاح منظومة التربية الوطنية للفترة 2022-2026، إذن ورشا استراتيجيا يروم تحقيق نهضة تربوية تتيح للطفل الظروف المواتية لاستكمال تدمرسه الإجباري وتطور مهاراته وقدراته، مع تمكينه من الدعم الاجتماعي للدولة والشركاء المنخرطين وذلك في إطار مقارنة شاملة.

وترتكز خارطة الطريق هاته، التي تندرج في إطار استمرارية مسلسل إصلاح المنظومة التعليمية بالمغرب، على مرجعين استراتيجيين على المدى البعيد، يتمثلان في القانون الإطار 17-51، والنموذج التنموي الجديد للمملكة، ومرجع استراتيجي متوسط المدى يحمله البرنامج الحكومي.

وتمر هذه الأهداف عبر خفض نسبة الهدر المدرسي بمقدار الثلث، وتجويد المكتسبات والتعلميات في المدرسة من خلال زيادة معدل تمكن المتعلمين من الكفايات الأساسية إلى الثلثين، بدل الثلث حاليا، وضمان استفادة نصف الأطفال من الأنشطة الموازية بدل الربع حاليا.

وستقوم قيادة هذا التغيير على خمس مبادئ عمل في إطار من الثقة والمسؤولية، وذلك بغية تحقيق الاستدامة والنجاعة وتعزيز قدرات الفاعلين في المدرسة العمومية، وتحفيز استقلاليتهم، وفق مقارنة نسقية وتشاركية تستند إلى النتائج والأثر على المتعلم.

وقد أوضح السيد الوزير بنموسى في لقاءات سابقة أن خارطة الطريق هاته تنبني على ثلاث محاور رئيسية (المعلم والتلميذ والمؤسسات التعليمية) تتوزع على عشر رافعات استراتيجية تركز على الجودة، مبرزا في ما يتعلق بمحور التلميذ أن التأثير المنشود يتلخص في تمكن المتعلمين من التعلميات الأساسية، ومواصلتهم واستكمالهم لتعليمهم الإلزامي، وذلك من خلال تعميم تعليم

أولي ذي جودة، وضمان التمكن من التعلّمات الأساس بالسلك الابتدائي، وتوفير مسارات متنوعة منذ المستوى الإعدادي لتمكين كل تلميذ من تحقيق رغباته، إضافة إلى توفير شروط جيدة للتدريس والنجاح عبر آلية الدعم الاجتماعي بالمدارس.

وبخصوص المدرس، يضيف السيد بنموسى، فيكمن الأثر المنشود في هذا المحور في جعل الأساتذة قادرين وملتزمين التزاما كاملا بالمساهمة في تحقيق النجاح الدراسي للتلميذ، مع تحديد ثلاث رافعات بتدابير خاصة تهم توفير تكوين أساسي ومستمر ذي جودة للارتقاء المهني للأساتذة بدعم من هيئة التفتيش؛ وثمانين مجهودات الأطر التربوية والجسم التربوي لجعل مهنة التدريس أكثر جاذبية وتقدير التزامهم تجاه المتعلمين، وتجديد المقاربات البيداغوجية والأدوات الرقمية لتسهيل عمل الأساتذة وتعزيز أثرهم على المتعلمين.

أما محور المؤسسة فيروم توفير مؤسسات حديثة وعصرية ينشطها طاقم تربوي يتمتع بالحيوية والدينامية ويساهم في خلق مناخ وبيئة تعليمية محفزة، وذلك عبر خلق فريق تربوي ملتحم مع المدير وفي حوار دائم مع الأسر، وجعل المدرسة فضاء مفعما بالحياة والمتعة خارج الزمن المدرسي؛ ومؤسسات حديثة وعصرية ينشطها طاقم تربوي يتمتع بالحيوية ويساهم في خلق بيئة تعليمية محفزة.

إن نجاح هذه الأهداف الاستراتيجية رهين بثلاثة شروط تشمل تعبئة كافة الفاعلين في إدارة التغيير والتزامهم في البناء التشاركي للإصلاح، والحكامة من خلال تعزيز قدرات الفاعلين ومسؤوليتهم بخصوص الأثر على المتعلم، وتأمين الموارد المالية اللازمة لاستدامة الإصلاح للمنظومة التعليمية.

#### ثانيا. المرجعيات التربوية والتنظيمية

##### ■ الميثاق الوطني للتربية والتكوين (2000)

شكل الحسن الثاني، رحمه الله، في أواخر عهده، لجنة لإعداد ميثاق التربية والتكوين، مكونة من مختلف الانتماءات السياسية والجمعوية وأساتذة جامعيين وغيرهم، باستثناء ممثلين عن الحركة الجمعوية الأمازيغية التي كانت الوحيدة التي تقدم مطالبا وتصورا لإدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التربوية المغربية. قدمت اللجنة مشروع الميثاق للملك محمد السادس في بداية عهده، ليقدمه للنقاش أمام البرلمان في الدورة التشريعية الخريفية في شتنبر 1999.

وقد جاء في ميثاق التربية والتكوين في إطار الدعامة الرابعة، وتحت عنوان "التعليم الأولي والابتدائي" في المادة 61 ما يلي:

"- اكتساب المعارف والمهارات التي تمكن من إدراك اللغة العربية والتعبير مع الاستئناس في البداية إن اقتضى الأمر ذلك باللغات واللهجات المحلية...".

كما ورد فيه ما يأتي:

"- يمكن للسلطات التربوية الجهوية اختيار استعمال الأمازيغية أو لهجة محلية للاستئناس وتسهيل الشروع في تعلم اللغة الرسمية في التعليم الأولي وفي السلك الأول من التعليم الابتدائي. وستضع سلطات التربية والتكوين الوطنية رهن إشارة الجهات بالتدرج وحسب الإمكان الدعم اللازم من المربين والمدرسين والوسائل الديداكتيكية.

- تحدث في بعض الجامعات بدءا من الدخول الجامعي 2000-2001 مراكز تعنى بالبحث والتطوير اللغوي والثقافي الأمازيغي، وتكوين المكونين وإعداد البرامج والمناهج الدراسية المرتبطة بها".

لقيت الصيغة التي وردت بها المادة 115 رفضا واستنكارا من طرف نشطاء الجمعيات الأمازيغية وعموم الديموقراطيين الذين رأوا فيها نوعا من التبخيس للغة والثقافة الأمازيغيتين؛ حيث اعتبرت مجرد أداة للاستئناس من أجل تسهيل تعلم اللغة الرسمية العربية، "فيما عدا كلمتي (استئناس) و(انفتاح) (المادتان 115، 61 من الميثاق) الخاليتين بحكم انعدام الاصطلاح، من أي مضمون سوسيو-ثقافي جدي، ومن أي مضمون تربوي لا يخول الميثاق أي وضعية قانونية للغة الأمازيغية، ولا يسند إليها أي وظيفة سوسيو-تربوية أو سوسيو-ثقافية واضحة في إطار توزيعه لوظائف اللغات، الوطنية منها والأجنبية".

فضلا عن اللبس والإبهام فيما يتعلق بالتسمية؛ "حيث تتأرجح التسمية بين اللغة واللهجة، ويتضح التذبذب أكثر في النص الفرنسي حيث تسمى الأمازيغية تارة le tamazight، وتارة amazigh la langue، وتارة لهجة محلية dialecte regional، وتارة أخرى l'amazighe.

أما النص العربي فقد تجنب استعمال مفردة اللغة حيث يتحدث عن الأمازيغية في حين يستعمل كلمة اللغة حين يتعلق بالعربية وباللغات الأجنبية.

إن تجنب تسمية الأمازيغية لغة ينطوي على رؤية تحقيرية ما زالت راسخة في أذهان البعض، وهي رؤية إيديولوجية بالأساس".

### ■ الكتاب الأبيض (2002)

صدر الكتاب الأبيض عن وزارة التربية الوطنية سنة 2002، كآلية لأجراً السياسة التربوية التي نص عليها الميثاق الوطني للتربية والتكوين، وتحديد مناهج المواد المُدرّسة في المدرسة المغربية. وقد وُضع الكتاب الأبيض في تصوره العام وفق مقاربة تستهدف تحقيق الغايات الكبرى المحددة لنظام التربية والتكوين، خاصة منها ما يتعلق بالتربية على قيم العقيدة الإسلامية، وقيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية والثقافية، وقيم المواطنة وقيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية.

فمن الناحية البيداغوجية، اعتمد الكتاب الأبيض على المقاربة بالكفايات باعتبارها مقاربة جديدة تمكن المتعلمة والمتعلم من الكفايات التي من شأنها مساعدتهما على حل الوضعيات المشكلة التي تواجههما في مسارهما المدرسي والحياتي، وتشمل هذه الكفايات المستويات التواصلية والثقافية، والمنهجية، والاستراتيجية، والتكنولوجية.

وبخصوص ما يتعلق بتدريس الأمازيغية، فقد حدد الكتاب الأبيض في جزئه الثاني، المعنون بـ "المناهج التربوية لسلكي التعليم الابتدائي"، الاختيارات والتوجهات العامة التي سيتم العمل بها في إطار إدماج الأمازيغية في المنظومة التربوية المغربية، والغايات والمبادئ التي يركز عليها هذا المنهاج، والتي منها:

"تمكين الثقافة واللغة الأمازيغيتين من أجل لعب دورهما كاملا في التنمية المحلية والوطنية.

- تدريس اللغة الأمازيغية باعتبارها لغة التواصل اليومي والإبداع الثقافي. ويقتضي هذا مراعاة تحولات وحاجات المجتمع المغربي الحديث في جميع الميادين، مع الحفاظ على الحمولة الثقافية والحضارية للغة.

- تعميم تدريس اللغة الأمازيغية لجميع المتدربين في مجموع التراب الوطني وفي مختلف الأسلاك التعليمية مع مراعاة خصوصيات المتعلمين...".<sup>(1)</sup>

نستشف من خلال هذه النقاط الواردة في المنهاج الدراسي أن اللغة الأمازيغية تجاوزت اعتبارها مجموعة لهجات متفرقة لا تربط بين فروعها الثلاثة أية رابطة، وإنما كونها لغة وطنية حاملة لثقافة المغاربة؛ لذلك وجب تعميم تدريسها أفقيا -لجميع المغاربة- في أفق تعميمها عموديا على جميع المستويات الدراسية. كما نص المنهاج على الانطلاق في تحديد خريطة بناء اللغة المعيارية

<sup>(1)</sup> وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض: "الغايات والمبادئ"، الجزء الثاني: المناهج التربوية لسلكي التعليم الابتدائي، يونيو

الموحدة، محددًا غلافها الزمني في 102 ساعة في السنة، مع إعداد برنامج يضم الكفايات والمهارات والمعارف التي يجب أن يكتسبها المتعلم من خلال تعلمه للغة الأمازيغية. غير أن الجدولة الزمنية للغة الأمازيغية ارتبطت فقط بالسنتين الأولى والثانية من التعليم الابتدائي، بخلاف باقي المواد التي برمجت على ست سنوات.

"- تمكين المتعلمين من اللغة الأمازيغية نطقًا وقراءة وكتابة؛

- وضع كتب مدرسية موحدة، يتم تكييف معجمها، كلما كان ذلك ضروريًا، مع الخصوصية الجهوية للغة؛

- الانطلاق في وضع منهاج اللغة الأمازيغية من اللهجات الأمازيغية مع العمل بالتدرج على بناء لغة معيارية موحدة"<sup>(1)</sup>.

#### ■ اتفاقية الشراكة بين المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ووزارة التربية الوطنية:

شكلت اتفاقية الشراكة التي تم توقيعها بين المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ووزارة التربية الوطنية، في 26 يونيو 2003، تجسيدًا لما نص عليه الظهير المؤسس للمعهد من تعاون بينه وبين السلطات الحكومية المختصة. وقد حددت الاتفاقية صيغة التعاون والتنسيق بين المؤسستين؛ بغية إدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التربوية المغربية، وكذا المبادئ والتوجهات التي تحكم تدريس الأمازيغية، والمتضمنة في منهاج اللغة الأمازيغية.

#### ■ القرارات والمراسيم الوزارية

بالإضافة إلى إقرار التكوين المستمر لفائدة الأساتذة المكلفين بتدريس اللغة الأمازيغية، لابد من الإشارة إلى أن الاشتغال بصيغة التكوين الأساس في اللغة الأمازيغية تم بموجب القرار الوزاري الصادر بتاريخ 26 فبراير 2007 الذي يحدد نظام الدراسة والامتحانات لنيل دبلوم مركز تكوين أساتذة التعليم الابتدائي.

وتفعيلاً لمقتضيات البرنامج الاستعجالي لوزارة التربية الوطنية على مستوى التكوين، تم بموجب المرسوم رقم: 2.11.672 الصادر بتاريخ 23 دجنبر 2011 بشأن إحداث وتنظيم المراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين فتح التكوين المتخصص في اللغة الأمازيغية ببعض هذه المراكز، كما

<sup>(1)</sup> الكتاب الأبيض، "الاختيارات والتوجهات العامة المؤطرة لإعداد منهاج اللغة الأمازيغية"، الجزء الثاني: المناهج التربوية لسلكي التعليم الابتدائي، مرجع سابق، ص 93.

أنه بموجب القرار رقم 2199.12 بتاريخ 21 ماي 2012 تم تحديد كيفية تنظيم مباراة الدخول إلى مسلك تأهيل أساتذة التعليم الأولي والابتدائي (تخصص اللغة الأمازيغية).

#### ■ المذكرات التنظيمية الخاصة بتدريس اللغة الأمازيغية

تعتبر المذكرات الوزارية من بين الآليات الإجرائية التي عملت بها الوزارة في تنفيذ عملية إدماج اللغة الأمازيغية في المسارات الدراسية؛ وذلك عبر وضع خطاطة لتنزيل هذه العملية، تبين الإجراءات والسبل التي يجب سلكها بغية تحقيق مرامي تدريس اللغة الأمازيغية في المنظومة التربوية. وقد درجت الوزارة على إصدار هذه المذكرات منذ سنة 2003، لتحديد التوجهات التي ستنظم العملية في الموسم الدراسي المعني.

#### ■ الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030

جاءت الرؤية الاستراتيجية للإصلاح المدرسة المغربية التي أعدها المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، انطلاقاً من المشاركة الموسعة لكافة الفاعلين والمتدخلين والشركاء، واستناداً على العمل المكثف للجنة الدائمة، تهدف بالأساس إلى إرساء مدرسة جديدة قوامها: الإنصاف وتكافؤ الفرص؛ ترسيخاً للجودة قوامها: الإنصاف وتكافؤ الفرص؛ ترسيخاً للجودة والعمل على الاندماج الفردي والارتقاء المجتمعي.

كما جاءت بعد الحصيلة التقييمية التي وقف عليها التقرير التحليلي الذي أعدته الهيئة الوطنية للتقييم سنة 2014 حول "تطبيق الميثاق الوطني للتربية والتكوين 2013-2020: المكتسبات؛ والمعوقات والتحديات"، حيث رصد أوجه قصور عدة ترتبط بضعف تماسك وانسجام مكونات المنظومة التربوية، وبمستوى نجاعتها ومردوديتها الداخلية والخارجية، وملائمة مناهجها وتكويناتها مع متطلبات المحيط. وذات صلة أيضاً، بالنقص الشديد في إدماج بنيات مجتمع المعرفة وتكنولوجياتها المتجددة، وبمحدودية مواكبتها لمستجدات البحث العلمي وعالم الاقتصاد ومجالات التنمية البشرية والبيئية والثقافية.

كما أنها جاءت لتوطيد وتطوير المكتسبات التي حققها المدرسة المغربية، ولا سيما في:

- "مراجعة المناهج والبرامج الدراسية؛

- إدراج تدريس اللغة والثقافة الأمازيغية"<sup>(1)</sup>.

(1) المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح: من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء، ص 5.

واعتبارا للأهمية الخاصة للغات في تحسين جودة التعليمات، وفي النجاح الدراسي، وفي المردودية الداخلية والخارجية للمدرسة، وفي النهوض بالبحث وفي تحقيق الاندماج، فإن هذه الرؤية الاستراتيجية تجعل منها رافعة قائمة بذاتها، مع استحضار ارتباطها العضوي بالنموذج البيداغوجي.

وفي هذا الإطار، يعتبر المجلس أن تحديد وضع كل لغة على حدة داخل المدرسة بوضوح، يُعد عاملا حاسما في تطوير تدريس اللغات والتدريس بها، ومن ثَم تحقيق التكامل فيما بينها، وكذا الانسجام بين المكونات القطاعية للمنظومة.

فقد جاء في الرافعة الثالثة عشرة "التمكن من اللغات المدرّسة وتنويع لغات التدريس" في تحديدها للغة الأمازيغية؛ أنها: "لغة رسمية للدولة، ورصيد مشترك لجميع المغاربة بدون استثناء (الدستور)، ولغة مدرجة في التعليم منذ 2003، يتعين تطوير وضعها في المدرسة<sup>(1)</sup> ضمن إطار عمل وطني واضح متناغم مع مقتضيات الدستور، وقائم على توطيد وتطوير المكتسبات التي تحققت في تهيئتها اللغوية، وإعداد الكفاءات البشرية والموارد اليداكتيكية لتدريسها، مع الأخذ بعين الاعتبار المقتضى الدستوري الذي ينص على سن قانون تنظيمي يحدد مراحل تفعيل الطابع الرسمي للأمازيغية وكيفية إدماجها في مجال التعليم، وفي مجالات الحياة العامة ذات الأولوية".

غير أن ذلك لن يتأتى بدون إنجاز تقييم شامل لتجربة تدريس هذه اللغة في التعليم المدرسي، وكذا لتجربة الدراسات الأمازيغية في التعليم العالي<sup>(2)</sup>.

كما أنها نصت على:

"- إلزامية اللغة الأمازيغية بالسلك الابتدائي، بوصفها لغة مدرّسة؛ مع التركيز على الكفايات التواصلية في السنتين الأولى والثانية، وإدراج الاستعمال الكتابي فيما تبقى من هذا السلك؛ - يتم بالتدرج، تعميم تدريس اللغة الأمازيغية في التعليم الإعدادي في أفق تعميمها في باقي المستويات التعليمية؛

(1) تحيل المدرسة في سياق هذه الرؤية الاستراتيجية، على مجموع مكونات منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي: التعليم الأولي والابتدائي والإعدادي والثانوي؛ التعليم العالي والجامعي والبحث العلمي؛ تكوين الأطر؛ التكوين المهني؛ التعليم العتيق؛ التربية غير النظامية...

(2) المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح: من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء، مرجع سابق، ص



- تعميم تدريس اللغة الأمازيغية بالتدرج بالتعليم الثانوي التأهيلي؛
- إحداث مسالك تكوينية ووحدات للبحث المتخصص في اللغتين العربية والأمازيغية؛
- إدراج التكوين في كفايات التواصل بالعربية وبالأمازيغية في مؤسسات تكوين الأطر.

#### ■ الإطار الإجمالي 2023-2025 لتزليل خارطة طريق 2022-2026

في سياق مواكبة الإطار الإجمالي لخارطة الطريق 2022-2026، عرف الموسم الدراسي 2023-2024 الشروع في التعميم التدريجي لتدريس اللغة الأمازيغية وذلك عبر استكمال إرساء الآليات الضرورية لقيادة هذا الورش الوطني على كافة المستويات مركزيا وجهويا وإقليميا مع السهر على التخطيط والتنفيذ المحكمين لمسار وإجراءات تعميم تدريس اللغة الأمازيغية، وخاصة وضع الخرائط التربوية للمؤسسات التعليمية التي ستدرس وإعداد وتنفيذ مخططات وبرامج العمل الجهوية والإقليمية المرتبطة بتوسيع تدريسها مع ضبط عملية توزيع الأقسام على الأستاذات والأساتذة حسب الغلاف الزمني الخاص بالتعليم الابتدائي والبنية التربوية لكل مؤسسة تعليمية بما يضمن التشغيل الأمثل للموارد البشرية.

ختاما يمكن القول أن إدراج اللغة الأمازيغية في التعليم الابتدائي، وفي المراكز الجهوية للتربية والتكوين، وفي بعض الجامعات، أصبح واقعا ومكسبا غير قابل للارتداد به إلى الوراء. وهو بطبيعة الحال يعتبر تطورا هاما ومكسبا للمجتمع والثقافة.

## التربية الدامجة

### بين التجربة المغربية والتجارب الدولية

د. نورالدين مورو

دكتور في القانون العام

إطار بوزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة  
المغرب



#### مقدمة

تشكل قضية الإعاقة في إطار منظمة الأمم المتحدة مجالا قائما بذاته، وذلك منذ أوائل الألفية الثانية، وقد انخرط المغرب في هذه الدينامية، ولاسيما بعد مصادقته على الاتفاقية الدولية لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة والبروتوكول الإضافي حيث ألزمت المادة 24 الدول الأطراف "أن تكفل الدول الأطراف نظاما تعليميا جامعا على جميع المستويات وتعلما مدى الحياة" (البند الأول) كما التنصيص في نفس المادة على «مراعاة الاحتياجات الفردية بصورة معقولة» (البند الثاني-ج)، كما نصت الاتفاقية في المادة 3 على مبدأ "احترام القدرات المتطورة"، وفي المادة 9 على "إزالة الحواجز لتيسير الولوج إلى كل المباني بما فيها المدارس".<sup>1</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن المغرب يتوفر على إطار سياسي وتشريعي ملائم لإرساء منظومة تربوية دامجة ذلك أن دستور 2011 في ديباجته يحظر كافة أشكال التمييز على أساس الإعاقة، كما أن الفصل 34 منه يحث السلطات العمومية على وضع سياسات عمومية لتأهيل الأشخاص ذوي الحاجات الخاصة، والفصل 31 يلزم الدولة بتوفير تعليم عصري ميسر الولوج وذو جودة، ثم الرؤية الاستراتيجية 2015-2030 لإصلاح التربية والتكوين، ولاسيما ما يتعلق بالرافعة الرابعة الخاصة بتأمين حق الأشخاص في وضعية إعاقة في ولوج منظومة التربية والتكوين، وكذلك قرار تحويل الرؤية الاستراتيجية إلى قانون إطار، مما سيكسبها الإلزامية الضرورية لتنفيذها، كما أن صدور القانون الإطار رقم 92-07 المتعلق بحماية الأشخاص في وضعية إعاقة والنهوض بها<sup>2</sup>، أفرد

<sup>2</sup> - صادق المغرب على الاتفاقية الدولية لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة وبروتوكولها الاختياري الملحق بها في 08 أبريل 2009.

<sup>1</sup> - ظهر شريف رقم 30-92-1 صادر في 22 من ربيع الأول 1414 (10 سبتمبر 1993) بتنفيذ القانون رقم 92-07 المتعلق بالرعاية الاجتماعية للأشخاص المعاقين.

بأبواب لإقرار وإعمال حق الأشخاص في وضعية إعاقة في ولوج كافة أسلاك التعليم مع إلزام الدولة بتوفير التيسيرات المعقولة للمتعلمين.

وكان بداية منطلق بلادنا ، لتحقيق هذا المشروع الطموح ، هو تجاوز المقاربات والاتجاهات التقليدية في التعاطي مع الإعاقة ، لذلك فلم تعد الإعاقة معطًى ملتصقاً بالفرد ونتيجة أحادية لعجزه وعدم القدرة ، بل أصبح يُنظرُ إليها كنتاج سياق ، ووضعية وتمثلات اجتماعية ، مما أدى إلى التأكيد ، على أن مساعدة الشخص في وضعية إعاقة ، لا تكمن في التركيز على قصوره ، بل في تلك الدينامية ، التي تنتج عن علاقة المجتمع بذلك القصور وهكذا تم الانتقال من المنظور الطبي للإعاقة ، إلى التركيز على توفير الحق للشخص في وضعية إعاقة ، (توفير الولوجيات المادية والنفسية والاجتماعية لفسح المجال لتجسيد الفرد لإمكاناته وتحقيق تطوره).

وعلى المستوى التربوي والتعليمي ، يمكن القول أنّ تدرس الأطفال في وضعية إعاقة ، اعتبر من التحديات الكبرى لمختلف الاستراتيجيات الإصلاحية ، التي أفرزتها المنظومة التربوية المغربية ، سواء على مستوى الميثاق الوطني للتربية والتكوين ، أو الرؤية الاستراتيجية 2015-2030 ، ناهيك على القانون والإطار رقم 17-51 الذي أكد على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة ، لتيسير اندماج الأشخاص في وضعية إعاقة ، أو في وضعية خاصة في منظومة التربية والتكوين ، والبحث العلمي ، وتمكينهم من حق التعلم واكتساب المهارات والكفايات الملائمة لوضعيتهم.

سنحاول في هذا المقال ، استشراف التجربة المغربية ، في مجال التربية الدامجة ومقارنتها بالتجارب الدولية ، وذلك من خلال اعتماد نمط تربوي جديد ينبغي الاهتمام بالأطفال في وضعية إعاقة ، من طريق إدماجهم داخل نفس الصف الدراسي ، إلى جانب التلاميذ الأسوياء.

ولعل الإشكالية الرئيسية التي يثيرها هذا الموضوع ، تتمثل في طرح التساؤل المركزي التالي: إلى أي حد يمكن اعتبار التجربة المغربية في مجال التربية الدامجة ، تجربة طموحة ونموذجية استفادت من التجارب الدولية على الرغم من وجود جملة من القيود والتحديات ذات الخصوصية المحلية ؟

ولفهم وتقييم موضوع التربية الدامجة بين التجربة المغربية والتجارب الدولية يمكن اعتماد عدة مناهج ، بحثية علمية ، تتيح دراسة شاملة ، ومتعددة الأبعاد ، ومن أهمها المنهج الوصفي بالإضافة إلى المنهج المقارن والمنهج التاريخي ، هذا النهج الشامل يمكن أن يساهم في تقديم صورة

واضحة، وشاملة، للتجربة المغربية من خلال استخلاص الدروس المستفادة من التجارب الدولية، بما يعزز من فعالية وكفاءة، سياسات التربية الدامجة في المغرب.

ولمعالجة هذا الموضوع ارتأينا تقسيمه إلى مبحثين رئيسيين هما:

**المبحث الأول: المقاربة المغربية في مجال تدرس الأطفال في وضعية إعاقة**

**المبحث الثاني: المقاربات الدولية في مجال التربية الدامجة**

**المبحث الأول: المقاربة المغربية في مجال تدرس الأطفال في وضعية إعاقة**

إلى حدود عقد الستينات من القرن الماضي، كان بالمغرب غياب شبه تام للمقاربة والتأطير المؤسسيات لمسألة الإعاقة، ومن ثم، فإن مهمة التكفل بالمعاقين ورعايتهم، كانت على عاتق الأسرة أو على أبعد حد، تعتمد على بعض المبادرات الخيرة للمحسنين، وأمام العجز المادي للأسر، وفي غياب فهم صحيح ودقيق للإعاقة، فقد كان أغلب المغاربة ينظرون إلى الإعاقة على أنها عار يُلحَقُ بالأسرة، وبالتالي يتحتم التستر عليها، لكن مع التحول الملحوظ على مستوى النظرة المجتمعية، للشخص المعاق في أعقاب الحرب العالمية الثانية، بأوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، عرف هذا التغيير حداثاً وصل إلى بلدان العالم الثالث في تلك الفترة، ومُنْ تَمَّ، تولَّدَ التَّفكير في صياغة توصيف جديد للإعاقة، وتزايد الاهتمام بهذه الفئة من الأشخاص، وبالتالي أضحت الإعاقة مشكلة عالمية، بل كونية، تُوجت خلال عقد الثمانينات بمجموعة من المواثيق والعهود، أسست لمرحلة جديدة ومسالك علمية لتناول مسألة الإعاقة، ورفع الحيف عن الشخص المعاق ورعايته وتمكينه من تعليم نافع، وحق مكفول لهذا الشخص مع الاستفادة من التجارب الدولية الرائدة في هذا المجال، ومقاربتنا لهذا المبحث ستنصب على منظور وزارة التربية الوطنية لمسألة التربية الدامجة (المطلب الأول) ثم ماهي الهندسة المنهجية المعتمدة لفائدة المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة؟ (المطلب الثاني).

**المطلب الأول: التربية الدامجة من منظور وزارة التربية الوطنية**

تجدر الإشارة بداية، إلى أن العناية بالأطفال المعاقين، ترتبط بالأساس بقيم حقوق الإنسان، وبالتالي، فإن المفاهيم المرتبطة بالإعاقة، أو التربية المؤطرة لها، هي مفاهيم ومقاربات دولية شبه موحدة، صادرة عن الأمم المتحدة، واليونسكو، واليونسف، وغير ذلك من مؤسسات الدولة ذات الصلة، بالتربية وحقوق الإنسان.

وبصفة عامة، فإن جل المنظومات التربوية العالمية حيال الأطفال المعاقين، تدرجت عبر ثلاث مقاربات، تتمثل أولاً في مقارنة التربية الخاصة، وثانياً في مقارنة التربية الإدماجية، ثم ثالثاً وأخيراً في مقارنة التربية الدامجة، فكل هذه المقاربات الثلاث، تسعى في المقام الأول، إلى إبعاد مشاعر الدونية والنقص، عن الطفل المعاق، وعن أسرته وذويه، إلى جانب تأهيله للاندماج داخل الحياة والاستقلال عن الغير والآخرين. لذلك ما هو مفهوم التربية الدامجة وأنماطها؟ (الفرع الأول) ثم كيف السبيل للوصول إلى المشروع المدرسي الدامج؟ (الفرع الثاني) وأخيراً كيف يتم التدبير الإداري للتربية الدامجة؟ (الفرع الثالث).

### الفرع الأول: مفهوم التربية الدامجة

تجدر الإشارة بداية، إلى أن العناية بالأطفال المعاقين، ترتبط بشكل أساسي بقيم حقوق الإنسان وبالتالي، فإن المفاهيم المرتبطة بالإعاقة، أو التربية المؤطرة لها، هي مفاهيم ومقاربات دولية شبه موحدة، صادرة عن منظمة الأمم المتحدة، واليونسكو، واليونسيف وغير ذلك من المؤسسات الدولية، ذات الصلة بالتربية وحقوق الإنسان.

ضمن هذا الخضم، اعتمدت وزارة التربية الوطنية التعريف الدولي للتربية الدامجة؛ حيث اعتبرتها منظمة اليونسكو، على أنها، «تربية مبنية على حق الجميع في تربية ذات جودة، تستجيب لحاجات التعلم الأساسية وتثري وجود المتعلمين، ولأنها تتمحور بالخصوص حول الفئات الهشة، فهي تحاول أن تطور بالكامل إمكانات كل فرد، ولذلك، يكون الهدف النهائي للتربية الدامجة ذات جدوى، هو إنهاء جميع أشكال التمييز وتعزيز التماسك الاجتماعي»<sup>1</sup>. وتعرفها منظمة إعاقة دولية (Handicap international) بأنها: «تعني نظام تربوي يأخذ بعين الاعتبار في مجال التعليم والتعلم الاحتياجات الخاصة لكل الأطفال واليا فعيين الموجودين في وضعية تهميش وهشاشة، بمن فيهم الأطفال في وضعية إعاقة، إنه يستهدف إزاحة التهميش عن الجميع وتحسين شروط التربية للجميع»<sup>2</sup>.

وانطلاقاً من التعريفين: يتضح أن التربية الدامجة تخدم أهداف التربية للجميع، وتضمن تكافؤ الفرص بين المتعلمين تحقيق المساواة والإنصاف في التعلم، ومن ثم، فهي تعتبر المؤسسة التعليمية عبارة عن فضاء لاستقبال جميع الأطفال كيفما كانوا، وتوفير لهم شروط نجاحهم

<sup>1</sup> - UNICEF, Webinaire 1 ; Livret Technique, conceptualiser. Education inclusive et la contextualiser au sein de la maison de l'UNICEF ; 2014 ; p 19

<sup>2</sup> Ibid.

بالرغم من مشاكلهم وصعوباتهم والقصور الذي يحملون، مما يجعلها في النهاية متميزة عن غيرها من الأنماط التربوية الأخرى.

ومن مميزات التربية الدامجة أنها:

- تقر بأن جميع الأطفال يستطيعون أن يتعلموا؛
- تعترف بوجود الاختلافات بين الأطفال وتحترمها؛
- تستهدف ضمان المساواة في الحقوق؛
- تتيح للأطفال في وضعية إعاقة أو بدونها، أن يتعلموا جميعاً؛
- تتيح للبنيات وللنظم وطرق التربية الاستجابة لاحتياجات جميع الأطفال؛
- تأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات الفردية لجميع الأطفال؛
- تشكل سيرة دينامية تتطور بكيفية مستمرة؛
- تندرج ضمن استراتيجيات للارتقاء بمجتمع دامج؛
- ضرورية للوصول إلى تربية ذات جودة للجميع<sup>1</sup>.

أما بخصوص أنماط التربية الدامجة، فالمهتمون بمجال التربية الدامجة، عن وجود، أربعة أنماط من التربية متميزة فيما بينها، وكل نمط منها يعكس مقاربة خاصة في التعاطي مع الظاهرة التربوية ومع المستفيدين منها، وهذه الأنماط تتمثل في الواقع المتطور الحاصل على مستوى تأمين حق التربية لجميع الأطفال واليا فعين فمن التربية العادية التي لم تكن تعير اهتماماً ملحوظاً للأطفال الموجودين في وضعية إعاقة، إلى التربية الخاصة التي أفردت رعاية خاصة لهؤلاء الأطفال في فضاء خاص بهم، إلى التربية الإدماجية التي منحهم مكاناً داخل المدرسة العادية، لكن مع إرغامهم على التكيف مع نظامها، بما هو عليه على مستوى البرامج والطرق وإجراءات التقييم، إلى التربية الدامجة التي حاولت تجاوز نقائص التربية الإدماجية، وخلق تصور جديد للتعاطي مع الأطفال في وضعية إعاقة، داخل فصل دراسي عادي.

<sup>1</sup> - Handicap international et Ministère de l'Education Nationale et de l'Alphabisation (Burkina Faso) ; Manuel de formation enseignants en éducation inclusive, p 25 ; 2012.

الجدول التالي سيوضح الفرق بين هذه النماذج بحسب نوعية التعامل مع الأطفال والخدمات التربوية التي تقدم لفائدتهم:

التربية الدامجة	التربية الإدماجية	التربية الخاصة	التربية الدامجة
طفل خاص	طفل خاص (ملزم بالتكيف)	طفل خاص	طفل عادي
- كل الأطفال مختلفون لكنهم يتعلمون - مدرسون دامجون - برامج مكيفة ومرنة - مدرسة دامجة ملزمة بالتغيير	- مدرسون عاديون (مع تكوين خاص) - برامج خاصة إلى عادية - أقسام خاصة ضمن مدرسة عادية	- مدرسون خاصون - برامج خاصة - مراكز خاصة	- مدرسون عاديون - برامج دراسية عادية - مدرسة عادية

\* مصدر الجدول: إعداد شخصي محض

### الفرع الثاني: المشروع المدرسي الدامج

يهدف المشروع التربوي إلى رؤية معقلنة محددة وهادفة، تسعى لتعزيز وضمان النجاعة والجودة المنشودتين من التربية المدرسية<sup>1</sup>، لذلك كان إلزاماً على الجهات التربوية إيلاء العناية الفائقة للمشروع المدرسي الدامج، حتى يتسنى تحقيق ضمان التعليم للجميع وتحقيق الإنصاف، وتكافؤ الفرص، والاستجابة لأهم الحقوق الإنسانية.

وقد عرفت الاستراتيجية الوطنية مشروع المؤسسة من خلال المذكرة 125/2011، بأن مشروع المؤسسة هو «الآلية العملية الضرورية لتنظيم وتفعيل العمليات التدييرية والتربوية الهادفة إلى تحسين جودة التعليمات لجميع المتعلمين والمتعلمين وأجراء السياسات التربوية داخل كل مؤسسة تعليمية»<sup>2</sup>. وتحدد المذكرة الوزارية 159/2014 مشروع المؤسسة باعتباره، «إطاراً منهجياً وآلية عملية للتنظيم وتفعيل مختلف الإجراءات التدييرية والتربوية الهادفة إلى تحسين جودة التعليمات لفائدة التلميذات والتلاميذ مع مراعاة الخصوصيات...».

<sup>1</sup> - عبد الكريم غريب، بيداغوجيا المشروع، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 43.

<sup>2</sup> - عبد الكريم غريب، مرجع سابق، ص 44.

انطلاقاً ممّا سبق، يمكننا أن نحدد من داخل سياق التعريفات السابقة المفهوم الإجرائي للمشروع المدرسي الدامج، باعتباره «آلية العمل المنهجية لبلورة وتفعيل وأجراً مختلف المقاربات والتدابير الهادفة إلى ضمان مسار تعليمي دامج لكل الأطفال في وضعية إعاقة من خلال مخطط تربوي، يبيّنه المدير، وفرقاء العمل التربوي، بتنسيق مع كل الشركاء، ضمن مقاربة تديرية بالنتائج، ضامنة لمبدأ الإنصاف وتكامل الفرص».

وتجدر الإشارة كذلك، أنه إطار منهجي يركز على قيادة مشروع المؤسسة المدرسية، من خلال مبادئ ومركزات فلسفة التربية الدامجة، وبالاعتماد على مخططات وبرامج عمل دامجة، على مستوى إدارة ملفات التمدريس، وبرمجة التعليمات، والأنشطة التعليمية، والاكستاسية، ضمن فضاء الحياة المدرسية، بشكل متمركز حول الطفل في وضعية إعاقة ومخصص له<sup>1</sup>.

### الفرع الثالث: التدبير الإداري للتربية الدامجة

جرت العادة الحديث عن المثلث الديداكتيكي، المتمثل في المتعلم والمدرس والمادة الدراسية، مع التغافل التام عن الدور الفعال للإدارة التربوية، التي تعد حجر الزاوية داخل البنية التعليمية التعليمية.

علاوة على الدور الهام للمدرس(ة) داخل التربية الدامجة، فإن إطار الإدارة التربوية يمكن اعتباره الفاعل المحوري في قيادة وتدبير المؤسسة التعليمية، سواء على المستوى الإداري والمادي والتنظيمي والتربوي، وهذا الفعل التديري الذي لا تقف مسؤوليته عند حدود تدبير البنيات المادية للمؤسسة، بل تتجاوزها إلى التدبير التأطيري للموارد البشرية العاملة بالمؤسسة، باتجاه التفاعل الإيجابي مع المشروع التربوي للمؤسسة، وخدمة أهدافه والرفع من مستويات نتائجه، وجودة خدماته؛ كما تتحدد مسؤولياته الأساسية في نقل أثره التديري إلى الطفل المتعلم، باعتباره محور ومركز استراتيجيات الإصلاح التي دعت إليها المنظومة التربوية المغربية.

وعليه فإن مدير المؤسسة، يمكن اعتباره في هذا الإطار، بمثابة قائد للتغيير والتطوير الإيجابي، لمجتمع المدرسة، باتجاه تفعيل أهداف التمدريس الدامج للأطفال في وضعية إعاقة، وعلى هذا الأساس، فإن مجموعة من الأسئلة النظرية والتطبيقية يمكن أن تطرح وتُثار، في سياقات بناء، وتنزيل، وتدبير مشروع المؤسسة الدامج، أو عند تقييم سيروراته ونتائجه؛ إذ على

<sup>1</sup> - عبد الكريم غريب ورقية أغبيغة، بيداغوجيا الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في وضعية إعاقة والموهوبين- وضعيات واستراتيجيات الدمج- منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، 2021، ص 130.



إطار الإدارة التربوية أن يمتلك مَلَكة الوعي والمسؤولية بأبعاد للمدرسة الدامجة، وأهدافها، ومنطق قيادتها، وتدبيرها، وأن يتحكم في أسئلة تخطيط المشروع الدامج، الذي سيحدده ضمن إطارها في عملياتها، وسيرورات تنظيمها، وإنجازها وتنفيذها<sup>1</sup>.

كما أن عليه، أن يقوم بضبط السيرورات التدييرية، والإجراءات المناسبة مع كل الفرقاء المؤسستين، والشركاء، والمنظمات، والجمعيات المسؤولة، إلى جانبه على تنزيل وتفعيل مشروع المؤسسة الدامج، مع ضرورة استحضاره لمقاربة تقسيم أثر مشروع المؤسسة الدامج، على سيرورات تدرس الطفل، في وضعية إعاقة، وعلى تفسير الفعاليات والذهنيات، داخل مجتمع المدرسة<sup>2</sup>.

على هذا الأساس، فإن المجتمعات أصبحت واعية بأنه لا مكان في القرن الواحد والعشرين للمؤسسة المدرسية الانتقائية للأطفال اللوامع والموهوبين أو الإقصائية للأطفال في وضعية إعاقة أو المحرومين والمهمشين والمهاجرين وضحايا الحروب...

لقد أصبحت غاية المؤسسة المدرسية عالمياً، هي ضمان الحق في التربية لجميع الأطفال... وهذا هو المبدأ الرئيس لفلسفة التربية الدامجة، التي جعلت من أولوياتها اعتبار المدرسة حاضنة تربوية، لكل الأطفال وضامنة، بكل إنصاف لحقهم في التمدرس، دون تمييز، أو إقصاء.

### المطلب الثاني: الهندسة المنهجية لفائدة المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة

تتموضع مناهج تربية وتعليم الأطفال في وضعية إعاقة، وذوي الاحتياجات الخاصة، ضمن الرهانات التي أثَّرت عليها استراتيجيات التنمية البشرية، والاقتصادية والاجتماعية، في العديد من البلدان ابتداءً من النصف الثاني من القرن الفارط، إذا كانت الحربان العالميتان قد توجتا في نهاية المطاف، بتوثيق عهود ومواثيق دولية، من أجل تفعيل مبدأ حقوق الإنسان في مختلف أبعاده وتجلياته، فإن تربية وتعليم هذه الفئة المجتمعية، تم اعتبارها من ضمن الأبعاد، التي ينبغي تأسيس أجراءاتها وتحقيقها في الواقع الموضوعي، بمختلف الوسائل، والإمكانيات، والسياسات التنفيذية الممكنة، تبعاً للسياقات السوسيو- سياسية للأنظمة والدول، لذلك ما هي الدعامات والخيوط الموجهة للهندسة المنهجية؟ (الفرع الأول) ثم ما هي الأسس النظرية والتربوية المؤطرة

<sup>1</sup> - عبد الكريم غريب ورقية أغيغة، م.ج، ص 128.

<sup>2</sup> - المملكة المغربية- وزارة التربية الوطنية: دليل مديري المؤسسات التعليمية حول التربية الدامجة لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة، مديرية المناهج، 2019.

للهندسة المنهاجية؟ (الفرع الثاني) ثم هل الهندسات المنهاجية المتفرعة حسب نوعية الإعاقة كفيلة باستهداف الإعاقات المعنية بالتمدرس؟ (الفرع الثالث).

### الفرع الأول: الدعامات والخيوط النازمة للهندسة المنهاجية

بناءً على مستوى أهداف التنمية البشرية، يشكل رهان إرساء هندسة منهاجية لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة، داخل المنظومة التربوية المغربية، تحدياً وطنياً يتموضع أيضاً على مستوى تحديات أعمال، وترسيخ حقوق الإنسان، ضمن السياقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي صادق عليها المغرب بالإجماع، ضمن إطار دستور 2011، وكذا ضمن إطار برامج إصلاح، وتطوير مسارات حياة الأفراد، والجماعات خاصة بشأن الأفراد في وضعية إعاقة<sup>1</sup>.

لقد شكل بناء هذه الهندسة المنهاجية، مشروعاً لتفعيل حق الطفل في وضعية إعاقة للتمدرس الناجح، والمنفتح على آفاق الاندماج التربوي، والاجتماعي، والاقتصادي، كهدف استراتيجي لا يمكن تأمينه، إلا عبر سيورة تربوية تعليمية / تعليمية<sup>2</sup>، تنطلق من خصوصيات الطفل في وضعية إعاقة، وحاجياته، وإيقاعاته في التعلم والاكساب وتضمن له صيغاً بيداغوجية متكيفة، ومتلائمة مع هذه الحاجيات، ومع طبيعة أشكال القصور، التي يؤثر على مسار تعلمه، وبالتالي، تحقق له أقصى إمكانات التأهيل، من أجل الاندماج المدرسي في المستويات الدراسية العليا وفق مسارها الارتقائي من جهة، كما أنها تضمن له إمكانات التفاعل الإيجابي مع المناهج الدراسية الرسمية، في إطار تكيفها وتناسبها مع خصوصيات إعاقته وطبيعة مظاهر القصور المرتبطة بها، بما يحقق له الأهداف التعليمية المنشودة من هذه السيورة من جهة أخرى.

وفي ظل التحولات الجديدة، التي شهدتها العالم خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي وفي أفق ولوج القرن الواحد والعشرين، عرف المغرب في تلك الفترة تطوراً نوعياً في المجال الحقوقي لفائدة كافة الفئات المجتمعية، كما أن بلادنا انخرطت في مسالك قطاعية عدة، قصد تفعيل وإرساء حقوق الإنسان ورعايتها وذلك عبر مسلسل تدريجي متنوع المجالات والأنماط، إن على المستوى الدستوري أو التشريعي، القانوني والسياسي والتربوي، لحماية هذه الحقوق وتكريس ثقافتها، ومن بينها ما يتعلق بحقوق الأطفال في وضعية إعاقة أو وضعية خاصة، لقد تم اعتبار البعد الحقوقي كدعامة أساسية، لإقرار تنزيل حقوق الأشخاص في وضعية إعاقة، وبخاصة

<sup>1</sup> - عبد الكريم غريب ورقية أغيغة، مرجع سابق، ص 182.

<sup>2</sup> - الإطار المرجعي للهندسة المنهاجية لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة «أقسام التربية الدامجة» وزارة التربية الوطنية، مديرية المناهج، دجنبر 2017.

استفادتهم من مختلف الخدمات المؤسساتية للدولة في طليعتها ما يقدمه قطاع التربية والتكوين، من حق التمدريس وجودة العرض التربوي.

### الفرع الثاني: الأسس النظرية والتربوية المؤطرة للهندسة المنهجية

تهدف الهندسة المنهجية موضوع هذا العرض، إلى تشكيل وبلورة تصور جديد للمنهج الذي يمكن اقتراحه، واعتماده لمصلحة الأطفال في وضعية إعاقة، وذلك في إطار مشروع التربية الدامجة، *Projet d'éducation inclusive*، في هذا السياق، فإن مفهوم الهندسة المنهجية، ومفهوم هندسات التعلم ومفهوم المنهاج الدراسي الملانم، مع أنواع الإعاقات المعنية بهذا الشأن، تعتبر أدوات مفاهيمية عامة، توطر المقاربة العلمية التربوية، التي تتأسس ضمن إطارها هذه الهندسة المنهجية لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة.

وتجدر الإشارة في المقام الأول، إلى أن مفهوم الهندسة المنهجية *Génie curriculaire* يرتبط بحقل اصطلاحي ودلالي، تتعدد مناحيه وأبعاده، وفي أفق ضبط دلالاته الإجرائية الوظيفية، يتم الارتكاز على محددين أساسيين وهما محدد هندسات التعلم من جهة، ومحدد المنهاج الدراسي من جهة أخرى.

يمكن القول من منظور تاريخي الجزم، أن نظرة المجتمعات والمنظمات الدولية، على اختلافها، تجاه الطفل في وضعية إعاقة، قد أطرته ثلاث مقاربات نوعية وهي كما يلي:

- **المقاربة الطبية الإكلينيكية:** وهي تعتبر الإعاقة اختلالاً وظيفياً، جسدياً أو ذهنياً، ينجم عنه قصور في الأداء الإنساني، وقد ترتبط الأسباب العضوية لهذا الاختلال بالذات أو بعوامل خارجية، تقتضي على المستوى الطبي والعلاجي، مقاربات تخصصية.

- **المقاربة الحقوقية:** وهي ترى أن الطفل في وضعية إعاقة، قد يكون محط نظرة أو أفعال مميزة: *Discriminatoire*، حينما يتم إقصاؤه من المؤسسة المدرسية أو يواجه انعدام ولوجيات معمارية أو عدم توفر المعدات الإدماجية، أو يكون في مواجهة عدم ملائمة البرامج المدرسية أو عندما يعدم المواكبة الفردية، والتأطير السوسيو-تربوي والسيكو-بيداغوجي اللائق، يمثل هذا الأمر برمته، إهانة للكرامة الإنسانية للطفل<sup>1</sup>.

- **المقاربة الاجتماعية:** *Approche sociale* وهي لا تنظر إلى الإعاقة كموضوع أو كظاهرة طبية، بل تتمثلها إشكالية، ترتبط بالواقع الموضوعي للشخص المعاق ضمن محيطه الاجتماعي،

<sup>1</sup> - الفقرة الثانية من المادة الثانية من الاتفاقية الدولية لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة.

فالإعاقة لا ينظر إليها كأعراض مرضية Pathologiques، وإنما كمعيقات اجتماعية، إن الإعاقة في الأساس، هي نتاج للمعيقات والحواز الاجتماعية من قبيل عدم توفير الإمكانات في التربية المندمجة ونظيرتها الدامجة وعدم توفير الولوجيات وتكافؤ الفرص، وتحديد المعوقات، والمثبطات، وتغيير العقلليات، وأشكال التمييز السلبي وعدم تهيئة الخدمات الدامجة الضرورية، داخل الأسرة، وداخل المدرسة، وفي المرافق العمومية، وفي الشارع العام.

### الفرع الثالث: الهندسة المنهاجية المتفرعة تبعاً لأنواع الإعاقات

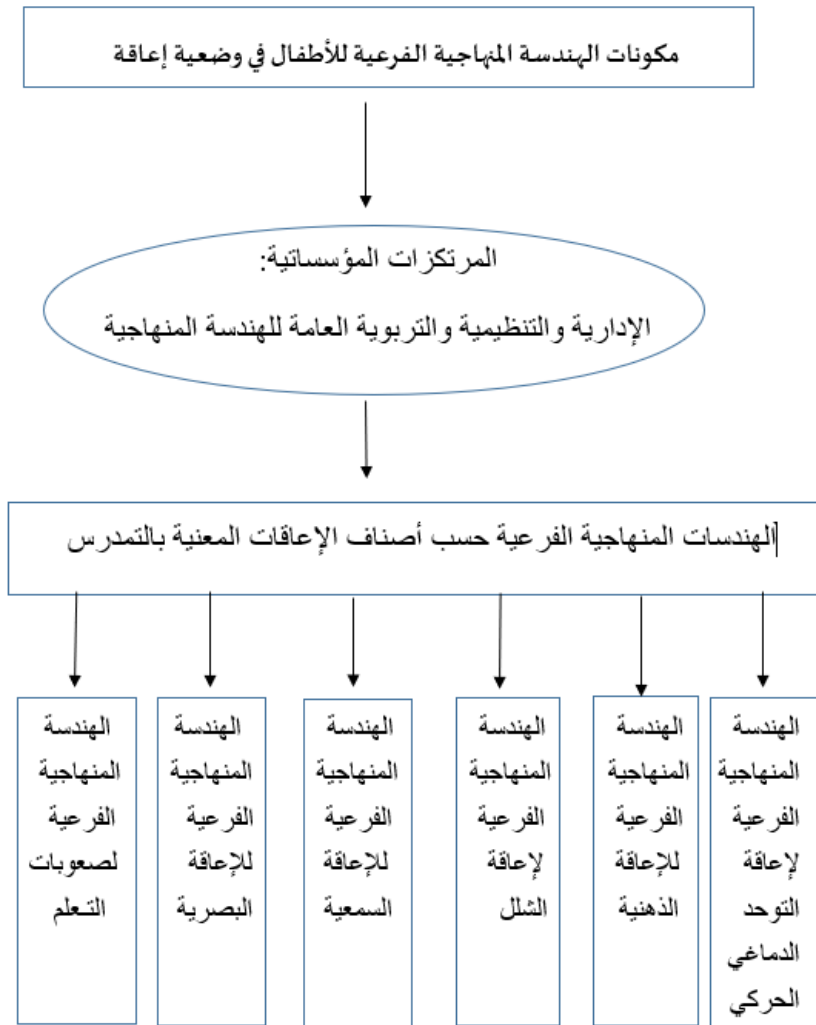
لقد تحتم العمل على تقعيد منطق الهندسة المنهاجية لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة، وبنائه وظيفياً، من خلال الارتكاز على مبدئين، يتمثل أولهما في مبدأ استهداف الإعاقات المعنية بالتمدرس وعددها ست، باعتبارها محددات للهندسات المنهاجية الفرعية، سواء على مستوى الخصوصيات المرتبطة بكل إعاقة، أو على مستوى المكونات البيداغوجية، بكل هندسة منهاجية فرعية، أما ثاني هذين المبدئين، فهو مبدأ الملاءمة البيداغوجية، والديداكتيكية، لمكونات المنهاج الدراسي، بحسب خصوصيات نوع الإعاقة المعنية بالتمدرس<sup>1</sup>.

وفي هذا الخضم، بالإمكان القول إن المداخل المرجعية لهذه الهندسة المنهاجية على شاكلة تحديدها سلفاً، تمثل الأطر المرجعية المؤسسية، والتشريعية، والإدارية، والتنظيمية لتأطير التمدريس الدامج للطفل في وضعية إعاقة، أما الدعامات والمقاربات السيكو بيداغوجية والديداكتيكية، وأشكال أعمال الكفايات، وبرمجة المجالات، والمضامين التعليمية لمنطق الملاءمة، فإنها تمثل صيغ التطبيق للتنزيل الإجرائي، لهذه الهندسات المنهاجية الفرعية تبعاً لأنواع الإعاقات المعنية بالتمدرس، نوردها تباعاً كما يلي:

- الهندسة المنهاجية الفرعية لإعاقة التوحد؛
- الهندسة المنهاجية الفرعية للإعاقة الذهنية؛
- الهندسة المنهاجية الفرعية لإعاقة الشلل الدماغي الحركي؛
- الهندسة المنهاجية الفرعية للإعاقة السمعية؛
- الهندسة المنهاجية الفرعية للإعاقة البصرية؛
- الهندسة المنهاجية الفرعية الخاصة بصعوبات التعلم.

<sup>1</sup> - عبد الكريم غريب ورقية أغيغة، مرجع سابق، ص 202.

## خطاطة المكونات الفرعية للهندسة المنهاجية



المصدر: الإطار المرجعي للهندسة المنهاجية لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة

### المبحث الثاني: المقاربات الدولية في مجال التربية الدامجة

يشكل الاطلاع على بعض التجارب الدولية، في مجال تدرس الأطفال في وضعية إعاقة، أداة مهمة في استلهم مقوماتها، والاستفادة من نجاحاتها، وبالنظر إلى أشكال التفاوت السياسي، والاجتماعي، والثقافي، وأنماط التدبير التنظيمي، للمجالات التربوية، فقد تعمدنا تفادي السقوط، في نوع من المقاربة المقارناتية ما بين الأنظمة التربوية، ومن تم، التركيز على المنطق الذي يتحكم في تربية، وتدرس الأطفال في وضعية إعاقة، في ظل الأنظمة التربوية لهذه الدول، وذلك على أساس الاطلاع على بعض التجارب المنهاجية، والتربوية داخل بعض الدول في العالم العربي، وأخرى، على المستوى الدولي، في إطار توصيف التجارب الخاصة بكل دولة، في هذا السياق، لذلك سنعمل على استجلاء الواقع العملي للتربية الدامجة ببعض الدول العربية (المطلب الأول)، ناهيك على تسليط الضوء عن الواقع العملي للتربية الدامجة ببعض الدول الغربية (المطلب الثاني).

#### المطلب الأول: الواقع العملي للتربية الدامجة ببعض الدول العربية

بصفة عامة يمكن القول، إنه ليس هناك تجارب كبيرة في العالم العربي في مجال تدرس الأطفال في وضعية إعاقة. لقد انتهت نتائج الأعمال التي احتضنها اللقاء العربي حول التربية الخاصة بالرياض في المملكة العربية السعودية يومي 22 و23 يونيو 2013 إلى أن «الجهود المبذولة حالياً لخدمة ذوي الإعاقات بالدول العربية غير كافية لإنجاح العملية التعليمية وتقديمها بالشكل المطلوب، وذلك لعدم وجود مرجعية علمية مُقَنَّنة لتطوير المناهج ضمن منظومة الأنظمة التعليمية الحالية، إلى جانب قلة الإفادة من تجارب الدول المتقدمة في هذا المجال...» وعليه سنعمل على دراسة تجارب كل من المملكة العربية السعودية (الفرع الأول)، ودولة الكويت (الفرع الثاني)، والمملكة الأردنية الهاشمية (الفرع الثالث).

#### الفرع الأول: تجربة المملكة العربية السعودية

لقد مرت التجربة السعودية بخصوص تعليم الأطفال في وضعية إعاقة، من عدة مراحل بدءاً من المدارس العادية مروراً بمعاهد ومراكز للتربية الخاصة، التي كثر الاهتمام بإحداثها تبعا لتزايد الاهتمام التدريجي بالعديد من الإعاقات كالمكفوفين والصم والمتخلفين عقلياً، بحيث

يستفيد هؤلاء الأطفال من خدمات خاصة بناء على نظام العزل عن الوسط العادي ووصولاً إلى أسلوب الدمج في مدارس التعليم العام<sup>1</sup>.

وقد اتسمت التجربة السعودية في مجال الدمج التربوي في بدايتها بالمحدودية، حيث ارتكزت على الدمج الجزئي، لكنها تطورت نحو الدمج الشامل ابتداءً من سنة 1996 بسبب تزايد اهتمام الهيئات الحكومية والمدنية بتجويد أشكال التكفل برعاية وتربية هؤلاء الأطفال<sup>2</sup>.

وفي دراسة قام بها، كل من السيدين عبد العزيز بن محمد العبد الجبار ووائل محمد سعود بالسعودية<sup>3</sup>، استهدفت تقصي المديرين والمعلمين العاملين بالمدارس العادية وكذا معلمي التربية الخاصة، تجاه دمج الأطفال في وضعية إعاقة والمقارنة بين درجات التقبل لدى هذه الفئات الثلاث، تبين أن هناك متغيرين يؤثران في درجة التقبل، يرتبط الأول بنوعية الفئة، في حين يرتبط الثاني بنوعية الإعاقة.

وأبرزت الدراسة، أن فلسفة التعليم بالمملكة العربية السعودية، تنطلق من مبدأ كون المدرسة العادية، هي المكان التربوي الطبيعي، للغالبية العظمى من الطلاب ذوي الاحتياجات الخاصة، وأشارت الدراسة إلى أن برنامج الدمج في السعودية، يتخذ أشكالاً مختلفة، وأنه بالرغم من التأكيد على قبول التلاميذ، في وضعية إعاقة، ضمن الأقسام أو المدارس العادية، إلا أنه لا توجد تشريعات، وقوانين تلزم مدراء المدارس العادية، والمعلمين والتلاميذ، بقبول الأطفال ذوي إعاقة في مدارسهم.

وتؤكد الدراسة، على وجود ثلاثة أشكال، لاحتضان الأطفال، في وضعية إعاقة مدرسياً، في المملكة العربية السعودية:

- التربية في مراكز خاصة؛
- التربية في أقسام خاصة ضمن مدارس عادية؛
- التربية عبر الدمج الجزئي في الأقسام العادية؛

<sup>1</sup> - بوشعيب فنان، دمج الأطفال في وضعية إعاقة في التعليم العادي في العالم العربي: التجربتين المغربية والسعودية أنموذجاً، مجلة مسالك التربية والتكوين، المجلد 6، العدد 21، 2023، ص 101.

<sup>2</sup> - ناصر بن علي الموسوي، تجربة المملكة العربية السعودية في مجال دمج التلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة في مدارس التعليم العام، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض اليونسكو، 2010، ص 16.

<sup>3</sup> - عبد العزيز بن محمد العبد الجابر ووائل محمد سعود، استقصاء المدراء والمعلمين في المدارس العادية حول برنامج الدمج، وزارة التعليم العالي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2002.

- عزف المصادر أو المواد التعليمية؛
- اعتماد نظام المدرس المتجول.

### الفرع الثاني: تجربة دولة الكويت

تعود تجربة التربية الخاصة، بدولة الكويت إلى سنة 1956، من خلال جهود دولة الكويت، في صفة وزارة التربية في مجال التربية الخاصة، إذ تَمَّ إحداث بعض الفصول الدراسية لذوي الإعاقة البصرية، واتسعت اهتمامات الوزارة المعنية في أعقاب ذلك، لتشمل إعاقات أخرى، ضمت المعاقين سمعياً، وذهنياً، وحركياً، ومع استمرارية عملية التطور والتوسع، أضحت لكل نوع من الإعاقة، سلمه التعليمي، وخططه الدراسية وتقنياته التربوية، وجدير بالذكر، أن التربية الخاصة بدولة الكويت، تكتسي طابعاً إلزامياً، لكل من هو قادر، وله قابلية للتعليم.

لعل العامل الأساسي، الذي أعطى دفعة قوية، للتربية الخاصة باتجاه التطور والتقدم، هو العناية والرعاية التي حظيت بها من قبل الدولة، وهو ما قاد إلى إعطاء الأشخاص المعاقين فرصة، المساواة والتكافؤ، مع نظرائهم العاديين، فاتخذت الدولة قرار جعل تدرس المعاقين في التعليم الأساسي إلزامياً، وأنشأت المؤسسات المدرسية وزودتها بأحدث الأجهزة والمعدات والآلات، ووفرت لها الخبراء، والأخصائيين، وطواقم التدريس.

منذ عقد التسعينات من القرن الماضي، ووزارة التربية تقوم بعملية تطوير جذري شامل للإعاقات التي تعنى بها، على مستوى النظم التعليمية، والخطط، والمناهج، والكتب المدرسية، وطرائق التدريس، والتقنيات التربوية، وتدريب طواقم التدريس، على وضع البرامج التربوية، والتعليمية قيد التنفيذ، وتقييمها على مستوى آخر، أولت الوزارة الوصية عناية خاصة، للاكتشاف المبكر للإعاقة، والتدخل الفوري، بأنواع التشخيص، الرعاية المختلفة<sup>1</sup>.

تتكفل التربية الخاصة بدولة الكويت بأربع إعاقات رئيسية وهي:

- الإعاقة البصرية وتسمى مؤسساتها بمدارس النور؛
- الإعاقة الحركية وتسمى مدارسها بمدارس الرجاء؛
- الإعاقة السمعية وتسمى مدارسها بمدارس الأمل؛

<sup>1</sup> - فائز الضيفري، اتجاهات المعلمين والمعلمات نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة الذهنية في المدارس العادية بدولة الكويت، مجلة العلوم التربوية، المجلد 48، العدد 1، 2021، ص 267.



- الإعاقة الذهنية وتسعى مدارسها بمدارس التربية الفكرية أو مدارس الوفاء.

وجدير بالذكر، أن الدراسة بالنسبة للإعاقين البصرية والحركية، تتبع نظام التعليم العام، مع تقديم خدمات التربية الخاصة للمتعلمين، أما بالنسبة للإعاقين السمعية والعقلية، فإن الدراسة تتم في إطار نظام تعليمي خاص.

### الفرع الثالث: تجربة المملكة الأردنية الهاشمية

سوف نقتصر في هذا الشأن، على عرض تجربة المملكة الأردنية الهاشمية، في التربية الخاصة بالنسبة للموهوبين، وذلك لاعتبارين يتمثل أولهما في كون هذا البلد تعد تجربته رائدة، في هذا المجال على المستوى العربي، وثانيهما في انعدام العناية بهذه الفئة، من المتعلمين في البلدان العربية، وحتى إن وُجدت، فإن مبادراتها تظل محتشمة ونحن إذ نتناول هذه المسألة، فلكون الموهوبين يمثلون فئة من ضمن الأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة.

لقد ظهرت بالأردن برامج عدة للمتعلمين الموهوبين، وتحظى ثلاثة منها بموقع الريادة، ومن تم بالعناية والاهتمام اللازمين.

أ- البرنامج الريادي للمتفوقين الموهوبين: وقد تم إرساءه في سنة 1984، ويعد هذا النموذج موازياً للاتجاه الثالث في تربية الموهوبين، ويتعلق الأمر، بفتح الفصول الخاصة بالموهوبين والملحقة بالمدرسة العادية، فقد قامت مؤسسة إعمار السلط، بتبني مشروع ريادي تجرى فيه عملية تطبيق الاختيارات المتخصصة، لاستكشاف المتفوقين، وذوي المواهب المميزة، من الشباب من الجنسين في المرحلة الثانوية، بمدارس مدينة السلط.

ب- جائزة الحسن للشباب: وتتمثل فكرتها، في إتاحة الفرصة للشباب الأردني من سن الثانية عشرة إلى 25 سنة، للانخراط في المشاركة الذاتية، في برامج شبابية تربوية هادفة وهي الخدمات العامة، والمهارات، والرحلات، والأنشطة الرياضية، والجائزة، وهي منهاج لبرامج وأنشطة ثقافية، ومعرفية، ورياضية، ومغامرات<sup>1</sup>.

ج- مدرسة اليوبل: وقد تم إحداثها سنة 1993، وهي مدرسة ثانوية مختلطة مستقلة مدة الدراسة بها أربع سنوات، ويلتحق بها المتعلم في ختام السلك الإعدادي، أما فيما يتعلق بالبرامج التربوية، التي تقدمها هذه المدرسة، فهي على النحو الآتي:

<sup>1</sup> - ناديا سرور، تربية المتميزين والموهوبين، دار الفكر، عمان، الأردن، 1998، ص 112.

- تقديم المناهج المقررة من قبل وزارة التربية والتعليم بطرائق وأساليب جديدة؛
  - تقديم مساقات دراسية إضافية في موضوعات متعددة؛
  - تطوير استخدام الحاسوب كوسيلة تعليمية.
- هنالك ثلاثة برامج أساسية، تقدمها مدرسة اليوبيل، وهي:
- برنامج الإرشاد والتوجيه؛
  - برنامج التربية القيادية؛
  - برنامج خدمة المجتمع.

#### المطلب الثاني: الواقع العملي للتربية الدامجة ببعض الدول الغربية

في ظل الأنظمة التربوية الغربية، ثم أفراد تشريعات مدرسية، تمثل لآليات إدارية قانونية وإجراءات تنظيمية تربوية، ترتكز على مبادئ حقوقية، تضمن للطفل في وضعية إعاقة سياقات تربوية مندمجة ضمن المؤسسات التعليمية النظامية، وذلك بتوافق مع حاجيات هذا الطفل وأنواع ودرجة القصور المتعلقة بإعاقته، على أساس ملاءمة العرض التربوي والخدمات البيداغوجية والمناهج التعليمية، بشكل يتناسب مع طبيعة كل إعاقة، غير أن مقارنة الدمج، تظل متفاوتة بين الدول الغربية، على مستوى الصيغ الإدارية والتنظيمات التربوية وأشكال المقاربات البيداغوجية، وعليه سنعرض لتجارب السويد (الفرع الأول) وكندا (الفرع الثاني) وأستراليا (الفرع الثالث).

#### الفرع الأول: التجربة السويدية في مجال التربية الدامجة

تعتبر التجربة السويدية في مجال التربية الدامجة، نموذجاً ملهماً يحتذى به عالمياً حيث عملت السويد على اعتماد سياسة التعليم للجميع كحجر الزاوية، وتعتمد السويد سياسة التعليم الشامل منذ السبعينات، حيث يعتبر حق التعليم للجميع، بغض النظر عن القدرات أو الخلفيات الاجتماعية.<sup>1</sup> كما أن القانون الوطني السويدي يضمن التعليم توفير بيئة تعليمية ملائمة لجميع الطلاب، بما في ذلك ذوي الاحتياجات الخاصة.

<sup>1</sup> -Gareth John Leddy, Inclusive Education in Sweden provisions for children who have special educational needs ,with a specific focus on down s syndrome, linnaeus university sweden ,spring 2015,p 17.

وتجدر الإشارة كذلك، أن النموذج التعليمي السويدي يعتمد التعليم المشترك من خلال دمج الطلاب ذوي الاحتياجات الخاصة في الفصول الدراسية العادية، بدلا من تخصيصهم في مدارس منفصلة، فالدعم الفردي يتم تقديمه، من طرف معلمين متخصصين ومساعدين تربويين، يساعدون الطلاب في الفصول.<sup>1</sup>

وتتواجد الأساليب التعليمية السويدية بين المنهج المرن الذي يستخدم مناهج تعليمية تسمح بالتكيف مع احتياجات كل طالب، يمكن أن تتضمن هذه المناهج أنشطة تعليمية متنوعة ومتعددة الحواس من جهة، والتكنولوجيا المساعدة لدعم التعليم، مثل البرمجيات التعليمية والأدوات، التي تساعد الطلاب ذوي الاحتياجات الخاصة.<sup>2</sup>

وقد أجري مؤخرا عدد من الدراسات الممولة من الحكومة، لبحث مشاركة وإدماج التلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة، على مختلف مستويات النظام التعليمي، ولا سيما على مستوى الأفراد والفصول الدراسية والمدارس، وتعدّد مؤتمرات مرتبطة بهذه الدراسات. لذلك هناك بعض الأمل في أن تكشف هذه الدراسات عن الأنشطة على المستويين الجزئي والمتوسط التي تعيق أو تعزز المشاركة الكاملة للتلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة، وتثير المزيد من المعضلات في العالم الحقيقي، بما في ذلك ثقافة التشخيص المتنامية. وقد تم تحديد العوامل المهمة، التي قد تسهل الإدماج البدني والاجتماعي والمناهج الدراسية: الموظفين الأكفاء، والتميز في المناهج الدراسية، وأساليب التقييم المواتية، والتعاون بين أعضاء هيئة التدريس، وحجم الصف، ومشاركة القيادة المدرسية، والتدريب المستمر والمكثف للموظفين أثناء الخدمة، والشراكة مع أولياء الأمور، والعوامل الاقتصادية. علاوة على ذلك، يجب أن يكون مفهوم المشاركة أكثر إشكالية، فهو أحد المفاهيم الأساسية الأقل تعريفاً، من الناحية التجريبية كما أنه مفهوم خاطئ على نطاق واسع، فهو معقد ومتعدد الأبعاد وذاتي ومرتبطة بالسياق.

من التحديات التي يواجهها النظام التعليمي السويدي الاختلافات الإقليمية، بحيث نجد اختلافات بين جودة التعليم الدامج بين المناطق الحضرية والريفية، ناهيك عن تحديات تتعلق بتوفير الموارد الكافية لدعم جميع الطلاب.

<sup>1</sup> - Girma Berhanu, INCLUSIVE EDUCATION IN SWEDEN: RESPONSES, CHALLENGES, AND PROSPECTS, INTERNATIONAL JOURNAL OF SPECIAL EDUCATION, Vol 26, No: 2, 2011, p 129.

<sup>2</sup> - Norwich, B. (2008). Dilemmas of difference, inclusion and disability: International perspectives on placement. European Journal of Special Needs Education, 23(4), p287-304.

ونخلص إلى أن التجربة السويدية في مجال التربية الدامجة، تتميز بالشمولية والتنوع في التعليم، من خلال دعم التلاميذ والطلاب في بيئة تعليمية مرنة، عبر رصد استثمارات هامة في التدريب والتطوير وتعاون المجتمع.

### الفرع الثاني: التجربة الكندية في مجال التربية الدامجة

التربية الدامجة لها تاريخ طويل في كندا، حيث يعود تاريخه إلى سياسات المقاطعات التي دعمت الطلاب ذوي الإعاقة منذ 1980، فالتعليم بكندا مسألة إقليمية وليست فيدرالية بكندا، لذا، على الرغم من وجود الكثير من الأمور المتشابهة في جميع أنحاء البلاد، إلا أن تطوير السياسات وتنفيذها للتعليم الدامج بدا مختلفا بمهارة في مختلف المقاطعات والأقاليم<sup>1</sup>.

وعلى سبيل المثال، أقرت معظم المقاطعات تشريعات أولية ومبادئ توجيهية للسياسات الداعمة للطلاب ذوي الاحتياجات التعليمية الخاصة في الثمانينات.

لكن التشريعات التقليدية لم تكن تشير إلى التعليم الدامج بل إلى "التعليم الخاص" وقد عملت التشريعات الحديثة على توفير بيئات أكثر شمولاً، ولكن لاتزال هناك فجوات كبيرة بين لغة الإدماج وممارسة الإدماج.

وتعتبر مقاطعة New Brunswick رائدة في التربية الدامجة بكندا، وهي المقاطعة الوحيدة التي تستعمل اللغتين الإنجليزية والفرنسية كلغتين رسميتين، وكانت لديها واحدة من أكثر الخطط التعليمية تقدمية للتعليم الشامل في البلاد<sup>2</sup>.

بدأت الجهود المبذولة نحو التعليم الدامج للجميع سنة 1986، مع إصدار مشروع قانون رقم 85، الذي ألزم المدارس العامة بإدراج جميع الطلاب في نظام التعليم العام مما يضمن وضع الطلاب ذوي الإعاقة في فصول دراسية عادية بين أقرانهم، وقد اعتبر ذلك في جميع أنحاء البلاد ممارسة ثورية. وقد نالت على اهتمام كبير في المقاطعة منذ 1986، خضعت المقاطعة للعديد من المراجعات للبرامج، بما في ذلك تقرير ربط الرعاية والتحدي لسنة 2006 الذي قيم التقدم

<sup>1</sup> - AuCoin, A., Porter, G. L., & Baker-Korotkov, K. (2020). New Brunswick's journey to inclusive education. Prospects, 49 (3-4), 313-328. <https://doi.org/10.1007/s11125-020-09508-8>.

<sup>2</sup> - Sider et al , Inclusive Education in England, Australia, the United States, and Canada: Quo Vadis? Exceptionality Education International, 34(1), Queensland University of technology, Creative Commons: Attribution-Noncommercial 4.0, Brisbane Australia, p 63.

المحرز في تنفيذ مشروع القانون 85<sup>1</sup>. والذي أسفر عن العديد من التوصيات على المستوى المهني، بعد هذه المراجعة أمرت المقاطعة بإجراء تغييرات إضافية، مما أدى إلى مراجعة سنة 2012 التي ركزت على الإجراءات التي يمكن اتخاذها على مستوى المقاطعة والمدرسة والفصول الدراسية لدعم الطلاب والمعلمين بشكل فعال.

لذلك، فالتجربة الكندية في التربية الدامجة أو التعليم الشامل للجميع تعد نموذجاً رائداً ويحتذى به على المستوى العالمي<sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: التجربة الأسترالية في مجال التربية الدامجة

صادقت الحكومة الأسترالية، على اتفاقية حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة سنة 2006، وبعد مرور سنتين عملت الحكومة الأسترالية، على التأكيد الرسمي على الحق في التربية الدامجة للأشخاص ذوي الإعاقة<sup>3</sup>، وتنعكس العديد من الأحكام الواردة في الاتفاقية على التشريعات الأسترالية، من خلال معايير الإعاقة في التعليم لسنة 2005، والتي تمت مراجعتها في عام 2020، بالإضافة إلى الجمع الوطني للمعلومات عن طلاب المدارس الأسترالية ذوي الإعاقة، الذين يتلقون تعديلات، وتنص المعايير الأسترالية على أن الطلاب ذوي الإعاقة يحق لهم الالتحاق بمدارسهم المحلية، والحصول على التعليم على نفس الأساس، الذي يحصل عليه أقرانهم.

وتتطلب المعايير أيضاً، أن تقوم المدارس التمهيدية، والمدارس، ومراكز التعليم والتدريب، بعد المدرسة بإجراء تعديلات معقولة، لضمان حصول الطلاب ذوي الإعاقة على نفس فرص التعلم، في المناهج والبرامج الدراسية، مثل الطلاب غير المعاقين<sup>4</sup>.

ويشكل الطلاب ذوي الإعاقة، ما يقرب 20% من طلاب المدارس حسب إحصاء للمعهد الأسترالي للصحة والرعاية الاجتماعية سنة 2020<sup>5</sup>، على الرغم من أن غالبية الطلاب ذوي الإعاقة

<sup>1</sup> - AuCoin, et al ,2020,p316.

<sup>2</sup> - Christou, T. M., Kruschel, R., Matheson, I. A., & Merz-Atalik, K. (Eds.). (2022). European perspectives on inclusive education in Canada : Critical comparative insights. Routledge.

<sup>3</sup> - Cologon, K., & Mevawalla, Z. (2023). In solidarity and hope: Understanding inclusive education. In K. Cologon & Z. Mevawalla (Eds.), Inclusive education in the early years: Right from the start (2nd ed.; pp. 4–23). Oxford University Press.

<sup>4</sup>-Sider et al, p 60.

<sup>5</sup> - Australian Institute of Health and Welfare. (2020). People with disability in Australia. Australian Government. <https://www.aihw.gov.au/getmedia/ee5ee3c2-152d-4b5f-9901-71d483b47f03/aihw-dis-72.pdf.aspx?inline=true>.

بنسبة 71% التحقوا بصفوف عادية في المدارس العادية، إلا أن 18% من الطلاب التحقوا بصفوف خاصة في المدارس العادية، التحق 12% من الطلاب ذوي الإعاقة بمدارس خاصة منفصلة، بدلا من مدارسهم الابتدائية، أو الثانوية المحلية، وثقت هذه الأدلة الوطنية، استمرار التعايش المشترك بين الدمج والاندماج، والفصل في النظام المدرسي في أستراليا، والذي استمر من خلال تشغيل نظام التعليم المزدوج، للطلاب ذوي الإعاقة.

من الواضح أن هناك تحديات في أستراليا، مرتبطة بالتوصل إلى اتفاق بين حكومات الولايات والأقاليم، حول كيفية تنفيذ التعليم الشامل لخدمة جميع الطلاب ذوي الإعاقة، في نظام تعليمي موحد، يمكن التغلب على هذا التحدي، باتباع نهج وطني للتعليم الشامل للجميع في السياسات والممارسات.<sup>1</sup>

## خاتمة:

لقد أسهمت التربية الدامجة ببلادنا بفتح أفق جديد، وأحدثت قفزة نوعية في مجال تدرس الأطفال في وضعية إعاقة منذ سنة 2019، حيث أصبح التعليم داخل المؤسسات التعليمية مفتوحاً في وجه الأطفال في وضعية إعاقة، والتي كانت بالأمس القريب ترفض بمبررات واهية، وبفضل التربية الدامجة أصبح التعليم حق للجميع، خصوصاً للأشخاص في وضعية إعاقة الذين يعانون من إعاقات واضطرابات نمائية.

إن دراسة الحالة الراهنة للتعليم الدامج للجميع في الدول العربية من جهة (السعودية والكويت والأردن)، والدول الغربية من جهة أخرى: مثل تجارب (السويد وكندا وأستراليا) -وخاصة فيما يتعلق بتحقيق الهدف الرابع من أهداف التنمية المستدامة -، يجب أن تدفع الباحثين في هذه الدول السالفة الذكر، وأماكن أخرى من العالم، إلى تبادل الدروس عبر الحدود، وزيادة الالتزام بالمدارس الشاملة، حيث ينتهي كل طفل بشكل حقيقي.

لقد أثبتت أربعون سنة من التاريخ، أننا لم نحرز تقدماً كافياً نحو التعليم الشامل في سياقاته المختلفة، ومع ذلك، فإن مستقبل أطفالنا - ومستقبل مجتمعاتنا - يعتمد علينا لضمان عدم تكرار ذلك في السنوات الثلاثين القادمة.

<sup>1</sup> - Mavropoulou, S., Mann, G., & Carrington, S. (2021). The divide between inclusive education policy and practice in Australia and the way forward. *Journal of Policy and Practice in Intellectual Disabilities*, 18(1), 44–52. <https://doi.org/10.1111/jppi.12373>.

وتبقى التجربة المغربية، في مجال التربية الدامجة في بداية طريقها، رغم أنها ما زالت تعتبرها، مجموعة من النقائص والتحديات، التي تقف حاجزاً أمام سير هذا المشروع المنشود، لذلك سجل العديد من الخبراء والباحثين، في المجال مجموعة من الإكراهات، التي تحول دون تحقيق الأهداف المنشودة، في مجال التربية الدامجة، لذلك فالمرحلة تستوجب انخراط الجميع، من أجل إسداء الرعاية والعناية اللازمين، للأطفال المتعلمين في وضعية إعاقة.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- عبد الكريم غريب، بيداغوجيا المشروع، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2008.
- عبد الكريم غريب ورقية أغيغة، بيداغوجيا الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في وضعية إعاقة والموهوبين، وضعية واستراتيجيات الدمج، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، 2016.
- عبد العزيز محمد العبد الجبار ووائل محمد سعود، استقصاء المدراء والمعلمين في المدارس العادية حول برنامج الدمج، وزارة التعليم العالي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2002.
- فائز الضفيري، المعلمين والمعلمات نموذج الطلبة ذوي الإعاقة الذهنية في المدارس العادية بدولة الكويت، مجلة العلوم التربوية، المجلد 48، العدد 1، 2021.
- ناديا سرور، تربية المتميزين والموهوبين، دار الفكر، عمان، الأردن، 1998.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية: دليل مديري المؤسسات التعليمية حول التربية الدامجة لفائدة الأطفال في وضعية إعاقة، مديرية المناهج، 2019.
- تقرير مغربي لزيارة تبادل خبرة في مجال التربية الدامجة في إطار التعاون المغربي الياباني، 2013.
- حنان غانم، بعض التجارب الدولية في مجال المناهج الدراسية للأطفال في وضعية إعاقة على الموقع الإلكتروني:

<https://www.terbiya?domija.m/2019/10/exp-educ-nteg.html>

تاريخ الولوج إلى الموقع 2024/07/215 على الساعة 13.48



## المراجع باللغة الفرنسية:

- UNICEF ; Webinaire, Livret Technique : conceptualiser l'éducation inclusive et la conceptualiser au sein de la maison de l'UNICEF, 2014.
- Handicap international et ministère de l'éducation nationale et de l'Alphabétisation du Burkina Faso, Manuel de formation des enseignants en éducation inclusive 2012.
- OREAI, Etat des lieux de la scolarisation des enfants et adolescents handicapés de la région PACA. Mars 2010.
- Conseil Canadien de l'apprentissage (CCA) ; Placement en milieu scolaire des enfants handicapés, Carnet du savoir Mai 2007.

## المراجع باللغة الإنجليزية:

- Gareth John Leddy, Inclusive Education in Sweden provisions for children who have special educational needs ,with a specific focus on down s syndrome, linnaeus university sweden ,spring 2015,p 17.
- Girma Berhanu, INCLUSIVE EDUCATION IN SWEDEN : RESPONSES, CHALLENGES, AND PROSPECTS, INTERNATIONAL JOURNAL OF SPECIAL EDUCATION, Vol 26, No : 2, 2011, p 129.
- Norwich, B. (2008). Dilemmas of difference, inclusion and disability: International perspectives on placement. European Journal of Special Needs Education, 23(4), p287–304.
- AuCoin, A., Porter, G. L., & Baker-Korotkov, K. (2020). New Brunswick's journey to inclusive education. Prospects, 49 (3–4), 313–328. <https://doi.org/10.1007/s11125-020-09508-8>.
- Sider et al , Inclusive Education in England, Australia, the United States, and Canada: Quo Vadis? Exceptionality Education International, 34(1), Queensland University of technology , Creative Commons: Attribution-Noncommercial 4.0,Brisbane Australia ,p 63.

- Christou, T. M., Kruschel, R., Matheson, I. A., & Merz-Atalik, K. (Eds.). (2022). European perspectives on inclusive education in Canada : Critical comparative insights. Routledge.
- Cologon, K., & Mevawalla, Z. (2023). In solidarity and hope: Understanding inclusive education. In K. Cologon & Z. Mevawalla (Eds.), Inclusive education in the early years: Right from the start (2nd ed.; pp. 4–23). Oxford University Press.
- Australian Institute of Health and Welfare. (2020). People with disability in Australia. Australian Government.  
<https://www.aihw.gov.au/getmedia/ee5ee3c2-152d-4b5f-9901-71d483b47f03/aihw-dis-72.pdf.aspx?inline=true>.
- Mavropoulou, S., Mann, G., & Carrington, S. (2021). The divide between inclusive education policy and practice in Australia and the way forward. *Journal of Policy and Practice in Intellectual Disabilities*, 18(1), 44–52.  
<https://doi.org/10.1111/jppi.12373>.

## تكنولوجيا التعليم وسؤال الجودة

د. محمد ملحاوي

أستاذ بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق  
أستاذ زائر بالمدرسة العليا للتربية والتكوين (وجدة)  
المغرب



### ملخص:

ترمي هذه الدراسة إلى بسط الدور الذي تلعبه تكنولوجيا التعليم في إحداث نقلة نوعية متميزة في مجال التعليم، وكذا في التحصيل المعرفي لدى المتعلمين، وذلك من خلال تحديد أنماط التعليم والتعلم المرتبطة بتكنولوجيا التعليم، والبحث في الطابع المفاهيمي لكل من تكنولوجيا التعليم، والتعليم عن بعد، وكذا التعليم الإلكتروني والتعليم المبرمج، والنظر في أدوارهم ومكانتهم والتبصر في المآلات العلائقية التي تنتج عن الربط بين هذه المفاهيم على مستوى الفصل الدراسي، اعتمادا على المنهج الوصفي والتحليلي المحكوم بضوابط اللغة ودلالات الاصطلاح وجدل العلاقات وطبيعتها.

كلمات مفتاحية: تكنولوجيا التعليم، التعليم عن بعد، التعليم المبرمج، التعليم الإلكتروني، التعلم الذاتي.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ملحاوي، محمد. (2024، أكتوبر). تكنولوجيا التعليم وسؤال الجودة. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 656-673.

### Abstract:

This study aims to outline the role that educational technology plays in creating a significant qualitative shift in the field of education and in learners' knowledge acquisition. It achieves this by identifying the types of teaching and learning associated with educational technology and examining the conceptual nature of educational technology, distance learning, e-learning, and programmed instruction. The study explores their roles and significance, as well as the relational outcomes that arise from integrating these concepts within the classroom setting. This analysis is conducted through a descriptive and analytical approach, governed by linguistic rules, terminological meanings, and the nature of interrelations.

**Keywords :** educational technology, distance learning, programmed instruction, e-learning, self-learning.

## مقدمة

بعد الثورة التكنولوجية التي شهدتها العالم، والتي غزت كل المجالات الحياتية بما فيها الفصول الدراسية، كان لزاماً أن نتحدث عن أثر تكنولوجيا التعليم في المجال التربوي، وجدير بالذكر أن إدماج هذا النمط في التعليم كان في منتصف القرن العشرين بغرض الحد من الصيغ التقليدية التي كانت تسود المناخ التعليمي.

ولا ينكر أحد أن إصلاح التعليم وتطويره ضرورة تدعو إليها الحتميات على اختلافها، انطلاقاً من منطق تطوره المستمر وحاجة الإنسان إلى التأقلم مع مستجداته، إضافة إلى الضرورات الحتمية التي تفرض البحث عن مختلف الآليات الجديدة التي تروم تحقيق الكفايات المنشودة وتحقيق الجودة المطلوبة، ولعل توظيف تكنولوجيا التعليم في المجال التربوي أهم هذه الآليات. فما مدى أهمية وإسهام تكنولوجيا التعليم في عمليتي التعليم والتعلم؟ وما هي العوائق التي تقف أمام توظيفها؟ وهل هي ضرورة حتمية أم يمكن الاستغناء عنها؟ وما هي سلبياتها؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة يقتضي أولاً تحديد أنماط التعليم المتعلقة بتكنولوجيا التعليم من حيث دلالاتها والكشف عن مدى إسهامها في الرفع من جودة المدرسة المغربية، وذلك بذكر إيجابياتها وتحديد سلبياتها بغرض تجنبها وعدم الوقوع فيها، إلا أن ذلك يبقى لا فائدة منه ما لم تحدد أهم التحديات والإكراهات التي ينبغي العمل على تجاوزها وهو ما سيتم توضيحه من خلال هذه الدراسة.

## المبحث الأول: تحديد دلالة المفاهيم ذات العلاقة بتكنولوجيا التعليم.

يعد تحديد المفهوم من أول الخطوات الرامية إلى رسم الحدود الفاصلة بين المجالات المتعددة، ولا سيما عندما يعلق المصطلح بمجال التعليم، إذ تقترب المصطلحات فيه لتتداخل أحياناً، وتتشابه أحياناً أخرى حد التباين، مما يؤدي إلى غياب الرؤيا الواضحة وخاصة عندما تكون المصطلحات متجاورة، أو يجمعها قاسم مشترك كما هو الشأن بالنسبة لمصطلح تكنولوجيا التعليم في علاقته بمصطلحات أخرى من قبيل: التعليم عن بعد؛ التعليم الإلكتروني؛ التعليم المبرمج (...). فما هي دلالة هذه المفاهيم وما طبيعة العلاقة بينها؟

## تكنولوجيا التعليم:

يقصد بتكنولوجيا التعليم "جميع الوسائل أو الوسائط التي تستخدم أو يستعان بها في العملية التربوية، مما يعني أن تكنولوجيا التعليم تشمل مجموعة متنوعة ومتباينة من الآلات

والأجهزة والمعدات والمستلزمات ابتداء من السبورة التقليدية وانتهاء بالتقنيات التربوية الحديثة، وكذا الأوضاع والظروف المحيطة باستخدامها وتشغيلها وتوظيفها في الموقف التعليمي<sup>1</sup>.

إن الناظر لهذا المفهوم يتبين له أن صاحبه "ربط مصطلح تكنولوجيا التعليم بفضاء ضيق متعلق بالآلات والأجهزة، لذا فإنه من الواجب الخروج من هذا الفضاء الضيق إلى فضاء رحب وأوسع، فضاء ينحو معه الحديث عن إعداد المواد التعليمية والبرامج المستخدمة في كل تلك الأجهزة، وبهذا تصبح تكنولوجيا التعليم ذات شقين ديناميين؛ الأول يتمثل في الأجهزة والأدوات، والثاني يتمثل في البرامج والمواد التعليمية. ليستدعي بعد ذلك الجانب البشري الذي يستعمل البرنامج والأجهزة وهو المدرس والمتعلم، والفني والإداري والتقني (...). إن هذا التعدد هو ما يجعل من تكنولوجيا التعليم منظومة متكاملة، أو بناء معرفي منظم من البحوث والنظريات والممارسات الخاصة بعمليات التعليم، ومصادر التعلم الإنساني وتوظيف كفاء لعناصر بشرية وغير بشرية، لتحليل النظام والعملية التعليمية ودراسة مشكلاتها، وتصميم العمليات والمصادر المناسبة كحللول عملية لهذه المشكلات وتطورها واستخدامها وإدارتها وتقويمها، لتحسين كفاءة التعليم وفعاليتها وتحقيق التعلم"<sup>2</sup>.

### التعليم المبرمج<sup>3</sup>:

يعد التعليم المبرمج أسلوباً من أساليب التعلم الذاتي أو الفردي الذي يتم التفاعل فيه بين التلميذ والبرنامج إلى أقصى درجة ممكنة. والذي يتفاعل مع التلميذ هو البرنامج (المادة التعليمية المبرمجة) وليس المدرس، بحيث تُعد هذه البرامج بمهارة ودقة من قبل المتخصصين، كما أنه تطبيق لمبادئ نفسية ظهرت طبقاً لقواعد الطرق العلمية التي نشأت من نظريات التعلم السلوكية، والتي تفترض أن التعلم يحدث عندما تقدم المادة التعليمية للمتعلم على شكل مثيرات تثير له الفرصة لاستجيب لها ثم تعزز هذه الاستجابات.

### التعليم الإلكتروني<sup>4</sup>:

هو شكل من أشكال التعليم عن بعد يكون باستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة بغرض مواكبة التطور العلمي الراهن عن طريق استخدام الحاسوب على سبيل المثال والشبكة

<sup>1</sup> مجدي عزيز إبراهيم، موسوعة التدريس، دار عالم الكتب 2006، ص 124.

<sup>2</sup> محمد عطية خميس، عمليات تكنولوجيا التعليم، دار الكلمة 2003، ص 31.

<sup>3</sup> محمد محمود الحيلة، تكنولوجيا التعليم بين النظرية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص 71 بتصرف.

<sup>4</sup> فاطمة السعدي، دور الوسائط الإلكترونية في تعليم اللغة العربية، مجلة التعليمية، المجلد 5 العدد 14، ماي 2018، ص 504.

العنكبوتية والوسائط المتعددة قصد وصول المعلومات بأسرع وقت وبأقل تكلفة بني المتعلمين مع التفاعل الايجابي مع المعلومة.

### التعليم عن بعد:

إن المقصود بالتعليم عن بعد هو ذلك "التعليم النظامي المنظم الذي تتباعد فيه مجموعات التعلم وتستخدم فيه نظم الاتصالات التفاعلية لربط المتعلمين والمصادر التعليمية والمعلمين سوياً"<sup>1</sup>.

ويعد التعليم عن بعد والتعليم الإلكتروني من المصطلحات المتقاربة التي ينبغي رسم الفواصل بينها بذكر أوجه الاختلاف بينهما كما هو مبين في الآتي<sup>2</sup>:

### من حيث المرونة:

يعتمد نظام التعليم الإلكتروني على متابعة المتعلم وحضوره، ورفع وتسليم الاختبارات بعد الانتهاء من وحدة تعليمية، بينما في نظام التعليم عن بعد يتمتع المتعلم بالمرونة الكاملة حيث لا يتقيد بالحضور أو تسليم الاختبارات في وقتها المحدد، وإنما يمكنه رفعها متى ما تمكن من إنهاء الوحدة التعليمية.

### من حيث المكان والزمان:

يلتزم المتعلم في نظام التعليم الإلكتروني بالحضور والتواجد مع المدرس أثناء شرح المادة العلمية، أما في نظام التعليم عن بعد لا يتقيد المتعلم بالوقت المحدد للحصة، وإنما يمكنه سماع المادة العلمية في أي وقت وأي مكان.

### من حيث التفاعل:

يتفاعل المتعلم مع المدرس بشكل مباشر، وفق استراتيجيات التعليم الإلكتروني، أما في نظام التعليم عن بعد لا يشترط التفاعل بشكل مباشر مع المدرس.

<sup>1</sup> لي ايرز شلوسر ومايكل سيمونسن، نظريات التعليم عن بعد ومصطلحات التعليم الإلكتروني، ترجمة نبيل جاد عزمي، ط2 مكتبة بيروت 2010، ص1.

<sup>1</sup> الفرق بين التعليم عن البعد والتعليم الإلكتروني، بتاريخ 2014-10-25، الساعة 10H30، بتصرف كثير، الرابط:

<https://2u.pw/UUrf92y>

## من حيث الهدف:

إن الهدف في نظام التعليم الإلكتروني هو استخدام الوسائل التكنولوجية والإنترنت، للوصول إلى طرق إبداعية في التعليم، أما هدف التعليم عن بعد فهو إتاحة الفرصة للتعليم بالنسبة لمن تعذر عليه الحضور لأسباب خاصة، كما أن التعليم عن بعد لا يتطلب دائما استخدام وسائل الاتصال الحديثة من أجل الحصول على المادة التعليمية؛ لأن المتعلم باستطاعته أن يحصل عليها في شكل كُتيبات أو مواد مطبوعة ورقياً دون الاضطرار إلى استخدام أجهزة الكمبيوتر أو الوسائط المتعددة طوال الوقت.

وبشكل مُختصر؛ يُمكننا أن نذكر الفرق بين التعليم الإلكتروني والتعليم عن بُعد في الآتي:

الأول مرتبط بالتواصل مع هيئة التدريس عبر وسائل الاتصال الحديثة، بينما الثاني لا يتطلب وجود تواصل مع المدرسين، وإنما هو بمثابة تعلم ذاتي<sup>1</sup>.

في الأخير، يمكن القول إن مصطلح تكنولوجيا التعليم مصطلح واسع يرتبط بمجموعة من أنماط التعليم والتعلم معا، فبه تتسلح هذه الأخيرة لتنتقل من مرحلة التخطيط والإعداد إلى مرحلة التدبير والتنفيذ؛ أي إن تكنولوجيا التعليم هي مجموع الآليات الإجرائية الضرورية لتوظيف العديد من أنماط التعلم الحديث من قبيل التعلم المبرمج والتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد (...).

## المبحث الثاني: أثر تكنولوجيا التعليم في عملي التعليم والتعلم.

تسعى مختلف الدول إلى تطوير منظومتها التربوية التعليمية لتكون قادرة على إحداث نقلة نوعية في مجال التربية والتعليم، والمغرب كغيره من الدول انتهج في سبيل الرقي بمنظومته مجموعة من التدابير المتعلقة بالإصلاحات المتوالية قصد تطوير الممارسة التربوية، حيث أكد على

<sup>1</sup> التعلم الذاتي: هو النشاط التعليمي الذي يقوم به المتعلم مدفوعا برغبته الذاتية، بهدف تنمية استعداداته وإمكانياته وقدراته وكفاياته الشخصية مستجيبا لميوله واهتماماته بما يحقق تنمية شخصيته وتكاملها والتفاعل الإيجابي والناجح مع مجتمعه عن طريق الاعتماد على نفسه والثقة بقدراته في عملية التعليم والتعلم. ويتعلم الطالب بواسطة التعلم الذاتي كيف يتعلم ومن أين يحصل على مصادر التعلم، فينتج إلى تعليم نفسه بنفسه، ويمر بالمواقف التعليمية المختلفة اللازمة لاكتساب المهارات أو المعلومات المطلوبة، مما يجعل العملية التعليمية موجهة نحو الفرد الذي يقوم بالدور الأكبر في الحصول على المعرفة ويكون أكثر إيجابية في التعامل مع الموقف التعليمي، ويصبح المتعلم محور العملية التعليمية التعليمية والمسيطر على متغيراتها، في حين تخضع المناهج والكتب والأهداف والأنشطة التعليمية لدوافع الطالب ورغباته وقدراته. (المعجم الموحد لمصطلحات المناهج وطرائق التدريس، محمد الدريج وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب- الرباط، سلسلة المعاجم الموحدة، رقم: 44، 2020، م، ص 116).

ضرورة توظيف التقنيات الحديثة في المجال التربوي، بل إنه سعى نحو التنزيل الإجرائي العملي لذلك عبر تمكين المدرسين المنتمين للمدارس الرائدة من الوسائل التكنولوجية بغرض توظيفها في الممارسات الصفية للرقى بالمدرسة المغربية وجعلها قادرة على تجاوز العوائق والتحديات العالمية ومساهمة في إعداد جيل متشبع بروح المسؤولية والمواطنة.

من هنا يمكن أن نطرح بعض الأسئلة التالية: هل المدارس الرائدة هي السبيل الوحيد لتوظيف تكنولوجيا التعليم في عملية التعليم؟ وما هي أهم الأسباب التي حالت دون الاستمرار في نمط التعليم عن بعد على سبيل المثال الذي تم إقراره سنة 2020 أثناء جائحة كورونا؟

ومحاولة منا للإجابة عن هذه الأسئلة كان من الضروري أن نقف عند أهم إيجابيات وسلبيات تكنولوجيا التعليم باعتبارها الوسيلة الإجرائية لتوظيف العديد من أنماط التعليم والتعلم وعلى رأسها التعليم عن بعد، وذلك كما هو مبين في الآتي:

#### أولاً: إيجابيات تكنولوجيا التعليم:

لا شك أن لتكنولوجيا التعليم مجموعة من الفوائد التي تعود بالنفع على كل المتدخلين في عمليتي التعليم والتعلم، بدءاً من المتعلم ومروراً بالأطواق التربوية والإدارية وانتهاء عند الوزارة الوصية على القطاع، وهذه بعضها على سبيل المثال لا الحصر والعدد:

#### إتاحة إمكانية التعلم عن بعد:<sup>1</sup>

ساهمت وسائل الاتصال والإعلام في الرفع من جودة التعليم والتعلم ولأزالت ستساهم في تنزيل الكثير من الرافعات<sup>2</sup> التي اعتمدها المغرب في الرؤية الإستراتيجية 2030/2015. فقد تمكن المتعلمون من متابعة دراستهم من بيوتهم رغم تعذر حضورهم للفصول الدراسية بسبب الأمراض أو الأوبئة كما هو الشأن في الآونة الأخيرة بسبب تفشي الفيروس المعلوم، كما تمكنت فئات أخرى -الموظفون والأمهات المربيات - من متابعة دراستهم عن بعد، خاصة أن الكثير من الجامعات لم

<sup>1</sup> مقال Sergio Luján- والدكتور Santiago criollo، Advantages and disadvantages of m-learning in current education للدكتور Angel Alcázar Mora، نشر بمجلة IEEE إثر المشاركة في المؤتمر العالمي للتعليم الهندسي (EDUNINE) الذي نظم من يوم 11 إلى 14 مارس سنة 2018 بالرجنتين، ص 36 بتصرف.

<sup>2</sup> تُعتبر وسائل الاتصال والإعلام من أنجع الآليات الكفيلة لتنزيل مجموعة من الرافعات المنصوص عليها في الرؤية الإستراتيجية 2030-2015 كتأمين الحق في ولوج التربية والتكوين للأشخاص في وضعية إعاقة أو في وضعية خاصة، وإرساء مدرسة ذات جدوى وجاذبية، ورافعة تمكين المتعلمين من استدامة التعلم وبناء المشروع الشخصي والاندماج، وتطوير نموذج بيداغوجي قوامه التنوع والانفتاح والنجاعة والابتكار، وتأمين التعلم مدى الحياة، وتعزيز تموقع المغرب ضمن البلدان الصاعدة.



تعد تشترط حضور المحاضرات في مقرها للحصول على شهادتها، واتجهت إلى إصدار شهادات إلكترونية من خلال حضور المحاضرات عن بعد.

### المرونة وسهولة الوصول إلى المعلومة وتحقيق التعاون بين المتعلمين:

تتيح وسائل الإعلام والاتصال عدة مزايا منها: "إمكانية متابعة الدراسة بواسطة الأجهزة المحمولة التي تجعل عملية التعلم أكثر مرونة وتوفر عدد كبير من المعلومات في وقت وجيز، كما تسهم في إفادة المتعلمين من بعضهم البعض عبر إنشاء مجموعات لتبادل المعارف والمهارات التي تجعلهم قادرين على التعبير وتبادل الآراء وحل المشكلات واتخاذ القرارات"<sup>1</sup>.

### تحفيز المتعلمين على التعلم:

تجعل الوسائل التكنولوجية العملية التعليمية التعليمية أكثر تشويقاً ومتعة، وتخرجها من النمط التقليدي الممل، وذلك من خلال بث الرغبة لدى المتعلم التي تعد سر من أسرار النجاح. قال الماوردي: "فإن نيل العظيم بأمر عظيم، وعلى قدر الرغبة تكون المطالب"<sup>2</sup>، فتوظيف الأستاذ للوسائل التكنولوجية يعتبر "عنصراً أساسياً في إثراء الموقف التعليمي وإثارة الدافعية لدى المتعلمين"<sup>3</sup>، باعتبارها الوسائل الأشد تأثيراً ولفتاً للانتباه في هذا العصر.

### التوافق مع أنماط فهم المتعلم:<sup>4</sup>

أجريت دراسة استبائية حول أهمية وسائل الاتصال والإعلام اتفق فيها جل الأساتذة على أن هذه الأخيرة تتيح إمكانية نهج تعليم فردي مرن ينمي قدرات المتعلمين ويراعي فروقاتهم ويسهم بشكل جلي في عملية التعلم الذاتي.

<sup>1</sup> مقال "Mobile Learning: New forms of education" للدكتور P. Campanella، نشر بمجلة IEEE إثر النسخة العاشرة للمؤتمر الدولي حول التقنيات المستجدة للتعلم عبر الشبكة العنكبوتية وتطبيقاته (10th International Conference on emerging eLearning technologies and application) سنة 2012 بسلوفاكيا. ص: 51 / 52 بتصرف.

<sup>2</sup> أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، دار مكتبة الحياة 1986م، ص: 57.

<sup>3</sup> مدخل إلى تكنولوجيا التعليم، غالب عبد المعطي الفريجات، ط3، دار كنوز المعرفة، عمان 2014، ص: 98.

<sup>4</sup> مقال "Evaluation of distance education environmental advantages"، للدكتورة Iren Katane والدكتورة Itena Kristovska والدكتور Edgars Katans، نشر بفعاليات المؤتمر العلمي الدولي Engineering for Rural Development سنة 2015، ص: 720/720 بتصرف كثير.

وقد ذكر غالب عبد المعطي الفريجات مجموعة من الفوائد ألخص بعضها في الآتي<sup>1</sup>:

- تحسين نوعية التعليم والوصول به إلى درجة الإتقان؛
- تحقيق الأهداف التعليمية بوقت وإمكانات أقل؛
- الرفع من مستوى الإدراك الحسي بحيث إن الألفاظ لا تستطيع أن تعطي المتعلم صورة حقيقة جلية تماما عن الشيء موضوع الحديث بنفس الصورة التي تقدمها الوسيلة الإيضاحية؛
- تشجيع التعلم الذاتي؛
- تنمية الحس الجمالي، فالتقنية التعليمية تكون في العادة ذات إخراج جيد، وتناسق لوني جميل؛
- تنوع حواس المتعلم بمشاركة أكثر من حاسة في التعلم...إلخ.

ثانيا: سلبيات تكنولوجيا التعليم:

إن التوظيف الأمثل لتكنولوجيا التعليم كفيل للرفع من جودة المدرسة المغربية، إلا أن ذلك محفوف بمجموعة من الآثار السلبية، سواء على مستوى توفير التقانة اللازمة أو على مستوى سوء توظيفها في حال توفرها، وهذه بعض السلبيات أو المعوقات التي تقف أمام التوظيف الأمثل لتكنولوجيا التعليم<sup>2</sup>:

- استحالة تعميم هذه الوسائل على الجميع وخصوصا في بلدان العالم الثالث، وبالتالي لن يستفيد منها الكل بسبب الفقر، أو بسبب ضعف صبيب الأنترنت في المناطق النائية وهذا ضرب في مبدأ تكافؤ الفرص.

- ضعف المهارات الأساسية المتعلقة بالقراءة والكتابة والإملاء بسبب الاعتماد على الدروس المكتوبة مسبقا، وضعف التفكير والبحث والابداع بسبب الاتكال على المعلومات السهلة المنال التي تقدمها هذه الوسائل.

<sup>1</sup> مدخل إلى تكنولوجيا التعليم، غالب عبد المعطي الفريجات، ط3، دار كنوز المعرفة، عمان 2014، ص: 51 وما بعدها، بتصرف.

<sup>2</sup> استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال وأثره على تحسين جودة العملية التعليمية: دراسة عينة من الجامعات الجزائرية، ضيف الله نسيمة، دكتوراه نوقشت سنة 2016/2017 بجامعة الحاج لخضر، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، ص: 161، بتصرف.

- احتمالية الخروج عن القصد التربوي الذي من أجله أُدمجت وسائل الاتصال، وذلك من خلال ولوج بعض المواقع التي تُعتبر وسيلة إلهاء ومضيعة لوقت التعلم، أو ولوج المواقع الإباحية.
- فقدان الخصوصية وتسرب الملفات الخاصة عبر الإنترنت من خلال برامج التجسس والاختراق مما قد يُعرض للابتزاز والتهديد.

- الغش في الامتحانات والسرقة العلمية لأنهما يعتبران من المضار الخطرة الناتجة ويتجلى معنى السرقة العلمية في لجوء المتعلمين إلى نسخ المعلومات ونسبها لأنفسهم، مما ينعكس سلباً على صاحب الأصلي للمعلومة من جهة، وعلى مستقبل المتعلم من جهة أخرى.

### المبحث الثالث: دواعي توظيف تكنولوجيا التعليم في عملية التعليم والتعلم وإكراهاته

تشهد الألفية الثالثة من تاريخ البشرية تحولات جذرية وعميقة، وأبرز هذه التحولات ما بات يعرف بالثورة الرقمية، التي غيرت نمط عيشنا، وأصبحت تحكم كل أفعالنا وسلوكنا في شتى المجالات. وإذا كانت هذه الثورة لم تستثن أي جانب من جوانب حياتنا، فإن منظومة التربية والتعليم ليست بمعزل عن ذلك، فميدان التعليم أصبح يعرف تغيرات ليست كسابقاتها، سواء من حيث طرق التدريس، أو من حيث طرق التعلم وسهولة الوصول إلى المعلومة، بناءً على ذلك ينبغي على كل المتدخلين في الفعل التربوي مواجهة هذه الموجة الرقمية ومسايرتها حتى يتمكنوا من النهوض بالمنظومة التربوية، لذلك سيتناول هذا المبحث بعض الأسباب الداعية إلى ضرورة توظيف الوسائل التكنولوجية وما يعترض ذلك من إكراهات وتحديات.

#### أولاً: الدواعي<sup>1</sup>:

- أضحت وسائل الاتصال والإعلام في صلب اهتمام الفاعلين التربويين الحريصين على الرفع من جودة التعليم والتعلم، لذلك جعلوها من أهم مداخل الابداع الحديث، والأداة الأكثر شيوعاً، والأشد تأثيراً في جيل المستقبل، ومما لا شك فيه أن نجاح دور المدرسة رهين بمدى استجابتها لتغيرات المجتمع، ومن هنا كان لزاماً على كل الفاعلين الاهتمام بهذا الجانب المهم في المنظومة التربوية.

- بعد أن اجتاحت التقدم التكنولوجي فضاء الحياة العامة وولج رحاب الحياة المدرسية بقوة، ونظراً لما قدمه للحدثة والعولة، كان لابد أن يمتد هذا التأثير ويكتسح عمليتي التعليم والتعلم؛

<sup>1</sup> مشكلات استخدام التكنولوجيا في التعليم التي تواجه مدرسي اللغة العربية، نصرت جواد زيدان، رسالة ماجستير طُبعت سنة 22/08/2015 بجامعة الشرق الأوسط، العراق، ص 8. بتصرف كثير.

لذا فمن الضروري إعادة النظر في المناهج والبرامج والوسائل وأدوار كل الفاعلين التربويين؛ لأن جيل اليوم نشأ وترعرع في حضن وسائل الاتصال الحديثة مما اكسبه مؤهلات ومقومات ثقافية-تواصلية، وكفايات تكنولوجية جعلته يملك قدرة مدهشة على استيعاب المفاهيم المرئية والمسموعة، وله رغبة دائمة في البحث والتواصل عبر شبكات الأنترنت، الأمر الذي يستوجب استغلاله لتفجير هذه الطاقات وتمليكها المعارف والمهارات والقيم الكفيلة بصقل شخصيتها وتنمية فكرها وتفتيح مخيلتها الإبداعية الخلاقة.

لقد أصبحت تكنولوجيا التعليم وسيلة مهمة لتحقيق الأهداف التعليمية، فهي تساهم حسب رأي زاهر أحمد في<sup>1</sup>:

- تدريس الميول والاتجاهات؛

- تساعد المتعلمين على الفهم، وتعمل على إكسابهم المهارات.

من هنا يمكن القول بأن توظيف تكنولوجيا التعليم أصبح ضرورة حتمية نظرا لما تقتضيه السياقات العالمية الناتجة عن الثورة الرقمية، إضافة إلى كونها باتت وسيلة مهمة تساعد على الرفع من جودة التعليم، غير أن السعي نحو ذلك يعترضه مجموعة من الإكراهات والتحديات التي ينبغي الوقوف عندها بالتفكير من أجل إيجاد السبل والآليات الكفيلة بمواجهتها وتجاوزها.

ثانيا: الإكراهات والتحديات:

إن تحقيق الغايات التربوية المنشودة في ظل التطور التكنولوجي أصبح رهينا بمدى إدماج وسائل التواصل والإعلام في المنظومة التربوية، وإدماجها محفوف بعدة إكراهات منها<sup>2</sup>:

- نوعية التكوين المعتمد في مراكز التكوين لازال نمطا تقليديا؛

- ضعف الجانب التطبيقي في مادة الإعلاميات؛

- غياب شبه تام للوسائل (الحاسوب، اللوائح الإلكترونية، السبورة التفاعلية...)، والبرامج التعليمية المناسبة؛

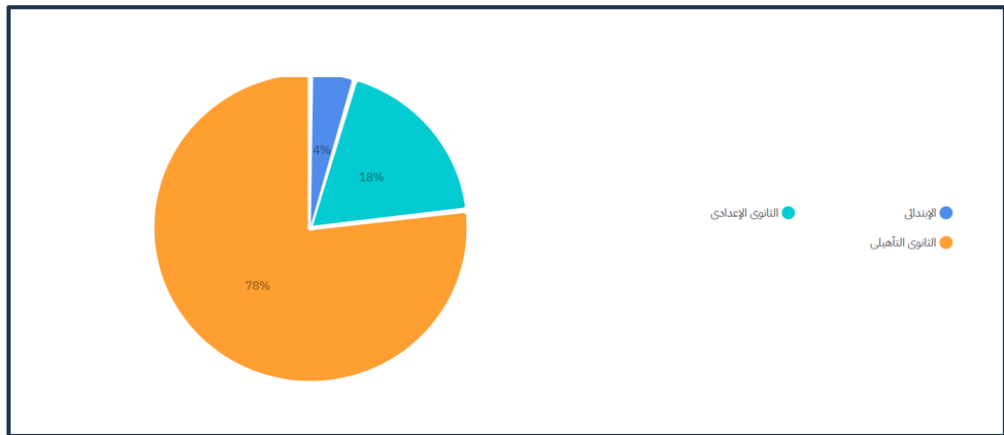
- قلة الوعي بأهمية إدماج التكنولوجيا في مجال التربية والتعليم.

<sup>1</sup> تكنولوجيا التعليم تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية، زاهر أحمد، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1997، ص 68-69، بتصرف.

<sup>2</sup> تكنولوجيا الإعلام والتواصل في المنظومة التربوية المغربية. مرجع سابق، الصفحة 12/11، بتصرف.

في هذا السياق أجريت دراسة ميدانية في مديرية وجدة أنجاد -جهة الشرق- على عينة تضم 50 أستاذاً وأستاذة حول توظيف الوسائل التكنولوجية في الفصول الدراسية الخاصة بالأسلاك الثلاثة فكانت نتائجها كالآتي:

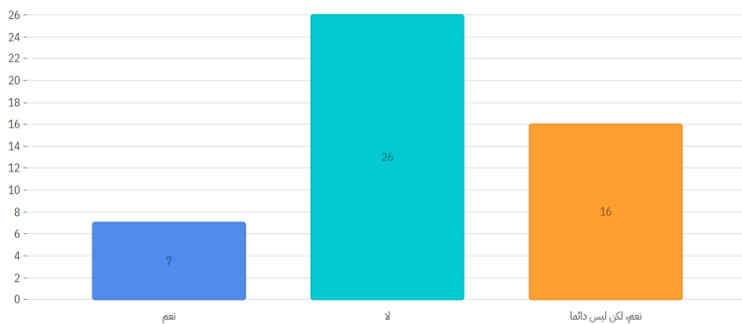
#### توزيع عينة الدراسة حسب الأسلاك التعليمية:



#### مبيان خاص بتوزيع عينة الدراسة حسب الأسلاك

وقد بُنيت الدراسة على ستة أسئلة تتعلق في مجملها بإكراهات وتحديات توظيف الوسائل التكنولوجية داخل الفصول الدراسية، وبيانها في الآتي:

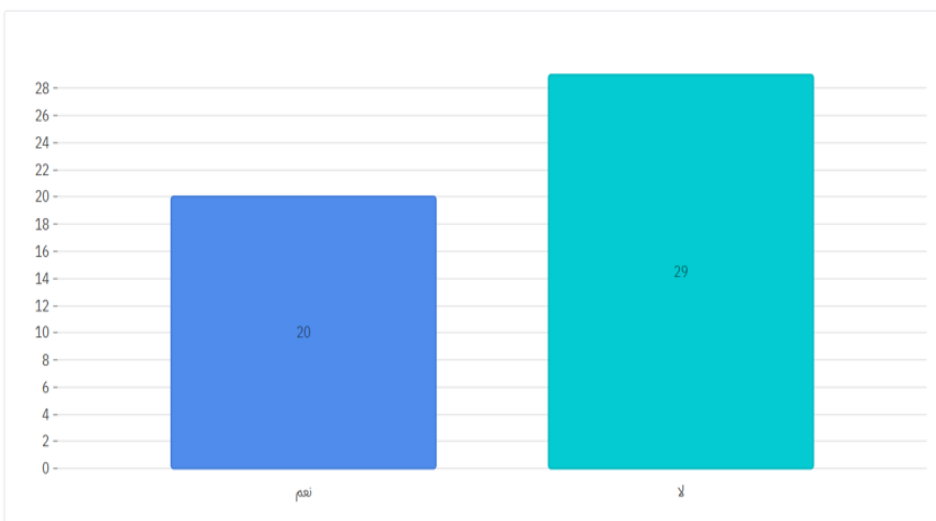
أولاً: السؤال الخاص بتوفر الوسائل التكنولوجية:



مبيان رقم (1): نسبة توفير المؤسسات التعليمية للوسائل التكنولوجية

تفيد المعطيات الواردة في المبيان أن نسبة مهمة جدا تقدر ب: %53 من عينة الدراسة أكدت غياب الوسائل التكنولوجية في المؤسسات التعليمية، الأمر الذي جعلنا نقف أمام عائق مهم يحول دون توظيف الوسائل التكنولوجية في الفصول الدراسية وهو غياب العدة اللوجيستكية. أما فيما يتعلق بالجانب الآخر من الاستطلاع فقد وجدنا أن نسبة %14,2 فقط من عينة الدراسة تقول بأن الوسائل التكنولوجية متوفرة في المؤسسات التعليمية. في حين نجد أن نسبة %32,6 تقول بأن توفيرها لا يكون دائما وهو ما يؤكد وجودها، ولكن بنسبة قليلة لا تغطي حاجيات المؤسسة.

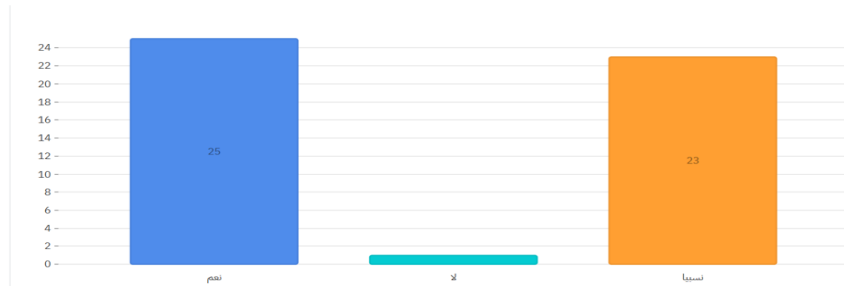
#### ثانيا: السؤال الخاص بربط المؤسسات التعليمية بصبيب الإنترنت



#### مبيان رقم (2): المؤسسات التعليمية الموصولة بصبيب الإنترنت

عبرت نسبة مهمة جدا تقدر ب %59.1 من عينة الدراسة عن عدم توفر المؤسسة التعليمية على فضاء مرتبط بصبيب الإنترنت، في حين اعتبرت نسبة %40,8 أن المؤسسات التعليمية مرتبطة بالإنترنت.

## ثالثا: السؤال الخاص بمدى التمكن من استعمال الوسائل التكنولوجية



مبيان رقم (3): مدى التمكن من الكفاية التكنولوجية لدى السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات

أبانت نتائج الدراسة أن نسبة 51% من المبحوثين تقر بتمكنها من الكفاية اللازمة لتدبير وتوظيف الوسائل التكنولوجية في فصولها الدراسية، في المقابل نجد أن نسبة ليست بالقليلة قدرت ب: % 46.9 تقر بوجود ضعف على مستوى استعمال الوسائل التكنولوجية، الأمر الذي يجعلنا نقف عند أهمية التكوينات وضرورة توفيرها حتى يتمكن السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات من مهارة استعمال وتوظيف الوسائل التكنولوجية. كما أقرت نسبة قليلة جدا تقدر ب % 2 بعدم قدرتها على استعمال الوسائل التكنولوجية، وهو رقم ليس بالهين مقارنة بعدد المستجوبين وقد جاء مؤكدا على ضرورة توفير التكوينات اللازمة والمستمرة من أجل التمكن من الكفايات اللازمة.

رابعا: سؤال خاص باستعمال السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات للوسائل التكنولوجية أثناء حصصهم الدراسية:

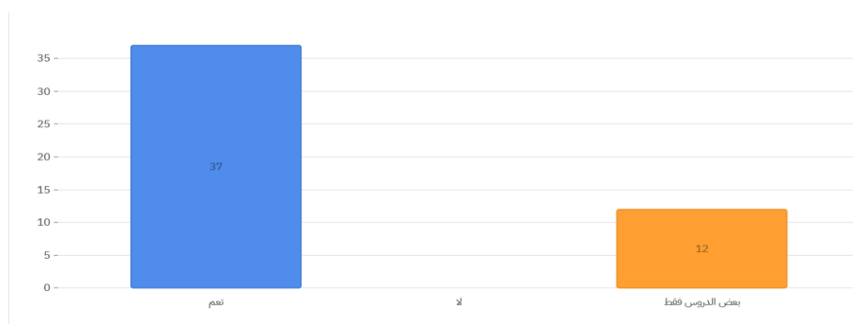


مبيان رقم (4): توظيف السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات الوسائل التكنولوجية داخل الفصول الدراسية

وفي معرض التساؤل عن مدى توظيف السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات للوسائل التكنولوجية داخل فصولهم الدراسية، عبرت العينة المبحوثة بما مجموعه 53% عن توظيفها للوسائل التكنولوجية أثناء تدريسهم. وأقرت نسبة من عينة الدراسة تقدر ب: 18,3% بعدم توظيفها لهذه الوسائل أثناء حصصهم التدريسية. في حين أقرت نسبة 28,5% أنها لا تستعمل الوسائل التكنولوجية إلا نادرا، وبالتالي يمكن القول بأن ما مجموعه 46,8% من عينة الدراسة تدخل في دائرة عدم استعمال الوسائل التكنولوجية لأسباب معروفة كغياب الوسائل التكنولوجية أو عدم اتقان استعمالها. وأخرى غير معروفة ينبغي الوقوف عندها للعمل على تجاوزها حتى تتمكن المدرسة المغربية من تحقيق الجودة من جهة، والعمل على تكافؤ الفرص في التعلم الرقمي بالنسبة للمتعلمين من جهة أخرى.

خامسا: سؤال خاص بمدى تلاؤم الدروس المقررة مع توظيف الوسائل التكنولوجية في

تدريسها

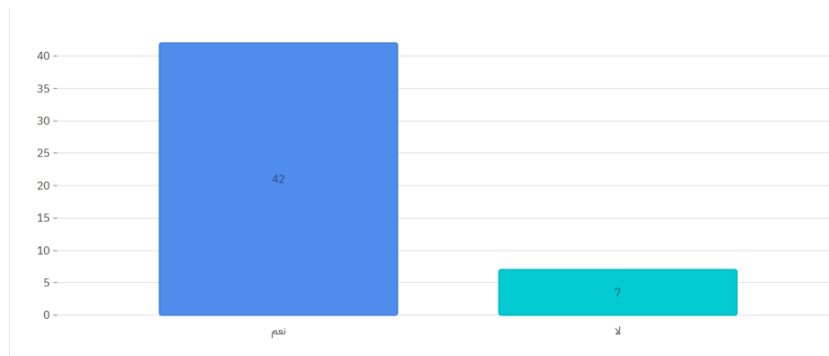


مبيان رقم (5): مدى تلاؤم الدروس مع الوسائل التكنولوجية

بالنسبة لملائمة الوسائل التكنولوجية للدروس المقررة فإن نسبة 75,5% من عينة الدراسة الميدانية أقرت بملائمة الوسائل التكنولوجية لتدريس مختلف دروسهم، بينما ترى نسبة أخرى من عينة الدراسة تقدر ب: 24,4% أن بعض الدروس يمكن تدريسها بواسطة الوسائل التكنولوجية، في حين يتعذر ذلك بالنسبة لدروس أخرى. في الوقت ذاته خلص الاستطلاع إلى نفي تام من قبل المستجوبين لعدم جدوى استعمال الوسائل التكنولوجية وهو ما يؤكد أهميتها وضرورة العمل على تجاوز التحديات التي تعترض توظيفها سواء داخل الفصول الدراسية أو خارجها.



سادسا: سؤال خاص بتصوير السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات لضرورة توظيف الوسائل التكنولوجية من عدمه:



مبيان رقم (6): تصور السادة الأساتذة والسيدات الأستاذات لمسألة توظيف الوسائل التكنولوجية داخل الفصول الدراسية

من خلال المعطيات أعلاه يتبين أن نسبة مهمة من عينة الدراسة تقر بضرورة توظيف الوسائل التكنولوجية داخل الفصول الدراسية، وقد قدرت هذه النسبة ب: 85.7%، في حين ذهبت مجموعة أخرى من السيدات الأستاذات والسادة الأساتذة بنسبة تقدر ب 14,2% إلى عدم جدوى استعمالها وهو ما يمكن رده إلى غياب الوعي بأهمية الوسائل التكنولوجية في التدريس.

## خاتمة:

يواجه التعليم في بلدنا تحديات متلاحقة تتمثل في صعوبة مسايرة الثورة العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية، وهي ما تعرف باسم الثورة الصناعية الثالثة، لذا كان من الأهمية أن نسعى في تطوير العملية التعليمية والتحسين من جودتها، وتطويرها يحتاج إلى أساليب جديدة في التعليم وإعادة هيكلة المناهج وتطويرها لتلائم التقدم الحادث في عالمنا حتى يتمكن المتعلم من الكفايات اللازمة، لاسيما التكنولوجية منها، وبالتالي تحقق جودة المدرسة المغربية، ولعل النتائج الآتية تشكل خطوة مهمة في السعي نحو تحقيق ذلك:

- توفير العدة التكنولوجية داخل مختلف المؤسسات التعليمية؛
- ربط مختلف المؤسسات التعليمية بصبيب الإنترنت؛

- تعزيز الدعم الاجتماعي لفائدة المتعلمين والمتعلمات بما يمكنهم من توفير الوسائل الإلكترونية؛
- برمجة تكوينات للسادة الأساتذة والسيدات الأستاذات قصد تمكينهم من الكفايات التكنولوجية اللازمة؛
- هيكلة الدروس والبرامج بما يتناسب مع توظيف الوسائل التكنولوجية؛
- التنوع في أنماط التعليم والتعلم وذلك بإعادة الاعتبار للتعليم عن بعد والتعلم المبرمج...؛
- عقد ندوات وحملات تحسيسية ب حول أهمية توظيف الوسائل التكنولوجية والتحذير من سلبياتها.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع:

- تكنولوجيا التعليم تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية، زاهر أحمد، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1997.
- مدخل إلى تكنولوجيا التعليم، غالب عبد المعطي الفريجات، ط3، دار كنوز المعرفة، عمان 2014.
- موسوعة التدريس، مجدي عزيز إبراهيم، موسوعة التدريس، دار عالم الكتب 2006.
- عمليات تكنولوجيا التعليم، محمد عطية خميس، دار الكلمة 2003.
- تكنولوجيا التعليم بين النظرية والتطبيق، محمد محمود الحيلة، دار المسيرة للنشر والتوزيع.
- دور الوسائط الالكترونية في تعليم اللغة العربية، فاطمة السعدي، المجلة التعليمية، المجلد 5 العدد 14، ماي 2018.
- نظريات التعليم عن بعد ومصطلحات التعليم الإلكتروني، لي ايرز شلوسر ومايكل سيمونسن، ترجمة نبيل جاد عزمي، ط2 مكتبة بيروت 2010.
- المعجم الموحد لمصطلحات المناهج وطرائق التدريس، محمد الدريج وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب- الرباط، سلسلة المعاجم الموحدة، رقم: 44، 2020 م.
- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، دار مكتبة الحياة 1986م.
- استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال وأثره على تحسين جودة العملية التعليمية: دراسة عينة من الجامعات الجزائرية، ضيف الله نسيم، دكتوراه نوقشت سنة 2016/2017 بجامعة الحاج لخضر، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير.

- مشكلات استخدام التكنولوجيا في التعليم التي تواجه مدرسي اللغة العربية، نصرت جواد زيدان، رسالة ماجستير طبعت سنة 22/08/2015 بجامعة الشرق الأوسط، العراق.
- مقال Advantages and disadvantages of m-learning in current education، للدكتور Santiago criollo والدكتور Sergio Luján-Mora والدكتور Angel Alcázar، نشر بمجلة IEEE إثر المشاركة في المؤتمر العالمي للتعليم الهندسي (EDUNINE) الذي نظم من يوم 11 إلى 14 مارس سنة 2018 بالأرجنتين.
- مقال "Mobile Learning: New forms of education" للدكتور P. Campanella، نشر بمجلة IEEE إثر النسخة العاشرة للمؤتمر الدولي حول التقنيات المستجدة للتعليم عبر الشبكة العنكبوتية وتطبيقاته (10th International Conference on emerging eLearning technologies and application) سنة 2012 بسلوفاكيا.
- مقال "Evaluation of distance education environmental advantages"، للدكتورة Iren Katane والدكتورة Irena Kristovska والدكتور Edgars Katans، نشر بفعاليات المؤتمر العلمي الدولي Engineering for Rural Development سنة 2015.

### المواقع الإلكترونية

- الفرق بين التعليم عن البعد والتعليم الإلكتروني، بتاريخ 2014-10-25، الساعة 10H30 على الرابط :

<https://2u.pw/UUrf92y>

# استثمار تكنولوجيا التعليم الرقمي في تطوير الممارسة المهنية للقيادات التربوية بمؤسسات التربية والتعليم العمومية بالمغرب (تقنيات الذكاء الاصطناعي أنموذجا)

د. نجيب مزوار

باحث في التربية والتواصل  
جامعة محمد الأول بوجدة  
المغرب



## ملخص:

نتيجة للتطور الذي شهده العالم في السنوات الأخيرة في حقل التربية والتعليم، على كافة المستويات، ولكل الفئات التعليمية، ومنها هيئة أطر الإدارة التربوية - القيادات التربوية، فقد أصبح تجديد الأساليب الخطية والطرائق التقليدية في تدبير المؤسسات التعليمية، التي لم تعد تسهم بفعالية كبيرة في تحقيق فعالية مؤسسات التربية والتعليم وجودتها، مطلباً ملحاً اليوم، قبل أي وقت مضى؛ واعتبار تقنيات الذكاء الاصطناعي بديلاً جاهزاً للأنماط التعليمية الحالية. ومن هذا المنطلق، حاولنا، في هذه الورقة العلمية، إبراز آليات الارتقاء بالممارسة المهنية للقائد التربوي، وقدرته على خلق تغيير إيجابي في المؤسسة التي يدير شؤونها، من خلال استثمار تقنيات الذكاء الاصطناعي المتاحة؛ بهدف تحقيق الانتقال الرقمي على صعيد المنظومة التعليمية، وربطها بالمشروع المجتمعي.

كلمات مفتاحية: الذكاء الاصطناعي - القيادة التربوية - الممارسة المهنية.

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مزوار، نجيب. (2024، أكتوبر). استثمار تكنولوجيا التعليم الرقمي في تطوير الممارسة المهنية للقيادات التربوية بمؤسسات التربية والتعليم العمومية بالمغرب (تقنيات الذكاء الاصطناعي أنموذجا). مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 674-684.

## Abstract:

The article highlights the necessity of renewing traditional methods in managing educational institutions, particularly in light of recent developments in the fields of education and training. It points out that conventional methods are no longer sufficient to achieve quality and effectiveness in the education institutions. The article emphasizes the importance of leveraging artificial intelligence technologies as a ready alternative to improve these institutions. The paper aims to illustrate how to enhance the professional practices of educational leaders through the use of AI to achieve digital transformation and link the educational system to the societal project.

**Keywords :** Artificial intelligence; Educational leadership; Professional practice.

## مقدمة

تكتسي تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أهمية كبيرة في حياة الناس؛ لأنها أسهمت - بفعالية - في جعل العالم يبدو كأنه قرية صغيرة. وقد تزايد ذلك بفضل نتائج الثورة الصناعية الرابعة، وما أتت به في مجال الذكاء الاصطناعي والروبوت، وأنترنت الأشياء، ومنصات التعليم الرقمية، وقواعد البيانات الضخمة، وغيرها.

إنّ هذا التطور مسّ جميع المجالات الحيوية عندنا، بما فيها قطاع التربية والتعليم في جميع مراحلها؛ لما لإدماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات من أثر مؤكد في الرفع من أداء كافة مكونات المنظومة التعليمية المغربية، كما تسهم، من دون شك، في تطوير الممارسة المهنية لدى الفاعلين المباشرين في عملية التربية والتكوين، ومن بينها القيادات التربوية المسؤولة عن تنزيل أورش الإصلاح بالمدرسة العمومية المغربية.

ومن هنا، تبرز الحاجة الملحة إلى خلق بيئة تعلم ذكي، تحفز الأفراد، وتنمي مهاراتهم في عصرٍ تتغير فيه الوسائل والأدوات باستمرار، وتتطور المفاهيم والمعارف على نحو هائل، على أن تراعي احتياجات المعلمين والمتعلمين على حد سواء، ومقتضيات ذلك التغيير، في ظل ما تتطلبه الجودة الشاملة، والسعي إلى تحقيق التنمية المستدامة. وهنا، تبرز ضرورة التأكيد على الوعي بأهم المفاهيم والمصطلحات الحديثة في مجال التكنولوجيا الرقمية والتعلم الذكي والذكاء الاصطناعي، وآليات توظيفها في مجال التعليم؛ وذلك من خلال تقديم مقترحات وأفكار ونماذج حزمة تعليم رقمية متكاملة، يتم من خلالها إعداد وتأهيل وتطوير بيئة التعليم بكافة عناصرها ومستوياتها، والعمل على تطوير أداء العاملين في المؤسسات التعليمية والأكاديمية مهنيًا وتربويًا وتقنيًا، بالإضافة إلى تطوير أدوات مساندة ومدعمة لهذا الإعداد؛ بهدف توفير بيئة ابتكار وريادة تنظر نحو المستقبل، وتستحضر متطلبات الجودة، وتسهم في تحقيق التنمية المستدامة المنشودة، التي ينعكس أثرها، المباشر وغير المباشر، إيجابا على نمو القدرات، وتطوير الإمكانيات والأدوات. ومن هنا، تأتي هذه الدراسة لتؤكد أهمية وضرورة تمتيع القيادات التربوية بالمهارات التكنولوجية اللازمة؛ لتحقيق تغيير منشود بمؤسسات التعليمية، في القطاع العام بخاصة.

## - إشكالية الدراسة:

نتيجةً للتطور الذي شهده العالم، مؤخرًا، في حقل التربية والتعليم، في كافة المستويات، ومن بينها الإدارة التربوية، فقد أصبح مُلِحًا تجديد الأساليب النمطية والطرائق التقليدية، التي لم

تعد تسهم بفعالية في تحقيق نجاعة المرفق العمومي التربوي.. هذا الوضع يدفعنا، بوصفنا فاعلين في حقلي التربية والتكوين، إلى التفكير في وضع وسائل وأساليب جديدة، منها توظيف تقنيات الذكاء الاصطناعي في تطوير الممارسة المهنية، واعتماد حكمة ناجعة في المرفق المذكور. ومن هذا المنطلق، يمكن صياغة الإشكالية المركزية لدراستنا في السؤال الآتي: إلى أي حدّ يمكن أن تُسهم تقنيات الذكاء الاصطناعي في تطوير الممارسة المهنية لدى القيادات التربوية في المنظومة التعليمية المغربية؟

#### - فرضية الدراسة:

للفرضية دور مهمّ في البحوث العلمية، كما هو معلوم؛ لأنها تضع البحث في إطار محدد، يستطيع من خلاله الباحث التقيد بخطوات أساسية للوصول إلى نتائج علمية ذات وجهة. ولذلك، سنحاول، في هذه الدراسة، التحقق من الفرضية المحورية الآتية: تسهم تقنيات الذكاء الاصطناعي في تطوير الممارسة المهنية لدى القيادات التربوية في المنظومة التعليمية المغربية (القطاع العمومي).

#### - أهداف الدراسة:

نهدف، من خلال هذه المقالة العلمية، بصفة عامة، إلى تبين مدى إسهام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في تطوير الممارسة التدييرية، والحكمة الناجعة بالإدارة التربوية في المنظومة التعليمية المغربية. وتتفرّع عن ذلك أهداف، نجملها في الآتي:

■ التحسيس بأهمية استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في الممارسة التدييرية والمهنية لدى القيادات التربوية في المنظومة التعليمية المغربية؛

■ إبراز أهم وسائل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ومميزاتها، وحدود تأثيرها في الرفع من الأداء التدييري لدى القيادات التربوية في هذه المنظومة (القطاع العمومي)؛

■ تقديم مقترحات وأفكار لتجاوز المشاكل المرتبطة بتوظيف تقنيات الذكاء الاصطناعي، والتي تحدّ من تطوير الممارسات المهنية، والحكمة الناجعة في المنظومة المذكورة.

#### - منهج الدراسة:

بناء على الأهداف المسطرة، وبالنظر إلى طبيعة موضوع دراستنا، فقد اعتمدت فيها المنهج الوصفي، بوصفه من المناهج كثيرة الاستخدام في البحوث الاجتماعية والتربوية، ولا يقف عند حدود الوصف والتشخيص، بل يتجاوز ذلك إلى التحليل والتفسير والاستنتاج والتمحيص.

## أولاً- تحديد مفاهيم الدراسة:

يعدُّ تحديد المفاهيم من الإجراءات الأساسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، بما فيها - طبعاً- التربوية. والملاحظ أنه تتعدّد وتتداخل، عادةً، تعريفات المفهوم الواحد حسب انتماءات الباحثين والمفكرين، وتوجهاتهم، وخلفياتهم. هذا، وتعد المفاهيم عناصر ومنطلقات أساسية، يستعين بها الباحث لأجل بلورة صورة منظمة لكافة المعارف والحقائق التي تحيط به، والتي تتصل ببحثه. وفي سياق هذه الورقة البحثية، سأحاول الوقوف عند أهم المفاهيم المؤثرة -نظرياً- للإشكالية المطروحة سابقاً، وعدّها ثلاثة أساسية، وذلك كما يأتي:

أ/- التعليم الرقمي: ويقصد به الاستفادة من المخترعات والصناعات والتقنيات الحديثة في مجال التعليم.

ب/- الذكاء الاصطناعي: يعد الذكاء الاصطناعي فرعاً من فروع علم الحاسوب، وأحد أهم عناصر صناعة التكنولوجيا في العصر الراهن. وهو مصطلح مركب، قوامه كلمتان: الذكاء -الاصطناعي-. تشير الأولى إلى القدرة على الفهم وإدراك المفاهيم والدلالات، أما "الاصطناعي"، فصفة ترتبط بالأشياء التي نتجت عن عناصر تُخالف الأشياء الطبيعية، والتي ظهرت نتيجة تدخل الإنسان<sup>1</sup>. ويشتمل الذكاء الاصطناعي على البرامج والأنظمة التي تحاكي الجوانب الفكرية للإنسان؛ مثل إدراك المعاني، والقدرة على التفكير والتعلم من الخبرات السابقة، واتخاذ القرار... وقد عرفه موسى عبد الله بأنه "نظام يشتمل على البرامج والأجهزة الذكية، التي تهدف إلى بناء آلات، تقوم بمهام الإنسان المعقدة؛ من خلال تصميمها بطريقة تحاكي العقل البشري في طريقة تعلمه، وتفكيره، واتخاذها للقرارات، وحل المشكلات؛ ومن ثم توظيف نتائج هذه الدراسة لتطوير الأنظمة والبرامج الذكية"<sup>2</sup>.

ج/- القيادة التربوية: وتعرف بأنها "فن معاملة الطبيعة البشرية، أو فن التأثير في السلوك البشري؛ لتوجيه جماعة من الناس نحو هدف معين بطريقة تضمن طاعتهم وثقتهم واحترامهم وتعاونهم... فهي تعني فن الإدارة، وليس الإدارة بحد ذاتها؛ إذ إنها تُعنى بالنشاط المؤثر في الجهاز

1 - محمود عبد الرزاق، تطبيقات الذكاء الاصطناعي: مدخل لتطوير التعليم في ظل تحديات جائحة فيروس كورونا (COVID-19)، المجلة الدولية للبحوث في العلوم التربوية، ع. 4، مج. 3، أكتوبر 2020، ص 133-163.

2 - موسى عبد الله، الذكاء الاصطناعي ثورة في تقنيات العصر، المجموعة العربية للتدريب والنشر، مصر، 2019، ص: 20.



الإداري؛ لأنه ينقلها من الحالة الساكنة إلى الحالة المتحركة أو الديناميكية"<sup>1</sup>. وباختصار، فالقيادة تهدف إلى "إثارة اهتمامات الآخرين، وشحذ طاقاتهم، وتوجيههم نحو مَسعى مرغوبٍ فيه"<sup>2</sup>. ثانيا- تأثير تقنيات الذكاء الاصطناعي في الممارسة المهنية لدى القيادات التربوية في المنظومة التعليمية المغربية:

### 1- مجالات الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته:

يستخدم الذكاء الاصطناعي في العديد من المجالات: العسكرية والصناعية والاقتصادية والتقنية والطبية، والتعليمية والخدمية وغيرها. ولعل من أهم تطبيقاته ما يأتي<sup>3</sup>:

- السيارات ذاتية القيادة، والطائرات بدون طيار؛
- الإنسان الآلي (الروبوت)، وهو جهاز ميكانيكي مبرمج للعمل مستقلاً عن السيطرة البشرية، ومصمم لأداء الأعمال، وإنجاز المهارات الحركية واللفظية التي يقوم بها الإنسان، فضلاً عن استخداماته الأخرى المتعددة؛
- التحكم اللاخطي؛ كالتحكم في السكك الحديدية؛
- الأجهزة الذكية القادرة على القيام بالعمليات الذهنية المعقدة؛ كفحص التصاميم الصناعية، ومراقبة العمليات، واتخاذ القرار؛
- المحاكاة المعرفية؛ باستخدام أجهزة الكمبيوتر اختبار النظريات حول كيفية عمل العقل البشري، والوظائف التي يقوم بها؛ كالتعرف إلى الوجوه المألوفة والأصوات، أو التعرف إلى خط اليد ومعالجته؛
- الصور، واستخلاص البيانات والمعلومات المفيدة منها، وتفعيل الذاكرة؛
- التطبيقات الحاسوبية في التشخيص الطبي في العيادات والمستشفيات، وإجراء العمليات الجراحية الدقيقة؛

1 - عطوي جودت عزت، الإدارة المدرسية الحديثة: مفاهيمها النظرية وتطبيقاتها العلمية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص: 12.

2- BASS, BERNARD. (1960). «Leadership, psychology and organizational behavior, harper and publishers NewYork. P:60.

3 - دليل الذكاء الاصطناعي، إعداد: مركز البحوث والمعلومات بالملكة العربية السعودية، غرفة أبهى، 2021، ص: 5.

■ استخدام برامج الذكاء الاصطناعي في تحليل البيانات الاقتصادية؛ كالبورصة، وتطوير أنظمة تداول الأسهم؛

■ برامج الألعاب؛ كألعاب الشطرنج، وألعاب الفيديو.

وبعد هذا كله، توسعت مجالات الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته في الحاضر، وهي مرشحة - بقوة- للتوسع والتطور أكثر في المستقبل القريب (خدمات المنازل الذكية، الأسلحة ذاتية العمل، الهواتف، أجهزة التلفاز...).

## 2- أهداف دمج تقنيات الذكاء الاصطناعي في المنظومة التعليمية المغربية:

من المتوقع أن تنتقل الفصول الدراسية وقاعات المحاضرات بالمنظومة التعليمية المغربية، في المستقبل القريب، من الإطار التقليدي للتعليم إلى استخدام مزيج من الروبوتات، والذكاء الاصطناعي المصمم حسب الحاجة، ولاسيما في الدول المتقدمة. وستستفيد نسبة كبيرة ومتزايدة من المتعلمين والطلبة والأساتذة وغيرهم، بمختلف المؤسسات ومراكز التكوين ببلادنا، من استخدام هذه التقنيات، التي تتسم بالفعالية والجاذبية والمرونة...

وعموما، تتركز أهداف استخدام الذكاء الاصطناعي في المنظومة التعليمية المغربية في ما يأتي:

- يمكن أن يسهم الذكاء الصناعي في مساعدة الفاعلين التربويين ومنهم أطر الإدارة التربوية في بعض المهام ذات الطبيعة الإدارية، التي تأخذ حيزا كبيرا في الإنجاز؛ بحيث يمكنهم استخدام الذكاء الاصطناعي من استخدامهما في وقت أسرع؛

- يسهم الذكاء الاصطناعي في دعم أنماط مختلفة من التعلم المخصص للمتعلمين وفقا لاحتياجاتهم، ويتيح لهيئة التدريس خدمة التصحيح الآلي لأنواع معينة من العمل الدراسي؛ مما يوفر وقتا لأداء مهام أخرى<sup>1</sup>؛

- يوفر منصات التدريس الذكية للتعلم عن بعد، بالإضافة إلى التوسع السريع في تكنولوجيا الهاتف المحمول. وبذلك، فإنه يتيح فرصا مثيرة للمتعلمين والمعلمين على حد سواء؛ بحيث يمكن

1 - أماني عبد القادر محمد شعبان، الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته في التعليم العالي، المجلة التربوية لكلية التربية، جامعة سوهاج، ع.84، أبريل 2021، ص:10.

المتعلمين والطلاب من أداء الواجبات المنزلية والأعمال التربوية بشكل يتناسب مع مهاراتهم الدراسية، وتحدياتهم العلمية<sup>1</sup>؛

- تُعِينُ تقنيات الذكاء الاصطناعي باقي الفاعلين التربويين (المفتشون والممونون والمستشارون في التوجيه والتخطيط...) في الارتقاء بالممارسات المهنية، كلّ من موقعه ومهامه...

### 3 - تأثير تقنيات الذكاء الاصطناعي في تطوير الممارسة المهنية لدى القيادات التربوية بالمؤسسات التعليمية المغربية:

لتقنيات الذكاء الاصطناعي مميزات وآثار إيجابية، تعين القائد التربوي على تحقيق الأهداف الكبرى للمؤسسة التعليمية حيث يشتغل، نذكر من بينها ما يأتي:

– الفعالية: إذ بفضلها أصبح المدير التربوي مستقبلاً ومرسلاً، في الوقت نفسه، بالمؤسسة التعليمية التي يديرها، ومُسَهِّمًا في تطوير المردودية الداخلية لهذه المؤسسة. كما تساعد تلك التقنيات جميع المكونات والفاعلين بالوسط التعليمي، وتسعفهم على أن يتبادلوا الأدوار فيما بينهم؛ من خلال الفعالية التي توفرها الكفاية التكنولوجية. فالقائد التربوي أصبح غير مقيّد بالوقت، بل صار بإمكانه استقبال الرسائل الخاصة بفريقه التربوي والشركاء وكل الفاعلين بالمؤسسة، التي يشرف عليها، في أي وقت شاء؛ كحالة البريد الإلكتروني (Email)، كما تمكنه من عقد الاجتماعات، وتقاسم المستجدات عبر تطبيقات مختلفة، سبق الحديث عنها في هذه الورقة، والقيام بتنظيم دورات تكوينية للعاملين بالمؤسسة التعليمية في مجال التدبير الإداري والتربوي والمالي والمادي عن بُعد.

وفيما يخصّ تدبير الوضعيات الإدارية والتربوية بفعالية، فإنّ الوسائل التكنولوجية القائمة على الذكاء الاصطناعي ستمكن، بشكل إيجابي وفعال، في تدبير شؤون المؤسسة ووضعياتها على مستويين:

أ/- المستوى التربوي؛ بحيث تستخدم أنظمة التدبير الإداري والتربوي القائمة على استثمار تقنيات الذكاء الاصطناعي في توزيع المتعلمين على الفصول الدراسية بطريقة منظمة وسريعة، واعتماداً على معايير منسجمة، بناءً على تغذية الحاسوب بمعلومات وفيرة عن المتعلمين؛ كالاسم والعنوان ورقم الهاتف واسم ولي الأمر ومعلومات عن الحالة الصحية للمتعلم وتحصيله الدراسي منذ التحاقه بالمدرسة، وهو ما يسهّل كذلك عمل هيئة الأطر التربوية، ولاسيما أثناء إجراء عمليتي

1 - نفسه.

التقويم والدعم في بداية الموسم الدراسي. كما تساعد تكنولوجيا التعليم في ضبط استعمالات الزمن الخاصة بالمتعلمين، وجداول الحصص الخاصة بالموارد البشرية العاملة بالمؤسسة التعليمية، وفي ضبط التنظيم التربوي السنوي لهذه الأخيرة.

ب/- المستوى الإداري والتواصلي؛ إذ تكتسي الكفاية التكنولوجية، لدى القائد التربوي، أهمية قصوى في تدبير شؤون المؤسسة على المستويين الإداري والتواصلي/ العلائقي؛ من خلال استثمار الوسائط التكنولوجية من بينها تقنيات الذكاء الاصطناعي في تعزيز التواصل الداخلي بينه وبين فريقه الإداري والتربوي، والتواصل الخارجي بينه وبين المؤسسات التعليمية الأخرى؛ على اعتباره أن القائد التربوي هو المخاطب والممثل الرسمي لها، وبينه وبين المحيط الخارجي؛ من جمعيات أمهات وآباء التلاميذ ومجتمع مدني ومصالح خارجية وغيرها.

- الحركية؛ بحيث تمكن الكفاية التكنولوجية القائد التربوي من التواصل مع كل الفاعلين والعاملين معه وشركاء المؤسسة في أي وقت؛ بفضل امتلاك كل المدبرين اليوم، إلى حد ما، تقنيات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات؛ من جهاز الحاسوب المحمول، و الهاتف النقال، و شبكة الأنترنت وتقنيات الذكاء الاصطناعي التي تتيح له تحويل وتبادل المعلومات مع فريقه التربوي وشركاء المؤسسة؛ فمثلاً، عن طريق إرسال الرسائل، سواء كانت مصورة أو مسموعة أو مكتوبة، وبفضل هذه الحركية، يمكن تقاسم المعلومات الإدارية والتربوية والتجارب المرتبطة بها مع أكبر عدد من الفاعلين داخل المنظومة التعليية.

- العولمة: فبفضل العولمة، خلقت تقنيات الذكاء الاصطناعي بيئة تعليمية عالمية؛ وبذلك، يمكن للقائد التربوي الانفتاح على تجارب رائدة عالميا، كما تتيح له عقد شركات وتوأمة مفيدة مع مؤسسات تعليمية أجنبية، يستطيع من خلالها تنزيل رؤيته في التغيير على أرض الواقع التعليية المحلي.

- ربح الوقت؛ حيث تكون المعلومات في متناول متخذ القرار في الوقت المناسب. وتقوم الوسائل التكنولوجية بدورها في المساعدة على سرعة تجهيز البيانات، وتقديم المعلومات في الوقت المناسب؛ وبالتالي تحقيق النجاعة في التدبير الإداري والبيداغوجي...

- الدقة؛ بحيث تزداد درجة الثقة في المعلومات باستخدام أنظمة وبرامج معلوماتية لتشغيل البيانات، ومعالجتها على نحو أدق وأفضل؛ وبالتالي التقليل من الأخطاء البشرية.

ثالثًا- صعوبات تحقيق التحول الرقمي في الممارسات المهنية بالمؤسسات التعليمية، ومقترحات تجاوزها:

على الرغم من المجهودات التي بذلها المغرب؛ من أجل كسب رهان الجودة؛ عبر إدماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والذكاء الاصطناعي في التعليم والتكوين وغيرهما، إلا أنه ما زال يعاني، في الواقع، من مجموعة من المشاكل والصعوبات، التي تعيق توظيف هذه التكنولوجيا، بكفاءة عالية، في الممارسة المهنية، والتي يمكن إجمالها في الآتي:

- تمسك مجموعة من الفاعلين، ومنهم عدد من القيادات التربوية في المنظومة التعليمية المغربية، بالطرائق التقليدية؛ فتحدث مقاومة من خلال رفض الانفتاح على تقنيات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعدم استثمارها فعلياً في تطوير المردودية الداخلية والخارجية للمؤسسة، وفي تحسين مؤشراتها في الجودة.

- غياب التكوين لدى بعض الأطر التربوية، في المؤسسة التي يشرف عليها القائد التربوي؛ بحيث يُعانون من الأمية في مجال استخدام الحاسوب وبرامج العرض والأنترنت، فما بالك بتقنيات الذكاء الاصطناعي! ممّا يجعلهم غير قادرين على استخدامها وتوظيفها في تجويد أدائهم المهني، والرفع من مردودية المؤسسة التعليمية.

- ضعف الإمكانيات المادية لكثير من المؤسسات التعليمية، وكذا ضعف بنيتها التحتية التكنولوجية، بما تتطلبه من مُعدّات وأجهزة وشبكة أنترنت وحوامل تكنولوجية. وهو ما تتمخّص عنه محدودية على مستوى تحصيل الكفاية التكنولوجية لدى القادة التربويين المزاويلين، أو الجُدد منهم.

بعد عرض هذه الإكراهات، والتمثيل بها، سأحاول تقديم مقترحات عملية، يُمْكِن أن تَمَكِّن من تجاوزها من جهة، ومن تطوير الكفاية التكنولوجية لدى القيادات التربوية بمؤسسات التربية والتعليم بالمغرب من جهة ثانية، منها:

- إعداد برامج إجبارية للتكوين المستمر، لفائدة القيادات التربوية، في مجال تكنولوجيا التعليم، وربط الترقّي المهني والوظيفي بالاستفادة من هذا النوع من التكوينات.

- تخصيص ميزانية كافية لتجهيز المؤسسات التعليمية بأهم الوسائل التكنولوجية الحديثة، وتعميم القاعات متعددة الوسائط على تلك المؤسسات.

- جعل قياس الكفاية التكنولوجية ضمن اختبارات ولوج مسلك تكوين أطر الإدارة التربوية بالمراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين (كتابيا وشفويا معا).
- جعل مجزوءة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في المجال الإداري والتربوي، ووحدة التكوين عن بُعد، أمرا إجباريا لمسلك تكوين أطر الإدارة التربوية، وباقي الأطر الأخرى.
- جعل الكفاية التكنولوجية أساسيةً بالنسبة إلى متدربات ومتدربي مسلك الإدارة التربوية، ومعيارا رئيسًا لمنح شهادة التخرج، والإقرار في مناصب التدبير الإداري والتربوي...

### خاتمة:

شكل الذكاء الاصطناعي أهم نتائج الثورة الصناعية الرابعة. وقد تعددت استخداماته في مختلف المجالات: الصناعية والاقتصادية والتقنية، والتطبيقات الطبية والتعليمية. ويمكن أن يكون استخدام هذا الذكاء في الحقل التعليمي، بمختلف أصنافه ومستوياته، محرك التقدم والنمو والازدهار خلال السنوات المقبلة لدى الأفراد والجماعات والدول. ومن هذا المنطلق، أصبح إدماج تقنياته في مجال التربية والتعليم ببلادنا ضرورة ملحة، ستمكن، دون شك، من الارتقاء بجودة هذا القطاع على كافة الصُّعد؛ وبالتالي تحقيق أهداف المنظومة التعليمية المتوافق بشأنها تربويا واجتماعيا؛ فهو يوفر بيئة تعليمية مشجعة لكل الأطراف الفاعلة في العملية التعليمية-التعلمية، ولاسيما للقيادات التربوية المسؤولة عن تدبير المؤسسات التعليمية، بوصفها نقطة ارتكاز كلِّ المشاريع التربوية، الهادفة إلى تقديم خدمة تربوية ذات قيمة مضافة، بالنسبة إلى المتعلمين والطلاب خاصة، بوصفهم محور التفكير والفعل التربويين، والغاية المثلى هي تمكينهم من الانخراط الإيجابي في الحياة الاجتماعية والعملية...

## لائحة المصادر والمراجع

- أماني عبد القادر محمد شعبان، الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته في التعليم العالي، المجلة التربوية لكلية التربية، جامعة سوهاج، ع.84، أبريل 2021.
- دليل الذكاء الاصطناعي، إعداد: مركز البحوث والمعلومات بالمملكة العربية السعودية، غرفة أبهى، 2021.
- عطوي جودت عزت، الإدارة المدرسية الحديثة: مفاهيمها النظرية وتطبيقاتها العلمية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2014.
- محمود عبد الرزاق، تطبيقات الذكاء الاصطناعي: مدخل لتطوير التعليم في ظل تحديات جائحة فيروس كورونا (COVID-19)، المجلة الدولية للبحوث في العلوم التربوية، ع.4، مج.3، أكتوبر 2020.
- موسى عبد الله، الذكاء الاصطناعي ثورة في تقنيات العصر، المجموعة العربية للتدريب والنشر، مصر، 2019.

# البحث التدخلي

## مدخل لترسيخ الممارسة البحثية التربوية:

### "الأجراً، وسبل التجويد"

د. عادل عيدون

باحث في القانون العام والعلوم السياسية  
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين  
جهة الرباط سلا القنيطرة، فرع الخميسات، المغرب



د. محمد أجردى

باحث في التاريخ الوسيط  
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين  
جهة الرباط سلا القنيطرة، فرع الخميسات، المغرب

### ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى التعرف على مدى تفعيل الإطار التنظيمي للبحث التدخلي، وتنزيل مضامينه على أرض الواقع، من خلال القيام بدراسة ميدانية (الاعتماد على تقنية الاستمارة) تساعد على الوقوف على مدى كفاية التكوين النظري "مجزوءة منهج البحث التدخلي" لتأهيل الأساتذة المتدربين (مسلك التعليم الابتدائي)، لإنجاز بحث تدخلي خاضع للمعايير العلمية، وكذا مدى الالتزام بتنفيذ الإجراءات التنظيمية المؤطرة له. حيث تسمح (الدراسة الميدانية) بتشخيص أهم المعوقات والصعوبات التي تعيق إنجاز بحوث تدخلية ذات جودة علمية، واقتراح بدائل وحلول عملية لتجويد هذا المكون التأهيلي.

كلمات مفتاحية: البحث التدخلي - التكوين - المجال التربوي.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أجردى، محمد، عيدون، عادل (2024، أكتوبر). البحث التدخلي مدخل لترسيخ الممارسة البحثية التربوية "الأجراً، وسبل التجويد". مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 685-703.

### Abstract:

This research paper seeks to identify the extent to which the regulatory framework for interventional research is activated, and its contents are downloaded on the ground. By conducting a field study (relying on the questionnaire technique) qualifies us to determine the adequacy of the theoretical formation "fragmented interventional research methodology" to qualify the trainee professors to carry out interventional research subject to scientific standards, as well as the extent of commitment to the implementation of the regulatory procedures that frame the interventional research. The field study allows us to diagnose the most important obstacles and difficulties that hinder the completion of scientific quality interventional research, and to propose alternatives.

**Keywords :** Interventional research – Formation – Education field.



## مقدمة

يمثل البحث العلمي حجر الزاوية في بناء الأمم وتطور المجتمعات. فهو لا يقتصر على كونه وسيلة لتوليد المعرفة فحسب، بل يشكل أيضاً محركاً للتنمية بها ودافعاً قوياً للابتكار والتقدم. فالبحوث العلمية تلعب دوراً محورياً في إبراز التحديات التي تواجه المجتمعات، في ظل الثورة التكنولوجية العارمة التي تجتاح العالم اليوم، مما فرض ضرورة اعتماد البحث كأسلوب لا بديل عنه في رسم وتنفيذ أي خطة تنموية، وذلك لأهمية البحوث في مواجهة المشكلات العالقة، والمتعلقة بالتنمية واتخاذ القرارات<sup>1</sup>، مما يساهم في تحقيق التنمية المستدامة والشاملة<sup>2</sup>، ومن هنا تأتي أهمية البحث العلمي التي أكد العديد من الباحثين عليها في دفع عجلة التنمية<sup>3</sup>. فمن خلال البحث العلمي يمكن للدول تشخيص المشكلات المجتمعية وتحديد أولوياتها، مع وضع الحلول المبتكرة لها، بهدف رسم تصورات مستقبلية واقعية، تسعى إلى تطوير التقنيات والمنتجات التي تساهم في تحسين جودة الحياة<sup>4</sup>.

ولا يقتصر البحث العلمي على مجال معين، بل هو ضروري لكل مظاهر النشاط الإنساني، خاصة في المجال التربوي، لكون العملية التربوية هي في حقيقتها عملية بناء الإنسان الذي تقوم عليه عملية التطور في كافة المجالات الأخرى.

## أولاً: الإطار النظري للدراسة

ظهر هذا النوع من البحوث العلمية التطبيقية في الولايات المتحدة الأمريكية مع "كورت لوين Kurt Lewin" حوالي 1945م، كمنهجية خاصة، ديمقراطية أساساً، تستهدف إحداث التغيير. فهو في المقام الأول منهجية تيسر الفهم والتفسير للممارسات العملية الخاصة بفئات اجتماعية، من خلال إشراك هذه الفئات نفسها، بقصد تحسين ممارساتها<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - مفيد الشامي، دور البحوث في التنمية، الملتقى الفكري العربي، القدس، 1995، ص.8.

<sup>2</sup> - بن زكورة العونية، وبن سامل ميمونة، دور البحث العلمي في تحقيق التنمية المستدامة، المجلة المغربية لاقتصاد والتسيير، الصادرة عن مختبر المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، المجلد 01، جامعة معسكر الجزائر، العدد3، مارس 2016، ص.59.

<sup>3</sup> - فؤاد على العاجز، البحوث العلمية وتنمية المجتمع بين الركود والفعالية، أشغال المؤتمر العلمي الرابع: دور الجامعات في التنمية، جامعة الأقصى غزة، ما بين 3 و5 ماي، 2002، صص.4-2.

<sup>4</sup> - محمود جرادات، واقع البحث العلمي في الجامعات الحكومية في الأردن وتوقعاته المستقبلية، مجلة علوم التربية، كلية التربية، جامعة قطر، 2002، ص.140.

<sup>5</sup> ADELMAN, C. [1993]. «Kurt Lewin and the origins of Action-Research, in Educational Action-Research Revue, Vol.

n°1, pp.7 - 24.

حيث يدخل ضمن هذه البحوث العملية التطبيقية التي تهدف إلى اختبار الفروض والنظريات واستخدام النتائج المترتبة عليها في حل مشكلات معينة، البحث الإجرائي أو البحث الموقفي أو البحث الموجه للعمل أو البحث التدخل<sup>1</sup>، حيث يتم التركيز في هذا البحث على فهم العمل أو الإجراء الذي يتم داخل الصف بشكل أفضل. فالبحث التدخل يهـج يجمع بين العمل والبحث. أي العمل لإحداث تغيير في مجتمع أو منظمة أو برنامج ما، والبحث لزيادة فهم ما يجري بحثه أو تغييره.

ويختلف البحث التدخل في كونه يركز على العمل أو الإجراء، بخالف البحوث الأخرى التي تركز على تصميم البحث ويكون فيها العمل ناتجا ثانويا ويكون همها نشر النتائج لقطاع أوسع من مجتمع الدراسة<sup>2</sup>.

وبشكل عام فالبحث التدخل هو ذلك البحث الذي يقوم به المدرسون لتطوير أنفسهم أو لحل مشاكل تواجههم في العملية التربوية، حيث يعملون على تحديد المشكلة التي هم بصدد إيجاد حل لها، ثم الانتقال إلى تنزيل إجراءات يعتقدون أنها مناسبة لحل هذه المشكلة، وبعدها يتأملون فيما يقومون به من جهد فيما إذا كان ناجحا في حل المشكلة، فإذا لم يكن كذلك يقومون بالمحاولة مرة أخرى<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - تم تبني البحث التدخل كأحد المكونات الأساسية للتكوين التأهيلي الذي يخضع له الأساتذة المتدربون، وهو يعتبر من العناصر الخاضعة للتقييم أثناء اجتياز امتحان الكفاءة التربوية، إلى جانب تقديم ومناقشة درس ومناقشة الملف التراكمي. كما تجب الإشارة إلى تعدد التسميات الدالة على هذا النوع من البحث تبعا لسياقات البحث وأغراضه وأفاقه العملية، وإذ أننا نسعى هنا إلى تقرب هذا الحقل من حقول البحث لمجال التداول التربوي، حاولنا أن نتفادى الدخول في رصد الفوارق الدقيقة بين كل منها، ليقع اختيارنا إجرائيا على تسمية البحث التدخل، لاعتباره المفهوم الأكثر ترويجا على الساحة التربوية المغربية، وخاصة في الوثائق الرسمية ذات الصلة، دون التوسع في الجانب النظري المرتبط به، سواء مفهومه وخصائصه وأهدافه أو مراحل إنجازه وما إلى ذلك، لنكتفي في مقالتنا هذه، بقياس درجة تنزيل التكوين النظري في حل إحدى المشكلات التي تواجه الأستاذ (ة) مع بداية ممارسة عمله.

<sup>2</sup> - رشيد بوسعيد وخالد الدهيبة، المجزوءات المستعرضة لدعم التكوين من أجل تعلم فعال، البحث الإجرائي، الوحدة المركزية لتكوين الأطر، وزارة التربية الوطنية، المملكة المغربية، نونبر 2002، ص.24.

<sup>3</sup> - الخالدي وموسى ووهبة، البحوث الإجرائية مع معلمات ما قبل الخدمة. *نشرة رؤى تربوية*، مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله، فلسطين، العدد 1، يونيو 2000، ص.40. نقلا عن: رشيد بوسعيد وخالد الدهيبة، المجزوءات المستعرضة، م.س، ص.24.

وانطلاقاً من هذا نجد أن المغرب سعى لتوطين الممارسة البحثية بالمراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين، وترسيخها من خلال اعتماد البحث التداخلي كمرتكز أساسي من مرتكزات التكوين التأهيلي الموجه للأستاذة المتدربين، سواء في الشق المتعلق بالتكوين النظري حيث تمت برمجة مجزوءة خاصة بالتكوين في مجال منهج البحث التداخلي، أو من خلال اعتباره مكون من مكونات عناصر التقييم إبان امتحان الكفاءة المهنية التي ستخضع للتقييم أمام لجنة تقييم البحوث التداخلية في السنة الثانية من التكون، حيث أن الأستاذ(ة) المتدرب مطالب بإعداد بحث تربوي تداخلي ينبثق من واقعه العملي.

### إشكالية الدراسة:

بالرغم من أهمية البحوث التداخلية، كمدخل للتنمية المهنية المستدامة للمدرسين بالمغرب؛ فقد تبين من سواء من خلال الاطلاع على البحوث الإجرائية التي تقدم بها الأساتذة المتخرجون من مراكز التكوين، أو من خلال استقراء تمثيلات الأساتذة المتدربين إلى ضعف معرفتهم بماهية البحث التداخلي، وأهدافه، ومنهجيته، وإجراءات تطبيقه، وضعف توافر مهارات تنزيله لديهم، وكذلك ضعف إدراك العلاقة بين إجراءات البحث التداخلي، ونموهم المهني، وكذلك افتقار المراكز إلى برامج تدريبية، حول كيفية استخدامه. لذا سعت هذه الدراسة الميدانية إلى استقراء تمثيلات الأساتذة المتخرجين من المراكز الجهوية للتربية والتكوين، حول كيفية إجراءاتهم للبحث التداخلي، كمدخل للتنمية المهنية لهم، وذلك كمحاولة للإفادة منها في وضع تصور مقترح لآليات إجراء وتنزيل البحوث التداخلية، لتحسين أدائهم الصفي؛ وتقليص المشكلات التي تواجههم، ومن ثم تحسين مخرجات التعلم لدى المتعلمين.

وعليه حددت إشكالية الدراسة في السؤال الرئيس الآتي: "البحث التداخلي كمدخل للتنمية المهنية المستدامة للمدرس بين التكوين والممارسة الصفية؟"

### أهداف الدراسة:

ويتجلى الهدف من هذه الورقة البحثية الوقوف والتعرف على مدى تفعيل الإطار التنظيمي للبحث التداخلي، وتنزيل مضامينه على أرض الواقع. من خلال القيام بدراسة ميدانية (الاعتماد على تقنية الاستمارة) تؤهلنا للوقوف على مدى كفاية التكون النظري "مجزوءة منهج البحث التداخلي" لتأهيل الأساتذة المتدربين لإنجاز بحث تداخلي خاضع للمعايير العلمية، وكذا مدى الالتزام بتنفيذ الإجراءات التنظيمية المؤطرة للبحث التداخلي. وتسمح لنا (الدراسة الميدانية)

بالتشخيص أهم المعوقات والصعوبات التي تعيق إنجاز بحوث تدخلية ذات جودة علمية، واقتراح بدائل وحلول عملية لتجويد هذا المكون التأهيلي.

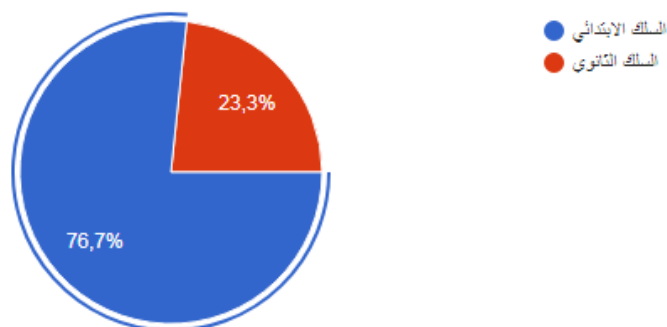
### ثانيا: الدراسة الميدانية

#### المحور الأول: العينة البحثية:

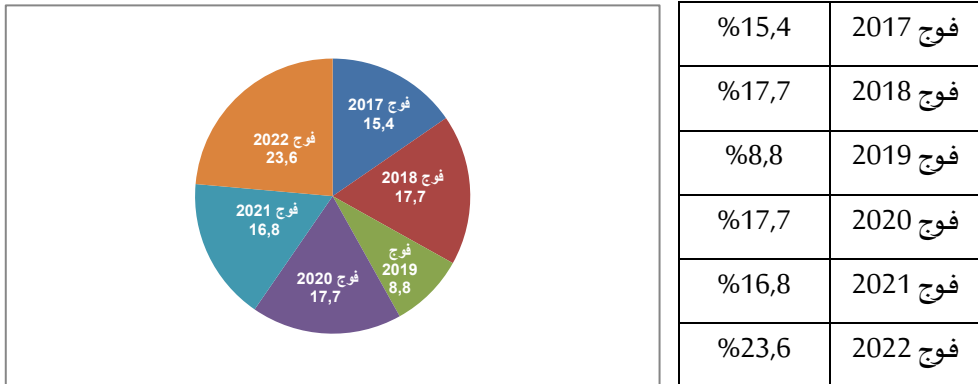
راعت العينة التي تم اختيارها لإجراء هاته الدراسة البحثية معيارين أساسيين هما:

أ- سلك التدريس والذي أصبح يقتصر على سلكين هما السلك الابتدائي والثانوي على اعتبار مكون البحث التدخلي تم اعتماده أساسا مع تبني التكوين الأساس بصيغته الحالية من داخل المراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين، ومع الاقتصار على هيئة التدريس دون غيرها من الفئات الأخرى (المتصرفين التربويين على سبيل المثال) ، لما يعرفه تنزيل هذا المكون من معوقات عملية مرتبطة بهذه الفئة.

حيث يمثل أستاذة السلك الابتدائي نسبة 76.6%، والسلك الثانوي 23.3%.



II- فوج أو سنة التخرج: تم التركيز أساسا على مستوى هذا المعيار على الاساتذة أطر الأكاديميات (والمتعاقدين سابقا) ابتداء من فوج 2017؛ وذلك لاستفادتهم من التكوين في منهجية البحث التدخلي، واعتباره مكون من مكونات الكفاءة التربوية، وبالتالي ملزمون بإعداد ومناقشته والحصول على نقطة تعادل أو تفوق 10 من 20 حتى يعتبر مستوفي للكفاءة المهنية. وقد جاءت النسب حسب الأفواج على الشكل التالي:



### المحور الثاني: التكوين النظري:

تم تسطير العديد من الأهداف التي تسعى مجزوءة البحث التداخلي على مستوى المراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين المخصص لهيئة التدريس إلى تحقيقها، نذكر منها<sup>1</sup>:

- التعرف على مفهوم البحث التداخلي ونشأته وخصائصه ومجالاته؛
- التعرف على منهجية إنجاز البحث التداخلي؛
- القدرة على جمع المعطيات والبيانات المتعلقة بإشكالية البحث التداخلي، ثم تفرغها وتحليلها؛
- القدرة على تحرير البحث التداخلي؛
- التمكن من تقويم نتائج البحث التداخلي واستثمارها.

ففي نهاية المجزوءة، يصبح المتدرب(ة) متمكنا من إنجاز بحث تداخلي في مجال التربية بتعبئة الموارد المعرفية والنظرية والمنهجية مستحضرا البعد المهني والممارسة التبصيرية لإيجاد حلول عملية وناجعة لمختلف الإكراهات والمشكلات المهنية المطروحة قصد استثمارها في العملية التعليمية التعلمية<sup>2</sup>.

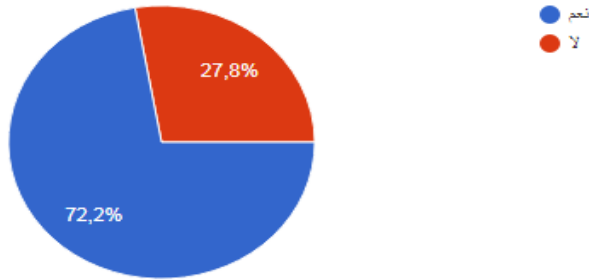
حيث نسعى من خلال هذه الدراسة البحثية الوقوف على مدى تفعيل مضامين مصبغة "مناهج البحث التداخلي" على أرض الواقع؛ من خلال التساؤل حول مدى كفاية التكوين النظري المقدم بالمراكز الجهوية للتربية للتكوين، لتمكين الأساتذة المتدربين من الكفايات الضرورية لإنتاج

<sup>1</sup> - توصيف مجزوءة منهجية البحث التداخلي، سلك أطر هيئة التدريس بمراكز التربية والتكوين -مسلك التعليم الابتدائي.

<sup>2</sup> - توصيف مجزوءة منهجية البحث التداخلي، م.س.

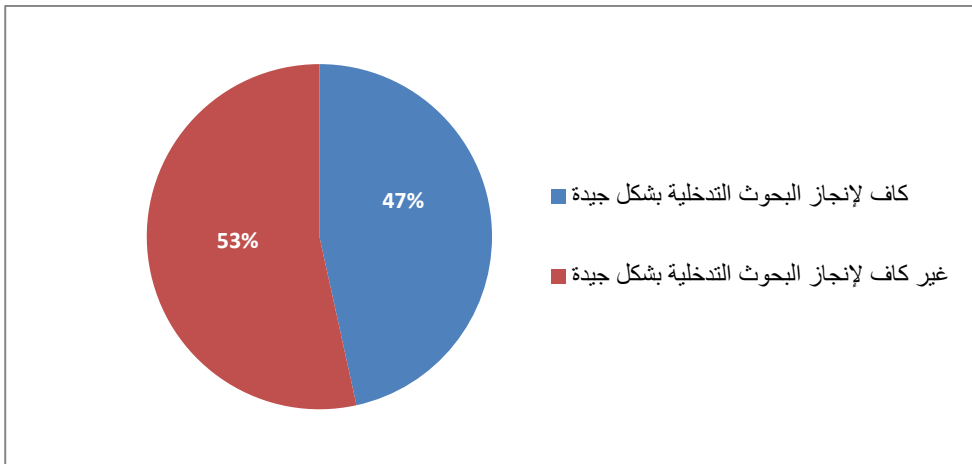
بحوث تدخلية تتوفر فيها شروط البحث العلمي الرصين، حيث جاءت أجوبة الفئة المستهدفة بالبحث على الشكل التالي:

**س1:** هل استفدتم من تكوين نظري حول منهج البحث التدخلية بمركز التكوين؟



من خلال أجوبة الفئة المستهدفة بالبحث نسجل أن 72.2% فقط من المستجوبين هم الذين استفادوا من التكوين النظري بمراكز التكوين، وأن 27.8% لم تتلق أي تكوين في هذا المجال.

**س2:** إذا كان جوابكم ب "نعم"، كيف تقيمون مستوى التكوين حول منهج البحث التدخلية بمركز التكوين؟



يلاحظ من خلال قراءة هاته الأرقام أنه من داخل نسبة 72.2% التي استفادت من التكوين النظري، فقط 47.00% هي التي عبرت عن رضاها على جودة التكوين النظري، وكفايته كمدخل لإنجاز بحوث تدخلية تستجيب للمعايير العلمية المعمول بها في مجال البحث العلمي الرصين.

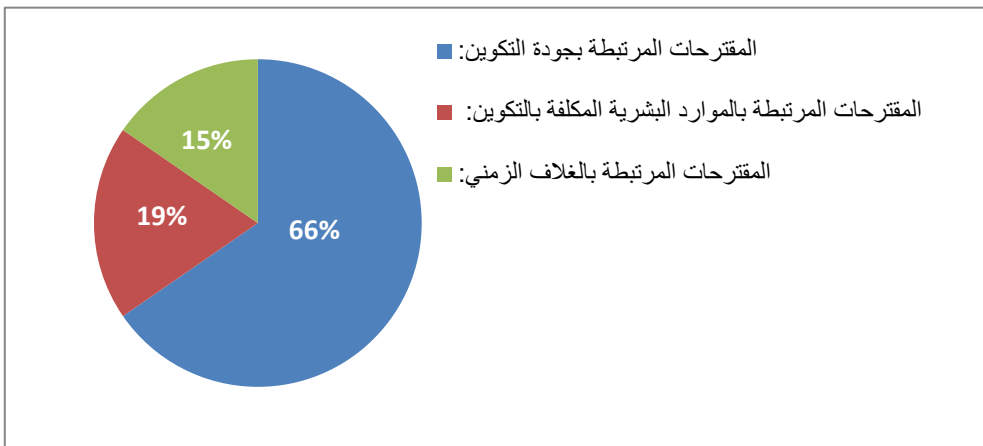
وهذا ما يطرح من جديدة إشكالية جودة التكوين بمراكز التكوين سواء على مستوى كفاءة المكونين العاملين بهاذه المراكز، أو كفاية الأطر المرجعية المعتمدة في هذا المجال، وهو ما جاء في مقترحات المبحوثين عند مطالبتهم بتقديم مقترحات تروم تجويد التكوين في موضوع البحث.

**س3: إذا كان جوابكم ب "غير كاف"، ماهي مقترحاتكم لتجويد التكوين في مجال مناهج البحث التدخلي بمراكز التكوين؟**

تم طرح هذا السؤال بشكل مفتوح من أجل إتاحة الفرص للمبحوثين من أجل تقديم مقترحاتهم لتجويد التكوين في موضوع البحث التدخلي، والرفع من مستواه حتى يكون معيناً على أجزائه وتفعيله ميدانياً.

هاته المقترحات يمكن تصنيفها إلى تلك مرتبطة بجودة مضامين المجزوءة، وتلك المرتبطة بالأطر المشرفة على التكوين، وأخيراً تلك المرتبطة بالغلاف الزمني المخصص لإجراء البحوث التدخلية.

حيث جاء أجوبة المستجوبين على الشكل التالي:



**الصنف: المقترحات المرتبطة بجودة التكوين:**

"حبذا لو تم الاستئناس بنماذج لبحوث سابقة حتى نتمكن من إزالة لبس عن كيفية تطبيق وتنزيل ما تم التطرق إليه في العروض"

"عرض نماذج مشابهة للاستفادة منها عوض الاقتصار على الإملاءات النظرية"

"ضرورة الارتباط أكثر بالواقع المهني المعيش"

"ضرورة الانتقال السلس والتدرج ما بين النظري والتطبيقي"

"أمثلة واقعية"

"التركيز على ما هو تطبيقي أكثر مما هو نظري"

"يجب أن يكون التكوين مزاجاً بين ما هو نظري وتطبيقي حتى يتسنى التجديد والابتكار في البحث بدلاً النقل المتوارث للبحوث"

"الاعتماد على التطبيقات الميدانية أكثر من النظرية لما لها من آثار ملموسة وواقعية"

"التطبيق"

"دورات تكوينية"

"عمل تكوين كافٍ"

"أن يتم اعتماد مجزوءة كاملة للبحث التدخلي مع نماذج تطبيقية"

"تكوين حامل لمواصفات التكوين الفعال"

"ادراج مادة لتدريس منهجية إعداد بحث تدخلي"

"تخصيص غلاف زمني أكبر"

"إعطاء أهمية أكثر للبحث التدخلي"

"دراسة نماذج للبحوث التدخيلية من حيث المنهج مع مواكبة وتأطير طيلة الإنجاز".

**الصفحة II: المقترحات المرتبطة بالموارد البشرية المكلفة بالتكوين:**

"دورات تكوينية لتأطير من خبراء في الميدان"

"اختيار مكونين أكفاء"

"توفير كفاءة بشرية مؤهلة ليكونوا مشرفين على التكوين"

"الاستعانة بمختصين أكاديميين في التكوين"

"كان التكوين عن بعد فلم نتمكن من الإحاطة بمنهج البحث من كل جوانبه هذا من جهة، ومن جهة أخرى التأطير كان ضعيفاً أن لم نقل منعدماً"



## الصف III: المقترحات المرتبطة بالغلاف الزمني:

"وقت اختيار موضوع البحث"

"مدة التكوين غير كافية لا يجب ان يكون اختيار موضوع البحث اجباري في السنة الأولى من التكوين"

"دعم مطالبة الأستاذة بموضوع البحث أثناء التكوين"

هذا على المستوى النظري في حين عمليا يهدف إنجاز البحث التربوي التدخل إلى تنمية الكفاية المتعلقة بالبحث التربوي وتعزيز البعد التبصري عند الأساتذة (ات) المتدربين (ات)، وحثهم على تبني مقاربات تجديدية لمعالجة الظواهر التربوية والبيداغوجية التي يمكن أن تواجههم طوال مسارهم المهني، وذلك باعتماد منهجية علمية تستحضر خصائص المجال ومجموعة القسم والمميزات الفردية للمتعلّقات والمتعلمين<sup>1</sup>.

حيث يكون الأستاذ (ة) مطالب (ة) في السنة الثانية<sup>2</sup> من التكوين بإعداد بحث تدخل تحت إشراف وتأطير أستاذ(ة) مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الذي تابع(ت) به الأستاذ(ة) المتدرب(ة) تكوينه خلال السنة الأولى من التكوين<sup>3</sup>، وهو بحث يتضمن معالجة ظاهرة تربوية تتم معاينتها أثناء الممارسة الميدانية، باعتماد منهجية واضحة تتدرج عبر محطات أساسية من بينها<sup>4</sup>:

- رصد الظاهرة ووصفها بدقة للتعريف بها؛

<sup>1</sup> - المادة 20 من قرار لووزير التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة، رئيس المجالس الإدارية للأكاديميات الجهوية للتربية والتكوين رقم 06222 بتاريخ 09 نونبر 2022، بتحديد كيفية تنظيم التكوين التأهيلي وامتحان نيل شهادة الكفاءة التربوية للناجحين في مباراة توظيف الأساتذة الأطر النظامية.

<sup>2</sup> - المادة 14 من المقرر الوزاري تشير إلى أن "السنة التكوينية الثانية تمتد على مدى سنة دراسية كاملة، تخصص لإجراء تدريب مؤطر في وضعية تحمل كلي لمسؤولية القسم بهدف الارتقاء بالكفايات المهنية المستهدفة خلال السنة الأولى من التكوين والمساعدة على اكتساب الكفايات المهنية اللازمة لممارسة وظيفة التدريس، من خلال الرفع من القدرة على الممارسة الميدانية للفعل التربوي بما في ذلك تقديم حلول قابلة للإنجاز لمعالجة مشكلات تربوية وبيداغوجية في إطار مشروع مؤطر للبحث التربوي التدخل، وتعزيز الرغبة في العمل التربوي، والتشجيع بقيم المهنة واحترام أخلاقياتها.

والمادة 15 من المقرر تشير: "تنظم السنة التكوينية الثانية على شكل تكوين بالتناوب، يعتمد صيغا مختلفة ومتكاملة تضم:

- تكوينا ميدانيا على شكل تدريب مؤطر في وضعية تحمل كلي لمسؤولية القسم؛

- تكوينا حضوريا بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، وتكوينا عن بعد؛

- إعداد بحث تدخل ومناقشته.

<sup>3</sup> - المادة 22 من المقرر الوزاري.

<sup>4</sup> - المادة 19 من المقرر الوزاري.

- تجميع المعطيات ومعالجتها، وتحليلها وتفسيرها؛

- اقتراح الحلول وتجربتها؛

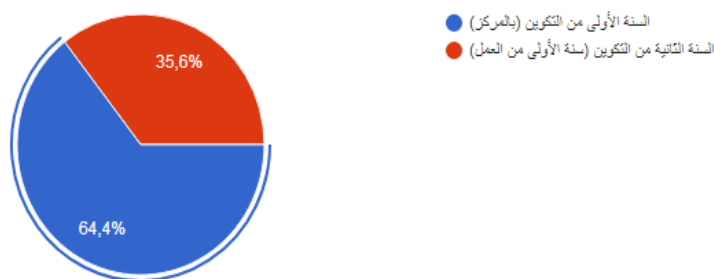
- تحديد النتائج وتحليلها وإبراز مدى نجاعتها وإمكانيات تعميمها.

يتم تقويم البحوث التربوية التدخلية خلال شهر دجنبر من السنة الثانية من التكوين من لدن لجنة للتقويم، تتكون من ثلاثة (3) أعضاء على الأقل، من بينهم مؤطر مشروع البحث التربوي<sup>1</sup>، ويستفيد الأستاذ(ة) المتدرب(ة) الذي لم يتمكن من استيفاء البحث التربوي التدخلية خلال هذه الدورة من دورة استدرائية أثناء إجراء امتحان نيل شهادة الكفاءة التربوية<sup>2</sup>.

### المحور الثالث: المرحلة الإجرائية:

على المستوى الإجرائي، يتولى المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين التي يجري بها الأستاذ(ة) المتدرب(ة) تدريبه تنظيم كل العمليات المتعلقة بتحديد مواضيع البحوث وتنسيق عمليات المتابعة، وتنظيم تقويم البحوث التدخلية داخل الأجال المعمول بها السابقة الذكر<sup>3</sup>، باعتبار البحث التدخلية من مشتملات اختبارات امتحان نيل شهادة الكفاءة التربوية إلى جانب تقديم ومناقشة درس، ومناقشة الملف التراكمي المنظم<sup>4</sup>. لذلك تم طرح مجموعة من الأسئلة على الفئة المبحوثة تروم الوقوف على مدى الالتزام بهاته الضوابط والأجال المقررة لها.

### س1: متى تم اختيار موضوع البحث التدخلية؟



<sup>1</sup> - الفقرة الأولى من المادة 23 من المقرر الوزاري.

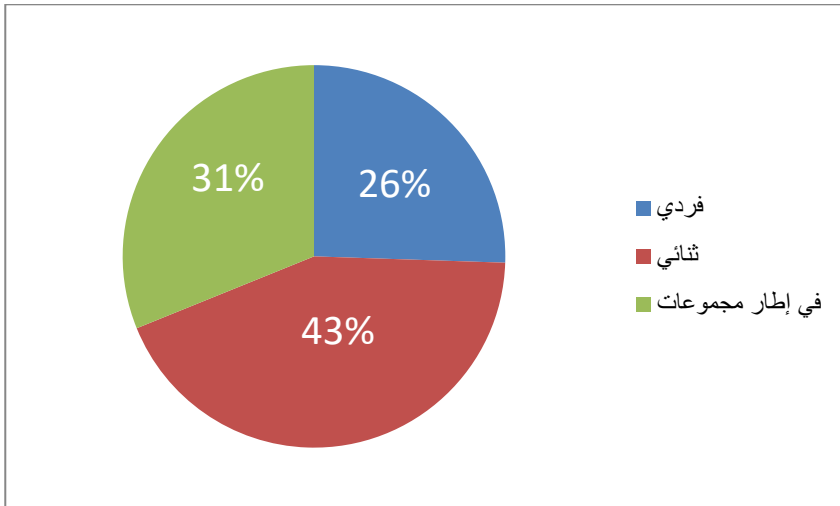
<sup>2</sup> - المادة 24 من المقرر الوزاري.

<sup>3</sup> - المادة 21 من المقرر الوزاري.

<sup>4</sup> - المادة 29 من المقرر الوزاري.

يسجل من خلال إجابة المستجوبين أن النسبة الأكبر والتي بلغت 64.4% قد تم اختيار موضوع البحث التدخلي في نهاية السنة الأولى من التدريب، وهذا يتنافى مع مفهوم وفلسفة البحث التدخلي باعتباره بحث إجرائي ميدان يقوم به الاستاذ المزاوول، والذي يستكشف إشكالية بحثه من خلال الممارسة العملية، منطلقاً من مشكلة واقعية يمكن التعامل معها والتأثير فيها وتغييرها، فالغرض من البحوث الإجرائية هو تقديم طريقة للمدرسين الباحثين لحل مشكلات يومية في المدارس، فالبحوث الإجرائية تتعلق بتطوير الاتجاهات المهنية للمدرسين، وفي إجرائهم بحثاً في صفوفهم المدرسية ومداسهم<sup>1</sup>، وهو ما أكد عليه المقرر الوزاري في مادته 19 التي تنص على: "ينجز الأستاذ(ة) المتدرب(ة) بحثاً تربوياً تدخلياً خلال السنة الثانية، يتضمن معالجة ظاهرة تربوية تتم معاينتها أثناء الممارسة الميدانية...."<sup>2</sup>، وكذا المادة 20 منه التي تنص على اعتماد منهجية علمية تستحضر خصائص المجال ومجموعة القسم والمميزات الفردية للمتعلّقات والمتعلّمين<sup>3</sup>. في مقابل نسبة 35.5% هي التي تمكنت من اختيار الموضوع إبان الممارسة الميدانية.

**س2: هل تم إنجاز البحث بشكل فردي، أم ثنائي، أم في إطار مجموعات؟**



<sup>1</sup> - البحث الإجرائي، م.س، ص.23.

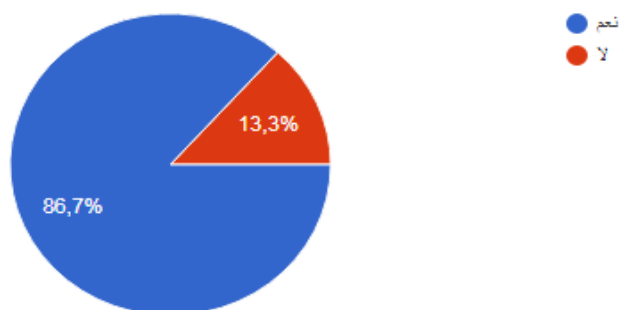
<sup>2</sup> - الفقرة الأولى من المادة 19 من المقرر الوزاري.

<sup>3</sup> - المادة 20 من المقرر الوزاري.

يستشف من النسب المحصل عليها من تجميع أجوبة المستجيبين بخصوص كيفية إنجاز البحوث التدخلية هل تمت بشكل فردي، أم ثنائي، أم في إطار مجموعات، أن نسبة 43.00% تمت بشكل ثنائي، ونسبة 31.00% تم في إطار مجموعات، أما البحوث المنجزة بشكل فردي فنسبتها لم تتجاوز 26.00%، وهذا يتنافى جملة وتفصيلا مع خصوصية البحث التدخلية التي تميزه عن باقي الأنواع الأخرى من البحوث سواء النظرية أو التطبيقية؛ كونه يقوم على خصوصية وتفرد دراسته لإشكالية نابعة من الواقع العملي للممارس/الأستاذ، والرامية لتجويد تدخله وحسين أدائه، وبالتالي فإن البحوث التدخلية المنجزة بشكل ثنائي أو في إطار مجموعات تحيد عن الهدف المنشود، ولن تحقق الغايات المسطرة المتمثلة في معالجة ظاهرة تربوية تتم معابنتها أثناء الممارسة الميدانية، باعتماد منهجية واضحة تتدرج عبر محطات أساسية من بينها<sup>1</sup>:

- رصد الظاهرة ووصفها بدقة للتعريف بها؛
  - تجميع المعطيات ومعالجتها، وتحليلها وتفسيرها؛
  - اقتراح الحلول وتجربتها؛
  - تحديد النتائج وتحليلها وإبراز مدى نجاعتها وإمكانيات تعميمها.
- وهو ما لا يمكن أن يتم إلا في إطار بحوث فردية تراعي خصوصية وتفرد هذا البحث، مع إمكانية تطبيق الحلول المتوصل إليها داخل الفصل لتجويد العملية التعليمية.

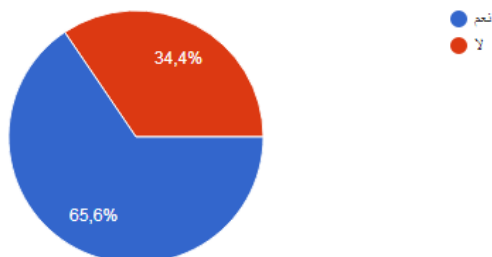
**س3: هل تم تحديد المشرف على بحثكم من بين الأساتذة المكونين بالمركز؟**



<sup>1</sup> - المادة 19 من المقرر الوزاري.

أقر المستجوبون بنسبة 86.7% أنه تم تحديد المشرف على البحث من بين الأساتذة المكونين بالمراكز التكوين، تماشياً مع مضامين المقرر الوزاري الذي ينص على تحديد مؤطر يواكب ويشرف على عملية إنجاز البحوث التدخلية خلال السنة الثانية من التكوين (السنة الأولى من العمل)، رغم ما يسجل على هاته العملية من ربطها بالاختيار المسبق للمواضيع (سبق ذكره وتحليله بمناسبة مناقشة سؤال توقيت اختيار مواضيع البحث التدخلية)، كما يمكن طرح إشكالية كفاءة بعض المكونين في تأطير البحوث التدخلية والإشراف عليها من الناحية المنهجية، وإلمامهم بخصوصيات البحوث التربوية التدخلية. في مقابل بنسبة 13.3% من المستجوبين لم يتم تحديد المشرف على بحوثهم.

#### س4: هل تم تتبع بحثكم من طرف المشرف خلال إعدادة؟



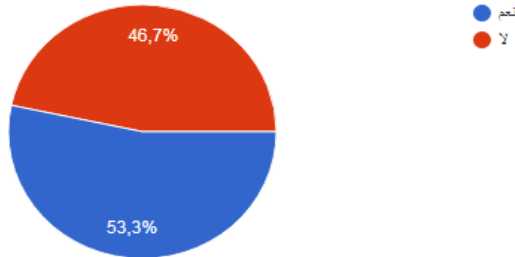
أقر المستجوبون بنسبة بلغت 65.6% أنهم أنجزوا بحوثهم تحت تأطير وإشراف فعلي للأساتذة المكونين، في مقابل نسبة 34.4% منهم لم تحظى بالمواكبة إبان إنجاز البحوث؛ مما يطرح من جديد إشكالية التكوين وجودته في مجال البحث التدخلية، وكذا عدم تفعيل مضامين المقرر الوزاري في الشق المتعلق بتأطير البحوث التدخلية؛ حيث يكون الأستاذ مطالب في السنة الثانية من التكوين بإعداد بحث تدخلية تحت إشراف وتأطير أستاذ(ة) مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الذي تابع(ت) الأستاذ(ة) المتدرب(ة) به تكوينه خلال السنة الأولى من التكوين<sup>1</sup>.

أو في الشق المتعلق بمواكبة الأستاذة المتدربين خلال السنة التكوينية الثانية من قبل الأساتذة المكونين حيث جاء في المادة 17: "كما يستفيد المعنيون بالأمر -الاساتذة(ات)

<sup>1</sup> - المادة 22 من المقرر الوزاري.

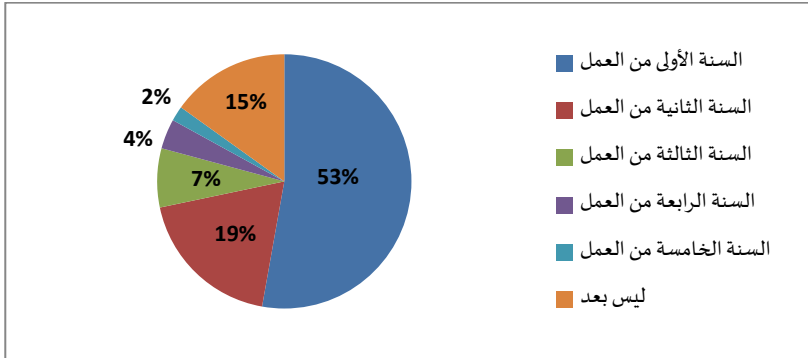
المتدربون(ات)- من آلية المصاحبة والتكوين عبر الممارسة ومن دعم ومواكبة ميدانية وعن بعد من طرف أساتذة بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين<sup>1</sup>.

**س5: هل ناقشتم بحثكم أمام لجنة تقييم البحوث التدخلية بمركز التكوين؟**



يلاحظ من خلال الإجابة على السؤال المتعلقة بمناقشة البحث التدخلية أن نسبة تقارب نصف المستجوبين 64.7% لم تناقش بحثها بعد إلى حدود تاريخ إجراء هاته الدراسة، في مقابل 53.3% هم من ناقشوا بحثهم. وهو ما يتنافى مع مضمون الفقرة الأولى من المادة 23 من المقرر الوزاري التي تنص على: "يتم تقويم البحوث التربوية التدخلية خلال شهر دجنبر من السنة الثانية من التكوين من لدن لجنة للتقويم....."<sup>2</sup>.

**س6: إذا كان الجواب ب "نعم"، متى تم ذلك؟**



يلاحظ من خلال إجابات الفئة المستهدفة بالبحث أن نسبة الأساتذة المتدربين الذي ناقشوا بحوثهم في الأجال المعتمدة في المقرر الوزاري والمتمثل في شهر دجنبر من السنة الثانية من التكوين

<sup>1</sup> - المادة 17 من المقرر الوزاري.

<sup>2</sup> - الفقرة الأولى من المادة 23 من المقرر الوزاري.

من لم تتجاوز النصف إلا بقليل بنسبة 53.00%، ويسجل امتداد المناقشة إلى سنوات عدة وصلت إلى السنة الخامسة بنسبة بلغت 2.00%، والسنة الرابعة بنسبة 4.00%، والسنة الثالثة بنسبة 7.00%، والسنة الثانية بنسبة 19.00%، مع التأكيد على رقم مهم والمتمثل في نسبة الذين لم يناقشوا بعد بحوثهم التدخلية والتي وصلت نسبتهم إلى 15.00% من مجموع المستجوبين. وهذا يطرح مسألة الصرامة في التعامل مع إلزامية مناقشة البحوث التدخلية في الأجال القانونية المحددة بالأطر المرجعية باعتبارها مكون أساسي من مكونات الكفاءة المهنية، لا تستقيم عملية اجتيازها إلا بمناقشة البحث أمام لجنة تقويم البحوث التدخلية، والحصول على نقطة تساوي أو تفوق 10 على 20<sup>1</sup>.

### س7: إذا كان الجواب ب "لا"، لماذا لم تناقشوا بحثكم؟

جاءت تبريرات الأساتذة الذين لم يناقشوا بحثهم بعد متأرجحة بين عدم تمكنهم من إتمام بحوثهم لأسباب مختلفة منها عدم كفاية الوقت، واشتغالهم بالمناطق النائية حيث تغيب المراجع، إضافة إلى انقطاع التواصل مع المكون المشرف.

كما تم تبرير ذلك بكون لم يتم استدعاؤهم لمناقشة هاته البحوث رغم جاهزيتهم لذلك، مع تسجيل التراكم التي تعرفه الدفعات التي تزامنت وجائحة "كورونا" التي لم يستطيعوا المناقشة لحدود كتابة هاته الأسطر.

مما يطرح إشكالية أخرى تتمثل في المبادرة التنظيمية والجهة المنوط بها تحديد مواعيد انعقاد لجان المناقشة واستدعاء الأساتذة لعرض ومناقشة بحوثهم التدخلية.

### خاتمة:

استنادا للتشخيص المقدم من طرف الفئة المستهدف بهذه الدراسة البحثية، تم الوقوف على العديد من المعوقات التي تحد من التنزيل السليم لمضامين مصوغة التكوين في "مناهج البحث التدخلية"، أو أجراً المقرر الوزاري في الشق المتعلق بإنجاز البحث التدخلية ومناقشته أما لجنة التقويم، وانطلاقاً من المقترحات الواردة على لسان هاته الفئة، يمكن طرح مجموعة المقترحات تروم الرقي بالتكوين والمصاحبة في إنجاز البحوث التربوية/التدخلية حتى تحقق الأهداف المرجوة من برمجتها كمكون من مكونات التكوين الأساس للأساتذة المتدربين، نقدمها على الشكل التالي:

<sup>1</sup> - المادة 23 من المقرر الوزاري.

- إسناد مجزوءة "منهجية البحث التدخلي" لكونين مؤهلين، لهم إلمام معمق بمنهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وذوو تجربة في الميدان التربوي؛
- مراجعة مصوغة مجزوءة البحث التدخلي بشكل تجعل الجانب التطبيقي يفوق الجانب النظري من خلال تقديم أمثلة ميدانية ملموسة؛ يمكن الانطلاق منها كوضعيات تطبيقية، والاشتغال على البحوث التدخلية المنجزة من طرف الأفواج السابقة باعتبارها نماذج يمكن الانطلاق منها؛
- توفير خزانات ومكتبات بمراكز التكوين، تضم إلى جانب المراجع العامة، نماذج منجزة من البحوث التربوية/التدخلية ليستأنس بها الطلبة المتدربون المقبلين على إنجاز بحثهم؛
- إرجاء برمجة مجزوءة "منهجية البحث التدخلي" للأسدس الثاني من السنة التكوينية الأولى، حتى يتسنى للطلاب الاستئناس ببعض القضايا والاشكالات التربوية المقبل على مواجهتها عمليا؛ كي لا يبقى التكوين حبيس الشق النظري؛
- التأكيد على أن الأصل في البحوث التربوي/التدخلية أنها بحوث تطبيقية ذات خصوصية متفردة، تنطلق من فضاء القسم وتنتهي فيه، لا يمكن أن تكون لا ثنائية ولا في إطار جماعات؛
- التأكيد على أن اختيار مواضيع البحوث التربوي/التدخلية لا يكون افتراضيا ولا مسبقا بمراكز التكوين، بل هي نابعة من مشكل تربوي معاش خلال الممارسة التربوية، فمنهجية البحث التربوي/التدخلية تسعى لتجويد تدخلات الأستاذ، ويكسبه مهارة التعامل مع الوضعيات المشكلة المطروحة أمامه في مجال تدخله؛
- التأكيد على أهمية التأطير والمواكبة خلال إعداد البحوث التربوي/التدخلية خلال السنة الثانية من التكوين، من خلال التنظيم الإجرائي لهاته العملية، بحيث تبقى العلاقة دائمة ومستمرة بين المكون المشرف والأستاذ المتدرب، في جميع مراحل إنجاز البحث، بدأ من تحديد الإشكالية، إلى إعداد التقرير وعرضه أمام لجنة المناقشة؛
- تنظيم دورات تكوينية للمكونين المشرفين على البحوث التربوية لتوحيد الرؤى حول منهجية إعداد البحوث التربوية/التدخلية؛
- تنظيم السنة التكوينية الثانية بحيث يتحدد آجال مسابقة ومعلنة لمناقشة البحوث التربوية/التدخلية، مع ضرورة الالتزام بهاته المواعيد من طرف جميع المتدخلين.



## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- بن زكورة العونية، وبن سامل ميمونة، دور البحث العلمي في تحقيق التنمية المستدامة، المجلة المغربية لاقتصاد والتسيير، الصادرة عن مختبر المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، المجلد 01، جامعة معسكر الجزائر، العدد 3، مارس 2016، صص. 58-69.
- الخالدي وموسى ووهبة، البحوث الإجرائية مع معلومات ما قبل الخدمة. نشرة رؤى تربوية، مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله، فلسطين، العدد 1، يونيو 2000.
- رشيد بوسعيد وخالد الدهيبة، المجزوءات المستعرضة لدعم التكوين من أجل تعلم فعال، البحث الإجرائي، الوحدة المركزية لتكوين الأطر، وزارة التربية الوطنية، المملكة المغربية، نونبر 2002.
- فؤاد شفيقي، إرساء آليات البحث التربوي في منظومة التربية والتكوين، الجامعة التربوية الأولى لأساتذة المراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين، الوحدة المركزية لتكوين الأطر-إتقان . إفران: جامعة الأخوي، يونيو 2012.
- فؤاد على العاجز، البحوث العلمية وتنمية المجتمع بين الركود والفعالية، أشغال المؤتمر العلمي الرابع: دور الجامعات في التنمية، جامعة الأقصى غزة، ما بين 3 و5 ماي، 2002.
- محمود جرادات، واقع البحث العلمي في الجامعات الحكومية في الأردن وتوقعاته المستقبلية، مجلة علوم التربية، كلية التربية، جامعة قطر، 2002، صص. 127-163.
- مفيد الشامي، دور البحوث في التنمية، الملتقى الفكري العربي، القدس، 1995.

### المرجعيات المعتمدة:

- الميثاق الوطني (التكوين الأساسي والمستمر لهيئة التربية والتكوين ضمن مواد الدعامة 13)
- البرنامج الاستعجالي (التدابير التربوية في مشروع تعزيز كفايات الأطر التربوية E3P1)
- تقرير المجلس الأعلى وتوصياته حول هيئة ومهنة التدريس

- قرار لوزير التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة، رئيس المجالس الإدارية للأكاديميات الجهوية للتربية والتكوين رقم 06222 بتاريخ 09 نونبر 2022، بتحديد كيفية تنظيم التكوين التأهيلي وامتحان نيل شهادة الكفاءة التربوية للناجحين في مباراة توظيف الأساتذة الأطر النظامية.

- الأطر المرجعية لمهام وكفايات أطر التربية والتكوين للتعليم الثانوي الإعدادي
- المرجعية الوطنية للجودة في المنظومة التربوية
- الأدبيات التربوية المتخصصة في معايير الجودة وتأمينها
- توصيف مجزوءة منهجية البحث التدخلي، سلك أطر هيئة التدريس بمراكز التربية والتكوين – مسلك التعليم الابتدائي.

#### لائحة المراجع الأجنبية:

- ADELMAN, C. [1993]. «Kurt Lewin and the origins of Action-Research, in Educational Action-Research Revue, Vol. n°1, pp.7 - 24.

#### موارد إلكترونية:

- <http://1libertaire.free.fr/Recherche-Action02.html>
- <http://www.recherche-action.fr/>
- <file:///C:/Users/asus/Downloads/3955-11444-1-SM.pdf>
- [www.teachersnetwork.org/tnli/research](http://www.teachersnetwork.org/tnli/research)

## محبّة درّس الأدب مدخلًا إلى الاندماج الاجتماعيّ

د. عبد اللطيف الدادسي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة درعة تافيلالت  
المغرب



### ملخص:

تقدّم، في هذا المقال، مقترحًا بيداغوجيًا وديداً كينياً في تدريس الأدب بالثانوي التأهيلي، يراهن على محبة درس الأدب لتحقيق الاندماج الاجتماعي، بعد أن لاحظنا أن المتعلمين اليوم أصبحوا ينفرون من المواد الأدبية؛ لكونها لا تقود إلى سوق الشغل، وكأن حاجات المجتمع منحصرة في المهن الاقتصادية فقط! مُتناسين أن المجتمع الجيد هو الذي يلي حاجياته من كل التخصصات دون استثناء؛ فالإنسان متعدد الأبعاد، فرداً وجماعاً. وقد انتهى هذا المقال إلى أن المقاربات البيداغوجية، والكفايات المستهدفة في المنهاج التربوي لمادة اللغة العربية، تكاد لا تدفع بدرس الأدب ليكون مقبولاً ومرغوباً فيه في الوسط المدرسي!! ونتيجة لذلك، أصبح التفكير في إنقاذ درس الأدب من عورة تدريسه مشروعا وضرورياً. ومن أجل ذلك، حاولنا أن نستثمر مقترحات نظرية التلقي الألمانية (التفاعل والتأثير)؛ لبيان أهمية تلقي الدرس الأدبي في تمكين المتعلمين من التفاعل الذهني مع النصوص الأدبية، ومحيطها المعرفي والمنهجي لغوياً وتقدياً. فنجاح التفاعل الذهني يؤهل المتعلمين للاندماج الاجتماعي؛ إيماناً بفكرة أن النص الأدبي صورة مصغرة للواقع في سلوكيات الأفراد وقيمهم ومعتقداتهم وطموحاتهم؛ ذلك أن رهاننا التنموي كان في صلب الكفايات المستهدفة؛ من خلال توسيع رقعتها لتشمل كفايات جديدة؛ من قبيل الكفاية المعرفية والكفاية الإبداعية، اللتين تؤشران على أهلية الأدب في مجال تسهيل الاندماج الاجتماعي على مستوى العلاقات الاجتماعية والأسرية والمهنية.

إن التهميش الذي طال المواد الأدبية جعلها خارج اهتمامات المجتمع، وتوجهاته المهنية والقيمية، وهو ما جعل المتعلم جاهلاً بقيمة الأدب؛ بحيث إن الأسر تربي أبناءها على الاهتمام بالمواد ذات الاستقطاب المهني، متناسية أنهم قد يظفرون بوظائف ومهن مستقبلاً، ولكنهم سيكونون عبارة عن روبوتات، لا تفقه شيئاً في تدبير العلاقات الاجتماعية، وفهم العلاقة بين الذات والآخر!

الكلمات المفتاحية: درس الأدب - التفاعل الذهني - التفاعل الاجتماعي - المحبة - الاندماج الاجتماعي - الكفاية المعرفية - الكفاية الإبداعية.

كلمات مفتاحية: المدرسة - التربية المائية - الوعي المائي - السلوكيات الإيجابية.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عزوزي، عبد العزيز. محوري، جواد (2024، أكتوبر). دور المدرسة في تنمية الوعي المائي. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 704-716.

**Abstract:**

In this research, we propose pedagogy and didactical in teaching literature in qualifying secondary, it is about betting on loving the study of literature to achieve social integration. Today's observation is that learners have become alienated from literary materials because they do not lead to the job market, as if the needs of society are confined only to economic occupations, forgetting that it is a good society that meets its needs from all disciplines without exception. The human being is multidimensional, individual and collective.

This research concluded that pedagogical approaches and targeted competencies in the Arabic curriculum hardly prompt literature to be acceptable and desirable in the school community. As a result, the thought of saving the lesson of literature from the difficulty of teaching it has become legitimate and necessary. For that reason, we have tried to invest the proposals of German reception theory (interaction and influence) to demonstrate the importance of receiving literary lessons in enabling learners to interact mentally with literary texts and their linguistically and critically cognitive and methodological surroundings. The success of mental interaction qualifies learners for social integration in the belief that literary text is a microcosm of reality in individuals' behaviours, values, beliefs and aspirations. Our development bet has been at the core of the target competencies by extending them to new ones such as cognitive competence and creative competence, which indicate literature's capacity to facilitate social integration at the level of social, family and professional relations.

The prolonged marginalization of literary material has left it outside society's interests and professional and value orientations. This has made the learner ignorant of the value of literature. Families raise their children to care for subjects of professional polarization, forgetting that their children will have careers and careers, but they will be patrons that do nothing to manage social relations and understand the relationship between themselves and others..

**Keywords :** Literature Lesson - Mental Interaction - Social Interaction - Love - Social Integration - Cognitive competence - Creative competence.

## مقدمة

لا أظن أن أحدا من الفاعلين في حقل التربية والديداكتيك سينفي عن عصرنا الحالي انشغاله بالحاجة إلى تنمية الكفايات المختلفة، ولا سيما ما يتعلق بالكفاية المعرفية والكفاية الإبداعية؛ فهاتان الكفتان تُعدّان الغاية، التي تنتهي إليها الكفايات المستهدفة مجتمعة؛ فلا يمكن أن يكون المتعلم كُفُنا، معرفيا وإبداعيا، دون أن تتقوى كفاياته التواصلية والمنهجية والاستراتيجية.

وتتمثل الكفاية المعرفية في قدرة المتعلم على التحكم في المعرفة، وأدوات بنائها، وسيرورات اشتغالها وإنتاجها وتصريفها في سياقات ووضعيّات تعليمية مختلفة<sup>1</sup>. ويمكن الانفتاح، في هذا الإطار، على التعريف الذي وضعه بياجيه، والذي مؤداه أن الكفاية المعرفية تحيل على تلك العملية الدائرة حول الاستيعاب والتثبيت، ويمكن الإشارة، هنا، أيضا، إلى الأشخاص القادرين على التعامل مع تجاربهم، وتنظيم أفكارهم، وتكييفها مع سلوكياتهم<sup>2</sup>.

وفيما يخص الكفاية الإبداعية، فإنها تعني تمكّن المتعلم من التعامل مع وضعيات تعليمية أو معيشية، كيفما كانت، بنوع من التفرد والتميز، وبتقنيات وطرائق غير معروفة لدى الآخرين. وبالتالي، فهي تشير إلى امتلاك المتعلم معارف وخبرات، تؤهله للتخلص من العوائق والعثرات، التي تصادفه في التعلم، بأسلوب مغاير وجديد، يبرز ويتولد مع وضعية التعلم، التي تكون حافزا له وسببا في ظهوره.

إن الكشف عن سبل تنمية الكفتين المذكورتين، في المجال الأدبي تحديداً، لن يتأتى، في تقديرنا، إلا من خلال الوعي بالعلاقة بين المتعلم ودرس الأدب؛ فتحصيل الكفايات وامتلاكها، ها هنا، رهين بمدى قيمة الأدب في المجتمع عامة. وعليه، فإنّ الوعي بالكفتين المعرفية والإبداعية يتحكم فيه الوسيط المدرسي والمجتمعي؛ لأن قيمة الكفايات تتحدد في مدى قدرتها على أن تواكب تطور المجتمع، وفي مدى قدرتها على أن تفرض نفسها في سوق الشغل، وفي الاندماج الاجتماعي بكل أشكاله؛ مما يعني أن للمجتمع طموحات وآمالاً يُعلّقها على ميدان التعليم والتكوين.

<sup>1</sup> الدادسي، عبد اللطيف. ديдаكتيك الدرس الأدبي: الاستراتيجيات والكفايات، من منشورات مجلة عطاء للدراسات والأبحاث، الرباط، ط.1، 2024، ص:14.

<sup>2</sup> Ahmad M. J. Alfawair. The Impact of a training program on the development of perceived cognitive competence among students with learning disabilities: An experimental study. British Journal of Education, Society & Behavioural Science, 2016. P:3.

يمكن أن نتناول إشكالية إقبال المتعلم على درس الأدب، بوصفه معرفة، من خلال وضعها ضمن سياقات معينة، تُوْطر تفكيرنا فيها؛ فالعلاقة بين المتعلم ودرس الأدب علاقة تفاعل، يتحكم فيها الإقبال (المحبة) أو النفور (الكراهية)، وعملية تدريس الأدب للمتعمّم تمتاز بالتفاعل الذهني، الذي يدخل في باب اشتغال الذهن والتفكير، وتحصيل فهم وبناء معرفة واكتساب مهارات متنوعة لدى المتعلم. ويقابل هذا التفاعل الذهني تفاعل آخر، يكون هو المقصد الأسْمى، وهو التفاعل الاجتماعي، الذي يفرض على المتعلم أن يكون مؤهلاً ذهنياً ومهاراتياً لِيَتفاعل اجتماعياً بنجاح؛ فمهمة المدرسة - في المآل - هي تأهيل المتعلم للاندماج داخل المجتمع.

ويُسفر الإقبال على درس الأدب ومحبته عن مردودية جيدة، إذا كان المتعلم يمتلك ذكاءات متعددة؛ كما حددها هاوارد غادنر<sup>1</sup>، وهي تتكاتف لتجعل المتعلم قادراً على الاندماج مع النص، بوصفه مثيراً للتلقّي عاطفياً ووجدانياً قبل كل شيء، لينتقل إلى الإثارة المعرفية؛ حيث يُطرح السؤال الآتي: ما المعاني التي يمكن أن يمنحها المتعلم للنص بشكل فردي، ثم بشكل جماعي حينما يشارك زملاءه في قراءة النص وتحليله؟ ويبقى التلقّي لدى المتعلم عمليةً يمكن أن تسير في أجواء مختلفة داخل الفصل الدراسي، وهي المتحكمّة في أفق مردودية التعليمات. وللإشارة، فإن نشاط التفاعل بين المتعلم ودرس الأدب يبقى رهين إقبال المتعلم على التعليمات، أو عزوفه عنها، في حين أن الإقبال أو العزوف يكون نتيجة ظروف وأسباب، هي التي تكشف نوعية التفاعل وطبيعته، وحدود ذلك التجاوب قبل كل شيء.

### 1. منهج اللغة العربية والكفايات المستهدفة:

إن الجهود العلمية التربوية السابقة كانت ترى، في أغلبها، المتعلم كائنًا ينحصر دوره في التعلم في حدود استهلاك المعرفة؛ وبالتالي نَهَج فعل المحاكاة والاجترار. بيد أن هذا التصور تبدّل، مع مرور الزمن، لتكون النتيجة هي النظر إلى المتعلم بوصفه كائنًا يبني المعرفة، ويُنتجها في إطار التفاعل الذاتي مع الموضوع/ الواقع؛ باستخدام آلية العقل. وفي مرحلتنا المعيشة؛ حيث المعارف متوافرة في كل مكان، أو سهلة المنال، فإن التعليم لا يتمثل دوره في نقل المعرفة، ولكن في تنمية المهارات الفكرية والسوسيو عاطفية والجسّ حركية، وهو ما يعني ضرورة مساعدة المتعلمين على تحصيل

<sup>1</sup> Howard Gardner and Thomas Hatch: Multiple intelligences go to school: Educational implications of the theory of multiple intelligences. Educational Researcher, Vol. 18, N° 8 (Nov., 1989). Published by: American Educational Research Association.

كفايات، تكون في خدمتهم طوال حياتهم<sup>1</sup>. وهذا هو مسعى المنهاج التربوي بالمغرب، الذي يعتمد بيداغوجيا الكفايات، التي يستجيب اعتمادها لمنطلقاته وغاياته؛ ذلك أن "تكوّن شخصية مستقلة، قادرة على الاندماج في المحيط، والتفاعل مع مكوناته، لا يتحقق إلا بتوجيه المتعلم، وجعله قادرا على توظيف مهاراته ومعارفه، وتداولها في مواقف مختلفة"<sup>2</sup>.

ويجد الكثير من الباحثين أن تلك البيداغوجيا أوفر حظاً "لكسب الرهانات الديداكتيكية والبيداغوجية المطروحة على المسؤولين والفاعلين التربويين على حدٍ سواء"<sup>3</sup>، والمقصود بـ"الرهانات"، في الأساس، تلك "الرهانات التي يتعين على المدرسة الحديثة رُئحها، وهي تتمثل في تكوين أجيال المستقبل تكويناً ينسج على إكسابهم أهم الكفايات والأدوات لتحصيل مختلف أشكال المعرفة"<sup>4</sup>.

إن اعتماد بيداغوجيا الكفايات يعني تطبيق نموذج من التدريس، تتمثل غايته في إشراك المتعلم فعلياً في بناء التعلم، ويُصطلح على هذا النوع من التدريس، في النصوص والمستجدات التربوية، باسم "التدريس بالكفايات"، وهو "يستلزم إشراك المتعلمين، والعمل بالتعاون والشفافية في إطار المجموعات، والإلحاح على إتمام المهام الدراسية"<sup>5</sup>. ويمكن تعزيز فكرة إشراك المتعلم، في إنتاج المعرفة، بما يعتقده جون ديوي بقوله إن "التعليم يجب أن نكون معه عمليين؛ ويجب تعليم الطلاب على التفكير، وعلى التكيف مع العالم، الذي يعيشون فيه"<sup>6</sup>.

ويمكن، استناداً إلى محتوى المنهاج الدراسي في الثانوي التأهيلي (مادة اللغة العربية)، التعرض للكفايات المستهدفة من تدريس الأدب، وهي كفايات مُصاغة، بالتحديد، حسب الوظائف والأغراض التعليمية المتوخاة، و"تتجلى في القيم والمثل والأفكار المراد نقلها إلى المتعلم"<sup>7</sup>، وهذا ما يجعل توظيف الكفايات، هنا، متسماً بالمحدودية؛ ومن ثم، غياب الانفتاح على كفايات

<sup>1</sup> هاروشي، عبد الرحيم. بيداغوجيا الكفايات - مرشد المدرسين والمكونين. ترجمة: الحسن اللحية وعبد الإله شريط، نشر الفنك، 2004. ص:17.

<sup>3</sup> مديرية المناهج، الرباط. التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، نونبر 2007، ص:48.

<sup>4</sup> غريب، عبد الكريم. مستجدات التربية والتعليم. من منشورات "عالم التربية"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2015، ص:259.

<sup>5</sup> المرجع نفسه، ص:259.

<sup>6</sup> المرجع نفسه، ص:261.

<sup>6</sup> Catherine Reverdy. Des projets pour mieux apprendre? Dossier d'actualité veille et analyses, N° 82, Février 2013, P:4.

<sup>7</sup> التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، نونبر 2007، ص:7.

أخرى، بإمكانها إنماء وإثراء غايات التكوين والتربية لدى المتعلم. وعلى العموم، تتعدد الكفايات التي تضمنها منهاج العربية في التعليم الثانوي، ويظل أبرزها أربع كفايات، هي:

**الكفاية التواصلية:** يركز تحقيق هذه الكفاية على جميع مكونات مادة اللغة العربية، ويُنتظر أن يوظفها المتعلم في سياقات ومواقف تواصلية بطريقة سليمة. وهذا لن يتأتى، طبعاً، إلا بإقدار المتعلم على فكّ رموز اللغة، خلال تلقي النص الأدبي بمكوّن درس النصوص، ونصوص الانطلاق في مكون علوم اللغة، ثم إعادة تركيبها في قالب جديد، سواء في مرحلة من مراحل تلقي النص وتحليله، أو في أنشطة مكون التعبير والإنشاء. إن الكفاية التواصلية "تستهدف التمكن من إتقان مختلف أنواع التواصل والخطاب، وإتقان اللغات"<sup>1</sup>. وترى فاطمة حسيني أن هذه الكفاية هي "حصيلة من القدرات والمهارات اللسانية والخطابية والمرجعية، التي تسمح للمتعلم، مجتمعة ومؤتلفة، بأداء وإنجاز مناسب وملامم للوضعيات التواصلية التي يكون بصدها"<sup>2</sup>.

**الكفاية المنهجية:** وتفرض على المتعلم القدرة على القراءة والمقاربة بأسلوب منهجي، يركز على استخراج البنيات والعناصر الملائمة، وتركيبها بطريقة سليمة، ثم معالجة المعلومات عبر تقنيات تعلّم متنوعة... وهذا، فإنّ الكفاية المنهجية "تستهدف إكساب منهجيات التفكير والعمل وتنظيم الذات والوقت وتدبير التكوين الذاتي"<sup>3</sup>.

**الكفاية الثقافية:** إن أهمّ ما تستهدف الكفاية الثقافية هو "تنمية الرصيد الثقافي للمتعلم، وتوسيع دائرة إحساسه وتصوّراته ورؤيته للعالم وللحضارة البشرية، في تناغم مع تفتح شخصيته، وترسيخ هويته كمواطن مغربي"<sup>4</sup>. ويجب أن نعي، هنا، أن المدرسة وسيلة يُراهن عليها لتمكين المتعلم من التعرف إلى ثقافته، في غناها؛ سعياً إلى جعلها متمظهرة على مستوى كل ما يقوم به من سلوكات، وما يتلفظه من أقوال، وما يتبناه من مواقف... وحينما تسعى المدرسة إلى جعل المتعلم يتأهل ثقافياً ومعرفياً؛ من خلال الدرس الأدبي، فهي تدفعه إلى تعرّف أنماط الكتابة النثرية والشعرية، وخصائصها النوعية؛ وإلى تعرّف مكونات الخطاب ودلالاته ووظائفه، وإلى التمكن من رصيدٍ محترم في اللغة والبلاغة والعروض، يسعف المتعلم في فهم النصوص وتحليلها، ويعمق لديه

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص:4.

<sup>2</sup> حسيني، فاطمة. كفايات التدريس وتدرّس الكفايات: آليات التحصيل ومعايير التقويم، TOP EDITION، الدار البيضاء، ط.1، 2005، ص:16.

<sup>3</sup> التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، نونبر 2007، ص:4.

<sup>4</sup> نفسه.



ثقافته في علوم الآلة. كما تُعرّفه على تقنيات إنتاج النصوص حسب مهارات محددة<sup>1</sup>... ولا تقف الكفاية الثقافية عند حدود ما تقدمه مادة اللغة العربية، أو درس الأدب، بل تشمل ما يقدم في المواد الدراسية الأخرى كذلك.

**الكفاية الاستراتيجية:** إن من بين ما يُجنّى؛ بفضل الكفاية الاستراتيجية، تقديم المتعلم أجوبةً مختلفة، وتوظيف طرق متنوعة لإنتاج الأجوبة، نابعة من اختياراته الخاصة. أضف إلى ذلك قدرة المتعلم على تصحيح الأخطاء التي وقع فيها سلفاً؛ وذلك إيماناً منه بأن التعلم يعني التعديل، الكلي أو الجزئي، لأفكار وسلوكات بأخرى جديدة وأجدى... فهذه الطريقة من التفاعل الصفي، يتمايز المتعلم عن زملائه داخل الفصل. فالكفاية الاستراتيجية، إذًا، تستهدف "التعبير عن الذات، والتموقع بالنسبة للآخر والمؤسسات المجتمعية، والتكيف معها ومع البيئة، وتعديل المنتظرات والاتجاهات والسلوكات"<sup>2</sup>. ويتيح هذا التعديل، والاندماج بين الذات والمحيط، تجاوبا مع ما تفرضه تطورات المعرفة، وأنماط التفكير والذهنيات الاجتماعية...

## 2. المتعلم... من التفاعل الذهني إلى التفاعل الاجتماعي:

تعد قراءة النص الأدبي، من قبل المتعلم، تفاعلا ذهنيا، يستدعي قدرات ومهارات وكفايات مختلفة؛ لتحقيق غايات القراءة بنوع من الفعالية. فحينما نعود لنبحث في مفهوم "القراءة" (La lecture)، في مجال الديدكتيك الخاص، نجد ما يصطلح عليه بـ "القراءة المنهجية"، التي تفتح لنا أفق الاطلاع على نظريات القراءة، التي تسعّفنا في فهم العلاقة التفاعلية بين المتعلم، بوصفه قارئاً، والنص بوصفه مقروءاً. ولكي تتضح حقيقة التفاعل الذهني، يجب أن نعي بأن المتعلم يوظف معارفه السابقة (الخبرة الحياتية عامة، والخبرة القرائية خاصة)، التي وفرتها له ثقافته، في قراءة النص الأدبي؛ وبالتالي تتفاعل هذه المعارف مع ما يقدمه النص الأدبي.

فمفهوم "التفاعل الذهني" حاضر في نظريات القراءة، ولاسيما في ما اقترحه إيزر (W. Iser)، الذي يقول: "إن الشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه... إن للعمل الأدبي قطبين، قد نسمّهما: القطب الفني، والقطب الجمالي.. الأول هو نص المؤلف، والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ. وفي ضوء هذا التقاطب، يتضح أن العمل ذاته لا يمكن أن يكون

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 15.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 4.

مُطابقاً لا للنص، ولا لتحقيقه؛ بل لا بد من أن يكون واقعاً في مكانٍ ما بينهما<sup>1</sup>. وما كان لنا أن نصف هذا التفاعل بـ"الذهني"، إلا لأن القارئ يوظف ذهنه، الذي يحفظ المعارف والخبرات القرائية، وهو ما يعكس العلاقة التواصلية بين المتعلم والنص. ومن هنا، فإنّ إنتاج معرفة بالنص المقروء هي نتيجة للتفاعل الذهني سالف الذكر.

وفيما يخص مفهوم "التفاعل الاجتماعي"، فإننا نجده حاضراً في الفكرة المتعلقة بقيمة التعليمات، وحاجة المجتمع إليها، علماً بأن رهانات التكوين والتعليم الأساسية ترتكز على الكفايات؛ وذلك لأنها "يمكن أن تستجيب لحاجة اجتماعية، موجهة للتكيف مع السوق والتغيرات، ويمكنها أن تمنح السيطرة على الواقع، وتجعل الفرد فاعلاً في العلاقات الاجتماعية"<sup>2</sup>.

يتطلب درس الأدب، بوصفه معرفة، أن يتفاعل معه المتعلم في سياق تواصل، مرسل ورسالة ومرسل إليه. ومن هنا، وجب على المرسل أن يجعل المعرفة الأدبية قادرة على التأثير في المتلقي، وأن يجعل هذا الأخير ينجذب نحوها، ويجد فيها ذاته، لكن السؤال المطروح هنا هو: إلى أي حدّ تجد المعرفة الأدبية شروط التواصل الفعّال مع القارئ؟.. هذا التساؤل يحيلنا على عنصر مهم، وهو التأثير الأدبي، الذي يرتبط فهمه، واستيعاب سبُل اشتغاله، بنظرية التأثير؛ فالنص - حسب هذه النظرية - "يُبنى، بكيفية مسبقة، استجابات قرائه المفترضين، ويحدد، بكيفية قبليّة، سيرورات تلقّيه الممكنة، ويثير ويراقب كلّ واحدة منها؛ بفضل قدرات التأثير، التي تحركها بنياته الداخلية"<sup>3</sup>. وبالتالي، فإن التأثير الأدبي لا يتحقق إلا بشروط، ترتبط بعملية التواصل بين الكاتب (المرسل) والقارئ (المرسل إليه)؛ ذلك أنّ المؤلف يحاول صياغة نص أدبيّ، أو إبداعه، ساعياً من خلاله إلى أن يضمن له قبولاً لدى القارئ، كما يعمل على إقناعه بالمضمون، الذي يحتوي عليه النص؛ ومن ثم، دفع المتعلم إلى إنتاج ردود فعل تُجَاه هذا النص. إنّ قبول المضمون رهين بالتأثير في القارئ؛ بجعله مندهشاً ومنفعلاً ومتأثراً بمحتوى النص المقروء.

ويرتكز التأثير الأدبي على مثيرات نصية، عامرة بالحمولات الإقناعية، تصاغ - على نحو مسبق - اعتماداً على توقع الكيفية التي يمكن للقارئ أن يتلقى النص بها، والطريقة الناجعة للتأثير فيه بهذا النص. إن النص لا يمكن أن يمارس تأثيره إلا إذا تصور مؤلّفه نوع القارئ، الذي يتوجه

<sup>1</sup> إيزر، فولفغانغ. فعل القراءة: نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، ترجمة: حميد لحدادي والجلالي الكدية، من منشورات مكتبة الماهل، فاس، دت، ص: 12.

<sup>2</sup> فيليب بيرنو: بناء الكفايات انطلاقاً من المدرسة، ترجمة: لحسن بوتكلاي، من منشورات "عالم التربية"، ط. 1، 2004، ص: 44.

<sup>3</sup> شرفي، عبد الكريم. من فلسفات التأويل على نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر - الدار العربية للعلوم، بيروت، ط. 1، 2007، ص: 143.

إليه بهذا النص. وليس المقصود، هنا، القارئ الذي يستطيع فهم النص وتوليد معناه، بل القارئ الذي يجد ذاته في النص. وبتعبير عكسي، فالنص يعبر عن قارئه، وهو ما يجعله نصاً مقبولا عند قارئ، ومرفوضاً عند آخر. إن القارئ المتأثر بالنص هو الذي سمّاه فولفغانغ إيزر بـ"القارئ الضمني"، الذي يعدّ "مجسّد كل الاستعدادات المسبقة الضرورية بالنسبة للعمل الأدبي؛ لكي يمارس تأثيره، وهي استعدادات مسبقة، ليست مرسومة من طرف واقع خارجي وتجريبي، بل من طرف النص ذاته. وبالتالي، فالقارئ الضمني، كمفهوم، له جذور متأصلة في بنية النص.. إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقته مع أي قارئ حقيقي"<sup>1</sup>. ويرى رامان سلدن أنّ القارئ الضمني "يساوي شبكة البني التي تُغرينا بالاستجابة، وتستهيونا لقراءة النص بطرق معينة"<sup>2</sup>.

ولأجل ذلك كله، يعمل المدرّس على توفير الظروف والوضعيّات الملائمة لتدريس الأدب، في ظل الإمكانيات البيداغوجية والديداكتيكية المتوافرة. هذا، ومن بين الشروط التي يتطلبها درس النصوص، مثلاً، التأثير الأدبي، الذي يُحدّد في الشرط المتعلق بقبول النص، الذي يشكل شرطاً أساسياً لجعل المحبة والثقة قائمتين بين المتعلم ودرس الأدب. وبهذا، يكون وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ فالمتعلم لا يمكن أن يتفاعل مع محيطه إذا لم تكن له القابلية والانجذاب، اللذان يتحققان بعد أن تصبح تمثالاته عن الدرس الأدبي حسنة، وبدون قناعات أو أفكار مسبقة، يمكنها أن تحوّل دون التفاعل معه على النحو المأمول. ونجد محمد بوبكري يشير، في هذا السياق، إلى أن "هناك شيئاً يجب فهمه، وهو أن الكتب لم يتم تأليفها لكي يقرأها صغارنا وشبابنا، ويعلقوا عليها، بل لقراءتها إذا رغبوا في ذلك"<sup>3</sup>.

### 3. المتعلم وأهمية درس الأدب:

قبل النظر إلى الأدب من جهة التلقي، عبر الممارسة التعليمية، وجب النظر إليه من جهة الإنتاج والإبداع التي تسبق التلقي؛ أي بوصفه استجابة لرغبة ذاتية من المؤلف نحو كتابة أدب معين. فالإنتاج، هنا، في علاقته بالمؤلف، يأتي نتيجة مخاض وقلق وجودي بين الذات المبدعة والمحيط الاجتماعي، والمؤلف يبدع لغرض ما؛ إما ليكشف عن قضايا غامضة، أو ليلفت الانتباه إلى سلوكات إنسانية، تستحق منه المعالجة الفنية... وبهذا، يمكن القول إن بمقدور الأدب أن يصير

<sup>1</sup> إيزر، فولفغانغ. فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، م. س، ص: 30.

<sup>2</sup> نقلاً عن: الدرايسة، عاطف أحمد. قراءة في النص الشعري الجاهلي في ضوء نظرية التأويل، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، ط. 1، 2006، ص: 80.

<sup>3</sup> بوبكري، محمد. في القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. 1، 2003، ص: 127، بتصرف.

خطاباً توجيهاً، وتربوياً كذلك. ونتفق مع ساميول على أننا "لا نقرأ الأدب من أجل الأدب، ولكننا نقرأه؛ لأنه يحدثنا عن العالم، ويكشفه لنا"<sup>1</sup>.

ولا شك في أن قيمة أي شيء تنبثق من خلال الصدى الذي يخلّفه في الواقع، وحاجة الناس إليه. ولا يخرج درس الأدب عن هذا النطاق؛ بحيث يمكن الوعي بقيمته من خلال ربطه بمدى دوره في المجتمع. وفي هذا السياق، يمكن التساؤل عن الكفايات المستهدفة من تدريس نصوص الأدب، وهي كفايات "تتعدد بتعدد المناحي التي تلمسها هذه النصوص، وهي - في الغالب الأعمّ - تتكون من كفايات تواصلية، متعلقة باكتساب اللغة اكتساباً كلياً وشاملاً، والتعبير بها شفويًا وكتابيًا؛ وكفايات وجدانية، تتعلق بالقيم التي يتشبع بها التلميذ تجاه قضايا معينة؛ وكفايات استراتيجية، تتعلق بتحديد التلميذ لذاته، وموقعها تجاه نفسه والآخر، القريب منه والبعيد عنه"<sup>2</sup>. فمن خلال هذه الكفايات الرئيسية، التي تتولد وتُنمى عبر التفاعل الذهني، الذي يُنسج مع النصوص الأدبية، الجُبلى بالمعارف والتجارب الإنسانية، يجد المتعلم ذاته مؤهلةً لأن تكون ذات متفاعلة في الخارج، سواء في المحيط المدرسي أو في المحيط الاجتماعي عموماً. و"لا يخفى أنه - بفضل هذه النصوص - يتم اكتساب رصيد لغوي غني ومتنوع، كما أنها تتيح له اكتساب تعابير جميلة، تفيده في تواصله، وفي التعبير الشفوي الكتابي، فضلاً عن تشبعه بقيم النسبية والتسامح وقبول الآخر المختلف؛ من خلال قراءة النصوص الفرنسية مثلاً، والاعتزاز بمكونات الذات بالنسبة للنصوص المغربية"<sup>3</sup>. ومن ثم، فإن تدريس الأدب، الذي يظل - بطبيعة الحال - مُسرّعاً على نصوصٍ مختلفة لغّة وثقافة، يغرس في المتعلم قيم التعدد والاختلاف الهوياتي وقيم التسامح، وكذا الفخر بالهوية المغربية، الغنية بمكوّناتها وروافدها، التي يجدها حاضرة في مضامين النصوص... هذا من الجانب النفسي والوجداني. أما من الناحية العملية، فإن المتعلم يصبح، من خلال درس النصوص، كائناً منتِجاً في سياقات متعددة؛ بحيث تكون له القدرة على التعبير عن الذات عبر كتابات إبداعية شعرية ونثرية، والتمكن من الحوار والتواصل مع الآخر المختلف عنه...

إن النص الأدبي، سواء أكان قصيدة أم رواية أم مسرحية أو غيرها، هو صورة مصغرة للواقع في كثير من الأحيان؛ ذلك أنه يعبر عن الواقع ويصوره من زوايا متعددة، ويطرح تساؤلات مختلفة، ويستهدف معالجة مشكلات وظواهر إنسانية، بسيطة أو معقدة. وبالتالي، فإن الأفضل، بالنسبة

<sup>1</sup> تيفين، ساميول. التناص ذاكرة الأدب. ترجمة: نجيب غزاوي، من منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2008، ص: 76.

<sup>2</sup> لغتيري، مصطفى. الأدب في خدمة التربية، دار الوطن، الرباط، ط. 1، 2014، ص: 58.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 58.

إلى كاتب النص الأدبي، أن يلامس جوانب عديدة؛ منها ما هو عاطفي وجداني، وما هو حركي، وما هو معرفي، إلخ. ويشكل النص المذكور معرفة، يتم التفاعل معها، من قبل المتعلم، داخل الفصل الدراسي، وهذا ما سَمَّيناه "التفاعل الذهني"؛ هذا التفاعل مع النص يمكن أن نَعُدّه - بالقياس والمُشابهة - تفاعلاً مع المجتمع كذلك.. إنه تفاعل بالإسقاط؛ ذلك أن النص الأدبي يوازي أو يقابل مجتمعا في نظرنا. وبالتالي، يمكن للمتعليم أن ينتقل من التفاعل الذهني في الوضعيات التعليمية-التعليمية إلى التفاعل الاجتماعي في الواقع الفعلي؛ حيث يعمل المتعلم على استثمار المعارف والتعلمات المكتسبة (قيم وسلوكات وذكاءات)، بوصفها كفايات تُنمّي وتُربّي، وهي تتعدد بتنوع بنايات النص: ثقافية كانت أو تواصلية أو لغوية أو منهجية. يضاف إلى ذلك ارتباطها بالتدخلات التأطيرية، التي يقوم بها المدرّس في القسم، وبمهارات التعلم، التي يمكن أن تُدرج ضمن الدعم في الوسط الاجتماعي؛ من خلال المشاكل والمواقف والسياقات التواصلية التي يعيشها المتعلم...

وكثيرا ما يطرح المتعلم، في الطور الثانوي التأهيلي، السؤال الآتي: ما محلّ درس الأدب من سوق الشغل؛ وبالتالي تحقيق الذات عبره؟ وأي قيمة يمكن أن يضيفها إلى الحياة؟ أي: ما قيمة التعليمات في مجال الأدب؟ إن من أهم استراتيجيات خلق صلة محبة وثقة وانجذاب نحو درس الأدب، من جانب المتعلم، أن يولي المدرّس أهمية كبرى لهذا المكوّن المهمّ للغاية، وذلك بأن يوضح للمتعليم "أوجه الفائدة من المعلومات التي يتعلمها، ومغزاها، وأهميتها، وتطبيقاتها في حياته... لغاية جَعْلِهِ أكثر استعدادًا، وأكثر قابليةً للتعلم؛ ولغاية خُلِقَ ما يكفي من المحفزات لديه للاهتمام بموضوع التعلم؛ لأن القاعدة الذهنية، على ما يبدو، في بيداغوجيا الإدماج، هي أنه لا أحد يتعلم فقط من أجل التعلم، ولا أحد يتعلم لذات التعلم... إن التعلم يتضمن بالضرورة قيمة دافعة ومحفزة، عندما يكون مفيدا للتعلم في حياته اليومية"<sup>1</sup>. فبناءً على ما ذكره د. محمد الدريج، يمكننا القول إن المتعلم، في الثانوي التأهيلي، يعرف قصورا في الوعي بقيمة الأدب، بوصفه محتوى من محتويات التعلم! لأنه يربطه بالمخرجات، التي يفرضي إليها درس الأدب، الذي يُنتظر منه أن يجعل المتعلم قادرا على ولوج سوق الشغل! وبالتالي، يغفل عن قيمة الأدب، التي تتجلى أساسًا في تربية الناشئة على القيم الإنسانية النبيلة والراقية، وفي تشكيل المشاعر وتنميتها، علاوة على إسهامه الكبير في فهم العلاقات الإنسانية وإفهامها. فلا ينبغي، إذًا، أن نجعل تعلماتنا محصورة - فقط - في حدود أن تجعلنا مؤهلين، بشكل مباشر، للانخراط في سوق الشغل!

<sup>1</sup> الدريج، محمد. المنهاج المندمج: أطروحات في الإصلاح البيداغوجي لمنظومة التربية والتكوين، من منشورات مجلة "علوم التربية"، ط.1، 2015، ص:133، بتصرف.

ويرتبط بإثارة سؤال "ما قيمة درس الأدب بوصفه تعلمات؟" رهان كبير، يجب أن يحاط بتدخل فعال، يجعل المتعلم مقتنعاً بدرس الأدب، مُقبلاً عليه. وكما قلنا، من ذي قبل، فإن بروز هذا السؤال الإشكالي هو، كذلك، مؤشر على أن المتعلم مكتسب المهارة التمييز بين ما ينفع وما لا ينفع؛ فهو الآن - في هذه المرحلة - محتاجٌ إلى إكسابه المعرفة الصحيحة الصريحة.

وجدير بالذكر أن هناك فرقاً شاسعاً بين معرفة المعرفة، وكيفية توظيف المعرفة في الحياة اليومية؛ من منطلق أن النص الأدبي عالم مليء بالمعرفة المتنوعة، لكن الذي يعطيه قيمة هو العملية التعليمية- التعلمية؛ فندريس الأدب في الفصل الدراسي يشخص المواقف، ويجعل المتعلم في مواجهة معها؛ سعياً منه إلى حلّ المشكلات المقدمة بين ثنايا النص...

## خاتمة:

يمكن القول، في نهاية هذا المقال، إن الرهان على الأدب لأجل تنمية الكفايات المختلفة عامة، والكفائتين المعرفية والإبداعية خاصة، هو رهان مُجْدٍ، إذا نجح المدرس في جذب المتعلم نحو النص الأدبي، وتحبيبه له، وتمكينه من قراءته بشكل جيد، وتمهيده على تلقيه على نحو يكون معه المتعلم قادراً على إعادة الإنتاج؛ من خلال نصوص إنشائية مثلاً، ثم جعل المتعلم يستوعب أهمية النص الأدبي في الحياة الاجتماعية؛ من حيث إدراكه أن هذا النص إنما هو صورة مصغرة للواقع المعيش.

وقد تبين، مما تقدم، أن قراءة النص الأدبي تجربة من التفاعل الذهني، التي تقود المتعلم إلى التفاعل الاجتماعي، وأنه كلما نجح المتعلم في التفاعل الأول، كانت حظوظ نجاحه في الثاني كبيرة. وليس أدلّ على ذلك من أن الأولاد الذين حظوا بالتمدرس، استطاعوا أن يكونوا فاعلين في المجتمع، ومُسهمين في بنائه، وذلك خلافاً لمن حُرِموا من التمدريس لسببٍ من الأسباب؛ فوجدوا أنفسهم أميين أو متعثرين إلى درجة لا يستطيعون معها إنتاج فكرة عما يعيشونه، أو التحدث عن ذلك بأسلوب جميل، أو فهم قصيدة يقرأها عليهم أبناؤهم، أو خطبة جُمعة يستعمل فيها الخطيب أسلوباً مجازياً بسيطاً...

إن قراءة النص الأدبي تتيح للمتعلم أن يفهم الحياة الاجتماعية، ويعرف معاني مجموعة من المشاعر؛ كالفرح والخوف، والنجاح والفشل، والحب والكراهية، والشجاعة والجبن، والإخلاص والخيانة... وكلما عرف المتعلم ذلك، استطاع أن يأخذ بأحسنها، ويترك أذلها. كما يمكنه أن يفهم

ما يتلقاه من الناس، ويرد عليهم بالشكل المناسب، وأن يكون، أيضًا، الرجل المناسب في المكان المناسب.

وعموماً، فإن الإقبال على درس الأدب ومحبته، أو النفور منه، هو مؤشر مهم بالنسبة إلى الدرس الذي يُعتمد عليه لتجديد رؤية المتعلم لما يتعلمه، وتحبيبه في ذلك، حتى يتلقاه على نحوٍ من الشغف، واللذة، والاجتهاد الذي يقوده إلى إعادة إنتاج النص المتلقّى في وضعية مختلفة.

## دور المسرح المدرسي في التدريب على المهارات الحياتية بالتعليم الثانوي التأهيلي

د. حسن لمغرز

باحث في الآداب

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة فاس مكناس  
المغرب



### مقدمة

إن أنشطة الحياة المدرسية تعتبر من العناصر الأساسية التي تضيف قيمة كبيرة للعملية التعليمية التعلمية، حيث تسهم في تشكيل شخصية المتعلم وتطوير مهاراته الحياتية، فالوسط المدرسي ليس فضاء لاكتساب المعارف العلمية والأدبية فقط، بل هو فضاء لاكتساب عدة كفايات ومهارات يحتاجها المتعلم للاندماج في الحياة الاجتماعية الخارجية ومواجهة التحديات اليومية بشكل أكثر فعالية.

ونظرا لأهمية هذه الأنشطة فقد حظيت بالاهتمام المتواصل من طرف القائمين على الشأن التربوي المغربي، حيث تم التنبيه إلى أهميتها في مختلف الوثائق الرسمية المؤطرة للتعليم المغربي، حيث أولى الميثاق الوطني للتربية والتكوين أهمية كبيرة للحياة المدرسية واعتبرها «مجالا حيويا وإلزاميا في التعليم»<sup>1</sup>؛ لأنها تسهم في تشكيل ممارسة تربوية مبتكرة تخلق بيئة تعليمية مفعمة بالحيوية والدينامية، وتجعل المتعلم في قلب العملية التعليمية التعلمية، وتهدف إلى أن تكون المدرسة بيئة منفتحة على المجتمع والمحيط، بحيث يتم تشجيع المتعلمين على الاستفادة من تجاربهم اليومية والتفاعل مع مختلف الفئات الاجتماعية.

وفي نفس الاتجاه سارت الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2030/2015، وكذا القانون الإطار 51.17، من خلال تأكيدهما على دعم الأنشطة التربوية وتعزيز ثقافة الابتكار والذكاء في الحياة المدرسية، وإنشاء مدرسة جديدة منفتحة تعتمد على مبدأي المساواة وتكافؤ الفرص، بهدف تحقيق الجودة للجميع وتزويد المتعلمين بالمهارات الحياتية الضرورية.

<sup>1</sup> الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999، ص 41.



ويعتبر المسرح من أهم الفنون التي انفتحت عليها المدرسة المغربية، سواء من خلال المقررات الدراسية الخاصة بمادة اللغة العربية أم الأندية المدرسية، حيث يحضر في الأولى على شكل نصوص مدرسة يتعرف من خلالها المتعلمون على أهم خصائص الكتابة المسرحية، وفي الثانية من خلال ورشات تشخيصية تشرّكهم في عملية التمثيل والتشخيص وتدرّجهم على تقنيات العرض والأداء. إذن كيف يساهم المسرح المدرسي في تطوير المهارات الحياتية لدى المتعلمين؟ وما هي أهم هذه المهارات المقصودة؟ وما مدى إقبال المتعلمين عليه في الوسط المدرسي؟

### 1. المهارات الحياتية: في اتجاه مقاربة تربوية جديدة

لقد أدى التطور التقني والمعرفي الذي مس مختلف جوانب الحياة الإنسانية إلى زيادة حاجة المجتمعات إلى البحث عن سبل جديدة للتمكن من مواكبة هذا التطور ومواجهته والاستفادة منه بشكل إيجابي، وبما أن حقل التربية والتكوين يعد المجال الأول والأساس لإعداد وتأهيل مختلف أفراد المجتمع، فقد اتجهت الجهود نحو البحث عن أشكال وأساليب ومناهج جديدة تساعد على ربط المدرسة بالمجتمع، وتكوين إنسان قادر على الاندماج والتفاعل الإيجابي، وممّلك لمختلف المهارات الحياتية المساعدة على ذلك.

إن مفهوم المهارات الحياتية قد عرف مؤخرا شهرة كبيرة، جعلت منه مفهوما متعددًا ومتشعبًا يحتاج إلى تأمل واستقراء تعريفات متعددة لأجل الوصول إلى فهم دقيق له، حيث تعرف بأنها «المهارات التي تساعد التلاميذ على التكيف مع المجتمع الذي يعيشون فيه وتركز على المهارات المنزلية، القدرة على تحمل المسؤولية، الأنشطة الاقتصادية والتفاعل الاجتماعي»<sup>1</sup>، كما تعرف بأنها «أنماط سلوك تمكن المتعلم من تحمل المسؤولية بشكل أكبر بما يتصل بحياته من خلال القيم باختيارات حياتية صحية واكتساب قدرة أكبر على مقاومة الضغوط السلبية. حيث تركز على ما ينبغي للتعلم أن يملكه سواء على مساوئ القدرات العقلية أم النفسية أم السلوكية حتى يستطيع العيش بفعالية وكفاية أفضل»<sup>2</sup>.

وقد عرفت منظمة اليونسيف أيضا باعتبارها مجموع «مهارات قابلة للتحويل والانتقال، تمكن الأفراد من التعامل مع الحياة اليومية والتقدم والنجاح في المدرسة والعمل والحياة

<sup>1</sup>. أحمد اللقاني، على الجمل، معجم المصطلحات التربوية المعرفة في المناهج وطرق التدريس، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 2003.

<sup>2</sup>. أبراهيم الخلوف المكاوي، إدارة المعرفة: الممارسة والمفاهيم، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، 2007، ص 23.

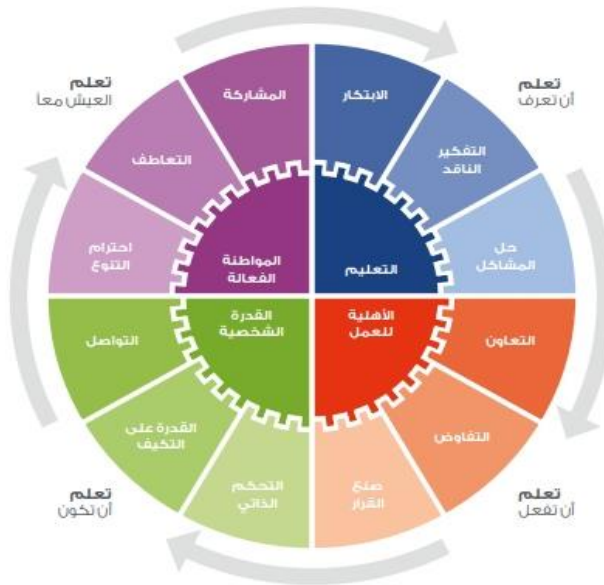
المجتمعية على حد سواء»<sup>1</sup>، وبالتالي فإن المهارات الحياتية، من خلال هذه التعاريف، تتجه نحو التركيز على تدريب المتعلمين وتمكينهم من القدرات والكفايات اللازمة للاندماج والمشاركة الفعالة في الحياة الخارجية، إذ إن هذه الأخيرة هي المجال الذي يتجه نحوه المتعلم بعد تخرجه من المدرسة. إن أهمية المهارات الحياتية حسب ما سبق تتجلى في تحقيق التكامل بين المدرسة والمجتمع، ومساعدة المتعلمين على التعامل بفعالية مع مواقف الحياة المختلفة والتغلب على صعوباتها، والتمكن من إدارة الضغوط والمواقف العصيبة بطرق صحية، مما يساهم في تحسين الصحة النفسية، ويساعد على التواصل الإيجابي مع الآخرين، سواء في العلاقات الشخصية أو المهنية، مما يساهم في بناء علاقات اجتماعية قوية.

ويجب الإشارة إلى أن ارتباط المهارات الحياتية بكل من المدرسة والفرد والمجتمع يجعل منها مقارنة تربوية ذات أبعاد متعددة، أجملتها منظمة اليونسيف في أربعة أبعاد هي: البعد المعرفي (التعلم من أجل المعرفة) المتمثل في التأكيد على أهمية الفضول والريادة والتفكير النقدي للحصول على فهم أفضل للعالم والناس. والبعد العملي (التعلم من أجل الممارسة) القائم على تطوير القدرات اللازمة لتطبيق ما تم تعلمه في الممارسة العملية وكيفية التعامل مع المواقف الصعبة أثناء العمل بكفاءة وإنتاجية، ثم البعد الفردي (تعلم أن تكون) الذي يهدف إلى تطوير الشخص ككل، مما يسمح للفرد بالاستقلالية وتحمل المسؤولية الشخصية والحكم على الأمور. بالإضافة إلى البعد الاجتماعي (تعلم العيش معاً) الذي يشمل القدرات اللازمة لبناء هويات شاملة تتوافق مع قيم ومبادئ العدالة الديمقراطية والاجتماعية، مع اعتماد نهج قائم على حقوق الإنسان<sup>2</sup>.

وإذا تأملنا هذه الأبعاد يمكن أن نلاحظ أنها تتضمن في طياتها مهارات فرعية متنوعة تختلف باختلاف الأبعاد المؤطرة لها، وقد حددتها مبادرة اليونسيف في اثنتي عشرة مهارة تتوزع ضمن أربع مجموعات على النحو الآتي:

<sup>1</sup>. اليونسيف، قياس المهارات الحياتية في سياق تعليم المهارات الحياتية والمواطنة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ص 2. [https://www.unicef.org/mena/media/7021/file/Arabic\\_4%20Pager\\_OL.pdf%20.pdf](https://www.unicef.org/mena/media/7021/file/Arabic_4%20Pager_OL.pdf%20.pdf)

<sup>2</sup>. اليونسيف، قياس المهارات الحياتية في سياق تعليم المهارات الحياتية والمواطنة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ص 5. <https://www.unicef.org/mena/media/10621/file/LSC%20report%20arabic%2011-1-2021.pdf%20.pdf>



يتضح من خلال هذه الخطاطة أن المهارات الحياتية تقوم على التكامل سواء بين الأبعاد الكبرى أم المهارات الصغرى، وهو أمر مطلوب ومتوقع في سياق التربية والتكوين حيث يكون الغرض الأساس هو تمهيد المتعلم على جميع الأصعدة، لذلك يجب ألا تكون هذه المهارات «منفصلة ومتعارضة؛ فالحياة الواقعية أكثر دينامية. إن أبعاد التعلم الأربعة متشابكة، مترابطة، ويعزز بعضها الآخر بعضاً لتتضافر عند المتعلم الفرد»<sup>1</sup>.

إن جانب الشمولية الذي يميز التوجه نحو تعليم المهارات الحياتية جعل منها مقاربة تربوية جديدة في مجال التربية والتعليم، وهو ما يفرض على الفاعلين المباشرين في هذا المجال التوفر على عدة معرفية وكفاية تعليمية تفاعلية، إذ يجب عليهم استثمار مختلف الموارد والأدوات الممكنة لأجل التمكن من تدريب المتعلمين على أكبر قدر من هذه المهارات، سواء من خلال استثمار المناهج الدراسية والممارسة الصفية، أم من خلال الأنشطة الموازية والأندية التربوية.

إذن كيف يمكن استثمار أنشطة الحياة المدرسية عامة والمسرح المدرسي خاصة للتدريب على المهارات الحياتية؟ وما هي أهم المهارات التي يمكن التدريب عليها من خلالها؟

<sup>1</sup> - تحليل اليونيسيف، ص 3.

## II. من الحياة المدرسية إلى المهارات الحياتية

إن ما سبق الوقوف عنده من أبعاد خاصة بمفهوم المهارات الحياتية يحيلنا بشكل تلقائي على مفهوم الحياة المدرسية، هذه الأخيرة التي يقصد بها «الحياة التي يعيشها المتعلمون في جميع الأوقات والأماكن المدرسية (...)» قصد تربيتهم باعتماد جميع الأنشطة الدينية والتربوية والتكوينية المبرمجة، ولاسيما التي تراعي الجوانب المعرفية والوجدانية والحس حركية من شخصياتهم<sup>1</sup>، وهو الأمر الذي يجعل منها مجتمعا مصغرا يستعد من خلاله المتعلم للاندماج في المجتمع الخارجي، ويتدرب على مختلف المهارات المساعدة على ذلك.

تهدف الحياة المدرسية إلى بناء شخصية المتعلم عبر تنظيم أنشطة تربوية متنوعة تسهم في ترسيخ القيم وتنمية المهارات، وذلك من خلال إشراك جميع الفاعلين في المجتمع، بما في ذلك المتعلمين، المدرسين، الآباء، والإداريين، حيث يسهم كل واحد منهم في تحقيق أهداف التربية من خلال تنويع الأنشطة وأساليب التدريس واعتماد إدارة فعالة وتعاون متبادل، لأجل تحقيق بيئة تعليمية متميزة تقوم على الشمولية والتفاعل والحيوية والمرونة<sup>2</sup>.

وقد نبه دليل الحياة المدرسية في صيغته الجديدة إلى أن الأهمية التي تحظى بها هذه الأخيرة تفرض عليها الارتكاز على عدة مقومات تتمثل في احترام الآخر وحرية التعبير، وتعزيز التفكير النقدي والقدرة على الفهم والتحليل، وتكريس التربية على الممارسة الديمقراطية النهج الحداثي، وضمان النمو العقلي والوجداني والحركي المتوازن، وتطوير الكفايات والمهارات، والقدرة على بناء المشروع الشخصي، وتكريس السلوكيات الإيجابية والتحلي بالأخلاق الحميدة، وإتاحة الفرصة للمتعلمين للاستمتاع بحياة التلمذة والطفولة والمراهقة من خلال المشاركة الفعالة في الحياة المدرسية، وتحرير مواهبهم وطاقاتهم الإبداعية في مختلف الأنشطة الثقافية والفنية والعلمية والرياضية<sup>3</sup>.

من الواضح أن الإطار العام للحياة المدرسية يحتوي في طياته على مختلف المهارات الحياتية، وهو ما يتضح أكثر عندما نجد أن دليل 2019 يخصص محورا مستقلا للمهارات الحياتية ضمن الفصل الخاص بطرائق ومقاربات الحياة المدرسية، حيث يعرفها باعتبارها مجموعة من «القدرات

<sup>1</sup>. دليل الحياة المدرسية، مديرية الحياة المدرسية، دجنبر 2019، ص 9.

<https://www.docdroid.net/eDeavdP/dlyl-alhya-almdrsy-2020-pdf#page=6>

<sup>2</sup>. ينظر: نفسه، ص 9.

<sup>3</sup>. ينظر: نفسه، ص 10.

والكفايات المرتبطة بحياة الشباب والمراهقين، في شكل منهج متكامل لبناء وتصحيح توجهاتهم السليمة (...). وهي أيضا السلوكيات والقدرات الشخصية والاجتماعية اللازمة التي يجب على المرء أن يمتلكها للتعامل بثقة أكبر واقتدار مع نفسه والآخرين والمجتمع»<sup>1</sup>.

إن التعريف السابق يبرز أن دليل الحياة المدرسية يخدم بشكل واضح مبادرة تعليم المهارات الحياتية في المغرب، حيث وجدنا أن الأهداف والمقومات التي حددها للحياة المدرسية عامة، تتقاطع بشكل كبير مع الأهداف التي حددها للمهارات الحياتية خاصة<sup>2</sup>، وبالتالي فهما وجهان لعملة واحدة يتم استثمارها في كل ما من شأنه أن يخدم المتعلم ويجعله مؤهلا للحياة الاجتماعية والمهنية والشخصية.

### III. المسرح المدرسي: من التجسيد الفني إلى التدريب المهاري

يعتبر المسرح من الأنشطة الفنية التربوية الأساسية التي يتم التنبيه إلى أهميتها في دليل الحياة المدرسية، سواء في صغته السابقة "2008" أم في صيغته الحالية "2019"، حيث تمت الإشارة إليه بشكل سريع في الأول عند الحديث عن أهم أنواع أنشطة الحياة المدرسية<sup>3</sup>، وفي الثاني بشكل خاص ومباشر عند التعريف بأهم الأنشطة التربوية الممكنة في الوسط المدرسي، وتحديد دورها في تكوين شخصية المتعلمين.

إن المسرح في مفهومه العام يدل على فن من فنون الأداء والتشخيص يعبر عن مجموعة من الأحداث من خلال التمثيل الحي والمباشر أمام جمهور باستخدام مهارات التمثيل والمحاكاة واللغة والحركة، إضافة إلى الديكور والإضاءة والموسيقى<sup>4</sup>. ويُعتبر المسرح من أقدم الفنون في العالم، عرف تحولات كثيرة إلى أن وصل إلى شكله الحالي، ولعل حضوره العريق في التاريخ الأدبي أكبر دليل على أهمية وحاجة الإنسان إليه، سواء منذ المسرح البدائي القائم على البحث عن أسرار الحياة وإعادة تجسيد الأساطير وفهمها لأجل تحرير الإنسان من قوى الكبت الغامضة، أم المسرح

<sup>1</sup>. دليل الحياة المدرسية، مديرية الحياة المدرسية، دجنبر 2019، ص 43.

<sup>2</sup>. ينظر: نفسه، ص 46.

<sup>3</sup>. ينظر: دليل الحياة المدرسية، مديرية الحياة المدرسية، غشت 2008، ص 44.

<https://ampei.ma/wp-content/uploads/2021/02/%D8%AF%D9%84%D9%8A%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%8A%D8%A7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D8%B1%D8%B3%D9%8A%D8%A9-%D8%BA%D8%B4%D8%AA-2008.pdf>

<sup>4</sup>. ينظر: ماري إلياس، مفهوم المسرح، مجلة نزوى، عمان، ع 56، أكتوبر 2008، ص 136، 139.

اليوناني القائم على تمجيد الإنسان وتحرير قدراته لمساءلة الواقع والمشاركة في الوصول إلى الحقيقة<sup>1</sup>.

ولعل العلاقة الوطيدة بين هذا الفن والحياة الاجتماعية، هو ما يعطيه قيمة تربوية ودورا مهما في بناء شخصية المتعلم، لأنه يقوم على إشراك هذا الأخير وجعله ناقلا للقيم ومجسدا لها، ويساعده على اختبار الحياة ومحاكاة وضعيات إنسانية متعددة، وهو ما تنبه إليه بشكل ضمني مبادرة تعليم المهارات الحياتية عندما تؤكد على أن أكثر الطرق فعالية في تعليم المهارات الحياتية هي «مشاركة الأطفال والشباب وتعاونهم وممارسة المهارات الحياتية بمحاكاة الأنشطة في العالم الواقعي»<sup>2</sup>.

إن مفهوم المحاكاة الوارد في التعريف السابق يعتبر عنصرا ضروريا في المسرح، حيث يتحقق من طرف المحامي إما «بأن يستخدم السرد في جزء، وفي جزء آخر يتقمص شخصية أخرى غير شخصيته، ثم يروي القول على لسانها، وإما يتكلم بلسانه هو، دون إحداث مثل هذا التغيير، وإما يعرض الشخصيات، وهي تؤدي كل أفعالها أداء دراميا»<sup>3</sup>، أي أن الممارسة المسرحية يمكنها أن تساعد على تعلم مختلف المهارات الممكنة من خلال التجسيد المباشر للموضوعات والقضايا في المسرحيات المدرسية.

انطلاقا من الإشارات السابقة يجب التنبيه إلى أن المسرح المدرسي يعتبر امتدادا للمسرح ويوظف مختلف تقنياته وعناصره داخل الفضاء التربوي لتحقيق أهداف تربوية، لهذا عرفه دليل الحياة المدرسية باعتباره «مسرحا تربويا تعليميا تعلميا ومكونا من مكونات وحدة التربية الفنية الجمالية وأنشطة التفتح، كما يعتبر فنا متعدد الإمكانيات يساعد على خدمة ميولات الطفل ويسهم في صقل مواهبه، ويشجعه على الإبداع الفني، ويدفعه بالتالي إلى الاندماج في مجتمعه الصغير بالمدرسة ومجتمعه الكبير خارجها»<sup>4</sup>.

يتضح أن المسرح المدرسي يهدف إلى مساعدة المتعلم على اكتساب مهارات الحياة التي يحتاجها داخل مجتمعه، فهو مجتمع مصغر داخل مجتمع المدرسة الذي يعتبر هو الآخر جزءا من المجتمع الخارجي. وهو ما حاولنا تتبعه والتأكد منه من خلال حالة مجموعة من التلاميذ

<sup>1</sup>. ينظر: إدوار الخراط، فجر المسرح: دراسة في نشأة المسرح، دار البستاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 59، 180.

<sup>2</sup>. اليونيسف، قياس المهارات الحياتية في سياق تعليم المهارات الحياتية والمواطنة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ص 7.

<sup>3</sup>. أرسطو: فن الشعر، ترجمة إبراهيم حمادة، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1982، ص 72.

<sup>4</sup>. دليل الحياة المدرسية، مديرية الحياة المدرسية، دجنبر 2019، ص 40.

المنخرطين في نادي الإبداع والمسرح بالثانوية التأهيلية الطاهر بن جلون بمديرية سيدي قاسم، حيث لاحظنا في بداية الحصص الأولى من التدريب المسرحي أنهم يفتقرون لمجموعة من المهارات الحياتية، خاصة التواصل وقبول الآخر والتفكير النقدي وتقدير الذات وحل المشكلات والانضباط الزمني والسلوكي... ولكن بعد توالي الحصص التدريبية واستثمار مختلف تقنيات المسرح وجدنا أننا هناك تطورا واضحا في مهاراتهم، وذلك على النحو الآتي:

استطاعوا التدريب على التواصل الإيجابي والفعال، وذلك أثناء التدريبات والحوارات المسرحية مع بعضهم البعض، وتعلموا كيفية التعبير عن أنفسهم بوضوح، سواء بالكلمات أم بلغة الجسد، بالإضافة إلى الإنصات والاستماع الجيد، مما ساعدهم على تحسين مهارات الاستماع وفهم الآخرين.

وتدربوا أيضا على العمل الجماعي والتعاون، لأن العرض المسرحي يفرض عليهم التعاون مع الممثلين الآخرين، وفهم الأدوار المختلفة في العرض، والوعي بأهمية كل فرد من أفرادها في تحقيق النجاح، وبالتالي اكتسبوا مهارات التنسيق والعمل المشترك، والقدرة على حل النزاعات وتجاوز الخلافات الممكنة بينهم حول الأدوار المسرحية والمشاهد.

وقد ساعدهم المسرح أيضا على تنمية مهارة الابتكار والإبداع والتفكير النقدي والتحليلي؛ لأنه كان يتعين عليهم فهم النصوص المسرحية بشكل عميق، وتفسير الشخصيات والأحداث، ومناقشة القضايا المطروحة والتمييز بينها، والتعبير عن الأفكار والمشاعر بأساليب فنية مختلفة، بالإضافة إلى أنهم اكتسبوا القدرة على حل المشكلات الناتجة عن التغييرات في النص والمشاهد والأدوار أو عن التوتر والارتباك. وكلما استطاعوا حل المشكلات أثناء التدريب أو على خشبة أمام الجمهور كلما كانت تزيد ثقتهم بأنفسهم وتقديرهم لذواتهم.

إن التمثيل على خشبة أسهم في تنمية الذكاء العاطفي لديهم وتدربوا على كيفية فهم مشاعرهم ومشاعر الآخرين، سواء المرفوض منها مثل الخوف، الغضب، الحزن، والقلق، أم المحبوب منها مثل السعادة والفرح والحب. وإضافة إلى كل ما سبق لاحظنا أن المسرح قد مكّنهم من تعلم الانضباط والالتزام، وحسن تدبير الزمن والوعي بأهميته.

وإضافة إلى ما سبق استطاعوا فهم الذات والرفع من قيمتها، وتمكنوا من الوعي بأهمية الوطن والاعتزاز بالانتماء إليه، والدفاع عن الهوية الوطنية باعتبارها من الأسس التي ترفع مكانة الفرد وتزيد من قيمته الاجتماعية والإنسانية والكونية.

إذن، نستنتج أن المسرح المدرسي يعد أداة فعالة في تعليم المهارات الحياتية. فهو لا يُسهم فقط في تطوير مهارات التواصل، العمل الجماعي، والابتكار داخل المدرسة، بل يعزز أيضاً التفاعل الاجتماعي ويُسهم في بناء شخصية المتعلم بشكل شامل، مما يجعله مؤهلاً لمواجهة تحديات الحياة الشخصية والمهنية بفعالية أكبر.



## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- أحمد اللقاني، على الجمل، معجم المصطلحات التربوية المعرفة في المناهج وطرق التدريس، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 2003.
- إبراهيم الخلوف الملكاوي، إدارة المعرفة: الممارسة والمفاهيم، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، 2007.
- اليونيسف، الملخص التنفيذي لقياس المهارات الحياتية في سياق تعليم المهارات الحياتية والمواطنة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.  
[https://www.unicef.org/mena/media/7021/file/Arabic\\_4%20Pager\\_OL.pdf%20.pdf](https://www.unicef.org/mena/media/7021/file/Arabic_4%20Pager_OL.pdf%20.pdf)
- اليونيسف، قياس المهارات الحياتية في سياق تعليم المهارات الحياتية والمواطنة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.  
<https://www.unicef.org/mena/media/10621/file/LSCE%20report%20arabic%2011-1-2021.pdf%20.pdf>
- دليل الحياة المدرسية، مديرية الحياة المدرسية، دجنبر 2019.
- دليل الحياة المدرسية، مديرية الحياة المدرسية، غشت 2008.
- ماري إلياس، مفهوم المسرح، مجلة نزوى، عمان، ع 56، أكتوبر 2008.
- الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999.
- إدوار الخراط، فجر المسرح: دراسة في نشأة المسرح، دار البستاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003.
- أرسطو: فن الشعر، ترجمة إبراهيم حمادة، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1982.

# ديدكتيك علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي: نحو مقارنة توليدية تحويلية

د. هشام حوزي

دكتوراه في علوم اللغة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة محمد الأول بوجدة  
المغرب



## ملخص:

يحاول هذا المقال مقارنة مكون علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي من زاوية توليدية تحويلية، لا بوصفها بديلاً منهجياً عما تم تقريره في وثيقة "التوجيهات التربوية"، ولكن بوصفها مبادئ نظرية مؤطرة لتخطيط المدرس وإنجازه للدروس. وقد خُصّص المقال إلى اقتراح ثلاثة مبادئ مؤطرة، هي: مبدأ الذهنية، ومبدأ التوليد والتحويل، ومبدأ الكفاءة والأداء.

**كلمات مفتاحية:** التوليد، التحويل، ديدكتيك علوم اللغة، الكفاءة اللغوية، الأداء، القواعد الكلية.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

حوزي، هشام. (2024، أكتوبر). ديدكتيك علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي: نحو مقارنة توليدية تحويلية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 727-755.

## Abstract:

This article attempts to approach the component of language sciences in secondary education from a generative-transformational perspective, not as a methodological alternative to what has been outlined in educational guidance document, but as influential theoretical principles for teachers planning and lesson implementation. The article concludes by proposing three framed principles: the principle of mindset, the principle of generation and transformation, and the principle of competence and performance.

## مقدمة

لقد حظي نشاطا التعليم والتعلم بأهمية كبيرة في مختلف النظريات والمقاربات والبيداغوجيات... ابتداء من القرن العشرين إلى وقتنا هذا، وقد كان لفعل التعلم النصيب الأوفر من النقر والاستقصاء والتنقيب والبحث والتمحيص؛ لكونه اللبنة الأساس التي يُعَوَّل عليها في تنمية الكفايات اللازمة، التي ينبغي أن يستبطنها المتعلم، ويستدعيها في حلّ أنواع من الوضعيات- المشكلة، ولكون المتعلم قد بات محور العملية التعليمية-التعلمية، منذ اعتماد المقاربة بالكفايات في الميثاق الوطني للتربية والتكوين (2000).

ولا ريب في أن كل نظرية تعلّم قد قاربت نشاطي التعليم والتعلم من زوايا مختلفة وخاصة، ترجع إلى طبيعة أسسها وأصولها وتصورها للعملية التعليمية- التعلمية، ولطبيعة المتعلم والمادة المدرسة، فمنها التي ركزت على الطابع الإجرائي والتذكر والفهم والتطبيق، حيث يتلقى المتعلم المعرفة، ولا يتفاعل إلا عند الاستجابة لمثير خارجي (السلوكية)، ومنها التي تعتبر المتعلم عنصرا فعالا، يبنى تعلماته، ويتعامل مع وضعيات-مشكل، ويتلقى التوجيه الأنسب من المدرس لاكتشاف وضعيات التعلم (النظرية البنائية)، ومنها التي تعتبر المتعلم نشطا، يستقبل المعلومات ويفهمها ويعالجها ويخزنها ويستدعيها عند الضرورة والحاجة (المعرفية)، ومنها التي تتصور أن فعل التعلم يحدث عن طريق الاستبصار، من خلال إدراك العلاقات بين الأجزاء "الإدراك الفجائي للحل" وإعادة تنظيم عناصر الموقف التعليمي (الجشططية)، ومنها التي تعتقد أن التعلم يحدث من خلال التفاعل بين ثلاثة مكونات، هي: السلوك، وظروف الشخص، والمحيط، حيث إن المتعلم يتعلم من غيره، ويطور كفاياته عبر مقارنة إنجازاته بإنجازات غيره، أي في إطار التفاعل مع الجماعة والأقران والمحيط العام (النظرية السوسيو-بنائية)، ومنها التي ظنت أن التعلم يحدث عن طريق اللا شعور، وأن النمو النفسي يمر بمراحل، تبدأ بالبسيط وتنتهي إلى المعقد، وأن هناك فروقا بين المتعلمين (التحليل النفسي).

وإذا كانت هذه النظريات وغيرها قد قاربت نشاطي التعليم والتعلم من زوايا تتعلق بالمتعلم نفسه أو بمحيطه الخارجي، فإننا نقترح في هذا المقال مقاربة الفعل التعليمي والتعلمي في ديداكتيك الدرس اللغوي في التعليم الثانوي التأهيلي من خلال استحضار وأجراً الجهاز المفهومي للنظرية التوليدية التحويلية، لاعتقادنا بأهميته وضرورته لا باعتباره بديلا منهجيا لتوصيات "التوجيهات التربوية"، ولكن باعتباره مبادئ مؤطرة لنشاطي التعليم والتعلم.

ولنا ههنا وضع زمرة من الأسئلة، حتى يتحقق المطلوب ونبليغ الغاية: ما هي النظرية التوليدية التحويلية؟ وما هي أبرز أسسها؟ وكيف يمكن أجراً بعض مفاهيمها في تدريس علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي؟... إن هذه الأسئلة وما يتفرع عنها، تضعنا في حضرة موضوع له أهميته الديدانكتيكية والبيداغوجية واللغوية، لكونه يحاول نقل المعرفة اللسانية النظرية إلى الممارسة الصفية، سواء على المستوى النظري أم التنفيذي، كما أنه يجعلنا نقارب مجال علوم اللغة من زاوية مختلفة.

### 1- النظرية التوليدية التحويلية:

هي نظرية لسانية، وضع أسسها ومبادئها وطرقها التحليلية اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي (و1928)، من خلال مجموعة من المؤلفات؛ كـ "البنى النحوية" (Syntactic Structure 1957)، و "مظاهر النظرية النحوية" (Aspects Of The Theory Of Syntax 1965)، و "علم اللغة الديكارتي" (Cartesian Linguistics 1966)...

أحدثت هذه النظرية ثورة حقيقية في علم اللغة الحديث<sup>2</sup>، إذ جاءت في وقت كانت فيه الهيمنة للسانيات الوصفية لمتزعمها بلومفيلد (ت 1949)، واضع منهج التحليل إلى المكونات المباشرة لدراسة اللغة في الثلاثينات من القرن الماضي<sup>3</sup>، الذي كان يعتمد في تحليل الكلام على الموقع وفق فئات مؤلفة، والذي عيب منهجه من نواحٍ، منها: عدم المبالاة بمتكلم اللغة، وبدوره في تحقيق الكلام وإبداعه، وانشغاله بالوصف البحث للغة.

لقد تمكنت النظرية التوليدية التحويلية من إثبات تفوقها في الحقل اللساني، حتى قال جون ليونز (و1932): "إن نظرية تشومسكي النحوية تعد بلا شك أكثر النظريات اللغوية حيوية وتأثيراً، بحيث لا يستطيع أي عالم لغوي يريد أن يساير التطور المعاصر في علم اللغة أن يتجاهل وجود

<sup>1</sup>- كان كتاباً ضئيل الحجم مقتضياً، وكانت أفكاره غير مقيدة بالتناول العلمي والفني لقضايا هذا العلم إلى حدٍ ما، ومع ذلك فقد كان الكتاب ثورة في الدراسة العلمية للغة. ينظر: نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ترجمة وتعليق حلي خليل، دار المعرفة الجامعة، ط1: 1985م، ص: 29. كان لصدور هذا الكتاب أثر الصدمة بالنسبة لما ساد قبله من طروحات، وعلى الأخص طروحات البنيويين (اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية). ينظر: عبد القادر القاسي الفهري، سلسلة المعرفة اللسانية أبحاث ونماذج، دار توبقال للنشر-الدار البيضاء، ط3: 1993، ص: 63.

<sup>2</sup>- يشتهر تشومسكي من قبل الناس بسبب نظرياته اللغوية وتصورات له لتطور لغة الأطفال. لقد غيرت نظرية تشومسكي الطريقة التقليدية لدراسة اللغة، وبعدَ عموماً مؤسس علم اللغة الحديث. ينظر: Huachuan Wen, Chomsky's Language Development theories: Rescuing Parents Out Of Dilemma, Macrothink Institute tm, Issn 2164-4063, 2013. P148.

<sup>3</sup>- ينظر: مقدمة المترجم، البنى النحوية، يؤيل يوسف عزيز، مراجعة مجيد الماشطة، وزارة الثقافة والإعلام - الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1: 1987م، ص: 7.

هذه النظرية، بل لقد أصبحت كل مدرسة لغوية الآن تحدد موقفها وموقعها بالنظر إلى آراء تشومسكي في قضايا لغوية معينة... إن معرفة النحو التحولي وفهمه يعدّ ضرورة أساسية لأي فيلسوف أو عالم نفس أو عالم أحياء يرغب في دراسة قدرة الإنسان اللغوية، ومن هنا تأتي أهمية أعمال تشومسكي ومكانتها بالنسبة لمناهج العلوم الأخرى غير علم اللغة<sup>1</sup>.

لا مرية في أن تشومسكي قد حقق ثورة لسانية وفلسفية ونفسية من خلال مؤلفه (البنى النحوية) 1957، وما تلاه من مؤلفات، رسمت الملامح الحقيقية لنظريته الجديدة. لقد ترعرع الرجل في كنف النظرية التوزيعية، التي اعتمدت المنهج السلوكي في دراسة اللغة.

## 2- أسس النظرية التوليدية التحولية:

لقد اتخذت النظرية التوليدية التحولية "الإنسان المتكلم-المستمع السويّ التابع لبيئة لغوية متجانسة تماماً، والذي يعرف لغته جيداً"<sup>2</sup> موضوعَ دراستها، وقد فسّر تشومسكي هذا الأمر بقوله: "فقد كان ثمة تغيير هامّ في المنظور: من دراسة السلوك ونتاجاته (كالنصوص)، إلى الإواليات الداخلية الباطنية التي تدخل في التفكير والفعل"<sup>3</sup>. أي التحول من التركيز على المدونات اللغوية المحدودة إلى دراسة طبيعة العقل البشري من خلال اللغة، وآليات اشتغاله في التوليد والتحويل. لقد رأى التوليديون أن اللغات البشرية تتشابه في مستوى المقصود من المعاني (القواعد الكلية)، وحاولوا الكشف عن هذه التشابهات الكلية، وهو ما دفعهم إلى الاهتمام بدراسة التراكيب اللغوية نفسها (أي الجمل)، وذلك لأنّ الفونيمات<sup>4</sup> والمورفيمات<sup>5</sup> التي تتكون منها أي لغة محدودة، أما الجمل فغير محدودة وغير متناهية.

ودعنا الآن ننظر في شأن أهم الأسس التي بنيت عليها هذه النظرية حتى يتسنى لنا تحقيق المقاربة المنشودة.

<sup>1</sup> -نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ترجمة وتعليق حلي خليل، دار المعرفة الجامعة، ط1: 1985، ص: 29-32.

<sup>2</sup> -الألسنية التوليدية التحولية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2: 1406هـ/1986م، ص: 8.

<sup>3</sup> -آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، تشومسكي، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط1: 2009، ص: 37.

<sup>4</sup> -الفونيم هو أصغر وحدة صوتية ليس لها معنى، ويتغير معنى الكلمة بتغيرها، قد تكون حرفاً (جبل/حبل)، وقد تكون حركة (ضرب): يتشكل من ستة فونيمات =ك+الفتحة+ت+الفتحة+ب+الفتحة)

<sup>5</sup> -المورفيم هو أصغر وحدة دالة في اللغة، تتمثل وظيفته في حمل المعنى أو الوظيفة النحوية في الكلمة (نوع الكلمة من حيث الاسمية والفعلية والتذكير والتأنيث ومن حيث العدد)، وهو أنواع: مورفيمات مقيدة، حرة، صفرية.

## أ- الفطرة اللغوية (الملكة اللغوية): Linguistic Instinct

ذهب تشومسكي إلى أن اللغة ميزة من ميزات الجنس البشري وأن تعلمها لا يرتبط بذكاء الإنسان، "فالإنسان غير السوي - فضلا عن الذكي القادر - يستطيع إنتاج الجمل والتعبير عما في نفسه، في حين أن أذكى الحيوانات وأكثرها تدريباً وتقبلاً لما يعلمها الإنسان لا تستطيع ذلك"<sup>1</sup>.

إن الإنسان في تصور التوليديين ليس آلة تخضع لثنائية المثير والاستجابة (النظرية السلوكية)، إنه يختلف عن الحيوان بقدرته على اللغة، ولما كانت اللغة أهم الجوانب الحيوية في النشاط الإنساني، لم يكن من المعقول أن تتحول إلى تراكيب شكلية، يسعى الوصفيون إلى تجريدها من المعنى والعقل، بل ينبغي أن تعيننا الدراسة اللغوية على فهم الطبيعة البشرية.

يرجع هذا التوجه العقلي في تصور التوليديين للفطرة اللغوية إلى تأثير تشومسكي بالفيلسوف الفرنسي، رينيه ديكارت (ت1650) "الذي كان يرى أن الإنسان يختلف عن الحيوان في أن له عقلاً، وأن أهم خصائص هذا العقل إنتاج اللغة"<sup>2</sup>. إلى جانب تأثره بالفيلسوف الألماني همبولت (ت1835)، "الذي يرى أن اللغة نتاج العقل... وهي نتاج عدد من العمليات الخلاقة العضوية غير الآلية، تتم في الذهن ويظهر أثرها على السطح الخارجي بالأصوات والكلمات والجمل"<sup>3</sup>.

يعني هذا أن الفطرة اللغوية تمكن صاحبها بطريقة طبيعية من إبداع عدد غير متناه من الجمل من خلال قواعد محدودة ومحصورة، يتم استبطانها داخلياً وإبرازها خارجياً باللفظ والكتابة. "إن فكرة الفطرية اللغوية في نظر تشومسكي، تمثل حجراً أساساً يعتمد عليه المبنى كله"<sup>4</sup>.

## ب- القواعد العالمية (النحو العالمي): Universal Rules

إن القواعد الكلية هي مبادئ "تقوم بضبط الجمل المنتجة وتنظيمها بقواعد وقوانين لغوية عامة تخضع لها الجمل التي ينتجها المتكلم يختار ما يتصل بلغته من قوالب وقواعد من بين الأطر الكلية العامة في ذهنه، والتي هي كلية شمولية عالمية متساوية عند بني البشر تكون في الإنسان منذ

<sup>1</sup> - في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، خليل أحمد عمارة، عالم المعرفة-جدة، السعودية، للنشر والتوزيع، ط1: 1404هـ/1984م،

ص: 55.

<sup>2</sup> - نفسه.

<sup>3</sup> - نفسه.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص: 56.

ولادته ويسمىها Linguistic Aquisition Devis، وهي فطرية تولد مع الإنسان<sup>1</sup>. وهو ما يعني أن الإنسان لا يولد صفحة بيضاء، بل يولد وهو مجهّز بـ "جهاز اكتساب اللغة" الذي يمكنه من التكلم بأي لغة كانت، ومنها اللغة الأم.

إن القواعد الكلية (النحو الكلي) في تصور تشومسكي هي "تنظيم الشروط التي تقوم عليها القواعد (قواعد اللغات)... تحتوي الكلية على الشروط التي يجب أن تتوافر في كل لغة إنسانية وعلى المبادئ التي تفصّل كيفية تفسيرها"<sup>2</sup>. إن القواعد الكلية هي مجموعة من القواعد التي يستبطنها العقل البشري منذ الولادة "يقوم بملئها بالتعابير اللغوية من المجتمع الذي يعيش فيه، فتتضح وتقوى بالتدريج، وكلما اكتسب الإنسان ما يملأ به هذه الكليات الفطرية ازداد النمو الداخلي التنظيمي للقواعد الكلية في ذهنه، في جزئية منها، وهي تلك المسؤولة عن بناء الجمل وتركيبها في لغته، فتتكون لديه القدرة على توليد الجمل وبناءها مضبوطة بقواعد وقوانين تسمى القواعد التوليدية"<sup>3</sup>.

تأسيساً على هذا، يتبين أن القواعد الكلية "هي التي تضبط الجمل بعد توليدها لتجعلها جملاً نحوية أو غير نحوية... يدركها المتعلم والسامع المثالي في لغة معينة Native Ideal Speker"<sup>4</sup>. ولتوضيح دور هذه القواعد الكلية نسوق مثالي تشومسكي الشهيرين:

- الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام بشدة Colorless Green Ideas Sleep Furiously

- بشدة تنام الخضراء التي لا لون لها الأفكار Furiously Sleep Ideas Green Colorless

حيث يقول عن الجمليتين "لا يمكن تشخيص مفهوم (القواعدية) بأنه كل ما له معنى أو كل ما هو ذو مغزى، ووفق أي مفهوم دلالي، فالجملتان (1) و(2) لا معنى لهما، ولكن أي متكلم باللغة الإنجليزية يعرف أن الجملة (1) فقط هي قواعدية"<sup>5</sup>. وهو ما يعني أن الجملة (1) رغم فساد معناها ودلالاتها تبقى خاضعة قاعدياً لقواعد الإنجليزية، أما الجملة (2) فتفتقد للنسق القاعدي وللمحتوى الدلالي.

<sup>1</sup>- المرجع نفسه، ص: 56.

<sup>2</sup>- Noam Chomsky. Language and Mind. third edition. Massachusetts Institute Of Technologie. p97

<sup>3</sup>- في نحو اللغة وتراكيبها، خليل أحمد عمارة، ص: 56.

<sup>4</sup>- نفسه.

<sup>5</sup>- البنى النحوية، تشومسكي، ترجمة: يؤيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة، وزارة الثقافة والإعلام - الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1: 1987م، ص: 19.

وهذا الأمر هو الذي دفعه إلى القول "إن أيّ بحث عن تعريف (للقواعدية) يعتمد على الدلالة يكون عقيماً... لذا أعتقد أنه لا مناص من القول إن نظام القواعد مستقل عن المعنى"<sup>1</sup>. إن هذا الفصل بين الجانب القاعدي والدلالي سيعرف استدراكاً في النظرية التوليدية، وسيعدّ تعثراً منهجياً لا بد من مراجعته وإعادة النظر فيه في نظرية تشومسكي المعيارية؛ حيث سيكون للدلالة دورٌ في تفسير الجملة في مستوى البنية العميقة، وحينما ستتوسع النظرية، سيكون للدلالة دور أيضاً في تفسير البنية السطحية.

### ج-الكفاءة اللغوية والأداء: Linguistic competence and performance

لقد انطلق تشومسكي من تصور عام مفاده أن الإنسان يولد مزوداً بقدرات طبيعية (ج.ا.ل) تمكنه من اكتساب قواعد لغته، التي تُقدّره بدورها على إنتاج عدد لا متناهٍ من الجمل، ولذلك فإن "المقدرة على إنتاج الجمل وتفهمها"<sup>2</sup>، هو الذي أطلق عليه تشومسكي الكفاءة اللغوية، أو ما يجب بعضهم ترجمتها بالملكة اللغوية أو المقدرة اللغوية. "إنها المعرفة الضمنية باللغة"<sup>3</sup>، تلك المعرفة اللاشعورية بقواعد اللغوية، تتأصل في ذهن المتكلم شيئاً فشيئاً، لتمكنه في النهاية من إنتاج عدد لا محدود من التراكيب، حتى تلك التي لم يسمعها من قبل. وهي في الحقيقة "عامة مشتركة بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد المتجانس، ماداموا جميعاً يملكون المعرفة نفسها بنظام اللغة"<sup>4</sup>.

أما الأداء (التأدية) -عنده- فهو "الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معيّن"<sup>5</sup>. أي أن الجامع بين الأداء والكفاءة هو أنه "في الأداء الكلامي يعود متكلم اللغة بصورة طبيعية إلى القواعد الكامنة ضمن كفاياته اللغوية"<sup>6</sup>. وهو ما يعني أن الأداء ما هو إلا انعكاس جزئي للكفاءة اللغوية، لكونه يتأثر بمؤثرات أسماها ميشال زكريا (المظاهر الطُفيلية)<sup>7</sup>، والتي أرجعها إلى عوامل مترابطة خارجة

<sup>1</sup> - نفسه، ص: 19 - ص: 22.

<sup>2</sup> - النظرية التوليدية التحولية وتطبيقاتها في النحو العربي، أحمد المهدي المنصوري وأسمهان الصالح، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع: 29، شباط 2013م، ص: 327.

<sup>3</sup> - الألسنية التوليدية التحولية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2: 1406هـ/1986م، ص: 7. وينظر أيضاً: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، ص: 44-45.

<sup>4</sup> - محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، أبحاث الترجمة والنشر والتوزيع، بيروت-بنان، ط1: 2004، ص: 45.

<sup>5</sup> - النظرية التوليدية التحولية وتطبيقاتها في النحو العربي، أحمد المهدي المنصوري، أسمهان الصالح، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ص: 327. وينظر أيضاً: Andrew Radford. English Syntax An Introduction. p 3.

<sup>6</sup> - النظرية التوليدية التحولية وتطبيقاتها في النحو العربي، أحمد المهدي المنصوري وأسمهان الصالح، م. س، ص: 327.

<sup>7</sup> - ينظر: الألسنية التوليدية التحولية وقواعد اللغة العربية، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2: 1986، ص: 8.



عن إطار اللغة، ذكر منها العوامل السيكلوجية، كالذاكرة والانفعالية والانتباه، وعوامل سوسيو-ثقافية، كالانتماء إلى مجموعة ثقافية، وطريقة التدريس اللغوية.

وتجب الإشارة ههنا إلى أن "النظرية التوليدية التحويلية تركز على المقدرة اللغوية لا على الأداء اللغوي الفعلي. وهذه نقطة خلاف مع النظرية النحوية الوصفية...وبعبارة أخرى إن القواعد التحويلية هي نظرية ذهنية تهتم بالحقيقة الذهنية الكامنة خلف الأداء اللغوي الفعلي"<sup>1</sup>.

#### د-البنية العميقة والبنية السطحية: Deep structure and surface structure

يرتبط ظهور هذه الثنائية عند تشومسكي بمؤلفه (مظاهر النظرية التركيبية) 1965. فإذا كانت الكفاءة اللغوية الضمنية عند المتكلم السامع المثالي تمثل البنية العميقة، فإن الأداء الكلامي يمثل البنية السطحية لهذه الكفاءة. مما يعني أن الكفاءة والأداء دعامتان مهمتان في نظرية تشومسكي اللغوية، فعليهما تركز البنية العميقة والبنية السطحية؛ ذلك أن دراسة "الأداء؛ أي دراسة بنية السطح، تقدم التفسير الصوتي للغة. أما دراسة الكفاءة؛ أي بنية العمق، فتقدم التفسير الدلالي لها"<sup>2</sup>.

إن البنية العميقة هي "التركيب الباطني المجرد الموجود في ذهن المتكلم وجودا فطريا، وهي أول مرحلة من عملية الإنتاج الدلالي للجملة، إنها التركيب المستتر الذي يحمل عناصر التفسير الدلالي. أما البنية السطحية، فهي تتمثل في التركيب التسلسلي السطحي للوحدات الكلامية المادية، المنطوقة أو المكتوبة، إنها التفسير الصوتي للجملة"<sup>3</sup>.

ودعنا نتساءل ههنا: ما الحبل الناظم بين هاتين البنيتين؟ فالجواب عن ذلك أن المكون التحويلي هو العامل على الربط بينهما، وهو ما يقودنا إلى سؤال فرعي هو: ما هي كيفية تحديدهما في النحو التوليدي التحويلي؟ ليكون الجواب أن ذلك يتم عبر مرحلتين، هما<sup>4</sup>:

-استخراج البنية العميقة، التي تعدّ أول عنصر ناتج عن عملية اشتقاق البنية، وهي تضم كافة المعطيات الدلالية، كما أنها عالمية.

<sup>1</sup>-قواعد تحويلية للغة العربية، محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع-الأردن. د. ط، 1999، ص: 10.

<sup>2</sup>-النحو العربي والدرس الحديث، عبد الراجحي، ص: 115.

<sup>3</sup>-محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، ص: 52-53.

<sup>4</sup>- المرجع نفسه، ص: 53.

-البنية السطحية، وهي آخر مرحلة في العملية الاشتقاقية، وتعدّ المظهر الخارجي للجملة، الناتج عن العملية التحويلية، التي تحول البنية العميقة إلى شكلها المنطوق الفيزيائي.

### هـ-النحو والقواعد التحويلية: Grammar and transformative rules

لقد ارتبط الاتجاه التوليدي التحويلي منذ نشأته بالنحو، وهو -كما جاء في البنى النحوية- "جهاز من نوع خاص مصمم لإنتاج الجمل في اللغة"<sup>1</sup>. أي أن النحو وفق هذا التصور آليةٌ يُستعان بها في إنشاء الجمل المقبولة نحويًا لإنشاء لا متناها، يمكن متكلم اللغة من توليد الجمل النحوية الخاصة بلغته. إن الحقيقة أن مصطلحي (جهاز) و(إنتاج) الواردان في التعريف يجعلان للنحو مفهومًا واسعًا، إذ يشمل -كما يتصوره تشومسكي- أربعة أقطاب، هي: الفونولوجيا، والدلالة، والصرف، والتركيب<sup>2</sup>. وهو ما يجعل النحو ليس مجرد تحليل للجملة في شكلها النظري، إنما هو وصف شامل للغة<sup>3</sup>، يشمل الفروع آنفة الذكر جميعها.

لقد حاول تشومسكي جاهدًا إيجاد طرق ملائمة لتحليل الجملة. وكلما جرب طريقة وتبين له قصورها عن تحقيق الفائدة طوّرها من خلال البحث عن طريقة أخرى أنجع وأفضل. وقد كان طموحه أن يقدم "معيارًا أو إجراء تقويميا يمكن عن طريقه أن يختار من بين الإجراءات أفضلها في التحليل اللغوي. وعنى هذا، أننا لا نستطيع الحكم بأن وصفا معيّنًا لمادة لغوية هو الوصف الصحيح بشكل مطلق، وإنما نستطيع القول بأن هذا الوصف أفضل أو أكثر صحة من أي وصفٍ آخر للمادة اللغوية نفسها لا أقل ولا أكثر"<sup>4</sup>. فليس هناك إذن، طريقة نحوية صائبة مطلقًا، ولكن هناك طريقة أصحّ من أخرى.

لقد اقترح تشومسكي ثلاثة نماذج لتحليل الجمل، تمثل المرحلة الأولى من مراحل تطور النحو التوليدي التحويلي، وهي:

-نحو الحالات المحدودة Finite state grammar، ويترجم أيضًا بنموذج القواعد النحوية المحدودة، إنه نحو شبيهه بآلة مبرمجة تعمل بطريقة آلية، تستطيع أن تمرّ بعددٍ من الحالات المتوالية، إذ تبدأ "من الحالة الأولية Initial حتى تصل إلى الحالة النهائية Final، وأثناء هذا الانتقال

<sup>1</sup>-تشومسكي، جون ليونز، ترجمة محمد زياد كبة، النادي الأدبي بالرياض، ط1: 1988، ص: 34.

<sup>2</sup>-ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مؤمن، دائرة الإنجيلية معهد اللغات، جامعة قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية.

الجزائر، ط2: 2005، ص: 208.

<sup>3</sup>-النحو العربي والدرس الحديث، عبده الراجحي، ص: 127.

<sup>4</sup>-نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ص: 81.

نتج في كل مرة رمزا أو كلمة"<sup>1</sup>. أي أن نموذج نحو الحالات المحدودة "يقوم على أساس سلسلة من الاختيارات تتولد بها جمل"<sup>2</sup>.

مثل تشومسكي لهذا النموذج بالمثال الآتي: الرجل العجوز يأتي/الرجال العجائز يأتون<sup>3</sup>. وفي العربية نقول مثلا: (الطالب متفوق) قد مرت هذه الجملة بالحالات المتوالية التالية: فالعنصر (أل) ألزم مجيء الاسم بعده، وأعطى حقا اختياريا للعنصر الذي تلاه (طالب، طالبة، طالبان، طلاب...)، ولكن العنصر (طالب) أوجب مجيء (متفوق) مفردا. إذن هي ثلاثة عناصر شكّلت البناء الكلي للجملة، بُني على بعضٍ وفق متواليةٍ تَرجحت بين الاختيار والإلزام، ابتدأت بـ(أل)، وانتهت بـ(متفوق).

لقد تصور تشومسكي أنه إذا توافر لدينا رسمٌ للحالات استطعنا أن نولد جملة باقتفاء الخطّ من نقطة الابتداء إلى اليسار حتى نقطة الانتهاء إلى اليمين، متبعين دائما اتجاه السهم. وإذا وصلنا إلى نقطة في الرسم نستطيع منها أن نتابع السير في الخط الذي ينطلق من تلك النقطة، سواء مررنا بهذا الخط من قبل لبناء الجملة التي نريد أم لا<sup>4</sup>.

مهما يكن، فقد أعرض تشومسكي عن هذه الطريقة، ويُعزى ذلك - في تصور جون ليونز - إلى سببين<sup>5</sup>:

\* أحدهما أن ما يتولد عن هذه الطريقة من جملٍ محدودٍ، بينما اللغة تقدم جملا لا نهاية لها.

\* الثاني أن هذه الطريقة قد تُولد جملا غير مقبولة نحويا، ولذلك أُطلق عليها اسم القواعد النحوية المحدودة.

وزاد خليل عمايرة سببا ثالثا، كَوْنُ هذه الطريقة تقوم على افتراض أن الجمل تتكون بتوليد كلمة بعد كلمة ليتحقق الاقتضاء<sup>6</sup>.

<sup>1</sup>-محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، ص: 64.

<sup>2</sup>-النحو العربي والدرس الحديث، عبده الراجي، ص: 128.

<sup>3</sup>-Chomsky, Syntactic structures. P19.

<sup>4</sup>-ينظر: البنى النحوية، تشومسكي، ص: 27.

<sup>5</sup>-نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ص: 107.

<sup>6</sup>-في نحو اللغة وتراكيبها، خليل أحمد عمايرة، ص: 62.

**Phrase structure grammar: قواعد بيئة العبارة:-**

يرمز لهذه القواعد ب(PS)، وقد اختار بعضهم ترجمتها بنحو بنية العبارة، واختار آخرون قواعد تركيب أركان الجملة، وبعض آخر النحو النسقي. تقوم هذه الطريقة على العودة إلى المكونات المباشرة للجملة، كما تصورها التوزيعيون (هاريس و1909...) <sup>1</sup>.

إن نحو بنية العبارة الذي يقترحه تشومسكي يختلف عن نظيره عند هاريس "في كونه لا يقيم تحليله على شكل تسلسلي هرمي ذي طبقات، كل طبقة تمثل مؤلفاً مباشراً (أي مورفيماً)، بل إنه يجسده على شكل شجرة، تعكس لنا هذه المؤلفات المباشرة، وكذا العلاقات القائمة بينها بشكل واضح مجرد ودقيق" <sup>2</sup>.

يتم تحليل الجملة وفق هذه الطريقة بجعل الجملة في رأس الشجرة، والتي ستفرع عنها المؤلفات المباشرة، لنصل من خلال قواعد إعادة الكتابة إلى أصغر المورفيومات.

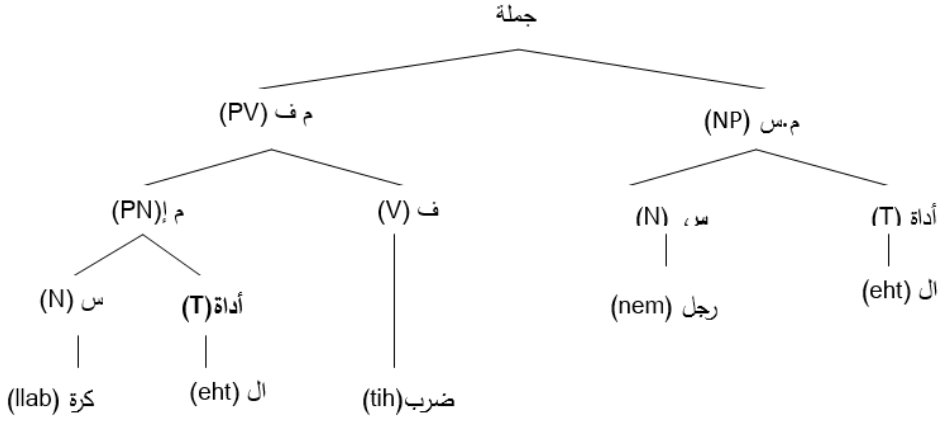
مهما يكن، فإنه يمكن تحديد قواعد إعادة الكتابة كالآتي:

- |                  |   |                       |
|------------------|---|-----------------------|
| 1- الجملة        | ← | مركب اسمي + مركب فعلي |
| 2- المركب الاسمي | ← | أداة + اسم            |
| 3- المركب الفعلي | ← | فعل + مركب            |
| 4- الأداة        | ← | ال...                 |
| 5- الاسم         | ← | رجل، باب...           |
| 6- الفعل         | ← | ذهب، رمى...           |

<sup>1</sup>- ينظر: نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ص: 116.

<sup>2</sup>- محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، ص: 67.

ويصور تشومسكي (و1928م) هذه القواعد في الشكل التشجري الآتي:<sup>1</sup>



يفهم من قواعد إعادة الكتابة والتشجير أن الجملة تقع في قمة الهرم، وعنها تتفرع جملة من الرموز المتوالية، يشتق فيها (2) من (1) الذي هو الجملة، و(3) من (2)، و(4) من (3)، وهكذا دواليك حتى نصل إلى المكونات النهائية للجملة، في عملية اشتقاقية يُبنى فيها التالي على ما قبله.

■ مثال لغوي: (التلميذ فهمَ الدرسَ)

أ- وفق قواعد إعادة التركيب (بنية العبارة):<sup>2</sup>

1- التلميذُ فهمَ الدرسَ.

2- م.س + م.ف.

3- أد + س + م.ف.

4- ال + س + م.ف.

5- ال + تلميذ + م.ف.

6- ال + تلميذ + ف + م.س.

<sup>1</sup> - ينظر: النحو العربي والدرس الحديث، عبده الراجحي، ص: 136.

<sup>2</sup> - ينظر تفصيل هذه المسألة: Chomsky, Syntactic structures, p27.

7-ال + تلميذ + فهم + م س.

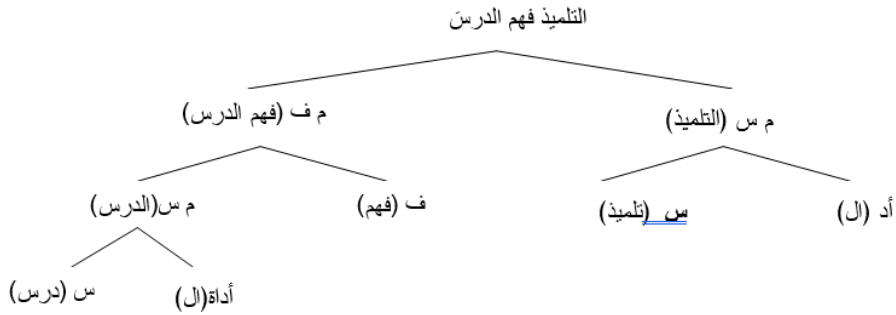
8-ال + تلميذ + فهم + أد + س.

9-ال + تلميذ + فهم + ال + س.

10-ال + تلميذ + فهم + ال + درس.

فوفقَ هذا الاشتقاق، يظهر جليا أن القاعدة (2) مشتقة من (1)، و(3) مشتقة من (2)، ويتوالى هذا الاشتقاق إلى (10)، حتى نحصل في الآخر على المكونات النهائية للجملة، فتتألف لدينا سلسلة لغوية نهائية.

■ وفق المؤشر النسقي (المخطط التشجري):



وبسبب وضوح هذا الرسم مقارنة بتتابع الرموز والأقواس عند تطبيق القواعد السابقة، فقد صار أكثر تداولاً بين الباحثين.

مهما يكن، فقد رأى تشومسكي أن هذه الطريقة (القواعد النحوية لتركيب أركان الجملة) تتسم بالبساطة، لذا فإنها تعجز عن تحليل الجمل الغامضة أو المعقدة، وكذلك الجمل التي بينها علاقات متبادلة كالجمل المبنية للمعلوم، والجمل المبنية للمجهول.<sup>1</sup> ثم إنه تصور أن هذه الطريقة لا تصلح للغات جميعها. هذا كله دفعه إلى البحث عن طريقة أخرى تتجاوز نقص الطريقتين السالفتين.

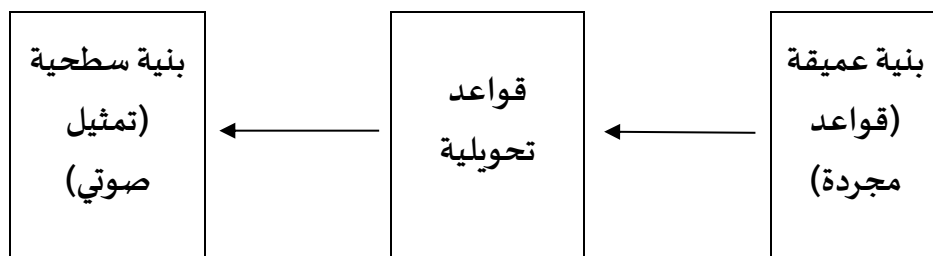
<sup>1</sup> - ينظر: نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ص: 130. ومبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، كاترين فوك وبيارلي قوفيك، ترجمة المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، ط: 1984، ص: 82.

### ■ -/النحو التحويلي: Transformational grammar

رغم جِدَّة أنموذج بنية العبارة السابق، إلا أنه "لا يصلح للتطبيق على جمل زيدَ فيها مُكون نحويٌّ أو أكثر، أو حذف منها، أو اعتراها شيء من تقديم أو تأخير، وطبقاً لهذا النموذج لا يستطيع المرءُ التفريق بين الجملة الصحيحة نحويًّا وغير الصحيحة"<sup>1</sup>. لقد كانت هذه الأمور حافزاً لتشومسكي للبحث عن أنموذج لساني أكثر فعاليةً.

تسعى هذه الطريقة الجديدة إلى تحليل البنية العميقة للغة (الجانب العقلي)، وتحليل البنية السطحية (الجانب المحسوس للبنية العميقة). "إنها تحاول أن تعالج التداخل بين الجمل، وكيفية ارتباط هذه الجمل ببعضها في إطار جُمليّ تحويليّ واحدٍ"<sup>2</sup>. وهو ما يعني أن القواعد التحويلية تقوم بتحويل البنى العميقة إلى البنى السطحية، التي يتكلمها المتكلم، ويسمعها السامع.

ويمكن التمثيل لهذه الطريقة بالشكل الآتي<sup>3</sup>:



لقد زاد تشومسكي، في هذه الطريقة، عدد الرموز؛ إذ "اهتم بالعدد والزمن، وبالأسماء، وبالأفعال التامة والناقصة"<sup>4</sup>. وهكذا، يصير النحو التوليدي بإضافة الجانب التحويلي ضامًا ثلاثاً مكونات، هي<sup>5</sup>:

1- المكون التركيبي: وهو المكون الإبداعي الوحيد الذي يساعد على التوليد اللانهائي

للسلاسل اللغوية، ويتألف من نوعين من القواعد، هي:

<sup>1</sup> - النحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي: التطورات وعناصر التحويل، محمد سالم الرجوبي، ص: 73.

<sup>2</sup> - في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمايرة، ص: 64.

<sup>3</sup> - استمد هذا الشكل من تصور تشومسكي لتحويل الجملة. ينظر: Chomsky, Syntactic structures, p46.

<sup>4</sup> - في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمايرة، ص: 64.

<sup>5</sup> - ينظر: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، ص: 72 وما بعدها.

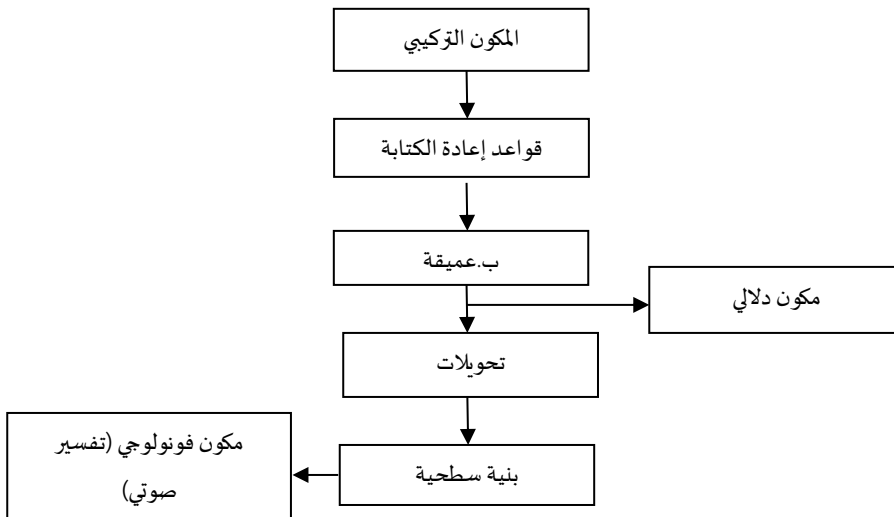
أ-قواعد إعادة الكتابة: وتبرز وظيفتها في إعادة كتابة الجملة على شكل مجموعة من الرموز حتى نصل إلى تمثيلها المجرد (أي: البنية العميقة)، الذي يعكس الفئات النحوية (فئة الفعل، فئة الاسم، فئة الظرف...) وعلاقاتها.

ب-القواعد التحويلية: المتمثلة في مجموعة من العمليات النحوية التي تُحول البنية العميقة إلى البنية السطحية.

2-المكون الدلالي: وهو الوجه البارز في المرحلة الثانية من تطور هذه النظرية، يتجلى دوره في إعطاء التفسير الدلالي للبنية العميقة.

3-المكون الفونولوجي: وظيفته تقديم التفسير الصوتي للتمثيل المجرد، الذي على أساسه نحصل على الشكل اللفظي للبنية السطحية.

ويمكن توضيح هذه المكونات المتداخلة في التخطيط الآتي<sup>1</sup>:



ومجمل الكلام، أن البنية العميقة وفق ما سبق، هي أول مرحلة في إنتاج الجملة. وتبدو في عمقها على شكل قواعد إعادة الكتابة، يحمل المعطيات الدلالية كلها. أما البنية السطحية فهي المرحلة الأخيرة من العملية الإشتقاقية، والتي تخضع للتفسير الفونولوجي الذي يمنح الجملة شكلها المادي. إن هذه الطريقة قادرة على توليد عدد غير محدود من البنى العميقة للجملة من خلال اتباع عدد من العمليات والقواعد النحوية.

<sup>1</sup> - ينظر: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، مرجع سابق، ص: 73.



معلوم أن القواعد التحويلية -كما رأينا سالفًا- تقوم بتحويل التركيب العميق المجرد، الذي يحتوي على معنى الجملة إلى التركيب السطحي المحسوس، الذي يجسد مبنى الجملة. لقد تصور تشومسكي أنه يمكن تحويل الجملة الواحدة إلى عدد كبير من الجمل، تشترك والجملة النواة في المعنى العميق. ومن باب أولى الوقوف عند هذه القواعد التحويلية<sup>1</sup>، وهي إجمالاً<sup>2</sup>:

### 1- الحذف: Deletion

ويشار إليه بالرمز Ø، ويراد به أي نقص في الجملة النواة، ومثاله: أ + ب  $\leftarrow$  ب؛ أي تم تحويل (أ + ب) إلى (ب) فقط. إذ حذف العنصر (أ). وينبغي الإشارة إلى أنه في القوانين التحويلية يستعمل السهم المزدوج، ويستعمل السهم الأحادي في القوانين الباطنية، وذلك بغية التمييز. ولنأخذ مثلاً من العربية حتى يتضح المراد:

طَوَّرَ النحاةُ النحوَ  $\leftarrow$  طَوَّرَ النحوُ.

أ ب ج أ + Ø + ج  $\leftarrow$  حذف الفاعل.

ولما كانت البنية العميقة في الجملتين واحدة، فإنه لا فرق بينهما قبل دخول عنصر التحويل وبعده<sup>3</sup>. وعليه، فإن كل جملة وقع بها حذف فهي جملة مُحوَّلة.

### 2- التعويض أو الإحلال: Replacement

وهو إحلال عنصر محل آخر، وذلك مثل: أ  $\leftarrow$  ب. حيث تم استبدال الرمز (أ) بالرمز (ب)؛ كقولك: زيدٌ جاء، فتقول: هو جاء (فقد عوضت العلم بضمير الرفع المنفصل)

### 3- التمدد أو التوسع: Expansion

مثلاً: أ  $\leftarrow$  ب + ج. فهنا تمدد (أ) وتوسع ليصبح رمزين، هما (ب + ج). وهذه العملية تختلف عن التعويض، التي يتم فيها استبدال رمز واحد برمز واحد فقط. مثاله: جاء، فتوسعه ثم تقول: أتى وقدم.

<sup>1</sup>- ذكر الخولي أن هناك ست قواعد، هي: الحذف، والتعويض، والتمدد، والتقلص، والإضافة، والتبادل. أما أحمد مؤمن، فقد ذكر أيضاً أنها ستة: الحذف، والإحلال، والتوسع، والاختصار، والزيادة، وإعادة الترتيب. أما عبد الحليم بن عيسى، فقد رأى بأنها ستة: الزيادة، وإعادة الترتيب، والحذف، والاتساع، والتحول الوظيفي، والغموض التركيبي. ينظر: تدريس النحو العربي من منظور اللسانيات التوليدية التحويلية، محمد الحسن بن يوسف ونصر الدين عبيد، مجلة النص، ع. 1، مج. 8، 2022، ص: 329.

<sup>2</sup> - ينظر: قواعد تحويلية للغة العربية، علي الخولي، ص: 23-24. وفي نحو اللغة وتراكيبها، خليل أحمد عمارة، ص: 66-67. والقواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي، حسام الهنساوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1: 1413 هـ/ 1992 م، ص: 98-101.

<sup>3</sup>- في نحو اللغة وتراكيبها، خليل أحمد عمارة، ص: 66-67.

## 4-النقص أو الاختصار: Reduction

مثاله:  $A + B \rightarrow C$  . وهو كما يبدو خلافُ التمدد، إذ تقلص المكونان (أ + ب)، وتم اختصارهما في مكون واحد، وهو (ج). مثاله: نقيض المثال السابق وعكسه.

## 5-الإضافة أو الزيادة: Addition

ويراد بهذا المصطلح ما يضاف إلى الجملة النواة. ومثاله:  $A \rightarrow A + B$ ؛ حيث تمت زيادة الرمز (أ) بإضافة الرمز (ب) إليه. وهذا يختلف عن التمدد؛ لأن في التمدد اختفى الرمز الذي في يمين السهم، وحل محله رمزان خلفه على يسار السهم. أما هنا، فالرمز الذي في يمين السهم لم يختفِ، ولكنه أضيف إليه رمز آخر في يسار السهم. مثال ذلك:

جاء زيد  $\rightarrow$  ما جاء زيد/هل جاء زيد؟/ جاء زيد البارحة...

$A + B \rightarrow C$

## 6-التبادل أو إعادة الترتيب: Permutation

ومثاله:  $A + B \rightarrow B + A$ . فهنا لم يحذف شيءٌ ولم يضيف شيءٌ، ولكن انعكس الترتيبُ فقط. أي تم إعادة ترتيب المكونين (أ + ب) عن طريق تبادل موضعيهما، فيصبح (أ) في مكان (ب)، وهذا في محل (أ).

وينبغي الإشارة، وهنا، إلى أن تشومسكي قد ميز بين القواعد التحويلية<sup>1</sup>؛ فجعل بعضها إجباريا، والبعض الآخر اختياريا. فأما القوانين الإجبارية Obligatory Rules فهي التي تعمل عندما يكون للسلسلة الجُمْلِيَّة وصفٌ بنيويٌّ يطابق الوصف البنيوي لهذه التحويلات، كالتطابق بين الفعل والفاعل في التذكير والتأنيث (كتب زيد/كتبت زينب). أما القوانين الاختيارية Optional Rules، فهي التي يكون عملها اختياريا، كتحويل النفي أو الاستفهام أو البناء للمجهول.

## 3-مقاربة ديدكتيك علوم اللغة من خلال بعض أسس النظرية التوليدية التحويلية:

لا مرية في أن النظرية التوليدية التحويلية قد أحدثت ثورة حقيقية في مختلف العلوم، لسانية كانت أم اجتماعية أم نفسية أم أنثروبولوجية... ولا يخفى ما لهذه النظرية من أهمية في المقاربة البيداغوجية والديدكتيكية للدرس اللغوي، لكونها تقدم تصورا مختلفا لدراسة اللغة، وتفتح جهازا مفهوميا يمكن تنزيله، سواء من حيث التصور أم من حيث الأجراء.

<sup>1</sup> - ينظر: القواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي، حسام الهنساوي، ص: 101.

لقد قدمت هذه النظرية أنموذجا لدراسة اللغة البشرية دراسة تضفي عليها الجانب الإنساني/العقلي، بدل تحويل اللغة إلى مجرد مدونات لسانية، يتم اختزالها في أشكال وجداول وغيرها... التي رغم أهميتها لن تفيدنا كثيرا في فهم طبيعة العقل البشري.

#### أ-الديداكتيك:

ظهر مصطلح "الديداكتيك" في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد اختيرت له عدة مقابلات عربية، كالتدريسية، والتعليمية، وفن التدريس، وفن التعليم...وقد حدّه محمد الدريج بقوله: "يُقصد بعلم التدريس، الدراسة العلمية لطريقة التدريس وتقنياته وأشكال التنظيم لمواقف التعلم التي يخضع لها التلميذ قصد بلوغ الأهداف المنشودة، سواء على المستوى العقلي أو الوجداني أو الحسي-حركي"<sup>1</sup>. وقد ورد في (المهمل التربوي) "يُستعمل لفظ ديداكتيك أساسا، كمرادف للبيداغوجيا أو التعليمية، بيد أنه إذا ما استبعدنا بعض الاستعمالات الأسلوبية، فإن اللفظ يوحي بمعاني أخرى تُعبّر عن مقارنة خاصة لمشكلات التعليم. فالديداكتيك لا تشكل حقلا معرفيا قائما بذاته أو فرعاً لحقل معرفي، كما أنها لا تشكل أيضا مجموعة من الحقول المعرفية، إنها نهج، أو بمعنى أدقّ، أسلوب معيّن لتحليل الظواهر التعليمية"<sup>2</sup>.

نخلص، من خلال هذه التعاريف، إلى أن الديداكتيك تحرص على تحقيق وتحقيق الفعل التعليمي والتعلّمي، من خلال توفير الطرق والوسائل والأدوات، واقتراح حلول لتجاوز كل التعثرات الممكنة، التي قد تحول دون مضي الفعل التعليمي والتعلّمي قدما. ولذلك ينصبّ اهتمامها على كل من المدرس صاحب فعل التعليم، والمتعلم صاحب فعل التعلم، والمادة الدراسية، التي تُنقل ديديكتيكا من المدرس إلى المتعلم، والطرق والوسائل والآليات والإجراءات....، الموصلة إلى تحقيق هذا النقل وتوظيفه وتنمية الكفايات من خلاله.

#### ب-ديداكتيك علوم اللغة (الدرس اللغوي):

إن المقصود بديداكتيك علوم اللغة أو تدريسية علوم اللغة، أو منهجية تدريس علوم اللغة...هو الانتقال بالمتعلم من معرفة القواعد (نحوية، صرفية، بلاغية، عروضية، لغوية...) إلى ممارسة هذه القواعد، من خلال ترسيخ الظواهر اللغوية واستثمارها واستحضارها في سياقات

<sup>1</sup>- تحليل العملية التعليمية: مدخل إلى علم التدريس، محمد الدريج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2: 1991، ص: 3.

<sup>2</sup>-المهمل التربوي، عبد الكريم غرب، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1: 2006/1، 262.

كتابية وشفهية وقرائية... فهو يعد "المزود الرئيس للمتعلمين بالرصيد اللغوي، الذي يساعدهم على التعبير والتركيب الصحيحين"<sup>1</sup>.

يُعدّ مجال علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي أحد مكونات مادة اللغة العربية، المعوّل عليه في دراسة النصوص والتعبير الكتابي والشفهي والممارسات اللغوية الصفية. إنه ليس مجرد قواعد وضوابط وأساليب، يتم فهمها وتحليلها وتفسيرها، إنما يتجاوز ذلك إلى بناء أنماط من الخطاب والوظائف وتعزيز المكتسبات. ولذلك ينبغي "التعامل الوظيفي مع الدرس اللغوي على أساس التكامل بين مختلف المكونات"<sup>2</sup>. حيث "إن الكفاية اللغوية ليست قواعد تُحفظ وإنما مهارات تنجز، ولعل هذا الإنجاز يرصد بدقة من خلال تلك العلاقة الوظيفية بباقي المكونات"<sup>3</sup>.

إنه "المزود الرئيس للمتعلمين بالرصيد اللغوي الذي يساعدهم على التعبير والتركيب الصحيحين"<sup>4</sup>؛ أي أنه أداة يُرادُّ بها تقويمُ اللسانين، وإدراك الأبعاد الفنية والجمالية والإقناعية والأسلوبية... للنصوص القرائية المقررة. ونظرا لهذه الأهمية الكبيرة التي يحظى بها داخل نسق المجزوءات صار من اللازم مواكبة التطور، والعمل على تيسير فعل تعلمه، والسعي إلى تجاوز مختلف الصعوبات التي تواجه المدرس والمتعلم في تعليمه وتعلمه، في نقله ديداكتيكيا، وتمثله تصورا وسلوكا فعليا. إنه مكون بارز يُسعى من ورائه إلى تحقيق الكفايات التواصلية والمنهجية والثقافية والاستراتيجية، إلى جانب كفاية القراءة والكتابة.

من هنا كانت الحاجة إلى الاستعانة ببعض الأصول اللسانية في النظرية التوليدية التحويلية، لإسعافنا لتحقيق مقارنة مختلفة، ستمكن لا محالة من تحقيق الغاية من مجال علوم اللغة.

### ج-مقاربة من حيث التصور المبدئي:

لا شك في أن النظرية التوليدية التحويلية بمختلف فرضياتها تقدم جملة من التصورات والإجراءات التي يمكن أن تُستحضر في تخطيط المدرس للدرس اللغوي وتديره وتقويمه، يمكن

<sup>1</sup>-ديداكتيك الدرس اللغوي وفق المقاربة بالكفايات: الواقع والإكراهات، خديجة التوزاني، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، ع.4، مج.2، 2020، ص: 149.

<sup>2</sup>-التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، نونبر 2007، ص: 35.

<sup>3</sup>-ديداكتيك اللغة العربية والمقاربة بالكفايات: النظرية والتطبيق، عبد العزيز خلوفة والمختار السعيد، المغرب، ط1: 2015، ص: 109.

<sup>4</sup>-ديداكتيك الدرس اللغوي وفق المقاربة بالكفايات: الواقع والإكراهات، خديجة التوزاني، ص: 149.

إجمالها فيما يلي:

-ينبغي أن يؤمن المدرس - في تصور النظرية التوليدية التحويلية - أن تعلم اللغة (بما فيها الدرس اللغوي) لا يرتبط بذكاء المتعلم، بقدر ما يرتبط بأدميته، فمادام كائنًا بشريًا فإنه قادر على اللغة وقادر على استيعابها. إذ يعتقد تشومسكي أن "ثمة كمًا فطريًا من معرفتنا باللغة، يفوق ما كان يُظنُّ سابقًا"<sup>1</sup>. ومادام المتعلم يمتلك قدرًا مسبقًا من هذه المعرفة، فعلى فعل التعليم أن يتجه نحو استثمار هذا الجانب الخفي من اللغة في تنمية فعل التعلم.

-التعلم عملية ذهنية، وهو ما يعني أنه على المدرس أن يخاطب عقل المتعلم، وأن يستعين بمختلف الطرق والتقنيات والأساليب التي تمكن من تحفيز ملكة اللغة عند المتعلمين. وأن عدم استيعاب فئة من المتعلمين لبعض مقاطع الدرس اللغوي، لا بدّ أن يُردَّ إلى ميكانيزمات اشتغال العقل عند المتعلم، من خلال الكشف عن نسق التمثيلات، ومحاولة تصحيحها أو تعديلها أو تزكيته وتثبيتها. فقد رأى تشومسكي أن الأفراد قادرون على إنتاج جمل جديدة وغير محدودة باستخدام قواعد معينة، مما يعكس قدرة اللغة على التكيف والتطور. وهو ما يعني أن اللغة ليست مجرد مجموعة من العبارات الجاهزة، بل هي نظام دينامي يمكن من خلاله توليد معان جديدة. إذ "يدل مصطلح التوليد على الجانب الإبداعي في اللغة، أي القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين وفهم عدد لا متناه من الجمل في لغته الأم، بما فيها الجمل التي لم يسمعها من قبل، وكل هذا يصدر عن الإنسان بطريقة طبيعية دون شعور منه بتطبيق قواعد نحوية معينة"<sup>2</sup>.

-المتعلم ليس صفحة بيضاء، بل مجهزة بجهاز اكتساب اللغة (القدرة اللغوية)، نظرا لامتلاكه لقواعد كلية، مشتركة بينه وبين زملائه، وهو ما يعني أنه على الأستاذ أن يؤمن بقدرة المتعلم على اللغة، وقدرته على تعلّمها، من خلال بناء كفايته اللغوية وتطوير أدائه الكلامي. وعلى المدرس أن يتدرج مع متعلّمه في تدريس الدرس اللغوي، من أجل تنمية الملكة اللغوية لديهم، وحفزهم على تنشيطها وحلّلتها باعتبارها ذات نمو داخلي، وأن يفهم أن المتعلم قادر من خلال هذا الجهاز الطبيعي الفطري على تعلم أي لغة بشرية، مما يشير إلى أن اللغة ليست مجرد اكتساب للمهارات من البيئة المحيطة، بل هي نتيجة لعمليات عقلية معقدة.

<sup>1</sup>-آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، نعوم تشومسكي، ترجمة: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط1: 2009.

<sup>2</sup>-اللسانيات: النشأة والتطور، أحمد مؤمن، دويان المطبوعات الجامعية بنعكنون- الجزائر، ط2، 2005، ص: 206.

إن مبدأ الفطرية هذا سيساعد لا محالة في "تجاوز النظرة التقليدية المتوارثة عن النحو، والنظر إليه على أنه هو اللغة، بمعنى آخر القدرة اللغوية التي هي عملية إبداعية يحددها الإطار العام لمجموع القواعد الفطرية المخترنة في الكفاية اللغوية لدى متكلم اللغة الذي على الرغم من محدودية خبرته مع المعطيات اللغوية لعملية الكلام، فيجب أن يُنظر إلى النحو على أنه وصف شامل للغة في جميع جوانبها: الصوتي والنحوي والدلالي، وليس تحليلاً للجملة فقط"<sup>1</sup>. وهو ما يعني أن المعرفة الضمنية بالقواعد التوليدية لا تشمل النحو فحسب بل يشاركه الصوت والدلالة.

كما ينبغي من جهة أخرى أن يستوعب المدرس أن جميع اللغات تشترك في بنية أساس تسمى النحو الكلي/العالمي، مما يعني أن هناك قواعد عامة، يمكن أن تطبق على جميع اللغات.

لا بد أن يدرك المدرس أن اشتغاله على ديداكتيك علوم اللغة هو جزء من اشتغاله على الكفاءة اللغوية، وأن الأداء الكلامي الفردي للمتعلم، لا يعكس بالضرورة مستوى الكفاية لديه، لما قد يمس الأداء من معيقات أو طفيليات (الخلل، التلعثم، نقص الثقة، ضعف السمع، أجواء القسم...). أي أنه على المدرس أن يحاول جاهداً اتخاذ الدرس اللغوي مطيةً لتحقيق الكفاية المطلوبة والأداء المنشود. وأن يفهم أن تركيب الجمل يخضع لبنيتين متكاملتين، هما: البنية العميقة، والبنية السطحية. فأما الأولى فتمثل الهيكل النحوي الذي يحتوي على المعلومات الدلالية، إنها البنية التي تعكس العلاقات بين العناصر المختلفة في الجملة، وتكون غير مرئية في اللغة المحكية. أما البنية الأخرى فهي الشكل الخارجي المنطوق والمسموع، وتكون ظاهرة في اللغة المحكية.

#### د-مقاربة من حيث التصور المتقدم:

تعد هذه المقاربة تميماً للمقاربة المبدئية، إذ تقترح وجهاً متقدماً لمقاربة علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي، وتقدم مبادئ عملية لممارسة نشاطي التعليم والتعلم، بالرغم من أن "التوليدية التحويلية ليست نظرية تربوية"<sup>2</sup>.

في البداية، لا بد من التذكير بالخطوات المنهجية التي تقترحها (التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي)، حتى يتسنى إدراك إدراك الفائدة من استثمار نتائج النظرية التوليدية في الحقل الديداكتيكي.

<sup>1</sup>-تدريس النحو العربي من منظور اللسانيات التوليدية التحويلية، ص: 331.

<sup>2</sup>-المرجع نفسه، ص: 334.

ورد في التوجيهات<sup>1</sup> أن منهجية علوم اللغة تقوم على خطوات وعناصر واصفة للنشاط التربوي الهادف إلى قراءة النصوص وتحليلها لغوياً في ضوء علوم اللغة وقواعدها ومبادئها من أجل خدمة الأهداف الرامية إلى تنمية الحس الجمالي والذوق الفني لدى المتعلمين، وصقل قدراتهم التعبيرية نطقاً وكتابةً.

بناءً على هذه المقاصد العامة، فإن منهجية علوم اللغة تعتمد على المقومات الآتية<sup>2</sup>:

\* أساليبها: ينطلق عمل الأستاذ في درس علوم اللغة من مصادر مساعدة:

-النص الرئيس الذي درسه التلاميذ باعتباره منطلقاً لعملية الوصف ومرجعاً قد يعود إليه الأستاذ بعد الانتهاء من دراسة الظاهرة اللغوية للدعم والتثبيت.

-نصوص مساعدة تغطي عناصر الظاهرة المدروسة التي لم ترد في النص الرئيس، وهي نصوص مرتبطة بموضوع الدرس.

\* خطواتها: تركز منهجية علوم اللغة على أربع خطوات، هي:

1-قراءة النص الرئيس أو المساعد أو اللغوي قراءة فاحصة.

2-وصف الظاهرة اللغوية المدروسة وتحليلها لاستنباط المبادئ أو القواعد أو النتائج أو الإشكالات عن طريق الاستقراء والمقارنة.

3-إنجاز تطبيقات على الظاهرة المدروسة قصد ترسيخها والوقوف على حدودها وتوظيفها في إنتاجات شخصية.

4-استثمار معطيات الدرس اللغوي أثناء القراءة المنهجية وفي درس التعبير والإنشاء.

نخلص من هذا العرض المقتضب أن علوم اللغة -وفق التوجيهات- يُدرس في سياقات نصية وتواصلية، تجعل منه أداة فعالة تمكن من فهم الجمل والنصوص وسبر غور بنيتها اللغوية وإدراك أبعادها الوظيفية. كما يتبين أن تدريس علوم اللغة يخطو خطوات متدرجة، ابتداءً من القراءة المتأنية إلى وصف الظاهرة اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية، بلاغية، عروضية، دلالية...)، مروراً بالتحليل والتفسير والتعليل (البحث في الميكانزمات...) واستنباط القواعد أحاداً أو عن طريق

<sup>21</sup>- التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، ص: 18.

<sup>2</sup>- نفسه.

فعل الاستقراء، وصولاً إلى الأنشطة التقييمية وما يتذيّلها من دعم سريع، انتهاءً إلى الاستثمار فضاء التوظيف الأمثل لعلوم اللغة، في إطار مفهوم التكامل بين المكونات.

ولنا الآن أن نقف عند بعض أوجه نجاعة تفعيل بعض المفاهيم اللسانية التوليدية التحويلية في تقوية الجانب التعليمي والتعلمي لدرس علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي. لقد أفرز البحث اللساني التوليدي - من خلال أعمال تشومسكي وتلامذته ومؤيديه من اللسانيين في مختلف الأقطاب - جملة من المبادئ، نقتصر على بعضها، إيماناً منا أنه سيكون لها الدور الفاعل في تقديم علوم اللغة التقديم الأمثل، يمكن إجمالها في ثلاثة مبادئ كبرى، هي:

### 1- مبدأ الذهنية:

يساعد هذا المبدأ على فهم المتعلمين لدروس علوم اللغة فهماً أعمق يتجاوز الاكتفاء بحفظها. كما أن له دوراً كبيراً في إذكاء الروح النقدية لدى المتعلم في بناء تعلماته اللغوية، لكونه لا يقف عند حدود وصف الظاهرة اللغوية بل يتجاوز ذلك إلى تفسيرها وسبر غورها، والتمكن من التفاعل الحقيقي مع اللغة المعنية بالدراسة. إلى جانب ما لهذا المبدأ من فعالية في تحقيق التعلم الذاتي والدفع بروح الفضول العلمي قدماً، وتطوير المهارات اللغوية في بعدها المعرفي والتداولي. يقول تشومسكي: "إن اللغات هي أفضل مرآة للعقل البشري"<sup>1</sup>. وهو ما يعني أن الطابع الذهني للغة ليس قصراً على علاقة اللغة بالعقل، بل ينصرف إلى علاقة جدلية تتجه من العقل إلى اللغة أيضاً، وهو ما يجعل مفهوم الذهنية أوسع وأشمل.

إن استحضار المدرس لهذا المبدأ في تخطيط الدروس وبناء التعليمات سيكون له دور فاعل في تمكين المتعلم من الارتقاء اللغوي، وإدراك الوشائج التي تربط الدروس اللغوية فيما بينها، وأن تعلم اللغة (أصوات، صرف، نحو، بلاغة...) سيمكن من تحقيق المبتغى الاستعمالي منها.

### 2- مبدأ التوليد والتحويل:

يُعد هذا المبدأ تجلياً حقيقياً للمبدأ الأول، لكونه يمكّن المتعلم من خلال عدد محدود من القواعد (باعتبارها وصفاً شاملاً للغة) من توليد عدد لا متناه من الجمل الصحيحة نحويًا، والقدرة على فهمها، وعلى التمييز بين الصحيح منها وغير الصحيح، والتمكن من إنجاز عمليات تحويلية لا متناهية، وذلك كله من خلال إدراكه لميكانيزمات اشتغال التوليد والتحويل.

<sup>1</sup>- Noam Chomsky. Knowledge of Language: Its Nature, Origin, And use. Convergence a series founded,planned,and edited by Ruth Nanda Anshen. New York .published in 1986.p1



يتم تعزيز هذا المبدأ وإظهار فعاليته، من خلال فعل المحاكاة، وتأليف الجمل، والتعامل مع النصوص المختلفة، والانتقال من بناء جُمليّ إلى بناء آخر، وفتح النقاش في مسألة المعنى واختلاف التراكيب والتأليف، والتشجيع على كتابة نصوص مختلفة، والعمل على إعادة الصياغة بفرض تحويلات معينة. والعمل على استثمار الأخطاء للبحث عن تركيبات أفضل وأيسر وأصوب.

إن استثمار هذا المبدأ الاستثمار الجيد من لدن المدرس، سيعزز لدى المتعلم الثقة بالنفس، وسيشعره بالتمكن من اللغة، لكونه يكشف إمكانات لا محدودة للمتعلم في التوليد والتحويل.

### 3- مبدأ الكفاءة والأداء:

إن لهذا المبدأ أثر قوي في تطوير مهارات المتعلمين اللغوية، لأنه مبدأ يُسعى من ورائه إلى إقدار المتعلم على استخدام اللغة بشكل صحيح وفعال في مختلف السياقات التواصلية. حيث يمكن قياس مدى تطور كفاءة المتعلم اللغوية من خلال أدائه القرائي والتعبيري والكتابي.

يتعزز هذا المبدأ من خلال إيمان المدرس بأن الأداء اللغوي لا يعكس بالضرورة إمكانات المتعلم وقدراته اللغوية، وإن كان الأصل هو هذا. لكون الأداء قد تعترضه أمور تمنع من إظهار المقدرة اللغوية الحقيقية للمتعلم (خوف، مشاكل في الجهاز الصوتي، خجل، تكاسل...).

إن هذا المبدأ يقوم على استثمار القواعد والضوابط والقوانين اللغوية، والتمكن من استثمارها الاستثمار الأمثل في سياقات تواصلية شفوية وكتابية ورمزية. إنه "المعرفة الضمنية باللغة"<sup>1</sup> والقدرة على "الاستعمال الآني لها ضمن سياق معين"<sup>2</sup>. وهو ما سيفتح آفاقا واسعة للمدرس من أجل تطوير إمكانات متعلميه اللغوية في بعدها الباطن والظاهر.

إن الاستعانة بهذه المبادئ الثلاثة من لدن المدرس في تخطيط الدروس وإنجازها، سينعكس إيجابا على نشاطي التعليم والتعلم، وسيضيف الكثير من الفاعلية على الخطوات المنهجية المقررة في "التوجيهات التربوية". كما سيتمكن من تجاوز الطريقة الكلاسيكية التي تلخص الغاية القصوى لعلوم اللغة في فهم المحتوى اللغوي وحفظه وإنجاز بعض التطبيقات التي تقوم ما تم اكتسابه.

<sup>1</sup>-الأسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، ميشال زكريا، ص: 7.

<sup>2</sup>-النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها في النحو العربي، أحمد المنصوري وأسمهان الصالح، ص: 327.

## خاتمة:

تأسيساً على ما سبق، يتبين أن اللسانيات التوليدية التحويلية التي وضعها نعوم تشومسكي في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، لم تقدم أنموذجاً لتدريس اللغات وعلومها، لكونها نظرية لسانية لا تربوية، تقدم نماذج عامة لدراسة اللغات الإنسانية (النحو الكلي)، حتى تكون ذات فائدة للأبحاث الخاصة.

ومهما يكن من أمر، فإن المقال يخلص إلى النتائج الآتية:

- يحتاج مكون الدرس اللغوي/ علوم اللغة في كل وقت وحين إلى البحث عن مقاربات جديدة في ثوب جديد، تمكن من تيسير فهمه وتقريب مفاهيمه، وإذكاء جدواه في مختلف السياقات التواصلية، واستثماره الاستثمار الأمثل في القراءة المنهجية. ولذلك تعدّ اللسانيات التوليدية التحويلية من هذه المقاربات التي قدمت الكثير للدرس اللغوي الحديث، فما من مانع من توظيف بعض مبادئها في الحقل التعليمي، خاصة أنها توفر إطاراً نظرياً متماسكاً يساعد على فهم كيفية عمل اللغة.

- توفر هذه النظرية من خلال جملة مبادئها الإطار النظري والتنفيذي الذي سيُسهم -لا محالة- في تطوير الفهم العميق للغة، سواء عند المدرس أم عند المتعلم، ذلك أن استخدام مبدأ التوليد والتحويل مثلاً سيمكن من تحليل الجمل وتبصر وشائجها؛ مما سيساعد المتعلمين على اكتساب مهارات لغوية متقدمة ستعزز قدرتهم على إنتاج جمل جديدة وفهم النصوص بشكلٍ أعمق.

- إن دمج اللسانيات التوليدية في منهاج اللغة العربية سيمكن من تعزيز التفكير النقدي والقدرة على التعبير عن الأفكار واكتساب المهارات اللغوية الضرورية لحل مختلف الوضعيات المشكل، سواء على المستوى المدرسي (الفصل الدراسي مثلاً) أم على المستوى الحياتي (مواقع التواصل الاجتماعي مثلاً).

- إن مبدأ الذهنية ومبدأ التوليد والتحويل ومبدأ الكفاءة والأداء، التي تم الاقتصار عليها، تعد بحق من أهم المبادئ المؤطرة لمدرس اللغة العربية، والتي سيكون لها الأثر الكبير في تطوير منهجية تدريسه لعلوم اللغة بالتعليم الثانوي التأهيلي، لكونها لا تقف عند حدود تقديم المادة اللغوية، بل تتعدى ذلك إلى البحث في طبيعة عقل المتعلم وقدرته على اللغة وكيفية إنتاجه لها وتمييزه بين صحيح الجمل وملحونها.

-إن دمج هذه المبادئ الثلاثة مع ما تقترح وثيقة "التوجيهات التربوية" من خطوات منهجية لتدريس علوم اللغة، سيمكن مدرس اللغة العربية -لا محالة- من تحسين استراتيجيات التدريس لديه، وتقديم تجربة تعلم شاملة، تفتح آفاقا واسعة لتعليم علوم اللغة في التعليم الثانوي التأهيلي.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، نعوم تشومسكي، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع-اللاذقية-سورية، ط1: 2009م.
- الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2: 1406هـ/1986م
- البنى النحوية، تشومسكي، ترجمة: يؤيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة، وزارة الثقافة والإعلام - الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1: 1987م
- البنى النحوية، يؤيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة، وزارة الثقافة والإعلام - الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1: 1987م
- تحليل العملية التعليمية: مدخل إلى علم التدريس، محمد الدريج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، ط2: 1991.
- تدريس النحو العربي من منظور اللسانيات التوليدية التحويلية، محمد الحسن بن يوسف ونصر الدين عبيد، مجلة النص، المجلد8، ع:1/2022.
- تشومسكي، جون ليونز، ترجمة محمد زياد كبة، النادي الأدبي بالرياض، ط1: 1408هـ/1988م.
- التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، نونبر 2007.
- ديداكتيك الدرس اللغوي وفق المقاربة بالكفايات: الواقع والإكراهات، خديجة التوزاني، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، المجلد2، ع:4/2020.
- ديداكتيك اللغة العربية والمقاربة بالكفايات: النظرية والتطبيق، عبد العزيز خلوقة والمختار السعيد، تق: د. محمد الدريج، مطبعة L'imprimeur، المغرب، ط1: 2015.

- في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، خليل أحمد عمارة، عالم المعرفة-جدة، السعودية، للنشر والتوزيع، ط1: 1404هـ/1984م.
- في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، خليل أحمد عمارة، عالم المعرفة-جدة، السعودية، للنشر والتوزيع، ط1: 1404هـ/1984م.
- القواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي، حسام الهنساوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1: 1413هـ/1992م.
- قواعد تحويلية للغة العربية، محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع الأردن، د.ط: 1999م.
- اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، دائرة الإنجيلية معهد اللغات الأجنبية-جامعة قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، ط2: 2005م.
- اللسانيات واللغة العربية، عبد القادر الفاسي الفهري، سلسلة المعرفة اللسانية أبحاث ونماذج، دار توبقال للنشر-الدار البيضاء، ط3: 1993، 63.
- مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، كاترين فوك وبيارلي قوفيك، ترجمة المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، ط: 1984.
- محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، أبحاث الترجمة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1: 2004م.
- المهمل التربوي، عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، ط1/2006.
- النحو التوليدي التحولي عند تشومسكي: التطورات وعناصر التحويل، محمد سالم الرجوبي، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة صرّاة-ليبيا، المجلد2، ع8، يونيو 2017.
- النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط: 1979م.

- النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها في النحو العربي، أ.أحمد المهدي المنصوري، أسمهان الصالح، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع: 29، شباط 2013م.
- النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها في النحو العربي، أحمد المهدي المنصوري وأسمهان الصالح، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع: 29، شباط 2013م.
- نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ترجمة وتعليق حلمي خليل، دار المعرفة الجامعة، ط1: 1985م.
- نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ترجمة وتعليق حلمي خليل، دار المعرفة الجامعة، ط1: 1985م.

#### المراجع الأجنبية:

- Andrew Radford, English Syntax: An Introduction, Cambridge University press, Ed 2004.
- Chomsky, Syntactic structures, Monton publishers, the hague, paris, 1957
- Huachuan Wen, Chomsky's Language Development theories : Rescuing Parents Out Of Dilemma, Macrothink Institute tm, Issn 2164-4063, 2013
- Noam Chomsky. Knowledge of Language: Its Nature, Origin, And use. Convergence a series founded, planned, and edited by Ruth Nanda Anshen. New York. published in 1986
- Noam Chomsky. Language and Mind. third edition. Massachusetts Institute Of Technologie.

## سؤال القيم في المنهجية المعتمدة في "درس المؤلفات" بالجذع المشترك: رواية "المباعة" نموذجاً

د. الحسين بلا

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة سوس ماسة  
المغرب



### ملخص:

تأتي هذه الورقة في سياق تهميش البعد القيمي لصالح البعد المعرفي، فعدم بروز هذا الجانب في الفصول الدراسية، في ظل التطور التكنولوجي وتخلي الأسرة عن وظيفتها التربوية، أمر يهدد المجتمع بالفساد والدمار. واكتساب القيم أمر مهم لصالح المجتمع وتخليصه من الأخلاق الفاسدة، والتربية على القيم خطوة مهمة لتحقيق هذه الغاية، ويبدأ هذا الاكتساب في مرحلة التعليم الابتدائي ويتعزز في الثانوي الإعدادي ليتوطد في مرحلة الثانوي التأهيلي. لهذا يهدف هذا المقال إلى مدّ جسر يربط التربية على القيم بتدريس مكون من مكونات مناهج اللغة العربية، وهو مكون المؤلفات السردية، وهي تربية تنتج بلا شك نحو السلوكات، وتكوين قنوات ذاتية إيجابية إزاءها، وهو بعد هُمل في منهجية تدريس المؤلفات لصالح البعد التحليلي التقني.

**كلمات مفتاحية:** التربية على القيم - المؤلف السردى - الجذع المشترك.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلا، الحسين. (2024، أكتوبر). سؤال القيم في المنهجية المعتمدة في درس المؤلفات - مستوى الجذع المشترك (الآداب والعلوم الإنسانية) - رواية المباعة نموذجاً.. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 756-773.

### Abstract:

This paper comes in the context of marginalizing the value dimension in favor of the cognitive dimension. The lack of prominence of this aspect in the classroom, in light of technological development and the family abandoning its educational function, threatens society with corruption and destruction. Acquiring values is important for the well-being of society and ridding it of corrupt morals, and education on values is an important step towards achieving this goal. This acquisition begins in the primary education stage and is strengthened in the preparatory secondary stage until it is consolidated in the rehabilitative secondary stage. Therefore, this article aims to extend a bridge linking education on values with teaching one of the components of the Arabic language curriculum, which is the component of narrative writings, which is an education that is undoubtedly directed towards behaviors and the formation of positive self-convictions regarding them, which is a marginal dimension in the methodology of teaching writings in favor of the technical analytical dimension.

**Keywords :** Education on values - narrative author - common trunk.

## مقدمة

يتخذ هذا المقال من موضوع القيم التربوية وعلاقتها بتدريس مكون المؤلفات السردية موضوعاً له، وما يؤكد أهمية هذا الموضوع أن الأمر يتعلق بالعملية التعليمية التعلمية داخل الفصل الدراسي، والأنشطة المرتبطة بها، وقد اخترت للاشتغال رواية "المبأة" لمحمد عز الدين التازي، المقررة في التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب، وبالتحديد مستوى الجذع المشترك للأدب والعلوم الإنسانية، وقد أفرزت طبيعة المقال الذي اعتمد البحث والاستقصاء والتحليل، خطة تشتمل خمسة عناوين رئيسية، يتضمن اثنين منها محاور فرعية، وقد حاولت في هذا البحث الإجابة عن جملة من الإشكالات، وتقديم عدة اقتراحات تخضع إدماج التربية على القيم في تدريس المؤلفات السردية، ومن أهم الإشكالات:

- أهمية القيم التربوية، ومدى انسجامها مع الواقع الخارجي للمتعلم وحاجياته ورغباته.
- سؤال حضور أو غياب القيم التربوية في تدريسية المؤلفات السردية.
- الإجراءات الديدكتيكية التي يمكن الأخذ بها في الحصص الدراسية للغة العربية، في المستوى والمكون الدراسي المحدد، وهو الجذع المشترك للأدب والعلوم الإنسانية، من أجل تجاوز الاختلالات الموجودة في جانب القيم المختلفة.

## المحور الأول: مفهوم القيم وأنواعها وأهميتها

## أولاً. مفهوم القيمة في اللغة والاصطلاح:

مفهوم القيم هو من المفاهيم التي انتقلت من مجال المال والاقتصاد إلى الفلسفة التي خصصت لها مبحثاً سمته بـ "الأكسيولوجيا"، وربطت فيه القيم بالخير والحق والجمال<sup>1</sup>. والقيم في اللغة جمع قيمة، وهي من الجذر اللغوي "ق و م"، "وقام الشيء، واستقام: اعتدل واستوى"<sup>2</sup>، ويعني أيضاً انتصب، كما "ترتبط هذه القيمة حكماً وتقييماً بالأفعال البشرية والتصرفات الإنسانية بشكل ذاتي وموضوعي"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup>. جميل الحمداوي. مقال "منظومة القيم في مقررات التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب"، نشر في 23 مايو 2008، موقع ديوان العرب، الأرباء 11 يونيو 2014.

<sup>2</sup>. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي "المحكم والمحيط الأعظم"، دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة الأولى. 2000م، ج 6 / ص 590.

<sup>3</sup>. مقال "منظومة القيم في مقررات التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب".



وقد حظيت القيم باهتمام الباحثين، وقد عرف ميلتون روكنتش القيمة بأنها "عبارة عن اعتقاد يحضى بالدوام، ويعبر عن تفضيل شخصي أو اجتماعي لغاية من غايات الوجود الإنساني، وليس لنمط سلوكي أو غاية أخرى مختلفة" <sup>1</sup>.

أما كلو كوهون فيعرفها بأنها "مفهوم مرغوب قد يكون معبرا عنه أو خفي يميز فردا أو مجموعة من الأفراد، ويؤثر على اختيار الوسائل والغايات انطلاقا من الأساليب الممكنة" <sup>2</sup>.

ويعرف الدكتور خالد الصمدي القيم بأنها "معايير عقلية من حيث كونها مبنية على فكر واقتناع وليس على الإجبار والقهر، وهي وجدانية باعتبار المحل فتتغذى منه فيتحفز إليها الإنسان بوجوده، والقيم تمكن صاحبها من الاختيار الواعي لنشاط إنساني بإرادة حرة" <sup>3</sup>.

وبناء على ذلك، فالقيم تمثل السلوكيات المقبولة لدى الفرد، لذلك فهي قواعد للسلوك التربوي، وإطار مرجعي للسلوك الخارجي للفرد، ومساعد للإنسان على بناء حياته، وتكوين علاقاته، وتطوير مجتمعه.

### ثانيا. أنواع القيم:

تصنف القيم بناء على اعتبارات وأسس مختلفة، فيمكن تصنيفها بحسب المضمون أو الهدف أو خصائصها من حيث الثبات والتغير، وسيقتصر الحديث على أهم هذه التصنيفات.

حيث صنف خالد الصمدي القيم إلى أربعة أصناف <sup>4</sup>:

- القيم الذاتية: وهي الاقتناعات الفردية للشخص التي تضبط علاقاته بخالقه وبنفسه، مثل قيمة: الإيمان والتقوى والخوف من الله والخشوع.

- القيم الاجتماعية: وهي القيم التي تطبع سلوك الفرد في علاقاته العامة، ولا يتصور وجودها إلا من خلال التفاعل مع الغير، ومن ذلك قيم الصبر، والكرم، والعفو، والرحمة، والصدق، والحب، والأمانة، وغيرها من القيم التي تنبغي أن تطبع السلوك الجمعي.

<sup>1</sup> محمد الدريج "التدريس الهادف، 1. مساهمة في التأسيس العلمي لنموذج التدريس بالأهداف التربوية"، من إصدارات كلية علوم التربية. جامعة محمد الخامس الرباط. 1991م، ص 153.

<sup>2</sup> محمد أوزي "المعجم الموسوعي لعلوم التربية"، مطبعة النجاح. الدار البيضاء، الطبعة الأولى. 2006م. ص 252.

<sup>3</sup> خالد الصمدي "القيم الإسلامية في المنظومة التربوية دراسة للقيم الإسلامية وآليات تعزيزها"، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. 2008م، ص 18.

<sup>4</sup> نفسه، ص 38، 39.

- القيم الوطنية: وهي القيم التي تتسع دائرتها لتتجاوز العلاقات الاجتماعية إلى الإحساس بالقواسم المشتركة التي تجمع الجماعات المتباعدة، وتتجلى هذه القواسم المعنوية المشتركة في اللغة والدين والانتماء العرقي والرصيد التاريخي والانتماء الجغرافي، ومن ذلك قيم: حب الوطن. الافتخار بالمقومات الحضارية للأمة، والغيرة على اللغة والدين.

- القيم الإنسانية: هي القيم التي تتجاوز العلاقات الاجتماعية والخصوصيات الحضارية لشعب من الشعوب لتتفتح على البعد الكوني، ويشترك فيها كل الناس بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والدينية والحضارية، كالعدل والمساواة والتسامح والسلام. وقد تقسم إلى فئات<sup>1</sup>:

- القيم الخاصة: وهي تندرج ضمن الصفات الأساسية للفرد، كالصدق والفضيلة.

- القيم الاجتماعية: وهي ترتبط بحقوق الجماعات والمجتمع، كالمساواة، والحرية.

- القيم السياسية: وهي تتمحور حول القنوات بشأن أفضل طرق تدبير وتسيير البلاد، مثل الديمقراطية والمشاركة والمسؤولية المدنية.

- القيم الاقتصادية: وهي التي تدخل ضمن الجانب الاقتصادي، مثل حق الملكية والمنافسة.

- القيم الدينية والعقائدية: وهي تشمل جانبا روحيا يتمثل في الإيمان والعبادات.

### ثالثا. أهمية القيم في التربية:

لا شك بأن التربية، ككل، تواجه اليوم في كثير من المجتمعات والشعوب تحديات خطيرة، أخطرها ما يرتبط بالعمولة، وما يرافقها من مشكلات اقتصادية وثقافية، واجتماعية، وفكرية.

أما التربية على القيم فتجد تفسيرها وأهميتها في السياقات التربوية، وفي الأدوار التي تضطلع عليها في المدرسة المغربية، وهي أدوار تتوسع وتغتنى بسبب التغيرات السياسية والاجتماعية في زمن يشهد انفجارا معرفيا هائلا، وكان نتيجة ذلك تقوي ظواهر و بروز أخرى، كتصاعد حدة العنف والتطرف والكراهية والتعصب، وارتفاع معدلات البطالة، وتردي القيم الأخلاقية وغير ذلك.

<sup>1</sup>. عبد الكريم غريب "مستجدات التربية والتكوين"، منشورات عالم التربية، ص 391.

فالمدرسة ليست جزيرة نائية أو قرية معزولة عن محيطها، بل هي مؤسسة مؤثرة في المجتمع، ومتأثرة بما يجري حولها، لذلك أصبحت القيم ذات دور ضروري في الحفاظ على المجتمع وتماسكه، بحيث يندمج فيه الأفراد بشكل إيجابي، وتنتشر فيه قيم الفضيلة والعدل وغيرها، "وبالتالي فإن أي اختلال يصيب القيم ينعكس حتما على السلامة المأمولة للأفراد وللمجتمع بصفة عامة"<sup>1</sup>.

وقد أكد على أن النظام التربوي بالمغرب يجب أن يتأصل في التراث الحضاري والثقافي بتنوع روافده، فيستهدف بما يحمله من قيم خلقية وثقافية ضمان إشعاع متواصل<sup>2</sup>.

وهو نظام يستمد هذه القيم من مبادئ العقيدة الإسلامية، وحب الوطن، والتمسك بالملكية الدستورية، وقيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية العالمية<sup>3</sup>.

### المحور الثاني: مكانة القيم في المرجعيات التربوية والإصلاحات بالمغرب

في مطلع الألفية الثالثة تبنت الدولة في ظل الظروف السابقة، بالإضافة إلى تردي الوضع التربوي التعليمي في بلادنا، نهجا تربويا حديثا كانت ثمرته الأولى التوافق بتوجهات ملكية سامية على ميثاق وطني منظم ومؤطر للتربية والتكوين، وقد احتلت فيه القيم مكانة خاصة، حيث يؤكد هذا الميثاق بشكل واضح على أن نظام التربية والتكوين للمملكة المغربية يهتدي "بمبادئ العقيدة الإسلامية وقيمها الرامية لتكوين المواطن المتصف بالاستقامة والصلاح، المتسم بالاعتدال والتسامح، الشغوف بطلب العلم والمعرفة...، والمطبوع بروح المبادرة الإيجابية والإنتاج النافع"<sup>4</sup>.

وبالرجوع إلى الميثاق الوطني للتربية والتكوين تتضح لنا الأهمية الكبرى والمكانة المهمة التي تشغلها التربية على القيم في التعليم، ولعل لتلك المكانة دورها في جعل التربية تحتل بداية القسم الأول في نص الميثاق، وهو القسم الذي يتضح من خلاله أن الميثاق يسعى إلى بناء تصور متكامل لغايات المنظومة التربوية، وذلك من خلال الاهتمام بمبادئ العقيدة الإسلامية والالتحام بالكيان العريق للمملكة "القائم على ثوابت ومقدسات يجليها الإيمان بالله وحب الوطن والتمسك بالملكية

<sup>1</sup>. عبد الكريم غريب "مستجدات التربية والتكوين"، مرجع سابق، ص 382.

<sup>2</sup>. "الميثاق الوطني للتربية والتكوين" عن اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين. وزارة التربية الوطنية، ص 9.

<sup>3</sup>. "الكتاب الأبيض" ج 1 (الاختيارات والتوجهات التربوية العامة المعتمدة في مراجعة المناهج التربوية) عن لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية. وزارة التربية الوطنية، ص 11.

<sup>4</sup>. الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ص 9.

الدستورية"<sup>1</sup>، والتشبع "بالرغبة في المشاركة الإيجابية في الشأن العام والخاص، وهم واعون أتم الوعي بواجباتهم وحقوقهم، متمكنون من التواصل باللغة العربية، لغة البلاد الرسمية، تعبيرا وكتابة، منفتحون على اللغات الأكثر انتشارا في العالم، متشبعون بروح الحوار، وقبول الاختلاف، وتبني الممارسة الديمقراطية في ظل دولة الحق والقانون."<sup>2</sup>

ولقد نادى الميثاق بجعل التربية على القيم الديمقراطية والمواطنة الفاعلة، وفضائل السلوك المدني، خيارا استراتيجيا لا محيد عنه<sup>3</sup>.

وبناء على ما سبق فقد حدد الميثاق الوطني للتربية والتكوين أربع ركائز للقيم هي :

- قيم العقيدة الإسلامية.

- قيم الهوية الحضارية.

- قيم المواطنة.

- قيم حقوق الإنسان.

وبعد سنتين تقريبا أكد الكتاب الأبيض، وخاصة في جزئه الأول عل أهمية تلك القيم على اعتبار أن نظام التربية والتكوين يخضع " للحاجات المتجددة للمجتمع المغربي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي من جهة، وللحاجات الشخصية الدينية والروحية للمتعلمين من جهة أخرى "<sup>4</sup>.

ويشكل الكتاب الأبيض تكملة وتوسعة لما ورد في الميثاق الوطني من الكفايات والقيم المستهدفة والتوجهات العامة لمنظومة التربية والتكوين الجديدة، وقد اعتمد فيه على ثلاثة مداخل تستهدف مراجعة مناهج التربية والتكوين، وتفعيل مجموعة من الاختيارات والأهداف والمرامي، وهذه المداخل هي<sup>5</sup>:

- التربية على القيم.

<sup>1</sup>. الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ص 7.

<sup>2</sup>. نفسه، وعينها.

<sup>3</sup>. "رؤية استراتيجية للإصلاح 2015. 2030" عن المجلس الأعلى للتربية والتكوين، ص 55.

<sup>4</sup>. "الكتاب الأبيض" ج 1. ص 11.

<sup>5</sup>. نفسه وعينه، ص 11.

- تطوير الكفايات التربوية.

- التربية على الاختيار.

وانطلاقاً من القيم التي وردت في الميثاق الوطني، ذكر الكتابُ الأبيض الغايات العامة المتوخاة، إضافة إلى الأهداف والحاجيات الخاصة المرتبطة بالمتعلمين<sup>1</sup>، أهمها<sup>2</sup>:

- ترسيخ الهوية المغربية الحضارية.

- تكريس حب الوطن، وتعزيز الرغبة في خدمته.

- التشبع بروح الحوار، والتسامح، وقبول الاختلاف.

ونجد لهذه القيم والمقاييس الاجتماعية حضوراً ضمن مواصفات التلاميذ في كل الأسلاك والأقطاب التعليمية<sup>3</sup>، فمن المواصفات المرتبطة بالقيم والمقاييس الاجتماعية في نهاية التعليم الابتدائي، مثلاً، نجد جعل المتعلم:

- متشبثاً بالقيم الدينية والخلقية والوطنية والإنسانية.

- متشبعاً بروح التضامن والتسامح والنزاهة<sup>4</sup>.

والملاحظ بأننا نجد تحديداً دقيقاً وتفصيلاً للقيم والمواصفات الاجتماعية المتوخاة في المتعلمين إلى غاية نهاية السلك الثانوي، والشأن نفسه نجده في "التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي"<sup>5</sup>، حيث نجد بأنه لم يبدل الجهد لتنزيل القيم والأهداف الوجدانية بشكل يجعلها قابلة للملاحظة والمراقبة والضبط، فقد صيغت هذه الأهداف بشكل عام ومجرد.

وفي إطار تفعيل الميثاق الوطني للتربية والتكوين، والهوض بالمنظومة التربوية في بلادنا أصدرت وزارة التربية الوطنية مذكرات تنظيمية، سعت إلى تقوية وتطوير مختلف المداخل

<sup>1</sup> نفسه وعينه، ص 11. 12.

<sup>2</sup> نفسه وعينه، ص 12.

<sup>3</sup> نفسه وعينه، ص 21. 25. 29.

<sup>4</sup> نفسه وعينه، ص 21.

<sup>5</sup> "التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي" عن مديرية المناهج. وزارة التربية الوطنية،

2007 نونبر. الرباط، ص 5.

والاختيارات، ومنها مدخل التربية على القيم، وهذه بعض المذكرات التي تصب في هذا الجانب القيمي:

- المذكرة الوزارية رقم 117 الصادرة بتاريخ 25 أكتوبر 2002م، وذلك في موضوع "تعميم منهاج التربية على حقوق الإنسان"، وتؤكد على أن كفاية حقوق الإنسان هي من ضمن الكفايات الأساسية الهامة التي ينبغي تحقيقها في الدروس.

- المذكرة الوزارية رقم 87 الصادرة بتاريخ 20 يوليوز 2004م، والتي تدعو إلى تفعيل أدار الحياة المدرسية من خلال توجيهات أولها تثبيت القيم الأساسية لدى التلميذ.

- المذكرة رقم 88 المتعلقة بإرساء هياكل مرصد القيم، وهي مذكرة موجهة إلى مديري الأكاديميات الجهوية للتربية والتكوين، من أجل إدماج المبادئ والقيم في المناهج التربوية والتكوينية.

ولقد نصت الرؤية الاستراتيجية 2015.2030، في الرافعة الثامنة عشر على ضرورة "ترسيخ مجتمع المواطنة والديمقراطية والمساواة" على مدخل القيم، وقد سجل بأنه رغم الاهتمام الذي أولته المدرسة المغربية للقيم وحقوق الإنسان والمواطنة، استمرت السلوكات السلبية في الانتشار، كالغش والعنف والإضرار بالبيئة، وبالمملك العام داخل المؤسسات التعليمية ومحيطها<sup>1</sup>.

**المحور الثالث: أهمية القيم في منهاج اللغة العربية للجذع المشترك للأدب والعلوم الإنسانية**

يقول صاحب الجلالة:

"إن غايتنا تكوين مواطن صالح، قادر على اكتساب المعارف والمهارات مشبع في نفس الوقت بهويته التي تجعله فخورا بانتمائه، مدركا لحقوقه وواجباته، عارفا بالشأن المحلي والتزاماته الوطنية..."<sup>2</sup>

<sup>1</sup>. "رؤية استراتيجية للإصلاح 2015.2030"، ص 55.

<sup>2</sup>. الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مقتطفات من الخطاب السامي في بداية الميثاق.

وتعتبر مكونات منهاج اللغة العربية مجالا خصبا لتفعيل وتعزيز الاختيارات والتوجهات التربوية المرتبطة بالقيم، من خلال استدماجها وترسيخها في نفوس المتعلمين فكرا ومعرفة وممارسة عبر نصوص ووضوعات حقيقية أو مستمدة من واقع الحياة اليومية للمتعلمين<sup>1</sup>.

وإذا كان المنهاج الدراسي للغة العربية، ركز على مبدأ أساسي وهو تنزيل وترجمة المرامي والأهداف الكبرى والعامة إلى سلوكات قابلة للملاحظة، ومن ضمن هذه الأهداف نجد أهدافا ذات طبيعة قيمة سلوكية، مثل<sup>2</sup>:

- تعزيز قيم الثقة بالنفس، وقيم التففتح واحترام الآخر.
- تعزيز قيم الانتماء الوطني، مع الانفتاح على القيم الإنسانية الإيجابية (الحرية . الديمقراطية. حقوق الإنسان).
- تعزيز المواقف والميول الإيجابية.

فإنه على المستوى اليداكتيكي يتم تهميش هذا الجانب لصالح المجال المعرفي والعقلي، بمعنى أن طرق التدريس تولي أهمية قصوى للجانب المعرفي أكثر من الجانب القيمي، وتهدف تزويد التلاميذ بالمنهجيات والمنظورات القرائية أكثر من الاعتناء بتكوين المواقف والاتجاهات، وهذا يتناقض مع الأهداف التربوية والتعليمية لبلادنا، والتي أكد صاحب الجلالة في خطابه السامي، وهو الخطاب الذي يمكن اعتباره انطلاقة لبداية الإصلاحات التربوية الجادة في بلادنا في الألفية الثالثة.

حيث نجد في منهاج اللغة العربية بالثانوي التأهيلي، حديثا عن كفايات تمثل قيما<sup>3</sup>، وتهدف إلى تعزيز قيم الحرية والمساواة وحقوق الطفل وحقوق المرأة والتفتح والحوار والتسامح لدى المتعلم عن طريق استثمار الحملات التي تزخر بها النصوص القرائية المختارة.

إضافة إلى تعميق تجربة التلميذ بالاستفادة من التجارب الإنسانية المتنوعة التي تتضمنها النصوص الحكائية أو الحجاجية أو الشعرية العمودية والحديثة، وتقوية روح الانفتاح، وتعزيز القدرة على المبادرة الذاتية والجرأة على اتخاذ القرار والموقف.

<sup>1</sup>. عبد الرحمان التومي "الجامع في ديداكتيك اللغة العربية مفاهيم، منهجيات ومقاربات بيداغوجية"، مطبعة المعارف الجديدة.

الرباط، الطبعة الثانية. 2016، ص 76.

<sup>2</sup>. "التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي"، ص 15.

<sup>3</sup>. كتاب "النجاح في اللغة العربية. الجذع المشترك للتعليم الأصلي وجذع الآداب والعلوم الإنسانية" مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. طبعة 2017، ص 131.91.55.5.

ويمكن تقسيم هذه القيم إلى: قيم عالمية خاصة، مثل الحرية والمساواة، وحقوق عامة مثل حقوق المرأة والطفل، و مهارات حياتية، مثل التففتح والحوار .

المحور الرابع: حضور القيم في تدريس المؤلفات في مستوى الجذع المشترك الأدبي من خلال رواية "المباءة"

أولا. سؤال القيم ضمن منهجية تدريس المؤلفات في التوجيهات الرسمية

ترتكز منهجية تدريس المؤلف السردى في الثانوى التأهيلي، ومنه مستوى الجذع المشترك للآداب والعلوم الإنسانية، على الشمولية في القراءة، والبعد الاستقصائي في الدراسة، وهي لذلك تغلب الجانب المنهجي المرتبط بالخطوات المنهجية وما تنتجه من معارف، وتقصى الأبعاد القيمية المختلفة.

ولعل ما جعل هذا الدرس يحضر في المنهاج الدراسي ارتباطه وأهميته في حياة المتعلمين، حيث يمكنهم من الوعي بالعالم، وبالدوافع المحركة للتاريخ والبشرية من خلال تعرفهم على نماذج إنسانية مختلفة، وبذلك فهو يحمل المتعلم على الاستقلال بشخصيته، ومن أدواره التربوية أيضا إغناء وإثراء معجمه اللغوي، وزيادة تبصره بطرق التعبير والإبداع والإنتاج عن الذات والمحيط<sup>1</sup>. ويقوم تدريس المؤلفات السردية في التوجيهات الرسمية على أدوار بيداغوجية وأسس ديداكتيكية، ذلك لأن تدريسها يسعى "إلى تمكين المتعلمين من قراءة المؤلفات الكاملة، واكتساب الآليات المنهجية للقراءة الذاتية التي تتجاوز الانطباعات العامة، لتبلغ مستوى القراءة النقدية المسائلة"<sup>2</sup>، و "تنمية الكفاية القرائية وتنمية المكتسبات المهارية القبلية وتعزيزها"<sup>3</sup>.

وأما عن منهجية تدريس هذا المكون فتنبني عل مقترحات فيالا وشميت في كتابهما القيم "Savoir lire" (معرفة القراءة) 4، وتقوم على مراحل:

المرحلة التوجيهية: ويتم فيها تقديم المؤلف بالوقوف عند نوعه الأدبي، والتعريف بصاحبه مع الاختصار عل ما له علاقة وظيفية بالمؤلف، و دواعي كتابته.

<sup>1</sup> مجموعة من الأساتذة "القراءة المنهجية للمؤلفات الروائية بالتعليم الثانوي التأهيلي. الجذع المشترك"، الطبعة الأولى. 2006م، ص 4.3.

<sup>2</sup> "التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي"، ص 20.

<sup>3</sup> نفسه، ص 34.

<sup>4</sup> عبد الرحيم كلموني "مدخل إلى القراءة المنهجية للنصوص من أجل كفايات قرائية بالتعليم الثانوي"، منشورات صدى التضامن. طبعة 2006م، ص 107. 108.



المرحلة التحليلية: وتقوم على الاشتغال بالمنظورات الستة : تتبع الحدث . القوى الفاعلة . البعد النفسي . البعد الاجتماعي والتاريخي . الأسلوب . البنية .

المرحلة التركيبية: وترتكز على توظيف مهارتي التركيب والتقويم، أي النظر إلى مكونات العمل السردية ككل وقيمتها الأدبية، وإصدار الحكم النقدي العام عليه.

والملاحظ أن هذه الخطوات والمراحل تغلب الجانب التقني التحليلي، ولا يحضر فيها المتعلم إلا كمحلل متفاعل، في حين يغيب الجانب الانفعالي التأثري الذي يشكل نفسية المتعلم، وقناعاته التي، من المتوقع، أن يخرج بها إلى العالم الخارجي.

وقد أشار تزفيتان طودوروف إلى طغيان هذا الجانب التقني على الجانب القيمي المرتبط بفهم الإنسان والعالم في التعليم الثانوي<sup>1</sup> لأن هذا الأخير مطالب بتدريس الأدب، وليس الدراسات الأدبية<sup>2</sup>، ورغم أن الناقد يتحدث عن التعليم الفرنسي إلا أن هناك ارتباط بين كلامه والمنهاج الخاص بتدريس النص الأدبي، الطويل والقصير، في المدرسة المغربية، لأن التعليم المغربي استفاد في القراءة المنهجية للنصوص من المنهاج الفرنسي<sup>3</sup>.

صحيح أن المتعلم يحقق في هذه القراءة ذاتيته، من خلال إظهار قدرات وسلوكات مثل التعبير عن الرأي، والقدرة على المبادرة الذاتية، والانفتاح على التجارب الإنسانية المتنوعة، وهي كلها قيم مهمة، ولكن ذلك يبقى غير كاف، وضعيفا جدا مقارنة مع ما يهدف إليه النظام التعليمي، في جانب القيم المختلفة، وما تنص عليه التوجيهات الرسمية، وما يحتاج إليه المتعلم في واقعه.

#### ثانيا. رواية المباءة:

رواية "المباءة" من أعمال الكاتب المغربي محمد عز الدين التازي، وهو كاتب وروائي مغربي، من مواليد سنة 1948م، وتركز هذه الرواية على شخصية قاسم الورداني الذي عمل مديرا لسجن عين قدوس بفاس قبل جنونه، وقاسم معيل أسرة تتكون من زوجته رقية، وابنته منيرة، وولده

<sup>1</sup> تزفيتان طودوروف "الأدب في خطر"، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر. الدار البيضاء، الطبعة الأولى. 2007م، ص 15.

<sup>2</sup> نفسه، ص 20.

<sup>3</sup> "مدخل إلى القراءة المنهجية للنصوص من أجل كفايات قرآنية بالتعليم الثانوي"، ص 11، 12.

منير، وقد كره هذا الأخير وظيفة والده، وطالبه بالاستقالة، كما كره سكنه في السجن، وتعرض بسبب انتماءاته الفكرية والدينية للتعذيب والاختطاف، ليعود إلى البيت شبح إنسان مشلول، أما قاسم فيذهب إلى الرباط ليحضر اجتماعا، قبل أن تصيبه نوبة جنونية، هامَ بسببها عاريا في شوارع الرباط، وهو يحمل بين ضلوعه هموم أسرته.

ويدخل بعد ذلك إلى ضريح بالمدينة، حيث زاوية سيدي علي بوغالب، لينضم إلى عالم الموتى، ينقش شواهد الموتى والراجلين إلى عالم الفناء، وتمضي أحداث الرواية تصور لنا عالم قاسم الورداني الجديد، ويجتاح الوباء فاس، فيخرج قاسم ليتجول في شوارعها وأحيائها، وفي الأخير يلتقي بابنته منيرة وزوجته رقية، وبهذا اللقاء تنتهي أحداث الرواية.

### ثالثا. مقترحات ديداكتيكية لإدماج الأبعاد القيمية في تدريسية المؤلفات السردية:

يشكل الحكى مادة أساسية في حياة الإنسان والمجتمعات، فهو جزء لا يتجزأ من الثقافات المختلفة، وقد وظفت هذه التقنية في أشكال نثرية قصيرة أو طويلة تحكي أحداثا، وتقوم على تقنيات وعناصر، مثل: الشخصيات، والزمان والمكان.

وهذه الأشكال إما أن تتخذ شكل حكي قائم على السرد كالقصص والروايات وغيرها، أو شكلا قائما على العرض، ويتمثل أساسا في المسرحية، وهي ما يطلق بالمؤلفات السردية، ومن هذه المؤلفات رواية المباءة لعز الدين التازي التي تضمنها برنامج اللغة العربية لمستوى الجذع المشترك للآداب والعلوم الإنسانية.

وإذا كانت الرواية عموما تسعى لأن تمثل الحقيقة، وتعكس مواقف الإنسان من الظواهر والوقائع، وتجسد ما في العالم<sup>1</sup>، فإن الحاجة إلى معالجة موضوع القيم، حاجة أساسية خاصة إذا تعلق الأمر بتدخل عنصر ثالث وهو المتعلم (التلميذ)، الذي يمثل محور العملية التعليمية التعلمية، وما يتحكم فيه من قنوات وظروف واحتياجات.

ويمكننا القول في البداية أن تدخل آلية التوجيه القيمي سيكون بارزا في مرحلة القراءة التحليلية، وخاصة في المحاور المتعلقة بالأحداث والبعدين النفسي والاجتماعي والتاريخي، ففي هذه المحاور تظهر السلوكات والمواقف التي يجب أن تدفع المدرّس إلى مناقشتها مع المتعلمين من أجل بناء شخصية سوية إيجابية.

<sup>1</sup> .عبد المالك مرتاض " في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد"، مجلة عالم المعرفة، ديسمبر 1998، ص 12.

فرواية "المباءة" تبرز مواقف وأحداثا متخيلة لا بأس بتنوعها وعددها، تحتاج إلى هذا التدخل التوجيهي القيمي، أبرزها<sup>1</sup>:

- الإيمان بالكرامة، وزيارة الولي في الليل، وتقديم البركة (ص 49. 50).
- استغلال النساء والضعفاء في الأضرحة (ص 50. 51).
- إقامة حفل الختان في الأضرحة، طلبا للبركة، وطمعا في مساعدة الشرفاء والمحسنين (ص 65. 66. 67).
- اختفاء القطط في يوم عيد الأضحى هروبا من منظر الدم (ص 66).
- الإيمان بخروج السيد الولي من القبر ليبارك الأطفال، وجلود بكارتهم (ص 68).
- مقاومة الأب قاسم للمستعمر الأجنبي (ص 77).
- تدخين منير (82).
- مباغته منير لوالده بسكين (ص 96).
- انتماء منير إلى اليساريين، ثم بعد ذلك إلى الإخوان (ص 98).
- خرج الجنية "عيشة قنديشة" في حلم قاسم (ص 103. 104).
- ذبح الأضاحي في القبور (ص 136).

وقبل تقديم بعض المقترحات المتعلقة بإدماج البعد القيمي في دراسة المؤلفات، نلاحظ أن الرواية تعكس واقعا خارجيا موجودا بقيمه واتجاهاته الصالحة والطالحة، أي أنه تمثيل لواقع كائن، لذلك لا بد من التذكير بما جاء في التوجيهات التربوية وبرامج اللغة العربية الخاصة بالجدع المشترك للآداب والعلوم الإنسانية من أن الخطوات المقترحة في تدريس المؤلفات " لا تلغي اجتهادات الأساتذة ومقترحاتهم لتطوير درس المؤلفات "<sup>2</sup>.

ومن هذا المنطلق وبغية تطوير هذا الدرس لكي يتوافق مع المرجعيات التربوية، والأهداف والكفايات المتوخاة، ينبغي الاهتمام لجانب ميول المتعلمين وآرائهم، من خلال ما يلي:

<sup>1</sup>. محمد عز الدين التازي "المباءة"، مكتبة الأمة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء، طبعة 2012.

<sup>2</sup>. "التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي"، ص 19.

- أنشطة مرتبطة بالقيم مندمجة أثناء الحصص الدراسية، أو في نهايتها كتركيب أو كخلاصة للحصّة.

ومن الأنشطة المقترحة:

- استخراج السلوكات السلبية وطرح البدائل .
- طلب اختيار القبول بالموقف أو رفضه .
- تحليل الموقف، وطلب المواقف الخاصة بالمتعلمين. التنشيط والتفاعل مع المواقف....
- مناقشة الظواهر أو الأحداث التي يمكنه إبداء الرأي فيها من أجل تفادي السلوكات السلبية، مثل ذبح الأضاحي عند الأضرحة، والإيمان بخروج الولي صاحب الضريح.
- إعادة صياغة مراحل الحصّة الدراسية، ويمكن تقسيمها إلى: التقييم التشخيصي أو التقديم. التحليل. التركيب. التقييم والتربية على القيم.
- بناء صنافه للقيم خاصة بكل مؤلف سردي تمثل الأهداف والقيم المطلوب إكسابها وتعزيزها، وفي حالة المباءة تبرز قيم: الإيمان بالله. حب الوطن. الاعتدال. التسامح. إعمال العقل والتفكير النقدي .
- إعادة النظر في طريقة صياغة الاختبارات والتقييمات، لأن التقييم عملية متكاملة ومتنوعة وهادفة، وشاملة تمتد إلى جميع الأهداف المنشودة<sup>1</sup>، ومنها الأهداف المرتبطة بالقيم، من خلال تنويع مجالات الأنشطة الاختبارية أو التقييمية، من مجال معرفي ومنهجي وقيمي وجداني وغيرها.
- فإذا كانت منهجية اختبار درس المؤلفات (السردية) تهدف حسب الأطر المرجعية المتعلقة باختبارات الامتحان الوطني الموحد للبكالوريا إلى قدرات، وهي<sup>2</sup>:

<sup>1</sup> . محمود داود الربيعي "المناهج التربوية المعاصرة"، دار صفاء للنشر والتوزيع. عمان، الطبعة الأولى. 2016م، ص 257. 258.

<sup>2</sup> . "الأطر المرجعية لاختبارات الامتحان الوطني الموحد للبكالوريا. 2022. الإطار المرجعي لمادة اللغة العربية وأدائها شعبة الآداب والعلوم الإنسانية" المركز الوطني للتقويم والامتحانات. 2022، ص 8.

- وضع المؤلف في سياقه العام.
  - تحديد موقع المقطع ضمن مسار الأحداث.
  - تحليل المطلوب.
  - تركيب المعطيات لإبراز قيمة المؤلف، وإبداء الرأي الشخصي وتعليقه.
- فإننا في حالة الجذع المشترك، يمكن تكيف هذه المنهجية مع هذا المستوى، من خلال الاستئناس ببعض القدرات مثل تحديد موقع المقطع ضمن الأحداث السردية، وتحليل المطلوب، مع سؤال مرتبط بتعزيز القيم، من خلال إبداء الرأي الشخصي في فعل شخصية من شخصيات المؤلف، أو ظاهرة من ظواهره، وتعليل هذا الرأي، مع ضرورة ضبط الحدود الكيفية والكمية لهذا الرأي، لكي لا تكون الإجابة نمطية، أو غير معززة للقيم الإيجابية.
- تكليف مجموعة معينة من المتعلمين، بعروض وأعمال تركز على الجانب القيمي من خلال إبداء الرأي في أفعال شخصيات المؤلف السردية ومواقفهم، والظواهر البارزة فيه، بالاستحسان أو الاستهجان، مع تعليل آرائهم بأدلة مقنعة متنوعة: منطقية - واقعية - دينية - استشهادات - إحصائيات، وغيرها، وتكيف هذه العروض مع الجدول الزمني للوحدة، ومراحل الدرس، وفق جذادة مدمجة للبعد القيمي.
- ويمكن أن يتم الأمر باختيار المعنيين بهذه العروض بشكل محدد ومدرّس، بناءً على تشخيصات قيمية يقوم بها المدرّس للمتعلمين، أو من خلال ملاحظاته لسلوكياتهم أثناء الممارسات الصفية المتنوعة، أو ما تظهره النتائج السلوكية للمتعلمين خارج الفصل الدراسي، بالتعاون مع الإدارة التربوية، أو مع مدرسي الأقسام المعنية.

## خاتمة

ختاماً يمكن الخلوصل إلى:

- أن إدماج البعد القيمي في دراسة المؤلفات السردية، تم تهميشه لصالح البعد التحليلي الداخلي، وهو أمر يتناقض مع التوجهات التربوية الخاصة بتدريس مكونات اللغة العربية، والتي تنص على وجوب تنوع الأهداف والكفايات المستهدفة، ومنها تعزيز الميولات الإيجابية، وترسيخ القيم الدينية، والوطنية، والحضارية، وغيرها.

■ هذا الخلل يهدد تكاملية العملية التعليمية، وقد تم تقديم مجموعة من الاقتراحات الديدانكيتيكية لتجاوز هذا التهميش، وفي الوقت نفسه تمكين المدرّس من تدخل ناجع وناجح من أجل تحسين سلوكات المتعلمين، الذي يشكل جزءا من العملية التربوية المتكاملة في أهدافها ومراحلها، ومنها: إعادة النظر في مراحل درس المؤلفات السردية بغية استدماج التربية على القيم، وإدراج أنشطة ملائمة لذلك من مناقشات واستطرادات وعروض متنوعة ومقصودة، إضافة إلى تحديد القيم المستهدفة في كل مؤلف سردي.

## لائحة المصادر والمراجع

- أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المراسي "المحكم والمحيط الأعظم"، دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة الأولى. 2000م.
- تزفيتان طودوروف "الأدب في خطر"، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى. 2007م.
- جميل الحمداوي، مقال "منظومة القيم في مقررات التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب"، نشر في 23 مايو 2008، موقع ديوان العرب، الأربعاء 11 يونيو 2014.
- خالد الصمدي، "القيم الإسلامية في المنظومة التربوية دراسة للقيم الإسلامية وآليات تعزيزها" منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. 2008م.
- عبد الرحمان التومي "الجامع في ديداكتيك اللغة العربية مفاهيم، منهجيات ومقاربات بيداغوجية"، مطبعة المعارف الجديدة. الرباط، الطبعة الثانية. 2016.
- عبد الرحيم كلموني "مدخل إلى القراءة المنهجية للنصوص من أجل كفايات قرائية بالتعليم الثانوي"، منشورات صدى التضامن. طبعة 2006م.
- عبد الكريم غريب "مستجدات التربية والتكوين"، منشورات عالم التربية.
- عبد المالك مرتاض "في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد"، مجلة عالم المعرفة، ديسمبر 1998م.
- لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية. وزارة التربية الوطنية "الكتاب الأبيض"، ج 1 (الاختيارات والتوجيهات التربوية العامة المعتمدة في مراجعة المناهج التربوية).
- اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين. وزارة التربية الوطنية: "الميثاق الوطني للتربية والتكوين".
- مجموعة من الأساتذة "القراءة المنهجية للمؤلفات الروائية بالتعليم الثانوي التأهيلي". الجذع المشترك"، الطبعة الأولى. 2006م.

- محمد أوزي "المعجم الموسوعي لعلوم التربية"، مطبعة النجاح . الدار البيضاء، الطبعة الأولى. 2006م.
- محمد الدريج "التدريس الهادف، 1 . مساهمة في التأسيس العلمي لنموذج التدريس بالأهداف التربوية"، من إصدارات كلية علوم التربية . جامعة محمد الخامس الرباط . 1991م.
- محمد عز الدين التازي "المبأة"، مكتبة الأمة للنشر والتوزيع . الدار البيضاء، طبعة 2012م.
- المجلس الأعلى للتربية والتكوين "رؤية استراتيجية للإصلاح 2015. 2030".
- محمود داود الربيعي "المناهج التربوية المعاصرة"، دار صفاء للنشر والتوزيع. عمان، الطبعة الأولى. 2016م.
- مديرية المناهج . وزارة التربية الوطنية: "التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي " 2007 نونبر / الرباط.
- "الأطر المرجعية لاختبارات الامتحان الوطني الموحد للبكالوريا . 2022 الإطار المرجعي لمادة اللغة العربية وآدابها شعبة الآداب والعلوم الإنسانية" المركز الوطني للتقويم والامتحانات. 2022م.
- كتاب " النجاح في اللغة العربية . الجذع المشترك للتعليم الأصيل وجذع الآداب والعلوم الإنسانية" مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. طبعة 2017.



## المحور الخامس:

# دراسات شرعية

## أثر البعد المقاصدي

## للتربية العقدية في الأمن النفسي للإنسان المعاصر

الدكتور عبد العزيز انميرات

أستاذ الفكر الإسلامي والعلوم الإنسانية  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس  
المغرب

## ملخص:

من الحقائق التي لا يختلف حولها اثنان، أن الإنسان المعاصر يعيش حالة من الارتباك والتهيه، كما الكثير من الأمراض النفسية والاعترا ب الروحي الذي أفقده الكثير من الصفات والخصائص التي بها يتصف بالأدمية ويُخرجه من دائرة الفطرة الصحية، ليعيش داخل دوامة الفوضى والظلم والاستبداد وتدمير الحضارات والثقافات والأخلاق والقيم، وكل ذلك بصورة أصبحت ملفنة للانتباه، وكأننا أمام مرحلة خطيرة للغاية تندر بكل أنواع الكوارث والمصائب. وقد حاولت الكثير من مؤسسات البحث والدراسات، بمختلف تخصصاتها، تعقب الأسباب واقتراح العلاجات الممكنة، لكن توحش الإنسان أفقده بوصلة عمارة الأرض بما يقتضيه مقام الاستخلاف وقصد التعبد، فأصبحنا أمام حالة إنسانية تستلزم تجديد البحث والدراسة في موضوع هذه العمارة والاستخلاف، بما يقتضيه مقام بناء الذات والمجتمع والأمة، بل والإنسانية جمعاء.

**كلمات مفتاحية:** الأمن النفسي- التربية العقدية- البناء الروحي - الإنسان المعاصر.

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

انميرات، عبد العزيز. (2024، أكتوبر). أثر البعد المقاصدي للتربية العقدية في الأمن النفسي للإنسان المعاصر. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 775-796.

## Abstract:

One of the facts about which no two disagree is that the modern human being lives in a state of dependence and wandering, as well as many psychological illnesses and spiritual alienation, which have caused him to lose many of the qualities and characteristics by which he is characterized as human, and takes him out of the circle of correct nature, to live within a whirlpool of chaos, injustice, tyranny, and the destruction of civilizations, cultures, and morals. And values, and all of this in a way that has become attention-grabbing, as if we are facing a very dangerous stage that portends all kinds of disasters and calamities. Many research and study institutions, with their various specializations, have tried to track down the causes and suggest possible treatments, but man's brutality has made him lose the compass for building the earth, as required by the position of succession and the intention of worship. Thus, we are faced with a humanitarian situation that requires renewed research and study on the subject of this architecture and succession, as required by the position of self-building. Society, the nation, and even all of humanity.

**Keywords :** psychological security - religious education - spiritual construction- contemporary man.

## توطئة

من الحقائق التي لا يختلف حولها اثنان، أن الإنسان المعاصر يعيش حالة من الارتهاق والتعب، كما الكثير من الأمراض النفسية والاعترا ب الروحي الذي أفقده الكثير من الصفات والخصائص التي بها يتصف بالأدمية، ويُخرجه من دائرة الفطرة الصحيحة، ليعيش داخل دوامة الفوضى والظلم والاستبداد وتدمير الحضارات والثقافات والأخلاق والقيم؛ وكل ذلك بصورة أصبحت ملفتة للانتباه، وكأننا أمام مرحلة خطيرة للغاية تُنذر بكل أنواع الكوارث والمصائب. وقد حاولت الكثير من مؤسسات البحث والدراسات، بمختلف تخصصاتها، تعقب الأسباب واقتراح العلاجات الممكنة؛ لكن توحش الإنسان، أفقده بوصلة عمارة الأرض بما يقتضيه مقام الاستخلاف وقصد التعبد، فأصبحنا أمام حالة إنسانية تستلزم تجديد البحث والدراسة في موضوع هذه العمارة والاستخلاف، بما يقتضيه مقام بناء الذات والمجتمع والأمة، بل والإنسانية جمعاء.

إن واقع حال فراغ حياة الإنسان المعاصر من الأمن -بكل صوره وتفصيله- جزء من سلسلة مسار حياة البشرية منذ خلق الله تعالى الإنسان، وجعله مستخلفا ومكلفا بتعميرها، بما يحقق مقاصد الخلق، والتي يجمعها قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>1</sup>. إنه مسار طويل يشهد على تواصل إفساد فطرة الإحساس بالأمن عند الإنسان منذ القديم؛ وقد حاولت الكثير من الفلسفات والنظريات والقوانين الوضعية معالجة هذا الموضوع، فهما وتحليلا وضبطا بالقوانين والأخلاقيات، وكل ذلك من أجل التمكين لمطلب الأمن في حياة الإنسان، كمستلزم لا تقوم حياته بالشكل السليم، إلا بتوفره واستدامته؛ لكنها فشلت فشلا ذريعا تشهد عليه الكثير من الحروب والصراعات وحالات الاضطهاد والاستعباد وأكل أموال الناس بالباطل، قديما وحديثا؛ ولا أظن أن ثمة شريعة أو قانونا أو فلسفة، استطاعت أن تعيد فطرة الإحساس بالأمن إلى موضعها الطبيعي، بل وأن تدعم استدامته وحمايته، مثل الدين الإسلامي، عقيدة وشريعة؛ هذا الدين الذي تشهد الأدلة من التاريخ ذاته، على نموذجية بنائه للنفس والفكر والروح قبل الواقع، محل تنزيل هذا البناء، وكل ذلك بما خول للإنسان الأمن في عقيدته أن يعيش حياة آمنة على كافة المستويات، بما أثمر حضارة إنسانية نموذجية؛ وهذه حقيقة لا ينكرها إلا جاهل أو متعصب.

<sup>1</sup> سورة الذاريات الآية 56.

على هذه الأرضية النظرية، يتأسس الكلام عن موضوع سنحاول -من خلاله -مقاربة أثر البعد المقاصدي للتربية العقيدية في الأمن النفسي للإنسان المعاصر، لعلنا بحاجة هذا الأخير - بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة، إلى هذا الضرب من التربية، حتى تستوي شخصيته، وتعود إلى (أحسن تقويم) من جديد، تفكيراً وتعبيراً وتديباً، خاصة في جانبها الروحي والنفسي، الذي أصابته الكثير من معوقات التقويم الحسن.

فالنفس المطمئنة التي يتأسس كيانها على العقيدة الصحيحة، ستكون لا محالة قوية ومنتجة ومبدعة، بل وقادرة على مقاومة كل ما من شأنه جعل الإنسان مفسداً ومحيطاً وتائها؛ ذلك أن عمارة الأرض تقتضي - كما هو معلوم - إيجاد الإنسان أولاً، وبناءه وتربيته، روحياً ونفسياً، ثانياً، وذلك قبل تكوينه اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً... إلى آخره؛ وهنا أثر العقيدة السليمة في هذا السياق.

وعلى الجملة، تتأسس هذه الورقة على سؤالين متكاملين، وهما:

1. ما مفهوم الأمن النفسي في سياق مقتضيات الحاجة إليه؟
2. وإلى أي حد يمكن للعقيدة الإسلامية تحقيق هذا النوع من الأمن، حتى يتسنى للمسلم المعاصر تحقيق عمارة الأرض بالشكل المطلوب

### المحور الأول: تعريف الأمن النفسي

يتكون مصطلح الأمن النفسي من كلمتين رُكبتا تركيباً وصفيّاً، يقتضي المقام تحديده من خلال بيان كل مصطلح على حدة، خاصة وهو من المصطلحات الغنية بكثرة المعاني المرتبطة به؛ هذا بالإضافة إلى أن صلب الموضوع الذي اخترنا الحديث عنه في هذه المداخلة، يقتضي هذا الضرب من البيان.

#### أولاً. كلمة الأمن

فعلى مستوى اللغة، تدل كلمة الأمن- أولاً -على العديد من المعاني، نجملها فيما يلي:

الطمأنينة<sup>1</sup> والتصديق<sup>2</sup> والثقة<sup>3</sup> والسلامة<sup>4</sup> والسكون والاستقرار<sup>5</sup>.

وأما على مستوى الاصطلاح، فيراد بالأمن معاني كثيرة، تتأسس -في مجموعها- على الفهم اللغوي، نختار منها -على سبيل المثال لا الحصر- ما قاله الجرجاني ومحمد الطاهر بن عاشور: حيث ذهب الأول إلى أن الأمن «هو عدم توقع مكروه في الزمان الآتي»<sup>6</sup>؛ في حين عرفه محمد الطاهر بن عاشور بكونه «حالة اطمئنان النفس وراحة البال، وانتفاء الخوف من كل ما يُخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق، ونحو ذلك»<sup>7</sup>.

وخلاصة البحث في هذا المصطلح يفيد أن المقصود بالأمن: اطمئنان النفس، وزوال الخوف، والشعور بالسكينة القلبية وراحة البال؛ ولذلك يأتي الأمن في مقابل الخوف والرعب والروع والفرع، سواء أكان خوفاً من عدو، أو فقر، أو مرض، أو جوع، أو كل أنواع المكاره التي يمكن للإنسان أن يتعرض لها.

<sup>1</sup> ينظر كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني-1/400 حيث قال فيه: "الطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج". (مكتبة نزار مصطفى الباز). ومنه قوله تعالى في سورة البقرة الآية 239: "فَإِنْ جُفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا إِذَا أُمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)، بمعنى: إذا اطمأننتم. يقول صاحب (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير)، أحمد بن محمد بن علي الفيومي: "اطمأن القلب سكن ولم يقلق، والاسم الطمأنينة"-تحقيق عبد العظيم الشناوي-2/378- دار المعارف القاهرة- ط2.

<sup>2</sup> ومنه قوله تعالى في سورة يوسف على لسان إخوة يوسف عليه السلام: "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين"- الآية 17- وينظر في هذا السياق للاستزادة والتوسع: تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري - ص ص 516-517.

<sup>3</sup> ومنه قوله جل جلاله على لسان يعقوب عليه السلام: "هل أمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل"- سورة يوسف الآية 64 - ولذلك يقال: "الأمنة من الناس: الذي يثق بكل أحد"- ينظر بتفصيل: المعجم الوسيط -ص:28(إبراهيم أنيس وآخرون-مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية-ط3-2004).

<sup>4</sup> ومنه قولهم: أمن فلان وأمين منه، أي سلم منه- ينظر بتفصيل: المعجم الوسيط -ص:28.

<sup>5</sup> ومنه قول ابن فارس: "الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب والآخر التصديق"- ينظر معجم مقاييس اللغة - 1/133. وينظر ما قاله ابن تيمية في (الصارم المسلول على شاتم الرسول)، وجماعه "الأمن الذي هو الفرار والطمأنينة، وذلك إنما يتحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد"- تحقيق محيي الدين عبد الحميد - ص:519- عالم الكتب-1403هـ.

<sup>6</sup> ينظر بتفصيل: معجم التعريفات- تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي-ص:34- دار الفضيلة القاهرة- مصر.

<sup>7</sup> تفسير التحرير والتنوير - 55/13- الدار التونسية للنشر تونس-1984. ويراجع للاستزادة: التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي-تحقيق عبد الحميد صالح حمدان - ص:63- عالم الكتب القاهرة- مصر.

## ثانيا. كلمة النفس

إذا كان المقصود بهذه الكلمة في اللغة عدة معاني، نحو القلب<sup>1</sup> والروح<sup>2</sup> والعقل<sup>3</sup>، فإن معناها في الاصطلاح بلغ - كما ذهب إلى ذلك ابن حجر العسقلاني - مائة قول<sup>4</sup>، نختار منها ما هو مشهور ومعلوم عند عامة المؤلفين، حيث تدل على ذلك الجسم اللطيف المحسوس، الحي، والمتحرك<sup>5</sup>.

## ثالثا مصطلح الأمن النفسي مركبا

على غرار الكثير من المصطلحات والمفاهيم، اختلفت تعريفات الباحثين والمفكرين والعلماء بشأن مصطلح الأمن النفسي، وسنقتصر في هذا المحور على ذكر أهمها، دون التعمق في حصرها، وتفصيل القول فيها جميعها؛ لأن القصد بيان المراد الذي يخدم الموضوع الذي نحن بصدد تحرير القول فيه.

يُعرف الدكتور حامد زهران عبد السلام - (أستاذ الصحة النفسية بجامعة عين شمس مصر) - في كتابه (دراسات في الصحة النفسية والإرشاد النفسي) الأمن النفسي بقوله: «والأمن النفسي هو الطمأنينة والانفعالية، وهو الأمن الشخصي، أو أمن كل فرد على حدة. والأمن النفسي هو حالة يكون فيها إشباع الحاجات مضمونا وغير معرض للخطر، مثل الحاجات الفيزيولوجية والحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى الحب والمحبة، والحاجة إلى الانتماء والمكانة، والحاجة إلى التقدير، والحاجة إلى احترام الذات، والحاجة إلى تقدير الذات، وأحيانا يكون إشباع الحاجات دون مجهود، وأحيانا يحتاج إلى السعي وبذل الجهد لتحقيقه. والأمن النفسي مركب من اطمئنان الذات، والثقة في الذات، والتأكد من الانتماء إلى جماعة آمنة»<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> ومنه قوله تعالى: "إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها" - سورة يوسف الآية 68.

<sup>2</sup> ومنه قوله تعالى: "ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم" - سورة الأنعام الآية 93 - يُنظر لسان العرب لابن منظور 233/6-234. دار صادر بيروت لبنان.

<sup>3</sup> يقول الزجاج في هذا السياق: "لكل انسان نفسان، إحداهما نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام، فلا يعقل بها يتوفاها الله كما قال الله تعالى، والأخرى نفس الحياة، وإذا زالت زال معها النفس". ينظر لسان العرب لابن منظور - مادة نفس. 235/6.

<sup>4</sup> ينظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري - رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي 403/8- المكتبة السلفية- يقول ابن حجر: "وقد تنطع قوم فتباينت أقوالهم؛ فقيل هي النفس والداخل والخارج، وقيل الحياة، وقيل هي جسم لطيف يحل في جميع البدن، وقيل هي الدم، وقيل هي عرض، حتى قيل: إن الأحوال فيها بلغت مائة".

<sup>5</sup> ينظر التفصيل الجميل لابن قيم الجوزية في هذا الموضوع في كتابه (الروح) بتحقيق محمد أجمل أيوب الاصلاح - ص ص: 551-561- دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

<sup>6</sup> ص ص: 85-86 عالم الكتب - القاهرة- مصر

من هنا يكون «الشخص الآمن نفسياً هو الذي يشعر أن حاجاته مشبعة، وأن المقومات الأساسية لحياته غير معرضة للخطر. والإنسان الآمن نفسياً يكون في حالة توازن، أو توافق أمني»<sup>1</sup>.

يُستفاد مما سلف ذكره، أن الأمن النفسي شعور عميق بالطمأنينة<sup>2</sup>، وإحساس بالسكينة<sup>3</sup>، والسلامة من كل ما من شأنه إثارة القلق والاضطراب، والخوف على النفس والمال والعرض والدين، إلى آخره؛ ذلك أن الإنسان بصفة عامة -كما يقول الشرباصي- «في أشد الحاجة إلى خلق الطمأنينة، ليجعله يندفع في شعاب الحياة ومسالكها، يمشي على نور الإيمان، ويعمل بثقة اليقين، ويواجه المتاعب بالصدر الرحب، ويلقى المسرات بالاتزان والاعتدال؛ وبذلك يسعى في حياته وينعم برضوان الله جل جلاله عليه»<sup>4</sup>.

### المحور الثاني: في الحاجة إلى الأمن النفسي

تدلنا مختلف التعريفات الاصطلاحية والفهوم النظرية المرتبطة بهذا المصطلح المهم، على أن الإنسان -بصفة عامة- يحتاج إلى الإحساس بالأمن النفسي، بل ويعيش على إيقاعه في كل حين؛ إذا بفقدانه يفقد كل إحساس بطعم الحياة الدنيا، ويعيش حالات متنوعة من الفوضى والتوتر والآلام النفسية والحزن المفضي -بدوره- إلى الكثير من العقد والاضطرابات النفسية الخطيرة. فالأمن النفسي - كما هو معلوم- مطلب فطري وُجد مع الإنسان ابتداءً؛ إذ به تطمئن القلوب، وتتحقق عمارة الأرض بالأسلوب الذي يقتضيه مقام الاستخلاف، الذي هو من أهم المقامات الدالة على كرامة الإنسان وأفضليته على كثير من المخلوقات؛ ولذلك كان أهم ما طلب خليل الله

<sup>1</sup> المرجع نفسه - ص: 86.

<sup>2</sup> يقول ابن قيم الجوزي (رحمه الله) - في سياق حديثه عن منزلة الطمأنينة -: "ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة الطمأنينة. قال الله تعالى "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب" - (سورة الرعد الآية 28) (...) الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه" - ينظر: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" - ج 2 / - 534 دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط 2 - 1988.

<sup>3</sup> يقول ابن القيم - في المرجع ذاته - معرفاً للسكينة: "وأما السكينة، فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه، وزوال قلقه واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو ووصلته" (المرجع نفسه - ص 538)؛ ولذلك فإن من ثمراتها - كما يقول مضيافاً - أنها "إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح، وخشعت واكتسبت الوقار، وانطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الغنا والفحش واللغو والهجر وكل باطل. قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه". وكثيراً ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا رؤية ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه، كما يستغرب السامع له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه". المرجع نفسه - صفحة 527.

<sup>4</sup> أحمد الشرباصي: موسوعة أخلاق القرآن - 86/1 - دار الرائد العربي بيروت - لبنان - ط 1 - 1981. وينظر ما قاله عن طمأنينة النفس في المرجع نفسه - ص ص: 79-85.

إبراهيم (عليه السلام) من رب العالمين، أمن المكان، حيث قال في دعائه: "﴿وَأَمَّا قَالِ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَتَرْبِيَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾"<sup>1</sup>، فربط بين أمن المكان وصفاء العقيدة، حتى يستقيم وجوده ومن معه؛ إذ في ظل الأمن النفسي تتحقق الاستطاعة في أداء واجبات التكليف، ومستلزمات وجود الإنسان بالصيغة المطلوبة، بل وبالأمن يستكمل الناس عامة مطلب الطمأنينة، التي تعتبر إحدى مقومات السيادة والمحافظة على الذات، وذلك إلى جانب مستلزمات العيش الأخرى، نحو الغذاء وإشباع الحاجيات المادية المعلومة، وهو ما تشير إليه سورة قريش، حيث يقول الله تعالى: ﴿لِيَلْجَأَ قَرِيشٌ إِلَى إِيلَافٍ فَهَمَزُوا لِرَبِّهِمْ هَذَا الْبَيْتَ الذِّكْرَ أَصْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾<sup>2</sup>.

بل ويظهر أثر هذا الأمن بشكل جلي، من خلال الكثير من الآيات القرآنية، نحو قوله تعالى في سورة العنكبوت، حيث أنعم على المشركين من قريش، بنعمة الأمن بمكة، وذلك على الرغم مما كان يحيط بهم من فتن واقتتال بين العرب: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا، وَنَتَخَصَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾<sup>3</sup>.

ولعل من أبلغ الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن بعض المقومات الرئيسة للحياة الطيبة التي يريجوها كل إنسان، قوله (صلى الله عليه وسلم): "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا"<sup>4</sup>. فقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) الحاجة إلى الأمن على صحة الجسد، وذلك على الرغم من أهميتها، وتوفر ما به يقتات الإنسان ويتغذى، وذلك لأهمية الأول؛ وفي هذا يقول العلامة المناوي -رحمه الله- «من جمع الله له بين عافية بدنه، وأمن قلبه حيث توجه، وكفاف عيشه بقوت يومه، وسلامة أهله؛ فقد جمع الله له جميع النعم، التي من ملك الدنيا لم يحصل على غيرها؛ فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها، بأن يصرفها في طاعة المنعم، لا في معصية، ولا يفتر عن ذكره»<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> سورة إبراهيم الآية 35- ومنه قوله عليه السلام في دعائه كذلك: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ". سورة البقرة الآية 126. فيظهر من خلال هذه الآية الكريمة العلاقة الوطيدة بين مطلب الأمن ومطلب تدفق الخيرات، وكل ذلك في صلة وطيدة بتحقيق مطلب العقيدة الصحيحة في حياة الإنسان.

<sup>2</sup> سورة قريش الآيات 1-4.

<sup>3</sup> سورة العنكبوت الآية 67.

<sup>4</sup> أخرجه الترمذي في (جامع الترمذي) عن عبيد الله بن محصن - حديث رقم (2346).

<sup>5</sup> فيض القدير شرح الجامع الصغير - 68/6 - دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان ط2-1972.



وعلى الجملة، يمكن التأكيد على أن الأمن النفسي جزء من الأمن العام متعدد الأطراف الذي به تقوم الحياة الإنسانية<sup>1</sup>، بل والناظر في المقاصد الخمسة التي أجملها العلامة الشاطبي -رحمه الله- في كتابه الموافقات، في حفظ النفس وحفظ الدين وحفظ النسل وحفظ العقل وحفظ المال، سيعلم أن وجود هذه المقاصد أو الضروريات الخمس، مرتبط ارتباطاً قوياً بضرورة توفر الإحساس بالأمن؛ فهو بمثابة الأرضية التي يقف عليها الإنسان، وهو يسعى لتحقيقها على أرض الواقع؛ خاصة إذا استحضرننا في هذا المقام ما يحيط بالإنسان المعاصر -على وجه الخصوص- من ضغوطات وإكراهات، أفقدت الكثيرين منا بوصلة الحياة الطيبة التي أرادها الله تعالى للإنسان ابتداءً.

ونظراً لطبيعة الحالة النفسية التي أصبح يعيشها هذا الإنسان، بسبب كثرة الضغوطات والإكراهات القاسية، تجندت الكثير من مراكز البحوث ومؤسسات الدراسات النفسية والاجتماعية، الحكومية والمستقلة على حد سواء، وخاصة في البلدان الغربية، التي تعيش على إيقاع الحياة المادية؛ أقول تجندت هذه المؤسسات من أجل مقارنة موضوع الأمن النفسي، وإيجاد سبل تحقيقه وعودته إلى الحياة الإنسانية من جديد، مما يكفل تحقيق مطلب الاستقرار في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء. غير أن مختلف الجهود لم تفلح - للأسف الشديد- في تحقيق المقصود، لأنها -بكل بساطة- غيّبت أهم عامل في تحقيقه، وهو العامل العقدي، وذلك لأسباب معلومة عند الكثيرين، الشيء الذي يجعلنا نتساءل - دون خلفية مذهبية كما قد يعتقد البعض- : إلى أي حد يمكن للعقيدة الإسلامية تحقيق المطلب الملح للأمن النفسي للإنسان المعاصر، بعدما عجزت -في نظرنا كما نظر الكثيرين- العديد من النظريات البشرية في هذا المجال؟

### المحور الثالث: أهمية العقيدة في حياة الإنسان

من الأمور التي لا يختلف حولها اثنان، أن الإنسان لا يمكن أن يعيش بلا نظام يحدد له منهج الحياة وتفصيل العيش، بل ويتعقبه بالتقييم والتقويم والتوجيه، حتى تستقيم حياته، وتستوي

<sup>1</sup> يحتاج الإنسان - بصفة عامة- إلى تحقيق إشباع نفسي على ثلاثة مستويات كبرى، تجعله يُحس بنوع من الأمن والاستقرار والطمأنينة، وهذه المستويات هي: أولاً: الأمن الجسدي، حيث مطلب إشباع مختلف الحاجيات الضرورية جسدياً وبدنياً. ثانياً: الأمن الاجتماعي، حيث الشعور بالانتماء إلى الجماعة، سواء كانت أسرة أو عائلة أو أمة، يُمكن الإنسان من تمثيل الأعراف والتقاليد والقيم الاجتماعية، بل ويشعر خلالها بأن له دوراً مهماً في المجتمع الذي يحيطه بكل الرعاية، ويجعله فاعلاً ومنفعلاً في الآن نفسه. ثالثاً: الأمن العقدي والروحي، وهو مطلب مهم في حياة الإنسان بصفة عامة، إذ يكفل هذا النوع من الأمن الإحساس بالاطمئنان عند اختيار العقيدة التي يعتقد أنها تلبي مطالبه الروحية، دون إكراه ولا إلزام قسري، خاصة والإنسان -عامة- متدين بطبعه، ولا يفسد دينه إلا لعوامل معلومة من المعاشاة بالضرورة.

على الطريق الذي يجعل منه، حقا وفعلا، إنسانا مكرما ومميزا؛ كما أن هذا المخلوق -في سياق هذه الحقيقة- لا يمكن أن يعيش بلا دين؛ فهو مخلوق متدين ابتداء، وما فسد تدين الناس وزاغ عن الصواب، إلا بسبب فساد الفهم وانحراف التصور. فالإنسان متدين بطبعه، ولذلك احتاج إلى الدين في كل مراحل حياته؛ حيث تنوعت الديانات والاختيارات العقيدة بتنوع الأزمنة والأمكنة والظروف؛ ولعل من أبرز الأديان التي اختارها الإنسان، الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله له منذ القديم، ﴿إِنَّ الْكِبْرَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾<sup>1</sup>.

وعليه، فإن الإنسان متدين بطبعه، لأنه بحاجة إلى عقيدة وشرعية تحيطه بالعناية والتوجيه والترشيد والتصويب؛ ولهذا تعتبر العقيدة -قبل الشريعة- من الضروريات التي لا غنى له عنها، لأنه بكل بساطة مخلوق تُلزمه فطرته الميل إلى قوة عليا، يجد فيها ما يجعل الناس جميعا منضبطين وملتزمين بتشريعات محدده، تُسهل التعايش والتكامل والتعاون والتآلف، وذلك على الرغم من اختلاف الأجناس والثقافات والطبائع والفهوم؛ الشيء الذي يعطي لهذا الاعتقاد إمكانية تحقيق ذلك الميل الفطري للتدين، بل ويعمل على إشباع مختلف حاجياته.

وعلى الجملة، لا يمكننا إلا أن نؤكد مع الكثيرين، ممن يلقون السمع وهم شهداء، على أهمية العقيدة في حياة الإنسان بصفة عامة، لأنها الكفيلة بتحقيق ذلك التوازن المطلوب بين عالمي الغيب والشهادة: الإيمان بالغيبيات التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها ومعرفتها، إلا من خلالها، يمنح المرء إمكانية حصوله على كثير من النتائج الإيجابية، لعل في مقدماتها: الإحساس بالحرية الحقيقية<sup>2</sup>. فقد أثبتت الحياة الإنسانية، أن الإنسان عبدٌ للكثير من الأمور التي تحيط بكيانه، وكلما حرر قلبه منها، بتوجيه عناية قلبه إلى الله (جل جلاله)، استطاع أن يكون عبدا قادرا على تنفيذ متطلبات عمارة الأرض على الوجه الذي يقتضيه مقام الاستخلاف، فيحسن في كل شيء: في عبادته ومعاملاته وتصرفاته، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ لَنَا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾<sup>3</sup>؛ بل إن الميل الفطري السليم إذا استوى عوده على العقيدة الصحيحة، لا يمكن إلا أن يُنتج الأمن

1 سورة آل عمران الآية 19.

<sup>2</sup> يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه الجميل (حرية الإنسان في ظل عبوديته لله): "بخضوع الإنسان لواقع عبوديته لله، يصغي إلى صفحات التعليمات التي يخاطبه الله بها عز وجل، ويتلقاها بالثقة والقبول، ويتخذ منها النظام الذي يتعامل بوفقه مع هذه الحياة، والسياج الذي يحيي حريته الشخصية من الطغاة والمستكبرين والمستغلين. وبفضل الحرية التي متعه الله بها، يمارس بكرامة حياته الفردية والاجتماعية، وينهض بوظيفته في استخدام ما قد سخر له من المكونات، وتجنيدتها للحضارة والعمران. وهكذا يمارس الإنسان حريته في ظل عبوديته لله عز وجل". - ص ص: 76-77 (دار الفكر - دمشق - سورية ط-1 1992)

<sup>3</sup> سورة النساء الآية 125

بمختلف تفاصيله، وعلى رأس ذلك الأمن النفسي، ناهيك عن مقام الهداية. يقول الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>1</sup>.

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا في سياق ما تقدم ذكره: إن ثمة جانبا في الحياة الإنسانية لا يمكن مألؤه إلا بالإيمان، ولذلك حينما يغيب هذا العنصر من حياة الملاحدة والكثير من الناس، فإن ما يملأ فراغ ذلك هو القلق والحيرة والاضطراب في السلوك والابتعاد عن الاستقامة، بل ويؤدي كل ذلك إلى الاكتئاب، وهو من أشرس الأمراض النفسية المعاصرة، بل ويؤدي كل ذلك إلى الانتحار، لأن الفراغ الذي يعيشونه على مستوى الأمور الغيبية، يتم مألؤه بالاعتقادات المنحرفة، التي تزيد من الحيرة والقلق وزيع القلوب والانحرافات الاجتماعية والأخلاقية والفوضى والظلم؛ الشيء الذي يؤدي إلى فساد الأرض بما يُنتج الكوارث والمصائب، وهو ما نعيش على إيقاعه منذ فترة ليست بالقصيرة. يقول الله تعالى مشيرا إلى ارتباط فساد الأرض بفساد فطرة الإنسان: ﴿تَضَاهَى السَّمَاءُ فِي الْغَدَاةِ الْبَرْقُ وَالْبَرْقُ فِي الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَذْيَرُ النَّاسِ لِيَكْفِيَكَمُ بَعْضُ الْكَافِرِ يَعْمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>2</sup>؛ والسبب كثرة المعاصي، والتي تعود -في عمقها- إلى فساد العقيدة التي تؤطر الشريعة النازمة لتفاصيل الحياة الإنسانية.

فالإنسان بحاجة إلى شريعة ومنهاج ينظم حياته؛ وقد جربت الإنسانية جمعاء الكثير من الشرائع والمناهج والقوانين والفلسفات، ولا تزال تجرب؛ لكن هذه الشرائع لم تنجح في تحقيق المطلوب، باستثناء الشريعة الإسلامية التي تدل القرائن الملموسة من التاريخ، على قدرتها على بناء الإنسان وإرشاده والعناية به من كل النواحي، فردا وجماعة وأمة وإنسانية، وما كان لهذه الشريعة أن تحقق هذه النتائج المطلوبة، لولا تأطير العقيدة لها من كل الجوانب.

من هنا يحق لنا أن نختم هذا المحور -على أهميته - بالقول: لا يصلح حال الإنسان، فردا وجماعة، إلا بشريعة نازمة، توجهه وترعاه وترشده، ولا قدرة لأي شريعة على القيام بهذا الأمر، دون توفر عقيدة سليمة وصحيحة؛ ولا عقيدة يمكن للإنسان أن يلتزم بها، ويجعلها أرضية صلبة للانطلاق، إلا العقيدة الإسلامية؛ فهي القادرة على حماية الإنسان من التيه والحيرة والقلق، ومنحه -بالمقابل- كل عوامل الأمن، وعلى رأسه الأمن النفسي؛ وهذا ما سنتطرق إليه في المحور المقبل بحول الله تعالى.

<sup>1</sup> سورة الأنعام الآية 82

<sup>2</sup> سورة الروم الآية 41

### المحور الرابع: أثر العقيدة في تحقيق الأمن النفسي للإنسان المعاصر

إذا كانت بعض النظريات السيكلوجية تعتقد أن الإنسان بحاجة إلى مجموعة من الحاجيات الأساسية التي تمنحه إمكانية العيش السليم، وهي الحاجيات الفيزيولوجية، والحاجة إلى الحب والانتماء، والحاجة إلى تقدير الذات والاحترام، والحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى تحقيق الذات، والحاجة إلى المعرفة والفهم، وأخيرا الحاجيات الجمالية<sup>1</sup>؛ فإنها أهملت -للأسف الشديد- أهم هذه الحاجيات الأساسية، بل والحاجة التي تشكل -في اعتقادنا، بل واعتقاد الكثير من الباحثين والمفكرين والعلماء- الأرضية الصلبة التي توفر للإنسان كل ما سبق من حاجيات، بل وتحيطها بعناية خاصة، تتجلى في التوجيه والترشيد والتقييم والتقويم؛ والأساس أن تمنح هذه الحاجيات -جميعها- الإحساس بالذات والكرامة، والعيش على الفطرة السوية، لا خارج إطارها؛ ونقصد بالتحديد: الحاجة إلى العقيدة، كجزء أولي من الحاجة الفطرية إلى الدين السليم؛ لأنه الكفيل -كما تدل على ذلك الشواهد من التاريخ- بجعل الإنسان قادرا على تحقيق ما سلف ذكره من حاجيات مادية ومعنوية، على حد سواء، وخاصة منها الإحساس بالطمأنينة، التي هي حاجة نفسية بالأساس، لا تمكن استقامة حياة الإنسان دون توفرها؛ إذ بغيابها تظهر في حياة الإنسان العديد من المشاكل والعلل، لعل من أبرزها: سوء التوافق النفسي والاضطراب والقلق والخوف. فإلى أي حد تستطيع العقيدة الإسلامية إسعاف الإنسان المعاصر، بصفة خاصة، بما يحقق الشعور الملح بالأمن النفسي؟

إذا كان الأمن، بصفة عامة، والأمن النفسي بصفة خاصة، كما تقدم، مطلب فطري اقترن بوجود الإنسان، منذ بدأت عمارة الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلأن طبيعة الحياة على وجه الأرض، لا يستقيم عودها، ولا تُمكن الإنسان من هذه العمارة وتحقيق مطلب الاستخلاف، إلا إذا اطمأنت القلوب وسكنت النفوس؛ ولتحقيق هذا المطلب الفطري، أوجب الله تعالى على الإنسان اتباع سبل السلام، وعلى رأسها عقيدة ربانية، من عليم خبير لطيف بالإنسان، جمع فيها جل جلاله شتات كل شيء يحتاجه الإنسان، لأن الله تعالى، بعلمه الأزلي، يعلم أن هذا الأخير مبتلى بالشهوات والآفات والمتاعب والمكاره، وأنه إذا استقر قلبه ونفسيته، استطاع أن يتغلب على هذه الابتلاءات والآفات، فيكون عبدا لله، محفوقا بمبعيته، التي ستجعله من أولياء

<sup>1</sup> ينظر بتفصيل هذه الحاجيات في (هرم الحاجيات) لعالم النفس ابراهيم ماسلو (Abraham Maslow) في:

A theory of human motivation - in: Psychological Review - N:50-1943-pp:370-396.

الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ولكي يتحقق معنى المعية<sup>1</sup>، يستوجب على هذا الإنسان أن يتبع ما اختاره الله له ابتداءً؛ وأول هذا الضرب من الاتباع، تحقيق مطلب الإيمان الكلي في حياته قلباً وقالبا، سرا وعلانية، غيباً وشهادة؛ ذلك أن الله تعالى جعل الإيمان الحقيقي مقدمة للعديد من الأمور، وسبباً لتحقيقها على أرض الواقع، مما هو محتاج إليه؛ فانظر إلى قوله تعالى، والآيات كثيرة في هذا المقام، الذي قارن فيه بين الإيمان والعمل الصالح والاستخلاف والتمكين والأمن، وهي آية جامعة تجعل وعد الله تعالى مقترباً بأمريْن متكاملين: الإيمان الصادق والعمل الصالح. يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْكَافِرَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْكَافِرَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>2</sup>.

وانظر كذلك إلى قوله تعالى، الذي ربط فيه بين الكفر بنعم الله تعالى وضيق المعيشة، حيث قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مَصْمُومَةً يَأْتِيهَا رِزْقًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا فَأَخَذَ اللَّهُ لِبَاسَ السَّجْودِ وَانْفَوْقَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾<sup>3</sup>.

فالإيمان بالله تعالى أساس كل شيء، كما هو معلوم، ومقدمة كل شيء، ومفتاح سكينه القلوب التي يحتاجها ويبحث عنها الحائرون والقلقون والمكتئبون والتائهون في دروب الحياة؛ ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾<sup>4</sup>. يقول صاحب كتاب (تيسير الكريم الرحمن) في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة: "يخبر الله تعالى عن منتهى على المؤمنين، بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة التي تشوش القلوب، وتزعج الأبواب، وتضعف النفوس. فمن نعمة الله تعالى على عبده في

<sup>1</sup> لعل من نتائج المعية الربانية للعبد المؤمن، الذي ترسخت العقيدة السليمة في قلبه قولاً وعملاً، أن يفوز بالهداية والحفظ من كل سوء ، وهما من العوامل الرئيسة للشعور بالرضا والطمأنينة والسكينة النفسية ، حيث لا يشعر صاحب المعية بالوحشة والغربة والخوف؛ ولنا في رد موسى عليه السلام لما حاصره فرعون وجنوده، ما يدل على هذا النوع من الإحساس النفسي العميق حيث قال لأصحابه مرسخاً العقيدة الصحيحة في قلوبهم، وهم في أعز المواقف وأصعبها: ( فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونَ ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ )- سورة الشعراء الآيتان 61-62. وكذلك نجده في قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأبي بكر رضي الله عنه وهما بالغار، وهو بطمأنينه ويزرع السكينة في قلبه: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ". سورة التوبة الآية 40.

<sup>2</sup> سورة النور الآية 55.

<sup>3</sup> سورة النحل الآية 112.

<sup>4</sup> سورة الفتح الآية 4.

هذه الحال، أن يثبتته ويربط على قلبه وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه<sup>1</sup>. على هذا الأساس، تعمل العقيدة الإسلامية على بناء النفس البشرية أولاً، بناء قويا يكون بمقدوره إحاطته بكل ما يمكنه من تمثل مختلف التكاليف والعبادات، التي هي في عمقها وبدورها لا تخرج عن السياق الذي من أجله شرعت العقيدة، ألا وهو تحقيق سعادة الإنسان في الحياة والآخرة. فالإنسان المؤمن يجد في العقيدة الصحيحة التي يؤمن بها، السند الذي يُسعفه في مواجهة مختلف الابتلاءات والمصائب والإكراهات والصعوبات التي تفرضها طبيعة الحياة بصفة عامة. والعلاقات الإنسانية المعقدة بصفة خاصة؛ بخلاف الإنسان العادي الذي يُصاب باليأس والقنوط والشك والحيرة. فانظر- في هذا السياق-الفرق بين هذا الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿لَا يَسْلَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَلْحَاءِ الْغَيْبِ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُئْوِسْ قَتْوَهُ﴾<sup>2</sup>، وبين هذا الذي يعلم أن كل شيء فيه خير، ولسان حاله يردد ما قاله يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>3</sup>.

إنها العقيدة التي تصحح المفاهيم وتوجه البصائر، حتى يكون العبد قادرا على توطين مقام الرضا على -سبيل المثال- في قلبه وروحه ونفسه؛ فلا يكثرث للقدام، بقدر ما يطمئن له، لأنه يعلم أنه -بإيمانه الصادق- في معية الله تعالى، الذي يعلم أن ما أصاب العبد المؤمن بمصيبة إلا وفيها خير وبركة عليه؛ يقول الله تعالى: ﴿وَعَسَوْا أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَوْا أَنْ تَقْبَلُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>4</sup>. ولذلك جاء في الأثر: "المصائب مفاتيح الأجر"<sup>5</sup>. ومن هنا نفهم التوجيه العقدي الدقيق للرسول (صلى الله عليه وسلم) للمؤمنين الصادقين، حينما قال: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له"<sup>6</sup>.

1 عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - حققه عبد الرحمن معلا اللويحي-ص:791-(مؤسسة الرسالة بيروت لبنان-ط1-2022).

<sup>2</sup> سورة فصلت الآية 49

<sup>3</sup> سورة يوسف الآية 87.

<sup>4</sup> سورة البقرة الآية 216.

<sup>5</sup> قوله للحسن بن علي رضي الله عنهما نقلا عن: نزهة الناظر وتنبيه الخاطر للشيخ الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني- ص- 72 تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي-قم- إيران-ط1-1408هـ-

<sup>6</sup> رواه الإمام مسلم في صحيحه - باب المؤمن أمره كله خير- حديث رقم 2999

وانظر كذلك توجيهه الرشيد، وهو يصنع العقيدة الصحيحة السليمة في نفوس المؤمنين، حتى تتخلص من الحيرة والقلق والخوف، حاضرا ومستقبلا، حينما قال لابن عباس (رضي الله عنه): «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»<sup>1</sup>.

يقول الدكتور كارل جونج (CARL JUNG)، وهو أحد الأطباء النفسيين النمساويين المشهورين في عصره في كتابه (الرجل العصري يبحث عن روح)، مشيرا إلى آثار غياب الإيمان من حياة الإنسان المعاصر: "استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية، أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجت مئات من المرضى، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر، أي الخامسة والثلاثين أو نحوها، لا ترجع في أساسها إلى افتقارهم للإيمان وخروجهم على تعاليم الدين. ويصبح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض، لأنه حُرِمَ سكينه النفس التي يجلبها الدين، أي دين، ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه، واستعان بأوامر الدين ونواهيها على مواجهة الحياة"<sup>2</sup>.

هكذا تتبين إحدى صور الإيمان الذي هو أساس العقيدة في حياة الإنسان المؤمن، صورة تشير -بكل الأدلة- إلى ما تقدمه العقيدة الصحيحة من مناعة نفسية، تحميه من كل ما من شأنه جعله فريسة لمختلف أنواع الأمراض النفسية، التي تسلبه -بدورها- إمكانية العيش بسلام، فردا وجماعة.

وعلى هذا الأساس، يمكن تلخيص أثر هذا الضرب من العلاقة بين العقيدة والأمن النفسي للإنسان، من خلال العناصر الستة المكونة للأيمان، وهي:

**أولا: الأمن النفسي في سياق الإيمان بالله تعالى جملة وتفصيلا،** وخلاصته أنه كل ما تحقق هذا الإيمان في قلب الإنسان وصدقه العمل، انتفع به على مستويات عدة، نذكر منها للتمثيل، وليس للحصر:

1 رواه الإمام الترمذي في (جامع الترمذي) - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في صفة أواني الحوض - باب منه - حديث رقم 2516.

<sup>2</sup> نقلا عن ديل كارنيجي: دع القلق وابدأ الحياة - تعريب عبد المنعم محمد الزيايدي - ص: 215 - مكتبة الخانجي القاهرة - مصر - ط 16 - 1994.

1- الإيمان بالله تعالى يُورث انشراح الصدر وسكون القلب، يقول الله تعالى: ﴿فمن يريد الله أن يهديه يسره له يسر له الإسلام، ومن يريد أن يضله يجعل صخره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾<sup>1</sup>.

2- تحقيق الهداية والتحصين من المنعطفات ومزالق الحياة، يقول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾<sup>2</sup>. ويقول ﴿ومر يؤمن بالله يهدي قلبه والله بكل شيء عليم﴾<sup>3</sup>.

3- الإيمان بالله تعالى وتوحيده يثمر إصلاح البال واطمئنان الفكر والتوفيق والسداد، يقول الله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزلنا على محمد وهو الحق من ربهم، كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾<sup>4</sup>.

4- الإيمان بالله تعالى لا ينتج إلا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، على اعتبار أن الحياة الطيبة في الحياة الدنيا، يُقصد بها -فيما يقصد- ما تشعر به قلوب المؤمنين من اطمئنان، ونفوسهم من سكينه، وذلك بزوال الهم والغم والقلق. يقول الله تعالى: ﴿من عمل صالحا من غير كرا أو أثرو هو مؤثر، فلنجيئنه حياة صالحة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون﴾<sup>5</sup>.

5- الكفر والشرك، الذي هو ضد الإيمان بالله تعالى، موجب للعذاب في الدنيا والآخرة والحياة الضنك والضياغ والحيرة والقلق وعذاب النفس. يقول الله تعالى: ﴿فمن يريد الله أن يهديه يسره له يسر له الإسلام، ومن يريد أن يضله يجعل صخره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾<sup>6</sup>. ويقول كذلك: ﴿ومر أعرض عن كرك، فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾<sup>7</sup>. ويقول كذلك: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> سورة الأنعام الآية 125.

<sup>2</sup> سورة الأنعام الآية 82.

<sup>3</sup> سورة التغابن الآية 11.

<sup>4</sup> سورة محمد الآية 2.

<sup>5</sup> سورة النحل الآية 97.

<sup>6</sup> سورة الأنعام الآية 125.

<sup>7</sup> سورة طه الآية 125.

<sup>8</sup> سورة الحشر الآية 19.



## ثانيا. الإيمان بالملائكة وأثره في تحقيق الأمن النفسي

إذا كان الإيمان بالملائكة جزءا مهما لا يكتمل إيمان المسلمين إلا به، فإن المحقق في دقائق ما يحمله من أسرار، سيقف على آثاره الواضحة في تحقيق الأمن النفسي، ويظهر ذلك من خلال مجموعة من الأدلة القرآنية، نذكر منها:

1- الاستقامة التي تورث الحرص الشديد على كل ما يُصحح عمل المسلم قولاً وعملاً، بل وحتى نية؛ ولذلك ينتج عن إيمان المرء بوجود الملائكة الحرص على الأعمال الصالحة والقول الحق، وخاصة منهم الحفظة الذين يكتبون ما يصدر عن الإنسان ليلاً ونهاراً. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا يَتْلِقُ الْمُتَلْقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>1</sup>.

فوجود الملائكة في حياة الإنسان المؤمن، لا يقتصر - فقط - على التصديق بهذا الوجود، وهو من عالم الغيب، لا من عالم الشهود، بقدر ما يدل - بالأساس - على حرص المؤمن على استحضارهم من أجل المبادرة المستدامة على عمل الخير، الذي هو أحد صور استقامة القلب وسلامته واطمئنانه وسكونه.

2- المحبة الشاملة، حيث خص الله تعالى المؤمن بهم بحفظهم له والدعاء<sup>2</sup> والاستغفار له<sup>3</sup>، وتبشيرهم بالجنة ونعيمها<sup>4</sup>، بل ومحبته. فقد رُوي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحْبُهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فَلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأُبْغِضُهُ. فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فَلَانًا فَأُبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ"<sup>5</sup>؛ وهذا من ثمرات عقيدة الإيمان بالغيب.

<sup>1</sup> سورة ق الآيةان 17-18

<sup>2</sup> ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ سورة الأحزاب الآية 43.

<sup>3</sup> ﴿الَّذِينَ يَخِمْوْنَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ - سورة غافر الآيات 7-9.

<sup>4</sup> ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ - سورة فصلت الآيةان 30-31.

<sup>5</sup> رواه مسلم في صحيحه - كتاب البر والصلة والآداب - باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده - حديث رقم: 2637.

**ثالثاً: أثر الإيمان باليوم الآخر في الأمن النفسي،** وذلك من جهة كون هذا الشطر من الإيمان بالغيب، من العناصر المهمة في بناء العقيدة السليمة في نفسية الإنسان؛ حيث يمنح المؤمن الشعور القوي بالاطمئنان، ويجعله يدرك أن الحياة الدنيا مجرد متاع، وأن ما فيها نهايته الزوال؛ فلا ييأس من رحمة الله تعالى، ولا يغضب إن مسه ضرر، أو أصابه ظلم، أو استضعف؛ لأنه يعلم علم اليقين، أن ثمة يوماً آخر سيجتمع فيه الله الناس للفصل فيما بينهم بالعدل والقسط. يقول الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفر بنا حاسير﴾<sup>1</sup>.

كما أن هذا الشطر من العقيدة، يُربي المرء على الاستقامة المستدامة من خلال زرع خلق المحاسبة في نفسه التي تقيه الوقوع في مختلف أشكال الانحراف والزيغ، وهي الأشكال التي تمرض النفس وتقهرها بالحزن والخوف، وتجعل الإنسان متعباً بحرصه على الدنيا ومتاعها وشهواتها وفتنها، مما يدفعه في كثير من الأحيان إلى الانزلاق في الزيغ وانحراف الأخلاق؛ ولذلك حرص الدين الإسلامي على ربط حاضر الإنسان بغده الحقيقي، الذي هو الدار الآخرة؛ تلك الدار التي ينبغي استحضارها في كل وقت، وعلى كل حال. يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم)، في حديث جميل، يصنع الفقه العميق بالعلاقة بالدنيا والآخرة على حد سواء، ويمنح المؤمن إمكانية العيش بسلام وسكينة وطمأنينة: "من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قُدر له"<sup>2</sup>.

#### رابعاً. الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره وأثره في الأمن النفسي

إن إيمان الإنسان بالقضاء والقدر، خيره وشره، يورث الهدوء والطمأنينة والسكينة؛ ذلك أن ثقافة التسليم بقضاء الله تعالى وقدره، يمنح المرء الإحساس بالرضا، وهو إحساس يغيب عن الكثير من الناس، وإن كانوا يملكون من الدنيا ما يملكون، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام موجهاً الفهم: "من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> سورة الأنبياء الآية 47

<sup>2</sup> رواه الترمذي في (جامع الترمذي) - أبواب صفة القيامة والرقائق والورع - حديث رقم 2465

<sup>3</sup> رواه الترمذي في (جامع الترمذي) - كتاب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في الرضا بالقضاء - حديث رقم 2151.

فحينما يتشبع فكر المسلم بهذا النوع من العقيدة الغيبية، يترسخ في قلبه أمن نفسي جميل، يجعله غير متوتر ولا قلق تجاه ما يُصيبه من خير أو شر؛ لأنه يعلم علم اليقين، أن كل ذلك بأمر من الله تعالى اللطيف الخبير بعباده. يقول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِمْ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>1</sup>. ويقول كذلك: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنْ عَلِمَ عَلَى اللَّهِ يُسِيرُ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾<sup>2</sup>.

يقول ابن القيم في سياق حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>3</sup>: "في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحسوب، والمحسوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، وأوجب له ذلك أموراً: منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه، فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي، وإن هويته نفسه ومالت إليه، وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشُرور ومصائب.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له؛ لما يرجو فيه من حسن العاقبة. ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك. ومنها أنه إذا فوض إلى ربه ورضى بما يختاره له، أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات، التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه. ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى.

<sup>1</sup> سورة التغابن الآية 11.<sup>2</sup> سورة الحديد الأيتان 22-23.<sup>3</sup> سورة البقرة الآية 216.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه؛ وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللفظ به. فيصير بين عطفه ولطفه. فعطفه يقبه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره.<sup>1</sup>

وجملة الكلام في هذا المحور، أن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، يورث الرضا؛ وهو مقام مهم في حياة المؤمن، لأنه يؤدي إلى السكينة والطمأنينة والارتياح القلبي، والبعد عن الحزن والقلق والحيرة المفضية إلى الكثير من الأمراض النفسية، نحو الحسد والبغض والكراهية والسخط والاكْتئاب. يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى، في معرض حديثه الشيق عن منزلة الرضا: "إن السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب، وكسف البال وسوء الحال؛ والظن بالله خلاف ما هو عليه. والرضى يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة (...) إن الرضى يوجب له الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه وربته وانزعاجه وعدم قراره (...) إن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة، استقام وصلح أحواله وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته، وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش".<sup>2</sup>

## خاتمة

يُستفاد مما سلف ذكره في هذه الصفحات الخاصة بموضوع (أثر البعد المقاصدي للتربية العقدية في الأمن النفسي للإنسان المعاصر)، أن للأمن النفسي مكانة كبيرة في حياة الإنسان بصفة عامة؛ إذ بتوفره يستطيع هذا الأخير تحقيق الحياة الكريمة، وتجنب كل ما من شأنه تعكير صفو عيشه، وإحداث الخوف والرعب والفرع والإحباط والقلق، بل والتسبب في الكثير من الأمراض النفسية، ومن أشهرها -في عصرنا الراهن- الاكتئاب؛ ولذلك، فحاجة الإنسان للاطمئنان النفسي والسكينة، هي ما يسعى هذا النوع من الأمن إلى تحقيقه.

<sup>1</sup> التفسير القيم للإمام ابن القيم -جمعه: محمد أويس الندوي- حققه محمد حامد الفقي- ص ص 145-147- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان.

<sup>2</sup> مدارج السالكين 216/2 - دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان- ط2-1988. ويقول كذلك: "الرضى باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا". المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وإذا كان هذا المطلب من أهم احتياجات الإنسان عبر العصور، فإن الكثير من الفلسفات والقوانين والتشريعات -منذ القديم وإلى اليوم- تعمل على تمكين الإنسان من كل ما من شأنه إسعافه بأسباب تحقيقه ووجوده في حياته وواقعه اليومي؛ لكن المتتبع لمجمل ما قدمته من نظريات وتوصيات وتشريعات، لم تسعفه كما هو مطلوب، ودليل ذلك ما نعيشه اليوم من صور متنوعة للاضطراب النفسي الذي يعيشه الإنسان المعاصر برمته، والذي يعكس حجم القلق والفرع والخوف والحيرة التي تسلب الإنسان استقراره النفسي؛ فلا يستطيع العيش كما تتطلبه الفطرة، بل ولا يقدر -مع خطورة هذا الوضع - عمارة الأرض بالشكل الذي يقتضيه مقام التكريم والتفضيل، الذي خص الله تعالى به الإنسان ابتداء.

في هذا السياق لا نجد بدا من استحضار مقام العقيدة، ونحن نبحت عما يحقق هذا الأمن للنفس البشرية؛ حيث الناظر، سواء في تفاصيلها ومكوناتها من جهة، أو المستحضر لحياة المسلمين في ظل العقيدة الإسلامية منذ زمن النبوة وإلى اليوم، من جهة أخرى - سيقف -لا محالة- على القيمة المضافة للعقيدة الإسلامية في بناء حياة الإنسان عامة، والجانب النفسي بصفة خاصة؛ ولعل هذا ما تشير إليه -كما أوضحنا بالأدلة من خلال هذه الورقات- العديد من الآيات والقرائن.

وجملة الكلام بعد الذي سلف ذكره، أن للعقيدة الإسلامية أثرا واضحا في بناء الجهاز النفسي للإنسان، لا يفقه تفاصيله إلا من أبصر حقيقة العقيدة، وتذوق معاني وجود عالم الغيب في عالم الشهادة، والتي تجمعها الكثير من الآيات الربانية، لعل من أبرزها قوله جل جلاله في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَكُونَ﴾<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> الآية 82.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- تفسير التحرير والتنوير – ج 13 - الدار التونسية للنشر تونس-1984.
- التفسير القيم للإمام ابن القيم –جمعه محمد أويس الندوي-حققه محمد حامد الفقي- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان-
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي حققه عبد الرحمن معلا اللويحق -(مؤسسة الرسالة بيروت لبنان-ط1-2022).
- جامع الترمذي وهو الجامع الكبير: للإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي- وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد-المملكة العربية السعودية-ط2-2000.
- حرية الإنسان في ظل عبوديته لله: محمد سعيد رمضان البوطي: - (دار الفكر –دمشق- سورية-ط1-1992)
- دع القلق وابدأ الحياة: ديل كارنيجي – تعريب عبد المنعم محمد الزيايدي- مكتبة الخانجي القاهرة - مصر-ط16-1994.
- صحيح مسلم: للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي-دار الكتب العلمية-بيروت لبنان-ط1-1991.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول: ابن تيمية - تحقيق محي الدين عبد الحميد –عالم الكتب- 1403هـ.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير –دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت- لبنان ط2-1972.
- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني –رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ج8- المكتبة السلفية.
- لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت لبنان.

- معجم التعريفات- تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي- دار الفضيلة القاهرة مصر.
- المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون- مجمع اللغة العربية – مكتبة الشروق الدولية- ط3-2004.
- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني-ج1- تحقيق وإعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز-
- موسوعة أخلاق القرآن: أحمد الشرباصي: - دار الرائد العربي بيروت- لبنان- ط1-1981
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي-تحقيق عبد العظيم الشناوي-ج2- دار المعارف القاهرة- ط2.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية " - ج2- دار الكتب العلمية- بيروت –لبنان- ط2-1988.
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا-ج1- تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون- دار الفكر-1979
- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر للشيخ الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني- تحقيق ونشر مؤسسة الامام المهدي-قم إيران-ط1-1408هـ-
- Abraham Maslow : " A theory of human motivation" - in: Psychological Review – N:50-1943.

## التفسير العقديّ عند القاضي عياض:

## دراسة نماذج مختارة

د. عبد اللطيف تلوان

الكلية متعددة التخصصات بالناظور  
جامعة محمد الأول بوجدة  
المغرب

## مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله ومن والاه.

أما بعد، فقد أولى علماء العقيدة بالغرب الإسلامي اهتماما كبيرا للتفسير، حتى إن بعضهم إذا لم يكن له كتاب مستقل فيه، يعبر فيه عن اتجاهه العقدي في التأويل، فإنه لا يستنكف أن يعلن عن هذا البيان في كتبه الأخرى، إذا مر بآية، أو استدعاها للاحتجاج أو الاستشهاد بها. ويمثل القاضي عياض (ت 544هـ) هذا الصنف من العلماء، الذين لم يؤلفوا في التفسير خاصة، ولكنه فسّر آيات كثيرة في كتبه، ويعيننا، هنا، كتابه "الشفّا بتعريف حقوق المصطفى"، الذي ضمّنه تفسيراً عقدياً لجملة من الآيات القرآنية، تنتهي - في أغلبها - إلى قسم النبوت؛ لأن المقام كان مقام الترافع والدفاع عن جميع المرسلين، وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ونظراً لموسوعية القاضي عياض في درك علوم الشريعة، فإن هذا قد انعكس على تفسيره لآيات العقيدة، معتمداً في ذلك على أدوات التفسير، ومناهجه المعتمدة لدى أهل هذا الفن. ومن هنا، ارتأيتُ تناول بعض ذلك في دراستي هذه، التي وسمّتها بـ "التفسير العقدي عند القاضي عياض: دراسة نماذج مختارة"؛ لأبرز من خلالها جزءاً من العطاء العلمي للقاضي عياض في هذا الاتجاه من التفسير، ولأجيب عن إشكالية أساسية، نصّها كالآتي: أيّ عطاء للقاضي عياض في مجال التفسير العقدي؟

وسأعتمد، في الإجابة عن هذا الإشكال، المنهج الوصفي والتحليلي، وسأتبع خطة تتأسس على مقدمة ومبحثين وخاتمة. فأما المقدمة، فقد بينت فيها إشكالية الموضوع وأهميته ومنهجه. وأما المبحث الأول، فسأوضّح فيه مفهوم "التفسير العقدي"، وأصوله ومناهجه لدى علماء الغرب الإسلامي، وحظ القاضي عياض - رحمه الله - منه. وسأدرّس، في المبحث الثاني، نماذج مختارة من



تفسير القاضي عياض لآيات العقيدة. وسأخلصُ، في خاتمة الدراسة، إلى تسجيل أهم النتائج التي أسفر عنها البحث، مع تقديم أهم التوصيات المنبثقة عنه. والله ولي التوفيق.

**المبحث الأول: مفهوم التفسير العقدي، ومناهجه عند علماء الغرب الإسلامي، وحظ القاضي عياض منه**

أولى علماء الغرب الإسلامي اهتماما كبيرا للتفسير العقدي، وأبلوا فيه البلاء الحسن. يقول الدكتور نجيب العماري: "إن التفسير العقدي للآيات القرآنية عند علماء الغرب الإسلامي يشكل واسطة عقد العلوم الشرعية.. إنه يمكن العبد من معرفة مراد الله تعالى من خطابه للعباد معرفة حقّة، ويزيل عنه الغموض الذي قد يكتنف معنى بعض الآيات المتشابهة، والمتعلقة بمباحث ومسائل العقيدة، ويزوّد الباحثين، والمتخصصين في المجال، بوسائل وآليات تمكّنهم من تبسيط الدرس العقدي من خلال القرآن الكريم، والتعرف على المنهج الرباني في عرض الآيات العقدية"<sup>1</sup>. وسأطرق، في هذا المبحث، إلى تحديد مفهوم "التفسير العقدي"، وإبراز مناهجه، وبيان حظ القاضي عياض منه، وذلك في ثلاثة مطالب: الأول يبحث في مفهوم "التفسير العقدي"، والثاني يذكر أصول التفسير العقدي ومناهجه عند علماء الغرب الإسلامي، والثالث يبرز حظ القاضي عياض منه.

### المطلب الأول: مفهوم التفسير العقدي

يُحسُنُ أن أَيْنَ مفهوم "التفسير العقدي"؛ عن طريق تعريف كل لفظة في هذا المركب الوصفي على حدة، وبعد ذلك أستنبط من دراستهما المفهوم المقترح له؛ وذلك في ثلاثة فروع على النحو الآتي:

#### الفرع الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً

##### التفسير لغة:

يُشتق التفسير من جذر " ف س ر"، الذي أفاد في كتب اللغة عدة معانٍ، منها البيان<sup>2</sup>، والإيضاح<sup>3</sup>، والكشف<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - التفسير العقدي للقرآن الكريم بالغرب الإسلامي، ص: 04.

<sup>2</sup> - ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة "ف س ر"، 781/2.

<sup>3</sup> - ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة "ف س ر"، 504/4.

<sup>4</sup> - ينظر: القاموس المحيط، مادة "ف س ر"، ص: 456.

## التفسير اصطلاحاً:

تعددت تعريفات التفسير اصطلاحاً؛ بحيث عرّفه أهل الاختصاص بتعريفات متقاربة<sup>1</sup>، نجملها في الآتي: التفسير بيانٌ للقرآن الكريم، يتأسس على أصول معلومة عند أهل هذا الفن.

## الفرع الثاني: تعريف العقيدة لغة واصطلاحاً

## معنى العقيدة لغة:

يراد بالعقيدة، في اللغة، معنى الربط والشّدّ المحكم<sup>2</sup>. وتدلّ، أيضاً، على العزم إذا عقد الأمر على الشيء<sup>3</sup>. كما تدلّ على التصديق الذي لا يقبل شكاً<sup>4</sup>.

## معنى العقيدة اصطلاحاً:

وفي الاصطلاح، يعرف العقيدة بعضُ المعاصرين بأنها "ربط نظري عملي بين الجسد والروح، عن وعي فكري عميق بما عليه كلّ منهما تركيباً وطاقة وعملاً ومالاً"<sup>5</sup>؛ فهذا الربط يُنتج عن ذلك التأمل الواعي معرفة الوجود الذاتي من ناحية، والخالق من ناحية أخرى استجابةً لقاعدة إسناد الحركة إلى محرّكها ومحدّثها، وإضافة السبب إلى سببه وخالقه<sup>6</sup>. وعليه، يمكن القول إن العقيدة، في الاصطلاح، هي: ربط القلب على ما جاء به الوحي، في شأن الغيب، ربطاً لا يعتريه ريب.

## الفرع الثالث: مفهوم التفسير العقدي

يمكن مما تقدّم استنباط مفهوم "التفسير العقدي"، والتعبير عنه بما يأتي: هو بيان معاني آيات الإيمان بالغيب. ويتأسس على أصول معلومة عند أهل التفسير والكلام. فهذا التعريف يقوم، كما هو واضح، على عنصرين اثنين، هما:

بيان معاني آيات الإيمان بالغيب؛ بمعنى أنه اتجاؤه في التفسير يُغنى بتتبّع آيات العقيدة، وتبيين مراد الله تعالى منها. وتستوجب التصديق الجازم بموضوعها.

<sup>1</sup> - ينظر: البحر المحيط في التفسير، 26/1؛ البرهان في علوم القرآن، 13/1.

<sup>2</sup> - ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مادة "ع ق د"، 421/2.

<sup>3</sup> - ينظر: لسان العرب، مادة "ع ق د"، 296/2.

<sup>4</sup> - ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة "ع ق د"، 1528/2.

<sup>5</sup> - دور العقيدة في المسار الحضاري، ص: 5.

<sup>6</sup> - العقيدة الإسلامية في الغرب الإسلامي، ص: 13.

يتأسس على أصول معلومة عند أهل التفسير والكلام؛ يعني أن المتخصص فيه ينطلق من أصول التفسير من جهة، ومن أصول الدين من جهة أخرى؛ فيجمع بينهما ليكون تصورا منسجما مع المدرسة العقدية التي ينتهي إليها.

### المطلب الثاني: أصول التفسير العقدي عند علماء الغرب الإسلامي

يعتمد علماء العقيدة بالغرب الإسلامي على القرآن الكريم، والسنة النبوية، بوصفهما أصليين لتأسيس العقائد وبنائها. وتأتي بعدهما المصادر التبعية الخادمة والمؤيدة للمصادر الأصلية، وهي: الإجماع والعقل واللغة.

وبناء على ذلك، يقررون أنه ما كان من النصوص محكما، يؤخذ على ظاهره؛ وما كان منها متشابهها، فإنه يُرد إلى المحكم. وإذا أفاد في ظاهره معنى، لا يليق بالله سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته، وجب التأويل المجمل أو المفصل؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 6-7]؛ بمعنى أن الراسخين في العلم هم الذين أقدرهم الله سبحانه وتعالى على صَرْفِ المعنى الذي لا يليق بالله تعالى، في ظاهر النصوص، إلى المعنى الذي يليق به تعالى؛ وذلك باعتماد دلالة اللغة، التي نزل بها القرآن الكريم؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلَجِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103].

ولا بأس، عند بعض العلماء، من اعتماد الأساليب الذهنية، والبراهين العقلية، في إثبات ما جاء في العقائد القرآنية والحديثية، وإقامة المناظرات مع المخالفين، وتفنيدهم شَهْمهم وافترائهم؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الاحقاف: 19]، وقوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 14]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: 19].

ومن هنا، فإن تأسيس العقائد لا يمكن أن يكون إلا من طريق الوحي: قرآنا وسُنَّة صحيحة؛ فلا يعتمد علماء أهل السنة والجماعة أي مسألة عقدية إلا إذا كانت مؤصلة من الوَحْيَيْن. ولذلك، تجدهم يقعدون في مسألة الصفات، مثلا، منع كل إطلاق، وإن كان جميلا، في حق الله تعالى، إلا إذا أذن به الشرع؛ ف"الاحتكام في كل أبواب العقيدة للشرع، وليس للعقول إلا الفهم"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - البحر المحيط في التفسير، 1/26.

وبناء على ما سبق، فإن مناهج التفسير العقدي بالغرب الإسلامي تقسم إلى أقسام عدة باعتبار المصدر المعتمد عليه في التفسير، وهي على النحو الآتي:

- التفسير العقدي بالقرآن.
- التفسير العقدي بالسنة.
- التفسير العقدي بأقوال السلف.
- التفسير العقدي بالتأويل.
- التفسير العقدي باللغة.
- التفسير العقدي بأقوال العلماء.

وبما أن أغلب علماء العقيدة بالغرب الإسلامي ينتمون إلى المذهب الأشعري، وينهجون سبيل التأوي، فإنهم كانوا يسلكون مسلك صرّف الصفات الخيرية عن ظواهرها إلى معانٍ تفيدها اللغة، ويحتملها السياق، ولا تخرج عن أصول الدين<sup>1</sup>، والقصدُ تنزيه الله تعالى عن النقائص، ومشابهة المخلوقات<sup>2</sup>.

### المطلب الثالث: حظّ القاضي عياض من التفسير العقدي

ألّف المرحوم حسن الوراكلي، في بيان مكانة القاضي عياض في التفسير، رسالة أوفت حق الرجل في هذا المجال، ذكر فيها ما يدل على أهليته للتفسير. ونتيجة لذلك، تحسّر على عدم تأليف القاضي عياض كتاباً مستقلاً في التفسير؛ فقال: "ما نعرفه عن النشاط الذي تميزت به حركة التأليف في التفسير، والقراءات، وعلوم القرآن في الغرب الإسلامي، ولاسيما الأندلس على عصر عياض، كان من شأنه أن يستجّته، وهو مَنْ نعرف سعة اطلاعه في علوم الآلة والرواية، على التأليف في ذلك"<sup>3</sup>. واستدل على هذه المكانة<sup>4</sup> بما يأتي:

<sup>1</sup> - ينظر: علم الكلام ولحن العوام - محاولة لبيان خصائص الاجتهاد الكلامي في مشروع محمد بن خليل السكوني الإصلاحي، ص: 90.

<sup>2</sup> - ينظر: أربعون مسألة في أصول الدين، ص: 35.

<sup>3</sup> - القاضي عياض مفسراً، ص: 14.

<sup>4</sup> - نفسه، ص: 15 وما بعدها.

- وصف القاضي أبو عبد الله بن عياض والده بأنه كان ذا حظ من التفسير وعلومه؛ فقال: "كان من حُفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجبير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه"<sup>1</sup>.

- جاء في ترجمة ابن فرحون للقاضي عياض أنه كان "إمام وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيراً بالأحكام، عاقداً للشروط، حافظاً لمذهب مالك رحمه الله تعالى"<sup>2</sup>.

ومما يدل على مكانته في التفسير، ولو لم يؤلف فيه، ذكره كثيراً من شيوخه في التفسير في كتابه "الغنية"، وعلى رأسهم أبو بكر بن العربي المعافري<sup>3</sup>. وألف الداوودي "طبقات المفسرين"؛ فخصَّ القاضي عياض بترجمة وافية<sup>4</sup>، واستعان به في ترجمة كثير من العلماء<sup>5</sup>.

وعليه، فقد توافرت الأدلة على اشتغال القاضي عياض بالتفسير بصفة عامة، وكان للتفسير العقدي حضور لافت ضمنه، وهذا ما سيوضحه المبحث الموالي بحول الله.

### المبحث الثاني: دراسة نماذج مختارة من التفسير العقدي عند القاضي عياض

اعتمدت على كتاب "الشفاء" في اختيار النماذج الدالة على التفسير العقدي عند القاضي عياض؛ لأنه كتاب تميز بالفرادة، كما يحكي ذلك عنه الداوودي قائلاً: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أبدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه كفايته فيه، ولم ينازعه أحد الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوقوا للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه، وحمل الناس عنه، وطارت نُسَخُه شرقاً وغرباً"<sup>6</sup>. ويقول مزكياً هذا التطريز الحسن الوراكلي: "مَنْ يقرأ صفحات التفسير في الشفاء، يُلف نفسه بإزاء مؤلفٍ بقدر ما استوعب، وتمثل كذلك ما كانت تحويه المكتبة القرآنية في عصره من كتب التفسير، وتآليف في القراءات، وتصانيف في علوم

<sup>1</sup> - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، 7/3.

<sup>2</sup> - الديباج المذهب، 47/2.

<sup>3</sup> - ينظر: الغنية - فهرست شيوخ القاضي عياض، ص: 66.

<sup>4</sup> - طبقات المفسرين، 25-21/2.

<sup>5</sup> - ينظر: "طبقات المفسرين" للداوودي، 1/92: 94؛ 167: 209؛ 212: 409؛ 2/25: 74؛ 170: 268؛ 300: 301؛ 331: 341؛ 342: 363؛ 368.

<sup>6</sup> - طبقات المفسرين، 23/2.

القرآن، استوعب، وتمثل كذلك ما كانت مختلف المكتبات العلمية تحويه من أمّهات الحديث، وصحاح العربية، وأصول الفقه، والكلام، وغير ذلك"<sup>1</sup>.

وسأدرس، في هذا المبحث، نماذج مختارة من كتاب "الشفاء" للقاضي عياض، في ثلاثة مطالب، يتولى أولها دراسة نماذج من آيات الإلهيات، والثاني نماذج من آيات النبوات، والثالث نماذج من آيات السمعيات.

### المطلب الأول: دراسة تفسيره لآيات في الإلهيات

يتمثل مذهب القاضي عياض في تفسير آيات الإلهيات في حسن الأدب مع الله تعالى، وقصد تنزيهه سبحانه عن النقائص ومشابهة الحوادث، وإرجاع الأمر كله إليه؛ بحيث لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم؛ فلا يقع شيء في الكون إلا بإرادته وقدرته. وفي ما يأتي نماذج من تفسيره في قسم الإلهيات، نتقصى فيها أثر ما ذكرناه:

يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]

قال القاضي ملخصاً ما يمكن استفادته من هذه الآية في مجال الاعتقاد: "أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته، وحسن أسمائه، وعليّ صفاته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي"<sup>2</sup>.

وهكذا، يختار القاضي عياض مذهب أهل السنة والجماعة في بيان الآية القرآنية، وهو التوسط؛ فلا تشبيه ولا تعطيل، إذ "صفات القديم بخلاف صفات المخلوق؛ فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزّه عن ذلك، بل لم يزل بصفاته وأسمائه"<sup>3</sup>. ثم بين هذا التوجه بقوله: "جلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثّة صفة قديمة، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم"<sup>4</sup>.

1 - القاضي عياض مفسراً، ص: 33.

2 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، 473/1.

3 - المصدر نفسه، 475-174/1.

4 - نفسه، 475/1.

وقد استند القاضي عياض، في تفسيره هذه الآية، إلى أبي المعالي الجويني، وأبي القاسم القشيري، وذي النون المصري، وإلى مشايخه، من غير أن يذكر أسماءهم<sup>1</sup>.

ويختتم هذا البيان بالدعاء قائلا: "ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات والتنزيه، وجنبنا طر في الضلالة والغواية من التعطيل والتشبيه بمنه ورحمته"<sup>2</sup>. وقد دل هذا الدعاء على أمور ثلاثة في الاعتقاد، وهي ملخص ما جاء في تفسيره آية الشورى:

الأول: التوحيد في عرف أهل السنة والجماعة قائم على إثبات صفات الكمال والجلال والعظمة لله تعالى، وعلى نفي مشابهة الحوادث.

الثاني: عيوب التوحيد التي تخل به عند أهل السنة والجماعة تنحصر في رأيين متضادين:

تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق؛

تعطيل القول بالصفات خوفا من الوقوع في التشبيه.

الثالث: اعتقاد الهداية من الله تعالى وأنه لا هداية إلا بمحض التفضل منه سبحانه؛ إذ هو

الرحمن الرحيم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]

يسترسل القاضي عياض في بيان توجهه في الصفات؛ فيبحث في الآراء عما يدفع شبهة التشبيه إذا حُمِلَت الآية على ظاهرها. يقول: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" يريد: عند البيعة"<sup>3</sup>. ثم نقل ما جاء من تأويل في أقوال العلماء؛ فذكر ما يأتي:

- "قيل: قوة الله.

- وقيل: ثوابه.

- وقيل: منته.

- وقيل: عقده"<sup>4</sup>.

1 - ينظر: الشفا، 1/475.

2 - نفسه، 1/477.

3 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/126.

4 - نفسه، 1/126-127.

قبل أن يخلص إلى القول إن "هذه استعارات وتجنيس في الكلام، وتأكيده لعقد بيعتهم إياه، وعظم شأن المبايع صلى الله عليه وسلم".<sup>1</sup>

فقول القاضي عياض: "يريد عند البيعة"، و"تأكيد لعقد بيعتهم إياه"، و"عظم شأن المبايع صلى الله عليه وسلم"، بالإضافة إلى ما نقله في معنى الآية من أقوال العلماء الدالة على المجاز، دليل على منهجه في تفسير آيات الصفات الخيرية؛ بكونه يصرفها عن ظاهرها إلى ما يحتمله السياق من المعاني التي تنزه الله تعالى عن النقائص، وتثبت له المحاسن.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 17]

قال القاضي عياض في معناها: "ما قتلتموهم، وما رميتهم أنت إذ رميت وجوهم بالحصباء والتراب، ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع، أي إن الرمي كانت من فعل الله؛ فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم".<sup>2</sup>

وبين، في موضع آخر، أن الآية أفادت الحقيقة، ولم تفد المجاز؛ فيقول: "هذا في باب الحقيقة؛ لأن القاتل والرامي بالحقيقة هو الله، وهو خالق فعله، ورميه، وقدرته عليه، ومشيتته؛ ولأنه ليس في قدرة البشر توصيل تلك الرمية حيث وصلت".<sup>3</sup>

وهذا الذي قال به القاضي عياض تطبيق لمبدأ الكسب<sup>4</sup>، الذي يُرجع أصل الفعل إلى الله تعالى على الحقيقة؛ لأن مصدر فعل العبد من فعل الله تعالى؛ فأى عمل أحدثه العبد لا حول ولا قوة له فيه إلا بالله العلي العظيم.

### المطلب الثاني: دراسة تفسيره لآيات في النبوات

إن أغلب الآيات، التي فسرهما القاضي عياض في "الشفاء"، تنتمي إلى قسم النبوات؛ لأن المقام كان مقام الترافع عن جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأكثر ما ميز كتابه، في هذا القسم، حديثه عن عصمة الأنبياء؛ فجدده يلتمس أحسن المخارج لهم، ويرد الروايات الضعيفة والإسرائيليات التي تُنقص من قدرهم؛ وكذلك حديثه عن المعجزات، وعلى

1 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 127/1.

2 - نفسه، 92-93/1.

3 - نفسه، 126-127/1.

4 - قال عنه الإمام السكوني: "ما وجد في محل العبد، وله عليه قدرة حادثه" (التمييز: 151/1).



رأسها معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القرآنية، التي عقد لها فصلا كاملا، بين فيه أوجه الإعجاز المتحدّى به البلغاء والدُّعاة على امتداد الزمان والمكان. وفي ما يأتي نماذج من ذلك:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94]

قال القاضي عياض: "فاحذر - ثبت الله قلبك - أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه، وأنه من البشر!! فمثل هذا لا يجوز عليه جملة. بل قد قال ابن عباس: لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسأل. ونحوه عن ابن جبير والحسن. وحكى قتادة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: ما أشك، ولا أسأل. وعامة المفسرين على هذا. واختلفوا في معنى الآية؛ ف قيل المراد: قل يا محمد للشاك: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ الآية"<sup>1</sup>.

وبما أنه يستحيل، عند علماء العقيدة، حلول الشك في روع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالصدق لازم لهم، لا ينفك عنهم وجوبا. وقد أكد هذه الحقيقة القاضي عياض في تفسيره الآيتين؛ برّد الأخبار الضعيفة والمسندة إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منها براء. وذكر الكلام المسند إليه صحيحا: "بل قد قال ابن عباس: لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يسأل"<sup>2</sup>. ثم اختار أحسن المخارج لفهم الآيتين، وفق التصور القرآني، بقوله: "فقيل المراد: قل يا محمد للشاك إن كنت في شك"<sup>3</sup>.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: 34]

ومما جاء عن القاضي عياض في دفاعه عن عصمة الأنبياء قوله في عصمة سيدنا سليمان عليه السلام: "لا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلمته على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله"<sup>4</sup>. فهو بهذا يردّ ما يستند إليه بعض المفسرين من الروايات الإسرائيلية في قصص الأنبياء عليهم السلام، والتي - في عمومها - لا تحترم خصوصية الأنبياء عليهم السلام، ولا تقدّر عقيدة العصمة فيهم.

1- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 233/2.

2- نفسه، 233/2.

3- نفسه.

4- نفسه، 381/2.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38]

يقول القاضي عياض مستفيدا من آيات التحدي بالقرآن<sup>1</sup>: "لم يزل يقرعهم صلى الله عليه وسلم أشد القرع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسقاه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، مخجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالكذب، والاعتراء بالافتراء"<sup>2</sup>. ثم بين أوجه الإعجاز، التي هي على ضربين، هما:

- "ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه؛ فتعجيزهم عنه فعل لله، دل على صدق نبيه؛ كصرفهم عن تمني الموت، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم ونحوه.

- وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر؛ مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله؛ فيكون ذلك على يد النبي صلى الله عليه وسلم من فعل الله تعالى، وتحديده من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له"<sup>3</sup>.

ويرى القاضي عياض أن الإعجاز المرتبط بالقرآن الكريم ينحصر في أربعة أوجه:

أولها: "حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب"<sup>4</sup>. وثانيها: "صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له"<sup>5</sup>.

وثالثها: "ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع؛ فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - تُنظر الآيات مفسرة من كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى"، 1/504: 505: 735.

<sup>2</sup> - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، 1/505.

<sup>3</sup> نفسه، 1/493.

<sup>4</sup> نفسه، 1/500.

<sup>5</sup> نفسه، 1/511.

<sup>6</sup> نفسه، 1/518.

**والوجه الرابع:** "ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة؛ مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفدّ من أخبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك"<sup>1</sup>. ولتأكيد مذهبه هذا، استدل - من الناحية التطبيقية - بمطلع سورة "ص"؛ فقال عياض: "فتأمل أول "ص"، وما جمع فيها من أخبار الكفار، وشقاقهم، وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، وما ذكر من تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتعجبهم مما أتى به، والخبر عن اجتماع ملتهم على الكفر، وما ظهر من الحسد في كلامهم، وتعجيزهم، وتوهمهم، ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم، وتصبير النبي صلى الله عليه وسلم على أذاهم، وتسليته بكل ما تقدم ذكره. ثم أخذ في ذكر داود، وقصص الأنبياء.. كل هذا في أوجز كلام، وأحسن نظام. ومنها: الجملة الكثيرة، التي انطوت عليها الكلمات القليلة"<sup>2</sup>. يُستنتج من هذا أن القاضي عياض يرى أن إعجاز القرآن لفظي ومعنوي معاً؛ فاللفظي يتمثل في نظم، والمعنوي يتمثل في مضامين أخباره الغيبية. وهو بهذا يمثل اتجاه أهل السنة والجماعة، الذين لا يقولون بالصرفة<sup>3</sup> في إعجاز القرآن الكريم.

يقول الله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1]

استند القاضي عياض، إلى هذه الآية، للتدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وردّ حجة المنكرين لانشقاق القمر؛ وذلك بقوله: "لا يلتفت إلى اعتراض مخدول بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض؛ إذ هو شيء ظاهر لجميعهم؛ إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة، فلم يروه انشقّ. ولو نقل إلينا عمّن لا يجوز تماؤلهم؛ لكثرتهم على الكذب، لما كانت علينا به حجة؛ إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض؛ فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين. وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال. ولهذا، نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعضها جزئية، وفي بعضها كلية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96]، وآية

<sup>1</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 523/1.

<sup>2</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 541/1.

<sup>3</sup> قال الرماني في تعريف الصرفة: "هي صرف الهمم عن المعارضة. وفي ذلك يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن معارضته" (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 101).

القمر"<sup>1</sup>. وقال أيضا مستدلاً على وقوع معجزة انشقاق القمر حقيقة، وليس مجازاً: "أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته.

وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرقتين؛ فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول صلى الله عليه وسلم: اشهدوا. وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم"<sup>2</sup>.

وبهذا، يكون القاضي عياض قد استند إلى النقل (القرآن، الحديث، الإجماع)، وإلى العقل (القياس)، وإلى المحسوس (الكون)؛ لإثبات المعجزة، التي دلَّ عليها قوله سبحانه وتعالى: ﴿اَفْتَرَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:1].

### المطلب الثالث: دراسة تفسيره لآيات في السمعيات

فسر القاضي عياض آيات السمعيات، وسأقتصر - هنا - على جاء في إثبات الشفاعة، وفي إثبات رؤية الله تعالى، مُكتفياً بذكر نموذج عن كل مسألة على النحو الآتي:

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

[الإسراء: 79]

فسر القاضي عياض هذه الآية بالحديث الصحيح، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي دعوة مستجابة، يدعوا بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»<sup>3</sup>. وثنى بنقل شرحه: "معناه دعوة أعلم أنها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكلم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة، ولنبينا صلى الله عليه وسلم منها ما لا يعد، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف. وضمنت لهم إجابة دعوة فيما شاؤوه يدعون بها على يقين من الإجابة"<sup>4</sup>. ثم خلَّص، من خلال قراءته الأحاديث الواردة في تفسير الآية، وما قيل فيها من شروح، إلى القول إن "شفاعته، صلى الله عليه وسلم، ومقامه المحمود، من أول الشفاعات إلى آخرها، من حين يجتمع

<sup>1</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 574/1.

<sup>2</sup> نفسه، 544-543/1.

<sup>3</sup> صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة، ر. ح: 5945، 2323/5.

<sup>4</sup> نفسه، 432/1.

الناس للحشر، وتضييق بهم الحناجر، وبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه، وذلك قبل الحساب؛ فيشفع حينئذٍ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط، ويحاسب الناس<sup>1</sup>. وهكذا، نجد القاضي عياض يستدل بأخبار الأحاد في باب السمعيات، ويحملها على ظاهرها دون تأويل.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143]

قال القاضي عياض في تفسير هذه الآية: "أي لن تطيق، ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثلا ممّا هو أقوى من نبيه موسى، وأثبت، وهو الجبل. وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة"<sup>2</sup>. فقد أثبت القاضي عياض جواز رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة شرعا وعقلا، وردّ على المنكرين بالأدلة الآتية<sup>3</sup>:

رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلا، وليس في العقل ما يحيلها.

سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل.

ليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها، ولا امتناعها؛ إذ كل موجود، فرؤيته جائزة غير مستحيلة.

﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ليست على العموم، ولأن من قال: معناها لن تراني في الدنيا، إنما هو تأويل.

وقول موسى عليه السلام: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من سؤالي ما لم تقدره لي.

لا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: 103]؛ لاختلاف التأويلات في الآية، ولأنه استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية، وعدم استحالتها على الجملة.

<sup>1</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 431/1.

<sup>2</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 382/1.

<sup>3</sup> ينظر: الشفا، 385-382/1.

ثم ختم المسألة بقاعدتين، تثبتان الرؤية:

الأولى: "حيث تتطرق التأويلات، وتتسلط الاحتمالات، فليس للقطع إليه سبيل"<sup>1</sup>.

الثانية: "إذا قوى الله تعالى مَنْ شاء من عباده، وأقْدَره على حُمْل أعباء الرؤية، لم تمتنع في حقه"<sup>2</sup>.

وبالجملة، فالقاضي عياض يرى جواز رؤية الله تعالى دُنْيا وأُخْرى. وقد استدل على ذلك بالمنقول والمعقول، وردَّ على المنكرين، ثم خَلَص إلى قواعد قيِّمة في هذا الباب، فجزاه الله عنا خيرا.

## خاتمة:

بين هذا البحث أهمية التفسير العقدي في الغرب الإسلامي، وحظ القاضي عياض منه، ثم ذكر نماذج من تفسيره لآيات في العقيدة من خلال كتابه "الشفّا بتعريف حقوق المصطفى". وقد تأكد أنه فسّر كثيرا من آيات العقيدة في أقسامها الثلاثة: الإلهيات والنبوات والسمعيات، وأنه انتهج، في كل ما فسره، منهج أهل السنة والجماعة في إثبات العقائد الإيمانية، التي دلت عليها النصوص القرآنية؛ بالجمع بين النقل والعقل، جاعلا الصدارة والتأسيس للقرآن الكريم، ولما صح من حديث الرسول الأمين، صلى الله عليه وسلم، وثنى بأدلة العقل للبيان والإفهام، واكتشاف ما انطوى عليه نص الوحي من أدلة منطقية وواقعية ثابتة.

وهكذا، ومن خلال ما تم الوقوف عليه من تفسير القاضي عياض لآيات العقيدة، يتبين أن الرجل امتلك، بالفعل، أدوات التفسير، واعتمد على أصول المفسرين، وسلك منهج أهل السنة والجماعة في تفسير آيات الاعتقاد.

وأوصي، في آخر هذه الدراسة، الباحثين بمزيد عناية بتفسير عياض العقدي، اعتمادا على تراثه الذي وصلنا مطبوعا ومخطوطا، واعتمادا على ما نقله عنه العلماء في كتبهم وتراجمهم له. وبهذا، يمكن جمع تفسير عقديّ شامل للقاضي عياض، يضم جميع أقواله وآرائه في فهم آيات العقيدة وتفسيرها.

والحمد لله رب العالمين.

<sup>1</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/385.

<sup>2</sup> الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/385.

## لائحة المصادر والمراجع

• المصحف الشريف.

### المراجع العربية:

- أربعون مسألة في أصول الدين، تح: يوسف أحنانه، من منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، ط.1، 1442هـ/2021م.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس أحمد المقري (ت 1041هـ)، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط.1، 1358هـ/1939م.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (ت 794هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط.1/1376هـ/1957م.
- التفسير العقدي للقرآن الكريم بالغرب الإسلامي، أعمال الفوج الأول من ماستر "الدراسات القرآنية بالغرب الإسلامي: قضايا ومناهج"، تنسيق: الباحثة فاطمة ازحيبي، مراجعة وتصحيح وتقديم: د. نجيب العماري، مطبعة القبس، المغرب، ط.1، 2020م.
- التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز، أبو علي السكوني، تح: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2005م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني (ت 384هـ) والخطابي (ت 388هـ) والجرجاني (ت 471هـ)، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط.3، 1976.
- دور العقيدة في المسار الحضاري، سالم العدلي، الزيتونة للإعلام والنشر، ط.1، 1989.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون (ت 799هـ)، تح: محمد

- الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د. ت.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ت 544هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط. 2، 1407هـ.
- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 4، 1407هـ/ 1987م.
- طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي الداوودي (ت 945هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- العقيدة الإسلامية في الغرب الإسلامي: عبد الحميد باديس أنموذجا، حكيمة شامي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2009م.
- علم الكلام ولحن العوام: محاولة لبيان خصائص الاجتهاد الكلامي في مشروع محمد بن خليل السكوني الإصلاح، خالد زهري، مجلة "الإبانة"، من إصدارات "الرابطة المحمدية للعلماء"، ع. 3/2، شعبان 1436هـ/ يونيو 2015م.
- الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، تح: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1402هـ/ 1982م.
- القاضي عياض مفسرا، الحسن الوراكلي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ط. 1، 1985.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ت 817هـ)، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 8، 1426هـ/ 2005م.
- لسان العرب، ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت، ط. 1.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.



- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط.1، 1429هـ/2008م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت 395هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م.

## منهج الإمام البخاري في دراسة علم مختلف الحديث من خلال كتابه "الجامع الصحيح": نماذج تطبيقية

د. حمزة بوعلالة

باحث مغربي  
ومدير مجلة "المنتقى للدراسات والأبحاث  
المغرب



### مقدمة

الحمد لله الذي هدانا إلى طريق العلم والعرفان، والصلاة والسلام على نبينا الكريم سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحابه الهداة المهتدين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين. وبعد، فإن السنة النبوية الشريفة تشكل المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي - بعد القرآن الكريم - باعتبارها صنو القرآن وترجمانه، وهي المفصلة لأحكامه، والمخصصة لعامة، والمقيدة لمطلقه، وقد قال الله في شأن هذا البيان: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44].

وقد تنبه الرعيل الأول من الصحابة والتابعين إلى هذه الخصائص التي اختصت بها سنة المصطفى ﷺ فاجتهدوا في حفظ حديثه وصيانيته، بمختلف أنواع الحفظ، فحفظوه في صدورهم حفظاً متقناً، ساعدهم عليه ما امتلكوه من قوة ذاكرة، وجودة حفظ، وطول باع في علوم اللغة، كما حفظوه في السطور بما توفر لهم آنذاك من وسائل الحفظ من جلود وعظام وأحجار وغيرها...؛ رجاء الدخول في بركة دعائه ﷺ «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَلَبَّغَهُ غَيْرُهُ قَرَّبَ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرَبَّ حَامِلٍ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ»<sup>(1)</sup>.

وقد تواصلت الجهود في حفظ ميراث المصطفى ﷺ بعد جيل الصحابة والتابعين ممن هيأهم الله تعالى لحفظ هذا الدين، قال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا"<sup>(2)</sup>، ومن هؤلاء العلماء شيخ المحدثين وإمامهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم

<sup>(2)</sup> أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم: 3660، 501/5.

<sup>(1)</sup> أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يُدْكَرُ في قُرْنِ الْمِئَةِ، رقم: 4291، 349/6.

البخاري، حيث كتب الله له التوفيق لجمع ميراث النبوة في كتابه الجامع الصحيح، حتى أصبح أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، وقد تلقته الأمة المحمدية بالقبول، إلا أن أعداء هذا الدين حاولوا الطعن فيه عن طريق تشكيكهم في صحته، ومن القضايا التي دسوها حجة لهم؛ قضية التعارض - الظاهر - بين أحاديثه ﷺ.

وتأتي هذه الورقة البحثية للحديث عن منهج الإمام البخاري في دفع هذا التعارض - الظاهر - بين أحاديث المصطفى ﷺ من خلال كتابه الجامع الصحيح، ببحث وسمته بـ "منهج الإمام البخاري في دراسة علم مختلف الحديث من خلال كتابه "الجامع الصحيح": نماذج تطبيقية".

**إشكالية البحث:**

يعتبر علم مختلف الحديث من العلوم التي تعالج قضية التضاد والتناقض المتوهم بين ظواهر بعض ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ، وهو من العلوم التي تشتد الحاجة إليها في خدمة الشريعة والذود عنها، ودحض الشبهات والمزاعم من بين يديه ومن خلفه في القديم والحديث، حتى أضحى هذا الموضوع تكة للطاعنين والملحدين - في الماضي والحاضر- من لدن عهد الشافعي - رحمه الله- وربما من قبل ذلك أيضا إلى هذا العهد الذي ابتلي فيه المسلمون بالمستشرقين وأذناهم الذين تبنوا أفكارهم وصاروا ينشرونها حتى اغتر بها كثير من جهلة المسلمين الذين ليس لهم دراية واسعة بحقيقة هذه الطعون والشكوك.

في حين أن طوائف كثيرة من المسلمين الأخيار وقفوا أمام أمثال هذه القضايا حائرين مضطربين لا يملكون ردها ولا يعرفون لها دحضا ولا جوابا، بل ربما عرض لهم - في ذات أنفسهم - عارض شك وريب، ومسهم طائف من الشيطان موسوسا وملبسا.

لذلك كله كان من أولى ما تتعين العناية به وصرف الجهود إليه؛ دراسة قضية التعارض والتضاد الواقع بين ظواهر حديث رسول الله ﷺ وتحليلها والكشف عن خفاياها، ودفع ما يتبادر إلى الأذهان من تضادها وتخالفها، وقد كان للإمام البخاري أثر في دفع ما يوهم التعارض بين الأحاديث النبوية في كتابه الجامع الصحيح، وللحاجة الماسة لمعرفة طريقته في ذلك وأهم قواعده، ولما يترتب على معرفتها من فهم كثير من أحوال مختلف الحديث كانت هذه الدراسة. ويمكننا التعبير عن هذا الإشكال بالصيغة الاستفهامية التالية:

ما هي أهم القواعد التي بنى عليها الإمام البخاري منهجه في دراسة علم مختلف الحديث؟

ويمكن تجلية أهمية هذا الموضوع في كون علم مختلف الحديث مهم جدا لفهم الأحاديث النبوية فهما سليما، وتعظم أهميته لأهمية متعلقه فهو يتعلق بالسنة النبوية، المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم. وهو من أهم أدوات استنباط الأحكام الشرعية من السنة النبوية استنباطا صحيحا، وجهل الفقيه به يؤدي إلى التخطي، وعدم الوصول إلى الحكم الصحيح؛ حيث إنه يبين للباحث والناظر في السنة النبوية السبل التي يجب اتباعها لدفع التعارض الظاهري بين مختلف الحديث.

فهذا العلم يمثل أعلى درجات توثيق المتن ونقده عند المحدثين، ولا يخفى على من له إلمام بالعلوم الإسلامية أن المحدثين اعتنوا بتوثيق متن الحديث، كاعتنائهم بتوثيق السند تماما، واهتموا بحال المروي، كما اعتنوا بحال الراوي، وهذا يسهم في فهم الحديث النبوي فهما صحيحا سليما، بإعمال الأدلة وعدم تركها قدر المستطاع.

علاوة على ما تقدم، فإن هذا الموضوع يعد من أهم الوسائل والأدوات لدحض شبهات أعداء الإسلام الذين يشككون في الحديث النبوية عامة، وفي صحيح البخاري خاصة، ويطعنون فيه بالتعارض والاختلاف.

### أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق أهداف عدّة، منها:

- إزالة الشبهات التي تثار حول التعارض بين الأدلة، وبيان أن هذا التعارض في الحقيقة إنما هو ظاهري، ويرجع إلى اختلاف الأفهام والمدارك والعقول، وأن كلام الرسول ﷺ لا يمكن أن يتناقض، أو يخالف بعضه بعضا، فقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوجَىٰ﴾ [النجم: 3-4].

- إبراز منهج الإمام البخاري في مختلف الحديث، وطريقة التوفيق بين الأحاديث النبوية، والأدلة التي ظاهرها التعارض، واستجلاء القواعد التي وظّفها في ذلك.

- التعرف على منهج العلماء في دفع التعارض، والوقوف على جملة من آرائهم، وبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لرأي الإمام البخاري.

- معرفة مناهج العلماء في التعامل مع الأدلة التي ظاهرها التعارض من الأهمية بمكان، وبالأخص الإمام البخاري الذي جمع بين مختلف العلوم في كتابه الصحيح من فقه وحديث ولغة وغيرها من العلوم، التي أعانته على البروز في هذا الفن.
- الكشف عن التنوع الاجتهادي عند العلماء، وبيان مسالكهم في التعامل مع مختلف الحديث.

### المنهج المعتمد في البحث:

تقتضي طبيعة البحث وبنيته، المزاوجة بين أكثر من منهج؛ لتحقيق الأهداف المرجوة، وصفوة ما اعتمدت عليه من المناهج؛ المنهج الاستقرائي؛ وذلك بتتبع المادة العلمية الماثورة في كتاب الجامع الصحيح، والتي لها صلة بالموضوع، لأجل جمع المادة الخام بغرض تحليلها والتأصيل العلمي لها، من خلال استخراج نماذج من النصوص التي تندرج تحت علم مختلف الحديث، وتحديد محل الاختلاف بين الأحاديث عند الإمام البخاري، وكيفية تعامله مع هذه الأحاديث المختلفة، وغير ذلك من الضوابط التي سار عليها في هذا العلم، ثم توظيفها في المواضع المناسبة لها، والمنهج التحليلي؛ ووجه الحاجة إليه، تحليل ما اخترته من نماذج من المادة العلمية، وإخضاعها لمناهج المحدثين في دراسة مختلف الحديث؛ لقياس مدى التزام الإمام البخاري لأركان هذا المنهج العلمي: (الجمع - النسخ - الترجيح).

### خطة البحث:

انسجما مع أهداف البحث المسطرة، وغاياته المقررة فقد جعلته في مقدمة، ومدخل، ثم ثلاثة مطالب، وخاتمة.

مدخل تمهيدي للبحث أشرت فيه إلى تعريف علم مختلف الحديث والفرق بينه وبين مشكله.

المطلب الأول: تحدثت فيه عن منهج البخاري في الجمع بين الأحاديث التي ظاهرها التعارض من خلال كتابه الجامع الصحيح، أما المطلب الثاني عرضت فيه نماذج من أعمال مسلك النسخ في إزالة التعارض بين أحاديث رسول الله ﷺ، وختمت هذه المطالب بنماذج من أحاديث سلك فيها الإمام البخاري مسلك الترجيح لإزالة التعارض والتضاد بينها.

الخاتمة ذكرت فيها جملة من نتائج وخلاصات البحث، مع بعض التوصيات العلمية والمنهجية في هذا الموضوع.

مدخل تمهيدي: تعريف مختلف الحديث، والفرق بينه وبين مشكله

أولاً: تعريف مختلف الحديث

يعدّ مصطلح مختلف الحديث مركباً إضافياً (مختلف، والحديث)، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، لأنّ معناه وصف الحديث بأنه مختلف، لذلك لا بد من تعريف جزأيه أولاً، ثم تعريفه باعتباره مركباً إضافياً.

تعريف المختلف لغة واصطلاحاً

المختلف لغة: مأخوذ من "الاختلاف"، وأصله مادة "خ ل ف". قال ابن فارس: "الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أحدهما أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني خلاف قدام، والثالث التغيّر"<sup>(1)</sup>.

والاختلاف مصدر للفعل "اختلف يختلف اختلافاً"، فهو من المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافاً، إذا ضاده وعارضه. وفي القاموس المحيط: "اختلف ضد اتفق"<sup>(2)</sup>. ويقال: "تخالف القوم واختلفوا، إذا ذهب كل واحد منهم إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق"<sup>(3)</sup>. ويقال: "تخالف الأمران واختلفا، إذا لم يتفقا. وكل ما لم يتساو، فقد تخالف واختلف"<sup>(4)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ [الأنعام: 142]؛ فالأكل: الثمر؛ أي: "مختلفاً ما يخرج منه مما يؤكل من الثمر والحب..."<sup>(5)</sup>. وقال الكفوي: "يقال: هذا الكلام مختلف إذا لم يشبه أوله آخره في الفصاحة أو بعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه"<sup>(6)</sup>. فهذه المعاني اللغوية تكاد تتفق على أن لفظة "مختلف" تدلّ على عدم الاتفاق بين شيئين، وهذه الدلالة هي ما سيُستصحب في بيان المعنى الاصطلاحي.

المختلف اصطلاحاً: عرف المختلف بعدة تعاريف، منها أنه: "منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق جواز إبطال باطل"<sup>(7)</sup>، وعرفه الراغب بقوله: "الخلاف والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (خ ل ف)، 2/210.

(2) القاموس المحيط ليعقوب الفيروز بادي، باب الفاء، فصل الخاء، 808/1.

(3) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد الفيومي، مادة (خ ل ف)، 1/179.

(4) لسان العرب لابن منظور، حرف الفاء، فصل الخاء المعجمة، 9/91.

(5) جامع البيان في تأويل القرآن لابي جعفر الطبري، 12/157.

(6) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، ص: 60.

(7) التوقيف على مهمات التعاريف للشناوي، ص: 322.

واحد طريقاً غير طريق الأول في فعله أو حاله" (1). وهذان التعريفان ينصان على أن معنى المختلف هو وجود التعارض والتخالف والتضاد.

### تعريف الحديث لغة واصطلاحاً

الحديث في اللغة بمعنى الجديد، هو ضد القديم. قال ابن فارس: "الحاء والدال والثاء أصل واحد، وهو كون الشيء لم يكن، يقال حدث أمر بعد أن لم يكن، والرجل الحدث: الطري السن، والحديث من هذا لأنه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء" (2).

أما في الاصطلاح، فقد عرّفه المحدثون بقولهم: "الحديث هو أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وتقديراته، وصفاته الخلقية والخلقية، ومن العلماء من يزيد في تعريف الحديث: وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم" (3).

### تعريف "مختلف الحديث" بوصفه مركباً إضافياً:

عرّف جمعٌ من علماء الحديث هذا العلم (مختلف الحديث) بتعريفات متقاربة، بينها شيء من الاختلاف، وقد يزيد بعضهم على بعض في بعض القيود، وسأورد - فيما يأتي - بعض هذه التعريفات، مشيراً إلى وجه الاختلاف أو الإضافة بينها؛ فأقول:

لعل الإمام الشافعي هو أول من تطرق إلى تعريفه قائلاً: "المختلف ما لم يمض إلا بسقوط غيره، مثل أن يكون الحديثان في الشيء الواحد، هذا يحلّه، وهذا يحرمه" (4).

وهذا يقتضي اختصاص مختلف الحديث بالأحاديث المتعارضة التي لا يمكن دفع التعارض عنها إلا بسلوك مسلك النسخ أو الترجيح، وأما الأحاديث التي يمكن دفع التعارض عنها بمسلك الجمع فلا تدخل في المختلف، بناء على هذا النص، ووضح ذلك بقوله: "وكلما احتمل حديثان أن يستعملا معاً، استعملا معاً، ولم يعطّل واحد منهما الآخر"، ثم قال: "فإذا لم يحتمل الحديثان إلا الاختلاف؛ كما اختلفت القبلة نحو بيت المقدس والبيت الحرام؛ كان أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً..." (5).

(1) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص: 294.

(2) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (ح د ث)، 36/2.

(3) الوسيط في علوم ومصطلح الحديث لأبي شُهبة، ص: 15، ومنهج النقد في علوم الحديث لنور الدين عتر، ص: 264.

(4) الرسالة للشافعي، ص: 342.

(5) اختلاف الحديث للشافعي، ص: 487.

وهذا يفيد أنه لا يوصف الحديثان بالاختلاف إلا إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بترك الآخر.

وعرفه ابن حزم بقوله "إذا تعارض الحديثان... فيما يظن من لا يعلم ففرض على كل مسلم استعمال كل ذلك لأنه ليس بعض ذلك أولى بالاستعمال من بعض ولا حديث بأوجب من حديث آخر مثله..."<sup>(1)</sup>.

ويظهر من هذا الكلام أن الإمام ابن حزم يدعو إلى مسلك الجمع بين النصوص، التي ظاهرها التعارض في حالة ظهر "فيما يظن من لا يعلم"، والعمل بهما معا؛ لعدم التفاضل بينهما.

إلا أن المتتبع لفصول كتابه "الإحكام" يجد أن ابن حزم - رحمه الله - استعمل مسلكا آخر؛ وهو مسلك النسخ في حالة تبين أن أحد النصوص منسوخ يقينا، وهذا ما صرح به في قوله: "فإن صح النسخ بيقين صرنا إليه، ولم نبال زائدا كان على معهود الأصل أم موافقا له"<sup>(2)</sup>. وعلى هذا الأساس، يكون تعريفه لعلم "مختلف الحديث" -، انطلاقا من النصوص السابقة -، هو "إذا تعارض الحديثان، وكان الجمع بينهما، أمكن العمل به، وإن صح النسخ بيقين صرنا إليه"<sup>(3)</sup>.

أما الإمام أبو الوليد الباجي - رحمه الله -، فقال: "إن الخبرين إذا وردا وظاهرهما التعارض، ولم يمكن الجمع بينهما بوجه، ولم يعلم التاريخ فيجعل أحدهما ناسخا والآخر منسوخا، رُجِحَ أحدهما على الآخر بضرب من الترجيح..."<sup>(4)</sup>. وقد أضاف مسلكا آخر إلى المسالك سالفه الذكر في كتابه "الإشارة في أصول الفقه"، وهو مسلك ترك النظر فيهما في حالة تعذر الترجيح بينهما؛ حيث قال: "إن تعذر الترجيح في أحدهما، ترك النظر فيهما، وعدل إلى سائر أدلة الشرع، فما دلّ عليه الدليل أخذ به، وإن تعذر في الشرع دليل على حكم تلك الحادثة، كان الناظر مخيرا في أن يأخذ بأي اللفظين شاء؛ الحاضر أو المبيح؛ إذ ليس في العقل حَظْر ولا إباحة"<sup>(5)</sup>.

(1) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، 21/2.

(2) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، 21/2.

(3) نفسه.

(4) إحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي، 740/2.

(5) الإشارة في أصول الفقه للباجي، ص: 226.



وعليه يكون تعريف الباجي لعلم مختلف الحديث على هذا الأساس: "أن يوجد خبران أو أكثر وظاهرهما التعارض فيجمع بينهما، فإن تعذر ذلك وعُلم التاريخ فيهما نسخ المتقدّم بالمتأخر، وإن جهل ذلك نظر في ترجيح أحدهما على الآخر، فإن تعذر الترجيح في أحدهما ترك النظر فيهما"<sup>(1)</sup>.

أما الإمام النووي فيرى بأن مختلف الحديث هو: "أن يأتي حديثان متضادان في المعنى ظاهراً فيوفق بينهما أو يرجح أحدهما"<sup>(2)</sup>؛ فالذي يبدو من تعريفه أنه يحصر المختلف فيما يمكن دفع الاختلاف عنه بالجمع أو الترجيح، ولم يذكر النسخ، كما أنه أفرد مبحث النسخ عن مبحث مختلف الحديث. إلا أن الملاحظ أن من فصل مبحث النسخ عن مبحث مختلف الحديث إنما فعل ذلك لزيادة البيان، ولحاجة مبحث النسخ إلى مزيد تفصيل، وإلا فالناسخ والمنسوخ عندهم جزء من المختلف، ويبين هذا أنهم عندما تعرضوا لمسالك دفع الاختلاف ذكروا منها مسلك النسخ<sup>(3)</sup>.

وأما الحافظ ابن حجر، فيقول: "مختلف الحديث، وطرق دفع التعارض بين الحديثين المتعارضين في الظاهر، وإن كانت المعارضة بمثله؛ فلا يخلو: إما أن يكون الجمع بين مدلوليهما بغير تعسف أو لا، فإن أمكن الجمع فهو النوع المسمى: مختلف الحديث"<sup>(4)</sup>. يظهر من تعريفه أنه يقصر مختلف الحديث على ما يمكن فيه الجمع بين الحديثين المختلفين؛ ولكن هذا غير مراد عنده، ولذا أورد عقبه مسلكي النسخ والترجيح دون تسمية مميزة لهما.

وقال التهانوي: "أن يأتي حديثان متضادان في المعنى بحسب الظاهر فيجمع بينهما بما ينفي التضاد"<sup>(5)</sup>.

وأضاف محمد أبو شُهبة: "أن يوجد حديثان أو أكثر متضادان في المعنى ظاهراً فيوفق بينهما أو يعتبر أحدهما ناسخاً للآخر أو يرجح أحدهما على الآخر"<sup>(6)</sup>.

ومن الملاحظ أن معظم تعاريف العلماء القدامى ومن جاء بعدهم تدور حول التعارض الظاهر بين حديثين، ولمزيد توضيح التعريف عمدوا إلى إضافة مسالك درء التعارض والتي يمكن إجمالها في الجمع أو النسخ، أو الترجيح.

(1) الإشارة في أصول الفقه للباجي: ص: 198.

(2) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث للنووي، ص: 90.

(3) اختلاف الحديث للشافعي، ص: 487، ومواضيع أخرى كثيرة، والتقريب للنووي، ص: 88-90.

(4) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ص: 216.

(5) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، 1492/2.

(6) الوسيط في علوم الحديث، ص: 441.

أما الباحثون المعاصرون فإن تعاريفهم قريبة مما ذكر مع شيء من التفصيل والإيضاح: فقد عرّف الدكتور صبحي الصالح مختلف الحديث بقوله: "هو علم يبحث عن الأحاديث التي ظاهرها التناقض من حيث إمكان الجمع بينهما، إما بتقييد مطلقها، أو بتخصيص عامها، أو حملها على تعدد الحادثة أو غير ذلك، ويطلق عليه علم تلفيق الحديث"<sup>(1)</sup>.

أما الدكتور نافذ حماد فقال عنه: "علم يتناول الحديثين اللذين يبدو في ظاهرهما الاختلاف والتعارض والتضاد، فإذا بحثها العلماء أزالوا تعارضها من حيث إمكان الجمع بينهما، وذلك ببيان العام والخاص، أو المطلق والمقيد، أو ما شابه ذلك، أو ببيان الناسخ من المنسوخ، أو بترجيح أحدهما"<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن تعاريف المعاصرين فصلت في بيان طرق الجمع والترجيح؛ الشيء الذي لا نجده في تعريفات القدامى، ولعل مرادهم في ذلك اعتبارهم أن هذه التفرعات تشكل فارقا مهما في تحديد مفهوم مصطلح "مختلف الحديث".

وإذا تأملنا في التعريفات السابقة - كذلك -، نلاحظ ما يأتي:

- إن العلماء قد حرصوا على ذكر قيد "الظاهر" في تعريفهم للدلالة أن التعارض لا ينسب إلى الحديثين ما كان لهما وجه يمضيان معا.

- إن التعارض ظاهري لا حقيقي، لأنه يستحيل أن يقع تضاد أو تعارض في كلام رسول الله ﷺ وذلك باعتبار أنه نبي يوحى إليه وفي هذا يقول القاضي أبو بكر البقلاني: "وكل خبرين علم أن النبي ﷺ تكلم بهما فلا يصح دخول التعارض فيهما على وجه، وإن كان ظاهرهما متعارضين"<sup>(3)</sup>.

- إن بعض العلماء أطلقوا "مختلف الحديث" على جميع الأحاديث التي بينها تعارض سواء أمكن دفع ذلك التعارض بالجمع، أو الترجيح، أو النسخ، بينما خص بعض العلماء مصطلح "مختلف الحديث" بالأحاديث التي يمكن الجمع بينهما فقط، وتوسط بعضهم فجعل "مختلف الحديث" يطلق على ما يدفع التعارض فيه بين الجمع أو الترجيح فقط.

ووفقا لما تقدم، يمكن القول إن علم "مختلف الحديث" هو علم يختص بدفع التعارض الظاهر بين حديثين أو أكثر، فيجمع بينهما ما أمكن، فإن تعذر ذلك وعُلم التاريخ فيهما نسخ

(1) علوم الحديث ومصطلحه، ص: 111.

(2) مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، ص: 17.

(3) الكفاية في معرفة أصول علم الرواية للخطيب البغدادي، 260/2.

المتقدّم بالتأخر إذا ثبت النسخ، وإن جهل ذلك نظر في ترجيح أحدهما على الآخر، فإن تعدّر الترجيح في أحدهما توقف النظر فيهما حتى يفتح الله على المجتهد في ذلك.

### ثانياً: الفرق بين مختلف الحديث ومشكله

هناك بعض المصطلحات ذات الصلة الوثيقة بمصطلح "مختلف الحديث" ولها علاقة متداخلة تلتقي معه في الدلالة والمعنى، وتوافقه إجمالاً في وظيفته، وأحياناً يطلق ويقصد به مختلف الحديث، ومن أشهرها مشكل الحديث<sup>(1)</sup>، حيث نجد هذا المصطلح كثيراً ما يأتي مقترناً بمختلف الحديث، بل إنه يختلط به في كثير من المصنفات، وعلى ألسنة العامة والخاصة، حتى إن الإمام الطحاوي سعى كتابه "مشكل الآثار"، فجاءت تسمية الكتاب موحية بأن النوعين شيء واحد. ومن المعاصرين نجد الدكتور الخطيب خلطهما ببعضهما في كتبه "لمحات في المكتبة والبحث والمصادر"<sup>(2)</sup>، و"أصول الحديث علومه ومصطلحه"<sup>(3)</sup>، و"المختصر الوجيز في علوم الحديث"<sup>(4)</sup>، فعرفهما تعريفاً واحداً، وأورد المصنفات فيهما في موضع واحد، كما عرف نور الدين عتر "مختلف الحديث" فقال: "وربما سماه المحدثون "مشكل الحديث". وهو ما تعارض ظاهره مع القواعد فأوهم معنى باطلاً، أو تعارض مع نص شرعي آخر"<sup>(5)</sup>.

وانطلاقاً من تعريف مختلف الحديث ومشكله، يظهر لنا جلياً ما بينهما من فروق ظاهرة؛ يتميز بها كل واحد منهما عن الآخر، وعليه يحسن في هذا المقام توضيح هذه الفروق، وذلك من خلال ما يلي:

### أولاً- الفرق اللغوي:

المختلف لغة: مشتق من الاختلاف بينما المشكل لغة: مشتق من الإشكال؛ وهو الالتباس، أي أن الاختلاف يكون بين شيئين أو أكثر؛ فنقول مثلاً هذا الأمر مختلف عن هذا، بينما الاشكال يمكن أن يكون الشيء نفسه.

(1) مشكل الحديث: هو الحديث الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ بسند مقبول، ويُوهم ظاهره معارضة آية قرآنية، أو حديث آخر صحيح مثله، أو إجماع معتبر، أو قياس، أو قاعدة شرعية كلية ثابتة، أو أصل لغوي، أو حس، أو معقول، أو حقيقة علمية. ينظر: مختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين الفقهاء، لأسامة خياط، ص 32؛ وجهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف، للدكتور محمد طاهر الجوابي، ص: 414.

(2) لمحات في المكتبة والبحث، ص: 205.

(3) أصول الحديث، ص: 283.

(4) المختصر الوجيز، ص: 117.

(5) منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر، ص: 337.

## ثانيا- الفرق من حيث السبب:

المختلف سببه معارضة حديث لحديث ظاهرا؛ أي إنه إذا لم يكن هناك تعارض بينهما فلا يتحقق معنى مختلف الحديث، فهو مقصور على ما قد يقع من تعارض بين الأحاديث دون غيرها من الأدلة.

بينما المشكل يتناول جوانب كثيرة تختلف فيما بينها بحسب الإشكال، فقد يكون بسبب وجود تعارض بين حديثين أو أكثر، وقد يكون بسبب كون الحديث مشكلا في معناه، لمخالفته في الظاهر لآية من القرآن، أو لاستحالة معناه، أو لمخالفته قاعدة شرعية ثابتة أو غيرها من الأمور كما أسلفنا الذكر في تعريفه.

## ثالثا- الفرق من حيث طريقة دفع التعارض أو الإشكال:

العمل على إزالة التعارض بين الحديثين في مختلف الحديث يجري على القواعد التي رسمها العلماء ويبنونها، عند توهم وجود التعارض، فيحاول المجتهد التوفيق بين الأحاديث المختلفة، بإحدى هذه الطرق؛ الجمع إن أمكن، أو النسخ إن تعذر الجمع وتحقق النسخ، أو الترجيح إن تعين.

بينما العمل في المشكل أوسع من ذلك فقد يكون بالتأمل والنظر في المعاني التي يحتملها اللفظ وضبطها، والاجتهاد في البحث عن القرائن التي يستعان بها في معرفة المراد من تلك المعاني المحتملة في اللفظ للوقوف على المعنى المقصود، وقد يكون برده وتضعيفه ويكون بغير ذلك<sup>(1)</sup>.

انطلاقا من هذه الفوارق بين مختلف الحديث ومشكله، يمكن القول إن العلاقة بينهما هي علاقة عموم بخصوص؛ فالمشكل أعم وأشمل من المختلف؛ لأن مختلف الحديث صورة من صور المشكل؛ فكل مختلف مشكل، وليس كل مشكل مختلفا.

وعليه، فإن العلاقة بين العلمين علاقة تكامل وترابط، حيث إن المقصد والغاية الكبرى من التأليف والتصنيف في مختلف الحديث ومشكله، إنما هي التوفيق وإزالة التعارض المتوهم بين بعض الأحاديث المتعارضة في الظاهر، أو التي تحتوي شبهة أو مشكلة فيما يبدو للمجتهد فيجتهد في إزالتها حتى لا تتخذ مطية من طرف أعداء هذا الدين، فلا بأس أن يطلق مصطلح مشكل الحديث، ويراد به مختلف الحديث، من باب إطلاق الكل وإيراد الجزء.

(1) منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي لعبد المجيد السوسوة، ص: 58

## المطلب الأول: مسلك الجمع عند الإمام البخاري في إزالة التعارض

اعتبر الإمام البخاري مسلك الجمع مقدما على كل مسالك دفع الاختلاف بين الأحاديث على طريقة الجمهور؛ وفي إجرائه على الأحاديث التي ظاهرها التعارض نص على قواعد أعمالها في ذلك. كحمل العام على الخاص، أو المطلق على المقيد، وغير ذلك، ويمكن توضيح ذلك من خلال النماذج الآتية:

## 1- الجمع ببيان اختلاف العام والخاص:

ومن الأمثلة الدالة على توظيف هذه القاعدة عند الإمام البخاري، في كتابه "الجامع الصحيح"، مسألة النهي عن الحديث بعد العشاء؛ فقد وردت فيها الأحاديث الآتية:

حديث المسدد قال: حَدَّثَنَا يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُهَالِ قَالَ: «انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي إِلَى أَبِي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ فَقَالَ لَهُ أَبِي: حَدَّثَنَا كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ؟ قَالَ: كَانَ يُصَلِّي الْهَجِيرَ، وَهِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الْأُولَى، حِينَ تَدْخُضُ الشَّمْسُ، وَيُصَلِّي الْعَصْرَ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَحَدُنَا إِلَى أَهْلِهِ فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ، وَنَسِيتُ مَا قَالَ فِي الْمَغْرِبِ، قَالَ: وَكَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُؤَخَّرَ الْعِشَاءُ، قَالَ: وَكَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَهَا، وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا...»<sup>(1)</sup>.

وتخالفه أحاديث أخرى، منها:

حديث عبد الله بن عمر قال: «صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنْ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»<sup>(2)</sup>.

وحديث ابن عباس قال: «بِتُّ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا، فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ، ثُمَّ قَالَ: نَامَ الْغُلَيْمُ؟ أَوْ كَلِمَةً تُشَبِّهُهَا، ثُمَّ قَامَ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَصَلَّى خَمْسَ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ نَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، أَوْ خَطِيطَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ»<sup>(3)</sup>.

وفي بعض روايات الحديث، قال ابن عباس: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ»<sup>(4)</sup>.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما يكره من السمر بعد العشاء، رقم: 599

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب السمر في العلم، رقم: 116.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب السمر في العلم، رقم: 117.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الآية، رقم: 4569.

## وجه التعارض بين هذه الأحاديث:

الاختلاف بين هذه الأحاديث ظاهر، فحديث أبي برزة جاء فيه النهي عن الحديث بعد العشاء وهو نهي عام، وقد خالفه في ذلك الأحاديث الأخرى، حيث يفهم منها جواز الحديث بعد العشاء، فحديث عبد الله بن عمر فيه أن النبي ﷺ حدّث أصحابه بعد أن صلّى العشاء، وفي حديث ابن عباس تحدّث النبي ﷺ مع أهله.

سلك الإمام البخاري لدفع التعارض بين هذه الأحاديث؛ مسلك الجمع، وذلك بتخصيص الحديث العام بالأحاديث الخاصة، وبيان ذلك أن أحاديث الرخصة خاصة بما تعلق به غرض شرعي كالسمر في العلم والفقه والخير أو حاجة كالسمر مع الأهل، وأما النهي الوارد في حديث أبي برزة فهو لما سوى ذلك من الحديث الذي لا فائدة منه، وهذا ما يبدو واضحاً من خلال تراجمه - رحمه الله - الدالة على ذلك؛ فقد ترجم لحديث أبي برزة بقوله: "باب ما يكره من السمر بعد العشاء"، وترجم لحديث ابن عباس وابن عمر بقوله: "باب السمر في العلم". قال ابن حجر معلقاً على حديث ابن عباس: "فإن قيل: هذا إنما يدل على السمر مع الأهل لا في العلم، فالجواب أنه يلحق به، والجامع تحصيل الفائدة، أو هو بدليل الفحوى؛ لأنه إذا شرع في المباح ففي المستحب من طريق الأولى"<sup>(1)</sup>.

وقد أشار إلى هذا المعنى، الذي ذكره الإمام البخاري، جماعة من أهل العلم؛ كابن خزيمة (ت 311هـ)، وابن عبد البر (ت 463هـ)، وابن العربي (ت 543هـ)، والنووي (ت 676هـ)، وغيرهم<sup>(2)</sup>.

## 2- الجمع ببيان المطلق والمقيد:

ومن الأمثلة الدالة على توظيف هذه القاعدة عند الإمام البخاري في كتابه الجامع الصحيح؛ مسألة مَنْ كَفَرَ أَخَاهُ، فقد وردت فيها الأحاديث الآتية:

حديث يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرٌ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»<sup>(3)</sup>.

(1) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر، 213/1.

(2) ينظر: صحيح ابن خزيمة، 291-292، والكافي لابن عبد البر، ص: 35، وأحكام القرآن لابن العربي، 328/3، وشرح صحيح مسلم للنووي، 146/5.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم: 6103.

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»<sup>(1)</sup>.

ويخالفهما حديثان آخران، ذكرهما الإمام البخاري، هما:

حديث عمر لحاطب بن أبي بلتعة: «دَغْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ، فَقَالَ ﷺ: مَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَهَذَا الَّذِي جَرَّأَهُ»<sup>(2)</sup>.

وحديث جابر بن عبد الله ﷺ «أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقْرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ فَقَرَأَ الْبَقْرَةَ فَتَجَوَّزْتُ، فَرَعَمَ أَبِي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا مُعَاذُ، أَفَتَأْنُ أَنْتَ ثَلَاثًا أَقْرَأَ وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا، وَسَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَنَحَوَهَا»<sup>(3)</sup>.

### وجه الاختلاف والتعارض بين هذه الأحاديث:

يفيد حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم بأن دعا أخاه بالكفر فهو كافر، وهذا ما يخالف ظاهر الأحاديث الأخرى، حيث دعا عمر رضي الله عنه حاطبا بالنفاق، وهو أعظم من الكفر، وكذا معاذ دعا ذلك الرجل بالنفاق، ولم يحكم النبي ﷺ بكفرهما.

سلك الإمام البخاري لدفع التعارض بين هذه الأحاديث؛ مسلك الجمع، حيث ذهب إلى الأخذ بظاهر حديثي أبي هريرة وابن عمر، وأن دعا أخاه بالكفر فهو كافر، لكن يقيد هذا الإطلاق بما إذا كان غير متأول أو جاهل بالحكم أو بحال المقول فيه<sup>(4)</sup>، كما جاء في حديث عمر ومعاذ، وفي ترجمته - رحمه الله - دليل على هذا الاختيار، فترجم لحديث أبي هريرة وابن عمر بقوله: "باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال"، وترجم لحديث عمر ومعاذ بقوله: "باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً".

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما قال لحاطب: (إنه منافق) لأنه ظن أنه صار منافقاً بسبب كتابه إلى المشركين، وكذا معاذ إنما وصف ذلك الرجل بالنفاق؛ لأنه كان متأولاً وظناً منه

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم: 6104.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن، رقم: 3081، وقد وصله البخاري في مواضع منها: (3983-4274-6939).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً، رقم: 6106.

(3) ينظر: فتح الباري لابن حجر، 516/10.

أنَّ التارك للجماعة منافق<sup>(1)</sup>، وقد علق ابن حجر (ت 852هـ) على الترجمة الأولى، فقال: "كذا قيّد مطلق الخبر بما إذا صدر ذلك بغير تأويل من قائله"<sup>(2)</sup>.

ولم يكتف الإمام البخاري بإثارة هذه القضية في هذا الموضوع، بل أثارها في موضع آخر، فترجم بقوله: "باب ما جاء في المتأويلين"<sup>(3)</sup>، وساق تحت هذه الترجمة عدة أحاديث تؤيد ما ذهب إليه، قال ابن حجر: "والحاصل أن من أكفر المسلم نُظِرَ فإن كان بغير تأويل استحق الدّم، وربما كان هو الكافر، وإن كان بتأويل نُظِرَ إن كان غير سائغ استحقَّ الدّم أيضاً، ولا يصل إلى الكفر بل يُبين له وجه خطئه ويُزجر بما يليق به، ولا يلتحق بالأول عند الجمهور، وإن كان بتأويل سائغ لم يستحق الدّم، بل تُقام عليه الحجة حتى يرجع إلى الصواب، قال العلماء: كل متأول معذور بتأويله ليس بأثم إذا كان تأويله سائغاً في لسان العرب، وكان له وجه في العلم"<sup>(4)</sup>.

وتحت هذا المعنى يقول ابن تيمية (ت 728هـ): "وقد تبين أن الرجل المؤمن الذي هو ولي الله قد يعتقد كفر الرجل المؤمن الذي هو ولي الله ويكون مخطئاً في هذا الاعتقاد، ولا يقدر هذا في إيمان واحد منهما وولايته"<sup>(5)</sup>.

### المطلب الثاني: مسلك النسخ عند الإمام البخاري في إزالة التعارض

اعتمد الإمام البخاري مسلك النسخ في دفع التعارض عن الأحاديث، عند استحالة الجمع بين الأحاديث، ومن الأمثلة التي أوردها -رحمه الله- لهذه المسلك مسألة النبي عن المتعة، وقد وردت فيها الأحاديث الآتية:

حديث علي رضي الله عنه، قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ «نَهَى عَنِ الْمُتَعَةِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ»<sup>(6)</sup>.

ويخالف هذا الحديث حديث آخر، ذكره الإمام البخاري، وهو:

حديث جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالَا: «كُنَّا فِي جَيْشٍ، فَأَتَانَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَمْتِعُوا فَاسْتَمْتِعُوا». وَقَالَ ابْنُ أَبِي ذُئْبٍ: حَدَّثَنِي إِيَّاسُ بْنُ سَلَمَةَ بْنِ

(1) ينظر: السنن الكبرى للبيهقي، 208/10.

(2) فتح الباري، 514/10.

(3) صحيح البخاري، 17/9.

(4) فتح الباري، 304/12.

(5) منهاج السنة، 254-255/6.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة آخرًا، رقم: 5115.



الأَكْوَعُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "أَيُّمَا رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ تَوَافَقَا فَعِشْرَةُ مَا بَيْنَهُمَا ثَلَاثُ لَيَالٍ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَزَايِدَا أَوْ يَتَنَارَكَا تَتَارَكَا". فَمَا أَذْرِي أَشْيًى كَانَ لَنَا حَاصَّةً، أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَيَبْنَهُ عَلِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ<sup>(1)</sup>.

### وجه التعارض بين الحديثين:

اختلفت هذه الأحاديث في حكم نكاح المتعة، فحديث علي رضي الله عنه يفيد تحريمها، وأما حديث جابر وسلمة فيفيدان جواز هذا النوع من الأنكحة.

سلك الإمام البخاري لدفع هذا الاختلاف مسلك النسخ، فترجم على هذه الأحاديث بقوله: "بَابُ نَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ عَنْ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ آخِرًا"، فهو يرى أن التحريم كان آخر الأحكام في المتعة، أي أنه منسوخ، والحديث المنسوخ هو حديث جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع، وكان ذلك في عام أوطاس أي في السنة الثامنة<sup>(2)</sup>، كما ورد في رواية الإمام مسلم، حيث قال سلمة بن الأكوع: "رخص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثاً ثم نهى عنها"<sup>(3)</sup> والحديث الناسخ هو حديث علي وقد جاء فيه أن النهي كان عام خيبر في السنة السابعة، قال البخاري: "وَيَبْنُهُ عَلِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ"، وهذا مشكل؛ لأنه يلزم منه أن المنسوخ بعد الناسخ، ولحل هذا الإشكال فإنه يرد احتمالان:

**الاحتمال الأول:** أن الإمام البخاري يرى أن حديث علي جاء النهي فيه عام خيبر عن لحوم الحمر الأهلية فقط، لاعتن نكاح المتعة، فتوهم بعض الرواة فجعل يوم خيبر ظرفاً للتحريم في المسألتين، وإنما جمعهم علي رضي الله عنه؛ لأنه كان يُناظر ابن عباس رضي الله عنهما - في المسألتين<sup>(4)</sup>.

وأما وقت النهي عن نكاح المتعة فقد كان في عام الفتح، وقد جاء بيان الناسخ والمنسوخ فيما رواه عن الرِّبِّيعِ بْنِ سَبْرَةَ الْجُبَيْيِّ، عَنْ أَبِيهِ سَبْرَةَ: أَنَّهُ قَالَ: «أُذِنَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُتْعَةِ عَامَ الْفَتْحِ حِينَ دَخَلْنَا مَكَّةَ، ثُمَّ لَمْ نَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى نَهَانَا»<sup>(5)</sup>. وإنما لم يخرج الإمام البخاري مع شدة الحاجة

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة آخراً، رقم: 5117.

(2) البداية والنهاية لابن كثير، 364/4.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح، ثم نسخ، ثم أبيح، ثم نسخ، واستقر تحريمه إلى يوم القيامة، رقم: 1405.

(4) ينظر: التمهيد لابن عبد البر، 99/10.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح، ثم نسخ، ثم أبيح، ثم نسخ، واستقر تحريمه إلى يوم القيامة، رقم: 1406.

إليه لأنه ليس على شرطه، فهو من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة<sup>(1)</sup>، لذلك اكتفى الإمام البخاري بذكر الحديث الذي يفيد ما استقر عليه الحكم من تحريم المتعة<sup>(2)</sup>. قال ابن تيمية: "والصواب أنها بعد أن حرمت لم تحل، وأنها حرمت عام فتح مكة ولم تحل بعد ذلك، ولم تحرم عام خيبر، بل عام خيبر حرمت لحوم الحمر الأهلية"<sup>(3)</sup>، وأكد ذلك تلميذه ابن القيم حيث قال: "ولم تحرم المتعة يوم خيبر وإنما كان تحريمها عام الفتح هذا هو الصواب... ولو كان التحريم زمن خيبر لزم النسخ مرتين"<sup>(4)</sup>.

**الاحتمال الثاني:** أن الإمام البخاري يرى أن النسخ وقع مرتين، فكانت المتعة مرخصا بها ثم نهى النبي ﷺ عنها عام خيبر كما جاء في حديث علي بن أبي طالب، ثم أذن فيها عام الفتح، ثم حرّمها بعد ثلاث إلى يوم القيامة، كما جاء في حديث الربيع بن سبرة بن معبد الجني عن أبيه أنه غزى مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذْنُتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ. وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلِ سَبِيلَهُ. وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»<sup>(5)</sup>.

وهذا يفيد أن الإمام البخاري لا يمانع من وقوع النسخ مرتين، وبكل حال فقد صح عنده التحريم المؤبد للمتعة سواء قال بالنسخ مرة واحدة، أو مرتين؛ كما تقدّر في ترجمته: "باب نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة آخرًا"<sup>(6)</sup>.

وقد حاول بعض المخالفين الجهلة ممارسة شيء من التلبيس المكشوف، فادعى أن أحاديث المتعة في البخاري تدل على التناقض، وأن التحريم إنما وقع من عمر، واستشهد بحديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: «أُنْزِلَتْ آيَةُ الْمُتَعَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَفَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يُنْزَلْ قُرْآنٌ يَحْرُمُهُ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا حَتَّى مَاتَ، قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ»<sup>(7)</sup>، يريد عمر رضي الله عنه<sup>(8)</sup>.

(1) ضعفه يحيى بن معين، ينظر الضعفاء والمتركون لابن الجوزي، 149/2.

(2) ينظر: فتح الباري لابن حجر، 72/9.

(3) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لين تيمية، 190/4.

(4) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، 304/3.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح، ثم نسخ، ثم أبيح، ثم نسخ، واستقر تحريمه إلى يوم القيامة، رقم: 1406.

(6) نقل بعض أهل العلم ما هو كالإجماع بعد ابن عباس على تحريمها، ينظر: فتح الباري لابن حجر، 173/9.

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب «فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ»، رقم: 4518.

(8) ينظر: فتح الباري لابن حجر، 168/8.

وهذا جهل وتلبيس إبليس، فجملة الأحاديث المتقدمة تدل على أن التحريم صدر من الشارع، وما ورد في بعض الآثار من نهي عمر رضي الله عنه عن متعة النساء، فإنما هو تبليغ وتنفيذ لشرع الله وافقه عليه بقية الصحابة<sup>(1)</sup>، وأما حديث عمران فهو في متعة الحج، وقد ترجم عليه البخاري بالآية الكريمة، فقال: "باب ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ﴾ [البقرة: 196]."

ويلاحظ في هذا المثال أنه قام دليل النسخ الصريح عند الإمام البخاري - رحمه الله - وظهر عنده تراخي الحديث الناسخ؛ ولذا اختار مسلك النسخ، بينما أعرض عنه في أمثلة أخرى كان الدليل فيها ظنيا ولم يظهر عنده تراخي الحديث الناسخ.

### المطلب الثالث: مسلك الترجيح عند الإمام البخاري في إزالة التعارض

عَدَّ الإمام البخاري الترجيح آخرَ مسالك دفع التعارض بين الأحاديث، معتمداً في تطبيقه جملة من الأحوال والقواعد والضوابط، التي يرجع بعضها إلى الإسناد؛ كحال الراوي، وتحمل الرواية، واتصال سندها، وكذا تعدد روايات الحديث الواحد. كما أنه أعمل قواعد أخرى، تؤول - في مجملها - إلى جهة المتن؛ كالترجيح باعتبار لفظ الحديث، والترجيح باعتبار مدلوله، وكذا الترجيح باعتبار ما يتقوى به اللفظ. والمقام - هنا - لا يسمح بذكر نماذج لكل قاعدة من هذه تلك القواعد والضوابط؛ لذا، سأكتفي بإيراد مثال على هذا المسلك؛ لأبين أن الإمام البخاري - رحمه الله - سلك هذا المسلك، بعد أن تعذر الجمع، وتعذر القول بالنسخ، في دفع التعارض بين أحاديث رسول الله ﷺ.

### مثاله مسألة صوم من أصبح جنباً

حديث عائشة وأُمّ سلمة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ، وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِهِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ وَقَالَ مَرْوَانُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ: أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَتُقَرَّعَنَّ بِهَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَمَرْوَانُ يَوْمِيذٍ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَكَّرَ ذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ قَدَّرَ لَنَا أَنْ نَجْتَمِعَ بِذِي الْحَلِيفَةِ، وَكَانَتْ لِأَبِي هُرَيْرَةَ هُنَالِكَ أَرْضٌ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، وَلَوْلَا مَرْوَانُ أَقْسَمَ عَلَيَّ فِيهِ لَمْ أَذْكُرْهُ لَكَ، فَذَكَرَ قَوْلَ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: كَذَلِكَ حَدَّثَنِي الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، وَهُوَ أَعْلَمُ». وَقَالَ هَمَّامٌ وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ بِالْفِطْرِ، وَالْأَوَّلُ أَسْنَدُ»

(2)

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية، 33/96.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنباً، رقم: 1925.

يخالفه حديث عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي بكر، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقص، يقول في قصصه: «مَنْ أَدْرَكَهُ الْفَجْرُ جُنُبًا فَلَا يَصُومُ»<sup>(1)</sup>.

### وجه الاختلاف بين هذه الأحاديث:

تدل أحاديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما على صحة صوم من أصبح جنباً في رمضان، بينما يدل حديث أبي هريرة رضي الله عنه على بطلان صومه.

يرى الإمام البخاري - رحمه الله - ترجيح حديث عائشة وأم سلمة على حديث أبي هريرة، وقد ذكر مبرراً للترجيح، وهو أن حديث عائشة وأم سلمة أسند أي أقوى إسناداً، ويمكن توضيح هذه القوة في المقارنة الآتية:

- إن حديث عائشة وأم سلمة أكثر وأوثق رجالاً، قال ابن عبد البر: "وهو حديث جاء من وجوه كثيرة متواترة صحاح"<sup>(2)</sup>. قال ابن حجر: "أقوى إسناداً، وهي من حيث الرجحان كذلك؛ لأن حديث عائشة وأم سلمة في ذلك جاء عنهما من طرق كثيرة جداً بمعنى واحد"<sup>(3)</sup>.

- إن حديث عائشة وأم سلمة تلقياهما عن النبي ﷺ بدون واسطة بخلاف أبي هريرة، فقد رواه بواسطة<sup>(4)</sup>.

وما ذهب إليه الإمام البخاري رحمه الله هو قول جمهور العلماء؛ أي إن من أصبح جنباً فصومه صحيح، ولا قضاء عليه، من غير فرق بين أن تكون الجنابة عن جماع أو غيره<sup>(5)</sup>.

فنجده الإمام الشافعي، رحمه الله، يرجح حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، دون ما روى أبو هريرة رضي الله عنه، وبين سبب ترجيحه، فقال: "فأخذنا بحديث عائشة وأم سلمة زوجي النبي ﷺ دون ما روى أبو هريرة عن رجل عن رسول الله بعمان، منها:

- أنهما زوجتاه، وزوجتاه أعلم بهذا من رجل إنما يعرفه سماعاً أو خبراً،

- ومنها أن عائشة مقدمة في الحفظ، وأن أم سلمة حافظة، ورواية اثنين أكثر من رواية

واحد،

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم: 1109، 779/2.

(3) التمهيد لابن عبد البر، 40/22.

(4) فتح الباري لابن حجر، 146/4.

(5) ينظر التمهيد لابن عبد البر، 42-43، وفتح الباري لابن حجر، 146/4.

(6) ينظر فتح الباري لابن حجر، 143-145، ومعالن السنن للخطابي، 115/2.

- ومنها أن اللتين روتا عن النبي المعروف في المعقول والأشبه بالسنة<sup>(1)</sup>.

ففي هذا النص يذكر الإمام الشافعي وجوها عديدة للترجيح، منها: الترجيح بالقرب؛ حيث رجح حديث زوجتي النبي ﷺ لكونهما أقرب منه وأعلم بحاله ﷺ، من سائر الصحابة لاطلاعهما على ما لا يمكن لغير أمهات المؤمنين الاطلاع عليه، وخاصة في مثل مسألة الجنابة.

وخالفهم بعض العلماء من التابعين وغيرهم<sup>(2)</sup> إلى العمل بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأن من أصبح جنبا يفطر، وحملوا حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما على أن ذلك من خصائص النبي ﷺ.

ووجه الاعتراض على هذا القول؛ أن الخصائص لا تثبت إلا بالدليل، وبأن حديث عائشة رضي الله عنها قد جاء من طريق يقتضي عدم اختصاصه ﷺ بذلك.

ولذا أخلص إلى أن الجنابة لا تفسد الصيام، وأن حديث عائشة رضي الله عنها أرجح على حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ بكون أن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أقرب من رسول الله ﷺ من جهة، ومن جهة أخرى أن فقه عائشة وفقه أم سلمة رضي الله عنهما أقوى من فقه أبي هريرة رضي الله عنه، أضف أنهما أعرف بحال رسول الله ﷺ في مثل هذا الأمر - مسألة الجنابة - من أبي هريرة وغيره.

## خاتمة:

إن المتأمل في صنيع الإمام البخاري في كتابه الجامع الصحيح يجده قد بلغ في هذا الفن الغاية المرجوة، بالرغم من كونه لم يُفرده بالتصنيف والتأليف، إلا أنه ضمن كتابه الموسوم «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» جملاً واضحة من هذا العلم، فقد أورد جملة من الأحاديث يبدو على ظاهرها التعارض، لكنها غير متعارضة في حقيقة الأمر، فجمع بينها بمختلف الطرق المعهودة عند أرباب هذا الفن، وبين مقصدها، ووضح إشكالاتها وتمم ما انتقص فهوهم كثير من الخائضين فيها، فجاء كتابه مليئاً بالفوائد والفرائد، مشحوناً بالنفس الحديثي والفقه، رافعا لإشكالات هذه المتون الحديثية. وليكون هذا الجهد إضافة نوعية، ولبنة أساسية في هذا المجال، لابد من استخراج مادته وتهذيبها، وبيان مكانها الجدة فيها، وهو ما حاولت القيام به من خلال هذه الورقة البحثية، راجياً أن يكون مجهودي هذا فاتحاً باب البحث في هذا

(1) اختلاف الحديث للشافعي، ص: 142.

(2) فتح الباري، 4/175.

الموضوع أكثر، إذ الجهد الفردي غير قمن بتطويق هذا المشروع لضخامته، لأنه لا سبيل لهذه الوقفات إلى استيعاب كل ما يقصده الإمام البخاري بجملته في هذا الباب، لأن ذلك رهين بجمع كل الأحاديث المختلفة في الجامع الصحيح ودراستها.

وأحسب أن البحث قد حقق هذا الهدف على قدر المستطاع، أو على الأقل أنه حقق الحد الأدنى منه، وفي طريقه إلى ذلك جاء محققاً لنتائج علمية، من أهمها:

- قدم الإمام البخاري مسلك الجمع عن المسالك الأخرى، وسعى إلى التأليف والتوفيق بينهما، قبل أن يلتجأ إلى المسالك الأخرى.
- في حالة استحالة الجمع بين الحدين المتعارضين، نظر الإمام البخاري في المتأخر منهما وعمل به ناسخاً للمتقدم.
- انتقل الإمام البخاري إلى الترجيح بين الحديثين المتعارضين في حالة استحالة الجمع والنسخ.

#### التوصيات:

- توجيه الطلبة والباحثين إلى إبراز جهود الإمام البخاري في خدمة ميراث المصطفى ﷺ، وبيان معالم التميز والانفراد عن غيره من العلماء.
- تشجيع الباحثين في الدراسات الإسلامية من طرف الجهات الوصية والمراكز العلمية البحثية إلى مواصلة البحث للتعرف على الآثار العلمية للإمام البخاري في مختلف المجالات والتخصصات، ووضع جوائز تحفيزية على ذلك.
- ضرورة اعتناء الباحثين والدارسين المتخصصين في مجال السنة النبوية بإفراد هذا الموضوع بالتأليف في كتب مستقلة، بجمع جميع الشبهات والمطاعن المثارة في السنة النبوية قديماً وحديثاً، ثم تفنيدها ودحضها بالردود العلمية المقنعة في ضوء الأدلة النقلية والعقلية في لغة عصرية وأسلوب مبسط.
- وكما أنه من الضروري جداً إدخال أهم وأنفع ما أُلّف في هذا الباب من الكتب في المقررات الدراسية في المراحل التعليمية المختلفة لتكوين جيل من الطلاب يدافعون وينافحون عن سنة المصطفى ﷺ بالأدلة النقلية والعقلية، وحتى لا يخرج لنا من حين لآخر جيل أعوج يصف فكر علمائنا الأجلاء بالفكر الخرافي.

وختاماً، أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع المقلّ في إعداد هذا البحث، ويكتب له النفع به، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية الإمام ورش.
- إحكام الفصول في أحكام الأصول، أبو الوليد الباجي، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1415هـ/1995م.
- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، تح: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1989م.
- اختلاف الحديث، الإمام الشافعي، تح: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1406هـ/1986م.
- الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل، أبو الوليد الباجي، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد علي فركوس، المكتبة المكية - دار البشائر الإسلامية، ط.1، 1416هـ/1996م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط.1، 1418هـ/1997م.
- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، أبو زكريا بن شرف النووي، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.1، 1405هـ/1985م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تح: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1387هـ.
- التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق، ط.1، 1410هـ.



- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.1، 1420هـ/2000م.
- الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تح: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي بمصر، ط.1، 1358هـ/1940م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط.27، 1415هـ/1994م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان السجستاني، تح: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بلي، دار الرسالة العالمية، ط.1، 1430هـ/2009م.
- السنن الكبير، أبو بكر البهقي، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط.1، 1432هـ/2011م.
- صحيح ابن خزيمة، ابن إسحاق بن خزيمة، تح: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط.3، 1424هـ/2003م.
- صحيح البخاري، الإمام إسماعيل البخاري، تح: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، 1311هـ.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1374هـ/1955م.
- فتح الباري، ابن حجر، تح: عبد العزيز بن باز وفؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، 1379هـ.
- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط.8، 1426هـ/2005م.
- الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، تح: ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام، ط.1، 1432هـ.

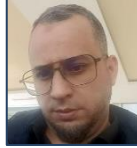
- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، 1419هـ/1988م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط.3، 1414هـ.
- لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط.6، 1400هـ.
- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1425هـ/2004م.
- المختصر الوجيز، محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1405هـ.
- مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، نافذ حماد، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط.1، 1414هـ/1993م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، تح: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف بمصر.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم - الدار الشامية، دمشق - بيروت، ط.1، 1412هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية، تح: محمد رشاد سالم، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط.1، 1406هـ/1986م.
- منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي، عبد المجيد السوسوة، دار النفائس، الأردن، ط.1، 1418هـ/1997م.
- منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط.3، 1401هـ/1981م.

- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، تح: عبد الله الرحيلي، مطبعة السفير، الرياض، 1422هـ.
- الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، أبو شُهبة، دار الفكر العربي، د.ت.

## فقه التوقع في ضوء المقاصد الشرعية والدراسات المستقبلية

د. عبد المجيد المسكيني

أستاذ باحث في العلوم الشرعية والدراسات الفقهية المقارنة  
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس  
المغرب



### ملخص:

إن المتأمل في مصادر التلقي الشرعي وخاصة القرآن الكريم، يجد أن أصول فقه التوقعات مبثوثة بين ثناياه ومستمدة من تشريعاته،... فقد راعى القرآن الكريم عنصر المستقبل، وحثنا على العمل لهذا المستقبل والاستعداد له، كما حذرنا من التقاعس والتكاسل عنه، وشتان ما بين الفعل ورد الفعل، وبين من ينتظر ما يأتي به المستقبل، ومن يسارع نحوه مستخدماً أدواته وآلياته، فهو في جوهره عبارة عن مجموعة من البحوث المتعلقة بالتطور المستقبلي للبشرية، والمستمدة من المقاصد الشرعية، والمستندة على أصول الفقه، والقواعد الفقهية، مما يسمح باستخلاص عناصر تنبؤية تساعد على افتراض مجموعة من النوازل المختلفة، الممكنة الحدوث، ومحاولة استشراف كل مآلات الأفعال المتوقعة في المستقبل كذلك، وإيجاد الأحكام الشرعية المناسبة لها.

وإيماناً مني بأهمية هذا الموضوع في بعده المقاصدي، وقلة البحوث المؤلفة بخصوصه، ارتأيت تناوله بالدراسة والتحليل، وإثارة اهتمام الباحثين لهذا الموضوع الذي لم يعط حقه من الدراسة والتأليف، خصوصاً وأن تطور العصر فرض على المهتمين صياغة رؤية تكاملية للدراسات المستقبلية، ستساعدهم على وضع أسس متينة تركز عليها هذه الدراسات لاستثمارها في كيفية الاستعداد للنوازل قبل وقوعها، عبر مجموعة من الأحكام والضوابط التي تحكم الاجتهاد.

ولا يكتمل نجاح هذه الدراسات إلى بالاعتماد على فقه التوقع في مجالاته المختلفة كمصدر أصلي تنبئ عليه دعائم هذه الدراسات، ولا ارتباط هذا الفقه بهذا النوع من الدراسات قسمت هذا البحث لقسمين تناولت في القسم الأول فقه التوقع من خلال تعريفه وبيان موقف العلماء منه، في حين خصصت القسم الثاني دور هذا الفقه في ضوء المقاصد الشرعية والدراسات المستقبلية.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها: أن استشراف المجتهد لمستقبل مجتمعه وقضاياه، والاجتهاد في استخراج الأحكام الشرعية واستنباطها لما هو آت من وقائع مستقبلية مفترضة متوقعة وممكنة الحدوث، أو مآلات متوقعة تخص المسلمين، هو أمر ضروري لقادة الرأي، وحتى ساسة الشعوب، وأصحاب المصالح والمختصين، وهذا يتطلب إشراك جميع العلوم والجهات لتأسيس قاعدة صلبة لهذه الدراسات ولبناء تصور كامل للنوازل التي يجتهد فيها في ضوء مآكرها.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المسكيني، عبد المجيد. (2024، أكتوبر). فقه التوقع في ضوء المقاصد الشرعية والدراسات المستقبلية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 841-866.

**Abstract:**

The contemplative of the sources of legal reception, especially the Holy Qur'an, finds that the principles of the jurisprudence of expectations are broadcast within its folds and derived from its legislation,... The Holy Qur'an has taken into account the element of the future, and urged us to work for this future and prepare for it, as we warned of inaction and laziness about it and the difference between action and reaction, and between those who wait for what the future brings, and those who rush towards it using its tools and mechanisms, it is in essence a set of research related to the future development of humanity, derived from the purposes of legitimacy, and based on the principles of jurisprudence, and the rules of jurisprudence, which allows the extraction of predictive elements that help to assume a set of different calamities, possible occurrence, and try Anticipate all the consequences of expected acts in the future as well, and find appropriate legal rulings for them.

Believing in the importance of this topic in its intentional dimension, and the lack of research authored on it, I decided to address it with study and analysis, and to arouse the interest of researchers for this topic, which was not given its right of study and authorship, especially since the development of the era imposed on those interested in formulating integrative visions for future studies, which will help them to lay solid foundations on which these studies are based to raise them in how to prepare for calamities before they occur, through a set of provisions and controls that govern ijtihad...

This study has concluded a number of results, the most important of which are: that the mujtahid's foresight of the future of his society and its issues, and diligence in extracting legal rulings and deducing them for what is coming from the supposed future facts expected and possible, or expected outcomes for Muslims, is necessary for opinion leaders, even politicians, stakeholders and specialists, and this requires the involvement of all sciences and parties to establish a solid base for these studies and to build a complete perception of the calamities in which he strives in light of their centers.

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في الكتاب المبين: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾<sup>1</sup>.

وبعد، فإن علم الفقه من أشرف العلوم وأسمائها، إذ به يعرف الحلال من الحرام، والنفع من الضرر والرشد من الزلل، ولا سبيل إلى معرفته بالعقل المحض دون معونة السمع قال تعالى: ﴿يوتى الحكمة من يشاء ومن يوتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾<sup>2</sup>، وقد قيل في بعض وجوه تأويل الحكمة في هذه الآية: "إنها تعني المعرفة بدين الله، والفقه فيه، والاتباع له"<sup>3</sup>.

ولقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)<sup>4</sup>، وبذلك كان الفقه أفضل ما يتعلمه الإنسان، ويعلمه، فهو إعماد الحق، ونظام الخلق، ووسيلة السعادة الأبدية، ولباب الرسالة المحمدية، من تحلى بلباسه فقد ساد، ومن بالغ في ضبط معالمه فقد شاد<sup>5</sup>.

ومعلوم أن لفظ الفقه أول ما أطلق في بداية الأمر كان يضم جميع الأحكام الدينية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، سواء كانت هذه الأحكام متعلقة بأمور العقيدة، أو بالأخلاق أو بالعبادات أو المعاملات، لكن بعد ذلك طرأ تخصيص لمطلول المصطلح، إذ خرج من مفهومه الأحكام الاعتقادية والأخلاقية، فأصبحت عبارة فقه إسلامي تعني العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة، كالوجوب والحظر "الحرمة"، والإباحة، والندب، والكرهية، والصحة، والفساد أو البطلان وغير ذلك.

ولأهمية علم الفقه عني فقهاؤنا - رحمهم الله - على تعاقب العصور باستنباط أحكام القضايا والنوازل من نصوص الكتاب والسنة معتمدين على مبادئ هذا العلم الجليل، وتدوينها في مصنفات كوّنت ثروة فقهية عظيمة، عالجت تلك الأحكام ما وقع في عصورهم من نوازل وقضايا،

<sup>1</sup> - سورة التوبة، جزء من الآية: 123.

<sup>2</sup> - سورة البقرة، الآية: 268.

<sup>3</sup> - نقل ذلك عن ابن عباس وقتادة ومجاهد ومالك وابن القاسم، تنظر أقوالهم في الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، 330/3.

<sup>4</sup> - هذا جزء من حديث: رواه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، حديث رقم (71).

<sup>5</sup> - الذخيرة: للقرافي، 34/1.

بل وبادروا إلى افتراض مسائل متوقعة أو مستحيلة، ظناً منهم - رحمهم الله - أنها إن وقعت تبين الحكم الشرعي فيها، بما يرفع الحرج عن المسلمين، ويسر عليهم تطبيق الدين في المستقبل.

ولعل التطور السريع الذي يشهده عصرنا أفرز كثيراً من القضايا والمستجدات التي لم يتعرض لها الفقهاء سابقاً، فقام الفقهاء المعاصرون المعنيون بدراسة الفقه يبحثون أحكام تلك القضايا والمستجدات، فربما تنزل بهم غيرها ولم يفرغوا من سابقتها.

وواقع الحال اليوم يُوجب الحديث عن فقه التوقع كفقه أفرزته ظرفية معينة سابقاً، واستدعته ظروف جديدة نتجت عن تطور الزمان وتسارع الأحداث، بما يوفر بيئة خصبة للاجتهاد فيما هو واقع، والاستعداد لما هو متوقع من النوازل، عن طريق بيان حكمها، وتكييف آثارها، وتوقع الاحتمالات الممكنة، حتى تكون الأحكام الاجتهادية مسيرة لمقتضى الحال ومستجدات العصر، عن طريق المقاربة بين ما هو واقع وما هو متوقع.

ولأهمية هذا الموضوع أفردته بالدراسة والمناقشة، وقد تناولته من خلال مبحثين - مهدت لهما بمقدمة وأعقبتهما بخاتمة - وذلك كما يلي:

- المبحث الأول: تعريف فقه الواقع وموقف العلماء منه
- المطلب الأول: تعريف فقه التوقع
- المطلب الثاني: موقف العلماء منه
- المبحث الثاني: فقه التوقع في ضوء المقاصد الشرعية والدراسات المستقبلية
- المطلب الأول: فقه التوقع في ضوء المقاصد الشرعية
- المطلب الثاني: فقه التوقع في ضوء الدراسات المستقبلية
- المبحث الأول: تعريف فقه التوقع وموقف العلماء منه
- المطلب الأول: تعريف فقه التوقع
- الفرع الأول: تعريفه باعتباره لقبا مركبا

## 1- الفقه في الاصطلاح:

" الحقيقة الشرعية لكلمة (فقه) مرتبطة بالحقيقة اللغوية لها بجامع: العلم والفهم"<sup>1</sup>.  
وقد عرف الفقه بتعريفات كثيرة لا تخلو من الاعتراض والمناقشة، وأقرب تلك التعريفات للفقه هي: "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية"<sup>2</sup>.

## 2- التوقع في الاصطلاح:

قبل الخوض في الكلام على تعريف التوقع في الاصطلاح فإنه يجدر التنبيه إلى أمرين:  
- الأمر الأول: أنه يندر إيجاد تعريف اجتمعت فيه الشروط المعتمدة للتعريفات ويسلم في الوقت نفسه من الاعتراض والمناقشة.  
- الأمر الثاني: أن موضوع (التوقع) لم يفرد بالبحث تفصيلاً وقصداً أصلياً من قبل العلماء، وإنما كان كلامهم عن هذا الموضوع إما عرضاً على سبيل التعليل، أو إقامة الحجة على حكم ما، وإما على سبيل الإشارة المختصرة إلى عنوانه، وشيء من أمثلته.  
- الأمر الثالث: أن ما ذكره العلماء حول (التوقع) انحصر في جملته في كتب القواعد الفقهية عند حديثهم عن قاعدة (هل المتوقع كالواقع) عند من أفردوا كقاعدة مستقلة، أو كونها داخلة في عموم قاعدة (هل العبرة بالحال أو بالمآل)، أو كونها مرادفة لقاعدة (ما قارب الشيء أعطي حكمه) وقاعدة (المشرف على الزوال هل يعطى حكم الزائل).  
وسأعرض نصوص العلماء التي يمكن من خلالها أن نستشف تعريفاً اصطلاحياً للتوقع:  
قال ابن السبكي لما أراد التمييز بين قاعدة (ما قارب الشيء أعطي حكمه)<sup>3</sup> وقاعدة (المتوقع هل يجعل كالواقع) وغيرها من قواعد التقدير، كقاعدة (المشرف على الزوال هل يعطى حكم الزائل): "غير أن قولنا: المتوقع كالواقع يشبه أن يختص بما سيوجد"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل - بكر أبو زيد - 41/1.

<sup>2</sup> - نهاية السؤل شرح مناهج الوصول - للأسنوي - 17/1.

<sup>3</sup> - معنى هذه القاعدة: أن الشيء إذا قرب من شيء آخر حساً أو معنى فإنه يأخذ حكمه المقرر له شرعاً. ينظر: - التقديرات الشرعية وأثرها في التقعيد الفقهي والأصولي - ص: 421، و- موسوعة القواعد الفقهية - 959/8.

<sup>4</sup> - الأشباه والنظائر - لابن السبكي - 113/1.



وذكر أيضا أن قاعدة (المتوقع هل يجعل كالواقع) تختص بالمعدوم الذي يعطى حكم الموجود<sup>1</sup>.

ومما يجدر التنبيه عليه أن بعض أهل العلم قد جعل قاعدتي (ما قارب الشيء أعطي حكمه) و (المتوقع هل يجعل كالواقع) متوافقتان<sup>2</sup>.

وقال العز بن عبد السلام عند رده على اعتراض وارد بشأن تقديم المفسدة الغالب وقوعها على المصلحة الناجزة: " فإن قيل: كيف يحرم تحصيل مصلحة ناجزة محققة لتوقع مفسدة ممهلة؟ قلنا لما غلب وقوع هذه المفسدة جعل الشرع المتوقع كالواقع، فإن العلوق غالب كثير، والشرع قد يحتاط لما يكثر وقوعه احتياطه لما تحقق وقوعه"<sup>3</sup>.

وقال الزركشي: " التحريم المتوقع لا يؤثر في الحال عدم الحل كما أن المتوقع لا يؤثر في منع الحل في الحال"<sup>4</sup>.

وبالنظر فيما سبق عرضه يستنتج الآتي:

- أن التوقع في كلام العلماء لا يبعد عن المعنى اللغوي من حيث كونه يدل على انتظار الوقوع مع غلبة الظن، ويدل كذلك على ترقب وقوع الشيء، وأنه يختص بما سيوجد.

- أن التوقع من حيث إعطائه حكم الواقع قبل وقوعه مختلف فيه، والخلاف كما يظهر ليس في أعمال القاعدة، بل هو راجع إلى نوع المتوقع، وذلك أنه قد يكون المتوقع مجزوماً بوقوعه، وقد يكون غير مجزوم بوقوعه<sup>5</sup>.

- أن بعض أهل العلم جعل التوقع مرادفاً للفظ المأل.

- وبعض أهل العلم جعل التوقع من قواعد التقدير بكونه مختصاً بالمعدوم الذي يعطى حكم الموجود.

<sup>1</sup> - المصدر نفسه.

<sup>2</sup> - ينظر: -المجموع شرح المذهب- للنووي- 138/1، و- القواعد للحصني- 256/2.

<sup>3</sup> - قواعد الأحكام في مصالح الأنام 92/1.

<sup>4</sup> - المنثور في القواعد 248/1.

<sup>5</sup> - ينظر: - التقديرات الشرعية - ص: 432.

ومن خلال تلك الاستنتاجات نستطيع أن نستخلص تعريفا للتوقع بأنه: تحقيق المناط في إعطاء الشيء المعدوم غير الواقع - الذي يمكن وقوعه في المستقبل سواء أكان احتمال وقوعه غالبا أو ضعيفا - حكم الموجود الواقع.

#### - شرح التعريف:

فقول: "تحقيق المناط": بالنظر لمعناه العام؛ الذي هو إجراء الحكم المتيقن أو الأصل الكلي في أحاد الصور؛ من خلال معرفة الغاية النوعية التي استهدفها الشارع من شرع الحكم"<sup>1</sup>.  
وقول: "في إعطاء الشيء المعدوم غير الواقع": فالتعبير بالشيء فيه من العموم ما يجعله شاملا لجميع المعدومات، وكذلك أن الشيء المعدوم مطلق في هذا التعريف ليكون شاملا للمأل المعدوم الذي يغلب أن يؤول إليه.

وقول: "الذي يمكن وقوعه في المستقبل..." فالمتوقع قد يكون مجزوما بوقوعه، وقد يكون غير مجزوم بوقوعه، فالذي يمكن وقوعه في المستقبل شامل لهما.

وقول: "حكم الموجود الواقع": سواء أكان ذلك الوجود حقيقة أو حكما.

#### الفرع الثاني: تعريف فقه التوقع باعتباره لقباً

كما سبق أن ذكرت أن التوقع لم يفرده العلماء بالبحث تفصيلا وقصدا أصليا، ولهذا لم أجد تعريفاً خاصاً به سوى ما قمت باستقرائه من إشارات متضمنة في نصوصهم.  
ومما ينبغي أن يُعلم أن ذلك لا يعني عدم تصور العلماء لهذا الفقه، بل هم مدركون لحقيقته، ولهذا نجد أنهم يذكرونه على سبيل التعليل أو إقامة الحجة على حكم ما، أو على سبيل الإشارة المختصرة إلى عنوانه، وشيء من أمثله.

وقد قام عدد من الفقهاء المعاصرين ببيان أن هذا المصطلح يراد به أمران:

"الأول: نظر الفقيه في مآلات اجتهاده وما يمكن أن يفضي إليه.

والثاني: افتراض النوازل قبل وقوعها ليعطيها حكمها وفق الصورة التي افترضها"<sup>2</sup>.

فالتوقع وفق هذا التعريف يقوم على أمرين:

<sup>1</sup> - ينظر: - اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات- للدكتور السنوسي- ص: 20.

<sup>2</sup> - ينظر: - توصيات ندوة الفقه الإسلامي والمستقبل " الأصول المقاصدية وفقه التوقع " - موقع الإسلام أون لاين.

- الأول: على اعتبار المأل الذي هو: "تحقيق المناط بالنظر في الاقتضاء التبعية الذي يكون عليه عند تنزيله، من حيث حصول مقصده، والبناء على ما يستدعيه ذلك الاقتضاء"<sup>1</sup>.

- الثاني: على افتراض النوازل الذي هو: استنباط أحكام المسائل التي لم تقع بعد على فرض وقوعها"<sup>2</sup>.

ومما سبق يمكن تعريف فقه التوقع بكونه:

استنباط الأحكام الشرعية للقضايا المستقبلية بإعطاء المعدوم منزلة الموجود، من خلال النظر إلى الواقع واستشراف المستقبل، والنظر في أبعاد الحكم كلها وما يؤول إليه.

المطلب الثاني: موقف العلماء من فقه التوقع

الفرع الأول: المذهب المجوز لفقه التوقع والمتوسع في العمل به

مما هو معلوم أن أبا حنيفة هو رائد فقه التوقعات، حيث توسع في تفريع الفروع على الأصول، وافتراض الحوادث التي لم تقع، إذ كان يرى أن وظيفة المجتهد تمهيد الفقه للناس، والحوادث إن لم تكن واقعة زمن المجتهد، لكنها ستقع لاحقاً، وكان له جراءة على توليد المسائل وافتراضها وتوقعها قبل نزولها، وأغرق في تنزيل النوازل، ولم يتردد على أن يستعمل الرأي في الفروع قبل أن تنزل، وتشقيقها قبل أن تقع، والكلام فيها، والحكم عليها قبل أن تكون، فانسع فقه التوقعات النظري حتى بلغ ذروته، وصار مستوعباً للحوادث المتجددة والمستبعدة، ولذلك حين سئل رغبة بن مصقلة عن أبي حنيفة قال: [هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما قد كان]<sup>3</sup>.

فقد ذهب أهل الرأي وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة إلى أن أحكام الشرع معقولة المعنى، تشتمل على مصالح ترجع إلى العباد، كما أنها بنيت على أصول محكمة وعلل ضابطة لتلك الحكم، فكانوا يبحثون عن تلك العلل والحكم، ثم يربطون الحكم بها وجوداً وعدمها، كما ذهبوا إلى التشدد في قبول أخبار الأحاد، وذلك لأن الكوفة لم تكن موطن الحديث كما كانت المدينة، وفي الكوفة انتشر كثير من البدع، ووضعت الأحاديث لتعضيدها، كما ذهب أصحاب هذه المدرسة إلى التوسع في استخدام القياس، وافتراض حوادث لم تقع، وإبداء الرأي فيها.

<sup>1</sup> - اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات - ص: 19.

<sup>2</sup> - ينظر: - الاستنباط الفقهي عند أهل الرأي - عبد الله بن عبد العزيز الدرغان - ص: 239.

<sup>3</sup> - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله - لابن عبد البر - 145/2.

وهذا ما أكدّه الإمام الحجوي الثعالبي حيث اعتبر أن أبا حنيفة هو الذي أحدث فقه التوقعات الافتراضي، وأسس لمبادئه بما ساهم في نمو الفقه وثرائه، فقال: "كان الفقه في الزمن النبوي هو التصريح بحكم ما وقع بالفعل، أما من بعده من الصحابة وكبار التابعين وصغارهم، فكانوا يبينون حكم ما نزل بالفعل في زمنهم، ويحفظون أحكام ما كان نزل في الزمن قبلهم، فنما الفقه وزادت فروعها نوعاً، أما أبو حنيفة فهو الذي تجرد لفرض المسائل وتقدير وقوعها وفرض أحكامها إما بالقياس على ما وقع، وإما باندراجها في العموم مثلاً، فزاد الفقه نمواً وعظمة وصار أعظم من ذي قبل بكثير"<sup>1</sup>.

ولكثر افتراضه للمسائل وتوقع حلولها، وتوسعه في العمل بفقه التوقع، فقد روي عنه أنه [وضع ستين ألف مسألة، وقيل ثلاثمائة ألف مسألة]<sup>2</sup>.

ولقد عرف الإمام أبو حنيفة بمنهج خاص ورائد في تقرير مسائل الاجتهاد وتدوينها، فقد ابتكر رحمه الله منهجاً عملياً شورياً في تقرير النوازل الافتراضية، وذلك عن طريق الاعتماد على طريقتين اثنتين داخل هذا المنهج هما:

#### - الطريقة الأولى:

كان أبو حنيفة [يفرض قضية واقعية، ويعرضها على تلاميذه، ثم يطلب إلى كل منهم البحث والتفكير في استنباط الحكم الصحيح لها، فيدلي كل واحد من التلاميذ برأيه، ويعرض كل منهم على الأستاذ رأيه، وبعد مناقشته لآرائهم جميعاً، يختار الحل الصحيح الذي يقبله، ويقوم التلاميذ بتدوينه لديهم كراي فقهي يرضاه أبو حنيفة، بهذه الطريقة وغيرها جمع هؤلاء التلاميذ آراء أستاذهم ودونوها لتكون أساساً للمذهب الحنفي في التشريع]<sup>3</sup>.

#### - الطريقة الثانية:

اعتمد الإمام أبو حنيفة في طريقته الثانية على عرض المسألة على أصحابه، ويعرضها على صورها الممكنة والمحتملة، ويبحث معهم جوابها في كل صورة من الصور والأحوال، ويصور لنا العلامة الكوثري هذه الطريقة فيقول: [وطريقة أبي حنيفة في تفقيه أصحابه أنه كان عند مدارسته المسائل مع أصحابه يذكر احتمالاً في المسألة، فيؤيده بكل ماله من حول وطول، ثم يسأل أصحابه

<sup>1</sup> - الفكر السامي، الحجوي الثعالبي، 127/2.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه.

<sup>3</sup> - أئمة المذاهب الأربعة، للكاتب محمد إسماعيل إبراهيم، ص: 60.

أعندهم ما يعارضونه؟ فإذا وجدهم مشوا على التسليم، بدأ هو ينقض ما قاله أولاً بحيث يقتنع السامع بصواب رأيه الثاني، فيسائلهم عما عندهم في الرأي الجديد؟ فإذا رأى أنه لا شيء عندهم أخذ يصور وجهها ثالثاً، فيصرف الجميع إلى الرأي الثالث، وفي آخر الأمر يحكم لأحدهما بأنه هو الصواب<sup>1</sup>.

ومن أمثلة ما توقعه أبو حنيفة من مسائل:

فرع الإمام أبو حنيفة في مسألة صيام الصبي والنصراني الذي أسلم، فالأول بلغ في النصف من رمضان في نصف النهار، والثاني أسلم في رمضان ولم يأكل بقية يومه، فلا قضاء عليهما فيما مضى، لعدم الوجوب عليهما، ويصوما ما بقي لقيام السبب في حقهما، الأول سببه البلوغ، والثاني سببه الإسلام<sup>2</sup>.

ثم انتقل إلى صورة أخرى من تفريعاته الشيقة المتعلقة بالصيام، وهي المسافر الذي نوى الإفطار، ثم دخل المصر قبل الزوال فنوى الصوم فأجزاه، [وإن كان في رمضان فعليه أن يصوم، لأنه زال المرخص وهو قادر عليه، وإن كان بعد الزوال لم يلزمه، ولو نوى لم يجزه، لأنه وإن زال المرخص لكن الإمكان ليس بثابت]<sup>3</sup>.

وعن [محمد، عن يعقوب، عن أبي حنيفة "رضي الله عنهم" في رجل قال لامرأته: إذا ولدت غلاماً فأنت طالق واحدة، وإذا ولدت جارية فأنت طالق اثنتين، فولدت غلاماً وجارية لا يدري أيهما أول، لزمه في القضاء تطليقة، وفي التنزه تطليقتان، وانقضت العدة بوضع الحمل]<sup>4</sup>.

ثم افترض الإمام صورة أخرى، حيث تحدث على أن الرجل لا يحنث إذا حلف لا يدخل بيتاً، فدخل الكعبة، أو مسجداً، أو بيعة، أو كنيسة، وذلك [لأن البيت إسم لما يبات فيه عادة وبني لذلك، وهذه الأشياء ليست كذلك]<sup>5</sup>، بل هي أماكن للعبادة وليست للمبيت.

### الفرع الثاني: المذهب الرافض لفقه التوقع والمتحفظ في العمل به

نجد الإمام مالك في المدينة - ومن بعده الإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم - اختار طريق التوقف عن الخوض في المسائل التي لم تقع فعلاً، وبالتالي ابتعاده عن فقه التوقعات، وأنه لا يلجأ

<sup>1</sup>- فقه أهل العراق وحديثهم، الكوثري، ص: 55-57.

<sup>2</sup>- المصدر نفسه، ص: 139.

<sup>3</sup>- المصدر نفسه.

<sup>4</sup>- المصدر نفسه، كتاب الطلاق، باب: الأيمان في الطلاق، ص: 200-201.

<sup>5</sup>- الجامع الصغير، للإمام الحافظ الشيباني، ص: 260.

إلى الرأي إن كان هناك نص أو أثر، وإن رواه واحد فقط، مادام هذا الراوي ثقة عدلا، وبالتالي قبوله العمل بأخبار الأحاد، وذلك لأن المدينة كانت موطن الحديث، ورفض الإمام مالك الجواب عما لم يقع، كأن في الافتراض والتوقع نجامة، أو رجما بالغيب، أو تحديا للمستقبل، مخافة أن يحل حراما أو يحرم حلالا دون إمام تام بالظروف، فقد روى أسد بن الفرات قائلا: [لقد كان أصحاب مالك يجعلونني أسأل مالكا عن المسألة، فإذا سألته أجابني، فيقولون لي: فلو كان كذا أو كذا، فأقول له، فضاق علي يوما فقال لي: سلسة بنت سلسة<sup>1</sup>، إذا كان كذا وكذا، كان كذا وكذا، إن أردت هذا فعليك بالعراق. قال: فقلت لأصحابي: تريدون أن تأخذوا العقارب بيدي، لا أعود إلى مثل هذا]<sup>2</sup>.

وعلى هذا الطريق صار فقهاء أهل الحديث، حيث كانوا يحذرون من الافتراضيين، ويطلقون عليهم تسميات عدة مثل: (الآرائيين)، (الهداهد)، (الآرائيين: أصحاب رأييت)، وينهون تلاميذهم عن مجالستهم والأخذ عنهم وإتباع طريقتهم، قال أبو وائل: [لا تقاعد أصحاب رأييت] وقال الشعبي: [ما كلمة أبغض إلي من رأييت] وقال الشعبي أيضا: [إنما هلك من كان قبلكم في رأييت]<sup>3</sup>.

وتجدر الإشارة هنا أن أتباع مالك فيما بعد قد انفتحوا على فقه التوقعات، وذلك نتيجة اختلاطهم بأقراهم من المذاهب الأخرى، فصار كل الفقهاء يغوص بحثا عن المعاني، وأكثروا البحث فيما وقع وما لم يقع، وتناظروا في عويص المسائل، وتوسعت كتب الفقه في تناول ما وضعه الحنفية المتأخرون من افتراضات وتوقعات بالبحث والمدارسة.

وفي الأخير لابد من الكشف عن ظهور غلاة من الجانبين خالفوا الحق وجمد فكرهم: [فمن أتباع أهل الحديث، من سد باب المسائل حتى قل فهمه وعلمه لحدود ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وصار حامل فقه غير فقيه، ومن فقهاء أهل الرأي، من توسع في توليد المسائل قبل وقوعها، ما يقع في العادة منها وما لا يقع، واشتغلوا بتكلف الجواب عن ذلك، وبكثرة الخصومات فيه، والجدال عليه، حتى يتولد من ذلك افتراق القلوب، ويستقر فيها الأهواء والشحناء والعداوة والبغضاء، واقتران هذا غالبا بنية المغالبة وطلب العلو، والمباهاة وصرف وجوه الناس]<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - سلسة: تصغير سلسلة. والمقصود بها هنا أن الأسئلة الافتراضية كحلقات السلسلة يتصل بعضها ببعض، وتتابع بلا نهاية.

<sup>2</sup> - رياض النفوس، لأبي بكر المالكي، 1/257-265.

<sup>3</sup> - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله 2/146-147.

<sup>4</sup> - الموافقات، للشاطبي، 5/385.

وقد فصل الإمام ابن القيم رحمه الله في حكم العمل بفقهِ التوقع وحدود الاجتهاد وِفْقَه، وحاول من خلال ذلك الموازنة بين المذهبين، حيث قال: "والحق التفصيل، فإن كان في المسألة نص من كتاب الله أو سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أثر عن الصحابة رضي الله عنهم لم يكره الكلام فيها، وإن لم يكن فيها نص، ولا أثر، فإن كانت بعيدة الوقوع أو مقدرة لا تقع لم يستحب له الكلام فيها، وإن كان وقوعها غير نادر، ولا مستبعد وغرض السائل الإحاطة بعلمها ليكون منها على بصيرة إذا وقعت، استحب له الجواب بما يعلم، لا سيما إن كان السائل يتفقهِ بذلك ويعتبر بها نظائرها ويفرع عليها فحيث كانت مصلحة الجواب راجحة كان هو الأولى، والله أعلم".<sup>1</sup>

**المبحث الثاني: فقهِ التوقع في ضوء المقاصد الشرعية والدراسات المستقبلية**

**المطلب الأول: فقهِ التوقع في ضوء المقاصد الشرعية (المآلات)**

**الفرع الأول: تعريف المقاصد الشرعية**

يعتبر الأصوليون المقاصد الشرعية أمراً مرتبطاً في جوهره بالمحافظة على مصالح الخلق بما يضمن سعادتهم في المعاش والمعاد. يقول الجويني في كتابه "الغياثي": "ومن العبارات الرائعة الفائقة المرضية في الإعراب عن المقاصد الكلية في القضايا الشرعية: أن مضمونها دعاء إلى مكارم الأخلاق ندباً واستحباباً، وحتماً وإيجاباً، والزجر عن الفواحش وما يخالف المعاني تحريماً وحظراً وكراهية".<sup>2</sup>

ولما كان الإنسان ميالاً بطبعه إلى نيل الحظوظ، واقتناص الشهوات، راعى الشرع الحكيم هذا الجانب في مقاصده، فهبأ سبل ضمانها، وقد أكد ذلك الجويني بقوله: "ولكن الله فطر الجبلات على التشوف والشهوات وناط بقاء المكلفين ببلغة وسداد، فتعلقت التكاليف من هذه الجملة بالمحافظة على تمهيد المطالب وتمييز الحلال عن الحرام، وتهذيب مسالك الأحكام على فرق الأنام، فجرت الدنيا من الدين مجرى القوام، والنظام من الذرائع إلى تحصيل مقاصد الشرائع".<sup>3</sup>

ولارتباط مفهوم المصالح بمقاصد الشرع العامة، فقد ذهب جمهور الأصوليين إلى أن مصالح المكلفين تمثل عنصراً محورياً فيها، قال الإمام الغزالي بعد أن عرف المصلحة: "لكننا نعي بالمصلحة

<sup>1</sup>- إعلام الموقعين عن رب العالمين 142/6.

<sup>2</sup>- غياث الأمم في التياث الظلم، للإمام الجويني، ص: 181.

<sup>3</sup>- المصدر نفسه، ص: 180-181.

المحافظة على مقصود الشرع"<sup>1</sup>، وقال الشاطبي: "أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والأجل معا"<sup>2</sup>، وقال في موطن آخر: "إن المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد، فالتكليف كله إما لدرء مفسدة وإما لجلب مصلحة أو لهما معا"<sup>3</sup>.

ولما كان اعتبار المآل من الأسس التي تنبني عليها المقاصد الشرعية، كونه يراعي - أثناء النظر في نازلة واقعة أو متوقعة - مصلحة مستجلبة أو مفسدة مستدفة، وعليه يقوم فقه التوقع بما يرتبط به من أحكام وتترتب عليه من آثار تتصل بسد الذرائع، خصصنا الحديث عنه وعما يتعلق به من أحكام لها صلة بفقه التوقع - موضوع البحث - فيما يأتي من فروع ومحاور.

### الفرع الثاني: تعريف المآلات، أنواعها وأمثلة عنها

#### أولاً: تعريف المآلات

المآل هو: الأثر المترتب على الشيء.

وعلى هذا يكون معنى المآلات: الآثار المترتبة على الشيء<sup>4</sup>.

وسماه بعض أهل العلم بـ(تحقيق المناط الخاص): "... بحيث يكون العمل في الأصل مشروعاً، لكن ينهى عنه لما يؤول إليه من المفسدة أو ممنوعاً"<sup>5</sup>.

#### ثانياً: أنواع المآلات<sup>6</sup>

تتنوع المآلات إلى أنواع عدة باعتبارات مختلفة، فمن تلك الأنواع:

المآلات من حيث التوقع، وتنقسم إلى: مآلات متوقعة، ومآلات واقعة: بمعنى أن تكون النتيجة مترتبة عن فعل المكلف واقعة بالفعل، فيعمل المجتهد على رفعها وإزالتها.

وتنقسم من حيث وقوعها إلى: مآلات يقطع بوقوعها، ومآلات يغلب وقوعها، ومآلات يكثر وقوعها.

<sup>1</sup> - المستصفي، ص: 286-287.

<sup>2</sup> - الموافقات، 2/6.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، 1/199.

<sup>4</sup> - ينظر: - اعتبار مآلات الأفعال وأثرها الفقهي - د. وليد الحسين - 30/1، و - اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات - ص: 19، و - فقه الموازنات بين النظرية والتطبيق - ناجي إبراهيم السويد - ص: 125.

<sup>5</sup> - الموافقات - للشاطبي - 5/181.

<sup>6</sup> - ينظر تلك الأنواع بالتفصيل: - اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات - ص: 27، و - اعتبار مآلات الأفعال وأثرها الفقهي - 63-61/1.



ومن حيث زمن الوقوع إلى: مآلات قريبة الوقوع، ومآلات بعيدة الوقوع .  
ولا شك أن الأفعال هو مجال النظر المآلي؛ وذلك أن مهمة المجتهد لا تنحصر في إصدار الحكم، بل يجب عليه أن يتعدى ذلك، ليطمحور الفعل مع مآلاته، لأن الأحكام بمقاصدها<sup>1</sup>.

### ثالثاً: أمثلة على اعتبار المآلات في الشرع

- 1- قوله تعالى: "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم"<sup>2</sup>.  
"فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين - مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة لألهمهم - لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لألهمهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سبها في فعل ما لا يجوز"<sup>3</sup>.
- 2- "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكف عن قتل المنافقين<sup>4</sup> - مع كونه مصلحة - لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه، وقولهم: إن محمداً يقتل أصحابه، فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه ومن لم يدخل فيه، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل"<sup>5</sup>.
- 3- قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تسافروا بالقرآن، فإني لا آمن أن يناله العدو)<sup>6</sup>.  
فالنبي صلى الله عليه وسلم علل النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو، بما قد يفضي إليه من أن تناله أيدي الكفار<sup>7</sup>.
- 4- قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)، قيل يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: (يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - ينظر: - فقه الموازنات بين النظرية التطبيق - ص: 125، و- الموافقات - 177/5.

<sup>2</sup> - الأنعام: 109.

<sup>3</sup> - إعلام الموقعين 5/5.

<sup>4</sup> - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (سورة المنافقون)، رقم (4622) - ومسلم، كتاب البر والصلة، باب نصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (6748).

<sup>5</sup> - إعلام الموقعين 7/5.

<sup>6</sup> - رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم، 1491/3، حديث رقم (1869)، ورواه البخاري بنحوه في كتاب الجهاد والسير، باب: كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، ص: 573، حديث رقم (2990).

<sup>7</sup> - ينظر: إعلام الموقعين 122/3.

<sup>8</sup> - رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، 92/4.

فقد نهى صلى الله عليه وسلم عن سب آباء الناس، لما يتسبب ويؤول إليه أمر ذلك الفعل، وجعله من أكبر الكبائر، ذلك أن أمر السب يؤول إلى سب الوالدين، وجعل النبي من يقدم على ذلك الأمر كمن يسب والديه، وهذا تأكيد لحرمة الفعل لعظم المفسدة التي يؤول إليها. يقول ابن البطال: [هذا الحديث أصل في قطع الذرائع، وأن من آل فعله إلى محرم وإن لم يقصده، فهو كمن قصده وتعمده في الإثم]<sup>1</sup>.

### الفرع الثالث: علاقة المآلات بسد الذرائع وفتحها

الذريعة بمعناها العام هي: "الوسيلة للشيء"<sup>2</sup>، وهذا التعريف عام يشمل الذريعة التي تسد والذريعة التي تفتح.

وبمعناها الخاص (وهي الذريعة التي تسد) هي: "أي شيء من الأفعال، أو الأقوال ظاهره مباح، ويتوصل به إلى محرم"<sup>3</sup>.

أو "التوصل بما هو مصلحة إلى مفسدة"<sup>4</sup>.

ومعنى فتح الذرائع: "طلب الوسيلة التي تؤدي إلى مصلحة"<sup>5</sup>.

فمبدأ الذرائع (بنوعيه: السد، والفتح) متفرع عن أصل المآلات حيث احتاط الشارع للمفاسد والمصالح المتوقعة بتحريم أو إباحة الوسائل قولية كانت أو فعلية محافظاً على قصده فيها.

### الفرع الرابع: فقه التوقع في ضوء مآلات الأفعال

في تعريفه لفقه التوقع قد ذكرت المجالات التي يغطيها هذا الفقه ومنها المآلات وسبق تعريفه وذكر بعض أنواعه، فالتوقع يعتمد في إصدار الأحكام على الواقع مع استشراف المستقبل، فالفقيه لا بد أن يحقق موازنة بين مصلحتين: مستقبلية وأخرى حاضرة، وموازنة بين مفسدتين: مستقبلية وأخرى حاضرة، ففقه المآل هو عبارة عن توازن بين حاضر وبين مستقبل، ففي حال

<sup>1</sup> - شرح صحيح البخاري : لابن بطال علي بن خلف، 192/9.

<sup>2</sup> - شرح تنقيح الفصول - للإمام القرافي - 194/2. وينظر: - إعلام الموقعين - 553/4.

<sup>3</sup> - شرح الكوكب المنير - لابن النجار - 434/4.

<sup>4</sup> - الموافقات 183/5.

<sup>5</sup> - اعتبار مآلات الأفعال وأثرها الفقهي 366/1.

إصدار الأحكام يراعي الفقيه الظروف التي تحيط بالواقعة معتبرا الاقتضاءات التبعية للأحوال، وما ينتج عنها من مآلات متوقعة.

وهذا المقصود بالنظر في المآلات بأن تعتبر تلك المآلات المتوقع حصولها قبل أن تقع، فتُسَد ذرائع المفسد قبل وقوعها ويُمْنَع التسبب في حدوثها، وتُسْتَجْلَب المصالح المتوقعة، كي يقع تطبيق الحكم موافقا لمقاصد الشريعة<sup>1</sup>، فالنظر في مآلات الأفعال - حسب الشاطبي- "معتبرٌ مقصودٌ شرعًا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعًا لمصلحة قد تستجلب أو لمفسدة قد تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع، لمفسدة تنشأ عنه أو لمصلحه تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من انطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية، ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذّب المذاق، محمود الغبّ، جارٍ على مقاصد الشريعة"<sup>2</sup>.

وببدو جليا من خلال قول الشاطبي أن فقه التوقع (اعتبار المآل)، هو صعب المنال ومجال مخصوص بالمجتهد؛ ذلك أنه فقه يتطلب بعد النظر، وتمثل متكامل لمقاصد الشريعة، وسبر لأسرارها وإدراك لكنهها، واهتمام بشأن الدين في حاله وأجله.

وفقه التوقع لا يخرج عن دائرة سد الذرائع بما يدرأ مفسدة محتملة أو يستجلب مصلحة متوقعة، وكلما استحضر الفقيه والمجتهد هذه المقاصد أثناء توقع الحلول وتقدير الأحكام، كلما كان أقرب للصواب في تنزيل الأحكام، وأدعى لأن يلامس معاني الشرع في تلك الأحكام، فتنبجلي له الحقائق دررا مضيئة، يهتدي بها إذا ضاقت عليه أبواب الحكمة، وأغلقت عليه مفاتيح الدجى، ولأن مقاصد الشريعة عليها مدار الحياة وبها صلاح الدارين، فإن عمل المجتهد لا يكتمل إلا بإحاطته بمجالات هذه المقاصد وأصولها، ومآلاتها المتفرعة عنها.

<sup>1</sup> - ينظر: - اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص: 34- و - اعتبار مآلات الأفعال وأثرها الفقهي 61/1 - و - فقه الموازنات، ص: 129.

<sup>2</sup> - الموافقات 177/5.

## المطلب الثاني: فقه التوقع في ضوء الدراسات المستقبلية

## الفرع الأول: مفهوم الدراسات المستقبلية وأقسامها

## - أولاً: مفهومها

من منظورٍ عامٍ هي: مجموعة من الدراسات والبحوث التي تهدف إلى تحديد اتجاهات الأحداث وتحليل مختلف المتغيرات التي يمكن أن تؤثر في إيجاد هذه الاتجاهات أو حركة مسارها<sup>1</sup>. أو هي: "اجتهاد علمي منظم، يرمي إلى صوغ مجموعة من التنبؤات المشروطة، والتي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع، أو مجموعة من المجتمعات، وعبر فترة مقبلة تمتد قليلاً لأبعد من عشرين عاماً، وتنطلق من بعض الافتراضات حول الماضي والحاضر، ولاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع، ونوعية وحجم التغيرات الأساسية الواجب حدوثها في مجتمع ما، حتى يتشكّل مستقبله على نحوٍ معيّن منشود"<sup>2</sup>.

أما الدراسات المستقبلية من المنظور الفقهي أو ما يعبر عنه البعض بـ(الفقه المستقبلي) فهو: الفقه الذي يشتغل بالمستقبل وقضاياها ويقلب وجوه الفتوى بحسب الاحتمالات الممكنة ويرجح منها ويضعف<sup>3</sup>.

## ثانياً: أقسامها

فالدراسات المستقبلية تنقسم إلى:

- دراسات استكشافية (أو استطلاعية): تهدف إلى محاولة معرفة صورة المستقبل المتوقع، وهو: المصير الذي يُتوقع أو يؤول إليه واقع معين، والمستقبل الممكن وهو: البدائل التي يمكن حصولها في المستقبل في حال تدخل معين.

- دراسات استهدافية (أو معيارية): تهدف إلى بيان المصير الذي تأمل الأمة أن تصير إليه بعد إحداث تغييرات في ظروف الواقع ومعطياته<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - الدراسات المستقبلية: مفهومها - أساليبها - أهدافها - د. طارق عبد الرؤف عامر - ص: 29.

<sup>2</sup> - صور المستقبل العربي، تأليف ثلة من الدكاترة، ص: 23.

<sup>3</sup> - ينظر مقالة: - تجديد علوم الفقه والمقاصد في ضوء المستقبل - إلياس بلكا - مجلة التسامح - العدد: 20.

<sup>4</sup> - ينظر: - من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية - د. هاني الجبير - ص: 35.

## الفرع الثاني: أساليب الدراسات المستقبلية

من أساليب الدراسات المستقبلية<sup>1</sup> نجد:

- 1- استقراء الاتجاهات: يعتمد هذا الأسلوب على أن الاتجاهات التي ثبتت في التاريخ القريب سوف تستمر في المستقبل، ويفترض هذا الأسلوب أن القوى التي كانت تؤثر في تشكيل الاتجاه الماضي؛ سوف تستمر في المستقبل.
- 2- التشاور المتميز (تقنية دلفي): ويهدف هذا الأسلوب إلى تحديد الاحتمال الأقوى بين عدد من الاحتمالات الخاصة بظاهرة معينة، وتبيان أكبر عدد ممكن من الدلائل المساندة لهذا الاحتمال، ومحاولة الحصول على اتفاق في الرأي بين مجموعة من الخبراء في تصور المستقبل عبر محاولات متعددة وتشاور متكرر.
- 3- المشاهد (السيناريو): ويقوم هذا الأسلوب على محاولة استعراض كل الاحتمالات ومحاولة التنبؤ بما سترتب على كل احتمال دون أن يعنى بالترجيح بين الاحتمالات.
- 4- المحاكاة: وهي افتعال وضعية تتشابه مع واقع موجود فعلاً بقدر كبير، ومن خلال دراسة الوضعية المفتعلة يمكن التنبؤ بما سيكون عليه الحال في الواقع الفعلي.
- 5- النماذج: هو بناء نظري نحكي من خلاله بنية موضوع يراد دراسته.

## الفرع الثالث: أمثلة لمشروعية دراسة المستقبل

- 1- قوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا لَكُمْ مَا اسْتَغْنَوْا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاكَ الْغَنِيِّ﴾<sup>2</sup>.
- فأمر الله تعالى المسلمين بالاستعداد لمستقبل يتوقع حصوله ومن ذلك: الإعداد لمواجهة العدو.

- 2- وأذن النبي صلى الله عليه وسلم في غير وقت المجاعات في ادّخار لحوم الأضاحي ما شاء المضحي فقال: "كلوا وأطعموا وادخروا" 3، فعلمهم كيف يتعاملون في المستقبل مع لحوم الأضاحي، لأن النبي الأول كان لعلة المجاعة، وقد استشرّف صلى الله عليه وسلم زوالها مستقبلاً، فأطلعهم

<sup>1</sup> ينظر: - الدراسات المستقبلية مفهومها، أساليبها، أهدافها- ص: 81، و - الاستشراف: مناهج اكتشاف المستقبل- إدوار كورنيش- ص: 114، و- من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية- ص: 37.

<sup>2</sup> الأنفال: 61.

<sup>3</sup> أخرجه البخاري عن سلمة بن الأكوع - كتاب الأضاحي- باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها- رقم (5249)، و- مسلم عن أبي سعيد الخدري- كتاب الأضاحي- باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي- رقم (5221).

على طرق تقسيم الأضحية، وإذا رجعت العلة مرة أخرى بتوقع أسباب حصولها يرجع حكم المنع، والتوقع دائر بين جواز ومنع بحسب ما يظهر من قرائن وما يلوح من أسباب مرتبطة بحال الواقع ومآل المستقبل.

#### الفرع الرابع: فقه التوقع في ضوء الدراسات المستقبلية

إن مجال الافتراض والتوقع هو المجال الذي يركز على افتراض الحوادث والنوازل التي لم تقع بعد، وحسن الاستعداد لها قبل وقوعها، وذلك باجتهاد الفقيه في وضع الأحكام الشرعية الموافقة لها، ومثاله: ما كان حين نزل قتادة الكوفة، فقام إليه أبو حنيفة، فسأله: [يا أبا الخطاب ما تقول في رجل غاب عن أهله أعواماً، فظنت امرأته أن زوجها مات، فتزوجت، ثم رجع زوجها الأول، ما تقول في صداقها؟ وكان أبو حنيفة قد قال لأصحابه الذين اجتمعوا إليه: لئن حدث بحديث ليكذبن، ولئن قال برأي نفسه ليخطئن، فقال قتادة: ويحك، أوقعت هذه المسألة؟ قال: لا، قال: فلم تسألني عما لم يقع؟ قال أبو حنيفة: [إننا لنستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا ما وقع، عرفنا الدخول فيه، والخروج منه]<sup>1</sup>.

وعليه فالمجالات التي يغطيها هذا النوع من الفقه هي: استشراف المستقبل، والمآلات، وكلاهما تغطيهما الدراسات المستقبلية، فالمآل من أعظم الأصول الشرعية التي تدل على لزوم النظر في المستقبل ومراعاته، والاستشراف يتضمن توقعات يحتمل حدوثها مما له التأثير البالغ على الحكم الشرعي، حيث إن الأحكام بصفة عامة إما قطعية أو ظنية، وما يخص المستقبل من الأحكام عبارة عن ظنيات لا تستطيع أن تعطي صورة محددة ودقيقة للقضايا المستقبلية، سوى احتمالات مشروطة يستفيد منها المجتهد لبناء أحكام شرعية لما يتوقع حدوثه، مما يقي - بإذن الله - من الوقوع في كثير من الإشكالات، ف"ليس من الحزم الثقة بمواتاة الأقدار والاستئناس إلى مدار الفلك الدوار فقد يثور المحذور من مكمته ويؤتى الوادع الآمن من مأمنه"<sup>2</sup>.

ولا شك أن المشتغل بالدراسات المستقبلية، يمكن أن يستفيد من فقه التوقع كثيراً، بحيث يتقيد المجهود الاستشرافي بضوابط اعتبار المآل، وهنا يتعين تكوين مجموعات وفرق أبحاث من تخصصات عديدة، تكون فيها المشاركة للمشتغلين بفقه المآلات دور في النظر في مآلات الاقتراحات المقدمة من طرف الباحثين والمهتمين بقضايا المستقبل إلى صناع القرار السياسي؛ وإن كان ذلك

<sup>1</sup> - تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، 348/13.

<sup>2</sup> - غياث الأمم والتياث الظلم، ص: 274.

غير متوفر حالياً في أغلب دول العالم الإسلامي، حيث توجد فجوة كبيرة بين المشتغل بالدراسات المستقبلية وصناع القرار والمشتغل بالقضايا الشرعية.

إن النظر المآلي له تطبيقات معاصرة وهامة وتشمل كافة مناحي ومجالات السياسات العمومية، ومن ذلك تقييم التكنولوجيا وتداعياتها الأخلاقية والسياسية، وكذلك تحليل وضعية إغفال الدراسات العلمية الرصينة لبعض القضايا المستجدة وربطها بمقاصد الشريعة، وعدم الاهتمام بالسياق العلمي والتقني، وعدم توفر أطر للاستشراف التكنولوجي والعلمي والطبي، والنظر في مآلات التأخر عن هذا السبق، وتأثيره على وضع العالم الإسلامي ومستقبل الأجيال.

وللإشارة فإن الدراسات المستقبلية لا تنحصر فيما هو علمي معرفي بل كذلك فيما هو أخلاقي إنساني؛ من خلال البحث في الطرق الممكنة لإنقاذ الشباب من الإدمان التكنولوجي الذي زحف على ما تبقى من القيم الإسلامية، بتشخيص الوضع القائم وتصور ما سيفرزه من تحديات كبيرة على المدى البعيد، مما سيسمح للدولة بهامش من الاجتهادات الاستباقية، والاستعدادات الدائرة في فلك مقاصد الشريعة، وفيما هو اجتماعي؛ من خلال إجراء دراسات مستقبلية في مجال التشغيل للوقوف على موطن الداء وأسباب الخلل، لتوفير فرص الشغل والحد من البطالة، واحتواء الشباب العاطل الذي يعتبر رأس مال تقدم أي مجتمع وتطوره، وفي المجال الطبي؛ لنا في جائحة كورونا خير شاهد على هذا الموضوع، فلو كان للمجتمعات الإسلامية دراسات مستمرة ومعمقة في المجال الطبي، واستشراف للتحديات والإكراهات التي ستفرزها تطورات الحياة في الجوانب الصحية منها، واستغلال كامل لمؤهلات الأطر الصحية مع توفير الأدوات اللازمة للاشتغال، لكننا السباقين لمواجهة أي طارئ تفرضه مستجدات البيئة الإنسانية (مثل جائحة كورونا)، وتوقع كل الحلول الممكنة في سبيل خدمة البشرية، وتحقيق المصالح الشرعية.

ولا يكتمل دور هذه الدراسات إلا إذا شارك في بناء أسسها العلماء من جميع التخصصات، إذ لا يمكن تصور الواقعة أو القضية محط الدراسة وتشخيصها بشكل كامل، إلا إذا عرضت بجميع حيثياتها على ذوي الاختصاص للنظر فيها من جميع الجوانب، واقتراح الحلول المناسبة لكل احتمال تفرزه الدراسة في بعدها الشمولي، وهذا يقتضي إشراك جميع العلوم في العملية؛ شرعية، سياسية، اجتماعية، طبية، علمية...، ولأن حصر الدراسات المستقبلية في تخصصات بعينها يجعل الدراسة قاصرة لا تثمر النتائج المرجوة.

## خاتمة:

من خلا هذا البحث المقتضب نخلص إلى النتائج والتوصيات التالية:

- من خلال الشواهد المذكورة في البحث نتلمس مدى مراعاة الرسول صلى الله عليه وسلم ونظره في مآلات الأفعال والنتائج، وحسن توقعه لها، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يقدم على فعل شيء، أو الإحجام عنه إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان صاحب فقه توقعي تقديري عال.
- تشجيع السنة النبوية على الأخذ بالمآلات الموافقة لمقاصد الشريعة الإسلامية، وعلى العكس من ذلك منعت وسدت كل الطرق والذرائع أمام المآلات الممنوعة شرعا كيفما كانت عاجلة أو آجلة، ولا يتأتى ذلك إلا بتفعيل قاعدة سد الذرائع كما رأينا.
- ورد في السنة النبوية ما يدل على اعتبار مآلات الأفعال من قبله صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة، وذلك في إطار اشتغاله صلى الله عليه وسلم بفقه التوقعات بصفة عامة، ومراعاة المآل عليه تنبني مصالح العباد والمقاصد الشرعية، وكان له دور كبير في التأسيس لفقه التوقع، وبناء المعالم الأساسية للدراسات المستقبلية.
- أن فقه التوقع هو إصدار الأحكام استنادا إلى المستقبل، وأن مجاله الأشرف هو الفقه العام المتعلق بقضايا الأمة المصيرية الكبرى، وذلك استغنا ما لمصالحها في الاستقبال، واستدفاعا لما قد يلحق بها من مفاسد مرتقبة في المآل.
- إن حضور فقه التوقعات الافتراضي في الممارسة الاجتهادية للإمام أبي حنيفة وتلاميذه، كان حضورا قويا، حيث ساهم الإمام في تنميته وتوسيعه، وذلك بما أكثر من الافتراض والتفريع والقياس.
- أما عن المنهج الذي اتبعه الإمام في فقه التوقعات الافتراضي، فقد كان منهج علمي عملي نموذجي، مبني على التشاور مع تلاميذه قبل الحكم في القضية.
- اعتمد الرأي عند الإمام مالك ومن وافقه من أهل الحجاز على المصلحة، وهي لا تتحقق إلا فيما وقع من الحوادث، فلا يجيء فيها الفرض والتقدير.



- إن مما ميز مالكا عن فقهاء الرأي بالعراق في مجال فقه الرأي، قلة التفريعات الفقهية عنده، وهو أمر يرتبط بقلّة إجاباته عن المسائل، واقتصاره من ذلك على ما وقع منها دون غيرها من الافتراضات التي توسع فيها أبو حنيفة وأصحابه.

- إن فقه التوقع له أصول معتبرة في الشرع، ولكن ليكتمل أثره لا بد من الالتزام بضوابطه، بأن يكون وفق مقاصد الشرع، ويسعى العلماء من خلاله لتحقيق مصالح الأنام وتمكين شرع الله في الأرض بمواكبة ما يستجد من وقائع اعتمادا على الاجتهاد وما يرتبط به من آليات، من غير توسع مخل بالمعاني وهادم للمباني.

- إن نجاح الدراسات المستقبلية رهين بوجود معالم واضحة لأسسه، تنطلق من رؤية متبصرة تربط بين الواقع والمآلات المتوقعة.

- إن الاشتغال على فقه التوقع وربطه بالدراسات المستقبلية، يقتضي تسخير كل الإمكانيات والوسائل من المجتمعات الإسلامية لإنجاحه، وتحقيق النتائج المرجوة منه، وكذا الاستعانة بجميع التخصصات والعلوم للإحاطة بكل الجوانب المعنية بالدراسة، وتوظيف ذلك بالشكل الأمثل سيجنبنا تبعات التبعية والانتظار، والمحدودية في التصور وقصور في الإبصار.

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- أئمة المذاهب الأربعة أبوحنيفة: مالك، الشافعي، ابن حنبل، حياتهم - عصرهم - بيئاتهم - آراؤهم - مذاهبهم: للكاتبة محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي- 1978م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين - لابن قيم الجوزية (ت571هـ) - دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولى/1411هـ-1991م.
- الأشباه والنظائر- تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي(ت771هـ)- دار الكتب العلمية، بيروت- الطبعة الأولى:1411هـ/1991م.
- - تجديد علوم الفقه والمقاصد في ضوء المستقبل- إلياس بلكا- مجلة التسامح- العدد: 20.
- تاريخ بغداد- أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي(ت464هـ)- دار الكتب العلمية، بيروت- بدون تاريخ.
- التقديرات الشرعية وأثرها في التععيد الفقهي والأصولي- د.مسلم بن محمد الدوسري- دار زدني، الرياض- الطبعة الأولى: 1430هـ/2009م.
- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد القرطبي (ت671هـ)، دار عالم الكتب، بيروت، 1413هـ.
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر (ت463هـ)، دارالفكر، بدون تاريخ.
- الجامع الصغير: للإمام الحافظ المجتهد الرباني أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (ت189هـ)، مع شرحه النافع الكبير: للعلامة الشهير أبي الحسنات عبد العلي اللكنوي (ت1304هـ)، إدارة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع، باكستان، ط/1411هـ - 1990م.
- الدراسات المستقبلية: مفهومها - أساليبها - أهدافها- د. طارق عبد الرؤف عامر- دار اليازوري العلمية- ط/2008م.

- الذخيرة: لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ)، تحقيق: الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى/1994م.
- رياض النفوس- لأبي بكر المالكي- من تحقيق بشير البكوش، ومراجعة محمد العروسي المطوي- دار الغرب الإسلامي- ط/1983م.
- الاستشراف، مناهج استكشاف المستقبل- إدوارد كورنيش- ترجمة: د. حسن الشريف- الدار العربية للعلوم، بيروت- الطبعة الأولى: 1428هـ/2007م.
- الاستنباط الفقهي عند أهل الرأي- عبد الله بن عبد العزيز الدرعان- رسالة ماجستير، المعهد العالي للقضاء- ط/1398-1399هـ.
- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول من الأصول- لشهاب الدين القرافي (ت 684هـ)- مكتبة الكليات الأزهرية، مصر- الطبعة الأولى/1393هـ.
- شرح صحيح البخاري- لابن بطال علي بن خلف (ت 449هـ)- تعليق ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض- الطبعة الأولى/1420هـ.
- شرح الكوكب المنير- لمحمد الفتوح المعروف بابن النجار (ت 972هـ)، تحقيق د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، 1413هـ.
- صور المستقبل العربي - تأليف: د. إبراهيم سعد الدين - د. علي نضار- د. اسماعيل صبير عبد الله- د. محمود عبد الفضيل - منتدى العالم الثالث، مكتب الشرق الأوسط- دون تاريخ.
- اعتبار مآلات الأفعال وأثرها الفقهي- د. وليد الحسين- دار التدمرية، الرياض- الطبعة الثانية/1430هـ/2009م.
- اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات دراسة مقارنة في أصول الفقه ومقاصد الشريعة- عبد الرحمن السنوسي - دار ابن الجوزي - الطبعة الثانية/1429هـ.
- غياث الأمم واليتايم الظلم (الغياثي) - لأبي المعالي عبد الملك الجويني (ت 478هـ)- تحقيق عبد العظيم الديب- مطبعة نهضة مصر- ط 1401/2هـ.

- الفقه الإسلامي والمستقبل " الأصول المقاصدية وفقه التوقع " - توصيات في ندوة- موقع الإسلام أون لاين .
- فقه أهل العراق وحديثهم- لمحمد زاهد الكوثري (ت1371هـ) - تحقيق عبد الفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامي، حلب- (ط/1390هـ-1970م).
- فقه الموازنات بين النظرية والتطبيق- ناجي إبراهيم السويدي- دار الكتب العلمية.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي- لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (ت1376هـ) - تحقيق عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ- المكتبة العلمية، المدينة المنورة- ط1/1396هـ.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام- لأبي محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي(ت660هـ)- طبعة روجعت على نسخة المرحوم محمد بن التلاميذ الشنقيطي- دار الكتب العلمية- بدون تاريخ.
- القواعد- تقي الدين الحصني- تحقيق: د.عبد الرحمن الشعلان و د.جبريل البصيلي- مكتبة الرشد، الرياض- الطبعة الأولى:1418هـ/1997م.
- المجموع شرح المذهب- محي الدين يحيى بن شرف النووي(ت676هـ)- تحقيق: محمد نجيب المطيعي- مكتبة الإرشاد- بدون تاريخ.
- المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل- بكر أبو زيد - دار العاصمة، الرياض- الطبعة الأولى:1417هـ/1997م .
- المستصفي من علم أصول الفقه - لأبي حامد الغزالي(ت505هـ)- دار الفكر للطباعة، بيروت- بدون تاريخ.
- المنشور في القواعد - محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي- تحقيق: د.تيسير فائق أحمد- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت- الطبعة الثانية/1405هـ.

- من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية - د.هاني الجبير- مركز البحوث والدراسات التابع لمجلة البيان- 1429هـ.
- موسوعة القواعد الفقهية- محمد صديقي البورنو- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط/1424هـ.
- الموافقات في أصول الشريعة - تصنيف العلامة المحقق أبواسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت790هـ) - تحقيق الشيخ عبد الله دراز- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان- بدون تاريخ.
- نهاية السؤل في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول- لعبد الرحيم الأسنوي (ت 772هـ) - دار الكتب العلمية، بيروت- بدون تاريخ.

## الإمام عبد الواحد بن عاشر وأثره في تطور المذهب الأشعري

سعد أفوغال

طالب في سلك الماستر  
جامعة محمد الخامس الرباط  
المغرب



### ملخص:

تولت العديد من المدارس الإسلامية مهمة توضيح وشرح الدين الإسلامي الحنيف للناس، ومن أبرزها المدرسة الأشعرية المنسوبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ). وتبعه أئمة بارزون حملوا على عاتقهم نشر معارف هذه المدرسة، وشرحوها مبادئها ومنهجها، في المشرق والمغرب على حد سواء، وإن كان المغاربة قد تميزوا عن المشاركة في بعض المسائل التي فرضتها الظروف السياسية وظروفهم الخاصة، كما نراه في كتاباتهم التي أسهمت بشكل كبير في تطوير الفكر الأشعري. ومن بين الأئمة البارزين الذين حملوا علمه في بلاد المغرب، نجد الإمام ابن عاشر رحمه الله (ت 1040هـ). تأتي أهمية هذه الدراسة لتبيان المكانة العظيمة التي حظي بها الإمام ابن عاشر في الفكر الأشعري، بالإضافة إلى الاعتراف بوضعه القوي بين أعلام الحضارة الإسلامية في المغرب الإسلامي.

**كلمات مفتاحية:** المذهب الأشعري - الإمام ابن عاشر - العقيدة - المغرب الإسلامي - الكتاب - السنة.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

أفوغال، سعد. (2024، أكتوبر). الإمام عبد الواحد بن عاشر وأثره في تطور المذهب الأشعري. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 867-889.

### Abstract:

Since the Islamic faith is of great importance, and upon it salvation and destruction, several Islamic schools have taken it upon themselves to clarify and explain it to people, including the Ash'ari school, which is attributed to Imam Abu al-Hasan al-Ash'ari (d. 324 AH). After him came prominent imams who took the knowledge of this school, explaining its principles and methods, in the eastern and western lands alike, although the Moroccans had privileges over the easterners in some issues dictated by political circumstances and their circumstances, which we see in their writings that contributed greatly to the development of the Ash'ari doctrine. Among the prominent imams who carried his knowledge in the western countries, we find: Imam Ibn Ashur, may God have mercy on him (d. 1040 AH), and I will discuss him in a brief study that does not prejudice the required in these papers. The importance of this study comes from the great position that Imam ibn Ashur enjoyed in Ash'ari thought, in addition to the recognition of his strong standing among the figures of Islamic civilization in the Islamic West.

**Keywords :** Ash'ari doctrine - Imam Ibn Ashir - Aqeedah- Islamic Maghreb - Quran - Sunnah.

## مقدمة

لا شك أن للعقيدة أهمية كبرى في الدين الإسلامي، فهي أساس الدين، وأهم علومه على الإطلاق، فهي الأصل الذي يُبنى عليه غيره من فروع الشرائع، فسائر الأعمال من العبادات والسلوك تبنى عليها. ومما يدل على أهميتها وأولويتها، أن رسول الله ﷺ عندما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى أهل اليمن، قال له: فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يُوحّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات. كما أنه ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد وبيان العقائد، ولم تنزل الأحكام الفرعية خلا الصلاة إلا في المدينة؛ مما يدل على أن رُكْنَ الدعوة لتعليم العقيدة وتصحيحها، فلا تقوم الأعمال على أساس متين إلا بتصحيح العقيدة.

وبعد انتقال النبي ﷺ للرفيق الأعلى، بدأت الانحرافات العقيدية في الظهور في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم فظهرت الخوارج، والشيعية، والقدرية، إلا أنها ظلت محدودة الانتشار. وبعد الفتوحات الإسلامية واحتكاك المسلمين بالشعوب المختلفة من حيث العقائد والأديان والأفكار، ودخل كثير منهم في الإسلام، ولم يتخلص بعضهم من الاعتقادات التي كانت سائدة فيهم رغم وجود الكتاب والسنة بين ظُهورنا، وذلك لجهل كثير منهم باللغة العربية، فلم يفهموا الخطاب الشرعي كما فهمه الرعيل الأول من أهل الإسلام، فحملوا معهم تلك الأفهام الخاطئة إلى الحواضر العلمية، فمنهم من كان يأتي بما اشتبه عليه ليجد الجواب عليها، وبعضهم كان يريد إثارة الفتنة بين المسلمين، فتأثرت طوائف منهم ببعض هذه الأفكار الدخيلة عليهم، فانتسعت رقعة الانحرافات وظهرت المعتزلة والجهمية، وانتشرت مقولاتهم بين الناس لبُعد كثير من العلماء عن علوم الكلام والجدل وتحذيرهم منه، وتقوت شوكة المعتزلة -خصوصاً- في العصر العباسي بعد تبني الخليفة المأمون لمذهبهم، فتصدى لهم أهل السنة، وبقيت منهم بقية تنافح عن الاعتزال بقوة، فظهر الإمام أبو الحسن الأشعري، الذي نصرَ عقائد أهل السنة وانبرى للدفاع عنها، جامعاً بين العقل والنقل، ثم خلفه العديد من الأعلام الذين ساروا على نهجه وحملوا لواء منهجه. ومن أبرز هؤلاء الأعلام في القرن الحادي عشر: الإمام ابن عاشر؛ فمن هو عبد الواحد ابن عاشر؟ وماهي آراؤه العقيدية، وما هي آثاره في تطور المذهب الأشعري؟

## المبحث الأول: التعريف بالإمام عبد الواحد ابن عاشر

## المطلب الأول: عصره

إن التعريف بأي عَلم من الأعلام لابد أن يتناول العصر الذي نشأ فيه، وذلك ليقف الباحث على المؤثرات البيئية التي ساهمت في تكوين الوسط الاجتماعي الذي أثر في المترجم له؛ وقد عاصر الإمام عبد الواحد ابن عاشر -رحمه الله- الدولة السعدية التي سنتعرف على أوضاعها السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية؛ ولن نتطرق في هذا المطلب إلا لما له صلة بالمدة الزمنية التي عاصرها المترجم له، وهي مرحلة حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي<sup>1</sup> ومرحلة ما بعد وفاته، من سنة 990هـ إلى سنة 1040هـ، وكذلك بما له صلة بالأحداث التي حصلت في مدينة فاس، أو كان لها أثر ظاهر عليها.

## الفرع الأول: الحالة السياسية:

كان المغرب إبان هذا الوقت -أي: سنة 990هـ- تحت سلطان الملك أحمد المنصور الذهبي رحمه الله الذي خرج منتصرا من معركة وادي المخازن سنة 986هـ، والذي سعى بعدها إلى إخماد الفتن التي تلت هذا الانتصار<sup>2</sup> وإعادة هيكلة الدولة التي أصابها التصدع زمن حكم السلطان محمد المتوكل<sup>3</sup> والسلطان عبد الملك المعتمد<sup>4</sup>. أما ما يخص الشؤون الخارجية للبلاد، فقد حرص السلطان أحمد المنصور على تكوين علاقات خارجية مع الدول الكبرى في ذلك الوقت، كالدولة العثمانية والإسبانية والإنجليزية، وذلك لتجنب البلاد والعباد أي هجوم خارجي من شأنه أن يززع أركان الدولة وينهك اقتصادها<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> سبب تلقّبه بالذهبي لما أفاض الله من الذهب على أيامه من غنائم السودان وتجارتهم، حتى صار الذهب أكثر المعاملات، ورواتب الجند المرتزقة وغيرهم، أنظر: الجاش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط، الشيخ محمد الإمام، تحقيق: محمد الظريف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، سنة 2013م، ص 83.

<sup>2</sup> أنظر: مناهل الصفا في مآثر مولانا الشرفا، لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي، دراسة وتحقيق: د. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، (م.د.)، (ت.د.)، ص 55، وانظر: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصّغير الإفرائي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة 1419هـ/1998م، ص 155، 177، 269.

<sup>3</sup> محمد المتوكل على الله بن عبد الله الغالب بالله بن محمد الشيخ (ت 986هـ)، يعرف بالمسلوخ، أحد ملوك معركة وادي المخازن.

<sup>4</sup> عبد الملك المعتمد بالله بن محمد الشيخ (ت 986هـ)، أحد ملوك معركة وادي المخازن.

<sup>5</sup> أنظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، سنة 1427هـ/2006م، ص 205.



وقد عاشت الدولة السعدية وقت حكم السلطان المنصور بالله أزهى أيامها، فخدمت الفتن وتوطدت أركان الدولة بمجموع البلاد، وعم الأمن والاستقرار وازدهرت سبل الحياة، ومُليت خزينتها وتوسعت رُقعتهما جنوباً إلى بلاد السودان<sup>1</sup>.

وما لبثت الدولة بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي سنة 1012هـ بالطاعون، أن أصابها القلاقل والفتن<sup>2</sup> من جراء تنازع أولاده على الحكم<sup>3</sup> ودخلت البلاد في حروب دامية استطلت عشر سنوات بعد وفاة السلطان، واشتعلت الفتن بمدينة فاس وما حولها<sup>4</sup> واجتراً ذوا السلطة والعامة على قتل العلماء<sup>5</sup> وممن نالهم ذلك مُترجماً - كما سنذكره في حياته الشخصية - في رواية بعض المؤرخين؛ فكان ما سبق من أعظم الأسباب في جعل الدولة مَرَمَى الأطماع الخارجية من قبَل الأتراك والإسبان<sup>6</sup>.

استرجعت الدولة استقرارها نسبياً<sup>7</sup> في عهد السلطان زيدان بن أحمد الذهبي سنة 1022هـ، وتواصلت جهوده لاستعادة الهيمنة السعدية على المناطق المغربية، لكن ذلك لم يدم طويلاً<sup>8</sup> بعد

<sup>1</sup> أنظر: مناهل الصفاء، ص 197، والمقصود ببلاد السودان في كتب البلدان، والجغرافيا، والرحلات: «بلاد متسعة الأرجاء رحبة الجوانب، حدّها من الغرب البحر المحيط الغربي، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرقي بلاد الزنج في جنوبي البحر الهندي، ومن الشمال البراري الممتدة فيما بين الديار المصرية وأرض برقة، وبلاد البربر، من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط»، أنظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي الفزاري القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2012م، ج 5، ص 263.

<sup>2</sup> أنظر: الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي، تحقيق: اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2007م، ص 340 وما بعدها.

<sup>3</sup> أنظر: نزهة الحادي، ص 282، وأولاده الذين حصل بينهم النزاع هم: زيدان الناصر {ت 1037هـ}، وأبو فارس عبد الله {ت 1017هـ}، ومحمد الشيخ المامون {ت 1022هـ}.

<sup>4</sup> أنظر: ماضي القرويين ومستقبلها، محمد عبد الحي الكتاني، تحقيق: عبد المجيد بوكاري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2006م، ص 77.

<sup>5</sup> من العلماء الذين قتلوا في هذه المرحلة: علي بن عبد الرحمان السلاسي {ت 1018هـ}، وأبو القاسم بن محمد بن أبي النعيم الغساني {ت 1032هـ}، ومحمد بن أبي القاسم بن القاضي {ت 1040هـ}، أنظر: التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، محمد بن الطيب القادري، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، سنة 1403هـ/1983م، ص 47، 77، 89.

<sup>6</sup> المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 328.

<sup>7</sup> وقد حصلت في وقته بفاس فتن كثيرة، يضيق المقام سردّها، أنظر: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، دراسة وتحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني، طبعة ابن حزم، سنة 2008م، ص 322. ونشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، سنة 1397هـ/1977م، ج 1، ص 156، 219، 231، 264، 265.

<sup>8</sup> المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 329.

وفاته سنة 1037 هـ بدأ انحدار الدولة وانقسامها وتُمزقها إلى إمارات على يد بعض القادة المحليين، وذهبت ريعها وانفرط عقدُها، وأُضحّت كلاً مباحاً للأطماع الخارجية - كالدولة الأسبانية - لغزوها والتوسع فيها<sup>1</sup>.

### الفرع الثاني: الحالة الاجتماعية والاقتصادية:

شهد المغرب في عهد السلطان أحمد المنصور - رحمه الله - الأمن والاستقرار النسيبين، وكان لهما أثرٌ عظيم في «ازدهار معالم الحياة الاقتصادية في المغرب، وبالتالي في تطور مظاهر المجتمع المغربي... إذ امتزجت تيارات حضارية مختلفة: تركية، وأندلسية، وأوروبية، وسودانية، مع مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي كانت تطبع المغاربة في كثير من نواحي حياتهم. وقد نتج عن هذا الاتصال أن أخذت أنماط الحياة الاجتماعية تتطور، وإن لم يحصل في كل البلاد للتباين الحاصل بين المدن والقرى»<sup>2</sup>.

وعرف العُمران نشاطاً غير مسبوق في شتى أنحاء المغرب، وكان للمدن الكبرى نصيب الأسد من هذا التطور العُمُراني؛ ومما يُذكر مثالا على ذلك: قصر البديع بمراكش الحمراء، حيث يعتبر من أهم معالم تطور فن العمارة في المغرب في عهد السلطان المنصور الذهبي<sup>3</sup>. أما في مدينة فاس: فقد تعددت الأحياء السكنية، فبعضها «للتجارة حيث الخانات الفخمة المزينة بالنوافذ والشرفات وذات الغرف الواسعة والأروقة الطويلة، وحيث القيساريات الواسعة ذات الشوارع المنظمة التي تصطف حولها عشرات الدكاكين، وقد غُطيت لوقاية الزبناء والبضائع المعروضة وهناك أحياء للسكن، وقد امتازت دور فاس عامةً بالأناقة وجمال المظهر، وغالبا ما تتكون من طابقين، ويخترقها جميعا وادي فاس الشهير»<sup>4</sup>.

كما عرف الاقتصاد المغربي تطورا كبيرا، ساعد على ذلك عدة عوامل إجرائية للدولة، منها<sup>5</sup>:

<sup>1</sup> المرجع السابق، نفس الصفحة.

<sup>2</sup> المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 277.

<sup>3</sup> مناهل أهل الصفا، ص 254.

<sup>4</sup> المرجع السابق، ص 210.

<sup>5</sup> أنظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 253، والمنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور، أحمد بن القاضي، دراسة وتحقيق: محمد زروق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، سنة 1986 م، ص 827.

- الحرص على الزراعة بمختلف أنواع المزروعات من حبوب وفواكه وخضر، وزيتون وكروم ونخيل...مما دفع الدولة -حينذاك- إلى الاهتمام بالري وسقي الأراضي الزراعية عن طريق الأودية وغيرها مما خطته الدولة لتسهيل الاستفادة من الماء.
- الاهتمام بالماشية للاستفادة من عائداتها، إلى جانب الخيول والجمال والبغال التي كانت مطايا للسفر والتنقل، ولحمل الأثقال من بضائع وغيرها.
- إشراك سكان البادية في المجال الاقتصادي، بتشجيعهم على البيع والشراء وتقديم ما يحتاجه المسافرون ودوابهم من أكل وشرب، مما أنعش التجارة الداخلية للبوادي.
- استحداث مصانع في البوادي، كمصانع السكر ومعاصيره، وقد عرفت صناعة السكر ازدهارا كبيرا، حيث كانت تصدر لخارج المغرب.
- استخراج المعادن الباطنية التي تدخل في كثير من الصناعات اليدوية والحرف المحلية، وتصدير بعضها إلى خارج البلاد.
- تشجيع الصناعات اليدوية، كالنجارة، والخياطة؛ واستقدام أمهر الصناع الأجانب، الأمر الذي ساعد على ثراء الصناعات وتنوعها.

### الفرع الثالث: الحالة الفكرية:

- شهد المغرب في هذه المرحلة نهضة علمية عظيمة، ساعد عليها اهتمام السلطان المنصور رحمه الله بالعلم والعلماء وطلبة العلم في شتى المجالات والتخصصات، وقد تجلت مظاهر هذه النهضة في<sup>1</sup>:
- إحياء ما اندرس من المعاهد العلمية، وإصلاح المدارس والمساجد العتيقة، كتوسيع جامع القرويين.
- تعاهد أهل العلم وطلبته بالعناية، وتوفير ما يلزم من أموال لتسهيل تفرغ أهل العلم وطلبته، وعدم انشغالهم عن العلم وتدريسه ودراسته<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> أنظر: مناهل الصفا، ص303، والمنطق المقصور، ج1، ص521.

<sup>2</sup> قال القشتالي: وكان الشيخ علم الأعلام أبو العباس أحمد بن علي المنجور يقول: ما عهدنا بذل المنين في الصلوات إلا في أيام الشرفا، ولا عهدنا بذل الألوفا إلا في أيام المنصور، نزهة الحادي، ص204.

-تنظيم الكراسي العلمية بجامع القرويين وغيره من المعاهد العلمية، وتعيين الأساتذة - وكلهم من العلماء الأجلاء-، وتخصيص حصص كل واحد منهم والكتاب المقرر وفق جدول زمني محدد.

-فتح أبواب الحلقات العلمية لعموم الناس، فلم تكن وقفا على الطلبة وحدهم، بل كان يحضرها العامة بمختلف طبقاتهم، مما جعل العلم لصيقا بحياة الناس وحاضرا في معاملاتهم.

-تعظيم السلطان للعلم وأهله، وذلك بحضوره مجالس الدراسة بالقرويين عند حضوره إلى فاس، ويمعن في إكرام القائمين عليها.

- تخصيص أحياء خاصة للطلبة الوافدين على فاس لأخذ العلم، وكانت بعض المدارس العلمية تبنى لهؤلاء المغتربين مكانا لإقامتهم.

- تشجيع السلطان العلماء على التأليف في كل المجالات المعرفية، فتنافس العلماء في تجويد التأليف والتدقيق والتحقيق فيه.

وثمة تفاصيل لا يتسع المقام لذكرها في الاعتناء بالعلم وأهله، وكل ما ذكر كان سببا في ازدهار الحياة العلمية في المغرب، وخصوصا في فاس مسقط رأس عبد الواحد ابن عاشر رحمه الله.

## المطلب الثاني: حياته

### الفرع الأول: اسمه ونسبه ومولده

هو أبو محمد<sup>1</sup> عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر بن سعد الأنصاري نسبيا، الأندلسي أصلا، الفاسي منشأ ودارا؛ ولد بفاس سنة 990هـ الموافق لـ 1582م.

### الفرع الثاني: نشأته

نشأ عبد الواحد بن عاشر في بيت علم وفضل، فبيت بني عاشر «الأعيان الأكبر ذوي الفضل والمآثر، فبيتهم عظيم القدر سامي الفخر، وكان فيهم من الأعيان جماعة»<sup>2</sup> وقد اتفقت

<sup>1</sup> هكذا كناه جُل من ترجم له، وكناه بعضهم بأبي مالك. أنظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1424هـ/2003م، ج1، ص434.

<sup>2</sup> الدرر البهية والجواهر النبوية، مولاي إدريس الفضيلى، مراجعة ومقابلة أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة 1440هـ/1999م، ج2، ص344.

كلمة من أرخ لبيت ابن عاشر أنهم أسرة علم وفقه. وذكر مولاي ادريس الفضيلى<sup>1</sup> رحمه الله أن عبد الواحد بن عاشر رحمه الله من أحفاد الإمام أبي العباس أحمد بن محمد الأنصاري السلوي (ت 764 أو 765هـ)، الذي عُرف أيضا "بابن عاشر"، وقبره مشهور بمدينة سلا.

ولم يذكر أحد ممن ترجم له حاله في صغره، إلا ما كان من إجازة الإمام أحمد المنجور رحمه الله له في سن الخامسة -كما سيأتي عند ذكر شيوخه-، وهذا يدل على حرص أسرته على اتصاله بالعلماء الأعلام وهو غلام صغير لم يصل بعد إلى سن تعليم الصلاة، و يضاف إلى ذلك رحلته للمشرق حاجا سنة 1008هـ<sup>2</sup> وهو وقتئذ لم يُجاوز تسعة عشر عاما، وقد جرت العادة أن الطالب لا يرحل في طلب العلم خارج بلده حتى يكون قد ارتوى من علوم أهل بلده، خصوصا إذا أضفنا إلى ذلك تصدره للعلم تدريسا وتأليفا، وثناء العلماء عليه واعتمادهم ومن جاء بعدهم على كتبه في شتى الفنون، وهو لم يجاوز خمسين عاما عند وفاته كما سيأتي في محله؛ كل هذا يرجح أنه وُجه لطلب العلم صغيرا.

### الفرع الثالث: دراسته وشيوخه

لم يُذكر عن ابن عاشر رحمه الله أنه طلب العلم في غير مدينة فاس التي ولد ونشأ بها، وما قد تلقاه في رحلته إلى الحج، وقد تلقى العلوم الشرعية -وغيرها- التي كانت تحفل بها المجالس العلمية في زمانه: كالنحو، والصرف، والمنطق، والبلاغة، والتفسير، وقراءات الأئمة السبعة<sup>3</sup> والأصليين، والفقه، والحديث، وعلم الرجال، والفرائض، والتصوف، والحساب، عن جلة من العلماء، وهم<sup>4</sup>:

1- الإمام الأستاذ المحقق أبو العباس أحمد بن الفقيه الأستاذ سيدي عثمان اللمطي (ولد بعد 940هـ).

2- الأستاذ المحقق أبو العباس أحمد الكفيف (ت 1005هـ).

<sup>1</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 344.

<sup>2</sup> الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، محمد ميارة القاسي، تحقيق: عبد الله المنشاوي، طبعة دار الحديث القاهرة، مصر، سنة 1429هـ/2008م، ص 7.

<sup>3</sup> وهم: عبد الله بن عامر (ت 118هـ)، ابن كثير المكي (ت 120هـ)، عاصم بن بهدلة الكوفي (ت 127هـ)، أبو عمرو البصري (ت 154هـ)، حمزة الزيات الكوفي (ت 156هـ)، نافع المدني (ت 169هـ)، والكسائي الكوفي (ت 189هـ). أنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط 2، (د.ت.)، ج 1، ص 456.

<sup>4</sup> أنظر: الدر الثمين، ص 7، ونشر المثاني، ج 1، ص 356، و خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله المحي الحموي الدمشقي، تحقيق: محمد حسين إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2006م، ج 2، ص 435.

- 3- العالم الشهير مفتي فاس وخطيب حضرتهما أبو عبد الله محمد الشريف المري التلمساني (ت1018هـ).
- 4- الإمام أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار القيسي «لقب بشيخ الإسلام» (ت1012هـ).
- 5- الإمام النحوي الأستاذ أبو الفضل قاسم بن أبي العافية الشهير بابن القاضي (ت1022هـ).
- 6- الفقيه المحدث المسند الرواية الأديب أبو العباس أحمد بن محمد ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي (ت1025هـ).
- 7- الإمام العالم المحقق قاضي الجماعة بفاس أبو الحسن علي بن عمران (ت1018هـ).
- 8- الإمام العالم مفتي فاس وخطيب حضرتهما أبو عبد الله محمد الهواري (ت1022هـ).
- 9- الشيخ العامل الورع الزاهد أبو عبد الله محمد بن أحمد التجيبي<sup>1</sup> شهر بابن عزيز (ت1022هـ).
- 10- الإمام العالم المتفنن المفسر قاضي الجماعة بفاس وخطيب حضرتهما ومفتيها أبو الفضل قاسم بن محمد أبي نعيم الغساني (ت1032هـ).
- 11- الإمام المحدث المعمر صفى الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى العزي الشافعي (ت1019هـ).
- 12- الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن الجنان<sup>2</sup> (ت1050هـ).
- 13- الإمام العالم المحدث أبو الحسن علي البطوي<sup>3</sup> (ت1039هـ).
- 14- الإمام الفقيه المحدث سالم السنهوري<sup>4</sup> (ت1015هـ).

<sup>1</sup> بفتح التاء وكسر الجيم، نسبة إلى تجيب. أنظر: نشر المثنائي، ج1، ص178.

<sup>2</sup> أنظر: فهرسة اليوسي، تحقيق: زكرياء الخثيري، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2009م، ص67.

<sup>3</sup> البطوي: بضم الطاء المشددة، فواو وهمزة قبل ياء النسب. أنظر: نشر المثنائي، ج1، ص280، ويقال أيضا: البجليوي.

<sup>4</sup> بفتح المهملة وسكون النون وضم الهاء وسكون الواو بعدها راء مهملة. أنظر: فتح المبيدي بشرح مختصر الزبيدي، عبد الله بن حجازي الشرقاوي، ضبط نصه الشيخ عبد القادر محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2016م، ج1، ص36.

15- الإمام النحوي عبد الله الدنؤشري الشافعي<sup>1</sup> (ت 1025هـ).

16- الإمام الحافظ المحقق محمد بن أبي بكر الدلائي (ت 1046هـ).

17- الشيخ الصالح أحمد بن محمد شقرون (ت 1028هـ).

18- الإمام الفقيه بركات الخطاب المكي<sup>2</sup> (ت بعد 980هـ).

وهؤلاء العلماء هم الذين ذكرهم من عاصر ابن عاشر أو جاء بعده قريبا، وذكر أخذه العلم على أيديهم.

وأما غيرهم ممن يأتي ذكرهم، فلم يذكر أن ابن عاشر رحمه الله تتلمذ على أيديهم ممن عاصره أو كان قريبا من عصره، غير العلامة الأديب المختار السوسي رحمه الله في كتابه الشهير «المعسول»<sup>3</sup> الذي ذكر أن من شيوخه إجازة:

19- الإمام المحقق أحمد المنجور (ت 995هـ).

20- الشيخ الخطيب محمد بن عبد الرحمان سقّين<sup>4</sup> (ت 1054هـ).

#### الفرع الرابع: تلاميذه

تخرج على اليد الإمام ابن عاشر ثلثة من العلماء الأعلام منهم:

1- محمد بن أحمد ميارة (ت 1072هـ)<sup>5</sup>.

2- عبد القادر الفاسي (ت 1091هـ)<sup>6</sup>.

3- محمد بن سعيد المرغيثي السوسي (ت 1089هـ)<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> الدنؤشري: بفتح أوله وثانيه، وسكون الواو وشين معجمة مفتوحة. أنظر: الاكتساب في معرفة الأنساب، محمد بن محمد بن عبد الله الخضيرمي الشافعي، تحقيق: أبي مالك جهاد السيد المرشدي، لطائف لنشر الكتب والرسائل العلمية، دولة الكويت، سنة 1440هـ/2019م، ج 3، ص 1834.

<sup>2</sup> أنظر: خلاصة الأثر، ج 2، ص 435، وشجرة النور، ج 1، ص 434.

<sup>3</sup> المعسول، المختار السوسي، (د.ن.ت.)، 42\13، و99\13.

<sup>4</sup> بضم السين المهملة، وفتح القاف وتشديدها. أنظر: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقيروا من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، سنة 1425هـ/2004م، ج 2، ص 179.

<sup>5</sup> أنظر: التقاط الدرر، ص 151.

<sup>6</sup> أنظر: نشر المثاني، ج 2، ص 272.

<sup>7</sup> أنظر: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الإفرائي، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي في المغرب، الدار البيضاء، سنة 1425هـ/2004م، ص 306.

- 4- محمد بن محمد بن عطية السلاوي (ت 1052هـ)<sup>1</sup>.
  - 5- عبد الله بن محمد بن أحمد العياشي (ت 1073هـ)<sup>2</sup>.
  - 6- عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (ت 1090هـ)<sup>3</sup>.
  - 7- أحمد بن علي السوسي البوسعيدي (ت 1046هـ)<sup>4</sup>.
  - 9- حمدون الأبار (1071هـ)<sup>5</sup>.
  - 10- محمد بن أحمد بن يوسف الفاسي (ت 1084هـ)<sup>6</sup>.
- وغيرهم ممن يطول المقام بذكرهم.

### الفرع الخامس: مؤلفاته

خلف الإمام ابن عاشر مؤلفات عديدة في فنون شتى، منها:

#### أ- المطبوعة:

- منظومة «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» طبعت طبعات كثيرة، من بينها طبعة دار ابن حزم سنة 2009م.
- «فتح المنان في شرح مورد الظمان»، حُقق في رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سنة 1996-1995 الطالب الهبطي الإدريسي عبد السلام، تحت إشراف د. التهامي الراجي الهاشمي.
- «تنبيه الخلان على الإعلان بتكميل مورد الظمان» طُبع بدار الكتب العلمية، تحقيق زكريا عميرات، سنة 2020م.
- «نظم في النكاح وتوابعه من طلاق وغيره» طبع ضمن دراسة عن الإمام ابن عاشر تحت عنوان: «الفقيه عبد الواحد بن عاشر: حياته وآثاره الفقهية»، تأليف: عبد المغيث مصطفى بصير، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، سنة 1428هـ/2007م.

<sup>1</sup> أنظر: نشر المثاني، ج 2، ص 25.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 33.

<sup>3</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 261.

<sup>4</sup> المرجع السابق، ج 1، ص 359.

<sup>5</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 109.

<sup>6</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 205.



ب- المخطوطة<sup>1</sup>:

- «حاشية على الشرح الصغير على مختصر خليل للتتائي» توجد منه نسخ بالخزانة الحسنية، الرباط، عدد 3718، 2842، 2598...

- «رسالة عجيبة في عمل الربع المجيب» توجد نسخة منها بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2055د.

- «قصيدة في النحو» توجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 1695/1648د.

- «تقييد في الاتباع والتوكيد» توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 505د.

- «رسم البدور السبعة»، مخطوط بمكتبة تطوان، تحت رقم 881.

- «قصيدة في مدح كتاب أنوار التعريف»، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 1052.

## ج- المفقودة:

- «طرر عجيبة على شرح الإمام أبي عبد الله محمد التَّنْسي<sup>2</sup> لذيل مورد الظمان في الضبط».

- «تقايد على العقيدة الكبرى للإمام السنوسي».

## د: المنسوبة:

- «الجمع بين أصول الدين وفروعه»، نسبه له الشيخ محمد الحجوي الثعالبي في كتابه "الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي"<sup>3</sup>، وإسماعيل باشا البغدادي في كتابه "هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين"<sup>4</sup>، وعبد المغيث مصطفى بصير، في كتابه "الفقيه عبد الواحد بن عاشر: حياته وأثاره الفقهية"<sup>5</sup>، وهذا الكتاب المنسوب ليس مؤلفا مستقلا خطه الإمام ابن عاشر، إنما هو نظمه «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين»، وقد وصفه تلميذه محمد ميارة

<sup>1</sup> أنظر: الفقيه عبد الواحد بن عاشر، ص 127، 129، 30. والدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، محمد العلمي، مركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي - الرابطة المجددية للعلماء، المغرب، سنة 1433هـ/2012م، ص 154.

<sup>2</sup> بفتح المثناة الفوقية والنون. أنظر: قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، صالح بن محمد الفلاني، تحرير وتقديم البروفيسور حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2019م، ص 58.

<sup>3</sup> أنظر: الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، الحجوي الثعالبي، ج 2، ص 327.

<sup>4</sup> هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي، (د.ت.)، ج 1، ص 663.

<sup>5</sup> الفقيه عبد الواحد بن عاشر: حياته وأثاره الفقهية، عبد المغيث مصطفى بصير، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، سنة 1428هـ/2007م، ص 130.

الفاسي في كتابه "الدر الثمين والمورد المعين" فقال: "ألف تأليف عديدة منها: هذه المنظومة العديمة المثال في الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق، ومحاذاة مختصر الشيخ خليل، والجمع بين أصول الدين وفروعه"، فهذا الجمع بين أصول الدين وفروعه وإنما هو وصفٌ للمنظومة.

- «محاذاة مختصر الشيخ خليل» نسبة إليه الشيخ محمد الحجوي الثعالبي في كتابه "الفكر السامي تاريخ الفقه الإسلامي"، حيث قال: "وألف محاذاة مختصر خليل"<sup>1</sup>، وليس من مؤلفات ابن عاشور رحمه كتاب بهذا العنوان، وإنما هو وصف ميارة الفاسي تلميذه لمنظومة المرشد المعين حين قال: "ألف تأليف عديدة منها هذه المنظومة العديمة المثال في الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق ومحاذاة مختصر الشيخ خليل"<sup>2</sup>. فهذه أوصاف للمنظومة معطوفة على قوله "في الاختصار"، وليست مؤلفات مستقلة.

والمقصود بمحاذاة مختصر خليل، أي: في الاختصار والاقتصار على ما هو مشهور في المذهب.

- «شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح»، نُسب للإمام ابن عاشور في "معلمة المغرب"<sup>3</sup>، وليس له، بل هو للطاهر بن عاشور التونسي الملقب بشيخ الإسلام، وقد طُبِعَ طبعات عديدة، منها طبعة دار التقوى، بدمشق، سنة 2015م.

### الفرع السادس: مكانته العلمية

كانت للإمام عبد الواحد ابن عاشور -رحمه الله- مكانة عالية بين علماء زمانه، وقد حظي بالثناء عليه وعلى علمه من أعلام عصره ومن جاء بعدهم.

فقال عنه تلميذه محمد بن أحمد ميارة الفاسي رحمه الله: «هو شيخنا الإمام العالم العلامة، المتفنن الحاج الأبر المجاهد»<sup>4</sup>، وقال عنه أيضا: «شيخ الجماعة الإمام العالم المتفنن المحقق»<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> الفكر السامي، ج2، ص327.

<sup>2</sup> الدر الثمين، ص7.

<sup>3</sup> معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سنة 1424هـ/2003م، ج17، ص5838.

<sup>4</sup> الدر الثمين، ص9.

<sup>5</sup> الروض المبهج بشرح بستان فكر الميج في تكميل المنهج، محمد بن أحمد ميارة الفاسي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2010م، ص107.

وهذه الأوصاف من تلميذه، ليست من باب المجاملة لشيخه لمحبتة له أو لسابق فضله عليه، وإنما هي أوصاف موافقة لمحلها لم تجاوز قدرها، لأنه -أي: ميارة الفاسي- ممتثل لنصيحة شيخه أبي العباس أحمد وعلي ومحمد السوسي الذي «جاءه تلميذه الشيخ ميارة بشرح المرشد الكبير ليكتب عليه، عاب عليه كونه لم يتعرض لشيء من أحوال الآخرة. وإذا عرف بأحد من أشياخه يقول: القطب العارف بالله الزاهد وهذه أمور خفية فمن أين لنا أن نشهد بها»<sup>1</sup>. ويؤيد هذا ما قاله الإمام ميارة نفسه: «وكذا يظهر لي ألا يبالغ المؤرخ في الثناء بما يختص الله بعلمه من أفعال القلوب كالزهد والولاية...»<sup>2</sup>.

وقال محمد بن الطيب القادري رحمه الله: «الإمام الكبير الحجة الشهير أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن عاشر بن سعد الأنصاري، أحد الأعلام، كبير الشان، رأس في العلم والتحقيق والمشاركة في العلوم»<sup>3</sup>. وقال محمد الصغير الإفرائي رحمه الله: «... ممن له التبهر في العلوم ومن أهل المشاركة في الفنون، كان ذا سمت حسن، مثابرا على تعليم الناس... كثير الإنصاف في المباحثة، يأخذ العلم. ممن هو دونه»<sup>4</sup>. وقال عنه محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله: «الشيخ الإمام الكبير، العالم الشهير، الحجة المشارك... شيخ الجماعة بفاس ونواحيها... كان -رحمه الله- ممن له التبهر في العلوم والمشاركة في الفنون»<sup>5</sup>.

ومما يبرز مكانته العلمية سوى ما حلاه به من ترجمه من المؤرخين والعلماء اعتماد تأليفه، كنظمه "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" الذي سارت به الركبان، واستفاد منه الخاصة والعامة في حياته وبعد مماته إلى يوم الناس هذا، وصار من يريد تحصيل فقه المالكي والرقري في مدارجه أن يبدأ بـ«المرشد المعين» في شتى الأقطار التي تمذهب أهلها بالمذهب المالكي<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/1995م، ج2، ص328.

<sup>2</sup> الدر الثمين، ص603.

<sup>3</sup> نشر المثاني، ج2، ص283؛ والتقاط الدرر، ص91.

<sup>4</sup> صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ص24.

<sup>5</sup> سلوة الأنفاس، ج2، ص310.

<sup>6</sup> وسيأتي مزيد بيان هذه المسألة عند التطرق لأثره في تطور المذهب الأشعري.

## الفرع السابع: وفاته

قال تلميذه محمد ميارة الفاسي رحمه الله: «أصيب بالداء المسعى على لسان العامة بالنقطة<sup>1</sup> ضحى يوم الخميس ثالث ذي الحجة الحرام من عام أربعين وألف ومات عند الاصفرار من ذلك اليوم رحمة الله ونفع به»<sup>2</sup>. وقد ذكر محمد بن الطيب القادري رحمه الله سببا آخر - قد لا يتعارض مع السبب الذي ذكره تلميذه أنفاً: - «ومن المحكي لنا أن سبب موت صاحب الترجمة أنه ضُرب عليه الباب بعضٌ فخرج إليه، فناوله شيئاً من النوار المعروف بالياسمين، فدخل للدار وهو بيده، فلما شمه استنكر رائحته، فإذا هو مسموم، فرمى به في القادوس، وأصابه ألم في الحين فمات به، فعلى هذا مات مسموماً»<sup>3</sup>. قال محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله: «وُدفن من الغد بأعلى مطرح الجنة، بقرب المصلى... ولا زال معروفاً إلى الآن»<sup>4</sup>.

## المبحث الثاني: آراؤه العقدية، وأثره في تطور المذهب الأشعري

### المطلب الأول: آراؤه العقدية

إن من سبر تراجم الأعلام الذين عاشوا في هذا العصر - وقت الإمام ابن عاشر وقبله أيضاً - يرى جلياً أن عقائد الإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله قد هيمنت على الدرس العقدي في المغرب<sup>5</sup> فاشتغلوا بها حفظاً وتديساً، وشرحا وتحشية ونظماً، لسهولة عبارتها ومُكنة صاحبها في أصول الدين وعلم الكلام. ولم يكن الإمام ابن عاشر رحمه الله استثناءً، فقد جرى على سنن من قبله ومن عاصره، فضمن في منظومته «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» متن «العقيدة الصغرى» والمشهورة بـ «أم البراهين» تحت عنوان: «كتاب أم القواعد، وما انطوت عليه من العقائد»، مع اختصار لبعض المواطن، كنفي الحرف والصوت عن كلام الله تعالى - مثلاً -، وهذا ظاهر جلي عند المقارنة بين مقدمة المرشد المعين، وبين أم البراهين.

فقد بدأ ابن عاشر ببيان الحكم العقلي، وكذلك الإمام السنوسي في أم البراهين، وهكذا جرى على نفس ترتيب «العقيدة الصغرى»، فبعد أن أنهى الكلام على ما يجب في حق الله وما يستحيل

<sup>1</sup> «ومنه داء النقطة، لضرب من الصداق، لأنه فيما زعموا يحصل من نقطة دم تُصيب القلب». أنظر: محيط المحيط، المعلم بطرس البستاني، اعتنى به وأضاف زيادته محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت. سنة 2009م، ج 9، ص 217.

<sup>2</sup> الدر الثمين، ص 9.

<sup>3</sup> نشر المثاني، ج 1، ص 287.

<sup>4</sup> سلوة الأنفاس، ج 2، ص 312.

<sup>5</sup> أنظر: مرآة المحاسن، ص 312.

وما يجوز، انتقل للبرهنة على ذلك، وهذا عين ما في أم البراهين. قال الإمام السنوسي: «وأما برهان وجوده تعالى فحدوث العالم بأسره...»<sup>1</sup>، وقال الإمام ابن عاشر:

وجوده له دليل قاطع حاجة كل محدث للصانع

وختم السنوسي بقوله: «فقد بان لك تصمّن قول: لا إله إلا الله للأقسام الثلاثة التي يجب على المكلف معرفتها في حق مولانا جلّ وعزّ، وهي: ما يجب في حقه تعالى، وما يستحيل، وما يجوز. وأما قولنا: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخل الإيمان الأنبياء والملائكة والكتب السماوية واليوم الآخر، لأنه عليه الصلاة والسلام جاء بتصديق جميع ذلك كلّ»<sup>2</sup>.

وكذلك ختم ابن عاشر بقوله:

وقول لا إله إلا الله محمد أرسله الإله

يجمع كل هذه المعاني كانت لذا علامة الإيمان

ولكل ما سبق، فلم يكن للإمام ابن عاشر رحمه الله من خلال ما نظمته في «المرشد المعين» أي اختيارات عقدية، بل سار في منظومته على نهج «أم البراهين»، إلا ما كان من تقييده وجوب النظر بالتمكن منه في قوله:

فأول واجب على من كُلفا ممكننا من نظر أن يعرفا

قال محمد الطيب بن كيران رحمه الله: «واحترز بشرط التمكين ممن فاجأه الموت من العقلاء عقب البلوغ قبل مضي ما يسع النظر من الزمان، أو عاجله كطرو إغماء أو جنون إلى الموت، فلا إثم عليه في عدم المعرفة لعدم تمكنه من النظر الذي هو طريقها»<sup>3</sup>. وقال أيضا مبينا أن ترك النظر الذي اختلف في صحة إيمان صاحبه هو المقلد الصرف الذي لم ينظر نظرا إجماليا: «لأن المعتبر في حق العوام هو الدليل الإجمالي، وهو ما يفيد العلم اليقيني وإن لم يكن على طريقة المتكلمين من الترتيب والتهديب»<sup>4</sup>. وهذا الذي ذكره ابن عاشر وشرحه الطيب بن كيران هو الذي فهمه العلماء من إطلاق عدم صحة إيمان المقلد الوارد في تقرير أهل السنة الأشاعرة، إذ قصدهم بالمقلد من لم ينظر نظرا إجماليا.

<sup>1</sup> أم البراهين: محمد بن يوسف السنوسي، تحقيق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2009م، ص 28.

<sup>2</sup> أم البراهين، ص 31.

<sup>3</sup> شرح العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد بن كيران على توحيد الإمام عبد الواحد بن عاشر، تقديم وضبط وتوثيق: عبد الله معصر ومولاي إدريس غازي، دار الأمان، الرباط، سنة 2021م، ص 138.

<sup>4</sup> شرح ابن كيران على توحيد ابن عاشر، ص 141.

## المطلب الثاني: أثره في تطور المذهب الأشعري

إن الأثر الذي تركه الإمام ابن عاشر رحمه الله في تطور المذهب الأشعري يظهر من خلال أمور:

1- تقريب العقيدة الأشعرية من عامة الناس، سواء أكانوا من الأميين أو غيرهم، حيث قال رحمه الله:

وبعد فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للامي تفيد  
قال الطيب بن كيران: «والأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة، لأنه باق على أصل ولادة أمه له من لنظم الجهل بذلك، وأراد به هنا أعم من ذلك من كل من يجهل ما احتوى عليه هذا»<sup>1</sup>.

2- حث أصناف الناس على النظر والتفكير في الأخذ بالعقائد الإسلامية، دون الركون إلى التقليد الذي قد لا يسلم صاحبه من الشبه الواردة، التي قد تعصف باعتقاده في الله تعالى ورسوله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهذا ما نعيشه اليوم ونراه بأم أعيننا، فقد انخرمت العقيدة الإسلامية في قلوب كثير من الناس بالشبه المنتشرة سواء في الوسائل المقروءة أو المسموعة، وفي وسائل التواصل الاجتماعي التي ابتلي بها الناس اليوم، والسبب في ذلك ترك النظر والفكر، والتدليل والبرهان للعقائد الإيمانية.

3- اعتماد منظومة «المرشد المعين» في الدرس العقدي للمبتدئين في التعليم العتيق القديم أو النظامي<sup>2</sup> فهي أول ما يبدأ به الطالب سواء في العقيدة أو الفقه.

4- كثرة الشروح على «منظومة المرشد المعين» إذ تضيق هذه الورقات بحصرها، ومن العلماء من خص المقدمة الاعتقادية فيها بالشرح والتحشية دون سائر النظم، ومنها على سبيل المثال:

"الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين" للإمام محمد ميارة الفاسي، طبعت طبعات عديدة، منها طبعة دار ابن حزم في مجلدين، سنة 2016م.

"مختصر الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين" للإمام محمد ميارة الفاسي، طبعت طبعات عديدة، منها طبعة دار ابن حزم سنة 2016م.

<sup>1</sup> شرح ابن كيران على توحيد ابن عاشر، ص 98.

<sup>2</sup> فالمنظومة من مقررات مادة التوحيد للسنة الثانية إعدادي عتيق، بشرح الإمام ميارة الفاسي «الدر الثمين»، موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية.

- "النور المبين على المرشد المعين" للعلامة الشيخ محمد بن يوسف التونسي المعروف بالكافي، منها طبعة دار ابن حزم، سنة 2017م.

- "مفيد العباد سواء العاكف فيه والبادي" للشيخ أحمد بن البشير الغلاوي الشنقيطي، طبعت سنة 1999م، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي- الإمارات.

- "شرح العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد بن كيران الفاسي على توحيد العالم الماهر أبي محمد عبد الواحد بن عاشر" طبعت بدار الأمان، الرباط، سنة 2021م.

- "النشر الطيب على شرح الشيخ الطيب" وهي حاشية على شرح الطيب بن كيران المذكور قبله، للعلامة ادريس بن أحمد الوزاني، طبعت بدار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة 1930م.

5- بعض تلاميذه الذين ألفوا في العقائد، ومنهم:

- الإمام محمد ميارة الفاسي، وشرحا على «المرشد المعين» من الكتب المعتمدة في التدريس والإقراء.

- الإمام عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي الفهري، وله «عقيدة أهل الإيمان»<sup>1</sup> وضعها للصبيان والنساء، طبعت بدار الضياء، الكويت، سنة 2013م.

6- اهتمام المعاصرين بمنظومة «المرشد المعين»، وذلك بشرحها شروحا مكتوبة، أو مسموعة، أو مرئية.

## الخاتمة

في نهاية هذا البحث يتبين:

- أن الإمام عبد الواحد بن عاشر رحمه الله كان من أعلام العقيدة الأشعرية.

- أنه ساهم مساهمة كبيرة في استمرار الدرس العقدي الأشعري - في المغرب وخارج المغرب - وتقريبه وتسهيله للعامة كبارا وصغارا.

- أن تأثيره في دراسة العقيدة الأشعرية جاوز الكتابات والمدارس العتيقة القديمة، إلى مدارس التعليم العتيق النظامي.

<sup>1</sup> وقد لخصها الباحث بنعيسى النبة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بمقال مفيد بمجلة آفاق العلوم، جامعة الجلفة، الجزائر، العدد الرابع سنة 2016.

-أن منظومته «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» ما تزال توضع عليها -في عصرنا- الشروح المكتوبة، والمسموعة والمرئية، ويترقى بها طلاب العلم في مدارج العقيدة والفقه والتصوف.



## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- أم البراهين، محمد بن يوسف السنوسي، تحقيق خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2009م.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، محمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة 1983م.
- الاكتساب في معرفة الأنساب، محمد بن محمد بن عبد الله الخضير الشافعي، تحقيق أبي مالك جهاد السيد المرشدي، لطائف لنشر الكتب والرسائل العلمية، دولة الكويت، سنة 1440هـ/2019م.
- الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط، الشيخ محمد الإمام، تحقيق محمد الظريف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، سنة 2013م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله المحجي الحموي الدمشقي، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2006م.
- الدرر البهية والجواهر النبوية، مولاي ادريس الفضيلي، مراجعة ومقابلة أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة 1440هـ/1999م.
- الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، محمد ميارة الفاسي، تحقيق عبد الله المنشاوي، طبعة دار الحديث القاهرة، مصر، سنة 1429هـ/2008م.
- الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، محمد العلمي، مركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي- الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، سنة 1433هـ/2012م.

- الروض المبهج بشرح بستان فكر المهج في تكميل المنهج، محمد بن أحمد ميارة الفاسي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2010م.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، سنة 1425هـ/2004م.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1424هـ/2003م.
- شرح العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد بن كيران على توحيد الإمام عبد الواحد بن عاشر، تقديم وضبط وتوثيق عبد الله معصر ومولاي ادريس غازي، دار الأمان، الرباط، سنة 2021م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي الفزاري القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2012م.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الإفرائي، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي في المغرب، الدار البيضاء، سنة 1425هـ/2004م.
- فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي، عبد الله بن حجازي الشرقاوي، ضبط نصه الشيخ عبد القادر محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2016م.
- الفقيه عبد الواحد بن عاشر: حياته وأثاره الفقهية، عبد المغيث مصطفى بصير، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، سنة 1428هـ/2007م.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، اعتنى به أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1416هـ/1995م.
- فهرسة اليومي، تحقيق زكرياء الخثيري، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2009م.

- فهرسة الشيخ محمد بن أحمد ميارة الفاسي، تقديم وتصحيح وتعليق بدر الدين العمراني، دار ابن حزم، سنة 2009م.
- فهرسة عبد القادر الفاسي، تحقيق محمد بن عزوز، دار ابن حزم، سنة 2003م.
- الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2007م.
- قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، صالح بن محمد الفُلاني، تحرير وتقديم البروفيسور حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2019م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الثالثة، (د.ت.).
- معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سنة 2003م.
- ماضي القرويين ومستقبلها، محمد عبد الحي الكتاني، تحقيق عبد المجيد بوكاري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2006م.
- المغرب في عهد الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006م/1427هـ.
- مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، دراسة وتحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، طبعة دار ابن حزم، سنة 2008م.
- المعسول، المختار السوسي، (د.ن.ت.).
- مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي، دراسة وتحقيق د. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، (م.د)، (ت.د.).
- المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور، أحمد بن القاضي، دراسة وتحقيق محمد زروق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، سنة 1986م.

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصغير الإفرائي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة 1419هـ/1998م.
- نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي، وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، سنة 1397هـ/1977م.
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي، (ت.د.)، (م.د.)..

#### المراجع الأجنبية:

- Al-somad, mona mohammed farid(2012)، The effect of a story – based programme on developing moral value at kindergaeten stage. Interdisciplinary of contemporary research in business.vol4, No 7.534-55.

## أصول التفسير في الخطاب المُقدّماتي خلال القرن السادس الهجريّ دراسة في خطبة "الكشاف" للزمخشري أنموذجاً

د. سليمان تهراس

كلية الآداب - جامعة عبد المالك السعدي- تطوان  
المغرب



### مقدمة

إنّ الناظر في المصنفات التراثية القديمة، يجد أنّ أصحابها دأبوا على نهج سنّة التّمهيد لمصنفاتهم بمقدمات، تنمّ عن وعي منهجيّ منقطع النظير. فالمقدمة، أو الخطاب المقدّماتي، تعدّ من بين العتبات النصّية المهمة في الكتب التراثية، ولاسيما في كتب التفسير؛ إذ نجد المفسّر يضمّن فيها إشارات وتنبيهات وحقائق متنوعة، تخدم المتن تقديمياً وتأطيراً.

ونظراً لهذه الأهمية، سيحاول بحثنا هذا، الموسوم بـ"أصول التفسير في الخطاب المقدّماتي خلال القرن السادس الهجري: دراسة في خطبة "الكشاف" للزمخشري أنموذجاً"، تحليل مقدمة هذا التفسير، وذلك للوقوف على أهمّ الأصول أو القواعد التفسيرية الواردة في خطابه المقدّماتي، وهي التي يستعين بها المفسّر لأداء مهمة التفسير على الوجه الأمثل.

وعليه، توزّع بحثنا على ثلاثة محاور رئيسة، تناول أولها "المفاهيم" المركزية للبحث، وهي: أصول التفسير والخطاب المقدّماتي، متطرقاً إلى ماهيتها وأهميتها. أمّا المحور الثّاني، فقد خُصّص للحديث عن "تفسير الكشاف والخطاب المقدّماتي"؛ من خلال الحديث عن مكانة الكشاف، وبنية الخطاب المقدّماتي وقضاياها في تفسير "الكشاف". وأخيراً، تناول المحور الثّالث "أصول التفسير في الخطاب المقدّماتي: المنطلقات والمرجعيات"؛ من خلال الكشف عن أهمّ الأصول أو القواعد التفسيرية التي أشار إليها الزمخشري (ت 538هـ) في خطبة تفسيره. وعليه، ما الأصول أو القواعد التفسيرية المتضمّنة في الخطاب المقدّماتي لكشاف الزمخشري؟

## تحديد مفاهيم الدراسة:

## مفهوم "أصول التفسير":

ليس في المكنة الاقتراب من دلالة المفهوم إلا بالوقوف على مكوناته البانية، ونقصد هنا اللفظين الرئيسين اللذين يشكلان العنوان ("الأصول" و"التفسير")، بوصفهما مركبا إضافيا، يساعد على فهم حقيقة المفهوم. وسنحاول فيما يأتي تسليط الضوء على هذين المفهومين؛ في أفق الوصول إلى دلالتيهما، ولتبدأ بتعريف "الأصول".

## الأصول:

إذا حاولنا النظر في لفظ "الأصول"، نجد أنه أساس الشيء؛ أي "أصل الشيء"، ما يستند وجود ذلك الشيء إليه، وقال: أصل كل شيء قاعدته<sup>1</sup>. ومن ثم، فإنّ الدلالة اللغوية تكشف أنّ الأصول تطلق على القواعد والأسس التي يُبنى عليها غيرها. وعليه، فإنّ هذه الدلالة تمكننا من الانتقال إلى الدلالة الاصطلاحية، أي إلى "القانون والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات، وعلى الدليل بالنسبة للمدلول، وعلى ما يبنى عليه غيره، وعلى المحتاج إليه، وعلى ما هو الأولى"<sup>2</sup>. وبناء على هذا التعريف الاصطلاحي، نخلص إلى أنّ الأصول تعني المرتكزات والمبادئ التي تبنى عليها الفروع، وتكون الأساس الذي يعتمد عليه، ويرجع إليه.

## التفسير:

تكشف الدلالة اللغوية، في تحديدها جذر المفهوم، أنّه "من الفسر، وهو البيان والكشف. وقيل: هو مأخوذ من التفسير"<sup>3</sup>، و"التفسير هي القليل من الماء، الذي ينظر فيه الأطباء. فكما أنّ الطبيب بالنظر فيه يكشف علّة المريض، فكذلك المفسر يكشف شأن الآية وقصصها ومعناها والسبب الذي أنزلت فيه"<sup>4</sup>. وسواء كان التفسير مشتقا من (الفسر)، أو من (السفر)، فإنّ دلالة المادتين واحدة في النهاية، وهي "الكشف عن شيء مختبئ من خلال وسيط، يعد بمثابة علاقة دالة للمفسر، من خلالها يتوصل إلى هذا الخبيء الغامض"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تج: مجموعة من المحققين، دار الهداية للنشر والتوزيع، الكويت، د.ت، 206/7.

<sup>2</sup> أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993، 122/1.

<sup>3</sup> جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1991، 173/2.

<sup>4</sup> بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تج: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988، 147/2.

<sup>5</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 1998، ص 225.

إنّ المعاني المعجمية الثلاثة (الْقَسْر، السَّفَر، التَّفْسِير) تحيل، في مشتركها، إلى تقارب دلاليّ، يتمثل في كشف المغطى والغامض، والإبانة عنه. فالتفسير، من هذا المنطلق، "مدخل النص إلى الوجود كنص معقول، قابل للقراءة والفهم والإدراك. منه يكون التفسير مقترنا بما عُرف في التأويلية الغربية بفن الفهم"<sup>1</sup>. يجزئنا مصطلح "الفهم" إلى الاقتراب من عملية التفسير ومقصدتها؛ أي من تلك المعايير التي تجعل من نص ما كيانا قابلا للتطويع والفهم.

أما اصطلاحا، فقد عبّر الخطاب القرآني عن التفسير بمعنى الكشف والبيان والإظهار؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: 33). وما يلاحظ أنّ معنى الكلمة في الآية لا يختلف كثيرا عن معناها أو دلالتها اللغوية، وهو ما نجده في تعريفات المفسرين، بوصفه "العِلْم الذي يتم من خلاله فهم آيات كتاب الله، ومعرفة دلالتها، واستنباط الأحكام الشرعية منها؛ باستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتّصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"<sup>2</sup>. والحقيقة أنّ هذا التعريف يؤكد على ضرورة توافر مجموعة من العلوم التي بموجبها يتحقق للمفسر التفسير العقلي المقبول. إنّها، "بالتعبير الميكانيكيّ، أدوات تَعَصِم من الوقوع في مُنْزَلَقَات المعنى. فالتفسير الإسلامي بهذا الوجه يكون قد حدد ضوابط منطقية ومعايير علميّة مقننة لا يجوز التفسير إلّا بها. وهذه الشروط هي بمثابة (التّفْسِير) التي يستدل بها على المعنى كما يستدل بها الطبيب على المرض"<sup>3</sup>. وبموجب ذلك، لا يمكن أن يقوم بعملية التفسير إلّا من يتصف بصفة "الطبيب الذي خبر العلل وأعراضها، وذلك حتّى يتمكن من اكتشاف العلّة من المادة، أي حتى يتمكن من القيام بعملية التفسير"<sup>4</sup>.

وعليه، فإنّ أصول التفسير عبارة عن مجموعة من القواعد والأسس الصحيحة التي يتم من خلالها فهم الآيات القرآنية وكشف معانيها، وما تنطوي عليه من عقائد وتشريعات وأحكام. وكما تعدّ منهجا للمفسر بواسطته يؤدي مهمة التفسير على أكمل وجه. ومن ذلك الأصول النقلية (التفسير بالمأثور) مثل القرآن والسنة وأقوال الصحابة، بالإضافة إلى الأصول العقلية المتمثلة في التفسير بالرأي، وكذلك الأصول اللغوية والبلاغية مثل (علوم النحو والصرف والبلاغة)، والأصول

<sup>1</sup>. فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص 76.

<sup>2</sup>. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 14/1.

<sup>3</sup>. محمد علي حسين الحسني، ابستمولوجيا التأويل، دار الراافدين، بيروت، ط1، 2016، ص 98.

<sup>4</sup>. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص 224.

الشرعية (الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه). وكما تشمل الأصول الفقهية والعقدية والتاريخية.

### الخطاب المقدماتي: بين المفهوم والأهمية

يعدّ الخطاب المقدماتي من الصيغ الخطابية التي يتم من خلالها توصيل الأفكار والرؤى إلى القارئ والتوصل بها. وهو من الأسس النصّية الرئيسة داخل أي عمل أدبيّ أو علميّ؛ حيث "لا يحسن بالكاّتب أن يخلي كلامه، وإن كان وجيزاً، من مقدمة يفتتحه بها، وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة؛ ليوفي التّأليف حقه"<sup>1</sup>. وترتبط المقدمة بالمتن ارتباطاً وثيقاً، حيث لا يمكن فصلها أو تجزئتها عن العمل. وفي هذا يقول عباس أرحيلة: "إنّ مقدمة الكتاب هي أحد أجزائه، ومقدمة الكتاب هي طائفة من كلامه تتقدم أمام المطلوب لارتباط معناها به، وانتفاع بذلك المعنى؛ فهي مما يستعان به على المقصود"<sup>2</sup>. وبعبارة أخرى، "يصبح نص المقدمة متعلّقاً مع النصّ المؤلّف، وحاملاً للعديد من القرائن الموجهة للقراءة، والمساعدة على الفهم والاستيعاب"<sup>3</sup>.

لقد ارتبط الخطاب المقدماتي بـ"فنون التّأليف والتدوين وصنعة الكتابة"<sup>4</sup>. فقد اهتم به المؤلّفون القدامى اهتماماً بالغاً في مدوناتهم التراثية، على اختلاف مجالاتها، وفطنوا إلى مركزيتها. ومنهم الجاحظ حين قال: "إنّ لابتداء الكتاب فتنة وعُجْباً"<sup>5</sup>. وهذا أبو هلال العسكريّ يجعل الابتداء داعياً إلى قراءة ما بعده، ولاسيما "إذا كان حسناً بديعاً، ومليحاً رشيّقاً"<sup>6</sup>. ومن هذا المنطلق، وضعوا له ضوابط وقوانين منهجية صارمة، وشروطاً محكمة، لا يمكن لمن يريد أن يخوض غمار التّأليف الحياد عنها. ولعلّ هذه الضوابط المنهجية في التّأليف توارثت حتى أصبحت من الضروريّات المنهجية الملحة، والثوابت المعرفية داخل خطاب المقدمات في التراث العربي. وقد أطلقوا عليها "الرؤوس الثمانية"، وقد أشار إليها أرباب التّأليف القديمة، ومنهم المقرئزي (ت 845 هـ) حين قال: "اعلم أنّ عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح

<sup>1</sup> أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، 278/2.

<sup>2</sup> عباس أرحيلة، مقدمات الكتاب في التراث الإسلامي وماجس الإبداع، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2003، ص 12.

<sup>3</sup> بلال عبد الرزاق، مدخل إلى عتبات النص: دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000، ص 37.

<sup>4</sup> مصطفى الشكعة، مناهج التّأليف عند العلماء العرب، دار العلم الملايين، بيروت، ط6، 1991، ص 61 وما بعدها.

<sup>5</sup> عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1965، 88/1.

<sup>6</sup> أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952، ص 437.



كل كتاب وهي الغرض والعنوان والمنفعة والمترتبة وصحة الكتاب ومن أي صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه".<sup>1</sup>

إنّ الخطاب المقدماتي، إذاً، خطاب مركزي في أي عمل؛ لأنّه أول ما يصادفه القارئ في رحلته القرائية، وبواسطته تتشكل تلك النظرة العامة حول العمل؛ ففيه يقدم الباحث للقارئ الأسس النظرية والمنهجية التي يستند إليها في عمله. وبالتالي، فإنّ الخطاب المقدماتي هو "المكان الاستراتيجي الذي يمكن للباحث أن يستثمره بغية تبين دوافعه، وتحديد مقاصده من وراء العمل، وذكر منهجه وخطته، وعرض ملابسات إنتاجه"<sup>2</sup>. ولهذا، عدّ بمثابة المفتاح، الذي يفتح به القارئ أبواب الفهم الصحيح لخطاب المتن، ويستكنّه به مغالقه؛ نظراً لاحتوائه على إشارات وتنبيهات وحقائق مهمة. ومن ثم، عدّ الخطاب المقدماتي مرجعاً نظرياً مهماً في حد ذاته، يجنب الوقوع في منزلقات التأويل الفاسد. كما يسهم الخطاب المقدماتي في خلق علاقة ضمنية بين النص عامة والقارئ، أساسها استمالاته والتأثير فيه، انطلاقاً من السعي إلى تمرير الأفكار والرؤى. ويتم ذلك بالاعتماد على مجموعة من المنطلقات النصية، وكذلك الاختيار الدقيق للعديد من المعطيات المؤتلفة لبنية الخطاب، التي تعتمد بالأساس على عنصري التشويق والتحفيز. لأجل هذا، أثنى ابن خلف الكاتب على المقدمات حين قال: "منزلة هذه المقدمات من كل كلام مؤلف منزلة الرأس من الجسد والأساس من البناء، وكما أنّ الرأس يضمّ أعضاء الجسد ويرأسها، وكذلك المقدمة التي يقدمها المنشئ في صدر كلامه تضم ما تتبعه وتقع في ضمنه"<sup>3</sup>.

### تفسير "الكشاف" والخطاب المقدماتي:

#### في مكانة "الكشاف":

ليس غريباً القول إنّ "الكشاف" من التفاسير التي بلغت الأفاق؛ لاحتوائه على علوم شتى، بالإضافة إلى منهجه الفريد في التفسير. وقد وصفه عبد الكريم الخطيب بالقول: "لم يأخذ الطريق الذي سار فيه المفسرون من قبله، وهو شرح مفردات القرآن، أو إعرابه، أو استخلاص الأحكام الشرعية منه..."<sup>4</sup>. بل إنّ صاحبه كان مهموماً ومهووساً باستخراج الوجوه البلاغية، لأنّ البلاغة

<sup>1</sup>. أبو العباس تقي الدين المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1987، 3/1.

<sup>2</sup>. شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل: دراسات في الرواية العربية، دار محاكاة للدراسات والنشر والشركة الجزائرية السورية للنشر، دمشق، ط1، 2013، ص 51، بتصرف.

<sup>3</sup>. علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تج: حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، ط1، 2003، ص 83.

<sup>4</sup>. عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين (دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها)، دار الفكر العربي، بيروت، 1974، ص 298.

وجه من وجوه التدليل على إعجاز القرآن، وفي هذا يقول: "ولله درّ أمر التنزيل، وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه، وأسدّ مدارجه"<sup>1</sup>، زيادة على استخدامه البلاغة قصدَ تقرير المذهب الاعتزالي، والدفاع عنه. وكان من نتائج هذا أن تعرض "الكشاف" وصاحبه للمعارضة والنقد المصحوب بالإعجاب والتنويه؛ فقد "اهتم العلماء بالكشاف اهتماما كبيرا، ووقفوا معه وقفات متعددة؛ فوصفوا محاسنه، وجوانب نبوغ صاحبه فيه"<sup>2</sup>. وتعددت الشروح والتعليقات والردود عليه؛ نظرا لمخزونه العلمي، الذي وجد فيه النظار ضالّتهم؛ فأفردوا له مصنفات عديدة<sup>3</sup>، تابعة له، تنير جوانبه.

إنّ الاهتمام، الذي مُنح للكشاف من المجامع العلمية، بصنفها المؤيد والمعارض، تجلّى في مجموع التعليقات والأقوال الصادرة التي تعبر عن إعجاب أصحابها بالتفسير وصاحبه. ومن ذلك ما قاله أبو حيان الأندلسي، حيث عدّه "كتاباً عليّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين"<sup>4</sup>. ونعثر على قول لابن خلدون يفضل فيه تفسير الزمخشري على بقية التفاسير نظرا لمنزلته العظيمة، إذ يقول: "وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه، فأنفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير"<sup>5</sup>. وفي نفس السياق، يؤكد الذهبي على مكانته ومكانة صاحبه، حيث يقول: "إنّ الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه... مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة"<sup>6</sup>.

لقد ظل العلماء يعلون من شأن التفسير وصاحبه في المشرق والمغرب ويقتفون أثره. فهذا محمد الفاضل بن عاشور (ت 1390هـ) صاحب "التفسير ورجاله"، يثني قائلاً: "وقد أتى، حقاً، من مظاهر البراعة، وآيات العلم الواسع، والذوق الراسخ، والقلم المتمرس، فأصبح كتابه عمدة الناس

<sup>1</sup> أبو القاسم الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به ورتب حواشيه: محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2016، 1/127.

<sup>2</sup> حمد أمين دار غفور، تفسير الكشاف للزمخشري (دراسة لغوية)، دار دجلة، عمّان، 2007، ص 23.

<sup>3</sup> تعددت المصنفات التي اهتمت بالكشاف، تعليقاً وشرحاً ورداً، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: حاشية على الكشاف، لابن البناء المراكشي (ت 721هـ)؛ شرح الكشاف، لمحمد التحتاني الرازي (ت 766هـ)؛ الكافي الشافي في تخرّيج أحاديث الكشاف، لابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)؛ الانتصاف من الكشاف، لابن المنير السكندري (ت 683هـ)؛ مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف، لمحمد عليان المرزوقي الشافعي (ت 1355هـ). وللوقوف على ما كُتب عن الكشاف، راجع: تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، تر: عبد الحلّيم النجار: 216/5-224.

<sup>4</sup> محمد بن حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010، 1/10.

<sup>5</sup> عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تج: عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، 2004، 2/376.

<sup>6</sup> محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ب. ت، 1/311.

على اختلافهم بين مشايخ لهم ومخالف على وفرة مخالفيه، وانقطاع مشايغيه، يرجعون إليه على أنه نسيج وحده في طريقته البلاغية الإعجازية، وفي غوصه على دقائق المعاني وحسن إبرازها على طريقة علمية سائغة، بتحليل التركيب وإبراز خصائصه واعتباراته<sup>1</sup>. بالإضافة إلى ابن عاشور (ت 1393هـ) صاحب "التحرير والتنوير"؛ حيث نلمس تأثره بالكشاف عند قراءة تفسيره.

إنّ الكشاف نال من الحظوة والإعجاب ما يبرهن على علو كعبه وسمو قيمته، وهو "المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز الحاذق للفضول، وتجنب المستكره المملول؛ ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأخبار، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار"<sup>2</sup>.

### الخطاب المقدماتي في "الكشاف": بنيته وقضاياها

يشكل الخطاب المقدماتي في كتب التفاسير جزءاً مهماً من بنية الكتاب. وإذا نظرنا في خطبة "الكشاف"، نجد أنّ المؤلف يمتلك وعياً نظرياً ومنهجياً بعناصر الخطاب المقدماتي؛ فقد أسس خطبته وفق بنية هيكلية محكمة، مستمدة عناصرها من الإرث الإسلامي، الذي جعل من المقدمة جزءاً أساسياً من البناء العام للمؤلفات العلمية والأدبية. وعليه، فإنّ المقدمة لم تكن مجرد استعراض أو تمهيد بسيط، بل كانت تشغل مكانة مرموقة باعتبارها ركناً رئيساً يقدم عبره المؤلف فكره ومنهجه، ومكوناً بنائياً مهماً يحقق أغراضاً تواصلية، على اعتبار أنّها "أول ما يطرق في السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدواعي على استماعه؛ لأنّه يقرع السمع شيء غريب، ليس له بمثله عادة؛ فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه، والإصغاء إليه"<sup>3</sup>.

إنّ خطبة الزمخشري تعد من الخطب التراثية، التي تحمل العديد من العناصر أو الجزئيات المتعاقبة فيما بينها، والتي شكلت فكره ومنهجه التفسيري. فالمؤلف، في خطابه المقدماتي، اتكأ على ترتيب محكم، يجمع بين الجانب المنهجي العلمي ونظيره المعرفي. لقد بنى خطابه المقدماتي وفق بنية كلية، تتمثل في الاستهلال، وبنية الموضوع، وبنية الخاتمة.. وكلّ بنية من هذه البنى تتشكل من مجموعة من العناصر التي يمكن إيرادها كالآتي:

<sup>1</sup>. محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، قدّم له وذيله: محمد الحبيب بالخوجة، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1999، ص 69.

<sup>2</sup>. الكشاف، 4/836.

<sup>3</sup>. ابن الأثير، المثل السائر، تج: محمد معي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1939، ص 237.

**الحمد:** يفتتح المؤلف خطبته بخطاب الحمدلة، بوصفه استهلالا تقليديا له مكانته المستمدة من ارتباطه بالقرآن الكريم، وهو علامة تعكس تأدب الزمخشري وتدينه. بالإضافة إلى ظهوره بمظهر المقتفي للسنة النبوية الشريفة، وذلك بالامتثال للأحاديث التي تؤكد على أهمية الابتداء بالحمد في الخطب. ولعلّ هذا الأمر يؤدي إلى خلق تواصل روحيّ بينه وبين القارئ، إذ يعد خطاب الحمدلة مشتركا دينيا وثقافيا، وهو ما يمنح العمل طابعا دينيا مقبولا يري القارئ لفهم السياق الذي قدّم فيه. ولقد جاء الزمخشري بالحمد في قوله: "الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما"<sup>1</sup>.

**التعظيم:** خص الزمخشري الله تعالى بالتعظيم والإجلال في خطبته، مشيرا إلى صفاته وقدراته اللامتناهية، ومؤكدا، في ذات الوقت، على التنزيه والتوحيد باعتبارهما مبدئين يعكسان الفكر الاعتزالي الذي ينزه الله سبحانه عن الصفات البشرية. وفي هذا يقول: "وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشئ مخترع، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم"<sup>2</sup>.

**الإشادة بالقرآن الكريم وإعجازه:** يظهر في الخطاب المقدماتي للكشاف أنّ المؤلف يعظم من شأن القرآن الكريم بوصفه كلام الله تعالى المنزل غير ذي عوج، متميزا بالبلاغة والإعجاز اللغوي والبياني، من حيث كونه منسقا ومنظما بطريقة لا يقدر واحد من العرب العرباء أن يأتي بمقدار أقصر سورة منه، رغم كونهم أكثر عددا وأفر بلاغة، وذلك نظرا لبلاغته التي فاقت بلاغة العرب. وقد عبر الزمخشري عن هذه البلاغة بقوله: "فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب، وأنّ الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب"<sup>3</sup>.

**مقام محمد ﷺ ورفعته:** ينتقل المؤلف في قلب خطابه المقدماتي إلى خطاب التصليّة، وهو التلطف بالصلاة على الرسول ﷺ، حيث يشير إلى نسبه الشريف، وإلى مكانته الرفيعة في قومه، بقوله: "وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي"<sup>4</sup>. وكما أشار إلى صفاته التي اتصف بها مثل العصمة والحكمة، ليختتم حديثه بالإشارة إلى مكانته في التوراة والإنجيل باعتباره رسولا ذكر وبُشّر بقدمه ليكون خاتم الرسالات السماوية.

<sup>1</sup> الكشاف: 16/1

<sup>2</sup> نفسه.

<sup>3</sup> نفسه.

<sup>4</sup> نفسه، 17/1.

**القرآن مركز العلوم، ومجمع الحقائق والأسرار:** يعالج الزمخشري في خطابه المقدماتي قضية التفوق العلمي للقرآن الكريم، إذ يعتبره، والحق كذلك، أعلى المراجع في العلوم والمعرفة، حيث يؤكد على أنه ذو نظام معرفي كامل يربط بين العلوم المختلفة، مما يجعله مرجعا شاملا. وهو كذلك اللبنة والركيزة التي يقيس عليها العلماء علومهم، بالإضافة إلى كونه نصا يحوي حقائق "ولطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار"<sup>1</sup>. لذلك لا يتصدى لكشفها إلا الخاصة من العلماء الذين يملكون نوعا خاصا من العلوم، وهو علم التفسير وأصوله، بوصفه "أملا العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يهر الأبواب والقوارح، من غرائب نكت بلطف مسلكتها، ومستودعات أسرار يدق سلكتها، علم التفسير..."<sup>2</sup>.

**علم التفسير وأصوله:** يشدد الزمخشري على أن فهم القرآن الكريم، والكشف عن أسرارهِ والوصول إلى حقائقهِ، يحتاج إلى علم التفسير وأصوله، وهو العلم "الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم"<sup>3</sup>. وبالتالي، فإن تفسير القرآن وهتك أسرارهِ يحتاج إلى الأخذ من سائر العلوم بحظ؛ بمعنى أن المفسر يحتاج إلى التمكن من القواعد والأصول المتداخلة والمتعددة التي تعدّ منطلقات تسهم في تفسير القرآن والوقوف على إعجازه؛ إذ يتطلب علم اللغة بعوالمه الرحبة (الصرف والاشتقاق، والنحو والإعراب)، وعلم البلاغة بقطبيهِ (البيان والمعاني)، والأدب بفروعه، وعلم صناعة الخطاب. ناهيك عن اتصافه بملكات عقلية مثل: المرونة الفكرية، الذكاء والفطنة، اليقظة والانتباه، الفهم الحاد، الليونة والانفتاح. وفي هذا يقول الزمخشري: "وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقضان النفس درآكا للمحة وإن لطف شأنها، منتما على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزّا جاسيا، ولا غليظا جافيا"<sup>4</sup>.

**دواعي التأليف ودوافعه:** يشير المؤلف في خطابه المقدماتي إلى الاختيار الذي يبدو فاعلا في تأليف التفسير، والمتمثل بالأساس في تلك الدفعة القوية التي جاءت من فرقته الناجية العدلية، حيث ألحت عليه، رغم امتناعه، أن يخرج مصنفًا يضم حقائق التنزيل، يكون أداة علمية لحفظ الذاكرة الاعتزالية من الضياع والاندثار، فما كان منه إلا أن خاض فيه بوصفه فرض عين. وبالتالي، فإن فعل التأليف انبثق استجابة لسلطة الانتماء، من حيث هو عقيدة يلتزم المؤلف بواجب الطاعة لكل مقتضياتهِ. وعليه، فإن العامل المذهبي المتمثل في الاعتزال، بوصفه عقيدة

<sup>1</sup> الكشف: 17/1.

<sup>2</sup> نفسه.

<sup>3</sup> نفسه.

<sup>4</sup> نفسه، 18-17/1.

راسخة، ورجال العدل والتوحيد "الفرقة الناجية العدلية" كمراجع ثابتة، يشكلون في وعي الزمخشري الجمعي حجج سلطة عليا، هما عاملان مساعدان ومحفظان عمل على تحفيز وتحريك المؤلف لخوض غمار التأليف؛ أي إنجاز التأليف الذي اكتسب صفة الشرعية.

لقد أسهم الاعتزال والفرقة الناجية العدلية باعتبارهما عاملين رئيسيين في حمل المؤلف على تأليف تفسيره. وبعبارة أوضح، إنّ الاعتزال كان عاملا ضمنيا فرض على المؤلف الاستجابة لندائه بتخصيص تفسير يكون مرجعا في الاعتزال، وأداة للانتصار لأصوله. أما الفرقة الناجية العدلية فقد مثلت عاملا قويا ومباشرا أسهم في تأليف الكشف، انطلاقا من تحفيز المؤلف والإلحاح عليه بتركيب لغوية وردت في المقدمة، نذكر منها: "اجتمعوا إليّ مقترحين، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين والعدل والتوحيد"، وهي إشارات قولية صريحة، وحقائق واضحة تعري العلاقة بين المؤلف والفرقة الناجية العدلية.

وكما نجد عاملا آخر أسهم في تحريك الجانب النفسي في الزمخشري ودفعه إلى التأليف، متمثلا في الرعاية والعطف والرغبة الشديدة التي وجدها عند الأمير الشريف أبي الحسن بن وهاس<sup>1</sup>، حين حط رحله بمكة. وقد عبّر الزمخشري عن هذا حين قال: "(...) فهز ما رأيت من عظمي، وحرك الساكن من نشاطي؛ فلما حططت الرحل بمكة، إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس، أدام الله مجده، أعطش الناس كيدا، وألهمهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه بقطع الفيافي، وطى المهامه، والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض"<sup>2</sup>. فلم يملك المؤلف إلا الإدعان لأمر الأمير، بعد أن ضاقت عليه الحيل.

**الإشارة إلى العنوان:** في سياق حديثه عن دوافع التأليف ودواعيه، أشار الزمخشري إلى العنوان بوصفه "نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فكّ شيفرته الرامزة"<sup>3</sup>. حيث قال: "اجتمعوا إليّ مقترحين أن أُملي عليهم «الكشف عن حقائق

<sup>1</sup> شريف وهاس بن أبي الطيب داود بن عبد الرحمن بن أبي الفاتك عبد الله بن داود بن سليمان: حاكم وشريف مكة والحجاز. تولى أمر مكة في عام 441هـ الموافق لـ 1048م. توفي في مكة عام 451هـ الموافق لـ 1058م.

<sup>2</sup> الكشف، 18/1.

<sup>3</sup> بسام طقوس، سيمياء العنوان، من منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان، ط1، 2001، ص 33.

التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»<sup>1</sup>. ولعلّ هذا العنوان عند الزمخشري يعكس بوضوح المنهج الذي سيتبعه في كتابه، وهو الكشف والإبانة عن حقائق وأسرار القرآن الكريم.

**مكان التأليف وزمانه:** في إشارة لطيفة من الزمخشري، يشير إلى مكان وزمان تأليف الكشف؛ حيث أورد في خطابه المقدماتي إشارة مفادها أنّه أُلّف في مكة بجوار البيت العتيق، ومنه جاء اسمه "جار الله الزمخشري" الذي عُرف به. أمّا زمان التأليف فقد كان في أواخر عمره، بعد أن "عبت به العلل، ورأيتني قد أخذت من السنّ، وتقعقع الشنّ، وناهزت العشر التي سمّتها العرب دقاقة الرقاب"<sup>2</sup>. وقد فرغ منه في مدّة خلافة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وهي بتقدير ابن حجر العسقلاني "سنتين وثلاثة أشهر على الصواب"<sup>3</sup>، متخذاً فيه سبيل الاختصار والتكثير من الفوائد والفحص عن السرائر.

**تعظيم الكشف:** يختتم الزمخشريّ خطابه المقدماتي بعبارات تهوّل الكشف وتعظمه، باعتباره آية من آيات البيت المحرم، وبركة من بركاته، وذلك في قوله: "ما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم"<sup>4</sup>. والمستفاد من هذه العبارات هو ربطه بين مكانة البيت المحرم وتفسيره؛ مما يعطي قداسة للتفسير مستمدة من قداسة البيت المعظم. وبالتالي، فإن المؤلف يضفي تعظيماً وتقديساً على مصنفه، لأنّه يعلم بأنّه تفسير يحتوي على أفكار ورؤى ستجرّ عليه السنة الخصوم والمناوئين. لأجل ذلك، عمد إلى إضفاء القداسة على تفسيره، وأغلق باب الردّ والمعارضة.

**الدعاء:** من البديهي في خاتمة الخطاب المقدماتي أن يعمد المؤلف إلى إيراد خطاب الدعاء؛ إذ يعكس جوانب مهمة في فكر ومنهجية المؤلف، حيث يلجأ إليه المفسر في بداية تفسيره طلباً للتوفيق والسداد، لأنّه مقبل على مهمة عظيمة ومعقدة. وكما يضمّنه في الخاتمة طلباً لقبول العمل؛ فالمفسر لا يعتبر عمله مجرد جهد فكريّ، بل هو كذلك عبادة يرجو بها الثواب والأجر. وفي هذا الإطار جاء دعاء الزمخشري في نهاية خطابه المقدماتي قائلاً: "أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني، ونوراً لي على الصراط يسعني بين يدي وبيمينني، ونعم المسؤول"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup>. الكشف: 19-18/1.

<sup>2</sup>. نفسه، 19/1.

<sup>3</sup>. ينظر: حاشية الكشف: 19/1.

<sup>4</sup>. الكشف: 19/1.

<sup>5</sup>. نفسه.

تلكم، إذًا، أهم الجزئيات أو العناصر المشكلة للبنية الكبرى للخطاب المقدماتي في تفسير الكشف، وهي جزئيات يفضي بعضها إلى بعض، متسمة بميزات خاصة، متأثرة بالتراث الإسلامي على مستوى الشكل والمضمون، وضامة للعديد من القضايا التي تعين القارئ على تشكيل صورة عامة حول المؤلف الذي هو بصدد قراءته.

### أصول التفسير في الخطاب المقدماتي: المنطلقات والمرجعيات

نروم، في هذا المحور، الحديث عن أهم الأصول أو القواعد التي أشار إليها المفسر الزمخشري في خطابه المقدماتي، وهي جملة منطلقات متنوعة، قعد لها في خطبته. والناظر فيها يدرك مدى أهميتها عند المؤلف؛ إذ تعدّ منطلقات رئيسة، على المفسر أن يكون بارعا فيها؛ لأجل أداء مهمة التفسير على أحسن وجه، وبأفضل طريقة ممكنة؛ لئلا يقع في الخطأ أو الإشكال، ولنبداً بـ:

#### 1.3- علم اللغة:

إنّ اللغة وعلومها من مرتكزات التفسير، لذلك لا يتعاطى أحد لمهمة التفسير وهو غير عالم باللغة؛ لأجل ذلك، "من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة"<sup>1</sup>. انطلاقاً من هذه المركزية، عدّت اللغة في تفكير الزمخشري أصلاً من أصول التفسير، نظراً لإمكاناتها الواسعة التي تحظى بها، "فلسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظاً"<sup>2</sup>؛ بمعنى أنها "أكثر مرونة وطواعية، وتعددا للصيغ والمعاني وتعبيراً عن المعنى الواحد بتراكيب وأساليب مختلفة"<sup>3</sup>. فميزة اتساع المادة وغزارتها تخدم المفسر أثناء عملية التفسير، وتساعد على إدراك مرامي الخطاب. لذلك من الضروري على المفسر لكتاب الله تعالى أن يحيط بلغات العرب بقوة. بمعنى آخر، فالمفسر مطالب بامتلاك المعرفة اللغوية الموسعة، والجمع بين عوالمها الرحبة من صرف واشتقاق ونحو وإعراب ومعجم، "فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها، ومسميات أسمائها، فإذا كان التفسير راجعاً إلى هذا القسم، فسبيل المفسر التوقف فيه على ما ورد في لسان العرب، وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين"<sup>4</sup>. ويتنزل ما

<sup>1</sup>. الإمام الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المكتبة التجارية، مصر، ط1، 64/2.

<sup>2</sup>. جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة العربية، ضبط وتصحيح الجواشي: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، 53/1.

<sup>3</sup>. السيد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص 181.

<sup>4</sup>. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، م.س، ص 62.



قلناه في ثنايا الخطاب المقدماتي عند الزمخشري حين قال: "علم التفسير الذي لا يتم تعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم... واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحبيه..."<sup>1</sup>.

### علم النحو والإعراب:

يعدّ علم النحو والإعراب من علوم التفسير، "لأنّ به يتضح معنى القرآن وتدرّك مقاصده، ثم بهذا العلم تستقيم قراءة القارئ للقرآن، فلا يقع منه لحن فيه، كما به يكون الكشف عن المعاني بالألفاظ"<sup>2</sup>. لذلك راهن الزمخشريّ في خطابه المقدماتي عليه بوصفه أصلاً لا يتجزأ من اللغة، وهو "الوسيلة إلى إدراك المعنى من وراء اللفظ، وتفهم الغرض الكامن وراء الشكل"<sup>3</sup>. وعليه، فإنّ علم النحو والإعراب من الأدوات التفسيرية المسخرة لتحقيق رهانات متعددة، منها الكشف عن المسكوت عنه بالاعتماد على الإعراب، الذي يتولى مهمة فتح الألفاظ المغلقة على معانيها. وفي هذا يشير الزمخشري في خطابه المقدماتي إلى ضرورة التوسل بعلم الإعراب، وأن يكون المقبل على التفسير فارساً فيه<sup>4</sup>. ومن ثمّ، فالإعراب من المعينات النحوية أو الطرق التي تُسلك للوقوف على دلالة النص القرآني، وتبين أغراضه، وبناء المعرفة التفسيرية في كتب التفاسير. يقول الزركشي: "وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسرارهِ، النظر في الكلمة وصيغتها ومحلّها، ككونها مبتدأ، أو خبراً، أو فاعلاً، أو مفعولاً، أو في مبادئ الكلام، أو في جواب، إلى غير ذلك"<sup>5</sup>.

إنّ علم النحو والإعراب من المرتكزات التي شُغل بها الزمخشري في تفسيره، وجعله من الأصول التفسيرية الضرورية المتوصّل بها إلى الوقوف على معاني النص القرآني ومقاصده. وقد عمل علم النحو والإعراب، عند الزمخشري، وفق تصورين هامين هما، أولاً: تحصيل الفكرة السائدة في الأسلوب القرآني. وثانياً: "إثبات الشيء نفسه أو معارضته ونفيه، وتحقيق الإقناع بما يثبت ويتم تحصيله من قواعد النحو"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup>. الكشف، 17/1.

<sup>2</sup>. خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986، ص 156.

<sup>3</sup>. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون - الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، 1994، ص 44.

<sup>4</sup>. الكشف، 17/1.

<sup>5</sup>. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، م. س، 1/382.

<sup>6</sup>. عمارة الناصر، الهيرمينوطيقا والحجاج (مقاربة لتأويلية بول ريكور)، من منشورات ضفاف، بيروت، 2014، ص 92.

## 2.3. علم البلاغة:

لقد زكّي الزمخشري في خطابه المقدماتي علم البلاغة؛ ممّا حدّا بالبلاغيين إلى اعتباره من أعلام الدراسات البلاغية القرآنية الذين وظفوا البلاغة وعلومها لخدمة النص القرآني. وقد عدّ الكشاف من المصنفات التفسيرية التي جعلت من البلاغة العمود الفقريّ للتفسير. هذا الاعتماد أعاد للبلاغة جديتها، بل كشف عن إضافات وابتكارات نوعية في الدرس البلاغي العربي، كان لها الأثر الكبير على التفاسير اللاحقة؛ إذ نجد العلماء، رغم الاختلاف العقدي، ينهلون من تفسيره، ويقتفون أثره البلاغي، معتبرين أنّ علم البلاغة جزء لا يتجزأ من علم التفسير.

إنّ علم البلاغة عند المفسر أهميته لا تقل شأنًا عن علم النحو والإعراب وغيره، فهو عماد التفسير، بواسطته يتوصل إلى الفهم الدقيق للنص القرآني، والوقوف على اللطائف القرآنية المبهرة. ولأنّ التفسير من أعسر العلوم، والخائض فيه يلزمه التسلح بأدوات متنوعة، على اعتبار أنّ النص القرآني مستودع الحقائق والأسرار، كان لزاما على المفسّر، قبل التعاطي للتفسير، أن يكون بارعا في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني والبيان. "فالواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقديس من كلامه، مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما واجل".<sup>1</sup>

وقد أشار الزمخشري، في خطابه المقدماتي، إلى ضرورة الاعتماد على علمي البلاغة (البيان والمعاني) في التفسير؛ لأنهما من العلوم المختصة بالقرآن الكريم، التي تسهم في استكشاف إعجازه، وفهم دلالاته العميقة. وقد عبر عن ذلك حين قال: "لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان؛ وتمهل في ارتيادهما أونة، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استضاح معجزة رسول الله".<sup>2</sup> فالزمخشريّ، في هذا القول، يسلط الضوء على الدور المركزي الذي يؤديه علم البيان والمعاني في فهم القرآن الكريم، وتفسيره، واكتشاف لطائفه. فهذان العلمان هما مفتاح الفهم الصحيح للنص القرآني، والوقوف على إعجازه؛ لأنهما يعالجان الطريقة التي تعبّر بها النصوص عن المعاني، سواء من حيث التركيب اللغوي أو من حيث الصور البيانية والمجازات المستخدمة.

<sup>1</sup>. أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تج: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص 162.

<sup>2</sup>. الكشاف، 17/1.

إنَّ علم البلاغة من العلوم الضرورية التي يُعتمد عليها لفهم القرآن وتفسيره، ولاسيما الاستعانة بعلمي البيان والمعاني؛ فهما يمثلان القواعد والأسس التي توضح كيفية بناء الجملة، واختيار الكلمات المناسبة للسياق، وتصوير المعاني بطريقة تؤدي إلى فهم أفضل وأعمق للنص القرآني.

### 3.3. علم صناعة الخطاب:

إنَّ من الشروط الضرورية الواجب توفرها في المقبل على تفسير كتاب الله عز وجل تتمثل في علم صناعة الخطاب. وقد عبّر الزمخشري في خطابه المقدماتي عن هذا العلم بقوله: "بعد أن يكون أخذًا [يقصد المفسر] من سائر العلوم بحظ، مقدّمًا في جملة الكتاب"<sup>1</sup>. ولعلّ الناظر في عبارة "في جملة الكتاب"، حيث تحتل عدّة تأويلات، يدرك أنّ الزمخشري، في خطابه، يؤسس لقاعدة تفسيرية على المفسر أن يحوزها، وهي امتلاكه علم صناعة الخطاب.

يمكن تأويل عبارة الزمخشري تأويلين مختلفتين: الأول، هو اعتبار علم صناعة الخطاب من قواعد التفسير الذي يتعامل مع كيفية بناء المعنى ونقله بطريقة تؤثر في المتلقي، سواء تعلق الأمر بالمعنى الديني أو الاجتماعي أو غيره. أما في مجال التفسير، فيمكن الحديث عن طريقة فهم نصوص القرآن الكريم وصياغتها بما يتناسب مع قواعد البلاغة وأساليب الخطاب المختلفة. لذلك، من الضروري انتماء المفسر إلى طبقة علماء صناعة الخطاب، لأنّ مهمة التفسير تتطلب امتلاك المفسر طرقًا خطابية متنوعة لإيصال المضمون التفسيري إلى المتلقين وإقناعهم به. وهذا ما يتبدى لنا حين نجيل النظر في الكشف؛ إذ نجد الزمخشري يتفنن في فهم كتاب الله تعالى، ويصوغ هذه الفهوم انطلاقًا من علم البلاغة، وعلم اللغة، والسياق، واملاءات المذهب، وغيرها.

أما التأويل الثاني، فمضمونه أنّ عبارة الزمخشري تحيل إلى التأليف والاتقان؛ بمعنى أنّ المتصدي لتفسير كتاب الله تعالى يجب أن يكون من العلماء المتفوقين البارزين المتقنين للعلوم المرتبطة بالتفسير، ومؤلفا فيها. بالإضافة إلى امتلاكه منهجا معروفا يتميز بالدقة، قدّم بواسطته إسهاما علميا مميزا جعله في صفوة العلماء المعترف بهم.

ومهما يكن، فإنّ الزمخشري في خطابه المقدماتي أشار إلى أصل من أصول التفسير الذي يمكن المفسر من أداء مهمة التفسير.

<sup>1</sup> نفسه، 17/1. ملحوظة: ما بين معقوفتين [...] أضفناه من أجل توضيح المعنى.

## 4.3. الملكات العقلية:

تعدّ الملكات العقلية من الخصال الشخصية الواجب توفرها في رجل التفسير؛ إذ إنّ عملها حاسم في تفسير القرآن الكريم. فهي تساعد المفسر على تقديم تفسير متكامل ودقيق للنص القرآني، وكلّما كانت هذه الملكات العقلية متطورة لدى المفسر، كلّما كان تفسيره أعمق وأشمل، وقادراً على استنباط المعاني الدقيقة والأحكام الشرعية بطريقة متوافقة مع روح النص القرآني.

نلاحظ أنّ الزمخشريّ، في خطابه المقدماتي، يركز على الملكات العقلية؛ فهو يقول: "(...) وكان - مع ذلك - مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقضان النفس دركاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبها على الرزمة وإن خفي مكانها، لا كزا ولا جاسيا، ولا غليظا جافيا"<sup>1</sup>. يُظهر هذا القول تأكيد الزمخشريّ على ضرورة اتصاف المفسر بملكات عقلية؛ مثل: المرونة الفكرية، الذكاء والفتنة، اليقظة والانتباه، الفهم الحاد، الليونة والانفتاح.. وهي ملكاتٌ على قدر كبير من الأهمية، والجدول الآتي يبيّن أهميتها:

الملكات العقلية	أهميتها في التفسير
المرونة الفكرية:	- لقد عبّر الزمخشري عن هذه الملكة العقلية بعبارته "مسترسل الطبيعة منقادها"؛ أي إنّ المفسّر يجب أن يتمتع بمرونة فكرية وانسيابية في التفكير. فهذه الأخيرة تجعله قادراً على تقبل الأفكار وفهم النصوص دون التعصب لفكرة على حساب الأخرى. ولعلّ هذه الخاصية مما يسم النص القرآني، فمعانيه متعددة؛ لذلك وجب على المفسر أن يتمتع بمرونة فكرية منفتحة لاستيعابها.
الذكاء والفتنة:	- جاءت هاتان الملكتان متضمّنتين في قول الزمخشري: "مشتعل القريحة وقادها". فالبعبارة تحيل على الذكاء والفتنة الحادة. فالمفسر المتميّع بهاتين الملكتين يسمح له بإبداع أفكار جديدة وتفسير النص القرآني بطريقة جديدة مبتكرة، ومن ثم اكتشاف مناطق دلالية جديدة لم تكن معروفة من قبل.
اليقظة والانتباه:	- يشير الزمخشري إلى هاتين الملكتين في قوله: "يقضان النفس دركاً للمحة وإن لطف شأنها". حيث يشير إلى أنّ المفسّر يجب أن يكون يقظاً منتبهاً

<sup>1</sup>. نفسه، 18/1.

<p>لأدق التفاصيل في الجملة القرآنية. وتلعب هاتان الملكتان دورا حيويا في التفسير حيث تمكنان المفسر من التقاط الفروق الدقيقة بين العبارات اللغوية والألفاظ؛ مما يؤدي به إلى تقديم عمل تفسيري أكثر دقة.</p> <p>- من الملكات العقلية الضرورية عند المفسر الفهم الحاد. وبعبارة أخرى، تمتع المفسر بالقدرة على فهم الإشارات والرموز الخفية التي يغلب عليها الاستتار. إذ إن هذه الملكة ضرورية في التفسير، لأن هناك تراكمات قرآنية تحتاج إلى فهم حاد نظرا لطاقتها اللغوية الكبيرة، وإيغالها في المجاز والكناية. وقد ذكر الزمخشري هذه الملكة في قول: "منتها على الرزمة وإن خفي مكانها".</p>	<p>الفهم الحاد:</p>
<p>- "لا كزا ولا جاسيا، ولا غليظا جافيا".. هكذا، عبّر الزمخشري عن هاتين الملكتين العقليتين؛ حيث يدعو المؤلف المفسر إلى التحلي بهما عند مواجهته النصوص القرآنية؛ إذ يجب عليه أن يكون ليّنا مرّنا منفتحًا، لا متصلبًا جافًا في تفكيره. إن صفتي الليونة والانفتاح ضروريتان للتعامل مع النص القرآني وآياته المختلفة بأسلوب متوازن؛ حيث تتطلب بعض الآيات أن يكون المفسر أكثر مرونةً وانفتاحًا لفهم الأبعاد المختلفة للآيات الكريمة.</p>	<p>الليونة والانفتاح:</p>

يعكس الجدول أعلاه أهم الملكات العقلية التي أشار إليها الزمخشري في خطابه التقديمي؛ إذ اعتبرها من الضروريات الواجب توافرها في المُقْبِل على التفسير، ولعلّ هذه الإشارة في خطابه راجعة، في الأساس، إلى أهمية هذه الملكات، ومركزيتها في علم التفسير.

## الخاتمة:

وبعد، فقد اهتم هذا البحث بدراسة الخطاب المقدماتي وتحليله، ويتعلق الأمر بخطبة "الكشاف" لصاحبه الزمخشري؛ وذلك بغية الوقوف على أصول التفسير التي أشار إليها في خطبته، واستجلائها. وقد انتهينا إلى ما يأتي:

إنّ الخطاب المقدماتي خطاب له أهميته ومركزيته الكبرى في الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ ارتبط، في الأساس، بصناعة الكتابة. ولأجل ذلك، اهتم به القدماء؛ فوضعوا له ضوابط منهجية، أصبحت من الضروريات الملحة في تأليف الخطاب المقدماتي.

الخطاب المقدماتي في "الكشاف" خطاب مبنيّ وفق بنية منهجية محكمة، تتمثل في الاستهلال وبنية الموضوع والاختتام، وهذا يعكس الوعي النظريّ والمنهجي للمؤلف بعناصر الخطاب المقدماتي، بوصفها عناصر أو جزئيات متعالقة، تحمل قضايا معرفية متنوعة.

يعدّ الخطاب المقدماتي، في تفسير "الكشاف"، من الخطابات التي تحوي أصولاً وقواعد تفسيرية مهمة؛ فالمؤلف جعل منه منبراً للإشارة إلى أهم الأصول التفسيرية الواجب توافرها في المقبل على تفسير كلام الله عز وجل. وبالتالي، عدّ الخطاب المقدماتي، في "الكشاف"، وثيقة معرفية ومرجعية، تقعد لأصول تفسيرية مهمة.

وختاماً، فإنّ الخطاب المقدماتي في "الكشاف" يبقى مرجعاً معرفياً مهماً، ولا سيما فيما يتعلق بالتأصيل لأصول التفسير. وعليه، فإنّ باب البحث فيه يظل مشرعاً لمزيد من الدراسات، التي يمكنها أن تقارب الخطاب المقدماتي لكتب التفاسير؛ بغية استجلاء أصول التفسير، التي لم يتطرق إليها الخطاب المقدماتي في "الكشاف". ونقترح، هنا، مسألة تفاسير الغرب الإسلامي خلال القرن السابع الهجري؛ للوقوف على أهم الأصول والقواعد المشار إليها في الخطاب المقدماتي.

## لائحة المصادر والمراجع

- أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993.
- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915.
- أبو العباس تقي الدين المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1987.
- أبو القاسم الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به ورتب حواشيه: محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2016.
- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952.
- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
- الإمام الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المكتبة التجارية، مصر، ب. ت.
- ابن الأثير، المثل السائر، تح: محمد معي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1939.
- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية للنشر والتوزيع، الكويت، د. ت.
- السيد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د. ت.
- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988.
- بسام طقوس، سيمياء العنوان، من منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان، ط1، 2001.

- بلال عبد الرزاق، مدخل إلى عتبات النص: دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000.
- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1991.
- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة العربية، ضبط وتصحيح الحواشي: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009.
- حمد أمين دار غفور، تفسير الكشاف للزمخشري (دراسة لغوية)، دار دجلة، عمان، 2007.
- خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط.2، 1986.
- شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل: دراسات في الرواية العربية، دار محاكاة للدراسات والنشر والشركة الجزائرية السورية للنشر، دمشق، ط.1، 2013.
- عباس ارحيلة، مقدمات الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط.1، 2003.
- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، 2004.
- عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين (دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها)، دار الفكر العربي، بيروت، 1974.
- علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تح: حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، ط.1، 2003.
- عمارة الناصر، الهرمينوطيقا والحجاج (مقاربة لتأويلية بول ريكور)، من منشورات ضفاف، بيروت، 2014.
- عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط.2، 1965.
- فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 2003.
- محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، قدّم له وذيلّه: محمد الحبيب بالخوجة، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1999.



- محمد بن حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010.
- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ب. ت.
- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون - الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، 1994.
- مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 6، 1991.
- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 1998.
- محمد علي حسين الحسني، ابستمولوجيا التأويل، دار الرافدين، بيروت، ط. 1، 2016.

## سمات الحوار في النص القرآني الكريم

عبد اللطيف ايت قازيت

أستاذ التربية الإسلامية

أستاذ عرضي بالمدرسة العليا للأساتذة،

الدار البيضاء



### ملخص:

يتسم الحوار في النص القرآني بالعديد من السمات التي تعكس عمق الرسالة الإلهية وحكمة الأسلوب القرآني في التواصل. يُستخدم الحوار بحكمة وموعظة حسنة، إذ يعتمد أسلوباً ليناً يحترم المخاطب ويشجعه على التفكير دون إجبار، كما يظهر ذلك في حوار الأنبياء مع أقوامهم بأسلوب هادئ وبعيد عن التعنيف، مثل حوار موسى مع فرعون حيث طُلب منه أن يُخاطبه بقول لين. ويتسم الحوار بالوضوح والبساطة، مما يجعله قريباً من الناس ويسهل عليهم فهمه واستيعابه، إلى جانب العدل والإنصاف في عرض آراء الأطراف المختلفة، حيث يعرض القرآن الرأي المخالف بموضوعية حتى يُدرك المتلقي الحقائق من جميع جوانبها. كما يعتمد على الإقناع بالتعليل وتقديم الأدلة، ما يساعد في تعزيز حجج الحق وتوضيحها، ويوجه الحوار دائماً نحو غايات إيمانية تهدف إلى تعريف الناس بالله، وبالقيم التي تدعو إلى الفضيلة والخير.

**كلمات مفتاحية:** الحوار - القرآن الكريم - اللين - المجادلة.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

ايت قازيت، عبد اللطيف. (2024، أكتوبر). سمات الحوار في النص القرآني الكريم. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 911-920.

### Abstract:

The dialogue in the Quranic text is characterized by many features that reflect the depth of the divine message and the wisdom of Quranic communication. Dialogue is used with wisdom and gentle preaching, employing a respectful and soft approach that encourages reflection without compulsion. This is evident in the prophets' conversations with their people, presented in a calm and non-coercive manner, as in the example of Moses' dialogue with Pharaoh, where he was instructed to address him with gentle speech. The dialogue is clear and simple, making it accessible and easy for people to understand and comprehend. Additionally, it is marked by fairness and objectivity in presenting differing viewpoints, as the Quran displays opposing views impartially so that the listener may grasp the truth from all perspectives. Quranic dialogue also relies on reasoning and presenting evidence, which helps to strengthen and clarify the arguments for truth. It always guides the conversation toward spiritual aims, aiming to familiarize people with God and promote values of virtue and goodness.

**Keywords :** dialogue - Quran - gentleness - argumentation.

## مقدمة

يُعرّف الحوار بأنه تفاعل لفظي بين شخصين أو أكثر، يُتيح تبادل الأفكار والآراء ومناقشتها، سواء اتفقت الآراء أم اختلفت. ولا يشترط في الحوار تطابق الرؤى بين المشاركين؛ فقد يختلفون، لكنهم يظلون قادرين على التفاعل باحترام والاستماع لبعضهم البعض، مما يمكنهم من الوصول إلى نقاط تلاقي أو تعميق الفهم المتبادل. ولا يعني عدم الوصول إلى توافق تخلي الأطراف عن الاحترام المتبادل. قد ينطوي الحوار على توترات وتباينات، ولكن الحوار الجاد يتطلب من المشاركين تحديد مخاوفهم وأفكارهم المسبقة، والتركيز على الاستماع للآراء المختلفة بمرونة، ومناقشتها بموضوعية وفاعلية، دون سعي لتحقيق انتصار شخصي.

والهدف الأساسي للحوار هو إنشاء نقطة تواصل جيدة بين الأفراد، وإدارة الاختلاف وتوجيهه بطريقة جيدة، وبالتالي فهو وسيلة للوصول إلى الذكاء والقوة المنسقة لمجموعة من الناس، عوضاً عن تفرقهم، وهو وسيلة جيدة لإنشاء الأفكار، والآراء، والمشاعر، والاستماع إليها، وتحسين العاقات والصلات بين الناس على اختلافهم، وتسهيل تعرفهم على بعضهم البعض واستفادتهم من بعضهم البعض أيضاً، فبدون الحوار سيواجه الناس صعوبة في بناء الدوائر الاجتماعية، أو بدء أعمالهم التجارية، أو تطوير حياتهم المهنية.

## مفهوم الحوار وأهميته

يشير التعريف اللغوي للجزر "حَوْر" إلى دلالات عدة، منها: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وهي دلالة تقترب من دلالة لفظة "حوار" التي تدل على: التحدث والتجاوب القولي، فالمحاورة: المجاورة، واستحوره: استنطقه<sup>1</sup>، والمحاورة: حسن الحوار ومنها أيضاً: كَلَّمْتُهُ فما ردَّ على محورة (أي كلام)<sup>2</sup>، فهي تعطي في طياتها دلالة خلقية تتعلق بكيفية الحوار وأدبه، وهذا صحيح فالحوار يستلزم طرفين أو أكثر، ولا يتم إلا في جو أدبي يتيح السمع والقول بين المتحاورين. وتتسع دلالة الحوار معجمياً فتكون بمعنى: جادله<sup>3</sup>، والجدال يعطي فرصة للقول والمراجعة بين المتحاورين.

ومن هنا فإن دلالة الجزر اللغوي "حور" بمعنى الرجوع، تتفق كثيراً مع دلالة الحوار، وإن كانت الأولى أعم وأشمل للأشياء والبشر، أما الثانية فهي تقتصر على الحوار بين البشر غالباً،

<sup>1</sup> - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الصفحة: 750.

<sup>2</sup> - أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة بيروت، ص: 98

<sup>3</sup> - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، الجزء الأول، صفحة: 212

فالرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يدخل ضمن معطيات الحوار، فالحوار يعطي الفرصة لتعديل الرأي والرجوع عن مواقف وأمور، وهذا ما أشارت إليه المعاجم اللغوية فـ " حَوَّرَ الكلام أي غَيَّرَهُ"<sup>1</sup> والتغيير يكون تبعاً لمستجدات في العقل أو الحياة أو الأشياء وهذا يعني الرجوع أيضاً.

والحوار حقيقة مجتمعية إنسانية، فأينما وجد المجتمع البشري، وجد الحوار، لأن اللغة قاسم مشترك بين البشر، ومن وظائف اللغة التعبير عن حاجات الإنسان، البسيطة المتصلة بحاجاته الإنسانية من طعام وشراب وغيرهما، أو في المستويات العليا من النقاش الفكري والديني والاجتماعي. فالحوار " حديث يدور بين اثنين على الأقل ويتناول شتى الموضوعات... ويفترض فيه الإبانة عن المواقف والكشف عن خبايا النفس"<sup>2</sup>، ومن هنا، انتقل الحوار إلى ما ينتجه العقل البشري من آداب وحكمة ونصوص<sup>3</sup>، ذلك أن الأدب صورة وانعكاس بشكل مباشر أو غير مباشر من النشاط الإنساني العقلي واللغوي والاجتماعي يكاد يكون الحوار قاسماً مشتركاً بين سائر الأشكال الأدبية مثل: المسرحية والقصة والرواية والمناظرة والمناصحة والحكمة والعظة وأيضاً في الشعر فهناك الكثير من القصائد التي تشمل الشكل القصصي الحواري، وهناك حوار شعري يكون بين الشعراء أنفسهم.

### • أهمية الحوار

الهدف الأساسي للحوار هو إنشاء نقطة تواصل جيدة بين الأفراد، وإدارة الاختلاف وتوجيهه بطريقة جيدة، وبالتالي فهو وسيلة للوصول إلى الذكاء والقوة المنسقة لمجموعة من الناس، عوضاً عن تفرقهم، وهو وسيلة جيدة لإنشاء الأفكار، والآراء، والمشاعر، والاستماع إليها، وتحسين العاقلات والصلات بين الناس على اختلافهم، وتسهيل تعرفهم على بعضهم البعض واستفادتهم من بعضهم البعض أيضاً، فبدون الحوار سيواجه الناس صعوبة في بناء الدوائر الاجتماعية، أو بدء أعمالهم التجارية، أو تطوير حياتهم المهنية.

فيما يأتي مجموعة من أبرز آداب الحوار التي يجب اتباعها والتحلي بها للوصول إلى حوارٍ ناجح وبناء بين الأفراد.

<sup>1</sup> - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، م.س، صفحة: 212.

<sup>2</sup> - القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1416هـ، 1996م، ص488.

<sup>3</sup> - المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى، 1979م، ص100.

### • التفكير أولاً قبل الحديث

التفكير المتأن قبل الحديث يُسهم في تنظيم الأفكار وتحليلها والتأكد من دقتها قبل التعبير عنها. كما يساعد على انتقاء الكلمات المناسبة واختيار أفضل أسلوب لطرح الأفكار، مما يقلل من احتمالية الوقوع في الأخطاء أثناء الحوار.

### • الاستماع الجيد للمتحدث

من آداب الحوار حسن الاستماع إلى الشخص الآخر عند كلامه وعدم مقاطعته، والإنصات إليه بكافة الحواس، مع التفكير بكلامه، فحسن الاستماع يعني أن يفهم الشخص وجهة نظر محاوره مما يؤدي إلى الوصول إلى حوارٍ ناجحٍ وفعال، كما أن هذا ينعكس على الآخر أيضاً فيحسن الاستماع إلى الشخص نفسه عندما يتكلم، وهكذا يأخذ كل واحدٍ فرصته الكافية في طرح وجهة نظره دون مقاطعة وتشيت من الآخرين.

### • التواضع والاحترام أثناء الحديث

يجب التواضع أثناء الحوار والحديث وتجنب الكبر الغرور، وعدم إشعار الشخص الآخر بالدونية، أو أن المتحدث أفهم وأعرف منه، فكل شخصٍ لديه نوعٌ من المعرفة في مجالٍ ما، والتي يمكن الاستفادة منها أثناء الحوار، ويجب احترام الشخص المقابل واحترام رأيه، وتجنب الإهانة والسخرية أثناء الحوار، لما لها من آثارٍ سلبيةٍ بالغة.

### • الانتباه للغة الجسد ونبرة الصوت أثناء الحوار

من آداب الحوار الانتباه للغة الجسد ونبرة الصوت أثناء الحوار، فمثلاً يمكن الانتباه للغة جسد المستمع فتناوب الشخص أو تملله في الجلسة أو رجوع ظهره للخلف قد يعني أن يشعر بالملل من الحديث؛ وعندها يجب على المتحدث الاختيار قدر الإمكان، كما يمكن مراقبة نبرة الصوت إذا كانت تشير إلى الغضب أو الحزن مثلاً، وبناءً على جميع العلامات يمكن للمحاور اتخاذ الأسلوب المباشر لتجنب إزعاج من يحاورهم.

في القرآن الكريم الكثير من الآيات ذات الشكل الحواري، التي تزخر بعدد من الدلالات، ولكننا سنتوقف عند الآيات التي أوردت لفظة "حوار"، وهي ثلاث آيات فقط، إذ تعطي إحاءات تقترب من الطابع الشمولي لدلالة الحوار إنسانياً ودعواً ومنهجياً..

الآية الأولى قوله جل شأنه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾<sup>1</sup>.

والآية الثانية قوله تعالى في نفس السورة ونفس القصة القرآنية: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾<sup>2</sup>.

والآية الثالثة قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾<sup>3</sup>.

وردت الآيتان الأوليان في سياق قصة قرآنية تدور بين شخصين: مؤمن وكافر، والخطاب القرآني موجه في مطلع القصة إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾<sup>4</sup>، أي: "اضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه"، فالقصة - شأن القرآن الكريم كله - خطاب قرآني من الله جل وعلا إلى نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام، ولكن الدلالة هنا دلالة "المثل" للعظة والعبرة، والقصة موجهة للمؤمنين والكافرين والفاستقين والزائغين عن الهدى، في كل زمان ومكان، ففي طياتها الحوار بين الله ورسوله، وبين الله وعباده، وبين الرسول وجماعة المؤمنين، وبين الرسول والكفار والعصاة<sup>5</sup>.

وموجز القصة أن الله عز شأنه أنعم على عبد من عباده ببستانين من أعناب، محفوفة بنخيل، وأنبت بين شجرهما زرعاً، أي أن حديقة الكافر متعددة الخيرات والثمار، بينما ظل المؤمن على قلة في المال والولد والعطاء<sup>6</sup>، فتباهى الكافر بالمال والولد والجاه والنفر، وكفر بالله تعالى الخالق الرازق، وأنكر البعث يوم القيامة، وقد تم حوار بين المؤمن والكافر، ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ

<sup>1</sup> - القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 34.

<sup>2</sup> - القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 37.

<sup>3</sup> - القرآن الكريم، سورة المجادلة، الآية 1.

<sup>4</sup> - القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 32.

<sup>5</sup> - جامع البيان في أحكام القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، دار الحديث، القاهرة، دون طبعة، ج 15، ص 160.

<sup>6</sup> - اختلف في اسم هذين الرجلين وأصلهما: فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مغزومين أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة زوج أم سلمة - رضي الله عنهما -، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الإخوان المذكوران في الصفات، ورث كل واحد أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فرفض الأخ، وقيل نزلت في النبي (صلى الله عليه وسلم) وأهل مكة، وقيل هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. راجع: تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، 1413هـ، 1993م، مج 5، ص 100.

يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا<sup>1</sup>، فالكافر يحاور المؤمن مغتراً بجاهه وماله ونفره وولده، فقد جاءت لفظة الحوار حاملة دلالة البوح بالفخر والكبر، مفصحة عما يجول في نفس الكافر، وما يعتمل في صدره وهو يرى الثمر محصداً، موفوراً، غزيراً، إنها لحظة اغترار الذات الكافرة؛ بالرزق الوفير، فجاء رد صاحبه المؤمن ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا<sup>2</sup>﴾.

جاء حوار المؤمن هادئاً، بصيغة الاستفهام "أكفرت" الدال على التعجب والاستنكار، مذكراً الكافر بأصله البسيط التافه: "تراب" و "نطفة"، ثم صار رجلاً مكتمل البدن والعقل والنفس والرزق، وما ذكره المؤمن عقلاني يتفق مع بديهيات التصور البشري للإنسان؛ فهو يذكر الكافر بأصله في الخلق، وإلى ما يشترك فيه مع سائر البشر جميعاً الذين هم خلق الله تعالى، وأن ما تميز به من رزق فهو عطاء الله تعالى ومنته عليه.

لفظة "يحاوره" في كلتا الآيتين، حملت الدلالة المعجمية وهي: يراجعه في الكلام ويجاوبه وأيضاً بمعنى "يخاطبه ويكلّمه". ولكنها في الآية الأولى زادت فيها دلالة البوح والإفصاح بالفخر والتكبر على المؤمن، ونسبة ما أنعم الله به عليه إلى نفسه، وهذا ما أكده ابن كثير "أي يجادلّه ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس"<sup>3</sup>، أما دلالة لفظة "حاوره" الثانية في خطاب المؤمن فهي مخصصة بدلالة النقاش والوعظ، وكما يؤكد ابن كثير فقد جاء اللفظ "مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز".

وبنظرة شمولية إلى القصة التي وردت فيها اللفظتان، نجد أنها تقدم قالباً حوارياً، دعويّاً، بين طرفي النقيض في المجتمع البشري؛ المؤمن بالله: الخالق الرازق المعطي، الموقن بعقاب الله النازل بالكافر، وإن تأخر قليلاً، وبين الكافر المغتر بما أفاء الله عليه، ويظن أن ما عنده إنما هو بذكائه، وجهده فقط، فكفر بالله وبالحساب. وقد جاءت لفظة "ثمر" بدلالة أكثر شمولية فهي تعني: "المال الكثير وصنوف الأموال"، ذلك أن الثمار المزروعة مجلبة للمال ومتاع الدنيا، كما أن الثمار زاهية اللون، بكثرتها وتنوعها، تغري النفس، وتطمع العين فيها، فتباهي النفس بشجرها وأرضها وتنسب الخير لصاحبها.

<sup>1</sup> - القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 34.

<sup>2</sup> - القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 37.

<sup>3</sup> - تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، للإمام ابن الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، دون طبعة، دون تاريخ، مج3، ص97.

جاءت لفظة " حوار " في موضع ثالث، في مفتتح سورة المجادلة، وعند النظر لاسم السورة، نرى كيف أن السورة في عنوانها ومناسبة نزولها، تحمل الحوارية منذ مفتتحها<sup>1</sup>، فهي تتناول حوار امرأة من الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ومراجعتها في الكلام له، وتكاد تقترب دلالة اسم السورة مع المحاورة في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، والآيات ترتبط بحادثة بعينها تخص خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بنت الصامت .

وقد أراد زوجها موافقتها يوما فأبت فغضب عليها، وظاهر منها، فأنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم وقالت يا رسول الله: إن أوساً ظاهر مني (أي قال لها أنت عليّ كظهر أمي)، بعد أن كبرت سني ورق عظمي، وإن لي منه صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فما ترى؟! فقال لها صلى الله عليه وسلم ما أراك إلا قد حُرمت عليه، فقالت: يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقاً وهو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ<sup>2</sup>. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد قوله، وهي تكرر قولها، فما زالت تراجع وتقول: أشكو إلى الله فاقتي ووجدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني.

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها: "يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية<sup>3</sup>. قالت (خولة): فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه، فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً، ثم قرأ عليّ الآيات إلى قوله تعالى وللكافرن عذاب أليم)، قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرِّيه فليعتق رقبة، قالت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قالت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإننا سنعينه بعَرَقٍ من تمر، قالت: وأنا

<sup>1</sup> - المجادلة يفتح الدال تعني المحاورة، وبالكسر تعني المرأة المحاورة. والجدال القدرة على الحوار والمراجعة، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص1261. ولا يقصد به الجدال العقيم الذي لا يفيد العقول، بل يفسدها، ويشتت القلوب.

<sup>2</sup> - صفوة التفاسير، الصابوني، محمد علي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط1، 1424هـ، 2004م، مج3، ص123.

<sup>3</sup> - تفسير ابن كثير، مج 4، ص375، وكان زوجها أوس امرأة به لم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاها من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئا، راجع أيضاً: تفسير القرطبي، ج 17، ص176.



سأعيته بعرق آخر، قال صلى الله عليه وسلم: قد أصبت وأحسن، فاذهبي فتصديقي به عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً<sup>1</sup>.

في القصة المتقدمة، وردت لفظة "تجاوزكما" في الآية الأولى، في مقام دال على الحوار بين المرأة المؤمنة التي تخشى أن تفقد زوجها، وتضيع أولادها، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي أوضح لها - ما كان سائداً في الجاهلية - أنها صارت محرمة عليه، وهي تجاوزه، أي تراجعته في الكلام، وتجاوز أن تقدم تبريراً منطقياً: فهو لم يطلقها بلفظة الطلاق، وتخشى على أولادها، وترى أنها في خريف العمر؛ قد ضعف جسمها ووهن عظمها، وعندما وجدت أن حكم الرسول واحد، راحت تشتكي إلى الله العظيم، فاستجاب الله لها من فوق سبع سماوات. هنا نجد أن المحاورة كانت بشكل مباشر بين الرسول والمرأة، ثم زوجها، ثم أنزل المولى تعالى جواباً على شكوى المرأة، وهذا يعطينا صورة جلية: كيف كانت النسوة يتعاملن مع الرسول، ويراجعنه، بشكل عقلائي؛ يعرضن المشكلة، وأبعادها، وآثارها المستقبلية، وآلامهن النفسية. كما أن الرسول يدعو الزوج، ويعرض عليه الحل الرباني لمشكلته، والرجل فقير غير قادر على عتق رقبة أو التصديق على ستين مسكيناً، وكبير السن لا يستطيع صوم ستين يوماً، فأعانه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعانت زوجته، في تواصل إنساني حميم.

فيضاء المولى أن يكون الحوار (لفظاً) قد ورد في موضعين؛ الأول في قصة المؤمن الفقير، والغني الكافر، في القضية التي تشكل المرتكز الأساسي في دعوات الرسل والأنبياء ألا وهي الإيمان بالله تعالى الخالق المحيي المميت الرازق، وهي قصة ذات عموم في التناول، تتجاوز الإطار الزمني والمكاني، لتكون شاهدة على اغترار الإنسان ونسيانه عطايا الله وفيئته، أما القصة الثانية فهي ذات خصوصية في الطرح، محدودة بزمان ومكان وأشخاص، وتتناول قضية اجتماعية مؤرقة، تهدد البيت المسلم في لحظات زيف الرجل ولمه، وتعالج بعضاً من آثار جاهلية العرب، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم - موضع بحثنا - كان طرفاً مباشراً فيها، والمرأة - إنسانة وزوجة ومؤمنة وأماً - تجاوز الرسول، وتجادله، لتقدم لنا صورة خالدة عن مكانة المرأة في الإسلام ودورها في رعاية الأسرة وصيانتها.

<sup>1</sup> - تفسير ابن كثير، مج 4، ص 376. وزاد القرطبي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نادى أوساً، وقال له: أعتق رقبة، قال مالي بذلك يدان، قال فصم شهرين متتابعين. قال: أما إني إذا أخطأتني أن أكل في يوم ثلاث مرات يكل بصري (يتبع بصره ويغشى)، قال: فأطعم ستين مسكيناً، قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعاً، حتى جمع الله له والله غفور رحيم. تفسير القرطبي، ج 17، ص 176 وذكر ذلك أيضاً الطبري "فلما قضى الوحي، قال: ادعي زوجك فتلا عليه رسول الله.."، مج 12، ج 28، ص 3.

## الخاتمة:

عند التأمل في القرآن الكريم، يبرز الحوار كأحد الأساليب البارزة التي يعتمد عليها الكتاب العزيز في التواصل وإيصال الرسائل؛ إذ يُعدّ وسيلة فعالة لنقل الأفكار وتوضيح الآراء المختلفة، ويشكل أحد الأسس التي يُبنى عليها السرد القرآني للأحداث والقصاص، ولتقديم الحجج والبراهين. فالقرآن، من خلال عرضه لمواقف الحوار والنقاش، يكشف عن ملامح الرسالة الإلهية وأهدافها، مما يتيح للمتأمل فهماً أعمق لمراحل الدعوة وتطورها. وقد جاءت الحوارات القرآنية متماشية مع مراحل الدعوة التي مرت بها الرسالة الإسلامية، مُظهرَةً سمات مميزة، أبرزها اعتماد الحكمة والموعظة الحسنة، واللين في الطرح واستخدام الأسلوب الحسن في الحوار والمعاملة؛ مما ينسجم مع الدعوة النبوية، ووفق القيم السامية التي جاء به الدين الإسلامي الحنيف والمذكورة في القرآن الكريم.

## لائحة المصادر والمراجع

- جامع البيان في أحكام القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، دار الحديث، القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، للإمام ابن الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر.
- تفسير القرطبي، ج 17.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، طبعة بيروت.
- أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، طبعة دار المعرفة بيروت.
- القاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1416هـ، 1996م،
- التعريفات للجرجاني، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، 1405هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، طبعة بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973 م.
- أسلوب المحاوره، محمد خير محمود، دار العدوي مصر، 1988 م.

## المحور السادس:

# دراسات فكرية

## الشيخ عبد الحميد بن باديس وفكره الإصلاحية

### سومية ميعاد

طالبة باحثة بسلك الدكتوراه

مختبر التراث التاريخ والمجتمع فريق البحث علم الأديان وقيم البناء الحضاري  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق - جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء  
المغرب



### مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا، و بعد:

فإن حاجة المسلمين لمنهج القرآن والسنة لإصلاح أحوالهم ونيل رضا ربهم ضرورة ملحة، فلن يكون المسلم مسلما بغير معتقد صحيح يدفعه إلى طاعة ربه وعبادته عبادة حق فينصلح القلب وتنقاد الجوارح وفق أمر الله عز وجل، فيكون مسلما حقا يعيش وفق وجهة صحيحة وانتساب صادق للإسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْبِرِّ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾<sup>1</sup>. فالقرآن الكريم هداية كبرى، ومناطق عز هذه الأمة وشرفها، فيه خيرها وذكرها وبيان مرشد أولها وسعادة آخرها، وهو منهج رباني يوطر العقل المسلم وفق ما شرعه الله وارتضى لعباده، وبالتالي الشريعة الإسلامية تحت على حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحها الذي يشمل صلاح العقل والعمل وصلاح ما بين موجودات العالم الذي تعيش فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ خَالِفُكُمْ إِلَيَّ مَا أَهْيَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> سورة الإسراء: 9.

<sup>2</sup> سورة هود: 88.

فهذه أدلة صريحة دلت على أن مقصد الشريعة الإصلاح وإزالة الفساد، وهذا الإصلاح ليس مجرد صلاح العقيدة لوحدها أو صلاح العبادة فحسب، بل يراد منه صلاح الدين والعقيدة بما ينعكس على أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الفردية والاجتماعية.

فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعِي فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْأَفْسَادَ﴾<sup>1</sup>، أنبأنا بأن الفساد المحذر منه هو إفساد ي طال الانسان والكون وكل موجودات هذا العالم.

وواقع المسلمين اليوم ينبئ عن وجود حاجة وضرورة ماسة إلى الإصلاح وما يتعلق به من قواعد ومناهج لإحياء وتفعيل العمل بمقتضى منهج القرآن والسنة النبوية.

وكان من العناية بهما ما فيه من الفضل العظيم والأجر الجزيل، بذل أسلافنا الكرام جهودا مضنية للتمسك بهما والدعوة إلى ما يزخران به من خير وإصلاح في شؤون حياة المسلم من حيث استقامته مع ربه، ومن حيث استقامة عمله وعبادته وصحة اتجاهه ومنهجه وعقيدته وأخلاقه والحرص على إتباع ما كان عليه سلف الأمة.

وكان لعلماء الغرب الإسلامي دورهم الكبير في الإصلاح الديني، ومن بين أبرز رجالاته الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت 1358هـ) الذي كانت له رؤية إصلاحية عملية وفق الكتاب والسنة.

وفي ظل الموجات الاستعمارية التي اكتسحت العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث، وبفعل السياسة المنتهجة من طرف الاستعمار من التفجير العلمي والتفجير الحضاري، ومع تصاعد الأزمات المتعددة الجوانب، نشأ رجال في الأقطار المتباعدة، يهدفون إلى التصدي لضربات التجهيل والتفجير والتخلف والتبعية، قاصدين استرجاع الحق المسلوب، والانتعاش الفكري التجديدي.

ظهر العديد من المصلحين، فكان من بين العلماء الذين صبوا عنايتهم واهتمامهم بموضوع الإصلاح: «الشيخ عبد الحميد بن باديس» الذي مثل حلقة من سلسلة ابتدأت ب «جمال الدين الأفغاني» «ومحمد عبده» في القرن التاسع عشر وثنت ب «رشيد رضا» في القرن العشرين.

كان رحمه الله نائرا على الجمود، وناقما على الجهل، فأنشأ نهضة إصلاحية هدت عرش الطغيان، وصنم التقليد، وكان متزودا بالقرآن الكريم، مناديا بثلاثية المبدأ: الإسلام ديننا والعربية

<sup>1</sup> سورة البقرة: 205.

لغتنا، والجزائر وطننا، معتمدا التعليم بالمساجد والمكتبات، والصحافة والنادي والجمعية والكشافة، موحدا جميع الجهود.

خطط جيدا لمشروعه الإصلاحي، وحدد ما يقوم عليه من مبادئ وغايات، ولم يترك مجالا من تفاصيل هذا المشروع إلا ووضع له تصورا لإنجازه.

ومن خلال هذه المقالة التي شكلتها من مبحثين، سأتطرق في أولهما الشيخ عبد الحميد بن باديس عصره وحياته وتكوينه العلمي، وفي المبحث الثاني عرضت فكره الإصلاحي وما قام به من إصلاحات.

### المبحث الأول: الشيخ عبد الحميد بن باديس: عصره وحياته وعلمه

لمع نجم الإمام عبد الحميد بن باديس وظهر اسمه، لأنه كيّف عمله حسب واقعه وأكب يعمل ويصفف البلسم المطابق للوقت والزمان، انطلق من الواقع لينتهي إلى الواقع ذاته.

لذلك عرضت إطلالة على عصر وواقع الإمام عبد الحميد بن باديس، لأن أي جهد يرمي لدراسة موروث تاريخي، أو جهد بشري لن يكون ذا قيمة علمية أو ذا وزن معرفي إلا إذا رجعت بهذا الإرث إلى إطاره الزماني والمكاني، فيضمن لنا صواب ودقة أحكام أو على الأقل يقربنا من الصورة المرجوة.

فما هي الأوضاع التي كانت عليها الجزائر في زمن ابن باديس؟

وما هي العوامل التي أثرت في فكره؟

وما هي البيئة التي عاش فيها؟

وما هي العوامل الثقافية والاجتماعية المؤثرة في بناء شخصية ابن باديس؟

المطلب الأول: الأوضاع والعوامل التي أثرت في فكر ابن باديس

#### 1) الأوضاع السياسية والدينية:

عاشت الجزائر في مرحلة الاستعمار الفرنسي (1830. 1962 م) أخطر أوضاعها السياسية والدينية، عانت فيه أشد المعاناة من التشريد والحبس والقتل ومصادرة الأموال والأراضي فضلا عن محاربة الإسلام والعروبة، وكانت استراتيجية فرنسا ضم الجزائر لها نهائيا وإرسال فرنسيين لها ليكونوا سكان لها بدل أهلها مما دفع أبناء الوطن لمقاومة الاحتلال عسكريا ومدنيا وفكريا.

كانت تحكم الجزائر مباشرة في كل النواحي، فكان الإشراف الديني على المساجد والقضاء والمدارس من حق رجال فرنسيين، فاستحكم في الناس اليأس وفشت بينهم الفرقة والفقر والجهل وشتى أنواع الانحراف، فوجدت الطريقة في هذا حقلا خصبا للتوسع والانتشار.<sup>1</sup>

يقول مالك بن نبي<sup>2</sup>: «هكذا كان الناس يشهدون كل عام موكب القادرية<sup>3</sup> المهيب يأتي إلى أفلو، راية ترفرف وعلى رأسها ابن شيخ الطريقة المقدم، يلبس ثياب الخضراء من رأسه إلى قدمه إنها ثياب أهل الجنة، وهو ذو ذكاء شيطاني يعرف كيف يبتز من السداجة العامة للناس كما يريد. لقد كان يملك في تلك الفترة في وادي سوف بستانا للنخيل مؤلفا من حوالي ألف نخلة وهو من هبات أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الجنة في موكبه»<sup>4</sup>، فبقيت الحالة هكذا تزداد سوءا حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عند ذلك بدأت تظهر بعض الحركات الإصلاحية تنادي بالمساواة بين الشعب الجزائري والمستوطنين في الحقوق ويقولون أن هذه خطوة تمهيدية للاستقلال الكلي ثم الدعوة إلى الالتزام بأحكام الدين الإسلامي واتخاذ التعليم وسيلة للخروج من العجز والاحتكار.

## (2) الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية:

وصف الشيخ ابن باديس الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري قائلا: «إلى الإنسان الجزائري إلى حالته العقلية المنحطة، إلى حالته الأخلاقية الفاسدة، بسبب قلة مدارس التعليم والتهديب الحقيقية والمجازية المفتحة لأبناء الجزائريين، إلى حالته الصحية بسبب قلة وعدم المستشفيات في كثير من القرى والإسعافات الطبية، إلى حالته الاقتصادية بفقد المدارس الفلاحية وعدم الإعانة لصغار الفلاحين»<sup>5</sup>.

وكذلك الأوضاع الاقتصادية كانت صعبة جدا، فقد كان الشعب في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجماد.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث: مبارك الميلي، مكتبة النهضة الجزائر، د/ط، 1964 م، ص 33.  
<sup>2</sup> مالك بن نبي: كاتب ومفكر إسلامي، ولد بقسنطينة، درس القضاء والهندسة الميكانيكية، من آثاره: "شروط النهضة" "وجهة العالم الإسلامي"، زار الكثير من الأقطار الغربية والإسلامية، كما تولى إدارة التعليم العالي في الجزائر المستقلة: ينظر أعلام الزركلي 5/266.  
<sup>3</sup> القادرية: من الطرق الصوفية المنتشرة في بلاد أفريقيا والبلدان العربية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني: دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير- ص 249.

<sup>4</sup> ينظر: «مذكرات شاهد القرن»: مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 1404هـ/ 1984م، ص 181.

<sup>5</sup> الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره: عمار الطالبي 5/118.

<sup>6</sup> آثار ابن باديس عمار الطالبي 1/399.



الجهل يؤدي إلى فقدان وسائل الحياة وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها.<sup>1</sup>

وانتشرت الخرافة وهي نعم المعين للمستبدين لأنها تحجب الفكر عن الحقيقة وتحول بينه وبين اليقظة، وحيثما وجد الجهل تحضر الخرافة.

«والجهل الأسود، والفقر المدقع، والظلم الشنيع، والإهمال الفادح، كل ذلك قد حط بكلاكله على سواء الشعب في كامل البلاد».<sup>2</sup>

### العوامل:

#### (1) العامل الأسري:

ينحدر الإمام عبد الحميد بن باديس من أسرة عريقة أصيلة في العلم والجاه والسلطة، ولها باع طويل في العلوم الشرعية بمدينة قسنطينة منذ عصور تعود أصولها إلى الأمير المعز بن باديس الزيري الصنهاجي ت 452 هـ، الذي ثار على الدولة الفاطمية في مصر، وقطع الصلة السياسية والمذهبية معها وألغى المذهب الشيعي وأعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي مذهب الأغلبية في ربوع إفريقية والمغرب الأوسط.<sup>3</sup>

وقد وصف الذهبي شخصية المعز بن باديس فقال: وكان ملكا مهيبا وشجاعا عالي الهمة محبا للعلم كثير البذل مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بأفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسما للخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام فخلع طاعة العبيدية\* وخطب للقائم بأمر الله العباسي فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه.<sup>4</sup>

واستمر المعز رحمه الله في الانفتاح على العامة، والتقرب إلى العلماء والفقهاء من أهل السنة، وواصل السير في تخطيطه للانفصال عن الدولة العبيدية في مصر، وجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته. تقلد أفراد الأسرة الباديسية خلال القرن السابع والثامن الهجري

<sup>1</sup> آثار ابن باديس عمار الطالبي 1/268.

<sup>2</sup> ينظر: حياة كفاح مذكرات: أحمد توفيق المدني 2/32.

<sup>3</sup> ينظر: البيت الباديسي مسيرة علم ودين وسياسة: عبد العزيز فيلاي، دار الهدى، الجزائر داط، 2012م، ص 115.

\* الدَّوْلَةُ الْعَبِيدِيَّةُ هي إحدى دُولِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، والوحيدة بين دُولِ الْخِلَافَةِ الَّتِي اتَّخَذَتْ مِنَ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ (ضمن فرعه الإسماعيلي) مذهبًا رسميًا لها قال الذهبي في العبر في خبر من غبر: "المهدي عبيد الله والد الخلفاء الباطنية العبيدية الفاطمية، افتى أنه من ولد جعفر الصادق (199/2).

<sup>4</sup> سير أعلام النبلاء: 18/140.

العديد من الوظائف السامية في مدينة قسنطينة في جميع المجالات، في الأصول والخطابة والقضاء ...

فقد شغل الإمام مكي بن باديس جد عبد الحميد منصب القضاء وكان معروفا بسعة اطلاعه على علوم الشريعة، وكان شخصية مرموقة تميز بالعلم والسياسة<sup>1</sup>.

تعتبر أسرته أهم عامل أثر في تكوينه لأنها تعودت على التقاليد العلمية ودراسة العلوم الدينية وحفظ القرآن الكريم، ولم تسلك إلا منهج العلم والتقوى رغم المناصب العليا.

ويصف محمد البيهي ذلك التأثير والاقتران، وأثره المباشر على شخصيته وتكوينه فيقول: "ولم يكن ابن باديس امتدادا للتأثير الخارجي وحده، أي الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، فقط في مجال الدعوة والإصلاح، بل كان امتدادا لجده المعز بن باديس الذي توفي عام 984 م وكان له دوره في مقاومة البدع والضلالات التي أدخلت على الإسلام، إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية الشيعية في إفريقية<sup>2</sup>.

## (2) العامل الدراسي:

تلقى الشيخ عبد الحميد بن باديس المعارف الأولية من والده ثم بدأ مشواره في طلب العلم، وكما هو معلوم فإن الرحلة في طلب العلم أمر شائع عند علماء المسلمين .

ومن فضائل الارتحال أن الطالب يطوف ببلدان كثيرة، فيشاهد أحوال الشعوب وتقاليدها وعاداتها، واختلاف طبائعها، فيأخذ عن شيوخها وأعيانها، ويتلقى العلم عليهم، مما يؤدي إلى كثرة الاطلاع، ووفرة الثقافة .

والإمام لم يكن بعيداً عن هذه السنة الحميدة، وبتشجيع من والده، ارتحل إلى تونس، متبعاً ينابيع العلم والمعرفة، فأخذ هناك العلم من عظماء الزيتونة .

<sup>1</sup> البيت الباديسي ص 113.

<sup>2</sup> عبد الحميد بن باديس وأراؤه الفلسفية، عبد الحميد درويش النساج، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، الطبعة الأولى، 1431 هـ- 2010 م، ص32.

**- رحلته إلى تونس:**

إلى جامعة الزيتونة، كانت تلك أولى رحلاته إلى الخارج. تلقى العلم على المبرزين من علمائها، أمثال الشيخ محمد النخلي<sup>1</sup>، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور<sup>2</sup>، وغيرهم، وظل يأخذ عن شيوخه حتى استوفى الكثير مما عندهم من العلوم الإسلامية، طيلة أربع سنوات إلى أن أجازوه للتدريس، فمكث بعد تخرجه سنة أخرى للتدريس فيها، وكانت تلك عادة متبعة في كثير من الجامعات الإسلامية.

ولم يكتف بتلك البرامج التي أهلتة لنيل الشهادة العالمية، بل زاد في تحصيله خارج أوقات الدراسة إلى أن تشبع بمختلف فروع المعارف الإسلامية، وكان لتوجيهات الشيخ النخلي الأثر الكبير في ذلك.

**- العودة من تونس:**

عاد سنة 1912م إلى الجزائر، وكلّه عزم على بعث نهضة علمية جديدة يكون أساسها الهداية القرآنية والهدي المحمّدي، والتفكير الصحيح، فانتصب يُحْيِي دورس العلم بدروسه الحية في الجامع الكبير بقسنطينة، عائدًا بالأمة المحرومة إلى رياض القرآن وعلومه.

**- رحلته إلى المشرق:**

وفي موسم الحج لعام 1913م ارتحل إلى الديار المقدسة، وقد تميّزت هذه الرحلة بحدثين هامين، كان لهما الأثر الكبير في توجهه ومستقبل عمله:

الحدث الأول: هو التقاؤه بالشيخ أحمد الهندي، الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر وخدمة الإسلام فيها والعربية بقدر الجهد، فحقق الله أمنية ذلك الشيخ بعودة ابن باديس إلى وطنه، وتفانيه في خدمة الدين واللغة، إلى أن تكوّنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كان أول رئيس لها، ثم واصل رفاقُ دُرْبِه المسيرة من بعده.

<sup>1</sup> محمد أمين النخلي القيرواني (1862-1924م): هو عبد الله محمد أمين النخلي القيرواني، ولد بالقيروان، عرف بشدة تأثره بالشيخ محمد عبده، وعلى يده تخرج أكبر من العلماء كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي لازمه ملازمة طويلة. (محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج5، ط1، الشركة الوطنية التونسية للنشر والتوزيع، بيروت، 1986م، ص 26-27).

<sup>2</sup> ينظر: وثائق جديدة عن حياة ابن باديس الدراسية: عبد العزيز فيلاي، ص21

الحدث الثاني: هو التقاؤه بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي<sup>1</sup>.

### (3) العامل الاجتماعي وحب الوطن:

كان له وطنية صادقة اتجاه بلده وشعبه، فذكر من العوامل التي ساهمت في تكوينه وتشجيعه ذلك التفاعل الوجداني والعملي الذي استشعره ولمسه من الأمة المعونة على الخير، المنطوية على أصول الكمال... فكان لها بذلك كله الفضل في تكوينه العلمي ويعتبر الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتها الظروف.

إن لأثر البيئة الأسرية والمجتمعية والمدرسية في تربية النشئ فضل عظيم، وكل أمة لا تهتم بهذه المؤثرات الثلاثة في تنشئة أبنائها وتربيتهم وحملهم على مبادئ الدين والقيم والأخلاق الإسلامية، فهي ظالمة لأفرادها والبيئة التي عاش فيها ابن باديس كانت كلها آفات، أتت على كل جوانب الأمة الجزائرية، وقد كان على دراية بكل هذه الملابسات، كما كان يصفها ويشير إليها بدقة مما جعل كل هذه العقبات حوافز وطاقات إيجابية للعمل.

**المطلب الثاني: اسمه ونسبه ونشأته وشخصيته**

#### (1) اسمه:

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن محمد كحول بن علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان ابن بركات بن عبد الرحمان بن باديس الصنهاجي<sup>2</sup>.

#### (2) نسبه:

أسرة ابن باديس مشهورة في شمالي إفريقيا، نبغ فيها عظماء الرجال، وكانت تجمع بين العلم والجاه.. تنحدر هذه الأسرة من العائلة الصنهاجية، التي سطع نجمها في ميدان الإمارة والملك بالمغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري، كان منها الأمير زيري بن مناد ابن منقوش، أمير صنهاجة التلية، ثم ابنه يوسف بن زيري الملقب (بولغين)، الذي استخلفه المعز لدين الله الفاطمي على كامل المغرب بعد ارتحاله إلى مصر. والده هو السيد محمد المصطفى بن مكي بن باديس، حافظ للقرآن

<sup>1</sup> محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965 م) الموافق لـ (1306 هـ-1385 هـ) من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، ومن العلماء العاملين في الجزائر هو رفيق النضال للشيخ عبد الحميد ابن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية. ونائبه، ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج 1، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب للنشر والتوزيع، الجزائر 1895 م، ص 28.

<sup>2</sup> ابن باديس حياته ومآثره: عمار الطالبي 1/74-75

الكريم.. كان يشتغل بالتجارة والفلاحة، يعدّ من أعيان مدينة قسنطينة وسراة أهلها، عُرف بدفاعه عن حقوق المسلمين في الجزائر.. توفي سنة 1951م.

أمّه السيدة زهرة بنت علي ابن جلول، من أسرة اشتهرت بالعلم والتدين<sup>1</sup>.

### تكوينه العلمي:

- **التدريس:** لقد بدأ ابن باديس التدريس في جامع الزيتونة بعد تخرّجه منه، حيث جرت العادة أن يدرس النبغاء من الطلبة سنة في الجامعة بعد إنهاء دراستهم فيها، وكان ذلك خلال سنة 1911-1912م، وأثناء إقامته بالمدينة المنورة ألقى فيها دروساً عديدة في المسجد النبوي الشريف. وبعد عودته إلى الجزائر، استأنف الدروس التي كان يلقيها في الجزائر قبل رحلته إلى الحجاز. ولم يكتف بتعليم الكبار في المساجد فحسب، بل كان يهتم أيضاً بالناشئة الصغار، وعن ذلك يقول: (فلما يسرّ الله لي الانتصاب للتعليم سنة 1332هـ، جعلت من جملة دروسي، تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها إلى آخر الصبيحة وآخر العشيّة، فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار...).

- **الإفتاء:** بدأ الفتوى مع انتصابه للتدريس، إلا أن هذا الأمر توسع واشتهر عند قيام الصحافة الإصلاحية، فكانت الأسئلة الفقهية ترد عليه من كافة عمالات القطر، فيجيب عليها في صفحات الشهاب، والبصائر.

### شيوخه وتلاميذه:

يُرجع ابن باديس الفضل في تكوينه العلمي إلى والده، الذي ربّاه تربية صالحة، ووجّهه وجهة سليمة، ورضي له العلم طريقاً يتبعه، ومشرباً يردّه، ولم يشغله بغيره من أعباء الحياة، فكفله وحماه من المكارة صغيراً وكبيراً.

وكان أول معلّم له هو الشيخ محمد بن المدّاسي، أشهر مقرئي مدينة قسنطينة في زمانه، تلقى عليه القرآن فأتقن حفظه وتجويده.. أما أستاذه الذي علّمه العلم، وخط له مناهج العمل في الحياة، ولم يبخل استعداده حقّه، فهو الشيخ حمدان الونيسي: العالم العارف، الذي استطاع أن ينفذ إلى نفسية تلميذه، فيطبع حياته العلمية والعملية بطابع روعي وأخلاقي لم يفارقه طول حياته.

<sup>1</sup> البيت الباديبي، ص 113.

وقد ظل يذكر تأثير شيخه على نفسيته، فيقول عنه: إنه تجاوز به حد التعليم المعهود من أمثاله، إلى التربية والثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة .

وفي جامع الزيتونة أخذ ابن باديس العلم عن المبرزين من الأساتذة والشيخوخ، الذين كان لهم بالغ الأثر في تكوينه الفكري واتجاهه الإصلاح، نذكر منهم على الخصوص:

1- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: الذي لازمه قرابة الثلاث سنوات، فأخذ عنه الأدب العربي وديوان الحماسة لأبي تمام، يقول ابن باديس عن ذلك: (وإن أنسى فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فقد حببني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام)، ولم يمنعه هذا التقدير لشيخه والثناء عليه، من مخالفته وانتقاده في بعض فتاواه .

كان ابن باديس متواضعاً مع تلاميذه، يشجع المجتهدين ويقرّبهم أكثر منه، ومن تلاميذه أحمد بوشمال، كان كاتبه المؤتمن على أسراره، وهو الذي تصدى لنشر تفسير ابن باديس في كتاب مستقل بعد أن جرده من مجلة الشهاب التي كان ينشر فيها فواتح من تفسير الإمام التي كان يسميها مجالس التذكير<sup>1</sup>... من آثار الإمام عبد الحميد بن باديس: تفسيره للقرآن الكريم، إلقاءً على طلبته ومريديه، بدأه في ربيع سنة 1332هـ - 1914م، وختمه في ربيع عام 1357هـ - 1938م، ولكنه لم يكتب منه إلا قليلاً، كان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب، ويسمّيها (مجالس التذكير)، وقد جمعت هذه الافتتاحيات بعد وفاته في كتاب تحت عنوان (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) .

#### وفاته رحمه الله:

بعد أن أفنى عمره مدرسا يقضي سحابة نهاره وشطرا من ليله خدمة للعلم الشرعي وعلوم اللغة العربية<sup>2</sup>، قال رحمه الله: "وفقنا الله لشكر ما من به من سابق النعمة، والقيام فيما بقي من العمر بواجب، الخدمة وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر: عبد الحميد بن باديس: مسار وأفكار، مولود عويمر، إصدارات جسور للنشر والتوزيع 2012، ص62.

<sup>2</sup> ينظر: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913 . 1940)، عبد الرشيد زروقة، دار الشهاب، بيروت، ط 1، 1420هـ/1999م، ص272.

<sup>3</sup> آثار ابن باديس: عمار طالبي 3/191.

قال رحمه الله: "مادامت الجزائر مريضة فأنا مريض، وإن شفيت فسوف أشفى"<sup>1</sup>، كان منكراً لذاته في سبيل الأمة الجزائرية.

في مساء يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول 1358 الموافق ل 16 أبريل 1940م انطفأ السراج الوهاج الذي أشرق نوره على الجزائر، دفن بقسنطينة<sup>2</sup>.

بعد وفاته رحمه الله أدرك أصحابه عظم المسؤولية فكانوا نعم خلف لنعم سلف في إكمال مسيرة الإصلاح والتربية والتعليم.

### المبحث الثاني: فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس الإصلاحي

شخصية عبد الحميد بن باديس شخصية غنية فكرياً، فهو مجدد ومصلح يدعو إلى نهضة المسلمين ويعلم كيف تكون النهضة فيقول: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتأثر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة".

كان تفكيره في تنظيم يجمع كافة التيارات الإسلامية وجهود العلماء والمصلحين في سبيل خدمة قضية الشعب والوطن الجزائري، ووضع الأطر والخطوات العملية لإخراج الفرنسيين، كان قد بدأ في عام 1331هـ (1913م) حينما التقى الإبراهيمي في المدينة المنورة، ومكثا بها مدة ثلاثة أشهر عمداً خلالها إلى اللقاء كل ليلة بعد صلاة العشاء حتى الفجر يدرسان كيفية القيام بحركة إصلاحية في الجزائر، و قد اتفقا على أسس بعينها شكلت النواة لهذا العمل التنظيمي، ومن ثم استمرت اللقاءات بينهما بعد عودتهما إلى الجزائر في بلدة سطيف حيث يقيم الشيخ الإبراهيمي، وكانت هناك عوامل إقليمية قد أسهمت بدورها في تعزيز الفكرة التي يعمل لها الشيخان، الهم الأكبر المتمثل في الوجود الفرنسي الذي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

وبروق الأمل كانت تلوح من بلدان عربية وإسلامية كانت تواجه مصيراً مشابهاً، ومن ذلك دعوة الشيخ محمد عبده الإصلاحية في مصر التي تابعت وتزامنت مع جهود المصلح الديني جمال الدين الأفغاني، بإيقاظ الأمة الإسلامية ببعث الروح الإسلامية والوطنية من خلال جريدة العروة الوثقى، التي كانت منبراً سياسياً دينياً، وملتقى لا يختلف عليه اثنان في حيوية الدور الذي يقوم به من أجل بعث الأمة علي أسس دينية تتوافق وما أَرادَه الله لهذه الأمة من العزة والمنعة، كما للشيخ

<sup>1</sup> المصدر نفسه 2/32.

<sup>2</sup> حياة كفاح مذكرات: توفيق المدني، ص 15.

محمد رشيد رضا بنفس الدور التنويري من خلال جريدته المنار التي أولت للمسألة الإسلامية اهتماماً يفوق ما عداها من القضايا من منطلق قناعة مفادها أن التغيير الأمثل لن يأتي إلا وفق التصور الإسلامي، وكان عبد الحميد بن باديس أشد تأثراً بالشيخ رشيد رضا، ويقول عنه: "فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية وبياناً ودفاعاً كلها من أثاره".

حاول عبد الحميد بن باديس أن يقوم بجهود مماثلة في الجزائر من خلال دروسه الدينية الإرشادية والتعليمية التي انطلقت من مساجد قسنطينة، والجامع الكبير، ومسجد سيدي قموش، والجامع الأخضر، وكانت دروسه تستغرق معظم النهار سوى فترات قصيرة للراحة أو العمل في مكتبه بجريدة الشهاب، يعلم الصغار الذين حرموا من التعليم في المدارس الفرنسية صباحاً، وطلبة المدارس الفرنسية عصرًا ليربطهم بعقيدتهم وتراثهم الحضاري، فأصبح الرجل صاحب مدرسة فكرية تعمل لما يرقى المسلم الجزائري ويرفع من شأنه.

أما الوسط الاجتماعي الذي كان يتحرك فيه وسط أمة في معظمه؛ إذ لم تكن قبل المعركة الإصلاحية ولا في وقتها معاهد تعليمية عالية كما هو الشأن في تونس والمغرب ومصر، لذلك كانت حركته مسيطرة لطبيعة الوسط، ولم تكن دروسه تقدم المعرفة لذات المعرفة ولم يكن خطابه من أجل إظهار البراعة الأسلوبية إنما كان يخاطب القلب والعقل والوجدان بلغة تحقق المسعى بأسلوب تربوي ينفذ إلى الأعماق.

اتسم خطابه الفكري بالتجديد وبالثورة على المناهج القديمة والتقليدية، وتحديث طرق التعليم والتدريس وإعطاء نظرة للعلوم الإسلامية تتوافق وتغيرات العصر وظروف الواقع المعيش، كان يتنقل عبْرَ كامل تراب الوطن؛ لنشر الفكر الإصلاحي، وتشجيع الانخراط النوعي في إطار مشروع الحركة.

تميّز بإدراكه لأهمية التدرُّج في التغيير، وانتهاج إستراتيجية العمل الميداني، وتجديد الفكر؛ لإعداد الإنسان قبل إعداد السلاح.

### المطلب الأول: مفهوم الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

كان للشيخ عبد الحميد بن باديس دور جليل في نشأة الخطاب الإصلاحي، بسبب انطلاقته الكبرى والقوية في التعليم وإلقاء الدروس على العامة من الناس، لتوعيتهم بأمور دينهم، وبرز خطابه في مدى تأثيره ودوره في تأطير المسار الإصلاحي على مستوى الواقع، إذ أن كثيرا من



النصوص ذات الطابع الإصلاحي بقيت حبيسة الأوراق والكتب ولا يمكن تغيير واقع من الجانب النظري وحده، لأنه لا يؤدي أكله ما لم يقترن بالتطبيق.

وعلى العكس تماماً من ذلك كان لكتابات شديدة الوقع على المجتمع العربي، وقد تميز خطابها بالبساطة والسهولة، ليكون أنفع وأسرع إلى الأذهان، وأبعد عن الملل والسآمة، وتناول جوانب مختلفة، كالجانب الاعتقادي، والجانب التعبدي، والجانب الاجتماعي، والجانب التعليمي... مع شمولية في الخطاب لمختلف فئات المخاطبين رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً وهو خطاب عملي، حيث كان في الوقت الذي يقدم فيه الدروس التعليمية، يطبقها بيده ويدعو إلى التطبيق الميداني. فكان خطابه يحمل عدة خصائص في الوقت نفسه، يتميز بالانفتاح والتجديد ويجافي الجمود والانغلاق.

فما مفهوم الخطاب وأهميته في الإصلاح؟ وماهي خصائص ومصادر الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس؟

### مفهوم الخطاب

الخطاب لغة: الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً، وهما يتخاطبان، وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده<sup>1</sup>. وهو "الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً"<sup>2</sup>.

وقد ورد لفظ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾<sup>3</sup>. قوله تعالى: وَفَصَّلَ الْخُطَابَ؛ قال: هو أَنْ يَحْكُمَ بِالْبَيِّنَةِ أَوِ الْيَمِينِ؛ وقيل: معناه أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُمَيِّزَ بَيْنَ الْحُكْمِ وَضِدِّهِ؛ وقيل فَصَّلَ الْخُطَابَ أَمَّا بَعْدُ؛ وداود، عليه السلام، أَوَّلُ مَنْ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ وقيل: فَصَّلَ الْخُطَابَ الْفِقْهُ فِي الْقَضَاءِ<sup>4</sup>.

والخطاب مقرون بالحكمة، وهنا مجال فسيح للتأمل والاستبصار والتدقيق في لفظ "خطاب"، مما يخرج به عن المفهوم اللغوي بحسبانه مراجعةً للكلام، أو الكلام الذي يقصد به

<sup>1</sup> لسان العرب: ابن منظور 1/361 مادة خطب.

<sup>2</sup> الكليات: أبو البقاء الكفوي طبعة مؤسسة الرسالة، عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، 1992م، ص 419.

<sup>3</sup> سورة ص، 20.

<sup>4</sup> لسان العرب: نفس ص السابقة.

الإفهام، ويرتقي به إلى مستوى أرفع شديد اللصوق بمعنى الحكمة التي هي وضع الأمور في حاقٍ موضعها، وتديرها على ما ينبغي لها. ويتلاقى المفهوم اللغوي والقرآني في التأكيد على الدلالة السامية للخطاب، على اعتبار أن "فصل الخطاب" لا يتم على الوجه الأفضل، إلا إذا اقترن بالحكمة، وكان القصد منه تبيان وجه الحق على أكمل الوجوه وأتمها.

### الخطاب اصطلاحاً:

"توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"<sup>1</sup>.

### الخطاب وأهميته في الإصلاح

لقد أبدى رؤية واضحة ومكتملة في مسألة تجديد الخطاب الإسلامي، حيث شرح أبعاد الوجود الإنساني، والحاجة إلى التواصل الحضاري الممنهج والمثالي، وأذكر مثالا عن ذلك مقاله الشهير المعنون بـ "لمن أعيش؟"<sup>2</sup>، ومما جاء فيه المقتطف التالي: "إنني أعيش للإسلام.. إنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه.. فإذا عشت له؛ فإنني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا؛ إلا بالإسلام الذي ندين به، ونعيش له، ونعمل من أجله"<sup>3</sup>.

### مصادر الخطاب الإصلاحية عند ابن باديس

#### المسألة الأولى: القرآن والسنة

##### (1) القرآن الكريم

##### (2) السنة

الإصلاح لا يتم إلا وفق سنته صلى الله عليه وسلم، ومن استبعد شيئاً من السنة فإنما استبعد فريقاً لا غنى عنه من قواعد الإصلاح والمرشادات إليه. يستفتح خطابه بالحمد والشكر لله تعالى على نعمة العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، والصلاة والسلام على النبي صاحب الرسالة وأكرم الرسل.

<sup>1</sup> كشف اصطلاحات الفنون: التهانوي: تحقيق: لطفي عبد البديع. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1972 م، ج 2، ص 1.

<sup>2</sup> رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، ص 4.

<sup>3</sup> الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، رابح تركي، الجزائر: ص 65.

## المسألة الثانية: كتب السلف الصالح

منهج السلف الصحيح هو الإسلام كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فهمه عنه صحابته رضي الله عنهم، والسلفية الحقة هي الإسلام الحق وتحمل كل صفاته وخصائصه، لأنها تُمثِّل الطريقة الصحيحة لاستنباط الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

## خصائص الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

من خصائص الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس:

## خاصية الروحية:

الخاصية التي هي في حقيقتها جوهر الإسلام ، وضمان ديمومته على الزمان، وثباته على الأرض، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ<sup>1</sup>﴾.

## خاصية التواصل الحضاري:

إن التواصل الحضاري هو الوصل لا القطع بين طرفين أو مجموعة من الأطراف، بحيث يصل كل طرف إلى الطرف الذي يقابله أو يرغب في الاقتراب منه والتعاون معه. وهذا الضرب من التواصل الراقى إنما ينبثق من الإرادة الجماعية والرغبة المتبادلة والإحساس المشترك، باعتباره ضرورة من ضرورات التعايش والتفاهم بين الشعوب. هو سلوك حضاري بالمفهوم العميق للحضارة، والعالم اليوم في أشد الحاجة إلى هذه الأنماط من السلوكات والممارسات المتحضرة، التي من شأنها أن تخفف من أجواء التوتر وتفتح المجال أمام تعزيز التعاون الدولي عن طريق حوار الثقافات وتحالف الحضارات تدعيماً للسلام العالمي؛ بهدف تلاقي الثقافات الإنسانية وتحقيق الاندماج والتناغم الاجتماعي عن طريق تبادل معرفي وتقني.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> سورة النور: 35.

<sup>2</sup> شروط النهضة: مالك بن نبي، ص 23.

قال ان باديس: «نحن بحاجة إلى دراسات على درجة كبيرة من العمق لفكرها [الحضارة الغربية] الفلسفي، ولنظرياتها العلمية، ونظمها القانونية والحقوقية، وأنساقها الأخلاقية والاجتماعية»<sup>1</sup>.

يمثل خطابه الصباغة النموذجية لتفاعل الأصالة مع المعاصرة، بما يحفظ على الأمة خصوصيتها وذاتيتها دون حرمانها من مكتسبات العصر ومعارفه، «إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله؛ فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومد يده لبناء المستقبل؛ يتناول من زمانه وأمم عصره ما يصلح لبنائه، معرضاً عما لا حاجة له به، أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته»<sup>2</sup>.

### خاصية خطاب الوحدة:

الأساس في تصور الوحدة وروحها وسلامة غاياتها في خطابه يحصرها في القرآن والسنة وهدى السلف الصالح؛ إذ ليس هناك من عنصر من عناصر ومكونات خطابه إلا هذه المرجعية. والخطاب المستعمل لم يكن «الخطاب الذي لا يفهمه كل الناس، ولا الخطاب المادي الذي لا يهم كل الفئات، وإنما.. الخطاب العقلي والروحي ( الدين - اللغة - التاريخ - التعليم) الذي لا يستغني عنه أحد في المجتمع»<sup>3</sup>، فكان له بذلك أن يوحد «البلاد فكرياً وروحياً بعد أن مزقها الاستعمار شر ممزق»<sup>4</sup> توجد مسألتين في خطابه: المسألة الأولى: تتعلق بواقع وحدة الأمة العربية والإسلامية: قال رحمه الله: "الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام. وأما بالمعنى السياسي والمعنى العملي فلا وجود إلى اليوم لهما"[3]. ثم يضع ترتيباً ضرورياً لانعقاد الوحدة على المستويين المعنوي الأدبي والسياسي العملي على حد تعبيره. وقد عالج هذه القضية في الدائرتين العربية والإسلامية، فخلص إلى وجود الوحدة بالمعنى الشعوري الأدبي، وانعدام الثانية واقعياً. أما المسألة الثانية: الصلة بين «العرب» و«الأمازيغ»، في ذلك التصوير الجميل بين الجنسين في هذه الأرض من بلاد الإسلام، وكيف جمع

<sup>1</sup> آثار ابن باديس، ج 3، ص 9.

<sup>2</sup> آثار ابن باديس، ج 4، ص 17.

<sup>3</sup> آثار ابن باديس، ج 5، ص 131-132.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ج 5: ص 103-104.

بينهم الإسلام في أصرة وادعة متينة، فجاء في مقاله « ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان»، فقال: « إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محاربهم في مجالس الدرس لخدمة العلم»<sup>1</sup>.

### المطلب الثاني: الإصلاحات التي قام بها الشيخ ابن باديس

بدأت جهود ابن باديس الإصلاحية مشتتة بجهود فردية، تميزت بالنشاط الديني والتربوي، ثم تطورت لتصبح حركة وطنية بعد الحرب العالمية على يده وطائفة من العلماء، ثم تقوّت فأضحت ممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ثم استعان بأدوات العصر لإبلاغ دعوته، وفي مقدمتها الصحافة التي اتخذها أداة لبيان المفاهيم الإسلامية الصحيحة وانتقاد الأوضاع القائمة التي تخالف أحكام الكتاب والسنة.

وكانت جهوده في المجالات الدينية والتعليمية والتربوية والاجتماعية وكان يملك رؤية إنسانية حميمة تدافع عن كرامة الإنسان وحقوقه، بحيث طرح مجموعة من الأفكار والطروحات المهمة التي تستحق التأمل والتفكير والتحليل.

ولقد نال الإصلاح العقدي الحظ الأوفر من جهود ابن باديس وأعماله، وأهم مظاهر هذا الإصلاح في جوانبه المنهجية:

المنهج الذي دعا إلى اعتماده، وهو المنهج الذي كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو بناء العقائد على الكتاب والسنة، والتحاكم في مسائل الخلاف إلى ما كان عليه سلف الأمة وأخيارها، وله كتابا في التوحيد سماه العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، جسد فيه نظريته الإصلاحية في علم العقائد.

<sup>1</sup> المصدر نفسه: ج 5: ص 459.

## أولاً: القرآن والسنة المرجع في العقيدة

## القرآن

فقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]... ونحن .معشر المسلمين .قد كان منّا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمن الطويل - وإن كنا به مؤمنين - بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة، فهجرتها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثه مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة.

ووضع القرآن الكريم منهجاً للتربية العقلية، ومن أهم نقاط هذا المنهج:

- 1- تجريد العقل من المسلّمات المبنية على الظنّ والتخمين، أو التبعية والتقليد؛
  - 2- إلزام العقل بالتحري والتثبت؛
  - 3- دعوة العقل إلى التدبّر والتأمّل في نواميس الكون؛
  - 4- دعوة العقل إلى التأمل في حكمه ما شرع الله؛
  - 5- دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبّر التاريخ البشري؛ ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف، ويتأمّل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.
- ويصف الإمام ابن باديس الناس في الحياة الدنيا بصفتين حارث وهما أي عامل ومريد.

## السنة

المصدر الثاني وهو السنة النبوية الشريفة، القولية والفعلية والتقريبية، وهو المصدر الشارح والمبين والمفصّل لما جاء في المصدر الأول، ولقد كان .رحمه الله .كثير الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة شديد الدعوة إلى والتمسك بها والتعويل عليها في فهم الدين فهماً صحيحاً بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

## ثانياً: الاحتكام إلى السلف والالتزام بفهومهم

الالتزام بمفهومهم لنصوص الكتاب والسنة، وهذا ما قرره ابن باديس.

قصد إلى إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم وأفكارهم، فعني بمصادر التلقي لأنها مدخل الأهواء والبدع، وحصرها في كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح، فسعى إلى بيان الحق وإنكار

البدع والحث على تعلم العقيدة الصحيحة وكتابة المقالات والدعوة إلى المشاركة في الإصلاح ومناصحة أصحاب العقائد الفاسدة.

أما التفسير، فقد تصدرّ هو بنفسه لتفسير كتاب الله العزيز الحكيم، وأما الحديث فمن (موطأ الإمام مالك)، والفقه من (أقرب المسالك)، و(رسالة ابن عاشر)، والعربية من (قَطْر الندى)، والشعر من (ديوان الحماسة وديوان المتنبي)، إضافة إلى تدريس (مقدّمة ابن خلدون)، وتعليم الطلبة بعض الصنائع اليدوية.

تعلم اللغات الأجنبية: اعتبر تعلمها من الدين، مستندا إلى حديث زيد بن ثابت المتعلق بتعلم كتاب يهود، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم زيدا بتعلم السريانية كما ورد في البخاري وذلك ليتسنى لنا دراسة العلوم العصرية والاستفادة من المدنية الغربية، وألح بالنسبة الجزائريين على تعلم اللغة الفرنسية بحكم العلاقة بيننا وبين فرنسا.

**مقاومة التغريب:** وقد كان الشيخ ابن باديس على أتم اليقظة والوعي بفقّه الولاء للأمة العربية الإسلامية، والبراء من خصومها الحضاريين من الغربيين وبخاصة الفرنسيين، وقد مارس كل ذلك بنهج حكيم متوازن بعيد عن التنطع والغلو، وما فتى يردد قوله: "إنه لا يقف ضد المدنية أو الحضارة العصرية الغربية، لكنه يدعو إلى أن يتمدّن الجزائريون بشروطهم هم لا بشروط فرنسا، وأن يتمتعوا بحريتهم واستقلالهم وأن تتوقف فرنسا عن استقلالهم"<sup>1</sup>. وعندما بلغت الدسائس الفرنسية ذروتها في بدايات أيام الحرب العالمية الثانية، التي اتجهت فيها فرنسا إلى تجنيد الجزائريين في جيشها ليخوضوا معاركها ضد الألمان؛ وقف الشيخ ابن باديس وقفة قوية صارمة، وانتقد علماء الدين الذين أجازوا للمواطنين الجزائريين ذلك الصنيع. وحينها فاه ابن باديس بكلمته المشهورة: "لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله لما قلتها"<sup>2</sup>.

إصلاحاته الدينية: درّس ابن باديس في مساجد كثيرة بقسنطينة كالجامع الكبير والأخضر وسيدي عبد المؤمن ومدرسة جمعية التربية والتعليم، وأول عمل تربوي لابن باديس في قسنطينة كان في سنة 1332 هـ / 1913 م، حيث أسس مع جماعة من الفضلاء مكتبا للتعليم الابتدائي في مسجد سيدي بومعزة ثم انتقل إلى بناية الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست في 1917 م، وفي 1930 م تطور هذا المكتب إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي حرر ابن باديس

<sup>1</sup> عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي 19، 20، القاهرة، 1963.

<sup>2</sup> ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي، (ص 63-65).

قانونها الأساسي وقدمه باسمها إلى الحكومة فصادقت عليه في مارس 1931م، واعترفت بالجمعية في الجريدة الرسمية.

إصلاحاته التربوية والتعليمية: حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة، ثم في صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تربوي إرشادي يسهل التعريف به. ويعتبر التعليم أساس الإصلاح، وصلاخ العلماء شرط لكل تغيير حضاري " لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم (...) ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم (...) ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته".

## خاتمة

لقد مكنت هذه الدراسة حول الفكر الإصلاحي عند ابن باديس أن أخلصها إلى جملة من النقاط لعل أهمها:

دعوة الإمام عبد الحميد بن باديس رغم كل المثبطات والعقبات، في إحياء الإسلام في الجزائر، ونشر اللغة العربية، وغرس الروح الوطنية، وزرع بذور ثورة التحرير.

نجحت خطة الإصلاح التي رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة إذ استطاع أن يعزل المتورطين مع الاستعمار الفرنسي، فبدأ بالطرق الصوفية التي أراد في أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها، فلما حاربتة بدأ يعزلها عن الشعب فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة فقدت سلطاتها على الشعب.

ربط العقيدة بالواقع، وأعاد صياغة العقيدة لتقوم بدورها في تربية الأمة، وزرع محبة الله - ومحبة لقائه، والشوق لما أعدّه لأهل طاعته في جنات النعيم، وزرع الخوف منه تعالى ومن عقابه.

أقر على أن قوة العلم وقوة العمل من الأسباب التي ينبغي الأخذ بها، ليكون المصلح أهلاً للدفاع عن الحق وحزبه، مقيماً لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمداً مع تحصيل تلك الأسباب على الله وحده ومنتظراً منه الفرج والتيسير.

جعل العقيدة المحور الأساسي في خطابه الإصلاحي الدعوي، من حيث المضمون ومن حيث الشكل، فقام بصياغة الدرس العقدي صياغة على ضوء الكتاب والسنة، ودعا إلى تصحيح اعتقاد الناس.



وأكد على أن الإنسان المسلم ينبغي أن يبلغ درجة اليقين في العقيدة، وأن يعمق هذا اليقين بالنظر في آيات الله الشرعية والكونية، وأن هذا النظر يكون على الطريقة القرآنية.

دعا إلى ضرورة الاهتمام بإعداد المعلم الصالح، القوي في دينه وتكوينه، لأن إنجاح العملية التربوية، يتوقف إلى حد كبير على وجود المربي، الذي يحقق بسلوكه وممارساته التربوية المثال الصادق لأهداف المنهج التربوي المراد إقامته وتحقيقه.

والسؤال الذي يطرح نفسه ماذا فعل أحفاد ابن باديس من بعده؟ هل استمروا في حمل مشعل العلم والإيمان لنقل الجزائر من التخلف والحرمان إلى المجد والحضارة والتقدم؟ هل المعاهد والجامعات قامت بالدور الريادي لتطوير المجتمع؟ هل استمرت على منهجية ابن باديس، أو قامت بتطويرها بمراعاة التطورات العلمية والاجتماعية والاقتصادية الحالية؟

## لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم رواية ورش العد المدني الأخير.
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق محمد الدين الخطيب المكتبة السلفية، القاهرة الطبعة الأولى، 1400 هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، 852 هـ، مكتبة دار الطبعة الأولى 1410 هـ / 1989 م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير 774 هـ، صححه لجنة من الأساتذة والمتخصصين بإشراف الناشر دار قتيبة.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط 2، 1402 هـ 1982 م.
- لسان العرب، ابن منظور دار المعارف، القاهرة د/ط/ت.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت، ط 2، 1269 هـ 1960 م.
- تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب الناشر، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة الأولى، 2001 م.
- التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816 هـ) تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة: الأولى 1403 هـ - 1983 م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270 هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1415 هـ.
- -مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728 هـ) تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة: 1416 هـ / 1995 م.
- آثار ابن باديس إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار الأمة، الجزائر د/ط، 2009 م.

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث مبارك الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، د/ط، 1964م.
- ابن باديس وعروبة الجزائر مبارك الميلي، وزارة الثقافة الجزائرية د/ط 2007م.
- موسوعة كفاح الشعوب، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي: سيرة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية لعلي محمد الصلابي دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى 2017م.
- عيون البصائر من آثار الشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري الطبعة الأولى، 1997 دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان.
- البيت الباديسي مسيرة علم ودين وسياسية، عبد العزيز فيلاي، دار الهدى، الجزائر د/ط 2014م.
- البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1427 هـ 2006م.
- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لابن باديس، تحقيق محمد الحسن فضلاء دار البعث، الجزائر طبعة الأولى، 1406 هـ 1985م.
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير لابن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، طبعة الأولى 1403 هـ - 1983 م.
- جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913. 1940)، عبد الرشيد زروقة، دار الشهاب، بيروت، ط 1، 1420 هـ / 1999 م
- الإسلام والإصلاح والإنسان: أحمد سلام، دار ابن حزم د/ط، 2006م.
- عبد الحميد بن باديس: مسار وأفكار، للدكتور مولود عويمر إصدارات جسور للنشر والتوزيع 2012.

## الحداثة والفكر النسائي:

## قراءة جندرية

عبد السلام العثماني

باحث في علم الاجتماع

جامعة عبد الملك السعدي، تطوان-مراكش  
المغرب

## ملخص:

تكشف هذه الدراسة تأثير الحداثة في نشأة الفكر النسائي. وتفترض وجود ترابط بين مبادئ وقم الحداثة والفكر النسائي؛ وهو تفاعل تبرزه القراءة الجندرية النقدية لتاريخ الفكر الفلسفي. ومن ثم، تسعى الدراسة تسليط الضوء على أهم العوائق المعرفية التي ترتب عنها إبعاد المرأة عن مجال الفكر والعلم. وتعتمد الدراسة مقارنة جندرية تحليلية لعلاقة الحداثة بالفكر النسائي وللخلفيات التي ساهمت في بلورته. وتعرض السرديات الاستيمولوجية لأهم مراحل تبلوره: الحداثة وبروز الموقف النسائي، والنسائية ما بعد الحداثة ونقد الحداثة باعتبارها مشروعاً ذكورياً.

**كلمات مفتاحية:** الحداثة، الفكر النسائي، الجندر/النوع الاجتماعي، النسائية ما بعد الحداثة.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عثماني، عبد السلام. (2024، أكتوبر). الحداثة والفكر النسائي: قراءة جندرية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 945-965.

## Abstract:

This study explores the impact of modernity on the emergence of feminist thought. It assumes the existence of a correlation between the principles and values of modernity and feminist thought; an interaction that is highlighted by a critical gendered reading of the history of philosophical thought. The study then sheds light on the most important epistemological obstacles that resulted in the exclusion of women from the field of thought and science. The study adopts a gendered approach to analyze the relationship between modernity and feminist thought as well as the factors that contributed to the development of the latter. It also provides epistemological narratives of the most important stages of its development, including modernity and the emergence of the feminist perspective, postmodern feminism, and the critique of modernity as a masculine undertaking.

**Keywords :** Modernity, feminist thought, gender, postmodern feminism.

## مقدمة

ما جدوى دراسة صلة الحداثة بالفكر النسائي في تاريخ الفلسفة؛ رغم أن مساهمة النساء فيه لا تعدو أن تكون مجرد نتوءات؟ وما فائدة تحليل علاقة الفكر النسائي بالحداثة وما بعد الحداثة؟ وما أهمية أن ندرس ظاهرة الحداثة من منظور جندي؟

بعد النهضة الأوروبية وفكر الأنوار إلى غاية النصف الثاني من القرن العشرين هيمن على منظومة المعرفة والعلم بصفة عامة في سياق الحداثة نموذج نظري ينعت بـ "الفكر/الخطاب النسائي" وهو عبارة عن مجموعة من الكتابات التي تحاول دراسة مساهمة النساء في مختلف الأنشطة المرتبطة بالثقافة والحياة المادية والفكرية. وتتحدد غايته الأولى في إنصاف النساء اللواتي ساهمن في بناء الحضارة، كما يكشف أيضا عن أسباب التهميش والإقصاء، وتحليل دواعي عدم الاعتراف بجهود النساء. وحسب "تشارلوت بنش" فإن الفكر النسائي طريقة لرؤية العالم بصيغة حديثة، وقد تمت صياغته انطلاقا من دراسة وتحليل المسار الاجتماعي والسياسي لمجتمعات أوروبا الغربية، التي شيدت أحداثها السياسية على مدى قرون من خلال الإصلاح البروتستانتي إلى نهاية القرن 19 م، وفق منظور الاستقلال عن السلطة الذكورية، أي أن الفكر النسائي نشأ وترعرع وتقوى وفق مسار الحداثة وقيمها. وهو ما يؤكد أن قضية المرأة لم تتحول إلى إشكالية للتفكير الفلسفي والتأمل المعرق والبحث العلمي المدقق، إلا في العصر الحديث الذي شهد منظومة متداخلة ومعقدة من التحولات السوسيو-ثقافية والسياسية التي عرفتها المجتمعات الغربية<sup>1</sup>.

اعتبرت الكثير من المفكرات النسويات مثل روزليند ديلمار Rosalind Delmar وجوان ولاش سكوت Joan Walach Scott أن النسائية وليدة الحداثة ومبادئها، ذلك أن النسائية كحركة سياسية-اجتماعية-تبلورت إبان عصر النهضة وتطورت خلال عصر التنوير في القرنين الثامن والتاسع عشر، من أجل تمتيع المرأة بالحقوق السياسية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية، في أفق تحقيق المساواة والعدالة بين النوع الاجتماعي في المجالين العام والخاص<sup>2</sup>. وتشكلت معالمها الثقافية بدءا من منتصف القرن العشرين كحرجة نقدية تسعى إلى إعادة بناء

<sup>1</sup> - مصطفى محسن، "تحوفهم سيوسيوثقافي لإشكالية المرأة والجنس في السياق العربي الإسلامي: ملاحظات نقدية أولية"، مقال في: مؤلف، فوزي بوخرص، المرأة في خطاب العلوم الاجتماعية: من متغير الجنس إلى سؤال النوع، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016، ص 138.

<sup>2</sup> - سكوت جوان، "مشكلة الاختلاف في النسوية"، ترجمة هدى مقنص، مقال في: النسوية العربية: رؤية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012، ص 39.

النماذج الفكرية السائدة في الفلسفة والعلم، والعلوم الإنسانية، والاجتماعية بالتركيز على مقاربة النوع الاجتماعي.

استخدم مفهوم النوع الاجتماعي لوصف وتحليل ظاهرة الحداثة كظاهرة تؤكد تقلص وتراجع الفكر الذكوري في المنظومة المجتمعية بقدر ما يتغلغل مفهوم الحداثة في المجتمع. وهذا ما يقود إلى صوغ إشكالية تقوم على أسئلة رئيسية: كيف يمكن فهم الترابط بين مفهوم الفكر النسائي والحداثة؟ وكيف صيغ مفهوم النوع الاجتماعي لقراءة العلاقة بين الفكر النسائي والحداثة؟ وما هي المساءلات التي يخضع لها اليوم مفهوم الحداثة إثر بروز مفهوم ما بعد الحداثة من منظور جنسدي؟

هناك ثلاثة روافد نعتقد أنها مفسر للعلاقة بين الفكر النسائي والحداثة: الرافد التاريخي، نشأ خطاب جديد بناء على نقاشات نظرية أعادت قراءة وتأويل المسلمة الأساسية أن الفكر والمعرفة إنتاج ذكوري خالص، وتم ذلك وفق براديجم الحداثة، فبقدر ما تطورت المجتمعات في سياق ما نسميه الحداثة تضاعف نفوذ السلطة الذكورية/الفكر الأبوي في المنظومة المجتمعية. الرافد الحقوقي، يرتبط بالتغيرات العميقة والعارمة التي لحقت بالمنظومة القانونية كونيا والتي أدت إلى بروز خطاب حقوق الإنسان وبعدها حقوق المرأة الصادرة عن المنظمات العالمية على غرار اتفاقية "إعلان حقوق المرأة والمواطنة" الصادر عام 1791 والتي نظر لها تحت ما يسمى "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن" سنة 1789م، من منطلق أن الحداثة ولدت وعيًا بحقوق المرأة مما أدى إلى حركة تحرير نسوية على نطاق كوني. الرافد الابستيمولوجي، ارتبط بالنقد القوي الذي وجه للحداثة بكونها مشروعًا ذكوريًا، ذلك أن الحداثة لم تحقق المساواة التامة بين المرأة والرجل خاصة في مواقع السلطة والقرار، وحافظت على امتيازات الرجل. وهذا النقد الكبير ساهمت فيه النسائية ما بعد الحداثة حيث أبرزت نسبة الخطابات المتولدة عن الفكر النسائي الحديث الأوربي، وانتقدت كونيتها المزعومة.

### أولاً: الحداثة ونشأة الفكر النسائي الغربي

منذ القرن الخامس عشر بفرنسا، ارتفعت أصوات نسائية ضد الظلم العميق الذي تُشكل النساء ضحاياه، وقد أخذت بعض النساء المتعلّقات وسليلات الأرستقراطية القلم لأجل شجب هيمنة الرجل والتصدي لها. وقد اشتهرت كرسيتين دي بيزون<sup>1</sup> Cristine de pisan بدفاعها عن

<sup>1</sup>-Maité Albistur et Daniel Armogathe, *Histoire du féminisme français: du Moyen-âge à nos jours*, Paris, Ed. des femmes, 1977, P 53.

قضية النساء ضد كتابات القساوسة الكارهة للمرأة misogynes، فقد أدانت في كتابها "مدينة/دولة النساء" Cité des Dames عام 1405 التمييزات التي تستهدف النساء، وطالبت بحقهن في ممارسة جميع الوظائف التي يتولاها الرجال. وبعد قرنين نشرت ماري دي كوغناي<sup>1</sup> Marie de Gournay، كتابها المعنون بـ "المساواة بين الرجال والنساء" سنة 1622م، ونصت على ما أصبح من المطالب الأساسية للنساء الرائدات، حق اللوج إلى التعليم. فخلف هذا المطلب تبدو فكرة مفادها أن المرأة ليست أقل شأنًا من الرجل بسبب طبيعتها، بل إن التعليم/التربية هي التي تقف وراء الوضع الدوني الذي توجد فيه المرأة.

هذا إضافة إلى الفيلسوف الديكارتي النسائي بولان دي لبار Poulain de la Barre في كتابه "المساواة بين الجنسين" (1673)، فقد أكد على أن اللامساواة التي تعاني منها النساء ليس لها مبرر طبيعي، بل مبررات ثقافية. من هنا دعا إلى تعليم النساء، وفتح جميع التخصصات في وجههن، بما فيها التخصصات أو الشعب العلمية. وبما أنه كان من أوائل الذين دافعوا عن مبدأ المساواة بين النساء والرجال، هذا المبدأ الذي يشكل بؤرة الاهتمامات النسائية، فإن كتاباته قد شكلت قطيعة مع الأدبيات النسائية السابقة عنه. وهو من قال بأن "العقل لا جنس له"، مدافعا عن قدرة النساء على المشاركة في مجالات الأدب والعلم والسياسة والحكم<sup>2</sup>. وبهذا الطرح يكون دي لبار يشكل صياغة للعقل المضاد للأبوية الذي كشف الصورة المعكوسة للعقل الذكوري في مجال العلم والفلسفة والسياسة المبني على مواقف داعمة للامساواة بين الجنسين.

ألفنا أن نقرأ بداية الحركة النسائية باعتبارها حركة جماعية collectif تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، لكن أصلها الفعلي يعود في الواقع إلى نهاية القرن الثامن عشر، وبالضبط تعود جذورها إلى الثورة الفرنسية. ففي سنة 1791 نشرت أولمب دوغوج Olympe de Gouges كتابها "إعلان حقوق المرأة والمواطنة"<sup>3</sup>، مستلهمة عنوانه من "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" Déclaration des droits de l'homme et du citoyen سنة 1789 ودعت فيه إلى تحرير المرأة وبالأخص عن طريق المساواة بين الجنسين، فحسب مؤلفها، يتعين على المرأة أن تعتبر مواطنة كاملة المواطنة. تقول دوغوج "إن المرأة تولد حرة وتظل مساوية للرجل في الحقوق... ومبدأ كل سيادة يكمن جوهرها في الأمة التي ليست هي غير اجتماع المرأة والرجل

<sup>1</sup> -Andrée Michèle, *Le féminisme*, Paris, PUF, 2003. (Coll. Que sais-je?), P 42.

<sup>2</sup> - ناجي حكيمة، مدخل إلى الفكر النسائي الغربي المعاصر، في:

2023/11/12 تاريخ الاطلاع: URL: [http://www.maaber.org/issue\\_january11/spotlights3.htm](http://www.maaber.org/issue_january11/spotlights3.htm)

<sup>3</sup> -Michèle Riot Sarcey, *Histoire du féminisme*, Paris, La Découverte, 2002, P 12.

والمواطنات والمواطنين جميعاً، المتساوين أمام القانون، إذ ينبغي أيضاً أن تفتح أمامهم أبواب المناصب والوظائف العامة كافة على حد سواء، وحسب كفاءتهم ودونما تمييز غير فضائلهم ومواهبهم، فمن حق المرأة أن تصعد إلى المقصلة، لذا فمن حقها أيضاً أن تصعد إلى المنبر... أيتها النساء، استيقظن!"<sup>1</sup>.

أما في إنجلترا، فقد نشرت ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraft<sup>2</sup> عام 1792 في مؤلفها "دفاعاً عن حقوق المرأة" وحسبها يتعين على المرأة أن تستفيد من التعليم مثل الرجل وأن تتمتع بنفس الحرية التي يتمتع بها الرجل. ويعتبر هذا المؤلف محدداً في تطور الحركة النسائية القادمة، وقد شجع الخطاب الثوري -الذي يؤكد على المساواة بين الأفراد- النساء المشاركات في الثورة، قد كن يناضلن قصد الاعتراف بحقوقهن المدنية<sup>3</sup>. إذ كانت النساء محرومات من الحق في التعليم لأنه لم يكن من حقهن الولوج إلى المدارس والجامعات، ولم يكن من حق المرأة أن تشتغل دون موافقة زوجها، ولا أن تحصل على أجره دون موافقته. كما أنها لم تكن تتمتع بأي حق سياسي، وفي المادة 1124 من مدونة نابليون تم تحديد مكانها كالتالي: "الأشخاص المحرومون من الحقوق القانونية هم القاصرون، المتزوجات، المجرمون والمعتوهون".

في القرن التاسع عشر وبفضل توريثي 1830 و 1848 نشأت حركة نسائية مناضلة حقيقية مطالبة بالحقوق التعليمية والاقتصادية والسياسية، ومن جهة ثانية، منحت الثورة الصناعية للنساء بعض الاستقلال الاقتصادي عبر العمل المأجور، وساهمت في خلق مناخ ملائم للحركة النسائية. هذا إضافة إلى دور النزعة السانسيونية le Saint-Simonisme التي خلفها سان سيمون، حيث تخيل دينا يدافع ويحقق نمط حياة مؤسسة على تغيير جذري في العلاقات الاجتماعية، والعاطفية والجنسية بالخصوص وتدرج في صلبها المساواة الكاملة بين النساء والرجال. وتأسست Fourierisme من طرف شال فورييه Fourier Charles وهو اشتراكي يوتوبي كان حلمه هو تأسيس حالة مجتمعية مثالية يجتمع فيها النساء والرجال في حضن جماعات صغيرة وقد قال في كتابه "نظريات الحركات الأربع": "إن التقدم الاجتماعي والتغيرات المرحلية تتم حسب

<sup>1</sup>-Michéle Riot Sarcey. P 17.

<sup>2</sup>-Andrée Michéle, op. cit, P 49.

<sup>3</sup>- Ney Bennisadon, *Les droits des femmes: des origines à nos jours*, Paris, PUF, 2001. (Coll. Que sais-je?), P 92.



تقدم النساء نحو الحرية، وانحطاط النظام الاجتماعي راجع لنقصان حرية النساء... فتوسيع امتيازات النساء هو المبدأ العام لكل تقدم اجتماعي<sup>1</sup>.

تحت تأثير هذه التصورات عملت النساء على استنكار "استعبادهن" وإعلان انعتاقهن. وهناك اختلاف بين هذه الرموز الكبيرة، كما هو الحال عند الكاتبة المناضلة الاشتراكية Flora Tristan<sup>2</sup> التي انخرطت في قضية العاملات البروليتاريات اللاتي يشتغلن لأجل نظام اجتماعي برجوازي. وقد كانت الاشتراكية Sauline Roland التي تسير النادي الجمهوري للنساء (1848) وتشارك في الجريدة النسائية "المرأة الجديدة" nouvelle la Femme بباريس سنة 1832 حيث أسست مع صديقتها Jeanne Deroin العاملة في ملابس النساء جمعية المدرسين والمدرسات والأساتذة الإشتراكيين، والتي ركزت أهدافها على أهمية المساواة بين الجنسين في برنامج تعليمي يشمل ثمانية عشر سنة الأولى من عمر النساء اللواتي يبقين في عالم الشغل. فإن ما يطمحن إليه بناء على ما سبق، هو الولوج المجاني للتعليم، انطلاقاً من الحضانة وصولاً إلى الجامعة للجميع<sup>3</sup>، والغاية بناء مجتمع حديث يقوم على مبدأ المساواة التامة والفعلية بين الإنسانية.

غير أن معظم الاشتراكيين لم يكونوا يشاطرونها الرأي، ومن بينهم بيير جوزيف برودون<sup>4</sup> Pierre Joseph Proudhon الذي يجمع بين كراهية النساء والعداء للحركة النسائية، وهو أحد المعارضين لهذه الفكرة بشدة، فبالنسبة إليه يجب على النساء أن يمارسن سوى الأعمال المنزلية وتلبية الحاجات الجنسية للرجل، وقد كتب في مؤلفه "الشعب" le peuple عام 1849 "إن الحرية بالنسبة للنساء، تنحصر في حق في حياة الزوجية".

في الولايات المتحدة، اعتبرت الأختان Angelina و Sarah Grimké<sup>5</sup> رائدتين متميزتين للحركة النسائية، وهما ينتميان لكارولينا الجنوبية، فقد أثرت فيهما معاناة النساء الإماء السود. ونتيجة لذلك تركتا ولايتهما لأجل الالتحاق بجماعة كوكير Quaker بفيلاديفيا، ومنذ 1838

<sup>1</sup> - جان فريفل، الاشتراكية والمرأة، ترجمة جورج طرابيشي، ط 2، منشورات دار الآداب، 1973، ص 24.

<sup>2</sup> - Porfirio Mamani Macedo, *la paria et la femme étrangère dans son œuvre*, Paris, L'harmattan, 2003, P 9.

<sup>3</sup> - Stéphane Michaud, Flora Tristan, *Georges Sand, Pauline Roland, les femmes et l'invention d'une nouvelle morale 1830 – 1848*, Paris, Grane, 2002, P 63.

<sup>4</sup> - Patricia Latour, Monique Houssin, Madia Tovar, *Femmes et citoyennes: du droit de vote à l'exercice du pouvoir*, Paris, Ed. de l'atelier, 1995, P 39.

<sup>5</sup> - Françoise Basch, Madeleine Rebérioux, *Rebelles américaines au 19 siècle: mariage, amour libre et politique*,<sup>-5</sup>

Paris, Méridiens Klincksieck, 1990. P 27.

ترددتا على المجموعات النسائية المناهضة لعقوبة الإعدام بانجلترا الجديدة ونيويورك وقد ناضلتا لأجل تحرير المرأة قبل تحرير الإمام (العبيد). وقد اعتبر الكتاب الذي كتبه سارة كريكي Sarah Grimké ونشرته عام 1838 "رسائل حول المساواة بين الجنسين وشرط المرأة"، ويعتبر إلى اليوم بوصفه أول نص أمريكي هام حول حقوق المرأة.

وكانت مرغريت فلوري Margaret Fuller المناضلة النسائية المشهورة هي أول امرأة صحافية أدمجت في فريق الجريدة الأمريكية الكبيرة New-York Tribune. في أواسط سنوات 1840 نظمت مجموعات للنقاش مشكلة من نساء لمناقشة موضوعات متنوعة كثيرة مثل موضوع الفن والتربية وحقوق النساء. هذه الاجتماعات حضرتها نسايات شهيرات، وقد تضمنت بعض الأفكار التي ثمنها تلك النقاشات في كتابها "المرأة في القرن التاسع عشر".

وفي 1820، بعد التصويت على التعديل التاسع عشر لدستور الولايات المتحدة الأمريكية، حصلت الأمريكيات أخيرا على الحق في التصويت. لكن الاقتصاد، وليس السياسة هو الذي غير دور المرأة في المجتمع، وأعطى دفعة للحركة المساندة للمرأة. بينما في بريطانيا فقد حصلت البريطانيات على الاتفاقية الأولى سنة 1855، وكان مطلبها الأساسي هو الحق في الملكية. وكان النص الأول حول قضية التصويت يعود ل- هاريت تايلور Harriet Taylor التي أقنعت الرجل الذي صار زوجها الفيلسوف جون ستوارت ميل Johnn Stuart Mill بالاهتمام بقضية حقوق المرأة وبإطلاق حملة لأجل تمكينهن من حقهن في التصويت. هذا الأخير الذي انتخب في البرلمان عامي 1865 و1866، وضع ملتمسا يطالب فيه بالحق في التصويت بالنسبة للنساء وعرض تعديلا لمشروع قانون الإصلاح (إصلاح ميل) سنة 1866، كما اقترح فيه تغيير كلمة "رجل homme" بكلمة "شخص personne"، لكن مع الأسف، ثم رفض التعديل وأقصيت النساء أيضا من قانون الإصلاح الذي تلاه سنة 1867. هذا وساهم نشر كتاب "إخضاع النساء Assujettissement des femmes" عام 1869 لستوارت ميل في تقدم قضية المرأة، رغم أنه لم يتمكن من تغيير الرأي العام الذي ظل مناهضا لتحرر المرأة، وهنا ينبغي أن نعرف بأن الملكة فيكتوريا Victoria عارضت بشدة قضية حق النساء في التصويت لأنها اعتقدت بأنهن فاقدرات للأهلية القانونية.

في مقابل ذلك حصلت النساء على دعم Chartistes<sup>1</sup>، هذه الحركة السياسية العمالية التي تطورت بالمملكة المتحدة عقب الإصلاح الانتخابي لسنة 1832 والذي أسس نظاما انتخابيا تعدديا

<sup>1</sup> - chartistes الميثاقية، وهي أول حركة عمالية حاشدة في الطبقة العاملة في العالم. من أهم مطالبها كان هو الإصلاح السياسي، وأخذت اسمها من ميثاق الشعب، سنة 1838.

Censitaire على حساب الطبقة الكادحة. وتبعاً لذلك تم تبني الميثاق الشعبي سنة 1838 بمبادرة من جمعية العمال اللندنيين، وقد كان الاقتراع العام ضمن مطالبها.

وواصلت النساء القيام بحملة لتنظيم اجتماعات لتوقيع ملتمسات، وانضمت Milicent Garret Fawcett<sup>1</sup>، لقضية المطالبات بالحق في التصويت وذلك بانخراطهن في "مجتمع لندن الوطني" London National وفي عام 1867 قد أعلنت عن حق النساء في التصويت مثل الرجال تماماً وناضلت في حملات أخرى لأجل المطالبة بالولوج إلى الجامعات وإلى بعض المهن بالنسبة للنساء.

ومنذ تشكيل الاتحاد الأوروبي أصبحت مكانة المرأة في قلب القضايا الراهنة التي تناقش غالباً، فالمرأة تدرس وتشتغل وحاضرة في السياسة، ومن البديهي أن بعض الدول أكثر تقدماً من الأخرى كما هو الحال بالنسبة للدول الشمالية التي تطورت سياسياً لصالح المرأة. ويهدف اللوبي الأوروبي للنساء<sup>2</sup> الذي أسس في 1990 إلى التأثير في السياسة الأوروبية ويعمل على تحقيق المساواة بين المرأة والرجل في كل ميادين الحياة العامة والخاصة، ويتعلق الأمر بأكبر تحالف للمنظمات غير الحكومية للنساء في الاتحاد الأوروبي، فهو يضم عدة آلاف من المنظمات النسائية في أوروبا كلها، وتمتلك كل دولة مرصداً لمعالجة القضايا على المستوى الوطني.

### ثانياً: الفكر النسائي الغربي: مقارنة جندرية للحدثة

تطرح فرانسواز تايبو في مؤلفها الشهير "كتابة تاريخ النساء" جذور مفهوم النسائية بشكل عام، وذلك من أجل فهم كل التيارات الثقافية والسياسية<sup>3</sup>. وتتساءل: كيف تشكل مسألة اختلاف الجنسين في العلوم الاجتماعية؟ ففي هذا المؤلف تقدم "تايبو" بعض التوجهات لأجل فهم مسار الفكر النسائي الحدائي عن طريق السوسيولوجيا مع الاستعانة بالتاريخ والأنثروبولوجيا، كما تثير بعض التساؤلات المرتبطة بالنموذج الذكوري المهيمن ودور الفكر العلمي في فك شفرات هذا النموذج الذكوري عن طريق صياغة نظريات مزدوجة.

هكذا، يجب إعادة التفكير في النظريات العلمية وتاريخ العلم باعتباره نموذجاً ذكورياً، والذي يقدم أيضاً نموذجاً من نماذج الفروقات بين الجنسين، ومن ثم فإن أحد أكبر مشكلة العلم تتمثل

<sup>1</sup> -Martine Spensky, *Les femmes à la conquête du pouvoir politique: Royaume-Uni, Irlande, Inde*, Paris, l'harmattan, 2001, P 43.

<sup>2</sup> -Marie Ramot, *Lobby Européen des femmes la voie institutionnelle du féminin*, Paris, L'harmattan, 2006, P 16.

<sup>3</sup> -F. Thebaut, *Ecrire l'histoire des femmes et des genres*, Paris, Fontenay-Roses, 1998. P 29.

في كونه يسعى إلى توسيع الهوية بين المرأة والرجل (العلم ذكوري في جوهره)، لكن يمكن تجاوز الحدائة -كما جاء على لسان الواقعيين- من خلال انخراط النظريات النسائية في تخطي مفهوم التحديث كما صاغه الفكر الذكوري وتشبثهم بإدراج قيم المساواة داخل مجالات التحديث.

الحدائة إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر هي مشروع ذكوري، وبعد ذلك جاءت تيارات نسائية لمحاولة إعادة بناء حدائة جديدة تلعب فيها المرأة دورا مهما، من هنا سوف نعمل على إبراز أهم المراحل التي بصمت على تكوين النظريات النسائية وصياغة تصور جديد لمسار الفكر الحديث.

في هذا السياق، تأتي مقارنة النوع الاجتماعي، وهي عبارة عن مقولة للتحليل السوسيو-تاريخي ذات التعريفات المتعددة، بل تعريفها يتنوع حسب المراحل التاريخية وحسب المجتمعات التي توجد بها، فنظرية النوع الاجتماعي تتميز بالديناميكية، ولا تتوقف عن التفكير. فهي عبارة عن صيرورة مفتوحة، كما تقول ماري ناش Mary Nash النسائية والباحثة الإسبانية، لا تتوقف عن التنقيح والاعتناء حسب السياق السياسي والتقدم التاريخي للنظريات والدراسات النسائية. ويعتبر النوع مقولة للتحليل عمادها مفهوم السلطة غير المتكافئة في العلاقات بين النساء والرجال، أي على الثنائية: سلطة وهيمنة الرجل/دونية وتبعية المرأة.

لقد زعم البحث النسائي منذ تبلوره بشكل علمي في سبعينات القرن العشرين، والذي يقوم بتقويم عمليات الحذف والتشويه التي تخللت منظومة العلوم بشكل عام والعلوم الاجتماعية خاصة، إذ عملت على حجب مساهمة النساء في بناء وكتابة تاريخ الإنسانية، حيث قدمت هذه النسائية تفسيرات بديلة للظواهر الاجتماعية وأوضحت شوائب تاريخ العلم والحدائة المزيف بأقلام ذكورية.

شهدت النظريات النسائية عبر العقود الأخيرة، تحولا في مفهوم النوع، كان في الأساس كأداة لغوية تدل على نظام من التقسيم الفرعي داخل مجموعة نحوية<sup>1</sup>، فقد تبنته الباحثات بهدف التمييز ثقافيا لصفات بعينها تقترن بالذكورة والأنوثة من زاوية الملامح البيولوجية المرتبطة بالجنس (الكروموزومات والهرمونات الذكورية والأنثوية، فضلا عن الأعضاء الجنسية والإنجابية الداخلية والخارجية). ففي الكتابات النسائية المبكرة، كان مفهوم النوع الاجتماعي يستخدم لإدانة التحديد البيولوجي من خلال توضيح مدى الاختلافات في البنى الثقافية للأنوثة والذكورة، وفي

<sup>1</sup>-Corbett, J. Greville, *Gender*, Cambridge: Cambridge University Press, 1991. P 20.

الكتابات التي تلت ذلك، كان مفهوم النوع يستخدم لتحليل التنظيم الاجتماعي للعلاقات بين النساء والرجال<sup>1</sup>، ودراسة تشيئ الاختلافات البشرية<sup>2</sup>. وتقديم تصور ل- سيميوطيقا الجسد والجنس والحياة الجنسية<sup>3</sup>، وتقسيم العمل في المجتمع، وتوضيح التقنيات الجزئية للسلطة<sup>4</sup>.

ونظرا لتطور وانتشار البحث حول مفهوم الفكر النسائي والجندر أقدمت العديد من الباحثات على تطوير هذا المفهوم باعتباره أداة تحليلية، ففي مقالها "النوع الاجتماعي: أداة مفيدة للتحليل التاريخي" قدمت جوان سكوت تعريفا للنوع الاجتماعي كمفهوم يضم جزأين متداخلي الارتباط، وإن كانا متميزين تحليليا: "يعد النوع الاجتماعي عنصرا تكوينيا للعلاقات الاجتماعية حيث يركز على الاختلافات المدركة بين الجنسين، كما يعد طريقة أولية للإشارة إلى علاقات القوى"<sup>5</sup>. وعند تفسير النوع الاجتماعي كعنصر تكويني للعلاقات الاجتماعية، تؤكد سكوت أن النوع الاجتماعي يعمل من خلال مجالات متعددة، بما فيها الرموز المتاحة ثقافيا وتستحضر تمثيلات عديدة، والمفاهيم المعيارية التي تطرح تفسيرات لمعاني الرموز والمؤسسات الاجتماعية والهوية الذاتية. ووفقا لما تطرحه سكوت يعتبر النوع الاجتماعي أداة مفيدة للتحليل لأنه يكفل طريقة لتشفير المعنى وفهم الروابط المعقدة بين مختلف أشكال الفعل البشري المتبادل<sup>6</sup>.

لقد وضعت ساندرا هاردينج في مقال لها بعنوان "سؤال العلم في النسوية" تفسيراً للنوع الاجتماعي باعتباره أداة تحليلية بقولها: "يعد الاختلاف بين الجنسين، في كل ثقافة عمليا، أسلوبا محوريا يحدد البشر من خلال أنفسهم كأشخاص وينظمون علاقاتهم الاجتماعية، ويعملون على ترميز الأحداث والعمليات الطبيعية والاجتماعية<sup>7</sup>. وبالتالي، كما تجادل هاردينج، يجب أن تعمل النسائيات على التنظير للنوع الاجتماعي، وإدراكه بوصفه أداة تحليلية يفكر من خلالها البشر في

<sup>1</sup> - Barrett, Michèle. *Womens' Oppression Today*. London: NLB, 1980. P 11.

<sup>2</sup> -Hawkesworth, Mary, *The Reification of Difference*, In *Beyond Oppression*; New York: Continuum. 1990, P 212.

<sup>3</sup> - Doane, Mary A. *The Desire to Desire: The Woman's Film of the 1940s*. Blomington, Ind: Indiana University, 1987. P 17.

<sup>4</sup> -Bartky, Sandra Lee, *The Feminine Body*, In *Feminism and Foucault: Reflections on Resistance*, ed. Irene Diamond and Lee Quinby, Boston: Northeastern University, Press, 1988. P 214.

<sup>5</sup> - Scott, Joan W. "Gender: A Useful Category of Historical Analysis." *American Historical Review*. (1986): 1053-1075. P 31.

<sup>6</sup> - ماري هوكسورث، العلوم السياسية القائمة على النوع الاجتماعي، ترجمة د.شهرت العالم سلسلة ترجمات نسوية العدد 1، مؤسسة المرأة والذاكرة، 2010، ص 74-78.

<sup>7</sup> - Harding, Sandra G. *The Science Question in Feminism*. Ithaca: Cornell University Press, 1986. P 22.

نشاطهم الاجتماعي وينظمونه، بدلا من اعتباره نتيجة طبيعية للاختلاف بين الجنسين، أو حتى متغير اجتماعي ينتسب إلى الأفراد بطرق مختلفة من ثقافة إلى أخرى. وبإدراكها أن النوع الاجتماعي لا يظهر إلا في أشكال خاصة ثقافيا، تؤكد "هاردينج"، مثلها مثل "سكوت" أن النوع الاجتماعي كأداة تحليلية يلقي الضوء على عمليات ثقافية بالغة الأهمية وتحتاج إلى المزيد من البحث.

منح التحليل لمفهوم النوع الاجتماعي، كما تمت الإشارة إليه سابقا بطريقة تحليلية وكسيرورة اختلاف بين الجنسين، إمكانية لبناء المنهجيات من أجل الفعل لتلك المجموعات النسائية التي ناضلت من أجل تحسين شرط أو وضعية العيش، ومن ثم فإن الحفر في مصطلح النوع الاجتماعي في ميدان البحث السوسيولوجي أعطى ظهور اختلاف في المناهج بعضها تميز بين ثلاثة أبعاد تحليلية للعلاقات الاجتماعية بين الجنسين: الرمزية، البنائية، الشخصية. هذه الفكرة مأخوذة من نظرية جوان سكوت والاش، فهذه الأبعاد تشير إلى جزء مهم للحقل الاجتماعي الذي تتم فيه الملاحظة: البعد الرمزي يشير إلى الصور، الرموز، الأحكام المتعلقة بالمؤنث والمذكر. أما البعد البنائي، يمتحن الطريقة التي من خلالها يتم تدوين التمثيلات الرمزية في تطبيقات ملموسة (الزواج، تقسيم العمل...) هذا البعد يبين الاختلاف بين المرأة والرجل في إطار البنيات الاجتماعية، ولكن يدرج أيضا الاختلافات بين النساء والرجال وعلاقتهم مع الطبقة الإثنية على سبيل المثال. وأخيرا البعد الشخصي، الذي يكرس الطريقة التي من خلالها الأشخاص يميزون عن طريق هويات ثقافية جنسانية أو اجتماعية. هذه الأبعاد الثلاثة يمكن أن تستعمل كنقطة انطلاق في أبحاث نسائية ذات قيمة علمية تستلهم من قريب أو من بعيد نظرية النوع الاجتماعي<sup>1</sup> التي تؤدي جميعها إلى مناقشة ثانوية المرأة.

في هذا المنحى كان ظهور النسائية كموضوع بحث تاريخي، مع النمط المنفرد للمرأة مثل كرسيتين دو بزان الذي يهتم بدراسة النساء اللواتي سبقنها في التيار النسائي، ومن هنا يتجلى لنا هاجس دراسة تاريخ الحركات النسائية خاصة الفرنسية وإنتاج مؤلفات حول هذا التاريخ، حيث عرف القرن التاسع عشر زخما في إنتاج نظريات حول النوع الاجتماعي ومن أهم المؤلفات التي توثق للحركات النسائية الفرنسية كتاب "الجنس الآخر" لـ سيمون دي بوفوار والذي من خلاله نستنتج مدى تشبث النساء بكتابة تاريخ خاص بالمرأة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup>-Olesen, Virginia. "Feminisms and Models of Qualitative Research." Landscape of Qualitative Research: Theories and Issues / Norman K. Denzin, Yvonna S. Lincoln Editors. London : Sage Publication, 1998. P 158-174.

<sup>2</sup>- F. Thebaut, Ecire l'histoire, op. cit, P 35.

إن هاجس كتابة تاريخ نسائي بمعزل عن نزعة الإحساس بالدونية أو الثانوية التي يتخبط فيها النساء، قد بدأ في الغرب بشكل واضح المعالم في علم التاريخ، على اعتبار أن تاريخ النساء أصبح فرعاً معرفياً من علم التاريخ، وقد عرف نشأته في بداية السبعينيات كحقل علمي معرفي مرتبط بالجندرة، حيث عقد أول درس في تاريخ النساء في جامعة باريس سنة 1973 على يد الأستاذ ميشيل ييرو وكان بعنوان "هل للنساء تاريخ؟" لكن عندما نبحت نجد أن هذا المجال يعود إلى كتابات ومؤلفات قديمة مثل مؤلف "كتاب دولة النساء" لكرستين دوبيزون، وكتاب "إعلان حقوق المرأة" لأولومب دي غوج. كلها كتب أساسية للتيار النسائي الفرنسي التي تؤكد كما تشهد معظم مؤلفات وأطروحات الدكتوراه عن بداية وتطور التيار النسائي خلال بداية القرن العشرين، والرابط بين كل هذه المؤلفات هو الحث على إعطاء المرأة المكانة التي تستحق داخل المجتمع، واعتبارها موضوعاً معرفياً جديراً بالبحث والدراسة، وبالتالي ينبغي إعادة قراءة التاريخ الذي سرقت منه مساهمة المرأة.

في كتابها "كتابة تاريخ النساء"، فصلت تايبو المسار النسائي وذلك قصد تقييم النساء في التاريخ من أجل إعطاء مكانة مرموقة للمرأة في العصر الحديث، بمعنى يجب العودة إلى التاريخ لكن بقراءة نسائية تكشف عن دور المرأة في صناعته من أجل بعث روح جديدة في النساء، وبالتالي إعطاء قيمة للمرأة وتخويلها المكانة التي تستحق.

في رواية «A room of one's own» «غرفة تخص الفرد» للروائية فرجينيا وولف Virginia Woolf التي كتبها سنة 1929 وترجمت للفرنسية عام 1951 أي بعد وفاتها، يتجلى لنا موقف الروائية حول مكانة المرأة في المجتمع والتي وصفها بالمهمشة وقد استغرقت للجمود الأكاديمي حول موضوع المرأة/النساء وغياب أبحاث جامعية حول تاريخ "النصف الآخر للإنسانية" l'autre moitié de l'humanité، تقول الروائية: "لا نعرف شيئاً محكماً وحقيقياً حول المرأة كما أن التاريخ تجاهلها أو تحدث عنها بصفة جزئية وخاطئة"<sup>1</sup>.

إلا أنه هناك أسباب عديدة، جعلت موضوع المرأة بشكل خاص والنوع الاجتماعي بشكل عام يدرس داخل الجامعات، أهمها مجيء النساء إلى الجامعات كباحثات، وجعل من النساء وتاريخهن مجالاً للبحث والدراسة. إن الاهتمام بموضوع المرأة من طرف التيار النسائي، هذا التيار يعد قوة اجتماعية لها مكانتها داخل المجتمع الذي يسمى "تيار التاريخ الجديد".

<sup>1</sup> - V.Woolf, *Une chambre à soi*, Paris, Ed.10/18, 1929, P 68.

## ثالثاً: نسائية ما بعد حداثة ونقد الحداثة

برز التيار النسائي ما بعد الحداثة منذ السبعينات من القرن العشرين، ويرتكز مبدؤها الأساس على فكرة التحول الاجتماعي وكذلك التحول الثقافي والفكري من مرحلة الحداثة إلى مرحلة ما بعد الحداثة<sup>1</sup>. وهي نسائية مشبعة بـ "فكر أو فلسفة الاختلاف"، ولاسيما بعض الرواد مثل: هايدجر، ودريدا وفوكو، وخاصة جيل دولوز وفليكس غتاري اللذين يناقضان فكرة وجود حقيقة واحدة وثابتة (غير متغيرة).

تعد الحقيقة حسب دولوز وغتاري متعددة ومتغيرة، فالحداثة هي "لازمة" لمعظم الاتجاهات السياسية والاجتماعية منذ عصور، ذلك أن الحداثة ليست هي معيار كل تقدم، ولكن تبقى بدورها متغيرة حسب الزمان والمكان. إن النسائية ما بعد الحداثة تهتم أساساً بالإنتاج الرمزي لأولئك المهمشين وكذا بالأصوات التي تبلور بعض معارفها أو في بناء علاقات مع التقدم، كما أن إعادة تشكيل وتسمية المفاهيم يعد من سمات التيار ما بعد الحداثي، وفي هذا المسار انخرطت النسائية ومن المهم الإشارة إلى أن التيار النسائي الماركسي وما بعد حداثي يعبران نفس الاهتمام إلى جعل فكرة الاختلاف كأساس لتكوين هوية الجنس<sup>2</sup>. كما يظن البعض أن النسائية مقترنة بإشكالية ما بعد حداثي، أي أن التيارين يهلان من مصدر واحد، ألا وهو مساءلة الأصوات المهمشة، فالنسائية حاربت مظاهر الهيمنة الذكورية وانخرطت في تجاوز فكرة الحقيقة الواحدة والكونية<sup>3</sup>. فإعادة تشكيل المفاهيم كانت من طرف الرجل، لكن مع التيار ما بعد الحداثي تم هدم هذه الحقيقة العامة التي بناها الرجل، ومن تم القول بمفاهيم جديدة وحقيقة جديدة وهما من إبداع المرأة والرجل معا.

لقد عمل التيار ما بعد الحداثي من داخل التيار النسائي على إعادة مساءلة المفاهيم والنظريات انطلاقاً من التجارب النسائية؛ ومن أهمها تجربة المرأة البيضاء المتعلمة والمنحدرة من الطبقات الوسطى<sup>4</sup>، ومن جهة أخرى انتقاد الكونية الذكورية كروية أو فكرة ثابتة بالرجوع إلى

<sup>1</sup> - رعد عبد الجليل، مصطفى الخليل وحسان الدين، علي مجيد. "في النظرية السياسية النسوية: البنى الفكرية والاتجاهات المعاصرة"، عالم المعرفة، العدد 493، أبريل 2022، ص 202.

<sup>2</sup> - Marchand, Marianne H, and Jane L. Parpart. *Feminism Postmodernism Development*. London: Routledge, 1995. P 6.

<sup>3</sup> - J. Butler, J.W. Scott, *feminists theoriz the political*, New York, London, Routledge, Accessed 16/4/2024: URL: <https://books.google.co.ma/books?id=c0lQAQAAIAAJ&q> ;

<sup>4</sup> - G. Chowdhry, 1995, op. cit. P 26 -27.



تجارب النساء من أجل بناء معرفة تخلخل فكرة مركزية الذكر، وبهذا فالفكر النسائي يزعزع كل خطاب في الحداثة والذي يوجه إلى ما يسمى بالفكر الكوني.

تعتبر جوليا كريستيفا Golia Kersteva أبرز أعلام هذه النسائية، حيث تناقش في مقالها "زمن النساء" التي تعتبر اليوم من البذور الأولى، فكيف يمكن تقسيم الحركة النسائية عبر مراحل تاريخية متبينة لغة الحقوق والمساواة القائمة على الاقتناء الفلسفي بأن مفهوم "الذات" يمكن تعريفه على أنه قوة عاقلة مستقلة<sup>1</sup>؟. إن النسائية ما بعد الحداثة شكلت بروز فكر نسائي في صورته الكاملة والشاملة والذي يتجلى تحت مسمى النقد النسائي وحاز على اعتراف عالٍ، مما جعل بعض الأقلام الذكورية تشارك في هذا الحدث بتصدره الواجهة، فقد كان من الممكن في هذه المرحلة أن تفكر مع النسائية أو أن تفكر ضد النسائية لكن لا يمكن أن تفكر ضدها.

هكذا، يمكن تحديد أهم الاتجاهات الفكرية التي ساهمت في بناء فكر نسائي حداثي-نقدي. حيث نجد جوليا كريستيفا تميز بين ثلاث أجيال في الحركات النسائية: الجيل الأول إصلاحي النزعة، تحكمت في مطالبة المساواة واصطبغ بنزعة إنسانية تروم تمكين النساء من المشاركة الكاملة في الفضاء العمومي، وقد كانت "سيمون دو بوفوار" أيقونة هذا الجيل والمعبرة الأبلغ عنه، أما الجيل الثاني كان ذا توجه ثقافي انكب أساسا على الانشغالات الأنثوية لترسيخ التعبير عن الخصوصية الجنسية والرمزية الأنثوية المنفلتة من شبك مقولات الذكورة، وهو الجيل الذي مثلته المدافعات عن الكتابة الأنثوية وعن المرأة، وتعتبر بيتي فريدان أهم ممثلات هذا الجيل. في حين الجيل الثالث، تمثله كريستيفا نفسها في إطار ما تسميه بـ "النسائية الإسمية"، وهو اتجاه يرفض رفضا جذريا المقاربة الجوهرية وينفي أن يكون هناك كائن هو "المرأة"، ويدافع عن الهويات الجماعية (امرأة / رجل)<sup>2</sup>.

وتعد ليندا هتشيون أيضا من أهم المنظرات في حقل ما بعد الحداثة والنسائية والعلاقة المتبادلة بينهما. غير أن ليندا هتشيون تحرص بداية على التمييز ما بين ما بعد الحداثة Postmodernité وما بعد الحداثة Post-Modernisme، فتحدد الأولى بوصفها "فترة أو حالة اجتماعية معينة"<sup>3</sup> وتحديد الفترة أو الحالة التي نعيشها الآن. أما الثانية فإنها ترتبط بأشكال التعبير المختلفة الأنواع بما فيها الهندسة والمعمار، والأدب، والتصوير الفوتوغرافي، السينما،

1- حفناوي، مرجع سابق، ص 117-118.

2- Nancy Fraser. "Introduction." *Hypatia*. 3.3 (1988): 1-10. PP 1-2.

3- Hutcheon, Linda. *The Politics of Postmodernism*. London: Routledge, 1989. P 19.

الرسم، الموسيقى..."<sup>1</sup>. لكن رغم هذا التمايز فإن هتشيون لا تنكر أن ما بعد الحداثة وما بعد الحداثية "مفهومان متداخلان بطريقة تجعل فصلهما أمر غير ممكن"<sup>2</sup>.

تزعم هتشيون أن ما بعد الحداثة حركة تغير، وبما أنها كذلك فإن أهم تغير تم على مستوى النوع الاجتماعي، حيث كان من بين نتائجها ازدهار ما بعد الحداثة وهي نسائية نقدية، وهنا تشير هتشيون إلى دور الحركة النسائية في بداية السبعينات من القرن العشرين، على الرغم من أنها وجدت قبل هذا التاريخ إلا أن التحول الذي طرأ عليها في الستينات والسبعينات من القرن الماضي كان حاسماً، وكذا حركة الحقوق المدنية في أمريكا الشمالية. هكذا أصبحت مقولة النوع الاجتماعي والحقوق المدنية مطروحة على طاولة النقاش. وترى هتشيون أن النسائيات وهي تعتمد الجمع هنا كانت مهمة في التمهيد مبكراً ضمن مواقف سياسية متباينة تحت مظلة مصطلح الجندر أو النوع الاجتماعي ابتداء من الليبرالية الإنسانية وحتى المادية الثقافية<sup>3</sup>.

تنطلق هتشيون من أطروحة "ليوطار" حول ما بعد الحداثة التي يعرفها بوصفها التشكيك في السرديات الكبرى، حيث وضع الأسس لحوارات ومناقشات حول النظم السردية التي ينتظم حولها المجتمع البشري ويمنح خبرته صفات المعنى والوحدة والكونية. وفي هذا السياق ترى هتشيون أن موضوع النقد النسائي ووظيفة السرديات الكبرى في خطاباتها الاستيمولوجية تستحق الاهتمام والمتابعة، وتتابع قائلة "إن أشكالاً مختلفة من النظرية النسائية والنقد قد جاء إليها من زاوية خاصة: السرديات الكبرى التي كان قلقها الأساسي هو النظام البطريكي، وخصوصاً في نقطة تقاطعه مع السرديات الرئيسية الأخرى مثل الرأسمالية والإنسانية الليبرالية. ففي شكلها النقدي، تداخلت النظريات النسائية مع اهتمامات الماركسية وما بعد البنيوية ومع ما يسمى ما بعد الحداثة"<sup>4</sup>.

من جانب آخر توضح كارين أوفين أن التيار النسائي هو في حد ذاته فرداني، بمعنى يتطلع إلى الاستقلالية الشخصية للنساء، وهي تطلعات متوجهة إلى تمتع النساء بجميع حقوقهن

1 - Ibid. P 19.

2 - Ibid, P 25.

3- أماني أبو رحمة، في العلاقة بين النسوية وما بعد الحداثة، الفلسفة والنسوية، تأليف مجموعة من الأكاديميين العرب، إشراف وتحرير علي عبود المحمداوي، ط 1، 2013، ص 479.

4- أماني أبو رحمة، في العلاقة بين النسوية وما بعد الحداثة، الفلسفة والنسوية، ص 480.

وبعلاقتهم في مجالاتهن الخاصة كالعائلة والأبناء والدولة<sup>1</sup>، وقد نتج عن هذا انتقال النساء من المطالبة بحقوقهن العامة، أي التي لها علاقة مباشرة بمجالاتهن الحياتية إلى المطالبة بحقوق خاصة، خصوصاً في فترة ما بين 1970 و 1980 كالحرية في الاختيار، والتحرر بعلاقتهم مع الإنتاج والجنسانية، والمطالبة بالمساواة في: العمل، الأجر، تقسيم العمل ومحاربة العنف الذكوري، وبالفعل فالتيار النسائي أدرج في نضالاته -خاصة في الحقبة الثانية- إشكالية جد إستيمولوجية ونظرية، وهكذا فالنسائية تتبنى بعدين أساسيين: الأول يرتبط بضرورة بحث وقراءة سياسية للعلاقات التي تجمع النساء بالرجال كما يلخص ذلك جيداً كل من ترومبلي وأولفي قائلين "النسائية هي في حد ذاته مشروع سوسيو- سياسي لإعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية، وأيضا مشروع علمي لتطوير المعارف"<sup>2</sup>، وفي نفس السياق نجد جيرارد U.GERHARD يقول: "النسائية تعني التيار الاجتماعي للنساء، وفي الوقت ذاته تعني نظرية أو رؤية اجتماعية ذات توجه نقدي حول الحداثة"، والثاني اعتمد على المنهج العلمي من أجل القضاء على الأبوية، حيث يبقى للنساء منهج علمي ذو أحقية من أجل تجاوز فكرة أن الرجل هو المهيمن وبالتالي تكسير السيطرة الأبوية كما يرى بيرمانس وبولييت: "من بين مميزات المجتمع الأبوي هو منع المرأة من التعبير عن رأيها، وكذا حجب الحرية في التعبير عن وجودها الخاص أو التفكير في مكانة الرجل داخل المجتمع، ثم ينبغي على النسائية إنشاء منهج علمي انطلاقاً من الوضعية الوجودية للنساء"<sup>3</sup>.

## خاتمة

يقدم هذا المقال رؤية تحليلية حول الحداثة والفكر النسائي، مبيناً أن الاهتمام الفكري بالمسألة النسائية اقترن ببروز المجتمع الحديث، مجتمع المأسسة والتنظيم والعقلنة... وما نجم عن ذلك من تطور كمي ونوعي في المعارف والعلوم. بحيث إن أي مقارنة معتمدة حول "الحداثة والفكر النسائي"، ينبغي أن تنخرط في تفكيك حفري للبنى الثقافية والعلاقات الاجتماعية للنوع

<sup>1</sup>-Offen, Karen. "Defining Feminism: a Comparative Historical Approach." Beyond Equality and Difference: Citizenship, Feminist Politics and Female Subjectivity / Edited by Gisela Bock and Susan James. (1992). Accessed 13/02/2019: <https://books.google.co.ma/books?id=z4iKual7184C&pg>: P 117.

<sup>2</sup> - Tremblay (Manon) et Ollivier (Michèle), *Questionnements féministes et méthodologie de la recherche*, Paris, L'Harmattan, 2000. (Collection de recherche). P 8.

<sup>3</sup>-H. Peemons-Poullet, «*le féminisme comme dialogue entre le Nord et le Sud*», intervention à L'Université des Femmes «*Féminismes et développement*», septembre, annexe 2 «*Construction scientifique : plutôt le féminisme que le genre*», 2000, P 1.

وكل الدلالات التي تنطوي عليها، بغاية الكشف عن خلفيات الخطاب والواقع السوسيو-ثقافي والرهان السياسي التي حددت براديجم العلاقة بين المرأة والرجل تاريخياً، ثم تفكيك أسس الخطاب الفلسفي والعلمي، لا سيما في حقل الفلسفة والعلوم الاجتماعية من أجل فهم طريقة اشتغال المركزية الذكورية تاريخياً، ثم السعي إلى تقويض تلك المركزية من خلال إنتاج بني اجتماعية وثقافية قائمة على فكرة العدالة والمساواة بين النوع الاجتماعي.

كما أكد المقال على ضرورة فهم ارتباط الفكر النسائي بالحدثة كعلاقة تأسيسية، فضلاً إلى تعقب عملية التطور الفكري التي واكبت إشكالية الفكر النسائي، منذ تأسيسه في الغرب عموماً مع نشوء ظاهرة الحدثة، ومن ثم التوقف عند أهم السرديات الفكرية التي قدمها علماء من مختلف التخصصات (علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، فلسفة...)، ومقارنة ذلك مع تبلور نسائية ما بعد الحدثة، التي أخذت مقارنة النوع الاجتماعي كأداة لنقد الحدثة الغربية الذكورية وتجاوز نظرية الهيمنة الذكورية. كما عملت على رفض افتراضات الحدثة في أن يكون للمعرفة قاعدة أساسية ثابتة تعطي للمعارف مدى كونها.

أخيراً، سعت النسائية نحو وضع حد لمعاناة المرأة، من خلال القطع مع التاريخ الذكوري الذي أقصى المرأة من كل ميادين الحياة وخاصة ميدان الإنتاج الثقافي، وأبقى على مركزية الرجل مقابل ثانوية المرأة، أما من جانب آخر طالبت ببناء مجتمع حديث علماني يكون فيه العلم موضوعياً، بمعنى أن تساهم فيه المرأة إلى جانب الرجل حتى يتسنى لنا إنتاج حدثة إنسانية جندرية مقارنة للنوع ومحقة المساواة بين الرجل والمرأة.

## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- أماني أبو رحمة، في العلاقة بين النسوية وما بعد الحداثة، الفلسفة والنسوية، تأليف مجموعة من الأكاديميين العرب، إشراف وتحرير علي عبود المحمداوي، ط 1، 2013.
- رعد عبد الجليل، مصطفى الخليل وحسان الدين، علي مجيد. "في النظرية السياسية النسوية: البنى الفكرية والاتجاهات المعاصرة"، عالم المعرفة، العدد 493، أبريل 2022.
- ماري هوكسورث، العلوم السياسية القائمة على النوع الاجتماعي، ترجمة د. شهرت العالم سلسلة ترجمات نسوية العدد 1، مؤسسة المرأة والذاكرة، 2010.
- جان فريفييل، الاشتراكية والمرأة، ترجمة جورج طرابيشي، ط 2، منشورات دار الآداب، 1973.
- ناجي حكيمة، مدخل إلى الفكر النسائي الغربي المعاصر، في: [URL:http://www.maaber.org/issue\\_january11/spotlights3.htm](http://www.maaber.org/issue_january11/spotlights3.htm)
- سكوت جوان، "مشكلة الاختلاف في النسوية"، ترجمة هدى مقنص، مقال في: النسوية العربية: رؤية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.
- مصطفى محسن، "نحو فهم سيوسيوثقافي لإشكالية المرأة والجنس في السياق العربي الإسلامي: ملاحظات نقدية أولية"، مقال في: مؤلف، فوزي بوخريص، المرأة في خطاب العلوم الاجتماعية: من متغير الجنس إلى سؤال النوع، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016.

### المراجع الأجنبية:

- Barrett, Michèle. Womens' Oppression Today. London: NLB, 1980.
- Doane, Mary A. The Desire to Desire: The Woman's Film of the 1940s. Blomington, Ind: Indiana University, 1987.
- Hutcheon, Linda. The Politics of Postmodernism. London: Routledge, 1989.
- Nancy Fraser. "Introduction." Hypatia. 3.3 (1988).

- Scott, Joan W. "Gender: A Useful Category of Historical Analysis." *American Historical Review*. (1986): 1053-1075.
- Tremblay (Manon) et Ollivier (Michèle), *Questionnements féministes et méthodologie de la recherche*, Paris, L'Harmattan, 2000. (Collection de recherche).
- Harding, Sandra G. *The Science Question in Feminism*. Ithaca: Cornell University Press, 1986.
- Andrée Michèle, *Le féminisme*, Paris, PUF, 2003. (Coll. Que sais-je?).
- Bartky, Sandra Lee, *The Feminine Body*, In *Feminism and Foucault: Reflections on Resistance*, ed. Irene Diamond and Lee Quinby, Boston: Northeastern University, Press, 1988. P 214.
- Corbett, J. Greville, *Gender*, Cambridge: Cambridge University Press, 1991.
- F. Thebaut, *Ecrire l'histoire des femmes et des genres*, Paris, Fontenay-Roses, 1998..
- Françoise Basch, Madeleine Reberioux, *Rebelles américaines au 19 siècle: mariage, amour libre et politique*, Paris, Méridiens Klincksieck, 1990.
- H. Peemons-Poullet, «le féminisme comme dialogue entre le Nord et le Sud», intervention à L'Université des Femmes «Féminismes et développement», septembre, annexe 2 «Construction scientifique: plutôt le féminisme que le genre», 2000.
- Hawkesworth, Mary, *The Reification of Difference*, In *Beyond Oppression*; New York: Continuum. 1990.
- J. Butler, J.W. Scott, *feminists theoriz the political*, New York, London, Routledge, Accessed:URL:<https://books.google.co.ma/books?id=c0lQAQAIAAJ&q> ;
- Maité Albistur et Daniel Armogathe, *Histoire du féminisme français: du Moyen-âge à nos jours*, Paris, Ed. des femmes, 1977.
- Marchand, Marianne H, and Jane L. Parpart. *Feminism Postmodernism Development*. London: Routledge, 1995.

- Marie Ramot, Lobby Européen des femmes la voie institutionnelle du féminin, Paris, L'harmattan, 2006.
- Martine Spensky, Les femmes à la conquête du pouvoir politique: Royaume-Uni, Irlande, Inde, Paris, l'harmattan, 2001.
- Michéle Riot Sarcey, Histoire du féminisme, Paris, La Découverte, 2002.
- Ney Bennsadon, Les droits des femmes : des origines à nos jours, Paris, PUF, 2001. (Coll. Que sais-je?).
- Offen, Karen. "Defining Feminism: a Comparative Historical Approach." Beyond Equality and Difference: Citizenship, Feminist Politics and Female Subjectivity / Edited by Gisela Bock and Susan James. (1992). Accessed 13/02/2019: <https://books.google.co.ma/books?id=z4iKuaL7184C&pg> :
- Olesen, Virginia. "Feminisms and Models of Qualitative Research." Landscape of Qualitative Research: Theories and Issues / Norman K. Denzin, Yvonna S. Lincoln Editors. London : Sage Publication, 1998.
- Patricia Latour, Monique Houssin, Madia Tovar, Femmes et citoyennes : du droit de vote à l'exercice du pouvoir, Paris, Ed. de l'atelier, 1995.
- Porfirio Mamani Macedo, la paria et la femme étrangère dans son œuvre, Paris, L'harmattan, 2003.
- Stéphane Michaud, FLora Tristan, Georges Sand, Pauline Roland, les femmes et l'invention d'une nouvelle morale 1830 – 1848, Paris, Grane, 2002.

## الجذور التاريخية والفكرية للمتمثلات الغربية عن الإسلام

د. سعيد بومزوغ

أستاذ محاضر

المعهد الجامعي للدراسات الإفريقية والأفرومتوسطية  
والإيبيروأمريكية  
جامعة محمد الخامس - المغرب



### ملخص:

إن الباحث في تاريخ العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي، منذ الاحتكاك الأول بينهما إلى المرحلة المعاصرة، يلحظ التأثير الكبير الذي كان لهذه العلاقات التاريخية المتوترة في صورة الإسلام في المتخيل الغربي. حيث سعى الفكر الغربي عموماً إلى ترسيخ ذلك العداء المستمر، الذي سبق أن ترعرع في حضن الكنيسة من خلال الأدبيات الغربية والمؤلفات اللاهوتية في أوروبا القرون الوسطى، وتوسع ليشمل مختلف مجالات الإنتاج الفكري والثقافي والسياسي، التي يحضر فيها الإسلام/ الآخر، باعتباره عدواً منافساً في القيم والتشريع والثقافة، أو موضوعاً للتوسع وبسط الهيمنة، أو مصدر تهديد لأسس الحضارة الغربية. إن هذا البحث هو محاولة للحفر في أهم الأصول الفكرية والجذور التاريخية القروسطية لهذه الصور النمطية عن الإسلام، والتي ظلت تتكرر وتتطور في المتخيل الغربي رغم تطاول الزمان وتقارب البلدان.

### الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بومزوغ، سعيد. (2024، أكتوبر). الجذور التاريخية والفكرية للمتمثلات الغربية عن الإسلام. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 965-985.

### Abstract:

The researcher in the history of the relationship between Europe and the Muslim world, from their first contact up to the contemporary times, notes the significant impact that these tense historical relations have had on the image of Islam in the western imagination. Western thought generally sought to consolidate a persistent hostility, which had long been nurtured by the church, as evidenced in Western literature in medieval Europe, and which expanded to cover various areas of intellectual, cultural and political production, in which Islam/ the other is introduced as a rival in values, legislation, and culture, and as a subject of expansion and hegemony, or as a source of threat to the foundations of western civilization. This research is an attempt to explore the most important intellectual origins and the medieval historical roots of the stereotypical images about Islam, which have continued to persist and develop in the western imagination, despite the passage of lengthy time and the convergence of countries.



## مقدمة

تتعرض صورة الإسلام اليوم في أغلب وسائل الإعلام الغربية، لكثير من التشويه والتحريف والتضليل؛ والتي تروج صوراً نمطية عن الإسلام، تثير الريبة والخوف والنفور منه.

هكذا يتم استغلال بعض الهجمات الأليمة التي تعرضت لها بعض الحواضر الغربية، وكذا بعض المعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تواجه العالم الإسلامي اليوم، لتوجيه اللوم إلى الدين الإسلامي وإلى نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام، واتهامه، تصريحاً أو تلميحاً، بالعنف والإرهاب والتخلف والشهوانية وغيرها من الصور السلبية.

إن الباحث في تاريخ العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي، منذ الاحتكاك الأول بينهما إلى المرحلة المعاصرة، يلحظ التأثير الكبير الذي كان ولا يزال لهذه العلاقات التاريخية المتوترة في صورة الإسلام في المتخيل الغربي. وإذا كانت بعض الأدبيات الغربية والمؤلفات اللاهوتية في "أوروبا القرون الوسطى" وجدت لتصوراتها المحرفة عن دين الإسلام تفسيراً في حجابي الجهل والصراع، فإن المرحلة التي نعيشها اليوم، رغم كونها تتزامن مع بلوغ الثورة المعلوماتية أوجها، وتوطد العلاقات السياسية بين كثير من البلدان الإسلامية ونظيرتها الغربية، تشهد نوعاً من النكوص في التصور الغربي للإسلام وقيمه السمحة.

يتضح هذا النكوص من خلال سعي الفكر الغربي عموماً إلى ترسيخ ذلك العداء الممنهج، الذي سبق أن ترعرع في حضن الكنيسة، وانسحب على مختلف واجهات الإنتاج الفكري والثقافي والسياسي، التي يحضر فيها الإسلام/الآخر، باعتباره عدواً منافساً في القيم والأخلاق والتعبئة على مشروع كوني حضاري، أو موضوعاً للتوسع وبسط الهيمنة، أو مصدر تهديد أبدي لبنيان الحضارة الغربية، أو رؤية للعالم ونمط حياة ومنظومة قواعد للاجتماع الإنساني ككل.

هكذا يحاول هذا البحث الحفر في أهم الأصول الفكرية والجذور التاريخية لهذه الصور النمطية عن الإسلام، والتي ظلت تكرر في المتخيل الغربي رغم تطاول الزمان وتقارب البلدان.

## المؤلفات المسيحية الشرقية والغربية الأولى عن الإسلام:

إن التصورات الغربية الأولى عن الإسلام التي تشكلت في "أوروبا القرون الوسطى" انبنت في الأساس على رد الفعل الأوروبي عموماً والكنسي السليبي خصوصاً من الإسلام؛ وقد كانت في مجملها نتاج "الأدبيات التي وضعها رجال الكنيسة، وعلماء الكلام، والمؤرخين والدعاة، بالدرجة الأولى، لسبب بسيط هو أنه من "العصر الوسيط" إلى "النهضة" كان رجال الكنيسة والرهبان والكهنة

وموظفو الكنيسة الكبار هم الذين يمتلكون مفاتيح المعرفة ويتكفلون بتربية المؤمنين بكتاباتهم ودعواتهم<sup>(1)</sup>.

وسنكتفي هنا بتقديم اثنين من النماذج التاريخية التي عرفتها هذه المرحلة، والتي كان لها الأثر البالغ في نشر تلك التصورات المحرفة عن الإسلام، ويتعلق بالمؤلفات المسيحية الشرقية من جهة، والأدبيات المسيحية الغربية من جهة ثانية.

### المؤلفات المسيحية الشرقية: نموذج يوحنا الدمشقي

تمثل أعمال يوحنا الدمشقي الأساس الذي اعتمدت عليه كثير من التصورات والكتابات التي اتخذت من الإسلام موضوعاً لها. فهو، وإن ترعرع في بيئة عربية بيزنطية وإسلامية واطلع على القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية، "فإن مجادلاته مع الإسلام ارتدت طابعا لاهوتيا محضا، وليس طابعا سياسيا إيديولوجيا، والسبب في ذلك يعود إلى... أن المسيحيين السوريين لم يروا بعد في الإسلام خطراً روحياً عليهم، وإنما وقفوا منه كموقفهم من عقيدة شعب بربري"<sup>(2)</sup>.

لقد ساهم يوحنا، بقسط وافر، في إثراء الجدل الكلامي بين الإسلام والمسيحية بشكل عام، وفي رسم بعض ملامح دين الإسلام بشكل خاص، حيث حاول "التشكيك بكون الإسلام دين إبراهيم الحنيف من خلال وصفه المسلمين بالسرازانيين (Saracens). ويبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه الايتمولوجي لأغراض الجدل العنيف وتحفيز الذاكرة. كذلك يصف المسلمين بـ(المفسدين)"<sup>(3)</sup>.

لقد ركز تشويه يوحنا الدمشقي لدين الإسلام على أربعة عناصر أساسية صار عليها من جاء بعده من اللاهوتيين الغربيين، وهي:

**أولاً: الطعن في أصل دين الإسلام:** وذلك باعتباره بدعة متفرعة عن عقيدة أريان، حيث زعم يوحنا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم "استقى من الأريانية العقيدة التي تفيد بأن "الكلمة" و"الروح" لا يعدوان كونهما مخلوقين لله، واقتبس من النسطورية ما يتعلق بعدم تأليه الابن

(1) - Simon Jargy, *Islam et chrétienté*, Ed. Labor et Fides, Genève, 1981, p.9

(2) - أليكسي جورافسكي، "الإسلام والمسيحية"، ترجمة د. خلف محمد الجواد، كتاب سلسلة عالم المعرفة، رقم 215، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نونبر 1996م (ص:70).

(3) - محمد نور الدين أفاية، "الإسلام في متخيل الغرب.. في مكونات الصور النمطية الغربية عن الإسلام"، ضمن كتاب: "الإسلام والغرب: الأنا والآخر"، بإشراف محمد عابد الجابري، نشر الشبكة العربية للأبحاث والدراسات، بيروت ط 1، 2009م (ص:111).

المتجسد"<sup>(1)</sup>. كما تطرق لنقد بعض الأحكام الشرعية " معددا أهم الممارسات والمحظورات في الإسلام على الشكل التالي: الختان، عدم اتخاذ يوم السبت للراحة والعبادة، وإلغاء المعمودية، وإحداث تغيير في محرمات الطعام، ومنع شرب الخمر"<sup>(2)</sup>.

ثانيا: الطعن في المصدر الرباني للقرآن الكريم: و ذلك بالادعاء بأن القرآن إنما هو نتاج لأحلام اليقظة التي كانت تنتاب النبي عليه السلام<sup>(3)</sup>. ففي المؤلف الجدالي "مناظرة بين ساراتي ومسيحي" المنسوب إليه<sup>(4)</sup>، يقدم يوحنا ما سماها حججا "ضد الطبيعة الإلهية للرسالة المحمدية. كالقول: إنه لم يبشر بها الأنبياء السابقون، وإن محمدا لم يقم بأي معجزة شهيرة أو أعجوبة تثبت حقيقة نبوته"<sup>(5)</sup>.

ثالثا: نشر تصور محرف عن النبي الكريم: حيث اعتبر يوحنا وغيره من اللاهوتيين الرسول صلى الله عليه وسلم غير قادر على أن يكون "نبيا حقيقيا"، أو أن يأتي بعقيدة صحيحة؛ وبالتالي فإنه لا يمكن أن يكون إلا شخصا "مرتدا أو نبيا مزيفا، لا يملك سوى الادعاءات والأضاليل"<sup>(6)</sup>. بل إن الخيال المسيحي جعل منه ساحرا ومعاديا للمسيح ويجسد صورة الشيطان كذلك<sup>(7)</sup>.

وخلاصة القول: إن الوعي، أو بالأحرى المتخيل، المسيحي في الزمن الوسيط، بلور الصورة التالية عن الإسلام: "إنه عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر، والانحلال الخلقي، والتساهل مع المذلات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة"<sup>(8)</sup>.

والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية مرتدة ومنشقة، وعن محمد صلى الله عليه وسلم باعتباره نبيا مزيفا انتقلت من مسيحي سوريا إلى البيزنطيين ومنهم إلى الأوروبيين. و"لابد في هذا السياق من التأكيد أن الصيغ السورية والبيزنطية للمؤلفات المسيحية الجدالي المنافحة عن العقيدة المسيحية تمايزت عن بعضها بشكل جوهري. فالصيغة السورية

(1) - دانييل ساهاس، "الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام"، مجلة الاجتهاد، العدد 28، 1995، (ص: 126-127).

(2) - دانييل ساهاس، المرجع نفسه، (ص: 126-127).

(3) - المرجع نفسه، (ص: 128).

(4) - أعرب بعض الباحثين في الآونة الأخيرة عن شكوكهم حول نسبة هذا الكتاب ليوحنا الدمشقي، ينظر: أليكسي جورافسكي، "الإسلام و المسيحية"، (ص: 71).

(5) - أليكسي جورافسكي، المرجع نفسه، (ص: 71).

(6) - أليكسي جورافسكي، "الإسلام والمسيحية"، (ص: 70).

(7) - محمد نور الدين أفاية، المرجع السابق، (ص: 112-113).

(8) - أليكسي جورافسكي، المرجع نفسه، (ص: 75).

كانت على الأغلب أكثر تحفظاً واتساقاً، بحيث نجد أن المناظرة كانت تضم بدرجة أكثر أو أقل من الوصف والتفصيل حجج الخصم وآراءه. أما الصيغة البيزنطية وكان (ثيوفانس) الواعظ واحداً من أوائل أعلامها، فكانت في معظمها مؤدجلة. ناهيك عن أن المعطيات التي تقدمها عن عقيدة المسلمين إذا قدمت تأتي مشوهة لهذه العقيدة بصورة حادة<sup>(1)</sup>.

إن تأمل النماذج المسيحية الغربية التالية يظهر جلياً مدى الجهل والتشويه المقصود الذي ميز التصور المسيحي الغربي لدين الإسلام، وكذا التأثير الكبير الذي قام به البيزنطيون أثناء نقلهم لتصورات الكنيسة الشرقية عن الإسلام للمتلقي الغربي.

الأدبيات المسيحية الغربية المبنية على تفسيرات محرفة للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد:

بعدما قام المسلمون بفتح بلاد الشام في الأعوام (636-637م) بدأ رجال الدين والمؤرخون البيزنطيون بصياغة فكرة سلبية عن الإسلام وصورة ذهنية وحشية عن المسلمين فرغم المؤرخ ثيوفانس (817-760م) بأن "المسلم هو شخص يمجّد عمليات القتل التي أمر بها نبيه المزيف الذي سوغ فكرة أن من يقتل عدوه المسيحي أو الوثني يدخل الجنة".

هكذا بعد الفشل العسكري أمام زحف المسلمين على بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، ساهم رجال الفكر في بيزنطة وأوروبا في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ووصمهم بالبربرية والوحشية بل زعموا أن نجاح المسلمين ما هو إلا تعبير عن غضب الرب، وهو ما يظهر في كتابات البطريك صفرونيوس، و ثيوفانس، والمؤرخ البرتغالي الكاثوليكي فريدجاريوس<sup>(2)</sup>.

حاول اللاهوتيون الغربيون إيجاد إجابة عن "مشكلة" الإسلام عن طريق استنطاق الكتاب المقدس من جهة، وبالانطلاق من تأويل أخبار الرسل ونبوءات الأنبياء من جهة ثانية. هكذا تشكلت أول منظومة شاملة ومتناسكة عن الإسلام وصورته في الغرب نتيجة للجهل المطبق بالإسلام مضامين وتاريخاً. وهذه الصورة كانت صادرة عن رجال كانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بما يكتبون، مرجعهم في ذلك تصوراتهم الخاطئة وما وجدوه في الكتاب المقدس، وقد شكل رفضهم ليس للإسلام فقط بل "لمعرفة" الإسلام أحد أسباب جهلهم، إذ كان كثير منهم، خاصة نصارى الأندلس،

(1) -S. Jargy, *Islam et chrétienté: Les fils d'Abraham entre la confrontation et le dialogue*, Genève, 1981, p: 106.

(2) -ريتشارد سودرن، "صورة الإسلام في القرون الوسطى"، ترجمة د. رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، ط2، 2006م، (ص61).

يعيشون داخل دائرة الإسلام، وسط وفرة في المصادر الإسلامية؛ ولكن رفضهم حتى لمجرد المعرفة جعلهم يغضون الطرف عن القراءة.

في هذا السياق، ظهرت بإسبانيا كتابات لمتعصبين مسيحيين تعارض الإسلام بشدة وتفسر انتشاره بكونه مقدمة لظهور المسيح الدجال وبالتالي اقتراب القيامة.

من أبرز من تزعم هذا التوجه التأويلي بإسبانيا شخصان؛ أحدهما كاهن هو أوليغويوس مطران توليدو (ت 859م) والآخر كان نبيلاً هو باول ألفاروس (ت 859م). وبما أن تصوراتهما كانت متشابهة يكفي هنا أن نعرض أهم آراء ألفاروس حول الإسلام المشوهة، والتي بنى عليها الجدلي ضد دين الله تعالى والمعنون بـ (Indiculus Luminosus).

لقد انطلق باول ألفاروس، من تفسيراته لسفر دانيال، ومما وجدته من سيرة "ساخرة" للنبى الكريم كتبها كهنة مسيحيون محاكاة منهم لحياة المسيح، والتي جعلت وفاته تُطابق سنة 666 من التاريخ الأسباني، وكان يرى أن 666 هو عدد وحوش النبوة التي تقترن بظهور المسيح الدجال<sup>(1)</sup>. فاكتملت عنده الصورة باعتبار محمد -صلى الله عليه وسلم- مجسداً للمسيح الدجال (Antichrist)، والإسلام مؤامرة شريفة على المسيحية. لقد كانت هذه التصورات -كما يلاحظ سوزن- "تشكل أول منظومة متماسكة نسبياً عن الإسلام وصورته، والتي بدأ يطورها الغرب وسط متغيرات الأحداث"<sup>(2)</sup>. وقد كانت نتاجاً للجهل المطبق، وهو جهل مقصود في حد ذاته: فهؤلاء الكتاب "لم يستطيعوا أن يعرفوا شيئاً عن الإسلام، لا لأنهم كانوا بعيدين عن تأثيره مثل اللاهوتيين والكارولنجيين، بل لأنهم يعيشون وسط الإسلام نفسه، وهكذا فإن عدم فهمهم لما كان يدور حولهم، و عدم معرفتهم بالدين الإسلامي، مرده أنهم لم يكونوا يريدوا أن يعرفوا شيئاً"<sup>(3)</sup>.

وصلت تصورات أوليغويوس وألفاروس إلى الغرب الأوروبي. وكانت أجزاء منها تظهر هنا وهناك في كتابات اللاهوتيين. إلا أن هذه التصورات لم تجد دعماً كبيراً لدى كثير من علماء الغرب في هذه الحقبة، فلم يظهروا اقتناعاً بالحجج والتأويلات التي بنيت عليها. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن عدم تحمس اللاهوتيين في الشمال الأوروبي إلى التفسيرات النشورية للنصوص المقدسة،

(1) - ريتشارد سوزن، "صورة الإسلام في القرون الوسطى"، (ص: 62).

(2) - المرجع نفسه، (ص: 62).

(3) - المرجع نفسه، (ص: 62-63).

واكتفاءهم بتزويد المحتكين مع العالم الإسلامي في الجنوب بالنصائح و التوجيهات مرده إلى انشغالهم في أديرتهم في أقاصي الشمال حيث لا سارازانيين ولا أخطار تهددهم في تلك المرحلة<sup>(1)</sup>.

لقد كان من أبرز مظاهر الرؤية القروسطية التي عبر من خلالها الغرب المسيحي عن تصوره للإسلام و المسلمين، الصفات والأسماء التي أطلقت عليهم: "Sarrasins"، "Agarènes"، "Ismaéliens"، "Sarracenus" (شريقون، هاجريون "نسبة إلى هاجر"، إسماعليون، نسبة إلى إسماعيل، "سارسان" نسبة إلى سارة، الخ)<sup>(2)</sup>. وهم أيضا "أمة اللؤم والخداع" (Gentem perfidam sarracenorum)، "شعب هدام ومدمر"، "أناس قبيحي المنظر"، "برابرة"<sup>(3)</sup>. كل هذه التسميات والصفات تعطي المتتبع فكرة عن طبيعة الصورة "القروسطية" عن الإسلام، أو ما يسميه البعض "الوعي اللاهوتي بالإسلام"<sup>(4)</sup>.

وهذه الصورة هي من إنتاج المؤسسة الدينية وعلى رأسها البابا. فالكنيسة أظهرت الإسلام والمسلمين بمظهر "الكارثة الطبيعية المدمرة" وفق إحدى العبارات الواردة في رسالة البابا جون الثامن (نهاية القرن 9م)، إلى الملك شارل لوشوف.

إن التفسيرات المسيحية الغربية المحرفة لظهور الإسلام كانت تجد ازدهارا وانتشارا كلما كانت الظروف السياسية غير مطمئنة، وبخاصة عندما يتلاقى أمران: الخطر الخارجي، والتوتر الداخلي. وسيتضح هذا أكثر، في المرحلة التالية، والتي تميزت بتزعم الكنيسة لمحاربة دين الإسلام عسكريا من خلال الحملات الصليبية، وفكريا من خلال ترجمة القرآن الكريم بقصد رسم صورة مشوهة عن دين الإسلام ونبيه الكريم عليه الصلاة والسلام.

(1) - ريتشارد سودرن، "صورة الإسلام في القرون الوسطى"، (ص: 63).

(2) - Filhol Emmanuel, *L'image stéréotypée des Arabes, du Moyen Age à la guerre du Golfe*, Revue: Hommes et Migrations, N°1183, Paris, 1995, p. 17.

(3) - Dagron, Chantal & Kacimi, Mohamed, *Arabe, vous avez dit arabe? 25 siècles de regards occidentaux sur les Arabes*, Ed., Ballard, Paris, 1990, p. 49.

(4) - ينظر: قانصو وجيه، "نظرة الغرب التاريخية إلى الإسلام ... ودور المسلمين في بلورتها"، صحيفة الحياة، 2 فبراير 2008. على موقع:

[http://www.daralhayat.com/classics/02-2008/Item-20080201-d59c6944-c0a8-10ed-01dd-](http://www.daralhayat.com/classics/02-2008/Item-20080201-d59c6944-c0a8-10ed-01dd-6f82e31891f1/story.html)

6f82e31891f1/story.html

## الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم:

اضطلع بهذه المهمة رئيس دير كلوني بطرس المحترم (Pierre le vénérable , l'Abbé de Cluny) (نحو 1059 – 1156 م) الذي كان يعرف مدى جهل الكنيسة والأوروبيين بالإسلام ويرى بأن ترجمة القرآن ووضع نصوصه بين أيدي اللاهوتيين المسيحيين هي أنجع وسيلة من أجل الحفاظ على سيطرة الدين المسيحي.

ومن أجل هذه المهمة اتجه إلى مدينة طليطلة، للاستعانة ب مترجمين هما: روبر دو كيتون (Robert de Ketenne) وهرمان الدلماتي (Hermann le Dalmate).

لقد تمت هذه الترجمة الأوروبية الأولى للقرآن الكريم إلى اللاتينية حوالي سنة 1143م/560 هـ، وقد بدا واضحاً الهدف الأساسي منها في رسالة بطرس المحترم إلى القديس سان برنار، والتي أوضح فيها بغيته ونيته من ترجمة القرآن، التي تدعم كل الأساطير الرائجة حول الإسلام والنبي محمد والمسلمين آنذاك<sup>(1)</sup>.

لقد اعتقد بطرس المحترم بأنه يمكن إعادة المسلمين إلى دائرة الكنيسة، وذلك إذا تمكن اللاهوتيون المسيحيون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم<sup>(2)</sup>.

وقد أفصح الراهب الإنجليزي روبرت دو كيتون، الذي شارك في إنجاز هذه الترجمة، عن الهدف منها قائلاً: "لقد كشفتُ بيدي قانون المدعو محمداً، ويسرّت فهمه، وضممته إلى كنوز اللغة الرومانية لمعرفة أسس هذا القانون، وحتى نتجلى أنوار الرب المسيح على البشرية... بعد ما سمح الدارسون في الكنيسة لهذا الكفر أن يتسع ويتضخم وينتشر لمدة 537 عاماً، وقد وضّحت في ترجمتي في أي مستقبل أسن يعشعش مذهب السراسين (أي المسلمين). لقد قشعتُ الدخان الذي أطلقه محمد، لعلك تطفئه بنفخاتك يا بطرس الكلوني"<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: رشا حمود الصباح، "التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى وتأثيرها في الكوميديا الإلهية"، مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر: 1980)، (ص: 90).

(2) - G. Zananiri. *L'Eglise et l'Islam*, (Paris, 1969), pp:177-178

(3) - محمد محمد أبو ليلة، "القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي: دراسة نقدية تحليلية"، دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى: 1423هـ/2002م، (ص: 384).

لقد قامت المجموعة التي أشرف عليها بطرس لترجمة القرآن بترجمة لبعض الأحاديث المكذوبة المنسوبة إلى النبي محمد<sup>(1)</sup>؛ كما أضيفت إليها ترجمة الرسالة المنسوبة لعبد الله بن إسماعيل الهاشمي وجواب المسيحي عبد المسيح بن إسحق الكندي عليها<sup>(2)</sup>.

وعلى أساس كل ذلك ألف بطرس ما أسماه ب: "دحض العقيدة الإسلامية" (Liber Contra sectam sive haeresim Saracenorum)، وقد اشتهرت هذه المؤلفات (الترجمات بالإضافة لرد بطرس) بـ "المجموعة الطليطلية"؛ حيث صارت مصدرا رئيسيا للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي بالنسبة للفكر الأوروبي "القروسطي" على مدى خمسمائة عام تقريبا. حيث وضعت في البداية رهن إشارة الرهبان في الأديرة إلى أن قام ثيودور بيبلياندر بنشرها في سنة 1543م مع إضافة مقدمتين لمارتن لوثر، وفيليب ميلانختون؛ وأعيد طبعها بعد ذلك مرات عديدة.

لقد كانت هذه الترجمة سيئة بعيدة عن الأصل سيئة له، كما جاء على لسان كثير من المستشرقين قديما وحديثا، من ذلك ما ذكره يوحنا السيغوفي (ت. 1458م) بأن المترجمين أدخلوا فيها تصورات اللاتينيين، واستعملوا كلمات وتعابير وتعريفات هي في صلب تصورات العالم المسيحي ولا يعرفها المسلمون. كما انتقدها كل من: مارتن لوثر (1483-1546م)، وجورج سال (1697-1736م)، وريجيس بلاشير (1900-1973م) وغيرهم.

وعلى الرغم من الأخطاء الشنيعة نجد أن هذه الترجمة أصبحت أساسا للترجمات الأخرى وللأحكام الخاطئة عن الإسلام في نظر الغرب إلى يومنا هذا<sup>(3)</sup>.

فهذه النسخة اللاتينية ظلت إلى أواسط القرن السابع عشر للميلاد أكثر الترجمات الغربية انتشارا. فقد كانت الأصل التي اعتمدت عليها أوائل ترجمات القرآن الكريالكلوني اللاتينية المحلية كما هو شأن الترجمة الإيطالية لـ "أندريا أريقابيني" سنة 1543م، والتي كانت بدورها الأصل الذي اعتمدت عليه أول ترجمة ألمانية على يد "سلمون شفایجرن" سنة 1616م والتي نقلت بدورها إلى اللغة الهولندية على يد مترجم مجهول 1641م. وفي سنة 1641م أصدر "دوربور" أول ترجمة فرنسية للقرآن والتي نص بعض الباحثين على أن مترجمها، وإن

(1)- أليكسي جورافسكي، "الإسلام والمسيحية"، (ص:83).

(2)- أليكسي جورافسكي، المرجع نفسه، (ص:83).

(3)- ينظر: د. محمد ياسين عريبي، "الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي"، نشر: المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، بدون تاريخ طبع، (ص:145).



رجع إلى الأصل العربي، إلا أنه اعتمد هو الآخر بدرجة كبيرة على النص الكلوني اللاتيني للقرآن<sup>(1)</sup>.

وقد تأثر الفكر الغربي في هذه الفترة بهذه النظرة التي روجتها هذه الترجمة وما سبقها من تمثيلات، فتكررت في الأدب الغربي القروسطي والفكر اللاهوتي الفلسفي لهذه الحقبة، وما تلاها من أزمنة إلى عصر النهضة، جملة من الصور النمطية عن دين الإسلام ورموزه نستعرضها في العنصرين التاليين.

### الأغاني والملاحم الشعبية: أنشودة رولان والكوميديا الإلهية نموذجين

الأغاني والملاحم الشعبية هي نصوص أدبية ظهرت مع مطلع القرن الحادي عشر، وكان القصد منها تعزيز الافتخار بالتفوق المسيحي وتشويه الآخر المسلم والانتقاص منه ومن عقيدته. هكذا يستخرج الباحث بول بانكور، في أطروحته التي خصصها لدراسة صورة المسلمين في هذا النوع الأدبي، سمات مشوهة امتد تأثيرها ليشمل كل أوروبا القرون الوسطى<sup>(2)</sup>، "فال السارازانيين (Sarrasins)، وهي تسمية غامضة تشير إلى المسلمين من دون تمييز، هم أعوان الشر وأشباه الشيطان، غدارون وماكرون. والشائع عنهم الطعن في الظهر واغتصاب النساء"<sup>(3)</sup>.

وينقل الكاتب آلان روسكيو نموذجاً على هذا التشويه الفضيع، جاء في نص متخيل بعنوان (تدمير روما): "بلغت وحشية المسلمين حدا لا يوصف، حيث أحرقت عصاباتهم القصور والمدن والقلاع، أشعلوا الكنائس وودنسوا حرماها (...) يرتكب المسلمون الفظائع، يقطعون الأنوف والشفاة، الأيدي والأذان من أجسام ضحاياهم البريئة كما يغتصبون الراهبات"<sup>(4)</sup>.

ومن أهم النصوص الأدبية التي كان لها تأثير واسع في ترسيخ صور نمطية مشوهة عن الإسلام "أنشودة رولان"، وملحمة دانتي المسماة: "الكوميديا الإلهية".

(1) - أليكسي جورافسكي، "الإسلام والمسيحية"، (ص: 84).

(2) - Paul Bancourt, *Les Musulmans dans les chansons de geste du Cycle du Roi*, Publications : l'Université de Provence, Aix-en-Provence, 1982, p.45.

(3) - Ibid.

(4) آلان روسكيو (Alain RUSCIO)، "في جذور العنصرية"، مقالة منشورة بالنسخة العربية لجريدة (Le monde diplomatique) في: <http://www.mondiploar.com/fev04/articles/ruscio.htm>

## أنشودة رولان:

أغنية أو نشيد رولان (La Chanson de Roland) هي أهم وأقدم عمل أدبي مهم متبق من الأدب الفرنسي، و هي عبارة عن ملحمة من حوالي 4000 بيت كتبها مؤلف فرنسي مجهول أثناء القرن الثاني عشر الميلادي (بين 1140 و 1170). وهي تروي قصة رولان (Roland) أشهر الفرسان الأسطوريين الفرنسيين الذين خدموا الملك شارلمان.

وقد كان لهذا النص شهرة وشعبية كبيرة حتى صار من أبرز الأناشيد الشعبية التي كان يتغنى بها المغنون الشعبيون بفرنسا القرون الوسطى الذين اشتهروا بأسماء (Les trouvères et les troubadours)، والذين كان لهم دور في تشكيل الرأي العام الشعبي يضاهي ذلك الذي تقوم به وسائل الإعلام اليوم.

كما ظهرت لهذه الملحمة عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة بعد ذلك. كما قام بتطويرها والزيادة عليها الكتّاب الألمان والإيطاليون في ترجماتهم التي كان لها الأثر البالغ في نشر صورة مشوهة عن دين الإسلام<sup>(1)</sup>.

هكذا تروي أنشودة رولان بطولات الفارسين الكارولنجيين رولان وأوليفيه في مواجهة "العرب المتعصبين" الذين يفوقونهما عددا. وإذا كان لا أحد يشكك في صحة حدوث معركة رونسفو إلا أن المعروف منذ زمن طويل أن رولان سقط وهو يواجه محاربين من الباسك.

تقدم أنشودة "رولان" الآخر -المسلم- باعتباره تجسيدا لما هو أجنبي، وسليبي يستحق الإدانة. إنها تختزل صورة المسلم في كونه ساحرا، له قدرة خاصة على استدعاء قوى الشر. ولما كان الوعي الجمعي، في ذلك الوقت، ينظر إلى أن كل ما هو خارج المجال المسيحي ينتهي إلى عالم الشر، فإنه جعل من المسلم الآخر النقيض بامتياز<sup>(2)</sup>. هذه الأناشيد وإن بدا أنها تحمل طابعا "ترفهييا" وتتميز

(1) من ذلك الرواية الصليبية التي كتبها القسيس الألماني كونراد (Pfaffe Konrad) من خلال ترجمة وتطوير أغنية رولان إلى الألمانية. ينظر: هوبرت هيركومير، "دروس ومواعظ من تاريخ العلاقة الشائكة بين المسلمين وأوروبا"، ترجمة وتقديم: ثابت عيد، ضمن كتاب: "الإسلام والغرب: أنا والآخر"، (ص:96).

(2) - ينظر: محمد نور الدين أفاية، "الإسلام في متخيل الغرب"، (ص:117).

ببعد شاعري إيقاعي بارز، لكنها، مع ذلك، عبرت، بشكل واضح، عن إرادة مقصودة لتشويه الإسلام وذلك "بجعله غير مقبول، منفر وممقوت"<sup>(1)</sup>.

تركز أنشودة رولان في تشويهها للإسلام على إلصاق صفتين سلبيتين به هما الوثنية والعنف. تتجلى الوثنية في ادعاء عبادة المسلمين لثالوث مؤلف من ثلاثة أصنام هي: "أبوليون (Appolyon)، و تيرفاغان (Tervagan)، و ماهومت (Mahomet) أي محمد. وقد أثارت هذه الاتهامات الباطلة لدين الإسلام الذي جاء بتوحيد العبادة لله عز و جل بالوثنية استغراب بل سخرية كثير من المستشرقين، من ذلك ما ذكره أليكسي جورافسكي حيث قال: "وللحقيقة يجب القول إن تلك الأساطير المختلفة تمثل سخرية مأساوية لأن النبي (محمد)، الذي طالما حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذي حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصور المسيحيين (إلى صنم يؤلمه أتباعه)، الذين يطلقون عليهم ازدراء واحتقارا لقب (عبيد سارة) أو (أبناء الجارية)"<sup>(2)</sup>.

هكذا تتبع الأنشودة نهج الشحن المزيف للحقيقة؛ حتى يلتهب حماس العوامّ بالحقّد على أهل الإسلام؛ لتُقام المجازر والمذابح باسم الله؛ ففي هذه الملحمة يُنادي الإمبراطور جنوده كي يذبّحوا المسلمين، فيقول: "انظروا إلى هذا الشعب (...). سوف يُمعى اسمهم من فوق الأرض الزاخرة بالحياة؛ لأنهم يعبدون الأصنام، لا يمكن أن يكون لهم خلاص، لقد حكم عليهم، فلنبداً إذا تنفيذ الحكم، باسم الله"<sup>(3)</sup>.

وتتجلى النظرة إلى دين الإسلام بكونه ديناً عنيفاً شعاره السيف والحرب والقتال في اعتبار الإسلام النقيض المباشر للمسيحية. "فالمسلم يتقدم إلى مساحة الإدراك المسيحي الأوروبي باعتباره رجلاً محارباً، شرساً، متوحشاً، يقوم بكل أنواع النهب والتنكيل، خالقاً بذلك وراءه تعاسة وشقاء لا يوصفان. يمثل الرجل المسلم كل تعبيرات العدوانية. يحركه ميل قوي للقتل. لقد

<sup>(1)</sup> - Jean Flori, *Radiographie d'un stéréotype: la caricature de l'Islam dans l'Occident chrétien: sens et contresens*, in Maroc-Europe, n° 3, 1992, p.94.

<sup>(2)</sup> - أليكسي جورافسكي، "الإسلام والمسيحية"، (ص:77).

<sup>(3)</sup> - هوبرت هيركوميير، وجيرنوت روتر، "صورة الإسلام في التراث الغربي"، ترجمة: ثابت عيد، تقديم: د. محمد عمارة، نشر: دار نهضة مصر، القاهرة 1999م، (ص ص: 18، 21).

"اعتبرت القوة، على نطاق عام تقريبا، عنصرا مؤسسا للديانة الإسلامية وعلامة بديهية على الضلال"<sup>(1)</sup>.

### ملحمة "الكوميديا الإلهية" لدانتي:

ملحمة دانتي المعروفة "بالكوميديا الإلهية": هي عبارة عن رحلة إلى الآخرة عبر عوالمها الثلاثة، الجحيم والمطهر والفردوس، تناول فيها الشاعر الإيطالي دانتي Dante Alighieri (1265-1321م) بالوصف أحوال كل من التقى بهم في هذه العوالم. و بغض النظر عن قضية استفادة دانتي من قصة المعراج، و التي أثبت صحتها كثير من الباحثين على رأسهم المستشرق الإسباني آسين بلاسيوس<sup>(2)</sup>. فقد عمد دانتي في هذه القصيدة إلى عرض نظراته لأسماء معروفة لدى القارئ لها دلالتها التاريخية والرمزية، وسيقتصر البحث على تناول بعض الرموز الإسلامية الموجودة في الكوميديا والذين قسمهم دانتي إلى صنفين:

صنف يوجد خارج الجحيم، فيما يسمى "الشفاء" أو اللمبو (LIMBO) (أي المدخل إلى الجحيم)، وهو مكان مخصص للأطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا، ولأرواح الوثنيين الفضلاء، وقد ذكر منهم ابن سينا وابن رشد وصالح الدين الأيوبي.

وصنف آخر يوجد في أسفل الجحيم وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ففي الأندشودة الثامنة والعشرين يظهر محمد في منطقة مظلمة قرب معقل إبليس، لأن هناك تماثلا بينهما كما روجت له الكتابات الكنسية. فكما أن إبليس يخلق النزاع والشقاق بين البشر، فإن محمدا يقدم كذلك كزعيم للفئة التي أطلق عليها دانتي "زارعو الفضيحة والفتنة والشقاق"<sup>(3)</sup>.

وهذه الصورة المشوهة أخذها دانتي نقلا عما كان سائدا في عصره من كتابات مسيحية مسيئة للإسلام ونبية عليه السلام. تقول رشا حمود الصباح "إن تصوير دانتي لم يكن من بنات أفكاره، لكن صاغ هذه الصورة على غرار الصور الزائفة التي كانت شائعة في عصره، والتي اختلقها قساوسة الغرب للإسلام ورسوله بدافع التحمس للمسيحية والدفاع عنها ضد قوة الإسلام"<sup>(4)</sup>.

(1) - محمد نور الدين أفاية، "الإسلام في متخيل الغرب"، (ص:117).

(2) - ينظر مثلا ما كتبه المستشرق الإيطالي فرانتشيسكو غابريلي، في مقاله "دانتي والإسلام"، ترجمة: موسى الخوري، مجلة التراث العربي (العدد 41، تشرين الأول، 1990)، (ص:54).

(3) - ينظر: دانتي أليغييري، "الكوميديا الإلهية"، ترجمة: حسن عثمان، دار المعارف، القاهرة، ط2: 1955م، (ص:371).

(4) - رشا حمود الصباح، "التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى وتأثيرها في الكوميديا الإلهية"، ص:96.

وهذا يعزز ما أكده إدوارد سعيد بأن الصورة التي قدم بها "الإسلام وممثليه المعنيين إنما هي مخلوقات أنتجها الفهم الغربي الجغرافي والتاريخي، و فوق كل شيء الأخلاقي... وهي رؤيا لا تقتصر بأي حال على الباحث المحترف، بل إنها ملك مشترك لكل من فكر بالشرق في الغرب"<sup>(1)</sup>.

لقد كان هذا حال الأدبيات الشعرية والملحمية، فهل استطاعت الكتابات اللاهوتية والفلسفية تقديم صورة مغايرة مبنية على دراسة موضوعية؟

### الأدبيات اللاهوتية الفلسفية: كتابات توما الأكويني وريموند لول:

اهتم فلاسفة ولاهوتيو القرون الوسطى الأوروبية بالرد على العقائد الإسلامية ومحاولة تقديم تصور عام عن دين الإسلام للأوروبيين عموماً، وللرهبان وتلاميذ الأديرة الكنسية على الخصوص؛ ومن أشهر الكتاب اللاهوتيين الذين تعرضوا للإسلام في هذه المرحلة: توما الأكويني، وريموند لول.

#### كتابات توما الأكويني:

رغم أن توما الأكويني Thomas d'Aquatain (1225-1274م) استفاد من دراسة الفلسفة العربية الإسلامية التي طورها الفيلسوف الأندلسي ابن رشد، إلا أنه "ظل في تقييمه للإسلام ورسوله على المستوى الوضيع المكرر والمعروف لعصره، والذي حدده بطرس المجل في مؤلفاته التي طعن فيها في الإسلام"<sup>(2)</sup>. هكذا اعتبر توما الأكويني المسلمين وثنيين وليسوا هراطقة مجدّفين لأنهم لم يعترفوا بأهمية الإنجيل ومكانته؛ ولهذا قرر حتمية عقد المناظرات والمجاورات الجدلية مع هؤلاء الوثنيين، حسب رأيه، بدلا من تحويلهم إلى المسيحية بالقوة، نظراً إلى أن الإنسان لا يمكن إجباره على الاعتراف بوجود شيء أسى من الخير والسعادة. ولهذا فإنه يتوجب على الحكام المسيحيين، كما يقول الأكويني، الذين يقع المسلمون تحت سلطته، أن يتصرفوا بصبر إزاء مفهومهم لعبادة الرب<sup>(3)</sup>.

لم يول توما الأكويني رسالة الإسلام اهتماما كبيرا في كتاباته، إذ لم يذكرها إلا في سياق الدفاع عن العقيدة المسيحية، والرد على مخالفها؛ هكذا خصص أحد فصول كتابه « خلاصة الرد على الكفرة أو الخوارج » (Summa contra gentiles) للكلام عن النبي صلى الله عليه و سلم

(1) - إدوارد سعيد، "الاستشراق: المعرفة والسلطة، الإنشاء"، ترجمة كمال أبو أديب، نشر مؤسسة الأبحاث والدراسات العربية، بيروت، الطبعة 3، 1991م، (ص98).

(2) - هوبرت هيركومر، "دروس وومواعظ من تاريخ العلاقة الشائكة بين المسلمين وأوروبا"، (ص:111).

(3) - ينظر: أليكسي جورافسكي، "الإسلام والمسيحية"، (ص:85).

ورسالة الإسلام؛ و"لكنه لم يخرج كثيرا عن إطار القوالب الذهنية التي سادت في الفكر الأوروبي في عصره، إذ وضع الانتشار السلمي للمسيحية في مقابل ما أسماه «بالانتشار الإكراهي» للإسلام. ويقوم تفسيره لظاهرة انتشار الإسلام على أطروحة مؤداها أن محمداً آمن بدعوته في بادئ الأمر الناس الجهلة البدائيون فقط، أولئك الذين يعيشون في الصحراء، ولم يسبق لهم أن عرفوا أي تعليم أو عقيدة إلهية. وعن طريق هؤلاء البدو الصعاليك أجبر محمد بقوة السيف بقية الناس في المنطقة على الامتثال إلى شريعته"<sup>(1)</sup>.

ويستطرد توما الأكويني بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يرد ذكره في التوراة والأنجيل، ولا يمكنه أن يدعي أن الرسل الأسبقين قد تنبأوا بظهوره وبعثته من بعدهم. بل يصير على اتهامه عليه الصلاة والسلام بتحريف الأدلة الواردة في التوراة والأنجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه<sup>(2)</sup>. بل يزيد إمعانا في ادعاءاته الباطلة من خلال التأكيد على "أن محمداً أغوى كثيرا من الشعوب للدخول في عقيدته، من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذات والشهوات الحسية، وعن طريق الوعود التي قطعها لها ضمن هذا التوجه الغرائزي"<sup>(3)</sup>.

وفيما يتعلق بموقفه من القرآن الكريم، فتوما الأكويني تابع فيه موقف بطرس المبجل في نفي نسبته إلى الوحي، و ادعاء كونه من ابتداء النبي عليه الصلاة والسلام؛ و لذلك لا يستنكف من عدم استعمال كلمة "القرآن" بتاتا، وإنما يحل محلها عبارة "قوانين محمد"<sup>(4)</sup>.

### كتابات ريموند لول:

يمكن القول بأن ريموند لول Raymond Lull (1232-1315م) هو أحد أشهر مؤسسي سياسة التنصير والاستشراق في القرون الوسطى، إذ أدى به حنقه على الإسلام، إلى السعي إلى هدمه، فصرف حياته لمهمة تنصير المسلمين، وسعى جاهداً لتحقيق هدفه من طريقين:

طريق شخصي بتصنيف الكتب الجدلية ضد الإسلام والقرآن؛

طريق مؤسسي، بإقناع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالث المقدس لإعداد المبشرين للعمل ضد الإسلام، و بتقديم ثلاث عرائض إلى البابا كليمان الخامس (Clément v) لإنشاء كلية لدراسة

(1) - المرجع نفسه، (ص:85).

(2) - هوبرت هيركومر، "دروس ومواعظ من تاريخ العلاقة الشائكة بين المسلمين وأوروبا"، المرجع السابق، (ص:101).

(3) - أليكمي جورافسكي، المرجع السابق، (ص:86).

(4) - ينظر: المرجع نفسه.

العربية، وعدد من كراسي تعليم اللغة العربية في الجامعات المختلفة لتكون من أهم وسائل الجدل ضد الإسلام والقرآن، وأفضل الوسائل لتنصير المسلمين<sup>(1)</sup>.

وبالفعل نجحت مساعي ريموند لول المؤسسية، فقد أمر يعقوب الأول ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالث المقدس لإعداد المبشرين، وقام لول نفسه بإعدادهم فيها<sup>(2)</sup>.

وكان من نتائج دعوة لول أيضا أن قرّر مجمع فيينا الكنسي (1311م) إنشاء خمسة كراسي لتعليم اللغة العربية في أكبر خمس جامعات في أوروبا (باريس، أكسفورد، بولونيا، سلمنكا، جامعة الإدارة المركزية البابوية) وعين للتدريس فيها مدرسين كاثوليكين<sup>(3)</sup>.

خلاصة القول إن الفكر الأوروبي منذ احتكاكه الأول بالإسلام سارع إلى تشويهه والطعن في أسسه ومصادره. ورغم سعيه في مراحل لاحقة إلى دراسته والبحث فيه إلا أنه لم يتخلص من تلك التمثيلات المشوهة التي رسختها الإيديولوجيا المسيحية فتر طويلة من الزمان. يقول "مونتغمري واط": "إن أوروبا الوسيطة أفرزت ظاهرتين لا يمكن لأي باحث جاد أن يتعامل معهما بلا مبالاة. تتمثل الأولى في الصورة المشوهة تماما التي ولدتها أوروبا عن الإسلام، وتبرز الثانية في التجذر الهائل الذي تمكنت الإيديولوجيا الصليبية من ترسيخه في قلوب وعقول الأوروبيين عن الذات وعن الآخر"<sup>(4)</sup>.

## خاتمة:

إن المرحلة المعاصرة، وإن انتشرت فيها سبل التعرف على الإسلام سواء مباشرة من مصادره المترجمة أو عبر مختلف وسائل المعرفة الحديثة، إلا أن صورة الإسلام في الغرب ظلت حبيسة النظرة السلبية التي ترسخت في المتخيل الغربي عبر مختلف الأزمان والسياقات، والتي أثرت فيها بشكل كبير مختلف وسائل الإعلام الحديثة منها والتقليدية

يتضح ذلك من خلال سعي الفكر الغربي عموما إلى ترسيخ ذلك العداء الممنهج، الذي سبق أن ترعرع في حضن الكنيسة، وانسحب على مختلف واجهات الإنتاج الفكري والثقافي والسياسي،

(1) - ينظر: يوهان فوك، "تاريخ حركة الاستشراق"، ترجمة: عمر لطفي العالم، ط 2، دار المدار الإسلامي، بيروت 2001م، (ص: 27).  
(28)؛ و كذا: ارنست رينان، "ابن رشد والرشدية"، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، ط 1: 1957م، (ص: 267).

(2) - يوهان فوك، المرجع السابق، (ص: 27).

(3) - أليكسي جورافسكي، المرجع السابق، (ص: 90).

(4) - W. Montgomery Watt, *L'influence de l'Islam sur l'Europe médiévale*, Traduction: Paul Genthner, Ed. Librairie orientaliste, 1974, Paris, p. 67.

التي يحضر فيها الإسلام/الآخر، باعتباره عدوا منافسا في القيم والأخلاق والتعبئة على مشروع كوني حضاري، أو موضوعا للتوسع وبسط الهيمنة، أو مصدر تهديد أبدي لبنيان الحضارة الغربية، أو رؤية للعالم ونمط حياة ومنظومة قواعد للاجتماع الإنساني ككل.

والغريب في الأمر أن هذه الإساءات المتكررة لدين الإسلام ولرموزه الأساسية كان لها في كثير من الحالات مفعولا عكسيا، إذ أدت إلى الإقبال المتزايد على التعرف على الإسلام، بل والتأثر بقيمه السمحة واعتناقه. وهو ما أكدته إحصاءات الإقبال على شراء نسخ ترجمات القرآن الكريم من المكتبات كلما ازداد الطعن في الإسلام والإساءة إليه.



## لائحة المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- أبو ليلة، محمد، "القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي: دراسة نقدية تحليلية"، دار النشر للجامعات، ط 1/2002م.
- إدوارد سعيد، "تغطية الإسلام: كيف تقرر وسائل الإعلام وخبرائه طريقة رؤيتنا لبقية العالم"، ترجمة: محمد كرزون، دار نينوى، دمشق، الطبعة الأولى: 2006م.
- "الاستشراق: المعرفة والسلطة، الإنشاء"، ترجمة كمال أبو أديب، م الأبحاث والدراسات العربية، بيروت، ط 3، 1991م.
- أفاية، محمد نور الدين، "الإسلام في متخيل الغرب.. في مكونات الصور النمطية الغربية عن الإسلام"، ضمن كتاب: "الإسلام والغرب: الأنا والآخر"، إشراف م ع الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والدراسات، بيروت ط 1، 2009م.
- بني عامر، محمد أمين، "المستشرقون والقرآن الكريم"، نشر دار الأمل، الأردن، الطبعة 1: 2004م.
- الجبري، عبد المتعال محمد، "الاستشراق وجه للاستعمار الفكري"، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى: 1995م.
- جعيط، هشام، "أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة"، دار الطليعة، بيروت ط 3، 2007م.
- جورافيسكي، أليسكي، "الإسلام والمسيحية"، ترجمة د. خلف محمد الجواد، كتاب سلسلة عالم المعرفة، رقم 215، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نونبر 1996م
- حداد، لطفي، "الإسلام بعيون مسيحية"، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى: 1425هـ-2004م.

- الحيدري، إبراهيم، "صورة الشرق في عيون الغرب: دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي"، نشر دار الساقى، بيروت، الطبعة 1: 1996م،
- دانتي، أليغيري، "الكوميديا الإلهية"، ترجمة: حسن عثمان، دار المعارف، القاهرة، ط2: 1955م
- رضوان، محمد، "أوهام الغرب عن الإسلام"، نشر: دار الأندلس، الدار البيضاء، الطبعة: الأولى/2013م.
- رينان، ارنست، "ابن رشد والرشدية"، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، ط1: 1957م،
- روسكيو آلان (Alain RUSCIO)، "في جذور العنصرية"، مقالة منشورة بالنسخة العربية لجريدة (Le monde diplomatique) على موقعها الإلكتروني التالي:  
<http://www.mondiploar.com/fev04/articles/ruscio>
- زينب عبد العزيز، "موقف الغرب من الإسلام"، دار الكتاب العربي، دمشق والقاهرة - الطبعة الأولى - 2004م
- ساسي سالم الحاج، "نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية"، المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 2002م.
- سوزن، ريتشارد، "صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى"، ترجمة د. رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، ط2، 2006م.
- الصباح، رشا حمود، "التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى وتأثيرها في الكوميديا الإلهية"، مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، (أكتوبر، نوفمبر، دجنبر: 1980)
- عربي، محمد ياسين، "الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي"، نشر: المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط.

- هوبرت هيركومر، "دروس ومواعظ من تاريخ العلاقة الشائكة بين المسلمين و أوروبا"، ترجمة: ثابت عيد، ضمن "الإسلام و الغرب: الأنا و الآخر"، بإشراف م ع الجابري، الشبكة العربية للأبحاث و الدراسات، بيروت ط 1، 2009م.
- هوبرت هيركومر، جيرنوت روتر، "صورة الإسلام في التراث الغربي"، ترجمة: ثابت عيد، نهضة مصر، القاهرة، 1999م.
- يوهان فوك، "تاريخ حركة الاستشراق"، ترجمة: عمر لطفي العالم، ط 2، دار المدار الإسلامي، بيروت 2001م.
- حسن الأمrani، "صورة الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم في الأدب الغربي"، مجلة المشكاة، العددان: 48-49
- فرانتشيسكو غابريلي، "دانتي والإسلام"، ترجمة: موسى الخوري، مجلة التراث العربي، ع 41، تشرين الأول، 1990م.
- وجيه، قانصو، "نظرة الغرب التاريخية إلى الإسلام ... ودور المسلمين في بلورتها"، صحيفة الحياة، 2 فبراير 2008. على الموقع التالي:

<http://www.daralhayat.com/classics/02-2008/Item-20080201-d59c6944-c0a8-10ed-01dd-6f82e31891f1/story.html>

### المراجع الأجنبية:

- Bancourt, Paul , Les Musulmans dans les chansons de geste du Cycle du Roi, Publications : l'Université de Provence, Aix-en-Provence.
- Dagron, Chantal & Kacimi, Mohamed, Arabe, vous avez dit arabe ? 25 siècles de regards occidentaux sur les Arabes, Ed. Ballard, Paris, 1990.
- Filho, Emmanuel, L'image stéréotypée des Arabes, du Moyen Age à la guerre du Golfe , Revue: Hommes et Migrations, N°1183, Paris, 1995.
- Flori, Jean, Radiographie d'un stéréotype: la caricature de l'Islam dans l'Occident chrétien: sens et contresens, in Maroc-Europe, n° 3, 1992.

- Jargy, Simon, Islam et chrétienté, Ed. Labor et Fides, Genève, 1981
- Montgomery Watt, L'influence de l'Islam sur l'Europe médiévale, Traduction: Paul Genthner, Ed. Librairie orientaliste, 1974, Paris
- Norman Daniel, Islam et Occident, traduit par Alain Spiess, Ed. Du Cerf, Paris, 1993.
- Tolon, John, Les Sarrasins, Ed. Aubier, Collection historique, Paris, 2000

---

## BIBLIOGRAPHIE

---

Brown, S. E. (2018). The Art of Reading: Enhancing Intellectual Engagement through Book Reading. *Educational Psychology Review*, 30(3), 511-527.

Alexandra Bensamoun & Joëlle Farchy, rapport de mission Intelligence artificielle et culture, pour le compte du Conseil Supérieur de la propriété littéraire et artistique, 2020, 106 p., <https://www.culture.gouv.fr/Sites-thematiques/Propriete-litteraire-et-artistique/Conseil-superieur-de-la-propriete-litteraire-et-artistique/Travaux/Missions/Mission-du-CSPLA-sur-les-enjeux-juridiques-eteconomiques-de-l-intelligence-artificielle-dans-les-secteurs-de-la-creation-culturelle>

Gonzalez, L. C., & Walton, J. (2021). Artificial Intelligence and the Future of Literature: Challenges and Opportunities. *Computers and the Humanities*, 45(4), 789-805.

Hervé Hugueny, « Enquête sur l'intelligence artificielle dans l'édition », *Livres Hebdo*, 2018, <https://www.livreshebdo.fr/article/enquetesur-lintelligence-artificielle-dans-ledition/>

Johnson, M. A. (2019). *AI and Literature: Exploring the Boundaries of Creativity*. Cambridge University Press.

Miller, K. (2017). The Impact of Technology on Reading and Intellectual Engagement. *Reading Research Quarterly*, 52(3), 431-448.

Smith, J. (2020). The Impact of Artificial Intelligence on the Literary Landscape. *Journal of Digital Humanities*, 10 (2), 56-72.

Vincy Thomas, « Harper Collins mise sur l'intelligence artificielle », *Livres Hebdo*, 2017, <https://www.livreshebdo.fr/article/harpercollinsmise-sur-lintelligence-artificielle>

Véronique Heurtematte, « Intelligence artificielle, une nouvelle donne pour les bibliothèques universitaires », *Livres Hebdo*, 2019,

<https://www.livreshebdo.fr/article/intelligence-artificielle-une-nouvelle-donne-pour-les-bibliotheques-universitaires/>

<https://www.stateofdigitalpublishing.com/fr/outils-de-la-plateforme-numerique/ai-dans-l-39-industrie-de-l-39-edition/>

### **Conclusion :**

L'intégration de l'IA dans la littérature présente des défis importants qui doivent être soigneusement analysés et discutés. Il est crucial de trouver un équilibre entre l'exploitation des avantages que l'IA peut offrir et la préservation de l'essence de la création humaine, de l'authenticité émotionnelle et de la réflexion critique dans le domaine littéraire. L'IA doit être utilisée comme un outil pour enrichir et élargir l'expérience littéraire, non pour la remplacer ou la dénaturer.

L'évolution de l'acquisition des connaissances, stimulée par la montée en puissance de l'IA, exige un dialogue introspectif sur la nature de l'engagement intellectuel. Alors que l'IA démocratise l'accès à l'information, il appartient à chacun de trouver un équilibre entre la commodité et la profondeur cognitive. L'héritage culturel de la lecture nous rappelle la danse subtile entre l'engagement, la contemplation et l'assimilation progressive des idées.

L'avenir nous invite à repenser l'interaction entre l'IA et l'intellect humain - un avenir où l'IA renforce notre capacité de pensée critique, de réflexion et de créativité. Cette transformation ne signifie pas un amoindrissement de la tradition, mais une évolution qui nous permet d'embrasser le potentiel de l'IA tout en cultivant les vertus durables qui ont façonné notre héritage intellectuel. En adoptant à la fois le dynamisme de l'IA et le sanctuaire contemplatif de la lecture, nous pouvons tracer un chemin qui harmonise le progrès technologique avec l'essence de la croissance intellectuelle humaine.

création humaine. Nous devons nous assurer que les créateurs humains soient rémunérés, non seulement pour leur bien, mais aussi pour que nos livres et nos arts continuent à refléter nos expériences réelles et imaginaires, à ouvrir nos esprits, à nous enseigner de nouvelles façons de penser et à nous faire progresser en tant que société, plutôt que de ressasser de vieilles idées.

Il est impératif de mettre en place des garde-fous pour prévenir l'utilisation de l'IA à des fins malveillantes, telles que la diffusion de contenus haineux, discriminatoires ou plagés. Il est également essentiel de garantir une juste rémunération aux créateurs humains pour leur contribution au processus créatif, même lorsque l'IA joue un rôle prépondérant. L'objectif ultime est de trouver un juste équilibre entre l'innovation technologique et la préservation des valeurs humaines fondamentales. L'IA doit être un outil au service de la créativité et de l'expression, mais elle ne doit jamais devenir une menace pour l'intégrité et la diversité de la création littéraire.

L'IA offre un potentiel indéniable pour la création littéraire, permettant d'explorer de nouvelles formes d'expression et de générer des contenus innovants. Cependant, cette liberté créative doit s'inscrire dans un cadre éthique et respectueux des droits humains. L'IA offre un potentiel indéniable pour la création littéraire, permettant d'explorer de nouvelles formes d'expression et de générer des contenus innovants. Cependant, cette liberté créative doit s'inscrire dans un cadre éthique et respectueux des droits humains.

Il est impératif de mettre en place des garde-fous pour prévenir l'utilisation de l'IA à des fins malveillantes, telles que la diffusion de contenus haineux, discriminatoires ou plagés. Il est également essentiel de garantir une juste rémunération aux créateurs humains pour leur contribution au processus créatif, même lorsque l'IA joue un rôle prépondérant. Face à ces enjeux, il est crucial d'entamer une réflexion approfondie sur les questions de propriété intellectuelle et d'éthique liées à l'IA littéraire. Un dialogue ouvert entre les différents acteurs impliqués - créateurs humains, entreprises technologiques, juristes, philosophes - est indispensable pour élaborer un cadre juridique et éthique clair et adapté à cette nouvelle réalité.

C'est pourquoi il est indispensable de trouver un équilibre entre les apports de l'IA et la préservation des qualités humaines dans la littérature et les activités intellectuelles. L'IA doit être utilisée comme un outil pour nous aider à mieux comprendre et à mieux exprimer notre humanité, et non comme un substitut à celle-ci.

engagement plus profond. Elle peut servir de pont vers des sujets inconnus, encourageant l'exploration intellectuelle au-delà de sa zone de confort. Le point crucial est de considérer l'IA non pas comme un substitut aux pratiques traditionnelles, mais comme un allié qui améliore la qualité de l'engagement.

Accueillir la convergence toujours changeante de la technologie et de la littérature, c'est une invitation à un monde de possibilités illimitées. Alors que nous naviguons sur ce voyage transformateur, rappelons-nous que la technologie n'est pas là pour remplacer l'essence de la littérature, mais pour amplifier son pouvoir et sa portée. À l'ère des recommandations pilotées par l'IA, des récits interactifs et des livres audio narrés par l'IA, nous avons la possibilité de débloquent de nouvelles dimensions de la narration, de nous connecter à la littérature d'une manière jamais imaginée auparavant.

## **V. Les droits de propriété intellectuelle dans une nouvelle ère de créativité.**

L'avènement de l'IA dans le domaine de la création littéraire ouvre la porte à une question épineuse : celle de la propriété intellectuelle. Qui détient les droits d'auteur sur les œuvres créées par l'IA ? Comment s'assurer que cette technologie émergente est utilisée de manière responsable et éthique, en respectant les droits des créateurs humains et en évitant la diffusion de contenus nuisibles ou trompeurs ?

L'émergence de l'IA dans le domaine de la création littéraire met en lumière les limites de nos cadres juridiques actuels en matière de propriété intellectuelle. Les législations en vigueur ne parviennent pas à suivre le rythme des évolutions technologiques, laissant planer l'incertitude sur l'attribution des droits d'auteur aux œuvres créées par des algorithmes, comme le précise la directrice juridique adjointe de l'APRIL « L'intelligence artificielle remet en question les notions traditionnelles de création et de propriété intellectuelle, ce qui nécessite une adaptation urgente du cadre juridique. »<sup>1</sup>. Cette situation ouvre la voie à de potentiels litiges et plonge créateurs humains et entreprises technologiques dans un flou juridique préoccupant.

Cette situation ouvre la voie à de potentiels litiges et plonge créateurs humains et entreprises technologiques dans un flou juridique préoccupant. L'essor de l'IA nécessite des interventions juridiques et politiques qui permettent de trouver un équilibre entre le développement de technologies d'IA utiles et la protection de la

---

<sup>1</sup> Catherine Gidon, directrice juridique adjointe de l'APRIL (Association pour la promotion du logiciel libre), dans une interview au journal Le Monde, 15 mars 2024.



et de l'exploration approfondie. Les dimensions cognitives inhérentes à la lecture - pensée critique, analyse, synthèse - peuvent devenir secondaires dans un paysage dominé par des interactions rapides et fragmentées. Le risque de complaisance se profile, sapant l'essence même des activités intellectuelles qui ont défini le progrès humain.

L'accès instantané à des résumés générés par l'IA et à des analyses littéraires pourrait simplifier à l'excès l'engagement avec les textes, privant les lecteurs de l'expérience enrichissante de l'interprétation critique et de la réflexion profonde. La lecture attentive, l'analyse minutieuse et la construction d'arguments personnels sont des éléments essentiels à l'apprentissage et au développement intellectuel. L'IA, en fournissant des réponses toutes faites, risque de nuire à ces processus essentiels.

#### **IV. La menace du remplacement.**

Maintenant, une question nous hante : ces logiciels ne vont-ils pas nous évincer de la compétition et nous remplacer ? En réalité, ce n'est pas si simple. Grâce à l'IA, nous accomplissons désormais un travail de huit heures en deux heures seulement. Des recherches montrent que d'ici 2050, l'IA sera capable de produire des best-sellers sans aucune intervention humaine. Pour accélérer ce processus, Google, en collaboration avec l'université de Stanford et l'université du Massachusetts, a introduit l'IA dans onze mille livres afin d'améliorer le langage naturel. Plus tard, la machine a composé un poème à partir de deux vers donnés.

L'intelligence artificielle ne montre aucun signe de ralentissement et si elle continue à se développer, il y aura bientôt une explosion créative. Nous aurons un nombre incalculable d'œuvres littéraires. Cela semble positif, mais il y a des nuances à cette affirmation. Les recherches indiquent que même si l'IA possède une certaine créativité, elle est encore insuffisante pour décoder la psyché humaine. Par conséquent, peu importe le nombre de livres que nous aurons, ils pourraient manquer de précision et de profondeur.

Le défi qui nous attend consiste à trouver un équilibre harmonieux entre le potentiel transformateur de l'IA et les vertus durables de la lecture. La marche à suivre consiste à préserver l'espace de contemplation qu'offre la lecture tout en exploitant les capacités de l'IA pour enrichir les efforts cognitifs. La convergence de ces forces apparemment disparates n'est pas une dichotomie mais une opportunité de synthétiser leurs points forts. L'IA, en tant que facilitateur, peut aider à la constitution de listes de lecture personnalisées, fournir des aperçus du contexte historique et même générer des questions stimulantes pour un

de l'expérience et de l'imagination humaines, risque de perdre son essence si elle est dominée par des algorithmes et des modèles d'apprentissage automatique.

L'utilisation de l'IA pour produire des œuvres littéraires et artistiques diffère des autres utilisations de l'IA sous un aspect crucial. Les communautés humaines sont liées entre elles par la culture : la littérature, l'art, la musique et d'autres formes d'expression.

Si les œuvres générées par l'IA peuvent ressembler à des œuvres créées par des humains, elles leur manquent d'intelligence et de sensibilité. L'IA ne peut pas ressentir, penser ou faire preuve d'empathie. Elle ne possède pas les facultés humaines essentielles qui font progresser les arts. Néanmoins, la vitesse à laquelle l'IA peut créer des œuvres artistiques et littéraires pour concurrencer les œuvres d'auteurs humains représente une menace significative pour la valeur économique et culturelle de ces dernières.

L'IA peut certes produire des textes réalistes, mais elle risque de manquer de la profondeur émotionnelle et de l'authenticité qui caractérisent la littérature humaine. Les sentiments complexes, les nuances subtiles et les expériences vécues, qui sont au cœur de la création littéraire, sont difficiles à reproduire par des machines. L'IA peut générer des émotions artificielles, mais elle ne peut pas capturer la complexité de l'expérience humaine et la transmettre de manière authentique au lecteur.

L'IA, entraînée sur de vastes corpus de textes, pourrait involontairement perpétuer des biais et des stéréotypes existants dans la littérature. Cela pourrait conduire à une homogénéisation des styles et des perspectives, limitant la diversité des voix et des expériences représentées dans les œuvres littéraires. La littérature, par essence, devrait refléter la richesse et la variété de la pensée humaine, et l'IA ne devrait pas contribuer à la **réduire**.

### III. Le charme de la consommation instantanée.

La diffusion rapide d'informations par l'IA s'aligne sur la culture numérique effrénée, offrant des extraits d'information, des résumés et des versions abrégées de contenus complexes. Si cette accessibilité est louable, elle soulève une question pertinente : la rapidité des interactions avec l'IA compromet-elle l'effort cognitif nécessaire à un engagement véritable ? La commodité des réponses rapides risque de diminuer la motivation à se lancer dans un voyage intellectuel plus substantiel. Cette tendance peut favoriser une culture de passivité intellectuelle, où la recherche de la gratification instantanée éclipse les vertus de la réflexion soutenue

Cette influence de l'IA ne se limite pas au domaine littéraire, elle s'infiltre dans la structure même de l'intellect humain et des valeurs sociétales. Le lien intrinsèque entre la lecture et la cultivation de la sagesse et de l'empathie pourrait être menacé, car les solutions instantanées basées sur l'IA remplacent l'acte contemplatif de la lecture. Ce changement pourrait entraver la transmission du patrimoine culturel et éroder la profondeur intellectuelle nécessaire pour naviguer dans les complexités de la vie.

## **II. L'IA et l'avenir de l'écriture : un défi pour l'authenticité et la culture humaine.**

L'avènement de l'intelligence artificielle (IA) dans le domaine littéraire suscite un débat complexe et multidimensionnel. Si l'IA offre des outils puissants pour améliorer l'accessibilité, la traduction, l'écriture et l'analyse des textes, son intégration soulève également des défis importants qui remettent en question l'équilibre délicat entre la créativité humaine et le contenu généré par l'IA.

Aujourd'hui, les programmes d'IA commerciaux peuvent déjà écrire des articles, des livres, composer de la musique et rendre des images en réponse à des invites textuelles, et leur capacité à effectuer ces tâches s'améliore rapidement. Un large éventail d'outils d'aide à la rédaction est disponible dans le commerce et présente un grand potentiel pour accélérer et améliorer le travail de nombreux écrivains. Dans le même temps, l'utilisation de l'IA à la place d'écrivains humains se profile à l'horizon pour de nombreux types d'écrits, et menace de surcharger le marché des livres écrits par des humains.

Les œuvres littéraires et artistiques générées par l'IA, même sous leur forme la plus impressionnante, ne sont essentiellement qu'une imitation des œuvres d'expression humaines. Les technologies de génération par IA (c'est-à-dire les machines à IA utilisées pour générer des productions) sont "entraînées" sur des masses d'œuvres préexistantes (textes, images, musique enregistrée), où les œuvres copiées sont décomposées en éléments et en règles, et leurs structures déchiffrées. Les machines à IA grand public disponibles à ce jour ont été entraînées sur des œuvres copiées par des robots d'exploration d'internet sans licence ni permission.

L'un des défis majeurs réside dans la crainte que l'IA ne vienne supplanter la créativité humaine. L'IA peut générer des textes cohérents et grammaticalement corrects, imitant parfois les styles d'auteurs existants. Cela soulève la question de savoir si cette production automatisée peut se substituer à l'expression authentique et originale de la pensée et des émotions humaines. La littérature, en tant que reflet

domaine introduit un changement de paradigme, modifiant la façon dont la littérature est créée, consommée et comprise.

À mesure que les capacités de l'IA s'étendent, elle influence la littérature de multiples façons. Les outils basés sur l'IA améliorent l'accessibilité, rendant les œuvres littéraires accessibles à un public mondial en transcendant les barrières linguistiques. Elle aide à la traduction, comblant les fossés linguistiques et favorisant la communication interculturelle. Les outils d'écriture et d'édition assistés par l'IA rationalisent le processus créatif, augmentant le potentiel humain. De plus, les prouesses analytiques de l'IA dévoilent des schémas cachés dans les textes, enrichissant l'analyse et l'interprétation littéraires. Un rapport publié en octobre 2019 par Gould Finch et Frankfurter Buchmesse, conclut que l'IA a le potentiel de révolutionner l'industrie de l'édition en améliorant l'efficacité, en augmentant la créativité et en offrant de nouvelles expériences aux lecteurs, le rapport précise que :

*L'intelligence artificielle est définie comme une machine simulant l'intelligence humaine. Ses process incluent l'apprentissage (acquisition d'information, reconnaissance de modèles et de règles d'après des données), raisonnement (utilisation de règles pour aboutir à des conclusions approximatives ou définitives) et auto-correction. L'intelligence artificielle est une compétence technologique pour réaliser des tâches habituellement associées à l'intelligence humaine<sup>1</sup>.*

Malgré ces avancées positives, l'intégration de l'IA dans la littérature présente des défis. Le fragile équilibre entre la créativité humaine et le contenu généré par l'IA est remis en question. Les émotions nuancées inhérentes à la communication humaine risquent d'être éclipsées par les interactions médiatisées par l'IA. L'accessibilité des résumés générés par l'IA pourrait entraver la profondeur d'engagement qu'exige une lecture significative, nuisant potentiellement à l'esprit critique et à la réflexion profonde.

---

<sup>1</sup> Gould Finch et Frankfurter Buchmesse, (2019), *The future impact of artificial intelligence on the publishing industry* [Livre blanc]. p. 2.

[https://www.buchmesse.de/files/media/pdf/White\\_Paper\\_AI\\_Publishing\\_Gould\\_Finch\\_2019\\_EN.pdf](https://www.buchmesse.de/files/media/pdf/White_Paper_AI_Publishing_Gould_Finch_2019_EN.pdf)

## Introduction

Qui aurait pensé qu'un jour, la créativité se trouverait en dehors des êtres humains ? Dans la société moderne d'aujourd'hui, la technologie n'est plus un aspect isolé de notre vie ; elle est devenue une part intégrante de notre existence quotidienne. L'intelligence artificielle (IA) bouleverse le paysage créatif, en particulier dans le domaine de la littérature. Si elle offre des outils puissants pour améliorer l'accessibilité, la traduction, l'écriture et l'analyse littéraire, elle soulève également des inquiétudes quant à son impact potentiel sur la créativité humaine, l'engagement émotionnel, les habitudes de lecture et l'esprit critique. Et également sur la littérature et les activités intellectuelles. S'il est indéniable que l'IA peut apporter des contributions précieuses dans ces domaines, il est tout aussi important de préserver les aspects humains essentiels qui les caractérisent.

En effet, l'IA peut nous aider à analyser de grandes quantités de données, à identifier des tendances et à générer des contenus innovants. Elle peut également nous permettre de mieux comprendre les mécanismes de la création littéraire et intellectuelle. Cependant, il est essentiel de ne pas confier à l'IA la responsabilité de créer à notre place, de penser à notre place et de ressentir à notre place. Si l'IA peut faciliter la création et la consommation de contenu littéraire, elle ne saurait se substituer à l'essence même de la littérature : l'expression de l'expérience humaine, l'éveil des émotions et la stimulation de la réflexion critique. L'avenir de la littérature réside dans une collaboration harmonieuse entre l'IA et l'intelligence humaine, où l'une renforce les capacités de l'autre sans en altérer l'essence. Il est impératif de réfléchir à la manière dont l'IA peut enrichir le paysage littéraire tout en préservant l'essence de la créativité et du développement intellectuel humains.

### **I. L'avènement de l'IA dans la littérature : Une révolution à double tranchant.**

À l'ère moderne, l'intelligence artificielle (IA) s'est intégrée à de nombreux aspects de la vie courante, impactant profondément notre façon de fonctionner et de percevoir le monde. Parmi ses nombreuses intersections, la fusion de l'IA et de la littérature a suscité une attention considérable, catalysant des discussions qui vont des merveilles technologiques à la nature même de la créativité humaine et de l'engagement intellectuel. La littérature, en tant que vecteur d'expression humaine et de conservation culturelle, occupe une place unique dans les annales de l'histoire. Elle capture l'essence des sociétés, reflétant leurs croyances, leurs luttes et leurs aspirations à travers les époques. Cependant, l'entrée de l'IA dans ce

# L'impact de l'intelligence artificielle dans le monde littéraire



**Samra Najah**

Faculté Pluridisciplinaire de Nador  
MAROC

## Résumé

Cet article a pour but dans un premier temps d'explorer l'impact de l'intelligence artificielle (IA) sur le domaine littéraire, en analysant ses implications pour la création, la consommation et la compréhension de la littérature. Il examine les avantages potentiels de l'IA, tels que l'amélioration de l'accessibilité, l'écriture et l'analyse textuelle, tout en soulevant les défis et les risques liés à son intégration dans le paysage littéraire. Dans un deuxième temps nous mettrons le doigt sur la nécessité de trouver un équilibre entre l'innovation technologique et la préservation des valeurs humaines essentielles à la littérature. L'article conclut que l'IA doit être utilisée comme un outil pour enrichir et amplifier l'expérience littéraire, non pour la remplacer ou la dénaturer. Un dialogue ouvert et une collaboration entre les différents acteurs sont nécessaires pour élaborer un cadre juridique et éthique adapté à cette ère nouvelle de la littérature.

**Mots-clés :** Intelligence artificielle (IA), Littérature, Création littéraire, Authenticité humaine.

## Citation :

NAJAH, Samra. (2024, août). L'impact de l'intelligence artificielle dans le monde littéraire. Revue de recherche en sciences humaines et cognitives, Tome 1, N° 7, Première Année, P 24-33.

## Abstract

This article explores the impact of artificial intelligence (AI) on the literary world, examining its implications for literary creation, consumption, and understanding. It delves into the potential benefits of AI, such as increased accessibility, improved writing, and advanced text analysis, while also highlighting the challenges and risks associated with its integration into the literary landscape. The article emphasizes the need to balance technological innovation with the preservation of the essential human values that underpin literature. It concludes that AI should be used as a tool to enrich and enhance the literary experience, rather than to replace or distort it. Open dialogue and collaboration among stakeholders are essential to develop a suitable legal and ethical framework for this new era of literature.

**Keywords:** Artificial intelligence (AI), literature, literary creation, human authenticity.

---

## Annexe :

---

### **La sociologue marocaine Aïcha BELARBI :**

*Ce que je peux dire, c'est que la réussite d'une femme dans un monde masculin est un grand défi. Elle nécessite un grand investissement de sa part au niveau du travail, de l'écoute, de la disponibilité, et de la persévérance. Les hommes vous admettent dans leur cercle, à condition que vous recouriez à leurs comportements, vous utilisez leurs approches, vous employez leurs méthodes. Quand vous voulez vous en démarquer ils vous critiquent, vous dénigrent et vous rejettent. D'où la nécessité d'une volonté politique et de l'existence de groupes de pression qui accompagnent les femmes dans leur marche vers une meilleure intégration dans le développement et une plus grande implication dans les processus décisionnels » (GUERRAOUI, CHEFRANE, BELHACHIMI, 2002 :68-69).*

### **La sociologue marocaine Rahma BOURQIA sociologue et présidente de l'université Hassan II à Mohammedia :**

*La timidité est socialement cultivée pour les filles. Elle constitue le signe de la pudeur. Le défi était donc de franchir la barrière psychologique de silence pour prendre dans les lieux publics et professionnels qui sont souvent des espaces masculins. Avec le recul, je me suis rendue compte que l'obstacle majeur à mon émancipation était à moi, et que le fait de s'en débarrasser constitue le premier pas pour changer mon environnement social, changer l'image de la femme autour de moi, et éventuellement, contribuer à changer le regard que porte la société sur les femmes» (Ibid. :83).*

SCHOWEITZER Sylvie, « les enjeux de travail des femmes » Vingtième Siècle, Revue d'histoire, No. 75, Numéro spécial : Histoire des femmes, histoire des genres (Jul. – Sep., 2002), pp. 21-33

TESTENOIRE, Armelle, les carrières féminines : contingence ou projet ?, Dossier : harcèlement et violence les maux du travail, travail genre et société, Edition L'Harmattan, Mars 2001,

TOURAINÉ Alaine, « les mouvements sociaux : objet particulier ou problème central de la sociologie », Revue Française de sociologie, XXV, 1984, p : 3-19.



---

## Références :

---

- AKHEARBACH Latifa, Narjis RERHAYE, Femme et politique, Edition le Fennec, collection Marocaines et citoyennes de demain, Casablanca, 1992.
- ALAMI M'CHICHI Houria, Genre et politique au Maroc : les enjeux de l'égalité hommes- femmes entre islamisme et modernisme, Edition l'Harmattan, 2002.
- BELLE, Françoise, être femme et cadre, Edition l'Harmattan, collection logiques sociales, 1991.
- BENABDENBI-DJERRARI Fattouma, Marocaines et sécurité sociale, Edition le Fennec, collection marocaines et citoyennes de demain, Casablanca, 1992.
- BOURDIEU Pierre, La domination masculine, Editions du Seuil, collection Points Essais, Paris, 2002.
- CACOUAULT Marlaïne & Gilles COMBAZ, « hommes et femmes dans les postes de directions des établissements secondaires : quels enjeux institutionnels et sociaux ? », Revue Française de Pédagogie, No. 158 (JANVIER-FEVRIER-MARS 2007), pp. : 5-20.
- DAOUD Zakia, Féminisme et politique au Maghreb soixante ans de lutte, Editions Eddif, Casablanca, 1993.
- DE BOUVOIR Simone, le Deuxième sexe II, Edition Gallimard, 1949.
- DUNEZAT Xavier, « des mouvements sociaux sexués » Nouvelles Questions Féministes, Vol. 19, No. 2/4, Ils changent, dissent-ils 1998, pp. : 161-195.
- GUERRAOU Driss, Malika CHEFRANE, El Houcine BELHACHIMI, femme fonctionnaire du Maroc, 1er les Editions Toubkal et L'Harmattan, Ed 2002.
- RODARY Meriem, « le travail des femmes dans le Maroc précolonial, entre oppression et résistance. Droit au travail ou accès aux bénéfices ? », Cahier d'Etudes Africaines, Vol. 47, Cahier 187/188, Les femmes, le droit et la justice, 2007, pp. 758-780.
- ROMITO Patrizia & Françoise HOVELAQUE, « Travail des femmes et santé », Nouvelles Questions Féministes, No. 13, LE SEXE DU CERVEAU (printemps 1986), pp. 37-52.

l'exercice de l'activité professionnelle, mais aussi le savoir être, tout en respectant l'entité différente.

Finalement, on est habitué à entendre des compétitions organisées pour encourager et récompenser les institutions qui respectent l'environnement, ou celles qui utilisent les nouvelles technologies de l'information et de communication, mais on n'a jamais eu l'occasion de penser à organiser une compétition pour encourager les institutions à adopter et incarner réellement l'approche genre dans leur fonctionnement. A titre d'exemple on peut prévoir des prix pour les établissements scolaires dont la composition des conseils (CG et CP) assure une représentativité adéquate des femmes et implique ces dernières dans le processus décisionnel de l'établissement en respectant les normes et les exigences de l'approche genre en tant qu'approche participative.

Ainsi, l'enjeu doit désormais, se cristalliser sur deux axes : d'un côté, celui qui concerne proprement l'environnement de travail, c'est-à-dire réduire le risque des perceptions, surtout celles découlant de la croyance en une infériorité féminine, de ceux qui sont chargés des affaires scolaires, puisqu'on a vu qu'un bon nombre de directeurs perçoivent les femmes comme si elles ne sont pas intéressées aux conseils. De l'autre côté, celui qui renvoie à la transformation des rapports de force au sein du couple, c'est-à-dire travailler pour diminuer la dépendance de la femme vis-à-vis de son mari en termes d'activité professionnelle. A cet effet, un travail énorme de sensibilisation doit être effectué de haute priorité. En fait, il faut faire connaître la problématique sur une grande échelle afin de la sortir du silence patriarcal. De cette façon, on va mettre tous les intervenants dans l'embarras : qu'ils soient maris, professeurs, directeurs, décideurs...en élaborant des stratégies pour amener les hommes à prendre conscience de leurs préjugés et de la nécessité de transformer leurs représentations mentales, afin que les femmes et les hommes bénéficient des mêmes chances de s'épanouir professionnellement. A ce moment-là, on ne pense pas que quelqu'un accepte d'apparaître comme s'il est contre l'épanouissement de la femme, qu'elle soit sa conjointe où sa collègue, devant elle-même ou devant ses enfants ou devant ses équipes et collaborateurs. Il faut également s'attaquer aux stéréotypes de genre touchant les hommes, et engendrant chez ces derniers des freins conscients ou inconscients qui les empêchent de s'impliquer davantage dans leur vie personnelle en général, et dans leur rôle de père en particulier en cherchant ainsi à valoriser les hommes qui s'engagent dans leur vie familiale et aident leurs femmes qui doivent être actives, à promouvoir leurs carrières professionnelles. Il faut penser également à encourager la participation féminine en adoptant des mesures dans le cadre de la réforme du système éducatif actuelle, qui prévoient une parité et une égalité de sexe tout en gardant les esprits d'initiative et d'équipe comme des atouts de la réussite professionnelle. A cet effet, il faut inclure des modules de genre dans les formations professionnelles de base des enseignants et enseignantes, des directeurs et directrices, ainsi que d'autres modules destinés à faire valoir les conseils d'établissements scolaires et faire connaître leur importance et leurs nouvelles missions attribuées par les nouvelles réformes du système éducatifs. Il paraît, qu'un module destiné à faire savoir comment concevoir et réussir son projet professionnel tout en prenant en considération le projet personnel et le projet de famille, pourrait jouer un rôle important dans la stratégie qui consiste à réorganiser les rapports de genre au sein de la sphère conjugale. Il faut apprendre aux futures enseignantes et enseignants non seulement le savoir ou le savoir-faire relatif à

professionnelle des femmes » ; la représentation des rôles et les valeurs investies dans l'exercice de la fonction de direction des établissements scolaires selon le sexe ; le rapport "compétence" et "accès des femmes et des hommes aux fonctions de direction ou aux postes de décision" ; attitudes du mari envers la réussite professionnelle de sa femme.... En outre, on a l'intime conviction que la question féminine devrait être traitée profondément et qu'il ne faudrait pas se limiter à des interprétations superficielles et générales, surtout quand il s'agit d'un domaine sensible qui est la sphère décisionnelle.

Professionnelleons vu, le fait de considérer l'activité professionnelle de la femme comme entrant dans le cadre de l'assistance du conjoint reste le principal point noir ; c'est la principale cause qui gèle et bloque le développement de la carrière professionnelle de la femme, ainsi que sa participation aux conseils et aux instances décisives et associations professionnelles ou syndicales... C'est pour cela qu'on dit souvent que l'approche législative et l'approche institutionnelle ne suffiraient jamais pour faire impliquer véritablement la femme dans la sphère décisionnelle relative à l'activité professionnelle. Certes, ces approches fournissent des outils et des moyens prometteurs pour instaurer les principes d'égalité des sexes et de parité « homme femme » dans les différentes institutions de l'Etat, mais on ne parvient pas encore à briser le « plafond verre » qui empêche les femmes d'accéder pleinement à ces instances décisives.

Ainsi, sans penser à réorganiser et transformer les rapports de sexe à l'intérieur de la famille, et exactement au sein du couple, pour qu'ils deviennent favorables aux femmes, tout autre effort qui consiste à rééquilibrer leurs droits vers plus d'égalité, risquent de ne changer rien à la situation et de ne donner aucun résultat satisfaisant. Car, on sent tout simplement qu'il y a une appropriation de travail et de participation de la femme par son conjoint, de sorte qu'il déploie son contrôle sur sa vie professionnelle et même sur ses moyens de communication. En fait, on a vu dans cette étude que les femmes enseignantes dont leurs conjoints travaillent hors de la ville où elles exercent, ont tendance à participer aux conseils d'établissements scolaires plus que celles dont leurs maris exercent dans la même ville qu'elles. Désormais, on peut dire que le défi de concilier les obligations familiales et les responsabilités professionnelles ne constitue donc, pas le vrai obstacle pour la femme ; mais c'est l'implication du mari dans sa vie professionnelle qui consiste pour elle le vrai défi à surmonter, c'est pour cela qu'elle adopte des stratégies de négociation et d'inclusion de sa vie professionnelle dans l'intimité conjugale pour qu'elle soit en mesure d'être validée par le conjoint.

cadre du projet de fin d'étude de cycle Master GSDH<sup>1</sup>, de traiter autrement la question de la sous-représentativité des femmes dans les instances décisives relatives à la sphère professionnelle, au lieu d'envisager des explications simplistes qui condamnent les femmes à une image stéréotypée satisfaisante au groupe dominant plus que de donner des raisons convaincantes, tangibles et directes du phénomène étudié. On sait tous que l'accès de la femme à l'activité professionnelle n'est plus question aujourd'hui ; mais le fait d'avoir des femmes qui veulent développer librement leur carrières, grimper les statuts et les échelons de la hiérarchie professionnelle en participant aux différents conseils et comités de gestion à l'intérieur de la des institutions, en ne se contentant pas à y être des simples techniciennes et des exécutantes, suffit de réveiller un lourd patrimoine culturel qui se résume en une simple phrase : « les hommes ne sont pas en mesure de partager un pouvoir, dont ils défendent rudement, avec l'autre sexe ».

A cet effet, on a choisi l'exemple d'étudier un échantillon des femmes enseignantes qui devraient participer pleinement aux conseils de gestion et aux conseils pédagogiques des établissements scolaires où elles exercent leurs activités professionnelles. Ajoutant à cela que ces conseils ont été choisi parce qu'ils font objet d'une représentativité des différents corps (professoral, administratif, ...) et assurent une certaine autonomie à ces établissements et découlant des nouvelles réformes que subissait le système éducatif au Maroc dans la dernière décennie. A cet effet, on a proposé principalement et implicitement une hypothèse par laquelle on voulait dire que les femmes se dotent d'une volonté ferme à participer et exister dans les différentes instances décisives et que leurs préoccupations et obligations familiales ne peuvent être obstacles à sa participation. C'est pour cela quand a émis des hypothèses opérationnelles comme l'effet psychologique du mariage et l'implication du mari dans la sphère professionnelle de sa femme, ainsi que le manque d'information... que l'on avait traitées par des indices mesurables.

Avant de présenter les résultats généraux, je voudrais souligner que ce travail était conçu comme une enquête de sondage pour ouvrir la voie à des recherches plus extensives, utilisant un effectif plus grand et des champs d'enquête définis avec plus de précisions. En fait, la vérification de ces hypothèses a non seulement donné des résultats pertinents mais elle a fourni également d'autres pistes d'étude et de recherche, à savoir : le vraie rapport entre « maternité » et « carrière

---

<sup>1</sup> Master Genre, Société, et Développement Humain, Université Mohamed Premier Oujda, Maroc, année universitaire 2012-2014.

négociation explicite, ainsi qu'elles ne s'insèrent pas dans un projet puisqu'elles se construisent et se négocient étape par étape (Ibid.: 132). Donc on note que la carrière masculine bénéficie davantage d'une forte légitimité, tandis que celle féminine passe toujours par une négociation conjugale explicite.

Ajoutant à cela que même si la réussite professionnelle de la femme constitue un élément secondaire pour le mari, cela n'empêche pas qu'elle soit un élément de fierté pour lui vis-à-vis l'extérieur, sans oublier l'apport de revenu qu'elle représente. Or cette réussite risque d'introduire également une situation de compétition implicite entre les conjoints. En fait, de point de vue psychologique, cette situation peut être vécue par le mari comme son « échec », et difficile à assumer vis-à-vis de lui-même et vis-à-vis d'autrui, notamment ses propres enfants (TESTENOIRE, 2001 : 129) ou ses collègues.

### **Conclusion :**

La différence hommes femmes n'est qu'un construit social qui s'ancre par l'intériorisation des schèmes de pensée mettant en avance la participation de l'homme et infériorisant celle de la femme. La femme se trouve ainsi dans une situation qui exige d'elle de déployer plus d'efforts et d'avoir plus de compétence pour franchir les barrières, alors que les hommes qui se dotent d'une forte position sociale et d'un pouvoir symbolique. Ils ne sont pas obligés de faire montrer d'excellence pour être en mesure de participer à la prise de décision. Cette valorisation différenciée et sexiste de la participation trouve ces racines dans la division socio-sexuée de travail et dans l'émergence des structures patriarcales qui maintiennent ce discours sexiste et engendrent chez les femmes une certaine démotivation ou dysfonctionnement. Ainsi, le combat est à front multiple pour les femmes ; il ne suffit pas d'emporter l'enjeu législatif ou institutionnel pour parler d'une véritable implication de la femme dans la sphère décisionnelle, la bataille est à mener dans des niveaux plus profonds, en termes de contrôle des ressources sociales et culturelles ou ce qu'appelait Touraine "l'historicité" (TOURAIN, 1984 :10-11).

**Etude de la participation des femmes enseignantes aux conseils d'établissement scolaires (délégation de Guercif comme exemple) : Conclusions et implications pratiques.**

Cadrait fixé comme principal objectif à cette enquête qui s'inscrit dans le

## 7. Une carrière à négocier avec le conjoint

On a vu précédemment que l'activité professionnelle de la femme est conçue comme entrant dans le cadre de l'assistance au conjoint, et que son salaire n'est qu'un salaire d'appoint. Donc, on peut en estimer le classement du « professionnel féminin » dans la hiérarchie des préoccupations de la famille : tout se passe comme si : « *Le domestique féminin prime le domestique masculin, le domestique féminin prime le professionnel féminin, le professionnel masculin prime le professionnel féminin* » (Ibid. :185). La réussite professionnelle de la femme mariée constitue un élément secondaire pour la famille : tout se passe comme si les exigences associées aux investissements indirects dans la carrière de son mari et dans l'éducation de ses enfants, venaient contrarier ses investissements personnels dans sa propre vie professionnelle. Même si le législateur propose des dispositions qui consistent à organiser la participation des femmes à la vie économique, sociale, et politique de telle manière que cette participation ne vient pas remettre en cause leur rôle particulier de mère et d'épouse.

C'est ainsi que les femmes mariées se retrouvent souvent obligées à adopter des stratégies qui se basent sur la négociation de leur carrière avec leurs conjoints et de les faire impliquer dans leur vie professionnelle pour que cette dernière soit promue et mise en valeur. C'est-à-dire : la femme a besoin d'une expression et d'une négociation explicites de sa carrière avec son mari ; elle essaye souvent de l'impliquer dans sa carrière et sa vie professionnelle pour lui présenter et mettre en évidence son identité professionnelle (TESTENOIRE, 2001 : 129) ; elle fait cela en raison de la nécessité d'une confirmation de sa nouvelle identité professionnelle qui permettrait de lever et d'éviter des tensions ultérieures (Ibid.). C'est pour cela qu'elle inclue plus spontanément son activité professionnelle dans l'intimité conjugale, car tout simplement, ce partage du vécu professionnel qui s'effectue par la parole, lui permet de chercher et d'obtenir une validation explicite des différentes étapes de sa carrière par son conjoint (Ibid. : 132).

Pourtant, l'homme parle peu de sa carrière ou de difficultés qu'il affronte dans sa vie professionnelle, avec sa femme. Il se définit comme « célibataire » au travail (Ibid. : 131). En couple il ne parle guère de son travail et ne négocie rien de sa carrière avec elle qui devrait être aussi active ; l'activité professionnelle consiste pour lui un territoire personnel. Les carrières masculines s'inscrivent initialement dans le cadre d'un projet et bénéficient d'une grande marge d'autonomie ; ce qui n'est pas toujours le cas pour les carrières féminines, qui se trouvent néanmoins confrontées à certains points de rupture, qui requièrent une

de la vie « familiale ». C'est pour cela que la carrière professionnelle de la femme mariée est souvent soumise à des ruptures et se passe par des négociations dans le cadre de la sphère conjugale (TESTENOIRE, 2001 :132).

Il convient alors, de ne pas associer les inégalités professionnelles entre les femmes et les hommes uniquement à des pratiques discriminatoires perçues dans le contexte professionnel et ou dans l'environnement de travail, mais elles proviennent aussi des effets divergents du mariage sur les époux. Autrement-dit la mise en valeur de la carrière professionnelle de la femme ne dépend pas seulement de la culture de l'entreprise ou de l'organisation où elle travaille, mais également de « la stratégie conjugale » qu'elle adopterait. C'est pour cela que plus la dépendance de la femme vis-à-vis de son mari diminue, les rapports de forces symbolique au sein du couple lui devient plus favorables (BELLE, 1991 :185).

En ce qui concerne le secteur de l'éducation, secteur où le taux de féminisation est élevé ; dans une étude faite par (CACOUAULT et COMBAZ, 2007) sur : « les hommes et les femmes dans les postes de direction des établissements secondaires » on note que les enseignantes placent leur carrière professionnelle au second rang de leurs préoccupations (Ibid. :6). En outre, elles rencontrent des problèmes pour mettre en œuvre des stratégies de carrière dans un cadre familial. C'est pour cela que la majorité d'enseignantes envisage de devenir chef d'établissement seulement lorsqu'elles estiment suffisamment dégagées des tâches domestiques et familiales. Tandis que la paternité ne freine plus la carrière professionnelle des hommes enseignants ; chose qui a été prouvé par une étude comparative de la durée qui s'écoule entre le début de l'activité professionnelle et l'obtention du premier poste de direction d'établissement qui s'avère très inégale selon le sexe (Ibid. :11) ; autrement dit, les femmes attendent plus que les hommes pour obtenir un poste de direction. Ainsi, dans un concours de recrutement pour des postes de la fonction administrative, on ne doit pas être surpris de trouver que les femmes enseignantes sont moins nombreuses à y se présenter et que les hommes se montrent plus attirés par la direction d'une école ; mais paradoxalement, lorsqu'elles se portent candidates elles réussissent mieux que les hommes : on pourrait en révéler l'indice d'un phénomène qui est l'auto-exclusion (Ibid. : 7). Donc, cette prédominance des hommes ne peut jamais être expliquée par le fait que les femmes enseignantes sont moins compétentes.

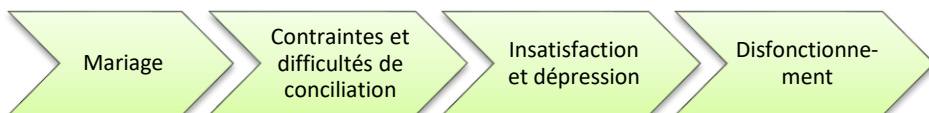


## 5. Le mariage : un effet psychologique divergent

Le mariage est une institution sociale qui favorise la stabilité de la société, puisqu'il est le mode de l'organisation de la conjugalité le plus ancien et le plus répandu. Mais ce mariage a également des effets divergents et cruciaux sur la vie des époux. En fait, de point de vue médical, les études ont montré que le mariage a un effet protecteur sur la santé de l'homme mais non plus pour la santé de la femme (ROMITO & HOVELAQUE, 1986 :46) ; surtout lorsqu'il s'agit d'une femme qui réunit le rôle domestique et son activité professionnelle. Les études ont montré également, que les femmes sont plus souvent déprimées lorsqu'elles sont mariées que lorsqu'elles se trouvent dans n'importe quelle autre catégorie : célibataire, veuve, divorcée. Quant aux hommes, la tendance est inverse : les non-mariés ont plus de probabilité d'avoir une dépression que les mariés (Ibid. :45). Ce qui est confirmé également par une autre étude sur le rapport entre la mort du partenaire et l'espérance de vie de conjoint (e) : c'est-à-dire, le risque de morbidité est beaucoup plus élevé pour les veufs que pour les veuves (Ibid.). Donc tout se passe comme si le rôle domestique de la femme et son travail ont une importance cruciale (nullement reconnu socialement) pour la santé des membres de la famille, mais non plus pour elle.

## 6. Une carrière professionnelle féminine soumise à des ruptures et non linéaire.

Le mariage a également un effet négatif sur l'avenir professionnel de la femme. En fait les contradictoires fréquentes et profondes que la femme vit entre projet professionnel et projet familial, provoque une réelle insatisfaction. Ce qui entraîne à un dysfonctionnement dans leur travail (BELLE, 1991 :189-190).



Car, le fait d'harmoniser ses devoirs familiaux et ses obligations professionnelles et réunir ces deux paramètres n'est pas une chose à faire facilement. Tout se passe comme si la femme prévoyait, plus ou moins consciemment, sa « carrière maternelle » et ajustait le niveau de ses investissements professionnels selon ses projets de famille (Ibid. :184). En plus de cela, l'entreprise ou l'institution où elle travaille n'est jamais neutre dans ce calcul. Ainsi, une femme mariée qui a une activité professionnelle devrait cumuler les charges de la vie « active » et celles

Parmi les mesures prises par le législateur en termes de la protection de la maternité, on cite le congé pré et post natal. Mais, malheureusement ceci peut encore produire des impressions négatives sur l'activité professionnelle de la femme : notamment l'opinion courante qui trouve que « l'activité professionnelle a un effet négatif sur l'évolution de la grossesse et la santé de la mère et de son enfant ou de la famille en générale, d'où la nécessité de les prévenir ». De ce fait, la sphère domestique paraîtrait "la meilleurs place" pour la femme, or, les résultats de certaines enquêtes ont montré le contraire. À titre d'exemple, les femmes au foyer ont plus de probabilité d'avoir un enfant prématuré que l'ensemble des femmes ayant une activité professionnelle (ROMITO & HOVELAQUE, 1986 :41). En fait, l'ensemble des recherches semblent indiquer que l'accès au rôle domestique (automatiquement avec le mariage) est nocif pour les femmes et cela est encore plus intense quand les femmes le font à temps complet (Ibid. :45). Pour ceux qui disent que les femmes doivent consacrer le plein de temps à leurs enfants, les recherches ont montré que loin d'avoir seulement ou surtout l'amour maternel, le petit enfant a besoin de stimulation intellectuelle en jouant avec ses pairs d'âge ; ces mêmes études ont révélé que les enfants qui fréquentent les crèches se développent mieux du point de vue social et cognitif, que ceux qui sont élevés à la maison (Ibid. :47).

#### **4. L'assistance au conjoint**

Depuis toujours les femmes actives étaient classées auxiliaires, qu'elles aient été opératrices de téléphone, dactylographes, institutrices... (SHWEITZER, 2002 :30) et le salaire de la femme continuait à être considéré comme un salaire d'appoint (ROMITO & HOVELAQUE, 1986 :37), car la participation de la femme à la vie économique était souvent conçue comme entrant dans le cadre de l'assistance au conjoint (SHWEITZER, 2002 :27). De ce fait, on ne doit pas être surpris de la faible présence des femmes dans les métiers du savoir et de décision qui nécessiteraient une évolution linéaire et dynamique des carrières.

Cette présence différenciée des femmes et des hommes sur le marché de travail, trouve également, ces raisons dans les inégalités d'accès des filles à certains cursus ou plus exactement la non-mixité de ces cursus (SHWEITZER, 2002 :25). En effet, les intériorisations passives des différences sexuées entraînent à une concertation des filles dans un petit nombre de formations et donc de métiers, qui reste plus souvent attribuée au destin social qui leur est assigné : la maternité (SHWEITZER, 2002 :25 et (S. DE BOUVOIR, 1949 :134-135).

La définition traditionnelle de l'économie, qui réduit ce concept à des activités marchandes, "**invisibilise**" également la participation de la femme. Car celle-ci exerce des activités de services qui peuvent être qualifiées comme « activités non-marchandes » (LE BOUCHER, 2001 :16). Et même si elle exerce des activités de production pour le marché, celles-ci risquent d'être non rémunérées et non comptabilisées, et dans certains cas, c'est le conjoint qui commercialise les biens de sa femme en refusant en générale de reconnaître leur droit à bénéficier personnellement de la valeur de leur travail (RODARY, 2007 :764-765). En fait, les activités féminines étaient souvent qualifiées comme activités économiques informelles puisque elles ne rentrent pas comme on a vu, dans la définition classique et « Androcentrée » de l'économie (Ibid. :770). Mais paradoxalement, parfois les femmes exprimeraient une volonté de préserver cette invisibilité, en minimisant les gains générés par leur activité et en dévalorisant par elles-mêmes leur profession, car cette « auto-invisibilisation » pourrait offrir aux femmes qui la pratiquent des outils de résistance au pouvoir des hommes et en tirer une certaine liberté (RODARY, 2007 :774).

#### **IV. L'activité professionnelle de la femme : entre projet professionnel et projet familial et projet personnel : les PPP.**

Contrairement à celui de l'homme, l'avenir professionnel de la femme risque d'affronter plusieurs obstacles. Elle doit faire le plus possible pour qu'elle réussisse à réunir à la fois entre son projet professionnel, son projet personnel et ses obligations familiales. C'est ainsi que la carrière professionnelle féminine est souvent soumise à des limites et parfois des ruptures.

##### **3. Le personnel protégé :**

Les femmes rencontrent très peu de limites au marché de travail dans les droits contemporains. En ce qui concerne le droit du travail marocain : les seules restrictions au travail des femmes sont des mesures dites de "protection" puisque les femmes constituaient avec les enfants le personnel "protégé". Elle ne peut être donc, employée pour des travaux dits "dangereux" ou difficiles (RODARY, 2007 :756). Mais cette attitude de « protection par exclusion » ou « d'exclusion par protection » peut être mal interprétée. Il semble qu'elle est exploitée uniquement quand il s'agit des travaux où les hommes sont majoritaires et les salaires sont élevés (postes de pouvoir et de responsabilité à titre d'exemple).

démentir les préjugés, en apportant la preuve par leur engagement politique et militant multiforme, peu d'entre nous connaissent des portraits de marocaines exceptionnelles qui ont participé efficacement à la résistance, le mouvement national, les partis politiques, les syndicats, la diplomatie, l'administration, etc. (AKHARBACH & RERHAYE, 1992 : 15). Tout se passe comme si elles n'avaient existé pas, puisque tout est organisé selon le modèle masculin. Les femmes ont été longtemps cantonnées dans des tâches bien particulières, soit exclusivement féminines, soit peu qualifiées (SHWEITZER, 2002 :23), tandis que les tâches du pouvoir et du savoir restaient le domaine le plus exclusifs pour les hommes dont ils défendent rudement. C'est ainsi que Zakia Daoud, l'écrivaine franco-marocaine, appelle souvent les femmes à investir dans un champ de pouvoir, qui est l'information, par l'écriture, comme moyen d'émancipation pour briser ce silence ancestral et couvrir le discours masculin : « *pendre la parole pour l'instant la plus importante des stratégies de contre-pouvoir que les femmes ont inventées* » (DAOUD, 1993 : 32). Il semble donc, qu'il est nécessaire d'apporter le maximum d'information sur les femmes, car il y a un manque et une ignorance flagrante de la réelle participation importante de la femme, puisque « *la femme souffre entre autres d'un déficit d'image* » (AKHARBACH, RERHAYE, 1992).

## **2. Une discrimination sous-jacente dans le concept du travail et la définition traditionnelle de l'économie.**

Le concept du travail lui-même, présente des allusions discriminatoires envers les femmes. Effectivement, ce concept s'identifie à l'activité professionnelle et à elle seule. Ainsi un actif, c'est quelqu'un qui a une activité professionnelle ou qui recherche une (SHWEITZER, 2002 :29). Mais, paradoxalement, les femmes qui se consacrent uniquement aux tâches domestiques sont nommées "inactives", pendant qu'un chômeur est désigné comme "actif". De plus, ce n'est pas seulement dans le langage du sens commun qu'une ménagère soit définie comme une personne "qui ne travaille pas" ; en outre, dans les nomenclatures précédentes des professions et des catégories socioprofessionnelles, les ménagères rentraient dans la catégorie « inactif divers » même si l'horaire de travail de celles-ci, peut atteindre 70 heures par semaine et sans jamais descendre de 20 heures (ROMITO & HOVELAQUE, 1986 :39). Ajoutant à cela qu'au Maroc, le Haut-Commissariat du Plan considère une femme sans emploi, ayant 15 ans ou plus et qui réalise la majeure partie des tâches du foyer : entretien domestique, achats, préparation des repas, surveillance et éducation des enfants..., une personne « inactive » (HCP, 2014 : 79). On peut maintenant comprendre, à partir de ce qui a été dit, où s'enracine la langue invisibilité du travail féminin.

comportements qui l'accompagnent, du moins dans tout ce qui relève des tâches dites domestiques, se résument en concept de "la haine de genre" (Ibid. :185). L'étude de ce concept est aussi indispensable pour comprendre le processus qui conduit à la sous-représentation des femmes et leur invisibilité dans certains domaines, notamment celui de la politique. De ce fait, il faut que les analyses du genre prennent en compte à la fois, les mécanismes concrets de l'exclusion politique des femmes, et les discours et les pratiques relevant de « la haine de genre », dont la fonction est de légitimer cette exclusion (Ibid. :186).

De ce fait, Comme étant le plus ancien ayant le pouvoir, l'homme qui a gardé souvent cet avantage pour lui, ne semble pas y renoncer facilement. Ceci est reflété socialement par ce qu'on appelle des "mœurs patriarcales", qui entraînent à une oppression des femmes par l'exaltation des vertus d'obéissance (DAOUD, 1993 :13). C'est ainsi que les femmes rarement sont invitées à participer de façon significative à la prise de décisions relatives à l'affaire publique. Dans les meilleurs cas elles sont considérées de bonnes techniciennes, exécutantes, vigilantes et attentives (DJERRARI, 1992 :11-12). D'où il est nécessaire de d'analyser le caractère patriarcal du rapport social de sexe et savoir comment les femmes finissent par être confinées dans des tâches exécutives.

Ainsi, pour que l'application de l'approche genre dans un domaine comme la politique soit fructueuse, il faut dans un premier temps, décrypter les discours et analyser les pratiques relevant de ce domaine qui est particulièrement confisqué par l'homme (M'CHICHI, 2002 : 21). Ajoutant à cela que, sans être la société la plus misogyne du monde arabe, la société marocaine a aussi ses peurs ataviques et ses phantasmes héréditaires. En fait, ces peurs ancestrales bien enfouies dans l'imaginaire culturel, font que l'on redoute l'accès des femmes à la politique comme un danger imparable pour l'ordre patriarcal qui est fait d'une domination masculine sans partage et d'un rapport de forces qui est, depuis toujours favorable aux hommes (AKHARBACH, RERHAYE, 1992 : 13-14).

### **III. La dévaluation culturelle de la participation des femmes :**

#### **1. Une participation "couronnée" par un silence patriarcal :**

La participation des femmes est souvent confrontée à une dévaluation culturelle (ROMITO & HOVELAQUE, 1986 :43) manifestée par une résistance idéologique et une non-reconnaissance sociale flagrante. En fait, bien que l'histoire marocaine fût marquée par des femmes qui ont eu l'opportunité et le courage de braver les tabous, de surmonter les handicaps, de défier leur peur et de

cuisine ou la couture, obtiennent « par magie » un statut « noble » lorsque les hommes s'y attellent hors de la sphère privée (BOURDIEU, 2002 : 86).

Cette division socio-sexuée de travail est assurée également par le monopole de l'homme des activités-clés dans un cycle de production. Ce monopole lui permet de garder son contrôle sur tout le cycle (RODARY, 2007 : 765). A titre d'exemple : au Maroc, la femme réalise deux tiers du travail agricole dans un cycle agraire ; toutefois, la participation de l'homme fut considérée plus important, puisqu'il commence le cycle agraire et le clôture par les actions de semer et de moissonner (BOURDIEU, 2002 : 70). Il semble ainsi que c'est le fait d'être à l'origine de la production et d'en être responsable qui est décisif, et ce n'est plus la quantité ou la durée du travail effectué qui compte (RODARY, 2007 : 765).

C'est ainsi que la division sexuelle du travail offre aux hommes le contrôle et le monopole des moyens de production (ressources, outils, techniques, capitaux, activités-clés...) sans lesquels, ils auraient difficilement pu atteindre une appropriation de travail des femmes ainsi que leur pouvoir sur elles. Il paraît donc, que la différence des rôles homme/femme dans le cycle de la production soit un construit social et non plus naturel (BELLE, 1991 : 183).

Dans une autre étude sociologique, En se référant aux travaux du DUNAZET, ce dernier a le mérite de révéler le caractère patriarcal de la division socio-sexuée du travail : « *Aux hommes "le choisir" et aux femmes "le faire"* » (DUNAZET, 1998 : 184). Autrement dit : les hommes exercent souvent des tâches liées à des enjeux de pouvoir, tandis que les femmes sont toujours confinées dans des tâches exécutives. Cette division patriarcale du travail s'explique dans ce cas par deux niveaux (Ibid. : 185) : l'intériorisation de schèmes patriarcaux et le sexisme. Le premier est le résultat d'une socialisation à caractère patriarcal, portée par l'ensemble des institutions sociales ayant des normes et exerçant des pratiques différenciées selon le sexe des individus. Cette socialisation donc, est à l'origine des représentations sexuées ou "genrées" qui sont, à la base de notre (in)conscience et de nos pratiques. Le deuxième niveau qui est le sexisme, constitue une autre dimension de système patriarcal : dans ce niveau, la reproduction sociale est accompagnée d'une volonté et d'une conscience, socialement construite, d'avoir des pensées et des pratiques discriminatoires. C'est pour cela que la structure patriarcale se caractérise notamment par l'instrumentalisation des femmes aux services des hommes. Cette volonté masculine d'instrumentaliser la femme et les différents mots, pratiques et

domination masculine, l'oppression de la femme et l'appropriation de sa participation par l'homme.

## II. La division socio sexuée du travail : une logique de répartition des tâches.

La division socio-sexuée de travail est l'un des tenants principaux de la domination masculine. Elle s'effectue par deux principes (Ibid. : 763-764) : le principe de séparation qui répartit les travaux en travaux des hommes et travaux des femmes, et le principe hiérarchique qui valorise plus le travail de l'homme (un travail de l'homme vaut plus qu'un travail de femme, même si ce travail se fait de même façon). C'est de cette façon que la participation d'une femme n'aurait aucune valeur s'il n'était pas approprié par l'homme :

*Le travail d'une femme appartenait à son mari ou au « chef de famille », puisque la notion de la famille renvoyait à l'ensemble des individus qui doivent leur travail à un chef (Ibid.: 764). On se retrouvait donc dans le cadre du « mode production » propre au patriarcat (IBID).*

Cette division, se traduit également, par le sous-équipement des femmes et l'appropriation de la technologie par les hommes (Ibid. : 765) : c'est-à-dire que les femmes ne disposent que d'outils rudimentaires tandis que les hommes détiennent des outils et des techniques plus rentables et moins pénibles. A titre d'exemple : la poterie au tour était majoritairement masculine, mais la poterie à la main sans tour, était féminine. De ce point, on peut déduire un rapport entre la technologie et l'exclusion et dire que : c'est l'utilisation des outils qui détermine la participation ou l'exclusion des femmes de certaines activités.

Le travail ou la participation de l'homme se revêtait souvent d'un statut « noble » ; à titre d'exemple : les femmes n'ont accès au travail de bureau qu'avec l'apparition de la machine à écrire, considérée moins noble, puisque les hommes étaient des copistes, en estimant que le travail lié à l'écriture était la plus noble des tâches (BELLE, 1991 :193). Pierre Bourdieu le sociologue français, en parlait aussi dans son fameux livre (Domination masculine) : pour lui, la domination masculine s'étend par un « habitus » donnant aux femmes et aux hommes un rôle prédéterminé. Ainsi, les activités « traditionnellement » féminines, comme la

*sixième jour elle doit mettre sa ceinture et commencer à travailler ».... La fille laborieuse est également valorisée par la société : "la fille à marier " idéale est laborieuse, ce qui se traduit par le substantif « l-heddâqa ». ... à l'inverse, on critique une femme « ghir galsa », littéralement qui « ne fait que rester assise », autrement dit qui est inactive. » (Ibid. :758).*

La femme était donc bien active dans la société du Maroc précolonial, et Meriem RODARY avait donc le mérite de le prouver, et de critiquer historiquement et même anthropologiquement certains discours qui associent la sortie de la femme au marché du travail à la colonisation et la modernisation. En fait la femme avait joué un rôle important dans tous les secteurs de vie sociale et économique et même politique (il y en a plusieurs exemples dans l'histoire du Maroc<sup>1</sup>): elle participait à l'économie familiale comme à l'économie marchande ; elle exerçait également des activités de service, secteur dans lequel elle aurait joué un rôle significatif ; elle avait aussi une place prépondérante dans l'artisanat ; elle était également commerçante et présente au « souk » du Maroc précolonial (Ibid. : 760-761-762).

Si la femme est quasiment absente de processus décisionnel, ceci ne peut en aucun cas, être expliqué par le fait qu'elle ne participe pas à la production économique et de services. La participation de la femme au cycle de production était souvent importante et authentique et ne fut jamais considérée comme une exception ou une nouveauté ou l'un des bienfaits de la colonisation (Ibid.:754). Donc, si la femme est invisible dans la sphère décisionnelle ce n'est pas parce qu'elle n'y s'intéresse plus ou est incapable, mais en raisons de certains mécanismes et structures sociales poussés à l'extrême, qui favorisent la

---

<sup>1</sup> Dans l'histoire de l'occident Islamique, on connaît tous Fatima Elfihrîa qui avait construit en 859 Al Quaraouiyine : l'université la plus ancienne du monde. Il y avait également une autre femme qui s'appelait ZENEB ENNAFZAOUÏA ou Zâinab Tanfzawit en langue Amazigh ; elle était l'une des plus grandes figures féminines du XI<sup>e</sup> siècle au Maghreb. Elle avait joué un grand rôle dans l'histoire du Maghreb médiéval, grâce à ses larges connaissances des affaires politiques. Après avoir été mariée à plusieurs hommes de pouvoir, Zainab devenait, en 1071, non seulement l'épouse, mais également la conseillère perspicace du maître des Almoravides, Yusuf Ibn Tachfine. Elle l'avait considérablement aidé, voire, poussé à conquérir la majeure partie du Maghreb et de l'Espagne. L'historien Ibn Khaldoune disait également à propos de l'étonnante Zaineb: « C'est l'une des plus célèbres femmes du monde de par sa beauté et sa gouvernance ».



données statistiques et étudier le phénomène sur un terrain bien déterminé, on a choisi de l'étudier dans le secteur de l'éducation, où les femmes enseignantes comptaient désormais presque la moitié du corps professoral. Toutefois, leur participation aux conseils d'établissements scolaires ou aux autres activités parascolaires (association professionnelles, engagement syndical...), demeure faible et ne reflète plus leur présence massive au sein de ce secteur. Ainsi, la présente contribution tente alors, de cerner théoriquement et pratiquement, les contraintes et les obstacles de développement des carrières professionnelles féminines, tout en mettant en évidence certains paradoxes et des contradictions qui engendrent la vie professionnelle de la femme.

## **I. Normalité du travail de la femme dans l'imaginaire populaire marocain ;**

Il est évident que la femme jouait depuis toujours un rôle significatif dans la société marocaine, qui lui permet de réaliser de nombreuses tâches. Bien que ces tâches étaient soumises à une logique de divisions en faveur de l'homme, comme on va le voir ultérieurement, généralement, la participation des femmes était souvent importante et leur accès au marché de travail ne fut jamais considéré comme une exception ou une nouveauté, ou l'un des « bienfaits » de la modernité, ou l'un des « faveurs » de la colonisation française du Maroc (RODARY, 2007 :754). En fait, les femmes ne sortaient jamais travailler à la suite de la colonisation, elles l'avaient fait avant, ce qui prouve la continuité historique (Ibid. :780) de la participation des femmes à la production et à l'économie dans la société marocaine.

De nombreux proverbes et expressions populaires et pratiques attestent de l'importance des activités féminine. Meriem RODARY, présente plusieurs exemples du patrimoine culturel, dans son article intitulé « travail des femmes dans le Maroc précolonial » publié dans la revue de Cahier d'Etudes Africaines (2007) :

*« Que dieu vienne en aide aux femmes ! Dès qu'elles ont déjeuné, elles mettent la main au diner ». D dans le Haut Atlas. Ce destin laborieux s'inscrit même (symboliquement) dès les premiers jours de la vie d'une fille, si l'on en croit les paroles de cette accoucheuse traditionnelle "qabla " de Marrakech : « un garçon peut rester assis sept jours, mais une fille, au*

# **Femme et vie professionnelle : pourquoi la femme active ne dispose-t-elle pas d'une égalité de chances en matière de développement de carrière professionnelle? Contradictions et contraintes**



**NAJAH MOHAMED**

CHERCHEUR EN ETUDES DE GENRE  
MAROC

## **Introduction**

Certes, le fait d'être active pour la femme, aussi pour la collectivité, est un atout considérable. Il lui confère plus de liberté, un revenu stable, une autonomie et une participation effective dans la vie des institutions. D'ailleurs, le Maroc a connu au cours des dernières décennies des changements fondamentaux qui ont touché les différentes sphères : économiques, sociales et politiques, de sorte que le nouveau statut des hommes et des femmes, au sein de la communauté, devient plus favorable pour eux et elles. Il les qualifie de jouer des rôles plus actifs et plus efficaces, et de faire montrer leurs potentialités et capacités d'agir et de s'épanouir.

La question de l'accès de la femme au marché de travail est une évidence qui ne devrait plus vraiment faire l'objet de discussions. Les taux de féminisation ont atteint, au cours de ces dernières années des seuils appréciables, surtout dans certains secteurs comme la santé et l'éducation. Mais cette situation ne doit pas, camoufler les vrais problèmes qu'affrontent les femmes actives dans le développement de leur carrière professionnelle. En effet, on constate que la majorité d'entre elles, occupent une place au bas de la hiérarchie professionnelle. Cette surreprésentation quantitative des femmes dans la fonction publique, comme exemple, est confrontée par une faible présence dans les échelons les plus élevés de la hiérarchie administrative et la vie des bureaux. La prise de décision en tant qu'étape importante dans une vraie participation des femmes à la gestion des affaires de la collectivité nationale, demeure de façon principale du ressort des hommes, tant qu'au niveau du ménage qu'à l'échelle des institutions.

Le présent article traitera donc la question suivante : « pourquoi la femme active ne dispose-t-elle pas d'une égalité de chances, à s'investir librement dans sa carrière professionnelle, comme l'hommes, et atteindre des niveaux plus élevés de la hiérarchie professionnelle ? ». Mais vu qu'il est nécessaire de disposer des

# Éditorial

C'est avec un grand plaisir que nous vous présentons, chers lecteurs, le septième numéro de la « Revue de la Recherche en Sciences Humaines et cognitives ». Ce numéro est le fruit des efforts d'une pléiade de chercheurs, d'intellectuels et d'étudiants issus de différents pays arabes : la Libye, la Tunisie, le Soudan et diverses universités marocaines.

Ce numéro se distingue par une grande diversité de sujets abordés. Les études publiées couvrent un large éventail de disciplines des sciences humaines et sociales, allant de l'histoire, de la littérature et des langues, en passant par les sciences de l'éducation, la sociologie, le droit, le droit islamique et les études philosophiques. Cette diversité reflète l'intérêt croissant des chercheurs arabes pour les enjeux de leurs sociétés et contribue à enrichir le débat intellectuel et à favoriser les échanges d'expériences et de connaissances.

Nous tenons à exprimer notre profonde gratitude à tous les chercheurs qui ont contribué à enrichir ce numéro. Leurs articles de grande valeur constituent un apport qualitatif à la bibliothèque arabe et contribuent à faire progresser les connaissances et à approfondir les perspectives dans divers domaines.

La « Revue de la Recherche en Sciences Humaines et cognitives » est une tribune libre d'expression des idées et des opinions. Elle vise à encourager la recherche scientifique et l'innovation dans le domaine des sciences humaines. Nous cherchons, à travers elle, à établir des ponts entre chercheurs et intellectuels arabes, à favoriser les échanges d'expériences et de connaissances, et à contribuer à résoudre les problèmes auxquels nos sociétés sont confrontées.

Nous vous invitons, chers lecteurs, à explorer ce numéro riche en diversité thématique et en études de grande valeur qui contribuent à enrichir le débat intellectuel.

Oujda, Le : 31 octobre 2024

**Rédacteur en chef**  
**Dr. ESSARRAJE Jamal Dine**

# Sommaire

Sommaire .....	2
Éditorial .....	3
Femme et vie professionnelle : pourquoi la femme active ne dispose-t-elle pas d’une égalité de chances en matière de développement de carrière professionnelle? Contradictions et contraintes	
NAJAH Mohamed .....	4
L’impact de l’intelligence artificielle dans le monde littéraire	
NAJAH Samra .....	24

**Tous droits réservés à l'éditeur et à la revue**

Titre : Revue de recherche en sciences humaines et cognitives  
Page Web : [www.crshc.com](http://www.crshc.com)  
E-mail : [contact@crshc.com](mailto:contact@crshc.com)  
Tél/whatsapp : +212 614-024544  
Mise en page : BOURHAOUTA mohamed  
Dépôt légal : 2024PE0032  
ISSN : 3009-5581  
N° de presse : 07/2024  
Imprimerie : Cortoba, Oujda, Maroc  
Copyright : Réservés à l'éditeur et à la revue © 2024



**Le directeur responsable :**  
BOURHAOUTA Mohamed

**Rédacteur en chef :**  
ESSARRAJE Jamal Dine

**Rédacteur  
en chef adjoint :**  
AL ACHAARI Said

**Membres du comité  
de rédaction :**  
AMAADACHOU Farid  
EL BOUZIKI Mohamed  
BOURAOUTA Abdellah  
CHAHIR Ouissam  
KAZZOUT Hicham  
ARDIF Said

مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية  
+o048!+ | 80X88 8Σ +Co00o!ΣI +ΣIHXo!ΣI 8 +U00o!ΣI  
Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives

### Revue de Recherche

■ en Sciences Humaines et Cognitives ■

Dépôt légal : 2024PE0032

ISSN : 3009-5581

N° de presse : 07/2024

whatsapp : +212 6 14 02 45 44

E-mail : rrshc@gmail.com

Page Web : www.crshc.com

Tous droits réservés à l'éditeur et à la revue  
MAROC © 2024

### Les réseaux sociaux de la revue



Tiktok



Youtube



Facebook

### Indexée dans des bases de données internationales





## **Dr. ESARRAJE jamal Dine**

**Éditeur**

Professeur de communication

Faculté des Lettres et Sciences Humaines Oujda - MAROC

●● La revue de recherche en sciences humaines et cognitives est une plate-forme académique dédiée à la publication de recherches et d'études dans les domaines des sciences humaines et des sciences cognitives. Cette revue vise à renforcer notre compréhension de l'esprit humain, des différentes cultures, et de l'impact des facteurs sociaux et psychologiques sur le comportement et la pensée humains. Les domaines d'étude de cette revue couvrent un large éventail de spécialités telles que la psychologie, la sociologie, la linguistique, la philosophie, la littérature, les sciences de la communication, les sciences politiques, l'histoire, ainsi que d'autres domaines des sciences humaines, sociales et cognitives. Cette revue est une source importante pour les chercheurs et les universitaires afin de publier leurs recherches et de partager leurs idées avec la communauté académique mondiale. ●●

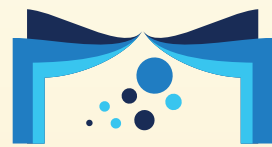
### **Conditions de publication**

- La recherche ne doit pas avoir été publiée auparavant, être actualisée et exacte, et appuyée sur une bibliographie novatrice et à jour ;
- Les communications sont acceptées dans les langues suivantes : Arabe - Amazigh - Français - Anglais ;
- Le nombre de mots de la recherche ne doit pas dépasser (4000 - 6000) mots, et le chercheur joint deux résumés en arabe, ainsi qu'en anglais, et le nombre de mots de l'auteur ne doit pas dépasser (200) mots, et une photo personnelle de l'auteur avec un résumé de son CV ;
- Les manuscrits doivent être soumis en arabe dans Word (Sakkal Majalla) en taille 16 dans le corps, 12 dans la marge et 1,5 dans l'interligne, et en français ou en anglais en police (Calibri Light) en taille 12 dans le texte et 10 dans la marge ;
- Respecter les critères scientifiques et éthiques dans toutes les questions liées à la documentation exacte des sources, des références et des notes de bas de page, qui doivent être fixées séquentiellement au bas de chaque page ;
- Les articles de recherche sont présentés à des répondants ayant des compétences et de l'expérience pour approbation ou non approbation de publication ;
- Les recherches individuelles et partagées sont acceptées.
- Le comité scientifique informe l'auteur de la réception de son travail dès qu'il le reçoit, puis l'informe ultérieurement de la décision du comité scientifique quant à son aptitude à la publication.

**Les auteurs sont seuls responsables des opinions exprimées dans cette revue et de toute infraction à la loi**



# RRSHC

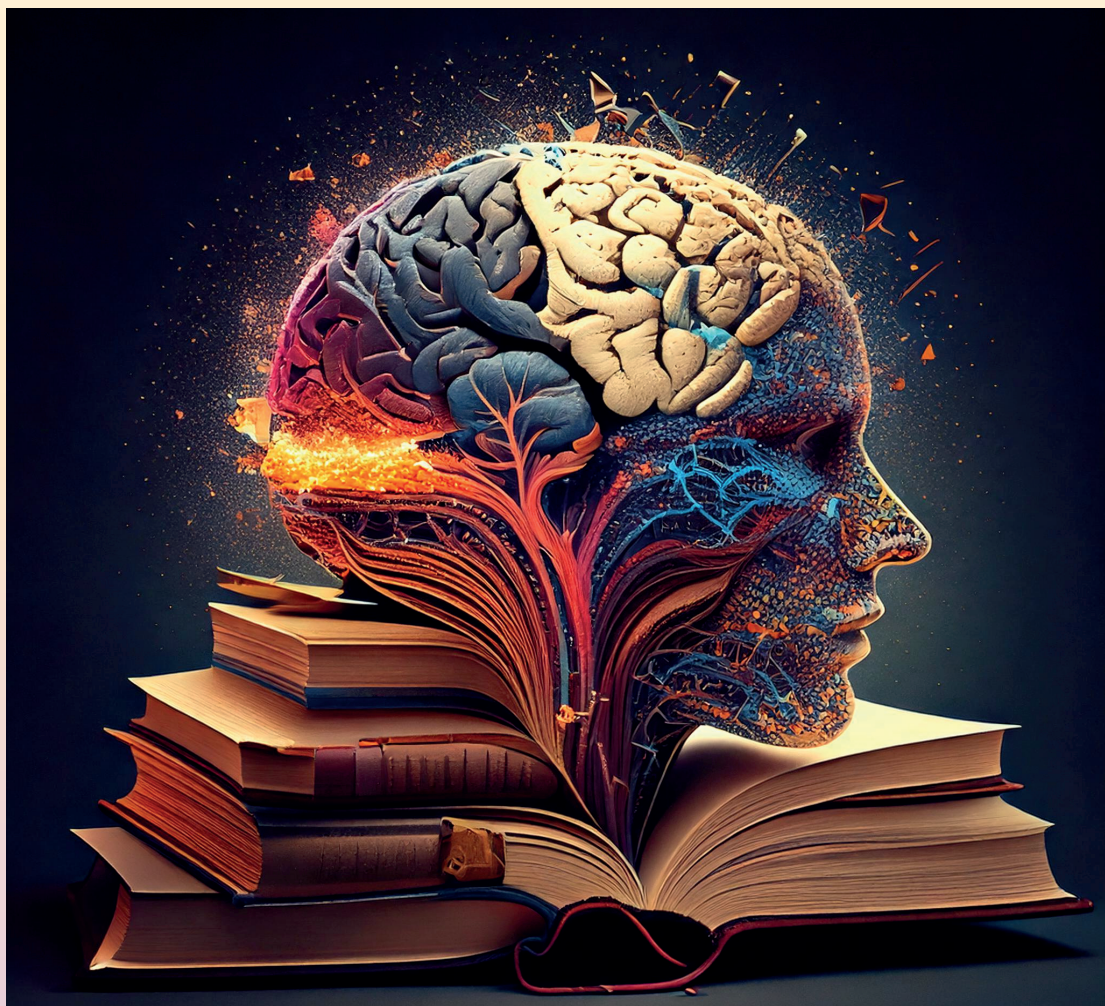


مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

†•04%† | 80ЖЖ% ΛΣ †C•00•ΙΣ† †Σ†ΗΧ•ΙΣ† Λ †Π00•ΙΣ†

Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives

Revue scientifique internationale à comité de lecture et à parution mensuelle



Tome 1, Numéro 7, Première Année - Octobre 2024  
Tous droits réservés à l'éditeur et à la revue

Dépôt Légal

2024PE0032

ISSN

3009-5581

N° de presse

07/2024

E-mail

contact@crshc.com

N° Téléphone

+212 614-024544